

التَّجْنِيسُ لِلْيُوقِيَّاتِ الْعِلَلِ

في شرح

أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَا

تَأَلَّفَ

مَا هِرْمَقَمَ

مَكْتَبَةُ الْأَعْلَاءِ الدِّهَوِيَّ

الْمَكْتُوبَةِ

الْبُرْجَانِيَّةِ الدِّهَوِيَّ

الْمَكْتُوبَةِ

التَّجْنِيسُ لِلْيُوقِيَّاتِ الْعِلَلِ

التَّجَالُوتُ وَالْعِلَّا

في شرح

أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَا

«عرضت هذه الأسماء كلها على المفتي العام للمملكة العربية السعودية سماحة
الشيخ / عبد العزيز آل الشيخ حفظه الله ورعاه فأجازها»

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م



مَكْتَبَةُ الْأَمَامِ الذَّهَبِيِّ لِلنَّشْرِ وَالتَّوْجِيعِ

الكويت، حولي، شارع المثني، مجمع البديري

ت: ٢٢٦٥٧٨٠٦ فاكس: ٢٢٦١٢٠٠٤

فرع حولي: شارع المثني: ٢٢٦١٥٠٤٦، فرع المباركية: ٢٢٤٩٠٦٠٤

فرع الفجيجيل: ٢٥٤٥٦٠٦٩، فرع المصاحف: ٢٢٦٢٩٠٧٨

ص.ب: ١٠٧٥ - الرمز البريدي ٣٢٠١١ الكويت

المملكة العربية السعودية - الرياض: ٠٥٥٧٧٦٥١٣٨

الساخن: ت: ٩٤٤٠٥٥٥٩

E - mail: z.zahby74@yahoo.com

imamzahby

الْبَيْعَاتُ لِلْيَقِينِ الْعَلَاءِ

في شرح

أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتِهِ الْعُلَا

تَأْلِيفُ
مَا هِرْمُفَدَم

مَكْتَبَةُ الْأَمَلِ الدَّهْيِي

الْكُوَيْت

الْبُتْرَانُ الدَّهْيِي

الرِّيَاضُ

قَالَ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ حَفِظَهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ» (١)

اللَّهُ	الرَّبُّ	الرَّحْمَنُ	الرَّحِيمُ	الْحَيُّ	الْقَيُّومُ
الْعَلِيُّ	الْأَعْلَى	الْمُتَعَالَى	الْكَرِيمُ	الْوَدُودُ	الْغَفُورُ
الْعَفَّارُ	الْعَزِيزُ	الْجَمِيلُ	الْقَادِرُ	الْقَدِيرُ	الْمُقْتَدِرُ
الْعَفُو	الْوَاحِدُ	الْأَحَدُ	الْقَرِيبُ	الْمُجِيبُ	الْمَلِكُ
الْمَلِكُ	الْمَالِكُ	الصَّمَدُ	الْحَمِيدُ	الْمَجِيدُ	الْغَنِيُّ
الْحَكِيمُ	الْعَظِيمُ	الْقَوِيُّ	الْمَتِينُ	السَّمِيعُ	الْبَصِيرُ
الْقَاهِرُ	الْقَهَّارُ	الْوَهَّابُ	الْمُتَكَبِّرُ	الْمُؤْمِنُ	الْبَرُّ
الْوَلِيُّ	الْمَوْلَى	الْجَبَّارُ	الرَّؤُوفُ	التَّوَّابُ	الْحَلِيمُ
الشَّهِيدُ	الرَّزَّاقُ	الرَّازِقُ	الْقُدُّوسُ	الْخَالِقُ	الْخَلَّاقُ
الْبَارِئُ	الْمُصَوِّرُ	السَّلَامُ	الْوَاسِعُ	اللطيفُ	الْكَبِيرُ
الشَّاكِرُ	الشَّكُورُ	الْعَلِيمُ	الْحَفِيزُ	الْأَكْرَمُ	الْأَوَّلُ
الْآخِرُ	الظَّاهِرُ	الْبَاطِنُ	الْمُهَيِّمُ	الْحَقُّ	الْمُبِينُ
الْفَتَّاحُ	الْخَبِيرُ	الْوَكِيلُ	الْمُقِيتُ	النَّصِيرُ	الرَّقِيبُ
الْوَارِثُ	الْحَسِيبُ	الْقَابِضُ	الْبَاسِطُ	الْمُقَدِّمُ	الْمُؤَخَّرُ
الْمَنَّانُ	الرَّفِيقُ	الْحَيُّ	الدَّيَّانُ	الْمُحْسِنُ	السَّتِيرُ
السَّيِّدُ	الشَّافِي	الْمُعْطِي	الطَّيِّبُ	الْمُسَعِّرُ	السُّبُّوحُ
	الْحَكَمُ	الْجَوَادُ	الْوَثَرُ	الإلهُ	

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هاديَّ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَّ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد:

فإن خيرَ الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرُّ الأمور محدثاتها، وكلُّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة^(١)، وكل ضلالة في النار^(٢).

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يليق بجلال ربِّنا، وجماله، وعلائه، والحمد لله الذي أسبغ علينا نعمه الظاهرة والباطنة التي نتقلبُ بها في كل أوان وومضة، والتي أجلُّها وأسمأها وأعلاها: أن هدانا دين «الإسلام» القويم، ورزقنا إياه بمحض فضله العميم، من غير حَوْلٍ منا ولا قوَّة.

وأعطانا إياه من غير سؤال ولا وسيلة، وأنعم علينا به بلا سبب ولا حيلة، فيا له من كرم وجود ليس بعده ولا يعدله شيء في الوجود، ويا له من إحسانٍ خصَّنا به وحرَمَ به أكثر الإنس

(١) مسلم (٨٦٧).

(٢) هذه الزيادة أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢١٤/٣)، وصحَّحها الألباني في «صحيح النسائي» (١٤٠٤)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٣/١)، و«صحيح الجامع» (١٣٥٣).

والجنان، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكيناً علينا وثبت الأقدام إن لاقينا^(١)

فتذكر - رعاك الله - هذه النعمة الجزيلة، والعطية الرفيعة في نفسك، وذكر بها أهلك وولدك وأحبائك، واحمده واشكره في كل أحوالك عسى أن يديمها عليك إلى أن يلقاك.

فإن من كان في قلبه أدنى حياة، وطلباً للعلوم النافعة، أو نهمة للعبادة الزاكية، ينبغي أن يكون أعظم شغله، وأجل مقصوده، ونهاية غاياته هو: معرفة أسماء الله الحسنى، وصفاته العلا.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «من كان في قلبه أدنى حياة وطلب للعلم أو نهمة للعبادة أن يكون البحث عن هذا الباب^(٢) والسؤال عنه ومعرفة الحق فيه أكثر مقاصده وأعظم مطالبه، وليست النفوس الصحيحة إلى شيء أشوق منها إلى معرفة هذا الأمر»^(٣).

فإذا أشرقت على القلوب أنوار هذه الأسماء (وما تضمنتها) من صفات اضمحلّ عندها كل نور، ووراء هذا ما لا يخطر بالبال، ولا تناله عبارة^(٤)، وما ذاك - يا رعاك الله - إلا لأنه: أشرف العلوم، وأفضلها، وأعلاها مكانةً، وأجلّها شرفاً، فهو الفقه الأكبر في الدين^(٥)، وأسمى المراتب في كمال الإيمان واليقين، وهو المقصود الأول في قول المصطفى ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(٦). وذلك: "أن العلم يكتسب قيمته ويعلو شرفه بحب المعلوم"^(٧).

ولا أشرف ولا أفضل ولا أجل من ربنا تبارك وتعالى الإله العظيم، فالعلم به أشرف من كل علم، بما له من الأسماء الحسنى وأوصاف العلا، التي جاءت في الآيات البينات، وفي سنة خير البريات.

(١) البخاري (٣٠٣٤) (٤١٠٦)، ومسلم (١٨٠٣).

(٢) أي: باب الأسماء والصفات.

(٣) «الفتوى الحموية» (١٨٣).

(٤) «الصواعق المرسلة» (١٦١/١).

(٥) كما سَمَّى أبو حنيفة كتابه «الفقه الأكبر».

(٦) البخاري (٧١).

(٧) «النبوات» لابن تيمية (٣٨٢/١).

فما أطيب العيش وما أجل الحياة، والتي والله هي الحياة الحقيقية التي تكون مع الله تبارك وتعالى التي لا أنها ولا أسر ولا أجمل منها، "ومن فقد هذه الحياة فقد خسر كلَّه، ولو تعوَّض عنها بما تعوَّض من الدنيا، بل ليست الدنيا بأجمعها عوضاً عن هذه الحياة، فمن كلِّ شيء يفوت عَوْض، وإذا فاتهُ الله، لم يُعوَّض عنه بشيء البتة" (١).

والعجب كلُّ العجب يا عبد الله من حال أكثر الناس، فهم عن هذا النعيم غافلون، فـ"كيف ينقضي الزمان، وينفذ العمر، والقلب محبوبٌ ما شَمَّ لهذا رائحة، وخرج من الدنيا كما دخل إليها، وما ذاق أطيب ما فيها، بل عاش فيها عيش البهائم، وانتقل منها انتقال المفاليس، فكانت حياته عجزاً، وموته كمداً، ومعاذه حسرةً، وأسفاً" (٢).

فمن لم يذُقْ والله هذا المذاق النعيم الصافي الخالص في هذه الدار، فقد حُرِمَ أطيب وألذ ما فيها، كما قال بعض السلف: "مساكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: معرفة الله تعالى ومحَبَّته والأنس بقربه والشوق إلى لقائه" (٣)، وليس في الدنيا نعيم يشبه نعيم أهل الجنة إلا هذا (٤).

لأنه "ليس للقلب والروح ألذ ولا أطيب ولا أحلى ولا أنعم إلا بأن تعرف ربَّها ومعبودها وفطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله، ويكون أحبَّ إليها مما سواه، ويكون سعيها في ما يُقربها إليه ويُدينها من مرضاته" (٥).

لأن من عرف الله تعالى أحَبَّه، (و) على قدر معرفته به ازداد حُبُّه وروحه وشوقه وسروره" (٦).

ولهذا فإن "أعرف الخلق بالله تعالى أشدُّهم حُباً له" (٧)، فلو شهد (العبد) بقلبه صفةً واحدةً من أوصاف كماله، لاستدعت منه المحبة التامة عليها (٨)، فكيف بباقي صفاته التي لا تُحَدُّ ولا

(١) «الجواب الكافي» (١٣٣).

(٢) «طريق الهجرتين» (٣٨٥).

(٣) «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» (١٨٠).

(٤) «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (٣١).

(٥) «روضة المحبين» (١٨٠)، و«الصواعق المرسلّة» (١٥٠/١).

(٦) انظر: «مدارج السالكين» (٣٣٩/٣).

(٧) «مفتاح دار السعادة» (٨٧/١).

(٨) «طريق الهجرتين» (٤٧٠).

تُعَدُّ ولا تُحصى؟!

"ويا فوزك ويا سعادتك إن اطلع سبحانه على ذلك من قلبك ، ماذا يفيض عليك من ملابس نعمه ، وخلق أفضاله" (١).

فإذا كان معرفة ومحبة أسماء الله الحسنى وصفاته العلا "هذا شأنه: حقيق بأن تنعقد عليه الخناصر، ويُعضَّ عليه بالنواجذ، ويُقبض فيه على الجمر، ولا يؤخذ بأطراف الأنامل، ولا يُطلب على فضله، بل يُجعل هو المطلب الأعظم، وما سواه إنما يطلب على الفضلة، والله الموفق، لا إله غيره، ولا ربَّ سواه" (٢).

وها أنا يا عبد الله أضع بين يديك كتاباً قد جمعتُ فيه ما أسلفتُ لك من أهميته، وقد سمَّيته: «التعاليق العلا في شرح أسماء الله الحسنى وصفات العلا»، وقد قسمته إلى قسمين:

القسم الأول: في شرح الأسماء الحسنى، وقد بدأتُ فيه بمقدمة، ثم عرَّجتُ إلى ذكر أهمية الأسماء الحسنى والصفات العليا، ثم ذكر مباحث مهمة قبل شرح الأسماء، ثم ختمتها بوصية عزيزة.

ثم بدأت بشرح الأسماء الحسنى بدأً بأصل الأسماء وأعلاها وأجمع لمعانيها، اسم الجلالة (الله)، ثم أتبعته بشرح تسعة وتسعين اسماً لربنا الجليل.

وكانت طريقة الشرح: البدء (١) بذكر الدليل للاسم (٢) ثم المعنى اللغوي (٣) ثم المعنى الشرعي (٤) ثم جلاله (٥) ثم ثمراته.

أما ذكر الدليل للاسم: فأذكر دليلاً واحداً، فإن كان جاء في القرآن والسنة اكتفيت بما في القرآن الكريم.

وأما المعنى اللغوي: فأذكر المعاني اللغوية الدالة عليه، ولا أتطرق للمعاني الأخرى.

وأما المعنى الشرعي: فأذكر المعاني مرقمةً حتى يسهل استحضارها وفهمها في الذهن.

وكذلك الجلال: ذكرتُ مفرداته مرقمةً كما في سابقتها.

(١) «طريق الهجرتين» (٥٥).

(٢) المصدر السابق (٥٣٥).

وأما الثمرات: فأذكر الثمرات العامة للاسم، والثمرات الخاصة له.

والقسم الثاني من الصفات سأذكر هناك خطَّ البحث.

ولا أزعَم أنَّ لي قدم سبق في هذا الموضوع الجلل، بل أعترف بقصوري وقِلَّة بضاعتي فيه، بل ما أنا إلا قد جمعت اللاكئ المنثورة في كتاب ربنا الحكيم وسُنَّة نبينا الصادق الأمين، وأئمة الهدى المكنونة في بطون كتبهم، ثم وضعتها في هذا الكتاب، فالفضل لله أولاً وآخرًا ثم لرسوله ﷺ، ثم لهؤلاء العلماء.

وأخيرًا، أسأل الله ربَّ العالمين أن يتقبَّل مني ما سطرته، وأن يعفو ويتجاوزَ عن كلِّ زلَّة، وقعت فيه يوم لقائه، فهو العفوُّ الكريم الأكرم الذي لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

وأسأله سبحانه وتعالى أن يجزي الخير العميم لكل من قرأه وتذاكره، ونشره من المسلمين إلى يوم الدين، اللهم آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه

ماهر بن عبد الحميد بن مقدم

عفا الله عنه وعن والديه وجميع المسلمين

٩ رجب ١٤٣٩

الموافق ٢٥/٣/٢٠١٨

أهمية معرفة أسماء الله الحسنى وصفاته العلا

إن العلم بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى والتفقه فيهما: أشرف ما صُرِفَتْ فيه الأنفاس، وكَدَّ في تحصيله والاشتغال في طلبه الناس، وهذا الأصل العظيم: هو أَجَلُ المطالب، وأنجح الرغائب، نيل العبد له وظفره به أشرف المواهب^(١)، كيف لا وهو يتعلق بربِّ الأرض والسماء.

✽ الأول: أنه هو أشرف العلوم وأفضلها وجامعها وأكملها على الإطلاق:

إن شرف العلم تابعٌ لشرف معلومه وشدة الحاجة إليه، والباري أشرف المعلومات^(٢)، لأنه لا ريب أنه أَجَلُ معلوم وأعظمه وأكبره، فهو الله الذي لا إله إلا هو رب العالمين، ولا ريب أن العلم به وبأسمائه وصفاته وأفعاله أَجَلُ العلوم وأفضلها، ونسبته إلى سائر العلوم كنسبة معلومه إلى سائر المعلوم^(٣).

قال العلامة ابن سعدي رحمه الله: "وهذا العلم - وهو العلم المتعلق بالله تعالى - أشرف العلوم وأجلُّها وأفضلها وأكملها على الإطلاق، وبه تستقيم القلوب على العقائد الصحيحة، وبه تزكو الأخلاق وتنمو، وبه تصحُّ الأعمال وتكمل، فلا تشتغل بفهمه والبحث التام عنه اشتغال بأعلى المطالب، وحصوله للعبد من أشرف المواهب"^(٤).

ولهذا بيَّنه تعالى في كتبه بما أنزله على رسله غاية البيان، ولذا لم ينقل عن أصحاب النبي ﷺ أنهم اختلفوا فيه كما اختلفوا في مسائل الأحكام.

✽ الثاني: أنها أعظم أصول التوحيد التي أوجبها تعالى على العبيد:

بل لا يقوم ولا يتمُّ التوحيد ولا يكمل حتى ينبني على هذا الأصل الجليل، وبيان ذلك:

(١) انظر: «جهود الإمام ابن قيم الجوزية في تقرير توحيد الأسماء والصفات» أ.د. وليد العلي رحمه الله (١١٣، ١١٧).

(٢) انظر: «أحكام القرآن» لابن العربي (٣/٣٣٨)، و«الفوائد» لابن القيم (٩٧).

(٣) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (٨٦/١).

(٤) «فتح الرحيم الملك» (٧)، وانظر: مقدمة تفسيره (٣٥).

أنَّ توحيد الله تعالى ينقسم إلى ثلاثة أقسام^(١):

١ - توحيد الربوبية ، ٢ - توحيد الألوهية ، ٣ - توحيد الأسماء والصفات .

وهذه الأنواع الثلاثة هي روح الإيمان وروحه ، وأصله وغايته^(٢) ، وتوحيد الأسماء والصفات شامل للنوعين ، ، يعني : الربوبية والألوهية .

وذلك : أنَّ توحيد الربوبية هو : إفراد الله بأفعاله ، فهو يقوم على إفراد الله بكل ما له من الأسماء الحسنى والصفات العليا التي لا ينبغي إلا له ، ومن جملتها كونه رباً واحداً لا شريك له في ربوبيته ، (ومن الأسماء المتضمنة لذلك : الرب ، القيوم ، الرزاق ، الرازق ، الخالق ، الخلاق ، البارئ ، المصور ، المقدم ، المؤخر ، المسعر ...) وغير ذلك .

وتوحيد الألوهية : كونه إلهاً واحداً لا شريك له في إلهيته^(٣) ، ومن الأسماء المتضمنة لهذا التوحيد : الله ، الإله ، الواحد ، الأحد ، الصمد ، الوتر ، الأول ، الآخر ، السبوح ، القدوس ... وغيرها من الأسماء ، والله أعلم .

❖ الثالث : من عرف الله تعالى فقد عرف كل شيء ، ومن فاته فقد خسر كل شيء :

إن معرفة ربنا العظيم أصل وأعرف المعارف من كل وجه ، "والعلم به هو أصل كل علم"^(٤) .

وذلك : أنَّ كل ذرة في هذا الوجود من موجود فهي مخلوق لله تعالى ، فهو الذي أوجده وكونه بعد أن لم يكن ، وهذا من مقتضى أسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، لأنه تعالى هو : الخالق ، البارئ ، فاطر وبيد السموات والأرض ...

(١) قال العلامة ابن عثيمين رحمه الله : «اعلم أنَّ العلماء رحمهم الله قسموا التوحيد إلى ثلاثة أقسام : «فذكر الأنواع الثلاثة» فقد قسموه على هذا التقسيم بناءً على التتبع والاستقراء ...» «شرح عقيدة أهل السنة والجماعة» (١٥) ، وقال الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله : «وهذا التقسيم الاستقرائي لدى متقدمي علماء السلف أشار إليه ابن منده وابن جرير والطبري وغيرهما وقرره شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ، وقرره الزبيدي في تاج العروس ... ، وهو استقراء تام لنصوص الشرع ، وهو مطرد لدى كل أهل فن ، كما في استقراء النحاة كلام العرب إلى (اسم ، فعل ، حرف) . «التحذير من مختصرات الصابوني» (٣٠) .

(٢) «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان» للسعدي (٦٥) .

(٣) انظر : «الكواشف الجلية عن معاني الواسطية» للشيخ عبد العزيز السلطان (٤٢٢) .

(٤) «الرد على المنطقيين» (١٣١/١) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله: "إن كل ما يُعلم ويُقال يدخل في معرفة الله، إذ لا موجود إلا وهو خالقه، وكل ما في المخلوقات من الصفات، والأسماء، والأقدار، والأفعال، شواهد على ما لله سبحانه من الأسماء الحسنى والصفات العلا" (١).

وقال رحمته الله: "إن معرفة الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته هو أصل الدين، وأساس الهداية، وأفضل وأوجب ما اكتسبته القلوب، وحصلته النفوس، وأدركته العقول" (٢).

والمقصود: أن معرفة ربنا الجليل هي أصل لكل علم ولكل حقيقة، وهو أصل العبد بسعادته وكماله ومصالح دنياه وآخرته، والجهل به مستلزم للجهل بنفسه ومصالحها وكمالها، فمن عرفه تعالى عرف ما سواه، ومن جهل به فهو لما سواه أجهل (٣).

ومن لم يعرف الله سبحانه فقد فاز بالحرمان، ورضي لنفسه بغاية الخسران (٤).

وأي شيء عرف من لم يعرف الله ورسوله؟ وأي حقيقة أدرك من فاتته هذه الحقيقة، وأي علم أو عمل حصل لمن فاتته العلم بالله والعمل بمرضاته، ومعرفة الطريق الموصلة إليه، وما له بعد الوصول إليه (٥)؟.

وبالجملة: «إذا فاتته الله لم يعوّض عنه شيء البتة» (٦).

✽ الرابع: أنها أعظم الأسباب الموصلة إلى أعلى الغايات وهي الجنات:

قال رحمته الله: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة» (٧).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان رجلٌ من الأنصار يؤمُّهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ لهم في الصلاة يقرأ بها، فافتتح بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يفرغ منها، ثم يقرأ بسورة معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلّمه أصحابه فقالوا: إنك تقرأ بهذه السورة، ثم لا

(١) «مجموع الفتاوى» (٥٦٩/٧).

(٢) المصدر السابق (٦/٥).

(٣) انظر: «مفتاح دار السعادة» (٨٦/١).

(٤) «مدارج السالكين» (٩٨/٣).

(٥) «هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى» (٥٩١).

(٦) «الداء والدواء» (١٣٢).

(٧) البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

ترى أنها تُجزئك حتى تقرأ سورة أخرى ، قال: ما أنا بتاركها ، إن أحببتكم أن أوْثِّمكم بها فعلت ، وإن كرهتم تركتكم ، وكانوا يرونه أفضلهم ، وكرهوا أن يؤمَّهم غيره ، فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر ، فقال: «يا فلان! ما يمنعك ممَّا يأمر به أصحابك ، وما يحملك أن تقرأ هذه السورة في كل ركعة؟» فقال: يا رسول الله! إني أحبها ، فقال ﷺ: «إِنَّ حُبَّهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ»^(١).

وعن أنس رضي الله عنه: أن رجلاً قال: يا رسول الله! إني أحب هذه السورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال: «إِنَّ حُبَّكَ إِيَّاهَا يَدْخُلُكَ الْجَنَّةَ»^(٢).

✽ الخامس: أن محبتها تقتضي أعظم المحاب على الإطلاق ، وهي: محبة الله ﷻ:

إن ربنا جل جلاله يحبُّ أسماءه وصفاته ، ويحبُّ من عباده الذين يحبونها ، فمن أحبها جازاهم بمحبته العظمى التي لا مثيل لها جزاءً وفاقاً.

عن عبد الله بن حبشي الخنعمي قال: قلت: يا رسول الله! أيُّ الأعمال أحبُّ إلى الله؟ قال: «إِيْمَانٌ بِاللَّهِ...» الحديث^(٣).

وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَسَمٌ بَيْنَكُمْ أَخْلَاقَكُمْ كَمَا قَسَمَ بَيْنَكُمْ أَرْزَاقَكُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَعْطِي الْمَالَ مَنْ أَحَبَّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ ، وَلَا يَعْطِي الْإِيْمَانَ إِلَّا مَنْ يُحِبُّ...»^(٤) ، والإيمان بالله يتضمن: (١) الإيمان بوجوده ، (٢) الإيمان بربوبيته ، (٣) الإيمان بألوهيته ، (٤) الإيمان بأسمائه وصفاته .

وعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية ، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟» فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن ، وأنا أحبُّ أن أقرأ بها ، فقال ﷺ: «أخبروه أن الله يُحِبُّهُ»^(٥).

(١) «صحيح الترمذي» (٢٩٠١).

(٢) المصدر السابق.

(٣) «صحيح الجامع» (١٦٦).

(٤) «صحيح الأدب المفرد» (٢٧٥) ، و«السلسلة الصحيحة» (٢٧١٤).

(٥) البخاري (٧٣٧٥) ، ومسلم (٨١٣).

❖ السادس: أنها أصل في خشية الله تعالى^(١):

إن العلم بالله سبحانه يورث في القلب الخشية والتي تحجب القلب والأركان عن العصيان ، وكفى بها من ثمرة ، ولهذا كان العلماء الربانيون هم أخشى الناس لله سبحانه ، ولهذا أنشئ عليهم بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] .

قال حبر الأمة وترجمان القرآن ابن عباس ؓ: "قال: الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير" (٢).

وقال ؓ: «يريد: إنما يخافني من خلقي من علم جبروتي ، وعزتي ، وسلطاني» (٣) ، وهذا من كمال فقهه .

قال ابن كثير ؓ: "أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم العليم الموصوف بصفات الكمال ، المنعوت بالأسماء الحسنی ، كلما كانت المعرفة به أتم ، والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر" (٤).

وبهذا يعلم: أنه على قدر الإيمان تكون الخشية والخوف من الرحمن ، قال ابن السعدي ؓ: "فكل من كان بالله تعالى أعلم ، كان أكثر له خشية ، وأوجب له خشية الله ، والانفكاك عن المعاصي والاستعداد للقاء من يخشاه" (٥).

ولمّا كان رسول الله ﷺ هو أعلم الناس بالله تعالى ، كان هو أشدهم خشية لله تعالى ، قال ﷺ: «فوالله لأنني أعلمهم بالله وأشدهم له خشية» (٦).

❖ السابع: أنها ذروة سنام العبودية:

إن معرفة أسماء الله تعالى وصفاته والتعبد بمقتضاها أعظم سبيل لتحقيق أعظم وأجلّ مقامات العبودية لله تعالى والتي منها: محبته ، وإعظامه ، وإجلاله ، ومهابته ، وخشيته ، والتوكل

(١) «شرح العقيدة السفارينية» لابن عثيمين (١٩).

(٢) «التفسير الصحيح» أ.د. حكمت بشير ياسين (١٧٢/٤).

(٣) «تفسير البغوي» (٤١٩/٦).

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٧٤٧/٣).

(٥) «تيسير الكريم المنان» (٦٨٩).

(٦) البخاري (٢٧٦) ، ومسلم (٢٣٥٦).

عليه ، والرضى بقضائه وغيرها ، فلا يزال يتنقل في منازل العبودية حتى يصل إلى سنامها .

قال ابن رجب رحمه الله : " معرفة الله وما يستحق من الأسماء الحسنی والصفات العلا ، والأفعال الباهرة... ، يستلزم : إجلاله ، وإعظامه ، وخشيته ، ومهابته ، ومحبته ، ورجاءه ، والتوكل عليه ، والرضى بقضائه ، والصبر على بلائه " (١) .

وقال سلطان العلماء العز بن عبد السلام رحمه الله : " فهم معاني أسماء الله تعالى وسيلة إلى معاملته بثمراتها من الخوف ، والرجاء ، والمهابة ، والمحبة ، والتوكل ، وغير ذلك من ثمرات معرفة الصفات " (٢) .

* الثامن : أنها أعظم السبل لنيل أعلى الأوصاف وأجمل الخصال :

لقد جاء ديننا الحنيف من رب العالمين لتربية أهله على أحسن الخلال ليحيوا الحياة الطيبة الدنيوية والسرمدية الآخروية ، وقد تنوّعت بذلك الطرائق ، والتي أسماها وأعلاها وأكملها على الإطلاق : التعبد والتحلي بأسماء الله الحسان ، وصفاته الجلال . وبيان ذلك :

أن ربنا الجليل قد تسمّى بأحسن الأسماء وأكملها ، واتصف بأعلى الأوصاف والنعوت على التمام ، وتنزّه عن كل النقائص والمذام ، وأحبّ الخلق إليه سبحانه ؛ من اتّصف بمقتضيات هذه الأسماء والصفات ، وأبغضهم من اتصف بأضدادها (٣) .

قال المناوي رحمه الله : " وسرّ ذلك : أنه تعالى كامل في أسمائه وصفاته ، فله الكمال المطلق من كل وجه ، ويحبّ أسماء وصفاته ، ويحب ظهور آثارها في خلقه ، فإنه من لوازم كماله " (٤) .

وبذلك ينبغي أن يعلم : أن العبد كلما ازداد عبودية بمقتضياتها كان أكمل أوصافاً وخلالاً ، وبذلك يزداد كمالاً وعلوّاً بين الخلائق .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : " فإن أولياء الله تعالى يوافقونه فيما يأمر به فيفعلونه ، وفيما يحبه فيحبونه ، وفيما نهى عنه فيتركونه ، وفيما يعطيه فيصيبونه ، فإن من يحب صفات الكمال

(١) «فضل علم السلف على الخلف» (٧) .

(٢) «شجرة المعارف» (١٢٧) .

(٣) سيأتي في ذكر «مجة الله سبحانه من اتصف بمقتضيات أسمائه وصفاته» مزيد من البيان والتفصيل .

(٤) «فيض القدير» (٢٢٤/٢) .

أكمل ممن لا فرق عنده بين صفات النقص والكمال ، أو لا يحب صفات الكمال" (١).

فهو سبحانه (عفو): يحب العفو ، (محسن): يحب المحسنين ، (صبور): يحب الصابرين ، (رفيق): يحب الرفقاء ...

✽ التاسع: أنها أعظم النعيم واللذة في الدنيا والآخرة:

إن مطالعة أسماء الله وصفاته هي أعظم النعيم في الدنيا ، فإن القلب يشرب بها الكأس المعين الزلال من السعادة والهنى وريحان الأمن والأمان ، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] ، وذكره يكون: بالثناء عليه بها . وقال عز شأنه: ﴿قُلْ يُفَضِّلُ اللَّهُ وَرَحْمَتُهُ فِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨] .

والمقصود هنا: «القرآن ، الذي هو أعظم نعمة ومنة ، وفضل تفضل الله به على عباده» (٢) .
والقرآن: صفة من صفاته تعالى الكلامية ، الذي احتوى جله على أسمائه ، وصفاته ، وأفعاله .
قال ابن القيم رحمه الله: " فلا يزال القلب في أعظم القلق والاضطراب في هذا الباب ، حتى يخالط الإيمان بأسماء الرب تعالى وصفاته وتوحيده وعلوه على عرشه ، وتكلمه بالوحي: بشاشة قلبه ، فينزل ذلك عليه نزول الماء الزلال على القلب الملتهب بالعطش ، فيطمئن إليه ويسكن إليه ويفرح به ، ويلين له قلبه ومفاصله ... " (٣) .

ويقول رحمه الله: " لا حياة للقلوب ولا نعيم ، ولا لذة ، ولا سرور ، ولا أمان ، ولا طمأنينة ، إلا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ... " (٤) .

ويبقى هذا النعيم ملازمًا للعبد في الجنان والأركان أينما كان عند مضجعه ، وفي قلبه ، وسكناته ، فعند ذلك لا تسأل عن هذا النعيم وتلكم اللذة ، والتي والله "إن مثقال ذرة من هذه اللذة لا يعدل بأمثال الجبال من لذات الدنيا ... " (٥) .

(١) «مجموع الفتاوى» (١١٤/٦) .

(٢) «تفسير السعدي» (٣٦٧) .

(٣) «الروح» (٤٩٦) .

(٤) «الصواعق المرسله» (١٥٠/١) .

(٥) «طريق الهجرتين» (٣٧٦) .

وكما يكون هذا النعيم في الدنيا، فإنه في الآخرة يكون أسمى وأتم وأكمل من أي نعيم، قال تعالى: ﴿وَجُودٌ بِوَمَدٍ تَأْصُرُهُ﴾ ﴿٢٣﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ ﴿٢٢﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣].

وقال سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقد فسر النبي ﷺ: «الزيادة» بالنظر إلى وجهه ﷺ^(١).

"فابتهاج القلب وسروره وفرحه بالله وأسمائه وصفاته وكلامه ورسوله ولقائه: أفضل ما يعطاه، بل هو جلُّ عطاياه، والفرح في الآخرة بالله ولقائه بحسب الفرح به ومحبتة في الدنيا"^(٢).

✽ العاشر: أنها ترقِّي العبد إلى أعلى درجات الدين: وهو «الإحسان»:

إن درجة الإحسان هي أعلى درجات الدين، كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٣).

ولما كانت أسماء ربنا وصفاته هي أعلى المعارف والعلوم على الإطلاق، اقتضت وأوجبت أشرف منازل الإيمان واليقين؛ لأن العلم قرينٌ للعمل، وهو مبدؤه ومنتهاه، وقد قيل: "العلم: شجرة، والعمل: ثمرة"^(٤).

"والإحسان: وهو مشهد المراقبة، وهذا المشهد إنما ينشأ من كمال الإيمان بالله، وأسمائه وصفاته حتى كأنه يرى الله سبحانه فوق سماواته، مستويًا على عرشه، يتكلم بأمره ونهيهِ..."^(٥).

قال تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، وقال عز شأنه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات.

فالمراقبة: دوام علم العبد ويقينه باطلاع الحق سبحانه على ظاهره وباطنه، فاستدامته لهذا العلم واليقين: هي المراقبة، وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه، رقيب عليه، ناظرٌ إليه، سامعٌ

(١) صحيح مسلم (١٨١)، وسيأتي عند صفة (الوجه) و(الرؤية) ذكر الروايات وتخريجها.

(٢) «الروح» (٥٥٣).

(٣) البخاري (٥٠)، ومسلم (٨، ٩).

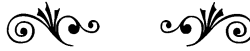
(٤) «حلية الأولياء» (٢٤٠/٨).

(٥) «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (٣٩).

لقوله ، وهو مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة وكل نفس وكل طرفة عين... ، وأرباب الطريق مجمعون على: أنَّ مراقبة الله تعالى في الخواطر سببٌ لحفظها في حركات الظواهر ، فمن راقب الله في سرّه: حفظه الله في حركاته وسره وعلايته .

والمراقبة: هي التعبد باسمه الرقيب ، الحفيظ ، العليم ، السميع ، البصير ، (الشهيد) ، فمن عقل هذه الأسماء وتعبد بمقتضاها: حصلت له المراقبة ، والله أعلم^(١) .

هذا بعض اليسير اليسير من ذكر أهمية وفوائد أسماء الله وصفاته ، والأمر أكبر من أن يُحصى في ذلك ، وأنى يُحصى من أحدٍ من البشر عامة ومن أمثالي خاصة^(٢) .
والله تعالى أعلى وأحكم .



(١) «مدارج السالكين» (٦٧/٢ - ٦٩) .

(٢) للاستزادة في هذا الموضوع ينظر: «جهود ابن القيم في تقرير توحيد الأسماء والصفات» أ.د. وليد العلي ، و«الأسماء والصفات» آثارها الإيمانية والسلوكية» أكاديمية أسس الأبحاث والعلوم ، و«تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات» د. فوز بن عبد اللطيف الكردي ، و«آثار أسماء الله الحسنی والصفات الإلهية في الكون والإنسان» ، محمد شلبي محمد ، وغيرها الكثير .

حُسن أسماء الله سبحانه

وصف ربُّنا ﷺ أسماء بأنها حُسنى في أربعة مواضع من القرآن الكريم^(١)، فقال عزَّ شأنه: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقوله جل ثناؤه: (حُسنى)، على وزن (فُعلَى)، تأنيث أفعل التفضيل، معرفة باللام، وهو: جمع الأحسن، لا جمع الحسن، فجمعه حسان وحسنة، وكم بين الحسن والأحسن من التفاوت العظيم، عقلاً وشرعاً، ولغةً وعُرفاً، والمعنى: أنها بالغة في الحسن غاية، وفي الكمال نهايته، فأسماء ربنا ﷺ هي أحسن الأسماء، فليس من الأسماء أحسن منها بوجه من الوجوه، فهي أكمل ما يكون من الحسن، بل لها الحسن الكامل التام المطلق^(٢)، لدالتها على أحسن مسمًى، وأشرف مدلول، فمن حسن أسمائه سبحانه:

الأول: أنها قد دلَّت على أعظم، وأجل، وأقدس مسمى على الإطلاق، وهو: الله ﷻ^(٣).

إذ إن حُسنها شرف العلم بها، فإن شرف العلم إنما هو بشرف المعلوم، والله سبحانه أشرف الموجودات "فالاسم إنما يحسن لحسن مسمّاه"^(٤).

الثاني: أنها تقتضي المدح والثناء بنفسها، فأسماءه سبحانه كلها: أسماء مدح، وحمد، وثناء، وتمجيد، وتوحيد.

الثالث: أنها لا تدلُّ إلا على المعاني الحسنة البديعة، فليس فيها اسم لا يدلُّ على المدح، والحمد بوجه من الوجوه.

الرابع: أنها تتضمن أفضل الأوصاف، وأحسن المعاني وأشرفها، لا نقص فيها بوجه من الوجوه، لا احتمالاً، ولا تقديرًا، فهي دالةٌ على كمال صفاته، وهي مشتقة منها، فهي أسماء

(١) إضافة إلى الأعراف، سورة الإسراء (١١٠)، وسورة طه (٨)، وسورة الحشر (٢٤).

(٢) ينظر: «العواصم من القواصم» لابن الوزير (٢٢٨/٧)، و«الصواعق المرسلة» لابن القيم (١٤٤٣/٤) و«شرح القواعد المثلى» لابن عثيمين (٢٧ - ٢٨).

(٣) انظر: «فتح البيان في مقاصد القرآن» لحسن صديق خان (٦٢٠/٢)، و«الأسئلة والأجوبة الأصولية» للسلمان (٢٦).

(٤) «البحر المحيط في التفسير» (٩٩/٥).

وأوصاف ، وهي ألفاظ ذات معانٍ جلال وجمال .

الخامس: أنها ليست أعلامًا محضةً ، مجردة عن المعاني والمدلولات ، وإنما هي : أسماء ، وأوصاف ، ونعوت .

السادس: أن أسماء ربنا الحسنى هي: أحسن الأسماء وأكملها ، فليس في الأسماء أحسن منها ، ولا يقوم غيرها مقامها ، ولا يؤدي معناها ، وتفسير الاسم منها بغيره ، ليس تفسيرًا بمرادف محض ، بل هو على سبيل التقريب والتفهم ، فلا يمكن لكل الخلق من أولهم وآخرهم أن تتصور وتحيط بمعنى واحد من معاني تلك الأوصاف الكمال والجلال ، فكيف بباقي أسمائه ، ولهذا فإن أسماء سبحانه كلها أسماء مدح ، وثناء ، وتمجيد .

السابع: ومن حسننها: أنه ليس فيها اسم يتضمن السوء ، أو الشر ، أو شائبة عيب ، أو نقص ، أو ذمٍّ بوجه من الوجوه ، كما قال ﷺ: «والخير بيديك ، والشرُّ ليس إليك»^(١) .

الثامن: ومن أوجه حسننها: كثرة عددها ، حتى عجز العالمون عن الإحاطة بأفرادها ، فلا الأنبياء ، ولا الملائكة يُحصون عددها ، فهي لا تُعدُّ ولا تُحَدُّ من كثرتها ، فلا يحصي عددها إلا هو ﷻ .

التاسع: أن الله يحبُّها ويحبُّ من يحبُّها ، ويحبُّ من يحفظها ، ويحبُّ من يبحث عن معانيها ، ويحبُّ من عباده أن يدعوه ويسألوه بها ؛ لأنها وسيلةٌ مقربةٌ إليه .

العاشر: ومن حسننها: لما فيها من العلوِّ ، والتعظيم ، والتقديس ، والتطهير ، فكلُّ أمرٍ مُعَظَّمٍ يُسمَّى به تعالى ، فأسماء ربنا وُصفت بالحُسنى لما دلَّت عليه من تعظيم الله ، وتمجيده ، وإجلاله في القيام بحسن عبوديته من الدعاء بها: دعاء عبادة ، ودعاء مسألة .

الحادي عشر: أن وصفها بالحسنى: ما وعد فيها من الثواب الحسن عند الذكر للعبد ، وجزيل العطاء عند التوسل بالدعاء ، ولهذا جعل الشارع الحكيم لمحصيها من الأجر العظيم وهو: دخول جنات النعيم: «من أحصاها دخل الجنة» .

الثاني عشر: ثباتها ، ودوامها ، فهي لا تتغير ، ولا تبدل ، ولا تزول ، ولا تنقص ، ولا تنعدم ،

كما يكون في صفات الخليفة ، قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣] ، وقال ﷺ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] .

فقوله سبحانه: (هو الأول): دالٌّ على الثبات وعدم النقص والزوال ، و(الآخر): الذي لا شيء بعده ، دلٌّ على الدوام ، و(الظاهر): فهو الذي علا على كل الخلق وهو يدلُّ على الدوام حتى نزوله كل ليلة إلى السماء الدنيا ، فهو الظاهر العلي الذي لا يكون إلا كذلك في كلِّ زمان .

ومن حيث كان قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ ، دالاً على مخالفة صفاته صفات المخلوقين ، وكذلك صفاتهم تتغير ، دلٌّ ذلك على أن صفاته ثابتة ، والأسماء تبع للصفات في ذلك ، لأنه إذا دام اتصافه بصفةٍ ما ، دامت تسميته بالاسم المشتق منها .

الثالث عشر: من حسناتها: أنها تتضمن بعضها بعضاً ، فمثلاً: عزَّته سبحانه المشتقة من اسمه (العزیز): ليست مبنية على الظلم ، والسفه ، والبطش بغير حق ، بل موصوفة بالعلم ، والرحمة ، والمغفرة ، والحكمة .

ووجه الحسن في ذلك: أنها تقع بذلك على الوجه المحمود الحسن ، إذ يمكن أن تقع على وجه مذموم ، كما يكون في صفات المخلوقين ، تقع العزة منهم عن: ظلم ، وجهل ، وكبرياء ، فتتجرد من حُسْنها ، لتجدد أثرها منه^(١) .

الرابع عشر: أنها حسنى: لأنها حسنة في الأسماع والقلوب ، فإنها تدلُّ على توحيده ، وكرمه ، وجوده ، وإفضاله^(٢) .

الخامس عشر: أن لها آثاراً حميدة في الخليفة في الأرض وفي السموات العلية ، بل قد شملت كل ذرة في هذا الملكوت العظيم في كل حالٍ وومضة .

السادس عشر: إنما كانت حسنى: باعتبار معانيها وحقائقها ، لا بمجرد ألفاظها ، فمن له

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤١/٦) ، و«الاستقامة» (١٣٩/١) ، و«شرح العقيدة الأصفهانية» (١٩) ، و«الجواب الصحيح» (٢٥٤/٤) لابن تيمية ، و«مدارج السالكين» (٥١/١) (١٢٥/١) ، و«الصواعق المرسلّة على الجهمية والمعتلة» (٢٩١/٢) (٩٣٧/٣) (١٣٧٠/٤) (١٤٤٣/٤) (١٥١٠/٤) ، و«شفاء العليل» (٤٠٥) ، لابن القيم ، و«الأمد الأقصى» لابن العربي (١٧٥/١) ، و«فتح الرحيم الملك» (٧٩) ، و«تفسير السعدي» (٣٠٩) (٥٠٢) (٨٥٤) ، و«آثار أسماء الله الحسنى وصفاته» محمد شلبي محمد (١٣٤) .

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٣٢٦/٧) .

حقائقها: فهي في حقِّه حسنى ، دون من انتفت عنه حقائقها .

السابع عشر: من حسنها: أنه يكون باعتبارين: باعتبار كل اسم على انفراده ، ويكون باعتبار جمعه إلى غيره ، فيحصل بجمع الاسم إلى الآخر كمال فوق كمال ، فيحصل بذلك صفة كمال ثالثة من اجتماعهما ، فله تعالى بذلك جميع أقسام الكمال ، التي لا يحيط بها أحدٌ من الأنام ، نحو (الغني الحميد) ، (العفو القدير) ، (الحميد المجيد) ، فتأمله فإنه من أشرف المعارف^(١) .

ومثال ذلك: (العزیز الحكيم) فإن الله تعالى يجمع بينهما في القرآن كثيراً ، فيكون كل منهما دالاً على الكمال الخاص الذي يقتضيه ، وهو العزة في العزیز ، والحُكم والحكمة في الحكيم .

والجمع بينهما دالٌّ على كمالٍ آخر وهو: أن عزَّته تعالى مقرونة بالحكمة ، فعزَّته لا تقتضي ظلماً ، ولا جوراً ، وسوء فعل ، كما قد يكون من أعزاء المخلوقين ، فإن العزیز منهم قد تأخذه العزَّة بالإثم ، فيظلم ويسيء التصرف ، وكذلك حكمه تعالى وحكمته مقرونان بالعزَّ الكامل ، بخلاف حكم المخلوق وحكمته ، فإنهما يعتريهما الذل^(٢) .

وفي هذا أظهر دلالة على أن أسماء الربِّ تعالى مشتقة من أوصاف ، ومعانٍ قامت به ، وأنَّ كلَّ اسم يناسب ما ذكره معه ، واقترن به من فعله ، وأمره^(٣) .



(١) انظر: «نقض تأسيس الجهمية» لابن تيمية (١٠/٢) ، و«بدائع الفوائد» (١٧٧/١) ، و«مدارج السالكين» (٤٦/١) .

(٢) «شرح القواعد المثلى» لابن عثيمين (٣٥ - ٣٦) .

(٣) «مدارج السالكين» (٤٦/١) .

محبة الله ﷻ لأسمائه الحسنی وصفاته العلا

إِنَّ محبة الله عز شأنه لأسمائه الحسنی، وصفاته العلا، من أجلّ المسائل وأرفعها شأنًا وقدراً من بين كل المسائل، مَنْ عِلْمَهُ وَوُفَّقَ إِلَى معرفته نال أعلى المنازل، فهو "بابٌ واسعٌ قد فُتِحَ لك، فادخل منه، يُطلعك على رياض من المعرفة مounقة، مات من فاتته بحسرتها، وبالله التوفيق.

وهذا موضع يضيق عنه عدة أسفار، واللييب يدخل إليه من بابه، وسِرُّ هذا الباب: أنه سبحانه كامل في أسمائه وصفاته، فله الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي لا نقص فيه بوجه ما، وهو تعالى يحبُّ أسماءه وصفاته ويحبُّ ظهور آثارها في خلقه، فإن ذلك من لوازم كماله.

وقد ورد في القرآن الكريم حبُّ الله تعالى لصفاتٍ هو متصف بها، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقال ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

وورد في الحديث اقتران وصف الله تعالى بالصفة مع حبِّه لها، فإنه سبحانه «وثرٌ يحبُّ الوتر»^(١)، «جميلٌ يحبُّ الجمال»^(٢)، «رفيقٌ يحبُّ الرفق في الأمر كله»^(٣) «محسنٌ يحبُّ الإحسان»^(٤) «عفوٌ يحبُّ العفو»^(٥) «عليمٌ يحبُّ العلماء، جوادٌ يحبُّ الأجواد، قويٌّ والمؤمن القوي أحبُّ إليه من المؤمن الضعيف، حييٌّ يحبُّ أهل الحياء»^(٦).

فهذا الباب يا عبد الله يدخلك إلى محبته تعالى، فإذا دخلته نلت أسمى وأجلّ المحابِّ، التي عليها السعادة والفلاح، في الدنيا ويوم المعاد.

(١) البخاري (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧).

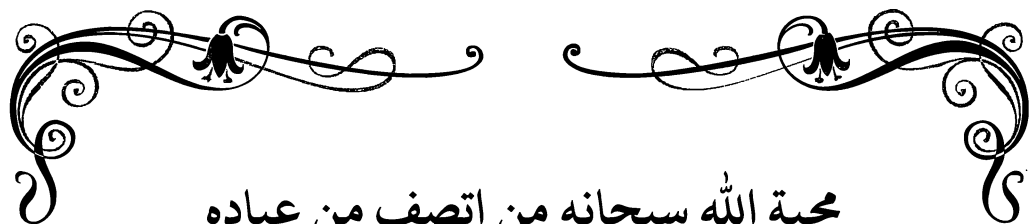
(٢) مسلم (١٤٧).

(٣) البخاري (٦٩٢٧).

(٤) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٤٦٩).

(٥) صحيح الجامع (١٧٧٩).

(٦) «روضة المحبين» لابن القيم (٨٠)، وانظر: «آثار أسماء الله الحسنی وصفات الإلهية» (١٨٩).



محبة الله سبحانه من اتصف من عباده بمقتضيات أسمائه وصفاته وإنه يعاملهم بموجب الاسم والصفة التي يعاملون بها عباده

هذه مسألة جلية ينبغي للعبد أن يتأملها ، وأن يحرص عليها ، لأنها توجب حُسن العبودية ، بمقتضى أسمائه الحسنی ، وصفاته العلية ، فإن ملازمتها ، والاعتناء بها ، ترفع السالك فيها إلى أعلى منازل العبودية ، وهي «الإحسان» .

وذلك أن "أحبَّ الخلق إلى الله تعالى من اتَّصف بمقتضيات أسمائه ، وصفاته ، ويحبُّ ظهور آثارها في العبد"^(١) ، ولأن الله تعالى كما تقدَّم متَّصف بصفات الكمال والأسماء الحسان ، وهو سبحانه يحبُّها ، ويحبُّ أن تذكَّر وأن يتخلَّق^(٢) بها عباده ، جعل المخلوقات أثرها ، فخلقهم مفعولين بها ، حتى يكونوا دليلاً عليها ، وسبيلاً إليها .

ويؤكد ذلك قوله ﷺ «والذي نفسي بيده لو لم تذنَّبوا ، لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يُذنبون فيستغفرون الله ، فيغفر لهم»^(٣) .

فخلق الله تعالى الناس ناقصين ، خطَّائين ، تَوَّابين ، مستغفرين ، وذلك ليظهر اسمه الغفور ، والتواب .

وهو كذلك خلقهم محتاجين ، ليسألوه ، فيظهر فيهم اسمه السميع العليم المجيب القريب .
وصرَّح الرسول ﷺ بحبِّ الله تعالى لظهور آثار صفاته في الناس ، فقال : «إن الله يحبُّ أن يرى أثر نعمته على عبده»^(٤) ، وهو من أجل ذلك : رزقهم ، وأنعم عليهم نعمًا ظاهرة ، وباطنة ،

(١) «عدة الصابرين» لابن القيم (٤٢) .

(٢) هذه العبارة ليست سديدة كما سنبينه عند شرح معنى إحصاء أسماء الله عن ابن القيم .

(٣) مسلم (٢٧٤٩) .

(٤) صحيح الترمذي (٢٨١٩) .

ليظهر فيهم أثر صفة رزقه، وعطائه، وإنعامه، ولأن الله تعالى يحب ذلك، عاتب النبي ﷺ الرجل رثَّ الهيئة، لأنه لم يُظهر نعمة الله، وسأله: «ألك مال؟» فقال: من كل المال قد أعطاني الله: من الإبل، والغنم، قال: «فلْيُرَ عليك»^(١).

ولم يأت الخلق مفعولاً للصفات الإلهية فقط، بل خلقهم الله على ما يُحب من صفاته، فهو وترٌ ويحب الوتر، وخلق الوتر، قال رسول الله ﷺ: «... إن الله وترٌ يحب الوتر، أما ترى السموات سبعاً، والأيام سبعاً، والأرضين سبعاً، والطواف والجمار، وذكر أشياء»^(٢).

والحديثُ دالٌّ على أن الله تعالى جعل الوتر في المخلوقات، والعبادات، أي: هناك شمول لهذه القضية دالٌّ على حبِّ الله تعالى لوجودها لأنها تظهر صفةً من صفاته يحبُّها الله سبحانه، ويحبُّ ظهورها وتذكرها^(٣).

ولهذا فهو سبحانه رحيم: يُحبُّ الرحماء، وإنما يرحم من عباده الرحماء، وهو سِتِيرٌ يُحبُّ من يستر على عباده، عفوٌ يحبُّ من يعفو عنهم، وغفورٌ يُحبُّ من يغفر لهم، ولطيف: يحبُّ اللطيف من عباده...، ويجازي عبده بحسب هذه الصفات فيه وجوداً، وعدمًا، فمن عفا: عفا عنه، ومن غفر: غفر له، ومن رفق بعباده: رفق به...، ومن تتبَّع عوراتهم: تتبَّع عورته^(٤)، ومن مكر: مكر به، ومن خادع: خادعه، ومن عامل خلقه بصفة: عامله الله تعالى بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة، فالله تعالى بعبده على حسب ما يكون العبد لخلق، ولهذا جاء في الحديث: «من ستر مسلماً ستره الله تعالى في الدنيا والآخرة، ومن نفَّس عن مؤمن كربةً من كُرْبِ الدنيا: نفَّس الله تعالى عنه كربةً من كرب يوم القيامة...»^{(٥)(٦)}.

وهنا أمرٌ ينبغي التفطن له، وهو: أن الاتصاف بموجب أسماء الله تعالى مقيد بشرط، وهو:

(١) صحيح الترمذي (٢٠٠٦).

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٤٣٧)، وابن خزيمة في صحيحه (٧٧) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد»: رجاله رجال الصحيح (٢١٦/١).

(٣) انظر «آثار أسماء الله الحسنى وصفاته في الكون والإنسان» محمد شلبي محمد (١٩٢ - ١٩٤).

(٤) كما في الحديث: «... لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عوراتهم، يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته، يفضحه في بيته» صحيح أبي داود (٤٨٨٠).

(٥) «البخاري» (٢٤٤٢)، و«مسلم» (٢٥٨٠).

(٦) «الوابل الصيب» (٥٣)، و«مدارج السالكين» (٤٥٣/١) لابن القيم.

"أن التعبد العملي بالأسماء والصفات يختلف بحسب نوع الصفة^(١)، فهناك أسماء وصفات يُقتدى بها، وأخرى يُخضع عندها"^(٢)، فإن لله تعالى أسماء يختصُّ بها كـ(الأحد)، و(المتعال)، و(القدير) و(المتكبر)، و(المسرَّ)، و(العظيم)، و(القهار) ونحوها، فيجب الإقرار بها، والخضوع عندها، [لأنها كمال مطلق في حقِّ سبحانه، ونقص وذمٌّ في حقِّ خلقه].

وله أسماء يستحبُّ الاقتداء بها في معانيها: كـ(الرحيم) و(الكريم) و(العفو) فيستحبُّ للعبد أن يتحلَّى بمعانيها ليؤدي حقَّ العمل بها، فهذا يحصل الإحصاء العملي"^(٣).

وهناك من الأسماء يجوز التعبد به من وجه، ولا يجوز التعبد به من وجه آخر بحسب ما تتضمنه من معاني، مثل: (الجبار): فبمعنى أنه يجبر الكسير والضعيف، ويسر على العسير، فهذا يجوز بل ويحسن التعبد بموجبه، أما بمعنى القهر، والجبر، والتعظم، والتسلط بغير حق، فهذا لا يجوز من هذا الوجه على كل الخلق، والله ﷻ أعلم.



(١) سيأتي تفصيل ذلك عند شرح إحصاء الأسماء.

(٢) «آثار أسماء الله الحسنى وصفاته في الكون والإنسان» محمد شلبي محمد (١٢١).

(٣) «فتح الباري» (٣٩٠/١٣).

الإيمان بالأسماء الحسنى أعظم أنواع الإيمان بالغيب

إنَّ الإيمان بالغيب الذي هو أصلُ الإيمان بالله تعالى ، الذي أمر به ومدح المؤمنين به في غير موضع من كتابه ، الذي علّق عليه ﷺ الفلاحين في الدارين ، "هو كلُّ ما أخبر الله تعالى به ، وأخبرت به رسله على وجه يدعو الناس إلى تصديقه والإيمان ، وذلك أنواعاً كثيرة ، أجّلها ، وأعلاها ، وأفضلها ، وأنفعها ، وأيسرها ، ما أخبر به في كتبه ، وأخبرت به رسله من أسماء الله الحسنى ، وصفاته العليا ، ونعوته الجليلة الجميلة ، وأفعاله الحميدة .

وفي الكتاب والسنة من هذا النوع شيءٌ كثيرٌ جداً بحسب الحاجة إليه ، فإنه لا أعظم حاجة ، وضرورة من معرفة النفوس بربها ، ومليكيها الذي لا غنى لها عنه طرفه عين ، ولا صلاح ، ولا زكاء إلا بمعرفته وعبادته .

وكلما كان العبد أعرف بأسماء ربه ﷻ ، وما يستحقّه من صفات الكمال ، وما يتنزّه عنه مما يُضادُّ ذلك ، كان أعظم إيماناً بالغيب ، واستحقّق من الثناء ، والمدح بحسب معرفته ، وموضع هذا تدبّر أسمائه الحسنى التي وصف وسمّى بها نفسه في كتابه ، وعلى لسان رسله ، فليتأملها العبدُ اسماً اسماً ، يعرف معنى ذلك ، وأنّ له تعالى من ذلك الاسم أكمله ، وأعظمه ، وأنّ هذا الكمال والعظمة ليس له منتهى ، ويعرف أنّ كلّ ما ناقض هذا الكمال بوجه من الوجوه ، فإنَّ الله تعالى مُنَزَّهٌ مُقَدَّسٌ عنه .

ولمّا كان هذا النوع هو أصل الإيمان بالغيب ، وأعظمه ، وأجّلّه ، قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح : «إنَّ لله تسعة وتسعين اسماً ، مائة إلا واحد ، من أحصاها دخل الجنة» ^(١) ، أي : ضبط ألفاظها ، وأحصى معانيها ، وتعلّقها في قلبه ، وتعبّد الله تعالى بها ، وتقرّب بمعرفتها إلى ربِّ العالمين .

فينبغي للمؤمن الناصح لنفسه أن يبذل ما استطاع من مقدوره في معرفة أسماء الله سبحانه ،

وصفاته ، وتقديسه ، ويجعل هذه المسألة أهمّ المسائل عنده ، وأولاها بالإيثار ، وأحقّها بالتحقيق ليفوز من الخير بأوفر نصيب .

ولهذا لما سأل النبي ﷺ الرجل الأنصاري عن سبب ملازمته لقراءة سورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في صلاته ، فقال : «لأنها صفة الرحمن وأنا أحبُّ أن أقرأ بها» ، فقال ﷺ : «حُبُّكُ إِيَّاهَا أدخلك الجنة»^(١) . وفي لفظ : «أخبروه أن الله يُحِبُّه»^(٢) .

فثبت أن حُبَّ العبد لصفات الرحمن وملازمة تذكرها ، واستحضار ما دلت عليه من المعاني الجليلة ، والتفهّم في معانيها من أسباب دخول الجنة"^(٣) .

ودلّ كذلك على أن مَنْ أَحَبَّ صفات الله تعالى : أَحَبَّه الله ، وأدخله الجنة^(٤) .



(١) «البخاري» (٧٣٧٥) ، و«مسلم» (٨١٣) .

(٢) وقد أضفت في هذه الطبعة (الثامنة) كما علمت (دلالة الاسم على صفات الله تعالى) .

(٣) «المواهب الربانية من الآيات القرآنية» للعلامة عبد الرحمن السعدي (١١١ - ١١٢) .

(٤) «مفتاح دار السعادة» (٢٩٢/١) .

المراد بإحصاء الأسماء الحسنى

قال ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنة»^(١).

إن إحصاء أسماء الله تعالى الحسنى، شأنه عجب، وفتح عجب، صاحبه قد سيق له السعادة، وهو مستلق على فراشه، غير تعب ولا مكدود، ولا مشتت عن وطنه، ولا مشرد عن سكنه، فالعلم بها أصل لسائر العلوم، فمن أحصاها كما ينبغي، أحصى جميع العلوم، لأن المعلومات هي من مقتضاها، ومرتبطة بها^(٢).

وقد ذكر أهل العلم أن معنى إحصائها أربعة أمور وهي:

(١) إحصاء ألفاظها وعدّها.

(٢) فهم معانيها ومدلولها.

(٣) دعاء الله سبحانه بها، والثناء بها عليه تعالى^(٣).

(٤) والتعبّد بمقتضاها^(٤). فتحصيلها تحصيل معانيها في القلب، وامتلاء القلب من آثار هذه المعرفة، فإن كل اسم له في القلب خاضع لله تعالى، المؤمن به أثر وحال، لا يُحصّل العبد في هذه الدار، ولا في دار القرار أجل وأعظم منها^(٥).

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، أخبرنا ربنا ﷺ، أن له أسماء حسنى، أي بالغة في الحسن نهايته وغايته، انفرد بها عن جميع المخلوقات بالكمال، والجمال، والجلال، وقد دلّت الآية أن أعظم ما يُدعى الله تعالى به ويُسأل: أسماؤه الحسنى، "والدعاء

(١) «البخاري» (٦٩٥٧)، و«مسلم» (٢٦٧٧).

(٢) «طريق الهجرة» (٣٩٤)، و«بدائع الفوائد» (١٦٣/١).

(٣) يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ: «وسؤال الله تعالى بأسمائه وصفاته، التي تقتضي ما يفعله بالعباد من الهدى والرزق والنصر، فهذا أعظم ما يسأل الله تعالى به». «قاعدة جلية في التوسل والوسيلة» (١٠٨).

(٤) «بدائع الفوائد» (١٦٤/١)، وانظر «شأن الدعاء» للخطابي (٢٦ - ٢٩)، و«فتح الباري» (٢٢٥/١١)، و«الأسنى» (٢٣).

(٥) «فتح الرحيم الملك» (١١).

(بها) لا يكون إلا بعد المعرفة بالمدعو ، فيها يُعرف ، وبها يُدعى ^(١).

والدعاء بها نوعان:

الأول: دعاء مسألة وطلب: وهو سؤال الله تعالى باسم يناسب ذلك المطلوب ، كأن يقول: اللهم اغفر لي إنك أنت الغفور ، اللهم ارزقني يا رزاق ، أو الدعاء باسم يدل في مبناه ومعناه على كثرة الصفات وسعة المعاني ، والدلالات ، مثل: الله ، الرب ، الحي القيوم ، الصمد ، المجيد ، العظيم ، الملك ، فإن الدعاء بها يناسب كل مطلوب ومرغوب .

النوع الثاني: دعاء العبادة: وهو التَعَبُّدُ لله تعالى والثناء عليه بأسمائه الحسنی ، فكل اسم يتعبد به بما يقتضيه ذلك الاسم من العبودية الخاصة به ، فإذا علم العبد أن الله : سميع بصير عليم ، أثمر له حفظ لسانه وجوارحه ، وخطرات قلبه ، عن كل ما لا يرضي ربه ﷻ ، في ظاهره وباطنه ، وإذا علم أن الله تعالى: مجيد ، عظيم ، كبير ، أثمرت له السعي لتعظيمه وإجلاله ، بكل وسيلة شرعية ممكنة .

وإذا علم أن ربه سبحانه حسيب وكيل: انبعثت من العبد قوة التوكل عليه ، والتفويض إليه ، والرضا والثقة به ، وبكل ما يجريه عليه ، ورضاه بما يفعله به ، ويختاره له ، وكذلك أسماءه سبحانه: الجميل والأكرم: تملأ القلب من أنوار المحبة ، والود ، والشوق ، ومقتضى الرحمن الرحيم: تقتضي العمل الصالح الذي يكون جالباً لرحمة الله تعالى وهكذا .

(وبالجملة): تبقى حركاته ، وأقواله ، وخواطره موزونة بميزان الشرع غير مهملة ، ولا مرسلة تحت حكم الطبيعة .

والله ﷻ يحب التَعَبُّدَ بمقتضيات أسمائه ، «شكور» يحب الشكر ، و«عليم» يحب كل عالم ، «عفو» يحب العفو وأهله ، وأكمل الناس عبودية ، المتعبد بجميع الأسماء والصفات ، فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر .

كمن يحجبه التَعَبُّدُ باسمه: التقدير عن التَعَبُّدُ باسمه: الحليم ، والرحيم... ، وهذه طريقة الكُمَّل من السائرين إلى الله تعالى ، وهي طريقة مشتقة من قلب القرآن: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] .

(١) «الأمد الأقصى في شرح أسماء الله الحسنی وصفاته العلى» للحافظ ابن العربي (١٧٦/١).

وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ، ويثنوا عليه بها ، يأخذوا بحظهم من عبوديتها^(١) .

ويدخل في معنى التعبد بها: "التحلي بمعاني صفاته ، وأسمائه بقدر ما يتصور في حقه سبحانه"^(٢) .

ومن الأدلة الصريحة على ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنْ يُبْذُوا خَيْرًا أَوْ تُخَفُّوهُ أَوْ تُعَفُّوا عَنْ سَوْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩] ، أي: أنه تعالى ذو عفوٍ مع القدرة على الانتقام ممن أساء إليه ، فعليكم أن تقتدوا بسنته ، فأنتم أولى بأن تعفوا عمن أساء إليكم^(٣) .

وفي هذه الآية الكريمة: إشارة إلى التفقه في معاني أسماء الله الحسنى وصفاته العُلا ، وأن الخلق والأمر صادرٌ عنها ، وهي مقتضية له^(٤) .

ومن الآيات كذلك: قوله ﷺ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤] .

قال ابن بطال ﷺ: "طريق العمل بها أن يسوغ الاقتداء به فيها: كالرحيم والكريم ، فإن الله تعالى يحب أن يرى حُلاها على عبده ، فليتمرن العبد نفسه على أن يصحَّ الاتصاف بها ، وما كان يختصُّ بالله تعالى: كالجبار^(٥) ، والعظيم ، فيجب على العبد الإقرار بها ، والخضوع لها ، وعدم التحلي بصفةٍ منها ، وما كان فيه معنى الوعد: نقف منه عند الطمع والرغبة ، وما كان فيه معنى الوعيد: نقف منه عند الخشية والرغبة ، فهذا معنى إحصائها وحفظها"^(٦) .

قال الغزالي ﷺ: "الحظُّ الثالث: السعي في اكتساب الممكن من تلك الصفات ، والتخلق^(٧)

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١/٤٢٠) . و«الفوائد» (٨٠) . و«مفتاح دار السعادة» (٢/٥١٠) . و«فتح الرحيم الملك» (٤٩) . و«القول المفيد» لابن عثيمين (٢/٢٥٨) .

(٢) «المقصد الأسنى» (٤٥) .

(٣) «تفسير سورة النساء» لابن عثيمين (٢/٣٨٩) . و«تفسير مدارك التنزيل» للنسفي (٢٦١) .

(٤) «تفسير السعدي» (٢١٢) .

(٥) تقدم بيانه في المعنون: (محبة الله سبحانه من اتصف من عباده بمقتضيات أسمائه) أن (الجبار) من الأسماء التي يجوز التعبد بها من وجه دون وجه .

(٦) «فتح الباري» (١١/٢٢٦) .

(٧) قال ابن القيم ﷺ: "إن عبارة من قال: يتخلق بأسماء الله ليست بعبارة سديدة ، وهي منتزعة من قول الفلاسفة ، وأحسن منها عبارة التعبد بها ، وأحسن من الجميع العبارة المطابقة للقرآن وهي: الدعاء المتضمن للتعبد والسؤال" «بدائع الفوائد» (١/١٦٤) .

بها، والتحلّي بمحاسنها، وبه يصير العبد ربّانيّاً، أي: قريباً من الرب تعالى، ويصير رفيقاً للملأ الأعلى من الملائكة، فإنهم على بساط القرب، فمن ضرب إلى نسبة من صفاتهم نال شيئاً من قربهم بقدر ما نال من أوصافهم المقربة لهم إلى الحق ﷻ" (١).

وعوداً إلى بدئ: إن الأسماء الحسنى المتضمّنة للصفات العلا والتي لا تنبغي إلا لله تعالى: أنه يجوز للعبد التّعبد في عدة أحوال:

الحالة الأولى: "اتصاف العبد بعكس هذه الصفات: كأن يتّصف العبد بالتواضع أثراً لإيمانه باتصاف الله تعالى بالكبرياء، فالتكبر في الخلق مذموم" (٢)، لأن الخلق محلّ نقص، فإذا تكبّر تكلف أن يتّصف بغير ما يليق بنعته (الملازم له والذي لا ينفك عنه). ومن عرف علوّه سبحانه وكبريائه لازم طريق التواضع وسلك سبيل التذلل" (٣).

الثانية: أن يتصف بها من وجه دون الآخر: فالتعالي والتجبر والكبر والاستعظام على الخلق، فهذا المعنى لا يجوز في حقّ العبد، وأما تعاليه وترفعه عن خصال المذام فهذا محمود عليه من هذه الجهة.

الحالة الثالثة: "الاتصاف في حال تغلب فيها المصلحة المفسدة:

ومن ذلك المعنى المباح في الاتصاف بالتكبر أثراً لاتصاف الله تعالى بصفة الكبرياء: مشية أبي دجانة ؓ في الحرب مختلاً، فقال رسول الله ﷺ: «إنها مشية يبغضها الله إلا في هذا الموضع» (٤)، لأن التكبر حينئذٍ هو سلاح لإضعاف العدو نفسياً، فجاز لانعدام مفسدة النفس بهذه الصفة في هذه الحال" (٥).

وبعد هذا العرض الجليل، فإن سيّد المرسلين النبي الأمين ﷺ: قد "عرّفنا أن من أحصى هذه الأسماء فقد بلغ الغاية المطلوبة من المكلفين، وأنه يستوجب من الله تعالى الفوز بعليين، ولم يبق عليه في علمه بالله تعالى وتصديقه وإيمانه مطلب يحول بينه وبين الجنة" (٦).

(١) «المقصد الأسنى» (٤٦).

(٢) «آثار أسماء الله الحسنى» محمد شلبي (٢١٣).

(٣) «شرح أسماء الله الحسنى» للقشيري (١٧٣).

(٤) رواه الطبراني في المعجم الكبير (٦٥٠٨)، وقال الهيثمي: رجاله ثقات «مجمع الزوائد» (٣٣٢/٤)، وضعّفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٣٩٦٢).

(٥) «آثار أسماء الله الحسنى» محمد شلبي (٢١٣).

(٦) «الأسنى» للقرطبي (٢٥).

أركان الإيمان بأسماء الله الحسنى

الركن في اللغة: جانب الشيء الأقوى ، الذي لا يقوم ولا يتم إلا به^(١).

وفي الاصطلاح: ماهية الشيء والذي يتركب منه ، ويكون جزء من أجزائه ، ولا يوجد ذلك الشيء إلا به^(٢).

فالركن هو أصل الشيء ، وأساسه ، الذي لا يقوم إلا به .

فإذا كان الأمر كذلك ، فإنه ينبغي أن يُعلم أن أركان الأسماء الحسنى ، الذي لا يصح الإيمان إلا بها ثلاثة:

أولاً: الإيمان بالاسم .

ثانياً: الإيمان بما دلَّ عليه الاسم من معنى .

ثالثاً: الإيمان بما يتعلق به من آثار^(٣) .

فالأول: هو الإيمان بثبوت الاسم بما جاء صريحاً في الكتاب ، أو صحيحاً في السنة .

والثاني: الإيمان بأن للأسماء معانٍ معلومة غير مجهولة ، وأن هذه المعاني حقيقية على ما يليق بكمال الله تعالى ، فهو سبحانه " (حيٌّ) حقيقة ، (عليم) حقيقة ، (قدير) حقيقة ... " (٤).

وأن لكل اسم معنى يخصه غير الاسم الآخر ، فمثلاً الأسماء المتضمنة لصفة واحدة لا تُعدُّ اسماً واحداً ، بل كل صيغة من صيغ الاسم يُعدُّ اسماً مستقلاً ، مثال ذلك: (القادر) ، (القدير) ، (المقتدر) ، متضمنة لصفة القدرة ، وتعدُّ ثلاثة أسماء ، وكذلك (العلي) ، (الأعلى) ، (المتعال) تعدُّ ثلاثة أسماء ، مع تضمينها لصفة واحدة ، وهي صفة العلو ، فهذه الأسماء مع أنها كلها متضمنة لصفة واحدة ، إلا أن بعضها يزيد بخصوصية على الآخر ، ليست فيه ، وإن

(١) «القاموس المحيط» (٤٢٦) و«كتاب التعريفات» للجرجاني (٩٥).

(٢) انظر: «حاشية الروض المربع» لابن القاسم (١٢٢/٢).

(٣) انظر: «القواعد الحسان» (١١٠) و«فتح الرحيم» (٥٨) للسعدي و«الكواشف الجلية» لعبد العزيز السلطان (٥٦).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٩٦/٥).

شاركه في أصل المعنى^(١).

الركن الثالث: هو الإيمان بما يتعلق به من آثار، وهذا الأثر هو الحكم والمقتضى، وهو ليس عامًّا في جميع الأسماء، فإن الأسماء جميعها مرجعها إلى نوعين: (١) على وصف متعدّد^(٢)، (٢) وعلى وصف لازم غير متعدّد.

أما دلالتها على وصف متعدّد: فإنه يتضمن ثلاثة أمور:

الأول: ثبوت ذلك الاسم لله ﷻ.

الثاني: ثبوت تلك الصفة التي دلّ عليها ذلك الاسم.

الثالث: ثبوت حكمها ومقتضاها، وهو الأثر، والمعنى: ثبوت الأحكام والآثار التي تترتب على تلك الصفة.

فهذه الأمور الثلاثة متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض، ويدلّ الاسم عليها إذا ثبت (بالنص الصريح في القرآن)، وبالنص الصحيح (في السنة).

والدليل على هذه الدلالة: أن أسماء الله الحسنى كلها مشتقات، فالمشتق دائماً يدلّ على الاسم والوصف، ويلزم من الوصف قيامه بالموصوف، فجميع الأسماء الحسنى مشتقات، وهي أوصاف مدح وكمال، ولها دلالاتها وآثارها العظيمة من الأحكام.

وينبغي أن يُعلم: أن أخذ الأحكام من مقتضى الأسماء والصفات هو من أحسن ما يكون من الاستدلال.

مثال ذلك: (السميع) يتضمن إثبات السميع اسماً لله سبحانه، وإثبات (السمع) صفة له تعالى، وإثبات حكم ذلك ومقتضاه، وهو أنه يسمع كل صوت يحدث في السرّ والنجوى، كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ خَوَاصِرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١] ومثل: (العليم) فنثبت أنه من أسمائه تعالى، وإثبات الصفة التي دلّ عليها وهي (العلم)، والثالث: الحكم الذي يقتضيه ذلك المعنى، وهو يقتضي أنه تعالى يعلم كل شيء.

(١) انظر: «فتح الباري» (٢١٩/١١). و«المنهج الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» د. زين شحاته (٦٥/١).

(٢) أي: هو ما يتعدى أثر فاعله ويتجاوز به إلى غيره.

وكذلك (الغفور) و(الرحيم) كما في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣].
 فقله: (غفور): اسم يتضمن وصفاً وهو المغفرة، ودل على حكم وأثر تلك الصفة، وهو أنه تعالى غفور لمن تناول هذه الميته لضرورته، وكذلك (الرحيم) دل على صفة الرحمة، وعلى الأثر والحكم الذي ترتب على هذه الصفة، وهو أنه سبحانه رحمه بحال أكلها.

وإن دلت الأسماء على وصف لازم غير متعدد، تضمّنت أمرين: أحدهما: ثبوت ذلك الاسم لله تعالى، والثاني: ثبوت الصفة التي تضمّنها لله ﷻ^(١)، مثال ذلك: (الحيّ): فهو يتضمن إثبات اسم الله (الحيّ)، وإثبات (الحياة) صفة، لأن (الحيّ) وصف لازم لا يتعدى إلى غيره.



(١) انظر: «تفسير سورة البقرة» (٢/٢٥٩)، و«تفسير سورة النمل» (٦/٨٨)، و«شرح القواعد المثلى» (٥٣ - ٥٥)، و«شرح عقيدة أهل السنة» (٧٦) لابن عثيمين. و«تفسير السعدي» (٣٩).

الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر ولا تحدُّ بعدد

إِنَّ مِنْ أَوْجِهٍ حُسْنِ أَسْمَاءِ رَبِّنَا ﷺ، أَنَّ أَسْمَاءَهُ الْحُسْنَى لَا تُحْصَى بِعَدَدٍ، وَلَا تُحَدُّ بِقَيْدٍ، يَعْجِزُ الْعِبَادُ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِهَا، عِلْمًا، وَعَدًّا، هَذَا مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ النُّصُوصُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي قَوْلِهِ: «مَا أَصَابَ أَحَدًا قَطُّ هَمٌّ، وَلَا حَزَنٌ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ، وَابْنُ عَبْدِكَ، وَابْنُ أَمْتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ، مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكَ اسْمِكَ الَّذِي سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حَزَنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللَّهُ حَزَنَهُ وَهَمَّهُ، وَأَبْدَلَ مَكَانَهُ فَرَجًا»^(١).

"فَجَعَلَ أَسْمَاءَهُ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ: قَسَمَ سَمَّى بِهِ نَفْسَهُ فَأَظْهَرَهُ لِمَنْ شَاءَ مِنْ مَلَائِكَتِهِ، أَوْ غَيْرِهِمْ، وَلَمْ يَنْزِلْ بِهِ كِتَابَهُ.

وَقَسَمَ: أَنْزَلَ بِهِ كِتَابَهُ، فَتَعَرَّفَ إِلَى عِبَادِهِ.

وَقَسَمَ: اسْتَأْثَرَ بِهِ فِي عِلْمِ غَيْبِهِ، فَلَمْ يَطَّلِعْ عَلَيْهِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ، وَلِهَذَا قَالَ: «اسْتَأْثَرْتُ بِهِ»، أَيْ: انْفَرَدْتُ بِعِلْمِهِ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ انْفِرَادُهُ بِالتَّسْمِيَةِ بِهِ، لِأَنَّ هَذَا الْانْفِرَادَ ثَابِتٌ فِي الْأَسْمَاءِ الَّتِي أَنْزَلَ بِهَا كِتَابَهُ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ: «يُفْتَحُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ بِمَا لَا أَحْسَنُهُ الْآنَ»^(٢)، وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: «... لَا أَحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسَكَ»^(٣).

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ: أَنَّهُ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْهِ، وَلَوْ أَحْصَى جَمِيعَ أَسْمَائِهِ، لِأَحْصَى جَمِيعَ صِفَاتِهِ كُلِّهَا [لَأَنَّ كُلَّ اسْمٍ يَتَضَمَّنُ صِفَةً]، فَكَانَ يَحْصِي الثَّنَاءَ عَلَيْهِ، لِأَنَّ صِفَاتِهِ إِنَّمَا يَعْبُرُ عَنْهَا بِأَسْمَائِهِ"^(٤).

(١) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٩٩).

(٢) البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

(٣) «مسلم» (٤٨٦).

(٤) انظر «بدائع الفوائد» (١٨٣)، «درء تعارض العقل والنقل» (٣/٣٣٢) و(٥/٧٤)، «شفاء العليل» (٢٧٧).

وأما قوله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةُ»^(١) فليس في الحديث ما يدلُّ على حصر هذه الأسماء بالعدد المذكور، وهذا هو قول جمهور العلماء^(٢)، "وإنما المقصود في الحديث أنَّ هذه (التسعة والتسعين) من أحصاها دخل الجنة، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها، لا الإخبار بحصر الأسماء"^(٣). والمعنى: له أسماء متعددة من شأنها، أنَّ من أحصاها دخل الجنة، وهذا لا ينفي أن يكون له أسماء غيرها.

ونظير هذا: أن تقول: عندي مائة درهم، أعددتها للصدقة، فإنه لا يمنع أن يكون عندك دراهم أخرى لم تعدّها للصدقة^(٤).

وفي هذا البيان إشارة إلى عجز العباد عن الإحاطة بما لله تعالى من الكمالات، وأنه "لا يحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه البتة، فله أسماء، وأوصاف، وحمد وثناء، لا يعلمه ملك مُقَرَّب، ولا نبيُّ مرسل، ونسبة ما يعلم العباد من ذلك إلى ما لا يعلمونه: كنقرة عصفورٍ، في بحر"^(٥).



(١) سبق تخريجه.

(٢) «درء تعارض العقل والنقل» (٣/٣٣٢).

(٣) «شرح النووي على مسلم» (٥/١٧).

(٤) انظر: «شأن الدعاء» (٢٤)، و«بدائع الفوائد» (١٨٣/١)، «شرح القواعد المثلى» لابن عثيمين (٧٧ - ٧٩).

(٥) «طريق الهجرتين» (٢٥١).

أسماء الله الحسنى تتفاضل فيما بينها

دلَّ كتاب ربَّنَا ﷻ وسُنَّة نبيِّنا محمد ﷺ على تفاضل ، وتفاوت الكمال في أسمائه ﷻ ، وصفاته ، وأفعاله ، أي : أنه يُفْضَل بعضها بعضاً ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ : "وكما أن أسماء الله وصفاته متنوِّعة ، فهي أيضاً متفاضلة ، كما دلَّ على ذلك الكتاب ، والسنة ، والإجماع مع العقل" (١) .

وقال ﷻ : "فإن النصوص تدلُّ على أن بعض أسمائه أفضل من بعض ، ولهذا يقال : دعا الله باسمه الأعظم ، وتدلُّ على أن بعض صفاته أفضل من بعض ، وبعض أفعاله أفضل من بعض ... " (٢) .

وينبغي أن يعلم أن هذا التفاضل لا يقتضي نقصاً ، بل يدخل في التفاضل بين كمالين عليَّين ، بمعنى : أن هناك فاضل وأفضل ، وعظيم وأعظم ، وكامل وأكمل ، والتفاضل بين الأوصاف الكمالية لا يستلزم نقص المفضول منها البتة ، فكلاهما يدل على غاية التمام من الكمال ، والنزاهة عن كل النقائص والمذام ، وهذه المسألة مرتبطة بالتفاضل في كلامه سبحانه ، الذي هو من صفاته العلية الذاتية الفعلية ، فقد دلَّت الأدلة القاطعة "على أن بعض كلامه أفضل من بعض ، كسورة (الإخلاص) والتي تعدل ثلث القرآن ، أفضل من سورة (المسد) ، وكذلك آية الكرسي أفضل آية في القرآن" (٣) (٤) ، وسورة (الفاتحة) أعظم سورة في سور الفرقان (٥) .

وعلى هذا "فإن الآيات التي تشمل على تعديد أسماء الله تعالى الحسنى ، وبيان صفاته ، والدلالات على عظمته ، وتقديسه ، أفضل من غيرها ، كذم أعدائه ، وذكر أوصافهم ، بمعنى : أن مخبراتها أسنى ، وأجل قدرًا" (٦) .

(١) «تفسير سورة الإخلاص» (٣٣) .

(٢) «جواب أهل العلم والإيمان» (١١٣) .

(٣) كما في صحيح مسلم (٨١٠) ، يقول الإمام النووي ﷺ : "قال العلماء : إنما تميَّزت آية الكرسي بكونها أعظم لما جمعت من أصول الأسماء والصفات من الإلهية والوحدانية والحياة والعلم والملك والقدرة والإرادة وهذه السبعة أصول الأسماء والصفات والله أعلم" . «شرح صحيح مسلم» (٣٥٤/٣) .

(٤) انظر «جواب أهل العلم والإيمان» لابن تيمية (٦٧) ، و«بدائع الفوائد» (٤٩٠/٢) .

(٥) صحيح البخاري (٤٢٠٤) .

(٦) «البرهان في علوم القرآن» للزركشي (٤٤١/١) ، و«شفاء العليل» (٧٤٣/٢) .

والمتمأمل في كتاب ربنا عز شأنه يرى أنه تعالى يخص بعض أسمائه، وصفاته في الذكر والبيان، على سعتها، وشمولها، وآثار متعلقاتها دون غيرها، كصفة (الرحمة) و(العلم) المشتقين من اسمي (الرحمن) و(العليم) قال سبحانه: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] . وغيرها كثير، والسنة النبوية حافلة في ذكر ذلك، كما في دعائه ﷺ في السجود: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك...»^(١)، "فإن المستعاذ به أفضل من المستعاذ منه، وهذا كما أن صفة الرحمة، أفضل من صفة الغضب، ولذلك كان لها الغلبة والسبق..."^(٢).

ومن وجوه التفاضل بين الأسماء الحسنى:

(١) وجود أسماء منها دالة على صفة واحدة، واشتقاقها واحد، مع اختلاف في مبانيها، مثل: (القدیر) و(المقتدر) و(القادر)، (العلي) و(الأعلى) و(المتعال).

(٢) وكذلك أن بعضها جاءت بصيغة التفضيل، الذي يدل على المفاضلة، مثل: (الرحمن) و(الرحيم)، فالرحمن على وزن (فعلان) أبلغ من رحيم الذي على وزن (فعليل)، وكذلك (الغفور) و(الغفار) وكذلك (العلي) و(الأعلى)، و(الكريم) و(الأكرم)^(٣)، و(الخالق) و(الخالق) و(القاهر) و(القهار) و(الرازق) و(الرزاق).

(٣) وكذلك إن بعض الأسماء الحسنى تتفاوت في دلالتها على الصفات العلا، فمنها: ما يكون دالاً على صفة واحدة، من هذه الصفات، مثل: (العليم)، (الغفور، والغفار)، و(الحيي)، و(الستير)، و(الشافي)، و(الرؤوف)، ومنها ما يدل على معنيين: مثل (البصير): بمعنى الرؤية، والعلم، والخبرة، و(المتين): يأتي بمعنى الشديد القوة، والواسع المطلق في الكمال، و(الودود): بمعنى أنه المحبوب، والمحبة "فهذا الوجه دال على تفاضل أسماء الله الحسنى، فليس الاسم الذي يدل على صفة، كالاسم الذي يدل على أكثر من صفة، فالثاني في دلالاته على الكمال أبلغ من دلالة الأول، مع أن الكل دال على الكمال"^(٤) الأعظم لربنا عز شأنه.

وهناك "بعض الأسماء الحسنى تدل على عدة صفات، ويكون ذلك الاسم كتناول الاسم

(١) مسلم (٤٨٦).

(٢) «شفاء العليل» (٧٤٣/٢).

(٣) انظر: «معترك الاقتران» للسيوطي (٤١٢/١)، و«أسماء الله الحسنى» للغصن (٨٩).

(٤) «الكمال الإلهي بين أهل السنة والجماعة ومخالفهم» (٢٢٢).

الواحد، الدالُّ على صفة واحدة لها، كاسمه: (المجيد) و(العظيم) و(الصمد)^(١). ومثل (الواسع)، و(الوهاب)، و(الكريم)، و(الأكرم).

فهذه الأسماء أفضل من الأسماء التي لا تدلُّ إلا على صفة واحدة، أو اثنتين، أو نحوهما، لأنها أبْلَغ في الدلالة على الكمال والجلال، وهناك أسماء تدل على الاسم الأعظم كما سيأتي، الذي يتضمن جميع الأسماء الحسنى، والصفات العلا، مثل: اسم الجلالة (الله)، أو (الحي القيوم)، "فإنهما يجمعان كل معاني الصفات الذاتية، والفعلية"^(٢)، أو (الرب): الذي يتضمن جميع صفات الأفعال، والله ﷻ أعلم.

(٤) أن من الأسماء الحسنى ما يتضمن سلب صفة نقص عن الله تعالى، وهي الصفة المقابلة للصفة التي يثبتها الاسم كما سيأتي لاحقاً كاسم الله (السميع) ينفي صفة الصمم عن الله ﷻ^(٣)، وكذلك ثبوت (البصير): يستلزم نفي البكم، و(الحي): نفي الموت، و(العليم): ضد الجهل، و(الحكيم): نفي السفه^(٤).

ومن الأسماء ما يرجع إلى التنزيه المحض من كل نقص وعيب عنه سبحانه جملةً وتفصيلاً، فيكون متضمناً للكمال المحض، (كالقدوس)، و(السلام)^(٥)، و(السبوح)، و(الواحد)، و(الأحد)، و(المتكبر) وغيرها.

(٥) أن من الأسماء الحسنى ما يدلُّ على صفة بعينها، ومنها ما يدلُّ على هذه الصفة وزيادة، مثل: (العليم)، فإنه يدل على صفة العلم مطلقاً، أما (الخبير): فإنه يدل على العلم بالأمر الباطنة، وإذا كان الخبير يدل على العلم بالباطن: فإن دلالة على العلم بالأمر الظاهرة أولاً^(٦)، ومثل اسم (الحفيظ): فإنه يدل على صفة الحفظ والمعاهدة وعدم الغفلة، أما (المهيمن): فإنه يدلُّ على الهيمنة على الشيء، والسيطرة عليه، والتمكن منه من جميع وجوهه، فهو أدلُّ في الحفظ لأنه متضمن له وزيادة، والله أعلم.

(١) «بدائع الفوائد» (١/١٦٠ - ١٦٨).

(٢) «قاعدة جلية في التوسل والوسيلة» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٩٣).

(٣) «الكمال الإلهي» (٢٢٣).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٦/٣٨٥)، (١٦/٩٧).

(٥) «مباحث المفاضلة في العقيدة» (٧٤).

(٦) انظر: «الكمال الإلهي» (٢٢٣)، و«مباحث المفاضلة» (٧٤).

دلالة الأسماء الحسنى على الصفات العلى

من الأصول المقررة عند أهل السنة والجماعة في هذا الباب: أنَّ الأسماء الحُسنى دالةٌ على صفات كماله، فهي مشتقةٌ من صفاته تعالى العُلا، إذ الصفات مصادر للأسماء الحسنى، فهي أسماء، وهي أوصاف، وبذلك كانت حسنى، وأجمع المسلمون أنه لو حلف بحياة الله، أو سمعه، أو بصره، أو قوّته...، انعقدت يمينه، وكانت مكفرةً، لأن هذه صفات كماله التي اشتقت منها أسماؤه، وعلى هذا: كل اسم من أسمائه فهو مشتقٌ من صفة من صفاته، أو فعلٍ قائم به.

فإذا علم ذلك: فإن كل اسم فلا بُدَّ أن يكون متضمّنًا لصفة دون استثناء، وليس كل صفة مستلزمة لاسم، فالله تعالى من أسمائه (الرحمن): يدلُّ على: صفة الرحمة، (عزيز): يدلُّ على: صفة العِزّة، (الوَهَّاب): يدلُّ على صفة الهَيْبَة، (حَيَّيٌّ): يدلُّ على صفة الحياء.

وأما الصفات فيوصف الله تعالى بالمجىء، والنزول، والإرادة، والاستواء، ولا يُسمّى بالجائي، والنازل، والمريد، والمستوي، فعلم أنَّ الصفات، أوسع من الأسماء، وأنَّ الأسماء الحُسنى أخصُّ من صفاته العلى^(١).



(١) انظر «بدائع الفوائد» (١٦١/١)، و«مدارج السالكين» (٢٨/١)، و«شفاء العليل» (٢٧١) و«فتح الباري» (٣٦٩/١٣)، و«توضيح الكافية الشافية» (١٣٢) لابن السعدي، و«القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى» (٣٠)، و«تفسير سورة آل عمران» لابن عثيمين (٣٠/١) (٥١٩/١).

الفرق بين الاسم والصفة

الاسم مشتقٌ من: السمو، والرفعة، واسم الشيء: علامته؛ لأنه كالعلم يُنصب ليدلَّ على صاحبه^(١).

واصطلاحاً: هو اللفظ الدالُّ على معنى في نفسه، غير دالٍّ على أحدِ الأزمنة الثلاثة^(٢).

والصفة: الأمانة اللازمة للشيء، وهي نعت الشيء. وقيل الصفة: هي ما دلَّت على ذاتٍ، أو صفة^(٣).

واصطلاحاً: الاسم الدالُّ على بعض أحوال الذات، وذلك نحو: طويل، وقصير، وعاقِل، وأحمق، وغيرهما^(٤).

الفرق بين أسماء الله تعالى وصفاته شرعاً:

أنَّ الاسم ما دلَّ على الذات، وما قام بها من صفات الكمال، مثل: القادر، والعليم، والحكيم، فإنَّ هذه الأسماء دلَّت على ذات الله تعالى، وعلى ما قام بها من القدرة، والعلم، والحكمة.

أما الصفة: فهي نعوت الكمال القائمة بالذات، أي: ما قام بالذات مما يميزها عن غيرها من معاني ذاتية، وهي: صفات الكمال: كالعلم، والقدرة...، أو فعلية: كالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة.

فالاسم: دلَّ على أمرين، والصفة: دلَّت على أمرٍ واحد.

ويقال: الاسم متضمن للصفة، والصفة مستلزمة للاسم^(٥).

(١) اللسان (٢١٠٩/٣)، ومعجم مقاييس اللغة (٩٨/٣).

(٢) الفروق اللغوية للعسكري (٢٩)، والإشارات الإلهية للطوفي (٢٥٢/٢).

(٣) اللسان (٢٨٤٩/٨)، ومعجم مقاييس اللغة (١١٥/٦).

(٤) التعريفات للجرجاني (١٧٥).

(٥) من فتوى اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء في المملكة العربية السعودية حفظها الله وحرسها بعينه التي لا تنام، رقم الفتوى (٨٩٤٢).

الأمثلة:

الرحمن والرحيم: اسمان من أسمائه الحسنى . والصفة هي: الرحمة ، ومن أسمائه القاهر القَهَّار ، والقهر هي: الصفة . والمسعر من أسمائه الحسنى ، والتسعير هي: صفته ، وهكذا .

"وهناك فرق آخر بين الأسماء والصفات الإلهية ، وهو أن الأسماء أخص من الصفات ، فالصفات تأتي للذات ، كما تأتي للأفعال ، أما الأسماء فهو تعالى يُسمَّى بأفعاله ، ولا يُسمَّى بذاته ، فقولنا: (الرحمن) يفيد أنه تعالى يرحم ، ولا نسميه بذاته: كالوجه ، أو العين ، أو اليد .

وفرق آخر بينهما: وهو أن الأسماء الإلهية تنادى ويُدعى بها ، بخلاف الصفات الإلهية ، فليست للدعاء ، والنداء ، من حيث كان الاسم دالاً على الذات الإلهية بمجرد الإطلاق ، بخلاف الصفة الإلهية ، فهي تدلُّ على أمر قائم بالذات الإلهية ، أو صادرٌ منها .

والخلاصة: أن كل اسم إلهي دالٌّ على معنى وصفي ، وأن الاسم الإلهي غير الصفة الإلهية ، وهذه المغايرة مستندة من اللغة أساساً ، وتمثل هذه الفروق في أن الصفات: تُبين ، والأسماء تُعين ، وأن الأسماء فيها معنى الوصفية ، لكونها مشتقة من الصفات ، وأن الأسماء أخص من الصفات ، لكوننا نسميه تعالى بأفعاله ، ولا نسميه بذاته ، بينما الصفات تأتي للذات والأفعال ، وأن الأسماء يُدعى بها ويُنادى دون الصفات" (١) .

فإذا بان ذلك فإنه ينبغي أن يُعلم ، أن معرفة أقسام صفات الربِّ ﷻ ، وأنواعها ، والعلم بها ، ومدارستها ، وفهمها ، أشرف العلوم ، وأسمى المعارف ، وأجل المقاصد والمطالب ، على الإطلاق ؛ لأنه الأساس الذي ينبنى عليه عمل العبد في ظاهره وباطنه ، والطريق الموصل إلى محبته ورضاه ، ولدلائها على ما يستحقُّه سبحانه من الكمال ، وما لا يجوز في حقِّه من النقص ، والعيب ، والمثال ، التي تضاد هذا الكمال والجلال ، "فما ظنُّك بشرف منزلته ، وجلالة محلِّه" (٢) ، فكن رعاك الله تعالى في هذا الباب على بصيرة ، وعلم ، ودراية ، لتكون لك عند الله المنزلة العالية .



(١) آثار أسماء الله الحسنى وصفاته الإلهية في الكون والإنسان (٧٩ - ٨٠) .

(٢) «تفسير النسفي» (٤٤٨/٢) .

آثار الأسماء الحسنى في الخليفة

إنَّ العبدَ الفقيهَ الناظرَ بعينِ البصرِ والبصيرةِ، يرى عينَ اليقينِ، في نفسه، وفي مخلوقاتِ ربِّه سبحانه، أنَّ لأسمائه الحسنى آثاراً جليلاً، لا مقطوعةً، ولا معدودةً، فإنَّ "من تأمَّلَ أسماءَ الله تعالى وصفاته، وتعلَّقَ قلبه بها، طرحه ذلك على باب المحبَّة، وفتح له من المعارف والعلوم، أموراً لا يعرفها"^(١).

وعلى قدر تحقيق العبد لهذه الأسماء السَّنيَّة، وشهوده لآثارها الدنيويَّة، والشرعية، يقتطف من ثمارها الجنيَّة، في كلِّ حينٍ وآنٍ ولحظةٍ "وهذا هو قطب السعادة، ومدار النجاح، والفلاح"^(٢)، في الدنيا، والدار الآخروية.

وقد تقدَّم تقرير معنى إحصاء الأسماء الحسنى، وأن من إحصائها: التَّعَبُّدُ بمقتضاها "إذ كلُّ اسمٍ له تَعَبُّدٌ مختصٌّ به علماً، ومعرفةً، وحالاً، وله صفةٌ خاصَّةٌ، وكل صفة لها مقتضى، وفعل، إما لازم، وإما متعَدٌّ..."^(٣).

ولا يكون كذلك إلا بعد فهم معانيها، كما يليق بجلال ربِّنا سبحانه، قال سلطان العلماء العزُّ بن عبد السلام: "فَهَمُّ معاني أسماء الله تعالى وسيلة إلى معاملته بثمراتها من: الخوف، والرجاء، والمهابة، والمحبَّة، والتوكُّل، وغير ذلك من ثمرات معرفة الصفات"^(٤).

وقال رحمته: "واعلم أنَّ معرفة الذات، والصفات، ثمرة لجميع الخيرات العاجلة، والآجلة، ومعرفة كلِّ صفة من الصفات تثمر حالاً عليَّةً، وأفعالاً سنيَّةً، وأفعالاً مرضيَّةً، ومراتب دنيوية، ودرجاتٍ آخرويةً.

فَمَثَلُ معرفة الذات، والصفات كشجرة طيِّبة، أصلها ثابت -وهو معرفة الذات-، ثابت بالحجة والبرهان، وفرعها -وهو معرفة الصفات- في السماء مجداً، وشرفاً: ﴿تُؤْتِي أَكْثَرَهَا كُلِّ حِينٍ﴾

(١) انظر «مفتاح دار السعادة» (٢٨٦/١).

(٢) «بدائع الفوائد» (١٦٤/١).

(٣) «مدارج السالكين» (٤١٧/١).

(٤) «شجرة المعارف والأحوال» (٢٠).

من الأحوال ، والأقوال ، والأعمال ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥] ، وهو خالقها ، إذ لا يحصل الشيء من ثمارها ، إلا بإذنه وتوفيقه ، منبت هذه الشجرة القلب ، الذي إن صلح بالمعرفة والأحوال ، صلح الجسد كله^(١) ، ولهذا "من تعلق بصفة من صفاته ، أخذته بيده حتى تدخله عليه ، ومن سار بأسمائه الحسنی ، وصل إليه..."^(٢).

فإن أعظم روافد الإيمان ، وتزكية النفوس ، وتطهيرها من الشرك والكفران ، والذنوب والآثام ، هو إحصاء أسماء الله الحسنی الكمال ، كما أخبر بذلك سيّد الأنام ﷺ: «... من أحصاها دخل الجنة» ، "فعلم أنّ ذلك أعظم ينبوع ومادة لحصول الإيمان ، وقوته ، وثباته ، ومعرفة الأسماء هي أصل الإيمان ، والإيمان يرجع إليها"^(٣).

وبالجملة إن "الإيمان (بالأسماء) والصفات ، ومعرفتها ، وإثبات حقائقها ، وتعلق القلب بها ، وشهوده لها: هو مبدأ الطريق ، ووسطه ، وغايته ، وهو روح السالكين ، وحاديهم إلى الوصول ، محرّك عزماتهم إذا فتروا ، ومثير همهمهم إذا قصرُوا..."^(٤).



(١) «شجرة المعارف» (٢٣).

(٢) «عدة الصابرين» (٢٨٦).

(٣) انظر «التوضيح والبيان لشجرة الإيمان» لابن السعدي (١٠٧).

(٤) «المدارج» (٣٦٦/٣).

الثمرات الخاصّة بأسماء وصفات معيَّنة

اعلم رحماني الله تعالى وإيّاك، أنَّ أسماء ربِّنا وصفاته ﷺ، تقتضي أصول ومجاميع مقامات العبودية العلمية، والعملية، الحسيّة والمعنويّة، الظاهرية والباطنية، والتي تتضمن كما تقدّم السعادة في الدار المعيشية، والدار الآخروية، "بحسب معرفته وعلمه بها، أثمرت له أنواعاً من العبودية" (١).

فمن أصول هذه المقامات العبودية، وما يندرج تحتها من أفراد لا تحصى، ولا تُحدّ، ولا تُعدّ، فمنها:

أولاً: المحبّة، ثانياً: الذلُّ والتعظيم، ثالثاً: الخشية، والرغبة، والهيبة، رابعاً: المراقبة، والمشاهدة، خامساً: اليقين، والسكينة، والطمأنينة، سادساً: الرضى، سابعاً: التوكل، ثامناً: الدعاء والمسألة، تاسعاً: الإخلاص، عاشراً: التلذُّذ بالعبادة (٢)، الحادي عشر: الرجاء، والرغبة، الثاني عشر: علو الهمة.

فهي في الجملة "ثمة أمور تعبدية واقعة على القلب تنشأ عن معرفة الصفات، فالخوف" (٣): "ناشئ عن معرفة شدّة النعمة، والرجاء ناشئ عن معرفة سعة الرحمة، والتوكل ناشئ عن معرفة تفرد الربّ بالضر والنفع والخفض والرفع، والمحبّة تنشأ تارة عن معرفة الإحسان والإنعام، وتارة عن معرفة الجلال والجمال، والمهابة ناشئة عن معرفة كمال الذات والصفات، وكل واحدة من هذه الأحوال حادثة على الطاعة التي تناسبها" (٤).

وتتضمن هذه الثمار الجليلة كذلك: السلامة مما يضادها، كالحسد، والغِلّ، والكِبَر، والغيبة، والنميمة، وأعظمها: السلامة من مواد الشرك، وشوائبه كله، صغيره، وكبيره.

(١) «مفتاح دار السعادة» (٥١٠/٢).

(٢) انظر: «مفتاح دار السعادة» (٢٨٦/١، ٥١٠/٢ - ٥١٣)، و«مدارج السالكين» (١١٠/١)، و«طريق الهجرتين»

(١٢٢)، و«الفوائد» (١٥٠)، و«شجرة المعارف» (٢٠).

(٣) «آثار أسماء الله الحسنى وصفاته الإلهية في الكون والإنسان» (٢١٢).

(٤) «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» العز بن عبد السلام (١٣٨/١).

"فإذا علم العبدُ بأسمائه الحسنی، وصفاته الكمال العليا المتضمنة للهبة، والعظمة، والعزّ، والجبروت: أثمر في قلب العبد الخوف، والخشية، والذل، فتخضع الأعناق، وتنكسر النفوس، وتخضع الأصوات، ويزوب الكبير كما يذوب الماء في الملح، فعند ذلك تجنح النفوس عن الهم بالذنب، والعصيان.

وإذا تجلّى سبحانه في صفات الجمال، والكمال، وهو كمال الأسماء، وجمال الصفات، وجمال الأفعال، الدالة على كمال الذات (كالجميل، والكريم، والمحسن، والمجيد، والحميد)، فيستنفذ حبه من قلب العبد قوة الحب كلها، بحسب ما عرفه من صفات جماله، ونعوت كماله، فيصبح فؤاد عبده فارغاً، إلا من محبته، فإذا أراد منه الغير أن يعلق تلك المحبة به: أبى قلبه وأحشاؤه ذلك، كل الإباء، فتبقى المحبة طبعاً لا تكلّفاً.

وإذا تجلّى سبحانه بصفة السمع، والبصر، والشهادة، والعلم، انبعث من العبد قوة الحياء، فيستحي من ربه أن يراه على ما يكره، ويسمع منه ما يكره، أو يخفي في سريره ما يمقته عليه، وكذلك حراسة خواطره، وإراداته، وحركاته، وجميع أحواله، موزونة بميزان الشرع، غير مهملة ولا مرسلة، تحت حكم الطبيعة والهوى، فعند ذلك تعبد ربه بأعظم وأجلّ مقامات العبودية (الإحسان).

وإذا تجلّى سبحانه بصفات الكفاية، والحسب، والقيام بمصالح العباد، وسوق أرزاقهم إليهم، ودفع المصائب عنهم، ونصره لأوليائه، وحمايته لهم، ومعينته الخاصة بهم، انبعث من العبد قوة التوكل عليه، والتفويض إليه، والرضا به، وبكل ما يجريه على عبده، ويقيمه مما يرضى به هو سبحانه.

وإذا علم العبد بصفات الرحمة، والرأفة، والتوبة، واللطف، والعفو، والستر، والمغفر: ازداد محبةً لربه تعالى، وقوة الرجاء به، وأنه كلما أحدث ذنباً دعا الله تعالى أن يرحمه، ويغفر له، ويتوب عليه، فيسلم من داء اليأس والقنوط، الذي هو من شرّ الذنوب.

وإذا تجلّى سبحانه بعلوه على خلقه، واستوائه على عرشه، وتعبد العبد بمقتضى هذه الصفة، بحيث يصير لقلبه صمد، وقبله يعرج القلب إليه، مناجياً له، مطرقاً واقفاً بين يديه، وقوف العبد الذليل، بين يدي الملك العزيز، فيستحي أن يعرج ويصعد إليه ما يمقته به ربه.

وجماع ذلك: أنه سبحانه يتعرف إلى العبد بصفات الهيبة تارة، وبصفات الربوبية تارة، فيوجب له شهود صفات الألوهية: المحبة الخاصة، والشوق إلى لقائه، والأنس والفرح به، والسرور بخدمته (وعبوديته)، والمنافسة في قربه، والتوّدّد إليه، وبطاعته، واللهج بذكره، والفرار من الخلق إليه، ويصير هو وحده دون ما سواه.

ويوجب له شهوده صفات الربوبية: التوكل عليه، والاستغناء به، والذل، والخضوع، والانكسار له^(١).



(١) انظر: «مفتاح دار السعادة» (٥١٠/٢)، و«الفوائد»، و«طريق الهجرتين» (٨٢)، و«شجرة المعارف» (١٨ - ١٩)، و«التعبد بالأسماء والصفات» وليد الودعان (٥٠ - ٥).

اسم الله الأعظم

أخبرنا نبينا الصادق المصدوق عليه السلام أن الله تعالى اسماً أعظم، أي: أعظم أسمائه الحسنی، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، فقد ذهب معظم أهل العلم أن اسم الجلال (الله) هو الاسم الأعظم^(١) لما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم، فقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في ذلك أربعة أحاديث:

الأول: أنه سمع أحد الصحابة يدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد» فقال صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده، لقد سأل الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى»^(٢).

الثاني: وسمع صلى الله عليه وسلم رجلاً يصلي ثم دعا: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، وحدك لا شريك لك، المتأن، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، إني أسألك الجنة وأعوذ بك من النار» فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده لقد دعا الله باسمه الأعظم» وفي لفظ: «العظيم الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى»^(٣).

الثالث: قال صلى الله عليه وسلم: «اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب في سور ثلاث: البقرة، وآل عمران، وطه»^(٤).

الرابع: قال صلى الله عليه وسلم: «اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَاللَّهُمَّ اكْبُرْ لِلَّهِ وَجْداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وفاتحة آل عمران ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١ - ٢]»^(٥).

(١) انظر ص ٦٤.

(٢) رواه أحمد (٢٢٩٥٢) وصححه شعيب الأرناؤوط (٤٦/٣٨)، والألباني في «صحيح الترمذي» (٣٤٧٥)، و«صحيح أبي داود» (١٤٩٣).

(٣) أخرجه أحمد (١٣٧٩٨) (١٢٢٠٥) وصححه شعيب الأرناؤوط (٢٣٨/١٩) (٣١١/٢١)، والألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٨٥٧).

(٤) صححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٨٥٦). وفي «السلسلة الصحيحة» (٧٤٦) (٣٨٢/٢).

(٥) رواه أحمد في المسند (٢٧٦١١)، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» (٣٤٧٨)، وفي «صحيح ابن ماجه» (٣٨٥٥)، وفي «سنن أبي داود» (١٤٩٦).

اختلف أهل العلم في تعيين الاسم الأعظم إلى أقوال كثيرة^(١)، وأشهر هذه الأقوال:

الأول: اسم الجلالة (الله) وسيأتي عند شرحه ذكر أقوال أهل العلم في ترجيحه.

الثاني: (الحيّ) (القيوم): وهو اختيار أبي القاسم بن عبد الرحمن الدمشقي^(٢)، وابن القيم، وابن تيمية^(٣).

الثالث: رب رب: وهذا القول ثابت عن أبي الدرداء، وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فكانا يقولان: "اسم الله الأكبر: رب رب"^(٤).

الرابع: ذو الجلال والإكرام: وهذا مروي عن مجاهد رضي الله عنه^(٥)، لما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أَلْظُوا بِيَاذِ الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»^(٦).

الخامس: أن الاسم الأعظم يحتمل أن يكون مقروناً مع غيره من الأسماء، إذا دلّ على جميع ما لله سبحانه من صفات الكمال، وتضمّن ما له من نعوت العظمة والجلال والجمال، فهذا هو الاسم الأعظم لما دلّ عليه من المعاني التي هي أعظم المعاني وأوسعها^(٧)، مثل (الله) فالألوهية تتضمن جميع الأسماء الحسنى، والصفات العليا، وهي جميع أوصاف الكمال.

ومثل كذلك (الحميد، المجيد)، و(الحي القيوم) وغير ذلك^(٨).

"وفي تعيين هذا الاسم بصفةٍ الأعظم لمعانٍ خمسة:

الأول: الاختصاص به، ومنع الغير أن يشارك في التسمية به.

الثاني: عموم معانيه، وكثرة متعلقاته.

الثالث: عظيم ثوابه.

(١) أوصلها ابن حجر إلى أربعة عشر قولاً (٢٢٧/١١).

(٢) «مستدرك الحاكم» (٥٠٥/١)، و«مشكل الآثار» للطحاوي (٦٣/١).

(٣) «زاد المعاد» (٢٠٣/١)، و«مختصر الصواعق المرسلة» (١٠١/١)، و«القصيد النونية» (٣٣)، و«مجموع الفتاوى» (٣١١/١٨).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبه في مصنفه (٣١٣٣٧) (٣٨٣٤٩)، وحسنه محققه أ.د. سعد بن ناصر الشثري (١٩١/١٦) (٨١/٢٠).

(٥) «تفسير ابن أبي حاتم» (٢٨٨٦/٩)، و«تفسير القرطبي» (١٩٦/٧).

(٦) «صحيح الترمذي» (٣٥٢٥).

(٧) «فتح الرحيم الملك» للعلامة ابن السعدي (١٣).

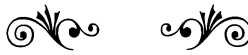
(٨) انظر: «فتح الرحيم الملك» (١٢)، و«مجموع الفوائد» (٢٥٠) للسعدي، وانظر: «الفتوحات الربانية على الأذكار النووية» (٦٣٧/٣).

الرابع: لزوم الإجابة له .

الخامس: عدم معرفته وتعاليه عن الإحاطة به^(١) .

فالدعاء بالاسم الأعظم: يفيد أصل التعجيل ، أو زيادته ، أو كمالاً في المستجاب ، أو في بدل المدعوه به ، أو نحو ذلك^(٢) .

ومتى ذكر العبد ربّه بأعظم الأسماء لزم في كرمه ورحمته وجوده أن يخصّ ذلك العبد بأعظم أنواع الجود والكرم ، وما ذاك إلا أن يخلصه من دركات العذاب ، ويوصله إلى درجات الثواب^(٣) .



(١) «الأمّد الأقصى» (١٨٧/١) .

(٢) «الفتوحات الربانية» (٦٣٨/٣) ، و«فيض القدير» (٥١٠/١) .

(٣) «شرح الأسماء» للرازي (٩٤) .

وصية عزيزة

إن إحصاء أسماء الله الحسنى مطلب "عظيم النفع، لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة، والهمم العالية"^(١). فهو أولى ما تُصرف إليه العناية، وأشرف ما صرفت فيه الأنفس لهذه الغاية، الذي عليها مدار السعادة، فلا تزال مترقياً في المعالي على قدر تحصيلك لها، والتعبد بمقتضاها، تكون لك الزلفى عند الله تعالى، في الدرجات العلا في جنات المأوى، فاحرص رعاك الله تعالى أن يكون همك همّاً واحداً، وهو إحصاء أسمائه الحسنى.

واعلم يا رعاك الله: "أن من سار إليه بأسمائه الحسنى وصل إليه، ومن أحبه أحبَّ أسمائه وصفاته وكانت أثر شيء لديه"^(٢)، "فإنما يدخل منه خواص عباده، وأولياؤه، وهو باب المحبين حقاً، الذي لا يدخل منه غيرهم، ولا يشيع من معرفته أحد منهم، بل كلما بدا له منه علم، ازداد شوقاً، ومحبة، فحقيق بأن تنعقد عليه الخناصر، ويُعضَّ عليه بالنواجذ، ويقبض فيه على الجمر، ولا يؤخذ بأطراف الأنامل، ولا يُطلب على فضلة، بل يُجعل هو المطلوب الأعظم"^(٣).

وإذا أردت يا رعاك الله أن تحصي أسماءه الحسنى لتنال ما عند الله سبحانه من الكمال الأعلى: أن "لا تنظر إلى اسم دون اسم، ولا دون صفة، فإن خصَّصت بعضها لم تكن ممن أحصاها، ولا كُتبت في أهل الجنة، كما وعد الصادق عليه السلام، ولكن انظر إلى جميع الأسماء ووفِّها حقَّها من المعنى"^(٤).

(١) «بدائع الفوائد» (٢/٢٠٥).

(٢) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» (٩١).

(٣) «طريق الهجرتين» (٥٢٠، ٥٣٥).

(٤) «الأمد الأقصى في شرح أسماء الله الحسنى وصفاته العلى» لابن العربي (٢/٩٧).

وما اقتضته من العبودية في اللسان، والجَنان، والأركان، فبذلك قد أحصيتها
على الوجه الأتمّ الأوفى .

فإن "من حَصَلَ حُسْنُهَا كُلُّهَا أَنَالَه الغاية من الثواب ووفاه" (١).

فإذا بَصُرْتَ بما قد وَصَّيْتُكَ به ، فاجتهد في التفقُّه فيه ، في ليلك ونهارك ، في
حضرِكَ وسفرك ، في منشطِكَ ومكرهكَ ، فإنه سوف يفتح لك بابًا عظيمًا في
المعرفة ، والمحبة ، والشوق ، واللذة ، والأنس بالله ﷻ ، ما لا يصفه الواصفون ،
وفوق ما يعبرُّ عنه المعبرُّون ، بل ولا يخطر في الظنون ، ولا حسب الحاسبون .

فإن دخلت فيه ، وفتح لك الباب ، فلا أكون مبالغًا إن قلت لك : رأيت مما لا
تره عينك ، ولا سمعته أذنك ، ولا خطر على قلبك ، في الدنيا والآخرة . "لأن
صاحب هذا الحال في جنة معجلة قبل جنة الآخرة ، وفي نعيم عاجل" (٢) ليس له
مثيل ، ولا عديل في هذه الدار .



(١) «المصدر السابق» (١٧٦/١) .

(٢) «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (٢٩) .

اسم الجلالة الأعظم ﷻ

قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ آية الكرسي [البقرة: ٢٥٥].

هذا الاسم الجليل هو أعظم الأسماء الحسنى على الإطلاق ، وأعلاها في الذكر والدعاء ، تفرّد الله ﷻ به عن جميع العالمين ، وقد قبض الله تعالى أفئدة الجاهلين وألستهم عن التسمي به ، من غير مانع ولا وازع ، على ممرّ الأيام والسنين قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

فلم يتجاسر أحدٌ من الخلق من التسمي بهذا الاسم الشريف ، ولم يُدعَ به سواه أحد ، مِنْ بَدِئِ الخلق إلى يوم العرض ، قال عزّ شأنه: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

فما من أُمَّةٍ قصّ الله علينا نبأها إلا وهذا الاسم متعارفٌ عندهم ، جارٍ على ألسنتهم لا ينكرونه إلا أفضاذاً من الناس: كفرعون ، ونمرود ، ومن دان بدينهما من الدهرية ، وإنما أبقى الله سبحانه هذا الاسم الأعظم متواتراً بينهم ، ودائراً على ألسنتهم ، ليكون أبلغ في الحُجّة^(١).

وقد كاد يتعاطاه المشركون اسماً لبعض أصنامهم التي كانوا يعبدونها ، فصرّفه الله تعالى إلى (اللات) صيانةً لهذا الاسم ودَبّاً عنه^(٢).

وقد " اختصّ هذا الاسم الجليل بأنّه أعرف المعارف (وعلم الأعلام) ، وليس أصله نكرة ، لأنّ الأصل في الأسماء التنكير ، والتعريف فرعٌ عنه ، لأنّك لا تجد معرفة - محليّ بال - إلا أصلها نكرة ، إلا اسم الله تعالى ، لأنه لا شريك له ، وليس كمثله شيء ، ولا سميّ له^(٣) .

وهذا الاسم العظيم الذي تفرّد الله به عن جميع العالمين ، دالٌّ على ذاته الإلهية ، العليّة

(١) «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» للقرطبي (٣٤٥ - ٣٤٦)، و«شأن الدعاء» للخطابي (٣٠)، و«التوحيد» لابن منده (٢١/٢).

(٢) «شأن الدعاء» (٣١).

(٣) «الخصائص اللغوية لفظ الجلالة» (٧٧).

المقدَّسة، وجامع لجميع الأسماء الحسنى، والصفات العلا، دالٌّ عليها بالإجمال، فإذا دعا به العبد، فقال: (اللهم)^(١) فقد دعا بكلِّ أسمائه تعالى الحسنى، وصفاته العلى^(٢)، الذَّاتِيَّة والفعلِيَّة، "فهو دالٌّ بصيغته على عظمة المسمَّى به: ذاتًا، وصفاتًا، وأسماءً، وما يجري لذلك من أفعاله"^(٣).

ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحُسنى إلى هذا الاسم الجليل، كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فيقال: الرحمن، والرحيم، والقُدُّوس، والسلام، والعزیز، والحكيم من أسماء الله سبحانه، ولا يقال: «الله» من أسماء الرحمن، ولا من أسماء العزيز، ونحو ذلك، فعَلِمَ أَنَّ الاسم (الله) مستلزمٌ لجميع معاني الأسماء الحسنى، دالٌّ عليها بالإجمال.

والأسماء الحسنى: تفصيلٌ وتبيينٌ لصفاتِ الإلهية، التي اشتُقَّت منها، اسم (الله)^(٤).

المعنى اللغوي

(الله): أصله (الإله)، والإله في لغة العرب، أطلق لعدة معانٍ:

العبادة، والتَّحْيِير، والفرع، والسكون، والإقامة، والإجارة، والمنع، والإيلاع بالشيء، والارتفاع، والاحتجاب.

الأول: المعبود، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤]، أي: المعبود في السماء، والمعبود في الأرض، تقول العرب: إله ياله آلهة وألوهية، أي: عبد^(٥).

الثاني: التحيُّر، أي: الذي تحتار العقول فيه، وذلك: أَنَّ القلوب تأله عند التفكُّر في عظمته سبحانه، أي: تتحيَّر وتعجز عن بلوغ كنه ذاته، وجلاله، وصفاته.

ومنه قولهم: إله الرجل، ياله، إذا تحيَّر، وذلك أنه ﷻ إذا فكَّر فيه العبدُ تحيَّر، لأنَّ كلَّ ما

(١) أي (يا الله) «جلاء الأفهام» (١١٧).

(٢) «مدارج السالكين» (٣٢/١).

(٣) «شرح أسماء الله الحسنى وفوائدها وخصائصها» لأبي العباس أحمد بن محمد البرنسي (٢٥).

(٤) «مدارج السالكين» (٣٣/١).

(٥) وكما قال سبحانه على لسان قومٍ فرعون: ﴿وَيَذَرُكَ لِإِيْتِهَاكُ﴾ [الأعراف: ١٢٧] كما في قراءة ابن عباس ﷺ، أي: يذرُك وعبادتُك.

يتخيَّله الإنسان ويتصوَّره ، فهو سبحانه بخلافه .

الثالث: الملتجأ والمفزع إليه: قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ [يس: ٢١] ، أي: ينصرونهم على الأعداء ، فكانت العرب تلجأ إلى آلهتها طلباً للنصرة ، ويقال: أله الرجل إلى الرجل يأله إليه ، إذا فزع إليه من أمرٍ نزل به .

الرابع: السكن: قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] ، فالقلوب تطمئن بذكره سبحانه ، وتسكن الأرواح لمعرفة ، ويقال: ألهت إليه ، بمعنى: سكنت إليه .

الخامس: المحبوب المُعَظَّم: وقد كانت العرب تُحِبُّ آلهتها وتُعَظِّمها وتُجَلِّها ، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] ، وهو مأخوذٌ من: وله يوله ، والوله وهو شدة الحبِّ والتعظيم .

السادس: الثابت الدائم القائم: يقال: أله بالمكان ، إذا أقام به .

السابع: الإجارة والأمان: ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَبِيعُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨] .

ومنه قولهم: ألهه ، بمعنى: أجاره وأمنه ، وهو ﷻ المجير لكل الخلائق من المساوي والمضارِّ إلى الأمن والاستقرار^(١) .

* * *

(١) انظر: «لسان العرب» (٤٦٧/١٣) ، و«المفردات» (٨٢) ، و«عمدة الحفاظ» (١٠٦/١) ، و«اشتقاقات أسماء الله» (٢٧) ، و«شأن الدعاء» (٣٠) ، و«النهاية في غريب الحديث» (٤٤) ، و«مجموع الفتاوى» (٢٢/١) ، و«تفسير ابن عطية» (٦٢/١) ، و«زاد المسير» (٨/١) ، و«تفسير البحر المحيط» (٢٧/١) ، و«شرح الأسماء الحسنى» للإشبيلي (٤١/١) ، و«الأسنى» (٣٤٨ - ٣٥١) ، «منهج جديد لدراسة التوحيد» الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق (١١ - ١٩) ، و«الخصائص اللغوية للفظ الجلالة (الله)» أ.د محمد إبراهيم محمد (٥٠ - ٧٥) .



يا الله! ما أعذب هذه الكلمة ، وما أجمل حروفها ونقوشها ، وما أسمى ما حملته من معانٍ ، كلمة عظيمة مهما ترددت في اللسان ، وتحركت بها الشفتان ، لا تُمل ولا يصبها سأم ، على ممر الأزمان ، فهي "كلمة حلوة في النطق ، عذبة في السمع ، حبيبة إلى القلب ، قريبة من النفس ، ساكنة في الوجدان ، منقوشة في الفؤاد ، محفورة في الضمير ، ممتزجة بالدماء" (١).

يا الله! ما أجمله من نعيم ، وما أكمله من نسيم ، يترنم به المخلوق للخالق المعبود ، إنها أجل نعمة في الوجود أن يوفق إليها المربوب ، في ترديدها والتعبد في مضامينها إلى ملك الملوك .

المعنى الشرعي

الله ﷻ الذي لا نعبد إلا إياه ذو الألوهية ، والعبودية على خلقه أجمعين :

(١) فهو (الله) ﷻ: الذي يُؤَلِّهُ ، ويعبده كلُّ المخلوقات (٢) في السموات والأرضين ، ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣] . فهو تعالى الذي تؤلِّه قلوب العباد: حُبًّا ، وذُلًّا ، وخوفًا ، وطمعًا ، ورجاءً ، وتعظيمًا .

(٢) وهو سبحانه (الله): رب العالمين ، قال سبحانه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] ، وهو ربُّ الأولين والآخرين ، قال تعالى: ﴿أَيُّكَاءِ إِلَهَةٍ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ ﴿فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨٦ - ٨٧] .

(٣) "وهو (الله) ﷻ: الموجود بالضرورة ، المعروف بالفطرة ، الذي أقرت به العقول ، ودلت عليه كلُّ الموجودات ، وشهدت بوحدانيته وربوبيته جميع المخلوقات" (٣).

(١) «الله أهل الثناء والمجد» د. ناصر الزهراني (٥).

(٢) «تفسير ابن جرير الطبري» (١٢٢/١ - ١٢٣).

(٣) «الله أهل الثناء والمجد» د. ناصر الزهراني (٣٦).

(٤) وهو (الله) سبحانه: الذي يؤله إليه الخلق كلهم، إنسهم وجنهم، ناطقهم وبهمهم، في حوائجهم، ويتضرعون إليه فيما يُصيبهم، ويفزعون إليه في كل ما ينوبهم، في كل لحظة، وومضة، وخطرة، وخطوة، في جميع أمورهم الخاصة والعامة، والصغيرة والكبيرة، والحاضرة والمستقبلية.

فهو تعالى مبديها، ومعيدها، ومنشؤها وباريها، وهي تدين له سبحانه، وتقرّ له، وتفتقر إليه في كل شؤونها، وأمورها، الظاهرة والباطنة.

(٥) وهو (الله) ﷻ: المعبود بحق، المستحق للعبادة وحده من جميع الخلق، وإخلاص الدين له، دون سواه، وكل ما عبد من دونه باطل، من عرشه إلى قرار أرضه.

(٦) و(الله) عز شأنه: هو الاسم الدال على الذات المقدسة الجليلة التي تعالت فوق كل الأنام، المنزه بذاته عن الإدراك، والأوهام، الجامعة لصفات الألوهية العظام، وهي: جميع صفات الكمال، المقدسة عن إدراك العقول والأفهام.

(٧) وهو (الله) ﷻ: الذي له الكمال أكمله، وأعظمه، وأحسنه بحيث لا يكون وراءه كمال أصلاً، فلا يحد كماله، ولا يوصف كنه ذاته، وعلو جلاله، وسمو جماله، فهو الذي تفرد بكل كمال وجلال، فمن ذلك:

(أ) أنه تعالى لم يبق صفة كمال إلا اتصف بها، ووصف بغايتها، وأكملها، وأعظمها، بحيث لا تحيط الخلائق ببعض تلك الصفات بقلوبهم، ولا تعبر عنها ألسنتهم، بل لا يحيط الخلائق كلهم، من أولهم إلى آخرهم، أن يحيطوا بصفة واحدة من صفاته، بل لا يمكن لعقول العقلاء أن تتصور معنىً واحداً من تلك الأوصاف العلا، فكيف بكلها، فما من كمال تفرضه الأذهان، ويقدره المقدرون، إلا والله أعظم من ذلك، وأجل سبحانه.

(ب) وهو الذي له الأسماء الحسنى، التي لا أحسن، ولا أكمل منها على الإطلاق، فله مطلق الحسن في أسمائه، بلا حدٍّ، ولا قيدٍ، فلا يحصى عددها، وآثارها، ومتعلقاتها إلا هو عزَّ شأنه، فليس فيها اسم يتضمن السوء، أو الشر.

(ج) وهو الذي له الأفعال الرشيدة، والحكم البديعة، الذي ليس له فيها نظير، فليس في أفعاله عبث، ولا في أوامره سفه، ولا يشرع سدى، بل كل أفعاله خيرات محضة، لا شر فيها

البتة ، لا تخرج عن المصلحة ، والعدل ، والرحمة ، والحكمة ، والفضل ، فكل يوم هو في شأن .

(د) وهو الذي له الملك التام ، والسلطان النافذ على كل الأكوان ، فلا يخرج عن ملكه إنس ولا جان ، فلا شريك له في ملكه ، ولا مضاد ، ولا أنداد ، ولا منازع ، ولا مغالب في أي آن ، فهو المتفرد في ملكوته بأنواع التصريفات الحسان ، من الإيجاد ، والإعدام ، فلا شريك له ، ولا ظهير ، ولا أعوان ، فالكل له خاضع ومستكان .

(٨) وهو (الله) جل شأنه: المنزه عن النقائص والشوائب ، والعيوب ، والآفات ، والمذام ، قال تعالى: ﴿وَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٨] ، فهو تعالى تقدس عن الأضداد ، والأنداد ، والشركاء ، والأشكال ، من كل وجه ، وفي كل حال ، على الدوام ، فليس له تعالى نظير ، ولا عديل في خصائصه ، وفي حقوقه ، أحداً من الأنام ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] .

(٩) وهو (الله) سبحانه: أهل الثناء ، والحمد ، والمجد ، وأهل التقوى ، وأهل المغفرة ، أحق من ذكر ، وأحق من شكر ، وأحق من عبد ، وأحق ما قال العبد ، والكُلُّ له عبد .

(١٠) وهو (الله) سبحانه: الذي باسمه تفتح المطالب ، ويحمده وحسن الثناء عليه تختتم المآرب ، ويتأيده يستعان على منال الرغائب ، وباستصحاب ذكره يتبرك في جميع المذاهب .

(١١) وهو (الله) ﷻ: الجميل البهي ، الذي له الجمال والحسن العالي ، الذي لا يداني ولا يُسامى ، فبنوره سبحانه أضاءت السموات والأرض ، وفيهما أبدع أوصاف الحسن ، ولطائف الصنعة من الحكم .

(١٢) وهو (الله) جل ثناؤه: الذي لم تتحرك خاطرات الخواطر إلى بلوغ الغاية ، ولا هاجس في صحیحات الضمائر ، له تصور بداية ، ولا توهم نهاية .

(١٣) وهو (الله) ﷻ: الذي خضعت لجبروته الجبارة ، ولعظمته ذلت أنوف الأكاسرة ، ولكبريائه قصم جباه القياصرة .

(١٤) وهو (الله): له الوجود المتوالي الباقي الدائم ، وجوده من ذاته لذاته في الأزل ، فلم يسبقه قبل ولا عدم ، وليس له نهاية في الزمن .

(١٥) وهو تعالى (الله): الذي لا تدركه الأبصار ، ولا تبلغه الأفكار ، ولا تحجبه الأستار ،

ولا تخفى عليه الأسرار ، وبأمره يدور الفلك الدوّار ، وبحكمه يختلف الليل والنهار .

(١٦) وهو (الله) ﷻ: مولي الآلاء والخيرات ، والمسرّات ، والأنعام ، والأفضال ، الحسية والمعنوية ، الدنيوية والدينية ، فشملت كل موجود بالكرم والجود .

(١٧) فهو تعالى (الله) المحتجب: عن رؤيته جميع الخلائق له في الأولى ، الذي خصّ أوليائه في رؤية وجهه الأعلى في الأخرى ، في جناته العلى .

(١٨) وهو (الله) عزّ شأنه: الذي لا يبلغ المثنون - وإن استوعبوا جميع الأوقات بكل أنواع الثناء - ثناء عليه ، بل ثناؤه أعظم من ذلك ، فهو كما أثنى على نفسه ، فواصفه أبداً موصوف بالعجز عن بلوغ الكنه ، والمطنّب^(١) فيه مقصّر عن بلوغ الحقيقة .

(١٩) فاسم (الله) سبحانه مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى ، والصفات الكمال العليا ، الذاتية ، والفعلية ، والمنفية ، دالّ عليها بالإجمال^(٢) ، "فإن هذه الصفات الجليلة هي التي يستحقّ أن يؤلّه ، ويُعبد لأجلها فيؤلّه سبحانه :

(أ) لأن له أوصاف العظمة والكبرياء .

(ب) ويؤله : لأنه المتفرد بالقيومية ، والرّبوبية ، والملك ، والسلطان .

(ج) ويؤله : لأنه المتفرد بالرحمة ، وإيصال النعم الظاهرة والباطنة إلى جميع خلقه .

(د) ويؤله : لأنه المحيط بكلّ شيء علماً ، وحكماً ، وحكمةً ، وإحساناً ، ورحمة ، وقُدرة ، وعِزةً ، وقهراً .

(هـ) ويؤله : لأنه المتفرد بالغنى المطلق التّامّ من جميع الوجوه ، كما أنّ ما سواه مفتقرٌ إليه على الدوام من جميع الوجوه ، مفتقرٌ إليه في إيجادهِ ، وتدبيرهِ ، مفتقرٌ إليه في إمداده ، ورزقه ،

(١) الإطناب: أن يزيد اللفظ على المعنى لفائدة، عكسه الإيجاز، والإطناب في الكلام: الإطالة والمبالغة فيه .

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١/١٤١)، (١٣/٢٠٢)، و«مدارج السالكين» (١٣/٢٠٢)، و«طريق الهجرتين» (٤٠٦)، (٤٧٠)، و«شفاء العليل» (١/١٩٠)، و«الفوائد» (١٨٣)، و«إغاثة اللهفان» (١/٣-٤)، و«شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان (١/٢٥)، و«تفسير أبي السعود» (١/٧)، و«نظم الدرر» (١/٢٢٣)، و«الأسنى» (١/١١٦)، و«تفسير القرطبي» (١/١٠٧)، و«الأمد الأقصى» (١/١٨٥)، و«تفسير السعدي» (٣٢٥)، و«الحق الواضح» (٣٩)، (٧٧)، (٨٠)، و«فتح الرحيم الملك» (٢٣، ٢٩، ٣٦، ٧٩)، و«معارج القبول» (١/١٦١)، و«الخصائص اللغوية للفظ الجلالة (الله) ﷻ» أ. د. محمد إبراهيم عبد الله، و«الله أهل الثناء والمجد» د. ناصر بن مسفر الزهراني (٣٦)، و«مع الله الاسم الأعظم» د. سلمان العودة (٣٦) .

مفتقرٌ إليه في حاجاته كلها، مفتقرٌ إليه في أعظم الحاجات، وأشدَّ الضرورات، وهي افتقاره إلى عبادته وحده، والتأله له وحده.

فالألوهية تتضمن جميع الأسماء الحُسنى، والصفات العليا، وبهذا احتجَّ مَنْ قال: إِنَّ (الله) هو الاسم الأعظم^(١) كما سيأتي.

جلال (اسم) جل جلاله

قال ﷺ: «لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»^(٢).

الأول: كيف يُخصَى جلال هذا الاسم الكريم: الذي له من كلِّ كمال على الإطلاق أكمله، وأعلاه، وأوسعاه، وأعظمه، وكلُّ مدح، وكلُّ حمد، وكل ثناء، وكل مجد، وكل جلال، وكل كرم، وكل عِزٍّ، وكل جمال، وكل خير وإحسان، وجود، وبرٍّ، وفضل، فله، ومنه، فما ذكر هذا الاسم العظيم في قليلٍ إلا كثَّره، ولا على خيرٍ إلا أنماه، وبارك فيه، ولا على آفةٍ إلا أذهبها، ولا عند خوفٍ إلا أزاله، ولا عند كربٍ إلا كشفه، ولا عند همٍّ وغَمٍّ إلا فرَّجه، ولا عند ضيقٍ إلا وسَّعه، ولا تعلَّقَ به ضعيفٌ إلا قواه، ولا ذليلٌ إلا أعزه، ولا فقيرٌ إلا أغناه، ولا مستوحشٌ إلا أنسه، ولا مغلوبٌ إلا أيَّده ونصره، ولا مضطَّرٌّ إلا كشف ضرَّه، ولا شريدٌ إلا آواه.

الثاني: أنه هو الاسم الذي تُكشَفُ به الكربات، وتُسْتَنْزَلُ به البركات، وتُجَابُ به الدعوات، وتُقَالُ به العثرات، وتُسْتَدْفَعُ به السيئات، وتُسْتَجْلَبُ به الحسنات، وتُرفع به الدرجات، وهو الاسم الذي قامت به السموات والأرض، وبه نزلت الكتب، وبه أرسلت الرسل، وبه شرعت الشرائع، وبه حَقَّتْ الحاقَّة، ووقعت الواقعة، وبه وضعت الموازين القسط، ونُصِبَ الصراط، وقام سوق الجنة والنار، وبه عُبِدَ ربُّ العالمين، وكمال الاسم من كمال مسماه، فإذا كان هذا شأن اسمه تعالى الذي لا يضر معه شيء في الأرض ولا في السما.

فشأن المسمى أعلى، وأجل^(٣).

الثالث: ومن جلال الله تعالى: أنه هو أعرف المعارف وعلم الأعلام، ومع ذلك: "فإن الله

(١) «فتح الرحيم الملك» (١٢).

(٢) «مسلم» (٤٨٦).

(٣) من كلام ابن القيم رحمه الله نقلًا من «تيسير العزيز الحميد» (٣٠ - ٣١) بتصرف يسير، وكتاب «الصلاة» لابن القيم (١٧١).

تعالى ملك القلوب والألسنة عن التسمي به ، فلا يسمى به أحدٌ بحال ، فلا يجوز لأحدٍ أن يتسمّى به شرعاً ، ولا يوجد ذلك لأحد من الخلق تعدياً^(١) ، فإن الله ﷻ قد حفظ اسمه الجليل الشريف عن التسمي به في الأرض ، مع جريانه على السنة الخليفة كلها ، من عهد أبينا آدم ﷺ إلى انقضاء الدنيا^(٢).

الرابع: ومن جلاله: أنه أكبر الأسماء ، وأجمع لمعانيها ، وأكثرها ثواباً ، وأعمها تفسيراً ، وأكثرها تعلّقاً ، فليس في أسماء الله تعالى أكثر متعلّقاً ، ولا أعمُّ مقتضى من قولك: (الله) ، فإن جميع الأسماء تدخل فيه ، ولفظه يضمُّ معناها ويقتضيه ، لأنك إذا أخبرت عنه سبحانه (بالله) كفى في التعريف به والذكر له ، وإذا أخبرت بأسمائه عنه رجعت في التفسير إليه ، فإذا قيل: من الرّب؟ من الملك؟ من القدوس؟ من الخالق؟ وهكذا إلى آخر الأسماء ، فالجواب في جميع ذلك (الله) فإليه منتهى التفسير ، وهو غاية السائل في الجواب ، وإليه يرجع كل من يعبد سواه ، ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]^(٣).

الخامس: ومن جلال الله ﷻ: "أن من ذكره بالتوحيد: ذكره بالجنة والمزيد ، قال الله تعالى: ﴿فَأَنبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [المائدة: ٨٥] ، وما من عبد ذكره بذكر: إلا ذكره بما يقابله عوضاً له ، فإن ذكره المؤمن بإيمانه: ذكر برحمته ورضوانه ، وإن ذكره التائب بتوبته: ذكره بقبولها ومغفرته ، وإن ذكره العاصي باعتراف زلته: ذكره بستره وأناته... ، ومن هلّله: أجلّه ، ومن سبّحه: أصلحه ، ومن حمده: أيّده ، ومن رجع إليه: أقبل عليه"^(٤).

السادس: ومن جلال هذا الاسم العظيم أنه جامع لجميع معاني الجلال ، والجمال ، والكمال في أسمائه الحسان .

فلا أعظم من جلال (الله) ﷻ .

* * *

(١) انظر: «الأمد الأقصى» (١/١٨٨ ، ٢٣٧).

(٢) «الأسنى» (٣٤٦).

(٣) «الأمد الأقصى» (١/١٨٧ - ١٨٩ ، ٢٣٧).

(٤) «حاشية شرح الأسماء» لابن برجان (١/٥٢).

الله الاسم الأعظم

ذهب معظم أهل العلم إلى أنَّ اسم الجلالة (الله) سبحانه هو الاسم الأعظم^(١)، الذي إذا دُعِيَ به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى، قال الغزالي رحمه الله: "اعلم أن هذا الاسم أعظم الأسماء التسعة والتسعين، لأنه دالٌّ على الذات الإلهية، الجامعة لصفات الإلهية كلها، حتى لا يشذ منها شيء، ولأنه أخصُّ الأسماء، إذ لا يطلقه أحدٌ على غيره، لا حقيقةً، ولا مجازاً..."^(٢).

وقال الإمام ابن العربي رحمه الله: "الله هو اسمه الأعظم الذي يرجع إليه كل اسم، ويضاف إلى تفسيره كل معنى"^(٣).

وقال الإمام القرطبي رحمه الله: "ومن علم أن اسم (الله) يتضمَّن جميع مدلولات سائرهما، ويزيد عليها، لم يشكَّ أنه أعظم الأسماء"^(٤).

قال الإمام الطحاوي رحمه الله (بعدما ساق عدة روايات في الاسم الأعظم): "فهذه الآثار قد رويت عن رسول الله ﷺ متفقة في اسم الله الأعظم، أنه (الله) ﷻ"^(٥).

ومما يُرجَّح أن (الله) هو الاسم الأعظم ما يلي من الأدلة:

"(١) أنه الاسم الوحيد الذي ورد في كل الأحاديث التي أخذ الرسول ﷺ أن فيها اسم (الله) الأعظم.

(٢) أنه أكثر الأسماء ذِكْرًا في القرآن الكريم، حيث ذُكر (٢٧٢٤) مرَّةً"^(٦).

(٣) أن الله ﷻ يضيف سائر الأسماء الحسنی إلى هذا الاسم العظيم، كما سبق، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف ١٨٠]، فمرجع سائر الأسماء الحسنی إليه، ومدارُ معانيها عليه.

(١) انظر «اسم الله الأعظم» للدكتور عبد الله الدميحي (١٣٠).

(٢) «المقصد الأسنى» (٣٧).

(٣) «أحكام القرآن» (٧٩٨/٢).

(٤) «الأسنى» (٣٦٠).

(٥) «مشكل الآثار» (١٦١/١).

(٦) «أسماء الله الحسنی» د. عمر الأشقر (٣٣).

(٤) أنه سبحانه جعله أول الإيمان ، وعمود الإسلام ، خُصَّت به كلمة الحق والإخلاص ، ووقعت به الشهادة ، فصار شعار الإيمان .

(٥) أن الله ﷻ افتتح به كتابه الكريم بثلاثٍ وثلاثين آية .

(٦) أنه لم يُنكره أمةٌ من بني آدم في الدنيا ، بل هو دائرٌ على ألسنتهم من عهد أبيهم إلى انقضاء الدنيا ، فلم يتجاسر أحدٌ من الخلق التسمي به ، قال سبحانه: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥] (١) .

(٧) أنه أكثر ما يدعى الله ﷻ بلفظ: (اللهم) ومعناه: يا الله ، قال الحسن البصري ﷺ: "اللهم مجمع الدعاء" ، فإذا قال السائل: اللهم إني أسألك: كأنه قال: أدعو الله الذي له الأسماء الحسنى ، والصفات العلى بأسمائه وصفاته (٢) .

(٨) أنه الاسم الذي اقترنت به عامة الأذكار الماثورة بجميع أنواعها المطلقة ، والمقيّدة ، بالزمان ، والمكان ، وفي كل الأحوال .

(٩) أنه إذا ارتفع من الأرض قامت الساعة ، قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض من يقول: الله ، الله» (٣) (٤) .

(١٠) أن (الله) كلمة مكوّنة من حروف ليّنة حلقيه جوفية سهلة ، وهي (اللام ، والهاء ، والمد) ينطقها الطفل الصغير ، والأعجمي حديث العهد بالإسلام ، والألثغ ، وكل حروف هذه الكلمة مهما صرّفتها وقلّبتها ، فهي تعود إلى معنى من معاني الألوهية ، فهو (الله) ، وهو (إله) لا إله إلا هو (٥) .

(١١) أنه إذا حذف حرفاً أو أكثر من لفظ الجلالة (الله) بقي الرسم والصورة ما يدلُّ عليه سبحانه ويرشد إليه تعالى ، وصور الحذف من لفظ الجلالة أربع:

الأولى: حذف الأول: إذا حذف الألف (وهي همزة الوصل) من (الله) بقي الباقي على

(١) «الأسنى» (٣٤٦) ، و«شأن الدعاء» للخطابي (٣٠ - ٣١) ، و«كتاب التوحيد» لابن منده (٢١/٢) .

(٢) «بدائع التفسير» (٤٩١/١ - ٤٩٣) .

(٣) «مسلم» (٣٧٥) .

(٤) «الأسنى» (٣٤٧) .

(٥) «مع الله الاسم الأعظم» (٣٦) .

صورة (الله) دالاً عليه سبحانه ، كقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٩] .

الثانية: حذف اللام الأولى وبقاء الألف: إذا حذفت اللام الأولى وأبقيت الألف من (الله) بقي الباقي على صورة (إله) دالاً عليه سبحانه: ﴿إِلَهٌ كَرِيمٌ﴾ [النحل: ٢٢] .

الثالثة: حذف الألف واللام معاً: إن حذفت الألف واللام الأولى من (الله) بقي الرسم على (له) وهو أيضاً يدل عليه ﷻ ، وقد أثبتته القرآن كثيراً ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] .

الرابعة: حذف اللام الباقية من (له): إن حذفت اللام الباقية من (له) أو بعبارة أخرى حذفت الألف واللامان معاً بقيت الهاء المضمومة على صورة (هو) ، ومن ثبوته في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٥] .

وغير ذلك الكثير من الأدلة والخصائص التي انفرد بها هذا الاسم العظيم ، عن غيره من الأسماء الحسنی^(١) .

الثمرات

عندما يعلم المؤمن أن الله تعالى متَّصِفٌ بهذا الاسم العظيم ، ينبغي له أن يقوم بحقه من التَّعَبُّدِ ، الذي هو كمال الحب ، مع كمال الذل والتعظيم ، الذي لا شيء أطيب للعبد ، ولا ألدَّ ، ولا أهنأ ، ولا أنعم لقلبه وعيشه ، من محبَّته تعالى ، ودوام ذكره ، في لسانه ، وقلبه ، وعقله ، والسعي في مرضاته ، والخشوع والخضوع له ظاهراً وباطناً ، وهذا هو الكمال الذي لا أكمل للعبد بدونه: "ومن كان كذلك فقد تمَّ له غناه بالله تعالى ، وصار من أغنى العباد ، ولسان حاله يقول:

غَنيَت بلا مالٍ عن الناس كلهم وإن الغنى العالي عن الشيء لا به

فياله من غنى ما أعظم خطره ، وأجلَّ قدره ، تضاءلت دونه الممالك فما دونها ، وصارت بالنسبة إليه كالظِّلِّ من الحامل له ، والطَّيْفِ الموافق في المنام ، الذي تأتي به حديث النفس ، ويطرده الانتباه من النوم .

(١) للاستزادة انظر: كتاب «التوحيد» لابن منده (٢١/٢) و«شرح أسماء الله الحسنی» للرازي (٩٢ - ٩٦) . وتفسيره المسمى «التفسير الكبير» (١٦٣/٨) ، و«الأمَد الأقصى» (٢٣٧/١) ، و«الأسنى» (٣٤٥ - ٣٥٤) ، و«الخصائص اللغوية للفظ الجلالة» د. محمد إبراهيم عبد الله .

واعلم: أن كلَّ عبودية لغيره: باطلَةٌ وعناءٌ، وضلالٌ، وكلُّ محبةٍ لغيره: عذابٌ لصاحبها، وكلُّ غنىٍ لغيره: فقرٌ وضلالٌ، وكلُّ عزٍّ لغيره: ذُلٌّ وصَغَارٌ، وكلُّ تكشُّرٍ لغيره: قِلَّةٌ وفاقةٌ^(١).

ومما ينبغي أن يكون حظُّ العبد من هذا الاسم هو: التألُّه، وهو أن يكون مستغرق القلب والهمة بالله تعالى، لا يرى غيره، ولا يلتفت إلى سواه، ولا يرجو، ولا يخاف إلا إيَّاه، وكيف لا يكون كذلك، وقد فهم من هذا الاسم أنَّه الموجود الحقيقي الحق، وكل ما سواه هالك وباطل إلا به، فيرى أولاً نفسه أول هالك وباطل^(٢).

فإن الله سبحانه أبى أن يجعل ذخائره في قلب فيه سواه، وهيمته متعلقة بغيره، وإنما يودع ذخائره في قلب يرى الفقر غنى مع الله تعالى، والغنى فقراً دون الله سبحانه، والعزَّ ذلاًّ دونه، والذلَّ عزاً منه، والنعيم عذاباً دونه، والعذاب نعيماً معه.

وبالجملة فلا يرى الحياة إلا به، ومعه، والموت والألم والهَمَّ والغَمَّ والحزن إذا لم يكن معه، فهذا له جنتان: جنة في الدنيا معجَّلة، وجنة يوم القيامة^(٣).

أيها العبد المؤمن: قل: الحمد لله وسلامٌ على عباده الذين اصطفى، من الذي شفع لك في الأزل إذ كنت معلوماً في علم الله ﷻ، ومقدوراً في قدرته، ومراداً من إراداته، فسَمَّاكَ باسم السلام، ووسمك بوسم الإيمان، وناداك من قبضته اليمين، وأقطعك في ذلك الغيب عمل المؤمنين، فعصمك عن العبادة للعبيد، وأعتق سركَ عن التزام الرقِّ لمن له شكل ونظير، ثم وجَّه بوجهتك إلى العليِّ الكبير، فاضرع إلى الذي عصمك من السجود للصنم، وقضى لك بقدم الصدم في القدم في إجمال المنَّة، عساه يتم عليك النعمة.

فأعط الله تعالى الرضا من قلبك تظفر، وتوكلَّ عليه وحده تغنم وتؤجر، فإن كنت كذلك فاعلم أنَّ من علامات الرضا: سرور العبد بالمقدور في جميع الأمور، فأشعر نفسك وفقنا الله وإياك: عظيم مشاهدته وكريم حضوره في كلِّ أحيانك، وجميع أحوالك، وارغب إلى الله أن يؤنسك بقربه، ويحبب إليك حبَّه.

ومن كما حبَّ الله تعالى: دوام ذكره في القلب بالفرح به، والسرور والشوق إليه، والأنس

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٨٤).

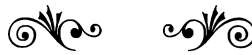
(٢) «المقصد الأسنى» (٣٨).

(٣) الفوائد (٢١٦ - ٢١٧).

به ، وعلامة الأنس بالله ﷻ : إيثار الخلوة به ، كما قال : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨] ^(١) .

وهذا الاسم الجليل لا تُحصى ثمراته ، ولا تُعدُّ آثاره ، ومتعلقاته ، وذلك أنه لما كان هذا الاسم الجليل مستلزماً لجميع الأسماء الحسنى والصفات العُلا ، فإن من ثمرات هذا الاسم العظيم ثمرات بقية أسمائه وصفاته ، وكلُّ ثمرة من ثمرات أسمائه سبحانه الحسنى ، إنْ هو إلا ثمرة من ثمراته وآثاره المباركة الدنيوية ، والأخروية ، الظاهرة ، والباطنة .

يقول ابن القيم رحمه الله : " فمشهد الألوهية هو مشهد الحنفاء ، وهو مشهد جامع للأسماء والصفات ، فهذا المشهد تجتمع فيه المشاهد كلها ، وكل مشهد سواه : فإنما هو مشهد لصفة من صفاته " ^(٢) .



(١) « شرح أسماء الله الحسنى » لأبي الحكم الإشبيلي (٦٠/١ - ٦٢) بتصرف يسير .
(٢) طريق الهجرتين (٨٤) .

١- الله ﷻ الرَّبُّ ﷻ سبحانه وتعالى

قال تعالى: ﴿سَلَّمَ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَجِيمٍ﴾ [يس].

قال ﷻ: «أقرب ما يكون الربُّ من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن»^(١).

المعنى اللغوي

الربُّ: صفةٌ مشبَّهة للموصوف بالربوبية، والربُّ في الأصل: من التربة، أي: هو الذي يربِّي غيره وينشؤه شيئاً فشيئاً، حالاً فحالاً إلى حدِّ التَّمام، وتنحصر المعاني اللغوية فيه إلى ما يربو على عشرة معانٍ:

الأول: يطلق على الإله والمعبود، يدل عليه حديث عذاب القبر، يقال للميت: «من ربك؟»، المراد: من معبودك^(٢)؟

الثاني: المالك، فكل من ملك شيئاً فهو ربُّه، ومنه قولهم: "رب العبيد والممالك"^(٣).

الثالث: الملك، ومنه قول النابغة:

يخبُّ إلى النعمان حتى تناله فدى لكل من ربِّ طريفي وتلدي

الرابع: السيد، ومنه قول يوسف ﷺ: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، يريد سيِّده الذي اشتراه، وفي الحديث: «أن تلد الأمة ربتها»^(٤)، أي: سيدها، ومعناه: أن تلد العجم العرب.

الخامس: القائم بالأمر، ومنه قول لبيد:

وأهلكن يوماً ربَّ كندة وابنه وربَّ معدَّ بين خبت وعرعر^(٥)

(١) «صحيح الترمذي» (٣٥٧٨).

(٢) البخاري (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١).

(٣) سمي المالك بالرب: لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه «السراج المنير» (١٦/١).

(٤) مسلم (٨)، والترمذي (٢٦١٠).

(٥) الخبت ما اتسع من الأرض واطمأن، والعرعر: شجر يقال له الساسم، لسان العرب (٢٧/٢) (٥٦٠/٤).

السادس: المصلح المدبر، يقال لمن قام بمصالح الشيء، وإتمامه: قد ربّه يرّبّه فهو ربّ، ومنه سمي الربانيون: لقيامهم بالكتب، وإصلاح الناس لها.

السابع: المنعم، ومنه الحديث: «هل لك من نعمة تربّها علي»^(١).

ومنه قولهم: ربيت النعمة عند فلان: إذا ازدت فيها وواليها.

الثامن: المربي، وهو التربية، والإنشاء، والتغذية، ومنه سمي المربي: المربوب.

التاسع: الثابت الدائم، من قولهم: ربّ بالمكان وأربّ، ولبّ بالمكان وألبّ: إذا أقام فيه.

ومنه قيل للمكان الذي يحلّه الناس: المرب، ويقال: أربّت السحابة بهذه البلدة: إذا دامت.

العاشر: الخالق، وذلك لأن الخلق هو أحد المعاني اللازمة والمتضمنة في اسم الرب، فإن الخلق هو أصل الإنعام، وأساس السيادة، والملك، وبداية لإصلاح أمر المخلوقات، وتربيتها، والقيام على أمرها، والإيجاد مقدم على الإعداد، والإمداد، وهو رأس ذلك، ومبدؤه، وهذه كلها هي معاني الربوبية، فكتاب الله العزيز يعرف الرب: بالخالق في مواضع عدة، فأول ما نزل من القرآن: ﴿أَفَرَأَى بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١]، فعرف الربّ بأنه الذي خلق^(٢).

فتفسير الربّ بالخالق كاد أن يكون حقيقة شرعية لازمة له، وإن لم تكن هذه هي حقيقته اللغوية، ولذلك كان الإقرار بالله تعالى هو الخالق: هو أصل توحيد الربوبية، بل هو أصل معرفة الله تعالى^(٣).

قال العلامة ابن عثيمين رحمته الله: "(الرب) هو: من اجتمع فيه ثلاثة أوصاف: الخلق، والملك، والتدبير"^(٤).

ولا يقال (الرّب) معرفاً بالألف واللام مطلقاً إلا الله ﷻ، ويُطلق مضاعفاً له ولغيره، نحو: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وإذا أطلق على غيره أضيف، كربّ الدار، وربّ الفرس، والإبل لصاحبهما^(٥).

(١) مسلم (٢٦٥٧).

(٢) ومن الآيات الدالة على ذلك: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [غافر: ٦٢]، وقوله: ﴿إِنِّي أَنذَرُكُمْ لِمَا تُكَفِّرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: ٩]، وقوله: ﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٦].

(٣) انظر: «أسماء الله الحسنى الدالة على الخلق والإبداع» أكاديمية أسس الأبحاث والعلوم (١/٧٥).

(٤) «تفسير سورة الفاتحة» (١/١٠)، و«شرح الأصول الثلاثة» (٣٩).

(٥) «لسان العرب» (٤/٥٦٠)، و«النهاية في غريب الحديث» (٣٣٨)، و«مفردات ألفاظ القرآن» (٣٣٦)، =

وذلك: لأن الألف واللام للجنس، والاستحقاق بالتحقيق، فجنس التربية من الله سبحانه، إذ كل من يربي شيئاً فإنما ذلك بالله، ومن الله ﷻ، وكان الله هو المستحق لهذا الاسم وحده، وأما غيره فإنما يوصف بأنه ربّه على معنى كونه سبباً للتربية^(١).

وهذا الاسم من أصول الأسماء، وأمّهات الصفات، وهو من أسماء الأفعال^(٢).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الرب، الذي لا ربّ لنا سواه، "الذي له الربوبية الكاملة على جميع وجوهها، في الصفات والأحوال والأعيان"^(٣):

(١) فهو تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الباقية: ٣٦]، ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩].

(٢) فهو سبحانه ربُّ: الأرباب، ومعبود العباد، يملك المالك والمملوك، وجميع العباد، وهو خالق ذلك ورازقه^(٤).

(٣) فهو الربُّ سبحانه: مالك الأعيان ومنشؤها، وموجد الرسوم والديار بما فيها^(٥).

(٤) فاسم الربِّ تعالى: له الجمع الجامع لجميع المخلوقات، فهو ربُّ كلِّ شيء وخالقه، والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيّته، وكلُّ مَنْ في السموات والأرض، عبدٌ له في قبضته، وتحت قهره^(٦).

(٥) فهو ﷻ يربي العالم، ويصلح أمر الخلق، وهو مالك الملك، وسيد الخلق^(٧)، فإليه تنتهي جميع أمورهم ما جلَّ منها، وما دقَّ، قال الرب سبحانه: ﴿وَأَنِّي إِلَٰهٌ رَبِّكَ الْمُتَنَبِّئُ﴾ [النجم: ٤٢].

= «تفسير الطبري» (٦٢/١)، و«البحر المحيط» لأبي حيان الأندلسي (٣٣/١)، و«شرح أسماء الله» لابن برجان (٢٤٧/٢)، و«الأمَد الأقصى» (٢٧٩/٢)، و«الأسنى» (٣٩٤/١).

(١) «تلخيص الأدلة لقواعد التوحيد» لأبي إسحاق الصفار البخاري (٤٧٧/١).

(٢) «الأمَد الأقصى» (٢٧٨/٢)، بل ومن أسماء الذات العلا.

(٣) «شرح الأسماء الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (٢٤٩/٢)، و«الأمَد الأقصى» (٢٨٣/٢).

(٤) «الأسنى» (٣٩٤/١).

(٥) «موسوعة له الأسماء الحسنى» للشرباصي (٣٤/٢).

(٦) «مدارج السالكين» (٣٤/١).

(٧) «تلخيص الأدلة لقواعد التوحيد» (٤٧٥/١).

٦) وهو الذي تفرّد بتخليق الأشياء، وتكوينها، وإنشائها من العدم، حيث أعطى كل شيء خلقه، وكمال وجوده^(١).

٧) فهو سبحانه ربّ: كل شيء، ومليكه، وكافله، ومغذّيه، ومصلحه، وملطفه بقوله، العوّاد عليه بنعمه، فكل شيء مذكور سواه عبده، وهو ربّه، لا يصلح إلا بتدبيره، ولا يقوم إلا بأمره، ولا يرثه سواه سبحانه^(٢).

٨) قربنا جل ثناؤه هو: السيد المطاع، الذي لا شبه له، ولا مثل في مثل سؤده^(٣)، الذي يسوس مسوده، ويربيه، ومدبره^(٤).

٩) وهو الربّ سبحانه: الذي له السيادة ملكاً، وخلقاً، وتدبيراً، وذللاً، وخضوعاً، وانكساراً^(٥).

١٠) فهو الموجود والمربي، والمصلح أمر خلقه، بما أسبغ عليهم من نعمه، الذي ليس لهم غناء، ولا بقاء في حياتهم المعاشية.

١١) فهو تعالى الذي يسوس مربوبه، ويربيه، ويدبره كيف، وكما شاء، فينقلهم من حال إلى حال، ويبدلهم بصفة بعد صفة، في طريق النمو والإنشاء.

١٢) فهو سبحانه الرب: المالك، الذي له الخلق، والأمر، فهو المالك لذواتنا، ورقابنا، وأنفسنا^(٦).

١٣) وهو الرب سبحانه: الإله المعبود الحق، الذي له العبادة من كل الخلق^(٧).

١٤) وهو المالك الناظر في مصالح العبد^(٨)، المتصرف بالتدبير، ورعي الرفق، والرحمة^(٩)، لكل فرد.

(١) «أسماء الله الحسنى» د. الرضواني (٦٩٢).

(٢) «شرح الأسماء الحسنى» لأبي الحكم عبد السلام بن برجان الإشبيلي (٢٤٩/٢).

(٣) تفسير الطبري (٦٢/١).

(٤) «موسوعة الشرباصي» (٣٣/٢).

(٥) «فقه الأسماء الحسنى» د. عبد الرزاق العباد (٧٨).

(٦) انظر: «تفسير الطبري» (٦٢/١)، و«بدائع الفوائد» (١٣٢/٤)، و«أحكام القرآن» لابن العربي (٨٠٢/٢)، و«نظم

الدرر» (٧٥٤/٢)، و«معارج القبول» للحكمي (٨٠).

(٧) انظر: «تفسير الطبري» (٤٨٢/١٢)، و«تفسير السعدي» (٢٦٨).

(٨) «البحر المحيط» (٣٨٧/٦).

(٩) «تفسير» الطاهر ابن عاشور مج (٦) (٤٩/١٥).

(١٥) فهو ربنا سبحانه: الذي يرينا بنعمه، وإحسانه، وكل ذرة من العبد فمملوكة له ملكاً خالصاً حقيقياً، وقد ربّاه بإحسانه إليه، وإنعامه عليه^(١).

(١٦) وهو الرب الأعظم سبحانه: الذي يَرْبُّ كُلَّ رَبٍّ، فهو تعالى أحقُّ الأرباب بالعبادة^(٢)، فلا ربَّ غيره، ولا يستحقُّ العبادة غيره، ولا ينبغي إلا له^(٣).

(١٧) وهو الرب الحقُّ سبحانه: الذي لا تخرج أفعاله، وأقواله عن الصراط المستقيم ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]، أي: على حق، وعدل، وقسط، وحكمه، وحمد في قضائه، وقدره، وفي شرعه، وأمره، وفي جزائه، وثوابه، وعقابه، لا يعدل عن ذلك سبحانه^(٤).

(١٨) وهو الرب سبحانه: ربُّ المربوبات، على العموم في جميع المكوّنات، من العاقلين والجمادات، فالجماد مُصلح مُربي، كما أنَّ الحيوان مُصلح مُربي، وذلك: بإدامة بقائهما وصيانتهم من الآفات المتلفات^(٥).

(١٩) "وهو الذي يخصُّ أوليائه بإتمام نعمته، وإكمال آلائه، وإحسانه، وحقائق رحمته، وينشئ الإيمان والمعرفة في قلوبهم، ويغذيها بتذكاره إياهم، ويصلح ما فسد بركوب المناهي منهم، بتخريفهم من عذابه، وعودة التوبة النصوح عليهم.

فهو القريب منهم بالمعاهدة، الملازم لهم بالمقاربة، القائم عليهم بحراسة ذلك فيهم"^(٦).

(٢٠) فهو ﷻ الذي ربّى جميع المخلوقات بنعمه، وأوجدها وأعدّها لكل كمال يليق بها، وأمدّها بما تحتاج إليه، أعطى كلَّ شيءٍ خلقه اللائق به، ثمَّ هدى كلَّ مخلوق لما خلق له، وأغدق على عباده بالنعم العظيمة، التي لو فقدوها لم يكن لهم البقاء، ونمّاهم وغذاهم وربّاهم بأكمل التربية، فما بهم من نعمةٍ، فمنه ﷻ^(٧).

(٢١) وهو الربُّ سبحانه: ربُّ كل ذي روح تدب على وجه الأرض، فهو خالق الخلق

(١) «بدائع الفوائد» (١٣٢/٤).

(٢) «الأمد الأقصى» (٢٨٢/٢).

(٣) «كتاب الصلاة» لابن القيم (١٧٣).

(٤) «تفسير السعدي» (٣٨٤)، و«فتح الرحيم» (٢٧)، و«تفسير النسفي» (٥٠٣).

(٥) انظر: «الأمد الأقصى» (٢٨٢/٢ - ٢٨٣).

(٦) «شرح الأسماء الحسنى» للإشبيلي (٢٤٩/٢).

(٧) «فتح الرحيم الملك» (٣٩ - ٤٠)، و«التفسير» للسعدي (٣٩).

ومربيهم من حالٍ إلى حال ، فهو تعالى المبلغ كل ما أبدع حدَّ كماله الذي قدر له ، فهو يُسَلُّ النطفة من الصلب إلى علقه ، ومن علقه إلى مضغة ، ثم يخلق المضغة عظاماً ، ثم يكسو العظام لحماً ، ثم يخلق في البدن الروح ، ويخرجه خلقاً آخر من كونه جماداً إلى أن صار حيواناً ، وهو صغير ضعيف ، فلا يزال ينميه وينشئه^(١) في أطوار متباينة إلى نهاية ما قدر له في أجله .

(٢٢) وهو الذي ينتهي الأمور ، وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور ، وإليه المنتهى في كل حال ، فإليه ينتهي العلم ، والحكم والرحمة وسائر الكمالات ، قال تعالى : ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ أَلْسُنُهَا﴾ [النجم: ٤٢] ، وقال عز وجل : ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٤] .

ولذلك كان هذا الاسم العظيم الكبير الشأن ، عزيز في نفوس وقلوب الأنبياء ، والأولياء ، وأولي الألباب ، لتضمنه معاني الجلال ، والجمال ، والكمال ، إذ إن "هذا الاسم أحق بالاستعانة والمسألة"^(٣) ، ولما يشعر به هذا الوصف من الصلة بين (الرب) والمربوب ، مع ما يتضمنه من العطف والرحمة ، والافتقار في كل حال^(٤) .

ولهذا كان تصدير الدعاء في غالب أدعية الكتاب وسنة الحبيب المصطفى ﷺ به ، لأن من لوازمه إجابة الدعوات ، وإعطاء الأمنيات ، فمن دعاء أبونا ﷺ : ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّا تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] .^(٥)

ومن دعاء موسى ﷺ : ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] .

ومن دعاء نبينا محمد ﷺ : ﴿وَقُلْ رَبِّ اعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ [١٧] وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٨] .

ودعاء أولي العلم : ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨] .

ودعاء عباد الرحمن الأصفياء : ﴿رَبَّنَاهَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤] .^(٦)

(١) «تفسير السمرقندي» (٨٠/١) ، و«المنهاج» للحليمي (٢٠٥/١) ، و«تفسير السعدي» (٥٤٨) .

(٢) تفسير السعدي (٨٢٢) .

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٢/١) .

(٤) «تفسير» القرطبي (١٣٩/١) .

(٥) ودعاء خليل الرحمن إبراهيم ﷺ : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ١٢] .

(٦) "فقد ورد هذا الاسم المبارك "في أكثر من (٩٠٠) موضع في كتاب الله ﷻ" ، ناهيك عن كثرة وروده في السنة المطهرة ، فقد عدّه بعض أهل العلم من الصحابة "أبي الدرداء ، وابن عباس ﷺ : أنه اسم الله الأعظم" . «أسماء الله الحسنى» د . عمر الأشقر (٤١) ، وانظر : «اسم الله الأعظم» للدكتور د . الدميحي (١٤٦) .

✽ ربوبيّته ﷻ لخلقه نوعان:

الأول: ربوبيّة عامة: وهي تشمل جميع الخلائق برّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، حتى ناطقهم، وبهيمهم، وحتى جمادهم، وهي تربيتهم لهم بالخلق، والرزق، والتدبير، والإنعام، والعطاء، والمنع، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

الثاني: ربوبية خاصّة: وهي تربيته سبحانه لأوليائه وأصفياؤه، فيربّيهم بالإيمان، ويوفّقهم له، ويكملهم لهم، وغذاهم بمعرفته، والقيام بعبوديّته الظاهرة والباطنة، بإصلاح قلوبهم، وأرواحهم، وأخلاقهم، وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وتيسيرهم لليسرى، وتجنّبهم للعرسى، ودفع عنهم الصوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه، وحقيقتها: تربية التوفيق لكل خير، والعصمة عن كل شر^(١).

✽ حَمْدُ جميع المخلوقات على ربوبيّته في الدنيا والأخرى:

"قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، هذا إخبارٌ عن حمد الكون أجمعه، ناطقه وبهيمه لله رب العالمين، عقيب قضائه بالحق والعدل بين الخلائق أجمعين، ولهذا حذف فاعل الحمد من قوله: «وقيل» ليفيد العموم والإطلاق، حتى لا يسمع إلا حامد لله تعالى من أوليائه ومن أعدائه، ومن جميع مخلوقاته، فهو تعالى المحمود بربوبيّته في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿وَأَخْرَجُوا دَعْوَتَهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]"^(٢).

✽ شهود العبد انفراد الربّ ﷻ:

وهو أن يشهد انفراد الربّ ﷻ بالخلق والحكم، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا تتحرك ذرة إلا بإذنه، وأن الخلق مقهورون تحت قبضته، وأنه ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابعه، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاعه، وفي هذا المشهد العظيم: يتحقق للعبد مقام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ علماً وحالاً، فثبت قدم العبد في توحيد الربوبية، ثم يرقى منه صاعداً إلى توحيد الألوهية.

(١) ولهذا كان أكثر دعائهم له بهذا الاسم الجليل (الرب) لأنهم يطلبون منه هذه التربية الخاصّة، واستحضار هذا المعنى عند السؤال نافع جداً للعبد. انظر «تفسير السعدي» (٣٩/١)، (٤٨٥/٥)، و«فتح الرحيم الملك» (٤٠). و«القواعد الحسان» (١٤٢).

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧٥/٤)، «الصواعق المرسلّة» (١٤٩٦/٤)، و«الفوائد» (٦٥).

فإن أول ما يتعلق القلب بتوحيد الربوبية ، ثم يرتقي إلى توحيد الألوهية ، كما يدعو الله سبحانه عباده في كتابه بهذا النوع من التوحيد إلى نوع آخر^(١) لأنه "لما كان علم النفوس بحاجتهم وفقرهم إلى الرب قبل علمهم بحاجتهم وفقرهم إلى الإله المعبود ، وقصدتهم لدفع حاجاتهم العاجلة قبل الآجلة ، كان إقرارهم به من جهة ألوهيته ، وكان الدعاء له ، والاستعانة به ، والتوكل عليه فيهم ، أكثر من العبادة له ، والإنابة إليه"^(٢).

﴿ جلال (الرب) جل جلاله ﴾

الأول: من جلال ربوبيته سبحانه: أنها شاملة لكل العالمين ، فهي تشمل العالم كله ، فما من ذرة في العالم العلوي والسفلي وما فيهما ، وما بينهما إلا وقد شملته ، قال تعالى حكايةً عن فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] ، فردَّ عليه موسى ﷺ: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤] . "والعالمين: كل موجود سوى الله تعالى"^(٣). ولهذا جاءت بإيثار الجمع لبيان شمول ربوبيته تعالى لجميع الأجناس^(٤).

"فهو ربُّ من يعقل وما لا يعقل ، وربُّ ما غاب وحضر ، ثبت أن الربَّ هو المصلح المُربِّي على العموم في الصفات ، والأحوال ، والأعيان"^(٥).

الثاني: ومن جلال ربوبيته العلية: أنه محمود عليها "بجميع أنواع وأصناف المحامد التي لا تُعدُّ ولا تُحصى: الذاتية ، والوصفية ، الدنيوية ، والأخروية ، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾"^(٦).

الثالث: ومن جلالها: أنها ربوبية منزهة عن كل النقائص والعيوب ، المتضمنة لكل كمال وتعظيم ، قال عزَّ شأنه: ﴿وَسَبِّحْهُنَّ﴾^(٧) **اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴿ [النحل: ٨] .

(١) «مدارج السالكين» (٤١٠/١ - ٤١١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٤/١٤).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٥٣/١).

(٤) «محاسن التأويل» ، للعلامة محمد جمال الدين الأفغاني (٢٢٧/١).

(٥) «الأمد الأقصى» (٢٨٣/٢).

(٦) «تنوير الأذهان من تفسير روح البيان» ، إسماعيل حقي البروسوي (١٤/١) بتصرف .

(٧) لأن التسبيح معناه التنزيه ، وهو إبعاد عن الموصوف كل النقائص والعيوب .

الرابع: ومن جلالها: أنها ربوبية عظيمة وجلال، منزهة عن الشبيه والمذام، قال تعالى:

﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤] .

الخامس: وهي ربوبية بركة، ونماء، وعطاء، لكل العباد، قال ﷺ: ﴿بَارَكَ اللَّهُ رَبُّ

الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] .

السادس: ومن جلال ربوبيته سبحانه: أنها ربوبية رحمة، وعطف، وشفقة لكل الخلق، قال

تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الرحمن الرحيم] [الفاتحة: ٢ - ٣] . وقال جل ثناؤه:

﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٧] ،

"فاقتران ربوبيته برحمته، كافتران استوائه على عرشه برحمته، قال عز شأنه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] ، فوسع تعالى كل شيء، بربوبيته، ورحمته" (١) .

السابع: ومن جلالها: أنها ربوبية سترٍ ومغفرة، "على مَنْ رجع إليه على أبلغ الوجوه

وأعلاها" (٢) ، قال جل شأنه: ﴿بَلَدٌ طَيِّبٌ وَرَبُّ غَفُورٌ﴾ [سبا: ١٥] .

الثامن: وهي ربوبية: عزة، وقوة، وغلبة، ومنعة، قال ﷺ: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا

الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [ص: ٦٦] .

التاسع: ومن جلالها: أنها ربوبية كرم، وعطاء، وجود بغير حدود، ولا مقيدة بقيود، قال

ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الأنفطار: ٦] .

فدل على أن من أخص صفات ربوبيته سبحانه: المغفرة، والرحمة، والرفقة، والعزة،

والنماء، والعطاء، على أبلغ الوجوه، وأعلاها من كل الوجوه .

العاشر: ومن جلال ربوبية ربنا سبحانه: أنه يربي عباده، بأنواع، وأجناس، وخواص لا

تحصى، ولا تحد، ولا تُعد، بما فيه صلاحهم، فلكل جنس يربيه بما ينفعه في معاشه، ومعاذه .

ومن ذلك: أنه في حقِّ العالمين: "يربيهم بأغذيتهم، وسائر أسباب بقاء وجودهم، وفي حق

الإنسان: فيربي الظواهر بالنعمة، وهي: النفس، ويربي البواطن بالرحمة، وهي: القلوب، ويربي

نفوس العابدين بأحكام الشريعة، ويربي الإنسان تارة بأطواره، وفيض قوي أنواره في أعضائه،

فسبحان من أسمع بعظم، وبصر بشحم، وأنطق بلحم، وأخرى بترتيب غذائه في النبات بحبوبة

(١) «مدارج السالكين» (٣٥/١) .

(٢) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» للبقاعي (١٦٩/٨) .

ثماره، وفي الحيوان بلحومه وشحومه، وفي الأرض بأشجاره، وأنهاره، وفي الأفلاك بكواكبه، وأنواره^(١).

الحادي عشر: ومن جلال الرب: أنه سبحانه من رب لا يحصى جلاله، ولا يضاهي ولا يتناهى كماله، ف"ما من ذرة من ذرات العالم إلا وهي في حيلة تربية سبحانه، بل ما من شيء مما أحاط به نطاق الإمكان والوجود من العلويات، والسفليات، والمجردات، والماديات، والروحانيات، والجسمانيات، إلا وهو في (سلك تربيته)، بحيث لو فرض انقطاع آثار التربية عنه أناً واحداً، لما استقر له القرار، ولا اطمأنت به الدار^(٢).

الثاني عشر: ومن جلاله: أنه تعالى يملك عبداً غيرك، وأنت ليس لك ربٌّ سواه، ثم إنك تتساهل في (عبوديته)^(٣)، والقيام بوظائف طاعته، كأن لك رباً، بل أرباباً غيره، وهو سبحانه يعتني بتربيتك حتى كأنه لا عبد له سواك، فسبحانه ما أحسن وأتم تربيته، وأعظم رحمته^(٤)، وهو غني عنك سبحانه من كل وجه على الإطلاق، وأنت لا تستغني عنه في أي وجه من الاعتبارات.

الثالث عشر: ومن جلال الرب سبحانه: "أنه مربُّ نفوس العابدين بالتأييد، ومربُّ قلوب الطالبين بالتسديد، ومربُّ أرواح العارفين بالتوحيد"^(٥).

الثمرات

عندما يدرك المؤمن بربوبية الله ﷻ المطلقة بكل العوالم، العلوية والسفلية، وكل من فيهما تحت قهره، وقدرته، وإرادته من البرية، فينبغي له أن يكتسي بثوب العبودية، فيربِّي نفسه على الطاعة والعبودية، بكل أنواعها الحسية والمعنوية، الظاهرة والباطنية، واتباع النبي ﷺ في كل سننه السنية، قال ربُّ العالمين: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ لا شريك له، ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

ف"تعبد له التعبد كله، ومدرك في تعبدك تفريق صفاته من صفاتك، وإفراده منها بما هو له

(١) «تفسير البروسوي» (١٤/١).

(٢) «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» (١٣٣/١).

(٣) في الأصل خدمته، وما أثبتناه هو المناسب والأليق في حقه تعالى.

(٤) «التفسير الكبير» (مج ١) (٢٣٦/١)، و«روح المعاني» (١٣٣/١).

(٥) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (٣٤/٢).

أهل، ثم لزومك أنت قدرك، وتركك التعدي لطورك، فهو الربُّ ﷻ، وأنت العبد، وهو المنعم، وأنت المنعم عليه، وهو المنان بموالاته نعمه، وترادف إحسانه، وأنت الممتن عليه، الفقير لما يكون منه إليك، وهو المالك، وأنت المملوك، أفرده بما انفرد به من الكمال، ونعوت التعالي، والكبرياء، والجلال، والزم نفسك شاكلة العبودية، فذلك شرفك، وسبيل كمالك، ونعمتك في الدنيا والآخرة^(١).

ومن عبودية هذا الاسم الكريم: "أن يحسن تربية من جعلت تربيته إليه، فيقوم بأمره ومصالحه، كما قام الحق به، فيرقه شيئاً شيئاً، وطوراً طوراً، ويحفظه ما استطاع جهده كما حفظه الله.

قال ابن عباس رضي الله عنهما وسئل عن الرباني فقال: "هو الذي يعلم الناس بصغار الأمر قبل كباره"، فالعالم الرباني هو الذي يحقق علم الربوبية، ويربي الناس بالعلم على مقدار ما يحتملونه^(٢).

ومن آمن بربوبية الله تعالى العلية، ذاق طعم الإيمان، الذي عليه الفلاح في الدنيا، وفي الدار الآخوية، قال ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ رسولاً»^(٣).

"ومتى ذاق العبد طعم الإيمان فلا تسأل عن سعادته، وأنسه، وطمأنينته، وثباته، ولو احتوشته البلايا الرزايا، كما أن من هذا شأنه فإن طاعات الله ﷻ تسهل عليه، وتلد له، كما يكون في قلبه كره معاصي الله تعالى والنفور منها"^(٤).



(١) «شرح الأسماء» لابن برجان (٢/٢٥٠).

(٢) «الأسنى» (١/٣٩٥).

(٣) «مسلم» (٣٤).

(٤) «ولله الأسماء الحسنی فادعوه بها» عبد العزيز بن ناصر الجليل (٩٩).

٢-٣- الله الرحمن الرحيم ﴿١﴾ جل ثناؤه

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّكَ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة]

قال عزَّ شأنه: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿الرحمن﴾.

قال ﷺ: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب]

المعنى اللغوي

الرحمن الرحيم: الرحمن على وزن (فعلان) للمبالغة، كعطشان من عطش، وغضبان من غضب.

والرحيم: على وزن (فعليل) من صيغ المبالغة من اسم (الفاعل)، الراحم: كقدير من قادر، وعليم من عالم، ونحوه.

هذان الاسمان الكريمان مشتقان من (الرحمة) على وجه المبالغة، والرحمة في اللغة هي: الرقة، والشفقة، والحنان، والعطف، والرأفة، ومنه: اشتقاق الرحم، وهي: البطن، لانعطافها على الجنين.

فالرحمة تقتضي الإحسان إلى المرحوم، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة، وتأتي كما تقدّم: العطف، والحنان، والرفق: يقال: رحمه يرحمه: إذا رَقَّ له وتعطف عليه، ورحمته زيدا رُحماً بضم الراء ورحمة، ورحمة: إذا رفق له، وحننت، والفاعل: راحمٌ، وفي المبالغة: رحيمٌ^(١).

ورحمته تعالى: اسمٌ جامع لكل خير^(٢).

ولهذين الاسمين شأنٌ كبير، ومكانة عظيمة، في المِلَّةِ السَّيِّئَةِ، فهما الاسمان "اللَّذانِ افتتح

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٤٩٨/٢)، و«اللسان» (١٦١١/٣)، و«المصباح المنير» (١٣٢)، و«المفردات» (٣٤٧)، و«تفسير الطبري» (٥٤/١)، و«اشتقاق أسماء الله» (٣٨)، و«التوحيد» لابن منده (٤٧/٢)، و«اللباب في علوم الكتاب»، لأبي حفص عمر بن علي الدمشقي الحنبلي (١٤٦/١)، و«شرح أسماء الله» لابن برجان (٢٧٠/٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٦٢/١٠).

الله بهما أم القرآن، وجعلهما عنوان ما أنزله من الهدى والبيان، وضمَّنهما الكلمة التي لا يثبت لها شيطان، وافتتح بها كتابه نبيُّ الله سليمان ﷺ، وكان جبريل ينزل بها على النبي ﷺ عند افتتاح كلِّ سورة من القرآن^(١).

حتى قال قومٌ: إنَّ الرحمن هو اسم الله الأعظم، وهو المعنى المطلوب للخلق من الله تعالى، إليه حاجتهم، وهو رجاؤهم، لا سيما وهو عامٌّ في الخلق كلهم. ولشرفها قرنهما الله سبحانه باسم الله، وقَدَّمهما على جميع الأسماء^(٢).

* الفرق بين الرحمن والرحيم

وهذان الاسمان الجليلان دالَّان على سعة رحمته ﷻ، إلا أن هناك عدة فروق بينهما:

الأول: أن (الرحمن): أبلغ من (الرحيم)، لأن بناء فعْلان أشدُّ مبالغة من فعِيل، وبناء فعْلان: للسعة، والشُّمول، فهو يجمع كل معاني الرحمة، ولذلك لا يُتَنَّى ولا يُجْمَع، فدل على أنه تعالى ذو الرحمة الشاملة، التي وسعت كل الخلائق في الدنيا، إنسهم وجنَّهم، مؤمنهم وكافرهم، فما من موجودٍ في هذا الوجود، إلا وقد شملته رحمته.

ولهذا قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، فاستوى على عرشه باسم الرحمن، لأن العرش محيطٌ بالمخلوقات قد وسعها، والرحمة محيطَةٌ بالخلق، واسعة لهم، كما قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] فاستوى على أوسع المخلوقات وهو عرشه، بأوسع الصفات وهي رحمته، فلذلك وسعت رحمته كل شيء، أما (الرحيم): فهو ذو الرحمة الواسعة للمؤمنين يوم الدين، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ١٩] فكان للمؤمنين الحظُّ والنصيب الأكبر، من هذين الاسمين في الدارين^(٣).

فدلَّ على أنَّ (الرحمن): خاص باللفظ، لأنه لا يسمَّى به إلا الله تعالى، عامٌّ في الأثر، لأن رحمته تصل إلى البر والفاجر، ولذا حسن مجيؤه منفرداً غير تابع، كمجيء اسم الجلالة (الله) كما سيأتي.

(١) «مختصر الصواعق المرسله» (٣٤٣/٢).

(٢) «الأمَد الأقصى في شرح أسماء الله الحسنى» لابن العربي (٧٩/٢).

(٣) كما في الحديث: «... فيكملها مائة رحمة لأوليائه يوم القامة» صحيح على شرط الشيخين، انظر «زوائد الموطأ والمسنَد» (٥٣/١).

و(الرحيم): عامٌ في اللفظ، خاصٌ في الأثر، لأن اسم الرحيم قد يقع على غير الله، فهو من هذا الوجه عام، إلا أنه خاص في الأثر، لأن هذه الرحمة مختصة بالمؤمنين.

الثاني: أن (الرحمن) دالٌّ على الصفة الذاتية، التي لا تنفك عن الله ﷻ، و(الرحيم) دالٌّ على الصفة الفعلية التي تتعلق بمشيئته وإرادته.

الثالث: أن (الرحمن): مختصٌ به سبحانه لا يجوز أن يُسمَّى به أحدٌ غير الله تعالى، ولا يُوصف به غيره، قال ﷺ: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]، فعادل به اسم الجلالة (الله)، الذي لا يشركه فيه غيره، أما (الرحيم): فيوصف به المخلوق، قال تعالى عن نبيِّنا محمد ﷺ: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ولهذا بدأ الله ﷻ بـ(الرحمن)، لأنه أخصُّ، وأعرف من (الرَّحِيم)، ولذا قدم عليه في (البسملة)، و(الفاتحة)، وقدم عليهما لفظ (الجلالة) لأنه أخص منهما، وأعرف، وغيرهما من أسمائه تعالى تبع له، بخلاف العليم، والقدير، والسميع، والبصير ونحوها، لأن التسمية أولاً، إنما تكون بأشرف الأسماء، فلهذا ابتداءً بالأخص، فالأخص^(١).

ولهذا لم يأت (الرحمن) في القرآن الكريم إلا معرّفًا بالألف واللام^(٢)، فلم يأت نكرة، ولا مضافاً^(٣).

هذا إن ذكّرنا جميعاً، أما إن ذكّرنا أحدهما منفرداً عن الآخر فهو متضمن له^(٤).

* * *

(١) انظر هذه الفروق في: «تفسير الطبري» (١/٥٤ - ٥٩)، و«تفسير ابن كثير» (١/٢١)، و«لسان العرب» (١/٢٣٠)، و«الحجة في بيان المحجة» (١/١٢٥). و«مدارج السالكين» (١/٣٤)، و«بدائع الفوائد» (١/٢٣ - ٢٤)، و«شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (١٦٤)، و«الأسنى» (٤٧٦).

(٢) قال ابن القيم ﷺ: ولما كان هذا الاسم مختصاً به تعالى حسن مجيؤه مفرداً غير تابع، كمجيء اسم (الله) كذلك - يعني في نحو قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۙ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ١]، وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وقوله: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَّكَ يَصْرِفُكَ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾ [الملك: ٢٠]. انظر «الفوائد» (١/٢٣ - ٢٤).

(٣) «أسرار ختم الآيات بأسماء الله الحسنى» د. صفاء مصطفى المسلماني (٢٢٩).

(٤) «تفسير سورة النساء» (١/١١)، و«سورة غافر» (٣٧٧/٩) لابن عثيمين ﷺ.

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الرحمن الرحيم الذي لا أرحم منه في العالمين ، "الذي هو أحق بالرحمة من كل أحد" (١):

(١) فهو سبحانه: ﴿أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١] ، وهو: ﴿خَيْرُ الرَّحِيمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩] ، الذي وسعت رحمته كلَّ الخلائق من في الأرض ، والسموات الطوابق من إنس ، وجان ، بل وحيوان ، ونبات ، وجماد ، ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] .

فكل ما أحاط به الكون من العرش فما دونه فاسم الرحمانية تشمله ، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ ﷻ لَهُ، مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [طه: ٥ - ٦] .

(٢) فهو تعالى ذو الرحمة الواسعة ، التي لا غاية بعدها في الرحمة ، ولا نظير لها ، فبحار رحمته سبحانه لا شاطئ لها ، ولا حدود لها ، قد طوت جميع الوجود ، ووصلت إلى كلِّ موجود ، فأينما أشرق علمه الواسع ، أشرقت معه رحمته التي وسعت كلَّ مخلوق: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧] .

(٣) فهو تعالى ذو الرحمة الشاملة التي وسعت الخلق جميعهم في أرزاقهم ، وأسباب معاشهم ، ومصالحهم ، فسعة رحمته لعموم تعلقها بكل شيء (٢) .

(٤) فرحمته تعالى عمرت بها الدنيا والآخرة ، وتمَّ بها كل ناقص ، وزال بها كل نقص ، فالكون علويُّه وسفليُّه قد امتلأ برحمة الله تعالى ووسعتهم (٣) ، فرحمته لا تضيق عن شيء ، فهي تسع كل شيء كأننا ما كان (٤) .

(٥) ومن كمال رحمته سبحانه أن "جميع ما في العالم العلوي والسفلي من حصول المنافع ، والمحابِّ ، والمساوئ ، والخيرات ، من آثار رحمته ، كما أنَّ ما صرف عنهم من المكاره ، والمساوئ ، والنِّقم ، والمخاوف ، والأخطار ، والمضارَّ ، من آثار رحمته ، فإنه لا يأتي بالحسنات

(١) «جامع الرسائل» لابن تيمية (١٣٧/١) .

(٢) «بدائع الفوائد» (٤٠٤/٢) ، و«شأن الدعاء» للخطابي (٣٨) ، و«تفسير أسماء الله الحسنى» للزجاج (٢٨) ، و«شرح أسماء الله الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (٢٨٩/٢) ، و«تيسير الكريم المنان» (٣٩) .

(٣) «تفسير السعدي» (١٠٢٨ ، ١٢٠٩) .

(٤) «العذب النمير» (٢٠٢/٤) عن «صفة الرحمن من الكتاب والسنة» عبد الهادي بن حسن وهي (٥٩) .

إلا هو، ولا يدفع السيئات إلا هو" (١)، قال سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

(٦) فهو سبحانه الرحمن: ذو النهاية في الرحمة العظيمة، التي لا تدانيها أي رحمة، رحمة شاملة لجلال النعم وعامتها، وأصولها، وفروعها، ولا شيء سواه بهذه الصفة (٢).

(٧) فهو تعالى ذو الرحمة العامة التامة، وهي التي تتناول المستحق وغير المستحق، وعمت الدنيا والآخرة، وتناولت الضرورات، والحاجات، والمزايا الخارجة عنها (٣).

(٨) فهو ﷻ: أرحم بنا من كل راحم، أرحم بنا من آبائنا، وأمهاتنا (٤)، وأولادنا، كما قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء: ١١]، وهذا يدل على أنه تعالى أرحم بعباده من الوالدين، حيث أوصى الوالدين بأولادهم مع كمال شفقتهم عليهم، فعلم أنه أرحم بهم منهم (٥).

بل هو تعالى أرحم بنا منا بأنفسنا (٦)، فهو سبحانه أرحم بالعبد من نفسه، كما هو أعلم بمصلحة العبد بنفسه (٧).

(٩) ومن كمال رحمته سبحانه: أنه "يرحم من لا يرحم نفسه" (٨) ولهذا حذرنا نفسه سبحانه رافة بنا ورحمة، حتى لا نتعرض لسخطه، فهو تعالى رحيمٌ بخلقه، يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم، ودينه القويم، وأن يتبعوا رسوله الكريم (٩).

(١٠) وهو الرحمن سبحانه: العطوف على (جميع العباد): بالإيجاد أولاً، (وخواصهم): بالهداية إلى الإيمان، وأسباب السعادة ثانياً، والإسعاد في الآخرة ثالثاً، والإنعام بالنظر إلى وجهه الكريم رابعاً (١٠).

(١١) وهو الرحيم: بعباده المؤمنين، الذي خصهم بها في الدارين، في عاجل الدنيا: بأن

(١) انظر: «فتح الرحيم الملك» لابن السعدي (١٥).

(٢) «تفسير النسفي» (٨٩)، و«الموسوعة» للشرباصي (٢٧/١).

(٣) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (٢٥/١).

(٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ رجلٌ ومعه صبيٌّ، فجعل يضمه إليه، فقال النبي ﷺ: «أترحمه؟» قال: نعم، قال: «فالله أرحم بك منك به، وهو أرحم الراحمين»، صحيح الأدب المفرد (٢٩٠).

(٥) «تفسير ابن السعدي» (٣٠٤)، وابن كثير (٦٢٩/١)، وانظر «مجموع الفتاوى» (٤٠٠/١، ٤٤٨/١٦).

(٦) «بحر العلوم» (٥٧٢/١)، و«السراج المنير» (٥٩٦/١)، و«تيسير الكريم المنان» (٥٦١).

(٧) «إغاثة اللفهان» (١٧٤/٢).

(٨) «الأسنى» (٢٣٩/١).

(٩) «تفسير ابن كثير» (٤٩٤/١)، و«تفسير النسفي» (١٥٦).

(١٠) «المقصد الأسنى» (٦٢).

هداهم إلى الإيمان واليقين ، وفي الآخرة: بالثواب الجزيل المقيم ، في جنات النعيم^(١).

(١٢) ومن تمام رحمة أرحم الراحمين: تسليط أنواع البلاء على العبد ، فإنه أعلم بمصلحته ، فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثير أغراضه وشهوته من رحمته به^(٢).

(١٣) ومن كمال رحمته تعالى: أنه ينجي أنبياءه ورسله وأتباعهم من أعدائهم ، قال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: ٥٨] ، وقال ﷺ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: ٩٤] .

(١٤) ومن تمام رحمته "وأثارها الخاصة والعامة:

أ) أنه تعالى أرسل إلينا رسوله ﷺ ، وأنزل علينا كتابه ، وعصمنا من الجهالة ، وهدانا من الضلالة ، وبصرنا من العمى ، وأرشدنا من الغي ، وأرشدنا لمصالح ديننا ، ودنيانا ، قال ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [نوس: ٥٧] ، وقال تعالى: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ يُبَيِّنُ لَكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [الأنعام: ١٥٧] .

ب) ومن كمال رحمته سبحانه: أن عرفنا من أسمائه الحسنی ، وصفاته العلا ، وأفعاله التمام الهدى ، ما عرفنا به أنه ربنا ومولانا ، وخالقنا ، وموجدنا ، فأني نعمة ، ورحمة أسمى من ذلك ؟
ج) وبرحمته: أطلع الشمس ، والقمر ، وجعل الليل والنهار ، والأرض جعلها مهاداً ، وفراشاً ، وقراراً .

د) ومن رحمته تعالى: أنشأ السحاب ، وأمطر المطر ، وأطلع الفواكه ، والأقوات ، والمرعى .
هـ) ومن رحمته سبحانه: أن سخّر لنا الخيل والإبل ، والأنعام ، وذلكلها منقاداً للركوب ، والحمل ، والأكل ، والدر^(٣).

(١٥) ورحمة العباد مسبقة برحمته سبحانه ، وملحوقه برحمته تعالى ، فكل من يرحم غيره فلا يكون ذلك إلا بمعونة رحمة الله تعالى ، فلو لم يخلق الله تعالى في قلب العبد تلك الدواعي والإرادات لاستحال صدور ذلك الفعل عنه^(٤).

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٥٥/١) ، و«تفسير أسماء الله» للزجاج (٢٨) ، و«شأن الدعاء» للخطابي (٣٨).

(٢) «إغاثة اللهفان» (٢٥٢/٢).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «قَدِمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ سَبِيٌّ، فَإِذَا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبِيِّ تَحْلُبُ تَسْقَى، إِذَا وَجَدَتْ صَبِيًّا فِي السَّبِيِّ أَخَذَتْهُ، فَالْصَّقَتْهُ بِبَطْنِهَا وَأَرْضَعَتْهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَتُرَوْنَ هَذِهِ طَارِحَةً وَلِدهَا فِي النَّارِ؟» قُلْنَا: لَا، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ، فَقَالَ: «لَلَّهِ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ، مِنْ هَذِهِ بَوْلِدهَا». «البخاري» (٥٩٩٩) ، و«مسلم» (٢٧٥٤).

(٣) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة» (٣٤٨/٢) ، و«شفاء العليل» (٦٢٣/٢).

(٤) «التفسير الكبير» للرازي مج (١١) (٢٠٩/٢٢).

(١٦) ومن رحمته العظيمة: أن شرع لخلقه ما يصون أموالهم وأنفسهم ، ونهى عن إضاعتها وإتلافها ، فرتّب على ذلك ما رتّب من الحدود الشرعية ، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَحْرَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩]^(١).

(١٧) ومن كمال رحمته تعالى: أنها مقدّسة عن غرض في عِوض ، أو عود نفع ، أو دفع ضرر^(٢) ، بل هي من الله تعالى فضلٌ محضٌ .

فقل ما شئت عن رحمته سبحانه فإنها فوق ما تقول ، وتصور ما شئت فإنها فوق ما يخطر بالبال^(٣) أو يدور بالخيال .

✽ ورحمة الله ﷻ لعباده نوعان: رحمة عامة ، ورحمة خاصة:

الأولى: رحمة عامة: وهي الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في دنياهم ، بإيجادهم ، وتربيتهم ، ورزقهم ، وإمدادهم بالنعم والعطايا ، وتصحيح أبدانهم ، وتسخير المخلوقات ، والجمادات لهم ، في طعامهم ، وشرابهم ، ومساكنهم ، ونومهم ، وحركاتهم ، وسكناتهم ، فكل الخلق مرحومون برحمة الله سبحانه .

الثانية: رحمة خاصة: فهذه التي تكون بها سعادة الدنيا والآخرة ، وهذه الرحمة لا تكون إلا لأوليائه المؤمنين ، الذين تستمر رحمتهم في الدنيا يوم الدين .

ففي الدنيا: بتوفيقهم إلى الهداية ، والصراط المستقيم ، من العلم النافع ، والعمل الصالح القويم ، والإيمان ، واليقين ، وينصرهم على أعدائهم من الكافرين والظالمين ، ويدفع عنهم الشرور ، والمهالك ، والمصائب ، ويرزقهم الحياة الطيبة التي تعود عليهم بالمنافع الدنيوية والدينية ، قال رب العالمين: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥] ، قال ﷺ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ^٤ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٨٤] ، ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٦-٥٧]^(٤).

(١) «تفسير السعدي» (١٧٥).

(٢) «الأمد الأقصى» (٩١/٢).

(٣) انظر: «تفسير السعدي» (٧٠٨).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٧٩/٨) ، و«شفاء العليل» (٢٦٣) ، و«مختصر الصواعق المرسلة» (٣٠٣/٢) ، و«تفسير

سورة الفاتحة» (١١/١) ، و«سورة البقرة» (١٢١/٢) ، و«أحكام من القرآن» لابن عثيمين (٢٥/١) ، (١٨٤).

وهذه الرحمة الخاصة التي يطلبها الأنبياء، وأتباعهم، تقتضي التوفيق للإيمان، والعلم، والعمل، وصلاح الأحوال كلها، والسعادة الأبدية، والفلاح، والنجاح، وهي المقصود الأعظم لخواص الخلق، كما في دعاء سليمان عليه السلام: ﴿وَادْخُلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل ١٩] (١).

وتتجلى في الآخرة: في أعلى مظاهرها، وكمالها، وسعتها، في السعادة الأبدية، في دخولهم جنات الله العلية (٢)، والتمتع برؤية رب البرية، ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]

﴿رحمته سبقت غضبه: قال ﷺ: «لما قضى الله الخلق، كتب في كتابٍ فهو عنده، موضوع على العرش: إنَّ رحمتي تغلب (٣) غضبي» (٤)، "وهذا الكتاب العظيم الشأن، كالعهد منه سبحانه للخلق كلهم، بالرحمة لهم، والعفو عنهم، والمغفرة والتجاوز والستر، والإمهال والحلم، فكان قيام العالم العلوي والسفلي، بمضمون هذا الكتاب، الذي لولاه لكان للخلق شأن آخر" (٥).

ولهذا وصف نفسه بالرحمة، وتسمى بالرحمن: قبل أن يكون بنو آدم (٦).

ولهذا كتب سبحانه على نفسه الرحمة ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ولم يكتب على نفسه الغضب، وسع كل شيء رحمةً وعلماً، ولم يسع كل شيء غضباً، وانتقاماً (٧)، وهذا هو اللائق بشأن أرحم الراحمين، ولولا ذلك لكنا جميعاً خاسرين، هالكين (٨)، لأننا لم نقم بما يستحقه سبحانه من العبودية، مع كثرة تفريطنا، وتقصيرنا في حقه جل في علاه.

✽ والرحمة المضافة إلى الله تعالى قسمان:

✽ القسم الأول: رحمة ذاتية هي صفته غير مخلوقة تليق به سبحانه كسائر صفاته، وهي مضافة إلى الله تعالى من إضافة الصفة إلى الموصوف بها، فإن الله تعالى بصفاته هو الأول الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، وهي التي تنقسم كما تقدّم: رحمة عامة، ورحمة

(١) «الحق الواضح» (٨٣).

(٢) كما في الحديث في مخاطبة الله ﷻ الجنة: «...أنت رحمتي، أرحم بك من أشياء» [البخاري] (٤٥٦٩).

(٣) وفي رواية: «سبقت غضبي».

(٤) «البخاري» (٧٤٠٤)، «مسلم» (٢٧٥١).

(٥) «مختصر الصواعق المرسلة» (٣٠٣/٢).

(٦) «المصدر السابق» (٣٤٥/٢).

(٧) «فوائد الفوائد» (٢٢٦).

(٨) «السراج الوهاج» (٦٣/١١).

خاصة ، وقد تقدم ذكر الأدلة على ذلك .

✽ القسم الثاني: رحمة مخلوقة ، وهي مضافة إلى الله سبحانه من إضافة المفعول إلى فاعله ، أي: أضافها إليه إضافة المخلوق إلى خالقه ، أنزل الله ﷻ منها رحمة واحدة يتراحم بها كل الخلائق^(١) ، كتسمية الله تعالى للمطر رحمة ، ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧] ، فهذه رحمة مخلوقة أضافها إليه إضافة المخلوق إلى خالقه .

وكما في قوله سبحانه في الحديث القدسي ، أنه تعالى قال للجنة: «أنت رحمتي أرحم بك من أشاء»^(٢) ، أطلق عليها اسم رحمته ، لأنها محل رحمته ، ولأنها مقر عباد الرحمن ، وسكن الرحماء من عباد الله^(٣) ، وهذه الرحمة المخلوقة ناشئة عن الرحمة التي هي صفة الرحمن^(٤) ، أي: أثر من صفة رحمته الذاتية .

فالقسم الأول: يجوز الدعاء والتوسل بها ، كما في دعائه ﷻ في الكرب: «يا حيُّ يا قيوم برحمتك أستغيث»^(٥) ، "فإن الرحمة هنا صفته ﷻ"^(٦) ، أما الثانية فلا يجوز التوسل والدعاء بها ، لأنها ليست صفته سبحانه ، بل هي أثر منها .

ولمعرفة ما إذا كان النص فيه دلالة على إثبات الصفة ، فإن هذا يحدده السياق ، وما يحفُّ به من القرائن اللفظية ، والحالية^(٧) .

✽ الرحمن على العرش استوى: يقرن الله ﷻ استواءه على العرش بهذا الاسم الجليل كثيراً ، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلَّ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الفرقان] ، وذلك أن العرش هو أعظم المخلوقات على الإطلاق ، المحيط بها من جميع الجهات ، والرحمة محيطة بجميع الخلائق ، وسعت من في الأرض والسماوات ، فاستوى على أوسع المخلوقات ، وهو عرشه ، بأوسع الصفات ، وهي رحمته^(٨) .

(١) كما سيأتي ذكر الروايات .

(٢) البخاري (٤٨٥٠) ، ومسلم (٢٨٤٦) .

(٣) «أحكام من القرآن الكريم» للعلامة ابن عثيمين ﷻ (٤٦٥/١) ، وينظر: «بدائع الفوائد» (١٥٨/٢) ، و«الكواشف الجلية عن معاني الواسطية» للشيخ عبد العزيز السلطان ﷻ (٢٠٨) .

(٤) انظر: «حادي الأرواح» لابن القيم (٤٠٥) .

(٥) «صحيح الترمذي» (٣٥٢٤) .

(٦) «بدائع الفوائد» (٦٧٨/٢) .

(٧) ينظر: «مجموع الفتاوى» (١٤/٦ ، ١٨) .

(٨) انظر «مدارج السالكين» (٣٤/١) ، «مختصر الصواعق المرسلة» (١٢١/٢) .

جلال الرحمن الرحيم

الأول: من جلال رحمته تعالى: أنه خلق: «مائة رحمة، أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس، والبهائم، والهوام، فبها يتعاطفون، وبها يتراحمون، وبها تعطف الوحش على ولدها، وأخر الله تسعاً وتسعين رحمة، يرحم عباده يوم القيامة»، وفي لفظ: «كل رحمة طباق ما بين السماء والأرض»^(١). فاشترك كل الخلائق بهذه الرحمة في الدين «حتى حنَّت المخلوقات بعضها على بعض بهذه الرحمة التي نشرها عليهم وأودعها في قلوبهم، وحتى حنَّت البهائم التي لا ترجو نفعاً، ولا عاقبة، ولا جزاءً على أولادها، وشوهد من رأفتها بهم، وشفقتها العظيمة، ما يشهد بعناية باريها، ورحمته الواسعة»^(٢).

واستأثر الله ﷻ المؤمنين بتسع وتسعين رحمةً يوم القيامة، فكانت لهم الرحمة التامة، في الدنيا والآخرة، فما ظنَّكَ رحمني الله وإيَّاكَ بتسع وتسعين رحمة كتبها الرحمن لأوليائه في ذلك اليوم العظيم، فإذا كانت رحمة واحدة يتراحم بها الخلائق من لدن أبي البشر إلى يوم الحشر، سبحانه ما عبدناك حقَّ عبادتك.

الثاني: ومن جلالها: أنها عمَّت حتى الكافر، "فإنه تعالى قرن الرحمة مع العلم، في السعة والشمول، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر: ٧]، فكل ما بلغه علم الله تعالى، وعلم الله تعالى بالغ لكل شيء، فقد بلغته رحمته، فكما يعلم تعالى الكافر، يرحم الكافر، لكن رحمته للكافر رحمة جسدِيَّة، بدنيَّة، دنيويَّة، مختصة بالدنيا، من الرزق، والطعام، والشراب، والملبس، والمسكن، والمنكح، وغير ذلك، أما المؤمنون فرحمتهم رحمة أخصَّ من هذه وأعظم، فهي في الدنيا والآخرة، لأنها رحمة إيمانية، دينية، دنيويَّة" ^(٣)، أخرويَّة.

الثالث: ومن جلالها: أنها رحمة بعزة، وقوة، وغلبة، ومنعة، وغنى، لا رحمة ضعف وذلة، وحاجة، كالبرية، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩]، وقال ربنا الرحمن الرحيم: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

(١) «مسلم» (٢٧٥٢ - ٢٧٥٣) واللفظ له، و«البخاري» (٥٦٥٤).

(٢) فتح الرحيم الملك (١٥).

(٣) انظر «شرح الواسطية» للعلامة (٢٤٩/١) لابن عثيمين.

الرابع: ومن جلالها: "أنه تعالى أوجب على نفسه الرحمة، وهو إيجاب تفضل وإنعام، ليس إيجاب استحقاق ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]"^(١).

الخامس: ومن جلال رحمته تعالى: "أنها لا تقتصر على المؤمنين فقط، بل تمتد لتشمل ذريتهم من بعدهم، تكريماً لهم"، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]^(٢)، فدل هذا على أن صلاح الآباء داعٍ إلى صلاح الأبناء^(٣).

السادس: ومن جلال رحمته تعالى: "أنها تتضمن أنه لا يهلك عليه أحد من المؤمنين به، من أهل توحيده ومحبته"^(٤).

السابع: ومن جلالها: "أنها السبب والتعلق الذي بين الله، وبين عباده، فهي السبب الواصل بينه وبينهم، بها أرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم كتبه، وبها هداهم، وبها اسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم، وأنعم عليهم، فبينهم وبينه، سبب العبودية، وبينهم وبينه، سبب الرحمة، (ومن أخص هذا الجلال): شهود المصلّي نصيبه من الرحمة الذي أقامه بها بين يدي ربّه، وأهله لعبوديته، ومناجاته، وأعطاه، ومنع غيره، وأقبل بقلبه، وأعرض بقلبه غيره"^(٥).

الثامن: ومن جلال رحمته: أنه كما "خلق الجنة برحمته، [كذلك أنه خلق] النار أيضاً برحمته، فإنها سوطه الذي يسوق به عباده المؤمنين إلى جنّته، ويطهر بها أدران الموحّدين من أهل معصيته، وسجنه الذي يسجن فيه أعداءه من خليقته"^(٦)، فسيحان من رحم في عدله، وعقوبته، كما رحم في فضله، وإحسانه، ومثوبته^(٧).

التاسع: ومن جلالها: "أنه سبحانه لا يؤاخذنا بالغفلة عن شكر نعمه، والقصور عن إحصائها، والعجز عن القيام بأدائها"^(٨).

(١) «اللائئ البهية في شرح العقيدة الواسطية» لمعالي الشيخ صالح آل الشيخ (١/٣٥٩).

(٢) «أسماء الله الحسنى» للرضواني (٢٤٠).

(٣) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٤/٤٩٨).

(٤) «الجواب الكافي» (١٦٨).

(٥) «مدارج السالكين» (١/٣٥).

(٦) «الصلاة» لابن القيم (١٧٤).

(٧) «تفسير السعدي» (٥١٣).

(٨) ينظر: «فتح القدير» (٣/١٩٥).

العاشر: ومن جلال رحمته تعالى: "إدامته علينا، وإدراها في كل لحظة، وعند كل نفس تنتفسه، وحركة نتحركها، قال الله العظيم: ﴿وَلَنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ" [النحل: ١٨]، فإن نعمه الظاهرة والباطنة على العباد بعدد الأنفاس واللحظات ما لا يحصيه المحصون، ولا يعدّه العادّون من جميع أصناف النعم، ممّا يعرف العباد ومما لا يعرفون، وما يدفع عنهم من النقم، فأكثر من أن تحصى" (١).

الحادي عشر: ومن جلال رحمته سبحانه بعباده: "أَنَّ نَعَصَ عَلَيْهِم الدُّنْيَا لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئئوا إليها، ويرغبوا في النعيم المقيم في دار جواره، فساقهم على ذلك بسياط الابتلاء، والامتحان، فمنعهم ليعطيهم، وابتلاهم ليعافهم، وأماتهم ليعيهم" (٢).

الثاني عشر: ومن جلال رحمة ربنا سبحانه: أَنَّهَا "إذا أدركت أحداً أغنته عن رحمة غيره، ورحمة غيره لا تغنيه عن رحمته، قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّحِيمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٨] (٣).

الثالث عشر: ومن جلالهما: "أن الرحمن: بجميع خلقه في الأمطار، ونعم الحواس (وهي) النعم العامة، والرحيم: بالمؤمنين في الهداية لهم واللفظ بهم، برحمة النفوس ورحمة القلوب، فالرحمن: أمدح، والرحيم: ألطف" (٤).

الثمرات

إن هذين الاسمين يثمران تجريد محبة الله ﷻ، وعبودية الرجاء والتعلق برحمة الله، والتعرض للأسباب التي تستوجب رحمته الخاصة التي من أعظمها:

طاعة الله تعالى ورسوله ﷺ: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، وتقوى الله، قال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]، فالتقوى هي: أعظم سبب في حصول الرحمة من الرب.

الإحسان: ﴿إِنْ رَحِمْتَ اللَّهُ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، أي: المحسنين "في عبادة الله، المحسنين إلى عباد الله، فكلما كان العبد أكثر إحساناً، كان أقرب إلى رحمة ربه، وكان ربه قريباً

(١) «طريق الهجرة» (٥٧٠).

(٢) «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» لابن القيم (٢/٢٤٤).

(٣) «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» (٧٦٧).

(٤) «البحر المحيط في التفسير» (٣١/١).

منه برحمته ، وفي هذا من الحث على الإحسان ما لا يخفى ^(١).

وكذلك الاستغفار: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦]

والاستماع للقرآن: قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٤] ، واتباعه علماً ، وعملاً ، في كل الأحوال ، قال ﷺ: ﴿وَهَذَا كِنْدُبٌ أَنْزَلَنَاهُ مَبَارَكُ فَاتَّبِعُوهُ وَأَنْقُضُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥] ، "فأكبر سبيل لنيل رحمة الله: اتباع هذا الكتاب ، علماً ، وعملاً" ^(٢) ف"القرآن العظيم ، أعظم رحمةٍ رحم بها الرحمن عباده ، فمن قبلها ، فقد قبل خير المواهب ، وفاز بأعظم المطالب ، والرغائب" ^(٣).

والدعاء ، والاستغاثة بالرحمة من الرحمن: قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨] ، وقال تعالى: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥] ^(٤).

وتخصيص الدعاء بالرحمة للوالدين: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤] ، وامتلاء القلب بالرحمة والعطف مع الإنسان ، والحيوان ، قال ﷺ: «الراحمون يرحمهم الله ، ارحموا من في الأرض ، يرحمكم من في السماء» ^(٥) ، وقال ﷺ وهو على المنبر: «ارحموا تُرحموا ، واغفروا يغفر لكم» ^(٦).

والأمر بالمعروف والنهي عن النكران ، قال ربُّ العالمين: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

(١) تفسير السعدي (٢٩٢). والإحسان هو أعلى مراتب الإيمان ، وقد فسره خير الأنام ﷺ بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك». البخاري (٥٠) ، ومسلم (٩).

(٢) «تفسير السعدي» (٣٦٨).

(٣) المصدر السابق (١٠٧٧).

(٤) ختم هذا الدعاء بقوله: ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾: وفي هذا استحضر العبد لرحمة الله ﷻ ، فإنه لا يجاب منه الدعاء بدونها ، وهي ممّا يقتضي أن يتفضل الله بها عليه ، وإذا تفضل عليه بها ، أجاب دعاءه ، ولبيّ نداءه. «تحفة الذاكرين» للشوكاني (٣٠٣).

(٥) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٩٢٥).

(٦) «صحيح الجامع» (٨٩٧). وقال ﷺ: «من رحم ولو ذبيحة عصفور ، رحمه الله يوم القيامة». «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٢٧) ، و«صحيح الجامع» (٦٢٦١).

والذكر في السرّ والإعلان، في اللسان والجَنَان: قال ﷺ: «عليك بالتسبيح والتهليل والتقديس، واعقدن بالأنامل، فإنهنَّ مسؤولات مُستنطقات، ولا تغفلن فتنسين الرحمة»^(١).

واعلم يا رعاك الله، "أنَّ أقرب القلوب إلى الله تعالى، أرحمها بعباد الله سبحانه، قال أنس رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ: أرحم الناس بالعيال»^(٢)، والله سبحانه إذا أراد أن يرحم عبداً: أسكن في قلبه الرأفة والرحمة.

واعلم أنَّ أبعد القلوب منه عزَّ شأنه: من اتَّصف بضدِّها، من الغلظة والقسوة، قال ﷺ: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»^(٣).

وقد أخبر ﷺ أنَّ الله تعالى لا يضع رحمته إلا على عبدٍ يوصل رحمته إلى عموم الخلق دون خاصتهم: «والذي نفسي بيده لا يضع الله رحمته إلا على رحيم»، قالوا: يا رسول الله، كلُّنا يرحم، قال: «ليس برحمة أحدكم صاحبه، يرحم الناس كافة»^(٤).

قال الإمام القرطبي رحمه الله: نذب ﷺ إلى الرحمة والعطف على اختلاف أنواعها في غير حديث، وأشرفها رحمة الأدمي، وإن كان كافراً، وقد مدح الله أقواماً فقال: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

فكن رحيماً لنفسك ولغيرك، ولا تستبد بخيرك، فارحم الجاهل بعلمك، والذليل بجاهلك، والفقير بمالك، والكبير والصغير بشفتك، والعصاة بدعوتك، والبهايم برعوتك، ورفع عنقك، فأقرب الناس من رحمة الله أرحمهم بخلقه، وقد دخلت البغيُّ الجنة بسقيها كلباً.

فمن كثُرَتْ منه الشفقة على خلقه والرحمة على عباده رحمه الله برحمته، وأدخله دار كرامته، ووقاه عذاب قبره، وهو موقفه، وأظله بظله، إذ كلُّ ذلك من رحمته، ولا تدلُّ بعملك، وكثرت، وإخلاصك فيه فتكل عليه دون رحمته.

ومن رحمتك لنفسك: أن تطلب النجاة من النار، والفوز بالجنة بتقوى الله، وحفظ حدوده،

(١) «صحيح الترمذي» (٣٥٨٣).

(٢) مسلم (٢٣١٦).

(٣) «صحيح أبي داود» (٤٩٤٢). وقال: «من لا يرحم لا يُرحم». «صحيح البخاري» (٥٩٩٧)، ومسلم (٢٣١٨). وقال ﷺ: «أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق، ورجلٌ رحيمٌ رقيق القلب بكل ذي قربى، ومسلم عفيفٌ متعفف ذو عيال». مسلم (٢٨٦٥). كتاب «الروح» لابن القيم (٥٥٦) بتصرف يسير.

(٤) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٦٧).

والعمل بما يرضاه... " (١).

ومن عبودية هذين الاسمين الكريمين: أن يحسن الظنَّ بربه الرحمن الرحيم في كلِّ ما يتلوه من المشاقِّ والمصائب ، فإنَّ ذلك لا ينافي رحمته التي وسعت كل شيء .

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "ومما ينبغي أن يُعلم: أن الرحمة صفة تقتضي إيصال المنافع والمصالح إلى العبد ، وإن كرهتها نفسه ، وشقَّت عليها ، فهذه هي الرحمة الحقيقية ، فأرحم الناس بك من شقَّ عليك في إيصال مصالحك ، ودفع المضارِّ عنك .

فمن رحمة الأب بولده: أن يُكرهه على التأدُّب بالعلم والعمل ، ويشقَّ عليه في ذلك بالضرب وغيره ، ويمنعه شهواته التي تعود بضرره ، ومتى أهمل ذلك من ولده كان لقلَّة رحمته به ، وإن ظنَّ أنه يرحمه ويرفقه ويريحه ، فهذه رحمة مقرونة بجهل ، كرحمة الأم .

ولهذا كان من تمام رحمة أرحم الراحمين: تسليط أنواع البلاء على العبد ، فإنه أعلم بمصلحته: فابتلاؤه له وامتحانه ومنعه من كثيرٍ من أغراضه وشهواته من رحمته به ، لكن العبد لجهله وظلمه يتهم ربَّه بابتلائه ، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه ... ، (ولهذا) فمن رحمته سبحانه بعباده: ابتلاؤهم بالأوامر والنواهي رحمةً وحمية ، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به ، فهو الغني الحميد ، ولا بخلاً منه عليهم بما نهاهم عنه ، فهو الجواد الكريم " (٢).

وبالجملة: إن "حظَّ العبد من اسم (الرحمن ، الرحيم): أن يكون كثير الرحمة ، بأن يرحم نفسه أولاً: ظاهراً ، وباطناً ، ثم يرحم غيره بتحصيل مراده ، وإرشاده ، والنظر إليه بعين الرحمة" (٣).



(١) «الأسنى» (١/٨٦ - ٩٠).

(٢) «إغاثة اللهفان» (٢/٢٥٢ - ٢٥٤).

(٣) «تفسير البروسوي» (٤/٢٨٢).

٤- الله الحيُّ جل جلاله

قال ﷻ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان: ٥٨]

المعنى اللغوي

الحي: صفةٌ مشبهةٌ للموصوف بالحياة، والحياةُ ضدُّ الموت، والحيُّ كلُّ متكلمٍ ناطقٍ، وسمي المطر حياً، لأنه به حياة الأرض بعد موتها، قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ [الأنبياء: ٣٠] ^(١)، والحيُّ: الباقي، بدليل قوله سبحانه: ﴿وَلَسْتَ حَيُّونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩] أي: يستبقوهن في قيد الحياة ^(٢).

وهذا الاسم الجليل لرَبِّنا العظيم، يدلُّ على كمال حياته ﷻ، وتمامها من جميع الوجوه والاعتبارات، "كما أفاد (أل) الذي يفيد الاستغراق والشمول، فليس في الوجود موجود له حياة من ذاته لذاته، إلا الله ﷻ وحده" ^(٣)، فإذا قيل: (الله حيُّ) معناه: أنه الذي لا يصحُّ عليه الموت، ولا يتَّصف بذلك أحدٌ سواه ^(٤).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هي الحيُّ الذي لا يموت أبداً، الذي له أتم الحياة، وأكملها، وأسماءها على الإطلاق:

(١) فهو سبحانه ذو الحياة الكاملة العظيمة، الكاملة في وجودها، والكاملة في زمانها، والكاملة في أوصافها:

أ- فهي كاملة في وجودها: أن حياته ووجوده تعالى من ذاته لذاته، لا من سبب خارج، أو لعل خارجة استفاد منها.

(١) «معجم مقاييس اللغة» (١٢٢/٢)، و«لسان العرب» (١٠٧٥/٢)، و«المفردات» (٢٦٩).

(٢) «تلخيص الأدلة لقواعد التوحيد» (٤٥٣/١)، «عمدة الحفاظ» (٤٨٠/١).

(٣) «الأسنى» (٣٧٧)، وتفسير سورة البقرة لابن عثيمين (٢٥١/٣).

(٤) «عمدة الحفاظ» (٤٧٧/١).

ب - وهي كاملة في زمانها: فهو الحيُّ سبحانه لا أوَّل له بحدٍّ، ولا آخر له أمد، إذ كلُّ ما سواه تعالى فإنه وإن حيا فلحياته أوَّل محدود، وآخر ممدود، ينقطع بانقطاع أمدها، وينقضي بانقضاء غايتها.

ج - وكاملةٌ في أوصافها: أي: متضمنة للحياة الكاملة المستلزمة لجميع صفات الكمال، التي لا تتم، ولا تكمل الحياة إلا بها^(١).

(٢) فهو سبحانه الحيُّ: الذي لم يسبق وجوده عدم، ولم تحدث له الحياة بعد الموت، ولا يعترضه الموت بعد الحياة، وسائر الأحياء يعترضهم الموت أو العدم في أحد طرفي الحياة، أو فيهما معاً، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣]^(٢).

(٣) والله سبحانه هو الحيُّ: الباقي، الذي لا يجوز عليه الموت، ولا يلحقه زوال، فلا يفنى، ولا يبید، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً^(٣)، قال سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْيَّحْيَى الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

(٤) فمن كمال حياته وتمامها: أنه جلَّ شأنه لا تأخذه سنةٌ، ولا نومٌ، ولا نقص، ولا ضعف، ولا سهوٌ، ولا غفلةٌ، ولا عجزٌ، ولا موتٌ بأيِّ حالٍ من الأحوال، قال سبحانه: ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ...»^(٤).

(٥) وهو الحيُّ سبحانه: الدائم الذي لم يزل، ولا يزال باقياً، الذي لا انصرام لوجوده، ولا انقضاء لبقائه، وكل باقٍ سواه، فإنه باقٍ بإبقاء الله له سبحانه^(٥).

(٦) ومن كمالها: أنه تعالى كامل القدرة، نافذ الإرادة والمشیئة، تام القدرة المطلقة التي لا تتخلف في أيِّ حالٍ ولا لحظة، ولا يعصى عليه أي أمر يكون.

(١) انظر: «تفسير سورة البقرة» (٢٥١/٣)، و«سورة آل عمران» (٧/١)، و«شرح عقيدة أهل السنة» (٦٩ - ٧٠) لابن عثيمين، و«تفسير السعدي» (١٢١)، و«تفسير الطبري» (٣٨٦/٥)، و«الأسنى» (٦٨٠)، و«منهج الطوفي في العقيدة» د. إبراهيم المعثم (٢٤٨/١).

(٢) انظر: «شأن الدعاء» (٨٠).

(٣) «اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (١٠٢) بتصرف يسير.

(٤) «مسلم» (٤٤٥).

(٥) «شرح الأسماء الحسنی وفوائدها وخصائصها» لأبي العباس البرنسي (١٢٦)، و«تلخيص الأدلة لقواعد التوحيد» (٤٥٣/١).

(٧) وهو الحيُّ سبحانه: الذي قامت به الحياة ، الذي به حيٌّ كلُّ حيٍّ ، فكل ما سواه تعالى ، حياته قائمةٌ على إحياء الله تعالى^(١) ، قال عز شأنه: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾^(٢) [البقرة: ٢٨] .

(٨) "وهو الذي يحيي النطفة الميتة ، فتخرج منها النسمة الحية ، ويحيي الأرض بإنزال الغيث فيها ، قال تعالى: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ١٨]^(٣) .

(٩) وهو تعالى الحيُّ: الذي يحيي القلوب ، والنفوس ، والأرواح ، بنور المعرفة ، والعلم ، والهدى ، والإيمان ، "فه حيت القلوب من الكفر ، والجهل"^(٤) ، والنكران ، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢] . وقال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] .

(١٠) وهو الذي يحيي الأجسام البالية ، بإعادة الأرواح إليها بعد البعث والنشور^(٥) .

جلال الحي

الأول: أنه يجمع كل صفات الذات ، وهو أصلها ، لا تفوته صفة كمال البتة: من السمع ، والبصر ، والعلم ، والقدرة ، والعظمة ، والإرادة ، والمشية ، والكلام ، وسائر صفات الذات المقدسة الكمال ، ونفى أصدادها من جميع الوجوه من النقصان^(٦) .

الثاني: ومن جلاله: أن حياته ﷻ لها آثارٌ في ملكوته ، ولها آثار في نفس عبده المؤمن ، أما آثارها في ملكوته: أن جعل لكلِّ مخلوقٍ حياة تخصُّه ، وتناسبه ، فحياة الملائكة غير حياة الإنسان ، وحياة الجنِّ غير حياة الإنس ، وحياة الحيوانات تختلف عن حياة الإنس والجن والملائكة ، حتى الجمادات ، والنباتات فاضت عليها آثار اسم الله (الحي) فكانت حيَّة .

(١) وهذا إحياء عامٌ لكل الخلائق ، وهو إحياء الأجساد والأبدان .

(٢) «تفسير الطبراني» (٤٦١/١) ، «جامع الرسائل» لابن تيمية (١٦٦/١) ، أسماء الله الحسنى د. الرضواني (٤٠٧) .

(٣) شأن الدعاء (٧٩ - ٨٠) ، وتفسير أسماء الله الحسنى للرازي (٣٠٥) .

(٤) ينظر «التوحيد» لابن منده (٨٤/٢) .

(٥) انظر: «شأن الدعاء» (٨٠) .

(٦) «التيبان في أقسام القرآن» (٢٠٥) ، و«مجموع الفتاوى» (٣١١/١٨) . و«زاد المعاد» (٢٠٤/٤) و«شفاء العليل»

(٨٢/٢) ، و«الحق الواضح» (٨٨) .

فإنَّ الجمادات فاضت عليها ما يناسبها من الحياة^(١)، ولهذا فإن النبي ﷺ يصف أحداً، فيقول: «هذا جبلٌ يُحِينَا ونُحِيَهُ»^(٢).

وحتى النباتات، والأشجار لها حياة خاصة^(٣): حياة النماء، وحياة أخرى أيضاً بها يسبح، وبها يُوحِّدُ الله ﷻ^(٤).

ومن آثارها في قلب المؤمن: الهداية التي هي حياة القلوب، وما يفتح على قلبه أنواعاً من العلوم، والإيمان والمعارف، وهذا كُلُّهُ يبيِّن أن من آثار اسم الله ﷻ (الحي) أنه يحيي الأرض الميتة، والأجساد البالية، والقلوب الميتة، والمريضة^(٥).

الثالث: ومن جلال حياته سبحانه: "أنه يخرج الأشياء من أضدادها، فيخرج الضدَّ من ضِدِّه، قال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [يونس: ٣١]"^(٦) فيحيي النطفة الميتة فتخرج منها النسمة الحية^(٧).

الثمرات

إنَّ هذا الاسم الجليل يورث المؤمن كمال العبادة: من الإيمان، واليقين، والتي من أعظمها: التوكل عليه، في كلِّ وقتٍ وحين، قال سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْهِدْيِ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَيَحْيِي بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان: ٨٥].

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "... الرب تعالى قد جعل الجمادات قابلة للحياة، ولا يمتنع قبولها لها، فإن الله تعالى قد جعل عصى موسى حية تسعى، فدل على أن الخشب يمكن أن يكون حيواناً، وموسى لما اغتسل جعل ثوبه على حجر ففر الحجر بثوبه، وقد أحيا الله الحوت المشوي الذي كان معه ومع فتاه... والجبال سبحت مع داود، ونظائر هذا كثيرة". مجموع الفتاوى (٢٢/٨).

(٢) «البخاري» (٢٨٨٩)، و«مسلم» (١٣٦٥).

(٣) كما في الصحيح من «حنَّ الجذعُ حنين العشار لفقده رسولَ الله ﷺ»، فضمَّ الرسول إلى صدره فسكن» وفي رواية: "أن النبي ﷺ كان يقوم يوم الجمعة إلى شجرة، أو نخلة، فقالت امرأة من الأنصار أو رجل: يا رسول الله، ألا نجعل لك منبراً؟ قال: «إن شئتم»، فجعلوا له منبراً، فلما كان يوم الجمعة دفع إلى المنبر، فصاحت النخلة صياح الصبي، ثم نزل النبي ﷺ: فضمه إليه يثن أنين الصبي الذي يُسكن، قال: «كانت تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها». «البخاري» (٣٥٨٣) (٣٥٨٤) (٣٥٨٥).

(٤) كما في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: "ولقد كنَّا نسمع تسبيح الطعام، وهو يُؤكل". البخاري (٣٥٧٩).

(٥) انظر: «اللائك البهية في شرح العقيدة الواسطية» لمعالي الشيخ صالح آل الشيخ (٢٣٤/١ - ٢٣٧) وله توسع جميل في آثار هذا الاسم.

(٦) «المنهاج الأسنى في شرح الأسماء الحسنى» د. زين شحاتة (١٣٠/١).

(٧) «الأسنى» (٣٨٣/١).

والاستعاذة به في الدعاء، فإنه تعالى معاذ العبد، وملاذه، وملجؤه، لأنه الحي الباقي الدائم، الذي لا يموت، وكل ما سواه، فإنه ميت لا محالة له، فمن دعاء النبي ﷺ: «اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تُضِلَّنِي، أنت الحي الذي لا يموت، والإنس والجنُّ يموتون»^(١).

وينبغي للمؤمن أن يعلم أن "ذكر الله سبحانه، ومحَبَّته، وطاعته، والإقبال عليه، ضامن لأطيب الحياة في الدنيا والآخرة، والإعراض عنه، والغفلة، ومعصيته: كفيل بالحياة المنغصة، والمعيشة الضنك في الدنيا والآخرة"^(٢)، قال عزَّ شأنه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

واعلم يا رعاك الله أن "الحيَّ حقيقة إنما هو من جاور الرفيق الأعلى، وينعم في الحياة الهنيئة [الأبدية] برؤية الله تعالى، فاجتهد أن تنال من هذا الاسم أوفر قسم، فما قسمه الله إلا لك، ولنوع الملك، ومهما نلت هنا الحياة الحقيقية بإدراك المعارف اليقينية، جاورت الحيَّ الأعلى، في ملكوته، متنعمًا [برؤية وجهه]، ونوره"^(٣)، وبهائه، الذي لا أجمل منه سبحانه^(٤).

واسأل ربك الحيَّ الذي لا يموت أن يحييك الحياة الطيبة في الدنيا ويوم الدين، قال رب العالمين: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

واعلم يا عبد الله "أنك إن حييت هذه الحياة (الطيبة) في هذه الدار لم تمت أبدًا إلا الموتة التي كتبت عليك للنقلة من دارٍ إلى دار، ثم تصير إلى حياة دائمة، وملك لا تحسن أن تتوهمه، فكيف أن تصفه، وإن حرمت هذه الحياة في هذه الدار بقيت فيها تضاهي البهائم والأنعام، فإن الله تعالى قد وصف أقوامًا بالموت والصمم وبأعمى وبأنهم لا يعقلون، ما كانوا في ظواهرهم بأموات ولا بَصُمٌ ولا بُعْمِي، ولكن عميت قلوبهم وصمَّت وبكمت وماتت فلم تنفعهم حياتهم الظاهرة وصفاتهم حين منعوا بركتها، لعدم بركة بواطنهم، فكانوا بذلك خاسرين"^(٥).



(١) «مسلم» (٢٧١٧).

(٢) «مدارج السالكين» (٢٧١/٣).

(٣) «الأسنى» (٣٧٩).

(٤) كما في دعاء النبي ﷺ: «وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك...» صحيح النسائي (١٢٣٧).

(٥) «شرح أسماء الله» لابن برجان (١٢٧/١ - ١٢٩).

٥- الله ﷻ القيوم عز شأنه

قال ﷻ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

قال ﷻ: ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]

المعنى اللغوي

الْقَيُّوم: من أوصاف المبالغة في القيام على الشيء، وزنه: (فيقول) ويطلق: على السيد، والمدبّر، والمصلح، والكفيل، والولي، والملازم، والدوام، والثبات، والعدل والقسط.

فهذا الاسم الجليل له عدّة معاني كمال، والتي منها:

الأول: السيّد: الذي يسوس الأمور، ويدبّرها، بالرعاية، والعناية، والمحافظة، والإصلاح، ومنه قوله تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ [النساء: ٣٤]. وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ إِنْ تَأَمَّنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُوَدِّعْ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥] أي: ملازمًا محافظًا مواظبًا.

الثاني: المتكفّل بالأمر، والقيام به إذا وليه، ويقال: "فلانٌ يقومُ بأمور بني فلان" أي: هو المتكفّل بأمورهم والناظر فيها، وتقول العرب: "قد قام بأمر فلان": إذا اعتنقه وتكفّل به، ويقال: "قمت بالشيء": إذا وليته.

الثالث: الوقوف والثبات والدوام، ومنه حديث حكيم بن حزام رضى الله عنه: «بايعتُ رسول الله ﷺ أن لا أخِرَّ إلا قائمًا»^(١)، أي: لا أموت إلا ثابتًا على الإسلام والتمسك به. يقال: "قام فلانٌ على الشيء" إذا ثبت عليه، وتمسك به^(٢).

وأصل القيوم: الاستقامة، فالله تعالى قيوم وقَيَّام: لأنه تعالى مستقيم الإلهية، فلا إله غيره^(٣).

(١) «صحيح النسائي» (١٠٨٤).

(٢) «كتاب العين» (٤٤٤/٣)، و«لسان العرب» (٣٥٥/١١)، و«الصحاح» (٨٩٣)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (١٠٥ - ١٠٧)، و«تفسير الأسماء» للزجاج (٥٦)، «شأن الدعاء» (٨٠)، «المفردات» (٦٩٠)، و«النهاية» (٧٧٨).

(٣) «تلخيص الأدلة لقواعد التوحيد» (٥٣٤/٢).

الرابع: القسط والعدل: قال سبحانه: ﴿وَكَانَ يَتَرَبَّصُّكَ ذَلِكَ قَوْمًا﴾ [الفرقان: ٦٧] أي: عدلاً، وقال تعالى: ﴿وَذَلِكَ رَيْنٌ أَلْفَيْمَةٌ﴾ [البينة: ٥]، أي: الأمة القيّمة، أي: القائمة بالقسط والعدل^(١). فاسمه (القيوم): يقتضي الدوام والثبات والقوّة، ويقتضي الاعتدال والاستقامة^(٢)، وكذلك: التدبير والإصلاح، والكفالة، والملازمة، والثبات، والعدل الحق الذي لا جور فيه سبحانه.

المعنى الشرعي

الله تعالى هو القيوم القائم على كل الخليفة، بجميع معاني وجودها، جملة وتفصيلاً^(٣):

(١) فهو القائم بنفسه مطلقاً، لا غيره أزلاً وأبداً، فلم يحتاج إلى أحد أن يقيمه بوجه من الوجوه، لكمال غناه وقدرته.

(٢) فهو تعالى المستغني عن جميع خلقه، ولا يفتقر إلى شيء أصلاً، لا في وجوده، ولا في بقائه، ولا فيما اتّصف فيه من الكمال، وما صدر عنه من أفعال، وهذا هو الغنى العالي الذي لا أعلى منه على الإطلاق.

(٣) فهو القيوم سبحانه: الذي قام بنفسه بما هو عليه من كمال الغنى، والعظمة، وقام بجميع المخلوقات، فكل يوم هو في شأن، يدبر الأمر، ويفصل الآيات في كل الأوقات.

(٤) وهو الذي قامت به جميع المخلوقات، من في الأرض والسموات، فكل ما سواه محتاج إليه بالذات، فلا يمكن أن يستغني عنه أحد في أي لحظة من اللحظات، فلا قوام ولا بقاء لها، ولا صلاح إلا بإقامته ﷻ^(٤).

فهي فقيرة إليه من كل وجه، وهو غني عنها من كل وجه، حتى العرش وحملته، فإن العرش إنما قام بالله، وحملة العرش ما قامت إلا بالله تعالى^(٥)، قال عز شأنه: ﴿تَتَّيَّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

(١) «تلخيص الأدلة لقواعد التوحيد» (٥٣٤/٢).

(٢) «جامع المسائل» لشيخ الإسلام ابن تيمية (١٦١/٥).

(٣) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان (١٤٩/١ - ١٥٠).

(٤) ينظر: «التوحيد» لابن منده (١٦٧)، و«جامع المسائل» (٤١/١)، و«درء تعارض العقل والنقل» (١٤/٤)، و«تفسير القرآن العظيم» (٤٢٩/١)، و«بدائع الفوائد» (١٨٤/٢)، و«الصواعق المرسلّة» (١٣٢٩/٤)، و«تيسير الكريم المنان» (١٢١)، و«الأمد الأقصى» (٢٨٧/١).

(٥) «الحق الواضح» (٨٨)، و«اللائي البهية في شرح العقيدة الواسطية» لمعالي الشيخ صالح آل الشيخ (٢٣٧/١).

٥) فهو تعالى القائم على كل الخليفة بجميع معاني وجودها جملة وتفصيلاً: رقة ، وخلقاً ، وأمرًا وقهرًا ، وكل استواء ، واعتدال ، وعدل ، وثبوت ، وقوام ، فهو موجد سبحانه ، قال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥] ^(١).

٦) وهو القيوم سبحانه: المقيم لما سواه: إبداعاً ودواماً ، فهو تعالى القائم على جميع العوالم ، العلوية والسفلية ، ومن فيهما من المخلوقات ، والجمادات ، في جميع أحوالهم: بتدبيرهم ، وأرزاقهم ، وحفظهم ، وبسد خلالتهم ، وفي جميع شؤونهم بالعناية والرعاية ، وإمدادها بكل ما فيه بقاؤها ، وصلاحتها في كل وقت وومضة ، قال عز شأنه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] ^(٢) (٣).

٧) وهو القيوم تعالى: القيم بحفظ كل شيء ، وتدبيره والدفع عنه ، وتصريفه فيما شاء ، وأحب ، من تغير وتبديل ، وزيادة ونقص ^(٤).

٨) وهو القيوم عز شأنه: القائم على كل نفس مكلفة إقامة الدين القيم بما كسبت ، وهي: المراقبة ^(٥) (٦).

٩) وهو تعالى القيوم: الباقي الذي لا يزول ولا يحول ، الدائم في ديمومته وقيوميته بالكمال ، أزلاً وأبداً.

١٠) فهو سبحانه دائماً باقٍ ، لا ينقص عن كماله شيئاً ، فضلاً أن يعدم أو يفنى ، فهو لم يزل ولا يزال موصوفاً بالكمال والجلال العلا ، في كل الأحوال: بذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، وسلطانه ،

(١) «شرح أسماء الله الحسنى لأبي الحكم الإشبيلي (١٤٨/١ - ١٥٠).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (١٢٧/٢) (٢٢٤/٥)، و«بحر العلوم» (٢٢٢، ٢٤٣)، و«الأمد الأقصى» (٢٨٨/١).

(٣) وفي دعاء المصطفى ﷺ في صلاة الليل: «اللهم لك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن...». «البخاري» (١١٢٠)، و«مسلم» (٧٦٩).

(٤) «جامع البيان» (٢٠٩/٢).

(٥) قال ﷺ: «ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً، وعلى جنبي الصراط سوران منهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: يا أيها الناس! ادخلوا الصراط جميعاً ولا تنعوجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط: الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله تعالى، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق: واعظ الله في قلب كل مسلم».

وفي لفظ: «وداع يدعو على رأس الصراط وداع يدعو فوقه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]، والأبواب على كتفي الصراط حدود الله، فلا يقع أحد في حدود الله حتى يكشف الستار» صححه الألباني

في «صحيح الترمذي» (٢٨٥٩)، وفي تخريج كتاب السنة (١٨) (١٩)، وفي «صحيح الجامع» (٣٨٨٧).

(٦) انظر: «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (١٤٨/١).

الذي كل شيء قد حوى .

(١١) وهو القائم تعالى على كل نفس من الأنفس: كائنة من كانت: بالمراقبة، والمحاسبة، والإحصاء، والجزاء، لكل صغيرة وكبيرة، قال سبحانه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣] أي: يحفظ عليها، ويجازيها، ويحاسبها^(١).

(١٢) وهو القيوم سبحانه: القائم على الصراط المستقيم، الذي هو الحكمة، والعدل، والقوام، والإحسان^(٢)، في كل آن، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

(١٣) ومن تمام قِيُومِيَّتِهِ سبحانه: أن قامت السموات والأرض بأمره لا بشيء سواه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَيْدِيهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ [الروم: ٢٥]:

أ) فقامتا بأمره الكوني والشرعي، خضوعاً وإذعاناً له سبحانه، فأقامهما قياماً حسيّاً، فالسموات قائمة بأمره بما فيها من الانتظام في أجرامه العلوية، والأرض: بما أودع فيها من المنافع والمصالح للبرية.

ب) أنه خلقهما معتدلتين لا عيب فيهما ولا نقص ولا خلل، قال سبحانه: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ﴾ [الملك: ٣].

ج) فاستقرتا، وثبتتا بأمره، وقدرته، بلا عمد يعمدهما، ولا مستقرّ يستقرّان عليه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، فهما دائمتان قائمتان، فلم تتزلزلا، ولم تسقط السماء على الأرض، قال سبحانه: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥] ثم إذا كان يوم القيامة، بدلت الأرض غير الأرض، والسموات^(٣).

(١٤) وهو الموجد دين القيمة، وهي الملة المستقيمة على سنن العدل، لا عوج فيها، فغرضه للمقيمين الدين القيم في جبلتها، وعجن به طينتها^(٤).

(١٥) وهو القيوم ﷻ: القائم الذي لا يغفل على تدبير الخلائق، وتصريف كل أمورهم بتمام

(١) ينظر: «اشتقاق أسماء الله» (١٠٥، ١٢٦)، وجامع المسائل (٤١/١، ٥٥)، و«التوحيد» لابن منده (١٦٧)، و«شأن الدعاء» (٨٠)، و«تفسير أبي مظفر السمعاني» (٢٥٧/١، ٢٩١)، و«تفسير القرآن العزيز» لابن أبي الزمين (٢٥٠/١).

(٢) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان اللخمي (١٤٨/١).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٥٨٣/٣)، و«فتح القدير» (٢٦٤/٤)، و«نظم الدرر» (٦١٦/٥)، و«بحر العلوم» (٩/٣)، و«الوسيط في تفسير القرآن المجيد» للواحي (٤٣٢/٣)، و«تفسير سورة النمل» لابن عثيمين (٦٤/٧).

(٤) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان (١٤٧/١ - ١٤٨).

العدل ، الذي لا حيف فيه ، والحق الذي لا باطل فيه ، فهو تعالى متصرف في ملكه لا شائبة لأحد فيه .

(١٦) فهو تعالى القائم بذاته العلا ، المقيم العدل بين الورى ، في حياتهم الدنيا ، والمقيم للقسط بينهم في الأخرى ، بميزان الحق والهدى ، أي: بعقاب العاصي ، وثواب الطائع ، قال الله تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَلَمَلِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ [آل عمران: ١٨] .

(١٧) فهو سبحانه القائم بحفظ أرزاق جميع الخلائق ، متضمن لها ، عالمٌ بهم وبما يكسبونه من الأعمال ، رقيب عليهم ، لا يعزب عنه شيء أينما كانوا^(١) .

(١٨) وهو القيوم سبحانه: الحافظ لملكه وإن اتسع^(٢) ، المحصي فيه من كل ما جلّ ودقّ ، فلا خلق ولا رزق ، ولا عطاء ولا منع ، ولا قبض ولا بسط ، ولا موت ولا حياة ، ولا إضلال ولا هدى ، ولا سعادة ولا شقاوة إلا بعد إذنه ، وكل ذلك بمشيئته وتكوينه^(٣) .

(١٩) ومن كمال قيوميته وتماها: أنه سبحانه لا تأخذه سنةٌ ، ولا نوم ، فالسنة والغفلة والنوم وما قاربه معدوم في موجود قيوميته سبحانه ، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]^(٤) .

(٢٠) فهو تعالى لكمال قيوميته: لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يُرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل الليل ، لا تأخذه سنةٌ ولا نوم ، ولا يضل ولا ينسى^(٥) .

جلال القيوم

الأول: من جلاله: أنه جامع لجميع صفات الأفعال ، لا يتعذر عليه فعل ممكن البتة ، كالخلق ، والرزق ، والإنعام ، والإحياء ، والإماتة^(٦) .

الثاني: من جلاله: أنه ليس في أفعاله عبث ، ولا في أوامره سفه ، بل أفعاله كلها لا تخرج عن المصلحة ، والحكمة ، والرحمة ، والعدل ، والفضل^(٧) .

(١) «جامع البيان» (٢٣١/٢) ، و«نظم الدرر» (٤٣ ، ٣/٢) (٤٨/٥) ، و«تيسير الكريم المنان» (٤١٩ ، ٦٤٠) .

(٢) «الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» (٤٧٥) .

(٣) «شفاء العليل» (١٣٠/١) .

(٤) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (١٢٣/٢) ، و«جامع المسائل» (٥٥/١) ، و«توضيح الكافية» (١١٢) .

(٥) «طريق الهجرتين» (٢٣٤) .

(٦) «التيان» (٢٠٥) ، و«الصواعق المرسلة» (٩١١/٣) . و«زاد المعاد» (٢٠٤/٤) ، و«تفسير ابن السعدي» (١١٠) .

(٧) انظر: «شفاء العليل» (١٤٧/٢) .

الثالث: ومن جلال قيوميته: أنه "أسعد من شاء بإرشاده، وأشقى من شاء بإبعاده، وهو الذي لا يوجد سهوٌ في تدبيره، ولا لهوٌ في تقديره" (١).

الرابع: ومن جلاله: أنه سبحانه "تنساق تدبيراته إلى غاياتها، على أكمل الأمور، وأحسنها، وأتقنها على سنن السداد، من غير إشارة مشير، وتسديد مسدد، وإشارة مرشد، قال تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]" (٢).

الخامس: ومن جلال القيوم سبحانه: أنه قيوم السموات والأرض، فهو الخالق الذي يبدعه ويجعل له ذلك القدر، فجعل للأعيان قدراً، وللحركات قدراً، ولزمانها قدراً، وبعض ذلك يطابق بعضاً، فإن الزمان مساوٍ للحركة، والحركة هي مبدأ الأحداث (٣).

السادس: ومن جلال قيوميته تعالى: أنه له القيومية كلها: "من لدن الأمر إلى منتهى وجود الموجود، فهو قوّم كل مقوم من: دين، أو دنيا" (٤).

السابع: ومن جلاله: أنه هو "الذي لا تغنيه الدهور، ولا يتغير بانقلاب الأمور" (٥).

الثمرات

إذا علم العبد الدليل أن الله ﷻ قيوم قائم بالقسط، والتدبير، ومنفرد بالمشيئة والتقدير، عنده خزائن كل شيء، لا ينزله إلا بقدر معلوم، وأنه كفيل بأمره ورزقه، اعتمد على ربّه وحده في كل شيء، ووثق به دون كل شيء، وقنع منه بأدنى شيء، وصبر على ما ابتلاه به، فلا يطمع في سواه، ولا يرجو إلا إياه، ولا يشهد في العطاء إلا المشيئة، ولا يرى في المنع إلا حكمته، ولا يعاين في القبض والبسط، إلا قدرته وقيوميّته، فيكثر من دعائه وذكره، لا سيما إذا حزبه همٌّ، أو لحقه كربٌ (٦)، في نفسه.

فإنّ لهذين الاسمين (الحي، القيوم) تأثيراً خاصاً في إجابة الدّعوات (٧)، وكشف الكربات،

(١) «شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (٣٣٨).

(٢) «المقصد الأسنى» للغزالي (١٣٢)، و«تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة» للبيضاوي (٦٠/٢)، و«الأسنى» (٤٧٣/١).

(٣) «جامع المسائل» (١٦٩/٥).

(٤) «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (١٥١/١).

(٥) «الأمد الأقصى» (٢٩٠/١).

(٦) «أسماء الله الحسنى الثابتة» أ.د. الرضواني (٤١٤).

(٧) كما تقدم أنهما مظنة الاسم الأعظم.

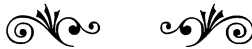
وإغاثة اللهفات، وإنالة الطلبات، فقد كان ﷺ إذا حزبه (أهمه) أمرٌ قال: «يا حيُّ يا قيوم، برحمتك أستغيث»^(١)، وتكفير الذنوب، والسيئات العظام، قال ﷺ: «من قال: استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم، وأتوب إليه، غُفِرَ له، وإن كان فرَّ من الزحف»^(٢).

"ومن عرف أن مولاه قيوم بالأمور، استراح عن كل التدبير، وتعب الاشتغال، وعاش براحة التفويض، فلم يضيع بكرمه، ولم يجعل في قلبه للدنيا قيمة، يحكى عن بعضهم أنه قال: من اهتم للرزق فليس له عند الله قدر، وإنما قال ذلك، لأنه علم أنه القائم بتدبير الأمور، لا ينبغي له أن يهتم بالرزق، ولا غيره، ويجب عليه أن يقوم بكل ما كلفه مولاه: علماً، وعملاً، وحفظاً، وذكرًا، وسراً، وجهراً"^(٣).

ومن عبودية القيوم سبحانه: أن تقوِّم نفسك، ومن أوجب الله عليك من كان تحت كنفك على الاستقامة، فإنك مؤتمن بذلك في الدنيا، ومحاسب عليها يوم القيامة "فقوِّم له نفسك، وأهلك، وولئك، (وخدمك) وأتباعك، وتذكر قول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

ثم ناصح الأقارب في ذلك، وقوِّم من شأنهم ما استطعت، ثم عامة المسلمين، ثم الأبعد حسب الطاقة في المواصلة في الله، والمناصحة في سبيل الاستقامة"^(٤).

واعلم يا رعاك الله: أن خير الزاد والركاب لصالح الدنيا، والسفينة النجاة في يوم الميعاد، هو ملازمة الاستقامة، قال ربك سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا تَنْزِيلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَكِ أَلاَ تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصل: ٣٠]، وقال ﷺ للرجل الذي سأله: يا رسول الله! قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، فقال له: «قل آمنتُ بالله ثم استقم»^(٥).



(١) «صحيح الترمذي» (٣٥٢٤).

(٢) «صحيح الترمذي» (٣٥٧٧).

(٣) «الأسنى» (٤٧٥).

(٤) «شرح الأسماء الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (١٥٢/١).

(٥) مسلم (٣٨).

٦-٧-٨- الله ﷻ العلي، الأعلى، المتعال ﷻ عز شأنه

قال سبحانه: ﴿وَهُوَ أَعْلَى الْعَظِيمِ﴾ [البقرة]

وقال تعالى: ﴿سَبِّحْ أَسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى]

وقال جلّ ثناؤه: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد]

المعنى اللغوي

العلو: ضدّ السفلى، وهو السمو والارتفاع، وعلوّ كلّ شيء: أرفعه، فهو يُطلق على الرفعة الحسيّة والمعنوية، من الرفعة والثناء والجلال، وعلو العظمة، والتمجيد، والتجبر، وعلوّ الغلبة والقهر، فيطلق على:

الأول: علوّ الشأن والقدر، وهو علوّ المكانة: كما في قوله ﷺ: ﴿فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى أَسْمَرٍ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: ٣٥]، وتقول العرب: "فلانٌ عليّ ذو علاء": إذا كان جليلاً عظيم الشأن والقدر، ويقال: "قد علا أمرُ فلانٍ": إذا جلّ شأنه وعظم قدره.

الثاني: علوّ المكان، قال سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّ كُنتَ مِنَ الْآبَرَارِ لَفِي عَلَيَّتٍ﴾ [المطففين: ١٨]، قيل: في السماء السابعة^(١).

ومنه حديث زهير ﷺ: «أنه لما نزلت الآية: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]، انطلق نبي الله ﷺ إلى روضة من جبل، فعلا أعلاها حجراً ثم نادى: «يا بني عبد مناف إني نذير...»^(٢).

وفي حديث الإسراء من حديث أنس ﷺ: (فعلا به إلى الجبار فقال وهو في مكانه: «يا رب خفف عنا...» الحديث^(٣)).

(١) سيأتي تفصيل ذلك في الثمرات.

(٢) مسلم (٢٠٧).

(٣) البخاري (٧٥١٧). وتقول العرب في الصيد: "كنا علاوة الرّيح": أي: فوق الصيد من ناحية مهبّ الرّيح، وتقول: "علوت بالرجل وأعليت به" أي: أتيت به مكاناً عالياً.

الثالث: علو العظمة والتجبر والكبر: قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] ، أي: تكبر وتجبر ، وقال سبحانه: ﴿فَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦] ، وقوله تعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَلَعَلَّنَا عَلُوكَ كَيْدًا﴾ [الإسراء: ٤] ، أي: لتطعن وتعتظم.

الرابع: علو الغلبة والقهر: قال تعالى: ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١] .

تقول العرب: "علا فلان فلاناً" أي: غلبه وقهره ، ويقال: علوت الرجل: إذا غلبته وقهرته .

واسم الله (العلي): صفة مشبهة للموصوف بالعلو، فعله: علا يعلو علواً ، إذا ارتفع ، وأعجز من رame ، والعلي: هو الرفيع ، والشريف ، ويأتي بمعنى: العالي ، وهو الذي ليس فوقه شيء ، فالعلي له معنيان: علو المكان ، والثاني: علو المكانة .

واسم الله تعالى: (الأعلى): على وزن (أفعل) التفضيل ، وهو الذي ارتفع عن غيره ، وفاقه في وصفه ، فهو يجمع معاني العلو جميعها ، فالله تعالى هو أعلى من كل عالٍ ، فهو ذو العلا ، والعلاء ، والمعالي ، الذي قد بلغ الغاية في العلا^(١) ، فدل هذا الاسم الجليل على التفضيل المطلق في العلو^(٢) من كل وجه .

واسمه ﷻ (المتعال): اسم (فاعل) من تعالى ، وهو (المتفاعل) من العلو ، أي: المترفع عن كل شيء ، ومنه قولهم: تعالى النهار: إذا ارتفع ، وهو يدل على كمال العلو ، ونهايته^(٣) ، وصيغت الصفة بصيغة التفاعل ، للدلالة على أن العلو صفة ذاتية له ، لا من غيره^(٤) .

والتعالى هو: التسامي ، والترفع ، والتعظم ، والتقديس ، والتمجد^(٥) ، وتعالى أبلغ من قولك: علا: فإن علا تفيد العلو ، لكن تعالى ، تفيد معنى: التنزيه مع العلو ، يعني: ترفع ، وتنزه بعلو^(٦) .

(١) «المفردات» (٥٨٢) ، و«لسان العرب» (٣٠٨٨/٥ - ٣٠٩١) ، «معجم مقاييس اللغة» (١١٢/٤ - ١٢٠) ، و«اشتقاق أسماء الله» (١٠٨) ، و«النهاية» (٦٣٩) ، و«مجموع الفتاوى» (١١١/١٦) ، و«التفسير الكبير» لابن تيمية (١٣٥/٦) .
(٢) «تفسير الطاهر بن عاشور» (٢٧٤/١٥) .
(٣) «بدائع الفوائد» (١٥٩/٢) و«القاموس المحيط» (٩٠٨) ، و«اشتقاق أسماء الله» (١٠٨) (١٦٢) ، و«تفسير الأسماء» (٦١) .

(٤) «الطاهر بن عاشور» مج (٦) (٩٨/١٣) .

(٥) انظر: «معجم اللغة العربية المعاصر» ، نقلاً من «الأسماء الحسنى تصنيفاً ومعنى» (١٣٩) .

(٦) انظر: «تفسير سورة القصص» ، لابن عثيمين (٤٥٥/٦) .

دلت هذه الأسماء الجليلة على اشتقاق واحد، ومعنى متقارب، فتدل على كمال العلوّ "وأعظم المبانيّة، وأجلّها، وأكملها"^(١)، فله العلوّ المطلق بكل اعتبار ومن جميع الوجوه^(٢)، فلا أحد يُحصي أفراد علوه، وكمالها، من جميع الوجوه والاعتبارات، إلا الله وحده.

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو العلي الأعلى المتعال الذي لا أعلى منه بكل وجه ومعنى وحال، "الذي له العلوّ الذاتي والمعنوي"^(٣):

١) الذي له علوّ الذات (المكان): أي: أنه ﷻ عليّ بذاته، مستوٍ على عرشه، "فهو سبحانه العليّ على خلقه بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه، لأنه تعالى ذكره: فوق جميع خلقه، وخلقه دونه كما وصف به نفسه أنه على العرش، فهو عالٍ بذلك عليهم"^(٤). قال سبحانه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٥) [طه: هـ] "فاستوى على العرش، واحتوى على الملك، يدبر الأمر في اقطار العالم العلوي والسفلي"^(٦)، في كل وقت.

٢) وعلو القدر (المكانة): أي: "عليّ الأوصاف، عظيمها، عليّ الأفعال"^(٧)، فكل صفة من صفاته سبحانه عظيمة وعليا، له من الكمال أعلاها، وغايتها من كل الوجوه، لا يماثلها، ولا يقاربها صفة أحد.

فلا يقدر أحد من الخلائق من أولّهم إلى آخرهم، من إنسهم وجنّهم، أن يحيطوا بصفة من صفات العلا، وما يستحقّه فيها من الكمال والجلال، قال عزّ شأنه: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠].

٣) وله علو الغلبة والقهر: فهو سبحانه الغالب الذي لا يُغلب، والقاهر الذي لا يُقهر، فخضعت له الرقاب، ودان له العباد، طوعاً وكرهاً، فالعالم العلويّ، والسفليّ كلهم مقهورون

(١) «الصواعق المرسلة» (١٣٣٨/٤).

(٢) «مدارج السالكين» (٥٥/١).

(٣) «الصواعق المرسلة» (١٣٧٨/٤).

(٤) «تفسير الطبري» (١٣٢/٢).

(٥) أي: علا وارتفع فوق سبع سموات كما يليق بكماله وجلاله، انظر «تفسير ابن جرير الطبري» (١٥٩/١) و(١٨٤/٥)، (٥٠٥/٦)، وله كلام نفيس في هذا المعنى.

(٦) «الحق الواضح» (٢٣).

(٧) «تيسير الكريم المنان» (٧٦٢).

تحت سلطانه ، خاضعون له لعظمته ، مفتقرون إليه في كل شؤونهم .

فجميع الخلق نواصيهم بيده ، فلا يتحرك منهم متحرك ، ولا يسكن ساكن إلا بإذنه ، وما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ [الأنعام: ١٨]

٤) فهو سبحانه العال : على كل ما سواه ، فلا شيء مثله ، أي : أنه تعالى أفضل ، وخير ، وأكبر من كل شيء^(١) ، فوجهه : الأعلى ، وكلامه الأعلى ، وسمعه الأعلى ، وجوده الأعلى ، ورأفته الأعلى ، وبصره وسائر صفاته علا .

٥) فهو تعالى العلي المتعالي : بالثناء ، والثناء ، والبهاء ، والمجد ، والمحامد كلها ، والأسماء الحسنى ، والتعوت التمام الأسمى .

٦) وهو الذي علا عن كل عيب ، ونقص ، وسوء ، وشر ، فهو عالٍ عن ذلك ، منزّه عنه من جميع وجوهه ، لكماله على الإطلاق ، قال تعالى : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ [الأعلى: ١]^(٢) .

٧) وهو المتعالي سبحانه : المنزّه عن المنافع والمضار ، فلا يحتاج إلى غيره في أمرٍ من الأمور ، قال تعالى : ﴿ فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ [المؤمنون: ١١٦]^(٣) .

٨) وهو المتعالي : عن السمي ، والند ، والشبيه ، والنظير ، والمثيل ، والعديل ، فلا يكون شيء مثله^(٤) ، جلّت صفاته أن تقاس بصفات خلقه شبيهاً ، ومثلاً ، وتعالّت ذاته أن تشبه شيئاً من الذوات أصلاً^(٥) .

٩) وهو العلي سبحانه : عن كمال يساويه ، أو يقرب منه ، أو يدانيه ، لأنه تعالى ليس فوقه ما يجب له من معالي الجلال أحد ، ولا معه من يكون مشتركاً بينه وبينه ، لكنه العلي بالإطلاق^(٦) .

(١) «مجموع الفتاوى» (١٦/١٢٠، ١٢٣) .

(٢) انظر : «مجموع الفتاوى» (١٦/١١٩، ١٢٣) ، و«تفسير» ابن كثير (٢/٥٠٤) ، و«إبطال التأويلات» (٦٥٢) ، و«شفاء العليل» (٥١٠/٢ - ٥١٣) ، و«الصواعق المرسلّة» (٣/١٠٣١) ، و«تيسير الكريم المنان» (٧٦٢) ، و«توضيح الكافية الشافية» (١١٦) ، و«فتح الرحيم الملك» (٢٩) ، و«شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان (١/١٥٨) ، و«شرح النونية» للهراس (٢/٢١٣) .

(٣) «التفسير الكبير» للفخر الرازي مج (١١) (٢١/١٧) ، وانظر : مج (٤) (٦/٧) .

(٤) ينظر : «مجموع الفتاوى» (١٦/١٢٠) ، و«تفسير البغوي» (١/٣٣) .

(٥) «مدارج السالكين» (١/١٢٤) .

(٦) انظر : «الأسماء والصفات» للبيهقي (١/٤٥) .

(١٠) وهو المتعالي: عن كل شريك في ألوهيته، وما يستحقه من العبادة وحده: ﴿فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٢]^(١)، فهو سبحانه أعلى، وأجل من أن يوصف بالشرك^(٢).

(١١) الذي تعالى في أحديته عن الشريك في ربوبيته، فليس له ظهير، ولا معين، ولا ند، ولا ضد: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَبِغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ ﴿١١٤﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَلَّىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٢ - ٤٣].

(١٢) وهو الذي ارتفع عن فنون الظنون، وأوهام الأفهام، وتنزه عن مضاهاة الأنام، ومشابهة مُلك الحُكَّام، قال عزَّ شأنه: ﴿فَتَعَلَّىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [طه: ١١٤]^(٣).

(١٣) وهو المتعالي جلَّ ثناؤه: المنزه عن كلِّ ما لا يجوز عليه، فهو المنزه في ذاته، وصفاته، وأفعاله، (وسلطانه، وملكه)، ومنزهًا عن كلِّ ما لا ينبغي^(٤).

(١٤) وهو الذي تعالى عن الصاحبة، والولد، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن: ٣].

(١٥) وهو الذي جلَّ عن إفك المفترين، وتنزه عن إلحاد الملحدين، وعلى قول المبطلين في حقه ﷻ علوًّا كبيرًا، قال سبحانه: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَلَّىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤٣]^(٥).

(١٦) وهو الذي تعاظم وارتفع عن فعل العبث، وعن أن يلحقه عجز عن إعادة وإرجاع الخلق: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ ﴿١١٥﴾ فَتَعَلَّىٰ اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَوْبَرِ﴾ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦]^(٦).

(١٧) وهو العليُّ سبحانه: في كلماته التي هي العليا من كلِّ وجه، قال تعالى: ﴿وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤١]، "أي: كلماته القدريّة، وكلماته الدينيّة، هي العالية على كلِّ كلمة غيره، التي من جملتها قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [غافر: ٥١]، فدينُ الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان،

(١) انظر: «التفسير الكبير» لابن تيمية (١٤٠/٦).

(٢) «بحر العلوم» للسمرقندي (٥٨٨/١).

(٣) «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» للنسفي (٧٠٤) بتصرف يسير.

(٤) «التفسير الكبير» مج (١٠) (١٧/١٩).

(٥) انظر: «النهاية» (٦٣٩)، و«تفسير السعدي» (٤٥٨)، و«شرح الأسماء» لابن برجان (٣٩/١).

(٦) انظر: «تفسير السعدي» (٥٦٠)، و«تفسير ابن كثير» (٣٥٦/٣)، و«شرح الأسماء» لابن برجان (٣٩/١).

بالحجج الواضحة ، والآيات الباهرة ، والسلطان الناصر ^(١).

(١٨) وهو العليُّ سبحانه: الكبير ، الذي له العلياء والكبرياء والمجد ، فهو أكبر من كل شيء: في ذاته ، وأوصافه ، وأفعاله ، ونعوته ، وجلاله ، فلا تَكَيَّفُ الأوهام ، ولا تقدره الأفهام ^(٢).

(١٩) وهو الأعلى تعالى: أعلى من أن يُقاس به ، أو يعتبر بغيره سبحانه ، قال تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] ^(٣).

(٢٠) وهو الذي تعالى أن يحيط به وصف الواصفين ، بل علم العارفين ، وجلَّ عن كل وصف وثناء ^(٤) ، فهو أعظم ، وأجل ، وأعلى مما يُثنى عليه .

(٢١) وهو الذي علا علواً لا تبلغ العقول توجيه كنه مداه سبحانه ^(٥).

(٢٢) وهو أعلى سبحانه: من أن يدركه الخلق بالأبصار الفانية بلا حجاب .

(٢٣) "وهو الذي تعالى في عظمته أن يشفع أحدٌ عنده إلا بإذنه" ^(٦).

(٢٤) وهو المتعالي: عن أن يناله قصد القاصدين ، ويؤثر فيه كيد الكائدين ^(٧).

فليس لعلوِّ ربنا ﷻ حدٌّ ، ولا عدٌّ ، ولا قيدٌ ، ولا نِدٌّ .

جلال العلي الأعلى المتعالي

الأول: من جلالها: أنها تدل على صفة العلوِّ الذاتية لله ﷻ ، التي لا تنفك عنه أزلاً وأبداً ، وهي من لوازم ذاته العليَّة ، فهو عالٍ على خلقه على الدوام ^(٨).

الثاني: ومن جلال علوه سبحانه على كل شيء: أنه لا يخفى عليه شيء ، من عرشه إلى قرار أرضه ، يسمع ما دق من السر والنجوى وأخفى ، ويرى ما تحت الأرض السابعة السفلى ، وما في

(١) «تفسير السعدي» (٣٣٨).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١٩/١٦)، و«مفاتيح الغيب» مع (١١) (١٢١/٢٢) بتصرف.

(٣) «المفردات» (٥٨٣).

(٤) «عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ» للسمين الحلبي (١١٦/٣)، و«النهاية» (٦٣٩).

(٥) «السراج المنير» (١٦٤/٣).

(٦) «مجموع الفتاوى» (١٢٣/١٦)، و«التفسير الكبير» مع (١٠) (٢٢٣/١٩).

(٧) «شرح مصابيح السنة» للمحدث محمد بن عبد اللطيف الكرمانى الرومى (١٠١/٣).

(٨) أما استواؤه على عرشه فهو من الصفات الفعلية، التي تقوم بمشيئته وإرادته، انظر «تفسير الطبري» (١٣٢/١)، و«العلو» للذهبي (١٣٥٨/٢).

السموات العلا ، بل وينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا ، ويدنو إلى من شاء من الورى ، وهو مع ذلك في العلو الأعلى^(١) .

فهو سبحانه "فوق جميع خلقه ، بائن عنهم باستوائه على عرشه ، وهو مع هذا مَطْلَعٌ على أحوالهم ، يعلم ما هم عليه ، مشاهد لهم ، فيراهم ، وينفذهم بصره ، مدبّرٌ لأموهم الظاهرة والباطنة ، متكلمٌ بأحكامه القدريّة ، وتدبيراته الكونية ، وبأحكامه الشرعية"^(٢) .

الثالث: ومن جلال علوّ ربنا تعالى : أنه عليّ في دنوّه ، قريبٌ في علوّه^(٣) . فهو سبحانه لا نهاية لعلوه ، ولا فوق لسموّه ، ولا بُعد في دنوّه^(٤) .

الرابع: ومن جلالها: أنّك لو نظرت إلى كلّ صفة من صفاته تعالى العليّة ، وجدت أنّها منافية عن كلّ نقص ، فهو تعالى : في كمال حياته ، وقبوّيته عن السنّة والنّوم ، وتعالى : في قدرته عن العبث والعجز والظلم ، وتعالى : في صفات كماله ، ونعوت جلاله عن التعطيل ، والتمثيل^(٥) .

الخامس: ومن جلالها: أنه "جعل الرّفعة ، والعلوّ ، لكتابه ، ولدينه ، وللصادقين من أوليائه ، كما قال سبحانه لموسى عليه السلام: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه] وقال تعالى لعيسى عليه السلام: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] ، وقال جلّ ثناؤه: ﴿وإِنَّهُ فِي أَرْأْسِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلَّ حَكِيمٌ﴾ [الزّخرف] ، وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا ، وَيَضَعُ بِهِ الْآخَرِينَ»^(٦) (٧) .

السادس: ومن عليائه سبحانه: "أنه تباعد أمر علوه إلى حدٍّ لا حدَّ له ، ولا انتهاء ، قال تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠]"^(٨) .

السابع: ومن جلالها: أنه سبحانه الرفيع فوق كل شيء ، ولا يعلوه شيء ، ولا يمازجه شيء من الكائنات ، بل هو متفرد بذاته فوق كل الكائنات [ومع ذلك:] رفع ذاته عن العقول

(١) وهذا من جلال علوّه تعالى أنه عالٍ على الإطلاق ، وإن نزل إلى السماء الدنيا في كل ليلة .

(٢) «حادي الأرواح» لابن القيم (٢٠٠) ، و«توضيح الكافية الشافية» للسعدي (١١٦) .

(٣) «بيان تلبيس الجهمية» (٥٥١/١) ، و«مجموع الفتاوى» (٤٢٤/١٦) .

(٤) «شرح أسماء الله» لأبي الحكم الإشبيلي (٩٤/١) .

(٥) «أسماء الله الحسنى الثابتة» للرضواني (٦٩١) .

(٦) «مسلم» (٨١٧) .

(٧) ينظر: «مع الله الاسم الأعظم» د. سلمان العودة (١٥٠) .

(٨) «تفسير البقاعي» (٦٨٩/٢) .

والأفكار، فلم يخيله عقل، ولم يصوره وهم^(١).

الثامن: ومن جلال علوه سبحانه: أنه "هو الذي تاهت الأبواب في إشراق جلاله، وعجزت أرباب العقول عن درك ذاته، وكبرت عن التصور صفاته"^(٢).

الثمرات

من شهد مشهد علو الله ﷻ بذاته فوق خلقه، وأنه ليس فوقه شيء، كما أخبر به أعرف الخلق، وتعبّد بمقتضى هذه الصفة العلية، بحيث يصير لقلبه صمداً، يعرج القلب إليه مناجياً مطرقاً، واقفاً بين يديه، وقوف العبد الذليل، بين يدي الملك العزيز في السؤال، والرغبة، والرغبة، والمحبة، فيشعر بأن كله، وعمله، صاعدٌ إليه، معروضٌ عليه، مع أو في خاصّته، وأوليائه، فيستحي أن يصعد إليه من كلمه ما يخزيه، ويفضحه هناك، ويشهد نزول الأمر، ومراسيم الإلهية إلى أقطار العوالم في كل وقت، بأنواع التدابير، والتصرّفات من الإمامة، والإحياء، والتولية، والعزل، والخفض، والرفع... إلى غير ذلك من التصرّفات في المملكة، التي لا يتصرف فيها سواه.

فمن أعطى هذا المشهد حقّه، معرفة، وعبوديّة، استغنى به، بخلاف من لا يدري أين ربه، فإنه ضائع، مشتّت القلب، ليس لقلبه قبلة يتوجّه نحوها، ولا معبودٌ يتوجّه إليه ويقصده^(٣)، ويتجلّى هذا المشهد العظيم للعبد عند سجوده للرب سبحانه، وتسبيحه تعالى وتنزيهه بعلوه المطلق، الذي هو في غاية الذل للعبد، وغاية العزة والمجد للربّ، فلا يزال العبدُ يعلو بعز العبودية، التي لا أعزّ، ولا أعلى منها في كل الوجود، إلى أن يصل إلى دار الخلود.

ومن عبودية هذه الأسماء الجليلة: أن تكون عبادة العبد مبنية على الإخلاص، والتقوى في كلّ قرية، في ابتغاء وجه ربه الأعلى، قال تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى﴾ [الليل: ٢٠].

واعلم يا رعاك الله أنه على قدر الإيمان، وكثرة الأعمال، في السر والإعلان، وفي القلب،

(١) انظر: «إبطال التأويلات» (٦٥٢)، و«الأسنى» (١٨٦)، و«شرح أسماء الله» لابن برجان (١١٣/١).

(٢) «شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (٢٦٧)، و«شرح أسماء الله الحسنى» للبيضاوي (٢٥١).

(٣) انظر: «طريق الهجرتين» (٤٨ - ٤٩)، «رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه» (٣٨ - ٣٩) بتصرف يسير.

والأركان ، تكون لك الرفعة والعلا في الدنيا: بالنصر والتمكين ، وفي الآخرة: في أعالي الجنان ، قال تعالى: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَكْبَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨] ، فاجتهد أن تكون من الأبرار المقربين ، لتكون في عليين ، فقد كان من دأب خيرة الصحابة الميامين ، في سؤال الله تعالى مرافقة سيد الأولين والآخرين ، في عليين ، وهو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، فكان من دعائه: (اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتدّ ، ونعيماً لا ينفد ، ومرافقة محمد صلى الله عليه وسلم في أعلى عليين ، في جنات الخلد)^(١).

وإذا علمتَ هذا يا رعاك الله: فأغلُ بهمتك صعداً وعُلُوّاً في معالي الأمور ، والتي من أجلّها: الصلاة في النهار والسحور ، للعزیز الغفور ، قال صلى الله عليه وسلم للذي سأله مرافقته في الجنة: «فأعني على نفسك بكثرة السجود»^(٢).

وكذلك في التعامل مع الخلائق ، بحسب الأخلاق ، فإن ربك يحب ذلك على الإطلاق ، قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب معالي الأخلاق»^(٣).



(١) رواه الحاكم (٣/٣١٧) وصححه ، ووافقه الذهبي ، وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط في تعليقه على مسند أحمد برقم (٤٣٤٠) ، وحسنه الألباني في «التعليقات الحسان» برقم (١٩٦٧).

(٢) مسلم (٤٨٩). وقال صلى الله عليه وسلم: «يا أبا فاطمة ، أكثر من السجود ، فإنه ليس من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله سجدة به درجة في الجنة ، وحطّ عنه بها خطيئة». صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥١٩).

(٣) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٦٢٧) (٤/١٦٨) ، و«صحيح الجامع» (١٨٨٩) (١/٣٨٤).

٩- الله ﷻ الكريم ﷻ جل جلاله

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار] .

وقال عز شأنه: ﴿وَمَنْ شَكَرْنَا إِنَّمَا يَشْكُرْ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَحْمَتِي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل]

المعنى اللغوي

الكريم: صفة مشبَّهة للموصوف بالكرم، والكرم نقيض اللؤم، والعرب تستعمل الكرم عامًّا في بني آدم وغيرهم، فتقول لكلِّ ذاتٍ شريفة، أو لكلِّ ذاتٍ صدر منها منفعة وخير هي: كريمة .
فالكريم: اسم جامع لكلِّ ما يُحمد، الجامع لأنواع الخير، والشرف والفضائل، وهو من كلِّ شيء أحسنه، وأفضله، والعزیز المعزُّ، والصفوح، والحسن المحمود، والمنزَّه عن النقائص والمعائب، والعظمة والسيادة، فيطلق على:

الأول: الجواد البهيُّ، الواسع السخي، الكثير الخير، المتأني لكل ما يريد منه من غير تكلف، وهو من كل شيء أحسنه، وأفضله .

الثاني: العظيم النفع، الذي يدوم نفعه ولا ينقطع، والعرب تسمي الشيء النافع الذي يدوم نفعه: كريمًا، ولذلك قيل للناقة لغزارة لبنها، وكثرة درَّها، ويقال: نخلة كريمة: إذا طاب حملها أو كثر .

الثالث: الذي يسهل تناوُل ما عنده، الذي من شأنه أن يعطي الكثير بسهولة ويُسر، ومنه تقول العرب للنخلة إذا لم تكن سحوقًا، وقرب تناول جناها: كريمة، ولذلك كانت العرب تقول للعنب: الكرّم .

الرابع: الرفيع القدر، الكبير الشأن، الجامع لأنواع الخير، والشرف، والفضائل، فهو اسم جامع لكل ما يحمد، ومنه الحديث: «إن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب»^(١). ومنه قولهم: "كريم الطباع": أي جليلها، بمعنى: الموصوف بالصفات الجليّة .

(١) «البخاري» (٣٣٧٤)، و«مسلم» (٦١٦١) .

الخامس: الشيء النفيس، فيسمى الذي له قدرٌ عظيمٌ وخطرٌ كبيرٌ: كريماً، كما قالت بلقيس عن كتاب سليمان ﷺ: ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكَ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٣٠] أي: "جليل المقدار" ^(١) خطير ^(٢).

السادس: الشيء الحسن المنظر المحمود، يوصف بالكرم، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠١]، وعلى الصورة الحسية الجميلة الحسنة: قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٠]، وقال في صفة الجنة: ﴿وَمَقَامٌ كَرِيمٌ﴾ [الدخان: ٢٦].

السابع: الصَّفوح، يقال: "شاة كريمة": إذا كانت عند الحلب تستقر وتولي على الحالب صفحة وجهها، لأنها تعرض عنه ولا تمنعه من الحلب، فكذلك الكريم من الرجال صفوح كأنه يُعرض عن ذنب صاحبه.

الثامن: العزيز، وله فيه معنيان:

الأول: الإعزاز والإجلال، يقال: "فلانٌ يكرُمُ علي" أي: يعزُّ علي، ويقال للرجل عند طلب الحاجة: "نعم وكرامة" تأويله: أكرمك كرامة، أي: أعز وأجلك، ويقال: "فلانٌ أكرمُ عليّ من فلان" أي: هو أعزُّ عليّ منه.

الثاني: الذي يغلب، يقال: "كارمُ الرجل": إذا فاخرته في الكرم، فكرمته أكرمه، بالضم إذا غلبته فيه.

التاسع: المفضل، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَنُّكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، أي: أفضلكم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، أي: فضّلناهم.

العاشر: النزاهة عن الآفات، والعاهات، أي: المقدّس عن النقائص والعيوب، ومنه قوله ﷺ عن المؤمنين: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، أي: منزّهين أنفسهم عن سماعه ومنه قوله، وقال تعالى: ﴿إِنْ يَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤]، كرمه تعالى أن خلص من متعبات الدنيا في

(١) «تفسير السعدي» (٦٠٤). لأنه اجتمع له شرف النبوة، والعلم، والجمال، والعفة، وكرم الأخلاق.
(٢) قال ابن عطية ﷺ: "وصفت الكتاب بالكرم: إما لأنه من عند عظيم في نفسها، ونفوسهم، فعظمته إجلالاً لسليمان...، وإما أنها أشارت إلى أنه مطبوع عليه بالختم" «المحرر الوجيز» (٢٥٨/٤).

تحصيله ، ويقال : كرمه ، أي : نزّهه ، وعظمه .

الحادي عشر : العظمة والسيادة ، قال ﷺ : « إذا أتاكم كريم قوم فأكرموا » ^(١) أي عظيم القوم ورئيسهم ^(٢) .

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الكريم الذي لا أكرم منه على الإطلاق ، الجامع لكل المحاسن والمحامد ^(٣) ، والمكرّمات ، من جميع الاعتبارات ، فهو سبحانه :

(١) أكرم الأكرمين ، لا يوازيه أي كريم ، ولا يعادله في كرمه أي نظير ^(٤) .

(٢) وهو تعالى البهي : الكثير الخير ، العظيم النفع ، الذي لا ينقطع إنعامه بحال ، فهو دائم متصل في الدنيا والآخرة ، فلا يقطع به قاطع ، ولا يحول بينه وبينه مانع .

(٣) وهو سبحانه الكريم : الصّفوح الذي يعفو عن عبده الزلّات ، بل ويبدّل سيئاته حسنات ، ويسّر له سبل الأوبة ، والخيرات ، قال ﷺ : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الفرقان] .

(٤) وهو تعالى دائم الخير ، بلا انقطاع ولا انتهاء ، يبدأ بالنعمة من غير استحقاق ، ويعطي النوال قبل السؤال ، ويتبدّى بالإحسان من غير طلب الجزاء ، ويعطي ما زاد على منتهى المنى والرجاء ، ولا يبالي كم أعطى ، ولمن أعطى .

(٥) وهو الكريم سبحانه : الجميل الجليل ، الذي لا أجمل ، ولا أجلّ منه ، فهو الكريم : ذاتاً ، ووصفاً ، وفعلاً ^(٥) ، وملكاً .

(١) ابن ماجه (٣٧١٢) ، وانظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٢٠٥) .

(٢) «اللسان» (٥١٠/١٢) ، و«معجم مقاييس اللغة» (١٧١/٥) ، و«النهاية» (٧٩٨) ، و«اشتقاق أسماء الله» (١٧٦) ، و«عمدة الحفاظ» (٣٨٣/٣) ، و«تفسير الأسماء» (٥٠) ، و«القاموس المحيط» (١١٢٧) ، و«مختار الصحاح» (٣٠٨) ، و«المصباح المنير» (٣٠٧) ، و«الكلية للكفوي» (١٧٢/٢) ، و«شأن الدعاء» (٧٠) ، و«مجموع الفتاوى» (٢٩٤/١٦) ، و«التيان في أقسام القرآن» (١٤٠) ، و«تفسير ابن كثير» (٦٤٥/٤) ، و«الأمدة الأقصى» (٤٥١/١) ، و«الأسنى» للقرطبي (٩٩/١ - ١١٢) ، و«شرح الأسماء الحسنى» للبيضاوي (٢٦٢) .

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٩٣/١٦) .

(٤) «شأن الدعاء» (١٠٣) .

(٥) ينظر : «شرح أسماء الله الحسنى وفوائدها» (٧٢) ، و«مفتاح دار السعادة» (٢٤١/٢) .

٦) وهو الجواد المُحسنُ بما لا يجب عليه ، والصفوحُ عن حقٍّ وجبَ له ، فكم من عاصٍ يغفر له .

٧) وهو تعالى الكريم: العزيز ، المنيع ، العظيم الجنب ، الذي لا يُرام جنابه ، ولا يُوصل إلى كنه ذاته سبحانه .

٨) وهو سبحانه الكريم الواسع: له شرف الذات ، وكمال الصفات ، والنزاهة عن كل النقائص والآفات ، على الإطلاق ، والتَّمام والكمال ، وفي كل حال ، بخلاف الخلق ، فإنهم إن كُرموا من وجه ، سَفُلوا من وجه آخر ، وبقي الكريم بالكمال من كلِّ وجه واعتبار .

٩) من كرمه سبحانه: أفضاله على من يكفر نعمه ، ويجعلها وصلةً يتوصَّل بها إلى معاصيه^(١) ، ويُغدق عليهم ، كأنهم لم يعصوه .

١٠) والله تعالى الكريم: الذي له قدر عظيم ، وخطر كبير ، وجميع المكرمات ، فليس له بذلك مثيل ، ولا عديل ، فلا يساميه أحد في كمال قدره ، وجلال شأنه .

١١) فربنا سبحانه هو الكريم: قدرًا حقًا ، فليس لأحدٍ قدرٌ بالحقيقة إلا الله تعالى ، إذ الكلُّ له خلقًا ، ومِلْكًا ، إليه يضاف كل شيء ، ومن شرفه شرف كل شيء ، وكرم كل كريم من كرمه .

١٢) ومن كمال كرمه سبحانه: أنه يعطي من احتاج ومن لا يحتاج ، فهو تعالى يعطي ويزيد على قدر الحاجة ، حتى يصبَّ عليه الدنيا صبًّا^(٢) .

١٣) ومن كرمه الذي ليس له حدود ، ولا مقيد بقيود: "أنه تعالى يستر مساوئ الأخلاق ، بإظهار معاليها"^(٣) ، مع ما فيها من العيوب .

١٤) ومن كرمه سبحانه: أن العبد إذا تاب عن السيئة محاها عنه ، وكتب له مكانها حسنة^(٤) .

١٥) ومن كمال كرمه تعالى "الذي لا يقادر قدره: أنه كَرَّمَ بني آدمَ من جميع وجوه الإكرام ، من النعم الظاهرة والباطنة ، التي لا تُعدُّ ولا تُحصى ، وخصَّهم بالفضائل والمناقب التي ليست لغيرهم ، من أنواع المخلوقات .

(١) «تفسير الطبري» (٥/٥٦٥) ، و«الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد» (٥٣) ، و«الأمَد الأقصى» (١/٤٥٧) ، و«الأسنى» (١/١٢١) .

(٢) انظر: «الأمَد الأقصى» (١/٤٥٧) .

(٣) «نظم الدرر» (٥/٢٢٨) .

(٤) «شأن الدعاء» (٧١) .

فكرمهم بالعلم، والعقل، وإرسال الرسل، فسخر لهم ما في السموات والأرض من الجمادات والناطقات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠] ^(١).

(١٦) وهو الكريم سبحانه: يدع ما يدعه تكرمًا، ويفعل ما يفعله تفضلاً، فيعطي من لا يستحق، ويدع عقوبة المستوجب، فهو الكريم المطلق عزَّ شأنه.

(١٧) ومن شدة كرمه تعالى: أنه قد يعطي الكافر ما يسأله ^(٢)، وهو يبارزه بأشدَّ المعاصي والذنوب.

(١٨) ومن سعة كرمه وتماحه: أنه سبحانه ينزل بنفسه العلية كما يليق بجلاله وكماله "كلَّ ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، ويسأل عن عبادِهِ، ويستعرض حوائجهم بنفسه، ويدعوهم إلى سؤاله، فيدعو مسيئهم إلى التوبة، ومريضهم إلى أن يشفيه، وفقيرهم إلى أن يسأله غناه، وإذا حاجتهم يسأله قضاءها" ^(٣)، فأَي كرم أسمى وأجلَّ من ذلك؟.

(١٩) ومن كرمه سبحانه بعباده: "أنه في الدنيا يستر ذنوبهم، ويخفي عيوبهم، ومنه يقال: الكريم متغافل" ^(٤)، والله المثل الأعلى.

(٢٠) وهو الكريم سبحانه: الذي يقابل الإساءة بالإحسان، والذنوب بالغفران، ويقبل التوبة، ويعفو عن التقصير ^(٥).

(٢١) ومن كرمه السامي الذي لا يتصوره أحد: أن أوليائه "إذا أتوا بالطاعات اليسيرة، أعطاهم الثواب الجزيل، وشرفهم بالثناء الجزيل" ^(٦) يوم الدين ^(٧).

(٢٢) وهو الكريم تعالى: الذي لا يقطع نعمه عن من أعرض عن شكره ^(٨)، فهو كريم

(١) «تفسير ابن السعدي» (٤٦٣).

(٢) انظر: «فيض القدير» (٣٦٦٦/٦).

(٣) «طريق الهجرتين» (٥٥٩).

(٤) «شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (٢٧٨).

(٥) «معارج القبول» (٥١/١).

(٦) «شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (٢٧٩).

(٧) كما جاء في الصحيحين أن أدنى أهل الجنة منزلة له مثل الدنيا وعشرة أمثالها.

(٨) انظر: «التفسير الكبير» مج (١٢) (١٩٩/٢٤).

سبحانه بترك العقوبة، والإنعام مع عدم الشكر أيضاً، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ رَبِّيَ عَزِيزٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] ^(١)
 (٢٣) ومن كرمه: أنه تعالى لم يؤسس العصاة من قبول توبتهم، ويتوب عليهم من غير
 مسألتهم ^(٢).

جلال الكريم

الأول: من جلال كرمه تعالى: أنه يسهل خيره وجوده، ويقرب تناول ما عنده بأيسر
 الأسباب، لأنه سبحانه ليس بينه وبين العبد حجاب، فهو تعالى يعطي بغير سبب، وبدون
 عوض، لأنه سبحانه بدأ الخلق بالنعم، وختم أحوالهم بالنعم ^(٣).

الثاني: ومن جلال الكريم سبحانه: أن من أقبل إليه تلقاه من بعيد، ومن أعرض عنه ناداه من
 قريب، ومن ترك شيئاً من أجله أعطاه فوق المزيد، ومن أراد رضاه، أراد ما يريد، فأهل طاعته،
 أهل كرامته ^(٤).

الثالث: ومن جلاله تعالى: أنه لا يُبالي من أعطى، فهو تعالى الكريم الذي يُعطي ما يشاء،
 لمن يشاء، وكيف يشاء، بغير سؤال.

الرابع: ومن جلال كرم ربنا: أنه إذا قدر عفا، وإذا وعد وفّى، ولا يؤاخذ بالجفا، فهو
 سبحانه إذا عفا عن عبدٍ عفا عمن له مثل معصيته، وعمن كان سميّاً له من العصاة مطلقاً.

الخامس: ومن جلال الكريم سبحانه: أنه لا يحوجك إلى وسيلة، فهو تعالى لا يحوج إلى
 وسائط ولا شفعاء في وصول النوال.

السادس: ومن جليل كرمه: أنه لا يخيب رجاء الآمنين أبداً، ولا يضيع من توسل به، ولا
 يترك من التجأ إليه سبحانه ^(٥).

السابع: ومن جلال كرم ربنا تعالى: أنه يعطي بالتعرض ^(٦)، كما في دعاء موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ

(١) «إرشاد العقل السليم» (٨٦/٥).

(٢) «شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (٢٧٩).

(٣) «الأمّد الأقصى» (٤٥٧/١)، وانظر: «الأسنى» (١١٦/١).

(٤) انظر: «الله أهل الثناء والمجد»، د. ناصر بن مسفر الزهراني (٥٩).

(٥) ينظر: «شرح الأسماء» للرازي (٢٧٩)، و«شرح أسماء الله الحسنى» للبيضاوي (٢٦٣)، و«موسوعة له الأسماء
 الحسنى» (٢٣١/١).

(٦) «الأمّد الأقصى» (٤٥٥/١).

إِنِّي لِمَا أُنزِلَتْ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿ [القصص: ٢٤] ، ودعاء أيوب عليه السلام: ﴿إِنِّي مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص: ٤١] ^(١).

الثامن: ومن جلاله: أنه لا تستعظمه المسائل والدعوات، مهما كثرت، وكبرت، قال ﷺ: «إذا دعا أحدكم فليعظم رغبته، فإن الله لا يتعظم عليه شيء أعطاه» ^(٢)، بل وجعل دعاءه هو أكرم عبادة عنده سبحانه، قال ﷺ: «ليس شيء أكرم على الله ﷻ من الدعاء» ^(٣).

التاسع: ومن جلال كرمه: أنه تعالى يخص عباده المؤمنين من فضله، فلا يردُّ سؤالهم إذا سألوه، قال ﷺ: «إن ربكم حيي كريم، يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبين» ^(٤)، بل ويزيدهم من الأجر، والثواب على قدر سؤالهم، قال ﷺ: «أفضل العبادة الدعاء» ^(٥).

العاشر: ومن جلال كرم ربنا سبحانه: أنه إذا أبصر خللاً جبره، وما أظهره، وإذا أولى فضلاً أجزله، ثم ستره ^(٦).

الحادي عشر: ومن جلاله: أنه يعطي ويثني، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْتُهُ صَابِرًا نَقِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] ، والمعنى: أنه الذي وهب الصبر وأعطاه، ثم مدح به وأثنى.

وكما فعل بأوليائه، حَبَّبَ إليهم الإيمان، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، ثم يدخلهم في الآخرة الجنان، فمنه السبب، ومنه المسبب، فالعطاء منه والسبب جميعاً، فالكلُّ عطاءٌ بغير سبب ^(٧).

الثاني عشر: ومن جلال كرمه: أنه تعالى أسبغ صفة اسمه (الكريم) على أعظم عطاياه في الآخرة، وهي جنَّته، قال الله تعالى: ﴿وَنُذْخِلُكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١] .

الثالث عشر: ومن جلال الكريم: أنه يكتب الحسنات لمن لم يبلغ الحلم من الأطفال، ولا

(١) وقوله: ﴿إِنِّي مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] ، وذو النون: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] .

(٢) «صحيح أبي داود» (١٣٣٣) ، وبنحوه «مسلم» (٦٧٥٣) .

(٣) «صحيح الترمذي» (٣٣٧٠) .

(٤) «صحيح الترمذي» (٣٥٥٦) .

(٥) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٥٧٩) .

(٦) «شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (٢٧٩) .

(٧) «الأمد الأقصى» (٤٥٤/١ ، ٤٥٨) ، و«الأسنى» (١١٣/١) بتصرف .

يكتب عليهم الذنوب والآثام، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنه: (... فرفعت إليه امرأة صبيًا، فقالت: ألهذا حج؟ قال: «نعم، ولك أجر»)^(١).

"وإذا اعتبرت جميع ما قيل في معنى الكرم، علمت أن الذي وجب لله تعالى من ذلك لا يحصى"^(٢).

الثمرات

يجب أن يعلم كل مؤمن أن الله ﷻ هو أكرم الأكرمين، وأحق من تسمّى بالكرم، فيسأله وهو أحق من يسأله، فيسأل العبد ربه كل شيء، فينزل حاجاته به وحده، في ليله ونهاره، فإنه كريم لا يرد من سألته، ثم يجب عليه أن يتصف بالكرم، ويسعى في أسبابه، بأن يعود نفسه السخاء، ويده العطا، ويخلق المكارم من الأخلاق، ويصون نفسه عن دنيات الأمور، ويسعى في معاليها، وفي قوله، وفعله، فيصفح عمن أساء له، ويقابل المحسن بأكثر من إحسانه، وإذا أسدى إلى أحد معروفًا صغر في نفسه، وإذا أسدى إليه كبر عنده، فذلك ركن عظيم من مكارم الأخلاق، وباب لطيف من الشكر.

واعلم أن أعظم أسباب الكرم هو التقوى، كما أخبر في كتابه المولى، فقال وقوله الحق: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَى﴾ [الحجرات: ١٣]، وبحسب تقى العبد يكون كرمه.

ثم يجب على كل مكلف إكرام شعائر الله، وإكرام قوله، وإكرام كتابه، وأسمائه، وأوليائه، ونعمه، ومن إكرام نعمه: أن لا يضيعها في غير موضعها، وأن يسلك بها سنة الله ﷻ، وسنة رسوله ﷺ، وكذلك: فأكرم أبويك (اللذان هم أولى أولي الإكرام الخلق، في حياتهم وبعد مماتهم: بالصدقة عليهم، وإكرام أصدقائهم، وأحبابهم).

وأكرم ذوي قرابتك، وجيرانك، وولدك، ومن أمرت بإكرامه، فإن إكرام الأولاد: بتعليم الدين، والتقوى، والتمرن بها على ذلك.

ثم إن كان لك أمر أو سلطان، فعليك أن تقبل عثرات الكرام، اقتداء بالنبي ﷺ خير الأنام،

(١) مسلم (٣٢٥٥).

(٢) «الأسنى» (١١٣/١).

ومن قوله: «أقبلوا الكرام عثراتهم»^(١).

وذلك من مكارم أخلاق الدين والملة في حق جميع ذي العثرة، إلا أنه خصَّ الكرام بذلك لكرمهم، وهم الموصوفون بمكارم الأخلاق من الدين، والسخاء، والمروءة، والتكرم، والمعونة، فإذا بدرت^(٢) منهم العثرة، ووقعت منهم الهفوة، لعدم الكمال والعصمة، كانوا بالإقالة أجدر، ويرفع المؤاخذه وقبول المعذرة من غيرهم أحق^(٣).

وكذلك إكرام سلطان الله تعالى: "بالطاعة له، فيما أمر الله سبحانه فيه بطاعته"^(٤)، قال رسول الله ﷺ: «من أكرم سلطان الله في الدنيا، أكرمه الله يوم القيامة، ومن أهان سلطان الله في الدنيا، أهانه الله يوم القيامة»^(٥).

وإذا أردت رعاك الله أن تعظم ربك بما هو أهله، بالتَّعَبُّد بهذا الاسم له: فأحب فيه سبحانه وحده، قال ﷺ: «ما أحبَّ عبدٌ لله ﷻ، إلا أكرم ربه ﷻ»^(٦).



(١) صححه الألباني في صحيح أبي داود (٤٣٧٥) بلفظ قريب منه: (أقبلوا ذوي الهيئات عثراتهم إلا الحدود).

(٢) في الأصل: (ندرت).

(٣) انظر: «الأسنى» (١٢٣/١).

(٤) من كلام السندي نقلاً من «حاشية تحقيق المسند» (٨٠/٣٤).

(٥) رواه أحمد في «المسند» (٢٤٣٣)، (٢٤٩٥).

(٦) حسَّنه الألباني رحمه الله في تعليقه على «هداية الرواة» (٤٤٤/٤).

١٠- الله ﷻ الودود ﷻ سبحانه وتعالى

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّيَ رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [مرد].

وقال عز شأنه: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ [١٤] ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ [١٥] [البروج]

المعنى اللغوي

الودود: من صيغ المبالغة، أي: كثير الودِّ، والودُّ: المحبة^(١) نقيض البغض، وأُحِبَّتِ الشيء فأنا مُحِبٌّ، وهو مُحَبَّبٌ، وَحَبٌّ إذا تودد، وتقول: ودَّدته إذا أُحْبِبْتَهُ، وهو أَصْفَى الحَبِّ، وألطفه، وخالصه، ولُبُّه.

ويأتي على معنيين، المُحِبُّ والمُحْبُوبُ:

الأول: فعول بمعنى فاعل: أي: بمعنى: واد، أي: الذي يحب أنبياءه ورسله، وأوليائه، وعباده الصالحين، فهو ﷻ يودُّ عباده الصالحين ويُحِبُّهُمْ، ومن آثار ذلك: أَنَّهُ يَرْضَى عَنْهُمْ بأعمالهم، ويحسن إليهم ويمدحهم بها، كما أنه يودِّدُهُمْ إلى خلقه.

الثاني: فعول بمعنى مفعول، أي: مودود، يعني: المحبوب، فالله تعالى مودود، أي: محبوب في قلوب أوليائه، فهو الذي يحبه أنبياءه، ورسله، وعباده المؤمنون، المحبة العظمى، فلا شيء أحبَّ إليهم منه ﷻ، فهي نسيمهم، وروح أبدانهم، وقد جمع الله تعالى بين هذين المعنيين في قوله: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]^(٢)، "فلا تعادل محبة الله ﷻ في قلوب أصفياؤه محبة أخرى، لا في أصلها، ولا في كقيمتها، ولا في متعلقاتها، ولهذا لجهت ألسنتهم بالثناء عليه، وانجذبت أفئدتهم إليه، ودًّا، وإخلاصًا، وإنابةً من جميع الوجوه"^(٣).

(١) وقد ثبت عن ابن عباس ﷺ أنه قال: (الودود: الحبيب) انظر: «التفسير الصحيح» (٦١٦/٤).

(٢) كتاب «العين» (٢٧٧/١)، و«اللسان» (٤٧٩٣/٨)، و«معجم مقاييس اللغة» (٧٥/٦)، و«تفسير الأسماء» (٥٢)، و«النهاية» (٩٦٤)، و«تفسير أبي مظفر السمعاني» (٢٠٠/٦)، و«تفسير البغوي» (١٩٦/٤)، و«روضة المحبين» (٤٦)، و«مدارج السالكين» (٢٩/٣)، و«جلاء الأفهام» (٢٤٣)، و«الأسنى» (٤٢٥/١)، «اشتقاق أسماء الله» (١٥٢).

(٣) انظر: «تفسير ابن السعدي» (٩١٩)، «الحق الواضح» (٦٩)، والتبيان في أقسام القرآن (١٢٤).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الودود، المُحِبُّ لكل معبود والمَحْبُوب لكل مخلوق:

(١) فهو سبحانه الوادُّ لعباده، الذي يحبُّ أنبياءه ورسله وأوليائه، وعباده المؤمنين^(١).

(٢) وهو الودود تعالى: المتودِّد إلى أوليائه بمعرفته، المتحجب إليهم بأنواع كمالاته: من نعوته العظيمة الجميلة، وإحسانه، وأفضاله الجزيلة.

(٣) وهو المتودِّد إلى المذنبين بعفوه، وحلمه، وستره، ورحمته، وتحننه، وتوبته، فهو سبحانه يودُّ من تاب إليه، وأقبل عليه: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ [البروج: ١٤].

(٤) وهو المتودِّد إلى كل خلقه برزقه، وكفايته؛ وآلائه الواسعة، والطفاه، ونعمه الخفية، والجلية^(٢).

(٥) ومن كمال وده سبحانه: أنه غنيٌّ بالذات عن كل ما سواه، وهو مع ذلك: يودُّ عباده، ويحبُّهم، ويتودد إليهم بإحسانه إليهم، وتفضله عليهم.

(٦) وهو الودود سبحانه: الذي يحب نفسه، وأسماءه، ويحب صفاته، وأفعاله، ومقتضياتها^(٣).

(٧) وهو الودود: المحبوب تعالى، المحمود لذاته العلية، وصفاته الحميدة، وأفعاله البهية، وأسمائه السنية، فهو المحبوب المحمود على كل ما فعل، وعلى كل ما أمر^(٤)، وعلى كل ما نهى وزجر.

(٨) وهو الودود تعالى: الحبيب، فهو المحبوب الذي يستحقُّ أن يُحَبَّ الحُبُّ كله، وأن يكون أحبَّ إلى العبد من سمعه، وبصره، ونفسه، وجميع مخلوقاته^(٥).

(١) انظر: «تفسير القرآن العزيز» لابن أبي الزمين (٣٠٦/٢)، و«مدارج السالكين» (٢٨/٣)، و«جلاء الأفهام» (٢٤٣).
(٢) انظر: «تفسير القرآن» للسمعاني (٤٥٣/٢، ٣٠٦/٢)، و«تفسير القرآن العزيز» لابن أبي زمين (١١٦/٥)، و«أسماء الله الحسنى» للرازي (٢٨٨)، «فتح الرحيم الملك» للسعدي (٤٠)، و«شفاء العليل» (١١٩٣/٣)، و«مدارج السالكين» (٢٩/٣)، و«عدة الصابرين» (٢٨٦).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (١٥٦/٣)، و«الصواعق المرسلة» (١٤٥٦/٤، ١٤٥٨)، و«طريق الهجرتين» (٤٣٠)، و«الفوائد» (٣٣٠)، و«درء تعارض العقل والنقل» (١٥/٤).

(٤) «طريق الهجرتين» (٥٢٠) بتصرف يسير.

(٥) «جلاء الأفهام» (٢٤٣)، و«درء تعارض العقل والنقل» (١٥/٤).

(٩) وهو المحبوب تعالى: الذي يحبه أنبياءه، وملائكته، وأوليائه، المحبة الكبرى، التي ليس لها عديل، ولا مثيل من المحاب في الوري، فهم أشد حبا لربهم ومعبودهم من كل محب لكل محبوب، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، كما أن محبوبهم ليس كمثله شيء في كماله، فهم يحبونه تعالى لما عرفوا من كماله في:

(أ) ذاته العلا.

(ب) ويحبونه: لما قام به من صفات الكمال، ونعوت الجلال والجمال.

(ج) يحبونه: لجميل أفعاله، وكثير إحسانه، وإفضاله.

(د) ويحبونه: لما يغذوهم به من نعمه الظاهرة والباطنة، وخصوصاً أكبر النعم: نعمة الإسلام الخالص، والإيمان الكامل.

(١٠) ومن كمال ودّه سبحانه: أنه هو الذي وضع المحبة في قلوب أوليائه، فأحبوه، فهو تعالى وضع كل سبب يتوددهم به، ويجلب ويجذب قلوبهم إلى ودّه^(١).

(١١) وهو المحبوب تعالى: الذي يحبه جميع خلقه، من في سماواته ومن في أرضه من مؤمن وكافر، وصالح وطالح، فإن "القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، ولا أحد أعظم إحساناً منه تعالى، فكل إحسان وصل إلى العبد فمن الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن تَعْمَرٍ فَمِثْلُ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

(١٢) وهو الودود تعالى: الذي تعرّف إلى عبادته من أسمائه، وصفاته، وأفعاله بما يوجب محبتهم له، فإن القلوب مفعورة على محبة الكمال ومن قام به، وإذا كانت هذه فطرة الله التي فطر عليها قلوب عبادته، فمن المعلوم أن الله تعالى له الكمال المطلق من كل شيء، ولا شيء أكمل منه، ولا أجمل، فهو الذي لا يحد كماله، ولا يوصف جلاله، وجماله، وإذا كان الكمال محبوباً لذاته ونفسه، وجب أن يكون الله هو المحبوب لذاته، وصفاته، إذ لا شيء أكمل منه^(٢).

(١٣) ومن كمال الودود سبحانه: أن العبد إذا ودّ الحق عز جلاله:

(أ) ودّه هو سبحانه، (ب) وجعل في قلبه ودّاً يودّه به، قال تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ

(١) انظر: «توضيح الكافية الشافية» (١٢٥)، و«فتح الرحيم الملك» (٤١)، و«شرح القصيدة النونية» للهراس (١٦٩/٣)، و«طريق الهجرتين» (٥٢٣).

(٢) انظر: «طريق الهجرتين» (٥٢٠)، و«روضة المحبين» (٤٢٠).

وَيُحِبُّونَهُ ﴿ [المائدة: ٥٤] ، ج) وألقى في قلوب الناس له وُدًّا ، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [ريم: ٩٦] ، أي: يوجد في قلوبهم وُدًّا فيودونه لذلك ، ويوجد لهم أيضاً وُدًّا في قلوب الخليفة" (١) .

(١٤) وهو الودود عزَّ شأنه: الذي يحبُّ ما شاء ، ومن شاء ، من الأقوال ، والأفعال ، والأوصاف ، والأشخاص ، والأحوال ، والأماكن ، فهو سبحانه يحبُّ أن يعبد بأنواع التعبُّدات كلها ، وأن محبَّته لذلك تتفاضل في هذه المحبوبات بحسب كمالها .

(١٥) ومن كمال مودة الله تعالى لعباده وأوليائه: أنها سالمة من عوارض محبة المخلوق للمخلوق ، من كونها محبةً حاجةً إليه ، أو تملُّقٍ له ، أو انتفاعٍ بقربه ، فمحبة سبحانه لهم لا يرجوا بذلك أن يعاوضوه ، ولا يتوقع منهم أن يشكروه (٢) .

لأنها محبةً كاملةً من جميع وجوها في: أصلها ، ومنشئها ، ونهاياتها ، وغاياتها ، ونتائجها .

(١٦) ومن كمال مودته سبحانه: أن محبة الربِّ ﷻ للعبد تستلزم عواقب عظيمة ، وغايات كريمة ، يكون بها العبد غنياً بلا مال ، مهيباً بلا سلطان ، عزيزاً بلا عشيرة (٣) ، مقبولاً بين الخليفة .

(١٧) فهو سبحانه كثير الودِّ لعباده ، والتودد لهم ، بتوافر النعم ، فهو يواليهم بأيادي الإنعام ابتداءً وختماً ، وصرف النقم ، وإيصال الخيرات ، ودفع المضرات (٤) عنهم سرّاً وجهرًا ، فكيف لا يحبون من هذا شأنه ؟

(١٨) وهو الودود تعالى: محبوب المؤمنين ، ومحبة لهم سبب في استغفارهم ، وتوبتهم ، ولولا ذلك ما وفقهم إلى استغفاره والرجوع إليه ، قال تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠] (٥) .



(١) ينظر: «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (٣١٣/٢ - ٣١٤) ، وانظر: «الوسيط في تفسير القرآن المجيد» للواحدي (١٩٧/٣) .

(٢) انظر: «مدارج السالكين» (٢٠/٣) ، و«مجموع الفتاوى» (٣٥٤/٢) ، و«شرح القصيدة النونية» لابن عثيمين (١٧١/٣) .

(٣) انظر: «الوابل الصيب من الكلم الطيب» (٩٢) .

(٤) «شرح أسماء الله» للبرنسي وحاشيته (٧٧) ، و«طريق الهجرتين» (٥٢٣) .

(٥) «البحر المحيط في التفسير» (٢٠٠/٦) .

﴿ جلال الودود ﴾

الأول: من جلال هذا الاسم المبارك: أنه يدل على صفة المحبة لله ﷻ، التي نطق بها الكتاب والسنة، وهي صفة فعلية عليّة، تتعلق بمشيئته وقدرته، تقتضي الإحسان، والثواب، والإنعام، والإكرام.

الثاني: ومن جلاله: أن محبة العبد لربه ﷻ فضل من الله وإحسان، ليست بحول العبد وقوته، فهو تعالى الذي أحبّ عبده، فجعل المحبة في قلبه، ثم لما أحبّه العبد بتوفيقه، جازاه الله تعالى بحبٍّ آخر، وهذا هو الإحسان المحض على الحقيقة، إذ منه السبب، ومنه المسبب.

وهو تعالى يحبُّهم [أي: أنبياءه وأوليائه] لكمال إحسانه، وسعة برّه، بل حب العباد له تعالى، محفوف بمحبّتين من ربّهم، حبٌّ وضعه في قلوبهم، فانقادوا له طوعاً، واطمأنّت به قلوبهم، ثم أحبّهم جزاء حبّهم، وكمل لهم محبّته، والفضل كله منه، والمنة لله أولاً وآخرًا.

فتبارك الذي جعل وأودع المحبة في قلوب المؤمنين، ثم لم يزل ينميها ويقوّيها حتى وصلت في قلوب الأصفياء إلى حالة تتضاءل عندها جميع المحابّ، وتُسليهم عن الأحباب، وتهوّن عليهم المصائب، وتلذّد لهم مشقّة الطاعة، وتثمر لهم ما يشاؤون من أصناف الكرامات، التي أعلاها: محبة الله، والفوز برضاه، والأنس بقربه^(١).

الثالث: ومن جلال الودود: أنه يرزق أوليائه محبة الناس، فيحبّهم إلى خلقه، فيجعل لعباده الصالحين وُدًّا، أي حبًّا عظيمًا، وودادًا في قلوب العباد، وأهل السماء، وأهل الأرض، من غير تودد منهم، ولا تعرّضٍ للأسباب التي تكسب بها الناس، مودّات القلوب من قرابة، أو صداقة، أو اصطناع معروف، أو غير ذلك، دالًّا على ما لهم عندهم من الود قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مرم]^(٢).

الرابع: ومن جلاله: أنه تعالى جعل المودة والرحمة آية على وحدانيّته في الألوهية، وكمال رحمته في أسمى العلاقة بين الزوجين، قال الله العظيم: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: ٢١]،

(١) «القصيدة النونية» لابن القيم، رقم الآيات (٣٢٩٦ - ٣٢٩٨)، و«الحق الواضح» (٦٩ - ٧٠)، «توضيح الكافية الشافية» (١٢٥).

(٢) انظر: ابن السعدي (٥٠١)، «نظم الدرر» للبقاعي (٥٥٩/٤).

"أي: ودادًا وترحمًا بسبب عصمة النكاح، يعطف به بعضكم على بعض، من غير أن يكون بينكم قبل ذلك معرفة، ورحمة" (١)، وارتضاها لتكون نهاية للمتخاصمين مع الآخرين، قال تعالى: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَةً﴾ [الممتحنة: ٧] (٢)، أي: "محبة بعد البغضة، ومودة بعد النفرة، وألفة بعد الفرقة" (٣).

الخامس: ومن جلال الودود سبحانه: أنه إذا ودَّك سددك على محابَّه في السر والجهر، ويعطيك ما تسأله في الليل والنهار (٤)، وينزل عليك القبول والوقار، عند جميع خلقه، من الفجار أو الأبرار (٥).

السادس: ومن جلال ودَّه ﷺ لأوليائه: "أنه يشهد من خطابه كتابه لأحبابه، ألطف عتاب، وأنه مع ذلك مقيم عقوباتهم، وغافر ذلالتهم، ومقيم أعذارهم، ومصلح فسادهم، والدافع عنهم، والمحامي عنهم، والناصر لهم، والكفيل بمصالحهم، والمنجي لهم من كل كرب" (٦).

السابع: ومن جلال الودود سبحانه: أنه لا يلقى من ودَّه في النار، في دار القرار، قال ﷺ: «والله، لا يلقى الله حبيبه في النار» (٧).

قال ابن القيم رحمه الله: "ولو لم يكن في محبة الله إلا أنها تُنجي مُحِبَّه من عذابه، لكان ينبغي للعبد أن لا يتعوَّض عنها بشيء أبدًا، وسئل بعض العلماء: أين تجد في القرآن أنَّ الحبيب لا يعذَّب حبيبه؟ فقال: في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصْرَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ [المائدة: ١٨] (٨).

الثامن: ومن جلاله: أنه حبب الإيمان به تعالى، وبرسوله إلى أوليائه، فجعله أحب الأشياء

(١) «فتح البيان» لحسن صديق خان (٢٦٧/٥).

(٢) «مع الله الاسم الأعظم» (١٨٩) د. سليمان العودة.

(٣) «ابن كثير» (٤٦٠/٤).

(٤) كما في حديث الولاية العظيم: «... فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني أعطيت، ولئن استعاذني لأعيذه» البخاري (٦٥٠٢).

(٥) كما في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أحب الله تعالى العبد نادى جبريل: إن الله تعالى يحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، فينادي في أهل السماء: إن الله يحب فلانًا فأحبه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض» البخاري (٦٥٠٢).

(٦) «طريق الهجرة» (٢٥٠).

(٧) رواه الحاكم (١٧٧/٤)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٤٠٧).

(٨) «روضة المحبين» (٤١٨).

إليهم ، وحسن الإيمان وأدخله في قلوبهم ، بتوفيقه ، وهدايته ، من محبة الحق ، وإيثاره ، فأصبح زينة القلب ، وبما يقتضيه من الأقوال ، والأفعال من الطاعة ، قال رب العالمين: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ أَلَا يَمَنَنَّ وَرَزَنَتُهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧] .

وكره إليهم أجناس المخالفة ، فقال عز شأنه: ﴿وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ ﴿فَضَلَّ مِنْ اللَّهِ بَعْدَ ذَلِكَ وَنِعْمَ اللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ [الحجرات: ٧ - ٨] ^(١) .

ولهذا فالمؤمنون أشدُّ حبًّا لربِّهم ومعبودهم تعالى من كلِّ مُحبٍّ لكلِّ محبوب ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] ^(٢) .

وإذا تأملت يا عبد الله في هذا الاسم الكريم بعين البصيرة ، لعلمت بجلاله ، وهو أنه سبحانه: "مع كمال غناه عن كل ما سواه ، (وعظمته ، وكبريائه ، وجبروته) وأنه تعالى موصوف بشدة البطش ، وهو مع ذلك: يودُّ عباده ، ويحبُّهم ، ويتودد إليهم بإنعامه ، وإحسانه ، و(ألطافه) ، وتفضُّله عليهم" ^(٣) في كل الأوقات ، بلا انقطاع ، ولا انتهاء ، فودُّه سبحانه إلينا لحاجتنا إليه ، لا لحاجته إلينا ، فالفضل والمنة منه أولاً وآخرًا ، فأَيُّ وُدٍّ أسمى من ودِّه ﷺ .

﴿ الثمرات ﴾

من ظهر له اسم الودود وكشف له عن معاني هذا الاسم ولطفه ، وتعلَّقه بظاهر العبد وباطنه: كان الحال الحاصل له من حضرة هذا الاسم مناسبًا له ، فكان حال اشتغال حُبٍّ وشوق ، ولذة ، ومناجاة ، لا أحلى منها ، ولا أطيب ، بحسب استغراقه في شهوده معنى هذا الاسم ، وحظُّه من أثره ^(٤) ، فأعظم لذات الدنيا على الإطلاق هي: لذة معرفته سبحانه ، ولذة محبَّته ، (التي لا يقوم لها شيءٌ أبدًا) ، فإن ذلك هو لذة الدنيا ، ونعيمها العالي ، فأطيب ما في الدنيا معرفته ، ومحبَّته ، وألذُّ ما في الآخرة هي: رؤيته ، ومشاهدته ، (ولا تحصل إلا تبعًا في الأولى) .

فمحبَّته ، ومعرفته تعالى هي قرة العيون ، ولذة الأرواح ، وبهجة القلوب ، ونعيم الدنيا ،

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٨٠/٧) ، و«فتح البيان في مقاصد القرآن» لحسن صديق خان (٣٧٦/٦) ، و«تفسير السعدي» (٨٠٠) .

(٢) «طريق الهجرتين» (٥٢٣) .

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٢٩/٣) ، (١٥٦) .

(٤) «مدارج السالكين» (١٦٥/٣) .

وسرورها ، بل اللذة القاطعة عن ذلك تنقلب آلاماً ، وعذاباً ، ويبقى صاحبها في المعيشة الضنك ، فليس الحياة الطيبة إلا بالله^(١) ومحبه .

ولهذا كان سيّد الأولين والآخرين ﷺ يلازم سؤال ربّه الودود ، أن يرزقه محبته التي هي أعظم المحاب ، فكان من دعائه : «...اللهم وأسألك حبك ، وحب من يحبك ، وحب عملٍ يقربني إلى حبك»^(٢) .

ومن عبوديّة الودود سبحانه : "أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه من نفسه ، وأهله ، وماله ، والخلق أجمعين ، المعنى في حقّ الله : أن يريد طاعة الله على ذلك كله ، مثل : أن يحبّ الجهاد والحج ، فيؤثرهما على الأهل ونحوه ، وأما في حقّ رسوله ﷺ : فأن يقدمه على نفسه ، وأهله ، وماله ، فيلتزم طاعته فيما أمر به عن الله تعالى"^(٣) .

قال ﷺ : «ثلاث من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما ، وأن يحبّ المرء لا يُحبّه إلا الله...»^(٤) .

فينبغي للمؤمن أن يتودّد إلى الله تعالى ، بالاشتغال بالأسباب التي تقتضي محبته تعالى ، من الأقوال ، والأفعال ، وأعظمها ، طاعة الله ورسوله ﷺ ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] ، "فمن اتبع رسوله فيما جاء به ، وصدق في أتباعه ، فذلك الذي أحبّ الله ، وأحبه الله"^(٥) .

ومن طاعة الله ورسوله ﷺ : أن يودّد العبد أصدقاء أبيه بعد موته ، قال رسول الله ﷺ : «إن من أبرّ البر صلة الرجل أهل ودّ أبيه ، بعد أن يولي»^(٦) ، ويلحق في ذلك : أصدقاء الأم ، والأجداد ، والمشايخ ، والزوج ، والزوجة^(٧) .

ومن أعظم الودّ في توحيد الله تعالى في اسمه الودود : مودة الرجل لزوجته ، ورفقه بها ،

(١) «الداء والدواء» لابن القيم (٣٥٧ - ٣٥٨) .

(٢) «صحيح الترمذي» (٣٢٣٥) .

(٣) «الأمد الأقصى» (١١٣/٢) .

(٤) البخاري (١٦) ، ومسلم (٤٣) .

(٥) «الأسنى» للقرطبي (٤٣٠/١) .

(٦) مسلم (٢٥٥٢) .

(٧) «شرح صحيح مسلم» للنووي (٣٥٢/٦) .

وكذلك مودة المرأة لزوجها .

قال ﷺ: «ألا أخبركم بنسائكم في الجنة؟» قلنا: بلى يا رسول الله، قال: «كل ودود، ولود، إذا غضبت، أو أسيء إليها، أو غضب زوجها، قالت: هذه يدي في يدك، لا أكتحل بغمض حتى ترضى»^{(١)(٢)}.

وأن لا يؤادَّ من حادَّ الله ورسوله، ولو كانوا من أهله، قال تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢] .

واعلم يا رعاك الله: "أنَّ من علامات خالص حبِّه تعالى: صدق الانقطاع إلى الحبيب بكلِّ وجه، وعلى كلِّ حال، وسبق نظر القلب إليه عند كلِّ حادثة، وإخلاص المعاملة، وحسن الأدب، بل وجود النعيم في مجالسته والأنس بمؤانسته، ثم الطمأنينة إليه، وعكوف الهمِّ عليه، وإظهار ما به من النعم، وكثرة التفكُّر في عجيب صنعه، وتدبُّر كتابه، ومعاني حديث رسول الله ﷺ، وحسن الثناء عليه" (٣).

وبالجملة: أن تقدِّم محابَّ الله تعالى على جميع محابِّك الحسية والمعنوية، فهذه هذه العبودية الحقَّة للودود سبحانه .



(١) «صحيح الترغيب والترهيب» (١٩٤١).

(٢) «أسماء الله الحسنى الثابتة» أ.د. محمود الرضواني (٤٩٥).

(٣) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان (٣١٧/٢).

١١-١٢- الله ﷻ الغفور، الغفار عز وجل

قال تعالى: ﴿بَنَىٰ عِبَادِيَ أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر]

وقال تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح].

المعنى اللغوي

الغفور والغفار: اسمان كريمان من أبنية المبالغة، فالغفور: على وزن: (فعلول) يدلُّ على المبالغة في قوَّة وصف المغفرة، أي: يغفر الذنوب العظيمة الكبيرة.

والغفار: على وزن: (فَعَّال): يدلُّ على المبالغة في الكثرة على المغفرة، أي: يغفر الذنوب الكثيرة، مهما كان عددها وتكرارها كما سيأتي.

والغفر: إلbas الشيء ما يصونه عن الدنس.

وأصل الغفر في اللغة: السَّتر والتَّغطية، ومنه يقال: "الصَّبغُ أَغْفَرُ للوسخ"، أي: أستر، والمغفر: ما يوضع على رأس المحارب حال الحرب، يتوقَّى به السهام، وهو يفيد فائدتين: الستر، والوقاية^(١)، فالمغفرة تطلق على عدَّة معانٍ:

الأول: ستر الذنب، والتجاوز عنه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "المغفرة معناها: وقاية شرِّ الذنب بحيث لا يعاقب على الذنب، فمن غفر ذنبه لم يعاقب عليه، وأما مجرَّد ستره فقد يعاقب عليه في الباطن، ومن عوقب على الذنب باطنًا أو ظاهرًا فلم يغفر له"^(٢).

ومعنى قول القائل: (اللهم اغفر لي)، أي: اللهم استر عليَّ ذنبي في الدنيا وفي الحساب،

(١) ينظر: «اللسان» (٢٥/٥)، و«النهاية» (٦٧٤)، و«المفردات» (٦٠٩)، و«شأن الدعاء» (٥٢، ٥٦)، و«تفسير الأسماء» (٣٧، ٤٦)، واشتقاق أسماء الله (٩٣، ١٨٩)، و«المصباح المنير» (٢٦٠)، و«إبطال التأويلات» (٦٤٩)، و«الأمد الأقصى» (٣٥٤/٢)، «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٤٠٧/٢)، «تفسير آل عمران» للعلامة ابن عثيمين رحمه الله (١٦٦/٢).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣١٧/١٠).

ولا تؤاخذني ، كقوله ﷺ: «إِنِّي قد سترتها عليك في الدنيا ، وإني أغفرها لك اليوم»^(١).

فالمغفران والمغفرة من الله تعالى هو: أن يصون العبد من أن يمسه العذاب^(٢).

الثاني: وقد يكون معنى الغفر: الإصلاح ، ولذلك قيل: "غفرت الثوب أغفره": أصلحته بما ينبغي له ، ويقال: "غفر الأمر بغفرته" بالضم ، وغفירתه: أصلحه بما ينبغي أن يصلح به^(٣).

فمعنى قول القائل: اللهم اغفر لي ، اللهم أصلحني ، وإن قال: اغفر لي ذنبي ، أي: أصلح ذنبي ، ويسرني لعمل تكفّر به عني ، فيكون إصلاحاً له ، قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا﴾ [البقرة: ١٦٠] ، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٠]^(٤).

الثالث: وقيل: هو مأخوذ من الغفر: نبت تداوى به الجراح ، إذا ذرّ عليها دملها^(٥) ، وأبرأها ، والمعنى: أن مغفرته تعالى لهم ما وهبهم من الأسف^(٦) ، وخلق لهم من الأسف على ما فرط من المعاصي والذنوب ، حتى ذهب ما كان بالمعاصي من الألم^(٧).

فالمغفرة تبرئ جراح الذنب كما يبرئ هذا النبت جراح الأبدان^(٨).

وهذان الاسمان الكريمان من صيغ المبالغة ، يدلّان على كثرة مغفرة الله ﷻ ، وكثرة من يغفر لهم ، فالكثرة هنا واقعة في الفعل ، وفي المحل ، في الفعل: كثرة غفرانه لذنوب عباده ، وفي المحل: كثرة المغفور لهم^(٩).

الفرق بين الغفور والغفار: أن الغفور: هو الذي يغفر الذنوب مهما عظمت وكبرت^(١٠) ، فهو لا يختصّ بنوع واحد من الذنوب ، بل يشمل كل أنواعها ، وأجرامها .

(١) البخاري (٢٤٤١) ، ومسلم (٢٧٦٨).

(٢) «المفردات» (٦٠٩).

(٣) انظر: «القاموس المحيط» (٩٥٤) ، و«لسان العرب» (٢٥/٥) ، و«شرح الأسماء الحسنى» للإشيلي (٣٢٦/٢).

(٤) «شرح الأسماء الحسنى» للإشيلي (٣٢٦/٢).

(٥) دمل الجرح: جعله يندمل ، أي: يلتئم ، انظر: حاشية «الأسنى» (١٥٢/١).

(٦) الأسف: الحزن ، والمراد عودة المذنب إلى ربه تائباً ، ويمكن تفسيره بالإحساس بالندم والاستنكاف مما ارتكبه من المعصية .

(٧) «الأمد الأقصى» (٣٥٥/٢) ، و«الأسنى» (١٥٢/١ - ١٥٣).

(٨) «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي العباس البرنسي (٦٤).

(٩) «تفسير سورة البقرة» لابن عثيمين (٢٥٢/٢).

(١٠) فقد يكون للعبد ذنبٌ واحدٌ عظيم كعقوق الوالدين ، وليس عنده ذنوب صغيرة .

والغفار: هو الذي يغفر الذنوب مهما تعددت وكثرت^(١)، أي: أنه تعالى يغفر الذنوب مرة بعد أخرى إلى ما لا نهاية.

فالغفور: للذنوب الثقال العظام، والغفار: لكم والكثرة من الذنوب والآثام، فالغفور المبالغة باعتبار الكيفية، والغفار باعتبار الكمية^(٢).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الغفور الغفار، وهو ﴿حَيُّرُ الْغَفِيرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] لا تزال آثاره تشمل الخليقة في كل أوان ومكان فهو سبحانه:

(١) المبالغ في الستر لذنوب عباده في السرّ والجهر، المغطّيهم بستره في الليل والنهار، فلا يطلع على ذنوبهم أحدٌ غيره، ولا يشهرهم، ولا يفضحهم بين خلقه.

(٢) فهو سبحانه ذو عفوٍ، وصفح، وستر على ذنوب من تاب من ذنوبه من الناس، فتارك فضيحته بها في يوم القيامة، وصافح له عن عقابه عليها، عاجلاً وآجلاً، مع أنهم (قد كانوا) يظلمون ويخطئون (في حقّه) بالليل والنهار، قال عزّ شأنه: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]^(٣).

(٣) فهو المتجاوز عن خطاياهم، وذنوبهم، مهما: عظمت، وكبرت، ومهما: كثرت وتكرّرت، وتنوّعت، جاء الاسمان من أبنية المبالغة لأنه سبحانه يغفر ذنوب عباده مرّةً بعد مرّةً، إلى ما لا يحصى، كلّما تكرّرت توبة العبد من الذنب، تكرّرت المغفرة من الربّ عزّ شأنه، فبابه بالمغفرة مفتوح في أي وقت، ما لم تغرغر النفس، أو تطلع من المغرب الشمس^(٤).

(٤) فهو تعالى كثير المغفرة للذنوب، فلا يؤاخذ عليها العبيد، وقد يغفر فضلاً وإحساناً منه، بدون قيد أو شروط، فهو الفعّال المطلق الذي هو فوق القيود والحدود^(٥).

(١) وقد يكون للعبد ذنوب صغيرة وليس عنده كبيرة.

(٢) انظر «المقصد الأسنى» (٤١)، (٩٥)، و«شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (٢٢٣)، و«شرح مصابيح السنة» للبيضاوي (٦٠/٢ - ٦١)، و«موسوعة له الأسماء الحسنى» (١٩٠/١)، و«أسماء الله الحسنى في الكتاب المقدس» (٦٦٢)، و«أسماء الله الحسنى الثابتة» (٤٨٧) (٦٦٢) للرضواني.

(٣) «تفسير الطبري» (٤٠٧/٤)، و«تفسير ابن كثير» (٦٧٦/٢).

(٤) انظر: «تفسير الأسماء» (٣٨)، و«الحجة في بيان المحجة» (١٤٤/١)، و«شأن الدعاء» (٥٢، ٦٥)، واشتقاق أسماء الله (٩٤).

(٥) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (١٨٩/١).

(٥) فهو سبحانه الذي يستر قبح الإثم: بحسن الثواب، فيستر ذلك القبح: بحسن يهبه له، وذلك: أنه يصفح عن الذنب ولا يعاقب، ثم يبدله حسنات^(١).

(٦) وستره سبحانه للذنوب عباده بأنه لا يكشف أمره لخلقه، ولا يهتك ستره بالعقوبة، التي تشهره في عيونهم، ولو علم المخلوق ذنباً لآخر لأفشاه، ولعله لو ستره عليه، ثم غضب أدنى غضبة لأبداه، كما أنه يُمْنٌ عليه إذا غفر له زلة، أما الله ﷻ فإنه يغفر ولا يوبِّخ، ثم إنَّ العبدَ تعرَّض لمعاصي الله تعالى في كلِّ وقتٍ، وستره عليه مسبل من الرب^(٢).

(٧) ومن كمال الغفور سبحانه: أن المغفرة فضلٌ من الله تعالى، وإلا فلو أخذ بمحض حقِّه كان عدلاً محموداً، وإنما مغفرته تعالى للذنوب عباده بفضله عليهم وبرحمته لا باستحقاقهم، فإن ذلك يوجب شكراً له تعالى، ومحبةً وإنابةً إليه، وفرحاً، وابتهاجاً به^(٣).

(٨) ومن كماله: أنه تعالى ﴿وَسِعَ الْمَغْفِرَةَ﴾ [النجم: ٣٢]، فيغفر ما يشاء من الذنوب من غير توبة^(٤)، فقد يغفر سبحانه لمن (لم) يستغفره^(٥).

(٩) وهو تعالى الغفور الغفار: الذي يغفر الذنوب الكثيرة، والكبيرة، فإن "الذنوب وإن جُلَّتْ وعظمت فإن عفوه وكرمه أعظم وأجل"^(٦)، قال ﷺ: «إِنْ تَغْفِرَ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا، وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمًا»^(٧).

(١٠) وهو الذي أظهر الجميل، وستر القبيح، والذنوب من جملة القبايح التي سترها، بإسبال الستر عليها في الدنيا، وترك المؤاخذه والعقاب عليها في الآخرة، ويصون العبد من أوزارها^(٨)، ومن تبعاتها، فلا يكون عقاب، ولا عتاب.

(١١) ومن سعة مغفرته: أنه العواد بالمغفرة لمن استعطفها من العباد: قال ﷺ: «مَرَّ رَجُلٌ

(١) «حاشية شرح أسماء الله الحسنى» لأبي الحكم (٣٢٨/٢)، و«أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (٥٧٥/١).

(٢) «شأن الدعاء» (٥٢)، «تفسير أسماء الله» (٤٦)، «الحجة في بيان المحجة» (١٤٤/١) بتصرف.

(٣) «مدارج السالكين» (٢٢٨/١)، و«الأمَد الأقصى» (٣٥٦/٢).

(٤) «تفسير النسفي» (١١٨١).

(٥) «شرح أسماء الله» لابن برجان (٣٢٧/٢).

(٦) «تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان» (٣٢٣/٣).

(٧) «صحيح الترمذي» (٣٢٨٤). قوله: (جَمًّا) بفتح الجيم وتشديد الميم، أي: كثيراً كبيراً، والمعنى: من شأنك غفران كثير من ذنوب عظام، وأما الجرائم الصغيرة فلا تنسب إليك؛ لأنَّ أحداً لا يخلو عنها. «تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي» (٢٧١/٨).

(٨) «شرح مصابيح السنة» للبيضاوي (٥٥/٢)، و«المقصد الأسنى» (٧٦).

ممن كان قبلكم في بني إسرائيل بجمجمة ، فنظر إليها ، فقال : أي رب ! أنت أنت ، وأنا أنا ! أنت العواد بالمغفرة ، وأنا العواد بالذنوب ، ثم خرَّ ساجداً ، فقبل له : ارفع رأسك ، فأنا العواد بالمغفرة ، وأنت العواد بالذنوب ، فرفع رأسه فغفر له»^(١).

(١٢) ومن كمال مغفرته سبحانه : أنه "نوع معانيها ، لتطمئن قلوب العصاة ، وتسكن نفوس المجرمين"^(٢) ، ولا تقنط نفسٌ مهما اجتاحت واقترفت في حقه سبحانه ، قال تعالى : ﴿ قُلْ يَعْبادُ الَّذِينَ اسْتَفَوْا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] ، قال ﷺ : «إن الشيطان قال : وعزتك يا رب ، لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم ، فقال الرب : وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني»^(٣).

(١٣) ومغفرته سبحانه وستره للأنام في الدنيا والآخرة :

أما في الدنيا : ففي أحوال النفس والأبدان :

أما في الأبدان : فإن أول ستره على الإنسان : أن جعل مقابح بدنه التي تستقبحها الأعين ، مستورة في باطنه ، مغطاة بمحاسن ظاهرة ، وكم بين باطن العبد ، وظاهره في النظافة والقذارة ، وفي القبح والجمال ! فانظر ما الذي أظهره ، وما الذي ستره .

وأما ستره في أحوال النفس : أنه تعالى جعل مستقر خواطره المذمومة ، وإراداته القبيحة ، ستر قلبه ، حتى لا يطلع أحدٌ على ستره ، ولو انكشف للخلق ما يخطر بباله في مجاري وساوسه ، وما ينطوي عليه ضميره من الغش ، والخيانة ، وسوء الظن بالناس ، لمقتوه ، بل سعوا في إهلاكه ، وإضراره ، فانظر كيف ستر سبحانه عن غيره أسرارهِ ، وعوراتهِ .

وأما ستره في الآخرة : أن الحق سبحانه يغفر ذنوب العبد التي كان يستحق الافتضاح بها على ملاء الخلق ، فلا يطلع عليها أحد ، بل قد لا يطلع المذنب عليها أيضاً ، صوناً له عن ألم الخجل^(٤) ، مغفرة ، وسترًا من الرب .

(١٤) ومغفرته سبحانه لعباده على ما وهبهم من الإحساس بالحزن والندم ، وخلق لهم من

(١) صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٢٣١) (٧/٧٠٣).

(٢) «موسوعة له الأسماء الحسنى» للشرباصي (١/١٩٠).

(٣) صححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦١٧).

(٤) «شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (٢٢٣) ، و«المقصد الأسنى» (٧٦) ، و«شرح أسماء الله الحسنى» للبيضاوي

(٢٠٩) بتصرف .

الأسف على ما فرط منهم من الذنوب والمعاصي ، حتى ذهب ما كان بالمعاصي من الألم^(١) مما اقتترفوه في حقه تعالى ، فمنه السبب ، ومنه المسبب :

السبب : أنه أودع في نفوسهم الأوبة والندم من الذنب .

المسبب : أنه غفر لهم وتجاوز عنه حقه من الخطأ ، فأبى كمالٍ يسمو إلى كمال ربنا جلّ ثناؤه ؟!

✽ غفراته سبحانه لخلقه نوعان : غفران عام ، وغفران خاص :

الأول : غفران عام : وهي مغفرة نظرة وإمهال ، وهو لجميع العباد في هذه الدنيا ، مؤمنهم وكافرهم ، لينال كل نصيبه من الكتاب ويستوفي ما خلق له ، ثم تأخذهم على أوفر ما جنوه ، ذلك في قوله سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمِصُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ﴾ ، ثم قال جلّ قوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ [فاطر : ٤١] ، وكما قال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَحْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيِلًا ﴾ [الكهف : ٥٨] .

الثاني : غفران خاص : وهو مغفرة أوبة ، وتطهير ، وهو للأولياء ، والمؤمنين ، وهو نائل نفعه في دنياهم ، ويوم الدين ، ﴿ وَإِلَىٰ لَعْفَارٍ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ [طه : ٨٢] ، فهي في الخاصة من المؤمنين العامة في الدنيا والآخرة ، فجاء به التكرير (أي : بصيغة المبالغة في الغفار) كلما أذنبا غفر سبحانه ، وله الحمد كثيراً كما هو أهله^(٢) ، والله تعالى أعلم .

﴿ جلال الغفور الغفار ﴾

الأول : أنهما يدلان على ستر الله تعالى في الحال وفي المال ، وينقسم إلى ستر يقترن بالعفو ، وإسقاط الحق ، وتغطية القبيح عن اطلاع الغير إليه ، وتضمناً على كمال الصبر والحلم له تعالى ، والإمهال والأناة ، وكرم الذات والصفات وغير ذلك ، وتضمناً نفي النقائص التي تضادّ هذه الصفات^(٣) .

الثاني : ومن جلال الغفور الغفار سبحانه : أنه فتح لأولياته سبلاً ، وألواناً من الأسباب المتنوعة الظاهرة والباطنة ، في نيل مغفرته وعفوه ، فمن ذلك :

(١) «الأمم الأقصى» (٣٥٦/٢) .

(٢) ينظر : «شرح الأسماء الحسنى» للإشبيلي (٣٢٧/٢) بتصرف .

(٣) انظر : «الأسنى» للقرطبي (١٥٥/١) .

أنه سخر لك أهل السموات والأرض أن تستغفر لك ذنوبك .

فسخر أهل السموات من ملائكته الأبرار ، قال جل ثناؤه: ﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ١٧] (١).

وسخر أهل الأرض من الحيتان ، وحتى الأشجار والأحجار ، أن تستغفر لمعلمي الناس الخير: قال رسول الله ﷺ: «معلم الخير يستغفر له كل شيء ، حتى الحيتان في البحر» (٢).

الثالث: ومن جلال مغفرته سبحانه: أنه مهما بلغ عظم الذنب ، واستغفر منه العبد ، وأخلص ووحد الرب ، "غفر الله له كل ما صدر منه من ذنب ، وأزال عنه ما ترتب من نقص ، وعيب" (٣)، ففي الحديث القدسي: «يا ابن آدم! لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني ، غفرت لك ولا أبالي ، يا ابن آدم! لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً ، لأتيتك بقرابها مغفرة» (٤).

الرابع: ومن جلالهما: أنه تعالى يبذل للمؤمنين سيئاتهم حسنات في الدنيا: فتبديل أعمالهم ، وأقوالهم ، التي كانت مستعدة لعمل السيئات ، تتبدل حسنات من أعمال الصالحات ، فيتبدل شركهم إيماناً ، والمعصية طاعات ، وفي الآخرة: تتبدل سيئات التائب بالحسنات في صحيفته (٥) قال عز شأنه: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦] (٦).

الخامس: ومن جلال الغفور الغفار: أنه سبحانه لا يعاجل العقاب فور وقوع السيئات ، بل يترك الفرصة للتائبين والتائبات ، قال رب العزة والجلال: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا﴾ [الكهف: ٥٨] (٧).

(١) وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَسْتَحْسِنُونَ يُحَسِّنُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] ، أي: "ويسألون ربهم المغفرة للذنوب من في الأرض ، من أهل الإيمان". «تفسير ابن جرير الطبري» (٦/٤٨٠).

(٢) «صحيح الترمذي» برقم (٧٩). وقال ﷺ: «إن الله ، وملائكته ، وأهل السموات ، وأهل الأرض ، حتى النملة في جحرها ، وحتى الحوت ، ليصلون على معلمي الناس الخير». «صحيح الترمذي» برقم (٢٦٨٥).

(٣) «تفسير ابن السعدي» (٢٥١).

(٤) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٣٧).

(٥) كما جاء في «صحيح مسلم» (١٩٠): «... فيقال له: فإن لك مكان كل سيئة حسنة».

(٦) «تفسير السمعاني» (٣٤/٤) ، وابن السعدي (٥٨٧).

السادس: ومن جلال غفرانه سبحانه: أنه لا يسجل الذنب إلا بعد وقوعه، خلاف الحسنه، فهي تكتب عند الهمّ بها، يقول الله ﷻ: «إذا أراد عبي أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملها، فإذا عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها من أجلي فاكتبوها له حسنة...»^(١).

السابع: ومن جلال الغفور الغفار سبحانه: أنه ضيق أسباب المعصية، ووسع أسباب المغفرة لعباده. فمن الأول: أن من عمل ذنباً جهلاً، أو نسياناً، لا يؤاخذ عليه.

والثاني: أنه تعالى جعل مواسم للمغفرة من الأيام والأشهر والأحوال والأزمنة.

التاسع: ومن جلال غفرانه تعالى: أن من استغفر للمؤمنين والمؤمنات، كتب الله له بكل واحدةٍ منهم حسنة، والحسنة بعشر أضعافها، قال ﷻ: «من استغفر للمؤمنين والمؤمنات، كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة»^(٢).

العاشر: ومن جلالهما: أن اجتناب الكبائر من أعظم الأسباب في مغفرة الصغائر، قال تعالى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ تُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلَ كَرِيمٍ﴾ [النساء: ٣١]، "وهذا من فضل الله تعالى، وإحسانه على عباده المؤمنين، وعدهم أنهم إذا اجتنبوا كبائر المنهيات، غفر لهم جميع الذنوب، والسيئات [بل] وأدخلهم مدخلاً كريماً، كثير الخيرات وهو دخول الجنات"^(٣). فأبي جلال أسمى من هذا؟

الثمرات

هذان الاسمان الكريمان يثمران في قلب الإنسان توقي معاصي الله تعالى، ومراقبة الأعمال في السرّ والإعلان، ويثمران له كذلك: قوة الرجاء في قلب العبد، وقطع اليأس من رحمته وروحه تعالى في كل ما جلّ ودقّ من ذنب.

"وإذا تأمل العبد في معاملة الله سبحانه لعباده، انفتح أمامه باب الأمل، ونشط في صالح العمل، ولاح على قلبه نور الغفور، وانكشفت له حكمة المقدور، فلا يرى عورة إلا سترها، ولا زلةً إلا غفرها، إن اعتذر إليه أخ له قبل وعامله بالإحسان، ويقابل جميع الإساءة بالغفران، لأن صاحب الخلق حينئذ يصير بين الناس كشجرة ظليلة مثمرة، وروضة بأنواع المسرات معمورة"^(٤).

(١) «صحيح البخاري» (٧٥٠١).

(٢) صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٢٦).

(٣) انظر: «تفسير السعدي» (١٧٦).

(٤) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (١٩١/١).

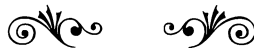
ومن عبوديتهما: أنه ينبغي للمؤمن أن يستتر عن الناس بذنبه، ويعترف به لربه، فإنه أرجى في المغفرة لذنبه، قال ﷺ: «إنَّ العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله، تاب الله عليه»^(١)، وأن يلزم الاستغفار في الليل والنهار، فإنه مآله في الدنيا: الخير والإنعام، من القوة، والذرية الطيبة، والمال الحلال، قال رب العزة والجلال: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمِدُّكُمْ بِأَمْوَالٍ يَنْبَغِي لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح].

وفي الآخرة: حسن المآل في النعيم بالجنان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ يَخِذْنَ مَا أَنْثَرَهُمُ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَلَا لَا سَحَارَ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات]، وقال ﷺ: «طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً»^(٢).

ومن عبودية العبد لهذين الاسمين الكريمين: "أن يستر من أخيه ما يحب أن يُستر منه، ولا يفشي منه إلا أحسن ما فيه، قال رسول الله ﷺ: «من ستر عورة أخيه المسلم، ستر الله عورته يوم القيامة، ومن كشف عورة أخيه المسلم، كشف الله عورته، حتى يفضحه بها في بيته»^(٣)، وروي عنه ﷺ أنه قال: «من علم من أخيه سيئة فسترها، ستره الله ﷻ يوم القيامة»^(٤).

واعلم أنه لا ينفك مخلوق عن كمال، ونقص، وعن قبيح، وحسن، فمن تغافل عن المقابح، وذكر المحاسن، فهو ذو نصيب من (هذين الاسمين)"^(٥).

واعلم يا عراك الله أنه ينبغي للعبد أن لا يغتر في سعة مغفرة الرب تعالى في اقرار السيئات، والخطوب، فإن مغفرة الله سبحانه الواسعة موعود بها منه، إلى الصادقين بالأوبة والتوبة من الذنوب، قال ربك الغفور الغفار سبحانه: ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ [الأنعام: ٢٥]، وقال عز شأنه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحْشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥].



(١) «البخاري» (٢٦٦١)، «مسلم» (٢٧٧٠).

(٢) «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦١٨).

(٣) «صحيح ابن ماجه» (٢٥٤٦).

(٤) رواه أحمد في «المسند» (١٦٨٩٧).

(٥) «المقصد الأسنى» (٧٦)، و«شرح مصابيح السنة» (٥٥/٢).

١٣- الله عز وجل تبارك وتعالى

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩]

المعنى اللغوي

العزیز: من صيغ المبالغة على وزن (فعليل)، وهو من الأوزان المشتركة بين الصفة المشبهة، وصيغة المبالغة^(١)، والعز في الأصل: القوة، والشدة، والغلبة، والرفعة، والمنعة^(٢)، والندرة، وهذا التنوع في المعنى بحسب التنوع في ضبط عين المضارع هنا من دقائق اللغة^(٣).

وهذا الاسم الجليل لربنا العظيم، يحمل في طياته معاني جلال، وكمال، التي لا تحيط بها العبارة، ولا يشار إليها بإشارة، فمنها:

الأول: أنه الغالب، القاهر، قال عز شأنه: ﴿فَقَالَ أَكْفَلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: أي: غلبني في محاروة الكلام، ومنه قول العرب: "من عز بز"، أي: من غلب سلب.

الثاني: الجليل الشريف الرفيع القدر، ومنه قولهم: «فلانٌ يعتزُّ بفلان»، أي: يتجالد به ويتشرف ويتكبر، ومنه قوله تعالى عن المنافقين: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] أي: ليخرجن الجليل الشريف منها الذليل.

الثالث: القوي، وكذلك الشديد الصلب، ومنه قوله: «عززت القوم»، قويتهم وشددتهم، قال سبحانه: ﴿فَعَزَّزْنَا بِبَالٍ﴾ [يس: ١٤]، أي: قوينا، وشددنا.

الرابع: المنقطع النظير، الذي يندر وجود مثله، فلا يعدله شيء، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِنْدٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: ٤١]، أي: يصعب وجود مثله، ويقال: «عز الشيء»، فهو عزيز: إذا صار عزيز الوجود، أي: قل حتى ما كاد يوجد، يعني: أصبح نادراً.

(١) يقول الدكتور عبد الغني النفاذ: ولا مانع من اعتبار الأمرين، فالصفة المشبهة تدل على الثبات والدوام، وصيغة المبالغة تدل على الكثرة والمبالغة. «الأسماء الحسنى في فواصل القرآن» (٣/٣٤٩ - ٣٥٠).

(٢) «اللسان» (٣٧٤/٥).

(٣) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (٦٩/١).

الخامس: المنیع بالاعتدار، أي: الذي لا يُقدر عليه، فلا يُلحق ولا ينال، تقول العرب: "حصن عزيز": إذا كان لا يوصل إليه، ويقال للأرض الصلبة القوية: "عزاز"، لامتناعها على من أراد أن يحفرها، فإذا قيل لما يتعذر الوصول إليه مع جوازه عزيزاً، فالذي يستحيل الوصول إليه أولى أن يكون عزيزاً، إذ لا حدَّ له تعالى، ومنه قوله ﷻ: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿فاطر: ١٦-١٧﴾، أي: بمُمتنع^(١).

السادس: أن يكون بمعنى: المُعزَّ غيرَه، (فعليل) بمعنى (مُفعل)، وذلك كثير في القرآن ولغات العرب، قال تعالى: ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يعني: مؤلماً.

السابع: قيل: بمعنى مُعز ومعزوز، فيكون (فعليل) بمعنى مفعول، كقولهم: كُفَّ خضيب، بمعنى: مخضوب، ورجل قتيل، بمعنى: مقتول، والمعنى: أنه عزيزٌ عند أوليائه، لا يؤثرون على طاعته شيئاً.

الثامن: أن يكون عزيزاً بمعنى الإضافة، والمعنى: عزيز عليه أولياؤه، كما قال تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٩]^(٢). فهذه ثمانية معانٍ يجوز وصف الله تعالى بها كلها في قول علمائنا^(٣).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو العزيز الذي لا شيء أعزَّ منه، له جميع معاني العزة كلها وصفاً، ومُلْكاً^(٤)، في أسمى معانيها، وأعلى كمالها، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ [يونس: ٦٥]:

(١) فهو ذو العزة التي لا تُرام^(٥)، الذي خضع لعزَّته كلُّ ما في الأكوان، من إنسٍ وجانٍّ، بل كلُّ متحرِّكٍ، وساكنٍ في كلِّ آن.

(٢) "فهو تعالى العزيز: له عزة الغلبة، فهو الغالب الذي لا يغلبه غالب، ولا يفوته هارب،

(١) انظر هذه المعاني: «اللسان» (٣٧٤/٥)، و«معجم مقاييس اللغة» (٤/٣٨ - ٤٢)، و«المفردات» (٥٦٣)، و«عمدة الحفاظ» (٦٧/٣)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (٢٣٧)، و«النهاية» (٦١٢)، و«شأن الدعاء» للخطابي (٤٧)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (٣٩٥/٢)، و«تفسير أبي مظفر السمعاني» (١/١٤١)، و«الأمَد الأقصى» (١/٣٥٣)، و«الأسنى» (٢٣٨ - ٢٤٠).

(٢) انظر: «الأمَد الأقصى» (١/٣٥٤)، و«الأسنى» (٢٣٨).

(٣) «الأسنى» (٢٣٩).

(٤) انظر: «بدائع الفوائد» (١٨٧/٢).

(٥) «تفسير القرآن العظيم» (٤/٣٤).

قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ١٠].

(٣) وله العزة القاهرة: فهو تعالى القاهر الذي لا يُقهر، الذي عزَّ كل شيء فقهره، فدانت له جميع الأشياء، فكل ما سواه مقهور مُسَخَّر مُدَبَّر، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سبا: ٢٧].

(٤) وله عزة الامتناع: فهو المنيع سبحانه، الغني بذاته، فلا يحتاج إلى أحدٍ من خلقه، فلا ينال منه، ولا يرام جناحه، ولا يلحقه سوء، لعزَّته، وعظمته، وغناه، وجلاله^(١).

(٥) وله عزة القوة والقدرة: فهو تعالى الشديد في قوَّته، الذي ذلَّت لعزَّته الصعاب، ولانت لقوَّته الشدائد الصلاب^(٢).

(٦) فهو تعالى العزيز: بنفسه القوي الذي لا يغالب^(٣)، والقادر الذي لا يناهض، وهو الذي لا يعجزه شيء، ولا يتعذر عليه، وهو الذي يُجبر ولا يُجَار عليه سبحانه^(٤).

(٧) وهو تعالى العزيز: المنقطع النظير، الذي لا شبيه له، ولا مثيل له، ولا عديل^(٥)، لكماله من جميع الوجوه والاعتبارات.

(٨) وهو الذي لا ينصر من أراد الانتقام منه أحد، ولا ينجيهِ منه وألَّ^(٦)، ولا لجأ، وذلك لعزَّته التي يذلُّ لها كل مخلوق، ويخضع لها كل موجود.

(٩) وهو العزيز سبحانه: الذي لا يمتنع عليه شيء أَراده، ومن ذلك: في انتقامه من أهل الكفر بأيدي أوليائه من أهل طاعته^(٧)، فلا يغالب في حكمه، ولا يغالب في أقضيته^(٨) قال سبحانه: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (١٤/٤)، «ابن كثير» (٣٤٣/٤)، و«الحجة في بيان المحجة» (١٣٠/١)، و«مجموع الفتاوى» (١٣٩/٦)، و«النبوات» (١٦٠)، و«تفسير السعدي» (١٠٢) (٣٣٨) (٦٨٠) (٩٤٦)، و«الحق الواضح» (٤٤)، و«فتح الرحيم» (١٧)، بتصرف يسير.

(٢) «الضيء اللامع» (٨٥/١).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٨٠/١٤)، و«المنهاج» (١٩٥/١)، و«تفسير القرآن العظيم» (٤٨٥/٢).

(٤) «شرح الأسماء الحسنى» لابن بركان (١٧٨/١).

(٥) «شأن الدعاء» (٤٨).

(٦) الرأل: الموثل، وهو الملجأ الذي يفِرُّ إليه الخائف «كتاب العين» (٣٤١/٤).

(٧) «تفسير الطبري» (٢١٢/٢)، (٢٣١)، (٣٢٥).

(٨) «تفسير أبي السعود» (٢٩/٢)، و«أنوار التنزيل» للبيضاوي (٢٩٤/١).

(١٠) وهو العزیز: الذي لا أعز منه سبحانه، منیع الجناب، عظیم السلطان، الذي لا یضام من التجأ إليه ولاذ باباه، واحتمى بالتمسك بخطابه، فجاره منیع غیر مقهور، ومن یتوكل علیه مكفی، قال ﷺ: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَاتَّكِلْ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٩] (١).

(١١) وهو سبحانه العزیز: الشدید في نعمته، إذا انتقم من أعدائه (٢)، عدلاً منه، لا یمتنع علیه أحد إذا أراد الانتقام منه، فلا یقدر أحدٌ على دفعه، أو منعه، أو نقضه، متى أراد سبحانه، قال تعالی: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤].

(١٢) وهو تعالی العزیز: الذي یهب العزة لمن یشاء من عباده (٣)، بإعطائه: الملك، والسلطان، وبسط القدرة له (٤)، ومن نال عزاً فإنما نال من الله تعالی، قال تعالی: ﴿وَعِزُّ مَنْ شَاءَ﴾ [آل عمران: ٢٦].

فهو تعالی یعزُّ من شاء، ما شاء من المدة، ثم قد یعقبه الذلة، ویعقب الذلیل العزّة، والله تعالی لم یزل، ولا یزال عزیزاً، لا تنقص عزته، ولا تفتی، فلیس لها أمدٌ، ولا حدٌ، ولا منتهی.

(١٣) وهو سبحانه العزیز: الذي لا یضام جاره، ولا یذل أنصاره، فیعزُّ أهل الإیمان، ویذل أهل الکفران، قال تعالی: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون]، ومن دعاء الرسول ﷺ دعاء الثناء والعبادة: «لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده» (٥).

(١٤) فهو تعالی عزیز: منیع معزٍّ لأوليائه، مانعٌ لهم وعنهم، قال تعالی: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨] (٦)، لأنهم أعزاء علیه سبحانه بما أكسبهم من العزّة، ووهبهم من التوفیق في الدنيا، وجواره في الآخرة، على مقدار أعمالهم، وأعظمها الأنبياء، ثم الذين یلونهم، ثم الذين یلونهم.

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤٣٦/٢) (٤٨٩)، و«تفسير ابن جرير» (٥٠/٤).

(٢) صح عن قتادة وأبي العالية، انظر «التفسير الصحيح» (٢٤٢/١)، (٤٧٠/٤).

(٣) وهذه العزّة دنيوية یمنحها لمن شاء من الخلیقة قد تكون عامة للمؤمن والكافر والفاجر.

(٤) «تفسير ابن جرير الطبري» (٢١٠/٢، ٢٤٠)، (١٧٧/٣)، و«روح المعاني» (١٢٦/٣)، و«السراج المنير» (٢٢٥/١).

(٥) صحيح البخاري (٤١١٤).

(٦) انظر: «الحجة في بيان المحجة» (١٤٢/١)، و«شرح أسماء الله الحسنی» لابن برجان (١٧٨/١)، و«الأسنى»

(١٥) وهو العزیز جلّ ثناءه: عزیزٌ عند أولیائه، أي: أن قلوبهم مملوءة من تعظيمه، وألستهم منطلقةً بالثناء عليه، وجوارحهم خاضعةٌ له، لم يشركوا معه غيره في عقدٍ، ولا قولٍ، ولا عملٍ^(١).

(١٦) وهو الذي ما عازّه أمرٌ قطُّ، ولا عزّه، ولا شادّه أمرٌ، ولا أعجزه، ولا أراد شيئاً إلا شياً له، تقاصد البعيد، ولان الشديد، وتذلّل الصعب، كيف وكل صعب فهو الذي أوجده، وكل هارب عنه ففي قبضته يتغلب، وكل شاردٍ عنه، فإليه يذهب^(٢).

(١٧) وهو العزیز سبحانه: الجلیل الرفیع الشأن والقدر، له شرف الذات، والتفرد في الكمال على الإطلاق، في الثعوت، والصفات، فهو تعالی رفیع الدرجات، لا يصل إلى قدره، ولا يرتفع إلى مقامه أحدٌ من المخلوقات، قال تعالی: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الروم: ٢٧]^(٣).

(١٨) ومن تمام عزّته وكمالها: براءته وامتناعه عن جميع ما لا يليق بعظمته، وجلاله، من النقائص، والشر، والعيوب، قال تعالی: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصفات]، وامتناعه، وتكبّره عن: الشريك، والند، قال تعالی: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ٦٢]^(٤).

(١٩) وهو ربُّ العزة سبحانه: الذي اعتزّ عن كل سوء يصفه به المفترون المكذبون، قال تعالی: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصفات: ١٨٠]^(٥).

(٢٠) وهو الممتنع عن الإدراك، المرتفع عن أوصاف المخلوقات، وهو الذي جلّت مكانته فعَلَتْ، وعزّ في شأنه فلا يذل، وبُعد عن أفهام البريات فعنت^(٦).

(٢١) وهو العزیز: في سلطانه الذي من عزّته انقادت له المخلوقات العظيمة في الأجرام السماويّة، فجرت مذلةً، مسخرةً بأمره، بحيث لا تتعدّى ما حدّه الله لها، ولا تتقدّم عنه، ولا

(١) «الأمد الأقصى» (٣٥٩/١).

(٢) «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (١٧٨/١).

(٣) «الأسنى» (٢٠٦، ٢٤٠).

(٤) سبحان: من التسييح وهو تنزيه وإبعاد كل سوء عن الموصوف، كما سيأتي عند اسمه (السُبُوح).

(٥) «شفاء العليل» (٥١١/٢)، و«فتح الرحيم الملك» (٤٧)، وتفسير سورة آل عمران لابن عثيمين (١٣٩/٢).

(٦) انظر: «تفسير الكريم المنان» (٧٠٩).

(٧) «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي العباس أحمد بن محمد (٣٨).

یتأخر، قال تعالی: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦] (١).

(٢٢) ومن عزته الحميدة: "أنه لا يذل من نصره، ولكنه يمنعه ممن أراده بسوء، فهو جدير بإعزاز من انقطع إليه وحده، قال تعالی: ﴿فَأَمَّنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَيْكَ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [العنكبوت: ٢٦]" (٢).

(٢٣) ومن تمام عزته جل ثناؤه: أنه ليس عليه بممتنع ولا متعذر عليه البتة إذهاب من شاء من خلقه بأي نوع من الإذهاب، كالموت وغيره، والإتيان بخلق آخر سواهم، بل هو سهل عليه جداً، يسير عليه سبحانه أبداً، قال جل ثناؤه: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ [إبراهيم: ١٩ - ٢٠] (٣).

(٢٤) ومن كمال عزته: "أنه أمتع الأبصار أن تدركه" (٤)، والمخلوقات أن تحدّه، فهو تعالی أعز من أن يُعرف كنه ذاته، فضلاً عن صفاته.

(٢٥) وهو العزيز عز شأنه: القويُّ القادر على ما يبعد من الأوهام، كقلب العصا حية (٥)، فهو تعالی لا يستصعب عليه تكوين، لأنه غالب لا يمنع، مصيب في أفعاله، وأحكامه، لا يتطرق إليها احتمال العبث، والسفه، والغلط، والباطل (٦)، قال تعالی: ﴿يُمَوِّجُ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَّى يُعِيبُ [النمل: ٩ - ١٠].

جلال العزیز

الأول: أن عزته ﷻ كما هي عزة قوة وغلبة، وقهر ورفعة، فإن من جلالها أنها مقترنة بكلمات أخرى: من الحكمة، والعدل، والرحمة، والمغفرة (٧)، فهي عزة حكمة، وعزة رحمة، وعزة عدل: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران]، ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم] ﴿الْعَزِيزُ الْغَفَرُ﴾ [ص]، وعزة هبة وعطايا بلا نهاية ﴿الْعَزِيزُ الْوَهَّابُ﴾ [سورة ص] فلما كانت

(١) انظر: «تفسير الكريم المنان» (١٠٢، ١١٢) و«نظم الدرر» (٦٨٠/٢).

(٢) «نظم الدرر» (٥٥٢/٥).

(٣) ينظر: «تفسير القرآن العظيم» (٧١٣/٢)، و«جامع البيان» (٤٤٨/٤)، و«نظم الدرر» (١٨٠/٤).

(٤) «الأسنى» (٢٤٠).

(٥) «الكشاف» للزمخشري (٣٥٥/٣).

(٦) «تفسير النيسابوري» (٦٢٩/١)، و«التحرير والتنوير» مع (٨) (٢٢٧/١٩).

(٧) كما سبق في الاقتران.

عزَّته تعالی عزَّة جلالٍ ليس لها منتهی من الكمال ، استحقَّ أن يُحمد عليها على الدوام ، قال تعالی : ﴿الْعَزِيزُ الْحَمِيدُ﴾ [البروج] .

الثاني: ومن جلال العزیز سبحانه: أنه "أمضى القضايا دون رادٍّ لها ، وإنفاذ الأحكام دون متعقب فيها ، وهو الذي رتَّب المرتبات على جريانها ، وقسم الأقسام على متقاسماتها ، وصرف الأمور في متصرفاتها ، وأجرى التدابير في حكمته على أحكامها ، فأحل أهل الخصوص عنده في أعلى الدرجات ، وأسفل بآخرين إلى أسفل الدرجات" (١) .

الثالث: ومن جلال عزَّته تعالی : "أنه يذلُّ عند عزَّته الأعزَّاء ، ويشرف بتشريفه الأذلاء ، فالمرء يرى أنه لا أذلَّ من كلبٍ ، ولكنه قرنه بأوليائه ، وذكره بتشريف كلامه" (٢) (٣) .

الرابع: ومن جلاله: أنه سبحانه "حكم على العبد وقضى عليه ، بأن قلب قلبه ، وصرف إرادته على ما يشاء ، وحال بين العبد وقلبه ، وجعله مريداً ، شائئاً ، لما شاء منه العزیز الحكيم ، وهذا من كمال العزَّة ، إذ لا يقدر على ذلك ، إلا الله سبحانه وحده ، وغاية المخلوق أن يتصرف في بدنك وظاهره ، وأما جعلك مريداً شائئاً لما يشاؤه منك ويريده ، فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة" (٤) .

الخامس: ومن جلال العزیز سبحانه: أنه "ألبس الجبابة عزَّته فذلت ، وصبَّ على الوجوه مخافة سطوته فعنت ، ورمى الغلب من الرقاب بهيئته فخضعت ، عزَّ فلا يذل ولا يُغلب ، وقدر فلا يتكلف ولا ينصب ، الحدود لا تقطعه ، والأعداء لا تحصره ، ليس لذاته تكييف ، ولا لفعله تكليف" (٥) .

السادس: ومن جلال عزَّة ربنا: أنه هو "العزیز الذي لا يدركه طالبوه ، ولا يعجزه هاربوه" (٦) ، الغالب على أمره ، القاهر لجميع الممكنات فعلاً ، وتركاً (٧) .

(١) «شرح أسماء الله» لأبي الحكم الإشبيلي (١٧٨/١) .

(٢) أي: مع أهل الكهف قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة .

(٣) «الأمد الأقصى» (٣٦٣/١) .

(٤) «مدارج السالكين» (٢٠٥/١) .

(٥) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان (١٧٨/١) .

(٦) «لوامع البينات» للرازي (٢٠٦) .

(٧) «شرح أسماء الله الحسنى وفوائدها وخصائصها» لأبي العباس البرنسي (٣٨) .

السابع: ومن جلال عزته سبحانه: أنه أعزَّ أوليائه في الدنيا، وفي العقبى، ففي الدنيا: أنه سبحانه أظهرهم على أعدائه، بالرفعة، والتمكين، والنصرة، وفي العقبى: أنه أحلَّهم دار كرامته، فأمنع عنهم، الحزن، والهم، والنصب، واللغب^(١).

الثامن: ومن جلال العزيز تعالى: "أنه لا يُرام بوهم، ولا يخالف في المراد، بل تنفذ إرادته على العموم في كل موجود"^(٢).

التاسع: ومن جلاله: أنه تعالى أذلَّ أعداءه في الدنيا، والأخرى.

ففي الدنيا: بسوء الحال: بأن ضربهم بالرق، والجزية، والصغار، والذل، والهوان.

وفي الآخرة: بسوء المآل: بالعقوبة في الخلود في النار.

العاشر: ومن جلال العزيز سبحانه: "أنه يتعذَّر الإحاطة بوصفه، ويعسر الوصول إليه، مع أنَّ الحاجة تشتدُّ إليه، فلا سبيل للعقول إلى الإحاطة بكنهه صمديته، ولا سبيل للأبصار إلى الإحاطة بعظيم جلاله، ولا سبيل لأحدٍ من الخلق إلى القيام بشكر آلائه، ونعمائه، فهو تعالى الذي انفرد بالعزة في الوجود كله، فلا عزيز على الإطلاق إلا هو وحده، لا يوازيه فيه غيره ﷻ"^(٣).

الحادي عشر: ومن جلاله: أنه يؤلف بين القلوب المتنافرة، فيجمعها على الحبِّ والمودة، كما ألف بين قلوب (الأوس والخزرج) لما كان بينهم من العداوة والبغضاء، فجمعها على الهدى، فأتلفت واجتمعت، فصاروا أنصاراً، فهو تعالى عزيز ينفذ من خلقه حكمه كما يريد سبحانه، قال تعالى: ﴿وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٣]^(٤).

* * *

(١) النصب واللغب: الإعياء، والتعب. «المفردات» (٧٤٢) (٨٠٧).

(٢) «الأمد الأقصى» (٣٦٢/١).

(٣) انظر: «المقصد الأسنى» (٧٠)، و«شرح الأسماء» للرازي (٢٠٥)، و«شرح مشكاة المصابيح» للبيضاوي (٥٢/٢)، و«الأسنى» (٣٧٠/١).

(٤) انظر: «تفسير الطبري» (٦١/٤ - ٦٢).

ثمرات

ينبغي أن يعلم كل عبد أن الله تعالى هو العزيز "له العزة جميعاً، وجميع أنواع العزة، وأفرادها، مختصة بالله سبحانه في الدنيا والآخرة"^(١).

فإذا عرف العبد عزَّ سيِّده، ولاحظه بقلبه وتمكَّن شهوده منه، كان الاشتغال به عن ذل المعصية أولى وأنفع له، لأنه يصير مع الله تعالى، لا مع نفسه^(٢).

فإن ذلك يورث له العزة في دين الله تعالى، وأن هذه العزة تعلقو في اتباع أمره تعالى، وسنة نبيه ﷺ، والسير مع الصالحين من عباده، فإن الله سبحانه كتبها له ولحزبه، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المناقون]، فمن أراد العزة في الدنيا والآخرة، فليطلبها من الله تعالى وحده، والتي لا تكون إلا بطاعته، واتباع أمره، قال عزَّ شأنه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

"واعلم - هداك الله - أن العزيز الحق ﷻ قد حرَّم على عباده العلى والتكبر والتعزز في الأرض بغير حق، فقال سبحانه: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الفص: ٨٣]، وقال جلَّ قوله: «الكبرياء ردائي والعزة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في النار»^(٣).

ومتى أردت وفقك الله العز الأكبر والخير الأكمل، والشرف الأرفع، ففرَّ من هواك إلى ربك، ومن نفسك إلى ربك، ومن عدوك إلى ذي النصر العزيز، والحرز المنيع، واطلب العزة عنده، وصابر على ذلك، ورابط، واصل في طلبها لديه تجدها عنده - إن شاء الله - غير ممنوعة ولا محجور عليها، وإياك أن تطلبها إلى سواه، فيكلك إلى من طلبتها عندها، فإنه جعل هذه الصفة الرفيعة خالصة لمن طلبها عنده، فقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

وذكر قومًا طلبوا العزة عند من سواه فقال جلَّ قوله: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ

(١) «إغاثة اللهفان» (٥٥١/١).

(٢) «مدارج السالكين» (٢٥٠/١).

(٣) رواه أحمد في «المسند» (٧٣٨٢) وصححه العلامة شعيب الأرناؤوط (٣٣٧/١٢) وفي لفظ لمسلم «العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عديته» (٢٦٢٠).

الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُوتَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿ [النساء: ١٣٩] ، وتذلل - هداك الله - لعزته الذل كله ، وتضائل لعظمته التضائل كله ، وتضرع إليه في خلواتك ، وسله ﷺ عساه ينظر إليك نظر عطف ورحمة ، فيهب خدك للتراب ذلاً بين يديه ، ويدخلك في أوليائه ، العاملين^(١) بطاعته ، فذلك يقضي بك إن وهبك إلى عز لا ذل بصحبه ، وشرف لا ضعة تتخلله ، حيث يدوم العز والشرف مع ما يعجله لك من ذلك في دار الدنيا^(٢) .

"واعلم يا رعاك الله أن على قدر ركوعك خاضعاً ، وسجودك خاشعاً ، يكون عزك في دينك ، ودنياك ، وآخرتك ، قال ﷺ لمن سأله مرافقته في الجنة: «أعني على نفسك بكثرة السجود»^(٣) ، وعليك أن تتذلل لأوليائه وأهل طاعته ، قال تعالى: ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر] ، وقال سبحانه: ﴿اذْلِقْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] ، وأن تعتز على أهل كفرانه ، قال تعالى: ﴿اعِزِّ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] ، وأن تعفو عن من أساء إليك من عباده ، قال ﷺ: «وما زاد الله عبداً بعفوٍ إلا عزاً»^{(٤)(٥)} .

ومن عبودية هذا الاسم الجليل: أنه ينبغي للعبد "أن يعز نفسه ، فلا يستهينها بالمطامع الدنيوية ، ولا يدنسها بالسؤال عن الناس ، والافتقار إليهم ، ويجعلها بحيث يشتد إليها احتياج العباد في الإرفاق ، والإرشاد"^(٦) .

واعلم رعاك الله تعالى: أن "ما أعز الله سبحانه عبداً بمثل ما يدلّه على ذل نفسه ، وما أذل الله عبداً بمثل ما يشغله بعز نفسه"^(٧) .

ومن عرف أنه تعالى هو العزيز المعزّ وحده ، لم يتعزّز بغيره ، ومن عرف أنه المذلّ لمن شاء من خلقه ، لم يتذلل لسواه ، وهذا هو العزّ الحقيقي ، الذي يدوم ويبقى ، في الأولى ، والعقبى .



(١) في الأصل: (العالمين) والذي أثبتناه هو المناسب للسياق .

(٢) «شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان (١٧٩/١ - ١٨٢) .

(٣) «مسلم» (٢٦٢٠) .

(٤) «مسلم» (٢٥٥٨) .

(٥) «الأسنى» (٢٤٣) بتصرف .

(٦) «تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة» للبيضاوي (٥٢/٢) .

(٧) «شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (٢٤٦) .

١٤- الله ﷻ الجميل ﷻ جلّ وعلا

قال ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال»^(١).

المعنى اللغوي

الجميل: صفةٌ مشبّهةٌ للموصوف بالجمال، والجمال: هو: الحُسن الكثير والبهاء، وهو ضدُّ القبح، يقال منه: "جَمُلَ الشيءُ يُجْمَلُ فهو جميل"، كما قُبِحَ فهو قبيح، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦] أي: بهاء وحسن، وجَمَلَه، أي: حسَّنه وزَيَّنه، والجمال يكون في الفعل، ويكون في الخَلْق^(٢)، ويقع على الصور والمعاني^(٣).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الجميل، الذي لا أجمل ولا أبهى منه في الوجود سبحانه:

(١) الذي له الجمال التام الكامل من جميع الوجوه، بل الجمال كله له، والجمال كله منه، وبه، فلا يستحق أن يحب لذاته من كل وجه سواه.

(٢) فلا جمال أرفع من جماله سبحانه، بل كلُّ جمالٍ يقبح مع جماله، وكلُّ حُسنٍ يتلاشى مع حُسنه تعالى، فهو الموصوف بالجمال الذي لا تُحيطه العقول، ولا تُدرّكه الفهوم.

(٣) وهو الجميل سبحانه: الذي جَمَلَّ هذا الوجود بجمال لا ينفد، وحسَّن لا ينتهي، وإبداع لا ينقضي، وأنَّ جمال هذا الوجود بأسره ما هو إلا قطرة من فيض جماله، وومضة من بديع كماله.

(٤) ويكفي في كمال جماله: أنَّ كلَّ جمال ظاهر وباطن في الدنيا والآخرة، فمن آثار صنعته

(١) «مسلم» (٩١).

(٢) «المفردات» (٢٠٢)، و«لسان العرب» (٦٨٥/١)، و«الصحاح» (١٦٥)، و«المعجم الوسيط» (١٥٧).

(٣) «النهاية» (١٦٦).

وجماله ، فما الظَّنُّ بمن صدر عنه هذا الجمال ؟ فالأمر أجلُّ وأعزُّ مما يخطر بالبال ، أو يعبر عنه المقال .

(٥) ويكفي في جماله الذي ليس كمثله شيء سبحانه: أنه له العزة جميعاً ، والقوة جميعاً ، والجلود كله ، والإحسان كله ، والعلم كله ، والفضل كله له تعالى .

(٦) فهو سبحانه الجميل: ذو النور والبهجة ، بجماله السني البهي ، وهو المجمل المحسن الذي لا أحسن منه تعالى .

(٧) ومن كمال جماله تعالى: أن لنور وجهه أشرقت به الظلمات ، وصلاح عليه أمر الدارين ، كما في دعائه ﷺ: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات ، وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة»^(١) .

بل (نور السموات والأرض من نور وجهه)^(٢) سبحانه .

(٨) فهو سبحانه الجميل: الذي يُحبُّ الجمال في الأقوال ، والأفعال ، والأخلاق ، ويحبُّ الجمال وأهله ، وهو أحقُّ بالجمال من كل جمال .

(٩) ومن جماله تعالى السامي: أن أودع الجمال في كونه ، ومخلوقاته ، في أرضه ، وسمواته ، فكلُّ خيرٍ وجمال وحُسن على الحقيقة موجودٌ في العالم كله ، فهو أوجده من نفسه لنفسه ، لأن الحسن كله والجمال منه ، فهو يحبُّه ويرضاه .

(١٠) ويكفي في جماله وبهائه: أنه لو كشف الحجاب عن وجهه الأعلى ، لأحرقت سبحانه ما انتهى إليه بصره من الوري^(٣) (٤) .

(١) أخرجه الطبراني في «الدعاء» (١٠٣٦) وحسن إسناده محقق الكتاب (١٢٨٠/٢) ، وحسن إسناده لغيره محقق كتاب «الأسنى» الشحات الطحان (٤٦٢) .

(٢) ما بين القوسين أثر عن عبد الله بن مسعود ؓ ، رواه الطبراني (٢٠٠/٩) (٨٨٨٦) ، وعثمان الدارمي في «الرد على بشر المريسي» (٤٧٥/١) ، وصححه شيخ الإسلام ابن تيمية بقوله: «فقد ثبت عن ابن مسعود» «مجموع الفتاوى» (٢٩١/٦) ، وهو في حكم الرفع لأنه لا يقال من جهة الرأي .

(٣) كما ثبت عن النبي ﷺ: «حجابه النور (وفي رواية: النار) لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» مسلم (١٧٩) ، قال القرطبي: السُّبُحات: جمع سُبحة ، وأصلها جمال الصورة وبهاؤها . «الأسنى» (٢٩٥) .

(٤) انظر: «الفوائد» (٣٠ - ٣٦) ، و«روضة المحبين» (٦٨٣) ، و«شأن الدعاء» (١٠٢) ، و«إبطال التأويلات» لأبي يعلى (٥٠٥ ، ٦٧٨) ، و«شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان (٢٣٩/١) ، و«الله أهل الثناء والمجد» د.ناصر الزهراني (٦٥ - ٦٦) بتصرف .

(١١) ومن جماله العالي: أنه تعالى يطلع إلى أوليائه في الجنة بحُسن لا يتوهم وصفه، وجمال لا يقدر بقدره، ولا يبلغه العلم اليوم، ولكنه جعله معلوماً حقيقياً في الدار المحبوبة^(١).

(١٢) ومن كمال جماله الذي ليس له مثيل سبحانه: أن النظر إليه هو أعظم نعيم في روضات الجنان، قال ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله ﷻ: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ»^(٢). "فجماله إلى ما يبدو لأوليائه في الجنة، من حسن لا يتوهم وصفه، وجمال لا تقدّر بقدره سبحانه"^(٣).

(١٣) فجمال الله جلّ ذكره: هو اجتماعُ (الكمال والحسن من) الأسماء الحسنى، والصفات العلا أجمعها، بإطلاقها ما علمنا من ذلك وما لم نعلم، دون نهاية متوهمة، ولا نهاية مدركة، مع استحالة أضدادها من المعائب والمذام.

(١٤) وهو الجميل تعالى: الذي له الحسن والإحسان بذاته العلا، ونعوت جلاله، وفي أسمائه الحسنى، وفي أوصاف العلا، والحسن في أفعاله الهدى.

فإن صفاته، وأسماءه، وأفعاله، وسلطانه على غاية الجمال والكمال، منزهة عن النقص والإضلال والإضمحلال في أيّ حال^(٤).

(١٥) وهو الجميل سبحانه: في أقواله، وأوامره، ونواهي، ووعد، ووعيده، وكل ما صدر منه فهو جميل على الإطلاق.

(١٦) وهو الجميل تعالى: في صنعه، وفي خلقه، فأتقن ما صنعه فكان أتقن ما يكون، قال سبحانه: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، وأحسن ما خلق، فلا مثيل لخلق، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [السجدة: ٧].

(١٧) وهو الجميل سبحانه: الذي يُجَمِّلُ من يشاء من خلقه: في خَلْقَتِهِ، وخلق، كما في

(١) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان (٢٣٩/١).

(٢) مسلم (١٨١).

(٣) انظر: «شرح أسماء الله» لابن برجان (٢٣٩/١).

(٤) انظر: «شرح أسماء الله» لابن برجان (٢٣٩/١)، و«النهاية» (١٦٦)، و«الأمَد الأقصى» (٤١٤/١)، و«توضيح

الكافية» (١١٧)، و«الحق الواضح» (٢٩).

دعاء النبي ﷺ لعمر بن الخطاب: «اللهم جملهُ ، وأدم جماله»^(١).

(١٨) ومن تمام جماله: أنه تعالى منزّه عن النقائص ، والشرور^(٢) ، والقبائح ، "لأن القبايح إذا لم تلق به ، لم يجز أن يشتق اسمه من أسمائها ، وإنما تشتق أسماؤه من صفاته التي كلها مدائح ، والأفعال التي أجمعها حكمة"^(٣).

(١٩) وهو الجميل سبحانه: "جميل الأفعال بنا ، يكلفنا السير ، ويعين عليه ، ويثيب عليه الجزاء الجزيل ، ويشكر عليه الكثير ، فهو تعالى يحبُّ التجميل في قلة إظهار الحاجة إلى غيره سبحانه"^(٤).

(٢٠) ومن جماله الذي ليس له حدٌ ولا منتهى: أن النبي ﷺ رآه في أحسن وأجمل صورة ، قال رسول الله ﷺ: «أتاني الليلة ربي ﷺ في أحسن صورة» أي: في المنام^(٥).

وجماله ﷺ على (خمس) مراتب:

جمال الذات ، وجمال الأسماء ، وجمال الصفات ، وجمال الأفعال ، (وجمال الملك ، والسلطان).

أما جمال الذات: فهي أكمل الذوات ، وأجمل من كل شيء ، من جميع الوجوه والاعتبارات ، فذاته وما هو عليه ، فأمرٌ لا يدركه سواه ، ولا يعلمه غيره ، وليس في المخلوقين منه ، إلا تعريفات تعرف بها إلى من أكرمه من عباده ، فإن ذلك الجمال مصوّنٌ عن الأغيار ، محجوب بستر الرداء والإزار ، فلا يمكن لمخلوق أن يعبر عن بعض جمال ذاته ﷺ.

حتى أن أهل الجنة مع ما هم فيه من النعيم المقيم ، الذي لا يوصف ، فيما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، إذا رأوا ربَّهم ﷺ وتمتّعوا بجماله ، نسوا ما هم فيه من النعيم ، وتلاشى ما هم فيه من اللذات ، والسرور ، والأفراح ، وودوا أن لو تدوم لهم هذه الحال ،

(١) رواه أحمد في «المسند» (٢٠٧٣٣) (٢٢٨٨١) ، وصححه العلامة الأرئوط (٣٣٣/٣٤) (٥٢١/٣٧) والألباني في «صحيح الترمذي» (٣٦٢٩). وكما في دعائه ﷺ: «اللهم كما حسنت خلقي فحسن خلقي». رواه أحمد في «المسند» (٣٨٢٣) (٢٤٣٩٢) وصححه العلامة الأرئوط (٣٧٣/٦) (٤٥٧/٤٠).

(٢) قال ﷺ: «والشرُّ ليس إليك» مسلم (١٨٠٩).

(٣) «المنهاج» (١٩٨/١).

(٤) «الأسنى» (٢٩٤) بتصرف.

(٥) «صحيح الترمذي» (٣٢٣٣) (٣٢٣٤) (٣٢٣٥).

التي هي أعلى نعيم ولذة، واكتسبوا من جماله، ونوره، جمالاً إلى ما هم فيه من الجمال، وكانت قلوبهم في شوق عظيم دائم، ونزوع شديد إلى رؤية ربهم الجميل سبحانه، حتى إنهم ليفرحون بيوم المزيد فرحاً، تكاد تطير له القلوب، مع أن هذه اللذة، وإن كانت تبعاً لمعرفتهم بربهم تعالى، ومحبتته والشوق إليه، ولكن عند رؤية محبوبهم ومشاهدة جماله، وجلاله، تتضاعف اللذة، فتقوى المعرفة، والمحبة^(١).

ويوم المزيد في الجنة، هو يوم الجمعة، كما في حديث جبريل ﷺ وفيه: «... قال: هذه الساعة تقوم يوم الجمعة، وهو سيد الأيام عندنا، ونحن ندعوه في الآخرة: (يوم المزيد) قال: قلت: لم تدعونه يوم المزيد؟ قال: إن ربك ﷻ اتخذ في الجنة وادياً أفيح من مسك أبيض، فإذا كان يوم الجمعة، نزل ﷻ من عليين على كرسيه، ثم حف الكرسي بمنابر من نور، وجاء النبيون حتى يجلسوا عليها، ثم يجيء أهل الجنة حتى يجلسوا على الكثيب، فيتجلّى لهم ربهم ﷻ حتى يُنظر إلى وجهه، وهو يقول: أنا الذي صدقتكم وعدي، وأتممت عليكم نعمتي، هذا محل كرامتي...، فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى يوم الجمعة، ليزدادوا فيه كرامة، وليزدادوا فيه نظراً إلى وجهه ﷻ، ولذلك دعي (يوم المزيد)»^(٢).

"وجمال الأسماء: فإنها كلها حسنى، بل أحسن الأسماء، وأجملها على الإطلاق، فهي كلها: أسماء مدح، وحمد، وثناء، وتمجيد، فهي في غاية الحسن والجمال على الإطلاق، الذي ليس فوقها، أو بعدها كمال، ولذلك كانت حسنى، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مرم: ٦٥]، فلا يسمى إلا بأحسن الأسماء، وإذا كان الاسم يحتمل المدح وغيره، لم يدخل في أسمائه.

وجمال الصفات: فهي أعلى الصفات، وأكملها، وأعظمها، وأوسعها، وأكثرها تعلقاً بالله، فإنها صفات حمد، وثناء، ومدح، الذي لم يبق صفة كمال إلا اتصف بها، ووصف بغايتها، بحيث لا تحيط الخلائق ببعض تلك الصفات بقلوبهم، ولا تعبر عنها ألسنتهم، خصوصاً أوصاف الرحمة، والبر، والإحسان، والجود، والكرم، فإنها من آثار جماله"^(٣).

(١) ينظر: «الفوائد» (٢٠٢ - ٢٠٣)، و«بدائع الفوائد» (٣٠٠/١)، و«روضة المحييين» (٦٨٣)، «الحق الواضح» (٢٩) -

(٣٠)، «فتح الرحيم الملك» (٣١)، «توضيح الكافية الشافية» (١١٧)، و«الجواب الكافي» (٣٣١).

(٢) «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٧٦١).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (١٢٤/١)، و«بهجة قلوب الأبرار» (٢٩١)، «فتح الرحيم الملك» (٣١). بتصرف يسير.

وله جمال الأفعال: فكلُّها في غاية الجمال، لأن أفعاله كلها صادرة عن أسمائه، وصفاته، ولأنها دائرة بين أفعال البر والإحسان، التي يحمد عليها، ويثنى عليه بها، ويشكر عليها، وبين أفعال العدل التي يحمد عليها، لموافقتها للحكمة والحمد، فليس في أفعاله عبث ولا سفه، ولا سدى ولا ظلم، بل كلها خير، وهدي، ونور، ورحمة، ورشد، وعدل، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَةَ رَبِّ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [مرد]، وقال عز شأنه: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧].

(وله جمال الملك والسلطان): فكل جمال في الدنيا وما حوته الأكوان من أصناف الجمال، وكل جمال في دار النعيم، فإنه أثر من آثار جماله، وهو تعالى له المثل الأعلى، فإن واهب الجمال للموجودات لا بد أن يكون بالغاً من هذا الوصف، أعلى الغايات، فهو تعالى أحق بالجمال من كل جمال، وكيف يقدر أحد أن يعبر عن جماله، وقد قال أعرف الخلق به ﷺ: «لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك» (١)(٢).

جلال الجميل

الأول: الجمال أحد أركان الجلال، فالجلال هو: منتهى الحُسن، والعظمة في: الذات، والأسماء، والصفات، والأفعال، وهو يقوم على ركنين: الكمال، والجمال، فالكمال: بلوغ الوصف أعلاه، والجمال: بلوغ الحُسن منتهاه، قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿١﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧] (٣)، قال ﷺ واصفاً جلال، وجمال ربه ﷺ: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سُبحاتُ وجهه» (٤) ما انتهى إليه بصره من خلقه» (٥).

فإذا كانت سُبحات وجهه الأعلى، لا يقوم لها شيء من خلقه، ولو كشف حجاب النور من تلك السُّبحات، لاحترق العالم العلويُّ والسُّفليُّ، فما الظنُّ بجلال ذلك الوجه الكريم، وعظمته، وكبريائه، وكماله، قال ابن عباس ﷺ: "حجب الذات بالصفات، وحجب الصفات بالأفعال"، فما ظنك بجمالٍ حُجِبَ بأوصاف الكمال، وسُتِرَ بنعوت العظمة والجلال (٦).

(١) «مسلم» (٤٨٦).

(٢) ينظر: «الفوائد» (٢٠٢)، و«شرح القصيدة النونية» للهراس (٦٩/٢)، و«الحق الواضح» (٢٩ - ٣١)، و«فتح الرحيم الملك» (٣١).

(٣) «أسماء الله الحسنى» للرضواني (٣٦٣).

(٤) أي نوره، وجلاله، وبهاؤه، «شرح صحيح مسلم» (١٣/٣)، «المفهم بما أشكل في صحيح مسلم» (٤١٠/١).

(٥) «مسلم» (١٧٩).

(٦) «الصواعق المرسلّة» (١٠٨٢/٣)، و«الفوائد» (٢٠٣)، و«الجواب الكافي» (٣٢٣).

الثاني: ومن جلال الجميل سبحانه: "أن العالم بجلاله يحدث له جمال لم يكن قبل"^(١)، وهذا والله في الدنيا والآخرة.

أما في الدنيا: فشهادة على ذلك تقضي على الكلام والعبارة.

وأما في الآخرة: فإن العبد المؤمن يتقلب في الجنة في كل ومضة بنعيم لا ينتهي، قال تعالى: ﴿قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِمْ مُتَشَبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥].

بل في كل جمعة يزداد هذا الجمال من النعيم، قال ﷺ: «إن في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة، فتهبُّ ريح الشمال، فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسناً وجمالاً، فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً، فتقول لهم أهلهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً»^(٢).

فجماله سبحانه بوصفه: أزلي أبدي لا ينقص ولا يتغير ولا يزداد، وبفعله: أبدي لا ينتهي ولا ينقضي، بل في ازدياد على الآباد.

الثالث: ومن جلال جماله: أنه "أنزل على عباده لباساً وریشاً وزينة، تُجَمَّلُ ظواهرهم، وتقوى تُجَمَّلُ بواطنهم، فقال: ﴿يَنْبَغِيْ عَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوَاءَ تَكُمُ وَرِيشًا وَلِبَاسًا النَّقَوِي ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وقال تعالى في أهل الجنة: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ نَضْرَةٌ وَسُرُورًا﴾ ﴿١١﴾ وَجَزَّهَتْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ ﴿١٢﴾ [الإنسان]، فجَمَّلَ وجوههم بالنضرة، وبواطنهم بالسُّرور، وأبدانهم بالحرير"^(٣).

الرابع: ومن جلال الجميل عز شأنه: أن "كلَّ جميل أحدثه فقد أوجد له ضِدًّا من القبيح (أما الله سبحانه ف)ليس لكماله، ولا لجماله ضِدٌّ، تعالى عن ذلك"^(٤).

الخامس: ومن جلال جماله سبحانه: أنك لو فرضت الخلق كلهم على أجمل صورة، وكلهم على تلك الصورة، ونسبت جمالهم الظاهر والباطن إلى جمال الربِّ سبحانه، لكان أقلَّ من نسبة سراج ضعيفٍ، إلى حذاء جرم الشمس، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]^(٥).

(١) «الأمَد الأقصى» (٤١٥/١).

(٢) مسلم (٢٨٣٣).

(٣) «الفوائد» (٢٠٧).

(٤) «شرح الأسماء الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (٢٤٠/١).

(٥) «الفوائد» (٢٠٣)، «روضة المحبين» (٤٢٠)، «الجواب الكافي» (٣٢٣)، و«مدارج السالكين» (٢٨٨/٢).

السادس: ومن جلاله: "أن الله تعالى إذا كاشف القلوب بنعت جماله: عطشت^(١)، وإذا كاشفها بوصف جلاله: دهشت^(٢)"^(٣).

الثمرات

إنَّ من أعزِّ أنواع المعرفة، معرفة الربِّ ﷻ بالجمال، وهي معرفة خواصِّ الخلق، وكلُّهم عرفه بصفةٍ من صفاته، وأتمهم معرفة من عرفه بكماله، وجلاله، وجماله سبحانه، ليس كمثله شيء في سائر صفاته، وذلك أنه تعالى إذا تجلَّى في صفات الجمال والكمال، وهو كمال الأسماء، وجمال الصفات، وجمال الأفعال، الدالُّ على كمال الذات، فيستنفد حبَّه من قلب العبد قوة الحب كلها، بحسب ما عرفه من صفات جماله، ونعوت كماله، فيصبح فؤاد عبده فارغاً، إلا من محبَّته، فتبقى المحبَّة طبعاً، لا تكلفاً.

فينبغي للعبد أن يتعبَّد بهذا الاسم الجليل، فيجمل ظاهره، وباطنه، بالجمال الذي يحبُّه تعالى من الأقوال، والأخلاق، والأفعال، فيجمل ظاهره وجوارحه بالطاعة، ومن ذلك الصدق في أقواله، وطيب الكلام مع خلقه، وبدنه بإظهار نعمه عليه في لباسه، وتطهيره له، من الأنجاس، والأدران^(٤)، لقول رسول الله ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال، ويحب تعالى أن يرى أثر نعمته على عبده»^(٥)، ولقوله ﷺ لأبي الأحوص حين رآه رثَّ الثياب: «ألك مال؟» قال: نعم، فقال ﷺ: «فإذا أتاك الله مالاً، فليُرَ أثر نعمة الله عليك وكرامته»^(٦)، "فهو سبحانه يحبُّ ظهور أثر نعمته على عبده، فإنه من الجمال الذي يحبُّه، وذلك من شكره على نعمه"^(٧)، وأن يجمل باطنه، الذي هو أجمل الجمال، وأكملة: من أعمال الجنان النقية، كالإخلاص، وحسن الاعتقاد، والإيمان، وحسن الظنِّ، وسلامة القلب من سوء الظن، والحقْد، والغُلِّ، وكل ذنب، وكفران، فقد كان من دعائه ﷺ: «اللهم زَيِّناً بزيينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين»^(٨).

(١) أي: شوقاً لرؤيته.

(٢) من عظمتهم وقدرته.

(٣) «الأمد الأقصى» (١/٤١٥).

(٤) «الفوائد» (٢٠٧) بتصرف يسير.

(٥) «صحيح الجامع» (١٧٤٢).

(٦) «صحيح النسائي» (٥٢٢٤).

(٧) «الفوائد» (٢٠٩).

(٨) صحيح النسائي (١٣٠٥، ١٣٠٦).

وبالجملة ينبغي للعبد أن "يعرفه بالجمال الذي هو وصفه ، ويعبده بالجمال الذي هو شرعه ، ودينه ، فجمع الحديث^(١) قاعدتين : المعرفة ، والسلوك"^(٢).

ومن الواجب - وفقك الله تعالى - تطلب الفرق بين ما هو جمالٌ عند الله وحسن بين ما لا يجمال عنده ولا يحسن ، فاعمل عليه ، وخُذ بنفسك باجتنب ضِدّه ، ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم ، ألا تسمع قول رسول الله ﷺ ، فيما يرويه عن ربّه ﷺ : «ولخلاف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»^(٣) ، وقوله ﷺ : «وما من أحدٍ يُكَلِّم في سبيل الله ، والله أعلم بمن يُكَلِّم في سبيله ، إلا جاء يوم القيامة وجرحه يشعب دمًا ، اللون لون دم ، والريح ريح مسك»^(٤).

وما أحال وجود الدم عن ظاهره ، وكذلك خلوف فم الصائم إلا حقيقة رضى الله عنه ، ومحَبَّتِه إياه ، فافهم^(٥).

واعلم يا رعاك الله أن ربك الجميل قد شرع لك في تجميل وتزيين جنتك على قدر تقربك إليه ، من ذلك : الذكر ، كما أخبر ﷺ أنه غراسُ الجنة ، قال ﷺ : «من قال : سبحان الله العظيم وبحمده ، غُرست له نخلة في الجنة»^(٦).



(١) أي الحديث : «إن الله جميل يحب الجمال» .

(٢) «فوائد الفوائد» (٣٩) .

(٣) البخاري (١٩٠٤) .

(٤) البخاري (٢٨٠٣) .

(٥) «شرح أسماء الله» لأبي الحكم الإشبيلي (٢٤٢/١) .

(٦) صحيح الترمذي (٣٤٦٤) . وقال ﷺ : «القيت إبراهيم ليلة أُسري بي ، فقال : يا محمد ! أفرئ أمّتك السلام ، وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر» . المصدر السابق (٣٤٦٢) .

وقال ﷺ : «من قال : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، غُرِس له بكل واحدٍ منهن شجرة في الجنة» . حسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» رقم (١٥٥٢) (٢٣٢/١) .

وقال ﷺ : «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يختمها عشر مرات ، بنى الله له قصرًا في الجنة» . صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٥٨٩) (١٣٧/٢) .

١٥-١٦-١٧- الله ﷻ، القادر، القدير، المقتدر ﷻ جل جلاله

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]

وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء]

وقال ﷻ: ﴿إِنَّ الْتَّائِبِينَ فِي جَنَّتِ وَنَهْرٍ ﴿٥١﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٢﴾﴾ [القمر]

المعنى اللغوي

القادر والقدير المقتدر: القادر: تضمنت هذه الأسماء كلها على كمال القدرة لله تعالى ، والقادر يأتي بمعنى: القدرة على الشيء ، وهو اسم (فاعل) . ويأتي بمعنى: المقدر للشيء .

والقدير: من صيغ المبالغة ، (فعليل) من القادر .

والمقتدر: اسم (فاعل) من اقتدر ، والمقتدر (مفتعل) من اقتدر ، وهو أكثر مبالغة من القادر والقدير كما سيأتي .

والقدرة تأتي على عدة معانٍ:

الأول: القوة ، ويقال: رجلٌ قادر ، إذا كان قويًّا على الشيء مستطيعاً له ، وقال النبي ﷺ لأبي مسعود رضي الله عنه وقد شاهد سطاها: «إن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام»^(١) .

والقدرة: صفة تقوم بالقادر بحيث يفعل الفعل بلا عجز ، لقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤] ، لما نفى أن يعجزه شيء قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ ، فلما نفى العجز ، ذكر القدرة والعلم مقابلهما .

الثاني: المقتدر للشيء ، يقال: قدرت الشيء وقدرته: بمعنى واحد .

والقَدْر: قضاء الله تعالى للأشياء على مبالغها ، ونهايتها ، التي أراد الله لها ، والقدر: ما يقدره الله ﷻ من القضاء ويحكم به من الأمور التي تنبغي له تعالى .

الثالث: التضييق: ومنه قوله تعالى: ﴿نَظُنُّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء: ٨٨] ، أي: لن نضيق عليه .

الرابع: مبلغ الشيء ونهايته ، وقدر كل شيء ومقداره: مبلغه ، وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] ، أي: ما عظموه حقَّ تعظيمه^(١) .

ومعنى القدرة عموماً: أمر يتحقق به قهر الأضداد، وفعل ما يستصعب في عرف المخلوقين^(٢) .

تدل هذه الأسماء الجليلة على معاني القدرة الكاملة ، التي لا تتخلف عنه ﷻ ، في أي حال ولا لحظة ، ولا يعترضه عجز ولا يفوته شيء ، وتقدير المقادير قبل الخلق والتصوير .

الفرق بين القادر والمقتدر والقدير:

هذه الأسماء الجليلة كلها مشتقة من صفة واحدة وهي: صفة القدرة ، إلا أن بعضها يشير إلى خصوصية ليست في الآخر ، وهذا مما تقدم ذكره أن صفات الله سبحانه ليست مترادفة ، بل هي متباينة ، وهذا من حسنها الذي لا منتهى لها .

إن (القادر): الذي لا يعجزه شيء إيجاباً أو إعداماً ، أو تغييراً أو إعادة ، و(المقتدر): أكثر مبالغة من قادر ، لأن زيادة المبنى تدلُّ على زيادة المعنى ، فهو يجمع دلالة اسم القادر ، و(القدير): فهو أبلغ منهما في الدلالة على الوصف ، ولأن الاقتدار يقتضي الإطلاق ، والقدرة قد يدخلها نوع من التضمنين بالمقدور عليه ، ومعناه: التأمُّ ، المتمكَّن القدرة ، الذي لا يمتنع عليه شيء ، ولا يحتجز عنه بمنعة وقوة ، و(القدير): هو الفاعل لما يشاء ، على ما تقتضيه الحكمة^(٣) .



(١) «لسان العرب» (٤٧/٥) ، «المعجم مقاييس اللغة» (٦٢/٥ - ٦٣) ، «مفردات ألفاظ القرآن» (٦٥٧) ، و«اشتقاق أسماء الله» (٤٨) ، و«شأن الدعاء» (٨٥) ، و«النهاية» (٧٣٥) . و«شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (٣٢١) ، و«ال تفسير سورة البقرة» لابن عثيمين (٢٩٢/٣) .

(٢) «المنهج الطوفي في تقرير العقيدة» (٢٨٩/٢) .

(٣) انظر «النهاية» (٧٣٥) ، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (٨١/١) ، و«البرهان» للزركشي (٣٤/٣) ، و«التفسير أبي السعود» (١٦١/٢) ، و«شأن الدعاء» (٨٦) ، و«التفسير الأسماء» (٥٩) ، و«أسماء الله الحسنى» للرضواني (٥٤٣) .

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو القادر القدير المقتدر ذو القدرة المطلقة التي ليس لها بداية، وليس لها حد، ولا نهاية، "ولا تقييد فيها البتة" ^(١)، فهو تعالى:

(١) المتناهي في القدرة والاقدار، لا يمتنع عليه شيء في كل الأقطار، "له النفوذ المطلق والسلطان، والتصرف التام، في سائر الأكوان، لا يعارضه معارض، ولا ينازعه منازع، ولا يخرج عن قبضته، مخالف، أو طائع" ^(٢).

(٢) وهو ﷻ مقدّر كل شيء، وقاضيه، وهو على كل شيء قدير، لا يعترضه عجز، ولا فتور، ولا يعجزه شيء، ولا يفوته مطلوب على مرّ الدهور، بل يستبد له ما يريد على ما يريد سبحانه، لأنه هو في قبضته أين كان، فإن فرّ منه، فإنما يطوي المراحل في يديه ^(٣).

(٣) ومن كمال قدرته ﷻ: إيجاد المعدوم، وإعدام الموجود ^(٤)، والمصلح للخلائق على وجه لا يقدر عليه أحد غيره، فضلاً منه وإحساناً، قال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ^(٥) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ [العنكبوت].

(٤) ومن تمام قدرته ﷻ: أنه يوجد الخلائق من غير معالجة، فإذا أراد شيئاً مهما كان، إنما يقول له: "كن فيكون" في الحال قال سبحانه: ﴿وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ^(٧) [البقرة].

(٥) "ولكمال قدرته سبحانه: يهدي من يشاء، ويضلّ من يشاء، ويجعل المؤمن مؤمناً، والكافر كافراً، والبرّ برّاً، والفاجر فاجراً، وهو الذي جعل إبراهيم وآله يدعون إليه، ويهدون بأمره، وجعل فرعون وقومه، أئمة يدعون إلى النار" ^(٨)، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

(٦) وهو تعالى مقدّر مقادير الخلائق، قبل أن يخلق الأرض والسموات والطواقي، بخمسين

(١) «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (١٤٥/١).

(٢) «موسوعة له الأسماء الحسنى» للشرباصي (٣٥٤/١) بتصرف.

(٣) ينظر: «شأن الدعاء» (٨٥)، و«طريق الهجرتين» (٢١١)، و«تفسير أسماء الله» (٥٩)، و«المنهاج» (١٩١/١).

(٤) «التحرير والتنوير» مج (١٢) (١١/٢٩).

(٥) «طريق الهجرتين» (٢١١).

ألف سنة كما قال ﷺ: «كتب الله تعالى مقادير الخلائق، قبل أن يخلق السموات والأرض، بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»^(١).

(٧) وهو تعالى المقدر: الذي يقدر الأشياء بعلمه، وينفذها بقدرته، "فهو سبحانه قَدَّرَ كُلَّ شَيْءٍ، قبل تصنيعه وتكوينه، ونظم أمور الخلق قبل إيجاده وإمداده"^(٢).

(٨) فهو سبحانه تعالى ذو القدرة المطلقة، لا تقييد فيها البتة، وعلى جميع الوجوه كلها، فهو القادر سبحانه وتعالى على كل شيء:

مقدور عليه موجود أو معدوم، معقول أو متوهم، ظاهر أو باطن، معنى أو غير معنى، صفة كان أو موصوفاً، حاملاً أو محمولاً، خيراً كان أو شراً، حسناً أو قبيحاً، لم يشركه في خلق ذلك شريك، ولم يستظهر عليه بظهير^(٣)، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦].

(٩) فهو سبحانه المقدر للأشياء كلها، علم أوزانها، ومقاديرها، وما يتقدم وما يتأخر، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]^(٤).

(١٠) فهو سبحانه الفاعل لما يريد، لا يكون شيء إلا بإرادته، ولا يخرج شيء عن مشيئته، وليس في العالم شيء يخرج عن تقديره ولا يصدر إلا عن تدبيره، ولا محيد عن القدر المقدر، ولا يتجاوز ما خط في اللوح المسطور^(٥).

(١١) وهو القدير سبحانه: بالغ القدرة على كل ما يريد، ومن ذلك:

(أ) الجمع بين الأشياء المتنافرة، (ب) والمتباينة، (ج) والمختلفة، فيؤلف بين القلوب بعد العداوة والقساوة، فتصبح مجتمعة متفقة، قال تعالى: ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المتحنة: ٧]^(٦).

(١٢) ومن كمال قدرته تعالى: أنه هو وحده القادر على جمع الخليقة كلها بعد مماتها، وإن

(١) «مسلم» (٢٦٥٣).

(٢) «أسماء الله الحُسنى»، الرضواني (٥٤٣).

(٣) «شرح الأسماء الحسنى» للإشبيلي (١٤٥/٢).

(٤) «الأسنى» (٤٣٥).

(٥) «لمعة الاعتقاد» (٨٩).

(٦) «تفسير ابن كثير» (٤/٤٥٩)، و«نظم الدرر» (٥٥٨/٧)، و«تيسير الكريم المنان» (٨٥٦).

تفرقت أجسادها ، وتمزقت أشلاؤها ، قال سبحانه : ﴿إِنَّ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٤٨] ^(١).

(١٣) ومن تمام قدرته: أنه لا يمتنع منه ممتنع ، ولا يتعزز من دونه قوي ، ومن ذلك: أن يسلط رسله على من يشاء ، بجعل ما آتاهم سبحانه من الهيبة رباً في قلوب أعدائه ، قال تعالى : ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحشر: ٦] ^(٢).

(١٤) وهو على كل شيء قدير: فلا يعجزه مقدور ، ولا يجوز أن يخرج عن مقدوره شيء من الموجودات: أعيانها ، وأفعالها ، وصفاتها ، كما لا يخرج عن علمه ، فكل ما تعلّق به علمه من العالم ، تعلّق به قدرته ، ومشيتته ^(٣).

(١٥) وهو المقتدر سبحانه: أزلاً وأبداً على كل الأشياء ، والتي من جملتها: الإنشاء ، والإفناء ، والإعادة ، فما وجد فهو قادر على إعدامه ، وما عدم فهو قادرٌ على إيجاده ، وليس بين الإيجاد والإعدام إلا كلمة (كن) ، قال تعالى : ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَأَخْضَلَتْ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥] ^(٤).

(١٦) وهو القدير تعالى: الذي خلق الإنسان من نطفة ضعيفة ، فسواه وعدّله ، ثم نشر منه ذرية كثيرة ، وجعلهم أنساباً وأصهاراً متفرقين ومجتمعين ، والمادة كلها من ذلك الماء المهيّن ، قال سبحانه : ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٤] ^(٥).

(١٧) وهو تعالى القادر: على إرسال أنواع العقوبات وألوان العذاب لمن خالف الحق والصواب ، قال تعالى : ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥] ، "أي: بإسقاط السماء قطعاً ، أو شيء منها كالحجارة ، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾: بالخشف ، أو بإثارة الحيات ، أو غيرها من الأرض ، ﴿أَوْ يَلْسَكُمُ شَيْعًا﴾: يجعلكم ملتبسين شيعاً فرقاً متخالفين ، ﴿وَيَذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾: بتسليط بعضكم على بعض بالعذاب أو القتل" ^(٦).

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٢٨/١) ، و«البحر المحيط» (٣٨/٢).

(٢) «تفسير السعدي» (٨٥٠) ، و«نظم الدرر» (٥١٨/٧).

(٣) «طريق الهجرتين» (٩٥) ، و«شرح أسماء الله» لابن برجان (١٤٦/٢).

(٤) «نظم الدرر» (٤٧٢/٤) ، و«تفسير سورة الكهف» ابن عثيمين (٤٣٧/٥).

(٥) «تفسير ابن كثير» (٤٤٢/٣) ، و«تفسير السعدي» (٥٨٥) ، و«نظم الدرر» (٣٢٧/٥).

(٦) «تفسير البقاعي» (٦٥١/٢) ، و«تفسير ابن كثير» (١٩٧/٢).

(١٨) وهو القدير وحده: على كشف كل أنواع الشدة والضرر، وجلب كل أنواع النفع والبر، "لا يعجزه سبحانه شيء يريد، ولا يمتنع منه شيء طلبه في أي وقت شاء سبحانه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَسْأَلْكُم بِشَيْءٍ فَإِنَّهُ يَكُنْ مِنْكُمْ شَيْءٌ قَدِيرٌ﴾ [الأنعام: ١٧]" (١).

(١٩) وهو القادر سبحانه: المتمكن من الفعل بلا معالجة، ولا واسطة، التي بها ظهور الأشياء في العيان والشهادة، فلا يلحقه عجز فيما يريد إنفاذه تعالى (٢).

(٢٠) وهو المقتدر سبحانه: المتناهي في الاقتدار، المتحكم في جميع الآثار، المتمكن بسلطانه من ملكه، آناء الليل، وأطراف النهار، قَدَّرَ فكان الوجود مظهر ما لا نهاية له تعالى من الاقتدار، قال سبحانه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٠] (٣).

جلال القدير القادر المقتدر

الأول: أن آثار قدرة الله ﷻ في هذا الكون المعجز، لا تُعدُّ ولا تحصى، فهي أكبر من أن تُحاط به عبارة، أو يشار إليه بإشارة، فأينما وقع النظر على شيء في الآفاق، وفي الأنفس، رأيت كمال قدرة القادر، فبقدرته خلق الكون وما فيه، وبقدرته أمسك السماوات أن تقع على الأرض إلا بإذنه، وبكمال قدرته يأت بنا جميعاً أينما كنَّا، وحيث كنَّا، قال تعالى: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الثاني: ومن جلال قدرته تعالى: أنه "فلق الشيء عن الشيء، وإخراج الشيء من ضده، كما يخرج الحي من الميت، والميت من الحي، وهذا من نوع الفلق، [وكذلك] فهو سبحانه قادر على دفع الضد المؤذي، بالضد النافع" (٤)، وهذا لا يقدر عليه إلا ذو الجلال سبحانه.

الثالث: ومن جلال قدرته سبحانه: أنه ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٣]، أي: قَدَّرَ أجناس الأشياء، وأنواعها، وأفرادها، ومقاديرها، وصفاتها، وأفعالها، وأجالها، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدَّرَ مقادير الخلق، قبل أن يخلق السموات والأرض، بخمسين ألف سنة﴾ (٥)، أي: جعل أجناس الأشياء،

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢/٢٣٠).

(٢) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (١/٣٥٤).

(٣) «موسوعة الشرباصي» (١/٣٥٦)، و«الأسنى» (٣١٥).

(٤) «دقائق التفسير» لابن تيمية (٦/٤٩٨).

(٥) تقدم تخريجه.

وكذا جعل مقدار كل شخص في جثته ، وأوضاعه ، وسائر صفاته ، كالحسن والقيبح ، والسعادة والشقاوة ، والهداية والضلالة ، والألوان والأشكال ، والطعوم والروائح ، والأرزاق والآجال ، وغير ذلك بمقدار معلوم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ٢١] ^(١) .

الرابع : ومن جلال قدرته تعالى : " أنه خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ، وما مسّه من تعب " ^(٢) ، ولا إعياء ، ولا نصب ، قال عز شأنه : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨] ، وهو قادرٌ تعالى أن يخلقهما في لحظةٍ واحدةٍ ، وبكلمة واحدة .

لأنه تعالى " التام القدرة ، الذي لا يلبس قدرته عجز بحال ، فقدرته سبحانه لإيجاد الموجودات من الممكنات ، وقوته وأمره لاستغنائه عن الاكتساب والمحاولات ، واستعمال الجوارح والآلات ، التي تمس من يستعملها في الاكتساب التعب ، والنصب ، واللغوب ، والضجر " ^(٣) .

الخامس : ومن جلال قدرته الباهرة : أن جميع الأرض ومن فيها من البحار الواسعة ، والجبال العالية ، في قبضته ، قال تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ﴾ [الزمر: ٦٧] ، على سعتها غير المتناهية ، وما فيها من الأجرام العظيمة مطويات بيمينه ، قال سبحانه : ﴿ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ [الزمر: ٦٧] .

السادس : ومن جلال قدرته تعالى : أنه يخرج من بين صلب الرجل ، وترائب المرأة نطفة ضعيفة ذليلة ، فيجعله في رحم المرأة محفوظاً مما يفسده ، من الهواء وغيره ، يستقر وينمو لأجل التطوير في أطوال الخلقة ، والتدوير في أدوار الصنعة إلى الزمان الذي قدره تعالى للولادة ، قال عز شأنه : ﴿ أَلَمْ تَخْلُقْهُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ ﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿ ١١ ﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿ ١٢ ﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿ ١٣ ﴾ [المرسلات: ٢٠ - ٢٤] ^(٤) .

السابع : ومن جلالها : أن " من تمسك بالله تعالى فهو الغالب ، ولو أن كل من في الأرض له طالب " ^(٥) .

(١) «تفسير البروسوي» (٥٣٢/٤) .

(٢) «طريق الهجرتين» (٢١١) .

(٣) «الأسنى» للقرطبي (٣١٥) .

(٤) انظر : «نظم الدرر» (٢٨٦/٨) ، و«تفسير السعدي» (٩٠٤) .

(٥) «الأسنى» (٣١٨) .

الثامن: ومن جلال القادر سبحانه: "أنه قادر على توصيل كل مرجو، وإنالة كل محبوب، على أحسن المآخذ، وألطف المسالك" (١).

ثمرات

من ثمرات هذه الأسماء الكريمة، أنها تورث المؤمن الإجلال، والمهابة [لله تعالى]، والخوف والخشية [منه سبحانه]، ورجاء الإنعام، وخوف الانتقام، لشمول قدرته تعالى لأنواع ما نفع وضرر، وساء وسرر (٢)، وكمال الحب لله تعالى، وقوة الإيمان، وبرد اليقين، وكمال الثقة به تعالى في كل ما يحدث في هذا الكون، من جليل أو حقير، إنما هو بإذن من الله تعالى القدير، فينبغي للعبد أن لا يغتر بأي قدرة مهما علت، فإنها تحت قدرته تعالى، ومنقادة لعظمته ومشيتته.

"ومن عرف أنه تعالى على كل شيء قدير: خشي سطوة عقوبته عند مخالفته، وأمل لطائف رحمته عند سؤال حاجته، وكذلك من عرف أن مولاه قدير: سكن عن الانتقام ثقة بأن جميع صنع الحق له وانتصاره أتم من انتقامه لنفسه.

وإذا أكثر المؤمن (من استحضار) هذا الاسم، (والعمل بمقتضاه): علت همته، وقوي عزمه على الطاعة، وترك المعاصي، والصبر على المكاره، ومواجهة الشدائد بصدور رحب، وقلب مطمئن، وغمره شعور صادق بأن الله معه، ولن يسلمه لعدو ينال منه، ويشعر المؤمنون بأنهم في حوزته تعالى، ومكان عز لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يخشون على أنفسهم الضيعة في الدنيا، ولا الهلاك في الآخرة، لأنهم جند الله، وجند الله هم الغالبون" (٣).

ومن ثمراتها العظيمة: أنها تتضمن الإيمان بالقدر خير وشره، الذي هو أحد أركان الإيمان الستة، الذي عليها الفلاح في الجنان، والنجاة من النيران، قال عز شأنه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القرم]، وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب]، فمن لم يؤمن به، لا يؤمن بالله ﷻ، وإنكاره إنكار لقدرة الله سبحانه، وجحد صفاته تعالى، قال الإمام أحمد رحمه الله: "القدر، قدرة الله تعالى" (٤).

(١) «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (١٤٧/٢).

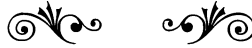
(٢) «شجرة المعارف» للعز بن عبد السلام (٧٣).

(٣) «أسرار ختم الآيات بأسماء الله الحسنى» د. صفاء المسلماني (٩٦).

(٤) انظر «شفاء العليل» (١٣٠/١).

والإيمان بالقدر، الذي هو من القدرة، والتقدير معاً كما سبق، من أجل صفات أهل العلم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، قال ابن عباس رضي الله عنه: "الذين يقولون: إن الله على كل شيء قدير"^(١)، وقال أيضاً رضي الله عنه: "القدر نظام التوحيد، فمن وحد الله ﷻ، وآمن بالقدر، فهو العروة الوثقى التي لا انفصام لها، ومن وحد الله تعالى، وكذب بالقدر، نقض التوحيد"^(٢).

ومن ثمرات الإيمان بكمال قدرته سبحانه: مغفرة الذنوب، والسيئات، والخطوب: قال ﷺ فيما يحكي عن رب العزة والجلال: «من علم أني ذو قدرة على مغفرة الذنوب، غفرت له ولا أبالي، ما لم يشرك بي شيئاً»^(٣).



(١) «التفسير الصحيح» (١٧٢/٤)، قال ابن القيم رحمته الله: "وهذا من فقه ابن عباس رضي الله عنه وعلمه بالتأويل، ومعرفته بحقائق الأسماء والصفات" «شفاء العليل» (١٣٠/١).

(٢) رواه الفريابي في «القدر» (٢٠٥)، واللالكائي في «أصول الاعتقاد» (١٢٢٤).

(٣) «صحيح الجامع» (٤٠٣٠).

١٨- الله عَفْوٌ عَزَّ شَأْنُهُ

قال تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ [النساء: ١٤٩]

المعنى اللغوي

العفو: من صيغ المبالغة على وزن (فعول)، أي: كثير العفو، ويأتي على عدة معان كمال:
الأول: التجاوز عن الذنب، وترك العقاب عليه، وأصله المحو والطمس، مأخوذ من قولهم: عفت الرياح الآثار: إذا درستها ومحت آثارها، فكان العافي عن الذنب يمحو بصفحه عنه، فعفو الله ﷻ: الصفح وترك عقوبة المستحق.

الثاني: الكثرة والزيادة، والفضل، فعفو المال ما يفضل عن النفقة، قال تعالى: ﴿وَسَأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ﴾ [البقرة: ٢١٩]، بمعنى: زادوا على ما كانوا عليه من العدد وكثروا، ويقال: "أعفيت كذا"، أي تركته ينمو ويكثر، ومنه الأمر بعفو اللحي، وهو: أن يوفّر شعرها ولا يقص كالشارب.

الثالث: التسهيل والتيسير، أي: ما يسهل قصده وتيسر تناوله، قال ﷺ: ﴿خُذِ الْعَفْوَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، أمر نبيه ﷺ أن يتحمل أخلاق الناس، ويقبل منها ما سهل ويسر، ولا يستقصي عليهم.

وقال عز شأنه: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾ [النساء: ١٤٩] أي: يقبل العفو، وهو السهل، ويقال: "أدركت هذا الأمر عفواً صفواً"، أي: في سهولة.

الرابع: الطيب من كل وجه، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَسَأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْغَفْوُ﴾ [البقرة: ٢١٩]، فالعفو: أحل المال وأطيبه، وهو خيار كل شيء وأجوده، يقال: "أكلت عفو الطعام والشراب"، أي: خياره.

الخامس: المعروف، والعُفاة: طلاب المعروف، وهم المعتفون، "وأعفيت فلاناً": طلبت معروفه وفضله.

السادس: ما أتى بغير مسألة ، والعافي: ما أتى على ذلك من غير مسألة أيضاً ، يقال: "أعطيته عفواً" ، يعني: بغير مسألة^(١).

السابع: قد يكون العفو: بمعنى البذل ، قال عز شأنه: ﴿فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] ، أي بذل^(٢).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو العفو الذي لم يزل ولا يزال بالعفو معروفاً^(٣):

(أ) فهو تعالى كثير الصفح عن ذنوب عباده ، إلى ما لا نهاية له: (أ) فهو ﷻ يمحو السيئات ،
(ب) ويتجاوز عن الذنوب ، (ج) ويزيل آثارها بالكلية ، (د) فلا يطالب بها العباد يوم القيامة ،
(هـ) ويمحوها من ديوان الكرام الكاتبين .

(و) بل وينسيها من قلوبهم ، كيلا يخلجوا عند تذكرها في يوم الدين ، قال تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد] .

(ز) ويثبت مكان كل سيئة حسنة ، قال سبحانه: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]^(٤).

(٢) وهو العفو تعالى: الذي له العفو الشامل ، الذي وسع ما يصدر من عباده من الذنوب ، فلا يعاجلهم بالعقوبة ، ويغفر ذنوبهم ، فالله هذا وصفه المستقرُّ اللازم الذاتي ، ومعاملته لعباده في جميع الأوقات^(٥).

(٣) وهو العفو سبحانه: الذي يعفو عن يهفو^(٦) من عباده ، ويستتر عما يبدو ، ويسر ويسهل

(١) «كتاب العين» (١٩٢/٣)، و«مقاييس اللغة» (٥٧٧)، و«النهاية» (٦٢٧)، و«لسان العرب» (٣٠١٩/٤)، و«الصحاح» (٧١٩)، و«القاموس المحيط» (٨٩١)، و«عمدة الحفاظ» (٩٨/٣)، و«اشتقاق أسماء الله» (١٣٤)، و«مختار الصحاح» (٢٤٤)، و«تفسير الطبري» (٥٩٠/١)، و«إعراب القرآن» لأبي جعفر النحاس (٤٥٩/١)، و«تلخيص الأدلة» (٥١٥/٢)، و«شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان (٣٢٥/٢)، و«شرح أسماء الله الحسنى» للبيضاوي (٣٢٤).

(٢) «الأسنى» (١٤٧/١).

(٣) «تفسير السعدي» (٩٤٦).

(٤) «شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (٣٤٠) بتصرف.

(٥) «الحق الواضح المبين» (٥٦)، و«التفسير» (٥٤٣) للسعدي، و«تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة» (٥٦/٢).

(٦) «الأسنى» (٢٣٦/١).

أمور من إليه أنابوا .

(٤) فهو سبحانه يعفو ويصفح عن الذنوب مهما كان شأنها ، ويتجاوز عن الخطوب مهما كان جرمها ، لأنه سبحانه عفوٌ يحبُّ العفو .

"والغالب أن العفو يكون عن ترك الواجبات ، والمغفرة عن فعل المحرمات" (١) .

(٥) وهو العفوُّ تعالى: كثير الخير "يعطي الجزيل من الفضل" (٢) والإنعام ، الذي لا ينقطع آناء الليل ، وأطراف النهار .

(٦) وهو تعالى العفو: الذي يقبل العفو ، وهو: السهل (٣) واليسر من عباده ، بالتيسير الواجبات ، وتسهيل عليهم المنهيات ، وعدم الإعسار عليهم فيما بينهم بالقصاص .

(٧) فهو سبحانه كثيرُ العفو لعباده المؤمنين بتيسير ما أمرهم به ، وتسهيله (عليهم) غاية التسهيل ، بحيث لا يشقُّ على العبد امتثاله ، فيخرج بذلك (٤) ، فنفي عن شريعته الغراء الحرج (٥) بكلِّ أنواعه وأصنافه ، فمن تيسيره عليهم :

(أ) في الواجبات: أنه "لما يقع من العبد من تقصير وضعف ، فالله أوجب الوضوء لمن أراد الصلاة ، إذا انتقض وضوؤه ، ولكنه عفا عما لا يجد الماء ، أن يتيمم ، مراعاة لضعف العباد" (٦) .

(ب) في المنهيات والمحرمات: أكل الميتة عند الاضطرار ، وقول كلمة الكفر عند الهلاك خوفاً من الفجَّار .

(ج) وفي القصاص: أنه تعالى خَفَّفَ عن هذه الأمة في التخيير بين القصاص والدية (٧) ، أما سائر الأمم قبلها لم يكن لهم أخذ الدية إذا قتل القتل ، لأنَّ الحكم في اليهود: حتم القصاص ،

(١) «شرح الواسطية» (٩٢/٢) ، و«تفسير سورة آل عمران» (٣٤٢/٢) .

(٢) «الاعتقاد» للبيهقي (٥٦) .

(٣) «تفسير القرطبي» (٢١٣/٣) .

(٤) «تفسير السعدي» (١٨٠) .

(٥) كما قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] .

(٦) «أسماء الله الحسنى» د. عمر الأشقر (٢٥٥) .

(٧) قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُذِّبَ عَلَيْكُمْ الْقصاصُ فِي الْقَتْلِ الْحَرْمِ بِالْحَرْمِ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَأَبْيَعُ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاؤُهُ إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٨] .

والحكم في النصارى: حتم العفو^(١).

(٨) وهو العفو سبحانه: الذي ﴿يَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥]، فيمحوها، ويمحو أثرها من العيوب، وما اقتضته من العقوبات، ويعود التائب عنده كريماً، كأنه ما عمل سوءاً قط، ويحبّه ويوفقه لما يقربه إليه^(٢).

(٩) وهو العفو ﷺ: الذي يعفو عن أوليائه الذنوب والخطوب الكبار، كما عفى عن أصحاب النبي ﷺ التولي والفرار في مقابلة الكفار، قال سبحانه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُشِلْتُمْ وَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فشمل عفوه الكريم كل من خالف أمره، وأمر رسوله النبي الأمين ﷺ^(٣).

(١٠) ومن تمام عفوه وكماله: "أنه لا تزال آثاره ومتعلقاته، تشمل الخليقة آناء الليل والنهار، فعفوه ومغفرته وسعت المخلوقات، والذنوب، والجرائم"^(٤)، قال عزّ شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء: ٤٣].

(١١) "فهو سبحانه يعفو عن الكثير، ويجازي بالعتاء الوفير، ويبدل السيئات حسنات، ويذلل العقبات، ويخفف متاعب الحياة، والتكاليف الحسيّة، والمعنويات"^(٥)، لأوليائه الأتقياء.

(١٢) وهو العفو تعالى: الذي يقبل المتيسّر من أموال العباد، الذي لا تتعلق به حاجاتهم وضرورتهم، قال ﷺ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْمَوْفُ﴾ [البقرة: ٢١٩]^(٦).

(١٣) وهو الذي "يعفو عن الضعيف الذي لا يقدر على فعل الخير لعلّة الضعف، أو الكبر، أو لقلّة التدبير، قال سبحانه: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا

(١) انظر: «تفسير الرازي» (٦٤/٣).

(٢) «تفسير السعدي» (٧٥٨).

(٣) قال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَفَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥].

(٤) «فتح الرحيم» (٢٧).

(٥) «حاشية شرح أسماء الله الحسنى وفوائدها» للبرنسي (١١٥).

(٦) «تفسير السعدي» (٩٨).

يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿١٩﴾ [النساء: ٩٨ - ٩٩] (١).

(١٤) وهو سبحانه العفو: الذي يبدل (٢) التوبة، والثواب، مع وجود الذنب (٣)، واستحقاقه للعقاب.

(١٥) والله تعالى عفو: يسهل خيره، ويقرب تناول ما عنده بأيسر الأسباب، لأنه تعالى ليس بينه، وبين العباد حجاب.

(١٦) ومن عفوه الجميل الذي ليس له مثل: أنه تعالى "يترك المؤاخذه على الذنوب، ولا يذكر بالعيوب" (٤)، في المشاهد أو الغيوب.

(١٧) ومن عفوه الكريم سبحانه: أن التقصير الواقع من الخلق يقتضي العقوبات المتنوعة [الظاهرة والباطنة]، ولكن عفو الله تعالى ومغفرته، تمنع هذه الموجبات، والعقوبات (٥).

(١٨) وهو العفو جل ثناءه: "الواضع عن عباده تبعات خطاياهم، وآثامهم" (٦)، فلا يستوفيها منهم، وذلك:

(أ) إذا تابوا واستغفروا.

(ب) أو تركوا لوجهه أعظم مما فعلوا، فيكفر عنهم ما فعلوا، بما تركوا.

(ج) أو بشفاعته من يشفع لهم.

(د) أو يجعل ذلك كرامةً لدى حرمة لهم به، وجزاء له بعمله" (٧).

(١٩) وهو العفو عز شأنه: الذي عفا ما لم يذكره في كتابه، فكل ما سكت الله عنه فقد عفا عنه وأباحه، فهو تعالى سكت معافياً لعباده (٨) توسعةً وتيسيراً (٩).

(١) «موسوعة أسماء الله الحسنى» أ.د عقيل حسين (٦٨/٩).

(٢) لأن من معاني العفو كما سبق: البذل.

(٣) «الأسنى» (١٤٨/١).

(٤) «حاشية شرح أسماء الله الحسنى وفوائدها وخصائصها» شرحه وعلق عليه د. محمد الرشدي (١١٥).

(٥) «فتح الرحيم الملك» (٢٧).

(٦) في «المنهاج» (آثارهم) والذي أثبتناه من «شعب الإيمان» للبيهقي (٢٢٨/١).

(٧) «المنهاج» للحليمي (٢٠١/١)، وانظر: «الأسماء والصفات» للبيهقي (١٤٩/١).

(٨) كما قال ﷺ: «الحلال ما أحله الله...، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه» صحيح الترمذي (١٧٢٦)، وصحيح ابن ماجه (٣٣٦٧).

(٩) قال ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُونَ عَنْ أَسْيَاءِ إِنْ بُدِّ لَكُمْ تَسْأَلُونَ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدِّلُ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ [المائدة: ١٠١]. ينظر: «تفسير ابن كثير» (١٥٠/٢)، و«تفسير السعدي» (٢٤٦).

(٢٠) ومن كمال عفو ربنا سبحانه: أنه يعفو ويصفح عن كثير من الذنوب ، فلا يجازي عليها بمصيبة عاجلة في الدنيا ، ولا بعقوبة آجلة في الآخرة: ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠] ^(١).

(٢١) ومن كمال عفو ربنا الذي ليس له شبيه ولا عدل: "أنه سمح في حقوقه ، وأسقط كثيراً منها" ^(٢) ، فتفضل الله سبحانه بالعفو عن حقه ، حتى إنه ﷺ يغفر لمن لا يشرك به شيئاً تفضلاً ^(٣) . بل إنه تعالى يعفو عن أعظم حق من حقوقه وهو: الشرك المنافي للتوحيد ، إذا تاب العبد منه ، وأتاب إليه من جديد .

(٢٢) فهو سبحانه العفو: الكثير العفو والتجاوز عن الخطايا ، إلى ما لا عد ولا نهاية ، كما وصف نفسه تعالى بأعلى صيغ المبالغة ومبانيها ، وذلك :

أ) لكثرة عفوهِ وتجاوزه على الآثام ، على الواحد من الأنام ، الذي يقتربها في السر والإعلان ، على مرور الزمان ، حتى انقضاء آخر عمره من الأيام .

ب) ولكثرة عفوهِ على الخاطئين والمذنبين ، الذي لا يحصي عددهم وكثرتهم إلا رب العالمين ، الذين يقتربون الذنوب العظام ، في كل مكان وأن ، فسبحانه من رب عفو كريم منان .

(٢٣) ومن كمال عفوهِ سبحانه: أنه كما يعفو عن السيئات صغيرها وكبيرها لمن تاب ، أنه يعفو كذلك لمن يشاء بلا توبة ولا أوبة إذا كان ما دون الشرك ^(٤) .

(٢٤) وهو العفو تعالى: الذي ينمي ويكثر من الآلاء والإنعام ، على من كفر وطغى من أهل القرى ، ابتلاءً وعقاباً قبل الآخرة ، قال عز شأنه: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴾ ﴿ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْنَةً وَهُمْ لَا يُشْعُرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٤ - ٩٥] .

* * *

(١) «غرائب القرآن ورغائب الفرقان» نظام الدين النيسابوري (٧٩/٦) ، و«روح المعاني» للآلوسي (٦٣/١٤) بتصرف

(٢) «الأسنى» (١٤٩/١) .

(٣) «تفسير سورة النساء» لابن عثيمين (٣٩١/٢) .

(٤) «تفسير الفتح والبيان» لحسن صديق خان (٢٠١/٦) ، و«تفسير تنوير الأذهان» للبروسوي (٤٨٦/٤) بتصرف .

وعفوه تعالى لعباده نوعان:

"عفوه العام: عن جميع المجرمين، من الكفار وغيرهم، بدفع العقوبات المنعقدة أسبابها، والمقتضية لقطع النعم عنهم، فهم يؤذونه بالسب والشرك وغيرها من أصناف المخالفات، وهو يعافيهم، ويرزقهم، ويدّر عليهم النعم، الظاهرة والباطنة، ويسط لهم الدنيا، ويعطيهم من نعيمها ومنافعها، ويمهلهم ولا يهملهم، بعفوه وحلمه.

النوع الثاني: عفوه الخاص: ومغفرته للتائبين، والمستغفرين، والداعين، والعابدين، والمصابين بالمصائب المحتسين^(١).

جلال العفو

الأول: من جلال العفو سبحانه: أنه ما يصيب المؤمن من المصائب في أبدانهم، وأموالهم، وأولادهم، وفيما يحبون، إلا كفر الله عنهم من خطاياهم، وإن مما عفا عنه وتجاوز، أكثر مما لا يحصى، قال ﷺ: ﴿وَمَا أَصَبَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى].

الثاني: أن ما عفا الله سبحانه عنه في الدنيا، فالله ﷻ أكرم من أن يعود عفوه يوم القيامة، فهو كريم سبحانه لا يرجع في عفوه، فهذه سنة الله تعالى مع أوليائه^(٢) التي لا تتغير، ولا تبدل^(٣).

الثالث: ومن جلاله: أنه سبحانه كما يعفو في الدنيا عن المذنبين التائبين، فإنه تعالى في الآخرة يعفو عن الموحدين المصيرين^(٤).

الرابع: أنه سبحانه دلّ عباده على الأسباب، التي ينال بها عفوه الكريم، من الأعمال، والأقوال، والأخلاق، والأفعال.

الخامس: ومن جلال عفوه تعالى: أن العباد يبارزونه بالعظائم، بما يغضبه من الذنوب والآثام، ومع ذلك يسدي إليهم النعم، ويصرف عنهم النقم، كأنهم يشكرونه ولا يعصونه^(٥).

(١) «فتح الرحيم الملك» (٢٨).

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» (١٥٠/٤)، و«الشوكاني» (١٥٥٦)، و«ابن السعدي» (٧٥٩).

(٣) كما في الحديث: «من أصاب حداً فعملت عقوبته في الدنيا» وفي لفظ: «من أصاب في الدنيا ذنباً فعوقب به، فالله أعدل من أن يثني على عبده العقوبة في الآخرة، ومن أصاب حداً فستره الله عليه وعفا عنه، فالله أكرم من أن يعود في شيء قد عفا عنه» الترمذي (٢٦٢٦)، وابن ماجه (٢٦٠٤).

(٤) «الأسنى» (١٤٩/١).

(٥) «توضيح الكافية» (١٢١) بتصرف.

فمن الذي يكافئ المذنب بمثل هذا ، غير الله ﷻ ؟

السادس: ومن جلال عفوه: أنه تعالى يعفو عن ذنب عبده ، مهما كان جرمه ، حتى عن حقه تعالى ، بل ويبدل سيئاته حسنات ، قال سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۖ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠] ، بل وينعم عليه من إكرامه ، وآلائه ، وأنعامه ، التي لا تحصى في ليله ونهاره .

السابع: أنه لولا عفوه: لغارت الأرض بأهلها ، ولما ترك على ظهرها من دابة ، لكثرة ما يرتكب فيها من المعاصي على ظهرها^(١) ، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْضِرُونَ سَاعَةً ۚ وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ﴾ [النحل: ٦٦] .

الثامن: ومن جلال العفو جل ثناؤه: "أنه ﴿يَعْفُو﴾^(٢) عَنْ كَثِيرٍ" [الشورى: ٣٠] من العباد ، فيستره على العباد ، حتى لا يُحدَّ عليه"^(٣) في الدنيا ، فيقدم عليه يوم القيامة سالماً معافى من العقوبة .

التاسع: ومن جلال عفو ربنا الذي ليس له مثل: "أنه جعل العفو سُنَّةً بين عباده ، فوعدهم أن يعفو عنهم ليحبَّبه إلى نفوسهم ، فدعا العباد إلى الأخذ بالعفو ، ورغَّبهم فيه ، ومَنَّاهم بالشواب عليه ، فقال العفو الكريم سبحانه: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۚ أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]"^(٤) .

العاشر: ومن جلاله: أنه يسهِّل ويسر غاية التيسير في النيل مما عنده سبحانه من الخيرات والآلاء ، فييسر أسهل الأسباب في ذلك ، وهو: الدعاء ، فهو من أعظم الأسباب وأيسرها في إعطاء النوال .

الحادي عشر: ومن جلال عفوه تعالى: "أنه أعفى أُمَّة محمد ﷺ مما ابتلى به أقواماً غيرهم ، إذ كانت التوبة والغفران والعفو بعد قتل النفس"^(٥) ، وقطع مكان النجاسة في الثوب وغير ذلك ،

(١) «شرح العقيدة الواسطية» للهراس (٨١/٢) ، و«نظم الدرر» (٦٣٢/٦) .

(٢) قال ﷺ: «ما اختلج عرق ولا عين إلا بذنب ، وما يدفع الله عنه أكثر» . صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة»

(٢٢١٥) .

(٣) «المحرر الوجيز» (٣٧/٥) ، و«البحر المحيط» (٣٣٩/٩) .

(٤) «موسوعة أسماء الله الحسنى» أ.د عقيل حسين عقيل (٨٨/٩) .

(٥) المصدر السابق (٧١/٩) .

فله الحمد والشكر على عفوه وتيسيره وتسهيله .

الثاني عشر: ومن جلال العفو سبحانه: "أنه أبدل الجفاء بالوفاء، وحول الكدورة إلى الصفاء"^(١).

الثمرات

عندما يؤمن المؤمن بأن ربه له كمال العفو، من جميع وجوهه، والتي منها: تركه مجازاة المسيء في ذنبه، فإن ذلك يغرس في قلبه شجرة المحبة، وهي محبة العبد لربه، التي تثمر له من ينابيع الآثار والثمرات الظاهرة، والباطنة، من الرجاء، والانقطاع، والأمل، والركون له تعالى وحده، ومن ذلك التعبد بهذا الاسم الكريم مع خلقه، ابتغاء وجهه تعالى، حتى يدخل في الزمرة التي أثنى عليها في كتابه، وسنة نبيه ﷺ، قال تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقال سبحانه: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

"فمن عرف أن الله سبحانه عفوٌ طلب عفوه، ومن طلب عفوه تجاوز عن خلقه، قال الله سبحانه: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]"^(٢).

"فاعف يا رعاك الله تعالى عن كل من ظلمك، وإلى كل من أساء إليك، ولا تقطع برك عنه بسبب تلك الإساءة، ولا تذكر مما تقدم من أنواع الجفاء شيئاً، بل أحسن إليه، كما ترى إحسان الله العظيم في الدنيا إلى العصاة، والفجرة، والكفرة، غير معاجل لهم بالعقوبة، بل ربما يعفو عنهم بأن يتوب عليهم كما هو معلوم بالخبر، والمشاهدة، وتذكر قول العفو سبحانه: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]، فإنه متى فعلت ذلك، فالله ﷻ أكرم الأكرمين، أولى أن يفعل بك ذلك"^(٣).

ومن عبودية هذا الاسم الكريم: أن تعامل الناس بالعفو، والمعروف، قال عز شأنه: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، أي: ما سمحت به أنفسهم، وما سهل عليهم من الأعمال، والأخلاق، فلا يكلفهم ما لا تسمح به طبائعهم، بل يشكر من كل أحد ما

(١) «شرح أسماء الله الحسنى» للبيضاوي (٣٢٤).

(٢) «الأسنى» (١٥١/١).

(٣) «المقصد الأسنى» (١٢٤)، و«شرح الأسماء» للرازي (٣٤٠) بتصرف.

قابله به ، من قول ، وفعلٍ جميل ، أو ما هو دون ذلك ، ويتجاوز عن تقصيرهم ، ويغضُّ طرفه عن نقصهم^(١) .

واعلم عفا الله عنا وعنك : "أَنَّ العفو موجب للشكر ، لقوله تعالى : ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٢]"^(٢) ، فإن الله تعالى قد أخبر أَنَّ كُلَّ مَا يُصِيبُ الْعِبَادَ فِي أَبْدَانِهِمْ ، وَأَمْوَالِهِمْ ، وَأَوْلَادِهِمْ بِسَبَبٍ مَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ، وَأَنَّ مَا يَعْفُو اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرُ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]"^(٣) ، فاستوجب علينا أَنْ نشكره آناء الليل وأطراف النهار على عفوهِ عن تقصيرنا .

ومن عبودية هذا الاسم الجليل : أَنْ تعفو على من هم تحت يَدِكَ مِنَ الْخَدَمِ ، جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ كَمْ نَعْفُو عَنِ الْخَادِمِ ؟ قَالَ : «اعْفُ عَنْهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً»^(٤) ، فَمَنْ تَعَبَّدَ بِهِ ، نَالَ أَسْمَى مَرَاتِبِ الْمُنَى ، وَهِيَ مَحَبَّةُ تَعَالَى لَهُ ، لِأَنَّهُ تَعَالَى يُحِبُّ الْعَفْوَ وَأَهْلَهُ : «اللَّهُمَّ إِنَّكَ عَفُوٌّ تَحِبُّ الْعَفْوَ فَاعْفُ عَنِّي»^(٥) .

وكذلك نال العزّة في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا : الرفعة ، والعلو ، والمنعة ، قَالَ ﷺ : «وَمَا زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلَّا عِزًّا»^(٦) .

وفي الآخرة : مَا يَتِمَّتْهُ مِنَ النِّعَمِ ، وَالْهَنَاءِ ، فِي جَنَاتِهِ سُبْحَانَهُ الْعَلَا ، قَالَ ﷺ : «مَنْ كَظَمَ غِيظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَنْفِذَهُ ، دَعَا اللَّهَ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَخَيَّرَهُ مِنَ الْحُورِ الْعِينِ مَا شَاءَ»^(٧) .



(١) «تفسير السعدي (٣١٣) ، وانظر : «تفسير النسفي» (٤٠٠) .

(٢) «تفسير سورة البقرة» لابن عثيمين (١٨٢/١) .

(٣) «تفسير السعدي» (٧٥٩) .

(٤) «صحيح أبي داود» (٤٣٠١) .

(٥) سبق تخريجه في الهامش السابق .

(٦) «مسلم» (٦٥٩٢) .

(٧) «صحيح أبي داود» (٤٧٧٧) .

١٩-٢٠- الله ﷻ الواحد، الأحد ﷻ جل وعلا

قال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم]

وقال عز شأنه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص]

المعنى اللغوي

الأحد: اسم فاعل، أو صفة مشبهة للموصوف بالأحدية، فهو يدلُّ على الانفراد، ومنه الوَحْدَة، وهو اسم بني لنفي ما يذكر معه من العدد، تقول: ما أتاني منهم أحد، فمعناه: لا واحد أتاني ولا اثنان، وهو بالنفي أعم من الواحد، فهو من النعوت السلبية، بل هو مجموعها، ولهذا لا يجوز وصف شيء في جانب الإثبات بأحد، إلا الله الأحد، لخلوص هذا الاسم الشريف له تعالى، ولهذا السبب أعري من لام التعريف، لأنه صار نعتاً لله ﷻ على وجه الخصوص، فصار معرفة، فلا يقال: رجلٌ أحدٌ، ولا ثوبٌ أحد، وإنما يستعمل في غير الله تعالى في النفي، والشرط، والاستفهام، ونحو أحد عشر.

والواحد: اسم فاعل للموصوف بالواحدية أو الوحدانية، والواحد هو: المنفرد بنفسه، فهو في الحقيقة: الشيء الذي لا جزء له البتة، وكل شيء على حدةٍ بائن من آخر.

والواحد في كلام العرب له معنيان:

أحدهما: اسم لمفتتح العدد، فيقال: واحد، واثنان، ويمكن جعله وصفاً لأي شيء يريد، فيصح القول: رجل واحد، وثوب واحد.

والثاني: الذي لا نظير له، ولا مثل، ولا قرين، فهو يفيد الانفراد في الذات، أو الصفة، كما يقال: فلان واحد الناس، وهو واحد قومه، يعني بذلك: أنه ليس له في الناس مثل، ولا له في قومه شبيه ولا نظير، وفلان واحد العالم، أي لا نظير له في العالم^(١) ويطلق على المتقدم في علم^(٢).

(١) ومنه: حديث عائشة ؓ تصف عمر: "الله أمٌ حفلت عليه ودرت، لقد أحدت به" أي: ولدته وحيداً فريداً، لا نظير له.

(٢) «لسان العرب» (٢٧٧/١)، و«المفردات» (٦٦) (٨٥٧)، و«النهاية» (٢٨) (٩٦٢)، و«كتاب العين» (٣٥٠/٤)، =

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الواحد الأحد الذي ليس له من يساويه أو يقرب منه أو يدانيه^(١) في الوجود أحد:

(١) فهو سبحانه الذي قد انحصرت فيه الأحدية على الإطلاق ، فهو الأحد المنفرد بالكمال في ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، ليس كمثله شيء: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] . فهو أحد الذات ، وأحد الأسماء ، وأحد الصفات ، والأفعال .

(٢) فهو تعالى الذي توحد بجميع الكمالات ، وتفرّد بكل كمال ، وجلال ، وجمال ، وبأين بأحدثه جميع الموجودات ، بحيث لا يشاركه فيها مشارك^(٢) ، من جميع الوجوه والاعتبارات ، فمن ذلك:

أ - أنه توحد في كمال ذاته: في جلالها ، وعظمتها ، وعلوّها على جميع الخلائق ، ف"تعالّت ذاته أن تشبه شيئاً من الذوات أصلاً"^(٣) .

ب - المتوحد في كمال صفاته: فكلها علا ، لا نقص فيها ، ولا مثل لها ، ولا أعلى منها ، لأنها كلها صفات حمد ، وثناء ، ومجد: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠] ، فهو سبحانه انفرد في جميع صفات الكمال ، بحيث لا يفوته منها صفة ، ولا نعت دالٌّ على الجمال ، والجلال ، وله من كل صفة من تلك الصفات أعلاها ، وغايتها ، ومنتهاها: ﴿وَأَنَّ إِلَيَّ الْمُنْتَهِى﴾ [النجم] . فهو الأحد في حياته ، وقيوميته ، وعلمه ، وقدرته ، وعظمته...^(٤) .

ج - الذي توحد في كمال أسمائه: فكلها حسنى ليس فيها اسم يتضمن السوء ، أو الشر ، فلا أحسن منها ، ولا سميٍّ له بها ، وليس لها منتهى في عددها ، وكمالها ، وأثار متعلقاتها "ومن حسنّها: أن الله ﷻ يحبها ، ويحب من يحبها ، ويحب من عباده أن يدعوه ويسأله بها"^(٥) .

= «وَأَنَّ الدِّعَاءَ» (٨٢ - ٨٣) ، و«القاموس المحيط» (٣٦ ، ١٣٨٤) ، و«تفسير الأسماء» (٥٧) ، و«تفسير الطبري» (٦١٧/٢) ، و«تفسير أبي مظفر السمعاني» (١٦١/١) ، و«نظم الدرر» (٥٨٥/٨) ، و«شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان (٦٩/١) ، و«تفسير ابن رجب الحنبلي» (٦٦٤/٢) ، و«شرح كتاب التوحيد» للغنيمان (٢٥٧/١) .

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٧٩٣/٤) .
 (٢) انظر: «تفسير السعدي» (٩٣٧ ، ٩٤٥) ، و«بهجة قلوب الأبرار» (٢٩١) ، و«شرح الأسماء لابن برجان» (٢٧٣/١) .
 (٣) «مدارج السالكين» (١٢٤/١) .
 (٤) «فتح الرحيم الملك» (٣٧) ، و«بهجة قلوب الأبرار» (٢٩١) .
 (٥) «تفسير السعدي» (٨٥٤) .

د - المتوحد في أفعاله المقدسة: بالكمال والتمام، فلم يشاركه في أفعاله أحد، فكلها حكمة وهدي، ليس فيها فعل خالٍ عن المصلحة، والعدل، والرشد، والرحمة^(١).

(٣) وهو المتفرد في أوليته وآخريته الذي لا ثاني له، فلم يزل وحده، ولم يكن معه أحد في الوجود والتعوت، قال ﷺ: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣].

(٤) وهو الواحد في ملكه، لا شريك له، فلا ينازعه أحد في ملكوته، الذي لا حد لسلطانه، فلا يصح الخروج عن ملكه^(٢)، أي فرد.

(٥) وهو المنقطع النظير، المعدوم الشريك، والنظير^(٣)، والعديل، قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

(٦) وهو الذي تنهى في سؤده، فلا شبهه يساميه، ولا شريك يساويه^(٤)، فهو لا يشبه شيئاً، ولا يشبهه شيء^(٥)، قال سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤].

(٧) وهو الواحد الأحد: الذي ليس له صاحبة، ولا والد، ولا ولد، قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقال عز شأنه: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾ [الإخلاص: ٣]، وقال سبحانه: ﴿سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧١].

(٨) وهو الواحد سبحانه: الذي يمتنع أن يحصل له ضد، أو ند، أو شريك^(٦) له من أحد من الخلق، فالكل عبيد له في كل وقت.

(٩) وهو سبحانه الواحد الأحد: الغني عن كل أحد، الذي لا موجود إلا به، وهو في وجوده مستغن عن جميع الموجودات، في السموات والأرض، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وقال: ﴿إِذَا بَرَأَ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]^(٧).

(١٠) وهو تعالى الواحد القهار: فلا يحتاج إلى من يتعزز به، فهو واحد في قهر الحاجة إلى

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٢١٤)، «شفاء العليل» (١٤٧/٢).

(٢) ينظر: «تفسير الطبري» (٤١٤/٤)، (٥٠٤/٦)، و«شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان، وحاشيته (٧٢/١، ٧٦).

(٣) «شأن الدعاء» (٨٢).

(٤) «شرح الأسماء الحسنى» للرازي (٣١٧).

(٥) «شرح أسماء الله الحسنى وفوائدها وخصائصها» (١٠٢).

(٦) انظر: «مفاتيح الغيب» مج (٧) (٣٢١/١٣).

(٧) «نظم الدرر» (٥٨٥/٨)، و«المحرر الوجيز» (٣٠٧/٣)، و«غاية الأمان في تفسير الكلام الرباني» (١٣٤٧/٧).

ما سواه، فكان الاستغناء منه سبحانه، حتى أن الأنبياء والرسل أعلنوا ذلك للناس في أول دعواهم، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥] ^(١).

(١١) وهو تعالى المتفرد عن كل نقص، وعيب، وسوء، لكماله المطلق من كل الوجوه، قال سبحانه: ﴿سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٢٠].

(١٢) المتفرد في ربوبيته، فلا شريك له في ملكه، ولا معين، ولا وزير، ولا ظهير، ولا منازع، ولا مغالب، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَرْبَابَ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ١٠].

(١٣) وهو المتوحد المنفرد في ألوهيته، فهو الإله الواحد المعبود بحق، المتفرد في المحبة والتعظيم، ليس له ند، ولا ضد، في المحبة والتعظيم، فلا يستحق الطاعة غيره، ولا يستوجب العبادة سواه، قال ﷺ: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء: ١٧١] ^(٢).

(١٤) وهو الواحد تعالى: الذي يفتقر إليه كل ما سواه، في وجوده، وفي صفات وجوده ^(٣).

(١٥) وهو الواحد الأحد، لا عن أحد، صمد، لم يلد ولم يولد ^(٤)، الذي لم يتفرع عنه شيء، ولا تفرع هو عن شيء ^(٥)، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الإخلاص: ١-٣].

(١٦) وهو الواحد سبحانه: الذي لا يشاركه أحد في حقيقته المخصوصة، فليس له تعالى شريك في خصائصه التي لا تكون لغيره من التوحد، والتفرد بالكمال، فلا يشاركه أحد في صفة الألوهية، ولا في خلق الأرواح والأشباح، ولا يشاركه أحد في نظم العالم، وتدبير أحوال العرش ^(٦).

(١٧) وهو الأحد: الذي ليس له مكافئ من خلقه يساميه، أو يساويه، أو يقرب منه أو يدانيه ^(٧)، قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٢].

(١) «موسوعة أسماء الله الحسنى» د. عجيل حسين عجيل (٣٨٧/٧).

(٢) انظر المعاني السابقة في: «طريق الهجرتين» (٢١٤)، «ابن جرير» (٢٥٧/٤، ٤٦٤)، «اشتقاق أسماء الله» (٩٠)، و«تفسير الشربيني» (١٢٣/٢)، و«تفسير السعدي» (٣٤٦/٧)، و«فتح الرحيم الملك» (٣٦)، و«بهجة الأبرار» (٢٩١).

(٣) «تفسير الرازي» (٣٢١/١٣).

(٤) «شرح أسماء الله الحسنى» للبيضاوي (٣٠٤).

(٥) «الأسنى» (٢٣٠).

(٦) انظر: «تفسير الرازي» مج (١) (١٤٥/١)، و«الحق الواضح المبين» (٨).

(٧) «ابن كثير» (٧٩٣/٤).

(١٨) وهو سبحانه الذي يُوحِّده عباده، ويعتمدون عليه، ولا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا عَلَيْهِ ﷻ وحده، ويقصدونه في جميع حوائجهم الدنيوية، والدينية^(١).

(١٩) وهو الواحد سبحانه: الذي لا يقبل إلا عملاً قد وجه له وحده، لا شريك فيه^(٢).

(٢٠) فهو سبحانه الواحد: الذي ليس كمثله شيء، وكل شيء سواه يدعى واحد، فهو واحد من جهة غير واحد من الجهات^(٣).

جلال الواحد الأحد

الأول: من جلال الواحد الأحد: أنه سبحانه "وَحَّدَ نَفْسَهُ بِنَفْسِهِ بِأَنَّهُ هُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ، وَإِنَّمَا تَوْحِيدُ الْمَوْحِدِينَ إِيَّاهُ مِنْ تَوْحِيدِهِ الَّذِي عَلَّمَهُمْ عَنْ نَفْسِهِ، وَأَخْصَّهُمْ مِنْ وَصْفِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ ﷻ﴾ [الأنعام: ١٩]"^(٤)، وقال سبحانه: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨]، فشهد بذلك على نفسه، ثم ثنَّى بهذه الشهادة خواص خلقه وهم: الملائكة وأولوا العلم.

الثاني: ومن جلالهما: "أن كلا الاسمين يجمعان صفات التوحيد كلها"^(٥).

الثالث: ومن جلال وحدانيته وأحديته تعالى: أنهما "ركنا التوحيد، وعليهما مدار الإخلاص ومبناه، لفظاً، ومعنى"^(٦).

الرابع: ومن جلالهما: أنهما يدلّان على أعظم خصائص الربِّ ﷻ، وهو توحيدته تعالى الخالص في العبودية، لما تفرَّد به سبحانه من الألوهية، والرُّبُوبية، وأسمائه الحسنى، وصفاته العلية، وهذا هو المقصد الأعلى، الذي جاء به جميع الأنبياء والمرسلين، لكل البرية، فالوحدانية والأحدية هي أصل التوحيد، وأُسُّه، وأوَّلُه، وأوسطه، ونهايته، وغايته.

ف"التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم به السالك إلى الله ﷻ،

(١) «اشتقاق أسماء الله» (٩٠) بتصرف يسير.

(٢) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن بركان (٨٢/١).

(٣) «شأن الدعاء» (٨٢).

(٤) «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (٩٧/١ - ٩٨) بتصرف.

(٥) «حاشية شرح أسماء الله الحسنى» لأبي العباس البرنسي (١٠٣).

(٦) «الأمَدُ الْأَقْصَى» لابن العربي (٢٥٩/١) بتصرف يسير.

فالتوحيد أول ما يدخل به الإسلام ، وآخر ما يخرج به من الدنيا ، فهو أول واجب ، وآخر واجب ،
فالتوحيد: أول الأمر ، وآخره" (١).

الخامس: ومن جلال الواحد الأحد سبحانه: أنه "منزّه عن أجناس المخلوقات ، لأن أفراد كل جنس من هذه الأجناس متكافئة متماثلة ، فالذهب يكافئ الذهب ، والإنسان يكافئ الإنسان ويزوجه ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] ، فما من مخلوق إلا وله كفؤ ، هو زوجه ، ونظيره ، وعدله ، ومثيله ، فلو كان الحق سبحانه من جنس شيء من هذه الأجناس لكان له كفؤ وعدل ، وقد علم انتفاؤه بالشرع والعقل" (٢).

السادس: ومن جلالهما: أنه تعالى: "تفرد بكل كمال ، ومجد ، وجلال ، وجمال ، وحمد ، وحكمة ، ورحمة ، وغيرها من صفات الكمال ، وليس له فيها مثل ولا نظير ، ولا مناسب بوجه من الوجوه ، فهو الأحد: في حياته ، وهو الأحد في قيوميته ، والأحد في علمه ، وقدرته ، وعظمته ، وجلاله ، وجماله ، وحمده... ، وغيرها من صفاته ، موصوف بغاية الكمال ونهايته ، من كل صفة من هذه الصفات" (٣).

السابع: ومن جلال الواحد الأحد: "أنه تعالى هو الواحد الذي لا يُعَدُّ ، وهو الأحد الذي ليس لوجوده أمد ، ولا يجري عليه حكم أحد ، ولا يَغِيْبُهُ (٤) خيل ولا مدد" (٥).

الثامن: ومن جلال وحدانيته: "ما من شيء أوجد من صغير ولا كبير ، علوي أو سفلي ، من خلق ، أو أمر ، إلا وهو يدلُّ على وحدانيته تعالى ناطقة ، وتشهد له شهادة بينة متضحة ، أعدل من شهادة الألسن ، وأحق تحقيقاً من عبادة النطق ، إذ الألسن قد تعبّر بخلاف ما في القلوب" (٦).

التاسع: ومن جلالهما: "أنه ليس في الوجود ذات واجب مستحق للعبادة من حيث أنه مبدأ جميع الموجودات ، إلا إله موصوف بالوحدانية ، متعالٍ عن قبول الشركة ، قال ﷺ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ إِلَهَ اللَّهِ ثَلَاثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ﴾ [المائدة: ٧٣] (٧).

(١) «مدارج السالكين» (٤٣٣/٣).

(٢) انظر: «تفسير ابن رجب الحنبلي» (٦٧٤/٢).

(٣) «بهجة قلوب الأبرار في شرح جوامع الأخبار» للعلامة السعدي (٢٩١).

(٤) أي: لا يصيبه سبحانه تعب ولا مشقة..

(٥) «شرح الأسماء الحسنى» للرازي (٣١٧).

(٦) «شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان الإشبيلي (٧٦/١).

(٧) «تفسير أبي السعود» (٦٦/٣).

العاشر: ومن جلال الواحد الأحد سبحانه: أنه "لا توجد ذات تجمع بين إطلاقية الصفة وبين مطلق الصفات في آنٍ واحدٍ إلا الله، فكل صفةٍ لله الواحد مطلقة ليس لها بدء معلوم، ولا يحدها حدٌّ مدرك، فهي مطلقة، ولو نظرت إلى أيٍّ من صفاته الحسان وتأملت في مطلقيتها، عرفت أن لا بدء ولا انتهاء لأيٍّ من صفاته، فالجمع بين مطلقية الصفة، ومطلق الصفات تختص به ذاتُ الله فقط، ولا يشاركه فيه أحد" (١).

الثمرات

عندما يدرك المؤمن بأحدثه تعالى، ووحدانيته في الوجود على الإطلاق، ينبغي له أن يوحد ربه تعالى في: محبته، وخوفه، ورجائه، ودعائه، وفي كل عباداته، في ظاهره وباطنه. وبالجملّة أنه "يجب على العبيد توحيد: عقلاً، وقولاً، وعملاً، بأن يعترفوا بكمالهِ سبحانه المطلق، وتفردهِ بالوحدانية، ويفردوه بأنواع العبادة" (٢).

"فشهود (العبد) توحيد الرب، وانفراده بالخلق، ونفوذ مشيئته، وجريان قضائه وقدره (بكل فرد) يفتح له باب الاستعاذة، ودوام الالتجاء إليه، وذلك يدنيه من عتبة العبودية، ويطرحه بالباب فقيراً عاجزاً، مسكيناً، لا يملك لنفسه ضراً، ولا نفعاً، ولا موتاً، ولا حياةً، ولا نشوراً" (٣).

"فإذا عرفت هذا فاعلم أن حاجة العبد إلى توحيد الله تعالى في عبادته وحده لا يشرك به شيئاً في محبته، ولا في خوفه، ولا في التوكل عليه، أعظم من حاجة الجسد إلى روحه، والعين إلى نورها، بل ليس لهذه الحاجة نظيرٌ تُقاسُ به، فإن حقيقة العبد روحه وقلبه، ولا صلاح لها، إلا بإيلاهاها، الذي لا إله إلا هو" (٤).



(١) الموسوعة أسماء الله الحسنى وأثرها في استخلاف الإنسان في الأرض «د.١. عقيل حسين عقيل (٣٨٦/٧).

(٢) «تفسير السعدي» (٩٤٥).

(٣) طريق الهجرتين (٢٦٢/١).

(٤) المصدر السابق (٩٩/١).

٢١- الله ﴿القريب﴾ عز وجل

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦] .

المعنى اللغوي

القريب: على وزن (فعليل)، بمعنى اسم الفاعل، يدل على صفة القرب، وهو خلاف البُعد، والقرب يأتي على أنواع:

الأول: في المكان، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥] .

الثاني: في الزمان، كقوله سبحانه: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] .

الثالث: بالعلم، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٥] ، أي: قريب الإجابة، ويقال: فلان قريبٌ من فلان بالعلم، وبعيد عنه بالجهل .

الرابع: القرب في الرفعة، وفي الحظوة والمنزلة: ﴿فَلَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [الواقعة: ٨٨]

الخامس: في الرعاية: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]

السادس: في القدرة، كقوله سبحانه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦] ^(١) .

السابع: وقد يكون القرب: نقيض الفظاظة والغلظة، بمعنى: الودود، ويقال: فلانٌ قريب من فلان بالمودّة، وفلان بعيد عن فلان بالعداوة ^(٢) .

* * *

(١) «المفردات» (٦٦٣)، و«مقاييس اللغة» (٧٧١)، و«اللسان» (٢٨٦/٧)، و«اشتقاق أسماء الله» (١٤٦) .

(٢) «شرح الأسماء الحسنى» للإشبيلي (٢٥٤/٢)، و«الأمَد الأقصى» (٥١/٢) .

الله ﷻ هو القريب الذي لا أقرب منه سبحانه من خلقه ، وهو فوق عرشه :

(١) فهو القريب: الشهيد، الذي هو أقرب من كل قريب، الذي لا يخفى عليه شيء من العبيد، المطلع على السرِّ وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي صدور الوري.

(٢) فهو تعالى قريب: من كل شيء بقرب هو وصفه، لا يبعد عنه شيء من العرش العظيم في أعلى العلا، إلى منتهى المنتهى.

(٣) فهو سبحانه قريب: من عبده بسماعه دعاءه، ورؤيته، وتضرعه، وعلمه وإطلاعه بجميع أحواله، فيجيبه بما شاء، وكيف شاء.

(٤) فقربه سبحانه يشمل: إجابته دعوة الداعين، مع إحاطة علمه بالأشياء كلها، لا يعزب عنه شيء منها، وكل شيء تحت قدرته، وسلطانه، وحكمته، وتصرفه^(١).

(٥) ومن كمال قربه تعالى: أنه "أقرب إلى المخلوق من نفسه، ومن حياته، ومن مجرى الروح فيه، وأقرب من القرب"^(٢).

(٦) وهو القريب تعالى: الذي يقرب إلى عبده المتقرب إليه، قرباً خاصاً مع علوه سبحانه فوق عرشه^(٣)، كما قال ﷻ: «أقرب ما يكون الربُّ من العبد في جوف الليل الآخر»^(٤)، فهذا قربٌ خاصٌّ غير قرب الإحاطة وقرب البطون^(٥).

(٧) وهو القريب سبحانه: ممن دعاه دعاء مسألة، أو دعاء عبادة، ويجيبه بإعطائه سؤاله، وقبول عبادته، وإثابته عليها أجل الثواب، قال رب العباد: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]^(٦).

(١) انظر: «تفسير السعدي» (٨٧)، و«تفسير القاسمي» (٢٩/٢)، و«اشتقاق أسماء الله» (١٤٦)، و«شأن الدعاء» (١٠٢)، و«شرح أسماء الله الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (١٦٠/١)، و«الأسنى» (٣٥٨).

(٢) «شرح الأسماء الحسنى» للإشبيلي (٢٥٤/٢).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٢٦/٥).

(٤) صحيح الترمذي (٣٥٧٩).

(٥) «طريق الهجرتين» (٤٨).

(٦) «تفسير السعدي» (٣٨٤).

٨) فهو تعالى القريب: الذي لا يحتاج في دعائه وسؤاله إلى النداء^(١)، وإنما يُسأل مسألة القريب المناجى، لا مسألة البعيد المنادى^(٢).

٩) وهو تعالى القريب: قريب من عباده المؤمنين مجيب لدعائهم^(٣)، وشاهد لأحوالهم كلها، ليس بالغائب عنهم، ولا بالعازب عنه شيء في السموات ولا في الأرض، فهو يعلم السر وأخفى، وأخفى مما هو أخفى^(٤).

١٠) وهو القريب سبحانه: الذي يقرب من خلقه كما يشاء، وكيف شاء، (ومتى شاء)، فهو قريبٌ من فوق عرشه، بكمال وصفه، غير ملاصق لخلقه^(٥)، كما في يوم عرفة^(٦)، وثلاث الليل الآخر في كل ليلة^(٧).

١١) وهو الذي يُقرب من يشاء من عباده في الدنيا والآخرة، على وفق حكمته في الدنيا: كما قرب موسى ﷺ لمناجاته في الدنيا: قال سبحانه: ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَحِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

وفي الآخرة في الجنة: من كان يحب المساكين ويقربهم إلى مجالسه ابتغاء وجهه سبحانه الأعلى: قال ﷺ: «يا عائشة! أحبي المساكين وقربهم، فإن الله يُقربك يوم القيامة»^(٨).

١٢) وهو تعالى القريب: الذي لا يبعد عنه أي بعيد "لإحاطة علمه بالأقوال والأحوال، والأفعال"^(٩).

(١) النداء: رفع الصوت وظهوره. «المفردات» (٧٩٦).

(٢) عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال: «يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً بصيراً قريباً وهو معكم» البخاري (٢٩٩٢) (٤٢٠٢).

وفي لفظ: «والذي تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته» مسلم (٢٧٠٤).

«بدائع الفوائد» (٨٤٤/٣)، وانظر: «المرتع الأسنى» من كتاب ابن القيم «لعبد العزيز الداخل» (٥٨٢).

(٣) «تفسير القرآن» لأبي مظفر السمعاني (٤٣٩/٢).

(٤) «الأسنى» (٣٠٧).

(٥) «أسماء الله الحسنى» د. الرضواني (٤٧٧ - ٤٧٨).

(٦) قال ﷺ: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله ﷻ فيه عبداً من النار، من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء» مسلم (١٣٤٨).

(٧) قال ﷺ: «أقرب ما يكون الربُّ من العبد في جوف الليل الآخر». «صحيح الترمذي» (٣٥٧٩).

وقال ﷺ: «ينزل ربنا ﷻ كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟

من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له» البخاري (١١٤٥) (٦٣٢١)، ومسلم (٧٥٨).

(٨) «صحيح الترمذي» (٢٣٥٢).

(٩) «غاية الأماني في تفسير الكلام الرباني» (٧٥٤/١).

فالله سبحانه قريبٌ: من عباده، يسمع دعاءهم، ولا يخفى عليه حالهم، كيفما تصرفت من غير مسافة بينه وبينهم، فهو مع المحسنين بالهداية، والرعاية، والنصرة، وهي مع غيرهم بالإحاطة، والعلم، والقدرة^(١).

(١٣) "وهو القريب: من عبده بقرب بملائكته الذين يطلعون على سرّه، ويصلون إلى مكنون قلبه"^(٢)، ومن ذلك: عند قبض روحه: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصْرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥]^(٣).

(١٤) وهو القريب سبحانه: بالرحمة لكل من أقبل إليه من خلقه، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]^(٤).

(١٥) فهو تعالى قريب: من المحسنين بذاته، ورحمته، قرباً ليس له نظير، وهو مع ذلك فوق سمواته على عرشه^(٥).

(١٦) وهو القريب تعالى: قريب مجيب لاستغفار المستغفرين التائبين إليه، كما أنه رحيم ودود بهم^(٦)، ويثبت جنانهم، ويذيقهم من حلاوة القرب منه، ما الله به عليم، ما يعوّضهم فقد ما فقدوه، قال عز شأنه: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

(١٧) و"قربه تعالى من عباده المؤمنين، فعلى قدر تحقّقهم في صفات الإيمان والإسلام، ومعاني التطيب والطهارة، والتزلف لديه بطاعته، ومعنى قربه جلّ وعز منهم: سرعة إجابته لدعائهم، وسماعه لنجواهم، وعلمه بخفايا ضمائرهم، وشهوده لأحوالهم كلها، وحضوره معهم"^(٧).

(١٨) وهو القريب تعالى: "بمن لجأ إليه من عباده، إذا يئس من الخلق (و)توكل عليه، ورجع إليه، فحينئذ يقبله، ويقبل عليه"^(٨)، ويؤتيه مراده الذي يأمله، ولا يؤيسه من رحمته سبحانه.

(١) «الأسنى» (٣٠٥).

(٢) «أسماء الله الحسنى» د. الرضواني (٤٧٨).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (٢١٣/٧).

(٤) انظر: «روح المعاني» (١٣٢/٧)، و«نظم الدرر» (٥٤٨/٣).

(٥) «مختصر الصواعق المرسلة» (٤٦٠/٢).

(٦) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٤٩٣/٥).

(٧) «شرح الأسماء الحسنى» للإشبيلي (٢٥٤/٢).

(٨) «الأسنى» (٢٣٤/١).

(١٩) وهو القريب: بنصره للصابرين المحتسبين ، فهو قريبٌ منهم في نصره: "لاستغنائه سبحانه عن عُدَّة ، ومُدَّة ، قال عزَّ شأنه: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤]" (١) .

(٢٠) وهو القريب سبحانه: من كلِّ من ناداه واستدعاه ، من أوليائه على أعدائه ، فيأتيهم من غير تأخير ، فهو تعالى لا يسمع عن بعد ، ولا يلحق الداعي ، قال سبحانه: ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ رَحِمْتُ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴾ [سبا: ٥٠] (٢) .

(٢١) وهو القريب تعالى: من كلِّ من أقبل إليه بالعبادة ، من غير حاجة إلى معاناة (ومشقة لقطع المسافة والوصول إليه ، ومع ذلك): مجيب له إذا دعاه: ﴿ يَنْقُورُ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١] (٣) .
وقربه ﷻ من خلقه نوعان:

أولاً: قربٌ عامٌّ: فالله تعالى قريب من كل أحد ، بعلمه ، وخبرته ، ومراقبته ، ومشاهدته ، وإحاطته بجميع الأشياء ، الظاهرة والباطنة ، الحسية والمعنوية ، لا يعزب عنه منها شيء ، وهو فوق كل المخلوقات ، قال عزَّ شأنه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦] .

وقال سبحانه: ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ [هود: ٦١] ، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [الحديد: ٤] .

ثانياً: قرب خاص: من عابديه ، وسائليه ، ومحبيه ، وهو قربٌ يقتضي المحبة ، والنصرة ، والتأييد في الحركات والسكنات ، والإجابة للداعين ، والقبول والإثابة للعابدين ، وهو قربٌ لا تدرك له حقيقة ، وإنما تُعلم آثاره من لطفه بعبده ، وعنايته وتوفيقه وتسديده ، وحضور القلب عنده في تلك الحال ، التي حصل فيها القرب . قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦] (٤) .

(١) «نظم الدرر» (٣٩٧/١) .

(٢) «التفسير الكبير ومفاتيح الغيب» مج (١٣) (٢٧٢/٢٥) بتصرف .

(٣) «نظم الدرر» (٥٤٨/٣) ، و«تفسير الطبري» (٢٨٨/٤) .

(٤) «تفسير ابن السعدي» (٣٨٤ ، ٩٤٩) ، و«الحق الواضح» (٦٤) ، و«فتح الرحيم» (٤٤) ، و«طريق الهجرتين» (٤٧) .

جلال القريب

الأول: من جلاله: أنه سبحانه ما أعظمه في قربهِ، فهو ﷻ فوق سبع سماوات، مستوٍ على عرشه فوق كل خلقه، أقرب إلى العبد من عنق راحلته إليه، قال ﷻ: «إِنَّ الَّذِي تَدْعُونَهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ عُنُقِ رَاحِلَتِهِ»^(١)، بل «هو أقرب إلى العباد من حبل الوريد»^(٢).

الثاني: ومن جلال قربهِ تعالى: أنه هو أقرب إلى النفس من النفس، "وأقرب إلى القلب من ذي القلب"^(٣)، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق]، فهو تعالى "أقرب إلى كل شيء من نفسه، وهو محيطٌ به حيث لا يحيط الشيء بنفسه"^(٤).

فهو تعالى أقرب إلى الموجود من نفسه، (بل هو) أقرب إلى الموجود من المعنى الذي له وجد الوجود، هو أقرب إلى الروح من حياته، وإلى البصر من نظره، ومن سمع الأذن لها، ومن لمس الجسم له، ومن الأنف له سبحانه، فهو تعالى أقرب إلى كل شيء من القرب^(٥).

الثالث: ومن جلاله: أنه تعالى: "لقربه كأنك تراه، قريب بلا ملاصق، وبعيد غير منقطع، وهو يسمع ويرى، وهو بالمنظر الأعلى، وعلى العرش استوى"^(٦).

الرابع: ومن جلال القريب ﷻ: "مع أنه يقرب إلى عباده كيف يشاء، ويدنو منهم، وينزل حيث شاء، ويأتي كما شاء، وهو مع ذلك: العلي الأعلى الكبير المتعالي، فهو سبحانه وتعالى: قريبٌ في علوه، عليٌّ في قربهِ.

والذي يسهل عليك فهم هذا: معرفة عظمة الرب، وإحاطته بخلقه، وأن السموات السبع في يده كخردلة في يد العبد، وأنه سبحانه يقبض السموات بيده والأرض بيده الأخرى، ثم يهزهنَّ، فكيف يستحيل في حقِّ مَنْ هذا بعض عظمته أن يكون فوق عرشه، ويقرب من خلقه كيف شاء، وهو على العرش"^(٧).

(١) «البخاري» (٢٩٩٢)، «مسلم» (٢٧٠٤).

(٢) «تفسير أبي مظفر السمعاني» (١٨٥/١).

(٣) المصدر السابق (١٨٥/١).

(٤) «طريق الهجرتين» (٤٧).

(٥) «شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان (٩٣/١)، و«حاشية الصاوي على الجلالين» (٩٢٠/٣).

(٦) من كلام الإمام ابن منده ﷺ، نقلاً من «مختصر العلو» للذهبي (٢٦٤).

(٧) «مجموع الفتاوى» (٥٠٥/٥)، و«بيان تلبيس الجهمية» (٥٥١/١ - ٥٥٢)، و«مختصر الصواعق المرسلة»

(٣٩٦/١).

الخامس: ومن جلال قربهِ: أنه يقرب من عابديه، بأجل ما يكون من القرب، كما يليق بكماله وجلاله: «إذا تقرب عبدي مني شبرًا، تقربتُ منه ذراعًا، وإذا تقرب مني ذراعًا، تقربتُ منه باعًا، وإذا أتاني يمشي، أتيتُهُ هرولة»^(١).

"فقرب إليهم ﷺ أقرب القرب، فإنهم لما قربوا منه (قابلهم تعالى ف) كان هو أسرع مثوبة، وأكرم قبولاً، وأقرب قرباً، حتى صار أقرب إليهم بالإجابة لدعائهم، ولتوفيقه إياهم في إرادتهم ما يريد له من أنفسهم"^(٢).

السادس: ومن جلاله: أنه سبحانه لم يجعل بينه وبين قربهِ بالإجابة من عباده واسطة، حيث قال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ولم يقل: (فإنني) كما في كلِّ سؤالٍ جاء بالقرآن^(٣)، فكل من دعاه أجابه بال الحال، أو بالمال، و"هذا القرب وصف أخص من المعية، ويدل على عناية تامة"^(٤).

السابع: ومن جلال قرب ربنا سبحانه: أنه يُقرب أوليائه وأصفياه عنده في الآخرة في الجنة، على قدر تقربهم إليه بالأعمال الصالحة في الدنيا، كما في دعاء آسيا ؑ: ﴿رَبِّ أَبْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحریم: ١١]، قال ﷺ: «إن الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفتجر أنهار الجنة»^(٥).

الثامن: ومن جلال القريب سبحانه: أنه لا يستطيع كائناً من كان أن يباعد ما قربهُ تعالى، ولا أن يُقرب ما باعده سبحانه، فالقريب ما قربهُ، والبعيد من باعده على مقتضى حكمته السنية، ومشئته، وقدرته النافذة، فمن دعاء النبي ﷺ: «اللهم لك الحمد كله... ولا مقرب لما باعدت، ولا مباعداً لما قربت...»^(٦).

* * *

(١) «البخاري» (٧٤٠٥)، «مسلم» (٢٦٧٥).

(٢) انظر: «شرح الأسماء الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (٢٥٨/١).

(٣) انظر: «مفاتيح الغيب» للرازي (٣١/٢٢).

(٤) «شرح عقيدة أهل السنة والجماعة» لابن عثيمين (١٧٨).

(٥) البخاري (٢٧٩٠).

(٦) رواه أحمد في المسند (١٥٤٩٢) وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٥٣٨).

ثمرات

يجب على كل مكلف أن يعلم: أن الله سبحانه قريب من عباده المؤمنين، وشاهد لأحوالهم كلها، ليس بغائب عنهم، ولا بالعازب عنه شيء في السموات ولا في الأرض، ثم يجب عليه أن يتقرب إليه بفرائضه، ونوافله، ويتقرب إلى عباد الله بقضاء حوائجهم، والمبادرة بقضاء أمورهم^(١)، فمن كان كذلك: قضى الله سبحانه حوائجه، ويسر له أموره، فإن الجزاء من حسن العمل.

ومن ثمرات هذا الاسم الجليل: أنه يورث العبد القرب من الله تعالى بالعبودية، ومن أجلها الدعاء "فكلما استحضر القلب قرب الله تعالى منه، وأنه أقرب إليه من كل قريب، وتصوّر ذلك أخفى دعاءه ما أمكنه، ولم يتأت له رفع الصوت به"^(٢).

ومن أجل أحوال قرب الرب من العبد، في آخر ساعات الليل، وفي السجود، قال ﷺ: «أقرب ما يكون الرب من العبد في جوف الليل الآخر، فإن استطعت أن تكون ممن يذكر الله في تلك الساعة فكن»^(٣)، وقال ﷺ: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فأكثروا الدعاء»^(٤).

واعلم رحمك الله تعالى أن الإيمان، والعمل الصالح، هو أعظم المقترضات للقرب من الله تعالى، قال عز شأنه: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ أَضْعَافٍ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبا].

ومن الأعمال الصالحات، حب المساكين، قال ﷺ: «لَأَمَّا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «يا عائشة أحبي المساكين وقرببيهم، فإن الله تعالى يقربك يوم القيامة»^(٥).

ومن ثمراته: أن النفوس تأنس بالقرب منه في مناجاته وذكره، فيقع في الفؤاد من المعاني الرفيعة من السرور واللذة، ما ليس لها مثيل، ولا عهد لها في الدنيا، فحق على كل من علم بأن ربه سبحانه (قريب)، أن يتقرب إليه تعالى في كل ما يريد.

(١) «الأسنى» للقرطبي (٣٠٧).

(٢) «بدائع الفوائد» (٨/٣).

(٣) «صحيح الترمذي» (٣٥٧٩).

(٤) «مسلم» (٤٨٢).

(٥) «صحيح الترمذي» (٢٣٥٢).

٢٢- الله ﷻ المجيب ﷻ عز وجل

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [مرد].

المعنى اللغوي

المجيب: اسم (فاعل) من أجاب يجيب استجابة، والإجابة والاستجابة بمعنى واحد، وأجوب دعوة، أي: أسرع إجابة، ويأتي بمعنى الإعطاء، أي: أن يعطي السائل مطلوبه.

وأجاب سؤاله: ردّ عليه وأفاده عمّا سأل عنه، وأجاب طلبه: قبله وقضى حاجته، ويقال: استجاب الله فلاناً ومنه وله: قبل دعاءه، وقضى حاجته.

والجواب يقال: في مقابلة السؤال: والسؤال على ضربين: طلب مقال، وجوابه المقال، وطلب نوال، وجوابه النوال، فعلى الأول: قوله تعالى: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾ [الأحاف: ٣١]، وعلى الثاني: قوله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا﴾ [يونس: ٨٩]، أي: أُعطيتمَا ما سألتما^(١).

فالإجابة إجابة المحتاج بالعطية والنوال، وإعطاء الفقير عند السؤال، فللمجيب معنيان: إجابة السؤال بالعلم، وإجابة النائل بالمال^(٢).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو المجيب لكل من سألته من العبيد بحسب الحالة المقتضية وبحسب حكمته الباهرة^(٣):

(١) فهو سبحانه المجيب: لدعوة الداعين، وسؤال السائلين، ومأمل الطالبين، وكفاية المضطّرين، وعباده المستجيبين، في كل ساعةٍ وحين.

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٤٩١/١)، و«لسان العرب» (٢٨٣/١)، و«النهاية» (١٧١)، و«اشتقاق أسماء الله» (١٤٨)، و«المفردات» (٢١٠)، و«عمدة الحفاظ» (٣٥٦/١).

(٢) «أسماء الله الحسنى» د. الرضواني (٤٨٢).

(٣) انظر: «الحق الواضح» (٦٥).

(٢) فهو الذي يقابل الدعاء والسؤال بالعتاء والقبول ، فهو سبحانه ينبل سائله مما يريد ، ولا يقدر على ذلك غيره^(١) من العبيد .

(٣) وهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ، ويكشف السوء ، ويغيث الملهوف إذا ناداه^(٢) ، ولا يخيب من رجاه ، ولا يؤيس آمله^(٣) .

(٤) فهو تعالى يجيب دعوة الداع إذا دعاه ، ويُسعف السائل إلى ما التمسه واستدعاه^(٤) ، وفي هذه مدحة له ، وأنه متعطف على خلقه بإجابة دعواتهم ، قال تعالى : ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَاكَ﴾ [البقرة: ١٨٦]^(٥) .

(٥) وهو المجيب سبحانه: الذي يكشف السوء عن أوليائه ، ويرفع البلاء عن أحبابه^(٦) ، وينصف المظلوم من الظالم ، لأنه تعالى فوق الكل حاكم .

(٦) فهو تعالى كما يتقبل أعمالهم ، ويثبته^(٧) في القبول الأعلى ، كذلك يتقبل دعاءهم ، ويستحفي مسائلهم ، وإليه توجه وجه الخطاب ، حيث يقول جلّ قوله : ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] ، وقوله : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا﴾ ثم قال جلّ قوله : ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦] ، فدلهم بصريح النصّ وكمال النصيحة ، على عزيمة الاستجابة ، بأن يستجيبوا له ثانية ، بعد دخولهم في عبادته^(٨) .

(٧) فهو تعالى لا يخيب مؤمناً دعاه ، ولا يردُّ مسلماً ناجاه ، ويحبُّ سبحانه أن يسأله العباد جميع مصالحهم ، الدنيوية ، والدينية ، من الطعام والشراب ، والكسوة ، والمسكن ، كما يسألونه الهداية ، والمغفرة ، والصلاح^(٩) .

(٨) ومن كمال إجابته تعالى : "أنه يعلم حاجة المحتاجين قبل سؤالهم ، وقد علمها في

(١) ينظر: «المنهاج» (٢٠٤/١) . و«موسوعة له الأسماء الحسنى» للشرباصي (٢٤٢/١) .

(٢) انظر: «تفسير الأسماء» (٥١) ، و«الحجة في بيان المحجة» (١٦١/١) .

(٣) «الأسنى» (٢٣٦/١) .

(٤) «شرح مصابيح السنة» للبيضاوي (٦٤/٢) .

(٥) «إبطال التأويلات» لأبي يعلى (٦٥٨) .

(٦) «أسماء الله الحسنى» للرضواني (٤٨٢) .

(٧) هكذا ورد في الأصل ، ولعله تصحيف وصوابه : ويثبته .

(٨) «شرح الأسماء الحسنى» للإشيلي (٢٥٦/٢) .

(٩) «فقه الأسماء» (٢٥١) .

الأزل، فدبر أسباب كفاية الحاجات، بخلق الأطعمة والأقوات، في كل اللحظات، وتيسير الأسباب، والآلات، الموصلة إلى جميع المهمات^(١).

(٩) وهو المجيب تعالى: "سريع الإجابة"^(٢)، دائم (الاستجابة، الذي) لا يمل، ولا يبخل، فهو الكريم، لأن إجابته مطلقة، نصّ عليها سبحانه، مشروطة بالدعاء ظاهراً كان أو خفياً^(٣) (٤).

(١٠) وهو المجيب سبحانه: "الذي يجيب لكل من دعاه من برٍّ أو فاجر، بحسب الحالة المقتضية، وبحسب ما تقتضيه حكمته، وهذا يستدلُّ له على كرم المولى، وشمول إحسانه (لكل البرية) للبرِّ والفاجر"^(٥).

(١١) فهو تعالى نعم المجيب: الذي يستجيب لأنبيائه أحسن إجابة، إجابة تُطابق ما سألوا، لأن إجابته سبحانه ليست كإجابة غيره، فهي إجابة محققة، فهذه هي صفته لا تغير لها، قال عز شأنه: ﴿وَلَقَدْ نَادَيْنَا نُوْحًا فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُوْنَ﴾ [الصافات: ٧٥]^(٦).

(١٢) وهو المجيب ﷺ: الذي يسع (مهما) يسأل، فهو المغيث في الأنواء، والمعين في البأساء^(٨) (الضراء)، فيفرج كرباً، ويزيل غمّاً، ويغني فقيراً، ويفك أسيراً، وينعم على من لم يسأله، ويعافي من طلب العافية^(٩).

(١٣) فهو الخبير بوقت الإجابة، ومتى لا تكون الإجابة من حيث الظرف الزماني والمكاني، ومن حيث التقدير العام، فالله تعالى يعلم مصلحة الداعي فيقدر وقت الإجابة تأجيلاً، أو تعجيلاً^(١٠) بما تقتضيه المشيئة الإلهية المتعلقة بالمصلحة التي من أجلها دعا الداعي، فتكون

(١) «المقصد الأسنى» (١٠٦).

(٢) كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]، كما دلَّ التعقيب بد(الفاء) والتي تفيد الترتيب والتعقيب بدون مهلة.

(٣) كما قال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

(٤) «موسوعة أسماء الله الحسنى» ١. د. د. عقيل حسين (٢٠٣/٥، ٢٠٦).

(٥) «الحق الواضح المبين» (٦٥).

(٦) قال ابن عثيمين رحمه الله: «هذه الآية مؤكدة بثلاث تأكيدات: القسم، واللام، وقد».

(٧) انظر: «تفسير السعدي» (٧٠٥)، و«تفسير النسفي» (١٠٠٣)، و«نظم الدرر» (٣١٨/٦)، و«تفسير سورة الصافات» لابن عثيمين (١٧٤).

(٨) «الأسنى» (٢٣١، ٣٠٣).

(٩) «تفسير السعدي» (٢٣٨).

(١٠) كما قال ﷺ: «ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن تعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة...» «صحيح الترمذي» (٣٥٧٣).

الإجابة في وقتها أمراً نافذاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه^(١).

قال تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ﴾ [الأنعام: ٤١].

(١٤) وهو المجيب سبحانه: للمحتاج وغير المحتاج، فهو يسمع كل دعاء، ويعلم حال داعيه، فيجيبه بما شاء، وكيف يشاء، ومتى شاء^(٢).

(١٥) وهو الذي يسعف السائل بمقتضى فضله حالاً، ومقالاً (ومالاً)، بأن يعطيه مراده، وما هو أفضل منه، أو أسلم إذا صلح في علمه^(٣).

وإجابته ﷺ نوعان:

أولاً: إجابة عامة للداعين: مهما كانوا، وأينما كانوا، وعلى أي حال كانوا، كما وعدهم بهذا الوعد الصادق، المطلق، الذي لا يتخلف، قال عزّ شأنه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر]، وهذه إجابة عامة لكل من دعه، دعاء عبادة، أو دعاء مسألة.

ثانياً: إجابة خاصة:

أ) للمستجيبين له، المنقادين لشرعه، الخاضعين لعظمته، المنكسرة قلوبهم من أجله، المخلصين له في الدعاء والعبادة، ولهذا عقب ذلك سبحانه بقوله: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾، أي: فإذا استجابوا لي، أحببتهم، وهو المجيب أيضاً سبحانه إجابة خاصة للمضطرين، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

ب) ولكل من انقطع رجاءه من المخلوقين، وقوي طمعه، وتعلق قلبه، بالله رب العالمين، فما أسرع الإجابة لهذا، وكلما قويت حاجة العبد، وقوي طمعه بربه، حصل له من الإجابة، بحسب ذلك^(٤).

(١) «موسوعة الأسماء الحسنى» ٥٠١. عقيل حسين (٢١٥/٥).

(٢) انظر: «الأسنى» (٣٥٨)، و«موسوعة الأسماء الحسنى» (٢٢٨/٥، ٢٣٣).

(٣) «شرح أسماء الله الحسنى وفوائدها وخصائصها» (٧٤).

(٤) انظر: «فتح الرحيم الملك» (٤٤ - ٤٥)، «الحق الواضح» (٦٤ - ٦٥)، و«توضيح الكافية» (١٢٤).

﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن] قال ﷺ: «من شأنه أن يغفر ذنباً، ويفرّج كرباً، ويرفع قوماً، ويضع آخرين»^(١)، ويجبر كسيراً، ويغني فقيراً، ويشبع جائعاً، ويكسو عرياناً، ويشفي مريضاً، ويعافي مبتلى، وينصر مظلوماً، ويقصم جباراً^(٢)، فسأله كل أهل السموات والأرض على اختلافهم، وهو يسعفهم في مراداتهم، وهو الغني عنهم، فالملائكة تسأله ما لا حياة لها إلا به، من إعانته على ذكره، وشكره، وحسن عبادته، وتنفيذ أمره، والقيام بما جعل إليهم، من مصالح العالم العلوي، والسفلي، وتسأله أن تغفر لبني آدم.

والرسل تسأله أن يعينهم على أداء رسالاته، وتبليغها، وأن ينصرهم على أعدائهم، وبني آدم كلهم يسألونه مصالحهم، على تنوعها واختلافها، والحيوان كلّ يسأله رزقه، وغذائه، وقوته، وما يقيمه، ويسأله الدفع عنه، والشجر والنبات يسأله غذاءه، وما يكمل به.

والكون كله يسأله إمداده بقاءه، وحياته، فأكف جميع العوالم، ممتدة إليه بالطلب والسؤال، ويده مبسوطة بالعطاء والنوال، يمينه ملائ لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، وعطاؤه وخيره مبذول للأبرار، والفُجَّار^(٣)، يسمع دعواتهم على اختلاف لغاتها، وتباين جهاتها، وتنوع مطالبها، فيعطي كل أحد سؤاله، ولا يخيب آماله، إذا صدق وأخلص فيه لله تعالى وحده.

"والله ﷻ حكيم في إجابته، قد يُعَجِّل أو يُؤَجِّل، على حسب السائل والسؤال، أو يلطف بعبده، فيختار له ما يناسب الحال، أو يدخر ما ينفعه عند المصير والمآل"^(٤)، لكن الله تعالى يجيب عبده، كما وعد سبحانه وعداً صدقاً، لا يتخلف أبداً، ولا يخيب ظن عبده به مطلقاً.



(١) صححه الألباني في «صحيح موارد الظمان» (١٤٧٨)، وفي «السنة» لابن أبي عاصم (١٣٠)، و«صحيح ابن ماجه» (٢٠٢).

(٢) «الوابل الصيب» (٦٢).

(٣) «شفاء العليل» (٩٩٦/٣).

(٤) «أسماء الله الحسنى» للرضواني (٤٨٢).

جلال المجيب

الأول: إن إجابته فضلٌ وإحسانٌ، ليست كإجابة الأنام، الذي يغضب عند السؤال، والله يغضب إن لم يُطلب منه النوال، قال ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه»^(١)، بل يُكرم من يسأله ويلوذ به في كل حال، قال رسول الله ﷺ: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء»^(٢)، "فلا يتبرّم بالاحاح الملحّين، وكثرة الداعين على الدوام، فلا يشغله سمعٌ عن سمعٍ" (٣). في كل آن.

الثاني: ومن جلاله: أنه "يقابل مسألة السائلين بالإسعاف، ويوصلهم إليهم ما يمكنه بالإلطف، بل ينعم عليهم قبل النداء، ويتفضل عليهم قبل الدعاء، وليس ذلك إلا لربّ الأرض والسماء" (٤).

الثالث: ومن جلال المجيب سبحانه: أنه "يلهم عبده الدعاء ثم يجيبه، ويسر عليه العمل ثم يثيبه" (٥)، فما أعظمك يا الله، وما أجلك من مجيب، وأنت الغني عن كلّ العبيد.

الرابع: ومن جلال إجابته تعالى لأوليائه: "أنه يجعل حوائجهم في سبل قضائه، ويقىض أدعيتهم في مجاري مشيئته، حتى أن أحدهم إذا عنّ له دعاء نظر إلى قلبه، فإن وجد العلامة التي جعل بينهم وبينه، وهي: عزمة منه لهم يوحياها إلى قلوبهم، يعطيهم بذلك من عنده ما يشاؤون، كما شاء لهم أن يشاؤوا، والله واسعٌ كريم سبحانه" (٦).

الخامس: ومن جلال إجابته: أنه يستجيب الدعاء حتى من الكافرين، إذا أخلصوا له في الدعاء، ولم يكونوا قبل ذلك قد عرفوه في ساعة ولا حين، قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَحَثْنَهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

السادس: ومن جلال المجيب سبحانه: أنه يهتف إليه في كل الساعات الداعون والسائلون من كلّ الأجناس، والأعراق، والبلاد، على اختلاف اللهجات، ونبرات الأصوات، وتسارع

(١) «صحيح الترمذي» (٣٣٧٣).

(٢) «صحيح ابن ماجه» (٣٨٢٥).

(٣) «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» (٣/١).

(٤) «شرح أسماء الله الحسنى» للبيضاوي (٢٦٦) بتصرف يسير.

(٥) «درء تعارض العقل والنقل» (١٤/٤).

(٦) «شرح الأسماء الحسنى» للإشبيلي (٢٥٦/٢).

اللحظات ، وتغير الأوقات ، فلا تختلط عليه مسائلهم ولا أمانهم ، فيعطي منهم ما شاء ، بما يشاء ، وكيف شاء .

السابع : ومن جلاله : أن العبد إذا لم يدعو بلسان المقال لعلّة ما ، استجاب الله لما في لسان حاله ، فيعطيه سؤله وأمانيه ، لأنه تعالى يعلم المخفي المكنون في الصدور ، "فهو سبحانه العليم بالشيء ، وأسبابه ، والحاجة ومشبعاتها من ملكه" (١) .

الثامن : ومن جلاله : أنه تعالى "أنه ضَمِنَ لك الإجابة فيما يختاره لك ، لا فيما تختاره لنفسك ، وفي الوقت الذي يريد ، لا في الوقت الذي تريد" (٢) ، لأنه تعالى أحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين ، فهو أرحم بك من نفسك ، فاختره سبحانه لك هو الأنجح والأفضل مما تطلبه ، فادعُه وأنت موقنٌ بالإجابة منه .

الثمرات

إن هذا الاسم الكريم يورث العبد محبته تعالى ، والتعلق به ، مما يقوي رجاءه بربه ، ويعظم الطمع فيما عنده ، والتضرع بين يديه ، ويذهب عنه داء القنوط من رحمته ، واليأس من رَوْحه سبحانه ، ويزيد الأمل والشوق فيما عنده ، فإذا تحقق ذلك : فينبغي له أن ينزل حاجاته به ، ويعظم رغبته ، وسؤاله من خيرات الدنيا ، والآخرة ، في حاله ، وأنه ، فكلما عظمت ثقة العبد بربه سبحانه ، وحسن ظنه به ، كانت الإجابة أسرع وأقرب ، قال الله تعالى في الحديث القدسي : «أنا عند ظنّ عبدي بي ، وأنا معه إذا دعاني» (٣) ، ومن مقتضى هذا الاسم أن يكون المؤمن مجيباً لربه فيما أمر به ، ونهاه عنه ، حتى يتشرف بالوعد الصادق العظيم منه سبحانه ، الذي لا يخلف ، بقوله : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] .

فانظر وتأمل رعاك الله أنه تعالى هو "الذي ابتدأ العباد بالإجابة ، (قبل سؤالهم له) فلا أعظم ، ولا أكرم من هذا العرض على العباد ، فسبحان من انفرد بإجابة الداعين ، وتنفيس كرب المضطرين ، الذي من شأنه سبحانه النوال قبل السؤال" (٤) ، ويعطي فوق ما انتهى الآمال .

(١) «موسوعة الأسماء الحسنى» د. عجيل حسين (٢٠٤/٥) .

(٢) «شرح أسماء الله الحسنى» للبرنسي (٧٤) .

(٣) «البخاري» (٧٤٠٥) ، «مسلم» (٦٨٠٥) .

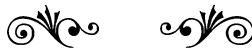
(٤) «منهج ابن القيم في شرح الأسماء الحسنى» (٤٥٦) .

واعلم يا عبد الله أنك إذا "أجبت دعاءه ، أجاب دعاءك ، قال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ [الأنفال: ٢٤]" (١) .

ثم اعلم يا رعاك الله تعالى : "أنَّ للإسعاف والاستجابة أسباباً ، منها : ما يرجع إلى حال الداعي ، ومنها ما يرجع إلى المدعو فيه ، ومنها ما يرجع إلى الزمان والمكان ، وكذلك الموانع من الاستجابة لا تكاد تنحصر" (٢) .

وإذا دعوتَه تعالى فادعُه بحالة الاضطراب ، ورؤية الافتقار ، فذلك أكمل لتوحيدك ، وأولى بمقامك ذاك ، وأقرب إلى الثقة منك به ، والاستقامة إليه والركون ، واعزم في المسألة ، فإنه سبحانه لا مكره له (٣)(٤) .

ومن عبودية هذا الاسم الكريم : أن يكون العبد مجيباً لدعوة أخيه المؤمن إذا دعاه ، قال ﷺ : «للمؤمن على المؤمن ستُّ خصال ، [فذكر منها] ويجيبه إلى دعاه» (٥) ، وقال ﷺ : «لو دعيت إلى كراع لأجبت ، ولو أهدي إليّ ذراع لقبلت» (٦) ، وإذا سألك أحدٌ من العباد ، فما استطعت ، فأجبه بحسن الكلام وخياره ، ولا تزجره ، قال تعالى : ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى : ١٠] ، وقال سبحانه : ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ [البقرة : ٢٦٣] .



(١) «شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (٢٨٢) .

(٢) «الأسنى» (٢٩٣/١) .

(٣) كما قال ﷺ : «إذا دعا أحدكم فليعزم في الدعاء ، ولا يقل : اللهم إن شئت فأعطني ، فإن الله لا مكره له» البخاري (٦٣٣٨) ، ومسلم (٢٦٧٨) .

(٤) «شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان (٢٦٢/٢) .

(٥) «البخاري» (٢٧٣٧) .

(٦) البخاري (٥١٧٨) .

٢٣-٢٤-٢٥ الله ﷻ الملك، المليك، المالك ﷻ جل وعلا

قال تعالى: ﴿فَنَعْلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [طه: ١١٤].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّ الْتَّقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ﴿٥٦﴾ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ ﴿٥٧﴾﴾ [القمر]

قال ﷻ: «إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله ﷻ» (١).

المعنى اللغوي

المُلك: صفة مشبَّهة للموصوف بالملك .

والمليك: من صيغ المبالغة على وزن (فعليل) .

والملك: اسم فاعل ، وهذه المادة لها عدَّة معانٍ:

الأول: أن أصله: الربط والشدُّ، أي: يدلُّ على قوة في الشيء ، وصحة ، ومنه قولهم: "ملكت العجين أملكه ملكاً": إذا أحكمت عجنه وشددته ، حتى اختلط وتماسك بعضه ببعض .

الثاني: العزُّ والسلطان والعظمة ، وملك الله تعالى وملكوته: سلطانه ، وعظمته ، وعزته ، يقال: "لفلان ملكوت العراق" ، أي: عزّه ، وسلطانه ، وملكه .

الثالث: احتواء الشيء ، والقدرة على الاستبداد به ، وتملكه ، أي: ملكه قهراً ، "وأملكه الشيء ، وملكه إياه": إذا جعله ملكاً له .

الرابع: قوام الشيء ، ونظامه ، وخلاصته ، وما يعتمد عليه فيه ، ومنه يقال: "القلبُ ملك الجسد" .

الخامس: التدبير ، والإصلاح ، وإحكام التصرف من جميع الوجوه ، ومنه: "ملكت كُفِّي بالطنع": إذا أحكمت التصرف فيه: واستوليتُ بالمعرفة والقدرة عليه .

السادس: الطريق الجادة ، وملك الطريق: وسطه ، لأنه هو المتحكم دون غيره . والمالك للشيء

موثوق منه محكم لأمره أن يخرج عن يده ، فلا يمكن أحداً إدخال يده معه ، ولا التصرف فيه .

فالله ﷻ له إحكام الأمور ، وله التدبير في كل شيء ، لا يمكن أحد الخروج عما يريد^(١) .

وملك الله تعالى : "عبارة عن مُلكه المبدع ، وصُنعه المخترع ، وهو عبارة عن الوجود كله ، علوه وسفله ، الذي هو خزانة ملكه"^(٢) ، الذي يتصرف فيه : كما شاء ، وكيف شاء ، ومتى شاء .

✽ الفرق بين هذه الأسماء :

أن المالك : هو صاحب المِلك ، أو من له ملكية الشيء ، المتصرف بفعله ، ولا يلزم أن يكون له الملك ، فقد يؤثر الملك على المالك وملكيته ، فيحجر على ملكيته ، أو ينازعه فيها ، أو يسلبه منها .

والملك : فهو أعمُّ من المالك ، لأنه غالب قاهر فوق كل مالك ، فهو النافذ المتصرف في ملكه بفعله ، وأمره ، ونهيه ، إذ ليس كل مالك ينفذ أمره ، وتصرفه فيما يملكه ، ولذلك فهو يختص بسياسة الناطقين ، ولهذا يقال : ملك الناس ، ولا يقال ملك الأشياء ، فالملك أعم من المالك ، وأبلغ في إفادة المعنى^(٣) .

والمليك : من صيغ المبالغة ، في إثبات كمال الملكية والملك معاً ، وهو المالك العظيم الملك ، فهو اسم يدل على العلو المطلق للملك في ملكه ، وملكِيته ، فله علو الشأن ، والقهر ، والفوقية في وصف الملكية على الدوام ، أزلاً وأبداً^(٤) ، فهذا الاسم الجليل يشمل معنى الملك ، والمالك^(٥) .

وعلى هذا فالمليك : أكثر مبالغة من الملك ، والملك أكثر مبالغة من المالك ، فاجتماعها تدلُّ على كمال ملك الله الذاتي ، والفعلي .

(١) «النهاية» (٨٨٢)، و«اللسان» (٤٢٦٦/٦)، و«الصحاح» (١٠٠٢)، و«تفسير أسماء الله» (٣٠)، و«اشتقاق أسماء الله» (٤٣)، و«عمدة الحفاظ» (١٠٩/٤)، و«المعجم الوسيط» (٩٢٤)، و«شرح الأسماء الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (٣٠١/١)، «الأسنى» (٤٣٩)، و«تلخيص الأدلة لقواعد التوحيد» (٥٨٩/٢) .

(٢) «الأسنى» (٤٤٠) .

(٣) «بدائع الفوائد» (٩٧٢/٤)، و«تفسير الأسماء» (٣٠)، و«أسماء الله الحسنى، دراسة تصنيفية» د. عادل محمود آل سدين مكي (٢٨٧)، و«أسماء الله الحسنى في فواصل القرآن» (١٠٤/٦) .

(٤) انظر : «زاد المسير» (١٠٤/٨)، و«القرطبي» (٢٤٨/١١)، و«روح المعاني» (١١٣/٩)، و«شرح الأسماء» للرضواني (٥٣٩) .

(٥) «شرح الأسماء الحسنى» للرازي (١٨٨)، و«الأسماء الحسنى» للرضواني (٥٤٠) .

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الملك المليك المالك، الذي لا يشدُّ عن ملكه شيء من الأكوان:

(١) فهو تعالى مالك لكل مملوك^(١)، ومالك الملوك، والملكوت، وكل الأملاك.

(٢) فهو سبحانه ملك جميع الموجودات، ومالكها، ومليكها، ومالك ملكها، وفي يده ملكوتها، سبحانه هو الله الواحد القهار^(٢)، قال ﷻ: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣].

(٣) فهو سبحانه له الملك كله، وله الحمد كله، أزمنة الأمور كلها بيده، ومصدرها منه، ومردُّها إليه، وهو مستوٍ على عرشه، فوق جميع خلقه.

(٤) فهو الملك الحق المبين: ملكاً قاهراً قد دانت له الخليقة، وعنت له الوجوه، وذلت لعظمته الجبابرة، وخضع لعزته كل عزيز، ملكاً سبحانه على العرش السماء مهيمناً، على سرير مملكته مستوياً، يرسل إلى أقاصي مملكته بأوامره، فيصرف أمور عباده كما يحب، ويقلبهم كما يشاء.

(٥) ومن تمام ملكه سبحانه: أنه متفرَّد بتدبير المملكة، يسمع ويرى، ويعطي ويمنع، ويثيب ويعاقب، ويكرم ويهين، ويخلق ويرزق، ويأمر وينهى، ويميت ويحيي، ويقدر ويقضي.

(٦) ومن كمال ملكه تعالى: أن سلطانه نافذٌ في السماوات وأقطارها، وفي الأرض وما عليها وما تحتها، وفي البحار والجو، وفي سائر أجزاء العالم وذراته، يقلبها ويصرفها، ويحدث فيها ما شاء.

(٧) فهو الملك سبحانه: الذي يداول الأيام بين الناس، ويقلب الدول، فيذهب بدولة، ويأتي بأخرى، والرسل من الملائكة عليهم الصلاة والسلام بين صاعدٍ إليه بالأمر، ونازلٍ من عنده.

(٨) ومن كمال ملكه تعالى: أن أوامره ومراسيمه متعاقبة على تعاقب الأحوال، والأزمان، نافذةٌ بحسب إرادته في الأكوان، فما شاء كان كما شاء في الوقت الذي يشاء، على الوجه الذي يشاء، من غير زيادة ولا نقصان، ولا تقدُّم ولا تأخر، في أيَّ آن.

(١) «الأمَد الأقصى» (٣٢٤/١).

(٢) «الوامع البينات» (١٨٩).

(٩) فهو المتصرف في الممالك كلها وحده، تَصَرَّفَ مَلِكٌ قَادِرٌ، قاهر، رحيم، تامَّ الملك، لا ينازعه في ملكه منازع، ولا يعارضه فيه معارض، فتصرفه في المملكة دائر بين العدل، والإحسان، والحكمة، والمصلحة، والرحمة، لا تتحرك ذرة في ملكه إلا بإذنه، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه^(١) ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي يَدِيرُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [س].

(١٠) فهو الملك المطلق الحق سبحانه: الذي يستغني في ذاته، وصفاته عن كل موجود، بل لا يستغني عنه شيء في شيء، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في وجوده، ولا في بقائه، بل كل شيء فوجوده منه، أو مما هو منه، وكل شيء سواه فهو مملوك في ذاته، وصفاته، وهو مستغني عن كل شيء سبحانه^(٢).

(١١) وهو سبحانه مالك: الملوك والملاك يصرفهم تحت أمره ونهيه كما يجب، وتقليبهم كما يشاء، فلا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع.

(١٢) فهو تعالى تامُّ الملك، جامع لأصناف المملوكات، وهو يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، ويعزُّ من يشاء، ويدلُّ من يشاء^(٣)، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلُوكَ مَن تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلُوكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

(١٣) وهو الملك الحق التام لكل الأكوان: مالك للصفات والأعيان، والمنافع والأفعال، الذي لا يخرج عن ملكه إنس ولا جان، ولا شيء من الأشياء بأي حال، ولا لغيره ملك مفرد، ولا شريك في ملك، ولا معاونة له بوجه من الوجوه، في كل الأزمان^(٤).

(١٤) فهو سبحانه الملك: الذي لا ملك فوقه ولا شيء دونه، فلا يتوهم ملك يدانيه، فضلاً عن أن يفوقه، وهو الذي أبدع الخلق، فلا يكون أحقُّ بما أبدع منه تعالى، ولا أولى بالتصرف فيه منه سبحانه، وقد استحقَّ الملك بإبداعه، وإيجاده لهم، ولا يخشى أن ينتزع منه، أو يدفع عنه ﷻ^(٥).

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٢٢٨)، و«شفاء العليل» (٦٥٢/٢)، و«الوابل الصيب» (٨٧)، و«كتاب الصلاة» (١٧٤)، و«بدائع الفوائد» (٢٤٩/٢).

(٢) «المقصد الأسنى» (٦٤).

(٣) انظر: «تفسير الأسماء» (٦٢). و«شأن الدعاء» (٤٠)، و«بيان تلبيس الجهمية» (٥١٣/١)، و«الحق الواضح» (١٠٤).

(٤) «درء تعارض العقل والنقل» (٣٩٠/٧) بتصرف.

(٥) انظر: «تفسير الطبري» (٣٦/٢٨)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (٨١/١).

(١٥) وهو تعالى الملك: الذي له الملك كله مطلقاً دائماً في الدنيا والآخرة، وهو: السيادة العامة للخاص والعام، والسيادة العامة بركניהها: دفع الشرور، وجلب الخيور، الجالب للسرور والحبور، من الإبداع والإعدام: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التغابن: ١]^(١).

(١٦) وهو ملك الملوك تعالى، ومالك الدنيا والآخرة، لا يمانع في عطاء، ولا يغالب في قضاء، ولا يعارض في حكم، ولا يناهض في منزلة، ولا يناقض في أمر^(٢).

(١٧) فملكه العظيم الذي هو من: "العرش العظيم وما تحته، وما أحاط به من العلا إلى المنتهى كله، مزوم في مسكه المقدار، لشمول القدر، وعموم الأحكام والتدبير"^(٣).

(١٨) فملك الله هو عبارة: عن السلطان القاهر، والاستيلاء الباهر، والغلبة التامة، والقدرة النافذة على التصرف الكلي في أمور العامة: بالأمر والنهي، وأمور الخاصة: بالرعاية والعناية^(٤).

(١٩) والله تعالى مالك المالكين كلهم، والمُلاك استفادوا التصرف في أملاكهم من جهته تعالى^(٥)، فأَيُّ ملك من الخلق فإنما هو ملك بتمليك الله إياه، فغير الله مَلَكٌ مُمَلَّكٌ، فأما الله ﷻ فملك بذاته^(٦)، ليس مكتسب من غيره سبحانه.

(٢٠) وهو سبحانه ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، أي: أن الله الملك يوم الدين خالصاً دون جميع خلقه الذين كانوا قبل في الدنيا ملوكاً جابرة ينازعونه الملك، فخصه بالذكر لأنه في هذا اليوم يظهر للخلق تمام الظهور كمال ملكه وعدله وحكمته، وانقطاع العلائق بين الملاك والأملاك بين الخلائق بالكلية^(٧).

(٢١) فهو تعالى ملك السموات والأرض وما فيهما، يتصرف فيهما في حكمه الشرعي،

(١) «نظم الدرر» (٤/٨).

(٢) «شرح أسماء الله» لأبي الحكم الإشبيلي (٣١٨/١).

(٣) انظر: «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان (٨٠/١).

(٤) ينظر: «تفسير البروسوي» (١٥/١).

(٥) «تفسير الأسماء» (٣٠).

(٦) «تلخيص الأدلة» (٥٨٩/٢).

(٧) «تفسير الطبري» (٦٥/١)، و«السعدي» (٣٩)، و«تفسير روح المعاني» (١٥/١).

وفي حكمه القدري في هذه الدار، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٤٢]، وفي حكمه الجزائي في دار القرار، قال عزَّ شأنه: ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ يَكْمُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: ٥٦] (١).

(٢٢) فهو تعالى الملك: الأعظم، المحيط بأهل مملكته: علماً، وقدرة، وسياسة، وحفظاً، ورعاية (٢)، لا يعتريه في ملكه عبث، ولا خطأ، ولا سفه، "ولذلك قال وقوله الحق: ﴿فَنَعْلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [طه: ١١٤].

فبدأ بتنزيه ذاته المقدسة سبحانه، وكذلك قوله: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣] (٣).

(٢٣) فهو الذي أبدع ملكه، وأتقن صنعه، على غير مثال سبق، بأحسن خلق، ونظام وبهاء، لا تقترح عقول الأبواب مثله، وليس له في خلقه مشارك، قال سبحانه: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٠١] (٤).

(٢٤) ومن كمال ملكه وتماحه: أنه سبحانه الظاهر بعزِّ سلطانه، فهو الملك حقيقة، الذي يستغني في ذاته العُلِّيا، وصفاته، وأسمائه الحسنى، المتصَّرف في أكوانه بأفعاله التمام الهدى، عن كل ما سواه، ويحتاج إليه كل من في سماواته وأرضه، فالوجود لغيره به كان أولاً، والبقاء منه ثانياً، والصفات إليه فيه ثالثاً، فكل شيء سواه، فهو: مَلِكٌ مفتقر في كل شيء: في وجوده، وبقائه، مسخر لحكمه، وقضائه (٥).

* * *

(١) «تفسير السعدي» (٥٧٠).

(٢) «نظم الدرر» (٢٢٧/٥).

(٣) «الأسنى» (٤٤٤).

(٤) انظر: «تفسير السعدي» (٢٦٧)، و«تفسير روح البيان» (١٥/١).

(٥) ينظر: «شرح مصابيح السنة» (٤٩/٢)، و«شرح الأسماء الحسنى» (١٨٧) كلاهما للبيضاوي، و«الأمَد الأقصى» (٣٢٩/١).

جلال الملك المليك المالك

الأول: من جلال هذه الأسماء الكريمة: "أنها من أمّهات الأسماء، وهي تحتوي على معاني أكثرها، أو على كلّها، فليس في الأسماء ما يُعارضها، ولهذا انفرد سبحانه بها اسماً (ومعنى، وعُلاً، وجلالاً، وكمالاً لا ينتهي، والتي منها):

أحدها: وجود افتقار الملك إليه وحده.

والثانية: أن ملك كل ملكٍ منه تعالى.

والثالثة: أنه المملك لغيره السالب له.

والرابعة: أنه يعزُّ من يشاء، ويذلُّ من يشاء، ويستحيل عليه الإذلال.

والخامسة: أنه يقول للشيء: كن فيكون.

والسادسة: ثبوت الملك له قبل وجود الملك والمملوك.

والسابعة: استغناؤه عن الأعوان.

والثامنة: عموم الملك في الدنيا والآخرة.

والتاسعة: أن جنده لا يُحصون كثرةً وقوّةً.

والعاشرة: أن ملكه لا يبيد، (وليس له مضادٌّ من عنيدٍ ولا عتيد).

والحادية عشر: أن العقول تحيل الشركة عليه.

والثانية عشر: إحاطته بملكه إحاطة لا يغيب عنه دقيق ولا جليل.

والثالثة عشر: أنه يَقْضِي ولا يُقْضَى عليه.

والرابعة عشر: أنه المنفرد بالعزِّ والسلطان، لا يشاركه فيه أحدٌ من الأنام^(١).

والخامسة عشر: أنه يولي ويعزل، ولا يتوجه عليه العزل.

والسادسة عشر: أن الإنفاق إليه، ولا يُرزق، ويُطعم ولا يُطعم.

(١) انظر: «الأسنى» (٤٥٠)، و«الأمد الأقصى» (٣٣٠/١).

والسابعة عشر: أنه يضرُّ وينفع ، ولا يتوجه إليه الضرر والنفع .

والثامنة عشر: أنه يحرس ولا يُحرَس .

والتاسعة عشر: أن العرض عليه ، والثواب والعقاب إليه ، والعفو لا يُرجى إلا لديه^(١) .

والعشرون: أن ملكه واسع لا يمكن حصره أو الإحاطة به .

والحادية والعشرون: أن ملكه لا ينقص ولا ينفد منهما أعطى وأسبغ .

والثانية والعشرون: أن ملكه لا ينازعه فيه أحد .

الثاني: من جلال ملكه تعالى: أنه مقارنٌ لحمده في كل الأحوال والأوقات ، قال تعالى: ﴿لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ﴾ [التغابن: ١] ، فالملك والحمد في حقّه متلازمان ، فكل ما شمله ملكه وقدرته ، شمله حمده ، فهو محمود في ملكه ، وله الملك والقدرة مع حمده ، فكما يستحيل خروج شيء من الموجودات عن ملكه وقدرته ، يستحيل خروجها عن حمده وحكمته .

فإن الملك بلا حمد يستلزم نقصاً ، والحمد بلا ملك يستلزم عجزاً ، والحمد مع الملك غاية الكمال والجلال ، فوسط الملك بين الجمليتين فجعله محفوظاً بحمد قبله ، وحمد بعده ، ولهذا يحمد سبحانه نفسه عند خلقه ، وأمره ، لينبّه عباده على أن مصدر خلقه وأمره ، عن حمده ، فهو تعالى محمود على كل ما خلقه ، وأمر به حمد شكر ، وعبودية ، وحمد ثناء ، ومدح^(٢) ، فدلّ على أنه تعالى محمود على ملكه ، في الأرض والسموات ، على الآباد ، لكماله المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات ، ونزاهته عن كل النقائص والآفات .

الثالث: ومن جلال ملكه سبحانه: أن ملكه حقٌّ ثابت ، دائم بدوامه ، بلا زوال ، ولا انتقال ، بأي حال من الأحوال ، لا ينتقص بالعطاء والإنعام ، مهما أعطى وتفضل على الأنام ، بل يزداد ملكه عليهم على قدر الإحسان على طول الأزمان^(٣) .

(١) «الأمد الأقصى» (٣٣٠/١) .

(٢) انظر: «شفاء العليل» (٦٠٩) ، «طريق الهجرتين» (٢٣٠) ، «بدائع الفوائد» (٨٧/١) .

(٣) قال الإمام الرازي رحمه الله: "أنه تعالى ملك لا يشبه سائر الملوك ، لأنهم إن تصدقوا بشيء انتقص ملكهم ، وقلّت خزائنها ، أما الحق ﷻ فملكه لا ينتقص بالعطاء والإحسان ، بل يزداد بيبانه: أنه تعالى إذا أعطاك ولدًا واحدًا لم يتوجه حكمه إلا على ذلك الولد الواحد ، أما لو أعطاك عشرة من الأولاد كان حكمه وتكليفه لازماً على الكل ، فثبت أنه تعالى كلما كان أكثر عطاء كان أوسع ملكاً" «تفسير الرازي» (٢٤٣/١) .

فلم يكن له شريك في ملكه ، ولا وليٌّ ، ولا معين له فيه من أحدٍ من الخلق ، قال عزَّ شأنه : ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الفرقان : ٢] ، وصرف أموره فيه بالحكمة ، والعدل ، والحق ، قال تعالى : ﴿فَنَعَلَى اللَّهِ الْمُلْكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون : ١١٦] .

الرابع : ومن جلال الملك تعالى : أن كل يوم هو في شأن عظيم ، وخطب جليل في تصريف أملاكه كيف يشاء ، "من إحداث أعيان ، وتجديد معانٍ ، أو إعدام ذلك" ^(١) ، في أيَّ آن ، قال تعالى : ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن : ٢٩] ، وقال ﷺ : «من شأنه أن يغفر ذنبًا ، ويكشف كربًا ، ويجيب داعيًا ، ويرفع قومًا ، ويضع آخرين» ^(٢) .

الخامس : ومن جلال ملكه سبحانه : أنه ينزل في كل ليلة من ملكه الأعلى إلى ملكه الأدنى يتعرض إلى خلقه في إعطاء سؤلهم وأمانهم ، قال ﷺ : «ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول ، فيقول : أنا الملك ، أنا الملك ، من ذا الذي يدعوني فأستجيب له» ^(٣) .

السادس : ومن جلال ملك ربنا عز شأنه : أنه "لا ينازعه معارض ، ولا يمانعه مناقض ، فهو بتقديره متفرد ، وبتدبيره متوحد ، ليس لأمره مرد ، ولا لحكمه رد" ^(٤) .

السابع : ومن جلال ملكه سبحانه : أنه يضع في يوم القيامة أكوانه العلوية والسفلية وما فيهما من مخلوقات عظيمة على أصابعه الكريمة "يهزها استخفافاً لهذه المخلوقات ، واستصغاراً لها" ^(٥) .

الثامن : من جلال الملك سبحانه : أنه يشتري مُلكه بملكه ، فهو تعالى يشتري ملكه من الأنفس ، والأموال بملكه ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَدِّمُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ

(١) «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» (٣٨٦/٧) .

(٢) رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (٣٠١) وصححه الألباني ص ١٣٠ ، وفي «صحيح موارد الظمان» (١٤٨٧) .

(٣) مسلم (٧٥٨) .

(٤) «شرح الأسماء» للرازي (١٨٩) .

(٥) «شرح كتاب التوحيد» لعبد الله الغنيان (٥١٧/٢) . فقد جاء خبر من اليهود إلى النبي ﷺ فقال له : (يا أبا القاسم ! إن الله تعالى يمسك السموات يوم القيامة على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والجبال والشجر على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، ثم يهزهن فيقول : أنا الملك ، أنا الملك) فضحك رسول الله ﷺ تعجباً مما قال الخبر ، تصديقاً له ، ثم قرأ : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا بِيَضِّئِهِ يَوْمَ الْعِيمَةِ وَالسَّكُونُ تُطَوِّتُ بِسَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَعَنَلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر : ٦٧] . البخاري (٤٨١١ ، ٧٤١٤) ، ومسلم (٢٧٨٦) .

وَالْقُرْآنَ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبِشِرُوا بِيَعِيكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾
[التوبة: ١١١] .

التاسع: ومن جلال ملك ربنا تعالى: أنه "ملك لا تقدر الأوهام قدره، ولا تبلغ الألسن وصفه، (له) تمكن الملك والسلطان، وكثرة الأفضال"^(١).

العاشر: ومن جلال ملك ربنا عز شأنه: أنه "ملك الأرواح، وييده زمامها، وقهر الأشباح، فأحوجها إليه، الكلُّ إليه فقراء، وهو الملك الذي يفعل ما يشاء، من ادَّعى الملك معه حاربه، ومن عرف أنه لا ملك له مع سيده خصَّه بنعمه، امتحن الله العباد فأعطاهم الدار والعقار، فاغترُّوا"^(٢) بهذه الدار، وغفلوا عن دار القرار .

الثمرات

يجب على كلِّ مكلف أن يعلم أن الله تعالى هو الملك الحق المبين، وحده لا شريك له، فينبغي له أن ينزل نفسه منزلة المملوك لملك هو ملك الملوك، وجبار الجبابرة، ومالك الدنيا والآخرة، ويعتبر في ملكوته، ويستدل على وحدانيته بما أظهر من ملكه وقدرته^(٣).

وإذا كان ربنا ﷻ هو ملك الملوك، لا ينازعه فيه منازع، ولا يشاركه فيه مشارك، فإن ذلك يوجب لنا أن يكون هو تعالى ملاذنا، ومعاذنا، ورجاءنا، فلا غنى لنا عنه طرفة عين في كل أحوالنا، فينبغي لنا أن نوحده تعالى في كل شؤوننا، وأمورنا.

"فلا ينبغي أن يدعى، ولا يخاف، ولا يرجى، ولا يُحَبَّ سواه، ولا يُدَلَّ لغيره، ولا يُخضع لسواه، ولا يتوكل إلا عليه؛ لأن من ترجوه، وتخافه، وتدعوه، وتتوكل عليه، إما أن يكون مربيك، والقيم بأمورك، ومتولي شأنك، وهو ربك فلا ربَّ سواه، أو تكون مملوكه، وعبدك الحق، فهو ملك الناس حقاً، وكلهم عبيده، ومماليكه، أو يكون معبودك وإلهك الذي لا تستغني عنه طرفة عين، بل حاجتك إليه أعظم من حاجتك إلى حياتك، وروحك، وهو الإله الحق .

فمن كان ربهم وملكهم، وإلههم فهم جديرون ألا يستعينوا بغيره، ولا يستنصروا سواه، ولا

(١) «الأسنى» (٣٠٠).

(٢) «موسوعة الشرباصي» (٤٢/١).

(٣) ينظر: «شرح الأسماء الحسنی» لأبي الحكم (٣١٨/١).

يلجؤوا إلى غير حماه^(١).

فإذا علم العبد ما لله من المُلْك والمَلِك، فحقّه ألا يُشحَّ بما ملكه على طريق الوديعة، وأن يكون سمح السجّية، والطبيعة، وإنما استخلف على ما ملك أياماً قليلة، فإن ردها إلى مالِكها أحسن ردّ، عاد إليه أشرف ملك، ونال عوضاً منها، أرفع ملك^(٢)، في جنة الخلد ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نِعِمًّا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠].

فاعمل يا أخي لملك دائم لا يفنى في جوار ملك رحيم، لمقتدر لا يلحقه حول ولا زوال، فعليك بما يبقى ويدوم، ودع عنك ما يفنى ويزول، فإنما أنت بغدك ولست بيومك، وكأن ما هو الآن لم يكن، وكأن من لم يكن قد كان^(٣).

فأسأله سبحانه دوماً أن يملكك الملك الدائم الذي لا يزول ولا يحول في جنات الخلد، قال ﷺ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نِعِمًّا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠]^(٤).



(١) «بدائع الفوائد» (٢/٢٤٨).

(٢) «الأسنى» (٤٥٢).

(٣) «شرح الأسماء الحسنى» للإشبيلي (١/٣٢٠).

(٤) عن المغيرة بن شعبه رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «إنَّ موسى عليه السلام سأل ربّه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: رجلٌ يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة، فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: ربّ! كيف وقد نزل الناس منازلهم، وأخذوا أخذانهم؟، فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: رضيت ربّ، فيقول له: لك ذلك، ومثله، ومثله، ومثله، فقال في الخامسة: رضيت ربّ، فيقول: هذا لك عشرة أمثاله... الحديث. مسلم (١٨٩). في رواية: «فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثاله». البخاري (٦٥٧١) (٧٥١١)، ومسلم (١٨٦). وفي لفظ: «ألم ترض أن أعطيك مثل الدنيا منذ خلقتها إلى يوم أفنيها وعشرة أضعافه؟». صححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٧٠٤) (٤٩٤/٣)، وهذا أدنى وأقل منزلة في الجنة.

٢٦- الله ﷻ الصمد ﷻ جل ثناؤه

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝﴾ [الإخلاص] .

المعنى اللغوي

الصمد: صفةٌ مشبهةٌ للموصوف بالصمديّة، وهذا الاسم الكريم يدلُّ على عدّة معانٍ جليلة وشريفة ورفيعة وكثيرة، ولهذا كانت العرب تسمّي أشرافها بهذا الاسم العظيم، لاجتماع قصد القاصدين إليه، ولكثرة الصفات المحموده، والخصال الجليلة في المسمّى به^(١)، فيطلق على:

الأول: السيد العظيم المطاع، الذي لا يقضى دونه أمر.

الثاني: الذي يصمد ويقصد إليه في الحوائج، تقول العرب: "صمد فلاناً أصمد صمداً"؛ إذا قصد به، "وبيتٌ مصمودٌ ومصمدٌ"؛ إذا قصده الناس في حوائجهم.

الثالث: المصمت الذي لا جوف له، فلا يأكل ولا يشرب، ومنه يقال لسداد القارورة: الصّمد، "وشيء مصمد"، أي: صلب ليس فيه رخاوة، فعلى هذا يكون الصمد: الذي يمنع الكوائن من الفساد والاختلال.

الرابع: السيد الذي ينتهي إليه السؤدد في كل شيء، فلا سيد فوقه، ولهذا يقال لمن تناهى في الشرف: الصمد.

الخامس: الصمد: الصُّلبُ من الأماكن، قال أبو النّجم: "يُعَادِرُ الصَّمَد كظهر الأجل" (٢)، فعلى هذا المعنى: أن الباري سبحانه لا يتصور فيه توهم، فكيف أن يتعلق به تأثر؟!

السادس: هو الدائم والباقي، الذي لا زوال له.

السابع: وهو الذي لا يخرج منه شيء، ولا يدخله شيء، ومنه يقال للأملس من الحجر

(١) «الصواعق المرسلّة» (١٠٢٤/٣)، و«بدائع الفوائد» (٢٨٣/١).

(٢) الأجل: البعير الذي أصابت ظهره دبّة فتخرج منه عظم فتطامن موضعه، والراجز يصف مطراً أو سيلاً فيقول: إنه يمر بالصخر فيؤثر فيه وينحت فيه حزوفاً غائرة فتصير كظهر الجمل الأجل، انظر: «حاشية الأسنى» (١٧٩/١).

الذي لا يقبل الغبار: الصمد.

الثامن: ويطلق على: العالي الذي تناهى علوه، تقول العرب لما أشرف من الأرض: صمد، و"بناء مصمد"، أي: معلى.

التاسع: الرفيع في كل شيء، أي: الكامل في ذاته، وأوصافه، وأفعاله.

العاشر: ويقال: صمد لشرفه وتنأيه في ذلك.

الحادي عشر: المستغني عن كل شيء، المفتقر إليه كل شيء.

الثاني عشر: الذي لا تعتريه الآفات، ولا النقائص، ولا المعايب.

الثالث عشر: الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا معقّب لحكمه، وأمره^{(١)(٢)}.

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الصمد على الإطلاق "الذي له حقيقة الصمدية، وكمالها له وحده، واجبة لازمة"^(٣) فهو سبحانه:

(١) السيد الذي قد كُمل في سؤده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغني الذي قد كمل في غناه...، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه هذه صفاته، لا تنبغي إلا له^(٤).

(٢) فهو الذي تقصده الخلائق كلها، إنسها وجنّها، بل العالم بأسره العلوي والسفلي، بحاجاتها وملامّاتها الدقيقة، والجليلة، فجميع الكائنات فقيرة إليه بذاتهم، في إيجادهم، وإعدادهم، وإمدادهم، ليس لأحدٍ غنى عنه مثقال ذرة واحدة^(٥)، ولا لحظة، ولا خطرة، ولا حركة.

(١) «اللسان» (٢٤٩٥/٤)، و«الصحاح» (٦٠٠)، و«القاموس» (٧٥٣)، و«معاني القرآن وإعرابه» لأبي إسحاق الزجاج (٣٧٧/٥)، و«شأن الدعاء» (٥٨)، و«تفسير الطبري» (٢٢٢/٣٠)، و«تفسير البغوي» (٥٨٨/٨)، و«ابن كثير» (٧٩١/٤/٤)، و«تفسير سورة الإخلاص» (٣٥-٦٠)، و«بيان تلبس الجهمية» لابن تيمية (٢٧٣/١) (٤٦١/٣)، و«الأمد الأقصى» (٤٢٢/١)، و«الأسنى» (١٧٩/١)، و«نظم الدرر» (٥٨٩/٨)، و«شرح الأسماء الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (٩٩/١).

(٢) وكل المعاني السابقة ثبتت عن السلف، وكلها يصح أن يوصف به ربنا تعالى، كما ذكر ذلك «البغوي في تفسيره» (٣٢١/٧)، و«ابن كثير» (٥٧٠/٤) بعد أن ذكر قول الحافظ الطبراني في كتاب السنة.

(٣) «تفسير سورة الإخلاص» لابن تيمية (٦٣).

(٤) صح عن ابن عباس رضيهما، انظر: «التفسير الصحيح» (٦٨١/٤)، و«السنة» لابن عاصم (٤٦٢/١).

(٥) انظر: «تفسير ابن جرير» (٥٨٢/٧)، و«النهاية» (٥٢/٣)، و«تفسير ابن السعدي» (٦٢١/٥)، و«الكافية الشافية»

(٣) وهو تعالى الصمد: الذي تنزه وتقدس وتعالى عن صفات المخلوقين فمن ذلك:

(أ) أنه سبحانه الصمد الذي لا جوف له ، فلا يخرج منه شيء .

(ب) وهو الذي لا يأكل الطعام ، ولا يشرب الشراب ، بل هو يُطعم ولا يُطعم^(١) .

(ج) وهو الذي لم يلد ولم يولد ، فهو تعالى لم يتقدمه والد كان عنه ، ولم يتأخر عنه ولد يكون عنه^(٢) .

(٤) وهو الذي لا يموت ولا يورث: لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت ، وليس شيء يموت إلا سيورث ، والله تعالى لا يموت ولا يورث^(٣) .

(٥) وهو المعبود الذي لا تنبغي العبادة إلا له ، ولا تصلح لشيء سواه سبحانه .

(٦) وهو سبحانه الصمد: السيد المطاع الذي لا أحد فوقه ، الثَّافِذُ أمره في أرضه وسمواته ، لا يقضى دونه أمر ، إلا بإذنه .

(٧) وهو سبحانه الصمد: المستغني عن كل أحد ، المحتاج إليه كل أحد .

(٨) وهو الذي لا عيب فيه ، فلا يعتريه سبحانه النقائص ولا المذام ، ولا الآفات ، بوجه من الوجوه .

(٩) وهو الصمد تعالى: الدائم الباقي ، الذي لا يبلى ولا يفنى^(٤) ، وليس له حد ، ولا منتهى ، فهو سبحانه "لا يدركه فناء ، ولا لوجوده انقضاء"^(٥) .

(١٠) وهو تعالى الرفيع الشأن والقدر ، الكامل في جميع صفاته ، فهو واسع الصفات وعظيمها ، الذي لم يبق صفة كمال ، ولا حسن فعالٍ إلا اتصف بها ، بغايتها وكمالها^(٦) ، بحيث لا تحيط الخلائق كلهم ، من أولهم وآخرهم ، وإنسهم وجنهم ، بواحدةٍ منها ، قال تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] .

(١٢٦) ، و«مجموع الفتاوى» (٢٣٩/١٧) ، و«أضواء البيان» (١٨٧/٢) .

(١) «تفسير ابن جرير» (٢٢٢/٣) ، و«تفسير البغوي» (٥٨٨/٨) ، و«النهاية» (٥٢٦) .

(٢) انظر: «شرح الأسماء الحسنى» للإشبيلي (٩٨/١) .

(٣) كلا المعنيين صحَّ عن أبي بن كعب رضي الله عنه ، «صحيح الترمذي» (٣٣٦٤) .

(٤) «تفسير البغوي» (٥٨٨/٨) ، و«تفسير الطبري» (٥٨٣/٧) ، و«معاني القرآن» (٣٧٨/٥) ، و«تفسير القرطبي» (٤٦٧/١٠) .

(٥) «الأمد الأقصى» (٤٢٥/١) .

(٦) «بهجة قلوب الأبرار» (٢٩١) ، «فتح الرحيم الملك» (٣٧) ، و«تفسير البغوي» (٥٨٨/٨) .

(١١) وهو الصمد العالي: الذي تنهى علوه، له العلو المطلق من كل الوجوه: بعلو الذات، والتعالي في كل الصفات^(١).

(١٢) وهو الصمد: الذي يمنع الشيء من الفساد^(٢)، فلا حافظ للمخلوقات من الاختلال إلا هو تعالى، فتأمل السموات هل ترى فيها تفاوتاً، أو فطوراً، أو كسفاً، أو تهويراً^(٣)، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١]^(٤).

(١٣) وهو تعالى الصمد: الذي ليس كمثله أحد: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص]^(٥)، فليس له من خلقه نظير يساميه، أو قريب يدانيه^(٦).

(١٤) فهو الصمد: الذي لا كفو له تعالى في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أسمائه، ولا في أفعاله، ولا في ربوبيته، ولا في ألوهيته^(٧).

(١٥) وهو الصمد: الملجأ الذي لا يمكن الخروج عنه، لإحاطة أمره^(٨).

(١٦) وهو الصمد: الذي لا يتصور فيه توهم^(٩)، فكيف أن يتعلق به تأثر^(١٠).

(١٧) وهو سبحانه المصمود إليه في الحوائج، والنوازل، والنوائب، المقصود إليه في الرغائب، المستغاث به عند المصائب^(١١). وتلك دلالة على أنه المتناهي في السؤدد، والشرف، والكرم، وتفريج الكرب^(١٢).

(١٨) وهو الذي يحكم ما يريد، ويفعل ما يشاء، لا معقب لحكمه، ولا رادّ لقضائه^(١٣).

(١) «الأسنى» (١٨٦/١)، و«نظم الدرر» (٥٨٩/٨)، و«القاموس» (٧٥٣).

(٢) انظر المعنى اللغوي رقم (٣).

(٣) التهور: التهدم والسقوط. انظر: «الصحاح» (١١١٢).

(٤) «الأمد الأقصى» (٤٢٥/١).

(٥) صح عن ابن عباس ؓ، انظر «التفسير الصحيح» (٦٨١/٤).

(٦) «تفسير ابن كثير» (١٧٥٧).

(٧) «تفسير ابن رجب» (٦٧٦/٢).

(٨) «شرح أسماء الله الحسنى وفوائدها» (١٠٤).

(٩) انظر المعنى اللغوي رقم (٥).

(١٠) «الأمد الأقصى» (٤٢٥/١).

(١١) «إبطال التأويلات» (٦٦٨)، و«تفسير سورة الإخلاص» (٣٥) لابن تيمية.

(١٢) «شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان الإشبيلي (٩٨/١).

(١٣) «تفسير ابن رجب» (٦٧٢/٢)، و«تفسير الماوردي» (٣٧٢/٦).

جلال الصمد

الأول: أنه انفرد تعالى بصمديته في الوجود، من كل الوجوه، الذي تناهى سؤده، المطلق في كل شيء، إلى حد تنقطع دونه الآمال، فليس صمداً سوى الله تعالى^(١).

الثاني: أنه دالٌّ على جملة أوصاف عديدة لا تُحصى، ولا تُستقصى، فلا تختص بصفة معيّنة، فهو متعلق بالصفة من حيث دلالتها على الكثرة، والزيادة، والسعة، بحيث يدخل في معناه المعبر عنه، باللفظ الكثير من معاني أسماء الله تعالى، وصفاته العلية^(٢)، فهو يتضمّن جميع صفات الكمال، من نعوت العظمة والجلال، المستوجب لغايته على الكمال^(٣).

الثالث: ومن جلال صمديته سبحانه: أنه تقدّس ذاته عن إدراك الأبصار والعيون، وتنزّه جلاله عن أن يدخل تحت الشرح والبيان.

الرابع: ومن جلاله تعالى: أنه لا يتصف بصفة أحد، ولا يتصف بصفته (أي) أحد.

الخامس: ومن جلال الصمد: أنه أيس الخلق من الاطلاع على كنه (صمديته)، وعجزت العقول عن الوصول إلى سرّ حكمته^(٤).

الثمرات

يجب أن يعلم كل مكلف: أن لا صمدية ولا وحدانية إلا لله تعالى وحده، فلا يقصد غيره، ولا يلجأ في حوائجه إلا إليه، فينبغي للعبد أن يصمد إلى ربه تعالى في الحوائج كلها، ويكون مفزعه وغايته ومقصده في كل أحواله هو ربه تعالى.

فإذا علمت ذلك: فتوجّه إليه بأمورك كلها، واصمد إليه بكليّتك، ولا تبق من نفسك باقية في جميع أحوالك، وكلّ أحيانك، أخطط بساحته رجلك، وألق بفنائك كنفسك، وإياك أن تتوجه بشيء من أمرك إلى سواه، وكذلك فاقصده في بيوته، وزره في مواطن محابّه.

(١) انظر «معالم التنزيل» للبغوي (٣٢١/٧)، و«نظم الدرر» (٥٨٨/٨).

(٢) ينظر: «بدائع الفوائد» (١٧٦/١).

(٣) انظر «مجموع الفتاوى» (٢٣٨/١٧ - ٢٤٠)، ونظم الدرر للبقاعي (٥٩٠/٨).

(٤) ينظر: «شرح الأسماء الحسنى» للرازي (٣١٩).

وحظُّ العبد كذلك من هذا الاسم الكريم: أن يكون مقصد الخلق في المهمات، ومرجعهم في جميع الأوقات، فيكفي مؤونتهم بقدر الإمكان، وينتهض لمصالحهم في سائر الأوقات، وإذا أقامك الله تعالى مقامًا تتسع فيه إلى أن تكون ملجأً للملهوف، وغياثًا للمكروب في جاهٍ، أو ذاتٍ يدٍ، فصدقت في ذلك وبرزت، فقد أخذت من مقتضى هذا الاسم الكريم بحظٍّ، وفُزْتَ منه بنصيب، لأن من جعله الله تعالى مقصد عباده في مهمات دينهم، ودنياهم، وأجرى على لسانه ويده حوائج خلقه، فقد أنعم عليه بحظٍّ من معنى هذا الوصف العظيم الأوفر كما تقدّم.

ومن عبودية هذا الاسم الجليل: أن يتخلّق بأخلاق السيادة والسادة، حتى يكون مصمودًا، وبابه مقصودًا، وهذا منصب عظيم، لا يحصل بالكسل، ولا بالخدم أيضًا والخول، بل يحصل بالطلب المستجمع لشرائط الأدب من الكريم على الإطلاق، والرحيم بالاتفاق^(١).

وبالجملة: فإنه يدخل من العبادات بمعنى هذا الاسم: مبادئ الأعمال كلها، وتوجيه النيات، وتسديد الإرادات، إلى مالك حوائج العاملين سبحانه^(٢).



(١) «الأسنى» (١٨٦/١)، و«شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان (١٠٢/١)، و«المقصد الأسنى» (١١٩)، و«شرح الأسماء الحسنى» للبيضاوي (٣٠٨).
(٢) «شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان (١٠٤/١).

٢٧- الله ﷻ الحميد ﷻ جل جلاله

قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَلَوُّنُ الْحَمِيدُ﴾ [الشورى].

المعنى اللغوي

الحميد: صيغة مبالغة على وزن (فعليل)، بمعنى اسم المفعول، وهو المحمود.

والحمد نقيض الذم، يقال: حمدت فلاناً أحمده، ورجل محمود ومحمد، إذا كثرت خصاله المحمودة غير المذمومة، وهو أعم وأصدق في الثناء على المحمود من المدح، والشكر^(١)، والحمد: هو أوسع الصفات، وأعم المدائح، والطرق إلى العلم به، في غاية الكثرة^(٢)، فالحمد ذكر صفات المحمود، مع محبته، وتعظيمه، وإجلاله^(٣).

واعلم أن الحمد هو: الثناء الجميل على جهة التعظيم، والتفضيل، وهو الثناء الخالص البالغ، فالخالص الذي لا يشوبه ذم، والبالغ الذي لا يشوبه نقص، ولا يستحق هذا الوصف إلا الله ﷻ، لأنه هو المنزه عن النقائص، والدليل على ذلك: أنه ﷻ قرن الحمد بالتسبيح فقال: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ [الإسراء: ٤٤]^(٤).

والحميد يأتي على معنيين: الأول: بمعنى: مفعول أي: المحمود.

الثاني: بمعنى: فاعل أي: حامد، فهو ﷻ محمود، وحامد، فهو حامد: يحمد ويشني على نفسه، وعلى ذاته تعالى، لاستحقاقه ذلك، إذ هو سبحانه أهل الثناء والحمد الخالص، لتقدس ذاته، وصفاته، وأفعاله من النقائص، وتارة يكون حمده راجعاً إلى من جعله تعالى أهلاً للحمد من خلقه، لقيامهم بواجب حمده، وهذا الحمد يصف من يستحق الصفات الكاملة بما يستحقه، فهذا الحمد مندرج في طيِّ حمده لنفسه جلّ ثناؤه، على من يستحقُّ الحمد. وهو المحمود من عباده، بثنائهم عليه، ومدحهم له^(٥).

(١) «لسان العرب» (١٥٦/٣)، «معجم مقاييس اللغة» (١٠٠/٢)، و«تفسير الطبري» (١٧٩/١٣).

(٢) «طريق الهجرتين» (٢٣١).

(٣) «مدارج السالكين» (٢٥/١)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (٣٧٨/٨).

(٤) «تلخيص الأدلة لقواعد التوحيد» (٤٤٣/١).

(٥) «تفسير سورة (لقمان)» (٢٠٤/٧) وشرح صحيح مسلم (١٥٦/٢) لابن عثيمين، و«الأسنى» (١٨٨/١ - ١٨٩).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الحميد له الحمد كله ، بجميع وجوهه واعتباراته وتصاريفه ،^(١) الذي لا يحصيه العدد ، ولا يقطعه الأمد :

(١) فهو الحميد سبحانه: الذي قد ملأ حمده الزمان ، والمكان ، والأعيان ، وعم الأقوال ، والأحوال ، وفي كل مقام ، في الدنيا والآخرة .

(٢) فهو تعالى له أعظم المحامد ، والمدائح ، والثناء كلها ، وهي : أصنافها ، وأنواعها ، وأفرادها ، لا مستحق لها غيره ، وهي من خصائصه تعالى ، فهو تعالى المحمود في ذاته ، وأسمائه ، وأوصافه ، وأفعاله :

أ - فهو المحمود في ذاته: لأن ليس لها شبيه ولا مثال ، بائنة عن كل الأنام .

ب - المحمود في أسمائه: لأن له من الأسماء أحسنها ، لتضمنها أجل المعاني وأنبها .

ج - المحمود في صفاته: لأن له من الصفات أكملها ، وأعظمها ، فكل صفة من صفاته العلا يحمد عليها أكمل الحمد ، ويحمد على آثارها ، ومتعلقاتها ، فكيف بجميع صفاته ؟

د - وهو المحمود في أفعاله: لأن له من الأفعال أتمها وأحسنها ، فإنها دائرة بين الفضل والإحسان ، والحكمة والعدل ، لا تخرج عن ذلك البتة ، ليس فيها فعل خالٍ عن الحكمة والمصلحة ، فلا يجري في أفعاله الغلط ، ولا يعترضه الخطأ^(٢) .

(٣) وهو تعالى المحمود في شرعه: فإن شرعه سبحانه أكمل الشرائع ، وأنفعها لكل الخلائق ، لما فيه من العدل ، والحكمة ، والرحمة ، التي لا نظير لها .

(٤) وهو الحميد في صنعه: الذي هو الخلق ، يحمد عليه ﷻ ، على إيجاده ، وعلى إعدادة ، وعلى إمداده^(٣) ، قال سبحانه ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَرَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] ، وقال عز شأنه: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [السجدة: ٧] .

(١) «شفاء العليل» (١١٩٨/٣) .

(٢) «شأن الدعاء» (٧٨) ، و«الأمد الأقصى» (٢١١/٢) ، و«طريق الهجرتين» (٢٠٦ ، ٢٢٣) ، و«كتاب الصلاة» (١٧٣) ، و«تفسير السعدي» (٦٢٤/٥) ، و«فتح الرحيم» (٢٢) .

(٣) «تفسير سورة لقمان» (٢٤٨/٧) لابن عثيمين .

٥) وهو المحمود: في قضائه وقدره، وعلى أحكامه القدريّة، والشرعية، والجزائية: في الأولى والآخرة، يحمده عليها^(١)، فكلّها حق، وعدل، وهدى، وسداد، منزّهة عن الشرّ، والعبث، والظلم، وكل نقص.

٦) وهو المحمود: على وحدانيّته على الدوام، وتعالیه عن الشريك والنّظير، والوليّ من الدّلّ من الأنام، لكمال غناه، وعزّته التي لا تُرام.

٧) المحمود سبحانه: على إنعامه وإحسانه، وآلائه، وإفضاله على كل عباده، "من النعم، والخيرات، والبركات، التي لا يمكن للعباد إحصاؤها، ويتعذّر عليهم استقصاؤها"^(٢)، فضلاً عن الإحاطة بها، فهو محمود عليها، "لأنه المولي للنعم كلها عاجلها وآجلها"^(٣)، وكذلك: لا بتدائه بها قبل السؤال، ومن غير استحقاق، والعطاء فوق المنى والآمال.

٨) وهو سبحانه الحميد: الذي يجعل من يشاء من عباده محموداً، فيهبه حمداً من عنده^(٤)، فيحمده الخلق، ويشنون عليه.

٩) وهو تعالى الحميد (الحامد): الذي يحمده من يستحق الحمد، فهو تعالى يصف من يستحق من عباده الصفات الكاملة بما يستحقه، ولهذا أثنى على أنبيائه، وأوليائه، وعباده الصالحين^(٥).

١٠) وهو الحميد تعالى: الذي يحب الحمد من خلقه، قال ﷺ: «لا أحد أحب إليه المدح من الله»^(٦)، فهو تعالى يحب أن يحمده في السراء والضراء، والشدة والرخاء.

١١) وهو الحميد ﷺ: الذي حمد نفسه بنفسه، وأثنى عليها بما هو أهله، قال ﷺ: «ليس شيء أحب إليه الحمد من الله تعالى، ولذلك أثنى على نفسه فقال: الحمد لله»^(٧)، فهو تعالى المحمود بذاته، وإن لم يحمده عباده.

(١) «الحق الواضح» (٣٩).

(٢) «فتح الرحيم» (٢٢).

(٣) «السراج المنير» (١٦٥/٣).

(٤) «بدائع الفوائد» (١٧٨/٧).

(٥) «تفسير سورة البقرة» (٣/٣٤٠)، و«تفسير سورة سبأ» (٧/٢٠٤)، و«البروج» (١٠/٤٦٢) لابن عثيمين.

(٦) البخاري (٤٦٣٧)، ومسلم (٢٧٦٠). وقال ﷺ: «وما من شيء أحبّ إلى الله من الحمد». صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٥٩).

(٧) «التفسير الصحيح» (١/٧٩).

(١٢) وهو الذي لا يحمد بالحققة إلا هو^(١)، يحمد نفسه ولا أحد يحسن أن يحمد كما يحمد نفسه، ولا يثنى عليه كما يثنى على نفسه، ولا يمجد كما يمجد نفسه، ولا أحق بذلك منه حامداً ومحموداً، وهذا غاية الكمال الذي لا يستحقه ولا يوصف به إلا هو ذو الجلال والإكرام.

(١٣) فهو تعالى حمد نفسه، فذكر أسماءه الحسنى، وصفاته العليا، وأفعاله الجميلة الهدى، وأحبَّ نفسه المقدَّسة، فكان هو الحامد والمحمود.

(١٤) وهو الحميد ﷻ: الذي نَبَّه تعالى على شمول حمده لخلقه، وأمره، فشرع حمده وأسباب حمده، وجمعها تارة، وفرقها تارة أخرى، ليتعرف إلى عبادته ويعرفهم كيف يحمدونه، وكيف يثنون عليه، وليتجنب إليهم بذلك، ويحبهم إذا عرفوه وأحبوه، فحمد نفسه سبحانه:

(أ) على ربوبيَّته الشاملة للعالمين: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]

(ب) وحمد نفسه على تفرُّده بالألوهية، وعلى حياته: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَكَادَعُوهُ مَخْلَصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿[غافر: ٦٥].

(ج) وحمد نفسه سبحانه على امتناع اتصافه بما لا يليق بكماله، فمن ذلك:

(١) اتخاذ الولد، (٢) والشريك والند في ذرة من الملك، (٣) والموالاة للحاجة من أحد من الخلق، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكِبَرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١٧].

(د) وحمد نفسه على إنزاله كتابه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١٨].

(هـ) وحمد نفسه على خلق السموات والأرض: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

(و) وحمد نفسه على كمال، وعموم ملكه، قال عزَّ شأنه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبا: ١].

(ز) وحمد نفسه على فعله، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَئِكَ أَجْنَحٌ مَنَّى وَتِلْكَ وَرُبْعٌ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١].

(١) كما كان النبي ﷺ يقول في سجوده: «لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك» مسلم (٤٨٦).

(ح) وحمد نفسه على كمال شرعه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١]

(ط) وحمد نفسه على عظمته، وكبريائه ﴿فَلِلَّهِ الْمَلَكُوتُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٢] والجانبية^(١).

(ي) وحمد نفسه في الأولى والأخرى، قال ﷺ: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الفصل: ٧٠].

(١٥) وهو الحميد: الذي يحمد نفسه بما يجريه على أسنة الحامدين له من: ملائكته، وأنبيائه، وأصفياه، وخيار خلقه، وهو تعالى الحميد الذي يحمدهم على ما أنعم به عليهم، فمنه السبب، والمسبب^(٢).

(١٦) وهو المحمود سبحانه على كل ما خلقه، ويخلقه، لما له فيه من الحكم والغايات المحموده، المقصودة بالفعل (على أكمل وجه)، ولهذا يحمد سبحانه نفسه عند خلقه، وأمره، لينبه عباده على أن مصدر خلقه، وأمره عن حمده^(٣).

(١٧) وهو الحميد سبحانه: الذي له الحمد المطلق الكامل الذي لا نهاية بعده، وكان ظهور الأسباب التي يحمد عليها من مقتضى كونه محموداً، وهي من لوازم حمده تعالى، وهي نوعان: فضل، وعدل، وهو سبحانه محمود على هذا، وعلى هذا^(٤).

(١٨) ومن كمال حمده تعالى: أنه هو المحمود بكل لسان، وعلى كل حال، إذ أن جميع المخلوقات ناطقة بحمده، بل كل ذرات الكون من الجمادات، والناطقات، من الأحياء والأموات، مؤمنهم وكافرهم، في الدنيا والآخرة، شاهدة وناطقه بحمده في جميع الأوقات، وفي كل زمان، وعلى كل فعل، وفي كل حال، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، المؤمن تسبيحه: بالمقال والحال، والكافر تسبيحه: بالحال.

(١٩) ومن كمال حمده وتماحه: أن كل حمد وقع من أهل السموات والأرض، الأولين منهم

(١) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» (١٥/٤ - ١٧)، و«منهاج السنة النبوية» (١٧٥/٣)، و«مجموع الفتاوى» (٣٧٨/٨)، و«شفاء العليل» (٦١٢/٢ - ٦١٣)، و«طريق الهجرتين» (٢٠٢، ٢٢٨)، و«تفسير سورة سبأ» (٥٩١/٧ - ٥٩٢).

لابن عثيمين بتصرف يسير.

(٢) «الفوائد» (٩٩) و«فتح الرحيم» (٢٢).

(٣) «طريق الهجرتين» (٢٠٧، ٢١٩).

(٤) «مفتاح دار السعادة» (١١٤/١).

والآخرين ، وكل حمد يقع منهم في الدنيا والآخرة ، وكل حمد لم يقع منهم ، بل كان مفروضاً ومقدوراً حيثما تسلسلت الأزمان ، واتصلت الأوقات ، حمداً يملأ الوجود كله ، العالم العلوي ، والسفلي ، ويملاً نظير الوجود ، من غير عد ولا إحصاء ، فإن الله تعالى مستحقه من وجوه كثيرة^(١) وعديدة ، فلا أحد يحصي الثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وفوق ما يثنى عليه خلقه .

(٢٠) وهو سبحانه الذي يحمد على توفيقه لأوليائه ، وعلى خذلانه لأعدائه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَجَّنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨] ، كما يحمد على إثابته للطائعين ، وعقوبته للعاصين^(٢): ﴿وَفَضَىٰ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ﴾ [الزمر: ٧٥] .

(٢١) ومن كمال حمده يوجب أن لا ينسب إليه شرٌّ ، ولا سوء ، ولا نقص في ذاته ، ولا في أسمائه ، ولا في أفعاله ، ولا في صفاته^(٣) .

(٢٢) فهو سبحانه له من الصفات وأسباب الحمد ، ما يقتضي أن يكون محموداً ، وإن لم يحمده غيره ، فهو حميد في نفسه ، والمحمود من تعلّق به حمد الحامدين ، على طول الدهور والسنين^(٤) .

جلال الحميد

الأول: من جلاله: أنه تعالى محمود من وجوه لا تُحصى ، وجوانب لا تُستقصى ، له أسماء وأوصاف ، ومدائح وثناء ، لا يعلمها ملك مقرّب ، ولا نبي مرسل ، تقصر بلاغات الواصفين عن بلوغ كُنْهها ، وتعجز الأوهام عن الإحاطة بالواحد منها ، ومع ذلك فله ﷻ محامد ، ومدائح ، وأنواع من الثناء ، لم تتحرّك بها الخواطر ، ولا هجست في الضمائر ، ولا لاحت لمتوسّم ، ولا سنحت في فكر^(٥) ، فالحمد هو أعمّ المعارف ، وأوسع العلوم ، وهو متضمّن لجميع صفات كماله ، ونعوت جلاله ، مستلزم لها .

الثاني: ومن جلال الحميد سبحانه: أن جميع أسمائه ﷻ حمد ، وصفاته حمد ، وأفعاله حمد ، وأحكامه حمد ، وعدله حمد ، وانتقامه من أعدائه حمد ، وفضله في إحسانه إلى أوليائه

(١) انظر: «الحق الواضح» (٣٩ - ٤٠) ، و«الأمّد الأقصى» (٢١١/٢) .

(٢) «فتح الرحيم» (٢٢) .

(٣) «شفاء العليل» (٥١١/٢) .

(٤) «جلاء الأفهام» (٢٤٤) .

(٥) انظر: «طريق الهجرتين» (٢٣٧) .

حمد ، والخلق والأمر إنما قام بحمده ، ووجد بحمده ، وظهر بحمده ، وكان الغاية هي حمده .

فحمده سبب ذلك وغايته ، ومظهره ، وحامله ، فحمده روح كل شيء ، وقيام كل شيء بحمده ، فحمده هو سبب كل موجود ، وكل موجود شاهدٌ بحمده ، وإرساله برسله بحمده ، وإنزاله كتبه بحمده ، والجنة عُمرت بأهلها بحمده ، والنار عُمرت بأهلها بحمده ، وما أُطيع أحدٌ إلا بحمده ، وما عُصي إلا بحمده ، ولا تسقط ورقةٌ إلا بحمده ، ولا يتحرك في الكون ذرةٌ إلا بحمده .

فهو تعالى محمودٌ في الكون كله ، دائماً بدوامه ، لا يزول أبداً^(١) ، في الأولى والأخرى ، قال الله العظيم: ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَبَيْنَ ظُهُورِ﴾ [الروم: ١٨] . وقال سبحانه: ﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ [القصر: ٧٠] .

الثالث: ومن جلاله: "أنَّ الحمد لا يتصور خالياً من الذم إلا في حقِّ الباري تعالى ، فإن كفر الكافر به حمدٌ له"^(٢) .

الرابع: ومن جلال الحميد: "أنَّ أوَّل من حمد الله: الله ﷻ ، وتعالى علاؤه وشأنه ، فهو المبتدئ بحمد نفسه قبل أن يحمد حامد ، فسبق حمد نفسه قبل حمد الخلق ، (ف) حمد نفسه بكلامه العلي ، قبل البدء الذي لا أوَّل لاوَّليته"^(٣) .

الخامس: ومن جلاله: "أنه تعالى حمد نفسه وأثنى عليها ، لأجل مصلحة ، ومنفعة عباده ، لأننا لا نستطيع أن نثني على الله سبحانه ، أو نحصي الثناء عليه ، فإذا حمد الله نفسه ، فهذا من مصلحتنا ، لأنه تعالى يُعلِّمنا كيف نحمده ، وكيف نثني عليه ، وهو أهلٌ لأن يمدح نفسه ، ويثني عليها ، لمصلحة عباده ، وإلا فهو تعالى غني عن كونه يظهر لنا من صفات الكمال ما يظهر ، وغني أن نعرف ذلك ، ولكن من أجل مصلحتنا"^(٤) .

السادس: ومن جلال حمده: أنه سبحانه وفقَّ أوليائه لحمده ، وألهمهم الثناء عليه ، ففازوا

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٢٢٠) ، «بدائع الفوائد» (٨٧/١) ، و«كتاب الصلاة» (١٧٣) ، و«شفاء العليل» (١٩١/٢) .

(٢) «الأمَد الأقصى» (٢١٣/٢) .

(٣) «شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان (٢٦٦/١) ، و«تفسير القرطبي» (١١/١) ، (١٣٦) .

(٤) «تفسير سورة سبأ» لابن عثيمين (٥٩١/٧) . قال الإمام النووي ﷺ: "حقيقة هذا مصلحة للعباد ، لأنهم يثنون عليه فيثبهم فينتفعون ، وهو سبحانه غني عن العالمين ، لا ينفعه مدحهم ، ولا يضُرُّهم تركهم ذلك . «شرح صحيح مسلم» (٧٧/١٧) .

في الأولى والعقبى ، في الدنيا: ﴿وَهْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الص: ٢٤] ، أي: أنه تعالى أرشدهم ووفقهم في الدنيا إلى حمده بما أنعم عليهم بالإسلام والإيمان .

وفي الأخرى: بعلو المكان في الجنان ، فآلهمهم بحمده على هذا الإنعام^(١): ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤] ، وقال ﷺ عن أهلها: «... يُلهمون التسبيح والتحميد كما يلهمون النفس»^(٢).

السابع: ومن جلال الحميد سبحانه: أنه يظهر في الآخرة من حمده ، والثناء عليه ، ما لا يكون في الدنيا ، إذ أن كل الخلائق إنسهم وجنهم ، برهم وفاجرهم ، بل نطق الكون كله ، ناطقه وبهيمة تحمده: على حكمه ، وفضله ، وعدله فيما بينهم ، قال تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥]^(٣).

فأهل الجنة لم يدخلوها إلا بحمده ، كما أن أهل النار لم يدخلوها إلا بحمده ، فمن حكم عليهم بالعقاب ، والعذاب ، ما دخلوا النار إلا وقلوبهم ممتلئة بحمده ، وألستهم ناطقة بحمده ، إقراراً وإحقاقاً بعدله ، وقسطه ، وإنما عوقبوا بأفعالهم ، وبما كانوا قادرين على فعله ، وتركه ، وأنه لم يظلمهم مثقال ذرة^(٤).

فأيُّ جلال يسمو إلى هذا الجلال ؟ أو يدانيه ، أو يقرب منه بحال^(٥) !

الثامن: ومن جلاله: "أنه لا يَحْمَدُ المحمود على غير فعله إلا هو ، فإنه حمد الخلق وأثنى عليهم وليس لهم فعل ، إنما الفعل له ، والحمد منه"^(٦).

التاسع: ومن جلال حمد ربنا تعالى الحميد: "أنه هو المحمود لذاته ، وإن لم يحمده العباد ، كما أنه هو الواحد الأحد ولو لم يوحد العباد ، والإله الحق وإن لم يؤلهوه ، وهو الذي حمد نفسه على لسان القائل: (الحمد لله رب العالمين) ، كما قال النبي ﷺ: «إن الله تعالى قال على لسان

(١) «تفسير النسفي» (٧٣٥) ، و«تفسير ابن كثير» (٢٩٤/٣) بتصرف .

(٢) مسلم (٢٨٣٥) .

(٣) يقول ابن كثير ﷺ: "ولهذا لم يسند القول إلى قائل بل أطلقه ، فدل على أن جميع المخلوقات شهدت بالحمد" (٨٩/٤) .

(٤) «طريق الهجرتين» (٢٠٢) ، و«تفسير السعدي» (٦٧٤) بتصرف .

(٥) قال قتادة ﷺ: "فتح أول الخلق بالحمد لله ، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ، وختم بالحمد فقال: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾" . «التفسير الصحيح» (٢٥١/٤) .

(٦) «الأمد الأقصى» (٢١٣/٢) .

نبيّه: سمع الله لمن حمده»^(١)، فهو الحامد لنفسه في قلبه، وإجراؤه بحمده، فله الحمد كله»^(٢).

العاشر: ومن جلال الحميد تعالى: أنه يَخُصُّ لسيد الخلق في يوم العرض لواء الحمد، قال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر...»^(٣).

الثمرات

متى عرف المؤمن أن الله تعالى متصف بالحمد، فينبغي له أن يسعى إلى حمده تعالى على الآله وعلى كلّ نعمة من أنعمه، وعلى أوصاف كماله، في ليله ونهاره، في سرائه وضرائه، في سره وعلنه، وفي عسره ويسره، وفي لسانه، وقلبه، وأركانه، فهو أحبُّ الأشياء إليه عزّ شأنه، قال ﷺ: «ليس شيء أحبُّ إليه الحمد من الله تعالى، ولذلك أثنى على نفسه، فقال: الحمد لله»^(٤)، وقال ﷺ: «... وما من شيء أحبُّ إلى الله تعالى من الحمد»^(٥).

واعلم رعاك الله أن أفضل العباد يوم المعاد، من لازم حمده سبحانه، قال ﷺ: «... اعلم أن خير عباد الله ﷻ يوم القيامة الحمّادون»^(٦)، فإذا كان الأمر كذلك فينبغي لك - يا عبد الله - أن تحمده على أعظم آلائه، ونعمائه، وأفضاله، وهي: نعمة الإسلام، الذي خصّنا بها دون غيرنا من الأنام، ولم يجعلنا من أهل الضلال والكفران، وأخصّ من ذلك: أن عرفك بأسمائه الحسنی، وصفاته العلا، فو الله لو استنفدت أنفاسك كلّها في حمده، والثناء عليه في كل لحظة، ما وفيت حقه عليك "فالحمد لله الذي خصّنا بهذه الرحمة، وأسبغ علينا هذه النعمة، وأعطانا هذه الفضائل الجمّة"^(٧).

ومن أعظم نعمه علينا، وما استوجب حمد عباده له، أن جعلنا عبداً له خاصة، ولم يجعلنا ربنا منقسمين بين شركاء متشاكسين^(٨)، ولم يجعلنا عبداً لإله تتحتّه الأفكار، ولا يبصر أفعالنا،

(١) مسلم (٩٠٢).

(٢) «كتاب الصلاة» لابن القيم (١٧٣).

(٣) «صحيح الترمذي» (٣١٤٨).

(٤) «التفسير الصحيح» (٧٩/١).

(٥) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٧٩٥).

(٦) صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٨٤)، وفي «صحيح الجامع» (١٥٧١).

(٧) «لطائف المعارف» (١٨٠) لابن رجب الحنبلي.

(٨) أي: متشاجرون، «المفردات» (٤٦٢) يشير إلى قوله سبحانه: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

ولا يعلم أحوالنا^(١).

ومن عبودية هذا الاسم الكريم: أنه: "يجب [على العبد] أن يسعى في خصال الحمد، وهي التخلق بالأخلاق الحميدة، والأفعال الجميلة، ويترك نقيضها، ويدع سفسافها"^(٢).

يقول الإمام الحافظ أبو بكر ابن العربي رحمه الله: "اعلموا أنه لا يكون العبد حميداً حتى يُخَلِّص عقائده عن الشرك، وأخلاقه عن الذم، وأقواله عن الباطل، وأعماله عن الفساد، وذلك بالكلية ليس إلا لمحمد صلوات الله عليه، ويدرك كل مؤمن من هذه المرتبة بمقدار ما يُقدَّر الله له"^(٣).

واعلم حفظك الله: أنَّ حمدك له تعالى يستحقُّ الحمد عليه، لأنه سبحانه هو الذي وفَّقك لحمده، فحمده له نعمة منه لك، وذكرك له، وانطراحك بين يديه عطية تستحقُّ الحمد، وبهذا تعلم أنَّ الله تعالى أعظم حمد، وأعلاه، وأكمّله، وأدومه، وأنت لا تُحصي الثناء عليه كما ينبغي، بل هو كما أثنى وحمد نفسه بنفسه، ولكن تقرب إليه ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: "ومن عبوديته أيضاً: أن يعلم أنَّ حمده لربه سبحانه نعمةً منه عليه، يستحقُّ عليها الحمد، فإذا حمده على هذه النعمة استوجب عليه حمداً آخر على نعمة حمده، وهلمَّ جرّاً، فالعبد ولو استنفد أنفاسه كلها في حمده على نعمة من نعمه كان ما يجب له من الحمد ويستحقُّه فوق ذلك وأضعافه، ولا يحصي أحدُ البتّة ثناءً عليه بمحامده"^(٤).

ويقول رحمه الله: "ومن عبودية الحمد: شهود العبد لعجزه عن الحمد، وأنَّ ما قام به منه فالربُّ سبحانه هو المحمود عليه، إذ هو مجريه على لسانه، وقلبه"^(٥).

فإذا علمتَ هذا يا رعاك الله، فلا تستكثر حمده، وعبوديته، ولا تفتّر، ولا تمنن بذلك في نفسك أبداً حتى تلقاه بإذن الله.



(١) «طريق الهجرتين» (٢٣٠).

(٢) «الأسنى» للقرطبي (١٨٩/١).

(٣) «الأمم الأقصى» (٢١٣/٢).

(٤) «كتاب الصلاة» (١٧٣).

(٥) المصدر السابق.

٢٨- الله ﷻ المجيد ﷻ جلّ وعلا

قال تعالى: ﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْهِ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [مود]

المعنى اللغوي

المجيد: من صيغ المبالغة على وزن (فعليل)، و(فعليل) أبلغ من (فاعل)، فكأنه يجمع معنى الجليل، والوهّاب، والكريم.

والمجد: أصله الكثرة، والسعة، والزيادة، والرفعة، والجلالة والعظمة، والشرف، وبلوغ النهاية، ولا يكون إلا في محمود، وأصل المجد في لغة العرب: كثرة أوصاف الكمال، وعظمتها، وسعتها، وكثرة أفعال الخير، فيطلق على:

الأول: سعة الكرم، يقال: "رجل ماجدٌ" إذا كان سخيًّا واسع العطاء، و"القوم في مجدٍ" أي: في سعةٍ وخصب، فالمجيد هو: الكريم المفضل، المتناهي فيه.

الثاني: العزُّ والشرف التام الواسع، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْوَعْدُ إِنَّ الْمَجِيدَ﴾ [ق: ١] أي: الشريف، لكثرة خيراته ومنافعه ومقاصده العليا في الدنيا والآخرة.

الثالث: الرفيع العالي، المتصف بأوصاف العلو، و"مجد الشيء" إذا أحسنت أوصافه، فالمجيد هو الذي اجتمع فيه أوصاف علا، مع الاتساع والكثرة في جميعها.

الرابع: المنيع المحمود، الذي لا يُرام، الذي لا يوصل إليه بحال.

الخامس: المُبْجَلُ المعظم، يقال: "أمجده ومجّده" عظمه وأثنى عليه، وتمجّد: تعظّم، ومنه حديث الفاتحة: «مَجْدُنِي عَبْدِي» أي: شرفني وعظّمني^(١).

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٢٩٧/٥)، و«النهاية» (٨٥٧)، و«تفسير الأسماء» (٥٣)، و«المفردات» (٧٦٠)، و«اللسان العرب» (٤١٣٨/٥)، و«الصحاح» (٩٧٢)، و«القاموس المحيط» (١٢٠٦)، و«شأن الدعاء» (٧٤)، و«تفسير البغوي» (٣٥٥/٧)، و«المحرر الوجيز» (١٩٢/٣)، و«الوسيط في تفسير القرآن المجيد» (٥٨٢/٢)، و«البيضاوي» (٢٧٥/١) للواحدي، و«إبطال التأويلات» (٦٥٤، ٦٥٨)، و«المعجم الوسيط» (٨٩١)، و«تفسير ابن عطية» (١٩٢/٣)، و«البدائع الفوائد» (١٦٠/١)، «المنهاج» (١٩٧/١)، «المقصد الأسنى» (٨٧)، و«شرح مصابيح السنة» للبيضاوي (٦٥/٢).

فالمجيد هو: من كثر شرفه ، وتمّ جلاله ، وكماله في ذاته ، وأوصافه ، وأفعاله ، وسلطانه ، وأسمائه الحسنی ، كثرة تخرج عن طوق البشر في العدد والإحصاء^(١) .

وبالجملة: إن المجيد هو الشريف ذاته ، "وشرف الذات يجمعه: شرف الجلال ، والكمال ، والنزاهة المطلقة عن جميع النقائص ، وذلك يتضمّن كرم الأفعال ، وشرفها أيضاً"^(٢) ، وهو الجزيلُ العطاء ، والنوال ، والمنيع المحمود ، الرفيع العالي ، العظيم القدر ، والشأن ، والجلال ، الذي حوى الملك ، وتفرد بالسلطان .

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو المجيد ، له المجد التام المطلق كله ، الذي لا نهاية ، «ولا غاية له ، ولا مزيد وراءه»^(٣) ، فهو سبحانه:

(١) المتناهي في الكرم ، الذي لا كرم فوق كرمه ، الجزيل النوال ، واسع العطاء ، الذي ليس له انتهاء ، ولا انقطاع ، على الأباد .

(٢) فهو سبحانه مفضل الخير ، لا يحصي أحد من خلقه فضله ، وإحسانه ، وجوده ، وكرمه ، فلا يستطيع العبد أن يحصي نعمته ، ولو استنفد فيه مدته^(٤) .

(٣) وهو المجيد تعالى: الذي له المجد العظيم ، والشرف الباذخ الرفيع ، فهو الشريف الذات ، الكامل الصفات ، الجميل الأفعال ، التي من كثرتها لا يتناولها العدد ، والإحصاء ، والاستقصاء^(٥) .

(٤) ومن كمال مجده سبحانه: أن له المجد من ذاته لذاته ، وهو تمجيده تعالى من نفسه لنفسه^(٦) ، قبل أن يمجّده أحد من خلقه .

(٥) فهو تعالى البالغ الغاية في المجد الأعلى ، والشرف التام ، من كل كمال: أعلاه ،

(١) «شرح الأسماء الحسنی» للرازي (٢٨٨) ، و«الأمد الأقصى» (٤٠٥/١) ، و«موسوعة له الأسماء الحسنی» (٢٦٢/١) .

(٢) «الأسنى» (٣٠٢) .

(٣) «شرح أسماء الله الحسنی وفوائدها» (٧٩) .

(٤) «تلخيص الأدلة» (٥٩٢/٢) ، و«المنهاج» (١٩٧/١) .

(٥) «الأمد الأقصى» (٤٠٩/١ - ٤١٠) ، و«الأسنى» (٤٤٣) .

(٦) انظر: «الأسنى» (٢٩٨) .

وأعظمه ، وأوسع^(١) .

٦) فهو تعالى ذو الشرف ، والمجد ، والعظمة ، في : ذاته ، وصفاته ، وأفعاله^(٢) ، وسلطانه :

أ - فهو الشريف ذاته : مَجَّد ذاته في علوّه ، واستوائه على عرشه ، فوق كل خلقه ، قال سبحانه : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه] . "ومن شرف ذاته : أنه غني عن العالمين"^(٣) .

ب - وهو الذي تمجّد بفعله ، لأن أفعاله كلها إحسان ، وجود ، وبر ، وحكمة ، وعدل ، وقسط . "فأمجاده لا تعد ولا تحصى ، وجميعها قائمة على الفضيلة والقيم الخيرة بين الخليقة"^(٤) .

ج - وهو العظيم في أوصافه : "فهو الموصوف بصفات الكمال التي لا تبلغها عقول الخلائق"^(٥) له علوّ الشأن فيها ، وله من كل صفة كمال : "أكملها ، وأتمّها ، وأعمّها"^(٦) ، لا سمّي له فيها ، ولا نظير ، ولا عديل .

د - العظيم في ملكه ، وسلطانه : الذي لا غاية ولا نهاية له ، فإذا كان كُرْسِيُّه قد وسع السموات والأرض ، كما قال عزّ شأنه : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، وقد ثبت عن ابن عباس ؓ أنه قال هو "موضع القدمين ، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى"^(٧) .

"إذا كانت هذه حالة الكرسي أنه يسع السموات والأرض على عظمتها ، والكرسي ليس أكبر مخلوقات الله تعالى ، بل هنا ما هو أعظم منه ، وهو «العرش» كما في أثر ابن عباس السابق ، وكما قال ؓ : «ما السموات السبع في الكرسي ، إلا كحلقة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي ، كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة»^(٨) ، وفي عظمة هذه المخلوقات تحير الأفكار ، وتكلّ الأبصار ، فكيف بعظمة خالقها ، ومبدعها سبحانه ؟!"^(٩) .

(١) انظر : «شرح أسماء الله» للبيضاوي (٢٧٤) ، و«موسوعة له الأسماء الحسنى» (٢٦٢/١) .

(٢) «لوامع البينات» (٢٨٨) ، وتفسير ابن كثير (٦١٠/٢) ، وتفسير الواحدي «الوسيط» (٥٨٢/٢) .

(٣) «موسوعة أسماء الله الحسنى» ١ . د . عقيل حسين (٤٩٧/٥) .

(٤) انظر المصدر السابق (٣٥٨/٧) .

(٥) مجموع الفتاوى (١٤٤/٨) .

(٦) تفسير السعدي (٣٨٦) .

(٧) صححه الألباني عن ابن عباس ؓ ، في تعليقه على شرح العقيدة الطحاوية ص ٣١ ، وحكمه حكم المرفوع لأنه من الغيبيات التي لا تعلم إلا عن طريق الوحي .

(٨) صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٩) .

(٩) «تفسير السعدي» (١١٠) .

(٧) وهو سبحانه المجيد: المنيع الذي لا يُرام، ولا يُوصل إلى جنبه، فلا يلحقه سوء، ولا شر، ولا نفع أحدٍ من الأنام، ومع ذلك: فهو في منعته حسن الخصال، جميل الفعال^(١).

(٨) وهو تعالى المجيد: ذو مجدٍ، ومدحٍ، وثناء كريم، فلا كمال إلا هو له، ولا نقص إلا وهو منزّه عنه، فهو سبحانه المجيد بالحقيقة، والشريف على الإطلاق سبحانه^(٢).

(٩) وهو الذي مجّد نفسه تعالى لكماله، وعظمته، وجلاله، قال ﷺ: «يقول الله ﷻ: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا المتعال، يُمجّد نفسه...»^(٣).

(١٠) "وهو الذي مجّده خلقه لعظمته"^(٤)، وكرمه، وأخصّهم: أوليائه، وأصفيائه، في عبوديتهم له وحده سبحانه، كما في الحديث القدسي: «... وإذا قال^(٥): ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، قال^(٦): مجّدني عبدي»^(٧)، وكان ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: «ربّنا لك الحمد ملء السماوات والأرض، وملء ما شئت من شيء بعد، أهل الثناء والمجد»^(٨).

(١١) وهو المجيد تعالى: الموصوف بصفات المجد، والكبرياء، والعظمة، والجلال، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم، وأجل، وأعلى من كل شيء^(٩).

(١٢) ومن تمام مجده أنه سبحانه: هو وحده نافذ المراد، وجميع أحكامه لا نقض لأحدٍ فيها، ولا رادّ.

(١٣) من كمال مجده عزّ شأنه: أنه "مع رفعة منزلته، (وعلو مكانته)، صفوحٌ عن الجاني، كثير العفو عن (العاصي)، غافرٌ للزلات، قابل للمعاذير، حسن الإجابة للصريح، مكسباً للمعدوم، ويغيث الملهوف"^(١٠).

(١) «المنهاج» للحليمي (١٩٧/١) بتصرف يسير.

(٢) «تفسير الطبري» (٢٩٥/٤)، و«الأسنى» (٣٠٠).

(٣) وفي رواية: «يمجّد الربّ نفسه: أنا الجبار...». رواه أحمد في «مسنده» (٥٤١٤) (٥٦٠٨)، وصحح إسناده أحمد شاكر (١٣٨/٥). وشعب الأرئوط، وقال: صحيح على شرط مسلم (٣٠٤/٩، ٤٣٢).

(٤) «تهذيب اللغة» (٤٨٤/٣).

(٥) أي: العبد.

(٦) أي: الله ﷻ.

(٧) «مسلم» (٣٩٥).

(٨) «مسلم» (٤٧١).

(٩) «تفسير السعدي» (٩٤٦).

(١٠) «شرح الأسماء الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (٣٢١/١).

(١٤) وهو المجيد سبحانه: "أهل الثناء، والمجد، الذي حمد وأثنى على نفسه بصفاته العلا، وأثنى على أوليائه^(١)" في الآخرة والأولى.

(١٥) ومن كمال مجد ربنا سبحانه: أنه ذو الكرم الكامل، والإحسان الواسع الشامل، فلا يليق به منع الطالب عن مطلوبه، أي: فلا يبعد عليه أن يعطي السائل مطلوبه مهما عظم مقصوده، ومن ذلك: أنه ليس بعيداً عليه أن يعطي الولد بعد الكبر الوالد^(٢)، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ الْوَالِدَ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣]^(٣).

(١٦) وهو ﷻ المجيد: "الذي له التعظيم والإجلال، في قلوب أوليائه الأبرار، وأصفيائه الأخيار، قد ملئت قلوبهم من تعظيمه، وإجلاله، والخضوع له، والتذلل لكبريائه"^(٤)، في الليل والنهار، وفي السر والجهر، على آلائه، وإحسانه المدرار.

﴿ جلال المجيد ﴾

الأول: أنه تتجلى فيه عظمة الصفات، وكثرتها، وسعتها، وتامها، وكمالها، على الوجه الأعلى والأقصى، بحيث لا يستطيع أحدٌ من الخلق عدّها، ولا إحصاءها، ولا الإحاطة بها، فلا تبلغها العبارات، ولا تضبط بالإشارات.

فمجد الباري تعالى هو: كثرة جلاله، وشرفه، وأسمائه الحسنی، وصفاته العلا، كثرة تخرج عن طوق البشر في العد والإحصاء.

فهو سبحانه له المجد العظيم، الذي ليس له مثيل، فهو الكبير الجليل، الذي هو أكبر من كل شيء، وأعظم، وأجل، وأعلى من كل شيء، فكل وصف من أوصافه عظيم شأنه، فهو العليم الكامل في علمه، الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، التقدير الذي لا يعجزه شيء، الحليم الكامل في حلمه، الحكيم الكامل في حكمته، إلى بقية أسمائه وصفاته، التي بلغت غاية المجد، فليس في شيء منها يتصور قصور، أو نقصان.

(١) «إبطال التأويلات» (٦٥٤، ٦٧٠).

(٢) كما في بشارة الملائكة إبراهيم ﷺ وزوجه سارة بعد كبر سنهما.

(٣) ينظر: «غرائب القرآن (٣٨/٤)، و«التفسير الكبير» مج (٩) (٢٩/١٨)، و«التفسير الوسيط» للطنطاوي الآية (٧٣) من سورة هود.

(٤) تفسير السعدي (٩٤٦).

فهو يدلُّ على جملة أوصاف عديدة، وهو متناول لجميعها، لا تختصُّ بصفةٍ معيَّنة^(١)، كمثل العظيم، والصمد، ولهذا جاء هذان الاسمان مقترنان في التشهُد، بطلب الصلاة من الله تعالى على رسوله، لأنَّه في مقام طلب المزيد، والتعرُّض لسعة العطاء وكثرته، ودوامه، فإنَّه يشرع للداعي، أن يختم دعاءه باسم من الأسماء الحسنی مناسب لمطلوبه^(٢).

الثاني: ومن جلال المجيد تعالى: أنه "أوله العقول والأوهام على تمجيده، وكلُّ شيءٍ لعزَّته راهب، وإليه راغب، ولكبزيَّاته خاضع، ولأمره طائع، ولديه ضارع، ولسلطانه خاشع، لا ينازعه فكر، ولا يخالطه شغل"^(٣).

الثالث: ومن جلاله: أنه تعالى: "يسدُّ ثلم العالم كلّ جملةً وتفصيلاً، فيمسك السموات والأرض أن تزولا، وهو القائم على كلّ شيء، والمحيط من ورائه، وفي ذلك من التفصيل ما يقف على الإيماء إليه أولوا الأبواب والتفكير، وجملة القول في ذلك: أنه لا يقوم شيءٌ إلا به، ولا يوجد إلا بإيجاده"^(٤).

الرابع: ومن جلاله: أنه هو "الذي عزَّه غير مستفتح، وفعله غير مستقبح، الذي برَّه جميل، وعطاؤه جزيل"^(٥).

الخامس: ومن جلاله سبحانه: أنه "انفرد بالشرف الكامل، والملك الواسع منذ الأزل، الذي لا يقطع العطاء، وله النفوذ فيما يشاء"^(٦).



(١) يقول ابن العربي رحمه الله: «أنَّه ليس بصفة خاصة، وإنما هو عبارة عن استجماع صفات التعالي فيه، واستيجابه لنفي النقائص عنه، لما بيَّناه من أنَّ المجد في كلام العرب: الكثرة، والسعة، وإذا ثبتت الكثرة للباري تعالى ثبتت من غير إحصاء بعدد، ولا تخصيص بوصف».

(٢) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» (١٧/٤)، و«بدائع الفوائد» (١٤٤١/١)، و«التبيان في أقسام القرآن» (١٢٥)، و«جلاء الأفهام» (٣١٨)، و«الأمد الأقصى» (٤٠٧/١)، و«الأسنى» (١٢٧)، و«تفسير السعدي» (٣٧٩/٢)، و«الحق الواضح» (٣٣).

(٣) «شرح الأسماء الحسنی» لأبي الحكم الإشبيلي (٣٢١/١).

(٤) المصد السابق (٣٢٣/١).

(٥) «شرح الأسماء الحسنی» للرازي (٢٨٩).

(٦) «موسوعة له الأسماء الحسنی» (٢٦٣/١).

الثمرات

إن هذا الاسم الكريم يورث العبد المؤمن السعي الحثيث إلى تعظيم ربه تعالى وتمجيده ، بكل وسيلة شرعية ممكنة ، حتى ينال بها رضوان الله تعالى الذي هو أكبر من كل شيء ، ومن أعظم أنواع التمجيد: الثناء عليه بأسمائه الحسنی ، وصفاته العليا ، والتعبد بمقتضاها ، ومن تمجيده ذكره ﷺ ، بحسن الثناء عليه من الكلم الطيب ، من التسييح ، والتحميد ، والتهليل ، والتكبير وغيرها ، من الذكر الحسن الجميل .

ومن عبوديته: "أن يعامل الناس بالكرم ، وحسن الخلق ، وليجتهد في أن يكثر خصاله ، ويجنب ما نهى عنه ، وحينئذ يكون ماجداً" (١) .

وينبغي للمؤمن أن يمجد ما مجده الله تعالى ، من ذلك: كتابه الكريم بالتلاوة ، والعمل بالتنزيل ، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ قَرَأَ الْكِتَابَ الْعَزِيزَ ﴾ [ق] .

فإن المجد في الدنيا والآخرة ، منوط به ، قال ﷺ: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ، ويضع به آخرين» (٢) .

"وحظُّ العبد من هذا الاسم الكريم: أن يعامل الخلق بالصفح والعفو ، وسعة الأخلاق ، والكلام اللين ، وبشاشة الوجه ، ومحو الشقاق ، وبذل ما في يديه من المال للفقراء ، والتواضع والرفق بالضعفاء" (٣) ، ومعاملة الناس بالحبِّ والوداد ، والوفاق .

ومن عبوديته: أنه إذا علم العبد أن مجد ربه سبحانه كما سبق بيانه ، وهي: كثرة الخصال ، ونفي النقائص ، فليجتهد في أن يكثر خصاله ، ويتجنب ما نهى عنه (٤) من خلافه .

وبالجملة: "أن يجتهد العبد في تحصيل ما يُحصِّل به الشرف بحسب ذاته ، وصفاته ، وأفعاله" (٥) ، فتكون مجيد الذات: برفع الهمة إليه ، مجيد الصفات: بحسن أخلاقك ، مجيد الأفعال: بالتزام الآداب والفضائل (٦) ، وبذلك تكون من الحكماء الأفاضل .

(١) انظر: «الأمد الأقصى» (٤١١/١) ، و«شرح مصابيح السنة» (٦٥/٢) ، و«الأسنى» (٣٠٢) .

(٢) مسلم (٨١٧) .

(٣) «موسوعة له الأسماء الحسنی» (٣٣٩/١) .

(٤) «الأمد الأقصى» (٤١١/١) .

(٥) «شرح الأسماء الحسنی» للبيضاوي (٢٧٥) .

(٦) «شرح أسماء الله الحسنی وفوائدها وخصائصها» لأبي العباس البرنسي (٧٩) .

٢٩- الله ﷻ الغني ﷻ تبارك وتعالى

قال تعالى: ﴿وَتَأْتِيهَا النَّاسُ أُنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر]

المعنى اللغوي

الغني: صفةٌ مشبهةٌ لمن اتصف بالغنى، والغنى ضد الفقر، ويطلق على: الكفاية، واليسار، وعدم الحاجة والإقامة، والنفع، والاغتناء، فالغنى يطلق على:

الأول: الكفاية، يقال: "أغنياني كذا، وأغني عنه كذا"، إذا: كفاه، كما في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٠].

الثاني: عدم الحاجة، كما في قوله ﷻ: ﴿وَتَأْتِيهَا النَّاسُ أُنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] ^(١).

الثالث: الإقامة بالمكان، يقال: "غنى بالمكان يغني به"، أي: أقام، ومنه وقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢]، أي: كأن لم يقيموا، وأصله من غنى بالمكان: إذا أقام به إقامة مستغنٍ به عن غيره ^(٢).

وإن كان من دام بمكان مُدَّةً من الزمان يُسمَّى غنيًّا، فالدائم الذي لم يزل ولا يزال موجودًا، ولا يتطرق إليه فناء أولى أن يكون غنيًّا، فهو دائم الوجود، غني عن الأمكنة والمخلوقات، فهو الغني حقًّا ^(٣).

الرابع: المغني لغيره، من المحسوسات، والمعنويات، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾

[النجم: ٤٨].

والغني: هو الذي ليس بمحتاج لأحدٍ في شيء، وكل أحدٍ محتاج إليه، في كل شيء، وهذا

(١) «المفردات» (٦١٥)، و«الأمَد الأقصى» (٤٣٠/١).

(٢) «عمدة الحفاظ» (١٧٦/٣).

(٣) «الأمَد الأقصى» (٤٣١/١).

هو الغني المطلق ، ولا يشارك الله فيه غيره ، كما قال ﷺ : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [الغنيوت: ٦] ^(١) .
والغني عن الشيء أن يكون: وجود ذلك الشيء وعدمه عنده سواء في أن لا يلحقه نقص بعدمه ، ولا زيادة نفع بوجوده ، وهو المختص بذلك ، ولا غنى سواه إلا وهو يحتاج إلى شيء بوجه من الوجوه .

وكل من سوى الله فإنه لا يستغني طرفه عين عن الله بوجه من الوجوه ^(٢) .

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الغني الذي لا أغنى منه على الإطلاق ، والكل إليه فقير محتاج إليه ، من جميع الوجوه والاعتبارات :

(١) فهو الغني سبحانه: "الذي لا تعلق له بغيره" ^(٣) ، المستغني عن كل خلقه: بذاته العلية ، وصفاته الكمالية ، وأفعاله السنية ، وأسمائه الحسنى ، وعز ملكه ، وسلطانه الذي قد احتوى الأرض والسموات العلية :

أ - الغني بذاته العلية: فهو البائن سبحانه عن كل الخليفة ، مستوٍ على عرشه ، فلا يوصل إليه ، فلا يبلغ العباد نفعه فينفعونه ، ولا ضره فيضرونه .

ب - الغني بصفاته الكمالية: إذ هي من لوازم ذاته الجليلة ، التي لا تنفك عنه بأي حال من الأحوال ، فهي غير مكتسبة من أحد من البرية ، "فهو سبحانه الكامل في ذاته لذاته ، لا مكمل لغيره" ^(٤) .

ج - الغني بأفعاله التامة السنية: "فهو سبحانه لا يستغني بغيره في فعل" ^(٥) .

د - الغني بأسمائه الحسنى: فهو "سبحانه أحد صمدٌ قيومٌ ، لا تأخذه سنة ولا نوم ، ويمتنع عليه أضداد أسمائه الحسنى التي وجبت له" ^(٦) .

(١) «لسان العرب» (٣٣٠٨/٥) ، «معجم مقاييس اللغة» (٣٩٧/٤) ، و«النهاية» (٦٨١) ، و«اشتقاق أسماء الله» (١١٧) .

(٢) «تلخيص الأدلة لقواعد التوحيد» (٥٢٤/٢) .

(٣) «المقصد الأسنى» (١٢٨) .

(٤) «شرح مختصر الروضة» للطوفي (٢٥٢/١) ، و«طريق الهجرتين» (٢٣) .

(٥) «درء تعارض العقل والنقل» (١٤/٤) .

(٦) «قاعدة في الإخلاص» ، ضمن المجموعة العلية لابن تيمية (٦٤/٢) نقلاً من «جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في

باب أسماء الله الحسنى» (٦٠٣) .

هـ - الغني بعز سلطانه وملكه: فهو تعالى الذي أقام ملكه بنفسه وحده، "ولم يكن له شريك فيه، ولا ولي من الدل، ولا نصير، ولا وزير، ولا مشير، ولا ظهير، ولم يستخلف أحداً على تدبير ملكه، ولا يحتاج إلى من يرفع إليه حوائج عباد، أو يعاونه عليها، أو يستعطفه عليهم، ويسترحمه لهم" (١).

(٢) فالله ﷻ ليس بمحتاجٍ إلى أحد فيما خلق وما يخلق، ودبر ويدبر، ويعطي ويرزق، ويقضي ويمضي، لا راداً لأمره، وهو على ما يشاء قدير (٢)، وكلُّ من دونه فهو فقير.

(٣) وهو الغني تعالى: الغني عما سواه، لا يكمل بغيره، ولا يحتاج إلى سواه، ولا يستعين بغيره في فعل، ولا يبلغ العباد نفعه فينفعونه، ولا ضره فيضره (٣).

(٤) ومن كمال غناه تعالى: أن فقر العباد إليه أمرٌ ذاتيٌّ لا ينفك عنهم، كما أن كونه غنياً حميداً ذاتيٌّ له سبحانه، فغناه وحمده ثابت له لا لأمرٍ أوجبه، وفقر من سواه إليه ثابت لذاته لا لأمرٍ أوجبه (٤).

(٥) ومن تمام غناه سبحانه: افتقار جميع العالم العلوي والسفلي إلى الله تعالى، فكلُّ موجود في هذا الوجود محتاج إليه في كل أحواله: إلى إنعامه، وإحسانه، وفي إيجاده، وإعداده، وإمداده، في أمور دينه، ودينه، وفي جلب المنافع، ودفع المضار والمساوئ (٥)، في كل نفس، وخطرة، ولحظة (٦)، وخطوة، ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

(٦) فجميع الناس فقراء لله تعالى من جميع الوجوه وفي كل الأحوال:

(أ) فقراء في إيجادهم، فلولاً إيجاده إياهم، لم يوجدوا.

(ب) فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا إعداده إياهم بها، لما استعدوا لأي عملٍ كان.

(١) انظر: «هداية الحيارى» لابن القيم (٢١٦).

(٢) «تفسير الأسماء» للزجاجي (١١٧).

(٣) «النبوات» (١٦٠)، و«درء تعارض العقل والنقل» (١٤/٤).

(٤) «طريق الهجرتين» (٢٣).

(٥) «توضيح الكافية الشافية» (١١، ١١٩) بتصرف يسير.

(٦) «تفسير النسفي» (٩٧٥).

(ج) فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق ، والنعم الظاهر والباطنة .

(د) فقراء في صرف النقم عنهم ، ودفع المكاره ، وإزالة الكروب والشدائد .

(هـ) فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية ، وأجناس التدبير .

(و) فقراء إليه في تألههم له ، وحبهم له ، وتعبدهم ، وإخلاص العبادة له .

(ز) فقراء إليه في تعليمهم ما لا يعلمون ، وعملهم بما يصلحهم ، فهم فقراء بالذات إليه ، بكل معنى ، وبكل اعتبار^(١) .

(٧) من كمال غناه: أنه لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضُرُّه معصية العاصين ، ولو كفر به كل العالمين: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] .

ففي الحديث القدسي: «يا عبادي إنكم لن تبلغوا نقعي فتتفعوني ، ولن تبلغوا ضري فتتضرُّوني»^(٢) .

(٨) وهو الغني سبحانه: الغني عن عباده من جميع الوجوه ، ومن ذلك:

(أ) أنه الغني عن إيمانهم ، قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٨] .

(ب) وغني عن شكرهم ، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَحْمَتِي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] .

(ج) وغني عن جهادهم: ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦] .

(د) وهو الغني عن صدقات العباد وإنفاقهم ، قال تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣] .

(٩) وهو الغني تعالى: الذي بيده خزائن السماوات والأرض ، وخزائن الدنيا والآخرة^(٣) ،

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧] .

(١) «تفسير السعدي» (٦٨٧) . وانظر: «شفاء العليل» (٧٣٩/٢ - ٧٤٠) .

(٢) «مسلم» (٦٥٧٢) .

(٣) «تفسير السعدي» (٩٤٨) .

(١٠) وهو تعالى الغني: فهو محسن إلى عبده، مع غناه عنه، يريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة، بل رحمة منه وإحساناً^(١)، قال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣].

(١١) ومن كمال غناه سبحانه وتماحه: تنزهه عن النقائص والمعائب، وعن كل ما ينافي غناه، فمن ذلك:

(أ) عن الطعام والشراب، قال عز شأنه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨]،

(ب) أنه لم يتخذ صاحبة، قال سبحانه: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ [الأنعام: ١٠١].

(ج) ولا ولداً، قال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨].

(د) ولا والداً، قال سبحانه: ﴿لَمْ يَكِدْ يُولَدْ وَلَمْ يُؤَلَدْ﴾ [الإخلاص: ٣].

(هـ) ولا شريكاً في الملك.

(د) ولا ولياً من الدن^(٢)، قال سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الدَّلِيلِ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١].

(١٢) وهو الغني سبحانه: الذي (أغنى): أي: أعطى ومَلَّك المال (وأقنى): أعطى أصول المال، فهو تعالى أغنى من أغنى من خلقه بالمال، وأقناه فجعل له قنية أصول أموال مقيماً عندهم لا يحتاجه إلى بيعه، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى﴾ [النجم: ٤٨]^(٣).

(١٣) من كمال غناه تعالى وكرمه، أنه يأمر عباده بدعائه، وإلى سؤاله كل وقت، ويعدهم عند ذلك بإجابة دعواتهم، وإسعافهم بجميع مراداتهم، ويؤتيهم من فضله ما سألوه، وما لم يسألوه^(٤)، قال عز شأنه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. قال ﷺ: «ليس شيء

(١) «إغاثة اللهفان» (٤١/١).

(٢) «الحق الواضح» (٤٨) بتصرف.

(٣) «تفسير الطبري» (١٥٦/٧)، و«تفسير ابن كثير» (٣٣٦/٤).

(٤) «الحق الواضح» (٤٧)، و«فتح الرحيم الملك» (٣٨).

أكرم على الله ﷻ من الدعاء»^(١).

(١٤) وهو سبحانه الغني: عن كل شريك، في ألوهيته، قال الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه»^(٢).

(١٥) وهو تعالى الغني: المغني جميع خلقه غنى عاماً: فقد جبر مفاقر خلقه، وساق إليهم أرزاقهم، وما تابع عليهم من النعم التي لا تُعدُّ ولا تُحصى، وبما يسره من الأسباب الموصلة إلى الغنى، وأغناهم عما سواه.

(١٦) وأخص من ذلك: أنه أغنى خواص خلقه بما أفاض على قلوبهم، من المعارف والعلوم الربانية، والحقائق الإيمانية، فأغناهم، وأقناهم في دنياهم، وأخراهم، حتى تعلقت قلوبهم به، فاستغنوا به، ولم يلتفتوا إلى أحدٍ سواه^(٣).

(١٧) ومن تمام غناه سبحانه: أنه ظهر استغنائه عن إيمان عباده، حيث لم يلجئهم إليه مع قدرته على ذلك^(٤).

(١٨) وهو الغني سبحانه: الدائم، الذي لم يزل ولا يزال موجوداً، ولا يتطرق إليه فناء، فهو دائم الوجود^(٥)، الغني عن كل موجود.

﴿جلال الغني﴾

الأول: من جلال غناه تعالى: أنه لو اجتمع أهل السموات والأرض وأول الخلق وآخرهم، في صعيد واحد، فسألوه كل ما تعلقت به مطالبهم، فأعطى كلاً منهم ما سأل، وما بلغت أمانيه، ما نقص من ملكه شيئاً^(٦): «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»^(٧).

(١) «صحيح الترمذي» (١٦٦/٧).

(٢) «مسلم» (٢٩٨٦).

(٣) «تفسير ابن السعدي» (٩٤٨)، «فتح الرحيم الملك» (٣٨).

(٤) «فتح الرحمن بكشف ما يلبس في القرآن لشيخ الإسلام أبي يحيى زكريا الأنصاري» (٥٦٨).

(٥) «الأمم الأقصى» (٤٣١/١).

(٦) «فتح الرحيم الملك» (٣٨).

(٧) «مسلم» (٢٥٧٧).

الثاني: ومن جلال الغني سبحانه: أن غناه وحمده ثابت له لذاته، لا لأمر أوجبه، وفقر من سواه إليه ثابت لذاته، لا أمر أوجبه، فالأشياء مفتقرة إلى الخالق لذواتها، لا لأمر آخر جعلها مفتقرة إليه، بل فقرها لازم لها، لا يمكن أن تكون غير مفتقرة إليه، كما أن غناء الرب وصف لازم له، لا يمكن أن يكون غير غني، فهو غني بنفسه لا بوصف جعله غنياً، قال ﷺ: ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ أَفْقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، فبين سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم، لا ينفك عنهم (بحال)، وغناه وحمده ذاتي له^(١)، لا ينفك عنه بأي حال.

الثالث: ومن جلاله: أن خزائن السموات والأرض والرحمة بيده، وأن جوده على خلقه متواصل، في جميع اللحظات والأوقات، وأن يده الكريمة سحاء الليل والنهار، وخيره على الخلق مدرار^(٢)، قال ﷺ: «إِنَّ يَمِينَ اللَّهِ مَلَأَى، لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةً، سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ»^(٣).

الرابع: ومن جلال الغني تعالى: أنه "هو الذي أفاض الغني على العباد، وسهّل لهم المراد، وما من غني في الوجود، إلا وهو من جناب الحقّ ممدود"^(٤).

الخامس: ومن جلاله: انه تعالى "هو المغني لأوليائه من كنوز أنواره، والمغني لأهل الكون لتسهيل أرزاقهم باقتداره، وهو المغني لكلّ الخليقة يمدد على قدرها، لأنه هو الخير بسرّها وجهرها"^(٥).

الثمرات

إذا شهد القلب غنى الرب، استغنى به عن كل الخلق، وهذا هو العز للعبد في الدنيا، وفي دار الخلد، ففي الحديث القدسي: «يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسدّ فرك، وإلا تفعل ملأْتُ يدك شغلاً، ولم أسدّ فرك»^(٦).

وفي رواية: «يا ابن آدم! تفرّغ لعبادتي أملأ قلبك غنى، وأملأ يدك رزقاً، يا ابن آدم!

(١) انظر: «طريق الهجرتين» (٢٣)، و«مجموع الفتاوى» (٤٦/١).

(٢) «الحق الواضح» (٤٧).

(٣) «البخاري» (٧٤١٩).

(٤) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (٤١٩/١).

(٥) المصدر السابق.

(٦) صححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٤٦٦).

لا تباعد مني فأملأ قلبك فقراً، وأملأ يديك شغلاً»^(١).

واعلم يا عبد الله أن "أفضل الغنى هو غنى القلب كما قال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى النفس»^(٢).

فبين ﷺ أن الغنى قد يكون بغير المال، وأن من وضع الله الغنى في قلبه فقد أغناه، ولقد أحسن من قال:

كم من فقير غني النفس تعرفه وكم من غني فقير النفس مسكين

وقال ﷺ: «ومن يستغن يُعنه الله، ومن يستعفف يعفه الله»^(٣)»^(٤).

"فمتى غني القلب بالله ﷻ، وبما له من المعارف وحقائق الإيمان، وغني برزقه، وقنع به، وفرح بما أعطاه الله، صار العبد الذي وصل إلى هذه الحال لا يغبط الملوك، وأهل الرئاسات، لأنه حصل له الغنى، الذي لا ينبغي به بديلاً"^(٥).

فما أغناه حينئذ من فقير، وما أعزّه من ذليل، وما أقواه من ضعيف، وما آنسه من وحيد، فهو الغني بلا مال، القوي بلا سلطان، العزيز بلا عشيرة، المكفي بلا عتاد، فيا له من غنى ما أعظم خطره، وأجلّ قدره^(٦).

"ومن عبودية الغنى سبحانه: أن يعلم العبد (أنه) فقيرٌ إلى الله تعالى من كل وجه، وبكل اعتبار، فهو فقيرٌ إليه من جهة: ألوهيته، وإحسانه إليه، وقيامه بمصالحه، وتدبير له، وفقيرٌ إليه من جهة: ألوهيته وكونه معبوده وإلهه ومحبوبه الأعظم، الذي لا صلاح له، ولا فلاح، ولا نعيم، ولا سرور، إلا بأن يكون أحب شيء إليه.

وفقيرٌ إليه من جهة: معافاته له من أنواع البلاء، فإنه إن لم يعافه منها هلك ببعضها، وفقيرٌ إليه من جهة: عفوه عنه، ومغفرته له، فإن لم يعف عن العبد ويغفر له فلا سبيل له إلى النجاة، فما نجا

(١) صححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم (١٣٥٩).

(٢) البخاري (٦٤٤٦)، ومسلم (١٠٥١).

(٣) صحيح البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

(٤) «الأسنى» (٢٦٩).

(٥) «فتح الرحيم الملك» (٣٨ - ٣٩).

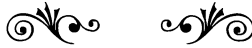
(٦) «طريق الهجرتين» (٨٥).

أحدٌ إلا بعفو الله ، ولا دخل الجنة إلا برحمة الله ، فالله سبحانه هو المتفرّد المستأثر بالغنى والحمد من كل وجه وبكل اعتبار ، والعبد هو الفقير المحتاج إليه المضطر إليه بكل وجهٍ واعتبار^(١).

"فينبغي للعبد أن يكون مفتقرًا بالسرِّ إليه ، ومنقطعاً عن الغير إليه ، حتى تكون عبوديته محضة ، فالعبودية هي الذلُّ والخضوع ، وعلامته: أن لا يسأل من أحدٍ .

قال الواسطي رحمه الله: من استغنى بالله لا يفتقر ، ومن تعزز بالله لا يذل ، وقال الحسين: على مقدار افتقار العبد إلى الله ، يكون غنيًّا بالله تعالى ، وكلما ازداد افتقاراً ازداد غنيًّا^(٢).

ولمّا كان الفقر إلى الله سبحانه هو عين الغنى به ، فأفقر الناس إلى الله أغناهم به ، وأذلّهم له ، وأعزّهم ، وأضعفهم بين يديه ، أقواهم^(٣).



(١) «شفاء العليل» (٢/٧٣٩ - ٧٤٠).

(٢) «مدار التنزيل وحقائق التأويل» للنسفي (٩٧٥).

(٣) «طريق الهجرتين» (٦٤).

٣٠- الله ﷻ الحكيم ﷻ سبحانه وتعالى

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ أَلْغَزِيُّ الْحَكِيمِ﴾ [المائدة: ٣٨].

المعنى اللغوي

الحكيم: صيغة مبالغة، على وزن (فعليل) بمعنى: فاعل، ويأتي (فعليل) بمعنى (مُفْعَل) يقال منه: أحكمت الشيء أَحْكَمُهُ إِحْكَامًا، فهو مُحَكَّمٌ، وفاعل ذلك هو: الحكيم، والحكم: أصله المنع لإصلاح، ويسمى الفعل المنتظم حكمة، وكذلك القول الصائب حكمة، فالحكمة: إصابة الصواب وموافقة الحق، والعدل، في القول، والفعل.

فالحكيم هو: العالم، والحاكم، والمتقن، والعاقل، والممتنع عن القبائح:

الأول: العالم بأحكام الأمور، صاحب الحكمة، وهي: سعة العلم، والإصلاح على مبادئ الأمور وعواقبها، قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، قال ابن عباس ؓ وغيره: الحكمة: القرآن، سمّاه حكمة: لأنه علم، فكانه قال: ومن يؤت القرآن فقد أُوتِيَ علمًا كثيرًا.

ف"الحكمة هي العلم الذي يتصل به الفعل، فإن من يعلم أمرًا ولم يأت بما يناسب علمه، لا يقال له حكيم"^(١)، وبهذا يُعلم أن الحكمة أعمُّ من العلم، لأنها عمل، وعلم^(٢).

فالحكمة هي عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ولَمَّا كان أفضل العلوم على الإطلاق هو علمه الأزلي الدائم المطابق لحقيقة الأشياء، والذي لا يتطرق إليه شبهة ولا خفاء، كان سبحانه الحكيم الحقّ، ذا الحكمة المطلقة.

الثاني: الحكم والقاضي الذي يفصل بين الأمور، والحاكم: الفاصل بين الناس بعلمه، والملمزم لهم ما لا يمكنه مخالفته، ولا يدعهم يخرجون عنه.

(١) «تفسير الرازي» مج (١٣) (١٩١/٢٥)، و«نظم الدرر» (١٤٩/٦).

(٢) «تفسير غرائب القرآن» للعلامة نظام الدين النيسابوري (٥٧/٣).

الثالث: المحكم المتقن للأشياء المدقق فيها، الذي يضع الأشياء في أحسن مواضعها ومحالّها، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها: حكيم، ويقال: "أحكمت الشيء"، أي: أتقنته^(١)، فالله ﷻ حكيم كما وصف نفسه بذلك: لإتقان أفعاله واتساقها، وانتظامها، وتعلق بعضها ببعض.

الرابع: المنع، وأوله: المنع من الظلم، والمعنى: الذي يمتنع عن فعل القبائح، ويمنع نفسه منها، وهو مأخوذ من حكمة اللجام، وهي: الحديدية في اللجام تكون على أنف الفرس وحنكه تمنعه عن مخالفة راحبه، ويقال: "حكمت الدابة": إذا منعتها.

والحكمة: تمنع من الجهل، وفي الحديث: «إن من الشعر لحكماً»^(٢)، أي: إن في الشعر كلاماً نافعاً يمنع من الجهل والسفه، وينهى عنهما.

الخامس: العدل، ورجل حكيم، أي: عدل^(٣).

والحكمة حكمتان: علمية، وعملية، فالعلمية: الاطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها: خلقاً وأمرًا، قدرًا وشرعًا، والعلمية: وضع الشيء في موضعه^(٤).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الحكيم ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَكِيمِينَ﴾ [الأعراف]، الذي "بحكمته حصلت مصالح العالم، وانتظمت مهمات الدنيا والآخرة"^(٥):

(١) فهو تعالى الحكيم: في أقواله، وفي أفعاله، وفي أحكامه، فلا يقول، ولا يفعل، ولا يفصل، إلا الحق، والعدل، والصواب، فلا يخرج عن حكمته مخلوق، ولا مشروع.

(٢) وهو الحكيم تعالى: الذي له الحكمة المطلقة في أفعاله، حيث جاءت موافقة لعلمه،

(١) قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَلِكْ يَإَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتَيْتُ إِلَيْكُمْ الْحَكِيمَ﴾ [يونس: ١]، الكتاب: القرآن، والحكيم: المحكم المبين الواضح.

(٢) صحيح أبي داود (٥٠١١).

(٣) «لسان العرب» (٩٥١/٢)، و«المفردات» (٢٤٨)، و«معجم مقاييس اللغة» (٩١/٢)، و«اشتقاق أسماء الله» (٦٠)، و«تفسير أسماء الله» (٤٣) (٥٢)، و«القاموس المحيط» (٣٠٩)، و«إبطال التأويلات» (٦٤٦)، و«النهاية» (٢٢٢)، و«المقصد الأسنى» (١٠٧)، و«شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان (٢٢٦/٢)، (٢٣٢)، و«الأمَد الأقصى» (٢٣١/٢)، و«الحق الواضح» (٥٠ - ٥١).

(٤) «مدارج السالكين» (٤٧٨/٢).

(٥) «التفسير الكبير» مج (١) (١٣٠/١).

وإرادته، وقدرته، فكان سبحانه مصيياً عادلاً في التقدير، محسناً في التدبير، ليس له أغراض، وليس على فعله اعتراض.

(٣) فهو الذي يحكم الأشياء، ويتقنها، فلا تفاوت فيها ولا اضطراب، ويضعها سبحانه في أحسن مواضعها، وينزلها في أفضل منازلها اللائقة بها، قال عزّ شأنه: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]^(١).

(٤) وهو الحكيم ﷻ: الذي لا يدخل في تدبيره خلل، ولا زلل، ولا وهن، الذي أوجد الخلق بأحسن نظام، وربّه بأكمل إتقان، لا تفاوت فيه ولا نقصان، قال ﷻ: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك]، وقال تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ لِدَنِّي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨].

(٥) وهو سبحانه الحكيم: له الحكمة العليا، في خلقه، وأمره، وشرعه، فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يشرع شيئاً سُدًى، ولا يترك عباده هملاً، فلا يأمر إلا بما فيه مصلحة خالصة، أو راجحة، ولا ينهى إلا عما فيه مضرّة خالصة، أو راجحة^(٢).

(٦) ومن حكمته سبحانه السنية: ما أظهر في أهل الحكمة من خليقته، وما استودع جميع الموجودات من المضارّ والمنافع، وسائر الخلق، وخواصّ الجبلة، ولطف معاني الصبغة من هدايته إياها لما قدر لها، واستعماله إياها لما فطرته عليه^(٣).

(٧) فالله ﷻ حكيم: لإتقانه أفعاله، واتساقها، وانتظامها، وتعلق بعضها، فوضع سبحانه الأمور مواضعها بعدله، وتصرفت الأمور كلها الجملة والتفصيل على أقدار معلومة^(٤) متقنة بحكمته.

(٨) فهو سبحانه الموصوف بكمال الحكمة، وبكمال الحكم بين المخلوقات، فهو تعالى واسع العلم، المطلع على مبادئ الأمور وعواقبها، واسع الحمد، تامّ القدرة، غزير الرحمة، الذي يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها اللائقة بها، في خلقه وأمره، فلا يتوجه إليه سؤال،

(١) «تفسير ابن جرير الطبري» (٣٤/٢)، و«تفسير ابن كثير» (١٨٤/١ - ٤٥٩)، و«الحجة في بيان المحجة» (١٦٩/١)، و«المنهاج في شعب الإيمان» (١٩١/١)، و«الاعتقاد» (٥٣)، و«شرح الأسماء» للرازي (٢٨٦)، «القواعد الحسان» ابن السعدي (٢٣)، و«موسوعة له الأسماء الحسنى» (٢٥٢/١).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٣٩١/١)، و«تفسير السعدي» (٨٧٥، ٩٤٥)، و«الحق الواضح» (٥١ - ٥٣)، و«فتح الرحيم الملك» (٢٣).

(٣) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن بركان (٢٢٨/١).

(٤) «الأسنى» (٣٥٨).

ولا يقدح في حكمته مقال^(١)، ولا تعارض بأيّ حال.

(٩) ومن كمال حكمته تعالى: ما أوجده من العجائب المبدعات، والآيات البيّنات، بإحكام متناسق، وحكم مستمرة في الوجود إلى يوم الخلود، لا تدرك كنهه العقول، بل يكُلُّ دونه النظر، وينحسر دونه البصر^(٢).

(١٠) وهو الحكيم تعالى: الحاكم^(٣)، الذي له الحكم المطلق بالحق، والعدل، والحمد من جميع الوجوه، وله الأحكام الثلاثة العليا في الأولى والآخرة:

ففي الأولى:

(أ) الأحكام الدينية الشرعية: فما أمر بشيءٍ إلا لحكمة، والحكمة في فعله والتزامه، ولا نهى عن شيءٍ إلا لحكمة، والحكمة في تركه واجتنابه.

(ب) والأحكام القدرية الكونية: فما أعطى ولا منع شيئاً إلا لحكمة، ولا أصاب بمصيبةٍ إلا لحكمة، فكلُّ قضائه وأقداره حكمة.

وفي الآخرة:

(ج) بالأحكام الجزائية: في يوم القيامة بين خلقه، الدائرة بين العدل، والفضل، فالعدل مع أوليائه وأعدائه، والفضل اختصّ بأوليائه، فلا يشاركه تعالى فيها مشارك، قال عزّ شأنه: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١]، فكلها جارية على الحكم، والحق، في أصلها، وفرعها، وغاياتها، وثمراتها.

(١١) فهو سبحانه بحكمته خلق الخلق، وابتدأه بالحكمة، وجعل غايته والمقصود منه الحكمة، وكذلك الأمر والنهي وجد بالحكمة، وكانت غايته المقصودة الحكمة. فهو الحكم في خلقه، وأمره تعالى.

(١٢) وهو الحكيم: الذي لا أحكم منه سبحانه، الذي بلغت حكمته النهاية التي لا مزيد عليها، كما هو مشاهد في إتيان أفعاله، وإحكام كل شيء سمعناه من أقواله^(٤).

(١) «الحق الواضح» (٥١)، و«فتح الرحيم الملك» (٢٣).

(٢) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان اللخمي (٢٢٦/٢).

(٣) «مدراج السالكين» (٥٣/١).

(٤) ينظر: «توضيح الكافية الشافية» (١١٩)، و«تيسير الكريم المنان» (٤٢٠، ٦٥١)، و«الحق الواضح» (٢٤)، و«النظم

الدرر» (١٤٩/٦).

(١٣) وهو سبحانه ﴿أَحْكَمُ الْمَحْكَمِينَ﴾ [مرد: ٤٥] ، أي: أتقن المتقنين لما يكون به الحكم ، لأنه تعالى أعلمهم ، وأعدلهم ، فلا يتطرق إلى حكمه نقض ، فلا راد ولا معقب لما حكم به وقضاه ، المنزه عن الخطأ والمحاباة ، لأنه صادر عن كمال العلم والحكمة^(١) .

(١٤) وهو الذي أحكم شرعه ، وقدر ما قدره على أحسن تقدير ، لا تستطيع العقول أن تقترح مثل أحكامه الصالحة الموافقة لكل زمان ، ومكان ، وحال .

(١٥) ومن حكمته العليا سبحانه: أنه جعل لكل شيء قدراً ، ولكل أمرٍ منتهى ، بحسب ما اقتضته حكمته الربانية السنية ، فهو تعالى قدر الأمور بأسبابها ، ووضع الأشياء في مواضعها وأقوم محالها ، ويسوق الأمور إلى أوقاتها المقدرة لها .

فشملت حكمته الباهرة في: (أ) بدايتها ، وفي: (ب) نتائجها ، وفي: (ج) نهاياتها سبحانه^(٢) .

وكما قال يوسف عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَأْتُوكَ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠] .

(١٦) ومن كمال حكمته تعالى: أنه يحكم آياته ، قال سبحانه: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الحج: ٥٢] .

أي: أنه يتقنها ، ويحررها ، ويحفظها فتبقى خالصة من مخالطة الشيطان ، فهو تعالى قد عصم الرسل بما يبلغون عن الله ، وحفظ وحيه أن يشتهه ، أو يختلط بغيره^(٣) .

(١٧) وهو أحكم الحاكمين تعالى: صنعا ، وخلقاً ، وتديباً ، وإيجاداً ، وتقديراً ، وقضاء بالحق ، وعدلاً بين الخلق ، قال سبحانه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْمَحْكَمِينَ﴾ [التين: ٨]^(٤) .

(١٨) ومن حكمته سبحانه التي يحمد عليها: أن له الحكمة البالغة في إدالة الكفار في بعض

(١) انظر: «فتح القدير» (٦٣٣/٢) ، «السراج المنير» (٦٨/٢) ، و«التحرير والتنوير» مج (٥) (٨٥/١٢) .

(٢) كما قال تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣] .

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (٣٣١/٥) ، و«تفسير السعدي» (١٦٨ ، ٤٠٤ ، ٥٤٢) .

(٤) ينظر: «أنوار التنزيل» (٥٤٩/٣) ، و«أحكام القرآن» (٣٥٧/١٠) .

الأوقات على المسلمين إدالة غير مستقرة، فهو يؤخر نصر حربه إلى وقت آخر اقتضته الحكمة الإلهية، قال تعالى: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وقال: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠] (١).

(١٩) ومن كمال حكمته تعالى: أن ما جاء به محمد ﷺ من الدين والقرآن، أكبر البراهين على صدقه، وصدق ما جاء به، لكونه محكمًا كاملاً، لا يحصل الصلاح، في الدنيا والآخرة، إلا به (٢).

(٢٠) ومن تمام حكمته سبحانه: أنه تنزهه وتقدس عن فعل ما لا ينبغي، ومن ذلك: أنه تعالى لم يخلق شيئاً عبثاً، ولم يترك خلقه هملاً سدى، فإن ذلك مخالف لحكمته العليا، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال عز شأنه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ [ص: ٢٧] (٣).

جلال الحكيم

الأول: من جلاله: أنه إذا أمر بأمر كان حسناً في نفسه، وإذا نهى عن شيء كان قبيحاً في نفسه، وإذا أخبر بخبر كان صدقاً، وإذا فعل فعلاً كان صواباً، وإذا أراد شيئاً كان أولى بالإرادة من غيره، فهو حكيم في إراداته، وأفعاله، وأقواله، وهذا الوصف على الكمال، لا يكون إلا لله تعالى وحده (٤).

الثاني: ومن جلال الحكيم سبحانه: "أنه ذو الحكمة البالغة (والحجة الدامغة)، المحسن في تدبيره، المصيب في تقديره، الخبير بحقائق الأمور، العليم بحكمة المقدور، الذي يضع كل الأشياء في (أكمل، وأنسب) مواضعها، ويعلم خواصها، ومنافعها، (ونتائجها)، فحكمته الباهرة تعجز العقول عن الإحاطة بكنهها، وتكفل الألسن عن التعبير عنها، وكل حكمة في الوجود هي من آثار حكمته" (٥).

(١) «تيسير الكريم المنان» (١٤٦، ٣٣٨).

(٢) «الحق الواضح المبين» (٥٣).

(٣) ينظر: تفسير السعدي (٥٦٠، ٧١٢).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٨٠/١٤)، «مدارج السالكين» (٤٢٧/٣).

(٥) انظر: «مدارج السالكين» (٤٣٨/١)، و«شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (٢٨٧)، و«موسوعة له الأسماء الحسنى» للشرباصي (٢٥٢/١).

فهو تعالى الحكيم المحكم لخلق الأشياء، والمعنى: هو إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها، إذ ليس ذلك في كل الخليقة، ففيها ما لا يوصف بوثاقة البنية، كالبقعة، والنملة، وما أشبهها من ضعاف الخلق، إلا أن التدبير فيهما، وجهات الدلالات فيها على قدرة الصانع، وعلمه ليس أقل من دلالة السموات والأرض، والجبال، وسائر معظام الخليقة.

وكذلك هذا في قوله ﷻ: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ [السجدة: ٧]، ليس المراد منه الحسن الرائق في المنظر، فإن هذا المعنى معدوم في القرد، والخنزير، والدب، وأشكالها من الحيوان، وإنما المراد منه إلى حسن التدبير في إنشاء كل شيء من خلقه على ما أحب أن ينشئه عليه، وإبرازه على الهيئة التي أراد أن يهيئه عليها، بحسب المصلحة، وهو المراد بقوله ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢] (١).

الثالث: ومن جلاله حكمته تعالى: أنه خلق السموات والأرض، فأبدعها بأحسن خلقه، ونظام، وأبدع هيئة، وصفة، قد تمت فيهما أوصاف الحسن، ونهاية الحكمة، وأودع فيهما من لطائف صنعته، وعجائب قدرته، وأسرار خلقته، ما يشهد لمبدعهما بكمال الحكمة، وسعة الحمد، وواسع العلم، ولطيف اللطف، ودقيق الخبرة (٢).

الرابع: ومن جلاله: أنه أحكم خلق الأشياء على مقتضى حكمته، له الحكمة في ما فعله، وخلقها، وهي حكمة تامة اقتضت صدور هذا الخلق، ونتج منها ارتباط المعلول بعلة، وارتباط السبب بنتيجته، وتيسير كل مخلوق لغايته، فبحكمته خلق فسوى، وقدر فهدى، وأسعد وأشقى، وأضلَّ وهدى، ومنع وأعطى، فهو تعالى الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويعلم خواصها، ومنافعها، ويرتب أسبابها، ونتائجها (٣).

الخامس: ومن جلال حكمته ربنا السنية: "أنَّ المخلوقات والشرائع، مشتملات على الحكم والغايات الحميدة، كما أنها في نفسها في غاية الإحكام، فمن أجل الغايات في ذلك: أنه خلق الخلق وشرع الشرائع، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل ليعرفه العباد بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وليعبدوه وحده لا شريك له، فأئى حكمة أجل من هذا؟ وأي فضل وكرم أعظم من هذا؟" (٤).

(١) انظر: «شأن الدعاء» (٧٣ - ٧٤)، و«الأسنى» (٣٨٢)، و«شرح الأسماء» للرازي (٢٨٤ - ٢٨٥).

(٢) «فتح الرحيم» (٣٩).

(٣) «أسماء الله الحسنى في الكتاب المقدس» (٣٠٠) د. الرضواني.

(٤) «توضيح الكافية» (١٢٠)، «فتح الرحيم» (٢٤).

وهذه يا عبد الله قطرة من بحر حكمته المحيطة بخلقه ، والبصير يطالع بصيرته ما وراءه ، فيطلعه على عجائب من حكمته ، لا تبلغها العبارة ، ولا تنالها الصفة (والإشارة) ، وهذا باب إنما ذكرنا منه قطرة من بحر ، وإلا فقول البشر أعجز ، وأضعف من أن تحيط بكمال حكمته في شيء من خلقه ، فسبحان من فاقت حكمته عدّ العاديين ، وحصر الحاصرين^(١) .

اسمٌ و"وصفٌ تحار فيه الأوهام ، وتضل فيه الأفكار ، فالمطب فيه مقصّر ، والمطوّل فيه موجز"^(٢) .

الثرات

عندما يؤمن العبد بكمال حكمته سبحانه ، وأنه تعالى الحكيم في أمره ، ونهيه ، وقضائه ، وحكمه ، بنوعيه الكوني والشرعي ، فإنه يمتلئ قلبه أمنًا ، وطمأنينةً ، وسكينة ، بقضاء الله وقدره ، وتسليمًا لحكمه ، ولشريعته الغراء ، الذي فيها الخير والصلاح لكل العباد ، فمن آمن بأن الله تعالى له الحكمة العليا لم يعترض عليه في شيء ، ولم يتهم حكمه بشيء ، بل يرى كلّ أحكامه في كلّ أحواله التي يتقلب بها في حياته حسنًا مصيبًا بها سبحانه ، من جميع وجوهه ، إذ أن حكمته ، وحكمه خير محض ، لا شرّ فيهما البتة ، ولهذا "فإن العبد إذا خفيت عليه حكمة الله في بعض المخلوقات ، والمأمورات ، فالواجب عليه التسليم ، واتّهام عقله ، والإقرار لله تعالى بالحكمة"^(٣) .

وهذه الحقيقة الإيمانية ، والعبودية السنية ، قد أدركها وأيقن بها خيرية البرية من الأنبياء ، والمرسلين عليهم أفضل الصلاة والتسليم ، فقد فهموا "عن الله تعالى مراده ، وحكمته ، وانتهوا إلى ما وقفوا عليه ، ووصلت إليه أفهامهم ، وعلومهم ، وردّوا علم ما غاب عنهم إلى أحكم الحاكمين ، ومن هو بكل شيء عليم ، وتحققوا بما علموه من حكمته التي بهرت عقولهم: أن الله تعالى في كلّ ما خلق ، وأمر ، وأثاب ، وعاقب ، من الحكم البوالغ ما تقصر عقولهم عن إدراكه ، وأنه تعالى هو الغني ، الحميد ، العليم ، الحكيم"^(٤) .

ولهذا عندما تنزل عليهم المصائب ، وتحلّ بهم الشدائد ، يلجؤون إلى الله تعالى بإشهاد

(١) انظر: «شفاء العليل» (٦٥٥/٢) ، و«مفتاح دار السعادة» (١٤٦/٢) .

(٢) «شرح الأسماء الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (٢٢٨/٢) .

(٣) «تفسير السعدي» (٤١) .

(٤) «مفتاح دار السعادة» (٤٨٥/٢) .

أَلَسْتُمْ بِحُكْمَتِهِ ، مع ما في قلوبهم من التصديق به ، والقيام بمقتضاه وموجبه ، فيعقوب ﷺ عندما جاءه الخبر بحبس ابنه الثاني في غريته ، توجه إلى الله برجائه ، ودعائه: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ﴾ [يوسف: ٨٣] ، وابنه يوسف حينما جمعه الله تعالى بأبويه ، قال ممتنًا ومستذكرًا نعم الله تعالى عليه قال: ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [يوسف: ١٠٠] ، بل حتى الملائكة كما حكى الله تعالى عنهم: ﴿ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ [البقرة: ٣٢] .

واعلم رعاك الله كذلك: "أَنَّ حَظَّ الْعَبْدِ فِي نَفْسِهِ ، وما يخصه من شهود هذه الحكمة: فبحسب استعداده ، وقوة بصيرته ، وكمال علمه ، ومعرفته بالله سبحانه ، وأسمائه ، وصفاته ، ومعرفته بحقوق العبودية ، والربوبية ، وكل مؤمن له من ذلك شرب معلوم ، ومقام لا يتعداه ، ولا يتخطاه ، والله الموفق المعين" ^(١).

ومن عبودية هذا الاسم الكريم: أنه ينبغي للمؤمن "أن يتعلم الحكمة ويطلبها عند أهلها ، حتى يكون حكيماً يضع الأشياء مواضعها ، وحقيقة الحكمة إصابة الصواب ، وموافقة الحق ، والعدل ، في القول والعمل" ^(٢) ، فمن أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً ، قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٧٦] ، "والحكمة هي القرآن" ^(٣) ، فمن أرادها ، فليطلبها في "المعرفة بالقرآن ناسخه ، ومنسوخه ، ومحكمه ، ومتشابهه ، ومقدمه ، ومؤخره ، وحلاله ، وحرامه ، وأمثاله" ^(٤) ، فإذا تعلّمها وجب عليه بذلها لأهلها ، ومنعها من لا يستحقّها ^(٥).



(١) «مدارج السالكين» (٤٤٢/١).

(٢) «الأسنى» (٣٨٣).

(٣) قول ابن مسعود ، انظر: «معاني القرآن وإعرابه» (٣٥١/١).

(٤) صح عن ابن عباس ﷺ في تفسيرها ، انظر: «التفسير الواضح» (٣٧٨/١).

(٥) «الأسنى» (٣٨٤).

٣١- الله ﷻ العظيم ﷻ جل جلاله

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

المعنى اللغوي

العظيم: صفة مشبهة، لمن أُنصف بالعظمة، وهذا الاسم الجليل له عدة معاني وإطلاقات سميّة، تدلُّ على جلالة قدره، ومكانته العليّة، والتي منها:

الأول: الكبر، والقوة، وهو مصدر الشيء العظيم، و"عظم الأمر": كبر.

الثاني: الكبر والاتساع، ويكون في المعاني والذوات، ويقال: عظم، أي: كبر واتسع، وعلا شأنه وارتفع.

الثالث: التبجيل والتفخيم والكبرياء، يقال: "أعظمت الرجل إعظاماً"، إذا: جللته، وأكبرته.

الرابع: علوُّ الشأن وجلالة القدر، ورفع المنزلة والمرتبة، فيستعمل للمحسوس، والمعقول، ومنه عظيم القوم: من له العظمة والرياسة منهم، وفلان عظيم القرية، أي: سيدها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرِيبَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف]، أي: هلا أنزل هذا القرآن على رجلٍ من رجلين عظيمين من القريتين؟

الخامس: المنيع، الذي لا يمكن الامتناع عليه بالإطلاق، لأنه عظيم القوم: إنما يكون مالك أمورهم، الذي لا يقدرّون على مقاومته، ولا مخالفة أمره.

السادس: كثرة الشيء ومعظمه، ومنه حديث ابن سيرين: "دخلتُ إلى مجلس فيه عظم الأمصار" أي: جماعة كثيرة، ومعظم الشيء: أكثره، وعظم الشيء: أكبره^(١).

يقول ابن القيم رحمه الله: "كل موصوف فضفته بحسبه، فعظم الذات شيء، وعظم صفاتها

(١) «لسان العرب» (٤/٣٠٠)، «معجم مقاييس اللغة» (٦٨٦)، و«النهاية» (٦٢٥)، و«الصحاح» (٧١٨)، و«المنهاج في شعب الإيمان» (١٩٥/١)، و«شأن الدعاء» (٦٥)، «اشتقاق أسماء الله» (١١١)، «الأسنى» (٢٣٢ - ٢٣٤)، «شرح تفسير سورة النساء لابن عثيمين» (١١٤/١).

شيء، وعظم القول شيء، وعظم الفعل شيء، والرب تعالى له العظمة بكل اعتبار وكل وجه بذاته...، وأهل السنة يثبتون لله سبحانه: العظمة الذاتية، والمعنوية^(١).

وبالجملة: العظيم يطلق على: القوي، والكبير الذات، وعلو الشأن والصفات، وكثرة النعوت، والتبجيل، والتعظيم، والمنيع، والممتنع الذي لا يُقاوم. وهذا الاسم الجليل، لربنا العظيم، يحمل في مبانيه ومعانيه: الجلال، والكمال، والمجد، والعظمة، والشرف، والسؤدد.

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو العظيم الذي لا أعظم منه على الإطلاق، "فلا يتصور شيء في وهم ولا يتخيل في عقل إلا وهو أعظم منه"^(٢):

(١) هو العظيم سبحانه: "الذي جاوز قدره، وجلّ عن حدود جميع العقول، حتى لا تتصور الإحاطة بكنهه وحقيقته"^(٣).

(٢) فهو تعالى ذو العظمة والجلال: فهو عظيم الشأن، جليل القدر، عظيم الملك والسلطان^(٤)، الذي ليس له فيه شبيه ولا مثال.

(٣) فهو تعالى العظيم: بوجوب وجوده، فهو سبحانه أعظم من كل عظيم من وجوده، فإنه دائم الوجود أزلاً وأبداً^(٥)، قد وسع وجوده الزمان، والمكان.

(٤) فهو تعالى أعظم من كل شيء: في ذاته، وصفاته، وأفعاله^(٦)، وسلطانه وملكه.

(أ) العظيم في ذاته: التي ليس كمثله شيء، فمن عظمت أن السماوات والأرض في كف الرحمن أصغر من الخردلة، كما قال ابن عباس^(٧) وغيره، قال ﷺ: ﴿وَلَا يَتَوَدُّهُ حِفْظُهَا وَهُوَ

(١) «الصواعق المرسلة» (٤/١٣٧٤، ١٣٧٨).

(٢) «نظم الدرر» (٦/٥٩٨).

(٣) «النهاية» (٦٢٥)، و«المقصد الأسنى» (٦٤).

(٤) «تفسير أسماء الله» (٤٦)، و«اشتقاق أسماء الله» (١١١).

(٥) «شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (٢٥٩)، و«موسوعة الشرباصي» (١/١٨٥).

(٦) «الصواعق المرسلة» (٤/١٣٧٩).

(٧) أخرجه عبد الله بن أحمد في «السنة» في الردّ على الجهمية (١٠٩٠) (٢/٤٧٦)، ولفظه: «ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهما في يد الله ﷻ، إلا كخردلة في يد أحدكم».

أَعْلَى الْعَظِيمُ ﴿٢٥٨﴾ [البقرة] ، وقال تعالى : ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] .

قال ﷺ : «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كحلقة بأرض فلاة ، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة»^(١).

فإذا كانت هذه العظمة في الكرسي والعرش وهما من مخلوقاته ، فكيف بعظمة الله تعالى الذي له المثل الأعلى ، الذي استوى على عرشه ، وعلا فوق جميع خلقه ﷻ^(٢) ، ولهذا ختم ﷻ بقوله : ﴿هُوَ أَعْلَى الْعَظِيمِ﴾ [البقرة] ، فذاته عز شأنه العلية ، أعظم الذوات ، وأعلى من كل المخلوقات .

(ب) وهو العظيم في صفاته : وقدره ، فهو موصوف بكل صفة كمال ، وله من ذلك الكمال أكمله ، وأعظمه ، وأوسع ، فهو العظيم ، من كل وجه ، وعلى كل معنى ، فهو عظيم في رحمته : لأنها وسعت كل الخليقة بل وسعت الكون كله .

العظيم في القدرة والافتقار : لأنه تعالى لا يمتنع عليه شيء في كل الأقطار .
العظيم في هباته وعطائه : لأنها شملت كل الكائنات في كل اللحظات لا تنقطع عنها في أي أوانٍ ، ولا في أي حال .

العظيم : في جماله ، وفي قرب ، وفي علوه ، وفي كل صفاته ، إلى ما لا يحصى .
"فعظمته تعالى يظهرها لعباده في عظيم قدرته وعظيم مشيئته ، وعظيم كلامه ، وعظيم نظره ، وعظيم سلطانه ، وعظيم ملكه ، وملكوته ، وكل ذلك موجود في عظمة ذاته ، ذو الجلال والإكرام"^(٣).

(ج) وهو العظيم في أفعاله : لأنها تنبئ عن سعة الحكمة ، والعدل ، والفضل ، والمشيئة ، والإرادة النافذة ، المنفردة عن المعين ، والشريك ، والنصير ، ومن عظمة أفعاله : أنه فعال لما يريد ، ومتى يريد ، وكيف يريد ، وفي أي وقت يريد .

(هـ) فهو العظيم المطلق : فلا أحد يساويه ، ولا عظيم يدانيه ، فما من كمال تفرضه الأذهان ،

(١) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٠٩) .

(٢) انظر : «أسماء الله الحسنى» د. محمود الرضواني (٤٢٣) .

(٣) «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (١٦٢/١) .

ويقدّره المقدّرون ، إلا والله سبحانه أعظم من ذلك وأجل^(١).

ففي الحديث القدسي : «الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما ، قذفته في النار»^(٢) ، فله تعالى العظمة والكبرياء ، الوصفان اللذان لا يُقدّر قدرهما ، ولا يبلغ العباد كنههما^(٣).

٦) وهو سبحانه العظيم : الذي "تضاءلت لعظمته المخلوقات العظيمة ، وصغرت لدى كبريائه السموات السبع ومن فيهنّ ، والأرضون ومن فيهنّ"^(٤) ، فسبحانه وله الحمد ، ما أعظم ما ترى من سلطانه ، وما أصغره في جنب ما لم تر^(٥).

٧) وهو العظيم : المعظم جلّ شأنه ، الذي يعظمه خلقه ، ويهابونه ، ويتقونه^(٦) ، قد فطرت نفوس البرية على تعظيمه ، وإجلاله .

٨) ومن كمال عظّمته : "أنه تعالى لا يمكن الامتناع عليه بالإطلاق ، فلا يمكن أن يعصى كرهاً ، ولا يخالف أمره قهراً ، فلا يعجزه شيء"^(٧) في الأرض ، ولا في السموات العلا .

٩) وهو العظيم سبحانه : "المستحقّ للربوبية ، المنفرد بالألوهية ، فلا يحتاج إلى أنصار ، ولا إلى أصدقاء ، ولا إلى أعوان ، ولا يحده الزمان ، ولا يحويه المكان"^(٨) ، وهو على العرش استوى فوق كلّ الأنام .

١٠) وهو العظيم سبحانه : الذي تتضاءل عند عظّمته جيروت الجبابرة ، ويصغر في جانب جلاله أنوف الملوك القاهرة ، فسبحان من له العظمة العظيمة ، والكبرياء الجسيمة ، والقهر والغلبة^(٩) ، لكل الخليقة .

١١) ومن معاني عظّمته : أنه لا يستحقّ أحدٌ من الخلق أن يعظم كما يعظم الله ﷻ ، فهو

(١) انظر : «شرح النونية» للهراس (٦٨/٢) ، و«أسماء الله الحسنى» للأشقر (١٤٦) ، و«فتح الرحيم الملك» (٣٠) .

(٢) «صحيح أبي داود» (٤٠٩٠) ، وبنحوه «مسلم» (٢٦٢٠) .

(٣) «فتح الرحيم الملك» (٣٠) ، «الحق الواضح» (٢٧ - ٢٨) .

(٤) «تفسير السعدي» (٦٣١) .

(٥) «شرح الأسماء الحسنى» للإشبيلي (١٦٢/١) .

(٦) «تفسير الطبري» (٤٠٦/٥) .

(٧) «المنهاج» (١٩٥/١) .

(٨) «حاشية شرح أسماء الله الحسنى» لابن بركان (١٦٢/١) .

(٩) «تفسير السعدي» (١١٠) .

المستحقُّ وحده أن يُعَظَّمَ غاية التعظيم ، فيستحقُّ ﷺ من عباده أن يعظّموه بقلوبهم ، وألسنتهم ، وجوارحهم ، وذلك ببذل الجهد في معرفته ، ومحَبَّته ، والذلَّ والخضوع لجلاله ، وكبريائه ، ومن تعظيمه سبحانه: أن لا يعترض على شيء مما خلقه ، أو شرعه .

(١٢) ومن عظمتته سبحانه: أن بيده ملك العالم العلوي والسفلي ، فهو الذي خلقه ، ويتصرف فيه بما شاء من الأحكام القدريّة ، والأحكام الدينيّة التابعة لحكمته^(١) .

(١٣) ومن عظمتته سبحانه: "تبدو فيما أوجده من عظماء مخلوقاته ، كإيجاده السموات العلّٰى ، والأرضين السفلى ، وما بين ذلك إلى ما تحت الثرى ، ثم إلى المنتهى علوّاً وسفلاً ، ثم ما بين ذلك من عظيم موجوداته ، وأعاجيب مبتدعاته"^(٢) .

(١٤) "وهو العظيم تعالى: المهيب المهل ، لأنه المتناهي في الشرف والسؤدد ، مع سعة الملك ، وشمول وجوده"^(٣) .

(١٥) "وهو العظيم على الإطلاق سبحانه: الذي يصغر عند ذكر وصفه كلّ شيء سواه ، الذي يقصم من نازع في عظمتته تعالى"^(٤) .

(١٦) وهو تعالى العظيم الذي يُعَظَّم الرزق ، والأجر ، والثواب ، لمن يشاء من العباد ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَنْقِ اللَّهَ يَكْفِرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق] ، وقال ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُعَظَّمَ اللهُ رِزْقُهُ ، وَأَنْ يَمُدَّ فِي أَجَلِهِ ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»^(٥) .

(١٧) ومن كمال عظمتته ، وتماها ، وعلاها: أنه تعالى عَظَّمَ نفسه ، ومَجَّدَها ، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾^(٦) [الزمر: ٦٧] ، ففي الحديث القدسي: «أنا الجَبَّار ، أنا المتكبر ، أنا الملك ، أنا المتعال ، يُمَجَّدُ نفسه»^(٧) .

وعَظَّمَهُ خلقه ، وأثنوا عليه بما هو أهله ، قال ﷺ: «وَإِذَا قَالَ: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ، قَالَ:

(١) «توضيح الكافية» (١١٧) ، «الحق الواضح» (٢٨) ، «فتح الرحيم» (٣٠ - ٣١) .

(٢) «شرح الأسماء الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (١٦١/١) .

(٣) المصدر السابق (١٦٠/١) .

(٤) انظر: «شرح الأسماء الحسنى وفوائدها» لأبي العباس البرنسي (٨١) .

(٥) «صحيح الجامع» (٦٢٩١) .

(٦) أي: ما عَظَّمُوهُ حَقَّ تعظيمه . «ابن السعدي» (٧٢٩) .

(٧) «صحيح ابن ماجه» (١٦٤) .

مَجْدَنِي عَبْدِي»^(١) أَي: عَظْمَنِي .

"فهو سبحانه المُعْظَم والعظيم حقًا ، وصدقًا"^(٢) ، وعدلاً .

(١٨) ومن كمال عظمته تعالى: أنه "لا يتصور شيء في وهم ، ولا يتخيل في عقل ، إلا وهو أعظم منه تعالى بالقهر ، والملك"^(٣) ، بل ومن كل وجه .

(١٩) ومن كمال عظمته تعالى: أنه لم يتخذ صاحبةً ، ولا ولدًا ، قال الله العظيم: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ^(٤) رَبَّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن] ، "أَي: ارتفعت عظمته ، وجلّت فوق كل عظمة ، فتعالى جدّه ، أن يكون معه شريك في ملكه ، وربوبيّته ، أو في إلهيته ، أو في أفعاله ، أو في صفاته"^(٥) .

(٢٠) ومن تمام عظمته سبحانه: أنه "لا يثقل ولا يشقُّ عليه حمل السموات والأرض وما بينهما ، وما فيهما ، قال تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]"^(٦) .

(٢١) ومن كمال عظمته تعالى: "تنزيهه عن كل صفة نقص ، وتقديسه عن أن يماثله أحد من خلقه"^(٧) ، فلا ينبغي لشائبة نقص أن تلم بجنابه ، أو تدنو من فناء بابه ، أو يفوته شيء من الكمال في حقه تعالى^(٨) .

(٢٢) ومن عظمته تعالى: أنه لا تتعاضم عليه المسائل مهما عظمت ، وكبرت ، وكثرت ، قال ﷺ: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلْيُعْظِمِ الرِّغْبَةَ ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاظَمُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»^(٩) ، "فلا يتعاضمه ذنب أن يغفره ، ولا حاجة يسألها أن يعطيها"^(١٠) .

(١) «مسلم» (٣٩٥) .

(٢) «الأسنى» (٢٣٣) و«المنهاج» (١٩٥/١) .

(٣) «نظم الدرر» (٥٩٨/٦) .

(٤) أي عظمته . صحَّ عن قتادة ، انظر «التفسير الصحيح» (٥٤٣/٤) ، وانظر «الصباح» (١٣٦٤/٤) .

(٥) انظر «الصلاة وحكم تاركها» لابن القيم (٣٠٨) .

(٦) «تفسير ابن جرير الطبري» (١٣٢/٢) .

(٧) «توضيح الكافية الشافية» (١١٧) ، وانظر: «إبطال التأويلات» (٦٥٣) .

(٨) «نظم الدرر» (٤٢٢/٧ ، ٤٣١) .

(٩) «مسلم» (٢٦٨١) .

(١٠) «الوابل الصيب» (٩٠) .

جلال العظيم

الأول: أنه تعالى محيط بكل عظيم المقدار، متباعد الأقطار، فالأجسام وإن عظمت أقدارها، فخالقها تعالى محيط بها^(١)، قال ﷺ: «إن الله يمسك السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والجبال والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك»^(٢).

فانظر رعاك الله إلى "عظمته الباهرة، وقدرته القاهرة، أن جميع الأرض يوم القيامة قبضة للرحمن، وأن السموات على سعتها، وعظمها مطويات بيمينه"^(٣).

فإذا كان ﷺ يجعل هذه الأجرام، والأجسام العظام، بين أصابعه الجليلة، فكيف بعظمته، وجلاله، وصدق ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧].

الثاني: ومن جلاله: أن "العظمة صفة من صفات الله تعالى لا يقوم لها الخلق، والله سبحانه خلق بين الخلق عظمة، يُعظم بها بعضهم بعضاً، فمن الناس من يُعظم لمال، ومنهم من يُعظم لفضل، ومنهم من يُعظم لعلم، ومنهم من يُعظم لسلطان، ومنهم من يُعظم لجاه، وكل واحد من الخلق إنما يُعظم بمعنى، دون معنى، والله ﷻ يُعظم في الأحوال كلها"^(٤).

الثالث: ومن جلال عظمته سبحانه: أنه لا يزيده تعظيم العباد له وإجلالهم إياه شيئاً من عظمته، وجلاله، ولا ينقص من ذلك شيئاً خلافه.

الرابع: ومن جلاله: أنه حرمة أوليائه أعظم عنده من حرمة بيته: قال ﷺ وهو يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك، وما أطيب ريحك، ما أعظمك، وما أعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده، لحرمة المؤمن عند الله أعظم حرمة منك، ماله، ودمه، وأن تظن به إلا خيراً»^(٥).

الخامس: ومن جلال عظمته ربنا: أنه "قد يظهر اسمه العظيم في أفعال يحدثها، وأحكام في هذه الجملة يوجدها، لما تجلى للجبل صار دكاً من جلاله، وما شاهده من عظمته سبحانه"^(٦).

(١) «الأسنى» (٢٣٤).

(٢) «البخاري» (٧٤١٧)، «مسلم» (٢٧٨٦).

(٣) «تفسير السعدي» (٧٢٩).

(٤) «الحجة في بيان المحجة» للأصفهاني (١٤١/١).

(٥) صحيح ابن ماجه (٣٩٣٢)، و«السلسلة الصحيحة» (٥٣٠٩)، و«صحيح الترغيب والترهيب» (٢٤٤١).

(٦) انظر: «شرح الأسماء الحسنى» للإشبيلي (١٦٢/١).

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَخَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]

السادس: ومن جلال العظيم: أن فضله عظيم، لا يقدر أحدٌ من العباد إحصاءه، ولا الإحاطة بمقداره، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٩] "أي: صاحب الفضل العظيم، العظيم كمية، والعظيم كيفية، والعظيم شمولاً في المكان، وشمولاً في الزمان" (١).

"أما في كمّيته فإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ نَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] وجعل جزاء الحسنة عشرًا إلى سبعمائة، إلى أضعاف كثيرة، وأما في كفيته، فقد قال ﷺ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءٍ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] (٢)، وأما في المكان: هو ما عظمه سبحانه من البقاع، كالمساجد الثلاثة، في مضاعفة الأجور عن غيرها، أضعافاً مضاعفة من الأجر العظيم، وأما في الزمان: كشهر رمضان، والليالي العشر الأخيرة منه، وكذلك من العشر الأولى من ذي الحجة.

السابع: ومن جلاله: أنه متّصفٌ بصفات كثيرة من صفات الكمال، فلفظه موضوع للدلالة على السعة، والكثرة، والزيادة، لغةً، وشرعاً، بحيث يدخل في معناه المعبر عنه، باللفظ الكثير من معاني أسماء الله تعالى وصفاته العلية، لا يختص بصفة معينة" (٣).

الثمرات

من عبودية هذا الاسم الكريم: أنه ينبغي لكل مؤمن أن يعظم ربه تعالى التعظيم كله، في قلبه، ولسانه، وجوارحه، ومن تعظيمه: أن يتقى حقّ تقاته، فيطاع فلا يعصى، ويذكر ولا ينسى، ويشكر ولا يكفر.

ومن تعظيمه وإجلاله: أن يخضع لأوامره، وما شرعه، وحكم به، وأن لا يعترض على شيء مما خلقه، أو شرعه.

ومن تعظيمه تعالى: أن يعظم ما عظمه ﷺ من زمان، ومكان، وأعمال، وأشخاص، والعبادة روحها تعظيم الباري، وتكبيره (٤)، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُعْظِمِ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقَوًى

(١) «أحكام من القرآن الكريم» لابن عثيمين (٣٧٨/١).

(٢) «تفسير سورة آل عمران» لابن عثيمين (٤٥٣/٢).

(٣) انظر «إبدائع الفوائد» (١٧٥/١).

(٤) انظر: «فتح الرحيم الملك» (٣٠)، «الحق الواضح» (٢٨ - ٢٩).

أَلْقُلُوبِ ﴿٢٦٤﴾ [الحج] ، ومن أجل ما يعظمه العبد: تعظيم كتابه ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] وتعظيم كتابه سبحانه يكون: بتلاوته ، وتعلمه ، والعمل به ، والإيمان بمحكمه ، ومتشابهه .

وينبغي للمؤمن أن يتواضع لرَّبِّه سبحانه ومع خلقه تعبدًا للعظيم ﷻ ، قال ﷺ: «من تعظم في نفسه ، أو اختال في مشيته لقي الله وهو عليه غضبان»^(١) . "فينبغي لمن عرف حقَّ عظمة الله سبحانه ، أن لا يتكلم بكلمة يكرهها الله تعالى ، ولا يرتكب معصية لا يرضاها"^(٢) سبحانه .

ومن عبودية هذا الاسم الكريم: أن يُحَقَّرَ "ما حَقَّرَ الله ، وتعاضم على أعدائه ومشاقِّه على السبيل التي يرضاها ، وقابل كلاً على قدر جرمه وخروجه عن الهدى وأتباعه مسلك الردى ، تكن بذلك من حزبه وأوليائه"^(٣) .

واعلم رعاك الله تعالى: أنَّ أعظم ما يعظم الرب عز شأنه هو: تعظيم أسمائه الحسنى ، وصفاته العلا ، وأفعاله الهدى ، بالإيمان بها ، وفهم معانيها ، والعمل بمقتضاها في السر والجهار ، وفي الليل والنهار ، فعند ذلك تكون عند الله وجيهاً ، وعند ملائكته الأبرار ، وعباده الأخيار عظيمًا .



(١) «صحيح الجامع» (٦١٥٧) .

(٢) «الحجة في بيان المحبَّة» (١٤١/١) .

(٣) «الأسنى» (٢٣٦) .

٣٢- الله ﷻ القويّ ﷻ عزّ شأنه

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى] .

المعنى اللغوي

القوي: صفة مشبّهة للموصوف بالقوة، والقوّة: نقيض الضعف، والوهن، والعجز، ويأتي القوي بمعنى: القادر، أي: الكامل القدرة على الشيء، تقول: هو قادر على حمله، فإذا زدته وصفًا قلت: هو قويٌّ على حمله، ويقال لمن أطاق شيئًا وقدر عليه: قد قوي عليه، وقوي على شيء إذا أطاقه، وقدر عليه، ولمن لم يقدر عليه: قد ضعف عنه^(١)، وهو الاستعداد الذاتي، والقدرة على الفعل^(٢).

ويأتي القوي بمعنى: المقوِّي، فعيل بمعنى: مفعّل، كما قيل في النصير، والسميع، والكريم، أي: الذي يعطي عباده القوة^(٣).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو القوي الذي لا أقوى منه على الإطلاق سبحانه له القوة جميعاً التي لا تزول بوجهه^(٤)، فهو تعالى:

- (١) التام القوة المطلقة، الذي ليس لها حدٌّ ولا منتهى، التي لا تتخلف في أيِّ حالٍ، ولا لحظة.
- (٢) "فهو سبحانه لا يلحقه ضعف في: ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا يمسه نصبٌ ولا تعب، ولا يدركه نقص"^(٥)، تعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

(١) «المفردات» (٦٩٣)، «لسان العرب» (٣٧٨٧/٦)، «كتاب العين» (٢٣٧/٥)، و«شأن الدعاء» (٧٧)، و«اشتقاق أسماء الله» (١٤٩).

(٢) «أسماء الله الحسنى» د. الرضواني (٣٩٨).

(٣) «الأمّد الأقصى» (٥٣٣/١).

(٤) القصيدة النونية لابن القيم (٢٠٠)، و«نظم الدرر» (٢٨٩/٧).

(٥) «شرح أسماء الله الحسنى وفوائدها» لأبي العباس البرنسي (٨٨).

(٣) وهو تعالى القوي: الذي لا يقاومه أحد، ولا يعثره ضعف أو قصور، ولا يتأثر بوهن أو فتور^(١)، له المشيئة النافذة على كل الأمور، على مرّ الدهور.

(٤) ومن تمام قوته سبحانه: أنه لا يقاومه أحد^(٢)، ولا يعجزه معجز، ولا يغلبه غالب، ولا يمنعه مانع، ولا يدفعه دافع، ولا يرد قضاءه رادٌّ، ولا يفوته فائت.

(٥) ومن كمال قوته تعالى: أنه القادر على الأشياء كلها، لا يعجزه شيء منها، المتمكن من كل مراد، لا يستولي عليه عجز، ولا نصب في حالٍ من الأحوال^(٣).

(٦) وهو المتناهي في القوة، التي تتصاغر كل قوة مهما كانت أمام قوّته سبحانه، شديد عقابه، لمن كفر بآياته، وجحد حججه.

(٧) وهو القوي: النافذ أمره، يمضي حكمه، وقضائه في خلقه، القادر على إتمام فعله، في أي وقتٍ شاء سبحانه، في أرضه أو في سماواته.

(٨) وهو سبحانه القوي: في بطشه وعقابه، إذا بطش بشيء أهلكه، له مطلق المشيئة والأمر في مملكته، فلا يرده رادٌّ، ولا يفوته هارب، قال عزّ شأنه حكاية عن مؤمني الجن: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَكِن نُّعْجِزُهُ هَرَبًا﴾ [الجن] (٤).

(٩) والله القوي تعالى: الذي "لا يغالبه عدو أو مضاد، إلا قهره وقمعه، ولا يريد فعل شيء وإن استصعبه المخلوقون إلا هان عليه، وكيف لا يهون وهو إذا أراد شيئاً قال له (كن) فيكون، غير أن قوة الله ﷻ وتأثيرها ليست كقوة المخلوقين وتأثيرها"^(٥).

(١٠) وهو القوي تعالى: على كل ما يريده من مراداته^(٦): الذي لا يتعذر عليه فعل شيء^(٧)، فهو الفَعَّال لما يريد كما يريد، ومن ذلك:

(١) «أسماء الله» للرضواني (٣٩٩).

(٢) «غاية الأمانى في تفسير الكلام الرباني» (١٣٩/٣) للإمام شهاب الدين الكوراني.

(٣) تفسير «ابن جرير» (٥١/٤)، و«شرح أسماء الله» لأبي الحكم الإشبيلي (٣١٩/١)، و«اشتقاق أسماء الله» (١٤٩)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (٣٨٩/١)، و«شأن الدعاء» (٧٧).

(٤) ينظر: «موسوعة له الأسماء الحسنی» (٢٩١/١)، و«تفسير الطبري» (٥١/٤)، و«مدارك التنزيل» (١٢١٢).

(٥) «شرح مختصر الروضة» للطوفي (٦١/١)، و«جلال العقد» له، مخطوط بواسطة «منهج الطوفي في العقيدة» (٢٨٩/١).

(٦) «إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم» (٣٨٤/٤).

(٧) «التفسير الكبير» للرازي (مج ١٢) (٧٠/٢٣).

(أ) إيصال رزقه إلى من يشاء من خلقه ، في أرضه أو في سمائه: قال تعالى: ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩] . "فلا يضيق عطاؤه شيء" (١).

(ب) نصره لأوليائه وإن قلَّ عددهم أو عدَّتْهم: قال سبحانه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] .

(ج) "إهلاكه للأمم الطاغية ، وإنجاؤه للرسل وأتباعهم ، قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمٍ إِذْ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦]" (٢).

(١١) وهو سبحانه القوي: الذي بقوته شقَّ السمع والبصر "بفتحهما ، وأعطائهما الإدراك ، وأثبت لهما الإمداد بعد الإيجاد" (٣)، كما كان رسول الله ﷺ يقول في سجوده القرآن بالليل: «سجد وجهي للذي خلقه ، وشقَّ سمعه ، وبصره ، بحوله وقوته» (٤).

(١٢) ومن كمال قوته تعالى: أنه يكفي المؤمنين قتال الكافرين ، ويردُّهم على أعقابهم خائبين أذلين ، قال رب العالمين: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥] (٥).

(١٣) ومن تمام قوته سبحانه: أنه يقوي أوليائه على القيام بطاعته ، وعبوديته ، عن عائشة ؓ قالت: كان رسول الله ﷺ يقول في السجدة مراراً: «سجد وجهي للذي خلقه ، وشقَّ سمعه ، وبصره ، بحوله وقوته» (٦).

(١٤) "وهو القوي سبحانه: على خلق كل شيء ما يشاء من الممكنات بأسرها ، وإفناء الموجودات عن آخرها" (٧).

(١٥) وهو تعالى القوي: الذي له القوة والقدرة كلها ، الذي أوجد الأجرام العظيمة ، السفلية

(١) «التحرير والتنوير» مج (١٠) (٧٣/٢٥).

(٢) «تفسير السعدي» (٣٨٥).

(٣) «تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي» (٤٩٧/٢).

(٤) صحيح الترمذي (٥٨٠).

(٥) «تفسير ابن كثير» (٦٤٥/٣).

(٦) صحيح أبي داود (١٤١٤)، ومما يدل على هذا المعنى كذلك: أنه شرع للداعي أن يقول في الأذان: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

(٧) «تفسير الطبري» (٣٤٤/٥)، و«تفسير أبي السعود» (٣٩٨/٤).

والعلوية ، وبها تصرف في الظواهر والبواطن ، ونفذت مشيئته في جميع البريات^(١).

(١٦) ومن قوته تعالى : أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم ، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات : ٥٨] ^(٢).

(١٧) وهو سبحانه ذو قوة وقدرة على كل من حادّه ورسله ، أن يهلكه ، قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ [المجادلة : ٢٠ - ٢١] ^(٣).

(١٨) ومن قدرته وقوّته : أنه يبعث الأموات بعد ما مزّقه البلى ، وعصفت بترابهم الرياح ، وابتلعتهم الطيور والسباع ، وتفرقوا وتمزقوا في مهامه القفار ، ولجج البحار ، فلا يفوته منهم أحد ، ويعلم ما تنقص منهم^(٤).

جلال القوي

الأول : من جلاله : "أن كل ما يريده ، فعله ، قال عزّ شأنه : ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾" [البروج] ، لا يتعاصى عليه شيء ، ولا يعارضه أحد ، وليس له نصير ولا عوين ، ولا مساعد على أيّ أمر يكون ، بل إذا أراد أمراً قال له : «كن» فيكون .

فهو سبحانه مع أنه فعّال لما يريد ، فلا يريد إلا ما تقتضيه حكمته وحمده ، فجميع أفعاله تابع لحكمته ، فهو موصوف بالكمال من جهتين : من جهة كمال القدرة ونفوذ الإرادة ، ومن جهة الحكمة ، فهو حكيم في كل ما يصدر منه من قولٍ ، أو فعل ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود] ^(٥).

الثاني : ومن جلال هذا الاسم الكريم : تظهر جلّية في الكون المترامي الأطراف ، من حمله للسموات ومافيهما من الأفلاك ، أن تسقط على الأرض ، وحمله سبحانه العرش ، الذي هو أعظم المخلوقات ، وحملته العظام .

(١) «تفسير السعدي» (٨١٣).

(٢) «تفسير أبي مظفر السمعاني» (٢٦٥/٥) ، و«تفسير السعدي» (٨١٣).

(٣) ينظر : تفسير ابن جرير (٢٥١/٧).

(٤) «تفسير السعدي» (٨١٣).

(٥) «فتح الرحيم الملك» (٢٧).

الثالث: ومن جلال القوي سبحانه: إهلاكه الظالمين، والمتجبرين، وانتقامه من المجرمين في كل العصور، مهما كانت قوتهم، وجبروتهم، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، وإحلاله بهم أنواع العقوبات، وصنوف المثالات، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَا مِنْ قَبْلِهِمُ الْمُئْتَلَفَةَ﴾ [الرعد: ٦] ^(١).

الرابع: ومن جلاله: أنه تعالى ينصر من ينصره، ويخذل من يخذله، قال تعالى: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، كتب الغلبة له ولأوليائه، قال سبحانه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢٠] . "على قل عددهم، وعددهم على أعدائهم، الذين فاقوهم بكثرة العدد والعدة، قال تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فَتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فَتْنَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩]" ^(٢).

الخامس: ومن جلال قوته تعالى: أنه: "المتناهي في القوة، الذي تتصاغر كل قوة أمام حضرته، ويتضاءل كل عظيم عند ذكر عظمته، فالله تعالى أعطى الملائكة قوة كبيرة يستطيع الملك بها أن يقتلع الجبال، ويقلب المدن، ومع ذلك يخشون سطوته، ويرتعدون من هيئته" ^(٣)، لأن قوتهم مكتسبة من قوته سبحانه، التي بها مكنهم على القدرة على هذه الأشياء العظام.

السادس: ومن جلال القوي سبحانه: "أنه أهلك الجبابرة والأمم العاتية، بشيء يسير، وسوط من عذابه" ^(٤).

السابع: ومن جلال "قوته وعزته تعالى: أن أنزل الحديد فيه قوة شديدة، الذي منه الآلات القوية، ومن ذلك: ما ينتفعون به أهل الحق عند لقاء عدوهم" ^(٥)، وجعل الله الحديد رادعاً لمن أبى الحق وعانده بعد قيام الحجة، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥] ^(٦).

(١) وقال تعالى: ﴿كَذَّابٌ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ ۖ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدٌ لِقَابِ﴾ [الأنفال].

(٢) «الحق الواضح» (٤٦).

(٣) «موسوعة له الأسماء الحسنی» (٢٩١/١).

(٤) «تيسير الكريم المنان» (٥٤٦).

(٥) انظر: «تفسير السعدي» (٨٤٢)، و«تفسير الطبري» (٢٣٢/٧).

(٦) «تفسير ابن كثير» (٤١٣/٤).

الثمرات

متى علم المؤمن بقوة الله تعالى رجع لحوله وقوته في كل صغير وكبير ، فلا حول ولا قوة على أمرٍ من الأمور إلا بالقوي الجليل سبحانه .

وينبغي للمؤمن أن يتعزز بقوته في الصدع بالحق ، في أمره بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ولا يخاف في الله لومة لائم ، وينبغي للعبد أن يأخذ بأوامر الله تعالى بكل عزيمة وقوة ﴿يُخَيِّحْ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ٢١] ، وأن يتقوى على طاعة الله بالإكثار من قول: (لا حول ولا قوة إلا بالله) ، (فإنها كنز من كنوز الجنة)^(١) .

وعلى قدر قوتك في طاعة الله سبحانه تكون لك المحبة منه تعالى قال ﷺ: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف»^(٢) .

وبهذا تعلم يا رعاك الله أن "بقدر ما تبذله من الجهد ، وصدق العزم والتفعل ، ينزل عليك من حسن المعونة ونهيك من الاقتدار عليه ، كما أنك كلما آثرت التثبط ، والتعاجز ، حرمت البغية ، وحرمت بالحرمان ، قال ﷺ: «... احرص على ما ينفعك واستعن بالله ، ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا ، ولكن قل: قدر الله ، وما شاء فعل ، فإن لو ، تفتح عمل الشيطان»^(٣) .

وعمل الشيطان التثبط عن الخير والإباء ، وقد قال الله ﷻ في قومٍ وهبهم القوة ، فلم يستعملوها ، فحرمهم لذلك نفعها: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦] ، فالله الله في المبادرة"^(٤) .

وينبغي للأمة أن تعدَّ العدة ، من كل قوة ، لقتال أعداء الملة السمحة ، قال ﷺ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠] .

(١) «البخاري» (٦٤٠٩) ، و«مسلم» (٦٨٦٨) .

(٢) «مسلم» (٢٦٦٤) .

(٣) تقدم تخريجه .

(٤) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان (١٥٣/٢) .

وإن كنتَ تنظر بعين البصيرة أنَّ ربك ﷻ قد أعطاك قوَّةً في باطنك، وكذلك غيرها من الصفات الباطنة والجوانح، وأعطاك اليدين والرجلين، والسمع والبصر، وجميع الجوارح الظاهرة كلَّهنَّ قوًى، لما جعلن له يسرن لإتمامه، وإنفاذ مقدراته، وكما أسبغ عليك نعمه ظاهرةً وباطنة، وعافاك من كثيرٍ مما ابتلى به كثيراً من عباده، فداوم أنت شكره، والمواظبة على طاعته، ولا تصرف ما أنعم به عليك إلا فيما يرضيه^(١).

والمأمل منه سبحانه وحده أن ينعم عليك بالقوى الحسيَّة والمعنوية، المعينة على أمور الدارين: في الأولى والأخرى، فالزم بدعاء الحبيب المجتبي في سؤاله لربه أن يبقِي له القوى: «... وامتعنا بأسماعنا، وأبصارنا، وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا...»^(٢)، فبذلك قد حظيت بعبودية هذا الاسم الكريم حقاً وافراً.



(١) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان (١/١٥٣).

(٢) صحيح الترمذي (٣٥٠٢).

٣٣- الله المتين تبارك وتعالى

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات]

المعنى اللغوي

المتين: صفة مشبهة للموصوف بالمتانة، والمتانة هي: شدة الشيء، واستحكامه، وتطلق على: السعة، والعظمة، فالمتين هو:

الأول: الشيء الثابت في قوّته، الشديد في عزمه، وتماسكه، وصلابته، تقول العرب: "هذا أمتن من هذا"، أي: أصلب منه، وأقوى، ويقال: "ماتن فلانٌ فلاناً"، إذا قاومه في مرجعة كلام، أو فعال، أو قتال، وفي الحديث في صفة القرآن: «هو جبل الله المتين» أي: القوي الذي لا ينقطع بمن تعلّق به، واستمسك^(١).

الثاني: العظيم، الكبير، ومنه المتن في الأرض: ما ارتفع وصلب، ومتن كل شيء: ما ظهر منه.

الثالث: السعة، والثبات، مع امتداد وطول، فهو بمعنى: الواسع، ومنه: "متن الناس يوم كذا" أي: سار بهم في يومهم أجمع، والمماتنة: المباعدة في الغاية، يقال: "سار سيراً مماتناً"، أي: شديداً، بعيداً^(٢)، فالمتين: هو: البالغ في صفاته نهايتها: يقال: "هذا شيء متين": يعني بالغ نهاية ما يناسبه^(٣).

الفرق بين (المتين) و(القوي):

إن المتانة تدلُّ على شدة القوة، والقوة تدلُّ على كمال القدرة التامة، فالله تعالى من حيث إنه بالغ القدرة تامّها: (قوي)، ومن حيث إنه شديد القوة: (متين)^{(٤)(٥)}.

(١) رواه الترمذي (٢٩٠٦).

(٢) «عمدة الحفاظ» (٦٦/٤)، و«كتاب العين» (١١٧/٤)، و«تفسير أسماء الله» للزجاج (٥٥)، و«تفسير الأسماء» للزجاجي

(١٩٤)، و«النهاية» (٨٥٥)، و«اللسان» (٢٩٩/١٣)، و«المصباح المنير» (٣٢٥)، و«الأمد الأقصى» (٥٣٨/١).

(٣) «شرح الواسطية» لآل الشيخ (٢٩١/١).

(٤) «النهاية» (٨٥٥)، و«المقصد الأسنى» (١٢٩).

(٥) هذا الفرق من حيث تعلّقهما بالقوة. أما في المعاني الأخرى: فإن (المتين) هو: العظيم، والكبير، والواسع في كماله، الذي لا يحاط سبحانه. والله تعالى أعلم.

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو المتين المتناهي في الشدة والسعة غاياتها ونهاياتها:

(١) فهو تعالى الشديد^(١) في قوّته ، الشديد في عزّته ، (الشديد في قهره ، الشديد في انتقامه ، وبطشه ، وعقوبته ، وإهلاكه ، وأخذه ، وإذلاله ، وفي تنكيّله) ، الشديد في جميع صفات الجبروت ، شديد في كل ما تقتضي الحكمة ، الشدة فيه^(٢) .

(٢) وهو سبحانه المتين: الشديد القوي الذي لا تنقطع قوّته ، ولا يلحقه في أفعاله مشقّة ، ولا تعب ، ولا كلفة^(٣) ، لكمال عظّمته ، وقوته ، وتمام قدرته .

(٣) وهو تعالى المتين: الواسع المطلق ، البالغ النهاية في الكمال ، في ذاته ، وصفاته ، وأفعاله^(٤) .

(٤) وهو شديد القوى سبحانه ، التي لا أشدّ منها ، لا يستعصي عليه شيء إن شاء ، فهو تعالى قادر بالذات ، مقتدر على ما لا يتناهى ، قويّ على ما لا يقدر عليه غيره ، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]^(٥) .

(٥) ومن كمال متانته سبحانه: أنه هو العظيم ، المحيط ، الكبير ، الذي لا أعظم ولا أكبر منه تعالى على الإطلاق ، فلا يحاط ، ولا يدرك ، ولا يُعلم كنهه ، وجلاله .

(٦) ومن تمامه: أنه جلّ ثناؤه بالغ القدرة نهاياتها ، وغاياتها ، لا تتناقض قوته ، ولا تتغير^(٦) ، ولا تضعف في حال من الأحوال ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً .

(٧) وهو تعالى المتين: الذي لا أشدّ منه صولة ، وقوة ، في نكاية عدوّه من أهل الكفر ، ولا أشدّ منه تعذيباً بالعقوبة بالمدّنب ، في نفسه ، وبغيره ، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَاسًا وَأَشَدُّ

(١) ثبت عن ابن عباس ؓ ، انظر: «التفسير الصحيح» (٣٩٢/٤) .

(٢) «شرح الواسطية» للعلامة لابن عثيمين (٣٦٣/١) ، و«تفسير سورة الحجرات» له (١٦٩) .

(٣) «النهاية» (٨٥٥) ، و«شأن الدعاء» (٧٧) .

(٤) انظر «اللاكلّ البهية في شرح العقيدة الواسطية» ، لآل الشيخ (٢٩٠/١) ، و«تفسير الأسماء» (٥٥) .

(٥) «روح المعاني» (١٧٢/١٣) ، وانظر: «تفسير ابن عاشور» (٢٥٦/٩) .

(٦) «المواقف» للإيجي (٣١٠/٣) ، و«المنهاج» (١٩٩/١) .

تَنْكِيلًا^(١) [النساء: ٨٤]^(٢).

٨) وهو سبحانه ﴿شَدِيدُ الْحَالِ﴾ [الرعد: ١٣] ، أي: شديد القوة، والحيلة^(٣) ، والهلاك ، لمن طغى عليه ، وعتا ، وتمادى في كفره^(٤) ، فلا يفوته هارب ، من دانٍ أو قاصٍ من العباد.

٩) وهو عزَّ شأنه المتين: ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦] ، و﴿شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [المائدة: ٢] ، أي: شديد المؤاخذه ، قوي الجزاء بالعقوبة^(٥) ، في العاجل ، والآجل ، لا يقدر قدره ، ولا يوصف أمره ، على من عصاه ، وتجراً على محارمه^(٦).

١٠) فهو سبحانه ذو البطش الشديد ، لكل ظالم عنيد ، وطاغٍ عتيد ، قال سبحانه: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢] ، "أي: ذو شدة ، وعظمة ، وقوة ، من حيث كنهه ، وكيفه"^(٧).

١١) وهو المتين سبحانه: "الثابت الذي لا يتزلزل ، فلا يُغلب ، ولا يُفهر ، ولا يهزم"^(٨).

١٢) فهو تعالى الشديد ، الدائم الشدة ، ذو القوة على أعدائه ، الشديد العقوبة لهم^(٩).

١٣) وهو المتين سبحانه: القوي الشديد ، على إمداد كل الأنام ، على أنواع الأرزاق والإنعام في كل حال ، فلا تضعف على طول العصور ، وبعد المكان ، ولا توهن على تسابق الأزمان ، ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨].

١٤) "فهو تعالى شديد القوى ، لا تلحقه في أفعاله مشقة ، يقول: كن ، فينتظم عقد ما يريد ، ولا يزول أبداً"^(١٠).

(١) صحَّ عن قتادة أنه قال (وأشد تنكيلاً) أي: عقوبة. «التفسير الصحيح» (٨٤/٢).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٥١٧/٢) ، و«فتح البيان» (١٢٠/٢) ، و«تفسير السعدي» (١٩٠). وقوله: (أشد): اسم التفضيل ، ففيه جواز (بل) هو الواجب استعمال اسم التفضيل في الصفات المشتركة بين الله تعالى وبين الخلق ، فلإنسان علم ، والله تعالى أعلم ، وللإنسان قدرة ، والله سبحانه أقدر ، له قوة ، والله أقوى... «تفسير سورة النساء» لابن عثيمين (٣٥/١).

(٣) ثبت عن قتادة رضي الله عنه ، انظر: «التفسير الصحيح» (١١٢/٣).

(٤) «تفسير الطبري» (٤١٣/٤) ، و«البحر الوجيز» لابن عطية (٣٠٤/٣).

(٥) «تفسير سورة البقرة» لابن عثيمين (٤١١/٢).

(٦) انظر «تفسير السعدي» (٢١٩) (٢٤٥) (٤٢١).

(٧) «تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن» د. سليمان اللاحم (١١٦/٣).

(٨) «التفسير الكبير» (مج ١٤) (٢٣٧/٢٨).

(٩) «نظم الدرر» (٢٨٩/٧) ، و«بحر العلوم» (٢٨١/٣).

(١٠) «حاشية شرح أسماء الله الحسنى» لأبي العباس البرنسي (٩٠).

(١٥) وهو المتين تعالى: الكامل القوة، الذي بلغت قدرته أقصى الغايات، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماوات^(١).

جلال المتين

الأول: من جلاله: أنه يجمع المتناهي في الشدة، مع كمال القوة والقدرة، مع بلوغ النهاية في السعة في الكمال، في ذاته، وصفاته، وأفعاله، وسلطانه.

الثاني: ومن جلاله: أن كيده بالمجرمين شديد، لا يمكن لأحدٍ منهم رده، أو صدّه، أو منعه، قال تعالى: ﴿وَأَمْلَى لَهُمْ أَنْ يَكِيدُوا مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، "وصفه بالمتانة: لقوة أثره في التسبب، في إهلاكه"^(٢)، إلى حدّ "لا انفلات منه للمكيد"^(٣).

الثالث: ومن جلال المتين سبحانه: أنه "لا يحتاج في إمضاء حكمه (وأمره) إلى جند، أو مدد، ولا إلى معين، أو عضد، الذي بلغت قدرته أقصى الغايات، لا يعجزه شيء في الأرض، ولا في السماوات"^(٤)، في أي وقت من الأوقات.

الرابع: ومن جلاله: "أنه تعالى مع شدة عقابه غفور رحيم بعباده ﷺ، لا يكلفهم ما يشق عليهم، وإذا أخلوا به فهو يرحمهم ﷻ بالعفو، قال سبحانه: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]"^(٥).

الخامس: ومن جلال المتين: أن "له كمال القوة بحيث لا يُعارض، ولا يُشارك، ولا يُداني، ولا يقبل الضعف في قوته، ولا يمانع في أمره، بل هو الغالب الذي لا يُغالب، ولا يُغلب، ولا يحتاج في قوّته لمادة، ولا سبب"^(٦).

السادس: ومن جلاله: أن "من تعلق به، وامتنع بجنابة، واعتصم بحبله، وتمسك بعروته الوثقى التي لا انفصام لها، فلا يخاف، ولا يغلب"^(٧).

(١) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (٢٩٤/١).

(٢) «فتح البيان» لحسن صديق خان (١٧٨/٧).

(٣) «تفسير التحرير والتنوير» (١٩٢/٥).

(٤) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (٢٩٤/١).

(٥) «تفسير سورة المائدة» لابن عثيمين (٤٦٩/٤).

(٦) «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي العباس البرنسي (٩٠).

(٧) «الأسنى» (٣٣٤).

الثمرات

يجب على كل مكلف أن يعلم: أن الله ﷻ هو المتين على الإطلاق، وأن الشدة له سبحانه بكل وجه واعتبار، فيخاف سطوته، وشدة أخذه، فإنه لا يطاق، قال ﷺ: «إن الله يملئ للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] (١).

وينبغي للمتعبد بالمتين سبحانه: أن يكون شديداً في دينه، قوياً فيه، شحيحاً عليه، لا تأخذه في الله لومة لائم، شديداً في الثبات على الحق، متيناً في الإيمان واليقين، والتمسك بحبل الله تعالى المتين، قال ﷺ: «لا يمنعن أحدكم هيبتة أحد من الناس أن يقول أو يقوم بالحق حيث كان» (٢)، وأن يكون ذلك مع الحلم، والرفق، واللين مع نفسه، والخلق أجمعين، قال ﷺ: «إن هذا الدين متين، فأوغلوا فيه برفق» (٣).

ومن عبوديته: أن يكون العبد شديداً على أهله، وولده، ومن يقوم به بأن يأمرهم، ويعلمهم، ويؤدبهم إن احتاجوا إلى ذلك، قال ﷺ: «علق سوطك حيث تراه أهلك» (٤) (٥).

واعلم أن كمال الشدة تكون عند إحجام الغضب، قال ﷺ: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» (٦).



(١) «البخاري» (٣٣٢).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١١٠١٧)، وصححه العلامة شعيب الأرناؤوط ﷺ (٦١/١٧).

(٣) «صحيح الجامع» (٢٢٤٦).

(٤) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٦٧٢)، وحسنه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠٦/٨).

(٥) «الأسنى» (٣٣١ - ٣٣٢) بتصرف.

(٦) البخاري (٦١١٤)، ومسلم (٢٦٠٩).

٣٤- الله ﷻ السميع ﷻ جَلَّ وَعَلَا

قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى].

المعنى اللغوي

السميع: على وزن (فعليل) من أبنية المبالغة، ويطلق على عدّة معانٍ:

الأول: بمعنى: المجيب، ومنه قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] أي: لمجيب الدعاء.

ومنه كذلك: قول المصلي: «سمع الله لمن حمده» أي: أجاب حمده، وتقبله^(١).

الثاني: وبمعنى إدراك الأصوات، أي: السامع للأصوات.

الثالث: بمعنى مُسمع لغيره^(٢).

فالسميع يأتي بمعنى: القبول، والانقياد، والإصغاء، وإجابة وإعطاء، وإدراك الأصوات، وإِسْمَاع غيره^(٣).

وفعل السمع يطلق على أربعة معانٍ: سمع إدراك، ومتعلقه الأصوات، وسمع فهم وعقل، ومتعلقه المعاني، وسمع إجابة وإعطاء ما سئل، وسمع قبول وانقياد^(٤).

(١) وفي الحديث: «اللهم إني أعوذ بك من دعاء لا يُسمع» أي: لا يُستجاب ولا يُقبل ولا يعتد به.

(٢) كما قال عمرو بن معدى كَرَب:

أَمِنْ رِنْحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ يُؤَوَّرَقِي وَأَصْحَابِي هُجُوعُ

أراد: الداعي المسمع.

(٣) انظر: «اللسان» (٢٠٩٥/٤)، و«النهاية» (٤٤٥)، و«تفسير الأسماء» (٤٢)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (٧٥).

(٨٢)، و«شأن الدعاء» (٥٩ - ٦٠)، و«الأمَد الأقصى» (١٥/٢).

(٤) فمن الأول: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُحَدِّثُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ [المجادلة: ١]، ومن الثاني: قوله: ﴿لَا تَقُولُوا رَاعِنَا

وَقُولُوا أَنْظَرْنَا وَاسْمَعُوا﴾ [البقرة: ١٠٤]، ومن الثالث: سمع الله لمن حمده، ومن الرابع: قوله تعالى:

﴿سَمِعُوكَ لِلْكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١]، أي: قابلون له ومنقادون غير منكربين، ومنه على أصح القولين:

﴿وَفِيكُمْ سَمْعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]، أي: قابلون ومنقادون. «بدائع الفوائد» (٧٥/٢ - ٧٦).

والله سبحانه سميع حقيقةً بكل معنى لغوي ، لأنَّ اللغة في ذلك لا تأباه الحقيقة ، وكلُّ جائزٍ في الحقيقة وردت به اللغة لا مردَّ له ، فهو سبحانه سميعٌ ذو سَمْعٍ لا تكييف ولا تشبيه بالسمع من خلقه ، ولا سمعه كسمع خلقه^(١) .

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو السميع الذي لا أسمع منه ، وسع سمعه أقطار من في الأرض والسموات :

(١) فهو الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات ، باختلاف اللغات ، على تفتُّنِ الحاجات ، فالسرُّ عنده علانية ، والنَّجوى إليه مفضية ، والبعيد عنده قريب .

(٢) وهو السميع سبحانه: الذي يسمع نداء المضطرين ، ويوجب دعاء المحتاجين ، ويغيث الملهوفين ، وشكوى المهمومين ، والمكروبين ، ويسمع حمد الحامدين فيثيبهم ، ودعاء الداعين فيستجيب لهم .

(٣) ومن كمال سمعه: أنه تعالى يسمع دبيب النملة السوداء ، على الصخرة الصماء ، ويسمع خطرات القلوب ، وهواجس النفوس ، ومناجاة الضمائر ، من غير صوت ، ولا أصداء ، ولا أي محسوس ، كرمش العيون ، وتقلبات الجفون .

(٤) ومن تمام سمعه سبحانه: أنه يدرك مقاصد المتكلمين ، ومعاني المعبرين ، وتأمل المتأملين ، في كل وقت وحين .

(٥) فهو سبحانه سميع : لما تنطق به خلقه من قول ، ولا يعزب عن إدراك مسموع وإن خفي ، قد وسع سمعه كل شيء^(٢) .

(٦) والله سبحانه هو السميع: الذي أحاط سمعه بجميع المسموعات ، فكل ما في العالم العلوي والسفلي من الأصوات سمعها ، سرها وعلنها ، وكأنها لديه صوت واحد ، فلا تختلط عليه الأصوات ، ولا تخفى عليه اللغات ، والقريب منها والبعيد ، والسر والعلانية عنده سواء^(٣) .

(٧) وهو الذي يسمع السرَّ والنجوى سواء عنده الجهر والخفوت ، والنطق والسكوت^(٤) ،

(١) «الأمد الأقصى» (١٧/٢) ، و«تفسير الطبري» (٩/٢٥) .

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٩/٢٥) ، و«النهاية» (٤٤٥) ، و«تفسير السعدي» (٥٤٣) .

(٣) «المحاضرات السنينة في شرح العقيدة الواسطية» (١٦١/١) .

(٤) «شأن الدعاء» (٥٩) .

فكلاً عنده على حدٍّ سواء مسموع .

(٨) وهو السميع سبحانه: لدعاء الخلق ، وألفاظهم عند تفرقهم ، واجتماعهم ، مع اختلاف ألسنتهم ، ولغاتهم^(١) .

(٩) فهو تعالى السميع: الذي لا أسمع منه سبحانه ، قال عزَّ شأنه: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمَعْ﴾ [الكهف: ٢٦] ، أي: ما أسمعه لكل مسموع^(٢) .

(١٠) فهو سبحانه يسمع سمعه كل الأصوات ، ويدرك كل ما يصدر من خلقه من حركات ، وتقلبات ، في جميع الأوقات ، وما تتلفظ به من همسات وكلمات "في خفي المواضع والجهات"^(٣) .

(١١) وهو السميع سبحانه: الذي يُسمع من يشاء من الورى الفهم ، وقبول الهدى ، فيهديهم إلى سماع الحُجَّة ، وقبولها ، والانقياد لها ، قال ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]^(٤) .

(١٢) فهو تعالى بالغ السمع لكل قول وإن خفي ، نفسياً كان أو لسانياً ، سميعٌ: بما يهجس في خاطر كل (مخلوق) ، وما تأمره به دواعيه ، فهو تعالى يسمع كل ما يمكن سمعه من المعاني في آن واحد ، لا يشغله شيءٌ منها عن غيره^(٥) .

(١٣) وهو السميع جلَّ ثناؤه: "الذي يحبُّ حسن الصوت فيمن يتلو كتابه ، ويستمتع لذلك الصوت أكثر من غيره ، قال ﷺ: «ما أذن الله لشيءٍ ما أذن للنبي أن يتغنَّى بالقرآن»^(٦) (٧) .

وسمعه تعالى نوعان:

أحدهما: سمعه لجميع الأصوات الظاهرة والباطنة ، الخفية والجلية ، وإحاطته التامة بها ، فلا تختلف عليه الأصوات ، مهما كثرت وتنوعت ، وكأنها لديه صوت واحد ، قال عزَّ شأنه:

(١) «الحجة في بيان المحجة» (١٢٦/١) .

(٢) «تفسير الطبري» (٩٥/٥) .

(٣) «تفسير السعدي» (٧٩٩) .

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٧٤٦/٣) ، و«تفسير السعدي» (٦٨٨) .

(٥) انظر: «نظم الدرر» (٣٣٣/٢) (٣١/٦) ، و«روح المعاني» (٢٤٥/٤) .

(٦) صحيح البخاري (٥٠٢٤) .

(٧) انظر: «شرح كتاب التوحيد» لعبد الله الغنيمان (٤٥٩/٢) .

﴿سَوَاءٌ مِّنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِأَلْتِيلٍ وَسَارِبٌ بِأَلْتِهَارٍ﴾ [الرعد].

الثاني: سمع الإجابة منه للسائلين، والداعين فيجيبهم، والعابدين فيثيبهم، ومنه قوله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم]، أي: مجيب الدعاء، ومنه قول النبي ﷺ: «إذا قال (يعني الإمام) سمع الله لمن حمده، فقولوا: اللهم ربنا لك الحمد، سمع الله لكم»^(١)، أي: يجيبكم^(٢).

جلال السميع

الأول: أنه سبحانه قد استوى في سمعه سرُّ القول وجهره، بل ما هو أدق من ذلك، وأخفى، فلا تختلط ولا تختلف عليه أصوات الخلق، ولا تتشابه عليه الكلمات، مهما كثرت، واجتمعت، ومهما اختلفت، وتنوعت اللغات، ومهما بعدت الطرائق والمسافات.

فلا يشغله تعالى جهرٌ من جهرٍ عن سمعه لصوت من أسرَّ، ولا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلظه المسائل، ولا يبرمه كثرة السائلين والداعين، ولا يتبرم بالباح ذوي الحاجات، في الآن الواحد، بل هي عنده كلها كصوت واحد، كما أن خلق الخلق جميعهم وبعثهم عنده بمنزلة نفس واحدة^(٣).

الثاني: ومن جلاله: "أنه يعلم ما في قلب القائل قبل أن يقول، وقد يعجز القائل عن التعبير عن مراده، فيعلم الله تعالى، فيعطيه الذي في قلبه"^(٤).

الثالث: ومن جلال السميع سبحانه: "أنه يجيب الدعوة عند الاضطرار، ويكشف المحنة عند الافتقار، ويغفر الزلة عند الاستغفار، ويقبل المعذرة عند الاعتذار، ويرحم الضعيف عند الذلة والانكسار"^(٥).



(١) «مسلم» (٤٠٤).

(٢) «إغاثة اللهفان» (٣/١)، و«الحق الواضح» (٣٤ - ٣٥). و«موسوعة له الأسماء الحسنى» (١٥١/١) بتصرف.

(٣) ينظر: «إغاثة اللهفان» (٣/١)، و«طريق الهجرتين» (٧٦)، وانظر: «مجموع الفتاوى» (١٢٧/١).

(٤) «الحجة في بيان المحجة» (١٢٦/١)، و«شفاء العليل» (٤١/١).

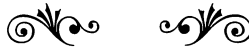
(٥) انظر: «شرح الأسماء الحسنى» للرازي (٢٤٧).

الثمرات

عندما يدرك المؤمن أن الله تعالى من فوق عرشه يسمع السر وأخفى ، فإنه يوجب له المراقبة والاستحياء من الله تعالى في السرِّ والنجوى ، ويجتهد في ألا يسمع ربه الأعلى ، ما لا يحب ولا يرضى ، وأن يتقرب إليه تعالى بسماع الحق والهدى ، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْمَعُونَ الْقَوْلَ (١) فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٨] ، وأعظم من ذلك سماع كلامه ، قال ﷺ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٥٠] .

"وهو سماع حاد يحدو القلوب ، إلى جوار علام الغيوب ، وسائق سوق الأرواح ، إلى ديار الأفراح ، ومحرك يثير ساكن العزمات إلى أعلى المقامات ، وأرفع الدرجات ، ومنادٍ ينادي للإيمان ، ودليل يسير بالركب في طريق الجنان ، وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح ، من قبل فالق الإصباح حيّ على الفلاح حيّ على الفلاح ، فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشاداً لحجة ، وتبصرة لعبرة ، وتذكرة لمعرفة ... " (٢) .

واعلم رحمني الله تعالى وإياك أن استحضار العبد حال الدعاء للرب له من اللذة ، والفرح ، والأنس ، وسرور القلب ، ما لا يصفه الواصفون ، وفوق ما يعبره المعبرون ، بل لا يحصيه القلم بتسطيره في الكتب ، فالزمه يا رعاك الله في كل وقت .



(١) قال القاضي ابن عطية الأندلسي: "كلام عام في جميع الأحوال ، والمعنى: أنهم إذا سمعوا قولاً ميزوه واتبعوا أحسنه" (المحرر الوجيز) (٥٢٥/٤) .
(٢) «مدارج السالكين» (٤٧٩/١) .

٣٥- الله ﷻ البصير ﷻ سبحانه وتعالى

قال تعالى: ﴿وَأَلْفُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة]

المعنى اللغوي

البصير: من أبنية المبالغة، على وزن (فعليل)، ويطلق على ثلاثة معانٍ: فيُطلق على العلم، وعلى البصر بالعين، وعلى معنى: مُبْصِرٍ.

الأول: العالم بخفيات الأمور، ودقائق الأشياء، الخبير بها، يقال: "فلان بصير بكذا"، أي: خبيرٌ متحقِّقٌ به، وكما قال ﷺ خبراً عن قول السامري: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ [طه: ٩٦]، أي: علمت.

الثاني: المبصر للأشياء، أي: إدراك المبصرات ورؤيتها، والبصر: العين، أي: بمعنى الرؤية بحاسة العين، وأصله: وضوح الشيء، يقال: بصرت بالشيء إذا صرت به بصيراً عالماً، وأبصرته: إذا رأيته^(١).

الثالث: أنه بمعنى مُبْصِرٍ، كما تقدّم في سميع، وهو بهذا المعنى احتمل معنيين: أحدهما: أنه بمعنى (فاعل) أي: باصر. والثاني: أن يكون بمعنى أنه جعل غيره يُبْصِرُ^(٢).

والمعنى على هذا الوجه: أن يكون تأويله: أن الله ﷻ بصيرٌ للأشياء، أي: جاعل الأشياء المبصرة ذوات أبصار، أي: مُدركة للمبصرات بما خلق لها من الآلة المدركة بذلك والقوة، فيقال: الله بصيرٌ لعباده، أي: جاعلٌ عباده مبصرين للأشياء مدركين لها.

فهذه ثلاثة أوجه للبصير سائغة في اللغة، جائزٌ وصف الله تعالى بها^(٣).

(١) «لسان العرب» (٦٤/٤)، «النهاية» (٧٩)، و«اشتقاق أسماء اله» للزجاجي (٦٥)، و«تفسير الأسماء» للزجاج (٤٢)، و«شأن الدعاء» (٦٠)، و«الأمَد الأقصى» (١٦/٢)، و«تلخيص الأدلة لقواعد التوحيد» لأبي إسحاق الصفار البخاري (٤١٥/١).

(٢) «الأمَد الأقصى» (١٦/٢ - ١٩).

(٣) «اشتقاق أسماء الله» (٦٧).

﴿ المعنى الشرعي ﴾

الله ﷻ هو البصير الذي لا أبصر منه سبحانه، الذي يبصر الكليات والجزئيات، والحركات والسكنات، فهو:

(١) أحاط بصره بجميع المبصرات، في أقطار الأرض والسموات، في كل اللحظات، "فهو تعالى يشاهد ويرى حتى لا يعزب عنه ما تحت الثرى"^(١)، ولا في السموات العلا، ليست سماء أقرب إليه من سماء، بل جميع ما تحت العرش عند بصره سواء.

(٢) فهو سبحانه الذي يبصر جميع الموجودات في عالم الغيب والشهادة، ويرى الأشياء كلها مهما خفيت أو ظهرت، ومهما دقت أو عظمت، على اختلاف الأوقات، وتباين الحالات.

(٣) وهو البصير تعالى: بالغ البصر، بما كان وما يكون، وما نبصر، وما لا نبصر، وما يعلم العباد وما لا يعلمون^(٢).

(٤) وهو البصير: المطلع على خلقه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده، فلا يحجبه ظاهر عن باطن، ولا كبير عن صغير، ولا قريب عن بعيد، بل هو بجميعها محيط، ولها ذاكر حفيظ، فالسر عنده علانية، والغيب عنده شهادة^(٣)، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

(٥) وهو البصير سبحانه: "الناظر لأسباب الكون والمكان، وما يكون في العاقبة والمآل، إلى آخر الأحوال"^(٤) والزمان.

(٦) فهو تعالى يبصر كل مبصر، لا يشغله علم بعضها عن علم بعض^(٥)، فلا يحجب عن بصره شيء، ما تحت الأرضين السبع، ولا فوق السموات السبع^(٦).

(٧) وهو سبحانه البصير: العليم بالموجودات كلها، الخبير بحركاتها، وسكناتها، وكلياتها،

(١) «المقصد الأسنى» (٩١).

(٢) «تفسير السعدي» (٧٣٥)، و«نظم الدرر» (٣٣٣/٢)، و«تفسير الشريبي» (٣٩١/١).

(٣) انظر: «فتح الرحيم» (٢١)، و«القواعد الحسان» (٥٨)، و«أسماء الله الحسنى» د. الرضواني (٣٢٦).

(٤) «شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان الإشبيلي (٣٦١/١).

(٥) «تفسير أبي السعود» (٧٥/٧).

(٦) «طريق الهجرتين» (٢٣٤).

وجزئياتها، فلا توارى منه سماء سماءً، ولا أرض أرضاً، ولا شيء شيئاً^(١).

(٨) وهو تعالى بليغ البصر: يبصر كل ما يمكن أن يرى من الأعيان، والمعاني، فهو بصيرٌ كل مبصرٍ في حالة واحدة، لا يشغله إدراك بعضها عن بعض^(٢).

(٩) "فهو تعالى ذو بصر وخبرة، لا يدخل تدبيره خلل، ولا يرى في خلقه تفاوت، يعلم كيفية إبداع المبدعات، وتدبير المصنوعات، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفْتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُعْسِكُنَ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩]"^(٣).

(١٠) وهو البصير تعالى: الذي لا أحد أبصر منه، قال سبحانه: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ [الكهف: ٢٦]، "أي: ما أبصر الله لكل موجود، وأسمعه لكل مسموع"^(٤)، فهو سبحانه المبصر لكل المبصرات، المدرك لها ظاهراً وباطناً^(٥) في كل اللحظات، لا يشدُّ عن بصره وعلمه شيء منها في أي وقتٍ من الأوقات، قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

(١١) وهو البصير تعالى: بأحوال عباد، والتي منها:

(أ) أنه "العليم بمن يستحق الهداية، ممن يستحق الضلالة.

(ب) والعليم بمن يستحق الجزاء بحسب حكمته، فيعطي كلاً بحسب ما يستحق من العطاء، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥، ٢٠]"^(٦).

(جـ) البصير: بمن يصلح حاله بالغنى والمال، أو خلافة، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

(د) والبصير: "فيعطيه ما يليق به، ويسويه بحسب مشيئته، ويودع فيه ما يريده بمقتضى حكمته، ثم يهديه إليه بتوفيقه، ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك: ١٩]"^(٧).

(١٢) فهو سبحانه بالغ البصر بكل ما يمكن أن يبصر من الأفعال، والعلم بكل ما يبصر

(١) ينظر: «حاشية شرح أسماء الله الحسنى وفوائدها» (٥٧).

(٢) «نظم الدرر» (٣/٦)، و«البحر المحيط» (٤٢٢/٨).

(٣) «تفسير الطبري» (٣٤٠/٧)، و«تفسير أبي السعود» (٨/٩).

(٤) «الطبري» (٩٥/٥).

(٥) «اشتقاق أسماء الله» (٦٧)، و«السراج المنير» (٥٨١/٣).

(٦) «تفسير ابن كثير» (٤٨٨/١، ٤٨٩)، و«تفسير السعدي» (١٢٤).

(٧) «تفسير القاسمي» (٢٩٣/٩).

وما لا يبصر منها ومن غيرها، من ذلك الأعمال والنيات، فيبصر تعالى: بمطامح عيون العباد، وظنونهم فيجازيهم على ذلك، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]^(١)، رتب هذين الاسمين تعالى على الإرادة للدلالة على أن ما في الضمير عنده بمثابة المسموع والمبصر^(٢).

(١٢) وهو البصير تعالى: جاعل الأشياء المبصرة ذوات أبصار، أي: مدركة للمبصرات بما خلق لها من الآلة المدرك لذلك والقوة^(٣).

(١٣) وهو البصير سبحانه: البصير بحال عبده المؤمن، وما هو عليه من الضعف والحاجة، إلى النصر والحماية^(٤)، فيحرس من يلوذ به (منهم) من المكاره (بعينه التي لا تنام) قال تعالى عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَأَفْرِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤]^(٥).

(١٤) وهو البصير عزَّ شأنه: العالم بالصواب فيما يتلى به بين العباد، فيصبر أو يجزع على ما امتحن به من المحن والبلاء، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿[الفرقان: ٢٠]^(٦).

جلال البصير

الأول: من جلاله: أنه تعالى يرى تعالى ديبب النملة السوداء، تحت الصخرة الصماء، في الليلة الظلماء، حيث كانت من سهله أو جباله، وجميع أعضائها الباطنة والظاهرة، وسريان الدَّم والقوت في أعضائها الدقيقة، ويرى سريان المياه في أغصان الأشجار، وعروقها، وجميع النبات على اختلاف أنواعها، وصغرها، ودقَّتْها.

ويرى تفاصيل خلق الذرة^(٧) الصغيرة، وأعضاءها، ولحمها، ودمها، ومُخَّها، ويرى نياط عروق النحلة، والبعوضة، ومدَّ جناحها في ظلمة الليل، وأصغر من ذلك، ويرى خيانات

(١) انظر: «الدرر» (٣٣٣/٢)، و«البحر المحيط» (٩٣/٤)، و«تفسير غرائب القرآن» (٥١٢/٢).

(٢) «غاية الأمانى» (٢٢٢/٢).

(٣) «اشتقاق أسماء الله» (٦٧).

(٤) «الأسماء الحسنی في فواصل القرآن» د. عبد الغني أحمد النفاض (٤٨٥/١).

(٥) «تفسير أبي السعود» (٢٧٨/٧).

(٦) انظر: تفسير الطبري (٤٦٥/٥)، و«تفسير النسفي» (٧٩٩).

(٧) أي: النملة الصغيرة. «عمدة الحفاظ» (٣٩/٢).

العيون، وتقلّبات الجفون، وحركات الجنان، بعينه التي لا تنام، وألطف من ذلك: رؤيته لتقلب عبده، في مشاهدته لاختلاف أحواله، ﴿الَّذِي يَرَبُّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ ﴿وَقَلْبِكَ فِي السَّجْدِ﴾ [الشعراء]، فسبحان من تحيّر العقول في عظمة، وسعة متعلّقات صفاته، وكمال عظمتها، ولطفه وجلاله، وخبرته بالغيب والشهادة^(١).

الثاني: ومن جلال البصير سبحانه: أنه يرى ضمائر الخفيات، وعزائم النيات، والخطرات التي تدب في قلوب جميع البريات سواء، فسبحانه ما أبصره.

الثالث: ومن جلال هذا الاسم المبارك: أنه يدلّ على صفة العينين الذاتية لله تعالى، اللتين تليقان بكمال ربنا وجلاله، لا تشبه صفات المخلوقين، قال سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى].

وقد دلّ عليهما الكتاب والسنة، قال تعالى حكاية عن سفينة نوح ﷺ: ﴿نَجَرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]، فسّر ابن عباس ؓ الآية حيث "أشار بيده إلى عينيه"^(٢) تحقيقاً، وإثباتاً لهذه الصفة الكريمة.

ومن السنة عن النبي ﷺ في قوله: «إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور» (وأشار إلى عينيه) وأن المسيح الدجال أعور عين اليمنى^(٣).

وفي هذا تعليم من نبينا ﷺ لنا في بيان، أن الإشارة بذلك ليس تشبيهاً، ولا تمثيلاً، وإنما هو تصريحاً، وتحقيقاً في إثبات صفات ربنا ﷺ، بضرب الأمثلة المشاهدة، على الغائبة، فإنها أثبت في فهمها، وعقلها.

وقد دلّت اللغة في بيان معنى (العور) هو: ذهاب إحدى العينين، أو ذهاب نورهما، قال في القاموس: "العور: ذهاب حسّ إحدى العينين"^(٤).

قال إمام أهل السنة والجماعة أبو سعيد الدارمي ؓ: "الأعور: ضدّ البصير بالعينين، (وذكر الحديث السابق ثم قال)، بيانه: أنه ذو عينين، خلاف الأعور"^(٥).

(١) «طريق الهجرتين» (٢٣٤)، و«شفاء العليل» (٤١/١)، و«تفسير ابن السعدي» (٤٨٧/٥)، و«الحق الواضح» (٣٥).

(٢) رواه اللالكائي (٤١١/٣).

(٣) «البخاري» (٣٣٤٩)، (٧٤٠٧). و«مسلم» (١٦٩٠).

(٤) «القاموس» (٩٧/٢).

(٥) «رد الدارمي على بشر المريسي» (٣٠٥/١).

قال إمام الأئمة ابن خزيمة رحمه الله: "بين ﷺ أن الله ﷻ عينين ، فكان بيانه موافقاً لبيان محكم التنزيل" ^(١)، وقال رحمه الله: "نحن نقول لربنا الخالق عينان يبصر بهما ما تحت الثرى ، وتحت الأرض السابعة السفلى ، وما في السموات العلا... " ^(٢).

قال أبو الحسن الأشعري رحمه الله في بيان معتقد أهل الحديث: "وأنَّ له عينين ، كما قال تعالى: ﴿تَجْرَى بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]" ^(٣).

وقال أبو بكر الباقلاني رحمه الله - بعد أن ذكر جملةً من الصفات -: "... والعينين اللتين أفصح بإثباتهما من صفات القرآن ، وتواترت بذلك أخبار رسول الله ﷺ" ^{(٤)(٥)}.

الرابع: ومن جلاله: أنه يُبَصِّرُ من يشاء من أوليائه البرهان والبصيرة التي تحجبه عن وقوع في السوء والفاحشة ، قال تعالى حكاية يوسف عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْفَىٰ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَجَا بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ [يوسف: ٢٤] .

ويُرى من يشاء منهم بعين "بصيرته لطائف خلق السموات والأرض وما اشتملت عليه من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة على وحدانيّة الله تعالى في ملكه ، وخلقه ، حتى يكون من الموقنين عياناً ، كما أيقن بياناً ، فإنه بحسب قيام الأدلة يحصل له الإتيقان ، قال ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام: ٧٥]" ^(٦).

الثمرات

من عرف أن الله ﷻ بصير: زَيَّنَ باطنه بالمراقبة ، وظاهره بالمحاسبة ، وراقبه في الحركات والسكنات ، وفي كل التقلبات ، وصار خائفاً من الله سبحانه ، حياءً منه تعالى ، يهابه أن يراه حيث نهاه ، أو يفترقه حيث أمره ، ويعلم أنه بمرأى من الله تعالى ، ومسمع ، فإنه تعالى يرى ويعلم ما يجري بخاطره ، وما يهمس في لسانه ، فيتبغى لمن علم ذلك: أن لا يستهين بنظره إليه ،

(١) «كتاب التوحيد» (١١٤/١) .

(٢) المصدر السابق .

(٣) «مقالات الإسلاميين» (٢٨٥/١) ، وصرَّح في كنه الأخرى ، كالإبانة (١٢٩) .

(٤) «الإنصاف» (٢٤) .

(٥) وللاستزادة انظر «شرح الواسطية» لابن عثيمين (٣٢/٢ - ٤٢) ، فله بحثٌ نفيس في غاية الأهمية ، وكذلك «شرح كتاب التوحيد» للغنيمان (٢٠٦/١ - ٢٠٩) .

(٦) انظر: «تفسير النسفي» (٣٢٩) ، و«تفسير ابن كثير» (٢٠٧/٢) ، و«تفسير السعدي» (٢٦٢) .

واطلاعه عليه سبحانه، ومن أخفى عن غير الله ما لا يخفيه عن الله تعالى، فقد استهان بنظر الله تعالى.

ولهذا قيل لبعض الصالحين: بما يستعين العبد على حفظ بصره؟ قال: يعلم أن نظر الله تعالى سابق نظره إلى ما ينظر إليه.

ولهذا تثمر معرفة هذا الاسم الجليل "المراقبة"، التي توصل العبد إلى أعلى درجات العبادة، وهو مقام الإحسان، وهو أعلى مقامات الدين، وهو: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك»^(١).

فمن قارب معصيته وهو يعلم أن الله تعالى يراه، فما أجرأه وما أخسره!، وإن ظن أن الله تعالى لا يراه فما أكفره، ومن داوم الرقابة ومطالبة النفس بدقيق المحاسبة، ومن حفظ سمعه وبصره لله تعالى، أحبه سبحانه، وكان له سمعاً وبصراً، فبه يسمع، وبه يبصر، كما جاء في الحديث الشريف^(٢).

ومن عبودية هذا الاسم المبارك: النظر إلى آيات الله تعالى في ملكوته، فينظر في مصنوعات الله سبحانه الدالة على كمال قدرته، وتمام حكمته، وشمول علمه، قال تعالى: ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]. وقال ﷺ: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠]، وقال سبحانه: ﴿انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ٩٩].



(١) «البخاري» (٥٠)، «مسلم» (٩).

(٢) انظر: «المقصد الأسنى» (٨٥)، و«الأمم الأقصى» (٢١/٢)، و«موسوعة له الأسماء الحسنى» (١٥٨/١)، و«شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (٢٤٧)، و«شرح أسماء الله الحسنى وفوائدها وخصائصها» لأبي العباس أحمد البرنسي (٥٧).

٣٦-٣٧- الله ﷻ القاهر، القهار ﷻ جل جلاله

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨].

وقال ﷺ: ﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ الْوَحِيدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ١٨].

المعنى اللغوي

القاهر: اسم فاعل للموصوف بالقهر. والقهار: صيغة مبالغة، من اسم (الفاعل) القاهر.

والقهر: مأخوذ من الغلبة، والعلو، والأخذ من فوق، والتذليل معاً، ويستعمل كل منهما منفرداً، فهو صرف الشيء عن طبيعته على سبيل الإلجاء، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى: ٩]، والقهر: بلوغ المراد يمنع غيره من بلوغه، فهو غلبة الذوات وصرف صفاتها إلى حكم القاهر ومشيتته فيها، ومنها.

وبالجملة فهو: الاستيلاء على الشيء في الظاهر والباطن، يقال: "قهرت الشيء": غلبته، وعلوت عليه، مع إذلاله بالاضطرار، ويقال: أخذتهم قهراً، أي: من غير رضاهم، فالقاهر هو: القادر والغالب الذي لا يعجزه شيء، ولا يتعذر عليه أمر^(١).

الفرق بين (القاهر، والقهار):

أن القاهر: هو الذي له علو القهر الكلي المطلق، على جميع المخلوقات، على اختلاف تنوعهم، فهو القاهر فوق عباده، له علو القهر مقترناً بعلو الشأن، والفوقية.

والقهار: صيغة مبالغة من القاهر، فهو أبلغ منه، فيقتضي تكثير القهر، فهو تعالى قهر من الجبارة ما لا يُحصى، أهلك قوم نوح وقهرهم، وقهر قوم عاد، وقوم ثمود، وقهر فرعون وهامان

(١) «لسان العرب» (٣٧٦٤/٥)، «معجم مقاييس اللغة» (٣٥/٥)، «عمدة الحفاظ» (٣٤٤/٣)، و«الصحاح» (٨٨٩)، و«شرح الأسماء الحسنى» للرازي (٢٢٩)، و«شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان (١٥٨/٢)، و«تلخيص الأدلة لقواعد التوحيد» (٥٣٤/٢)، و«تفسير النسفي» (٣١٦).

والنمرود، وأبا جهل، والمشركين، والصليبيين، وغيرهم ممن لا يحصى^(١).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو القاهر القهار، الذي لا يستطيع أحدٌ ردَّ تدبيره والخروج من تقديره^(٢):

(١) فهو الذي قهر جميع الكائنات، وذلت له جميع المخلوقات، ودانت لقدرته ومشيئته، مواد وعناصر العالم العلوي والسفلي، فلا يحدث حادث، ولا يسكن ساكن إلا بإذنه^(٣).

(٢) وهو تعالى القهار: لأهل السموات والأرض، فأهل السموات بالتسخير، وأهل الأرض بالتعبيد والتذليل^(٤).

(٣) فهو سبحانه الغالب عباده، المذلُّ لهم، العالي عليهم بتذليله لهم، وخلقهم إياهم، فهو تعالى فوقهم بقهره إياهم، وهم دونه^(٥).

(٤) وهو تعالى القهار: المستعلي على كل الخلائق بعلو الذات، وعلو السلطان، وعلو القهر، والمكانة، والقدر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨].

(٥) "وهو الذي قهر المعاندين سبحانه بما أقام من الآيات والدلالات، على وحدانيته في ألوهيته، وربوبيته، وأنه المستحقُّ للعبادة وحده، قال ﷻ: ﴿أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٦].

(٦) وهو الذي قهر جبابرة خلقه بعزِّ سلطانه، قال تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

(٧) وهو الذي قهر بالموت، كل خلقه^(٦)، قال عزَّ شأنه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

(٨) فهو سبحانه الذي قهر خلقه كلهم بسلطانه، وقدرته، وبما شاء من أمره، وصرفهم على ما أراد طوعاً أو كرهاً، فلا يعجزه أحدٌ منهم، ولا يحول بينه سبحانه وبين ما يريد فيهم^(٧).

(١) «الأمد الأقصى» (٣٦٦/٢)، و«أسماء الله الحسنى»، للدكتور محمود الرضواني (٣٨٦).

(٢) «المنهاج» للحليمي (٢٠٢/١).

(٣) «الحق الواضح» (٧٦).

(٤) «الأمد الأقصى» (٣٦٦/٢).

(٥) «تفسير الطبري» (٢٣٠/٣)، (٣٦٧/٦).

(٦) انظر: «تفسير الأسماء» (٣٨).

(٧) انظر: «التوحيد» لابن منده (١٦٩/٢)، و«النهاية» (٧٨٠)، و«تفسير القرآن العزيز» لابن أبي الزمين (٦١/٢)،

و«روح المعاني للكلوسي» (٢٥٤/٥)، و«موسوعة الشرباصي» (١٠٧/١).

(٩) "وهو القهار تعالى: الذي قهر كل شيء فذلَّه وسخَّره، فخضعت له الرقاب، وذلت له الجبابرة، وعنت له الوجوه، ودانت له الخلائق، وتواضعت لعظمة جلاله، وكبريائه، وعلوه الأشياء، واستكانت، وتضاءلت بين يديه، وتحت قهره، وحكمه الأبواب"^(١).

(١٠) ومن كمال قهره سبحانه: أنه فوق عباده: ينفذ فيهم إرادته الشاملة، ومشيتته العامة، فليسوا يملكون من الأمر شيئاً، فلا يتصرف فيهم متصرف، ولا يتحرك متحرك إلا بإذنه، ومشيتته^(٢).

(١١) وهو تعالى القهار: الذي يقصم ظهور الجبابرة، ويذلُّ رقاب القياصرة، ويخلع لبوس الأكاسرة، ويقطع الآمال بالحافرة^(٣)، تارة بالأمراض، وتارة بالنكبات، وتارة بالموت^(٤).

(١٢) هو سبحانه يقهر العباد بالحشر إلى أرض الميعاد، ليقيم لهم ميزان العدل، والحق، والصواب، قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

(١٣) ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ٦١] سبحانه: في ذاته، و"في الإحاطة بالعلم، والفعل (من جميع وجوه وجهاته) ومن ذلك:

الأول: أنه تعالى قهار للعدم بالتكوين والإيجاد.

والثاني: أنه قهار للوجود بالإفناء والإفساد، فإنه تعالى هو الذي ينقل الممكن (أي: الحادث المخلوق) من العدم إلى الوجود تارة، ومن الوجود إلى العدم أخرى، فلا وجود إلا بإيجاده، ولا عدم إلا بإعدامه.

الثالث: أنه قهار لكل ضد بضده، فيقهر النور بالظلمة، والظلمة بالنور، والنهار بالليل، والليل بالنهار، إلى غير ذلك من ضروب الكائنات، وصروف الممكنات^(٥) التي لا تعدُّ أفرادها ولا تحصى.

(١٤) ومن كمال قهره سبحانه: أنه "لا يوصل أثر قهره بإيقاع المكروه إلا لمستحق، ولهذا

(١) «تفسير الطبري» (٣٥/٤)، و«تفسير ابن كثير» (١٧٥/٢، ١٩٠، ٧٣٥).

(٢) «تفسير السعدي» (٢٥٢، ٢٥٩).

(٣) «الأمم الأقصى» (٣٦٦/٢، ٣٦٩)، وانظر: «تحفة الأبرار» (٣٥/٢).

(٤) «شرح الأسماء» للرازي (٢٣٠).

(٥) «تفسير الرازي» مج (٧) (١٤/١٣)، و«نظم الدرر» (٦٤٩/٢).

قرنه بالحكمة ، وأتم المعنى بالخبرة ، فقال عزَّ شأنه: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨] ^(١).

(١٥) فهو القاهر سبحانه: الذي طاحت عند صولته صولة المخلوقين ، وبادت عند سطوته قوى الخلائق أجمعين ، قال تعالى: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر] فأين الجبابة والأكاسرة عن ظهور هذا الخطاب ^(٢).

(١٦) الذي يدبّر خلقه بما يريد ، فلا يملك أحد ردَّ مشيئته ، ولا يستطيع أحد نقض تدبيره ، والخروج من تحت قهره ، وتقديره ، فجميع الخلق مهجورون في مشيئته ، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٧] ^(٣).

(١٧) وهو القاهر القهار: الذي يعمل مراده كله ، ويمنع غيره مراده إن شاء سبحانه ، فيدبّر خلقه على مراده طوعاً وكرهاً كما يريد ، فيقع في ذلك: ما يشقُّ ويثقل ، ويغمِّ ويحزن ^(٤) ، على مقتضى حكمته وخبرته تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨] .

(١٨) وهو تعالى يقهر من نازعه في ألوهيته ، وربوبيته ، وسلطانه ، وحكمه ، بالحجة والبيان ، والغلبة والذل والهوان .

"وبالجملة: فلا ترى شيئاً سواه إلا كان مقهوراً تحت أعلام عزته ، ذليلاً في ميادين صمديته" ^(٥).

جلال القاهر القهار

الأول: من جلالهما: أنه تعالى لا يخرج شيء عن سيطرته ، وغلبته ، وكل شيء خاضع لأمره ، مسخر تحت قهره ، وقدرته ، في حركته وسكونه ، فهو سبحانه يحيي خلقه إذا شاء ، ويميتهم إذا شاء ، ويفقرهم إذا شاء ، ويغنيهم إذا شاء ، ويمرضهم إذا شاء ، ويصحبهم إذا شاء ، لا يقدر أحد منهم إذا حكم عليه بحكم ، أن يزيل ما حكم الله به ، أو أن يرد تدبيره ، أو يخرج من تقديره ^(٦).

(١) «نظم الدرر» (٥٩٩/٢) بتصرف يسير .

(٢) «أسماء الله الحسنى» للرازي (٢٣٠).

(٣) انظر: «المنهاج» للحليمي (٢٠٢/١).

(٤) «الأسنى» (٢١٣/١) ، و«نظم الدرر» (٥٩٩/٢) ، و«المنهاج» (٢٠٢/١).

(٥) «شرح الأسماء» للرازي (٢٣٠).

(٦) انظر: «الحجة في بيان المحجة» (١٥٠/١) ، و«تفسير الطبري» (٤٦٤/٤) ، و«الأسماء والصفات» (١٦٣/١).

الثاني: ومن جلالهما: أن العقول كلها مقهورة عن الوصول إلى كُنه صمديته، والأبصار كلها مقهورة عن الإحاطة بأنوار عزّته^(١).

الثالث: ومن جلال قهره سبحانه: أنه "إذا سلمنا له ما يريد، كفانا ما نريد، وإن لم نسلم له ما يريد، [قهرنا] فيما نريد، ثم لا يكون إلا ما يريد"^(٢).

الرابع: ومن جلالها: أن [كل من] سواه مربوب مقهور، له ضد، ومناف، ومشارك، فخلق الرياح وسلط بعضها على بعض تصادمها، وتكسر سورتها، وتذهب بها، وخلق الماء، وسلط عليه الرياح، تصرفه وتكسره، وخلق النار، وسلط عليها الماء، يكسرها ويطفئها، وخلق الحديد، وسلط عليه النار يذيقه، وتكسر قوته، وخلق الحجارة، وسلط عليها الحديد، يكسرها ويفتتها، وخلق آدم وذريته، وسلط عليهم إبليس وذريته، وخلق إبليس وذريته، وسلط عليهم الملائكة، يشردونهم كل مشرد، وخلق الحرّ والبرد، والشتاء والصيف، وسلط كلاّ منهما على الآخر، يذهبه ويقهره، وخلق الليل والنهار وقهر كلاّ منهما الآخر...، فاستبان للعقول والفطر، أنّ القاهر الغالب لذلك كله واحد، وأن من تمام ملكه إيجاد العالم، على هذا الوجه"^(٣).

الخامس: ومن جلال القاهر تعالى: "أنه هو الذي قهر نفوس العابدين، فحبسها على طاعته"^(٤).

السادس: ومن جلال قهر ربّنا عز شأنه: أنه "قهر قلوب أحبابه على العكوف ببابه، فأنسوا بجنابه، ولولا تجلّيه تعالى بالقهر، ما خضعت النفوس"^(٥) له ﷺ.

الثمرات

من ثمرات هذين الاسمين الجليلين: أنهما يورثان المؤمن الذل والخضوع والإكبار للرب الواحد القهار، والعزة والرفعة على ذوي الإلحاد والمشرّكين، والكفار، بالحجة، والبيان، والسطوة، والثبات على الحق في هذه الدار، قال ﷺ: «لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله، قاهرين لعدوهم، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتي الساعة وهم على ذلك»^(٦).

(١) «لوامع البينات» (٢٣٠).

(٢) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (١٠٧/١).

(٣) «طريق الهجرتين» (٢٤٧ - ٢٤٨).

(٤) انظر: «شرح الأسماء» للرازي (٢٣٠).

(٥) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (١٠٧/١).

(٦) «صحيح مسلم» (١٩٢٤).

ومن عبوديتهما أنه ينبغي للعبد أن لا يقهر يتيماً، ولا شيخاً، ولا ضعيفاً، تعبداً للواحد القهّار، قال عزّ شأنه: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى].

واعلم وفقني الله تعالى وإياك لحسن عبودية أسمائه الحسنی، أنّ حظّ المؤمن من عبودية هذين الاسمين: "أن يقهر أعداءه، وأعدى عدوّه نفسه التي بين جنبيه، فيقهرها، ويضيق خناقها، ويخالفها حتى تطيع الأوامر الإلهية، فإذا قهر شهوته، وغضبه، وحرصه، ووهمه، وخياله، (ثم قهر عدوه وهو إبليس الذي يجري منه مجاري عروقه)، فقد قهر أعداءه، ولم يبق لأحد سبيل عليه" (١).

واعلم أنّ هذه الصفة الجليلة في حقّ ربّ الخليقة، من أوصافه العلا المطلقة الكمالية، الذي تفرد بها في الأرض والسموات العلية، أما في حقّ البرية فهي صفة نقص ذميمة، لا يجوز أن يتعاطاها أحدٌ منهم بالسوية، قال تعالى عن فرعون لعنه الله: ﴿قَالَ سَنَقُولُ أَبْنَاءَهُمْ وَسَتَحِيءُ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].



(١) «شرح أسماء الله الحسنی» للرازي (٢٣١)، و«موسوعة له الأسماء الحسنی» (١٠٩/١).

٣٨- الله ﷻ الوهَّابُ تبارك وتعالى

قال تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران] .

المعنى اللغوي

الوهاب: من صيغ المبالغة على وزن (فَعَّال)، من الوهاب الذي يدل على كثرة هباته، ومعناه: المجزل للعطاء، لأن الهبة: تملك الشيء بلا مثل، أي: بلا قيمة ولا ثمن، وهي: العطيَّة الخالية عن الأعواض، والأغراض، فهي الإعطاء تفضُّلاً وابتداءً، من غير استحقاق، ولا مكافأة، فإذا كثرت تسمَّى صاحبها وهَّاباً^(١)، والهبة لا تحصل إلا من الله تعالى في الحقيقة، وذلك أنَّ لها ركنان: أحدهما: التملك، والآخر: بغير عوض، فكان الوهاب هو الله لا غيره^(٢).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الوهَّاب، وهَّاب الهبات كلها الدنيوية والأخروية على الإطلاق:

(١) فهو سبحانه واسع الهبات، شمل كل الكائنات، من في الأرض والسموات، هباته تدر على عباده في كل اللحظات في السر والجهار، وفي الليل والنهار، لا ينقطع نواله بحال، ولا في المآل.

(٢) فيهب العطايا والنعم، من غير استحقاق، ولا عوض، ويهب ما شاء لمن يشاء بلا استثناء، ولا غرض.

(٣) وهو الوهاب سبحانه: الذي كثرت نوافله، ودامت مواهبه، واتَّصلت مننه وعوائده في كل الأوقات، نعمه كامنة في الأنفس، وجميع المصنوعات، ظاهرة بادية في سائر المخلوقات.

(٤) ومن كمال هباته تعالى: أنها تدر على عباده في دنياهم، وأخراهم، دون انقطاع،

(١) «لسان العرب» (٨٠٣/١)، و«النهاية» (٩٩١)، و«تفسير الأسماء» (٣٨)، و«تلخيص الأدلة» (٦٥٠/٢)، و«تفسير

النهر الماد» لابن حيان الأندلسي (٢٩٧/١).

(٢) «شرح الأسماء الحسنى» للرازي (٢٣٢).

ولا نفاذ، بل في نماء، وازدياد، مع الآباد.

(٥) فهو سبحانه الوهاب على الحقيقة: الذي له البذل الشامل، والعطاء الدائم، بغير تكلفٍ، ولا عوض، ولا غرض، وكل من يعطي سواه، فإنما يعطي بعوض أو غرض في الدنيا، أو في الدين العاجل، أو الآجل^(١).

(٦) وهو تعالى الوهاب: كثير اللطف والإقبال، عظيم المن والنوال، يعطي الحاجة بغير سؤال، ويبدأ بالعطية، وهو صاحب الأيادي العلية.

(٧) وهو الذي يسبغ خصائص الجود والإفضال، الذي يعطي بلا طلب ولا وسيلة، وينعم بلا سبب، ولا حيلة^(٢).

(٨) فهو الوهاب سبحانه: مولى الجميل، الدائم الإحسان، وواسع المواهب والعطايا، الكثيرة لجميع البريات^(٣)، التي لا يحدها حدود، ولا يقيدها قيود، ولا يستعظمه شيء أعطاه، ولا تنقص مواهب خزائن ملكه^(٤) مهما أعطى الخليفة.

(٩) ومن كمال الوهاب سبحانه: أنه يهب بما لا يملك غيره أن يهبه: فيهب الكثير والعظيم^(٥) من العطايا الجزيلة: الإيمان والمعايشية.

الإيمانية من أجلها: "مغفرة الذنب، وهي من المواهب العظيمة لما يترتب عليها من درجات الآخرة"^(٦)، فإن المغفرة أيضاً من أحكام وصف الوهابية^(٧).

والمعايشية: "الملك، وهي هبة عظيمة كذلك، قال تعالى عن سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥]"^(٨).

(١٠) وهو سبحانه الوهاب: الذي يهب ما شاء لمن يشاء، بيده خزائن كل شيء، يفتح من

(١) انظر: «شأن الدعاء» (٥٣)، «الأسنى» (٣٩٦/١ - ٣٩٩)، و«تفسير البيضاوي» (١٦٧/٣)، و«أسماء الله الحسنى» الثابتة (٦٧٤).

(٢) «شرح الأسماء» للرازي (٢٣٣)، و«نظم الدرر» (٣٨٦/٦)، و«حاشية الصاوي على الجلالين» (٢٤٩/١)، و«موسوعة له الأسماء الحسنى» للشرباصي (١١٢/١).

(٣) «الحق الواضح» (٨٢)، و«تيسير الكريم المنان» (١٢٣).

(٤) «أسماء الله الحسنى» د. عمر الأشقر (٩٧).

(٥) «تفسير التحرير والتنوير» مج (٩) (٢٦٣/٢٣).

(٦) «تفسير الطاهر ابن عاشور» مج (٩) (٢٦٣/٢٣).

(٧) «إرشاد العقل السليم» (٣٦٣/٥).

(٨) «التحرير والتنوير» مج (٩) (٢٦٣/٢٣).

ذلك ما أراد لمن أراد^(١).

(١١) وهو الوهاب: "الكثير الهبات والمواهب، الذي لا تتعاضد عنده هبة، المصيب بها مواقعها، الذي يقسمها على ما تقتضيه حكمته"^(٢).

(١٢) فهو سبحانه الذي دامت عطاياه، وتوالت أياديها، يهب لعباده واحداً بعد واحد، ويعطي كل محتاج ما يحتاج إليه^(٣).

(١٣) ومن تمام الوهاب تعالى: أن جميع ما يحصل من الخيرات (في الدنيا والآخرة) هو هبة من الله تعالى^(٤) فهو سبحانه متفضل بما ينعم به على عباده من غير أن يجب عليه شيء^(٥).

(١٤) "وهو الوهاب تعالى: لمن يشاء من خلقه، ما يشاء من: ملك، وسلطان، ونبوة، قال سبحانه: ﴿أَمْرٌ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ [ص: ٩]"^(٦).

(١٥) ومن أجزل هباته: ما وهب لأوليائه الإيمان والثبات على الإسلام، ﴿رَبَّنَا لَا تُخِزْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨]، أي: "إنك أنت المعطي عبادك التوفيق والسداد للثبات على دينك وتصديق كتابك ورسلك"^(٧). قوله: (رحمة): "ثبت بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وتزيدنا بها إيماناً وإيقاناً"^(٨).

جلال الوهاب

الأول: من جلاله: أن هباته ﷻ في كل الأوقات واللحظات، التي يتقلب بها أهل الأرض والسموات، التي لم تنفك عنهم طرفة عين، منذ أن خلق هذه المعمورة والأفلاك، فإنها لم تنقص مما عنده شيئاً من الخيرات والمكنونات، قال ﷻ: «يد الله ملأى، لا يغيضها (لا

(١) انظر «تفسير الطبري» (٣٤٨/٦).

(٢) «النهر الماد» (٨٢٩/٣)، و«تفسير النسفي» (١٠١٥).

(٣) «اشتقاق أسماء الله» (١٢٦)، و«تفسير الأسماء» للرازي (٢٣٣)، والشرباصي (١١٢/١).

(٤) «تفسير النهر الماد» (٢٩٧/١).

(٥) «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (٢٤٦/١).

(٦) «تفسير ابن جرير» (٣٣٧/٦).

(٧) «تفسير الطبري» (٢٢٠/٢).

(٨) «تفسير ابن كثير» (٤٨٠/١).

تنقصها) نفقة، سحّاء (أي: كثيرة العطايا) الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض، فإنه لم يغنص ما في يده»^(١).

الثاني: ومن جلال هباته: أنه سبحانه "يهب حقه، ويترك على عباده ما وجب له، وينعم عليهم"^(٢)، فوق مأمليهم.

الثالث: ومن جلال الوهاب تعالى: أن بها "حصلت حقائق الأشياء، وذواتها، وماهيتها، ووجوداتها"^(٣).

الرابع: ومن جلال الوهاب سبحانه: أن الهبة منه سبحانه، والعطاء لا يكون إلا أن يتعلق بنوع ما يكون به (العبد) منعماً محسناً، وذلك بما لا ألم فيه ولا ضرر، قال تعالى: ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [إبراهيم: ٨]، أي: المطلوب منه تعالى هبة يكون مآلها كحالها، لا تنفصل، ولا تتغير^(٤).

الخامس: ومن جلاله: أنه يهب العطاء في الدنيا على سبيل الابتلاء، ويهب العطاء في الآخرة على سبيل الأجر والجزاء، فعطاؤه في الدنيا علقه بمشيئته، وابتلاء للناس بحكمته، ليتعلق العبد بربه عند الدعاء والرجاء، ويسعد بتوحيده وإيمانه بين الدعاء والقضاء، وهذا أعظم الهبات والعطاء، إذا أدرك العبد حقيقة الابتلاء^(٥)، واستعان بربه في تحقيق ما يرجوه العبد ويتمناه في دار البلاء، وفي الآخرة بالأجر الدائم، بلا انقطاع.

السادس: ومن جلال الوهاب تعالى: "أنه لا (يهب) للنفع، ولا يوجد للدفع، (فهو سبحانه لا يهب): لفائدة يجتلبها، ولا مضرة يدفعها، لتقدّسه عن ذلك كله"^(٦)، لأنه من محض فضله، وإحسانه، وإنعامه.

السابع: ومن جلاله: أن "هذا الاسم المبارك يدلُّ في مادّته على السعة والكثرة، والزيادة، بحيث يدخل في معناه المعبر عنه، باللفظ الكثير من معاني أسماء الله تعالى الحسنى، والصفات العلا"^(٧)،

(١) «البخاري» (٤٦٨٤)، و«مسلم» (٩٩٣).

(٢) «إبطال التأويلات» (٦٥٤).

(٣) «التفسير الكبير ومفتاح الغيب» مج (٤) (١٩٦/٧).

(٤) «الأسنى» (٣٩٩/١).

(٥) «أسماء الله الحسنى» للرضواني (٦٧٤).

(٦) «الأمّد الأقصى» (٣٨٠/١).

(٧) «بدائع الفوائد» (١٧٥/١).

ولهذا توسَّل كما سبق أولوا الألباب ، الذين أثنى الله تعالى عليهم في كتابه الحكيم ، بهذا الاسم الكريم في الثبات على الدين ، في كل حين ، قال سبحانه عنهم: ﴿ رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ [آل عمران: ٨] .

الثمرات

من ثمرات هذا الاسم الكريم: أنه يورث المؤمن محبة ربه العظيم ، والقيام بحمده وشكره على هباته التي تدرُّ عليه من يوم مولده إلى آخر عمره ، والتي أعظمها: نعمة الإسلام ، التي هي أعظم العطايا والهبات .

ويثمر هذا الاسم الجليل للعبد كذلك: قوة الرجاء ، والتعلق برب الأرض والسماء ، في السؤال والعطاء كما استمطر به أولوا الألباب وبعض الأنبياء ، ومن ذلك سؤال الله تعالى رزق الأبناء ، كما كان من دعاء زكريا ﷺ: ﴿ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ [آل عمران] ، وسؤاله الصلاح لهم وللزوجات ، كما كان من دعوات عباد الرحمن الأصفياء: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان] .

وينبغي الرضا بما قسمه الله تعالى ووهبه للعبد أنثى كان ، أو ولد ، صحيحاً كان أو سقيماً من داءٍ أو مرض ، فكلُّ خير له في العاجل ، وفي الأمد ، قال تعالى: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِثَاءً وَنَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكَورَ ﴾ [الشورى] ، وقال ﷺ: «إن أولادكم هبة الله لكم ، يهب لمن يشاء إناثاً ، ويهب لمن يشاء الذكور...» ^(١) ، فالزم هذا الاسم العظيم في السؤال والدعاء في كل الأوقات ، لتحظى بالإجابة ، من كلِّ ما تتمنَّاه في الدنيا والآخرة ، من المنافع والمسرات .

ومن عبودية هذا الاسم الجليل: أن يكون المؤمن كثير الهبات ، كريم الصفات ، فإذا كان الأمر كذلك يا رعاك الله: فهب ما وهب الله لك من فضله على المحتاجين ، والفقراء ، والمساكين ، وأن تعطي بغير أن تأمل الاستثابة ، ولا تكلف العِوض ، في ردِّ العطية .

واعلم أن الله ﷻ قد وهب لك كل ما عندك ، فلا تحرمه لغيرك ، فإن الله تعالى سيعاملك على قدر ذلك في دنياك ، وآخرتك .

وينبغي لك يا رعاك الله أن تكون "مستحيًا منه تعالى أن تصرف ما وهبك في غير ما أمرك" ^(٢) .

(١) صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٥٦٤) (١٣٧/٦) .

(٢) «شرح أسماء الله الحسنى وفوائدها وخصائصها» (٤٩) .

٣٩- الله المتكبر جل ثناؤه

قال تعالى: ﴿الْمَزِيدُ الْغَنَاءُ الْمَتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]

المعنى اللغوي

المتكبر: ذو الكبرياء، اسم (فاعل) للموصوف بالكبرياء، وهو: العظمة، والتعالي، والملك، والامتناع، فيطلق على:

الأول: العظمة، والرفعة في الشرف، والمنزلة، وهو: أن تكون الأفعال الحسنة كثيرة في الحقيقة، وزائدة على محاسن غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةً قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩] (١).

ويقال: "ورثوا المجد كابرًا عن كابر"، أي: كبيرًا عن كبير في الشرف والعز.

الثاني: الملك، قال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ أَلِكْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٧٨]، يعني: الملك (٢)،

الثالث: التجبر والعظمة، والتكبير: التعظيم، يقال: "أكبرت الشيء": استعظمته، وكبر: عظم، ومنه قول النسوة في يوسف عليه السلام: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١]، أي: أعظمنه.

الرابع: الامتناع، والترفع عن الانقياد، وهذا هو أصل التكبر، وذلك لا يستحقه غير الله تعالى، لأن الله ﷻ له القدرة، والفضل، الذي ليس لأحد مثله، وهو الذي يستحق أن يقال له: المتكبر (٣).

(١) ومنه قوله سبحانه: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ جُذُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ﴾ [الأنبياء: ٥٨]، فسمّاه كبيرًا بحسب اعتقادهم فيه، لا لقدّر أو رفعة على الحقيقة.

(٢) صح عن مجاهد، «التفسير الصحيح» (٣/٣٠).

(٣) «المفردات» (٦٩٦)، و«النهاية» (٧٨٨)، و«مقاييس اللغة» (١٥٣/٥)، و«الصحاح» للجوهري (٨٠١/٢)، «القاموس المحيط» (١١١٠)، و«تفسير غريب القرآن» (١٨)، و«تفسير السمعاني» (٤١٠/٥). و«تفسير القرطبي» (٣١/١٨).

وهذا الاسم الجليل دالٌّ على كمال العظمة ، ونهاية الكبرياء^(١) . فهو : اسم جامع لمعاني التنزيه^(٢) .

فإن المتكبر في الخلق : هو الذي يرى نفسه فوق الخلق ، والمتكبر بالحقيقة والوجوب هو الله ، وهو فوق الخلق لتنزهه عن صفات النقص ، ووجوب الكمال له في صفات الكمال بتنزيهها عن الآفات ، فصار تنزيهاً محضاً^(٣) .

المعنى الشرعي

الله سبحانه هو المتكبر حقاً ، البليغ الكبرياء الذي لا نهاية له فلا يعلم قدره غيره :

(١) هو الذي تفرد بالكبرياء وحده دون خلقه ، فلا كبرياء في الأرض ولا في السماء لسواه سبحانه ، ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٣٧]^(٤) .

(٢) وهو الذي كَبُرَ وَعَظُمَ في : ذاته ، وصفاته ، وأفعاله^(٥) ، وملكه ، وسلطانه ، فكل شيء دونه صغير وحقيق .

(٣) وهو المتكبر سبحانه : المتعظم على كل شيء^(٦) ، الذي أعلى نفسه ، وعظّمها ، كما يليق بها ، فلا عظمة ، ولا كبرياء إلا لذاته وحده^(٧) ، الذي لا يحتاج إلى شيء ، ولا يعجزه شيء .

(٤) وهو المتكبر : المعظم عما لا يليق به سبحانه ، المتعالي عن صفات خلقه ، فليس مثله شيء ، وليس له شبيه ، ولا سميٍّ ، ولا مثيل ، ولا نظير .

(٥) وهو تعالى المتكبر : له الملك الكامل الذي لا يزول سلطانه^(٨) ، الدائم بدوامه ، والكل فيه عبده ، ومماليكه ، لا غنى لهم عنه في إيجادهم ، وإمدادهم ، قال سبحانه : ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجاثية] .

(١) «فتح الرحيم الملك» (١٧) .

(٢) «شرح أسماء الله الحسنى وفوائدها وخصائصها» لأبي العباس أحمد بن محمد البرنسي (٤١) .

(٣) «الأمَد الأقصى» (٣٧٧/١) .

(٤) «إرشاد العقل السليم» (٢٣٢/٦) ، و«المحرر الوجيز» (٢٩٢/٥) ، و«حاشية الصاوي» (١٩٣٠/٥ ، ١٤٣/٦) .

(٥) انظر : «شفاء العليل» (١٣٧٨/٤) .

(٦) «بحر العلوم» (٣٤٨/٣) .

(٧) «تفسير أبي مظفر السمعاني» (٤١٠/٥) ، و«لوامع البينات» (٢٠٨) .

(٨) ينظر : «معالم التنزيل» (٨٨/٨) ، و«إبطال التأويلات» (٦٦٧) ، و«لوامع البينات» (٢٠٩) .

٦) وهو المتكبر: عن ظلم عباده^(١)، فلا يظلم أحداً من خلقه، حتى لو كان من أهل كفرانه، فهو المتمتزة عن الظلم والجور بكل أنواعه.

٧) وهو تعالى المتكبر: القاهر لعتاة خلقه، وجبابرتهم، إذا عتوا وتجبروا، ونازعه في عظمته، وكبريائه، فيقصمهم^(٢).

٨) وهو الذي تكبر عن جميع ما لا يليق بعظمته وجلاله وكبريائه: من العيوب والنقائص، وعن فعل القبائح، وعن كل ما ينافي كماله^(٣).

٩) وهو العظيم النافذ أمره على كل العبيد، فلا يجري في ملكه إلا ما يريد^(٤)، له الحجة البالغة، والسطوة الدامغة.

١٠) وهو المتكبر جلّ ثناؤه: عن كل سوء، وشر، وسيئات، فلا يصدر منه إلا الآلاء، والخيرات^(٥).

١١) الممتنع عن مغالبة أحد، وعن أن يقدر عليه أحد، فلا يبلغ العباد ضره فيضرونه، أو ينفعه منهم أحد^(٦).

١٢) وهو الذي تكبر على الخلق بأن حجبهم عن النظر إليه في الدنيا، وألزمهم وصف القصور عن الاطلاع عليه (بحجاب الكبرياء) في الجنة، قال ﷺ: «وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»^{(٧)(٨)}.

١٣) وهو سبحانه المتكبر: العالي فوق كل خلقه، وعالٍ على كل شيء^(٩)، بكل أنواع العلو: في الذات، والصفات، فاستوى على العرش، وتعالى في كل وصف، من كل وجه.

١٤) وهو تعالى المنيع، "البليغ الكبرياء والعظمة، والجلالة، الذي ليس لكبريائه نهاية،

(١) «فتح البيان في مقاصد القرآن» (٤٥/٧).

(٢) «معاني القرآن» للزجاج (١٥١/٥)، و«شأن الدعاء» (٤٨).

(٣) انظر: «فتح الرحيم الملك» (١٧)، و«جامع الرسائل» (١٣٠/١).

(٤) «لوامع البينات» (٢٠٩).

(٥) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٦٨/٧)، و«الحجة في بيان المحجة» (١٢٩/١)، و«مختصر الصواعق المرسلة» (٢٤٧/١).

(٦) «فتح الرحيم الملك» (١٧).

(٧) البخاري (٧٤٤٤)، ومسلم (١٨٠).

(٨) «الأمد الأقصى» (٣٧٧/١).

(٩) انظر: «الصواعق المرسلة» (١٣٧٩/٤).

ولا لعظمته غاية^(١)، فهو أجل وأكبر من أن نحيط به سبحانه، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه].

(١٥) وهو المتكبر: في ربوبيته، فلا شيء مثله^(٢)، فليس له شريك في ملكه، ولا ند، ولا ضد، ولا مشير، ولا ظهير.

(١٦) المتكبر: في ألوهيته، فلا يقبل أن يعبد غيره، ففي الحديث القدسي: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي، تركته وشركه^(٣)».

(١٧) وهو المتكبر سبحانه: المظهر كبرياءه لعباده، بظهور أمره، وحكمه، ومشئته، حتى لا يبقى كبرياء لغيره^(٤).

(١٨) وهو المستحق لكل تكبير، وتعظيم، وإجلال، وتمجيد، من عباده أجمعين، بكل أنواعه، في الأقوال، والأعمال، والأركان، في كل الأحيان.

(١٩) "وهو المتكبر سبحانه: بالحجاب وعلى العصاة من خلقه، متكبراً بالعقاب والانتقام"^(٥).

(٢٠) المتفرد بالعظمة والقهر والملك بجميع الأمر فأقبلت القلوب إليه وقصرت الهمم عليه.

جلال المتكبر

الأول: من جلال هذا الاسم الكريم: أنه يدلُّ على علوِّ قدر الله ﷻ، المستحقُّ له، وكمالهِ علوًّا، وكمالاً لا يتناهى، ولهذا دخلت فيه (التاء) وسماها من فهم معناها: تاء الاختصاص، لأن هذا المعنى يختص بالله تعالى وحده، وهي في حق غيره تكلف، فهو يتضمن جميع صفات الكمال والجلال، التي تنال مع بُعد الغاية، وعدم النهاية^(٦).

الثاني: ومن جلال المتكبر سبحانه: أنه جامع لأعظم أصليين في توحيد الأسماء والصفات وهما: (١) إثبات كل صفات الكمال لله تعالى.

(٢) نفي كل النقائص التي تنافي صفات كماله^(٧).

(١) «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» (١٢٢٨)، و«لوامع البينات» (٢٠٩).

(٢) «أحكام القرآن» (٣٠١/٩).

(٣) «مسلم» (٢٩٨٦).

(٤) «الأمدة الأقصى» (٣٧٧/١).

(٥) انظر: «شرح أسماء الله الحسنى وفوائدها وخصائصها» (٤١).

(٦) «الأسنى» للقرطبي (٤٦٦)، وانظر «شفاء العليل» (٥١١/٢).

(٧) انظر: «مجموع الفتاوى» (٣/٣، ١٨٢/٤)، «التدمرية» (٥٨).

ولهذا فإن هذا الاسم وما تضمنته من وصف الكبرياء، من خصائص الله تعالى، التي لا تنبغي إلا له، لأنه في حقه سبحانه صفة مدح على الإطلاق، وكمال، قال تعالى في الحديث القدسي: «العظمة إزاري، والكبرياء ردائي، فمن نازعني واحداً منهما قذفته في النار»^(١).

أما المخلوق فإن التكبر نقص، وعيب، وذم في حقه واختلال، لأنه فقير ومحتاج لغيره، لا يقوم بنفسه، قال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر].

الثالث: ومن جلاله: أنه "متكبر تنزيهاً، متكبر علماً، متكبر بالكلام والإخبار، متكبر بالحجاب، متكبر بالعقاب والانتقام، فهو المتكبر بالإطلاق حقاً، وصدقاً"^(٢)، وعدلاً.

الرابع: ومن جلاله: أنه "تاقت الأبواب في جلاله، وكبر عن التصور صفاته، وعجزت العقول عن وصف كماله"^(٣).

الخامس: ومن جلال المتكبر سبحانه: "أن الهيبة له، ومنه، وأنه لا مقدار لشيء عنده إلا بما وصفه"^(٤).

السادس: ومن جلاله تعالى: "أنه تفرد (وحده في الوجود) بالكبرياء، والملكوت، وتوحد بالعظمة، والجبروت، وليس لملكه زوال، ولا في عظمته انتقال"^(٥).

السابع: ومن جلاله: أنه لا يهاب العواقب، فلا يشرف بالاتباع، ولا يسخط بالعواقب، وأنه لا يأمر ولا ينهى لفائدة يجتلبها، ولا مضرة يدفعها، لتقدسه عن ذلك كله"^(٦).

ثمرات

من عبودية هذا الاسم الكريم: أنه يورث المؤمن التواضع والإخبات لجلال الله تعالى، والتواضع لعباد الله ﷺ، فإن من نازع كبرياء الله، فإن ماله النار، وبئس المآل والقرار، فقد "جعل الله تعالى النار دار المتكبرين، قال الله العظيم: ﴿أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فِئْتَسَ مَنْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٦]، وفي سورة التنزيل: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَنْوَى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر].

(١) «مسلم» (٢٦٢٠)، و«أبو داود» (٤٠٩٠).

(٢) «الأمد الأقصى» (٣٧٧/١).

(٣) «شرح الأسماء» للرازي (٢٦٧).

(٤) «الأمد الأقصى» (٣٧٩/١).

(٥) «شرح أسماء الله الحسنى» للبيضاوي (٢٠١)، و«أسماء الله» للرازي (٢١٠).

(٦) «الأمد الأقصى» (٣٨٠/١).

وأخبر أن أهل الكبر والتعبر هم الذين طبع الله على قلوبهم ، فقال تعالى : ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] ^(١) ، ووعدهم ووعد الله الحق الذي لا يتخلف : أنه سيذيقهم ألوان الهوان ، فقال عز شأنه : ﴿فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كَانُوا فَسُقُونَ﴾ [الأحقاف] ، قال ﷺ : «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذرّ ، في صور الرجال ، يغشاهم الذلّ من كل مكان ، فيساقون إلى سجن في جهنم يسمى (بؤلس) تعلوهم نار الأنبار ، يسقون من عصارة أهل النار ، طينة الخبال» ^(٢) .

وأخبر ﷺ أن صاحب هذه الصفة من المذامّ محروم من دخول الجنان : «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» ^(٣) .

"وكل ذنب يمكن التستر به وإخفاؤه ، إلا التكبر ، فإنه شيء يلزمه الإغفان ، وهو أصل العصيان كله ، فلا تردن حقاً على صاحب ، ولا تنظر إلى أحد بعين الاستصغار ، وإياك ومشية الخيلاء ، وهي جر فضل الثياب" ^(٤) .

ومن ثمرات هذا الاسم الكريم : "أن يتواضع لله تعالى كلما حدث له رفعة ، وأن يستحقّر باعتقاده كل شيء بالإضافة إلى الله سبحانه ، وأن يتواضع لأولياء الله على مقادير منازلهم ، وأن يتعاضم على الكافر والعاصي والغني على مقاديرهم ، وكيفية التعاضم على كلّ واحد منهم من أحكام الدين ، وهو مذكور في كتب إصلاح الأعمال" ^(٥) .

وعليك يا رعاك الله وهداك إلى الهدى : التكبير لله تعالى في السرّ والجهر ، فإنه من أعظم الأذكار ، التي جاء بها الشارع المطهر ، لما فيه من الحكم والأسرار ، فإن ملازمته يوجب للقلب والجوارح الانكسار ، وهذا هو لبّ وحقيقة العبودية لله الواحد القهّار ، ولهذا أمر به ودعا إليه في شرائعه العظام الكبار ، التكرار ، فإذا واطى القلب اللسان ، كان حظ الظواهر والبواطن من العبودية الإكثار ، وهذا يعود على العبد الخير المدرار ^(٦) .

(١) «مدارج السالكين» (٣٤٥/٢) .

(٢) «صحيح الترمذي» (٢٤٩٢) .

(٣) مسلم (١٤٧) .

(٤) «الأسنى» (٤٦٧) .

(٥) «الأمد الأقصى» (٣٨٠/١) .

(٦) قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ : "... وهذا كله (بعد أن ساق ﷺ بعض مواطن التكبير) يبيّن أن التكبير مشروع في المواضع الكبار ، لكثرة الجمع ، أو لعظمة الفعل ، أو لقوّة الحال ، أو نحو ذلك من الأمور الكبيرة ، ليبين أن الله تعالى أكبر ، وتستولي كبريائه في القلوب على كبرياء تلك الأمور الكبار ، فيكون الدين كله لله ، ويكون العباد له مكبرين ، فيحصل لهم مقصودان : مقصود العبادة بتكبير قلوبهم لله ، ومقصود الاستعانة بانقياد الطالب لكبريائه " . «مجموع الفتاوى» (٢٢٩/٤) .

٤٠- الله ﷻ المؤمن عَزَّوَجَلَّ

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الحشر: ٢٣].

المعنى اللغوي

المؤمن: اسم (فاعل) من آمن يؤمن إيماناً، فهو مؤمن، وله معنيان:

الأول: أن يتعدى فعل (آمن) بالباء أو اللام، فيكون بمعنى التصديق والثقة، قال تعالى حكاية عن إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ٧]، أي: بمصدق لقولنا، وقوله سبحانه: ﴿قُولُوا آمَنَّا﴾ [البقرة: ١٣٦]، وقوله: ﴿فَأَمَّا لَهُ لُوطُ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

الثاني: أن يعتدى فعل (آمن) بنفسه، فيكون بمعنى التأمين، والأمان الذي هو ضد الإخافة، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ١]، ويقال: "آمن فلان فلاناً"، أي: أعطاه أماناً، ليسكن إليه ويأمن^(١).

وهذا الاسم الجليل يدل على معاني كمال كثيرة وجليلة، ينبغي للمؤمن تدبرها وأن يفهم مدلولاتها، والعمل بمقتضاها.

المعنى الشرعي

الله هو المؤمن، الذي لا آمن في الوجود ولا أمان، إلا هو مستفاد من جهته سبحانه:

(١) فهو الذي يعزى إليه الأمن والأمان بإفادته أسبابه، ومنه أسباب المخاوف، فلا آمن إلا به، ومنه سبحانه^(٢).

(٢) وهو المؤمن: كل عباده بما عرفهم من عدله، ورحمته، ألا يظلمهم ويجور عليهم^(٣)، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]، فمن آمنه لهم:

(١) ينظر: «معجم مقاييس اللغة» (١/١٣٣)، و«تفسير أسماء الله» (ص ٣١)، و«تفسير البغوي» (٨/٨٧)، و«تفسير غريب القرآن» (٩)، و«مجموع الفتاوى» (١٤/١٨٩)، و«تفسير ابن عاشور» (١١/١٢١).

(٢) ينظر: «الأمم الأقصى» (٢/١٩٩)، و«الأسنى» (١/٢٤١).

(٣) «المنهاج في شعب الإيمان» (١/٢٠٢).

(أ) أنه تعالى أَمَّنْ أوليائه من ظلمه: فلا ينقص من حسناتهم شيئاً، ولا يبطل ما عملوا من الصالحات بغير ذنب شيئاً، فهو الصادق الوفيُّ، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

(ب) وأَمَّنْ أعدائه من جورهِ: فلا يزيد على ما اجتروحوا من السيئات مثقال ذرة، فيزيدهم عقاباً على ما استحقوه، ولا يمنعهم من حقوقهم أبداً، قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء: ١٥].

(ج) وأَمَّنْ من عذابه من لا يستحقه: فلا يعذب سبحانه كائناتاً من كان بغير جرم وذنب اجترحه، قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤].

(٣) وهو الْمُؤْمِنُ: لأوليائه، فهو تعالى يُؤْمِنُ كل مَنْ آمن به وحده وأطاعه: من عقابه، وبأسه، وسخطه، فآمنوا في الدنيا، فلا يأمن إلا من آمنه سبحانه، وفي الآخرة، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٣]، وعلى قدر الإيمان يكون الأمان والاطمئنان.

(٤) وهو تعالى المؤمن: الذي آمن بقوله أنه حق^(١)، فالله تعالى صَدَّقَ نفسه بقوله بأنه صادق، وذلك حقيقة، وصدق سبحانه: لأنه صَدَّقَ نفسه قبل خلق الخلق بقوله الحق: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨].

(٥) وهو المؤمن عز شأنه: الذي دعا خلقه إلى الإيمان والتصديق به سبحانه، فقال تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ اكْفُرْهُ لِإِلَهِهِ وَاجِدْ﴾ [البقرة: ١٦٣].

(٦) وهو سبحانه المؤمن: الذي يصدق العباد وعده، ووعيده، وذلك:

في الدنيا: (أ) أنه يصدق عباده وعده، وفي بما ضمنه لهم من رزق في الدنيا، قال ﷺ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

(ب) وبكل ما يخبر عنه من أمور الغيب، عن طريق وحيه.

وفي الآخرة: (أ) مصدق عباده المؤمنين، أي: يصدقهم على إيمانهم بقبول صدقهم، وإيمانهم وإثابتهم عليه، كما أنه يصدقهم بكل ما وعدهم من الثواب، قال سبحانه: ﴿جَزَاءُهُمْ عِنْدَ

(١) صحَّ عن قتادة، انظر «التفسير الصحيح» (٤/٤٦٩)، و«تفسير الطبري» (٣٦/٢٨).

رَبِّهِمْ جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿البينة: ٨﴾ .

(ب) ومصدق الكافرين ما وعدهم من العقاب، قال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٨] ^(١).

(٧) وهو المؤمن سبحانه: "الذي وحّد نفسه بقوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨] ، فشهد لنفسه بوحدانيته" ^(٢) ، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ كُفُّوا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣] .

(٨) وهو تعالى المؤمن: الذي يؤمّن الخائفين ، فهو سبحانه آمن من شاء من عباده من أنواع المخاوف في الدنيا، والآخرة، بخلق أسباب الأمان، وسدّ أبواب المخاوف، ونصب آلات تدفع بها المضار ^(٣) ، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [فرش: ١٠] .

(٩) وأخصّ من ذلك: أنه تعالى يجير عباده المؤمنين من المخاوف والمفازع، فيهب لهم الاطمئنان في قلوبهم في الدنيا، ويوم الدين، قال عزّ شأنه: ﴿وَلِيَبَدِّلَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَبْعُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥] .

أولاً: في الدنيا:

(أ) في القتال وعند الشدائد والمحن، فيما ينزل عليهم من الأسباب التي تؤمّنهم، قال تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّكُمُ الْتُّعَاسُ أَمْنَةً مِنْهُ﴾ [الأنفال: ١١] ، وبالنصر على أعدائهم، قال سبحانه: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١] ، وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢] ^(٤) .

(١) انظر: «تفسير البغوي» (٨٧/٧)، و«التوحيد» لابن منده (٦٨/٢)، و«شأن الدعاء» (٤٥)، و«الفوائد» (٦٥)، و«المقصد الأسنى» (٦٧)، و«الأمد الأقصى» (١٩٦/٢ - ١٩٩)، و«الأسنى» (٢٣٧/١)، و«شرح الأسماء» للرازي (١٩٩)، و«معالم التنزيل» (٨٧/٨)، و«نظم الدرر» (٥٤٠/٧)، و«تفسير القرطبي» (٣٠٠/٩)، و«حاشية الشيخ زاده» (١٧٨/٨)، و«مدارك التنزيل» (١٢٢٨).

(٢) «معاني القرآن وإعراجه» (١٥٠/٥)، و«تفسير الأسماء» (٣١)، و«تفسير القرآن» لأبي مظفر السمعاني» (٤٠٩/٥).

(٣) «تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة» للقاضي ناصر الدين البيضاوي (٢٩/٢)، و«تلخيص الأدلة لقواعد التوحيد» (٦٣١/٢).

(٤) ولهذا كان ﷺ يسأل ربه أن يؤمّنه: «اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي...». «صحيح الجامع» (١٢٦٢)، عوراتي: بصيغة الجمع لكثرة ما يعتري العبد من المخاوف والله أعلم، قال ابن القيم رحمه الله: «والخائف إذا صدق في اللجوء إليه، وجده مؤمناً من الخوف» «المدارج» (٣٢٤/٣).

(ب) وعند الموت: عند الاحتضار، ونزول ملائكة الموت الأبرار بالبشارة للأخيار، ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

(ج) وفي البرزخ: عند رؤية الملكين، كما جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا أجلس الرجل الصالح في قبره غير فزع ولا مشعوف»^(١) (٢).

ثانياً: في الآخرة: (أ) عند الفرع الأكبر، ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَعُ الْأَكْبَرُ وَنُنَقِّلُهُمُ الْمَلَائِكَةَ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٢٣] (٣).

(ب) وفي الجنة: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر: ٧٤].

١٠ "وهو المؤمن: بنفسه قبل إيمان خلقه"^(٤)، أي: الذي آمن بنفسه (أي: ذاته العلى)، وبأسمائه، وصفاته، وبما هو عليه تعالى"^(٥) من الكمال الأعلى والأقصى الذي ليس له منتهى.

١١ هو الذي يجبر المظلوم من الظالم، أي: يؤمّنه من الظالم، فيحميه، وينصره عليه، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَبْدِئُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُخِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨].

١٢ وهو المؤمن تعالى: الصادق الذي لا أصدق منه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧].

"فالله تعالى صادق: (أ) في قوله، (ب) صادق: في حديثه، (ج) صادق: في وعده"^(٦)، (د) وصادق: في وعيده، (هـ) وفي أمره، (و) ونهيه، (ز) وخبره، (ح) وفعله، (ط) وفي: حكمه، (ي) وفي قضائه، (ك) وقدره، صدق حق، فهو سبحانه صادق: في كل ما أخبر به تعالى، مطابق بما هو عليه.

١٣ وهو تعالى المصدّق: الذي يُصدّق الصادقين من عباده، بما يُقيم لهم من شواهد

(١) شدة الفرع الذي يذهب بالقلب «النهاية» (٤٨٣).

(٢) «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥٥٧).

(٣) وقال تعالى: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

(٤) «تفسير القرآن العزيز» لابن أبي زمنين (٣٧٣/٤).

(٥) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان (٢٩٦/١).

(٦) «تلخيص الأدلة لقواعد التوحيد» (٤٩٤/١).

صدقهم ، وهم قسمان :

الأول: رسله وأنبيائه: فهو سبحانه شهد بصدقهم بقوله ، وفعله ، وإقراره بكل آية وبرهان ، بأنهم صادقون فيما بلغوا عنه إلى عباده .

وفعل تعالى أفعالا كثيرة ، من معجزات ، وآيات ، وخوارق كثيرة ، وبراهين متنوعة ، تُعرف العباد بصدقهم ، وتشهد بالحق الذي جاؤوا به ، كما حكى تعالى عن عيسى عليه السلام : ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٤٩] .

فإنه سبحانه أخبر ، وخبره الصدق ، وقوله الحق: أنه لا بُدَّ أن يُرى العباد ، من الآيات الأفقية ، والنفسية ، ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغت رسله حق ، فقال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣] ، أي القرآن .

القسم الثاني: أوليائه: فهو سبحانه يصدق الصادقين من أتباعهم ، وهم أحبائه ، وأوليائه ، وتصديقه لهم: بإظهار الكرامة على أيديهم الدالة على كرامتهم ، وهذا مستمر إلى يوم القيامة^(١) .

(١٤) وهو المصدق للمؤمنين في أنهم آمنوا^(٢) ، إذا وحّدوه ، وشهدوا له بالوحدانية ، قال سبحانه : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ١٨] ، قال رسول الله ﷺ : «من قال لا إله إلا الله ، والله أكبر ، صدّقه ربه فقال: لا إله إلا أنا ، وأنا أكبر»^(٣) .

(١٥) وهو تعالى الذي يصدق ظنون عباده المؤمنين ، ولا يخيب آمالهم^(٤) ورجاءهم ، فيعطيه على قدر حسن ظنّهم به ، ففي الحديث القدسي: «أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معه حين يذكرني...»^(٥) .

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٤٨٥/٣) ، و«مجموع الفتاوى» (١٨٩/١٤) ، و«تفسير البغوي» (٨٧/٨) ، و«تفسير السعدي» (٨٥٤ ، ٩٤٧) ، و«فتح الرحيم الملك» (٢١) ، و«الأمد الأقصى» (١٩٧/٢) ، و«الأسنى» (٢٣٩/١) ، و«أسماء الله الحسنى» د. عمر الأشقر (٦٤) .

(٢) «المحرر الوجيز» (٢٩٢/٥) .

(٣) «صحيح الترمذي» (٣٤٣٠) .

(٤) «شأن الدعاء» (٤٥) .

(٥) «البخاري» (٦٩٧٠) ، «مسلم» (٦٨٠٥) . وفي لفظ: «أنا عند ظن عبدي بي ، إن ظنّ خيرا فله ، وإن ظنّ شرا فله» . صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٢٢٥) ، و«صحيح الجامع» (٤٣١٥) .

(١٦) وهو الذي يصدق المؤمنين على إيمانهم وإخلاصهم، لأنه لا يطلع على الإخلاص إلا هو^(١).

(١٧) وهو الذي يُصدق عباده فيما يخبرون به من حق^(٢)، كما في حديث سؤال الميت في القبر: وفيه: «فينادي منادٍ في السماء: أن صدق عبدي»^(٣).

(١٨) وهو الذي يصدق عباده المؤمنين يوم القيامة إذا سئل الأمم عن تبليغ رسلهم، قال سبحانه: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ٦١]، أي يصدقهم^(٤).

﴿ جلال المؤمن ﴾

الأول: من جلاله: أنه تعالى يصدق نفسه بتوحيده، وشهادته لنفسه بالوحدانية، وانفراده بالعبودية، وبما أثنى على نفسه، بما له من الكمال، والصفات العلية، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، وهذه أجمل الشهادات، الصادرة من الملك العظيم، وهو الله رب العالمين، على أعظم، وأجل مشهود به، وهو توحيد الله تعالى، وإخلاص الدين له، وقيامه بالقسط^(٥)، وهذا المعنى هو أجل المعاني في اسمه (المؤمن) والله أعلم.

الثاني: ومن جلال المؤمن: أنه "سبحانه يطعم عباده المؤمنين، ويسقيهم شراب معرفته، ومحبته، والإيمان به، وهو غني عن جميع خلقه في معرفته ومحبته وإيمانه، إذ كان من أسمائه تعالى (المؤمن)، وفي توحيده، وشهادته، وسائر شؤونه"^(٦).

الثالث: ومن جلال إيمان ربنا سبحانه: "أنه لما كان الإيمان صفته، واسمه (المؤمن) لم يعطه إلا أحب الخلق إليه"^(٧).

الرابع: ومن جلال المؤمن: أنه يدل على صفة (الصدق) الذاتية، الفعلية، العلية لربنا ﷺ، التي نطق بها الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنْ

(١) «حاشية الصاوي» (٢١٤٣/٦).

(٢) «الأمَد الأقصى» (١٩٧/٢)، و«الأسنى» (٢٤٠/١).

(٣) رواه أحمد في المسند (١٥٨٣٤) وصححه الأرئوط (٥٠٣/٣٠)، والألباني في صحيح أبي داود (٤٧٥٣).

(٤) «لسان العرب» (٢٣٦/١)، و«المحرر الوجيز» (٢٩٢/٥).

(٥) «تفسير ابن السعدي» (١٢٤، ٩٤٧) بتصرف.

(٦) «جامع المسائل» لابن تيمية (١٣٣/١).

(٧) «شفاء العليل» (٦٧٦/٢).

الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١٢﴾ [آل عمران] ، وقال: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب: ٢٢] ، وقال ﷺ: «... صدق الله ، وكذب بطن أخيك ، اسقه عسلاً»^(١).

الخامس: ومن جلاله: أنه لا يخاف من أحدٍ كائنًا من كان ، قال سبحانه: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ ﴿٣١٣﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿٣١٤﴾ [الشمس: ١٤] ، "أي: لا يخاف من أحد تبعه"^(٢) ، والمعنى: أنه تعالى لا يخاف عاقبة فعله (من إهلاك وعقاب) كبعض الملوك^(٣).

السادس: ومن جلاله: أن من صدق الله في نيته ، وعزمه في الابتغاء فيما عنده ، فالله يصدقه سبحانه فيعطيه ما يأمله ، ففي حديث شداد بن الهاد أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبي ﷺ فأمن واتبعه... ، وفيه: أن النبي ﷺ قد أعطاه قسمه من أحد الغزوات ، فقال ﷺ: "ما على هذا اتبعتك ، ولكنني اتبعتك على أن أرمي إلى هنا - وأشار إلى حلقه - بسهم فأموت ، فأدخل الجنة" ، فقال ﷺ: «إن تصدق الله يَصُدِّقْكَ» ، فلبثوا قليلاً ، ثم نهضوا في قتال العدو ، فأتي به النبي ﷺ يحمل قد أصابه سهم حيث أشار ، فقال النبي ﷺ: «صدق الله فصَدِّقْهُ»^(٤).

الثمرات

إن المؤمن عندما يدرك أن الله تعالى متصف بالأمان لعباده ، وتصديق أنبيائه ورسله وأوليائه ، فلا ريب أنه يثق بوعده الله تعالى ، وأمانه له من كل خوف^(٥) ، فيكون ربه عزَّ شأنه هو ملجأه ومعاضه عند المحن ، والشدائد والمصائب ، والنَّقم.

وينبغي للمؤمن أن يكون سبباً لأمن الخلق وأمانهم ، ومن ذلك: أن يأمن المؤمنين شرَّه ، وغوائله ، قال ﷺ: «ألا أخبركم بالمؤمن! من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»^(٦) ، وأولى بذلك جاره ، قال ﷺ: «والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن»

(١) رواه البخاري (٥٣٦٠).

(٢) صحَّ عن ابن عباس رضي الله عنهما. «التفسير الصحيح» (٦٣٩/٤).

(٣) «غاية الأمان في تفسير الكلام الرباني» (١١٦٤/٧).

(٤) «صحيح النسائي» (١٩٥٣). "قوله ﷺ: «إن تصدق» بالتخفيف من الصدق بالموضعين ، من باب «نصر» أي: إن كنت صادقاً فيما تقول ، وتعاهد الله عليه ، يجزيك على صدقك ، بإعطاء ما تريد". «حاشية السندي على سنن النسائي» (٦١/٤).

(٥) «منهج ابن القيم في شرح أسماء الله الحسنى» (٢٨٤).

(٦) «صحيح ابن ماجه» (٣٩٣٤) ، و«صحيح النسائي» (٤٦٢٢).

والله لا يؤمن ، من لا يأمن جاره بوائقه»^(١).

ومن أعظم الأسباب لأمن الخلائق وأمانهم: أن يدلهم على أسباب الهداية ، من عذاب الله ، وسخطه ، وهي منهج ومسلك خير عباد الله تعالى: الأنبياء ، ومن سار على سيرتهم من العلماء ، والأولياء .

"ثم يجب عليه أن يصدق بجميع ما جاءت به رسله ، قال الله العظيم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ ءَالْكِتٰبِ الَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ ءَالْكِتٰبِ الَّذِى نَزَّلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦] ، ويلزم جميع ذلك اعتقاداً وعملاً ، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] ، والمعنى: التزموا شرائع الدين بقلوبكم عقداً ، وبألسنتكم قولاً ، وبجوارحكم فعلاً ، حتى يوافيكم الموت وأنتم مسلمون .

ثم يجب عليه الصدق في جميع أقواله ، وأحواله ، وكل أفعاله ، ويُصدق غيره في كلامه ، ويتحرى الصدق ، والتصديق ، حتى يكتب عند الله تعالى صديقاً ، مصداً ، قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ، ويتحرى الصدق ، حتى يكتب عند الله صديقاً»^(٢).

(فهى) درجة رفيعة ، وحلية سنية جليلة ، وهو أصل لكل حال ، وأسس لكل مقام ، فكل من صدق ، وتحقق في صدقه فقد نجا ، وفي الحديث: «... فإن الصدق طمأنينة وإن الكذب ريبة»^(٣) ، أي: من دام على الصدق أثمر له طمأنينة في قلبه إلى الحق ، وسكوناً عن التردد في الأمر ببركة الصدق»^(٤).

واعلم رحمك الله وعافاك أن من أعظم ثمرات هذا الاسم الكريم أن تؤمن وتصدق بكل ما جاء عن ربك في كتابه ، وعن نبيه في سنته ﷺ ، إيماناً صادقاً ، ويقيناً ثابتاً في كل أمور الدين ، في التوحيد ، والاعتقاد ، وما يضادهما ، والذي أجله ، وأعلاه: توحيد الأسماء والصفات .



(١) «صحيح البخاري» (٦٠١٦).

(٢) مسلم (٢٦٠٧).

(٣) «صحيح الترمذي» (٢٥١٨).

(٤) «الأسنى» للقرطبي (١/٢٤٢، ٤٥٦).

٤١- الله ﷻ البرُّ تبارك وتعالى

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور].

المعنى اللغوي

البرُّ: اسم (فاعل) للموصوف بالبر، والبرُّ أصله: التوسع في فعل الخير، وهو اسم جامع للخيرات كلها، وهو فعل كل خير من أي نوع كان، ولهذا يقال: رجلٌ برٌّ: إذا كان ذا خير ونفع، ويطلق على الوسع، والإحسان، والصدق، والقبول، والعطوف، والغلبة، والإكرام، والصلة، واللفظ، فالبرُّ يطلق على:

الأول: الاتساع والزيادة، والبارُّ هو الواسع به، والبرُّ خلاف البحر، وتصور منه التوسع، فاشتقَّ منه البر، وسميت البرية برِّيةً لاتساعها.

الثاني: الإحسان، أي: التوسُّع في فعل الخير والإحسان، والزيادة منه، ومنه: برُّ الوالدين، وهو الاتساع في إكرامهما وطاعتهما^(١)، ويقال: "بررت في الضيف": أحسنت إليه وأكرمته.

الثالث: ويطلق على الصدق، يقال: "صدق فلانٌ وبرٌّ"، ويقال: "برَّت يمينه": صدقت، وأبرها: أمضاها على الصدق.

الرابع: القبول، وبرَّ الله حجَّه وأبرَّه، قبله، ومنه الحديث: «الحجُّ المبرور ليس له جزاء إلا الجنة»^(٢) أي: المقبول.

الخامس: العطوف الرحيم، ويقال: "الله يبرُّ عباده"، أي: يرحمهم.

السادس: الإكرام. السابع: الصلة، ويقال: "رجلٌ برٌّ بقرابته وبارٌّ بهم"، إذا: وصلهم^(٣).

(١) وزمزم تسمَّى (برَّة) لكثرة منافعها، وسعة مائها.

(٢) البخاري (١٦٨٣)، ومسلم (١٣٤٩).

(٣) «المفردات» (ص ١١٤)، و«الصحاح» للجوهري (٥٨٨/٢)، و«لسان العرب» (٢٥٢/١)، و«معجم مقاييس اللغة»

(١٧٧/١)، و«النهاية» (٧٢)، و«فتح الباري» (٥٠٨/١٠)، و«شأن الدعاء» (٩٠)، و«شرح أسماء الله الحسنى»

لابن بركان (٢٥٠/٢)، و«الأسنى» (٣٣٣/١)، و«روح المعاني» للآلوسي (٥٥/١٥)،

الثامن: اللطيف^(١).

واعلم أنَّ البرَّ: خير الدنيا والآخرة، فخير الدنيا: ما ييسره الله تعالى لعبده من الهدى، والنعمة، والخيرات، وخير الآخرة: الفوز بالنعيم الدائم في الآخرة^(٢).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو البرُّ على الإطلاق، الذي لا أبرُّ منه في الوجود كله، "الذي منه كل مبرة، وأحسان"^(٣)، وإفضال، فهو سبحانه:

(١) الكثير الإحسان، الذي عمَّ إحسانه، وفاض برُّه، وخيره، جميع أهل الأرض والسموات، من أصناف البر، الظاهرة، والباطنة، قال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠]، فما من برٍّ وإحسان إلا وهو موليه سبحانه.

(٢) وهو البرُّ سبحانه: المتوحد إلى عبادته بأنواع الإحسان وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع، فهو مولى الجميل، ودائم الإحسان^(٤).

(٣) وهو البرُّ تعالى: الصادق (أ) في وعده^(٥)، (ب) ووعيده^(٦)، (ج) وخبره، (د) وقوله^(٧)، في الدنيا، وفي الآخرة، فكل ما وعد به، وأخبر عنه آتٍ، لا محالة، لا يتخلف^(٨)، ولا يتغير.

(٤) وهو الذي منَّ على السائلين بحسن عطائه، ويتفضل على العابدين بجزيل جزائه^(٩)، قال سبحانه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور]

(٥) وهو سبحانه العطوف على عبادته المؤمنين، المحسن إليهم، الرحيم بهم^(١٠)، الرفيق بهم، المصلح لأحوالهم، وشؤونهم الدنيوية، والشرعية.

(١) صحَّ ذلك عن ابن عباس ؓ، انظر: «التفسير الصحيح» (٣٩٦/٤).

(٢) «تهذيب اللغة» (١٢٤/٥).

(٣) «المقصد الأسنى» (١٢٣).

(٤) «مدارج السالكين» (٣٠٤/١)، و«القصيد النونية» (٢٤٧).

(٥) فيما وعد أوليائه في الدنيا بالنصرة والتمكين، وفي الآخرة في جنات النعيم.

(٦) فيما أوعده أعداءه بالذل، والهوان، والخسران.

(٧) فيما يقوله ويأمر به أو ينهى عنه من الأقوال الكونية، والشرعية، والجزائية.

(٨) ينظر: «الحق الواضح» (٨٢)، و«الأسنى» (٣٣٣/١)، و«تحفة الأبرار» (٥٥/٢).

(٩) «شرح أسماء الله الحسنى» للبيضاوي (٣١٩)، و«موسوعة له الأسماء الحسنى» (٣٨/١).

(١٠) «الحجة في بيان المحجة» (١٦٢/١)، و«تفسير القرآن العزيز» لابن أبي زمين (٣٠٠/٤).

(٦) ومن كمال برّه تعالى: أنه يبر بالمحسن في مضاعفة الثواب له على طاعته ، قال عزّ شأنه: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ قَوْلَهُمْ﴾ [محمد: ١٧] .

(٧) وهو البرّ: بالمسيء في الصفح ، والتجاوز عن معصيته^(١) ، وتبديل سيئاته إحساناً ، قال ﷺ: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠] .

(٨) وهو البرّ: اللطيف بعباده^(٢) الرفيق بهم ، يريد بهم اليُسْرَ ، ولا يريد بهم العسر ، ويعفو عن كثيرٍ من سيئاتهم ، ولا يؤاخذهم بجميع جنایاتهم ، يجزيهم بالحسنة عشر أمثالها ، ولا يجزيهم بالسيئة إلا مثلها ، يكتب لهم الهَمَّ بالحسنة ، ولا يكتب عليهم الهَمَّ بالسيئة^(٣) .

(٩) ومن كمال برّه تعالى: "أنه لا يقطع الإحسان بسبب العصيان"^(٤) ، بل يدُرُّ إنعامه على من عصاه ، وجحد به بالليل والنهار ، مهما "عظم جرمه وذنبه"^(٥) ، في السر والإعلان .

(١٠) وهو البرّ بأوليائه: إذ خصَّهم بولايته ، واصطفاهم لعبادته ، ويدفَع عنهم جميع أنواع الشرور ، والسيئات ، والملمات ، في دورهم الثلاثة: في حياتهم ، وبرزخهم ، وآخرتهم .

(١١) ومن برّه الجميل بعباده: إمهاله العاصي ، فلا يؤاخذ به بغيته ، فيحجب عنه التوبة^(٦) ، بل يسر له أسباب الأوبة .

(١٢) ومن حُسن برّه سبحانه: أنه رفيق بأوليائه ، المتحري لمحابيهم ، بوسعهم خيراً ، وكرماً ، المتوقّي لمكارههم بصونهم سوءاً وشرّاً .

(١٣) ومن تمام برّه لأوليائه: أنه سبحانه تفضل بالإسلام عليهم بدءاً ، ثم تفضل عوداً وعوداً ، من غير استحقاق يجب عليه ، بل كل ذلك برّاً منه وفضلاً^(٧) .

(١٤) ومن برّه العظيم الذي ليس له مثل: "أنه يحسن سبحانه إلى من أساء ، ويعفو عمن

(١) «شأن الدعاء» (٩٠) .

(٢) «تفسير الطبري» (١٣٣/٧) .

(٣) «المنهاج» (٢٠٤/١) .

(٤) «الوامع البيّنات» (٣٣٦) .

(٥) «تفسير القرآن» لأبي مظفر السمعاني (٢٧٦/٥) .

(٦) ينظر: «شأن الدعاء» (٨٩) ، و«الحجة في بيان المحجة» (١٦٣/١) .

(٧) «الأسنى» (٣٣٩/١) .

ظلم، ويغفر لمن أذنب، ويتوب على من تاب إليه، ويقبل عذر من اعتذر إليه، وقد ندب عباده إلى هذه الشيم الفاضلة، والأفعال الحميدة، وهو أولى بها منهم وأحق، وكان له تقدير أسبابها، من الحكم، والعواقب الحميدة، ما يبهر العقول، فسبحان الله وبحمده^(١).

(١٥) وهو سبحانه البر بعباده: الذي فاض عليهم إحسانه بوسعهم خيراً، وكرماً، وفضلاً، وشكراً، وإجابة، والعبد بربّه يشكره، ويسارع في مرضاته، ويجانب ما يكرهه^(٢).

(١٦) وهو البرّ سبحانه: الواسع الجود، الذي عطاؤه حكمة، ومنعُه رحمة، لأنه لا ينقصه إعطاء، ولا يزيده منع^(٣).

(١٧) فهو تعالى البر: الذي كثر خيره، ولا ينفك عطاؤه، ولا يقطع لطفه بأهل معرفته، وقربه^(٤).

(١٨) وتتجلى سعة برّه، ما أعدّه لأوليائه في دار خلوده، يتنعمون بجواره، في بحبوحة داره، لا من أحله في ناره، يقولون وهم فيها فاكهون: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ [الأنفطار]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الطور]^(٥)، علّلوا دعاءهم إياه مؤكدين لأنّ إنعامه عليهم مع تقصيرهم مما لا يكاد يفعله غيره، فهو مما يعجب منه غاية العجب^(٦).

﴿ جلال البرّ ﴾

الأول: من جلال برّه تعالى: أنه مع كمال غناه عن عبده، وكمال فقر العبد إليه، أنه يبرّ به، في ستره عليه حال ارتكابه المعصية، مع كمال رؤيته تعالى له، ولو شاء لفضحه بين خلقه، فحذروه^(٧)، بل يدرّ عليه من إحسانه، وإنعامه، وإمهاله.

الثاني: ومن جلاله: أنه سبحانه يري عباده مواقع برّه، وكرمه، فالمحبته الأفضال، والإنعام، ينوّعه عليهم، أعظم الأنواع، وأكثرها في سائر الوجوه، الظاهرة والباطنة^(٨).

(١) «مفتاح دار السعادة» (٤٩٧/١).

(٢) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان (٢٥١/١).

(٣) «نظم الدرر» (٣٠١/٧).

(٤) «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي العباس البرنسي (١١٢).

(٥) ينظر: «الأسنى» (٣٣٣/١)، و«شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان (٢٥١/١).

(٦) «نظم الدرر» (٣٠١/٧).

(٧) «مدارج السالكين» (٢٠٦/١).

(٨) «مفتاح دار السعادة» (٤٩٧).

الثالث: ومن جلال برّه سبحانه لأوليائه: أنه لو أقسم أحدٌ منهم على الله تعالى في أمرٍ، لبره في قسمه، ولا يخيب ظنه أبداً، إعظماً لشأنه. قال رسول الله ﷺ: «إن من عباد الله تعالى من لو أقسم على الله لأبره»^(١) (٢).

قوله: «لو أقسم على الله لأبره»: أي: لو حلف على وقوع شيء أوقعه الله إكراماً له، ولطفاً به، بإجابة سؤاله، وصيانة من الحنث في يمينه، وهذا لعظم منزلته عند الله تعالى، وإن كان حقيراً عند الناس^(٣).

الرابع: ومن جلال برّ ربنا عزّ شأنه: أنه "يبرّ عبده المؤمن بما يوافق نفسه، فربّما برّه بالنعمة، وربّما برّه بالبؤس، فهو يختار له من الأحوال ما هو خير له، ليوسع له في العقبى، فعلى المؤمن أن لا يتّهم ربّه في شيء من قضائه"^(٤).

الخامس: ومن جلال البر سبحانه: "أنه لا يصدر عنه القبيح (بل يصدر منه كل) مליح"^(٥).

السادس: ومن جلاله: أنه تعالى: "قابل الدعاء: بالعطاء، والاعتذار: بالاغتفار، والإنابة: بالإجابة، والتوبة: بغفران الحوبة"^(٦).

الثمرات

من عبودية هذا الاسم الكريم: القيام بالبرّ من جميع أنواعه، وقد جمع الله ﷻ أقسامه كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْإِلَهَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وأن يبرّ من أوجب عليه تعالى برّه، وهما الوالدان، ويكون في حياتهما بحسن صحبتتهما، قال تعالى: ﴿وَبِرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم]، وبعد مماتهما بالدعاء، وصلة أحبابهما، قال ﷺ: «إن أبرّ البر صلة الولد أهل ودّ أبيه»^(٧)، "وأنّ تبرّ بأحب أموالك إليك، وأنفسها لديك، فإن مولاك سبحانه يقول: ﴿كُنْ نَّالُوا الْإِرَّ

(١) البخاري (٢٧٠٣).

(٢) وقال ﷺ: «رُبّ أشعث (الأشعث: المتلبّد الشعر المغبر غير مدهون، ولا مرجل) مدفوع الأبواب (مدفوع الأبواب: أي عن الأبواب، فلا يترك بقرعها احتقاراً له)، لو أقسم على لأبره». مسلم (٢٦٢٢). «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (٤٩٥/٦).

(٣) «شرح النووي على صحيح مسلم» (٤٢٣/٨)، و«المفهم» (٤٩٥/٦).

(٤) «نظم الدرر» (٣٠١/٧).

(٥) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (٣٨١/١).

(٦) «الكنز الكامل الأسمى في شرح أسماء الله وصفاته الحسنى» (١٠٠).

(٧) «مسلم» (٢٥٥٢).

حَقَّ تَنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴿١﴾ [آل عمران: ٩٢]

ومن عبودية هذا الاسم الجليل: أن يبرَّ العبد ربه سبحانه، وبرّه برّه: أن يشكره، ويسارع في مرضاته، ويجانب ما يكره، وأن يبرّ كتبه، ورساله، وأولياءه، والعلماء، وأهل طاعته، وبر والديه، وإذا وجبت مبرة والديه لتربيته، فمبرة الرب الأعلى لربوبيته أخرى وأولى، فيتضاءل لعظمته، ويتصاغر لكبريائه، ويؤدي إليه حقه، ويقف نفسه عند حظها، ويراقب حتى يتوجه منه إليه أمر يقوم به، ويعمل عليه، ويبرّ ولاية الأمر بالسمع والطاعة، وعامة المسلمين بالنصح لهم^(٢) والسلامة.

ومن جملة التعبد بهذا الاسم الكريم: تحرّي الصدق في الأحوال كلها، ظاهرها وباطنها، مع العلم بما يكون من ذلك برّاً، والتميز له مما لا يكون برّاً، وضدّ البر: الإثم، قال رسول الله ﷺ: «البرُّ حسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس»^(٣)، وأوائل البر: أداء الفرائض، واجتناب المحارم، وبالتوسع في أعمال البر علماً، وعملاً، تصعد الأبرار إلى درجة المقرّبين، مَنْ الله بهما علينا^(٤).

واعلم رحماني الله وإياك أن "مطالعة العبد لهذا البر العظيم، من سيّده ومولاه، نافع له غاية النفع، إذ به يعرف عزّة الله تعالى في قضائه، وبرّه في ستره، وحلمه في إمهاله، وكرمه في تيسيره لعبده التوبة والإنابة، وفضله في مغفرته، وهذا يسوق العبد إلى حُسن الإقبال على مولاه، خضوعاً وتذللاً، رغباً ورهباً، رجاءً وطمعاً، فإن الاشتغال بالله، والغفلة عما سواه: هو المطلوب الأعلى، والمقصد الأسنى"^(٥).

وضع يا عبد الله نصب عينيك، أن أعظم برّه سبحانه عليك، أن برّك بالإسلام بدءاً منه من غير استحقاق، ومن غير وسيلة، ولا حيلة، ولا أسباب، فلا تضيع هذا البرّ منه تعالى، فقم بموجباته من أعمال الأركان، وأعمال الجنان من التوحيد والإيمان.



(١) «شجرة المعارف والأحوال» للجز بن عبد السلام (٩١).

(٢) انظر: «الأسنى» (٣٣٤/١).

(٣) مسلم (٢٥٥٣).

(٤) «شرح الأسماء» لابن برجان (٢٥١/٢).

(٥) انظر: «مدارج السالكين» (٢٠٦/١)، و«فقه الأسماء»، د. عبد الرزاق البدر (٢٢٧).

٤٢-٤٣- الله ﷻ الوليُّ، المولى ﷻ جل جلاله

قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَوْلَىٰ أَحْمَدُ﴾ [الشورى].

وقال جل ثناؤه: ﴿نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال].

المعنى اللغوي

الولي: صيغة مبالغة من اسم (الفاعل): الوالي، والوليُّ: ضد العدو، والموالاتة ضد المعاداة، وأصل الولاية: الحب. فالولي يطلق على:

الأول: المحب، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]، يقال: "فلان ولي فلان إذا كان حبيبه"، يولي مودته وموالاته، ويشني عليه بالجميل، ولا يتبرأ منه بحال.

الثاني: ويطلق على الحاكم والسلطان، والإمارة، ويقال للأمير: "هذا والي بلد كذا"، لأنه يلي أمورهم، ويصلح شؤونهم.

الثالث: والناصر، "فلان وليّ فلان"، أي: ناصره، كأنه يوليه نصره، فلا يحول بينه وبينه، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ تَطَهَّرَ عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ﴾ [التحريم: ٤]^(١).

الرابع: ويطلق على: السيد، ومتولي الأمر، ومالك التدبير، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ﴾ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ [الأنفال]، فكل من تولى أمر آخر: فهو وليه، أي متولي أمره، والقيم على شؤونه، كأنه يلي إصلاح أمره بنفسه، لا يكله إلى غيره.

الخامس: القريب: مأخوذ من الولي وهو القرب، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَّلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ [القيامة: ٣٤]، أي: قريبٌ منك ما كنت تحذر منه، وهو الذي يلي غيره، بحيث يكون قريباً منه بلا فاصل، ومنه قول النبي ﷺ لربيّه: «سَمِ اللَّه، وكل مما يليك»^(٢)، أي: مما يقاربك، أي: مما يليك، ويقال: "وداره ولي داري": قريبة منها.

(١) قال عزّ شأنه: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٧١].

(٢) البخاري (٥٣٧٨).

المولى: على وزن (مفعل)، ويطلق على:

الأول: الْمُعْتَق، لقول النبي ﷺ: «إِنَّمَا الْوَلَاءُ لِمَنْ أَعْتَق»^(١).

الثاني: الرب، الثالث: المالك، الرابع: السيد، الخامس: المنعم، السادس: الناصر، السابع: المحب، الثامن: المعين، التاسع: الصاحب، العاشر: القريب^(٢).

الفرق بين (الولي) و(المولى):

أن (الولي) هو من تَوَلَّى أمرَك، وقام بتدبير حالك وحال غيرك، وهذه من ولاية العموم، و(المولى): هو من تَزَكَّنَ إليه، وتعتمد عليه، وتحتمي به عند الشدة والرخاء، وفي السراء والضراء، وهذه من ولاية الخصوص، فالمولى يدلُّ على الولاية الخاصة، وهي تكون لبعض خلقه دون بعض، والولي دلٌّ في أغلب النصوص على الولاية العامة^(٣).

المعنى الشرعي

الله هو الولي المولى، المتصرف في العوالم كلها ينفذ فيها أمره ويجري عليها حكمه:

(١) فهو ﷻ مالك الأشياء جميعها، المتولي لها، والمستولي عليها، المتصرف فيها كلها، بمشيئته، وحكمته، فلا يخرج أحد عن تدبيره، وتقديره.

(٢) فهو تعالى والٍ للأمر كلها، لا والي لها بحق إلا هو سبحانه، وذلك: أنه تعالى المنفرد بتدبيرها أولاً، والمتكفل والمنفذ للتدبير بالتحقيق ثانياً، والقائم عليها بالإدامة والإبقاء ثالثاً.

(٣) وهو سبحانه المتكفل بأمور العباد كلها سواء، دقيقها، وجليلها، سرها وعلايتها، المتولي أمورهم بالحفظ، والتدبير، الموصولهم إلى مرادهم بحسن التقدير.

(٤) ومن كمال ولايته: أنه تعالى يوالي العباد بالإحسان، والإنعام، ويفيض عليهم الإمداد بالحنان، عطاء يدر بغير انقطاع، ويتوالى بدون انقضاء، ويتكرر بدون امتناع.

(١) «البخاري» (٢٠٦٠)، «مسلم» (١٥٠٤).

(٢) «لسان العرب» (٤١١/٥) و«مقاييس اللغة» (٩٦٦)، و«النهاية» (٩٨٩)، «القاموس المحيط» (١٤٢٠)، و«تفسير الأسماء» (٦١)، و«اشتقاق أسماء الله الحسنى» (١١٣ - ١١٥)، و«الجواب الكافي» (٣٣٢)، «شرح أسماء الله للرازي» (٣٠٢)، «شأن الدعاء» (١٠١)، و«الأمد الأقصى» (١٤٦/٢)، و«شرح سورة (النساء) لابن عثيمين» (٢٧٩/١).

(٣) «لسان العرب» (٤١١/٥)، «أسماء الله الحسنى» للدكتور محمود الرضواني (٤٩٨).

(٥) فهو المتصرف في العوالم كلها، العلوية والسفلية، وما فيهما، وما بينهما، يدبر شؤون خلقه أزلاً وأبداً، بحكمه كريم، رحيم، عادل، رؤوف، حكيم^(١).

(٦) وهو الناصر والمعين، لكل الخلق أجمعين، فهو سبحانه المأمول منه النصر والمعونة، لأنه هو المالك، ولا مفزع للمملوك إلا ماله سبحانه^(٢).

(٧) ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ سبحانه [الأعراف: ١٩٦]: كلهم بنصره وحفظه على كل مناو، فلا يضرهم عداوة من عاداهم، ومن تولاه الله تعالى بحفظه يكفيه لكل مهم فلا يضره شيء^(٣).

(٨) ومن تمام ولايته سبحانه: أنه كما يوالي عباده بالنعم والعطاء، كذلك أنه يوالي عباده بدفع عنهم الشر والسوء والبلاء، قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

(٩) وهو الولي المولى: القريب من كل الوري، وهو فوق العرش استوى، وهو مع هذا لا يخفى عليه شيء من أعمالهم، ما دق منها، وما بدى، مطلع على أحوالهم، مشاهد لهم، مدبر لأمرهم الظاهرة والباطنة.

(١٠) وهو المولى سبحانه: الحاكم الذي يتولى خلقه بأحكامه الثلاثة، في الدنيا والآخرة، فلا يخرج عنها أحد من الخلق.

ففي الدنيا: تولاهم بحكمه القدري، فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير، ثم تولاهم بحكمه الشرعي، بأمره، ونهيه، بما أرسله إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب.

وفي الآخرة: حين يردوا إليه، ليتولى الحكم فيهم بالجزاء، ويثيبهم على ما عملوا من الخيرات، ويعاقبهم على الشرور والسيئات، قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَهُمْ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٢]^(٤).

(١١) وهو المحب سبحانه: الذي يحب أنبياءه، وأصفياه، وأوليائه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٥٧]، أي: محبهم.

(١) ينظر: «النهاية» (٩٨٩)، و«شأن الدعاء» (٨٩)، و«المقصد الأسنى» (١٢٦)، و«موسوعة له الأسماء الحسنى» (٣٧٥/١).

(٢) «شأن الدعاء» (١٠١)، و«المنهاج في شعب الإيمان» (٢٠٤/١).

(٣) انظر: «السراج المنير» (٦٢٦/١)، و«نظم الدرر» (١٧٢/٣).

(٤) انظر: «تيسير الكريم المنان» (٢٥٩).

(١٢) وهو الولي تعالى: الذي يوالي عباده المؤمنين لرحمته، ونعمته، وحكمته، وإحسانه، وجوده، وفضله، وإنعامه، ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَلَ إِلَيْكَ الْكِتَابُ هُوَ يُتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦] (١).

(١٣) وهو الذي يركن إليه المؤمنون، ويعتمدون عليه، ويفوضون الأمور إليه، ويستعينون به في كل شؤونهم الدنيوية والأخروية، قال تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

(١٤) وهو سبحانه متوليهم، ومربيهم أحسن تربية، في أمور دينهم، ودنياهم، وما به يندفع عنهم الشر، وينجلب إليهم الخير، فيقبلون إليه في يوم الدين في أحسن ما يكون.

(١٥) ومن كمال ولايته تعالى: أن له الولاية الحق وحده، لا يملكها غيره، ولا يستطيعها سواه، ﴿هَٰذَاكَ الْوَلِيُّ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤]. فمن كان مؤمناً لله تقياً: كان له ولياً، فأكرمه بأنواع الكرامات، ودفع عنه الشرور والهلكات في الدنيا، وفي العرصات. ومن كان خلاف ذلك: أذاقه الله تعالى في الدنيا والآخرة السوء، والمثلاث.

(١٦) ومن تمام ولايته سبحانه: أنه يقمع أعداء الدين، وينصر أوليائه الصالحين، لأنه ولي المؤمنين، فهو تعالى الناصر لمن أطاعه، القاهر لمن حادّه ورسوله، فالولي بحسن رعايته منصور، والعدو بحكم شقاقه مقهور (٢).

(١٧) والله سبحانه ناصر المؤمنين بمحمد ﷺ، المصدّقين له في نبوّته، وفيما جاءهم به من عنده على من خالفهم من أهل الملل والأديان، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٦٨].

(١٨) فهو سبحانه: ﴿رُغْمَ الْمَوْلَى﴾ [الأنفال: ٤٠]: الذي لا يضيع من تولاه من المؤمنين، فهو نعم المعين لهم، بأن يتولى نصرهم وإرشادهم: فيوصل إليهم مصالحهم ويسر لهم منافعهم الدينية والدنيوية، ويتولاهم في حياتهم الأخروية: بثوابهم جزائهم (٣).

وبالجملة: فإن ولايته تعالى العظيمة لكل الخليقة نوعان:

الأولى: ولاية عامة: لكل الخلق أجمعين، بالخلق، والتدبير، وتصريف الأمور والمقادير، في السموات السبع والأرضين، في كل وقتٍ وحين، فليس لنا وليٌّ سواه، يجلب لنا المنافع،

(١) «مجموع الفتاوى» (٥٢٠/٨)، و«اشتقاق أسماء الله» (١١٣ - ١١٤)، و«الوامع البيئات» (٣٠١).

(٢) انظر: «المقصد الأسنى» (١١٥)، و«الوامع البيئات» (٣٠٢).

(٣) «تيسير الكريم المنان» (٣٢١، ٨٧٣)، و«تفسير الأسماء» (٥٥).

ويدفع عنا الضّر والشّرور والمساوئ، نواصينا كلّها بيده تعالى، وهي ولاية الخلق، والتدبير الشاملة، للخلق كافة، للبر، والفاجر، والمؤمن والكافر، قال سبحانه: ﴿مَا لَكُمْ مِّنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ [السجدة: ٤]، وقال عزّ شأنه: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ﴾ [الشورى: ٤٤].

الثانية: ولاية خاصة: لأوليائه المتّقين، فيتولهم بعنايته، ويحفظهم برعايته، ويختصهم برحمته، ويسددهم بتوفيقه، فيخرجهم من الظلمات الجهل، والكفر، والمعاصي، إلى نور العلم، والإيمان، والطاعة، وينصرهم على عدوّهم، ويصلح لهم أمورهم الدنيوية، والدينية.

فهي ولاية تقتضي الرأفة، والرحمة، والإصلاح، والحفظ، والمحبة، والتأييد في الحركات، والسكنات، وفي كل التقلبات، قال الله العظيم: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَكُمْ نَعَمْ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [الأنفال: ١٠]، وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١٠]، وهذا التولي الخاص منه تعالى لهم، يقتضي عنايته ولطفه بعباده المؤمنين، وأن الله يربّهم تربية خاصة لهم، يصلحون بها للقرب منه، ومجاورته في جنّات النعيم.

والله ﷻ يوالي عبده المؤمن بحسب محبّته له، ولهذا أنكر الله سبحانه على من اتّخذ من دونه أولياء، بخلاف من والى أولياءه، فإنه لم يتخذ أولياء من دونه، بل موالاته لهم، من تمام موالاته تعالى^(١).

﴿جلال الولي المولى﴾

الأول: من جلاله: أن "موالاته لعبده إحساناً إليه، ومحبةً له، وبرّاً به، وجبراً له، ورحمة، لا يتكرّر به من قلة، ولا يتعزّز به من ذلّة، ولا ينتصر به من غلبة، ولا يستعين به في أمر"^(٢)، قال ﷻ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذَّلِيلِ﴾ [الإسراء: ١١١]، فهو سبحانه لم يتخذ من خلقه وليّاً من الذل، لكمال اقتداره، وغناه، وعظمته، فهو تعالى لم ينف اتّخاذ الولي نفياً عاماً مطلقاً، بل نفى ولاية من الذل، وأثبت في موضع آخر، أنه له أولياء بقوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ١٠]، وإنما يتخذ منهم^(٣) أولياء، رحمةً بهم، وإحساناً إليهم، وتفضلاً منه

(١) انظر: «الحق الواضح» (١٢)، «فتح الرحيم الملك» (٥١)، «تفسير سورة البقرة» لابن عثيمين (٤٦١/٣)، «الجواب الكافي» (٣٣٢)، و«موسوعة له الأسماء الحسنى» (٢٩٨/١).

(٢) «مدارج السالكين» (٤٩٥/١).

(٣) أي: أولياء المؤمنين.

لهم، يحبُّهم ويحبُّونه^(١). فولايته لأوليائه عزَّة، ومنعة، ورفعة، وقوَّة، وغنى، ونُصرة، فهو تعالى: ﴿نَعْمَ الْمَوْلَى وَنَعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الأنفال].

الثاني: ومن جلالهما: أنه سبحانه يولي كل ظالم ظالماً مثله، يسومونهم سوء العذاب، ويأخذون منهم بالظلم والجور، أضعاف ما منعوا من حقوق الله تعالى، وحقوق عباده، قال عز شأنه: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام]^(٢).

الثالث: ومن جلال ولايته ﷺ: أنه يعتق من يشاء من النار في الدنيا، والآخرة، ففي الدنيا: لأنبيائه، كما في قصة إبراهيم عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء]، وكذلك من شاء من أوليائه، في كل يوم من رمضان، قال ﷺ: «الله عند كل فطرٍ عتقاء»^(٣)، وقال ﷺ: «إن لله ﷻ عتقاء في كل يوم ليلة (يعني من رمضان)»^(٤).

وفي الآخرة: أنه يعتق بقوله، وفعله، في قوله: كما في حديث الصراط العظيم، حينما يقول الله ﷻ لأوليائه المؤمنين، إذا خلصوا من النار: «أخرجوا من عرفتم، فتحرم صورهم على النار، فيخرجون خلقاً كثيراً...»^(٥).

وفي فعله: أنه سبحانه يعتق من شاء من أوليائه من النار بقبضة من يده الكريمة، بعد أن يقول ﷺ كما في الحديث السابق: «... شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قوماً من النار لم يعملوا خيراً قط، قد عادوا حمماً، فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة، يقال له: (نهر الحياة)... فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم، يعرفهم أهل الجنة: هؤلاء عتقاء الله، الذين أدخلهم الله الجنة، بغير عملٍ عملوه، ولا خيرٍ قدّموه»^(٦).

الرابع: ومن جلال المولى تعالى: "أن من كان في حماية هذا المولى وفي حفظه وكفايته:

(١) «مفتاح دار السعادة» (٤٩٥/١)، و«الحق الواضح» (١٣)، و«النفي في صفات الله ﷻ» لأبي محمد أرزقي سعيدي (٣٥٢ - ٣٥٣).

(٢) «تفسير السعدي» (٢٧٣).

(٣) «صحيح الترغيب والترهيب» (١٠٠١).

(٤) المصدر السابق (١٠٠٢).

(٥) «البخاري» (٧٤٣٩)، «مسلم» (٤٥٤).

(٦) المرجع السابق.

كان آمناً من الآفات مصوناً عن المخالفات" (١) وهذا والله غاية الغايات .

الخامس: ومن جلال ولايته سبحانه لأوليائه المؤمنين والصالحين: أنه:

(أ) "مقيل عثراتهم، (ب) وغافر زلاتهم، (ج) ومقيم أعذارهم، (د) ومصلح فسادهم، (هـ) والدافع عنهم، (و) والمحامي عنهم، (ز) والناصر لهم، (ح) والكفيل بمصالحهم، (ط) والمنجي لهم من كل كرب، (ي) والموفي لهم بوعده" (٢)، (ك) والمثني عليهم" (٣)، (ل) وأنه سبحانه كما ينصرهم على عدوهم الخارجي، ينصرهم على عدوهم الداخلي: من النفس، والشيطان، باجتنب الذنوب والمعاصي .

وفي الجملة: "محبتهم، ونصرته لهم على الاعداء، متابعة النصرة، صيانتهم في جميع الأحوال، وكفايتهم المهمات" (٤).

السادس: ومن جلال الولي المولى سبحانه: أنه الذي تولى سياسة النفوس فأدبها، وحراسة القلوب فهذبها، الذي بالإحسان ملي، ويتصدق الوعد وفي (٥).

الثمرات

إن هذين الاسمين الكريمين يوجبان للعبد ولاية الله تعالى، ورسوله، والمؤمنين، ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]

أما "ولاية العبد لربه هي: تصديقه به، وبكل ما جاء من عنده، ثم الإسلام بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ثم التفويض إليه، والتوكل عليه، والاستسلام لأمره في سره وعلايته، وشدته وورخائه" (٦).

وأما ولاية رسوله ﷺ: فتصديقه بما جاء به، ونصر سنته، والامتثال لها، والدب عنها، بكل وسيلة شرعية مرضية .

(١) قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا فَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ حَزَبُوا﴾ [الأنفال: ٤١]، و«السراج المنير» (١/٦٥٣).

(٢) «المرتج الأسنى» من كتب ابن القيم، لعبد العزيز الداخل (٥٧٠).

(٣) «اشتقاق أسماء الله» (١١٢).

(٤) «الأمم الأقصى» (١٥٣/٢).

(٥) «شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (٣٠٢).

(٦) «الأسنى» (٣٠٢/١).

وولاية المؤمنين: بمحبتهم، والعطف عليهم، ومؤازرتهم، ونصرهم، قال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(١).

ومن عبودية هذا الاسم الكريم: قطع ولاية كل من حادَّ الله ورسوله، قال ﷺ: ﴿لَا يَحْدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال عزَّ شأنه: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨]، وعدم ولاية إبليس وذريته، من شياطين الإنس، والجان، قال سبحانه: ﴿أَفَنَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]^(٢).

وقد جعل الله تعالى الولاية لأوليائه مشروطة بالتقوى، والإيمان به، قال عزَّ شأنه: ﴿إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٩٩﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا نَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٢٠٠﴾ [يونس]، وأن يراعي الله تعالى فيمن ولَّاهُ عليهم، فيتقي الله بهم، قال ﷺ: «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشقَّ عليهم فاشقُقْ عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئاً، فرفق بهم، فارفق به»^(٣).

وينبغي للمؤمن أن يكون ولياً للناس يرعى مصالحهم، ويتولى شؤونهم، ويسعى في قضاء حوائجهم، وأعظم الولاية فيما بينه وبينهم: مناصحتهم، ومواعظتهم، قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

ومن "الفوائد والثمرات العظيمة التي تُنال بها ولاية الله كما في الآية السابقة، وهي: الأمن، والتمام، وزوال ضده من الخوف والحزن، والبشارة الكاملة في الدنيا بما يبين لهم، ويبشِّرهم به من اللطف، والعناية، والتوفيق للخيرات، والحفظ من المخالفات، والثناء الحسن بين العباد، وبالرؤيا الصالحة التي يراها المؤمن، أو تُرى له، والبشارة عند الموت، وفي القبر، وفي عرصات القيامة"^(٤).



(١) مسلم (٢٥٨٦). وقال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان، يشدُّ بعضُه بعضاً». مسلم (٢٥٨٥).

(٢) «تفسير السعدي» (٤٧٩).

(٣) «مسلم» (١٨٢٨).

(٤) «فتح الرحيم الملك» (٥٢).

٤٤- الله الجبار تبارك وتعالى

قال تعالى: ﴿الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]

المعنى اللغوي

الجبار: من أبنية المبالغة من اسم (الفاعل) الجابر، وله عدة معانٍ:

الأول: العظيم، القوي، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾ [المائدة: ٢٢].

الثاني: العالي الطويل الذي فات يد المتناول، ومنه قولهم: "فرسٌ جبار"، و"نخلة جبارة"، وهي: العظيمة التي طالت وعلت، وقصرت الأيدي عن أن تنال أعلاها^(١).

الثالث: المتكبر المتعظم، الممتنع عن الذل والقهر، من قولهم: «رجل جبرية وجبروت»، أي: تكبر وعظمة.

الرابع: الإكراه، والقهر، من «جبره على كذا»: إذا أكرهه على ما أراد، وأجبرته إذا اضطرته إلى ما لا يريد، ويقال: «أجبرت فلاناً على الأمر»، ولا يكون ذلك إلا بالقهر، وجنس من التعظم عليه.

الخامس: الملك، قال ﷺ: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق: ٤٥]، أي: بملك مسلط، والجبابرة الملوك، ومنه الحديث: «غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعاً بذراع الجبار، وضرسه مثل أُحُد»^(٢).

السادس: ويطلق على إصلاح الشيء بضرب من القهر، ومنه جبر العظم، أي: أصلح كسره، وكذلك قولهم: «جبرت الرجل»: إذا أحسنت إليه، وإذا أصرته من حالة الضر إلى الحالة المثلى، وجبر الفقير أغناه^(٣). وقولهم: «جبر الله مصيبتك» أي: ردَّ عليك ما ذهب منك،

(١) ومنه قولهم: "تجبر النبات": إذا علا واكتمل.

(٢) صححه الألباني في «السنة» لابن أبي عاصم (٦١٠)، وفي صحيح الترمذي (٢٥٧٧).

(٣) «المفردات» (١٨٣)، و«تهذيب اللغة» (٥٧/١١)، و«النهاية» (١٣٦)، و«شأن الدعاء» (٤٨)، و«تأويل مختلف الحديث» لابن قتيبة (١٤٥)، و«اشتقاق أسماء الله» (٢٤٠)، و«تفسير السمعاني» (٢٦/٢)، و«التفسير الوسيط» =

وعوضك^(١)، ومعنى: (اجبرني)، أي: اجبر كسري الحسي، والمعنوي^(٢).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الجبار الذي لا تليق الجبرية إلا له^(٣)، الذي يجبر كل أحد ولا يجبره أحد:

(١) هو الذي جبر الخلق على ما أراد، وحملهم عليه كما يشاء، أرادوا أم كرهوا، لا يجري في سلطانه إلا ما يريد، ولا يحصل في ملكه إلا ما يشاء^(٤).

(٢) فهو الذي تنفذ مشيئته جبراً، ويظهر أحكامه قهراً، ولا يخرج أحد عن قبضة تقديره، ولا ينفذ أحد من مشيئته في تقديره، وأحكامه، ولا يجبره أحد ولو كان عظيماً في همته، وليس إلا الله تعالى وحده.

(٣) فهو سبحانه الذي جبر، وقهر خلقه على ما يريد: من أمر، ونهي، على مقتضى الحكمة، والصواب، والعدل، ومن ذلك: أنه جبر دينه، وهو دين الحق، الذي ارتضاه لكل العبيد.

(٤) وهو سبحانه الجبار: المصلح لأمر وأحوال خلقه، المصرفهم فيما فيه صلاحهم، المخرج لهم مما يسوءهم إلى ما يسرهم، ومما يضرهم إلى ما ينفعهم.

(٥) فهو الذي جبر مفارقة الخلق، فكفاهم أسباب عيشهم ورزقهم.

(٦) هو تعالى الجبار: الذي يجبر ضعف الضعيف من عباده:

(أ) فيجبر الكسير . ب) ويغني الفقير . ج) وييسر على المعسر كل عسير . د) ويسد الخلل في المعاش بالرزق . هـ) ويجبر جبراً خاصاً قلوب المنكسرة من أجله، الخاضعين لجلاله، وعظمته، فقلوب المنكسرين لأجله جبرها دان قريب .

و) ويجبر قلوب المحبين بما يفيض عليها من أنواع كرامته، وأصناف المعارف، والأحوال الإيمانية، والفتوحات الإلهية، والهداية والإرشاد، والتوفيق والسداد .

= للواحد (٣٩٧/٢)، و«الأسماء والصفات» (١٦٩/١)، و«الأسنى» (٤٥٩)، و«شرح الأسماء الحسنی» لابن برجان (٣٢٤/١).

(١) «شرح السنة» للبغوي (١٦٣/٣).

(٢) «شرح الممتع» لابن عثيمين (١٣٢/٣).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» (٤٥٢/٤).

(٤) انظر: «الحجة في بيان المحجة» (١٥٩/١)، و«جامع البيان» (٢٦٨/٧)، و«لوامع البينات» (٢٠٦).

(ز) ويجبر المريض، والمبتلى، وضعف الأبدان، والقوى، فييسر أسباب الشفاء لها. ويجبر المصاب بتوقيفه للثبات والصبر، ويعيضه على مصابه أعظم الأجر، إذا قام بواجبها.

(ح) ويجبر عبده المؤمن، بإصلاح حاله، ومآله، وإذا دعا الداعي فقال: «اللهم اجبرني» فإنه يريد هذا الجبر، الذي حقيقته إصلاح للعبد، ودفع جميع المكاره عنه^(١).

(٧) وهو الجبار: العالي فوق خلقه، الذي على العرش استوى، وعلى الملك احتوى، وعلى السلطان، وأنواع التصارييف استولى^(٢).

(٨) وهو تعالى الجبار: المنيع الذي لا ينال، فلا يصل إليه واصل، ولا يحصل على كنه ذاته حاصل^(٣)، ولا يمكن إدخال مكروه عليه داخل، فلا يبلغ العباد ضرره فيضرونه، ولا نفعه فينفعونه^(٤).

(٩) وهو سبحانه جبار: القلوب على فطرتها، شقيها، وسعيدها^(٥)، فهو سبحانه أقام القلوب وأثبتها على ما فطرها عليه، من معرفته، والإقرار به^(٦).

(١٠) وهو المتعظم المتكبر، تقدس أن تناله النقائص، وصفات الحدث، وعن مماثلة أحد، وعن أن يكون له كفو، أو ضد، أو ند، أو سمي، أو شريك في خصائصه، وحقوقه^(٧).

(١١) فهو سبحانه الجبار: العظيم، الذي يفوت المقاوم مناله، الذي لا تناله الأيدي، ولا يجري في ملكه غير ما أراد^(٨).

(١٢) فهو تعالى حامل العباد على ما يشاء لا انفكاك لهم عما شاء: من الأخلاق،

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٢٦٨/٧)، و«ابن كثير» (٣٤٣/٤)، و«تفسير البغوي» (٨٧/٧)، و«شأن الدعاء» (٤٨)، و«الأسماء والصفات» (٢٥٧/١)، و«شرح الأسماء الحسنى» للرازي (٢٠٦)، و«الأمد الأقصى» (٣٦٧/١)، و«تفسير القرطبي» (٣٠١/٩)، و«الأسنى» (٤٥٦ - ٤٥٩)، و«الحق الواضح» (٧٧)، و«الكافية» (١٢٦)، و«فتح الرحيم الملك» (١٨)، و«الموسوعة» للشرباصي (٧٥/١).

(٢) «فتح الرحيم الملك» (١٨).

(٣) «الأسنى» (٤٥٨).

(٤) «تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة» (٣٢/٢).

(٥) «التوحيد» لابن منده (٧٤/٢).

(٦) «النهاية» (١٣٦).

(٧) «تفسير القرطبي» (٣٠١/٩)، و«الأسنى» (٤٥٩).

(٨) انظر: «نظم الدرر» (٥٤١/٧)، و«التوحيد» لابن منده (٧٤/٢).

والأعمال، والأرزاق، والآجال^(١).

(١٣) وهو تعالى الجبار: إذا أراد شيئاً كان كما أراد، ولم يمتنع عليه، ولا يمكنه فيه غير ذلك، وقد أحدث كل شيء عن عدم، وإذا أراد وجود شيء لم يتخلف كونه عن حال إرادته، فيكون فعله له كالجبر^(٢).

(١٤) وهو العظيم المتكبر: الذي لا يرى لأحد عليه حقاً^(٣).

(١٥) وهو ﷻ الجبار: الذي يلجأ النار لقصرها على مراده من الحساب^(٤)، الذي جبلها على ضده من الاستزادة، قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق]^(٥).

قال ﷻ: «لا تزال جهنم يلقى فيها، وهي تقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه - وفي رواية -: (حتى يضع الجبار ﷻ فيها قدمه)^(٦) فتقول: قط قط^(٧)، فهناك تمتلئ، وينزوي^(٨) بعضها إلى بعض^(٩)».

(١٦) وهو الذي لا يخرج أحد عن قبضته، وتتقاصر الأوهام دون معرفته، الذي يصلح أمور من يريد من الخلق، ويقهرهم على ما يريد، فهم أحقر من أن يعصوه طرفة عين بغير إرادته^(١٠).

(١٧) وهو الجبار عز شأنه: الذي جبر خلقه على ما أراد: من إسلام وكفر، وطاعة ومعصية، فإذا أراد أمراً فعله، لا يحجزه عنه حاجز^(١١).

(١٨) ومن جبره تعالى وقهره وقدرته: أن يجعل العباد مريدين لما يشاء منهم، إما مختارين له طوعاً، وإما مريدين له مع كراهتهم له، ويجعلهم فاعلين له، وهذا الجبر الذي هو قهره بقدرته لا

(١) «تحفة الأبرار» (٣٢/٢).

(٢) ينظر: «المنهاج» (١٩٥/١).

(٣) «القاموس المحيط» (١٨٩).

(٤) أي: الكفاية.

(٥) «نظم الدرر» (٥٤١/٧).

(٦) رواه ابن خزيمة في التوحيد (٢٠٧/١)، ورواه الدارقطني في الصفات، رقم (٩) (ص ١٥).

(٧) أي: حسي ويكفي.

(٨) أي: يلتئم بعضها على بعض، بعد أن يضع الجبار عليها قدمه، فيلتي طرفاها، فتصغر جهنم بعد ذلك وتصبح مملوءة،

من عظمة قدم الله ﷻ. انظر شرح الواسطية لابن عثيمين (٣٨٥/٢)، وشرح كتاب «التوحيد» للغنيمان (١١٧/١).

(٩) «البخاري» (٤٨٤٨) (٤٨٥٠)، و«مسلم» (٢٨٤٦).

(١٠) «الأمد الأقصى» (٣٦٩/١)، و«نظم الدرر» (٥٤١/٧).

(١١) «معالم التنزيل» (٨٧/٨)، و«حاشية الصاوي على الجلالين» (٤١٤٣/٦).

يقدر عليه غيره ، وليس هو كإجباره غيره وإكراهه^(١) من كل الوجوه .

(١٩) وهو سبحانه الذي قهر الجبابة بجبروته ، وعلاهم بعظمته ، لا يجري عليه حكم حاكم ، فيجب عليه انقياده ، ولا يتوجه عليه أمر آمر ، فيلزمه امتثاله ، فهو سبحانه أمر غير مأمور ، قاهر غير مقهور ﴿لَا يُسْتَلُّ عَنْهُ يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]^(٢) .

(٢٠) وهو الجبار: الذي لا تطاق سطوته^(٣) ، المستحق لصفات التعالى والتعظيم على الوجه الذي لا يستحقه سواه ، ولا يثبت لغيره سبحانه^(٤) .

(٢١) وهوالجبار عزَّ شأنه: الذي لا يدانيه شيء ، ولا يلحق رتبة^(٥) ، الذي تقصر الأيدي عن حمى عز حضرته ، ولا ينال منه إلا ما نول ، وهو أبعد شيء عن أوصاف الخلق لمنال الذباب ، منهم ما شاء ، وعجزهم عنه^(٦) .

(٢٢) وهو الذي يحصل مراده دون كل مراد ، ولا يجري في سلطانه إلا ما (أراد) ، تنفذ مشيئته في كل أحد ، ولا تناله مشيئة أحد^(٧) .

(٢٣) وهو الجبار سبحانه: القهار لكل شيء ، الذي دان له كل شيء ، وخضع له كل شيء ، فالعالم العلوي والسفلي ، بما فيهما من المخلوقات العظيمة ، كلها قد خضعت في حركاتها ، وسكناتها ، وما تأتي ، وما تذر لمليكتها ، ومدبرها ، فليس لها من الأمر شيء ، ولا من الحكم شيء ، بل الأمر كله لله سبحانه^(٨) .

(٢٤) وهو الجبار تعالى: الذي قد أجبر الناس على أشياء لا انفكاك لهم منها ، حسبما تقتضيه الحكمة الإلهية ، لا على ما تتوهمه الغواة الجهلة ، وذلك: كإكراههم على المرض ، والموت ، والبعث ، وسخر كلاً منهم لصناعة يتعاطاها ، وطريقة من الأخلاق والأعمال يتحراها^(٩) .

(١) «مجموع الفتاوى» (٤٦٤/٨) ، وقد ذكر شيخ الإسلام ﷺ عدة وجوه تخالف جبر الخالق عن خلقه .

(٢) «شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (٢٠٧) .

(٣) «اللباب في علوم الكتاب» (٦١٢/١٨) .

(٤) «الأسنى» (٤٦٠) .

(٥) «تفسير ابن عطية» (٢٩٢/٥) .

(٦) «نظم الدرر» (٥٤١/٧) .

(٧) «الأمَد الأقصى» (٣٦٨/١) ، و«الاعتقاد والهداية والرشاد» (٥٠) .

(٨) «الحق الواضح» (٧٧) . و«فقه الأسماء» (٢٤٧) .

(٩) «موسوعة له الأسماء الحسنى» للشرباصي (٧٦/١) .

﴿ جلال الجبار ﴾

الأول: من جلاله: أنه تعالى لم يجبر أحداً من خلقه ، على إيمان أو كفر ، بل لهم المشيئة في ذلك والاختيار ، قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] فكونه ﷻ جبر الخلق على ما شاء من أمر أو نهي ، يعني أنه شرع لهم من الدين ما ارتضاه ، كما قال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ [الشورى: ١٣] .

فشرع لهم من الشرائع ما شاء ، وأرسل لهم الرسل ، وأمرهم بما ينفعهم ، ونهاهم عن العدول عن طريقهم ، وأعطى عباده الأسماع ، والأبصار ، والعقول ، والقدرة على أفعالهم ، والإرادة ، وممكنهم من جميع ما يريدون ، ولم يجبرهم على أفعالهم ، فهو ﷻ أجل وأعظم وأقدر ، أن يجبر عبده ، ويكرهه على فعل ما يشاء منه^(١) .

فإنه ﷻ لا يخلق فعل العبد الاختياري بدون اختياره ، بل هو الذي جعله مريداً مختاراً ، وهذا لا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى ، ولهذا قال من قال من السلف: "الله أعظم وأجل من أن يجبر غيره من لا يقدر على جعله مختاراً ، والله تعالى يجعل العبد مختاراً ، فلا يحتاج إلى إجباره"^(٢) .

الثاني: ومن جلال الجبار سبحانه: أنه كما يجمع صفات القهر ، والعلو ، والكبرياء ، والعظمة ، كذلك أنه يجمع صفات الرحمة ، والإصلاح ، والعدل ، والحكمة ، والرأفة ، ونزاهته عن صفات النقائص كالظلم ، والجور ، وكل آفة ، فقهره تعالى لعباده وجبره لهم ، على ما أراد حسبما تقتضيه الحكمة ، ولهذا كان ﷻ ينزّه جبروته تعالى عن كل نقص ، في ركوعه ، وسجوده: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة»^(٣) . لأن جبره سبحانه جبر كمال من كل وجه ، لأنه مبني على: رحمة ، وعطف ، وشفقة ، وعدل ، وحكمة .

الثالث: ومن جلاله: أنه "بجبروته قهر الجبابرة ، وأذل الأكاسرة ، وأرغم أنوف الفراعنة ، وقصم القياصرة ، وأنصف المظلومين من الظلمة ، ونصر جنده على المعاندين ، والكافرين ، والفجرة ، فكم من ظالم جبار من البشر قصم الله ظهره ، ورد كيده في نحره"^(٤) .

(١) «شفاء العليل» (٢٥١) ، و«فتح الرحيم الملك» (١٧ ، ٣٣) .

(٢) انظر: «منهاج السنة النبوية» (٢٤٦/٣) .

(٣) «صحيح أبي داود» (٨٧٣) .

(٤) «تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات» (٣٣٥) ، د. فوز الكردى ، و«تفسير أبي السعود» (٩/١) ، و«الأمم الأقصى»

(٣٦٩/٢) ، بتصرف يسير .

الرابع: ومن جلال جبروته تعالى: أنه أذل أنوف الطغاة، والبغاة، والقياصرة، بأحقر، وأصغر، وأوهن مخلوقاته سبحانه، ف"دَمَّرَ سَدَّ مَأْرَبَ بَفْأَرَةٍ، وأهلك النمرود ببعوضة، وهزم بطير أبابيل أبرهة" (١)،

ويتجلى جبروته في يوم موعوده:

(أ) في مسكه سماواته وأرضه بيديه، كما يليق بجلاله وكماله، قال ﷺ: «يأخذ الجبار ﷻ سماواته وأرضه بيديه، فيقول: أنا الله (ويقبض أصابعه ويبسطها)، أنا الملك» (٢).

(ب) وفي قلبه سبحانه بقدرته طبع الأرض، فيجعلها كالخبزة، والرغيف العظيم، ويكون ذلك طعاماً للمؤمنين في طول زمان الموقف، نزلاً لمن يصير إلى الجنة، قال ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة، يتكفؤها» (٣) الجبار بيده، كما يكفأ أحدكم خبزته في السفر، نزلاً لأهل الجنة (٤)» (٥).

وهذه من قدرة الله ﷻ، فهذه الأرض التي هي الآن طين، ورمْلٌ، وغيرهما، يوم القيامة تكون من أحسن الأطعمة، بل من الأطعمة التي لم نر مثلها، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر (٦).

الخامس: ومن جلال الجبار عز شأنه: أنه "أصلح الأشياء بلا علاج، وأمر بالطاعة بلا احتياج" (٧).

السادس: ومن جلاله سبحانه: أنه "المتعالي عن أن يناله قصد القاصدين، ويؤثر فيه نيل الكائدين، فلا يرتقي إليه وهم" (٨).

السابع: ومن جلال جبروته تعالى: أنه "يجبر المكسور بقوته، ويجبر الخواطر بعد خوفٍ أو

(١) انظر: «الله أهل الثناء والمجد» د. ناصر بن مسفر الزهراني (٤١).

(٢) «مسلم» (٢٧٨٨).

(٣) أي: يميلها من يد إلى يد حتى تجتمع وتستوي لأنها ليست منبسطة كالرقاقة.

(٤) «البخاري» (٦٥٢٠)، «مسلم» (٢٧٩٢).

(٥) انظر «فتح الباري» (٤٥٣/١١)، «شرح صحيح مسلم» للنووي (١٤٩/٩).

(٦) «شرح صحيح مسلم» لابن عثيمين (٩٦/٨).

(٧) «شرح أسماء الله» للرازي (٢٠٨).

(٨) «شرح المصابيح» للإمام أبي المفاخر زين الدين المصري (٣٦٤/٣)، «الواعم البينات» (٢٠٨).

شقاق ، ونزاع أو تباين ، واختلاف أو صراع وصدام ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح : ٤] ^(١).

الثامن : ومن جلاله : "أنه تعالى يبطش بالجبارين ، ويهلك من شاء كيف شاء من المخلوقين ، ويأخذ أخذ العزيز المقتدر ، ويستغيث به عند غلبة الجبارين عليه بذلّ وافتقار" ^(٢).

الثمرات

إن المؤمن حينما يدرك أنه تعالى الجبار المتصف بكمال العظمة ، وكمال الرأفة ، والرحمة ، فإن ذلك يثمر له المحبة والاضطرار والاعتزاز به في كل الأحوال في هذه الدار ، وينبغي له كذلك : "أن يلزم حال الافتقار لما هو عليه من الافتقار ، وأن يتدرّع ثوب الاستكانة وإن عظمت منه المكانة" ^(٣) ، فعامل عبادته بكل خير وصلاح ، واسترجع عند المصيبة حين نزول الأقدار ، فإن الله سبحانه جابر مصيبتك في الحال ، أو في المال ، قال ﷺ : «من استرجع عند المصيبة ، جبر الله مصيبتة ، وأحسن عقابه» ^(٤) ، وجعل له خلفاً صالحاً يرثاه» ^(٥).

وهذه الصفة العلية لا يجوز أن يتعاطاها أحدٌ من الخليفة ، فإن مآله الهوان والذلة ، قال تعالى : ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر] ، وقال تعالى : ﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [١٥] مِّنْ وَرَأْيِهِ جَهَنَّمَ رِيسَى مِّنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم] ، قال ﷺ : «يخرج عنق من النار يوم القيامة ، له عينان يبصر بهما ، وأذنان يسمع بهما ، ولسان ينطق به ، فيقول : إني وكلت بثلاثة : بكل جبارٍ عنيد ، وبكل من ادّعى مع الله إلهاً آخر ، والمصوِّرين» ^(٦).

ولهذا "نفى الله تعالى هذا الاسم عن رسول الله ﷺ ، كما قال : ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ [ق] : ٤٥ ، ونفى عيسى عليه السلام عن نفسه حين تكلم في المهد ، كما أخبر الله ﷺ : ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم : ٣٢] ، وكذلك عن يحيى عليه السلام : ﴿وَلَوْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم : ١٤] ^(٧).

(١) «موسوعة الأسماء الحسنى» أ.د عقيل حسين (٣٥١/٧).

(٢) «الأسنى» (٤٦٣) بتصرف يسير.

(٣) «الأمَد الأقصى» (٣٧٢/١).

(٤) هكذا في الأصل ، ولعلها تصحيف كلمة (عاقبته).

(٥) عن ابن عباس عليه السلام يرفعه للنبي ﷺ ، انظر «التفسير الصحيح» (٢٦٣/١).

(٦) «صحيح الترمذي» (٢٥٧٤) ، و«سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٥١٢).

(٧) «تلخيص الأدلة» (٤٣٢/١).

ومن علم أنه الجبار تعالى: دقَّ في عينه كل جبار سواه سبحانه، وكان راجعاً إليه في كل أمر يوجب الافتقار، وأن يقبل على النفس فيجبر نقائصها باستكمال الفضائل، ويحملها على ملازمة التقوى، والمواظبة على العبادة، ويكسر الشهوات، والهوى، بأنواع الطاعة، ويجبر المكسور من أعماله، فيكون جباراً على نفسه، جابراً لكسر عباده، تاركاً الناقص من آماله، مترفعاً عما سوى الحق، غير ملتفت إلى الخلق، فتم له بذلك الإسلام، والاستسلام، متحلياً في ظاهره وباطنه بالسكينة، والوقار، لله تعالى الجبار^(١).

"ومن آداب من عرف أنه سبحانه (الجبار الذي) لا تناله الأيدي لعلوِّ (مكانه) وقدره، أن يتحقق أنه لا سبيل إليه، ولا بُدَّ من أمره، ولا نصيب للعبد منه إلا لطفه، وإحسانه: اليوم عرفانه، وغداً غفرانه"^(٢).

وينبغي للعبد أن يستجير عند غلبة الجابرة بعزِّ سلطانه^(٣)، فإن الله سبحانه ناصره في كل أحواله.

واعلم أنَّ أعظم ما ينبغي أن يجبر به العبد نفسه، أن يجبر قلبه على حب الجبار الودود، وترك ما سواه من المحبوب والمطلوب، ونسيان ما فات من المرغوب، والإعداد لليوم الموعود.



(١) «شرح أسماء الله الحسنى وفوائدها وخصائصها» لأبي العباس أحمد بن عيسى البرنسي (٤٠)، و«تحفة الأبرار شرح

مصابيح السنة» (٣٢/٢) بتصرف.

(٢) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (٧٧/١).

(٣) «الأمَد الأقصى» (٣٧٣/١).

٤٥- الله ٱلرَّؤُوف ٱلَّذِي جَلَّ ثَنَاهُ

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: .

المعنى اللغوي

الرؤوف: صيغة مبالغة من اسم (الفاعل) الرائف، وهو الموصوف بالرأفة.

والرأفة: هي أشد الرحمة وأبلغها^(١)، وأعلى معانيها^(٢)، وألطفها، وأرقها^(٣)، فهي رحمة وزيادة^(٤)، يقال: فلان رحيم، فإذا اشتدَّت رحمته، فهو: رؤوف^(٥).

والرأفة هي: العطف، والشفقة، يقال: رأف به، أي: أشفق عليه من مكروه يحلُّ به، واسترأفه: استعطفه^(٦)، وحقيقتها: إرادة التخفيف بما على المرحوم فيه ثقل^{(٧)(٨)}.

الفرق بين الرأفة والرحمة:

(١) أن الرأفة أعم، وأبلغ من الرحمة، فهي المنزلة الثانية: فإنه يقال: فلان رحيم، فإذا اشتدَّت رحمته فهو رؤوف.

(٢) أن الرأفة هي نعمة ملذة من جميع الوجوه، والرحمة: قد تكون مؤلمة في الحال، ويكون في عقابها لذَّة، فالرأفة: هي مبالغة في رحمة خاصَّة، وهي: دفع المكروه، وإزالة الضرر، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢]، ولم يقل: رحمة، فإن ضرب العصاة على

(١) انظر: «لسان العرب» (١٠/٤)، «شأن الدعاء» (ص ٩١)، و«المعجم الوسيط» (٣٤٤).

(٢) «تفسير الطبري» (١٢/٢).

(٣) ينظر: «النهاية» (٣٣٧)، و«مدارج السالكين» (٥١٨/١)، و«تفسير سورة الحديد» لابن عثيمين (٤٢٨).

(٤) «تفسير سورة النور» لابن عثيمين (٦٥٨/٥).

(٥) «تفسير الأسماء» للزجاج (٦٢).

(٦) انظر: «لسان العرب» (١٠/٤)، و«المعجم الوسيط» (٣٤٤).

(٧) «الأمد الأقصى» (٧١/٢).

(٨) وقال ٱللَّهِ في وصف نبينا محمد ﷺ: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وذلك لأن الرأفة في أعلى مراتب الرحمة، وكان ﷺ في أعلى مراتب الرحمة بأتمته. «تلخيص الأدلة» (٤٧٤/١).

عصيانهم رحمة لهم لا رأفة .

(٣) أن الرحمة: تكون في الكراهة للمصلحة ، والرأفة: لا تكون في الكراهة .

(٤) أن الرأفة عامة لجميع الخلق في الدنيا ، ول بعضهم في الآخرة ، والرحيم: فهي للمؤمنين في الدنيا والآخرة ، وليست لكل الخلق .

(٥) أن الرأفة إذا انسدت على مخلوق لم يلحقه مكروه ، فلذلك يقال لما أصابه بلاء في الدنيا وفي ضمنه خير في الأخرى: إن الله قد رحمه بهذا البلاء ، ويقال لمن أصابه عافية في الدنيا وفي ضمنها خير في الآخرة ، واتصلت له العافية أولاً وآخرًا ، وظاهرًا وباطنًا ، إن الله قد رأف به^(١) .

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الرؤوف الذي لا أرأف منه على الإطلاق سبحانه:

(١) فهو ذو الرأفة الواسعة ، التي لا تضاهيها ، ولا تماثلها ، ولا تساميها أي رأفة ، فهو سبحانه شديد الرحمة ، عظيمها ، بالغ منتهاها ، وأعلى غاياتها .

(٢) وهو الرؤوف سبحانه: الرحيم بجميع عباده ، العطوف عليهم برأفته وألطافه^(٢) ، فما من مخلوق في هذا الوجود ، إلا وهو مرؤوف برأفته تعالى ، قال جل ثناؤه: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] .

(٣) لا تزال آثار رأفته "سارية في الوجود ، مألئة للموجود ، تسحُّ يده من الخيرات في كل اللحظات ، أناء الليل والنهار ، ويوالي النعم والفواضل على العباد ، في السرِّ والجهر"^(٣) .

(٤) ومن كمال رأفته سبحانه: أنه أرأف بنا من كل رائف ، أرأف بنا من آبائنا ، وأمهاتنا ، وأولادنا ، وجميع أهلينا ، بل أرأف بنا من أنفسنا ، فما ظنك برأفته تعالى ، فهي فوق ما يخطر على البال ، أو يدور في الخيال ، أو تحاط بحال .

(٥) ومن رأفته تعالى بعباده: "أن يزودهم عن مراتع الهلكات ، ويمنعهم موارد الشهوات ،

(١) «شأن الدعاء» (٩١) و«تفسير الأسماء» (٦٢) ، و«النهاية» (٣٣٧) ، و«الفروق اللغوية» لأبي هلال العسكري (٢٢١) ، و«تفسير الرازي» (٩٩/٤) ، و«الأسنى» للقرطبي (١٧٣/١) .
(٢) ينظر: «شأن الدعاء» (٩١) ، و«اللسان» (١٠/٤) .
(٣) «تفسير السعدي» (١٠٢٠) .

فمتى أصابهم نصيبهم من كتاب سبق ، أقال عثراتهم ، ونَبَّههم وأيقظهم من سُبات^(١) غمراتهم^(٢) .

٦) ومن رأفته العظيمة التي ليس لها شبيه ولا مثيل ، أنه : لو جمعت رأفته مع رأفات كل الخليقة من أولهم إلى آخرهم ، من إنسهم ، وجنهم ، وبهائمهم ، لكانت كإبرة في البحر العظيم ، لأنها وسعت البرية كلها ، في حياتهم المعاشية ، في كل ومضة ، ولحظة .

٧) ومن رأفته سبحانه بالعباد : أنه أرشدهم لما فيه رضاه ، فبين لهم الطريق (إليه) غاية البيان بالعقل أولاً ، والرسل ثانياً ، والشرائع ثالثاً ، والكتب الحافظة لها رابعاً ، قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧]^(٣) .

٨) ومن كمال رأفته سبحانه : أنه "أظهر براءة المقدوف ، وأثاب"^(٤) مما أصابه من القول المكروه ، كما أظهر سبحانه براءة عائشة رضي الله عنها أم المؤمنين من الإفك المهين ، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٠] .

٩) وهو الرؤوف تعالى : الذي لا يضيع أعمال المؤمنين ، ولا أجورهم (التي من أجلها) : صلاتهم ، قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]^(٥) .

١٠) فهو سبحانه شديد الرأفة بعباده ، فمن رأفته ورحمته بهم : أن يتم عليهم نعمته التي ابتدأهم بها^(٦) .

١١) ومن رأفته تعالى : أنه هو "المتعطف على المذنبين بالتوبة ، وعلى الأولياء بالعصمة"^(٧) .

١٢) ومن رأفته العظيمة بكل الخليقة : أنه سبحانه أسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة مع كفرهم به ، أو تقصيرهم في أمره^(٨) .

(١) السبات : النوم الثقيل . «المصباح المنير» (١٥٤) .

(٢) «شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان (٢/٢٩٦) ، و«الأسنى» (١/١٧٥) .

(٣) «تفسير الشربيني» (١/١٥٦) ، و«تفسير البقاعي» (١/٣٨٦) .

(٤) «انظر : تفسير النسفي» (٧٧٤) .

(٥) ينظر : «السراج المنير» (١/١١٥) ، و«حاشية الصاوي» (١/١٢٣) .

(٦) «تفسير الأسماء الحسنى» لابن سعدي ، جمع وترتيب د . عبيد العبيد (٧١) .

(٧) «شرح الأسماء الحسنى» للرازي (٣٤٢) .

(٨) «نظم الدرر» (١/٣٨٦) .

(١٣) وهو الرؤوف سبحانه: بالذين يعملون السوء حيث لم يعجل عقوبتهم، ولهذا حذرهم نفسه، ولم يهلكهم من غير تحذير، قال تعالى: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] (١).

(١٤) ومن رأفته سبحانه بأوليائه: أنه وفقهم فباعوا أنفسهم، وأرخصوها، وبذلوا طلباً لمرضاته، الذي لا مطلب أعلى منه، ورجاء لثوابه، فهم بذلوا الثمن للمليء الوفي الرؤوف بالعباد، الذي من رأفته ورحمته أن وفقهم لذلك، وقد وعد سبحانه بذلك (٢): ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧] (٣).

(١٥) ومن رأفته سبحانه بعباده: بما يكون في الظاهر من مشقة، وشدة، وهو في الباطن نعمة، ورأفة، ورحمة، فكم من عبد يرثي له الخلق بما به من الضر والفاقة، وسوء الحال، وهو في الحقيقة في نعمة تغبطه عليها الملائكة، وأبناء جنسه عن ذلك في غفلة (٤).

(١٦) ومن رأفته ورحمته سبحانه: أن جعل (العبد) أَوْاباً إليه، متوجعاً من ذنوبه، وبرأفته أوجع قلبه بها، وأحزن نفسه على إتيانها (٥) (٦).

(١٧) ومن كمال رأفته ﷺ: الذي ستر ما رأى من العيوب، ثم عفا عما ستر من الذنوب (٧).

(١٨) ومن رأفته تعالى (لأوليائه وأصفيائه): توفيقهم للقيام بحقوقه، وحقوق عباده، فسهلت لهم الطرق التي ينالون بها الخيرات (٨).

(١) انظر: «تفسير السمرقندي» (٢٦١/١)، و«تفسير الوسيط» للواحيدي (٤٢٨/١).

(٢) فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآبٍ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١].

(٣) «تفسير السعدي» (٩٤)، و«غاية الأمان» (٨٠٩/١).

(٤) «شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان (٢٩٦/٢)، و«موسوعة الأسماء الحسنى» للشرباصي (٣٩٧/١).

(٥) «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (٢٩٥/٢).

(٦) كما قال ﷺ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [١٧] وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّى إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٨].

(٧) «شرح الأسماء» للرازي (٣٤٢).

(٨) «تفسير أسماء الله الحسنى» لابن السعدي (٧١)، جمع د. عبيد العبيد.

(١٩) ولرأفته سبحانه ورحمته: لا يعذب إلا من أبى عليه وشرد^(١)، قال ﷺ: «كلُّكم يدخل الجنة إلا من شرَد^(٢) على الله شراد البعير على أهله»^(٣).

(٢٠) ومن رحمته بعباده: أنه يصونهم عن موجبات عقوبته، وإن عصمته عن الزلة أبلغ في باب الرحمن من غفران المعصية^(٤).

(٢١) ومن رأفته ورحمته: أنه خوَّف العباد، وزجرهم عن الغيِّ والفساد، وحذرهم من الطرق التي تقضي بهم إلى المكروهات^(٥)، حتى يَسْلَمُوا من سوء العقاب والعذاب في يوم المعاد، قال تعالى: ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

(٢٢) وهو الرؤوف سبحانه: الذي خفف الثقل عن عباده في العبادة، فلا يكلفهم ما يشقُّ عليهم، أو يخرج عن وسعهم وطاقاتهم في الدنيا، وبالمغفرة وإسقاط الحقوق في الآخرة، فكم خَفَّفَ تعالى من ثقل، ووضع من إصر، قال عزَّ شأنه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦]^(٦).

(٢٣) ومن كمال رأفته تعالى بخلقه: أنه لا يعاقبهم على تركهم ما لم يأمرهم بفعله، وهو أَرَأف سبحانه من أن يضيق لهم عملاً عملوه لوجهه الكريم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]^(٧).

(٢٤) ومن رأفته ورحمته بأوليائه: أنه تعالى هداهم إليه، وأنه ينقلهم من شرع إلى شرع آخر، وهو أصلح لهم، وأنفع في الدين والدنيا، قال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣]^(٨).

(١) «شرح أسماء الله» لابن بركان (٢/٢٩٦).

(٢) شرَد البعير: إذا نفر وذهب في الأرض، والمعنى: من خرج عن طاعته تعالى وفارق الجماعة. «النهاية» (٤٧٢).

(٣) صحح الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٠٤٣)، وفي «صحيح الجامع» (٤٥٧٠).

(٤) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (٣٩٧/١).

(٥) «تفسير أسماء الله الحسنى» للسعدي، جمع د. عبيد العبيد (٧١).

(٦) انظر: «الأمد الأقصى» (١١٨/٢)، و«أسماء الله الحسنى» د. الرضواني (٦٧٠).

(٧) «تفسير الطبري» (٤١٩/١).

(٨) انظر: «تفسير الرازي» مج (١) (١١٩/٢).

(٢٥) ومن رأفته تعالى: أنه هيأ لخلقه أسباب معاشهم، وفتح عليهم أبواب المنافع، وأوضح لهم مناهج الاستدلال بالآيات التكوينية والتنزيلية، قال ﷺ: ﴿الَّذِينَ تَرَأَى اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥] (١).

جلال الرؤوف

من جلال رأفته تعالى: أن فيها صلاحاً للعباد من جميع الوجوه وفي كل الأحوال: في دينهم، ودنياهم، وآخرتهم، فمنها:

الأول: أن حذرهم، ورغبتهم، ورهبهم، ووعدهم، وأوعدهم، رأفة بهم، ومراعاة لصلاحهم، قال عز شأنه: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٢] (٢).

وفي تحذيرنا نفسه سبحانه رأفة بنا، ورحمة، لئلا يطول علينا الأمد، فتفسد قلوبنا، وليجمع لنا بين الترغيب الموجب للرجاء والعمل الصالح، والترهيب الموجب للخوف، وترك الذنوب (٣).

الثاني: إنزاله الكتاب على رسوله ليخرجنا من الظلمات الجهل، والكفر، إلى النور، والعلم، والإيمان، ﴿هُوَ الَّذِي يُزِيلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ يَبْتَغِي لِيُخْرِجَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٤]، وهذه أعظم النعم، وأجلّ العطايا والمنى، وهذا من رأفته بعباده، ورحمته بأوليائه وأصفيائه (٥).

الثالث: ومن جلالها: أن سخر لنا وسائل النقل، كالجمال والخيول، والحمير قديماً، والسيارات، والطائرات حديثاً، ﴿وَنَحْمِلُ أَنْفَالَكُمْ إِنَّكُمْ لَبَلَدٌ لَّئِنْ تَكُونُوا بِلَيْفِهِ إِلَّا لَبِيقَ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٦] (٦).

(١) «روح المعاني» (٢٨٣/١٠).

(٢) «تفسير أبي مظفر السمعاني» (٣١/١)، و«تفسير البيضاوي» (٢٥٥/١).

(٣) «تفسير السعدي» (١٢٨).

(٤) المصدر السابق (٨٣٨).

(٥) «فقه الأسماء» للبدر (٢٢٣).

(٦) «أسماء الله الحسنى»، د. عمر الأشقر (٢٥٩).

الرابع: أن ما اشتراه من العباد من أنفسهم وأموالهم، إنما هو خالص ملكه، ثم إنه سبحانه يشتري منهم ملكه الخالص، بما لا يُعَدُّ ولا يُحصى، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [البقرة: (١)].

الخامس: ومن جلال رأفته: أنه يجيب دعاء أوليائه، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: (١)]: أي: فحقيق بأن يجيب دعاءنا^(٢)، لأنه هو الرؤوف الرحيم بنا، وبإخواننا.

السادس: ومن جلالها: أنه نصب الحدود الزاجرة عن الجهل، الحاملة على التقوى، فإن الرأفة تقيم المرؤوف به، لأنها ألطف الرحمة، وأبلغها، على أقوم سنن، حتى تحفظ بمسراها في سره ظهور ما يستدعي العفو، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: (٣)].

السابع: ومن جلالها: إمهاله للكافرين، والمكذبين، والعاصين من أن يأخذهم بالعذاب على غرة، وهم لا يشعرون مع القدرة عليهم، ولكنه لرأفته ورحمته لا يعاجلهم بالعقوبة بل يمهلهم، ويعافهم، ويرزقهم، وهم يؤذونه، ويؤذون أولياءه، ومع هذا يفتح عليهم أبواب التوبة^(٤)، قال سبحانه: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: (٦)] أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١١﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: (١٧)].

الثامن: ومن جلال الرؤوف سبحانه: أنه لا يضيع عنده عمل عامل، "فهو سبحانه أرحم بعباده من أن يضيع لهم طاعة أطاعوه بها، فلا يشيهم عليها، وأرأف بهم من أن يؤاخذهم بترك ما لم يفرضه عليهم، قال عز شأنه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: (١٤٣)]"^(٥).

التاسع: ومن جلاله: أنه سبحانه لم يُحْمَلْ عباده ما لا يُطيقون، بل حمّلهم أقل مما يطيقون بدرجات كثيرة، ومع ذلك غلظ فرائضه في حالة شدة القوة، وخففها في حال الضعف، ونقصان

(١) «تفسير البروسوي» (١٦٠/١).

(٢) «البيضاوي» (٣٩١/١).

(٣) «نظم الدرر» (٢٤٦/٥).

(٤) «تفسير السعدي» (٤٤١).

(٥) «تفسير الطبري» (٤١٩/١).

ثم عليك أن ترأف بنفسك كما رأف الله سبحانه بها ، فلا تحملها فوق وسعها ، ولا ما هو خارج عن مقتضى كرم طبعها ، والرأفة بها أن تسلك بها أوضح المسالك ، وتقيها موارد المهالك ، وكذلك بغيرك ، فبهذا تكون ذا قلب رؤوف ، وتكون رأف الله عليك في الدارين تطوف^(١) .

وإذا كان سبحانه الرؤوف مع جميع عباده صالحهم ، وطالحهم ، فليكن لك نصيب في العبودية بذلك : أن تكون عطوفاً مع كل الخلق برهم وفاجرهم ، وأجل العطف عليهم وألطفه : مناصحتهم ، وموعظتهم ، بما فيه السلامة والنجاة في آخرتهم ، وينبغي أن تكون شفوفاً على أهل البلايا والرزايا ، وأن يكون لك النصيب الأكبر مع أهلك ، وأقربائك ، ومن هو أقرب إليك ، وكذلك : التخفيف والتيسير على خدمك ، ومن هو تحتك ، وبذلك تكون قد عبت ربك بهذا الاسم الجليل حق العبودية ، وسيعاملك على مقتضى ذلك في الدنيا ، وفي الحياة الآخوية ، فإن "أحب الخلق إلى الله تعالى من اتصف بمقتضيات أسمائه ، وصفاته"^(٢) .

وعلى قدر ارتقائك في التعبّد بمقتضى أسمائه على سبيل سنة رسوله ﷺ يكون قربك منه ، وعلى قدر قربك منه تكون عنايته بك ، وعطفه وألطفه ورحمته ، ولرأفته ورحمته : لا يعذب إلا من أبى عليه وشرد^(٣) .



(١) «الأسنى» للقرطبي (١/١٧٥)، و«شرح أسماء الله الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (٢/٢٩٦).

(٢) «الوابل الصيب» (٥٣).

(٣) «شرح أسماء الله الحسنى» للإشبيلي (٢/٢٩٦).

٤٦- الله ﷻ التَّوَابُّ ﷻ سبحانه وتعالى

قال تعالى: ﴿وَبَّ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَابُّ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة] .

المعنى اللغوي

التَّوَابُّ: من صيغ المبالغة، على وزن (فَعَّال) والتوبة الرجوع عن الشيء إلى غيره، يقال: تاب، وآب، وأناب، فهي: الرجوع الجميل عن الأمر القبيح، فالتوبة: الرجوع عن الذنب، وتركه على أجمل الوجوه، وهو أبلغ وجوه الاعتذار^(١)، ومنه الحديث: «الندم توبة»^(٢).

ويأتي لازماً، ويكون متعدياً، يقال: تاب الله على العبد: بمعنى وفقه للتوبة فتاب العبد، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَابُّ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨]^(٣).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو التواب لكل أبواب من العباد:

(١) الذي لم يزل يتوب على التائبين، ويغفر ذنوب المنيين متى آبوا إليه في أي حال وحين .
(٢) فهو سبحانه الوهاب لعباده الإنابة إلى طاعته، الموفق من أحب توفيقه منهم، لما يرضيه عنه سبحانه^(٤).

(٣) وهو تعالى التواب: الرجاء على عباده بالعفو والصفح بعد الذنب: إذا تابوا، وبالإحسان والإنعام بعد المنع إذا رجعوا^(٥).

(١) «المفردات» (١٦٩)، «عمدة الحفاظ» (٢٧٠/١)، «لسان العرب» (٢٣٣/١)، «تفسير ابن جرير» (١٤٣/٣)، و«الطبراني» (٢٦٠/١)، و«تلخيص الأدلة» (٤٢٢/١).

(٢) «صحيح ابن ماجه» (٤٢٥٢).

(٣) «شأن الدعاء» (٩٠).

(٤) من كلام قتادة رحمه الله، كما رواه الطبري في تفسيره (٤١/١١)، وحسن إسناده د. محمد النجدي في «المنهج الأسنى» (٣٢١).

(٥) «تفسير السعدي» (٧٧).

(٤) وهو الذي ييسر للمذنبين أسباب التوبة ، ويوفقهم لها ، ويسوق إليهم ما ينبتهم عن رقدة الغفلة ، ويطلعهم على وخامة عواقب الزلة^(١).

(٥) وهو المعيد سبحانه إلى عبده فضل رحمته ، إذا هو رجع إليه وإلى طاعته ، وندم على معصيته ، ولا يحبط بما قدم العبد التائب من الخير ، ولا يمنعه ما وعد المطيعين من الإحسان^(٢).

(٦) وهو التوب: المخفف على أوليائه ما فوق الطاقة ، الميسر لهم أسباب المشقة في الطاعة^(٣) ، قال سبحانه: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصَوْهُ فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل: ٢٠]^(٤).

(٧) وهو الذي يرجع بالإنعام على كل مذنب حل عقد إصراره ، ورجع إلى التزام الطاعة^(٥).

(٨) ومن كمال توبته تعالى: أنه "يتوب إليه فاعل القبيح ، فيغفر له حتى كأنه لم يكن قط من أهله"^(٦) ، حتى على من أساء إليه تعالى ، فيوفقه للتوبة ويغفر له على ما فعله في حقه .

(٩) وهو التوب: الرجاء لعباده بالخيرات ، (والمسرات) ، وحلول البركات ، ومغفرة الذنوب ، وستر العيوب .

(١٠) ومن كمال توبته سبحانه بعباده: أنهم إذا أذنبوا فتح لهم أبواب الرحمة ، وأوزع قلوبهم الإنابة إليه ، والتذلل بين يديه ، ثم يتوب عليهم بقبول ما وفقهم له ، فله الحمد والشكر على ذلك^(٧) ، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧] .

(١١) وهو الذي يهب أسباب التوبة ، ويشفق على عباده من السيئات والخطوب ، ويعينهم على مغالبة الشهوات ، والشبهات ، والكروب ، ويصلي عليهم هو وملائكته الأبرار ، ليخرجهم من ظلمات السجى ، إلى نور الهدى ، ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣] .

(١) «تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة» للبيضاوي (٥٦/٢).

(٢) «المنهاج» (٢٠٦/١) ، و«الأسماء والصفات» (١٩٥/١).

(٣) كما أسقط سبحانه فرض قيام الليل عن النبي ﷺ وصحبه .

(٤) يقول ابن جرير في تفسير قوله تعالى: ﴿فَاقْرَءُوا مَا نَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠]: «هذا تخفيف من الله ﷻ عن عباده فرضه الذي فرضه عليهم بقوله: ﴿نَزَّلْنَا الْقُرْآنَ﴾ قُرْآنًا لَّا قِيلَ لَآءُ [المزمل: ١ - ٢] ، «التفسير» (٣٩٩/٧).

(٥) «تحفة الأبرار» (٥٦/٢).

(٦) «عدة الصابرين» (٢٨٦).

(٧) انظر: «تفسير السعدي» (١٧٥).

(١٢) وهو التواب سبحانه: "(العائد) بأصناف إحسانه على (العباد) وذلك: بأن يوفقهم بسبب التوبة بعد العصيان ، وبالطاعة بعد الخذلان ، ويعطيهم النعم بعد الحرمان" (١).

(١٣) ومن تمام توبته بعباده: أنه يلطف بهم في أحوالهم ، وما شرعه لهم ، حتى يتمكنوا من الوقوف ما حده سبحانه ، والاكتفاف بما أحله ، فتقل ذنوبهم بسبب ما يسر الله عنهم ، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦] (٢).

(١٤) وهو التواب سبحانه: الذي "شرع (لعباده) التوبة الهادمة للذنوب ، من الطاعات والقربات ، فوفقهم لفعلها ، ثم قبلها منهم ، وهو الذي أمرهم بها ، وخلقها لهم ، وأعطاهم إياها ، ورتب عليها جزاءها ، فمنه السبب ، ومنه الجزاء ، ومنه التوفيق ، ومنه العطاء أولاً وآخرًا" (٣).

(١٥) ومن توبته سبحانه العلا: أنه يتوب على من يشاء من الكافرين المحاربين للمؤمنين ، بأن يوفقهم للدخول في الإسلام ، ويزينه في قلوبهم ، ويكره إليهم الكفر ، والفسق ، والعصيان ، ﴿فَنَتَلُوهُمْ يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ١١٠] ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم [التوبة: ١٤-١٥] (٤).

(١٦) وهو سبحانه التواب: "الذي يخفف (عن العباد) بعد التشديد ، ويعفو عنهم بعد الوعيد ، ويكشف عنهم أنواع البلاء ، ويفيض عليهم أقسام الآلاء .

(١٧) ومن كمال توبته تعالى: أنه "يدعو (عباده) المسيئين إلى التوبة ، وقد حاربوه وعذبوا أوليائه (بأشد العذاب) ، بأن أحرقوهم بالنار ، ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمُ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠] ، قال بعض السلف: انظروا إلى هذا الكرم والجود ، عذبوا أوليائه ، وحرقوهم بالنار ، ثم هو يدعوهم إلى التوبة" (٥).

(١٨) وهو التواب تعالى: "ناسخ المكروه بالمحسوب ، وقابل التوبة من الذنوب ، وكاشف الضر عن المكروب" (٦).

(١٩) فهو سبحانه عظيم التوبة ، واسع غايتها ، بالغ نهايتها ، مهما كانت المعصية مداها ، كما

(١) «شرح أسماء الله الحسنى» للبيضاوي (٣٢١).

(٢) انظر: «تفسير السعدي» (١٧٥).

(٣) «طريق الهجرتين» (٥١٨).

(٤) انظر: «تفسير السعدي» (٣٣١) بتصرف يسير.

(٥) «طريق الهجرتين» (٥١٩) ، و«تفسير ابن كثير» (٦٦٩/٤).

(٦) «شرح أسماء الله» للرازي (٣٣٧).

وصف سبحانه نفسه بالتَّوَّاب ، بصيغة المبالغة ، وذلك :

(أ) لكثرة من يتوب عليه من التائبين من عباده ، الذين لا يحصيهم إلا الله ﷻ .

(ب) وكثرة تكرير الفعل منهم دفعةً بعد دفعة ، وواحدًا بعد واحدٍ ، على طول الزمان ، وقبوله ﷻ ممن يشاء أن يقبل منه ، فكان توابًا: لكثرة قبوله توبة عباده ، ولكثرة من يتوب إليه ، وتردد هذا الفعل ، وتكراره في الشخص الواحد حتى يقضي عمره ، قال عزَّ شأنه: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ﴾ [الشورى: ٢٥] .

ولما كانت المعاصي متكررة من عباده ، جاء بصيغة المبالغة ، ليقابل الخطايا الكبيرة ، بالتوبة الواسعة ، فهو ﷻ يتوب على عبده ، ويقبل توبته كلما تكررت التوبة ، تكرر القبول ، إلى ما لا نهاية ، قال عزَّ شأنه: ﴿مَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٣٩] ^(١) .

(٢٠) فهو تعالى سمى نفسه توابًا: لأنه خالق التوبة في قلوب عباده ، وميسرًا أسبابها لهم ، والراجع بهم من الطريق التي يكره ، إلى الطريق التي يرضى ^(٢) .

(٢١) فهو سبحانه يريد أن يتوب على عباده المؤمنين توبة: تلمَّ شعثهم ، وتجمع متفرقهم ، وتقرب بعيدهم ، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧] .

(٢٢) فتوبة الله تعالى على العبد (هي) أجل الغايات ، وأعلى النهايات ، فإن الله سبحانه جعلها نهاية خواص عباده ، وأمتن عليهم بها ، حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧] ^(٣) .

وتوبته سبحانه لعباده نوعان :

إن توبة العبد إلى الله ﷻ: محفوفة بتوبتين من الله سبحانه: توبة من الله عليه قبلها ، وتوبة منه بعدها ، فتوبته بين توبتين من ربه تعالى سابقة ، ولاحقة ، فإنه تاب عليه أولاً: إذناً ، وتمكيناً ، وتوفيقاً ، وإلهاماً ، فتاب بها العبد ، فأقبل بقلبه على التوبة والإنابة والرجوع ، فتاب الله عليه ثانياً: قبولاً ، وإنابة ، ورضاً ، وعفوًا ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة] .

(١) «اشتقاق أسماء الله» (٦٣) ، «شأن الدعاء» (٩٠) ، «الأسنى» (٤١٠/١ - ٤١١) ، «تفسير سورة البقرة» لابن عثيمين (١٨٨/١) .

(٢) «الأسنى» (٤١٠/١) .

(٣) «تفسير السعدي» (٣٥٤) .

فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم ، وأنها هي التي جعلتهم تائبين ، فكانت سبباً مقتضياً لتوبتهم ، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله عليهم ، فله الفضل في التوبة والكرم ، أولاً وأخيراً ، لا إله إلا هو .

وهذا يدلُّ على عنايته سبحانه وبرِّه ولطفه بعبده التائب^(١) .

فلذلك إن توبة الله سبحانه على عبده ، تتقدّمها توبة منه عليه ، حيث أذن له ووفقه ، وحرّك دواعي قلبه لذلك ، حتى قام بالتوبة توفيقاً من الله تعالى ، ثم لما تاب بالفعل تاب الله عليه ، فقبل توبته ، وعفا عن خطاياه ، وذنوبه ، وكل الأعمال الصالحة بهذه المثابة ، فالله هو الذي ألهمها للعبد ، وحرّك دواعيه لفعلها ، وهياً له أسبابها ، وصرف عنه موانعها ، والله تعالى هو الذي يتقبلها منه ، ويثيبه عليها ، أفضل الثواب .

فعلى العبد أن يعلم أن الله سبحانه هو الأول ، والآخر ، وأنه المبتدئ بالإحسان والنعم ، المتفضلُّ بالجود والكرم ، بالأسباب والمسببات ، بالوسائل والمقاصد ، فهو عزّ شأنه الرّجاء لعباده بالخيرات ، وحلول البركات ، ومغفرة الذنوب ، وستر العيوب^(٢) .

جلال التواب

الأول: من جلال التواب ﷻ: أنه يفرح بتوبة عبده إليه ، أشدَّ ما يكون من الفرح ، وهو تعالى غني عنه ، من كل وجه ، قال ﷻ: «للهُ أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم ، كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ، فأتى شجرة فاضطجع في ظلّها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده ، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح»^(٣) .

"فهذه فرحة إحسان ، وبر ، ولطف"^(٤) ، لأنه تعالى يحب التوابين ، والتوبة من أحب الطاعات إليه سبحانه^(٥) .

(١) «مدارج السالكين» (٣٤٠/١) ، مفتاد دار السعادة (٢٧٣/٢) ، و«طريق الهجرتين» (٣٨٧) .

(٢) «فتح الرحيم الملك» (٢٨ - ٢٩) ، و«توضيح الكافية» (١٢٦) .

(٣) «مسلم» (٢٧٤٤) ، (٢٧٤٧) .

(٤) «مدارج السالكين» (١٩٢/١) .

(٥) «عدة الصابرين» (٢٧١) .

فانظر يا عبد الله إلى عظم محبته تعالى ورأفته بنا، في توبة أحدنا إليه أنه "يلهم العبد التوبة، ويوفقه لها، ويعينه عليها، ويحبه ويفرح بتوبته أعظم فرح يقدر أو يخطر على بال، أو يدور في (الخيال)"^(١)، وهو الغني عنا، الذي لا تنفعه توبتنا، ولا تضره معصيتنا، بل بمحض فضله وجوده علينا.

فحريُّ بنا أن نحَبَّ الرَّبَّ ﷻ الحبَّ كُلَّهُ، وأن يُعَظِمَ بما هو أهله، وأن يثني عليه بما هو يستحقه، وأن نرجع إليه بالتوبة بعد اجتراحنا المعصية.

الثاني: ومن جلاله: أنه تعالى هياً الأسباب، ويسر أسباب التوبة للعباد، لمن تاب إليه مرةً أخرى وأتاب، بما يظهر لهم من آياته، ويسوق إليهم من تنبيهاته، ويطلعهم عليه من تخويفاته وتحذيراته، حتى إذا اطلعوا بتعريفه على غوائل الذنوب، استشعروا الخوف بتخويفه، فرجعوا إلى التوبة، فرجع إليهم فضل الله بالقبول^(٢).

الثالث: ومن جلال التوب سبحانه: "أن العبد لو أفنى عمره كله في المعاصي، ثم في ساعة واحدة قبل أن يغرغر تاب، وأتاب، غفر له كل ذلك، [بل وأنه:] يبدل سيئاته حسنات"^(٣). فانظر رعاك الله إلى سمو وجلال التوب سبحانه.

الرابع: ومن جلال توبته: أنه سبحانه لم يؤيس أحداً كائناً من كان من قبول توبته، فالكفار، والفجار، والطغاة، مهما تجرؤوا بعظائم الذنوب، فإنه تعالى يدعوهم إلى الأوبة، ويبشرهم بغسل الحوبة.

فالنصارى ادعوا أنَّ الله تعالى ثالث ثلاثة، وأن عيسى ﷺ ابن الله، وغير ذلك، وهو تعالى مع ذلك: يدعوهم إلى بابه، ليدخلهم بحبوحه داره، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤].

وفرعون الذي طغى، وبغى، وعنى، يتلطف الله سبحانه في قبول التوبة إليه، بأحسن الكلم، وأعذبه في الدعوة، فيقول تعالى لموسى وهارون ﷺ: ﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿[طه: ٤٤]، أي: "قولاً سهلاً، لطيفاً، برفق، ولين، وأدب،

(١) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» (١٤/٤)، و«طريق الهجرتين» (٣٨٧، ٥١٨)، و«شفاء العليل» (١١٤/٣).

(٢) انظر: «المقصد الأسنى» (١٢٣).

(٣) «فتح الرحيم الملك» (٧٥).

في اللفظ من دون فحش ، ولا صلف ، ولا غلظة في المقال ، أو فظاظة في الأفعال" (١) .

فانظر إلى جلال التواب سبحانه ، مع أكفر أهل الأرض من أعدائه .

الخامس : ومن جلاله عز شأنه : "أن العبد يشرد عنه ، فيتجراً على المحرمات ، ويقصر في الواجبات ، والله يستره ، ويحلم عنه ، ويمده بالنعم ، ولا يقطع عنه منها شيئاً ، ثم يُقَيِّضُ له من الأسباب والتذكيرات ، والمواعظ ، والإرشادات ، ما يجلبه إليه ، فيتوب إليه ، وينيب ، فيغفر له تلك الجرائم ، ويمحو عنه ما أسلفه من الذنوب العظام ، ويعيد عليه وُدّه ، وحبّه" (٢) .

السادس : ومن جلال توبته سبحانه : أنه "قابل الدعاء بالعطاء ، والاعتذار بالاغتفار ، والإنابة بالإجابة ، والتوبة بغفران الحوبة ، وإذا تاب (العبد) إلى الله تعالى بسؤاله ، تاب الله عليه بنواله" (٣) .

فسبحانه ما أعظمه فكم تاب على من يشاء من العباد بغير مسألة ، ولا دعاء .

الثمرات

إن هذا الاسم الكريم يورث المؤمن محبة الله تعالى ، والحياء منه ، والإجلال له ، وعدم اليأس من روحه ، لما يرى من آثار كمال أسمائه ، وصفاته في خلقه ، من كثرة ذنوب العبد له ، ثم يسبغ عليه من آلائه ونعمه ، والتوفيق إلى التوبة منها قبل موته ، فحري بالعبد حين يرى ذلك ، أن يقبل على ربه بالتوبة النصوح في حاله ، ولحظته .

"وأنه كلما أحدث ذنباً ، أحدث له توبة ، ولولا علمه بخالقه وثقته به لما أحدث لكل ذنب توبة" (٤) .

"فالتوبة من أحبّ الطاعات إلى الله تعالى ، ويكفي في محبتها شدة فرحه بها سبحانه (كما تقدم) ، فهي أصل الطاعات ، وأجلها ، وأساسها ، وإن من زعم أن أحداً من الناس مستغني عنها ولا حاجة به إليها : فقد جهل حقّ الربوبية ، ومرتبة العبودية" (٥) .

(١) «تفسير السعدي» (٥٠٦) .

(٢) «فتح الرحيم» (٤٢) .

(٣) «شرح الأسماء» للرازي (٣٣٨) .

(٤) «منهج ابن القيم في شرح أسماء الله الحسنى» (٤٣٨) .

(٥) «شفاء العليل» (٧٢٦/٢ - ٧٢٩) .

ف"منزل التوبة أول المنازل ، وأوسطها ، وآخرها ، فلا يفارقه العبد السالك ، ولا يزال به حتى الممات ، وإن ارتحل إلى منزل آخر ، ارتحل به ، واستصحبه معه ، ونزل به ، فالتوبة هي بداية العبد ، ونهايته ، وحاجته إليها في النهاية ضرورية ، كما أن حاجته إليها في البداية كذلك ، قال عز شأنه: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَكُمْ تَقْلُحُوتٌ﴾ [النور] .

وهذه الآية في سورة مدنية ، خاطب الله بها أهل الإيمان ، وخيار خلقه أن يتوبوا إليه ، بعد إيمانهم وصبرهم ، وهجرتهم ، وجهادهم ، ثم علق سبحانه الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه ، وأتى بأداة (لعل) المشعرة بالترجي ، إيذاناً بأنكم إذا تبتم ، كنتم على رجاء الفلاح ، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون ، جعلنا الله منهم .

وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «يا أيها الناس توبوا إلى الله تعالى فإنني والله لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»^(١) (٢) .

فحريٌّ باللبيب أن يمتنع عن المعصية ، كي لا يلزم عليه التوبة ، ولو تاب بعد المعصية ، فعليه أن يواظب عليها حتى إذا مات ، يموت على التوبة ، لا على الحوبة ، وعليه أن يقبل معاذير المجرمين ، فإنه من سجية الصالحين من أهل الدين .

فإذا كان الله ﷻ يقبل التوبة عن عباده بعد اجترائهم عليه (وهو العظيم الجليل) ، فحريٌّ بالعبد أن يقبل معاذير المجرمين ممن أساء إليه ، وندم من جرأته عليه ، ولو مرة بعد أخرى ، فبذلك يقوى رجاء توبة الله تعالى عليك ، فحثّ المسيء على التوبة ، وحرّضه على الأوبة^(٣) ، فإن الجزاء من جنسه .

واعلم رحماني الله تعالى وإياك أن "التوبة هروب من المعصية إلى الطاعة ، ومن السيئة إلى الحسنة ، ومن وحشة العصيان ، إلى الأنس بالرحمن ، إنها فرار من الخالق إلى أعتابه ، وهروب من الجبار إلى رحابه ، وعياذ برضاه من سخطه ، وبمعافاته من عقوبته ، وبه منه ، لا يحصي [أحد] ثناءً عليه ، لا ملجأ منه إلا إليه ، ولا مفر عنه إلى سواه ، ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠] ، فالتوبة ملاذ مكين ، وملجأ حصين"^(٤) ، لا يستغني عنه أحد من العالمين .

(١) «مسلم» (٤٢) .

(٢) «مدارج السالكين» (١٧٨/١) .

(٣) انظر: «شجرة المعارف» ، للغز بن عبد السلام (٩١) ، و«شرح أسماء الله الحسنى» للبيضاوي (٣٢٢) ، و«المقصد الأسنى» (١٢٣) .

(٤) «الله أهل الثناء والمجد» (٦٢) .

٤٧- الله ﷻ الحليم ﷻ عز شأنه

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة].

المعنى اللغوي

الحليم: من أبنية المبالغة، على وزن (فعليل)، وجاء هذا الاسم الكريم على مثال (فعليل) قرآنًا وسنةً للمبالغة^(١)، جاء بصيغة المبالغة: لكثرة حلمه تعالى على جميع عباده، الذي لا يحصيهم إلا هو عز شأنه، وكذلك: لكثرة حلمه على أفرادهم وآحادهم، مما يقتضي غضبه، وسخطه من سوء أفعالهم، وإراداتهم "والحلم بكسر الراء: ترك العجلة، وهو خلاف الطيش، وهو: ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب"^(٢)، وهو يدلُّ على الأناة والتمهل، ومعالجة الأمور بصبر، وعلم، وحكمة^(٣)، وربنا الحليم ﷻ كذلك.

والفرق بين الحليم، والعفو: "أن الحلم هو تأخير العقوبة عن مستحقها، والعفو: ترك العقوبة، فبحلمه ﷻ تتأخر العقوبات (عن مستحقها) لعل الناس يتوبون إلى الله سبحانه"^(٤).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الحليم: الذي لا أحلم ولا أصبر منه سبحانه، الذي وسع حلمه أهل السموات والأرض، فهو تعالى:

(١) له الحلم الكامل، الذي وسع حلمه أهل الكفر والفسوق والعصيان، ومنع عقوبته أن تحل بأهل الظلم عاجلاً، فهو يمهّلهم، ليتوبوا، ويذكرهم لينبوا، ولا يمهّلهم إذا أصرّوا، واستمرّوا في الطغيان^(٥).

(١) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن بريجان (٢/٢٤٠).

(٢) «المفردات» (٢٥٣).

(٣) «لسان العرب» (١٤٦/١٢)، «تفسير أسماء الله» (٤٥).

(٤) «تفسير سورة فاطر» لابن عثيمين (١٥٨/٨).

(٥) «الحق الواضح» (٥٥)، و«الكافية» (١٢١)، و«السراج المنير» (٢٩٧/١) بتصرف يسير.

(٢) وهو سبحانه ذو الصفح والأناة، الذي لا يستفزه غضب ولا طغيان طاغ، ولا يستخفه جهل جاهل، ولا عصيان عاصي^(١)، فهو سبحانه لا يستفزه إصرار العاصين، ولا يحمله على سرعة الانتقام انهماك المعرضين^(٢)، مع كمال القدرة عليهم في أي أوانٍ وحين.

(٣) ومن حلمه الواسع على عباده: أنَّ العبد يسرف على نفسه، والله تعالى قد أرخى عليه حلمه، فإذا تاب العبد وأناب قبل منه وصيَّره، فكأنه ما جرى منه جرم، ولم يصدر عنه عيب^(٣).

(٤) ومن كمال حلمه تعالى: أنه يدرُّ نعمه الظاهرة، والباطنة على العاصين، كما يدرُّ نعمه على الطائعين، فهو سبحانه "لا يحبس أنعمته وأفضاله عن عباده لأجل ذنوبهم ولكنه يرزق العاصي كما يرزق المطيع، ويبقيه وهو منهمك في معاصيه، كما يبقي البر التقي.

وقد يقيه الآفات والبلايا، وهو غافل لا يذكره فضلاً عن أن يدعوه، كما يقيه الناسك الذي يسأله، وربما شغلته العبادة عن المسألة"^(٤) فمن مثلك يا الله؟

(٥) وهو الذي يمهل عباده الطائعين، ليزدادوا من الطاعة والثواب، ويمهل العاصين لعلهم يرجعوا إلى الحق والصواب، ولو عجل لعباده الجزاء أولاً بأول، ما نجى أحدهم من العقاب، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ ذَنْبٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

(٦) ومن كمال حلمه سبحانه: "أنه يحلم حتى يظن الجاهل أنه ليس يعلم، ويمهل حتى يتوهم الغافل أنه يهمل"^(٥).

(٧) ومن حلمه سبحانه العالي: أنه "ينعم على العاصين حتى كأنهم بالعصيان يرضونه، ويقبول الزور والبهتان يسرونه"^(٦).

(٨) ومن سعة حلمه: أنه تعالى لا يعاجل بالعقوبة والانتقام على أهل الظلم والطغيان،

(١) «شأن الدعاء» (٦٣)، و«لوامع البينات» (٢٥٨).

(٢) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (١٨٠/١).

(٣) «فتح الرحيم الملك» (٤٣)، و«تيسير الكريم المنان» (١٨٦).

(٤) «المنهاج» (٢٠٠/١).

(٥) «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (٢٤٤/٢)، و«تفسير البروسوي» (٣٣٦/٤).

(٦) «شرح الأسماء الحسنى» للإشبيلي (٢٤٤/٢).

ومع ذلك: فلا يحبس عنهم بذنوبهم الخير والفضل والإنعام، بل يدرها عليهم في كل حال، ووقت وآن.

(٩) ومن حلمه الواسع سبحانه: أنه لولا حلمه عن الجناة، ومغفرته للعصاة، لما استقرت السموات والأرض في أماكنهما، وتأمل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر].

(١٠) ومن تمام حلمه سبحانه الذي ليس له حد ولا منتهى: أنه يرى مخالفة العباد للأوامر، الظاهر منها والباطن، ويعلم طغيان الظالم منهم والفاجر، وما يخفون من السرائر، مع القدرة على الاستيفاء وعدم خوف العواقب^(١).

ومع ذلك: فهو يستر العيوب، والخطوب، صفوح لمن تاب منهم من الذنوب، قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، ما لم تغرغر الروح في الحلقوم، أو تشرق الشمس من الغروب.

فسبحانه من رب حليم ما أحلمه، وما أكمله، وما أعظمه.

(١١) ومن حلمه تعالى الجميل: "أنه لا يعاجل بالعقوبة على ذنب من الذنوب وإن عظم، بل يمهّل كثيراً طويلاً، ليتذكر العبد الإحسان مع العصيان، فيتوب"^(٢) قبل فوات الأوان.

(١٢) ومن كمال حلمه بالعاصين: أنه تعالى لا يعاجلهم بالعقوبة مع قدرته عليهم، وكونهم بين يديه، بل يمهّلهم ويصرف لهم الآيات لعلهم إليه يرجعون وإليه ينيبون، فإذا علم سبحانه أنه لا خير فيهم، ولا تغني فيهم الآيات، ولا تفيد فيهم المثالات، أنزل بهم عقابه، وحرّمهم جزيل ثوابه^(٣).



(١) الأمد الأقصى (١٤٥/٢)، و«حاشية شرح أسماء الله الحسنى وفوائدها» (٦٣) بتصرف.

(٢) «نظم الدرر» (٢٢/٨).

(٣) انظر: «تفسير السعدي» (١٠١، ١١٣).

جلال الحليم

الأول: من جلاله: أنه تعالى لا أحد أحلم ولا أصبر منه أبداً ، وذلك: أنه يؤخر العقوبة في الدنيا عن الكفرة والفجرة ، وأهل العصيان كما هو معلوم ، في كل زمان ، ومكان مشهود ، ومع ذلك أنهم معافون ، في نعم الله يتقلبون ، قال ﷺ: «ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله تعالى ، إنهم يجعلون له نداءً ، ويجعلون له ولداً ، وهو مع ذلك يرزقهم ويعافيههم ويعطيهم»^(١).

فانظر رعاك الله إلى جلال حلم الله تعالى ، فهو ملك الملوك والأملاك ، وأعظم العظماء ، ومع ذلك: "العباد يبارزون به بالعظائم ، ويتغضونه بما يغضبه من المعاصي والذنوب العظام ، وهم مضطرون إليه في كل الأحوال ، وهو سبحانه يتحبب إليهم بالنعم ، ويصرف عنهم النقم ، كأنهم لم يعصوه ، ويعافيههم ويرزقهم ، كأنهم لم يزالوا يشكرونه ، مع كمال غناه تعالى عنهم ، فيحلم عن زلاتهم ، ويستترهم مع كثرة هفواتهم ، ويتمادون في الطغيان ، والله تعالى لا يزيده ذلك إلا حلماً وكرماً"^(٢) بالأنام.

الثاني: ومن جلاله: أن عرّف عبده سعة حلمه ، وكرمه ، وإمهاله ، في ستره عليه ، وأنه لو شاء لعاجله على ذنبه ، ولهتكه بين عبادته ، فلم يطب له معهم عيش أبداً ، ولكن جلّله بستره ، وقبض له من يحفظه ، وهو في حالته تلك ، بل كان شاهداً وهو يبادره بالمعاصي والآثام ، ومع ذلك يحرسه بعينه التي لا تنام^(٣) ، فأى حلم أجل وأسمى من هذا الحلم ؟.

الثالث: ومن جلال الحليم سبحانه: أنه "يصبر على عبده ، ويمهله ، ويستصلحه ، ويرفق به ، ويحلم عنه ، حتى إذا لم يبق فيه موضع للضيعة ، ولا يصلح على الإمهال ، والرفق ، والحلم ، ومن باب البلاء ، والنقم ، أخذه أخذ عزيز مقتدر ، بعد غاية الإعذار إليه ، وبذل النصيحة له ، ودعائه إليه من كل باب"^(٤).

الرابع: ومن جلال حلم ربنا جل ثناؤه: أنه "لا تحمله العجلة على المسارعة إلى الفعل قبل أوانه ، بل ينزل الأمور بقدر معلوم ، ويجريها على سنن محدودة (وأحوال موقوتة) ، لا يؤخرها

(١) «مسلم» (٢٨٠٤).

(٢) انظر «فتح الرحيم» (٤٣)، و«توضيح الكافية» (١٢١) بتصرف يسير .

(٣) «مفتاح دار السعادة» (٢٧١/٢).

(٤) «عدة الصابرين» (٢٨٢).

عن آجالها المقدرة، ولا يقدمها على أوقاتها (المحددة)، بل يودع كل شيء في أوانه، على الوجه الذي يجب أن يكون، وكما ينبغي (أن يكون)، وكل ذلك من غير مقاساة داع على مضادة الإرادة^(١).

الخامس: ومن جلاله: أنه تعالى "إذا قابلته بالجفاء، قابلك بالعطية، والوفاء، وإذا أعرضت عنه بالعصيان، أقبل إليك بالغفران"^(٢) مع غناه تعالى عنك في كل الأحوال.

الثمرات

ينبغي للمؤمن أن يتعبد ربه الأعلى بمقتضى هذا الاسم الكريم، فإنه تعالى يحب من تعبد بأسمائه الحسنی، قال ﷺ: «إن الله يحب الغني الحليم، المتعفف...»^(٣).

فمن عبوديته له: أن يكون حليماً، فإنه تعالى مع كمال قدرته، وقوته، وعظمته، حليم على من عصاه، فمن باب أولى بالعبد الضعيف العاجز.

"فمن الواجب على من عرف أنه ربه حليم على من عصاه، أن يحلم هو على من خالف أمره، فذاك به أولى، حتى يكون حليماً، فينال من هذا الوصف، بمقدار ما يكسر سورة غضبه، ويرفع الانتقام عمن أساء إليه، بل يتعوذ الصفح حتى يعود الحلم له سجيّة، وكما تحب أن يحلم عنك مالكك، فاحلم أنت عمن تملك، لأنك متعبد بالحلم، مثاب عليه، قال تعالى: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَ سَيِّئَةٍ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠]^(٤).

وأحذر يا أخي ونفسي الغرة بحلمه، والتمادي في عصيانه، والاتكال على عفوه، مع الإصرار على خلافه، فإنه وإن كان الحليم الكريم، فإن أخذه أليم، وبطشه شديد ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]، وأحق من استحيى من مواجهته بما يكره الحليم، وأحق من بؤدر إلى طاعته العفو الغفور^(٥).

واعلم رحماني الله وإياك أن الحلم يكون سجيّة، ويكون بالتعلم والاكتساب، والروية، فمن

(١) «المقصد الأسنى» (١٣٣).

(٢) «شرح أسماء الله» للرازي (٣٥٤).

(٣) «صحيح الترغيب والترهيب» (٨١٩).

(٤) «الأسنى» (٩٧/١).

(٥) «شرح الأسماء» للإشبيلي (٢٤٤/٢).

الأول: قوله ﷺ لأشجّ عبد القيس: «إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الحلم، والأناة»^(١). ومن الثاني: قوله ﷺ: «إِنَّمَا الْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَإِنَّمَا الْحِلْمُ بِالتَّحَلُّمِ، وَمَنْ يَتَحَرَّ الْخَيْرَ يُعْطَهُ، وَمَنْ يَتَوَقَّ الشَّرَّ يَوْقَهُ»^(٢).

ومن حسن العبودية لهذا الاسم الجليل: "أن يتجمل المؤمن في الحلم (ويسعى في تحصيل أسبابه، حتى يصير من خصاله) يتزين بالأناة والصبر، ويتحلّى بالصفح والإحسان، فمن أراد أن يكون مثال الكمال، متحلّياً بحلة الجمال، فليستعمل الحلم مع الجهلاء، والصفح عن السفهاء، وليتمثل معاملة الله سبحانه مع أعدائه، وحلمه على المشركين، ولطفه في قضائه، وفضله على الناس: يعبدون غيره، ومع ذلك: يرزقهم، ويعظمون سواه، ومع ذلك: يمهلهم"^(٣).



(١) «مسلم» (١١٧).

(٢) «صحيح الجامع» (٢٣٢٨).

(٣) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (١٨٣/١).

٤٨- الله ﷻ الشهيد عز وجل

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [الحج: ١٧].

المعنى اللغوي

الشهيد: صيغة مبالغة من اسم (الفاعل) الشاهد .

والشهادة: خبر قاطع يجمع الحضور، والعلم، والإعلام، والشاهد: خلاف الغائب، تقول العرب: (فلانٌ كان شاهداً لهذا الأمر) أي: لم يغب عنه، والشهود والشهادة هو الحضور مع الرؤية والمشاهدة، إما: بالبصر، أو بالبصيرة .

فالشهيد يطلق على:

الأول: العالم الذي يبين ما علمه، والمشاهدة: المعاينة، واليوم المشهود: يوم القيامة، لأنه معلوم كونه لا محالة، فكان معنى (الشهيد) العالم بكل شيء، الذي لا يخفى عليه شيء، ظاهر له أمر كل شيء أتمّ الظهور، فهو يرجع معناه إلى (العليم) مع خصوص إضافة، فالغيب عما بطن، والشهادة عما ظهر .

فالشهيد هو: البالغ الغاية في علمه بالأمور الظاهرة المشاهدة^(١).

الثاني: الشاهد الذي يشهد بما عاين وحضر، قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، أي: من حضره، وهذا الحضور إن كان بالعلم فهو الوجه الأول (أي: العلم)، وإن كان بالرؤية والإبصار كان ذلك وجهاً ثانياً (أي: الشاهد الحاضر بما عاين)^(٢).

الثالث: هو الذي يظهر بقوله للأمر المتنازع فيه بين الخصمين، ويظهر به صدق المدعي، وثبوت حقه على خصمه، فقوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٨] مفسراً بهذا الوجه، وكذا قوله:

(١) ينظر: «المفردات» (٤٦٥)، و«معجم مقاييس اللغة» (٢٢١/٣)، و«اللسان» (٢٣٤/٤)، و«اشتقاق أسماء الله» (١٣٢)، و«تفسير الأسماء» (٥٣)، و«المقصد الأسنى» (١١٢)، و«الأمد الأقصى» (٢٣/٢)، و«تلخيص الأدلة» (٤٩١/١)، و«شرح الأسماء الحسنى» للرازي (٢٩١)،
(٢) «اشتقاق أسماء الله» (١٣٢)، و«موسوعة له الأسماء الحسنى» (٢٧١/١).

﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ [يونس: ٦١]^(١).

الرابع: الحكم، أي: حكم بذلك^(٢)، قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف: ٢٦]، أي: حكم حاكم، وقال عزّ شأنه: ﴿كَفَى بِاللّٰهِ بَيِّنًا وَنَذِيرًا﴾ [العنكبوت: ٥٢]، أي: أن الله ﷻ حاكم بينه وبين خصومه^(٣)، وكما في حديث أم العلاء ؓ حين قالت عند وفاة عثمان بن مظعون "رحمة الله عليك، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله.."^(٤).

الخامس: المبين لما يقيم من البيّنة على حكمه، كقوله تعالى: ﴿وَاللّٰهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦]، أي: يبين الله بما أقام من الأدلة على وحدانيّته.

السادس: أنه شهيدٌ بمعنى مشهود، أي: مشهود له بالوحدانية، كقولنا: بديع، وحكيم في أحد الوجهين^(٥).

"فشهادة الله تعالى بذلك: إعلامه، وبيانه، وحكمه"^(٦)، وعلمه، وإشهاده، وشهوده.

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الشهيد الحاضر الذي لا يغيب عنه شيء من الأشياء^(٧) من دانٍ وبعيد:

(١) فهو سبحانه المطلّع على جميع الأشياء، الذي لا يغيب عنه شيء من الأشياء، ولا يخفى عليه مثقال ذرّة في الأرض، ولا في السماء، بل هو مطّلعٌ على كلّ شيءٍ مشاهد له، علیمٌ بتفاصيله، بحيث لا يعزب عنه وجهٌ من وجوهه، ولا ذرّة من ذرّاته، ظاهراً وباطناً^(٨)، ﴿وَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

(٢) وهو الشهيد سبحانه: الذي أحاط علمه بالظواهر والبواطن، والخفيات، والجليات، والماضيات، والمستقبلات، وسمع جميع الأصوات، السرّ منها والعلنيات، وأبصر جميع

(١) «شرح الأسماء الحسنی» للرازي (٢٩١)، و«شرح أسماء الله الحسنی» للبيضاوي (٢٧٨).

(٢) «عمدة الحفاظ» (٢٩٨/٢).

(٣) «تفسير سورة العنكبوت» (٦/٦٤٠) لابن عثيمين.

(٤) «البخاري» (١١٨٦).

(٥) «الأمّد الأقصى» (٢٣/٢)، و«الأسنى» (٤٩٤).

(٦) «عمدة الحفاظ» (٢٩٨/٢).

(٧) «نظم الدرر» (٥٩٢/٦).

(٨) انظر: «مدارج السالكين» (٤٦٦/٣).

الموجودات ، دقيقتها وجليلها ، وصغيرها وكبيرها ، في كل ما في العوالم علويها وسفليها .

(٣) وهو الذي شهد لعباده ، وعلى عباده بما عملوه في السر والجهر ، في الليل والنهار ، فهو سبحانه حاضر مع كل مخلوق في كل زمان ، ومكان ، وحال ، فلا يحجبه سبحانه عن خلقه ظاهر عن باطن ، ولا كبير ولا صغير ، ولا قريب ، ولا بعيد .

(٤) فهو سبحانه قد أحصى أعمال العباد ، وقد علم مقدارها ، ومقدار جزائها ، في الخير والشر ، وسيجزيهم بما تقتضيه حكمته ، وحمده ، وعدله ، ورحمته^(١) .

(٥) وهو الشهيد سبحانه: المطلع سبحانه على ما في الضمائر ، وأكنة السرائر ، ولحظات العيون ، وما اختفى في خبايا الصدور ، فكيف الأقوال ، والأفعال الظاهرة^(٢) ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١] .

(٦) فشهادته جلّ ذكره أصل الشهادات ، ومبعثها ، وأعظمها ، وذلك :

(أ) أنه يشهد سبحانه لنفسه بما هو له أهل ، (ب) وشهد لملائكته ، (ج) وشهد لرسله ، (د) وكتبه بحقيقة ما هم عليه ، (هـ) وشهد لجميع الخليقة بما لها ، وعليها ، شهادة مشاهدة وحضور ، (و) أنه يرى ويسمع ويعلم بصفات محيطه لا يغادر باطنًا ، ولا ظاهرًا من المشهود إلا شاهده^(٣) .

(٧) ومن كمال الشهيد جلّ ثناؤه: أنه الأمين في شهادته^(٤) ، الذي لا يمكن الاستخفاء منه ، ولا تضييع الشهادة عنده ، لأنه تعالى "لا يجوز في شهادته الكذب ، ولا الخطأ ، ولا السهو ، ولا الغلط"^(٥) .

(٨) والله سبحانه هو الشهيد: الذي لا يغيب ، فالله ﷻ لما كانت الأشياء لا تخفى عليه ، كان شهيداً لها ، وشاهداً لها ، أي : عالماً بحقائقها ، علم المشاهدة لها ، لأنه لا تخفى عليه خافية ﷻ^(٦) .

(١) «تفسير السعدي» (٩٤٨) ، و«فتح الرحيم» (٢١) ، و«موسوعة له الأسماء الحسنى» (٢٧١/١) .

(٢) «توضيح الكافية الشافية» (١٢٢) .

(٣) «الأسنى» (٤٩٤) .

(٤) «موسوعة الأسماء الحسنى» (٢٧١/١) .

(٥) «تفسير الطبري» (١٠٣/٧) .

(٦) انظر : «اشتقاق أسماء الله» (١٣٢) .

(٩) وهو الشهيد: الذي "شهد له جميع الخلائق بما هو أهله، وشهدت على أنفسها ما ألزمها وما هي عليه، فكل شيء له شاهد، وهو على كلِّ شهيد" (١).

(١٠) ومن تمام شهادته تعالى: أنه "هو الحاضر الذي لا يغيب عنه معلوم، ولا مرئي، (ولا مخفي)، ولا مسموع يحتاج فيه إلى تعريف، بل هو المعروف لكل شيء، الذي لا يحتاج إلى معرفته لتعريف ﴿وَلَمْ يَكُنْ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣] (٢).

(١١) فهو سبحانه الشهيد: الذي "يشهد المآل والأواخر، إلى نهاية نهاياتها في أبد أبدها، يشهد من حيث علم بعلم هو وصفه، وبشهادة هي نعته، ولا يختلف علمه وشهادته" (٣).

(١٢) فهو الشهيد: العالم، الذي له العلم الكامل، الذي ليس وراءه خفاء، ولا معه غطاء، ولا يتطرق إليه ريبٌ على الدوام، والعموم (٤)، في كلِّ الآناء.

(١٣) وهو الذي شهد: أنه قائم بالعدل في توحيد، وبالوحدانية في عدله، قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨]، فهو سبحانه قائم بالعدل في هذه الشهادة قولاً، وفعلًا، حيث شهد بها، وأخبر وأعلم عباده، وبنى لهم تحقيقها وصحتها، وألزمهم بمقتضاها، وحكم به تعالى (٥).

(١٤) وشهادته سبحانه في الجملة "على سبعة أشياء:

الأول: على التوحيد: فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨].

والثاني: على القرآن، بقوله: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٦].

والثالث: على نبوة المصطفى ﷺ، فقال سبحانه: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٨ - ٢٩].

والرابع: على أعمال العباد، فقال: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦]، وقال: ﴿كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس: ٦١]،

(١) «الأسنى» (٤٩٤).

(٢) «شرح أسماء الله الحسنى وفوائدها وخصائصها» لأبي العباس البرنسي (٨٥).

(٣) «شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان (٣٥٩/١).

(٤) «الأمد الأقصى» (٢٧/٢).

(٥) «مدارج السالكين» (٤٥٥/٣ - ٤٥٦).

وقال: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨].

الخامس: على جميع الأشياء، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

السادس: على كذب المنافقين، فقال: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

السابع: على شريعة المصطفى ﷺ، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩] "(١)".

أنواع شهادته ﷺ:

تنقسم شهادة ربنا العليّة إلى نوعين: الشهادة العامة، والشهادة الخاصة.

النوع الأول: الشهادة العامة: فإن الله تعالى على كل شيء شهيد، الذي أحاطت شهادته لكل البريات في الأرض والسموات في كل الساعات واللحظات.

النوع الثاني: "الشهادة الخاصة، وهي حضور، ودنو متصل بدنو الرب سبحانه، ونزوله إلى سماه في الشطر الأخير من الليل، ولذلك يقول الله ﷻ: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]، أي: يشهده الله ﷻ، وملائكته، ملائكة الليل والنهار" (٢).

جلال الشهيد

الأول: من جلالها: أن شهادته سبحانه هي: أجل، وأكبر شهادة، وأعظمها، وأعدلها، وأصدقها، فهي شاملة من كل الوجوه، وهو تعالى فوق عرشه، لأنها مبنية: على علم، ويقين، وعدل (٣)، وهي "تشمل: العلم، والرؤية، والتدبير، والقدرة" (٤)، قال عزّ شأنه: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩]، ف"لا يجوز أن يقع في شهادته، ما يجوز أن يقع في غيره من خلقه، من السهو، والخطأ، والغلط، والكذب" (٥).

فهو سبحانه شهيد، حفيظ، حاضر، لا يغيب، ورقيب، لا يغفل حفظه له، ورقبه وحضوره

(١) «الأسنى» (٤٩٤ - ٤٩٥).

(٢) «طريق الهجرتين» (٣٢٥).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٤٥٠/٣)، و«تفسير سورة المائدة» لابن عثيمين (٦٠٨/٤).

(٤) «أسماء الله الحسنى» للرضواني (٥٢٤)، و«تفسير سورة الأنعام» لابن عثيمين (٦٠٨/٤).

(٥) «الطبري» (١٠٣/٧).

إياه ، مُستعلٍ عليه ، قاهر له ، بإحاطة قهر بكل شيء ، لِيُمْكِّن حفظه ، على أتم وجه يريده ^(١) .

الثاني : ومن جلال الشهيد : أنه تعالى شهد لنفسه بالوحدانية ، والقيام بالقسط ^(٢) على كل الخليقة "فشهادة التوحيد أمُّ الشهادات كلها على اختلافها" ^(٣) ، قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴾ [آل عمران : ١٨] ، فتضمنت هذه الآية أجل شهادة ، وأعظمها ، وأعدلها ، وأصدقها ، من أجل شاهد ، بأجل مشهود ^(٤) .

الثالث : ومن جلالها : شهادته ﷺ بصدق المؤمنين إذا وحدوه ، وشهادته لرسله وملائكته ، وكتبه ، بحقيقة ما هم عليه ^(٥) .

الرابع : ومن جلالها : شهادته تعالى للمظلوم الذي لا شاهد له ولا ناصر ، على الظالم والمعتدي ، الذي لا مانع له في الدنيا ، لينتصف له منه ^(٦) سبحانه ، وهذه الشهادة تقتضي التأيد ، والعون ، والنصرة .

الخامس : ومن جلال الشهيد سبحانه : أن العباد يشهدون له بالوحدانية ، ويقرّون له بالعبودية ، قال تعالى : ﴿ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] ، فالله تعالى طلب الشهادة من عباده على وحدانيته ، فشهدوا له بذلك ، فكان مشهوداً له في هذه الدعوة ^(٧) .

السادس : ومن جلالها : أنها تتجلى شهادته العلية يوم القيامة ، على كل البرية ، بما عملوه من الأعمال الظاهرة ، والخفية ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج : ٦٧] .

السابع : ومن جلال الشهيد سبحانه : أن الذي شهد به قد بيّنه ، وأوضحه ، وأظهره ، حتى جعله في أعلى مراتب الظهور ، والبيان ^(٨) .

الثامن : ومن جلال الشهيد جلّ ثناؤه : "أنه أنطق كل خلقه بالشهادة له ، إما بلسان القول ، وإما

(١) «تفسير البقاعي» (٤٨٧/٧) .

(٢) «تفسير السمعاني» (٣٠١/١) .

(٣) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن بريجان (٢٧٧/١) .

(٤) «مدارج السالكين» (٤٥٠/٣) .

(٥) «أحكام القرآن» لابن العربي (٨٠٠/٢) . و«الأسنى» (٤٩٤) .

(٦) «شأن الدعاء» (٧٦) .

(٧) «أسماء الله الحسنى» للرازي (٢٩٢) .

(٨) «مدارج السالكين» (٤٥٠/٣) .

بلسان الحال" (١)، فلا يتخلف بذلك أحد.

التاسع: ومن جلال شهادته تعالى: أنها تكون بالقول، وبالفعل، أما بالقول: فإنه الله سبحانه يقول للنبي ﷺ: ﴿لَئِنْ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء]، وأما بالفعل: فإن تمكين الله تعالى لرسوله ﷺ في الأرض ونصره إياه، وخذلان أعدائه، أكبر شهادة على أنه صاحب حق، وأن أعداءه أهل باطل (٢).

العاشر: ومن جلال الشهيد سبحانه: أنه ينطق أعضاء الجسد على العبد، يوم العرض، فتشهد عليه بما فعل من ذنب، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [٢٠-٢١] [فصلت: ٢٠-٢١] (٣).

الحادي عشر: ومن جلال شهادته تعالى: أنه جعل أولياءه المسلمين شهداء على خلقه في الأولى والعقبى: ففي الأولى: قال ﷺ: «أيما مسلم شهد له أربعة نفر بخير، أدخله الله الجنة...» (٤). وقال ﷺ: «يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم»، قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: «بالثناء الحسن، والثناء السيئ، أنتم شهداء الله في الأرض» (٥).

وفي العقبى: أنه يجعلهم شهداء على الأمم السابقة: قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] "أي جعلناكم عدلاً خياراً، والمعنى: اخترناكم لنجعلكم خيار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم" (٦).

الثاني عشر: ومن جلال الشهيد سبحانه: أنه يشهد نفسه العليّة وملائكته القائمين له

(١) «عمدة الحفاظ» (٢/٢٩٨).

(٢) «تفسير سورة العنكبوت» لابن عثيمين (٦/٦٤٥).

(٣) وكما في حديث الرؤية في مخاطبة الرب العبد، وفيه: «ثم يقول (أي: الله سبحانه) الآن نبعث شاهداً عليك، فيفتكر في نفسه: من ذا الذي يشهد علي؟ فيختم على فيه، (أي: فمه)، ويقال لفخذه، ولحمه، وعظامه، انطقي، فينطق فخذه، ولحمه، وعظامه بعمله...». مسلم (٢٩٦٨).

(٤) البخاري (١٣٦٩).

(٥) «صحيح الترمذي» (٣٤٠٠).

(٦) «تفسير ابن كثير» (١/٢٧٢)، وفي حديث الشفاعة العظيم: قال رسول الله ﷺ: «يدعى نوح يوم القيامة، فيقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيدعى قومه، فيقال لهم: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد، فيقال لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد ﷺ وأمته، قال: فذلك قوله ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾». البخاري (٣٣٢٩).

بالعبودية بمغفرة ذنوب أوليائه البررة ، فمن ذلك :

أ) المجتمعين على ذكره ، كما في حديث الملائكة الطوافين في الطرق الذين يلتمسون أهل الذكر ، وفيه : «... أشهدكم أنني قد غفرت لهم»^(١).

ب) حجاج أهل عرفة: الذي فيه يقول تعالى : «فإني أشهد نفسي ، وخلقني أنني قد غفرت لهم ، ولو كانت ذنوبهم عدد أيام الدهر ، وعدد رمال عالج»^(٢).

الثالث عشر: ومن جلاله: "أنه سبحانه على الأسرار رقيب ، ومن الأحباب قريب .

الرابع عشر: ومن جلاله: أنه الشاهد الذي نور القلب بمشاهدته ، والأسرار بمعرفته"^(٣).

الثمرات

إن هذا الاسم الجليل يوجب للعبد أعظم أعمال القلوب ، وذلك: أنه متى علم العبد أن حركاته الظاهرة والباطنة قد أحاط الله بعلمها ، واستحضر هذا العلم وهذا الشهود في كل أحواله ، أوجب له ذلك: (المراقبة): في حراسة باطنه عن كل فكر ، وهاجس ، يبغضه إليه تعالى ، وحفظ ظاهره عن كل قول ، أو فعل يسخط الله تعالى ، فعند ذلك: تعبد بمقام الإحسان ، الذي هو أعظم مقام ، فيعبد الله تعالى كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه ، فإنه يراه^(٤).

ومن عبودية الشهيد سبحانه: "أن يشهد الله تعالى فلا يغيب عنه ، أي: أن يكون معه حاضراً باعتقاده في كل حين"^(٥).

ومن عبودية هذا الاسم الكريم: أن يشهد العبد الأوقات التي تنزل فيها الرحمات ، والخيرات والبركات ، من الأقوال ، والأحوال ، والأعمال ، والتي من أجلها في الصلوات ، وأخضها: صلاة الفجر ، قال رب العزة والجلال: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] ، أي: تشهده الملائكة .

(١) البخاري (٦٤٠٨) ، ومسلم (٢٦٨٩) .

(٢) «صحيح الترغيب والترهيب» (١١٣) .

(٣) انظر: «شرح الأسماء» للرازي (٢٩٣) .

(٤) «الحق الواضح» (٥٨) بتصرف يسير .

(٥) «الأمم الأقصى» (٢٧/٢) .

ومن ثمرات هذا الاسم العظيم: أنه يستوجب "خوفك من الله تعالى وحيأؤك من شهادته عليك إن عصيته، ورجاؤك شهادته لك إن أطعته، وأن تكون قَوَّامًا بالشهادة في كل ما نفع وضرر، وساء وسر، ولو على نفسك، والوالدين، والأقربين" (١)، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥] .

وينبغي للإنسان إن كان له أهلية الشهادة إن رغب فيها، أن يتحلَّى بحليتها، ويدخل في أبوابها، ويسلك طريقها كي يكون من الشاهدين، إذ هي أرفع الرُّتب، وأقرب القرب، وأقصد الطرق إلى الله ﷻ، والشهداء هم العدول، وأهل العدالة، قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ﴾ [الطلاق: ٢]، وهو الاتصاف بكل خلق سني، وتجنُّب كل خلق دني، ولا يُوصَل إلى هذه المنزلة، ويُرتقى إلى هذه الرتبة إلا بالعلم والمداومة، قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه]، فالعلم أصل الخصال الشريفة، والعلم به يرقى إلى المنازل الرفيعة المنيفة (٢).

واعلم رعاك الله تعالى أن أعظم الثمرات لهذا الاسم الكريم، الذي به تسعد في الدنيا ويوم الدين: أن تشهد شهادة إقرار ويقين بوحدانية رب العالمين في: ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته، واستحقاقه لكل أنواع التحميد، والإجلال، والتعظيم.



(١) شجرة المعارف (٨٢).

(٢) «الأسنى» (٤٩٩).

٤٩-٥٠- الله ﷻ الرزاق، الرازق ﷻ جل وعلا

قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات].

وقال تعالى: ﴿وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾ [المائدة]

قال ﷻ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُسَرِّ، الْقَابِضُ، الْبَاسِطُ، الرَّازِقُ»^(١).

المعنى اللغوي

الرزاق: من صيغ المبالغة، على وزن (فَعَّال) من اسم الفاعل الرَّازِقُ للتكثير، أي: كثير الرزق، والرَّازِق: اسم (فاعل)، أي: كثير الرزق، والرزق: هو ما ينتفع به، وهو العطاء، ويطلق على كل خير وصل إلى صاحبه^(٢).

والرزق: يقال للعطاء الجاري تارة، دنيوياً كان أم آخروياً وللنصيب تارة^(٣)، والرزق نوعان: الأول: ظاهره للأبدان كالأقوات، الثاني: باطنه للقلوب والنفوس، كالمعارف والعلوم^(٤).

الفرق بين الاسمين: أن (الرَّازِق): هو الذي قَدَّرَ أرزاق الخلائق على الجملة في التقدير الأزلي قبل وجودهم، وتكفَّلَ باستكمالها لهم حين خلقهم.

و(الرَّزَّاق) مبالغة في الدلالة على الوصف لكثرة الفعل، وهو أبلغ من (الرَّازِق) فهو يدلُّ على كثرة الرِّزْق، وكثرة المرزوق، فهو سبحانه هو الذي يتولَّى تنفيذ العطاء لهم في التقدير المفصل، سواء العمري، أو السنوي، أو اليومي، أو ما يخص كل جزء من كل جنس، على اختلاف تنوعه في الوجود: زماناً، ومكاناً^(٥).

(١) «صحيح أبي داود» (٣٤٥١).

(٢) انظر: «عمدة الحفاظ» (٨٧/٢)، و«النهاية» (٣٥٦)، و«الأسنى» (٢٧٨/١)، و«شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان الإشبيلي (١٩٧/٢)، و«الأمَد الأقصى» (٣٩٨/٢).

(٣) «المفردات» (١٩٤).

(٤) «اللسان» (١٦٣٦/٣).

(٥) «أسماء الله الحسنى» للرضواني (٦٠٢).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الرِّزَّاقُ الرَّازِقُ ، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّزُقِينَ﴾ [المؤمنون: ٧٢] الموجد الرزق بلا مثال المتكفل فيه بلا ملال^(١):

(١) فهو تعالى الرزاق: للخلق أجمعين ، المتكفل بالرزق لكل العالمين ، القائم على كل نفس بما يقيمها من قوتها ، في كلِّ وقتٍ وحين .

(٢) الذي وسع الخلق كله رزقه ورحمته ، فلم يختص بذلك المؤمنين دون الكافرين ، ولا ولياً دون عدو ، الكل مغمورٌ من رزقه بما لا يدخله عد ، ولا يحويه حد .

(٣) ومن كمال رزقه سبحانه: أنه يسوقه إلى الضعيف الذي لا حيل له ولا مُتَكَسِّب فيه ، كما يسوقه إلى الجلد القوي ذي المرة السويّ ، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]^(٢).

(٤) ومن تمام رزقه: أنه ما من مرزوق في أقطار العالم العلوي ، والسفلي إلا متمتع برزقه ، مغمور بكرمه ، فهو تعالى يسط الرزق لمن يشاء ويقدر ، وقد هيأ لعباده في الأرض جميع الأرزاق ، قال سبحانه: ﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۖ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۖ فَأَبْثْنَا فِيهَا حَبًّا ۖ وَعَبْنَا وَقَضَّا ۖ وَزَيَّنَّاهَا ۖ وَنَخَّلًا ۖ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۖ وَفَكَهْمًا ۖ وَأَبَا ۖ مَتَاعًا لَكُمْ ۖ وَلَا تَعْمَلُوا﴾ [عس]^(٣).

(٥) فهو سبحانه مفيض على عباده ما لم يجعل لأبدانهم قواماً إلا به ، والمنعم عليهم بإيصال حاجاتهم من ذلك ، لئلا تنغص عليهم لذة الحياة الدنيا بتأخره عنهم ، ولا يفقدوها أصلاً لفقدهم إياه^(٤).

(٦) ومن كمال رزقه تعالى: أنه لا يضيق ترزيقه بأحد ، ولا يشغله فيه أحد عن أحد ، بل يبعث في كل يومٍ لكل أحد رزقه في آن واحد ، كما ينشر عليهم نوره بالشمس في آنٍ واحد ، فهو يعطي ما لا يحصيه العد ولا يحصره الحد^(٥).

(١) «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» (٧٤٥) بتصرف .

(٢) انظر: «شأن الدعاء» (٥٤) ، و«نظم الدرر» (١٦٧/٥) .

(٣) «توضيح الكافية» (١٢٨) ، و«فتح الرحيم» (٣٤) .

(٤) «المنهاج» للحليمي (٢٠٣/١) .

(٥) «تفسير البقاعي» (١٨٨/٦) (٦٠٣/٧) .

(٧) وهو تعالى الرزاق: الذي لا رازق سواه، ولا معطي غيره، فهو المتفضل برزق مخلوقاته، المتكفل بأقواتهم، المقيم لمصالحهم في عيشتهم^(١)، ومن ذلك: أنه سبحانه يرزق كل ما يفتقر إلى الرزق لا غيره سبحانه^(٢).

(٨) وهو الرازق الرزاق: الذي يوصل إلى كل مرتزق رزقه على قدر عمره، كما أن أجل كل ذي أجل على قدر عمره^(٣).

(٩) فهو سبحانه خير من يرزق فهو خالق الأرزاق، ومعطيها بلا عوض، ولا غرض المتفضل بإيصالها إلى جميع العباد، المسبب لها من جميع أنواع الأسباب^(٤).

(١٠) وهو خير الرازقين سبحانه: الذي يغني من يعطيه ويزيده عما يؤمله ويرتجيه، فهو تعالى يعلم ما يصلح كل مرزوق وما يفسده، فيعطيه على حسب ما يعلم منه ولا يحوجه إلى سؤال^(٥).

(١١) وهو الذي يمد كل كائن بما يحفظ مادته، وصورته، فأمد الأجساد بالطعوم، والعقول بالعلوم، والقلوب بالفهوم^(٦).

(١٢) فهو تعالى خير الرازقين: فكل من رزق غيره، فهو من رزق الله أجراه على يديه، فهو تعالى خالق الرزق، وخالق الأسباب التي بها ينتفع المرزوق بالرزق من العباد^(٧).

(١٣) ومن كمال رزق ربنا سبحانه: أنه "يختص برزق المعاني كما يختص برزق الأجسام، فهو رازق الهدى والإيمان، والنظر السديد والعرفان، والذكر بالقلب واللسان"^(٨)، كما كان من دعاء المصطفى ﷺ: «اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني، وارزقني علماً تنفعني به»^(٩).

(١٤) ومن كمال رزقه تعالى: "أنه يوصله بسبب وبغير سبب، ويكون بطلب، وبغير

(١) انظر: «فتح البيان» (٤٢٦/٦)، و«جامع البيان» (١٢٥/٧)، و«البحر المحيط» (٥٦٢/٩).

(٢) «إرشاد العقل السليم» (١٤٢/٦).

(٣) «تلخيص الأدلة» (٤٨٠/١).

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٤٧٣/١)، و«موسوعة له الأسماء الحسنى» (١١٦/١)، و«السراج المنير» (٤٦٩/١).

(٥) «نظم الدرر» (٥٧١/٢) (٢١٤/٥).

(٦) انظر: «شرح أسماء الله الحسنى وفوائدها وخصائصها» لأبي العباس أحمد بن محمد البرنسي (٤٩).

(٧) «الكشاف» للزمخشري (٥٩٦/٣)، وانظر: «تفسير ابن زمين» (٢٠٦/٣).

(٨) «الأمد الأقصى» (٤٠٨/٢).

(٩) «السلسلة الصحيحة» (٣١٥١).

طلب" (١)، وبلسان المقال، وبلسان الحال.

(١٥) فهو تعالى يرزق بغير حساب بمحض الإحسان، فيرزق الخلق عامة: من عبده، ومن عبده غيره، ومن أطاعه ومن عصاه (٢).

(١٦) ومن كمال رزقه سبحانه: "أنه يرزق من يتقيه من وجه لا يخطر بباله ولا بحسابه، بجلب المسار في الدين والدنيا والآخرة، في نظير ما اجتلب من فعل الأوامر، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ - ٣] (٣).

(١٧) فهو تعالى يرزق بلا سبب، ويرزق عقيب تقدم سبب، كما قال ﷺ: «لا يبيع حاضر لباد، دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض» (٤).

(١٨) ومن تمام رزقه سبحانه أنه: «لا يقاص» (٥) أحد في الدنيا من رزقه" (٦)، مهما عظم ذنبه، واجترح في حقه عز شأنه، قال ﷺ: «ما أحد أصبر على أذى يسمعه من الله تعالى، إنهم يجعلون له نداءً، ويجعلون له ولداً، وهو مع ذلك يرزقهم، ويعافهم، ويعطيهم» (٧).

(١٩) "فهو تعالى خير الرازقين، ومعنى ذلك يتبين في أحكام جماعها سبعة:

الأول: أنه يبدأ بالرزق قبل السؤال. الثاني: أنه لا يقطعه بالتقصير في الأعمال.

الثالث: أنه يجعله فوق الحاجة. الرابع: أنه يسوِّغه.

الخامس: أنه يخرج ما زاد على الغذاء بتسهيل.

السادس: أنه يجعل حسابه يسيراً" (٨).

السابع: أنه لا يختلط باليمن والأذى والتكد، ولا بغرض من الأغراض الفاسدة (٩).

(١) «شأن الدعاء» (٥٥).

(٢) «الحجة في بيان المحجة» (١٤٨/١)، و«السراج المنير» (٦٢٢/٢)، و«فتح البيان» (٤٨٩/٤).

(٣) ينظر: «تفسير البضاوي» (٤١٥/٣)، و«تفسير البقاعي» (٢٩/٨).

(٤) مسلم (١٥٢٢). أي: ينتفع بعضهم من بعض، أشار إلى أن الله جعل بعض الناس سبباً لرزق بعض. «تلخيص الأدلة» (٤٨٠/١).

(٥) أي: لا ينقص أحداً في الدنيا من رزقه بسبب المعاصي والذنوب.

(٦) «الأسنى» (٢٣٥/١).

(٧) مسلم (٢٨٠٤).

(٨) «الأمدة الأقصى» (٤٠٧/٢).

(٩) «تفسير نظام الدين النيسابوري» (٩٤/٥)، و«تفسير الطبري» (٢٠٧/٣).

"ورزقه لعباده نوعان: نوع له سبب: كما جعل الله تعالى الحراثة والتجارة والصناعة ونحوها طرقاً يرتزق بها جمهور الناس، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً﴾ [الحجر: ٢٠]، أي أسباباً ترتزقون بها.

ونوع يرزقه الله تعالى به عبده بغير سبب منه: كأن يقيض الله له رزقاً قدرياً سماوياً محضاً، أو على يد غيره، من غير أن يكون من المرتزق سعي في ذلك لأجل الاحتراز عن السؤال»^(١).

جلال الرزاق والرازق

الأول: من جلال هذين الاسمين: أنه يتجلى في رزقه العام لكل الخلائق، في الأرض والسموات العلا الطوابق، وهو رزق الأبدان، فجعل سبحانه "الرزق لا يختص ببقعة، بل رزقه تعالى عامٌ لخلقه حيث كانوا وأين كانوا، بل كانت أرزاق المهاجرين حيث هاجروا أكبر وأوسع وأطيب، فإنهم بعد قليل صاروا حكام البلاد، في سائر الأقطار والأمصار.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ [النكوت: ٦٠]، أي: لا تطيق جمعه، ولا تحصيله، ولا تدخر شيئاً لغد، ﴿اللَّهُ يَرْزُقُهَا﴾، أي: الله يقيض لها رزقها على ضعفها، ويسره عليها، فيبعث إلى كل مخلوق من الرزق ما يصلحه، حتى الذر في قرار الأرض، والطير في الهواء، والحيتان في الماء، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦]"^(٢).

فهو سبحانه رزق الله الأجنة في بطون الأمهات، والحيتان في قعار البحار، والسباع في مهامه القفار، والطيور في أعالي الأوكار، ورزق كل حيوان وهداة لتحصيل معاشه، فأعطى كل شيء خلقه ثم هدى^(٣).

الثاني: ومن جلالهما: أنه تعالى يخص أولياءه برزقٍ خاص: وهو الرزق النافع المستمر نفعه في الدنيا والآخرة، وهو لا تبعة فيه، وهو موصل للعبد إلى أعلى الغايات، وهو الذي على يد الرسول ﷺ بهدايته، وإرشاده، وهو نوعان:

(١) «فتح الرحيم الملك» (٣٥).

(٢) «ابن كثير» (٤٢٠/٣).

(٣) «تفسير السعدي» (١١٤٣).

- الأول: رزق القلوب وتغذيتها بالعلم النافع، والإيمان الصحيح.

- الثاني: رزق الأبدان بالرزق الحلال، الذي يغني عبده بحلاله عن حرامه، وبفضله عمن سواه، وهذا الرزق وسيلة ومعين للعبد على الطاعة والصلاح، والدين، والإيمان، والأول: هو المقصود الأعظم، وهذه وسيلة إليه، ومعين له، فإن ثمرته حياة الأبد، وثمره ذلك قوة الجسد، إلى مدة قريبة الأمد، فإذا رزق الله العبد العلم النافع، والإيمان الصحيح، والرزق الحلال، والقناعة بما أعطاه الله تعالى منه، فقد تمت أموره، واستقامت أحواله الدينية، والبدنية، وهذا النوع من الرزق هو الذي مدحته النصوص النبوية، واشتملت عليه الأدعية النافعة.

فينبغي للعبد إذا دعا ربّه في حصول الرزق، أن يستحضر بقلبه هذين الأمرين، فمعنى «اللهم ارزقني» أي: ما يصلح به قلبي من العلم، والهدى، والمعرفة، ومن الإيمان الشامل لكل عملٍ صالح، وبما يصلح بدني من الرزق الحلال الهنيء، الذي لا صعوبة فيه، ولا تبعة تعثرية^(١).

الثالث: ومن جلال رزقه: أن العبد إذا أخلص لله سبحانه في دعوته، في سؤاله من رزقه، وانقطع عن غيره، ووحد في قصده، فإن الله يرزقه في عاجله، أو آجله: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أتى رجل أهله فرأى ما بهم من الحاجة، فخرج إلى البرية، فقالت امرأته: اللهم ارزقنا ما نطحن، أو ما نعجن ونخبز، فإذا الجفنة ملأى خبزاً، والرّحى تطحن، والتّنور ملأى جنوب شواء، فجاء زوجها، فقال: عندكم شيء؟ قالت: رزق الله، أو: قد رزق الله، فرفع الرحى، فكنس حولها»، فقال رسول الله ﷺ: «لو تركها، لطحنت إلى يوم القيامة»^(٢).

الرابع: ومن جلال الرازي: أنه سبحانه جعل الرزق يطلب العبد، أكثر مما يطلبه أجله الذي قدر له من الأمد. قال ﷺ: «إنَّ الرزق ليطلب العبد أكثر ممَّا يطلبه أجله»^(٣). وقال ﷺ: «لو أن ابن آدم هرب من رزقه كما يهرب من الموت، لأدركه رزقه كما يدركه الموت»^(٤).

(١) «الحق الواضح» (٨٦)، و«تفسير السعدي» (٩٤٧)، و«توضيح الكافية الشافية» (١٢٨)، و«شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (٢٣٥).

(٢) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٢٩٣٧).

(٣) رواه ابن حبان في صحيحه (٧٣٦٨)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٧٠٣)، (٣١٢/٢).

(٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٢٤٦/٧) وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٥٢) (٦٧٢/٢).

الخامس: ومن جلال الرزاق الرزاق سبحانه: "أنه يوجد بعض المخلوقات لا شيء عندها، ولا عمل لها، ولا سعي لها، إما عاجزة عجزاً كلياً، أو كسلانة عن طلب معيشتها، والله تعالى قد قدر لها من ألطف رزقه ما تستغني به من وجوه لا تحسبها، وطرق لا ترتقبها ﴿وَكَايْنٍ مِّن دَابَّوٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [العنكبوت: ٦٠] ^(١)".

السادس: ومن جلال رزق ربنا: أنه تعالى "لم يعط عباده أرزاقهم جملة، لأنه لو أعطاهم جملة لم يكن لهم موضع يضعونه فيه، ولأظهروا الاستغناء فلم يتضرعوا إليه، والله يحب تضرع العباد إليه" ^(٢).

السابع: ومن جلالهما: أنه تعالى "غذى نفوس الأبرار بتوفيقه، وحلّى قلوب الأخيار بتصديقه" ^(٣).

الثامن: ومن جلال رزقه سبحانه: أنه "يرزق من يشاء من عباده القناعة، ويصرف دواعيهم عن ظلمة" ^(٤) الفاقة، والاستكانة.

التاسع: ومن جلاله: أنه تعالى "خصّ الأغنياء بوجود الرزاق، وخصّ الفقراء بشهود الرزق" ^(٥) من الرزاق.

العاشر: ويتجلى كمال رزقه لهم، في جنات النعيم، على الدوام بلا عدٍّ ولا حساب، قال تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ١].

الثمرات

ينبغي لكل من علم بجلال هذين الاسمين الرزاق والرزاق: أن لا يخاف ضيق العيش، وقلة اليد، فإن الرزق آتية لا محالة في اليوم أو الغد، قال ﷺ: «إن الرزق ليطلب العبد أكثر مما يطلبه أجله» ^(٦)، "فارزق مما رزقك الله يأتيك الخلف من الله ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبا: ٢٩]،

(١) «فتح الرحيم الملك (٣٥)».

(٢) «الحجة في بيان المحجة» (١٥٢/١).

(٣) «شرح الأسماء الحسنى» للبيضاوي (٢١٧).

(٤) «شرح الأسماء الحسنى» للرازي (٢٣٥).

(٥) المصدر السابق.

(٦) «صحيح الجامع» (١٦٣٠).

ومهما درَّ عليك من الرزق الظاهر فوق القوت ، فلا تدَّخره في مخادع البيوت ، واخزنه في سرادق الملكوت يزدد نماءً^(١) حتى اليوم الموعود ، وأسأل الله تعالى أن يرزقك الرزق الدائم النافع ، الذي يعينك في دينك ، ودنياك ، وأخراك : «اللهم إني أسألك علماً نافعاً ، ورزقاً طيباً ، وعملاً متقبلاً»^(٢) ، «اللهم انفعني بما علّمتني ، وعلمني ما ينفعني ، وارزقني علماً تنفعني به»^(٣) .

وينبغي للعبد أن يبذل الأسباب التي ينال بها رزقه الحلال ، الذي من أعظمه (التقوى) ، و(التوكل) ، قال ﷺ : «لو أنكم توكلتم على الله حقَّ توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً ، وتروح بطاناً»^(٤) .

ومن عرف حقيقة هذا الوصف (أن الله تعالى لا شريك له في رزقه) ، فقد صار سبباً لوصول الأرزاق ، إلى من له حاجة إليها باليد ، واللسان ، فمن كانت يده خزانة أرزاق الأبدان ، ولسانه خزانة أرزاق القلوب ، فهو من أصحاب حظوظ هذا الوصف ، قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان : ٦٧]^(٥) .

فإذا سلكت هذه المذاهب كنت معلقاً بالرازق من كل جانب ، وانتفعت بالرزق ، وانتفع بك غيرك ، حيث لم ينقبض عنهم خيرك ، وضوعف لك الرزق الباطن والظاهر ، في المنزل الطاهر ، في المقعد الصدق عند الملك القادر^(٦) .



(١) «الأسنى» للقرطبي (٢٨٤/١) .

(٢) «صحيح ابن ماجه» (٩٢٥) .

(٣) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٣١٥١) .

(٤) «صحيح الترمذي» (٢٣٤٤) .

(٥) «شرح الأسماء» للبيضاوي (٢١٨) .

(٦) «الأسنى» (٢٨٤/١) .

٥١- الله ﷻ القدُّوس ﷻ تبارك وتعالى

قال تعالى: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ أَلْسَلَمُ﴾ [الحشر: ٢٣].

المعنى اللغوي

القدوس: على وزن (فَعُول)، من أبنية المبالغة، أي: كثير القدس سبحانه، وله عدة معانٍ:

الأول: الطهارة، والنزاهة، والتقديس: التطهير، ولهذا يقال: البيت المقدس، أي: المكان الذي يُطَهَّر فيه من الذنوب، ومنه سميت الجنة: حظيرة القدس، لطهارتها ونزاهتها من كل آفات الدنيا، كما جاء في الحديث القدسي أن الله تعالى يقول: «من ترك الخمر، وهو يقدر عليه لأسقيته من حظيرة القدس...»^(١).

وقيل لجبريل ﷺ: روح القدس، لأنه مطهر من كل عيب ودنس، فهو طاهر عن العيوب في تبليغ الوحي إلى الرسل ﷺ، فأطلق عليه بهذا الوصف: لأنه متقدس في ذاته بتقديس الله، ومُقدَّس لمن اتصل به بما يفيد من الطهارة، وهم الأنبياء ﷺ.

الثاني: التعظيم، والتكبير، يُقال: قدَّس الرجل ربَّه، أي: عظَّمه وكَبَّرَه^(٢).

الثالث: المبارك^(٣)، ومنه الأرض المقدَّسة، قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢١]، أي: المباركة^(٤).

وهذا الاسم الكريم يرجع إلى صفات العظمة، وإلى السلامة من العيوب، والنقائص^(٥)،

(١) صححه الألباني في «صحيح الترهيب والترهيب» (٢٣٧٥).

(٢) ثبت عن مجاهد أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ قال: "نعظمك، ونكبرك" «التفسير الصحيح» (١٣٥/١).

(٣) صحَّ عن قتادة أنه قال: (المبارك). انظر «التفسير الصحيح» (٤٦٩/٤).

(٤) «اللسان» (٣٥٤٩/٥)، و«النهاية» (٧٣٦)، و«ابن جرير» (٤٥٧/١) (٢٦٨/٧، ٢٩١)، و«تفسير الأسماء» (٣٠)، و«الصالح» للجوهري (٨٤١)، و«دقائق التفسير لابن تيمية» (٣١٠/١)، و«الأمَد الأقصى» (٣٣٩/١).

(٥) «فتح الرحيم الملك» (١٩).

التي تنافي كماله، فهو بالجملة: "جامع لمعاني الطهارة له سبحانه، وإيصال التطهير لغيره كملأكتته، وأنبيائه، ومن شاء من خلقه، وكذلك الطيب، والزكاة، والعدل، والحمد كله" (١) والتمجيد الذي لا منتهى له.

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو القدوس الذي لا أقدر منه سبحانه الذي له كل قدسٍ وُقْدُسِيَّةٍ على الإطلاق، فهو سبحانه وتعالى:

(١) المنزّه المطهّر عن كل ما ينافي كماله: في ذاته، وصفاته، وأسمائه، وأفعاله، وسلطانه، فهو تعالى منزّه عن كل ما ينافيها، ويضادّها.

فهو تعالى الكامل في كل نعت من نعوت الكمال، كمالاً لا يدرك الخلق حقيقته، منزّه عن كل نقص، تنزيهاً لا يدرك الخلق كماله.

(٢) وهو سبحانه المقدّس: عن كل المعائب، السالم من كل النقائص، والشُرور، والمعائب، البليغ في النزاهة، عن كل ما يستقبح من الآفات والشوائب.

(٣) وهو سبحانه القدُّوس: المعظّم (٢)، الذي له كل قدس، وطهارة، وتعظيم، الممدوح بالفضائل، والمحامد، والمحاسن كلها، الموصوف بأكمل الصفات وأوسعها، له المنتهى في كل صفة كمال أعلاها.

(٤) وهو تعالى القدوس: المبارك، الذي كثرت وعمّت خيراته، وبركاته في الأرض والسموات العلا، على طول الأوقات، تبارك اسمه، وتباركت أوصافه، وتباركت أفعاله، وتباركت ذاته العلا، فوق كل المخلوقات.

(٥) المنزّه عن أن يماثله أحدٌ من خلقه، أو أن يكون له نِدٌّ، أو مثيل، أو شبيه، أو كفؤ، أو سميّ بوجهٍ من الوجوه، وذلك لكمالته تعالى في أسمائه الحسنى، وصفاته العلا (٣).

(١) «شرح أسماء الله الحسنى» للإشيلي (٢٣٧/١)، و«الأسنى» (٢٧٧).

(٢) صح عن مجاهد كما سبق.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤٩/٨)، و«شرح العقيدة الأصفهانية» (٧٤)، و«تفسير السمعاني» (٤٠٨/٥، ٤٣٠)، و«شفاء العليل» (٥٢١/٢)، و«الأمّد الأقصى» (٣٤٥/١)، و«الأسنى» (٢٨٧)، و«تفسير ابن السدي» (٨٥٤)، و«الحق الواضح» (٨١)، و«توضيح الكافية» (١٢٦)، و«فتح الرحيم الملك» (١٩).

(٦) وهو المنزّه المعظّم عن أن يقاربه ، أو يشاركه أحدٌ في شيءٍ من نعوت الكمال ، لانفراده في القداسة دون أحدٍ سواه .

(٧) وهو سبحانه القدوس: الطاهر في نفسه ، والمطهّر لغيره ، المنزّه المنزّه ، والمطهّر المطهّر ، وكل طهارة وطمهور فهي منه ، وبه ، وإليه .

(٨) فهو تعالى الطاهر المطهر لكل طاهر ، الذي يطهّر من شاء من عباده ، بما منحهم من توفيقه ، ورزقهم من طاعته ، وفق حكمته في استجابتهم لأمره ، وشرعه ، كالملائكة ، وأنبيائه ، ومن شاء من خلقه ، منهم أهل بيت النبي ﷺ ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب] .

(٩) وهو الذي لا يقدر من شاء من خلقه ، على مقتضى عدله وحكمته ، قال ﷺ : «إن الله لا يُقدِّس أمةً لا يأخذ الضعيف حقه من القوي ...» (١) .

(١٠) وهو سبحانه الطاهر المقدس عن الأدناس ، والقبائح ، والمذام ، وكل محال نسبه إليه أهل الشرك ، والكفر ، والبطلان ، قال تعالى : ﴿ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٤٣] .

(١١) هو تعالى المنزّه أن يكون له شريك ، في ألوهيّته ، أو ظهير ، أو معين ، أو ولي من الدّلّ في ربوبيّته .

(١٢) ومن تمام تقدّسه سبحانه : إثبات جميع صفات الكبرياء ، والعظمة ، والمجد ، والجلال .

(١٣) وهو الطاهر المنزه : عن الشركاء ، والنظراء ، والأولاد ، والأضداد ، والصاحبة ، والأنداد ، والحاجة إلى العباد .

(١٤) وهو القدوس سبحانه : المنزه عن ظلم العباد ، فهو تعالى قادر على أن يظلم لكنه سبحانه منزّه عن ذلك لا يفعله ، لأنه تعالى عادل في كل ما خلقه ، واضع للأشياء مواضعها .

(١٥) وهو تعالى القدوس : المستحق للتقديس ، والتنزيه ، والإجلال ، من جميع الخلائق ، ولهذا يقدّسه الملائكة : ﴿ وَنَحْنُ سُبْحٌ بِحَمْدِكَ وَتُقَدِّسُ لَكَ ﴾ [البقرة: ٣٠] ، أي ننزهك عمّا لا يليق بك .

(١٦) فهو القدُّوس : على الإطلاق ، في : خلقه وفعله ، وقضائه ، وقدره ، وفي جميع أحكامه

الجزائية، والشرعية، والقدرية، فهي خيرٌ كُلِّها، لنزاهتها عن كل ما ينافي الحكمة، والهدى، والرشد، والعدل.

(١٧) وهو القدوس سبحانه: الذي تنزه عن الإحاطة أحد من الخلق بعلمه، أو إدراك كنه ذاته، وأوصافه.

(١٨) وهو القدوس تعالى: الذي لا يقبل التغيير، ولا يلحقه رجس، فلا يزال على وصف الحمد بثبات القدس.

(١٩) وهو القدوس تعالى: في ملكه الأعلى، الذي لا يجوز في تدبيره الظلم، ولا في قضائه الحيف، قال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْكَافِرُ الْقُدُّوسُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الجمعة: ١].

(٢٠) فهو سبحانه القدوس: الذي كل طهارة منه، وبه فضل، وغيرها منه عدل^(١).

جلال القدوس

الأول: من جلاله: التقديس هو خلاصة التوحيد، وأحد ركني توحيد الأسماء والصفات، وذلك أنه يقوم على ركنين:

(١) إثبات الكمال في ذاته، وفي أسماء الله تعالى، وصفاته، وأفعاله.

(٢) تنزيه الله تعالى عن كل النقائص التي تنافي كماله، في ذاته، وصفاته، وأفعاله، فإن التنزيه مرادٌ لغيره، ومقصودٌ به حفظ كماله، عن الظنون السيئة، والخواطر الباطلة، التي لا تليق بجلاله، وعظمته، ومجده.

ولهذا فإن الشر لا يدخل في شيء من صفاته، ولا في أفعاله، كما لا يلحق ذاته ﷻ، فإن ذاته لها الكمال المطلق الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه.

ولما كان من معاني القدوس هو التنزيه، لزم من ذلك التعظيم، وإثبات صفات الكمال، فإن

(١) انظر المعاني السابقة: «تفسير الطبري» (١٦٧/١)، و«ابن كثير» (٣٦٣/٤)، و«تفسير القرآن» لأبي مظهر السمعاني (٤٠٨/٥)، و«نظم الدرر» (٥٣٩/٧، ٥٩١)، و«جامع الرسائل» لابن تيمية (١٢٩/١)، و«ابن السعدي» (٨٥٤)، و«التوحيد» لابن منده (٦٦/٢)، و«تفسير الأسماء» (٣٠)، و«شأن الدعاء» (٤٠)، و«تفسير النسفي» (١٢٢٨)، و«الأمم الأقصى» (٣٤٣/١، ٣٤٥)، و«الأسنى» (٢٧٤) (٢٨٧)، و«شرح أسماء الله» لأبي الحكم الإشبيلي (٢٣٧/١)، و«الحق الواضح» (٨١).

التنزيه المحض ليس مدحاً، حتى يتضمن إثبات كمال ضده، فهو تعالى المنزه عن النسيان والغفلة، لكمال علمه وحفظه، وهو منزّه عن التعب والإعياء، لكمال قدرته وقوّته، منزّه عن السنة والنوم، لكمال حياته، منزّه عن الظلم، لكمال عدله^(١).

فهو اسم يتضمن جميع صفات الكمال، ونفي كل نقيصة لا تليق بجلاله^(٢)، فجمع هذا الاسم الجليل كما ترى يا رعاك الله كل كمال، وجلال، في أوسع المعاني، وأكمل الدلالات.

الثاني: ومن جلال القدوس سبحانه: "أنه هو الذي يبارك وحده، والبركة كلها منه، وكل ما نسب إليه مبارك، فكلامه مبارك، ورسوله مبارك، وعبدّه المؤمن النافع لخلقه مبارك، وبيته الحرام مبارك، وكنانته من أرضه وهي الشام أرض البركة، وصفها بالبركة في ست آيات من كتابه.

فلا مبارك إلا هو وحده، ولا مبارك إلا ما نسب إليه، يعني: إلى ألوهيته، ومحبته، ورضاه، وإلا فالكون كله منسوب إلى ربوبيته، وخلقه.

وكل ما باعد من نفسه من الأعيان، والأقوال، والأعمال: فلا بركة فيه، ولا خير فيه، وكل ما كان قريباً من ذلك ففيه البركة على حسب قربه منه"^(٣).

الثالث: ومن جلاله: "أنه سبحانه المنزه في قدس عزه عن كل ما تحيط به العقول، أو تحوم حوله الأفكار.

فهو تعالى المنزه عن كل وصف يدركه حس، أو يتصوره خيال، أو يسبق إليه وهم، أو يختلج به ضمير، أو يقضي به تفكير"^(٤)، لكمالته تعالى على الإطلاق، من جميع الوجوه والاعتبارات.

الرابع: ومن جلال القدوس سبحانه: أنه المقدّس لنفسه بإخباره عنها بالتوحيد، والإجلال، والإكرام، واستحالة النقائص عنه، وعجز الأوهام عنه"^(٥).

(١) «مجموع الفتاوى» (٤٢٢/١٦)، و«شفاء العليل» (١٢٩/٢)، و«الفوائد» (٢١٠/٢)، و«الحق الواضح» (٧، ١٣،

٨١). و«منهج الطوفي في تقرير العقيدة» (٢٥٣/١).

(٢) «الأسنى» (٢٧٧).

(٣) «الداء والدواء» لابن القيم (١٣٣).

(٤) «المقصد الأسنى» (٦٥)، و«موسوعة له الأسماء الحسنى» (٤٦/١).

(٥) «الأمد الأقصى» (٣٤٢/١).

الخامس: ومن جلال القدوس تعالى: "أن كل طهارة ونزاهة وقدس من قدسه، وطهارته، ونزاهته، فكذلك كل نور من نوره، وكل علم من علمه، وكل قوة من عزته، إلى منتهى أسمائه الحسنی، وصفاته العلا، فلا تكون إلا منه، وبه ﷻ" (١).

الثمرات

إن هذا الاسم الجليل يورث المؤمن الحب والتعظيم لرب العالمين، وتقديسه عما لا يليق به من النقائص والمعائب، وينبغي للمؤمن أن يطهر نفسه من أدران الشرك والظلم، وكل تأثيم، وأن يلازم الطهارة الحسية والمعنوية في كل وقتٍ وحين، من ذلك: "أن يقدر الله تعالى نفسه عن متابعة الشهوات، ويطهر ماله عن الشبهات، وقلبه عن الغفلات، وجوارحه عن المخالفات، ومطامعه عن الملاحظات، وذلك بامثال أوامره، واجتناب نواهيه، والتأدب بآدابه وتنزيه قلوبنا عن التعلق بسواه، فلا يتذلل لمخلوق بالنفس التي عبد بها ربه، ولا يعظم مخلوقاً بالقلب الذي شهد به جلال ربه، وأن يتنزه عن أن يقول ما لا يفعل، أو يبنّي أموره على غير إحكام، فإذا فعل ذلك استنار قلبه وخشع، وظهر ذلك على ظاهره، وتعدّى ذلك لغيره، فيطهر بطهارته أهله، وولده، ثم كذلك على قدر طهارته، وطهوريته، يطهر غيره" (٢).

ومجامع ما سبق في شيئين:

أن يعرف الحق لذاته، والخير لأجل العمل به (٣).

وقد ذلك رسولك الرؤوف الرحيم ﷺ إلى أسباب نيل طهارته تعالى الحسية والمعنوية فقال: «طهّروا هذه الأجساد، طهركم الله، فإنه ليس من عبد يبيت طاهراً إلا بات معه في شعاره ملك، لا ينقلب ساعة من الليل إلا قال: اللهم اغفر لعبدك، فإنه بات طاهراً» (٤).



(١) انظر: «الأسنى» (٢٧٩).

(٢) «الأمد الأقصى» (٣٤٥/١)، و«الأسنى» (٢٧٩). و«شرح أسماء الله الحسنی وفوائدها» (٣٣)، و«موسوعة له الأسماء الحسنی» (٤٨/١)، و«نظم الدرر» (٥٩١/٧).

(٣) انظر «شرح الأسماء» للرازي (١٨٢).

(٤) صححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٩٩) (٣٨٦/١).

٥٢-٥٣- الله ﷻ الخالق، الخلاق ﷻ تقدّست أسماؤه

قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ﴾ [الحشر: ٢٤].

وقال جل ثناؤه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٨].

المعنى اللغوي

الخالق: اسم (فاعل)، والخلق: صيغة مبالغة من اسم (الفاعل) الخالق.

الخلق يطلق على وجهين:

الأول: الإبداع، والإنشاء، والإيجاد من العدم، وهو إيجاد شيء من غير أصل، على غير مثال سابق، أي: أحدثه بعد أن لم يكن.

الثاني: التقدير المستقيم، أي: المقدّر للأشياء على مقتضى الحكمة الباهرة.

فمن الأول: قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: ١]، أي: أبدعهما، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَنِينَ آزَوْجٌ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦]، أي: يخلقكم نطفًا، ثم علقه، ثم مضغًا، وليس الخلق الذي هو الإبداع إلا لله تعالى، ولهذا قال في الفصل الذي بينه وبين غيره: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧].

ومن الثاني: قوله سبحانه: ﴿وَتَخْلُقُونَ أَفْكَاءَ﴾ [العنكبوت: ١٧]، أي: تقدرونه وتهيئونه، وهو كذب، كقوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَافٌ﴾ [ص: ٧].

ومنه قولهم: "خلقت الشيء خلقًا": إذا قدرته، ومنه قولهم: "حديث مختلق"، يراد: أنه قدّر تقدير الصدق، وهو كذب.

ويطلق الخلق على: الصنع، ومنه قوله تعالى: ﴿أَنذَعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ [الأنعام: ١١٥]، والله رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ [الصفات: ١٢٥ - ١٢٦]، قال مجاهد: "يصنعون، ويصنع الله، والله

خير الصانعين"، لأن العرب تسمي كل صانع: خالقًا، يقال: رجل خالق، أي: صانع^(١).

ويتفرع عن هذين المعنيين الرئيسيين معانٍ فرعية:

(١) التقدير المطلق.

(٢) الإيجاد المطلق، فيكون جامعاً لمعاني الصنع سواء من شيء آخر، أو من عدم، وسواء كان له مثل، أو لم يكن له مثل.

(٣) الإيجاد على غير مثال سابق، فيكون فيه معنى الإبداع.

(٤) الإيجاد من العدم، فيكون فيه معنى البداءة.

(٥) التقدير على الصورة، ويكون فيه معنى التصوير^(٢).

فالخالق سبحانه هو الذي ركب الأشياء تركيباً، ورتبها بقدرته ترتيباً.

وهذان الاسمان الجليلان لا يجوز إطلاقهما بالألف واللام، إلا على الله ﷻ^(٣)، لاختصاصه بهما، لا يشاركه فيهما أحدٌ كائناً من كان.

والفرق بين الخالق والخلق:

أن الخالق: هو الذي ينشئ الشيء من العدم، بتقدير وعلم سابق للوجود في الخارج.

والخلق: من أفعال المبالغة على وزن فعَّال مبالغة في الدلالة على الوصف لكثرة الفعل، ويدلُّ على كثرة خلق الله ﷻ، وتكريره بالنسبة إلى كل شيء، وإيجاده كمًّا، وكيفًا:

فمن حيث الكم: يخلق ما يشاء كما قال ﷻ: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ^٤ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا﴾ [النساء: ٣٣]، وأما من حيث الكيف: فقال: ﴿وَرَبِّ الْجِبَالِ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ^٥ صُنِعَ اللَّهُ أَلَدَىٰ أُنْفَقَ كُلُّ شَيْءٍ^٦ إِنَّهُ خَيْرٌ مِمَّا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]^(٤).

(١) انظر: «اللسان» (١٢٤٣/٢)، و«تهذيب اللغة» (١٦/٧)، و«المفردات» (٢٩٦)، و«تأويل مشكل الحديث» لابن قتيبة (٢٧٣)، و«تفسير الأسماء» (٣٥)، و«اشتقاق الأسماء» (١٦٧)، و«النهاية» (٢٨١)، و«تفسير الطبري» (٣٥٤/٥)، و«تفسير البيهقي» (٣٠٤/٣)، و«شأن الدعاء» (٤٩)، و«الأمَد الأقصى» (٢٩١/٢).

(٢) انظر: «أسماء الله الحسنى الدالة على الخلق والإبداع» إعداد أكاديمية أسس للأبحاث (٧٣/١).

(٣) انظر: «تهذيب اللغة» (١٦/٧).

(٤) انظر: «تفسير أبي السعود»، و«شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (٢١٠)، و«نظم الدرر» (١٠٢/٧)، «الأسماء والصفات» (٧٣/١)، «أسماء الله الحسنى» للرضواني (٥٨٨).

فالخلاق سبحانه: هو الذي يبدع في خلقه كما، وكيفية بقدرته المطلقة، فيعيد ما خلق ويكرره كما كان، بل يخلق خلقاً جديداً أحسن مما كان^(١).

فلك أن تتأمل كم يخلق الله ﷻ من بلايين المخلوقات في اللحظة الواحدة، بشتى أنواعها واختلاف أشكالها، وأجناسها.

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الخالق الخلاق، الذي أبدع خلق الأرض والسموات الطوابق وما بينهما، من غير مثال سابق، فهو:

(١) الذي أوجد جميع الأشياء بعد أن لم تكن موجودة، وقدر أمورها في الأزل بعد أن كانت معدومة، فأبدعها على غير مثال مسبوقه، ثم يمدّها بما يهبه من الحركات والصفات وفق إرادته وحكمته^(٢).

(٢) فهو سبحانه الذي انفرد بخلق جميع المخلوقات، فهو منشؤها، ومبدعها، وهو متممها، ومدبرها، قال تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤].

(٣) فهو تعالى سوى جميع المخلوقات، ففطرها في الوقت المناسب لها، وقدر خلقها، بأحسن تقدير، فأتقن خلقها، وأحسن صنعها بكمال الأحكام، وجود نظامها بتمام الاتساق والالتزام، قال سبحانه: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى: ٢].

(٤) وهو الخالق الخلاق سبحانه: المقدر للخلق والأخلاق، فقسمها بالحكمة بين العباد، العليم بأهل الوفاق والنفاق^(٣).

(٥) الذي صنّف المبدعات سبحانه، وجعل لكل صنف منها قدراً، فوجد فيها الصغير والكبير، والطويل والقصير، والإنسان والبهيم، والدابة، والطائر، والحيوان، والموات^(٤).

(١) في هذا رد على الذين قالوا: ليس في الإمكان أبدع مما كان، انظر: رد شيخ الإسلام على هذه المقولة: جامع الرسائل (١٢٠).

(٢) ينظر: «لسان العرب» (١٢٤٣/٢)، و«موسوعة له الأسماء الحسنى» (٨٨/١).

(٣) «النهاية» (٢٨١)، و«تفسير الأسماء» (٣٧)، و«تفسير القرطبي» (٥٤/١٠)، و«أسماء الله الحسنى» للرضواني (٢٨٤)، و«فتح الرحيم» (١٦).

(٤) «المنهاج» (١٩٣/١).

(٦) وهو الخالق الخلاق: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٠١]، الذي خلقهما وأبدعهما بأحسن خلقه ونظام، وأبدع هيئة وصفة، قد تمت فيهما أوصاف الحسن، ونهاية الحكمة^(١).

(٧) "والخلق منه ﷻ على ضروب: منه خلق بيديه (كآدم)، قال سبحانه: ﴿قَالَ يٰٓإِبْرٰهٖمُ مَا مَنَعَكَ اَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِدَيِّىْ﴾ [ص: ٧٥]، ويخلق بهما إذا شاء، (كما خلق الله بيده: العرش، وعدن، والقلم، وآدم، ثم قال لكل شيء: كن فكان)^(٢)، ومنه خلق بمشيئته وكلامه، وهو يخلق إذا شاء"^(٣)، كسائر الخلائق.

(٨) فهو جلّ ذكره: خلق الخلق كيف شاء، وممّ شاء، وعلى أيّ وجه شاء، فأفرد وزوّج، وجمع وفرّق، في البداية والنهاية، كل ذلك غير متعذّر عليه، ولا ممتنع: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا اَنْ يَقُوْلَ لَهُ: كُنْ فَيَكُوْنُ﴾ [يس: ٨٢].

(٩) وهو الخلاق سبحانه: الذي يخلق خلقاً بعد خلق كما، وكيفية في كل أوان، ما لم يُحط به الأوْهام، ولا تدركه العقول والأفهام، على أتم وجه، وأعلاه من السموّ والكمال^(٤).

(١٠) فهو ﴿اَللهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]: خالق الأعيان، والآثار، والشرور، والخيرات، والأوصاف، والصفات، والمحسوسات، والمعنويات، والمشيئة، والإرادات، لا يخرج عن خلقه كائن^(٥).

(١١) وهو تعالى الخالق: الذي جميع المخلوقات متقدمها ومتأخرها، صغيرها وكبيرها، كلها أثر من آثار خلقه وقدرته، فلا يستعصي عليه أن يعيد ما خلق ويكرره كما كان، بل يخلق خلقاً جديداً، أحسن مما كان، قال تعالى: ﴿اَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضَ بِقَدِيْرٍ عَلٰى اَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلٰى وَهُوَ الْخَلّٰقُ الْعَلِيْمُ﴾ [يس: ٨١]^(٦).

(١) «فتح الرحيم» (٣٩).

(٢) الأثر ذكره الذهبي، في «مختصر العلو للعلّي الغفار»، وجوّد إسناده الألباني رقم (٥٣)، عن ابن عمر ﷺ موقوفاً، وحكمه حكم المرفوع، لأنه من أمور الغيب التي لا تأخذ إلا عن الشارع الحكيم.

(٣) «التوحيد» لابن منده (٧٦/٢)، و«الحجة في بيان المحجة» (١٢٦/١).

(٤) «تفسير البقاعي» (٢٨٧/٦) (١٠٢/٧)، و«الشوكاني» (٣٨٤/٤)، و«شرح أسماء الله الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (١٦٦/٢) بتصرف.

(٥) «شرح أسماء الله» لابن برجان (١٦٦/٢) بتصرف.

(٦) انظر: «تفسير ابن سعدي» (٧٠٠)، و«جامع الرسائل» (١٢٠).

(١٢) وهو الخالق الخلاق: الذي شقَّ السمع والبصر للعباد، فأعطاهما الإدراك، وأثبت لهما الإمداد بعد الإيجاد^(١)، كان رسول الله ﷺ يقول في سجود القرآن في الليل: «سجد وجهي للذي خلقه، وصوره، وشقَّ سمعه، وبصره، فتبارك الله أحسن الخالقين»^(٢).

(١٣) فهو سبحانه الذي قدر الأمور، ودبَّر الأشياء، في ظلمات الديجور، وخلق العباد، وخلق فيهم الأسباب، وهي: العقل، والجوارح، والقلب الذي في الصدر، فما يبرز منهم فعل إلا بمشيئته، ولا يصدر عنهم أمرٌ إلا بإرادته، وقدرته^(٣)، وكلُّ قد كتبه سبحانه في الكتاب المسطور.

(١٤) فالله ﷻ الخالق: وكل ما سواه مخلوق له، مربوب له، لا خالق غيره، فجميع السموات والأرض ومن فيهن، وما بينهما، وحركات أهلها، وسكناتهم، وأرزاقهم، وأجالهم، وأقوالهم، وأعمالهم كلها مخلوقات له محدثة، كائنة بعد أن لم تكن، وهو خالق ذلك كله وموجده ومبدئه، ومعيده، فمنه مبدأها، وإليه منتهاها^(٤).

﴿جلال الخالق الخلاق﴾

الأول: أنه يتجلى جلال الله ﷻ: في خلقه بكمال الإتيان، كخلق الناس أطواراً، كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح]، حيث أوجدكم من العدم مقدرين (أطواراً) أي: تارات عناصر أولاً، ثم مركبات تغذي الحيوان، ثم أخلاطاً، ثم نطفة ثم علقه، ثم مضغاً، ثم عظاماً ولحوماً، وأعصاباً ودماء، ثم ينشؤه خلقاً آخر تاماً ناطقاً، يمرُّ في ثلاث مراحل، في أرحام الأمهات، ذكراً وإناثاً، طوالاً وقصاراً، بيضاً وسوداً، وبين ذلك، إلى غير ذلك^(٥).

الثاني: ومن جلال خلقه تعالى: اختلاف الألسن، والألوان، مع أن الأصل واحد، من رجل واحد، وامرأة واحدة، ومخارج الحروف كذلك واحدة، أما اختلاف اللغات فهذا لا يعلمه ولا يحصيه إلا الله، بل تجد في الأمة الواحدة عشرات اللغات، بل تجد في أجناس النطق وأشكاله خالف ﷻ بين هذه الأشياء حتى لا تكاد تسمع منطقيين متفقين في همسٍ واحد، ولا

(١) انظر: «تحفة الأحوذى» (٤٩٧/٢).

(٢) مسلم (٧٧١).

(٣) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (٩٢/١) بتصرف.

(٤) «معارج القبول» (١٣١/١)، و«شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان (١٦٧/٢).

(٥) «نظم الدرر» (١٧١/٨)، والقرطبي (٣٠٢/٩).

جهازه واحدة، ولا حدة، ولا رخاوة، ولا فصاحة.

وكذلك الألوان وتنوعها، فلا تجد لونين متشابهين من كل وجه، بل أهل الدنيا منذ خلق الله آدم إلى قيام الساعة: كلُّ له عينان، وحاجبان...، وليس يشبه واحدٌ منهم الآخر، بل لا بُدَّ أن يفارقه بشيءٍ من السمات، أو الهيئة، أو الكلام، ظاهراً كان أو خفياً، كل وجه منه أسلوب بذاته، وهيئته لا تشبه الآخر^(١).

الثالث: ومن جلالهما: أن الله ﷻ خلق جزءاً من مادة بشراً، ذا أعضاء مختلفة، وطبائع متباعدة، وجعله قسمين متقابلين، وربما يخلق من نطفة واحدة توأمين، ذكراً أو أنثى، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان]^(٢).

الرابع: ومن جلال الخالق الخلاق: أنه ﷻ قادر على الإطلاق أن يخلق من غير أصل: كما خلق السموات والأرض، ومن أصل: كخلق ما بينهما، فينشئ من أصل ليس من جنسه كآدم، وكثير من الحيوانات، ومن أصل يُجانسه، إما من ذكر وحده، كما خلق حواء، أو من أنثى وحدها، كعيسى ﷺ، أو منهما كسائر الناس^(٣).

الخامس: ومن جلال خلقه سبحانه: أنه تعالى لم يخلق شراً محضاً لا خير فيه البتة، فإذا كان سبحانه: "خلق إبليس الذي هو مادة لفساد الأديان، والأعمال، والإرادات، وهو سبب شقاوة العبيد، وعملهم بما يغضب الرب ﷻ...، ومع هذا: فهو وسيلة إلى محابٍ كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه، وجودها أحبُّ إليه من عدمها"^(٤).

السادس: ومن جلال الخالق الخلاق سبحانه: أنه انفرد في خلق الأسباب والمسببات، وقد قضاهما بين العباد، لما فيها من الحكمة والصواب، وقد جعل المسببات منوطة بالأسباب، وقد تكون خلاف ذلك في الإيجاد، كما حملت مريم بدون زوج، وأوجد عيسى ﷺ من غير أب، فهو تعالى "قد يخلق بلا تقدم سبب، وقد يخلق عقيب تقدم سبب، كأسباب الحياة، والموت، والصحة، والسقم، وأمثال ذلك، وخالق ذلك السبب هو الله ﷻ، كما أن خالق المسبب هو الله تعالى"^(٥).

(١) ينظر: «تفسير السعدي» (٦٣٩)، و«تفسير ابن كثير» (٥٨٢/٣)، و«تفسير البغوي» (٢٦٦/٦).

(٢) «مفاتيح الغيب» مج (١٢) (١٠١/٢٤)، و«أنوار التنزيل» (٥٢٧/٢).

(٣) «تفسير البيضاوي» (٤٢٨/١).

(٤) «مدار السالكين» (٢٠٣/٢).

(٥) «تلخيص الأدلة لقواعد التوحيد» (٤٩٩/١).

السابع: ومن جلالهما: أنه تعالى بدأ الخلق بلا مشير، وأوجدها بلا وزير، وهو الذي ليس لذاته تأليف، ولا عليه في قوله تكليف، وهو الذي أنشأ الخليقة من غير جلب منفعة، ولا لدفع مضرة^(١).

الثامن: ومن جلال خلقه: أنه تعالى "خلق الخلق بالحق، ومشتماً على الحق، وكان غايته، ونهايته الحق، خلقها بأحسن نظام، ورتبها بأكمل إتقان، وأعطى كل مخلوق خلقه اللائق به، بل أعطى كل جزء من أجزاء المخلوقات، وكل عضو من أعضاء الحيوانات خلقه، وهيئته اللائقة به، بحيث لا يرى الخلق في خلق الرحمن تفاوتاً، ولا فطوراً، ولا خلاً، ولا نقصاً"^(٢).

﴿ الثمرات ﴾

إن هذان الاسمان الكريمان يورثان المؤمن كمال اليقين بأنه مربوب لرب العالمين، وهي الغاية في خلقه تعالى للإنس والجن أجمعين، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات]، وأنه تعالى لم يخلق الخلق هملاً، ولن يتركهم سدى، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنعام] فتعالى الله الملك الحق ﴿[المؤمنون]، وأخبر ﷺ أنه خلق الأرض والسموات العلا، ليعرفوا الله تعالى وحده، ويفردوا له العبادة دون أحدٍ سواه، وبما له من الأسماء الحسنى والصفات العلا، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق].

وينبغي للعبد أن يتأمل في أصل خلقته، وما فيها من جلال حكمته، قال سبحانه: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات].

ومن عبودية هذين الاسمين الكريمين: "هو الاستسلام تحت جريان الأحكام، والثقة به تعالى (وحده دون الأنام)، وعذر الخلاق فيما أجري عليهم من أسباب النقص والكمال"^(٣)، "ولا تجعلن ما خلقه فيك مما تحبه أو يزيدك به حجة لك، فيما يطالبك من مراعات حقوقه"^(٤).

(١) «شرح الأسماء» للرازي (١٢٨) بتصرف يسير.

(٢) «فتح الرحيم الملك» (٢٣).

(٣) «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي العباس البرنسي (٤٣).

(٤) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن بركان الإشبيلي (١٦٧/٢).

٥٤- الله ٱ البارئ ٱ سبحانه وتعالى

قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٤]

المعنى اللغوي

البارئ: اسم (فاعل)، وأصله من البرء، وهو: التنفيذ، وهو الإنشاء للأعيان من العدم إلى الوجود، أي: إبراز ما قدره الله وقرره إلى الوجود، على وفق ما في اللوح المحفوظ، وله ثلاث معانٍ:

الأول: الخلق، يقال: برأ الله الخلق يبرؤهم برءاً، والبرية الخلق.

الثاني: القطع والوصل، أي: التباعد عن الشيء، وخلوصه منه، وبرئ: إذا تنزّه وتباعد، ومنه البرء، وهو: السلامة من السقم، يقال: "أبرأه الله من مرضه": فهو بارئ، ومن ذلك البراءة من العيب، والمكروه، أو التهمة، وخلص منها وتنزه عن وصفه بالنقص، قال تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿وَإِنِّي بَرِئٌ مِّمَّا تَشْرِكُونَ﴾ [الأنعام]، وقال سبحانه: ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ١]، أي: تخلص وتبرؤ من العهود التي بين الله ورسوله والمشركون، والمعنى: نبذ العهد والانفصال التي بينهم.

الثالث: أن البارئ مشتق من البري، وهو: التراب، والعرب تقول: "بفيه البري"، أي: التراب، ويرشحه قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾ [الروم: ٢٠].

ولهذه اللفظة من الاختصاص بخلق الحيوان ما ليس لها غيره من المخلوقات، وقلما تستعمل في غير الحيوان كخلق السموات والأرض، فيقال: برأ الله السماء، كما يقال: برأ الله الإنسان، وبرأ النسم، وكان يمين علي بن أبي طالب (عليه السلام) التي يحلف بها: "لا والذي فلق الحبة، وبرأ النسمه" (١).

(١) انظر: «عمدة الحفاظ» (١٧١/١)، و«معجم مقاييس اللغة» (٢٣٦/١)، و«لسان العرب» (٢٣٩/١)، و«اشتقاق أسماء الله» (٢٤٢)، و«النهاية» (٦٩)، و«تفسير الأسماء» (٣٧)، و«شأن الدعاء» (٥٠)، و«تفسير الطبري» (٧٥/٤)، =

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو البارئ الذي برأ بحكمته جميع البريات ^(١) فهو سبحانه:

(١) الموجد، والمخترع، والمبدع للأعيان المبرز لها، من العدم إلى الوجود، على مقتضى الخلق والتقدير، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا﴾ [الحديد: ٢٢].

(٢) هو الذي فصل بعض الخلق عن بعض، أي: ميّز كل جنسٍ عن الآخر، وصوّر كل مخلوقٍ، بما يناسب الغاية من خلقه، فهو تعالى يخلق الشيء من لا شيء، ويبرأه بالخاصية التي تميّزه عن بقية الخلق.

(٣) وهو سبحانه البارئ: الذي خلق الخلق بريئاً من التفاوت، والتنافر، ومن الزلل والخلل المخلين بالنظام الكامل، أبرياء من ذلك كله على ما تقتضيه الحكمة البالغة، والمصلحة الكاملة، قال سبحانه: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ﴾ [الملك].

(٤) وهو البارئ سبحانه: موجد الخلق من البرى، وهو التراب، أي: أنه تعالى خلق الإنسان من التراب، فيكون خاصاً بخلق جنس الإنسان، وعليه يكون اسم البرية خاصاً بالبشر ^(٢).

(٥) وهو قالب الأعيان، أي: أنه أبدع الماء والتراب، والنار والهواء لا من شيء، ثم خلق منها الأجسام المختلفة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وقال: ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾ [ص: ٧١] ^(٣).

(٦) وهو البارئ تعالى: الموجد لها بريئة (أي: المخلوقات) عما لا يريد، بل جاءت كما أراد سبحانه ^(٤).

= و«تفسير ابن كثير» (٣/٤٤٣)، و«تفسير ابن عطية» (٣/٤)، و«شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان (٢/١٧٠)، و«الأمم الأفضى» (٢/٢٩٩).

(١) «فتح الرحيم الملك» (١٦).

(٢) قالوا: العرب تقول: بفيه البراء، يعني: التراب. انظر: «شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان الإشبيلي (٢/١٧٠)، و«التحري والتنوير» (١٣/٢٨، ١٢٥).

(٣) انظر المعاني السابقة: «عمدة السالك» (١/١٧٢)، و«المنهاج» (١/١٩٢)، الأسماء للرازي (٢١٦)، «تفسير أسماء الله» (٢٧)، و«تحفة الأبرار» (١/٣٣)، و«تفسير البروسوي» (٤/٢٨٥)، و«حاشية الصاوي» (٦/٢١٤٤)، و«فتح الباري» (١٣/٣٩١)، و«موسوعة له الأسماء الحسنى» (١/٩٤).

(٤) «غاية الأماني» (٧/٣٩٦).

(٧) وهو البارئ: الذي يرى المظلوم مما ظلم به ، كما برأ تعالى موسى ﷺ: ﴿فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ [الأحزاب: ٦٩] (١).

(٨) وهو الذي يرى المريض مما فيه من البلايا ، والأسقام ، فيلبسه ثوب الصحة والعافية ، في الأرواح ، والأبدان ، كما في رقية جبريل ﷺ ، لخير الأنام ﷺ: «بسم الله يبريك ، ومن كل داء يشفيك ، ومن شر حاسد إذا حسد ، وشر كل ذي عين» (٢).

(٩) وهو سبحانه البارئ: "الذي يدقق بما وقع به التقدير ، ويقطعه ، ويصلحه لقبول الصورة على أتم حال" (٣).

(١٠) وهو البارئ تعالى: الذي تبرء سبحانه ، ورسوله ﷺ من كل العهود التي كانت بينهم وبين الكفار البادين بالنقض ، قال تعالى: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [التوبة: ١] (٤).

(١١) وهو تعالى البارئ: المنزه (٥) من كل النقائص والعيوب في ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، وعن المثل ، والشبيه ، والشريك ، والصاحبة ، والولد ، والتد ، وعن كل ما يفتره المعاندون والكافرون في حقه في ذلك علواً كبيراً.

(١٢) وهو البارئ سبحانه: "الذي يجعل الروح في الجسد" (٦).

(١٣) وهو تعالى البارئ: المحول من حال إلى حال (٧).

(١٤) وهو الذي ذرأ الخلق وبرأهم من أمهاتهم (٨).

* * *

(١) «موسوعة الأسماء الحسنى» (١١٨/٢).

(٢) مسلم (٢١٨٥).

(٣) «نظم الدرر» (٥٤٣/٧).

(٤) «تفسير ابن عطية» (٤/٣).

(٥) إذا كان تقدير فعله براء يبرأ كفعل لازم ، انظر «أسماء الله الحسنى» للرضواني (٢٩٠).

(٦) انظر: «تفسير السمرقندي» (٣٤٨/٣).

(٧) انظر: «أسماء الله الدالة على الخلق والإبداع» (١٠٣/١).

(٨) «التوحيد» لابن منده (١٦١).

جلال البارئ

من جلاله: أنه تعالى وهب الحياة للأحياء ، الذي خلق الأشياء صالحة ومناسبة للغاية التي أرادها ، وهو الذي يتم الصنعة على وجه التدبير ، ويظهر المقدور وفق سابق التقدير ، قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَاهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: (١)].

وأوجد كل مخلوق صالحاً ومناسباً لغايته ، محققاً للعلّة من وجوده ، فأبرأ الخلائق في كل نوع على وجه الكمال ، وفصل بين الأجناس مع تعاقب الأجيال^(٢).

الثمرات

من عرف هذا الاسم الكريم ، عرف أنه تعالى العظيم ، فلا بارئ سواه ، فكان ممن أنتموا لله تعالى العبودية ، التي هي الطاعة على غاية الذّل والخضوع ، وذلك مختصّ بخالق الأعيان ، ومكوّن الأكوان ، ومدير الأزمان^(٣) ، وينبغي للمؤمن أن يبرأ إلى الله ﷻ ، من كل شهوة تخالف أمره ، ومن كل شبهة تخالف خبره ، ومن كل بدعة تخالف سنة نبيه ﷺ ، ومن كل معصية تؤثر على محبة الله تعالى وقربه ، والبراءة من كل من لا يوالي الله ورسوله وحزبه ، قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤]^(٤).

ومن علم أن الله ﷻ هو بارئه ، أوجب له "التوبة من كل منهي عنه ، وإرجاع النفس إلى بارئها بكل مأمور به ، ومحبوب عنده"^(٥) ، وأعظم ذلك: توحيده ، وإفراده بالعبادة والدين وحده ، قال تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِيكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] ، "أي: فتوبوا إلى الذي خلقكم ، وعبدتم معه غيره"^(٦).

ومن عرف أنه البارئ: لم يكن للحوادث في قلبه أثر ، ولا للشواهد على سيره خطر ، وتبرأ عن حول نفسه وسطوته ، وعن (كل) محذور ، والتجأ إلى الملك الغفور^(٧).

(١) «أسماء الله الحسنى» د. الرضواني (٢٩٠).

(٢) «الأسماء الحسنى الثابتة في الكتاب المقدس» (٢١٢).

(٣) «شجرة المعارف والأحوال» ، للغز بن عبد السلام (٨٣).

(٤) «أسماء الله الحسنى» (٢٩٣) ، و«الكتاب المقدس» (٢١٢) للرضواني.

(٥) «شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان (١٧٤/٢).

(٦) «ابن كثير» (١٣٠/١).

(٧) «شرح الأسماء الحسنى» للرازي (٢١٨).

٥٥- الله ﷻ المصوّر ﷻ تبارك وتعالى

قال تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾ [الحشر: ٢٤] .

المعنى اللغوي

المصوّر: اسم (فاعل) للموصوف بالتصوير، وصوّر الشيء، أي: جعل له شكلاً معلوماً، والتصوير: التشكيل، ويُطلق التصوير كذلك على: القطع، والتمييز، والإمالة، والتعديل، والتحسين، فالمصوّر يطلق على:

الأول: حقيقة الشيء وعلى صفته، وصورة المخلوق هي هيئة خلقته، قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١] .

الثاني: القطع، والتمييز، والفصل، يقال: "صور الشيء"، أي: قطعه وفصله وميّزه عن غيره .
الثالث: الميل، والتعديل والتحسين في التصوير، ومنه قول الله ﷻ: ﴿يَتَأَيَّهَا الْإِنْسَنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّنَكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ [الانفطار: ٦ - ٨] ، قُرئ: (فَعَدَلَكَ) بتخفيف الدال، أي: أَمال صورتك، وعدل بها عما دونها من الصور إلى حسن التصوير، وقُرئ: (عَدَلَكَ) بتشديد الدال، أي: عدّل صورتك، أي: خلقها على أحسن تصوير^(١) .

فالمصوّر سبحانه هو: الناقد كيف يشاء، يعني الممثل للمخلوقات بالعلامات المميزة، بالهيئات المتفرقة^(٢) .

فالمصوّر سبحانه فيه أربع عبارات:

الأولى: الذي أنشأ خلقه على صور مختلفة، وهيئات متغيرة .

الثانية: أنه الممثل، والصورة التماثل .

(١) «معجم مقاييس اللغة» (٣/٣١٩)، «اللسان» (٤/٢٥٢٣)، و«النهاية» (٥٢٩)، «اشتقاق أسماء الله» (٢٤٣)، و«شرح أسماء الله الحسنى» للإشبيلي (٢/١٨٩)، و«الأسنى» للقرطبي (٤٢٧) .

(٢) «شأن الدعاء» (٥١)، و«شرح الأسماء» للرازي (٢١٧)، و«تفسير الطبراني» (٦/٢٥٣) .

الثالثة: المركب ، والصورة التركيب ، يقال: صوّره: إذا فعله هكذا.

الرابعة: المهيئ للشيء المخلوق إلى غاية خلقه ، كما يقال: "صار الأمر إلى غايته" (١).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو المصوّر الموجد والمبدع لصور الأشياء وكيفياتها كما أراد، التي يترتب عليها خواصّه ، ويتم بها كماله (٢):

(١) فهو الذي صوّر بإحكامه وحسن خلقه جميع الكائنات ، كيف شاء ، فعدلها ، وألبسها حلل الكمال ، وزينها في غاية الإحكام.

(٢) فهو سبحانه مبدع صوّر جميع الموجودات ، وربّها فأعطى كل شيء منها صوّة خاصة ، وهيئة منفردة ، يتميز بها على اختلافها ، وكثرتها.

(٣) وهو المصوّر سبحانه: الذي أفرد كلّ ذي شكل بشكله ، وكلّ ذي صورة بصورته ، وخاصة بخاصّته ، وحالة بحالته ، أفراداً منه للأشياء ، وتمييزاً لذواتها وأحوالها ، لولا ذلك ما انفرد شيء عن شيء ، ولا امتاز شكل عن شكل .

(٤) فهو تعالى أعطى كل مخلوق صورة تتناسب مع نظام الوجود ، ودور كل موجود ، على ما اقتضت حكمته ، ومشيّته ، النافذة في كل الوجود .

(٥) وقد صوّر سبحانه كل صورة لا على مثال احتذاء ، ولا رسم ارتسمه ، تعالى ربنا عن ذلك علواً كبيراً (٣).

(٦) فهو سبحانه إذا أراد شيئاً قال له: «كن فيكون» على الصفة التي يريد ، والصورة التي يختار ، وهو ينفذ ما يريد على الصفة التي يريدها ، ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار] (٤).

(٧) وهو المصور تعالى: المهيئ لمناظر الأشياء على ما أراده من تشابه ، أو تخالف ، والاعتراف بالإبداع يقتضي الاعتراف بما هو من لواحقه (٥).

(١) «الأمد الأقصى» (٣٠٤/٢).

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم» (٢٣٢/٦)، و«تحفة الأبرار» (٣٤/٢).

(٣) ينظر: «تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة» (٣٤/٢)، و«شرح أسماء الله الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (١٠٥/١)، و«تفسير الأسماء الحسنى» (٣٧)، و«موسوعة الأسماء الحسنى» (٩٧/١).

(٤) «تفسير القرآن العظيم» (٤٥٢/٤).

(٥) «الأسماء والصفات» لليهقي (١٦١/١).

٨) وهو الذي أنشأ خلقه على صورة مختلفة، وهيئات متباينة، وسمات متنوعة ليتعارفوا ويتألفوا بينهم في حياتهم الدنيا، ولولا ذلك لكان الاختلاط والتشابه في الأشكال.

٩) وهو المصور تعالى: الذي صور الناس في الأرحام أطواراً، ونوعهم أشكالاً، في ظلمات ثلاث: فجعله علقه، ثم مضغة، ثم جعله ذا صورة كاملة، وهيئة منفردة، قال سبحانه: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونٍ أُمَّهَاتِكُمْ خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦] ^(١).

١٠) ومن كمال تصويره: أنه ﷻ أمال خلقه وعدلهم إلى الأشكال والهيئات التي توافق تقديره، وعلمه، ورحمته، والتي تتناسب مع مصالح الخلق، ومنافعهم.

١١) فهو قد أنشأ خلقه على صور مختلفة، وهيئات متباينة، من الطول والقصر، والحسن والقبح، والذكورة والأنوثة، كل واحد بصورته الخاصة، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ [الأعراف: ١١] ^(٢).
الفرق بين: (الخالق)، (البارئ)، (المصور):

أن (الخالق): هو المقدر قبل الإيجاد والظهور لجميع المخلوقات على صفاتها، على مقتضى حكمته الباهرة، الملائمة لنظام العالم، سواء كان من مادة، كخلق الإنسان من نقطة ونحوه، أو من غير مادة، كخلق السموات والأرض.

و(البارئ) هو التنفيذ وإبراز ما قدره، أي الموجد من العدم، على مقتضى الخلق والتقدير من غير تفاوت ولا اختلال، وليس كل من قدر شيئاً أوجده، إلا الله تعالى.

(المصور): المشكل لكل موجود، على الصورة التي أوجده عليها، التي تختص به، أي: بصورة يترتب عليها خواصه، ويتم بها كماله، الذي قدره في عالم الوجود، فالخالق عام، والبارئ أخص منه، والمصور أخص من الأخص ^(٣).

وهذه الفروق تعرف عند اجتماع هذه الأسماء، أما عند افتراقها فإن كل اسم من هذه الأسماء الحسنی يشمل معناه، ومعاني الاسمين الآخرين، والله أعلم ^(٤).

(١) انظر: «شأن الدعاء» (٥١)، و«الحجة في بيان المحجة» (١٢٦/١).

(٢) «النهج الأسمى في شرح أسماء الله الحسنى» د. محمد النجدي (١١٩)، و«موسوعة له الأسماء الحسنى» (٩٧/١).

(٣) ينظر: «فتح الباري» (٣٩١/١٣)، و«لوامع البينات شرح أسماء الله والصفات» (٢٠١)، و«أضواء البيان» (١٢٤/٨)،

«عارضة الأحوذى» (٣٥/١٣)، «تفسير الأسماء» (٣٦)، و«شرح مصابيح السنة» (٥٤/٢) للبيضاوي.

(٤) «ولله الأسماء الحسنى» (٤٤٥).

جلال المصوّر

الأول: أنه تعالى صوّر المخلوقات بشئى أنواع الصور الجليّة، والخفية، والحسيّة، والعقلية، على كثرتها وتنوعها، فلا يتماثل جنسان، أو يتساوى نوعان، بل لا يتساوى فردان، فكلّ صورته، وصور سيرته، وما يخصّه ويميّزه عن غيره، في لونه، وشكله، وذاته، وصفته، وإحصاؤها في نوعٍ واحدٍ، أو حصرها في جنسٍ واحدٍ أمرٌ يعجز العقل، ويذهل الفكر^(١).

فهو سبحانه أفرّد كل ذي شكل بشكله، وكل ذي صورة بصورته، وخاصة بخاصته، وحالة بحالته، إفراداً منه للأشياء، وتفرّداً لذواتها وأحوالها.

ولولا ذلك ما انفرد شيء عن شيء، ولا امتاز شكل عن شكل، ولكان الاختلاط والإشكال، فكنا لا نعرف أبناءنا من أبنائنا، ولا من غيرهم، ولا أمهاتنا من أزواجنا، ولا من غيرهن، ولا كان يمتاز لنا حلالٌ فنبتيه، ولا حرامٌ فننقي، ولا كان يكون لأحدنا اختصاصٌ بشيء سوى اللبس والعمى، ولا علم ولا معلوم، والله التدبير المبرم، والقضاء المحكم^(٢).

الثاني: ومن جلاله: "أنه تعالى كما صوّر الأبدان والأجسام فتعددت وتنوّعت، كذلك صوّر، ونوع أيضاً في الأخلاق، فتعددت صور الطباع والسلوك والمواهب والأفكار، فتنوّعت وتعدّدت"^(٣).

الثالث: ومن جلال المصوّر سبحانه: "أنه كما زيّن الظواهر بالصورة الحسيّة، زيّن البواطن أيضاً بالسيرة الحسنة، قال تعالى في تعظيم العلم: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٣]، وقال في تعظيم الخلق: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، فالمرء مشهور بخلقه، مستور بخلقه"^(٤).

الرابع: ومن جلال المصوّر تعالى: "أن كل صورة صورها الله ﷻ، (فيها) من اللطائف ما

(١) «أسماء الله الحسنى» (٢٩٤)، و«أسماء الله في الكتاب المقدس» (٢١٦) للرضواني، بتصرف يسير.

(٢) «شرح الأسماء الحسنى» للإشبيلي (١٠٥/١ - ١٠٦).

(٣) «أسماء الله الحسنى» (٢٩٥)، و«أسماء الله في الكتاب المقدس» (٢١٦) للرضواني، و«موسوعة له الأسماء الحسنى» للشرباصي (٩٩/١)، بتصرف يسير.

(٤) «شرح الأسماء» للرازي (٢١٩).

لا يحصيه أحدٌ إلا الله ﷻ، وصور الإنسان أبدع الصور، والإنسان في تركيبه كالعالم في ترتيبه، حتى قيل: إن ما في العالم الكبير يوجد مثاله في الإنسان، وسموا الإنسان العالم الصغير^(١).

الثمرات

إنَّ التَّعَبْدَ بِاسْمِ اللَّهِ (المصوّر) يقتضي أن لا يتشبه العبد بما انفرد الله تعالى به، من الخلق، والربوبية، ويقع في شرك التمثيل والتصوير، المنافي للعبودية، قال ﷻ: «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَصُورُونَ، يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيَا مَا خَلَقْتُمْ»^(٢). وقال ﷻ: «إِنَّ الَّذِينَ يَضَعُونَ هَذِهِ الصُّورَ يَعْذَّبُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُقَالُ لَهُمْ: أَحْيَا مَا خَلَقْتُمْ»^(٣)، وقال ﷻ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ قَتَلَ نَبِيًّا... أَوْ مَصُورَ التَّمَائِيلِ»^(٤).

ومن عبودية هذا الاسم المبارك: "أن يشهد العبد جمال (المصور سبحانه في مخلوقاته): فليُنظر إلى صور الجمادات وألوانها، والمعالم وأشكالها، والنباتات وعجائبها، والطيور وغرائبها، والحيوانات ومزاياها، والنظر إلى الكواكب وصفائها، وتأكد أن كل شخص واحد يخدم أعلاه أسفله، ولا يظهر جمال أعلاه إلا بواسطة أسفله، كما لا يظهر كمال الروح إلا بالجسم، ولا يظهر مزايا الروح إلا بظهورها بالهيكل، وأن العوالم خلقت لخدمة العبد، والعبد خلق (لعبودية الرب) ﷻ"^(٥).

وعليك وفقك الله بالضراعة إلى المصوّر في التأييد والتوفيق إلى ما يحبه ويرضاه منه، وإدامة الشكر لمن صوّر وأحسن، وخلق فأتقن، ولمن شاء لكان غير ما به أنعم، لكنه السابق بالإحسان إلى عباده قبل استحقاقهم، والقائم لهم بذلك من ورائهم^(٦)، فهو سبحانه سوى قامتك، وعدل خلقتك، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [النن: ٤]، فجعلك في صورة أبيك آدم، وهي أحسن صور العالم، قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمُ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]^(٧).

(١) «تلخيص الأدلة لقواعد التوحيد» (٦٠١/٢).

(٢) «البخاري» (٥٦٠٦)، و«مسلم» (٢١٠٩).

(٣) «البخاري» (٥٩٥٢)، و«مسلم» (٢١١١).

(٤) «صحيح الجامع» (١٠٠٠).

(٥) «الموسوعة» للشرباصي (١٠١/١).

(٦) «شرح الأسماء الحسنى» للإشبيلي (١٩٦/٢).

(٧) انظر: «الأسنى» (٥١٤/١).

٥٦- الله ﷻ السلام ﷻ جلّ وعلا

قال تعالى: ﴿الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ أَلْسَلَمُ﴾ [الحشر: ٢٣]

المعنى اللغوي

السلام: تدلُّ تصارييف هذا الاسم الجليل من السلامة، وهي البراءة والتعري من كل آفة ظاهرة وباطنة، والخلص والنجاة من كلّ مكروه، وعيب وشر، والسلامة: الأمن والأمان، والحصانة والاطمئنان، وقيل للجنة: دار السلام: لأنها دار السلامة من الهموم والآفات، والصائر إليها يسلم من الموت والأوصاب والأحزان^(١). والسلام: التسليم، وهي تحية أهل الإسلام فيما بينهم في الدنيا، ومن الملائكة والله ﷻ في الأخرى، فالسلام من الكلمات الجامعة المانعة.

الفرق بين (السلام) و(القدوس):

أَنَّ الْقُدُّوس: براءته عن جميع العيوب في الماضي والحاضر، والسلام: كونه سالمًا سليمًا إشارة إلى أنه لا يطرأ عليه شيء من العيوب في الزمان المستقبل، فإن الذي لا يطرأ عليه شيء من العيوب، فإنه تزول سلامته، ولا يبقى سليمًا^(٢).

وكذلك أَنَّ الْقُدُّوس هو: المبارك كما تقدم، والله أعلم.



(١) انظر: «لسان العرب» (٢٨٩/١٢)، «اشتقاق أسماء الله» (٢١٦). و«عمدة الحفاظ» (٢١٥/٢)، و«شأن الدعاء» (٤١)، و«بدائع الفوائد» (١٣٢/٢).

(٢) «التفسير الكبير» ومفاتيح الغيب» مج (١٥) (٢٩٤/٢٩)، و«شرح الأسماء الحسنى» للرازي (١٩٧).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو السلام، فهو أحقُّ بهذا الاسم من كل مسمى به، له فيه من كل معاني الكمال أكمله وأعلاه، فهو السلام سبحانه من كل وجه واعتبار:

(١) هو الذي سلم من جميع العيوب والنقائص، المضادةً لكمالهِ في: ذاته، وأوصافهِ، وأفعاله، وسلطانهِ، فهو السلام: عن كل عيب ونقص، يتخيله وهم، من كل وجه:

(أ) فذاته العلية: برئت من الفناء والإحاطة، (ب) وهو سلام: في أسمائه من كل سوء، وشر، وذمٍّ، (ج) وسلام: في صفاته، وأفعاله من كل عيب، ونقص، وسوء، وظلم، (د) ومملكه سلام: من منازع، أو مشارك فيه، من الإنس أو الجن^(١).

(٢) وهو سبحانه السلام: الذي سلم عباده أن يصدر منه أيُّ قبيح وشرٍّ:

(أ) "فسلم من عذابه من لا يستحقُّه"^(٢).

(ب) وسلم أوليائه من عذابه وعقوبته^(٣).

(ج) وسلم جميع خلقه من ظلمه^(٤)، وجوره، في الدنيا والآخرة.

(٣) وهو المُسلم على أنبيائه، وأوليائه، وأصفيائه في الدارين:

أ - في الدنيا: قال تعالى: ﴿وَسَلِّمْ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ أَصْطَفَىٰ﴾ [النمل: ٥٩]، وقال سبحانه: ﴿سَلِّمْ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ [الصافات: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿سَلِّمْ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ١٠٩]، سَلِّمْ على المرسلين، لسلامة ما وصفوه به من كل عيب ونقص.

وهو الذي يُسلم سبحانه على كل من يسلم على النبي ﷺ، قال ﷺ: «إنه أتاني الملك فقال: يا محمد! أما يرضيك أن ربك ﷻ يقول: إنه لا يصلي عليك أحدٌ من أمتك إلا صليت عليه عشراً، ولا يسلم عليك أحدٌ من أمتك، إلا سلمت عليه عشراً؟ قال: بلى»^(٥).

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (٣٦٣/٢)، و«شفاء العليل» (٦٥/٢)، و«تفسير القرآن العظيم» (٤٥٢/٤).

(٢) «تفسير الأسماء الحسنى» (٣١).

(٣) «الاعتقاد» للبيهقي (٤٩)، و«موسوعة له الأسماء الحسنى» (٥٢/١).

(٤) «تفسير ابن جرير الطبري» (٣٦٨/٧).

(٥) صححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٩١/٢).

ب - وفي الآخرة لأهل الجنة، قال تعالى ﴿يَحْيَتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ﴾ [الأحزاب: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا فَنَكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدْعُونَ﴾ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ [يس: ١].

(٤) فسلامٌ "منه سبحانه كافٍ من كل سلام، ومغني عن كل تحية، ومقرب من كل أمنية، فأدنى سلام منه، ولا أدنى هناك يستغرق الوصف، ويتم النعمة، ويدفع البؤس، ويطيّب الحياة، ويقطع موادّ العطب والهلاك" (٢).

"فما ظنّك بتحية ملك الملوك، الربّ العظيم، الرؤوف الرحيم، لأهل دار كرامته، الذين أحلّ عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم أبداً" (٣).

(٥) فهو تعالى مصدر السلام والأمان، الناشر السلام بين الأنام (٤)، فكل سلامة منشؤها منه، معزوة إليه، صادرة منه، فلا تطلب إلا منه ﷺ، كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته، استغفر ثلاثاً، وقال: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام...» (٥).

(٦) وهو السلام تعالى: المسلم لعباده، بإعطائهم السلامة، وأخص من ذلك: "أنه يُسلم على أوليائه فيسلمون من كل مخوف" (٦).

(٧) وهو الذي يُسلم من شاء من خلقه من المكاره، ويخلصه من الشدائد في الدارين (٧)، على مقتضى حكمته، وعدله:

الأول: في الدنيا، أ) هو الذي سلّم نبيّه ﷺ وصحبه من الفشل والتنازع بما أراه ﷺ في منامه في غزوة بدر، قال تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرْنَكُهُمْ كَثِيرًا لَفَسِلَتُمْ وَلَنَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلَيْهِ يُدَاتِ الضُّمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٣].

ب) قال ﷺ لعمر بن العاص: «إني أريد أن أبعثك إلى جيش فيسلمك الله، ويغنمك...» (٨). ج) وقال ﷺ عن قبيلة (أسلم): «وأسلم سالمها الله» (٩).

(١) انظر: «شأن الدعاء» (٤١)، و«الأمد الأقصى» (٣٤٩/١)، و«تحفة الأبرار» (٢٨)، و«تفسير روح البيان» (٤/٢٨٣).

(٢) «بدائع الفوائد» (٦٥١/٢).

(٣) «تفسير السعدي» (٩٧٧).

(٤) ينظر: «موسوعة له الأسماء الحسنی» (٥٢/١).

(٥) مسلم (٥٩١).

(٦) انظر: «فتح البيان» (٤٤/٧)، و«السراج المنير» (٢٧٤/٤).

(٧) انظر: «تفسير البروسوي» (٢٨٣/٤).

(٨) رواه أحمد (١٧٧٦٣) وقال شعيب الأنرووط: «إسناده صحيح على شرط مسلم» (٢٩٨/٢٩).

(٩) البخاري (٣٥١٣)، ومسلم (٦٧٩).

وفي الآخرة: على من يشاء بفضلته ، كما في حديث الصراط ، وكلام الرُّسُل يومئذٍ : «اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ»^(١).

(٨) وهو السلام سبحانه: الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه ، لأن النقص إذا انتفى ، ثبت له التعظيم والكمال كله ، فإن التنزيه المحض ليس مدحاً ، حتى يتضمن كمال ضده .

(٩) وهو السلام سبحانه: "المعطي السلامة لمن آمن به ووحدته سبحانه: لأن الإيمان به وتوحيده وأفعاله هي لمن آمن سلام كلها"^(٢).

(١٠) وهو تعالى السلام من: الصاحبة ، والولد ، ومن اللهو واللعب ، السلام من النظر ، والكف ، والسمي ، والمثل^(٣).

(١١) وهو سبحانه السلام: حيث إن ذاته خلصت بانفراد الوجدانية من كل شيء ، وبانت عن كل شيء^(٤) ، وارتفعت على كل شيء .

(١٢) وهو تعالى السلام: عن كل شريك في الربوبية ، والألوهية ، والعبودية .

(١٣) وهو الذي يُسلم المؤمنين يوم الدين من الذنوب والعيوب ، فيسلمون من الخزي العظيم^(٥).

فاسم السلام ينفي عن الله تعالى كل النقائص من جميع الوجوه ، ويتضمن إثبات جميع الكمالات من كل الوجوه ، لأن النقص إذا انتفى ثبت الكمال كله ، وهذا معنى (لا إله إلا الله ، والله أكبر) ، فانتظم (السلام) الباقيات الصالحات ، التي يثنى بها على الرب ﷻ^(٦).

جلال السلام

الأول: من جلاله: أنك إذا نظرت إلى أفراد صفات كماله ﷻ وجدت كل صفة ، سلاماً مما يضاد كمالها ، فحياته سلام من الموت ، ومن السَّنة والنوم ، وقِيُوميته وقدرته سلام من التعب والعجز ، وعلمه سلام من عزوب شيء عنه ، أو عروض نسيان ، كلماته سلام من الكذب والظلم ،

(١) «البخاري» (٧٠٠٠).

(٢) «المحرر الوجيز» (٢٩٢/٥) ، و«تفسير غرائب القرآن» (٢٨٧/٦) بتصرف .

(٣) ينظر: «بدائع الفوائد» (٣٦٣/٢).

(٤) «التوحيد» لابن منده (١٥٧).

(٥) «تفسير روح البيان» (٢٨٣/٤).

(٦) «أحكام أهل الذمة» (١٩٣) ، و«تيسير الكريم الرحمن» (٩٤٦).

غناه سلام من الحاجة إلى غيره، إلهيته سلام من مشارك له فيها، وعذابه وانتقامه سلام من أن يكونا ظلمًا أو جورًا، استواؤه على العرش سلام من أن يكون محتاجًا إلى ما يحمله، أو يستوي عليه، بل العرش وحملته محتاجون إليه.. (١).

الثاني: ومن جلاله تعالى: "أن السلام به، ومنه، وله، وليس في الوجود سلامٌ إلا وهو إليه منسوب، وعليه محسوب" (٢).

الثالث: ومن جلال السلام سبحانه: أنه سمي أعلا عطاياه باسمه (السلام)، وهي الجنان، قال تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧]، لسلامها من الآفات، والمنغصات، والتي كما في حياتهم الدنيوية.

الرابع: ومن جلال هذا الاسم الكريم: أن "كل موجود كائن ما كان فهو مستسلم لله جلّ ذكره مسبح له خاضع خاشع (وقد) فطر الله تعالى الموجودات علوها وسفلها على الإسلام، قال تبارك وتعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ يَبْجُوتُ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِيجَابًا يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣] (٣).

الثمرات

من عرف ربه بهذا الاسم الكريم، ينبغي له أن يتضرع إليه، ويسأله السلامة في الدنيا والآخرة، أما سلامة الدنيا فمنها: ظاهرة، وباطنة، فالظاهرة: العافية من الأمراض، والآلام، والأسقام، وجميع ما تكرهه النفس من المحن التي استعاذ منها ﷺ، وأما السلامة الباطنة في الدنيا: فسلامة دينك، وسلامة يقينك عن الكفر والبدع والعصيان، حتى تقدم على ربك بأوثق عرى الإيمان، ويسلم قلبك من الصفات المذمومة، حتى تأتي الله بقلب سليم (٤).

وقد جمع هذه المعاني المصطفى ﷺ في أمره بهذا الدعاء: «أيها الناس إن الناس لم يعطوا في الدنيا خيرًا من: اليقين، والمعافة، فسلوهما الله ﷻ» (٥).

(١) «بدائع الفوائد» (٣٦٣/٢) و«شفاء العليل» (٦٥/٢) بتصرف يسير.

(٢) «الأمَد الأقصى» (٣٥١/١).

(٣) «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (٢٧٤/١).

(٤) «الأسنى» للقرطبي (ص ٢٦٤)، بتصرف.

(٥) رواه أحمد في «المسند» (٣٨)، وصححه شعيب الأرنؤوط (٢١٢/١).

ويجب عليك أن يسلم لسانك ، وجوارحك عن أذية أهل الإيمان ، قال ﷺ : «المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه»^(١) ، وأن تفسّي السلام بين الأنام ، قال ﷺ : «السلام اسم من أسماء الله ، فأفشوه بينكم»^(٢) .

وأولى ذلك أولوا الأرحام قال ﷺ : «صلوا أرحامكم ولو بالسلام»^(٣) .

"وأقوى من ذلك: أن يسلم من ذلك من آذاه ، فهو يرى ربّه تعالى قد سلّم الكافر من معاجلته في الدنيا بالعقوبة ، مع ما يأتيه من الكفر ، وقد روي أن رسول الله ﷺ لم ينتقم لنفسه قط^(٤) ، ... ، وهذا مهيجٌ لمن احتذى وأتبع ، ومنهيجٌ لمن شرح صدره وثلج"^(٥) .

فمن جمع هذه الخصال "نال منه السلامة المؤبدة في دار السلام ، وتنجو من العذاب والآلام التي لحقت الكفار في إدراك النار (وينبغي) أن يسلم وجهك لله ﷻ في كل حال ، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [لقمان: ٢٢] ، وقال: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦]"^(٦) .



(١) «البخاري» (٦١١٩) .

(٢) «صحيح الجامع» (٣٦٩٧) .

(٣) أخرجه القاضي في مسند الشهاب (٦٥٤) ، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» ، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٧٦٠٣) إلا أنه قال: «بلوا الأرحام ولو بالسلام» وحسن إسناده محقق الكتاب مختار الندوي (٤٢/١٢) .

(٤) كما جاء عن أمنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "...وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم الله بها". البخاري (٣٥٦٠) ، ومسلم (٢٣٢٧) .

(٥) «الأمد الأقصى» (٣٥٢/١) .

(٦) «الأسنى» (٢٦٤) .

٥٧- الله ﷻ الواسع ﷻ سبحانه وتعالى

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَسِعَ كُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [البقرة: ١١٥].

المعنى اللغوي

الواسع: اسم (فاعل)، للموصوف بالوسع، وهو خلاف الضيق والعسر، وهو الإحاطة، والسعة تقال في: الأمكنة كقوله تعالى: ﴿يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، وفي: الفعل كقوله سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]، وفي: الحال كقوله تعالى: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ﴾ [الطلاق: ٧]، فالسعة تكون في الذوات، وتكون في المعاني، فيطلق:

الأول: المحيط بكل شيء، الذي لا نهاية لعظمته، وعظمة صفاته، وسعة متعلقاتها، فهو مختص بعدم النهاية في العظمة، والكمال من جميع الوجوه.

الثاني: الغنى وسعة الفضل، يقال: "فلان يُعطي من سعته"، أي: من غناه، فالواسع: هو الجواد، الذي يسع عطاؤه كل شيء^(١).

المعنى الشرعي

الله هو الواسع ذو السعة التي لا تنتهى، التي ليس لها بداية، وليس لها حد ولا نهاية^(٢)، فهو:

(١) "الذي وسع وجوده جميع الأوقات، بل قبل الأوقات، لأنه سبحانه موجود أزلاً وأبداً"^(٣)، وسع الزمان، والمكان.

(٢) وهو الواسع: الغني سبحانه، الذي وسع غناه مفارقة جميع عبادته، ووسع رزقه جميع

(١) «معجم مقاييس اللغة» (١٠٩/٦)، «المفردات» (٨٧٠)، و«تفسير الأسماء» (٥١)، و«شأن الدعاء» (٧٢)، و«اشتقاق أسماء الله» (٧٣)، و«تفسير الطبراني» (٤٥١/١)، و«الأمم الأقصى» (٥٥٤/١)، و«الأسنى» (٣٢٠).

(٢) «المقصد الأسنى» (١٠٦).

(٣) «لوامع البينات» (٢٨٢).

خلقه أجمعين ، بالكفاية ، والإفضال ، والجود ، والتدبير ، فلا تجد أحداً إلا وهو يأكل من رزقه ، ولا يقدر أن يأكل غير ما رزقه^(١).

(٣) فهو تعالى الواسع: الذي لا يحده غناه ، ولا تنفذ عطاياه ، فهو سبحانه الكثير العطاء ، بلا انتهاء ، الذي يسع لما يُسأل ، فهو تعالى وسع عطاؤه الحاجات كلها ، الذي لا ينقصه نائل ، ولا يحفيه سائل ، قال سبحانه: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْزِمَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التور] ، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَنْفَرَا يُعِزَّ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء] .

(٤) وهو ﷻ الواسع المطلق: في ذاته ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وملكه ، وسلطانه: (أ) فإن نظر إلى علمه: فلا ساحل لبحر معلوماته ، فلا يشغله معلوم عن معلوم ، قال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ١٨٠] .

بل تنفذ البحار لو كانت مدداً لكلماته ، قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف] .

(ب) وإن نظر إلى رحمته: فلا نهاية لسعتها ، وسعت الخلق أجمعين ، بل كل من في السموات والأرضين ، قال سبحانه: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦] .

(ج) وإن نظر إلى قدرته: فلا نهاية لمقدوراته ، فقد وسعت قدرته جميع المقدورات ، في الأرض والسموات ، في كل اللحظات .

(د) وإن نظر إلى بره ، وإحسانه ، وآلائه: فقد عمت الخليقة كلها ، فهي لا تحد ، ولا تعد ، ولا تحصى .

(هـ) وإن نظر إلى غوثة: فهو مغيث العالمين ، فلا يمنعه إغاثة ملهوف عن إغاثة غيره ، سواء كان من أوليائه ، أو من أعدائه .

(و) وإن نظر إلى مغفرته وعفوه: فمهما عظمت الذنوب ، وبلغت الملكوت ، فمغفرته أوسع ، وأعظم ، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَسِيعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢] ، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣] ، وفي الحديث القدسي

(١) «تفسير الطبري» (٣٥٩/١) ، و«شأن الدعاء» (٧٢) ، و«الحجة في بيان المحجة» (١٦٢/١) .

يقول تعالى: «... يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني، غفرت لك ولا أبالي...»^(١).

(ز) وإن نظر إلى رزقه: فهو الموسع على جميع عباده بالرزق من كل أصنافه، فما ترك سبحانه دابة في مهامه القفار، ولجج البحار، وأقطع العالم العلوي والسفلي، إلا أوصل إليها من رزقه المدرار ما يكفيها، وساق إليها من الإحسان ما يغنيها.

(ح) وإن نظر إلى خلقه وصنعه: فهو الواسع في خلقه، وإبداعه، وإيجاده، ومن ذلك سماؤه، قال سبحانه: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات].

(ط) وإن نظر إلى حكمته وحكمه: فلا يعجل^(٢) فله الحكمة العليا في خلقه، وأمره، وشرعه، فلا يخلق شيئاً عبثاً، ولا يأمر إلا بما فيه صلاح وهدى، ولا يشرع شيئاً سدى، وله الحكم العدل في الآخرة والأولى.

(هـ) وهو الواسع في ذاته العلية: فهو سبحانه أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء، وأعلى من كل شيء، فلا نهاية لها في العظمة، والجلال، والكمال.

(٦) وهو الواسع في أسمائه الحسنی: التي لا أسمى منها، ولا أجَلّ، ولا أجمل منها على الإطلاق، فلا يُحصى عددها، وجلالة معانيها، وسعة أثارها ومتعلقاتها إلا هو سبحانه.

(٧) وهو الواسع في صفاته: التي بلغت النهاية في الكمال الأعلى، التي لا تُحاط أفراد كمالها، وليس لها مدى ولا منتهى.

(٨) وهو الواسع في أفعاله: فهي كلها خيرات محضة، لا شرٌّ فيها البتة، قد وسعت الخليفة عدلاً، وحكمة، وإحساناً، وإفضالاً، ورحمة^(٣).

(٩) وهو الواسع في ملكه وسلطانه: الذي لا أمد لملكه، ولا غاية لسلطانه^(٤)، فجميع

(١) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٣٧).

(٢) انظر هذه المعاني: «تفسير الطبراني» (٤٠٣/١)، و«المقصد الأسنى» (٧٥). و«شرح الأسماء» للرازي (٢٨٢)، و«تفسير الشربيني» (١٠٠/١، ٦٨٨/٢)، و«تلخيص الأدلة» (٦٤٨/٢)، و«تفسير السعدي» (٨١٢)، و«حاشية الصاوي» (١٤٠٢/٤) بتصرف.

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (١٢٤/١)، و«تفسير البروسوي» (٢٨١/٤).

(٤) انظر: «تلخيص الأدلة» (٦٤٨/٢)، و«موسوعة له الأسماء الحسنی» (٢٤٦/١).

العوالم السفلية والعلوية ومن فيهما من الناطقات والجمادات ، كلها له تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولُوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠] . ومع سعة الملك وشمول وجوده (في) المملكة ، لا يعزب عنه منها مثقال ذرة ولا أدنى من ذلك ولا أكبر إلا وهو معهم أينما كانوا^(١) .

يعطي ملكه من يشاء من عباده ، ويوسعه عليه إن شاء سبحانه ، قال تعالى : ﴿يُؤْتِي مَلَكُهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠] .

فمع سعة هذه العوالم وما فيها وما بينها ، فإن الله خلق خلقاً أعظم وأوسع ، من ذلك : الكرسي ، قال تعالى : ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، "الكرسي موضع القدمين ، والعرش لا يقدر أحد قدره"^(٢) ، فذكر سعة كرسيه سبحانه منبهاً على سعته ، وعظمته وعلوه^(٣) .

وكل هذه السعة والعظمة ، فعرشه الذي استوى عليه ، أعظم ، وأكبر ، وأوسع ، قال ﷺ : «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»^(٤) .

(١٠) وهو الواسع سبحانه : "الذي يوسع على عباده أمر الشرائع ، أي : يوسع عليهم في دينهم ولم يضيق عليهم الأمر ، فلم يكلفهم ما ليس في وسعهم"^(٥) .

جلال الواسع

الأول : أنه مختص بعدم النهاية في سعة الصفات والنعوت ، ومتعلقاتها ، بحيث لا يحصي أحد ثناءً عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه^(٦) ، وفوق ما يثني عليه عباده .

الثاني : ومن جلال الواسع سبحانه : أنه ليس لسعته تعالى بداية ، وليس لها نهاية ، إذ إن كل سعة ما سواه لها بداية ، ولها أمد ونهاية تنتهي إليه ، لا تتعدها ، ولذا فإن "كل سعة وإن عظمت

(١) «شرح الأسماء الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (١/١٦١) .

(٢) رواه الحاكم في المستدرک (٢/٢٨٢) ، وقال صحيح على شرط الشيخين ، وصححه الألباني في شرح الطحاوية (٣١٢) موقوفاً عن ابن عباس ؓ . وحكمه حكم الرفع لأنه من الغيبيات .

(٣) «الصواعق المرسلة» (٤/١٣٧١) .

(٤) صححه الألباني في «شرح الطحاوية» (٣١٢) .

(٥) «الجامع لأحكام القرآن» (٢/٨٤) ، و«بحر العلوم» (١/١٥٢) .

(٦) «تفسير السعدي» (٥/٦٣١) .

فتنتهي إلى طرف ، والذي لا ينتهي إلى طرف هو أحق باسم السعة ، والله تعالى هو الواسع المطلق^(١) ، الذي لا نهاية لسعة صفاته ، وجلالها .

الثالث: ومن جلال الواسع تعالى: "أنه شامل لجميع الأسماء والصفات ، فإن كل ما تشمله هذه الكلمة من معنى فإنه يدخل فيها ، ولهذا تقتزن كلمة (الواسع) بكلمة (عليم) [وكذلك بـ الرحمة] ، لأن كلا منهما فيه الشمول والإحاطة"^(٢) .

فهو دالٌّ على الكثرة والزيادة والسعة في صفاته تعالى التي لا تنتهى .

الرابع: ومن جلال سعته سبحانه: "أنه ذو سعة لا تنهى ، ومن ذلك: أنه أوسع مقدار جرم السماء وأرجائها وأنحائها وما فيها من رزق لأهل الأرض ، بل تسع قدرته أن يخلق ما هو أحكم وأرفع من هذه السماء ، بل وسع أن يخلق أمثال هذا وأضعافه ومما هو أعظم منه مما لا تنهى ، لأنه تعالى لا يضيق عليه شيء يريد إيساعه"^(٣) .

الخامس: ومن جلال هذا الاسم المبارك: أنه يتجلى لعباده المؤمنين في الدارين ، ففي الدنيا: فهو تعالى يغنيهم من سعته الظاهرة والباطنة ، فالظاهرة منها: الغنى بالمال الحلال ، والذرية الصالحة ، والباطنة: غنى النفس والقناعة ، وكذلك أنه تعالى "يوسع عليهم في دينهم ، ولا يكلفهم ما ليس في وسعهم"^(٤) ، من العبادات والطاعات ، قال تعالى: ﴿لَا تُكَلِّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٣٣] ، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] .

وفي الآخرة: تتجلى سعته "ما احتوت عليه دار النعيم من الخيرات ، والمسرات ، والأفراح ، واللذات المتتابعات ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فخير الدنيا والآخرة وألطافهما من فضله ، وسعته سبحانه"^(٥) .



(١) «المقصد الأسنى» (١٠٦) .

(٢) «أحكام القرآن» لابن عثيمين (٣٠٦/٢) .

(٣) ينظر: «نظم الدرر» (٢٨٤/٧) ، و«تفسير أبي مظفر السمعاني» (٢٦٢/٥) ، و«ابن كثير» (٣٠٤/٤) .

(٤) «تفسير القرطبي» (٨٤/٢) .

(٥) «فتح الرحيم الملك» (٤٨) .

الثمرات

متى عرف العبد أن الله تعالى واسع الفضل والعطاء ، وأن فضله غير محدود بطريق معين ، بل ولا بطرق معينة ، بل أسباب فضله وأبواب إحسانه لا نهاية لها ، أنه لا يعلق قلبه بالأسباب ، بل يعلقه بمسببها ، ولا يتشوش إذا انسَدَّ عنه باب منها ، فإنه يعلم أن الله تعالى واسع عليم ، وأن طُرُق فضله لا تعد ، ولا تحصى ، وأنه إذا انغلق منها شيء انفتح غيره مما قد يكون خيراً وأحسن للعبد عاقبة ، قال تعالى مشيراً على هذه الحال التي كثير من الناس لا يوفقون لها: ﴿ وَإِنْ يَنْفَرَقَا يُعَيِّنِ اللَّهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِهِ ﴾ [النساء: ١٣٠] (١).

ومن عبودية هذا الاسم الكريم: أن يتسع خُلُقُك ، ورحمتك عباد الله تعالى في جميع أحوالك ، وأن تسع الناس بالجود فتقضي مصالحهم ، وبالأخلاق الطيبة فتحسن معاملتهم ، ويسع صدرك عند السؤال من أحدٍ منهم ، فبذلك يحصل لك الأبقيان: الذكر الجميل ، والأجر الجزيل (٢).

ثم يجب عليك يا رعاك الله أن يشرح صدرك لقضاء ربك ، والتزام ما تعبدك به ، واحتمال الأذى فيه ، وتكتسب العلم ما استطعت ، ففيه تنال هذه المراتب ، وبه تكسب المناقب ، فارغب إليه في جميع ذلك .

ثم إذا وسَّع الله تعالى عليك ، فوسَّع على نفسك ، وولدت ، وأهلك ، ومن شئت من إخوانك ، وأقاربك ، كما قال النبي ﷺ لمالك بن نضلة: «هل لك من مال؟» قلت: من كل المال قد أعطاني الله ، من الإبل والغنم ، قال: «فلير عليك» (٣)(٤).



(١) «فتح الرحيم الملك» للسعدي (٤٧).

(٢) انظر: «موسوعة الشرباصي» (٢٤٩/١)، و«شرح الأسماء» للكافيجي (١٧٩).

(٣) «صحيح الترمذي» (٢٠٠٦).

(٤) انظر: «الأسنى» (٣٢٢).

٥٨- الله ﷻ اللطيف ﷻ تبارك وتعالى

قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام].

المعنى اللغوي

اللطيف: صفةٌ مشبَّهةٌ للموصوف باللطف، ويأتي اللطف بمعنى: الرفق، يقال: لطف به، وله، أي: إذا رفق به.

ويُعبَّرُ باللطافة واللطف عن الحركة الخفيفة، وعن تعاطي الأمور الدقيقة، وقد يُعبَّرُ باللطائف عمَّا لا تدركه الحاسة، ويطلق كذلك: على البر المحسن والمشفق، فاللطيف يطلق على عدة معانٍ:

الأول: الرفق، وهو الترفق في تحقيق المراد، أي: الذي يوصل إلى الشيء برفق، كما في حديث أمِّنا عائشة رضي الله عنها: (إني لا أرى من النبي ﷺ اللطف الذي كنت أرى منه حين أمرض) ^(١) أي: الرفق والبر.

الثاني: البر، والحفاوة، والتكريم، أي: الذي يوصل إليك ما تحب من المنافع من حيث لا تعلم، ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، وقال عز شأنه: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [الشورى: ١٩]، معناه: الإتيان بالإحسان من الوجوه الخفية التي لا تظهر إلا له.

ويقال: "ألطفت فلاناً" بمعنى: أتحنفته، و"ألطفه فلان بكذا"، أي: برَّه.

الثالث: العالم بدقائق الأمور، وغوامضها، يقال: "فلان لطيف اليد": إذا كان حاذقاً في صنعتته، و"فلان لطيف العمل"، أي: يصنع دقائق الصنائع، "فاللطيف: من يعلم دقائق الأشياء، ويسلك في إيصالها إلى من تصلح به مسلك الرفق، فهو وصف مؤذنٌ بالعلم والقدرة الكاملين، أي: يعلم، ويقدر، وينفذ قدرته" ^(٢).

(١) البخاري (٢٦٦١).

(٢) «التحرير والتنوير» مج (٨) (١٦٤/٢١).

الرابع: الاحتجاب، والخفاء، فالشيء الذي لا تدركه الحاسة يُسمى لطيفاً، وكل شيء لطيف فهو خفي^(١)، ومنه قوله تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿فَأَبَعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩]، قوله: (وليتلطّف)، أي: "في خروجه، وذهابه، وشرائه، وإيابه"^(٢).

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: "فهذا الاسم الكريم يتضمن: علمه بالأشياء الدقيقة، وإيصاله الرحمة بالطرق الخفية، ومنه التلطف، كما قال أهل الكهف: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩]"^(٣).

الخامس: وقد يقال للحسن التناول للأمر المقتدر على إنشائها، وتناولها برفق وحسن تناول: لطيف^(٤).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو اللطيف الذي له كل لطف وألطف جليلة وخفية:

(١) هو الذي لطف علمه ودق، حتى أحاط بالسرائر والخفايا، وأدرك البواطن، والخبايا، ومكنونات الصدور، ومغيبات الأمور، وما في الأراضى من خفايا الجيوب، والبذور^(٥)، قال تعالى: ﴿يَجْنَىٰ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٠].

(٢) وهو اللطيف سبحانه: الذي يوصل الأمور إلى غاياتها، بألطف الوجوه، وبأحسن ما يكون، فيسر المنافع للعباد من حيث يعلمون، ومن حيث لا يعلمون.

(٣) "وهو الذي يعامل عباده باللطف، وألطفه جل شأنه لا تتناهى ظواهرها وبواطنها، في

(١) انظر هذه المعاني اللغوية: «اللسان» (٤٠٣٦/٧)، و«المفردات» (٧٤٠)، و«عمدة الحفاظ» (٢٤/٤)، و«الصحاح» (٩٧٤)، و«النهاية» (٨٣٥)، و«بحر العلوم» للسمرقندي (٢٢/٣)، و«شرح الأسماء الحسنى» للرازي (٢٥٣)، و«الأمد الأقصى» (٥١٢/١)، و«الأسنى» (٢٣٠/١).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١١٠/٣).

(٣) «شفاء العليل» (١٤٧/١).

(٤) «الأسنى» (٢٣٢/١).

(٥) انظر: «تيسير الكريم المنان» (٩٤٧)، و«الحق الواضح» (٦٠)، و«توضيح الكافية الشافية» (١٢٣).

الأولى والأخرى ﴿وَلَنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] (١).

(٤) وهو تعالى اللطيف: البر بعباده المؤمنين، ولطفه سبحانه بهم، الذي ليس له حدود ولا مقيد بقيود، في الدنيا، واليوم الموعود، فمن ذلك:

(أ) أنه الموصل إليهم مصالحهم، ومنافعهم، بلطفه، وإحسانه، وآلائه، من طرق لا يشعرون، ومن حيث لا يحتسبون.

(ب) أنه سهل لهم كل طريق يوصل إلى مرضاته وكرامته، من العواقب الحميدة السارة.

(ج) وحفظهم من كل سبب ووسيلة توصل إلى سخطه وعقابه (٢). كما قال يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، وهذا يستلزم العلم بالغاية المقصودة، والعلم بالطريق الموصل، وكذلك الخبرة (٣).

(د) ومن لطفه سبحانه بهم: أنه وفقهم لألوان العبادات والطاعات، وحفظهم من الوقوع في المعاصي والزلات، وحفظ التوحيد في قلوبهم (٤)، فأخلصوا له العبودية في السر والعلانيات، فمنه اللطف في السبب، والمسببات.

(٥) وهو الذي لطفت أفعاله، وحسنت، ولطف صنعه، وحكمته، ودق، حتى عجزت الأفهام عن إدراكه (٥).

(٦) وهو ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ [الشورى: ١٩]: بالغ في العلم وإيقاع الإحسان بإيصال المنافع، وصرف المضار على وجه يلطف إدراكه، أما المؤمن فواضح، وأما الكافر في الدنيا: فأقل لطفه به أنه رزق وعوفي وأقبل وأدبر، ولا يعاجله، وفي الآخرة: لا يعذبه فوق ما يستحق (٦).

(٧) وهو اللطيف: المحسن بعباده، المتفضل عليهم، ويرفق بهم، العليم بمواضع حوائجهم، يرزق من يشاء ما شاء كما يشاء، قال سبحانه: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [الشورى: ١٩] (٧).

(١) «روح المعاني» (٣٥٩/٥).

(٢) «شأن الدعاء» (٦٢)، «تفسير السعدي» (٩٤٧)، «توضيح الكافية» (١٢٣).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٣٥٤/١٦).

(٤) انظر: «موسوعة الأسماء الحسنى» للشرابي (١٧٢/١).

(٥) «الصواعق المرسلّة» (٤٩٢/٢). و«موسوعة الأسماء الحسنى» (١٦٩/١).

(٦) «نظم الدرر» (٦١٨/٦)، و«تفسير القرآن العزيز» لابن الزمين (١٦٦/٤).

(٧) «موسوعة الشرباصي» (١٦٨/١) بتصرف يسير.

فهو تعالى يلفظ بهم في الرزق من وجهين: أحدهما: أنه جعل رزقهم من الطيبات، والثاني: أنه لم يدفعه إليهم مرة واحدة فيبذروه.

(٨) وهو الذي انفرد تعالى بالإحاطة، وتربية الجميع، فهو العالم بخفي مصالحهم، وتدرج أحوالهم، وتنزيل كل دقيق وجليل، منها ابتداءً، وجزاءً، على موافقة حكمه سبحانه^(١).

(٩) وهو اللطيف سبحانه: المتيسر له من إدراك الأبصار، فيدرك تعالى ما لا يدركه الأبصار، والمتأني له من الإحاطة بها رؤية ما يعسر على الأبصار، من إدراكها إياه، وإحاطتها به، ويتعذر عليها، قال ﷺ: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]^(٢).

(١٠) ومن كمال لطفه سبحانه بعباده: خلقه القدرة على الطاعة، ولا يعلم الأنام أنها بها، وتيسيره أسباب الذكاء، والهداية، وإيصال المنافع والأرزاق إلى العباد، فله تعالى أطاف خفية، كما له نعم باطنة وجلية^(٣).

(١١) فالله ﷻ لطيف بعباده: في معاشهم، وأرزاقهم، وهدايتهم، والأطاف التي تُسهّل عليهم طاعته، وتقربهم منه^(٤).

(١٢) وهو اللطيف سبحانه: الذي يريد لعباده الخير واليسر، ويقيض لهم أسباب الصلاح والبر^(٥)، فدلّهم على كل الطرائق التي تعود عليهم في معاشهم بالنفع والخيرات، والسلامة فيها من الشرور والهلكات، فمنه التوفيق، ومنه العصمة.

(١٣) ومن لطفه الذي ليس له مثل: أنه تعالى هو الذي يسرع بكشف الغمة عند نزول النعمة.

(١٤) ومن لطفه الجميل: أنه سبحانه يلفظ بعباده في المقدور، الميسر لكل عسير، الجابر لكل كسير^(٦).

(١٥) فهو سبحانه اللطيف: الذي له العلم المحيط بالدقائق والحقائق، الذي يعلم دقائق

(١) انظر: «الأسنى» (٢٣٢/١).

(٢) «تفسير الطبري» (٣٢٥/٣)، و«روح المعاني» (٣٥٩/٥).

(٣) «الأمدة الأقصى» (٥١٣/١).

(٤) «اشتقاق أسماء الله الحسنى» للزجاجي (١٣٨).

(٥) «المنهاج» (٢٠٢/١).

(٦) انظر: «الأسماء» للرازي (٢٥٤)، و«حاشية الأسماء» للإشبيلي (٢٣٦/٢)، و«الموسوعة» للشرباصي (١٦٩/١).

المصالح وغوامضها، ويوصلها برفق إلى كل الخلائق^(١).

(١٦) وهو اللطيف تعالى: الذي يمنع الأسباب (متى شاء) عن أن ينشأ عنها مسبباتها، ويوجد أدق الأسباب وأغربها (من ذلك أنه): أقام أمر أهل ولايته في الدنيا، لما جمع لهم من أمره فيها، فيبدو عزهم من وراء ذل، ويتراءى ذلهم ومن دونه عز، فيسبق عزهم إلى القلوب، مع تذللهم في الحواس، ويؤول محسوسهم إلى عز في عقبى الدنيا، ومبادرة مع تأنس القلوب بهم: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف: ١٠٠] (٢) (٣).

(١٧) ومن لطفه بعباده: أنه تعالى أعطاهم من النعم الظاهرة والباطنة، فوق الكفاية، وكلّفهم في العبودية دون الطاقة، وسهّل عليهم الوصول إلى السعادة الأبدية، في مدة قصيرة^(٤).

(١٨) ومن لطفه سبحانه: هو إخفاء الأمور في صور أضدادها من نحو ما أخفى ليوسف ﴿عز الملك في لباس ثوب الرق، قال: ﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ﴾ [يوسف: ١٠٠] (٥).

(١٩) وهو اللطيف سبحانه: الذي خفي عن الأوهام، واضح بالأعلام، لا يُدرك بالكيفية، وإنما يُعلم بالأدلة الإلهية^(٦).

جلال اللطيف

الأول: من جلاله: أنه تعالى "لطف عن أن يدرك بالكيفية"^(٧)، بحيث تخسأ الأبصار، دون إدراك حقيقته^(٨)، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

فإن الله ﷻ لا يُرى في الدنيا لطفًا وحكمة، ويُرى في الآخرة إكرامًا وتفضلاً، ولا يدرك ولا

(١) «نظم الدرر» (٩٩/٤)، و«الموسوعة» (١٦٩/١)، و«النهاية» (٨٣٥).

(٢) «نظم الدرر» (٦٩٠/٢).

(٣) لما أراد سبحانه أن يملك يوسف ﷺ مصر وجعل وسيلة ذلك استعباده بها، ويحصل معناه بتمام الخبرة والحكمة، وتلك إبداء الشيء في ضده - يتضح اختصاصه بالحق سبحانه. «نظم الدرر» (٦٩١/٢).

(٤) «شرح أسماء الله الحسنى» (٢٥٤) للرازي بتصرف.

(٥) «شرح أسماء الله الحسنى» للبرنسي (٦١).

(٦) «الأمد الأقصى» (٥١٣/١).

(٧) «شأن الدعاء» (٦٢)، «الأسنى» للقرطبي (٢٣٣/١).

(٨) «الموسوعة» للشرباصي (١٧٠/١).

يُحاط به علماً، في الدنيا ولا في الآخرة، لجلاله، وعظمته، ولطفه^(١).

الثاني: ومن جلاله: أنه تعالى يلطف بعبد ووليه الذي يريد أن يتم عليه إحسانه، ويشمله بكرمه، ويرقيه إلى المنازل العالية، فيلطف في أموره الداخلية المتعلقة بنفسه، ويلطف به في أموره الخارجية عنه، فيسوقه ويسوق إليه ما فيه صلاحه ونجاحه، من حيث لا يشعر بها العبد، ولا يسعى فيها، فيجري عليه من أصناف المحن التي يكرهاها، وتشق عليه، وهي عين صلاحه، والطريق إلى سعادته الأبدية، وفلاحه السرمدى من حيث لا يحتسب، فهو سبحانه يمتحن أوليائه بما يكرهون، لينيلهم ما يحبون.

فهو سبحانه لطف بهم في أنفسهم فأجراهم على عوائده الجميلة، وصنائه الكريمة، ولطف بهم في أمور خارجه عنهم لهم فيها كل خير وصلاح، ونجاح، فأى جلال أسمى من هذا، فسبحان الله تعالى، كم لله من لطفٍ وكرم، لا تدركه الأفهام، ولا تتصوره الأوهام، فسبحان مَنْ خفيت ألطافه، ودقت في إيصال البر والإحسان، إلى خواص أصفیائه، وأوليائه^(٢).

الثالث: ومن جلال لطفه سبحانه: اختصاصه بدقائق الأفعال^(٣)، "وإدراكه أسرار الأمور، حيث أحاط بها خبره من كل الوجه، تفصيلاً، وإجمالاً، وسراً وعلانية"^(٤)، كإخراج اللبن بياضه، وطعمه، وحلاوته من بين فرثٍ ودم، في باطن الحيوان، فيسري كلُّ إلى موطنه، إذا نضج الغذاء في معدته، فيصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكل منها لا يشوب الآخر، ولا يمازجه بعد انفصاله عنه، ولا يتغير، لبناً خالصاً من الكدر، سائغاً للشاربين^(٥)، قال رب العالمين: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ ﴿٦١﴾ [النحل].

الرابع: ومن جلال اللطيف جل ثناؤه: أنه حفظ كل لطيفة في طي كل كثيفة، وصان كرائم الودائع في مواضع مجهولة خفية، ألا ترى: أنه جعل التراب الكثيف، معدن الذهب والفضة، والصدف معدن الدر، والنحل وهو ذباب موضع الشهد، والدود مصدر الحرير...^(٦) فسبحانه

(١) انظر «أسماء الله الحسنى» للرضواني (٣٤٩)، وكتابنا: «الصفات المنفية» (٣٣٤).

(٢) «الحق الواضح» (٦١)، و«تفسير السعدي» (٢٦٨). و«توضيح الكافية» (١٢٣) بتصرف يسير.

(٣) «الأمد الأقصى» (٥١٥/١).

(٤) «معارج القبول» (٥٠/١).

(٥) «تفسير ابن كثير» (٧٧٦/٢).

(٦) «موسوعة الشرباصي» (١٧٢/١).

وله الحمد ، ما أقدره في لطفه ، وما أعجب ما يأتي به من لطفه على ما شاء من تدبيره^(١) .

الخامس ومن لطفه تعالى بأوليائه: أنه نور قلوبهم بالهدى ، ورَبَّى أجسامهم بالهدى ، وجعل لهم الولاية في البلوى ، ويدخلهم جنة المأوى^(٢) ، ورؤيته التي هي أعظم المنى .

الثمرات

عندما يدرك المؤمن اتّصافه تعالى باللطف بكل معانيه ، من دقة العلم ، وإحاطته تعالى بكنه الأشياء ، صغیرها وكبیرها ، وأنه يلطف بوليّه بإيصال إحسانه إليه ، من حيث لا يحتسب ، فإن ذلك يغرس في قلبه شجرة المحبة ، التي تثمر له أنواع القرب والعبودية ، من ذلك : محاسبة نفسه على أقواله ، وأفعاله ، وحركاته ، وسكناته .

ومن عبودية هذا الاسم الكريم: التلطف مع إخوانه المؤمنين "فيرفق بهم قولاً وعملاً"^(٣) ، وأخص من ذلك مع أهله ، في النصيح ، وفي أمره ونهيهِ ، وإيصال البر واللطف بكل أنواعه ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، "بألطف المآخذ ، وأحسن المذاهب"^(٤) .

وينبغي له أن يتوسل بهذا الاسم ، ويستحضر معانيه "فإذا قال العبد: يا لطيف ألطف بي ، أو لي ، وأسألك لطفك ، فمعناه: تولني ولاية خاصّة ، بها تصلح أحوالي الظاهرة والباطنة"^(٥) .

ومن عبودية هذا الاسم الجليل: أن تشغل نفسك بالشكر لمن لطفه بك خفي ، وبره إليك واصل في سرائك ، وضرائك^(٦) ملي .

ومن عبوديته: حيّاؤك من معرفته بدقائق أحوالك ، وخفايا أقوالك ، وأعمالك ، إذ لا يعزب عن خالق الأشياء مثقال ذرة في الأرض ، ولا في السماء^(٧) .



(١) انظر: «شرح الأسماء» للإشيلي (٢/٢٣٨) .

(٢) «تفسير القرطبي» (٤/٥٣) بتصرف .

(٣) «الأمّد الأقصى» (١/٥١٥) .

(٤) «الأسنى» (١/٢٣٦) .

(٥) «المواهب الربانية» للسعدي (٧٠-٧٦) .

(٦) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان الإشيلي (١/٢٤٠) .

(٧) «شجرة المعارف» (٦٧) .

٥٩- الله ﷻ الكبير ﷻ جل شأنه

قال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد]

المعنى اللغوي

الكبير: من صيغ المبالغة، على وزن (فعليل)، والكبر نقيض الصغر، ويقال: كبر - بالضم - يكبر أي عظم، فهو كبير.

والكبر: عظمة الذات، وكمال الصفات، ورفعة المنزلة، وجلالة القدر، والشأن، والتقدم في الوجود، فهو يشير إلى عِدَّةٍ معانٍ كمال عُلَا:

الأول: عظمة الذات وتناهيها، ومنه قوله سبحانه عن إبراهيم ﷺ: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨].

الثاني: التعالي بالمنزلة، والرفعة، والشرف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ أَكْبَرَ مُجْرِمِيهَا﴾ [الأنفال: ١٢٣]، يقال: "فلانٌ كبيرُ بني فلان"، أي: رئيسهم وعظيمهم، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٧]، أي: عظماءنا، ورؤساءنا، ومن هذا النحو يقال: "ورثه كابرًا عن كابر"، أي: أبًا كبير القدر عن أبٍ مثله.

الثالث: التعظيم، والتكبير، ومنه قيل في قصة يوسف ﷺ: ﴿فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ﴾ [يوسف: ٣١]، أي: هالهنَّ أمره فأعظمته، "وأكبرتُ الشيء": استعظمته فكبر، والتكبير: التعظيم، و"كبرتُ الله": عظَّمته، أي: وصَفْتُهُ بالكبرياء والعظمة.

الرابع: الكبير: المتكبر، "ورجلٌ ذو كبر"، أي: ذو تكبرٍ وعظمة، و"كبر الشيء": معظمه، قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ﴾ [النور: ١١].

الخامس: العظمة والكبرياء، والكبرياء: عظمة الله تعالى، وملكه، كما قال تعالى حكايةً عن

فرعون لعنه الله: ﴿وَتَكُونُ لَكُمْ أَلْكَبْرِيَاءَ﴾^(١) فِي الْأَرْضِ [يونس: ٧٨] ، والكبرياء: عبارة عن كمال الذات ، وكمال الوجود ، وكمال الوجود يرجع إلى شيئين: أحدهما: دوامه أزلاً وأبداً .

الثاني: أن وجوده هو الوجود الذي يصدر عنه وجود كل موجود ، فإن كان الذي تم وجوده في نفسه كاملاً وكبيراً ، فالذي حصل منه وجود جميع الموجودات أولى بأن يكون كاملاً وكبيراً^(٢) . والباري تعالى هو الكبير بالحقيقة ، لأنه قد قام الدليل على أنه سابق للعالم بغير تحديد ، إذ لا أول له ، لأنه تعالى لو كان له أول لكان محدثاً يفتقر إلى من يحدثه ، فثبت أنه سبق وجوده وجود العالم بغير تحديد^(٣) .

وحاصل هذه المعاني في اللغة ، أن الكبير يدل على : كمال وكبر الذات ، والشأن ، والعظمة والتقدم في الوجود ، والسبق في القدر ، والمنزلة ، والرفعة ، والكبرياء ، وكمال الصفات ، والتعالي عن كل النقائص والآفات .

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الكبير على الإطلاق ، الذي لا شيء أكبر منه بجميع الاعتبارات :

(١) فهو تعالى الكبير: الأكبر الذي لا نهاية له ، فهو أكبر من كل شيء في هذا الوجود ، وأعظم ، وأجل ، وأعلى من كل ما يخطر على البال ، أو يدور في الخيال .

(٢) فهو الكبير سبحانه: الذي له الكبرياء: في ذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، وأسمائه^(٤) ، وملكه ، قال عز شأنه: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الجن: ٣٧] ، فهو الذي :

(أ) كبر وعلا في ذاته: فلا أكبر ، ولا أعظم منه تعالى على الإطلاق ، قال ﷻ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] .

(١) صحَّ عن مجاهد ﷺ أنه قال: (الملك) ، انظر: «التفسير الصحيح» (٣/٣٠) .

(٢) «المفردات» (٦٩٦) ، و«اللسان» (٣٨٠٧/٦) ، و«النهاية» (٧٨٨) ، و«مقاييس اللغة» (١٥٣/٥ - ١٦٤) ، و«الأسنى» (٢٥٧) ، «اشتقاق أسماء الله» (١٥٥) . و«المقصد الأسنى» (١٣٤) .

(٣) «الأمم الأقصى» (٣٨٩/١) .

(٤) انظر: «الصواعق المرسلة» (١٣٧٨/٤) ، و«تيسير الكريم المنان» (٥٤٤ ، ٦٥٢) ، و«الأسنى» (٢٥٠) ، و«نظم الدرر» (٦٩/٥) (١١٢/٧) .

(ب) وهو الكبير في أوصافه: فكلها صفات كمال، وعظمة، ومجد، وجلال، لا سمي له فيها، ولا مثل، ولا شبه، ولا نظير، فليس لها حد في عظمتها، ومتعلقاتها، فهو الكبير: في مجده الذي لا يحاط، الكبير: في حمده، الذي ملأ الكون ناطقه وصامته، الكبير: في أوليته التي ليس لها ابتداء، وفي آخريته التي ليس لها انتهاء، الكبير: في رحمته التي شملت كل البرية.

(ج) وهو سبحانه الكبير في أفعاله: فعظمة خلقه، تشهد بجلال أفعاله، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر]، فهو الكبير: في عطائه الذي لا ينفد، الكبير: في رزقه الذي وسع أهل أرضه وسمواته.

(د) الكبير في أسمائه: الذي لا حصر ولا حد لأفرادها فضلاً عن آثارها ومتعلقاتها في الخليفة.

(هـ) وهو الكبير: الذي له الملك والسلطان الكامل دون ما سواه^(١)، الذي ليس لملكه زوال، وليس في عظمته انتقال.

(٣) وهو المترفع على كل شيء دونه، متسلط عليه من جميع وجوهه، وكل ما سواه خاضع لديه، فقير إليه، تحت قهره، وأمره^(٢).

(٤) وهو الكبير سبحانه: الذي ذلت لكبريائه الكائنات، وسجد لعلوه المخلوقات، ومن تكبر قصم ظهره، ومن تعاظم خفض قدره وذكره^(٣).

(٥) وهو الذي علا حكمه في أحكامه العليا الثلاثة، في الأرض والسموات العلا، فلا يستطيع أن ينقضه أحد من الوري، قال تعالى: ﴿قَالَتْ كُمْ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ١٢].

(٦) وهو تعالى الكبير: العظيم ذو الكبرياء، الذي صغر دون جلاله، وعظمته، كل الكبرياء، والعظماء، فهذان الوصفان اللذان لا يقادر قدرهما، ولا يبلغ العباد كنههما^(٤).

(٧) وهو الكبير تعالى: الذي أكبر من كل شيء شهادة، لأنه سبحانه عالمٌ بحقائقها، لأنها مبنية على علم، ويقين، وكمال الرؤية في كل آنٍ وحين، قال رب العالمين: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩].

(١) «تفسير السعدي» (٩٤٦).

(٢) «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (٦٦/٢)، و«نظم الدرر» (٦٩/٥) بتصرف.

(٣) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (٢٠٩/١) بتصرف يسير.

(٤) ينظر: «شأن الدعاء» (٦٦)، و«فتح الرحيم الملك» (٣٠).

(٨) وهو سبحانه الكبير: المصرف عباده على ما يريده منهم دون أن يريدوه^(١)، من أمر أو نهى، بكمال الحكمة والعدل، لا يقضى دونه أمر، ولا يرد حكمه وقضائه أحد في الكون.

(٩) وهو الذي كبر عن صفات وشبه المخلوقين، فهو تعالى أكبر من مشابهة المخلوقات، فليس له سبحانه شبيه، ولا مثل، ولا نظير من جميع الوجوه.

(١٠) وهو سبحانه الكبير: الذي له العظمة والإكبار، والإجلال، والسلطان، في السماوات والأرض، ومن ذلك: أن له التعظيم في قلوب وألسنة أوليائه، وأصفيائه الأبرار، قد ملئت قلوبهم من تعظيمه، وإجلاله، والخضوع له، والتذلل لكبريائه.

(١١) وهو الكبير سبحانه: العظيم الشأن الجليل، الذي يرجع إليه كل الخليفة في جميع شؤونهم، وملئاتهم الصغيرة والكبيرة، فإن عظيم القوم هو الذي يرجع إليه في الملئ^(٢).

(١٢) ومن كمال كبريائه: أنه تعالى هو أكبر من حمد الحامدين، وأياديه أعلى وأجل من شكر الشاكرين، فكل الحامدين إذا حمدوه وجب أن يعرفوا أنه أعلى وأكبر من أن يكون الحمد الذي حمدوه لا نقاً بإنعامه وآلائه، قال سبحانه: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الكبرياء في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم] [الجبانية: ٣٦ - ٣٧].

(١٣) وهو الكبير تعالى: الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا يحد جزاؤه لوقوع أفعاله على أتم الوجوه، وهو اللائق بجبروته وكبريائه، قال تعالى: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: ٩]^(٣).

(١٤) وهو الكبير سبحانه: الذي لا يليق الكبر إلا له، الذي يتضاءل عنده كل ما فيه صفات تقتضي الكبر، وكبر كل متكبر، وكبر كل كبير متضائل تحت دائرة كبره^(٤).

(١٥) وهو تعالى الكبير: الذي له الكمال الدائم في الوجود، أزلاً وأبداً، المستوي فوق عرشه، فوق كل موجود.

(١) «المنهاج» (١/١٩٦)، و«الأسنى» (٢٥٠).

(٢) اشتقاق أسماء الله (١٥٥)، و«شأن الدعاء» (٦٦)، و«شرح أسماء الله» للبيضاوي (٢٥٢)، و«تيسير الكريم المنان» (٩٤٦)، و«فتح الرحيم» (٣٠).

(٣) «إرشاد العقل السليم» (٥/٤١٢)، و«غاية الأمانى» (٦/٣٠٠)، و«مدارك التنزيل» (١٠٥٣).

(٤) «نظم الدرر» (٤/١٢٩) (٤٩١/٦).

- (١٦) فهو تعالى أكبر من إدراك العقول ، أو تختلجه الظنون ، أو تراه في الدنيا العيون .
- (١٧) وهو الذي كبر وتعالى عن كل النقائص ، والمساوى ، والعيوب ، التي تنافي كبرياءه ، وعظمته ، وجلاله ، ومن ذلك : أن يظلم أحداً من عباده .
- (١٨) والله سبحانه هو الكبير : "الذي هو أكبر من أن يعرف أو يدرك كنه كبريائه ، وعظمته ، وجلاله غيره" (١) .
- (١٩) وهو الذي كبر وعلا عن كل عبودية سواه ، فلا يقبل أن يعبد غيره .
- (٢٠) "وهو الكبير : الذي هو أعلى وأعظم وأجل من أن يوصف له شريك" (٢) في الربوبية ، فليس له معين ، أو نصير ، أو مشير .
- (٢١) "وهو ذو العلاء والكبرياء : الذي ليس لأحد من أشرف الخلائق من ملك أو نبي أن يتكلم في يوم القيامة إلا بإذنه ، أو يشفع إلا لمن ارتضى به ، قال سبحانه : ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿سبأ: ٢٣﴾" (٣) .
- (٢٢) "وهو الذي لا ينازعه في كبريائه نِدٌّ ، (ولا ضد) ، ولا تهتدي لوصف (حقيقة) عظمته عقول (أي) أحد .
- (٢٣) وهو الذي فاق مدح المادحين ، ووصف الواصفين وثناء المثنيين ، فهو تعالى أكمل ، وأكبر ، وأجل الأشياء ، وأشرفها من جميع الوجوه والاعتبارات" (٤) .

جلال الكبير

الأول: أن جلال كبريائه ﷻ لا يعلمها إلا هو ، لا ملك مقرب ، ولا نبي مرسل ، فاختص الله ﷻ بها ، فمن نازعه فيها عذبه ، قال ﷻ فيما يحكيه عن ربّه ﷻ : «العز إزاره ، والكبرياء رداؤه ، فمن ينازعني عذبتّه» (٥) .

(١) ينظر: «النهاية» (٧٨٨) ، و«شرح أسماء الله» للبرنسي (٨٣) .

(٢) «بحر العلوم» (٧٣/٣) .

(٣) انظر: «مدارك التنزيل» (٩٦٢) ، و«غاية الأمانى» (٨٥٧/٥) ، و«إرشاد العقل السليم» (٢٥٩/٥) .

(٤) «لوامع البينات» (٢٦٨) ، و«موسوعة له الأسماء الحسنی» (٢٠٤/١) .

(٥) «مسلم» (٢٦٢٠) .

(الله أكبر): أي: الله أكبر، من كل شيء ذاتاً، وقدراً، ومعنى، وعزة، وجلالة، يقال: أنها أبْلَغَ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال^(١).

فهي كلمة جمعت الخير ففيها الشهادة لله تعالى بأنه أكبر من كل شيء، وأنه سبحانه أجل من كل شيء، وأنه تعالى أعظم من كل شيء^(٢).

الثاني: ومن جلال هذا الاسم الكريم: أنه أكمل من صفة العظمة، لأنه يتضمنها، ويزيد عليها في المعنى، لأن في "قول «الله أكبر» إثبات عظمته سبحانه، فإن الكبرياء تتضمن العظمة، لكن الكبرياء أكمل، ولهذا جاءت الألفاظ المشروعة في الصلاة، والأذان، بقول: «الله أكبر»، فإن ذلك أكمل من قول: الله أعظم، كما ثبت في الحديث السابق: «... الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري» فجعل العظمة كالإزار، والكبرياء كالرداء، ومعلوم أن الرداء أشرف، فلما كان التكبير أبْلَغَ من التعظيم، صرّح بلفظه، وتضمن ذلك التعظيم^(٣).

الثالث: ومن جلال الكبير سبحانه: أنه أعلى نفسه وقدره، وإكباره، وتكبيره، وإجلال نفسه، ومدحه نفسه، وتقديسه، وتنزيهه نفسه، عدلٌ منه، وحكمة، وقسط، وصدق، أعطى نفسه قسطه الذي هو له أهل، وصدق، وقال الحق، وفعلَه، وأفضل به عباده، (وهو مع ذلك): العلي الكبير^(٤).

الرابع: ومن جلاله: أن "الأرض والسموات كلها بيمينه، وليس في شماله كلها شيء"^(٥)، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

الخامس: ومن جلال الكبير سبحانه: (أ) "أنه لا يتصور عليه المقدار. (ب) أنه لا يجوز عليه التقدير. (ج) أنه لا يُردُّ عليه شيء من التدبير. (د) أنه لا يخالف في الأمور. (هـ) أنه لا يُكَبَّرُه تكبير المكبرين"^(٦).

(١) «الصواعق المرسلة» (١٣٧٩/٤)، «تفسير ابن عطية» (١١٧٣)، «الأسنى» (٢٥٢).

(٢) «الشرح الممتع في باب الصلاة» لابن عثيمين رحمه الله.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٢٥٣/١٠).

(٤) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان الإشيلي (١٥٤/١).

(٥) «شرح كتاب التوحيد» للعلامة عبد الله الغنيمان (٣٩٢/١).

(٦) «الأمَد الأقصى» (٣٩٤/١)، «شعب الإيمان» (١٨٢/١).

الثمرات

يجب أن يعلم كلُّ مكلف أن الكبرياء والعظمة لله تعالى وحده، وأنه لا حظَّ له من هذا الاسم، إنما حظُّه: الذلَّة والافتقار، للكبير القهَّار، فينبغي أن يتصاغر لكبريائه، ويترك الإباء عن المسارعة في طاعته، وترك الاستكبار، (وأن يلزم التكبير والتعظيم لرَبِّه في الليل والنهار، قال تعالى: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء]،) فيثني بهذا الوصف بلسانه، متابعاً بذلك عقد جنانه، فحينئذٍ ينشرح بنور الله صدره، ويكبر قدره، فيكون كبيراً في الأرض وفي السماء، بما رزقه الله تعالى من معرفة حقائق الأسماء^(١).

وينبغي للعبد أن يخلع عن نفسه أوصاف الربوبية، ويلبس رداء العبودية، وإيَّاكَ يا عبد الله والتكبر عن الحق، والخلق، فتحرم دخول جنة الخلد، قال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»^(٢).

واعلم رعاكَ الله تعالى أن الكبر مذمومٌ كله، إلا التكبر على أعداء الله تعالى في الحرب والمعركة، وفي الإنفاق بالصدقة، فإنه محمود عند الله سبحانه، قال ﷺ: «... وإن من الخيلاء ما يبغض الله، ومنها ما يحبه الله، فأما الخيلاء التي يحب الله: فاختيال الرجل نفسه عند القتال، واختياله عند الصدقة، وأما التي يبغض الله فاختياله في البغي»^(٣).

وقوله: «واختياله عند الصدقة»: فإنه من أسباب الاستكثار منها، والرغوب فيها، حين يعطيها بطيب نفسه، وينبسط بها صدره ولا يستكثر، ولا يبالي بما أعطى^(٤).

"واعلم أن تصاغرك بين يدي ربك شرفك عنده، وتصاغرك بين يدي من يلزمك طاعته، طاعة لربك، وزين لك عنده، وعند أبناء جنسك، كما أن تصاغرك لذي دنياه هدم لدينك، وتغير لقدرك عند الله سبحانه" ^(٥).

(١) انظر: «الأسنى» (٢٥١، ٤٦٧).

(٢) «صحيح مسلم» (٩١).

(٣) «صحيح أبي داود» (٢٦٥٩). قوله ﷺ: «فاختيال الرجل نفسه عند القتال» أي: الدخول في المعركة بنشاط وقوة، وإظهار الجلالة، والتبخر فيه، لتهيب أعداء الله، وإدخال الروح فيهم، والتنشيط لأولياء الله تعالى.

(٤) «عون المعبود شرح سنن أبي داود» (١١٧/٥).

(٥) «شرح أسماء الله الحسنى» للإشبيلي (١٥٦/١).

٦٠-٦١- الله ﷻ الشَّاكِر، الشُّكُور ﷻ عزَّ شأنه

قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [السَّاء] .

وقال جلَّ شأنه: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ [التَّغَابُن] .

المعنى اللغوي

الشَّاكِر: اسم (فاعل) للموصوف بالشكر، والشُّكُور: صيغة مبالغة من (فَعول)، أي: كثير الشكر، والشُّكُور أبلغ من شاكِر، وقيل: إن مجيء (الشُّكُور) بصيغة المبالغة دون (الشَّاكِر)، لأن الشَّاكِرِينَ غير قليلين، وأما المبالغون في الشكر فقليلون، وأصل الشكر: الزيادة، والنماء، والظهور، يقال: "شكرت الأرض": إذا كثر النبات فيها، وكل نبت يكتفي بالماء القليل فهو شكور، و"شكرت الإبل" تشكر: إذا أصابت مرعى فسمنت عليه.

وحقيقة الشكر: الثناء على المحسن، بذكر إحسانه، وعرفانه، ونشره، والشكر من الله تعالى: المجازاة، والثناء الجميل على عبده بذكر أفعاله الحسنة، وشكرت الله: اعترفت بنعمته، وفعلت ما يجب فعله من طاعة، وترك المعصية^(١).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الشَّاكِر الشُّكُور الذي هو أولى بصفة الشكر من كل مشكور، بل هو الشُّكُور على الحقيقة^(٢):

(١) فهو تعالى بليغ الشكر: يشكر اليسير من الطاعة، فيجازي عليه الكثير، بل يضاعفه أضعافاً مضاعفة من الثواب، خارجاً عن الحصر، بغير عدٍّ ولا حساب.

(٢) وهو الشُّكُور: العفو عن السيئات، الذي يغفر الكثير من الزلل، ويقبل اليسير من

(١) «المفردات» (ص ٤٦١)، و«عمدة الحفاظ» (٢/٢٨٤)، و«لسان العرب» (٤/٢٣٠٥)، و«النهاية» (٤٨٨)، و«اشتقاق أسماء الله» (٨٧)، «المصباح» (١٨٦).

(٢) «عدة الصابرين» (٢٨٣).

صالح العمل ، ويثيب عليه الثواب الجلل ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ١].

(٣) وهو سبحانه يشكر العباد على شكرهم له ، فيزيدهم من خيره وفضله ، نعمًا هو أعطاهم إِيَّاهَا ، وجعلها لهم ، وهذا من شكره لهم سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

(٤) وهو الشكور سبحانه: الذي يثني على خيار خلقه أنبياءه ورسله ، بذكر خصالهم الحسنة ، وأفعالهم الجميلة ، فمن شكره:

(أ) إنه مدح نبيه محمداً ﷺ بقوله الحق: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

(ب) وقال في إسماعيل: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

(ج) وفي إبراهيم الخليل: ﴿وإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٤].

(د) وفي موسى الكليم: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١] وإلى غير ذلك من الثناء عليهم ، عليهم الصلاة والسلام^(٢).

(٥) وهو الشاكِر تعالى: المادح لمن يطيعه ، والمثني عليه^(٣) ، فهو سبحانه يشكر عباده الصالحين ، فيمدحهم ويثني عليهم بقوله ، بذكر حسن عبادتهم له ، وطاعتهم له سبحانه في الأرض ، وفي السموات العلا ، في الدنيا ، وفي العقبى :

(أ) في الدنيا: "يشكر عبده بقوله: بأن يثني عليهم بين ملائكته ، وفي ملائكة الأعلى"^(٤) ، قال سبحانه: «... وَإِذَا ذَكَرْنِي فِي نَفْسِهِ ، ذَكَرْتَهُ فِي نَفْسِي ، وَإِنْ ذَكَرْنِي فِي مَلَأٍ ، ذَكَرْتَهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»^{(٥)(٦)}.

(١) انظر: «شأن الدعاء» (٦٥) ، و«الاعتقاد والهداية والرشاد» (٥٢) ، و«المنهاج» (٢٠٥/١) ، و«تفسير القرآن» لأبي مظفر السمعاني (٤٥٦/٥) ، و«نظم الدرر» (٢١/٨).

(٢) «الأسنى» (٣٢٤/١).

(٣) «المنهاج في شعب الإيمان» (٢٠٥/١).

(٤) «عدة الصابرين» (٢٨٢).

(٥) وكما في قوله ﷺ في مجالس الذكر: «... أما إنني لم أستحلفكم تهمة لكم ، ولكن أناني جبرائيل فأخبرني أن الله ﷻ يباهي بكم الملائكة» البخاري (٧٤٠٥) ، ومسلم (٢٦٧٥).

(٦) مسلم (٢٧٠١).

(ب) "ويلقي له الشكر بين عبادِه، ويشكره بفعله" ^(١)، قال ﷺ: «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق، فأخره، فشكر الله له، فغفر له» ^(٢).

(ج) بأن يمدحهم في الكتاب بقرآن يتلى إلى يوم القيامة، فمدح عامتهم بقوله الحق، ولا يقول سبحانه إلا الحق فقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ^(٣).

وأثنى على بعض خواصِّهم، فقال عز شأنه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨] ^(٤).

(د) وفي العقبى: في العرصات في يوم القيامة، قال ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله» ^(٥).

(٦) "وهو سبحانه يعطي الجزيل من النعمة، فيرضى باليسير من الشكر" ^(٦).

(٧) ومن كمال شكره ﷺ: أنه يعطي العبد، وينعم عليه، ثم يوفِّقه لما يشكره عليه، ثم يعيد منفعة شكره، ويجعله سبباً لتوالي نعمه واتصالها إليه، فهو الذي أعطى فائضاً، فمنه السبب، ومنه المسبب، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢] ^(٧).

"سبحان الله يمنٌ علينا بالسعي، ويوفِّقنا له، ويعيننا عليه، ثم يشكرنا عليه، هذا والله هو غاية الفضل والإحسان، فله الحمد والشكر" ^(٨).

(٨) ومن كماله: "أنه يشكر القليل من العمل والعطاء، مع إنعامه الكثير من الآلاء، فلا

(١) «عدة الصابرين» (٢٨٢).

(٢) البخاري (٦٥٢)، ومسلم (١٩١٤).

(٣) وقال: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٧]، وقال: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

(٤) وقال: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ الآية [الفتح: ٢٩].

(٥) البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(٦) «شأن الدعاء» (٦٥).

(٧) انظر: «عدة الصابرين» (٢٨٢)، و«مدارج السالكين» (٢٥٢/٢).

(٨) «تفسير سورة آل عمران»، لابن عثيمين (١٩٥/٢).

يَسْتَقْلَهُ أَنْ يَشْكُرَهُ" (١)، ويضاعف له من الثواب والجزاء، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْرَفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا﴾ [الشورى: ٢٣].

٩) ومن شكره الجميل: "أن من ترك شيئاً له سبحانه، أعطاه وعوّضه خيراً وأفضل منه، وإذا بذل له شيئاً، ردّه عليه أضعافاً مضاعفة، وهو الذي وفقه للتكفر والبذل، وشكره على هذا وذاك" (٢).

١٠) ومن كمال شكره سبحانه: أنه يشكرنا وهو غني عنا، وعن شكرنا، لا يفتقر إلى طاعتنا، بل إنما هو بمحض فضله علينا، قال ﷺ: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّيْ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]. فعدم رضاه تعالى بكفر عباده لأجل منفعتهم، ودفع مضرّتهم، ورضاه بشكرهم لأجلهم، ومنفعتهم، لأنه سبب فوزهم بسعادة الدارين.

١١) وهو سبحانه المنفرد بشكر الشاكرين، وثواب المطيعين، فقد جازى عباده في العاجل، ووعدهم بحسن الجزاء في الآجل، وقد أخبر أن يضاعف الحسنات، ويتجاوز عن السيئات، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢] (٣).

١٢) ومن كمال وسمو شكر ربنا سبحانه: "أن العبد يأتي بطاعات مخلوطة بالرياء، والرب مع هذا يعطيه الثواب الخالص من الكدورة والجفاء" (٤)، سبحانه ما أكمله.

جلال الشاكِر الشكور

الأول: من جلاله: أنه تعالى يجازي عدوه بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا، ويخفف به عنه يوم القيامة، فلا يضيع عليه ما يعمله من الإحسان، وهو من أبغض خلقه إليه.

الثاني: من جلاله: أنه غفر لعبدٍ من أجل تنحية شوكة: قال ﷺ: «بينما رجل يمشي بطريق، وجد غصن شوك على الطريق، فأخّره، فشكر الله له فغفر له» (٥).

(١) «عدة الصابرين» (٢٨٥).

(٢) المصدر السابق، و«الحق الواضح» (٧١).

(٣) «الأسنى» (٣٢٥/١).

(٤) «لوامع البينات» (٢٦١).

(٥) «البخاري» (٦٥٢)، «مسلم» (١٩١٤).

الثالث: ومن جلال شكره: أنه غفر لامرأة بغِيَّ سقت الكلب الماء^(١)(٢).

الرابع: أنه يعطي العبد ما يشكر عليه، ثم يشكره على إحسانه إلى نفسه، لا على إحسانه إليه، ووعدته على إحسانه لنفسه، أن يحسن جزاءه ويقربه لديه، وأن يغفر خطاياها إذا تاب منها، ولا يفضحه بين يديه^(٣).

الخامس: أنه اشتق للشاكِر اسمين من أسمائه الحسنَى، فسَمَّى نفسه (شاكِرًا، وشكورًا)، فأعطاهم من وصفه^(٤)، وسَمَّاهم باسمه، وحسبك بهذا محبة للشاكِرين وفضلاً، قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكَ مَشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢]^(٥)، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، ولهذا كان أحب خلقه إليه، من أتصف بصفة الشكر، كما أن أبغض خلقه إليه، من عطلها، وأتصف بضدّها.

السادس: ومن جلال الشاكِر الشكور: أنه يخرج العبد من النار بأدنى مثقال ذرة من خير، ولا يضيع عليه هذا القدر.

السابع: أن شكره اقتضى أن لا يعذب المؤمن الشكور، ولا يضيع عمله^(٦)، وأن لا يضيع أجر محسن، ولا يعذب غير مسيء، قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَدَائِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٢٧].

الثامن: ومن جلال شكره سبحانه: أن جعل أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان، تمنع الخلود في النيران^(٧).

التاسع: ومن جلال شكر ربنا: أنه تعالى يوصل الشاكِر إلى مشكوره، بل يعيد الشاكِر مشكورًا، وهو غاية الرب من عبده، [ولهذا] كان أهله القليل من عباده ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]^(٨).

(١) «البخاري» (٣٤٦٧)، «مسلم» (٢٢٤٥).

(٢) «عدة الصابرين» (٢٨٢).

(٣) «عدة الصابرين» (٢٨٥).

(٤) لأن الصفات مشتقة من الأسماء، فكل اسم يدل على صفة، لا العكس، انظر «شفاء العليل» (٢٧٧).

(٥) «مدارج السالكين» (٢٥٢/٢).

(٦) «عدة الصابرين» (٢٨٣).

(٧) «فتح الرحيم الملك» (٤٣).

(٨) «مدارج السالكين» (٢٥٢/٢).

العاشر: ومن جلاله: أن العبد يتحمل من أجله بعض المشاق، فيشكر الله له، ويقوم بعونه، ويكون معه، فتقلب المشاق والمصاعب سهولات، وتلك المتاعب راحات^(١).

الحادي عشر: من جلاله: أنه يجازي عباده في طاعات يسيرة، في أيام قليلة، جنات عليّة سرمدية^(٢).

وكل هذا ليس حقاً واجباً عليه، وإنما هو الذي أوجبه على نفسه جوداً منه وكرماً^(٣).

فسبحان من جعل عجز العاجزين عن شكره، والثناء عليه، شكراً لهم، كما جعل معرفة العارفين، بأنهم لا يدركون كنه صفاته، إيماناً لهم^(٤).

الثمرات

من عبودية هذين الاسمين الكريمين: أن يلزم العبد شكر ربه الشكور، في ليله، ونهاره، في سره، وعلا نيته، بفعله، وقوله، وجنانه، لما أسدى إليه من نعمه وآلائه التي لا تعد، ولا تحصى، ولا تعد، ولا منتهى، وأعظمها نعمة الإسلام، المغبون بها أكثر الأنام.

"وإذا عرفت هذا رعاك الله فتفكر في أقسام نعم الله عليك، كنت معدوماً محضاً فجعلك موجوداً، ثم أعطاك الصورة الحسنة في الظاهر، والعقل الذي هو أشرف الصفات في الباطن، وشقّ سمعك، وبصرك، وهداك إلى معرفته، وعرضك للثواب العظيم، وأثنى عليك في كتابه الكريم، ثم إنك إذا حركت لسانك وقلت الحمد لله، فاعتقدت أن تحريك اللسان بذكر هذه الكلمات يفي بشكر هذه النعمة العظيمة، فهذا الإنسان في البعد عن العقل أعظم"^(٥)، لأن التوفيق إلى شكر المنعم يحتاج إلى شكر آخر، لأنه سبحانه هو الذي وفّقك إلى شكره، فإذا كان كذلك، فأني لك أن تشكره حقّ الشكر الذي يستحقّه عليك سبحانه؟

واعلم رحماني الله وإياك أن أعظم الشكر لربّنا الشكور، توحيده، وإخلاص الدين له، واجتناب ما يناقض توحيده، من الأقوال، والأفعال الظاهرة، والباطنة، "ثم اعلم أن على كلّ

(١) «فتح الرحيم» (٤٣).

(٢) «شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (٦١).

(٣) «الحق الواضح» (٧١).

(٤) «شأن الدعاء» للخطابي (١٦).

(٥) «شرح الأسماء» للرازي (٢٦٣).

جارحةً شكرًا يخصها، وعلى اللسان من ذلك، مثل ما على سائر الجوارح، وقد أخبر رسول الله ﷺ أن الأعضاء تقول للإنسان: «اتق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمتم استقمنا، وإن اعوججت أعوجنا»^(١)، وشكر كل جارحة إنما هو باستعمالها بتقوى الله العظيم، في امتثال ما يخصها من الطاعات، واجتناب ما يخصها من العصيان.

فشكر البدن ألا تستعمل جوارحه في غير طاعته، وشكر القلب ألا تشغله بغير ذكره ومعرفته، وشكر اللسان ألا تستعمله في غير ثنائه ومدحه، وشكر المال ألا تنفقه في غير رضاه، ومحبه، ووراء ذلك تطوعات للشاكر والشكور، قام رسول الله ﷺ من الليل حتى تورمت قدماه، فقيل له: تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا»^(٢) أي: طالبًا للمزيد، لقوله تعالى: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]^(٣).

وينبغي لك يا عبد الله: أن تشكر من أسدى إليك معروفًا من الأنام، قال ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»^(٤)، وأولى بذلك الوالدان، اللذان كانا سببًا لوجودك بإذن من الرحمن. واعلم رعاك الله "أن منزلة الشكر، هي من أعلى المنازل، وهي فوق منزلة (الرضى) وزيادة"^(٥)، فالزمها حتى تنال رضى الديان.



(١) «صحيح الترمذي» (٢٤٠٧).

(٢) البخاري (١١٣٠)، ومسلم (٢٨١٩).

(٣) «الأسنى» (٣٢٦/١).

(٤) «صحيح أبي داود» (٢٤٠٧).

(٥) انظر «مدارج السالكين» (٢٥٢/٢).

٦٢- الله ﷻ العليم ﷻ سبحانه وتعالى

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة].

المعنى اللغوي

العليم: من أبنية المبالغة على وزن (فعليل).

والعلم هو: معرفة الشيء، وإدراكه بحقيقته، وهو الاعتقاد الجازم الثابت المطابق للواقع، أي: على ما هو عليه بدون تردد وبدون شك^(١).

والعلم هو: المعرفة بكيفية ذلك الشيء، وكميَّته، وصفاته، ونوعته، وأشكاله، وأحواله^(٢).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو العليم، الذي لا أعلم منه سبحانه، وسع علمه السموات والأرض وما فيها من ذوات ومعاني وأوصاف وأفعال:

(١) فهو سبحانه العليم: الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عن علمه قاصية ولا دانية^(٣).

(٢) فهو تعالى العليم: عالم الغيب والشهادة^(٤)، وهو علام الغيوب^(٥)، وهو عالم غيب السموات والأرض^(٦)، سبحانه.

فهو عالم الغيب، وهو: ما غاب عن حواسِّ الخلق، وعالم الشهادة، وهو: ما يدخل تحت إدراك الحواس، فهو سبحانه: عالمٌ بكلِّ غائب، وبكلِّ مشهود^(٧).

(١) «المفردات» (٥٨٠)، «الكليات» (٦١٠).

(٢) «شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان (٣٣٣/١).

(٣) «لوامع البينات» (٢٤١).

(٤) كما قال تعالى: ﴿عَلَيْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الأنعام: ٧٣].

(٥) كما قال سبحانه حكاية عن عيسى ﷺ: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

(٦) كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣٨].

(٧) انظر: «تفسير الطبري» (٢٨٦/٣)، و«المنهاج» (١٩٩/١)، و«التحرير والتنوير» مع (٨) (٢١٤/٢١).

(٣) فهو تعالى العالم: الذي أحاط بكل شيء علماً، الذي لسعة علمه: يعلم ما بين أيدي الخلائق وما خلفهم، فلا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا تتحرك ذرة إلا بإذنه، قال سبحانه: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام].

(٤) فهو سبحانه يعلم: ديبب الخواطر في القلوب حيث لا يطلع عليها المَلَكُ، ويعلم ما سيكون منها، حتى لا يطلع عليه القلب^(١).

(٥) فهو سبحانه عظيم العلم، واسعه، تأمُّه، شامله، عليماً بأسرار الأمور، وبواطنها كظواهرها^(٢).

(٦) فالغيب عنده شهادة، والسرُّ عنده علانية، والمستور لديه مكشوف، وكل أحدٍ إليه فقير على الدوام ملهوف.

(٧) وهو يعلم: السرَّ وأخفى من السر، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ الْسِرَّ وَآخَفَى﴾ [طه]، فالسرُّ ما انطوى عليه ضمير العبد، وخطر بقلبه، ولم تتحرَّك به شفتاه، وأخفى منه: ما لم يخطر بقلبه بعد، فيعلم أنه سيخطر بقلبه كذا وكذا، في وقت كذا وكذا^(٣).

(٨) وهو العليم سبحانه: العالم بمضمورات القلوب، والحاوي محجوبات الغيوب، المطلع على خفِّيات الإضمار^(٤)، التي في كلِّ الملكوت.

(٩) فعلمه جل ثناؤه: أزلي أبدي، لم يسبق بجهل، ولا يعرض له خفاء، ولا يلحقه نسيان^(٥)، قال تعالى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥٢].

(١٠) فهو تعالى يعلم: نفسه الكريمة، ونعوته المقدسة، وصفاته العظيمة، وأسماءه^(٦)، وأفعاله، وملكه، ولا يعلم حقيقته وكنهه سبحانه أحدٌ من عباده، لكمال عظمته.

(١١) وهو العليم سبحانه: "المنفرد بالتعليم، فهو العالم بالمعلومات، ولا يعلم أحدٌ شيئاً إلا

(١) «طريق الهجرتين» (٢٣٤)، و«هداية الحيارى» (٥٢٣)، و«موسوعة له الأسماء الحسنى» (١٢٧/١).

(٢) «نظم الدرر» (٤٠٩/٥)، و«تفسير السعدي» (٦٠٠).

(٣) «الوابل الصيب» (٦٢)، و«شفاء العليل» (٤١ - ٤٣).

(٤) «شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان (٢٥٣/٢).

(٥) ينظر: «شأن الدعاء» (٥٧).

(٦) «الحق الواضح» (٣٦)، و«شرح أسماء الله وفوائدها» (٥١).

بتعليمه ، كما قالت الملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢] ^(١).

(١٢) وهو الذي أحاط علمه: بجميع العالم ، العلوي ، والسفلي ، وما فيه من المخلوقات: ذواتها ، وأوصافها ، وأفعالها ، وجمع أمورها ^(٢).

(١٣) وهو العليم جل ثناؤه: الذي يعلم أحوال المكلفين منذ أنشأهم ، وعد ما يميتهم ، وبعدما يحييهم ، وقد أحاط علمه بأعمالهم كلها ، خيرها وشرها ، وجزاء تلك الأعمال ، وتفاصيل ذلك في دار القرار .

(١٤) وعلم الله ﷻ: يتعلّق بجميع المعلومات على اختلافها وتباين الطرق الحاصلة بها دون سبب ، ولا نظر ، ولا مقدّمات ، ولا حدوث آفة ، ولا نقيصة ، كما يكون في علم المخلوقات .
فمن كمال علمه وسعته وشموله ﷻ:

(١) أنه العالم بما كان ، وما يكون قبل كونه ، وبما يكون ، ولما يكن بعد قبل أن يكون ، وأنه لو كان كيف يكون ، فهو سبحانه يعلم ما كان ، وما يكون من المستقبلات ، التي لا نهاية لها .

(٢) ومن كمال علمه سبحانه: أنه أحاط علمه بجميع الأشياء ، ظاهرها وباطنها ، غيبها وشهادتها ، دقيقة وجليها ، أولها وآخرها ، على أتم الإمكان ، قال عز شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران] ^(٣).

(٣) من سعته: أنه يعلم ما في السموات السبع ، والأرضين السبع ، وما بينهما ، وما تحت الثرى ، وما في قعر البحار ، ومنبت كل شجرة ، وكل شجرة ، ومسقط كل ورقة ، وعدد الحصى والرمل والتراب ، ويعلم كل شيء ، ولا يخفى عليه شيء ، وهو على العرش استوى ، فوق كل الورى ^(٤).

(٤) ومن كمال علمه: أنه تعالى أحاط علمه بالواجبات ، والمستحيلات ، والمحسوسات ، والمعنويات ، والممتنعات ، والممكنات ، والماضيات ، والحاضرات ، والمستقبلات ، فلا يخلو عن علمه مكان ، ولا زمان ، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءٌ عِلْمٌ﴾ [الأنفال] .

(٥) ومن كماله: أنه يعلم الممتنعات حال امتناعها ، ويعلم ما يترتب على وجودها لو

(١) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (١٢٣/٢).

(٢) «تيسير الكريم المنان» (٩٤٥)، و«الحق الواضح» (٣٨).

(٣) ينظر: «اللسان» (٣٠٨٢/٤)، و«النهاية» (٦٣٨)، و«المنهاج» (١٩٩/١).

(٤) انظر: «السنّة» للإمام أحمد بن حنبل (٤٨).

وُجِدَتْ ، كما قال تعالى : ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلُ اللَّهِ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ، وقال سبحانه : ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [المؤمنون] ^(١) .

وكما في قوله سبحانه : ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] ^(٢) .

وعلم الله تعالى على نوعين :

النوع الأول : علمه تعالى بنفسه المقدسة ، وصفاته الجليلة ، فهذا العلم أزلي كما أن نفسه وصفاته أزلية .

والنوع الثاني : علمه تعالى بالمخلوقات ، وهذا يتعلق من ثلاث جهات :

- الأول : علمه بها قبل كونها ، وهذا علم أزلي لم يأت على الله قط زمنٌ كان غير عالمٍ بشيءٍ منها .

- الثاني : علمه بها وقت إيجادها وخلقها ، فإن خلق المخلوقات مشروط بالعلم بها ، قال تعالى : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] .

- الثالث : علمه بها كائنة موجودة ^(٣) .

﴿ جلال العلم ﴾

الأول : من جلال علمه ﷻ : أنه «كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وعرشه على الماء» ^(٤) ، وأمر القلم أن يكتب فقال له : «اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة» ، وفي لفظ : «اكتب ، فكتب ما كان وما هو كائن إلى الأبد» ^(٥) ، فتم كل شيء ، فجاءت المقادير ، على وفق علمه وتقديره ، دون تأخير ، أو تخلف ، أو تغير .

(١) انظر : «الحق الواضح» (٣٦) ، و«توضيح الكافية» (١١٨) ، و«تيسير الكريم المنان» (٩٤٥) .

(٢) في هذه الآية كذلك دليلٌ على تعلُّق علمه تعالى بالمعدومات ، ووجه ذلك : «أنَّ الله سبحانه عبَّر عن المراد قبل وقوعه باسم الشيء ، إذ سبق في علم الله أنه يوجد ذلك الشيء ، وأنه يقول له : كن فيكون ، كأن تحقق وقوعه بمنزلة وقوعه» .
«أضواء البيان» (٣ / ٢٠٥) .

(٣) انظر : «درء تعارض العقل والنقل» (٣٩/٩) (١٥/١٠) .

(٤) «مسلم» (٢٠٤٤) .

(٥) صححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢١٥٥) (٣٣١٩) ، وفي «الظلال» (١٠٢) (١٠٥) ، وفي «السلسلة

الصحيحة» (١٣٣) ، وفي «مشكاة المصابيح» (٣٤/١) .

الثاني: ومن جلال العلم سبحانه: أن "علمه بالأوائل والأواخر كلها لديه كشيء واحد، لا ترتيب في علمه، ولا حذر، ولا مسافة، ولا بعد في قدرته، فهو تعالى لذلك يخبر بما يكون في الدنيا والآخرة"^(١)، فيأتي مطابقاً لما أخبر سبحانه "بغير زيادة ذرة، ولا نقصان خردلة"^(٢).

الثالث: ومن جلال علم ربنا سبحانه: "أنه علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، فعلمه العلوم بقلبه، والتعبير عنها بلسانه، وأن يكتب ذلك بالقلم"^(٣)، قال عزّ شأنه: ﴿الرَّحْمَنُ ۙ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۚ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۖ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۖ﴾ [١ - ٤]، وقال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۖ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۖ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۖ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۖ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥]

الثمرات

إن هذا الاسم الجليل يورث المؤمن جُلَّ مقامات العبودية، التي من أعظمها وأجلّها: معرفة أسماء الله تعالى وصفاته، وتقديسه، فإن علم العباد بربهم وصفاته، وعبادته وحده، هي الغاية المطلوبة من الخلق والأمر، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بِبَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]^(٤).

وكذلك الخوف منه تعالى، وخشيته، ومراقبته، والحياء منه، في السر والعلن، لأن العبد إذا أيقن أن الله تعالى عالم بحاله مطلع على باطنه وظاهره، فإن ذلك يدفعه إلى الاستقامة على أمر الله ﷻ في كل أحواله، فتزكو أعمال قلبه وجوارحه، ويصل إلى مرتبة الإحسان، التي هي: أعلى درجات الإيمان^(٥).

وعلى العبد إذا عَلِمَ عِلْمَ رَبِّهِ حكمان:

أحدهما: أن يُقَوِّضَ إليه ويستسلم لسابق علمه.

الثاني: أن يسعى في اكتساب العلم به من كل وجه، إذ هو أشرف المكتسبات، فكلما كثرت

(١) «شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان (٣٦٠/١).

(٢) المصدر السابق (٣٦١/١).

(٣) «النبوات» (٦٧٧/٢).

(٤) «مفتاح دار السعادة» (٢٦/١).

(٥) انظر: «طريق الهجرتين» (ص ٢٧٥).

طرق العلم به، زاد العلم به، فبذلك شرف علم الملائكة، والأنبياء ﷺ، على علم الخلق، لكثرة دلائلهم^(١).

واعلم وفقنا الله تعالى وإياك: أن طلب العلم أول الواجبات عليك مع الإيمان، فتعلم العلم، واسأل ربك ﷻ أن ينفعك بما علّمك^(٢)، وبارك لك فيه، وأن يزيدك من فضله، فيعلمك من علمه الذي يقرب منه، ويزلف لديه، وتعوّذ من علم لا ينفع^(٣)، وعليك بكثرة النظر وطول الاستدلال، ولزوم التدبر، والتفرغ لذلك، فهو طريق الوصول إن شاء الله إلى علم اليقين، واللاحق بأرباب التوحيد^(٤).

ولتعلم رعاك الله سبحانه: أن علم الأسماء والصفات جماع علوم التوحيد، وعلم ما يجوز على الموحد سبحانه منها، وما يستحيل لديه.



(١) «الأمد الأقصى في شرح أسماء الله الحسنى» (١٣/٢).
 (٢) كما في دعاء المصطفى ﷺ: «اللهم انفعني بما علّمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علماً» صحيح الترمذي (٣٥٩٩).
 (٣) كان من دعائه ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع...» صحيح موارد الظمان (٤٥٤/٢).
 (٤) «شرح أسماء الله الحسنى» للإشبيلي (٣٦٢/١).

٦٣- الله ﷻ الحفيظ ﷻ تبارك وتعالى

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ [مرد]

المعنى اللغوي

الحفيظ: مبالغة من اسم (الفاعل) الحافظ، وهو أشدُّ مبالغةً من حافظ كالعليم والعالم.

والحفظ: مراعاة الشيء، وهو نقيض السهو والنسيان، وهو التعاهد والحراسة، وقلة الغفلة، وحفظ الشيء: صيانتُه من التلف، والضياع، والزوال، والمحافظة: المراقبة، ويستعمل الحفظ في العلم على معنى الضبط، وعدم النسيان^(١)، فالحفيظ له معانٍ عدة:

الأول: الرعاية، والكلاءة، والحراسة، ومنه قوله الحق مخبراً عن شعيب ﷺ: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيزٍ﴾ [الأنعام: ١٠٤]، أي: لستُ لكم بكالى من عذاب الله، ولا حارس من عقابه.

الثاني: ضد السهو والنسيان: و"حفظت الشيء": خلاف نسيته.

الثالث: ضد التضييع: وهو حراسة ذات الشيء، وجميع صفاته، وكمالاته من العدم، ومنه قوله تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصُّلُوكَاتِ وَالصُّكُوتِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨]، أي: لا تهملوها، ولا تضيعوها.

الرابع: الجمع والوعي: ومن ذلك قولهم: "حفظتُ القرآن"، أي: جمعته، إذا قرأته عن ظهر غيب، ومنه قولهم: "حفظت المتاع": إذا جمعته في الوعاء والوعي.

الخامس: الرقبة (أي الرقابة) والوكالة، ومنه قوله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيزٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الشورى: ٦].

السادس: الأمانة، ومنه قول يوسف ﷺ: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيزٌ عَلَيْهِمْ﴾ [يوسف: ٥٥].

السابع: الإحصاء: عددًا، وعلمًا، فلا يفوت شيئًا منها^(٢).

(١) «اللسان» (٩٢٩/٢)، «المفردات» (٢٤٤).

(٢) «اللسان» (٩٢٩/٢)، و«معجم مقاييس اللغة» (٨٧/١)، و«المفردات» (ص ٢٤٤)، و«اشتقاق أسماء الله» (١٤٦)، =

خاصية هذا الاسم الكريم: أنه "يختص برعاية الممكنات (المخلوقات) في النفي والإثبات ، وحفظ جميع الموجودات ، من أن يوجد فيها ما لا يريده ، وما لا يرضاه ، ومنه قوله ﷻ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١ - ٢٢]" (١).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الحفيظ ، وهو خير الحافظين ، الذي لا يغيب عما يحفظه شيء من الأشياء كلها ، من الحسيات والمعنويات ، فمن ذلك:

(١) أنه يحفظ السماوات والأرض وما فيهما ، وما بينهما:

أ - لتبقى مدة بقائها ، فلا تزول ، ولا تدثر ، ولا تميد ، فلا يثقله ، ولا يعجزه حملهما ، لكمال قدرته وقوته ، قال عز شأنه: ﴿وَلَا يَتُودُهُ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥] ، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ [فاطر: ٤١] .

ب - وحفظهما من كل شيطان عاتٍ مارد ، قال سبحانه: ﴿وَحَفِظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٧] .

ج - ويحفظ السماء أن تقع على الأرض ، قال سبحانه: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الحج: ٦٥] .

(٢) وهو الذي يحفظ على خلقه وعباده ، ما يعملون من خير أو شر ، من سرٍّ وعلن ، وصغير أو كبير ، وقد أحصى أقوالهم ، وعلم نياتهم ، وما تكن صدورهم ، فلا تخفى عليه منهم خافية ، ولا تغيب عنه منهم غائبة (٢) ، فيجازيهم بها يوم القيامة .

(٣) وهو الحفيظ سبحانه: بكلاءة الموجود ، يحرسه من أن يوجد في وجوده ما لا يريده ، أو ما لا يرضاه ، ومنه قوله عز من قائل: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ﴿١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١ - ٢٢] ، أي: ممنوع من الغلط ، والنسيان ، والتبديل ، والتغيير (٣) .

= و«شرح الأسماء الحسنی» لابن برجان (١٢٩/٢) ، و«شرح الأسماء الحسنی» للرازي (٢٧٠) ، و«الأسنى» (٣٠٧) .
(١) «الأسنى» (٣٠٨/١) .

(٢) «شأن الدعاء» (٦٧ - ٦٨) ، و«لوامع البينات» (٢٧٠) .

(٣) «شرح أسماء الله الحسنی» لأبي الحكم الإشبيلي (١٢٩/١) .

٤) وهو الذي لا يعزب^(١) عن حفظه الأشياء كلها، ولو كانت مثقال ذرة في الأرض، أو في السموات العلاء، ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ [هود: ٥٧]، فهو تعالى يعلم جملها وتفصيلها، علماً لا زوال فيه، ولا تبدل، ولا سهو، ولا نسيان^(٢).

٥) وهو الحفيظ: الذي يحفظ على العباد، أعمالهم، وأسماعهم، وأبصارهم، وجلودهم، وجوارحهم، لتشهد عليهم يوم المعاد، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَرُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠].

٦) "وهو تعالى يحفظ عبده من المهالك، والمعاطب، ويقيه مصارع السوء، وقد جعل له حفظةً من الملائكة، هم المعقبات بأمره، قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]."

٧) وهو الحفيظ سبحانه: البالغ الغاية والنهاية في حفظه، وكلايته، ورعايته، فهو سبحانه حافظ العباد بطوَّله، وإنعامه^(٣)، فلا أحد يستطيع أن ينقص ما حفظه، ولولاه سبحانه لما بقي شيء من مخلوقات، في ملكوت الأرض والسموات.

٨) وهو الذي حفظ مراتب الموجودات، ومنازل الكائنات^(٤)، من جمادات، وناطقات، فحفظها، وصانها، فوضعها في أفضل منازلها، وأماكنها، فمن ذلك:
أ- أنه تعالى حفظها من العود إلى العدم.

ب- الذي ثبت الأرض بالجبال الراسيات، فلا تميد بمن عليها من الموجودات.

ج- الذي خلق الأرض على وجه البحر، ثم إنه سبحانه بقدرته يحفظها عن الغوص بكليتها في البحر، مع أن طبع الأرض الغوص في الماء^(٥).

د- ويحفظ الضعفاء من الأقوياء، كما حفظ المولود الذي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً.

(١) أي: لا يغيب.

(٢) ينظر: «شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (٢٧٠).

(٣) «اشتقاق أسماء الله» (١٤٦).

(٤) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (٢١١/١).

(٥) انظر: «لوامع البينات» (٢٧١).

هـ - وحفظ الجمادات الأرضية ، والأجرام السماوية ، أن تصطدم بعضها ببعض ، فهي جارية على سننه القويمة .

(٩) وحفظه سبحانه لجميع خلقه ، يكون: بأقواله ، وأفعاله ، وبملائكته ، قال الله العظيم: ﴿ قُلْ مَنْ يَكْلُوْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ [الأنبياء: ٤٢] ، وقال عز شأنه: ﴿ وَرُسُلٌ عَلَيْكُمْ حَفَظَةٌ ﴾ [الأنعام: ٦١] ، أي: ملائكة تمنعهم ، وتكلوهم^(١) .

(١٠) وهو الحفيظ سبحانه: الأمين في حفظه ، وكلايته^(٢) ، فلا يضيع أحد حقه: (أ) فلا ينقص من أجور المطيعين ، (ب) ولا يزيد في أوزار الظالمين ، (ج) ولا يضيع حقوق المظلومين ، ولو كانوا كافرين ، (د) بل يحفظ حقوق الحيوانات ، فتقتص من بعضها في العرصات .
وحفظ الله تعالى لخلقه نوعان:

الأول: حفظ عام: وهو حفظه لجميع المخلوقات بتسييره لها ما يقيتها ، ويحفظ بنيتها ، وتمشي إلى هدايتها ، وإلى مصالحها ، بإرشاده وهدايته العامة ، التي قال تعالى عنها: ﴿ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه: ٥٠]

الثاني: حفظ خاص: وهو أشرف النوعين: وهو حفظه تعالى لأوليائه ، سوى ما تقدّم ، الذين حفظوا وصيته ، وحفظوه بالغيب ، بحفظ إيمانهم من النقص والخلل ، وحفظهم وحمائتهم ، من الخطأ والزلل .

وهو كذلك نوعان ، حفظهم في دينهم ، ودنياهم:

(أ) حفظه في مصالح دنياه: كحفظه في بدنه ، وأهله ، وولده ، وماله ، فجعل له معقبات يحفظونه بأمر الله ، ﴿ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد: ١١] .

(ب) حفظه في دينه وإيمانه: فيحفظه في حياته من الشبهات المضلة ، ومن الشهوات المحرّمة ، وكل ما يضرّ إيمانه ، أو يزلزل يقينه ، فيعافيه ويخرجهم منها بسلام ، وحفظ وعافية وأمان ، ويحفظهم من أعدائهم من الجن والإنس ، فينصرهم عليهم ويدفع عنهم كيدهم ، ويحفظه عليه عند موته ، فيتوفاه على الإيمان ، وعلى حسب ما عند العبد من الإيمان تكون مدافعة الرحمن ، قال ﷺ: « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك »^{(٣)(٤)} .

(١) انظر: «الأسنى» (٣٠٩/١ - ٣١٠) .

(٢) «المنهاج» (٢٠٥/١) .

(٣) «صحيح الترمذي» (٢٥١٦) .

(٤) «تيسير الكريم» (٩٤٧) ، «الحق الواضح» (٥٩) ، «توضيح الكافية» (١٢٢) .

جلال الحفيظ

الأول: من جلال حفظه تعالى: أنه يحفظ الأشياء بذواتها، وصفاتها، ومزج بين العناصر المتضادة، وأمسك كل واحدٍ منها مع ضده، مع خلاف مقتضى طبعه، فمن ذلك: أنه يصون المتضادات بعضها عن بعض، فيحفظها في المركبات محمية عن إفناء بعضها بعضاً، كتقابل المتضادات، بعضها عن بعض، كالتقابل بين الماء والنار، فإنهما يتعاديان بطباعهما، فإما أن يطفئ الماء النار، وإما أن تحيل النار الماء إلى بخار، وقد جمع الله ﷻ بين هذه المتضادات المتنازعة، في سائر العناصر والمركبات، وسائر الأحياء، كالإنسان والنبات والحيوان، ولولا حفظه تعالى لهذه الأسباب، وتنظيم معادلاتها، وارتباط العلل بمعلولاتها؛ لتنافرت وتباعدت، وبطل امتزاجها، فهذه هي الأسباب التي تحفظ الإنسان من الهلاك، وتؤمن له بحفظ الله تعالى الحياة^(١).

الثاني: ومن جلاله: أن الله سبحانه يحفظ العبد بصلاحه في ولده، وولد ولده، كما قيل في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]، أنهما حفظا، بصلاح أبيهما^(٢).

الثالث: ومن جلال حفظه تعالى: أنه تكفل بحفظ كتابه من التحريف، والتغيير، والتبديل، على مر الزمان، والعصور، والدهور، قال عز شأنه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر]، فلا يستطيع أحدٌ كائناً من كان، أن يغير مبانيه، أو معانيه اللاتئة به، إلا قيض الله تعالى من أهله، الذي قال عنهم النبي ﷺ: «الذين هم أهل الله وخاصته»^(٣)، من يرثه، ويصونه، قال تعالى عنهم: ﴿بَلْ هُوَ آيَتٌ بَيِّنَةٌ فِي صُذُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [النكبوت: ٤٩].

الرابع: ومن جلال حفظه سبحانه لأوليائه: أنه يحفظهم من الابتداء إلى الختام^(٤)، ففي الدنيا: يصونهم في البلاء والمحنة عن الشكوى لغيره، وبالشكر والحمد عند النعمة، وعدم

(١) «المقصد الأسنى» (١٠٠)، و«شرح الأسماء الحسنى» للرازي (٢٧١)، و«شرح مصابيح السنة» لابن ملك الرومي (١٠٤/٣)، و«أسماء الله الحسنى» للرضواني (٥٠٧).

(٢) «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس»، للحافظ ابن رجب (٥١).

(٣) قال ﷺ: «إنَّ لله تعالى أهليين من الناس» قالوا: يا رسول الله من هم؟ قال: «هم أهل القرآن، أهل الله وخاصته» (صحيح ابن ماجه) (٢١٥).

(٤) «السراج المنير» (٣٠/٤).

الغفلة ، وعند ورود الفتن ، والشبهات ، والشهوات عن الزيغ ، والهوى ، والردة ، وفي البرزخ : عند سؤال الملكين في القبر بالثبات عند الفتنة ، وفي الآخرة : من الفزع والخوف عند الصعقة ، وفي العرصات عند الحساب من طول المدة ، وعند المرور على الصراط بالسلامة من الهوي والزلة ، والسلامة من النار ، وسماع صوتها ، والسوق إلى الجنان ، والصعود في غرفاتها ، وعدم الحول عنها ، فأبي جلال يا رعاك الله تعالى أجل من هذا ؟.

الخامس : من جلاله : "أَنَّ المولود الذي لا يملك لنفسه دفع المضار ، ولا اجتلاب المنافع ، والله سبحانه يتولَّى حفظه بنفسه ، وملائكته ، وبما قد حصل له في قلوب عباده ، حتى يتم مراده سبحانه فيه" (١).

الثمرات

إن من أعظم ثمرات هذا الاسم الكريم : حفظ حدود الله تعالى ، وحفظ ما وجب عليه من حقوقه ، فيدخل في ذلك معرفة الإيمان والإسلام ، وسائر ما يتعين عليه علمه ، ويجب عليه حفظ ما استحفظه الله إياه بحسن الرعاية له والقيام عليه ، ويقال : من حفظ لله جوارحه ، حفظ الله عليه قلبه ، ومن حفظ لله حقه ، حفظ الله عليه حظه ، كما في الحديث : «احفظ الله يحفظك» (٢) ، أي : احفظ أوامره بالامتثال ، ونواهيه بالاحتساب ، وحدوده بعدم تعديها ، والابتعاد عنها ، فيحفظك الله تعالى في نفسك ، ودينك ، ومالك ، وولدك ، وفي جميع ما آتاك الله من فضله .

واعلم أن أعظم الحفظ ، حفظ القلوب ، وحراسة الدين عن الكفر ، وأنواع الفتن ، وفنون الأهواء ، والبدع ، والنفاق ، حتى لا يزلَّ عن الطريقة المثلى ، قال الله العظيم : ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم : ٢٨] ، لا حفظ من بلايا الأمراض والأوصاب ، والبلايا النازلة بالمال والولد ، فإن هذا يؤدي إلى الجنة ، والأول يؤدي إلى النار (٣) ، فَمَنْ حَفِظَ اللَّهَ : وَجَدَهُ أَمَامَهُ ، وَتَجَاهَهُ ، يَسُدُّهُ ، وَيُوفِّقُهُ ، وتحصل له معية الله تعالى الخاصة ، التي لا تحصل إلا لخواص خلقه سبحانه (٤).

(١) «الأسنى» (٣١٠/١).

(٢) «صحيح الترمذي» (٢٥١٦).

(٣) انظر : «الأسنى» (٣١٢/١) ، «الحق الواضح» (٦١).

(٤) «فتح الرحيم الملك» (٤٦).

٦٤- الله ﷻ الأكرم ﷻ جل شأنه

قال تعالى: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [العلق].

المعنى اللغوي

الأكرم: من صيغ (أفعل) التفضيل.

أخبر ﷺ أنه الأكرم بصيغة التفضيل، والتعريف لها، فدلَّ على أنه الأكرم وحده، بخلاف ما لو قال: (وربك أكرم)، فإنه لا يدلُّ على الحصر، بل أطلق الاسم ليبين أنه الأكرم مطلقاً غير مقيد، فدلَّ على أنه متصف بغاية الكرم، الذي لا شيء فوقه، ولا نقص فيه^(١)، وهو سبحانه أخبر أنه الأكرم، وهو «الأفعل» من الكرم، وهو كثرة الخير، ولا أحد أولى بذلك منه سبحانه، فإن الخير كله بيديه، والخير كله منه^(٢). و(الأكرم): هو أبلغ من (الكريم)^(٣).

"ولفظ الكرم لفظ جامع للمحاسن والمحامد، لا يراد به مجرد الإعطاء، بل الإعطاء من تمام معناه، فإن الإحسان إلى الغير تمام المحاسن، والكرم كثرة الخير ويسرته"^(٤) فإن قوله: (الأكرم) يقتضي أنه سبحانه أحقُّ بجميع المحامد، والمحامد هي صفات الكمال، فيقتضي أنه أحقُّ بالإحسان إلى الخلق والرحمة، وأحقُّ بالحكمة، وأحقُّ بالقدرة، والعلم، وغير ذلك^(٥).

والأكرم: هو الأحسن، والأنفس، والأوسع، والأعظم، والأشرف، والأعلى من غيره في كل وصف كمال، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنَكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

والأكرم: المقدَّس عن النقائص والعيوب، والآفات والمذام، ويطلق على الشيء الحسن المنظر، وعلى العزيز، والصفوح، والعفو، والغالب، وغيرها من المعاني العلا^(٦).

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٩٣/١٦) بتصرف يسير.

(٢) «مفتاح دار السعادة» (٢٤٢/١).

(٣) «النبوات» (٦٧٧/٢).

(٤) ولهذا قال النبي ﷺ: «لَا تُسَمُّوا الْعَنْبَ الْكَرَمَ، فَإِنَّمَا الْكَرَمُ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ» البخاري (٦١٨٢). وهم (أي: العرب) سَمُّوا الْعَنْبَ: الْكَرَمَ، لَأَنَّهُ أَفْعَى الْفَوَاكِهِ «مجموع الفتاوى» (٢٩٣/١٦).

(٥) المصدر السابق (٣٦٠/١٦).

(٦) انظر: «شرح اسم (الكريم)» فقد توسَّعتُ في شرح ألفاظه اللغوية.

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الأكرم، له علو الشأن في كرمه، الذي لا شيء فوقه، ولا نقص فيه البتة:

(١) فهو سبحانه لا كرم يسمو إلى كرمه، ولا إنعام يرقى إلى إنعامه، ولا عطاء يوازي عطاءه^(١).

(٢) فهو الكريم سبحانه: الذي لا يوازيه ولا يساويه كريم، فضلاً عن أن يزيد عليه، لأنه تعالى يعطي الشيء من غير عوض ولا غرض، وليس ذلك لغيره من أحد^(٢).

(٣) فهو سبحانه سبب كل خير ومُسَهِّلُه، ومُيسِّرُه، فهو تعالى الذي من شأنه أن يعطي الكثير بسهولة، ويسر، ما لا يدخل تحت الحصر.

(٤) وهو تعالى البهي، العظيم النفع، الكثير الخير والنعم، فالخير كله بيديه، والآلاء كلها منه، والنعم كلها هو مولاها، التي لا تحصى ولا تُعدُّ، ولا تُستقصى، فلا تحدُّ أجناسها، وأنواعها، فضلاً عن أفرادها.

(٥) فهو الأكرم تعالى: الذي لا أكمل، ولا أوسع منه، له الكمال الأعظم مطلقاً من جهة: الذات، ومن جهة: الصفات، ومن جهة: الأفعال، والأسماء، والسلطان.

(٦) فهو الأكرم: حقاً سبحانه، له علو الشأن في كرمه، فالكمال كله له، والمجد كله له، فهو مستحقٌّ للحمد لمحاسنه، وإحسانه^(٣).

(٧) والله ﷻ الأكرم: الذي يُجِلُّ نفسه، ويُكرِّمُ نفسه، والعباد لا يُحصون إجلاله، وإكرامه، قال تعالى: ﴿بَرَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]^(٤).

(٨) ومن إكرامه تعالى الذي لا مُنتهى له: أفضاله على من يكفر نعمة، ويجعلها وصلة يتوصَّلُ بها إلى معاصيه^(٥).

(١) «أسماء الله الحسنى» الرضواني (٦٥٦).

(٢) انظر «حاشية الصاوي على الجلالين» (٢٣٩٣/٦).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٩٦/١٦ - ٣٢٠)، «تفسير الأسماء» (٥٠)، «مفتاح دار السعادة» (٢٤٢/١)، و«انظم الدرر» (٤٨٢/٨).

(٤) انظر «مجموع الفتاوى» (٣٢٠/١٦).

(٥) «تفسير الطبري» (٥٦٥/٥).

(٩) وهو الأكرم: المقدس المنزه عن كل نقص^(١)، وعيب، وذم، لاتصافه تعالى على الإطلاق بالكمال الأعلى الأكمل.

(١٠) "فهو سبحانه لا أكرم منه: عفواً، وصفحاً، وتجاوزاً عن الذنوب العظام، من مستحقي ذلك، وغير مستحقيه من الأنام، فهو كريم الذات، كريم السجايا، ولذلك كرمت أفعاله"^(٢).

(١١) ومن كرمه الذي لا مثيل له: "أنه كَرَّمَ بني آدم بجميع وجوه الإكرام، فكرمهم بالعلم، والعقل، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب"^(٣) والكتابة، والبيان، قال سبحانه: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ **عَلَّمَهُ الْبَيَانَ** ﴿الرحمن: ٣ - ٤﴾.

(١٢) وخصَّ أوليائه، وأصفياه بالإكرام بالقرآن، فجعله محفوظاً في السطور، والصدور، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ﴿الرحمن: ١ - ٢﴾.

(١٣) ومن كرمه سبحانه الذي لا يقادر قدره: "أنه يحسن إلى من يكذبه، ويكذب رسله، وكتبه، ويكذب على الله، وأوليائه، يرد أمره، وهو تعالى البريء النزيه عن استجلاب المنافع، ودفع المضار، والمساوئ"^(٤).

(١٤) "ومن كرم عفوه: أن العبد إذا تاب عن السيئة محاها عنه وكتب له مكانها حسنة"^(٥)، بل يضاعفها له أضعافاً كثيرة بغير عدٍّ ولا حساب.

(١٥) وهو الأكرم سبحانه: البهي الأجمل، الذي لا أجمل منه: في أسمائه الحسنی، وأوصافه العلا، وأفعاله التمام الهدى، وسلطانه وملكه الذي ليس له حدٌ ولا منتهى.

(١٦) "ومن كمال كرمه تعالى: أنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، قال عزَّ شأنه: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ **الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ** **عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَم** ﴿العلق: ٣ - ٥﴾"^(٦).

(١٧) وهو الأكرم سبحانه: الذي يكافئ بالثواب الجزيل: العمل القليل^(٧).

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٥/٥٠٢).

(٢) انظر: «شرح الأسماء الحسنی» لابن برجان الإشبيلي (١/١٩١).

(٣) «تفسير السعدي» (٦٣٨).

(٤) «شرح الأسماء الحسنی» للإشبيلي (١/١٩٤).

(٥) «الحجة في بيان المحجة» (١/١٤٥).

(٦) «تفسير النسفي» (١٣٦٢).

(٧) «موسوعة الشرباصي» (١/٢٣٢).

فأي كرم يسمو إلى كرمه تعالى "يعبد الآدمي غيره ، ولا يقطع عنه رزقه" ^(١) ، فهل رأيت مثل كرمه كرمًا؟ ففتبع معاني كرمه في سبلها ، فإنك تجد من ذلك إلى ما لا تصل منه إلى غاية ، ولا تبلغ من معرفته إلى نهاية ، فكل شيء يأتي عليه الإحصاء والفناء ، (إلا الله ف) صفاته ، وكلماته ، ومقدوراته تعالى لا تفنى ولا تبید ^(٢) .

جلال الأكرم

الأول: أنه إذا قَدِرَ عفا: لأن القدرة لله تبارك وتعالى وحده ، نافذة مشيئته في كل لحظة .

الثاني: ومن جلال كرمه: أنه تعالى إذا وعد أوفى: فإن كلَّ من يَعِدُ يمكن أن يفى ، ويمكن أن يقطع به عُذر ، ويحول بينه وبين الوفاء أمر ، والباري صادق الوعد لعموم قدرته ، وعظيم ملكه ، وأنه لا يتصور أن يقطع به قاطع ، ولا يحول بينه وبينه مانع .

الثالث: وإذا أعطى زاد على منتهى الرجى: كما يعطي أهل الجنة من النعيم فوق المنى ، كما قال ﷺ: «قال الله ﷻ: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أُذُن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» ^(٣) .

الرابع: ومن جلاله: أنه لا يبالي كم أعطى ، ولمن أعطى ، مؤمنا كان أو كافرًا ، مقررًا أو جاحدًا ، فهو تعالى يعطي الكافر والمؤمن ، وربما خصَّ الكافر في الدنيا بمزيد العطاء ، ولكن الآخرة للأتقياء ، فكلُّ نال من خيره في الدنيا ويوم المعاد .

الخامس: وهو الذي لا يتوقع عوضًا عما أعطى: فليس ذلك إلا لله سبحانه ؛ لأن كل شيء خلقه ، وملكه ، فما يُعطي له ، وما يأخذ له ، وما يُعطي كل معطٍ ، أو يعمل كلُّ عامل فبقدرته ، وإرادته ، والعِوضُ والمُعَوِّض خلق له سبحانه .

السادس: ومن جلاله: أنه إذا رفعت حاجةً إلى غيره لا يرضى: "لأن محبته تعالى للخير والإحسان فوق ما يخطر على البال أو يدور في الخيال ، وأحبُّ ما إليه أن يجود على عباده ،

(١) «تفسير السمعاني» (٢٥٦/٦) .

(٢) «شرح الأسماء» للإشيلي (١٩٥/١) .

(٣) البخاري (٣٢٤٤) ، ومسلم (٢٨٢٤) .

ويوسعهم فضلاً ، وفرحُه بعبثائه وإفضاله أشدُّ من فرح الآخذ بما يُعطاه ويأخذه أحوج ما إليه أعظم ما كان قدراً ، ولهذا خصَّ بجوده أهل الدعاء والسؤال ^(١) ، قال ﷺ : « ليس شيءٌ أكرم على الله من الدعاء » ^(٢) .

السابع : أنه إذا أخطأ أو جفى في حقه عاتب وما استقصى : " فهو تعالى يعاتب أحبابه ، وأوليائه ألطف عتاب ، وهو مع ذلك : مقيلاً عثراتهم ، وغافراً زلاتهم " ^(٣) ، فإعتاب الله تعالى لعبده : إزالة عتب نفسه عن عبده ^(٤) ، فهو تعالى يعاتب أوليائه ، ومع ذلك : لا يستقصى في فعالهم وأقوالهم بالتشنيع والتجريح ، بل في ألطف عتاب ^(٥) .

الثامن : ومن جلال الأكرم سبحانه : أنه لا يضيع من لاذ به والتجى ، فهو تعالى لا يضيع من التجأ إليه ، فهو تعالى أنيس ومؤمن الخائفين ، والالتجاء إليه التزام الطاعة ، وحسن العمل ، فإنه لا يضيع أجر سعيه وعمله ، قال تعالى : ﴿ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف : ٣٠] .

التاسع : أنه يغنيه تعالى عن الوسائل والشفعاء من الورى : فهو سبحانه يُعطي بغير وسيلة ، فالأجواد متفاضلون في ذلك ، فمنهم من يُعطي جِبِلَّةً ، ومنهم من يعطي مراعاةً لحقِّ المتوسل ، والباري يعطي بغير وسيلة ، لأن حرمة النبي أو الولي الذي أعطى بها أعطائها بمجرد المشيئة من غير وسيلة ولا أحد من الشفعية ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَئِنْ اللَّهُ يُمِثُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [إبراهيم : ١١] .

فمن اجتمع له جميع ذلك لا بالتكلف ، فهو الكريم المطلق ، وذلك لله ﷻ فقط ^(٦) ، فله جلال الشأن في كرمه ، وهو جمال الكمال ، وكمال الجمال ^(٧) .

العاشر : ومن جلال الأكرم سبحانه : " أنه يرد المولين إليه تفضلاً ، ويقبل بالشاردين إليه كرمًا ، حتى أن أحدهم ليملك في عصيانه والكفر به مائة سنة ، يتوب إليه قبل موته بيومين ،

(١) انظر : « مدارج السالكين » (٢١١/١) ، و« الحق الواضح المبين » (٦٦) .

(٢) صححه الألباني في صحيح الترمذي (٣٣٧٠) .

(٣) « الفوائد » (٣٧) .

(٤) « بدائع الفوائد » (٥٥٢/٤) .

(٥) كما في تطفه في عتابه لنبينا محمد ﷺ : ﴿ عَسَ وَتَوَلَّى ﴾ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ﴿ عيس : ١ - ٢ ﴾ ، ولم يقل : عيس وتوليت ، بل ولم يذكر اسمه ﷺ : يا محمد ، وكذلك عاتب سبحانه موسى ﷺ حينما قام خطيباً في بني إسرائيل ، فسئل : أيُّ الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعاتبه الله . « صحيح البخاري » (١٢٢) .

(٦) ينظر : « الأمد الأقصى » (٤٥٤/١ - ٤٦٠) ، و« المقصد الأسنى » (١٠٥) بتصرف .

(٧) « أسماء الله الحسنى » للرضواني (٦٥٦) .

ويوم ، أو ساعة من نهار ، فيقبله ، ويغفر له ، ويحبه ، ويدخله في أوليائه ، ويؤثقه جنته ، فهل رأيت مثل هذا كرمًا؟^(١).

الحادي عشر: ومن جلال الأكرم جل ثناؤه: أنه إذا أبصر خللاً جبره ، وما أظهره ، وإذا أولى فضلاً أجزله ، ثم ستره ، وإذا أذنبت اعتذر عنك ، وإذا هجرت وصلك^(٢).

الثمرات

ينبغي أن يعلم كل مؤمن أن الإكرام الحقيقي ، هو إكرام الله للعبد بالتقوى ، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾ [الحجرات: ١٣] ، وقال ﷺ: «الكرم التقوى»^(٣) ، واعلم رحماني الله وإياك أنه بحسب تقوى العبد يكون إكرامه ، عند الكريم الأكرم سبحانه ، سئل النبي ﷺ: من أكرم الناس؟ قال: «أتقاهم»^(٤).

"فلن يكرم أحد نفسه بمثل طاعة الكريم ، ولن يهينها بمثل معصيته ، فعليك بالطاعة ، ولزوم السنة ، والجماعة"^(٥) ، فتظفر بخير الدنيا والآخرة .

وينبغي للعبد أن يظهر كرائم الله تعالى عليه ، قال ﷺ: «إذا آتاك الله مالاً فليزأثر نعمة الله عليك وكرامته»^(٦).

ومن عبودية هذا الاسم الجليل: "أن تعود نفسك السخاء ، ويدك الإعطاء ، وخلقت المكارم ، والتصاون عن دنيا الأمور ، وتنزه عن اللوم ، وسفساف الأمور .

احرص يا رعاك الله على أن يكون إعطاؤك أوفر من أخذك ، فهو أسلم لدينك ، وأوفر لعرضك ، لا تجازي مسيئاً بإساءته ، اصفح عن المعتذر ، واعف عن الجاني ، واسمُ بهمتك علواً إلى المكرمات ، وإياك يا عبد الله أن يكون ريك الأكرم أهون الناظرين إليك ، تستتر من سواه ، ولا تبالي به بإطلاعه عليك"^(٧).

(١) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان اللخمي (١٩٥/١).

(٢) «شرح الأسماء» للرازي (٢٧٩) ، «شرح الأسماء» للإشبيلي (١٩٣/١).

(٣) «صحيح الترمذي» (٣٢٧١).

(٤) البخاري (٣٣٥٣) ، ومسلم (٢٣٧٨).

(٥) «شرح الأسماء» لابن برجان اللخمي (١٩٦/١).

(٦) صحيح أبو داود (٤٠٦٣).

(٧) «شرح الأسماء» للإشبيلي (١٩٨/١) بتصرف يسير .

٦٥- الله ﴿الْأَوَّلُ﴾ جل وعلا

قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣] .

قال ﷺ: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء ، وأنت الآخر فليس بعدك شيء»^(١)

المعنى اللغوي

الأَوَّلُ: نقيض الآخر ، وهو أفعال التفضيل على وزن (أفعل) ، وهو الذي له التقدم والسبق في الزمان ، والتقدم في الفضيلة والكمال ، فالأول يطلق على:
الأول: وهو الذي يترتب على غيره .

الثاني: الرجوع إلى أول الشيء ، ومبدؤه ، أو مصدره ، وأصله ، كما يقال: "فلانٌ أَوَّلُ هذا الأمر وآخره"^(٢) .

هذا الاسم عظيم اللفظ ، عظيم المعنى ، اختلف أهل اللغة فيه ، واتفق أهل التوحيد عليه ، وهو ركنٌ من التوحيد وثيق ، واسمٌ يحتاج المتكلم فيه إلى مزيد تحقيق^(٣) .



(١) «مسلم» (٢٧١٣) .

(٢) ويُستعمل على أوجه ، أحدها: المتقدم في الزمان ، نحو: أبو بكر أول ثم عمر ، الثاني: المتقدم بالرئاسة في الشيء ، وكون غيره محتدياً به ، نحو: الملك أول ثم الوزير ، الثالث: المتقدم بالوضع والنسبة كقولك: دمشق أول ثم بغداد ، والرابع: المتقدم بالنظام الصناعي ، نحو: الأساس أول ثم البناء . انظر: «المفردات» (١٠٠) ، و«عمدة الحفاظ» (١٣٨/١) ، و«الصحاح» (٦٣) ، و«تفسير الأسماء» (٥٩) ، و«اشتقاق أسماء الله» (٢٠٤) ، و«الأمدة الأقصى» (٤٧٥/١) ، و«شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان (١١٣/١) .

(٣) «الأمدة الأقصى» (٤٧١/١) .

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الأول بلا بداية ، "الذي ليس لوجوده بداية مفتوحة"^(١) ، فهو سبحانه:

(١) لم يكن شيء قبله ولا معه ، فهو تعالى الأول بلا ابتداء ، فهو سابق الأشياء كلها ، بأوقات لا نهاية لها ، في الوجود ، حتى الزمن لأنه ﷻ الموجود والمحدث للموجودات .

فمهما قدر المقدرين ، وفرض الفارضون من الأوقات السابقة المتسلسلة إلى غير نهاية ، فالله تعالى قبل ذلك ، قال ﷻ : « كان الله ولم يكن شيء قبله ، وكان عرشه على الماء ، ثم خلق السموات والأرض ، وكتب في الذكر كل شيء »^(٢) .

(٢) وهو الأول: المنفرد في الوجود بالأزل ، الذي لم يسبق وجوده عدم ، ووجوده من ذاته لذاته سبحانه ، لم يستفده من غيره ، ولا لعله من العلل .

(٣) فهو تعالى له التقدم المطلق بالقبلية: بالكمال ، وعلو الذات ، فوق كل الموجودات ، وعلو الشأن ، والفوقية ، فوق كل الخليفة .

(٤) وهو الأول تعالى: الذي منه وجود كل شيء ، وليس وجوده من شيء سبحانه .

(٥) وهو الذي ابتدأت منه جميع البريات ، فهو سبحانه الذي أوجد الأوقات ، وجميع الموجودات ، فكلها مستندة في وجودها ، وبقائها إلى الله ، فكل موجود في هذا الوجود مفتقر إليه سبحانه ، ومتوقف في تحقيقه عليه ، في كل اللحظات .

(٦) فالكون كله ناطقه وبهيمه ، قام واستند جميعه إلى الرب العظيم بالإعطاء ، والإيجاد ، والإمداد ، والإعداد في كل الأوقات .

(٧) فهو سبحانه الأول: الذي له كل شيء ، وبه كل شيء ، ومنه كل شيء ، فهو رب كل شيء ، وفاعله ، وخالقه ، وبارئه ، وإلهه .

(٨) فله سبحانه الأولية المطلقة في المنة والفضل ، فهو تعالى المبتدئ بالفضل حيث لا سبب ، ولا وسيلة .

(١) «تفسير الثعالبي» (٣٧٧/٥) .

(٢) «صحيح البخاري» (٧٤١٨) .

(٩) وهو المستغني بنفسه عن كل شيء ، لا يحتاج إلى غيره في شيء ، وكل ما سواه من شيء محتاج إليه ، لا يقوم بنفسه ، إلا به ، ومنه ، وإليه سبحانه ، في كل شيء .

(١٠) وهو الأول سبحانه: الذي له الأولوية المطلقة في المراتب كلها:

(أ) فله أولوية الشرف ، (ب) والفضيلة ، (ج) والدرجة ، (د) والعلو والرفعة ، لأنه حاز الأسماء الحسنى كلها ، وذلك بحقائقها ، واتصف بالصفات العُلا ، على كمالها ، قال تعالى : ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥] .

(١١) وهو الأول: المعبود بحق ، الذي يؤلهه الأولون والآخرون ، الذي أفرد به بالسبق المخلصون الموحدون ؛ فهو غايتهم ، التي لا صلاح لهم ، ولا فلاح ، ولا كمال ، إلا أن يكون وحده غايتهم ، ونهايتهم ، ومقصودهم سبحانه .

(١٢) وهو الأول: سبحانه في الدلائل والبيانات ، والآيات الساطعات ، الدالة على انفراده سبحانه بالربوبية ، والألوهية ، من جميع الوجوه والاعتبارات .

(١٣) وهو الذي تبتدئ منه الأسباب ، إذ هو سبحانه مسببها^(١) .

جلال الأول

الأول: من جلاله: "أنه تعالى لا يُكَافَأُ على النعمة ، ولا يُعارض في البلاء"^(٢) .

الثاني: ومن جلال الأول سبحانه: "أنه لا يُسَبَقُ بالفعل ، ولا بالمشيئة ، لأن فعله قبل كل فعل ، ومشيئته قبل كل مشيئة"^(٣) .

الثالث: ومن جلاله: "أنه الأول بمحبته لأوليائه ، ونقمته لأعدائه"^(٤) .

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٣١/١) ، و«طريق الهجرتين» (٥٠) ، و«الصواعق المرسلة» (١٠٢٤/٣) ، و«مجموع الفتاوى» (١٦/٢) ، و«تفسير القرآن» لأبي مظفر السمعاني (٣٦٤/٥) ، و«نظم الدرر» (٤٣٥/٧) ، و«التوحيد» لابن منده (١٦٥) ، و«شأن الدعاء» (٨٧) ، و«شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان الإشبيلي (١١٣/١) ، و«الأمد الأقصى» (٤٧٥/١) ، و«الأسنى» (١٥٣ - ١٥٠) ، «الكافية» (١١٦ - ١١٧) ، و«نظم الدرر» (٤٣٥/٧) ، و«تفسير روح المعاني» (٢٥٤/١٥) ، و«موسوعة له الأسماء الحسنى» (٣٦٤/١) ، و«أسماء الله الحسنى» للرضواني (٢٩٩) ، و«منهج الطوفي في تقرير العقيدة» (٢٤٨/١) ، بتصرف كبير جداً .

(٢) «الأمد الأقصى» (٤٧٧/١) .

(٣) «المصدر السابق» (٤٧٨/١) .

(٤) «المصدر نفسه» (٤٧٥/١) .

الثمرات

إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ ثَمَرَاتِ هَذَا الْأَسْمِ أَنْ يَلْحَظَ الْعَبْدُ فَضْلَ رَبِّهِ ، وَسَابِقَتَهُ عَلَيْهِ فِي كُلِّ نِعْمَةٍ ، دِينِيَّةً ، وَدُنْيَوِيَّةً ، إِذَ السَّبَبِ وَالْمَسْبَبِ مِنْهُ .

فَعِبُودِيَّتُهُ بِاسْمِهِ (الأول) تَقْتَضِي التَّجَرُّدَ عَنْ مَطَالَعَةِ الْأَسْبَابِ ، وَالْوُقُوفَ أَوِ الْإِلْتِفَاتِ إِلَيْهَا ، وَتَجْرِيدَ النَّظَرِ إِلَى مَجْرَدِ سَبْقِ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَأَنَّهُ هُوَ الْمَبْتَدِئُ بِالْإِحْسَانِ ، مِنْ غَيْرِ وَسِيلَةٍ مِنَ الْعَبْدِ ، إِذْ لَا وَسِيلَةَ لَهُ فِي الْعَدَمِ ، قَبْلَ وَجُودِهِ ، أَيْ وَسِيلَةَ كَانَتْ هُنَاكَ ، وَإِنَّمَا هُوَ عَدَمٌ مُحْضٌ ، وَقَدْ أَتَى عَلَيْهِ حِينَ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً ، فَمِنْهُ سَبْحَانَهُ الْإِعْدَادُ ، وَمِنْهُ الْإِمْدَادُ ، وَفَضْلُهُ سَابِقٌ عَلَى الْوَسَائِلِ ، وَالْوَسَائِلُ مِنْ مَجْرَدِ فَضْلِهِ وَجُودِهِ لَمْ تَكُنْ بَوْسَائِلَ أُخْرَى ، فَمَنْ نَزَلَ اسْمُهُ الْأَوَّلُ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى أَوْجِبَ لَهُ فَقْراً خَاصّاً ، وَعِبُودِيَّةً خَاصَّةً ^(١) .

وَمِنْ عِبُودِيَّةِ هَذَا الْأَسْمِ الْجَلِيلِ : "يُظْهِرُ فِي مَحَبَّةِ الْعَبْدِ الْأَوَّلِيَّةِ فِي طَلَبِ الْخَيْرِ ، فَيَكُونُ أَوَّلُ النَّاسِ سَبْقاً إِلَى كُلِّ خَيْرٍ" ^(٢) ، وَطَلَبِ الْأَسْبَقِيَّةِ فِي التَّزَامِ الْأَمْرِ ، وَحِرْصِهِ الدَّوْبِ عَلَى الْمَزِيدِ مِنَ الْأَجْرِ ، فَقَدْ أَثْنَى رَبُّنَا سَبْحَانَهُ ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٦١] .

فَتَجِدُ تَوْحِيدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي اسْمِهِ الْأَوَّلِ بَادِئاً عَلَى الْعَبْدِ عِنْدَ الْمَدَاوِمَةِ عَلَى الصَّلَاةِ فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ ، عَمَلًا بِمَا وَرَدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه : أَنْ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم : أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : «الصَّلَاةُ لَوَقْتُهَا ، وَبِرِ الْوَالِدَيْنِ ، ثُمَّ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» ^(٣) .

وكَذَلِكَ حِرْصُهُ عَلَى الصَّفِّ الْأَوَّلِ ، وَمُجَاهَدَةِ الْآخَرِينَ فِي اسْتِبَاقِهِمْ إِلَيْهِ ، قَالَ صلى الله عليه وسلم : «لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مَا فِي النَّدَاءِ وَالصَّفِّ الْأَوَّلِ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إِلَّا أَنْ يَسْتَهْمُوا عَلَيْهِ لَاسْتَهْمُوا ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي التَّهْجِيرِ لَاسْتَبَقُوا إِلَيْهِ ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِي الْعِنَمَةِ وَالصَّبْحِ لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبَوًّا» ^(٤) ^(٥) .

وَبِالْجُمْلَةِ : "أَنْ يَجْتَهِدَ (الْعَبْدُ) فِي أَنْ يَكُونَ أَوَّلًا فِي الْعِلْمِ ، وَالْعَمَلِ ، حَتَّى يَدْخُلَ فِي مَضْمَارِ السَّابِقِينَ ، وَيُنَادِي بِسْمَةِ الْمُقَرَّبِينَ" ^(٦) ، وَعَلَى قَدْرِ اجْتِهَادِهِ يَكُونُ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ .

(١) «طريق الهجرتين» (١٩ - ٢٠) .

(٢) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (٣٦٦/١) .

(٣) انظر : «البخاري» (٧٠٩٦) .

(٤) «البخاري» (٥٩٠) ، وَفِي رِوَايَةٍ لِلتِّرْمِذِيِّ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : سَأَلَ أَيُّ الْأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : «الصَّلَاةُ لِأَوَّلِ وَقْتُهَا» صَحِيحُ التِّرْمِذِيِّ (١٧٠) ، وَفِي لَفْظِ لَأَبِي دَاوُدَ : «الصَّلَاةُ فِي أَوَّلِ وَقْتُهَا» صَحِيحُ أَبِي دَاوُدَ (٤٢٦) .

(٥) «أسماء الله الحسنى» د. الرضواني (٣٠٢) .

(٦) «الأمد الأقصى» (٤٧٦/١) .

٦٦- الله ﷻ الآخر ﷻ سبحانه وتعالى

قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾ [الحديد: ٣].

قال ﷻ: «اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء»^(١)

المعنى اللغوي

الآخر: اسم (فاعل) لمن اتصف بالآخريه وهو نقيض المتقدم^(٢).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الآخر بالأبدية "الذي ليس له نهاية منقضية"^(٣):

(١) فهو تعالى الآخر: في الوجود، والملكوت، فهو سبحانه الباقي بعد فناء كل الخليقة، صامته وناطقة، فمهما فرضه الذهن والعقل، من الأزمان المتأخرة، وتسلسل الفرض والتقدير، وساعد على ذلك من ساعد بقلبه، ولسانه، فالله تعالى بعد ذلك إلى غير غاية، ولا نهاية، قال سبحانه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٠﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢١﴾﴾ [الرحمن].

(٢) فهو سبحانه الباقي الذي لا يزول على الإطلاق، بعد ذهاب غيره من الملاك، والأملاك، فبقاؤه ﷻ ليس بإبقاء أحد، بل له الديمومة الأبدية من نفسه لنفسه، الذي ليس له أمد، ولا حد، فكل ما سواه باقٍ بإبقائه له تعالى في الأولى، والأخرى بلا عد.

(٣) فأخريته سبحانه: بلا نهاية في: كمال، وتناهي ذاته العلية، فوق كل الخليقة، وعلو القدر، والصفات الكمالية، والملك والسلطانية، بالديمومية السرمدية.

(٤) وهو الآخر: الذي ينتهي إليه وجود كل شيء، بعد فناء كل شيء.

(١) «مسلم» (٢٧١٣).

(٢) «شرح أسماء الله الحسنى» للرضواني (٣٠٤).

(٣) «تفسير الثعالبي» (٣٧٧/٥).

٥) وهو الذي تنتهي إليه أمور كل البرية ، في جميع أمورهم ، وشؤونهم الدنيوية ، والدينية ، والكونية ، والأخروية .

٦) فالكون كله بما فيه من الجمادات ، والناطقات ، والساكنات ، والمتحركات ، مفتقرة إليه بالإبقاء ، والمصير ، والمرجع ، والانتهاء ، قال سبحانه : ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] ، وكما كان يقول النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه : «اللهم أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ...»^(١) .

٧) وهو الذي انتهت إليه عبوديات كل المخلوقات ، وإراداتها ، ومحبتها ، فليس وراء الله تعالى شيء يقصد ، ويعبد ، ويتأله ، فهو إله الآخرين ، كما هو إله الأولين سبحانه .

٨) وهو سبحانه الآخر : الذي تنتهي إليه كل الأسباب والمسببات ، والوسائل الظاهرية ، والباطنية ، الحسية والمعنوية ، والعلمية ، والعملية .

٩) وهو الآخر تعالى : فهو الغاية ، والمنتهى لكل موجود ، والقصد لكل ما يوجد ويطلب ، والصمد الذي تصمد إليه المخلوقات بتأهلها ، ورغبتها ، ورهبتها ، وجميع مطالبها .

١٠) وهو الآخر : المنتهى إليه مصيراً ومرجعاً ، فالمصير إليه ، والمرجع والمآل إليه وحده ، في البعث والنشور ، وإلى الله المنتهى في كل حال ، فإليه ينتهي العلم ، والحكم ، والرحمة ، وسائر الكمالات ، قال تعالى : ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ [العلق: ٨]^(٢) .

فدلّ هذان الاسمان على إحاطته سبحانه بجميع الأزمنة^(٣) ، وجميع المخلوقات من كل وجه .



(١) «صحيح البخاري» (٦٣١٧) .

(٢) انظر : «طريق الهجرتين» (٥٠) ، و«التوحيد» لابن منده (١٦٥) ، و«شأن الدعاء» (٨٨) ، و«بيان تلبس الجهمية» (٧٥٥/٣) ، و«شرح الأسماء» لابن برجان (١١٣/١) ، و«الأمم الأقصى» (٣٦٣/١ ، ٤٨٥) ، و«الأسنى» (١٥١) ، و«تفسير أبي مظفر السمعاني» (٣٦٤/٥) ، و«نظم الدرر» (٤٣٥/٧) ، و«تفسير روح المعاني» (٢٥٤/١٥) ، و«تفسير السعدي» (٦٥١) (٨٢٢) ، و«الحق الواضح» (٢٥) ، و«الكافية» (١١٦ - ١١٧) ، و«أسماء الله الحسنى» للرضواني (٣٠٤ ، ٣٠٥) بتصرف كبير .

(٣) «طريق الهجرتين» (٥١ - ٥٢) .

جلال الآخر

الأول: من جلاله: "أنه تعالى الآخر بإظهار محبته لأوليائه، ونقمته لأعدائه" (١).

الثاني: ومن جلال الآخر: أنه يستحيل عليه العدم، وأنه إليه المنقلب (٢).

الثالث: ومن جلاله: "أن عنده تحقيق المواعد" (٣).

الثمرات

إذا علم العبد انفراد الرب سبحانه بالأزل، والبقاء، والفعل، وعجز من سواه عن القدرة على إيجاد ذرة، أو جزء من ذرة، وأنه لا وجود له من نفسه، فوجوده ليس له، ولا به، ولا منه، وتوالى هذا العلم عن القلب: يسقط ذكر غيره سبحانه عن البال، والذكر، كما سقط غناه، وربوبيته، وملكه، وقدرته، فصار الرب وحده هو المعبود والمشهود، والمذكور...، وكلما فني العبد عن ذكر غيره وشهوده، صفت هذه المعرفة في قلبه (٤)، وهذه غاية الغايات، ومنتهى الإرادات.

ومن عبودية هذا الاسم الكريم يا رعاك الله: أن تجعله سبحانه وحده غايتك التي لا غاية لك سواه، ولا مطلوب لك وراءه، فكما انتهت إليه الأواخر، وكان بعد كل آخر، فكذلك اجعل نهايتك إليه، فإن إلى ربك المنتهى، انتهت الأسباب والغايات، فليس وراء الله مرمى ينتهي إليه الطريق.

وكما ابتداء وجودك، وخلقك منه، فاجعله نهاية حبك، وإرادتك، وتألّيهك له، لتصبح لك عبوديته باسمه (الأول، والآخر)، وأكثر الخلق تعبدوا له باسمه (الأول)، وإنما الشأن في التعبد له باسمه (الآخر) فهذه عبودية الرسل وأتباعهم، فهو رب العالمين، وإله المرسلين سبحانه وبحمده.

فعبوديته باسمه (الآخر) تقتضي أيضاً كذلك أيضاً التجرد من مطالعة الأسباب، وعدم ركونه ووثوقه بالأسباب، والوقوف معها، فإنها تنعدم لا محالة، وتنقضي بالآخرة، ويبقى الدائم،

(١) «الأمم الأقصى» (٤٨٥/١).

(٢) المصدر السابق (٤٨٨/١).

(٣) المصدر نفسه (٤٨٨/١).

(٤) «مدارج السالكين» (٣٨٠/٣).

الباقى بعدها ، فتأمل عبودية هذين الاسمين ، وما يوجبان من صحة الاضطرار إلى الله تعالى وحده ، ودوام الفقر إليه دون كل شيء سواه^(١) .

وينبغي أن يعلم كل مؤمن ، أنه لا بقاء لشيء سوى الله تعالى إلا بإبقائه ، ويعرف نفسه بالفناء والزوال ، ووشيك الرحيل والارتحال ، ويلاحظ الكون بعين الفناء ، فيزهد في حطام الدنيا ، ولا يرغب في حلالها فضلاً عن حرامها ، ولقد أحسن من قال :

هـب الدنيا تُساق إليك عفواً أليس مصير ذاك إلى الزوال ؟!

وقالت الحكماء: لو كانت الدنيا من ذهب ينفى ، والآخرة من خزف يبقى ، لوجب على العاقل أن يزهد في الذهب الفاني ، ويرغب في الخزف الباقي ، وإذا حققت المقال: علمت أنك خلقت للبقاء لا للفناء^(٢) ، وأنت في أي لحظة قد تنقل من دار الفناء ، إلى دار البقاء ، فتعلق بالله الآخر ، فإن مردك إليه ، واقف بين يديه ، فإن أحسنت في الأولى ، فُزْتَ وسعدت في الأخرى .



(١) «طريق الهجرتين» (٤٠ ، ٤٤) .

(٢) «الأسنى» (١٥٦) .

٦٧- الله ﷻ الظاهر عز شأنه

قال تعالى ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] .

وقال ﷺ: «... وأنت الظاهر فليس فوقك شيء»^(١) .

المعنى اللغوي

الظاهر: اسم (فاعل) لمن اتصف بالظهور، والظهور: ضد الخفاء، وهو ضد بطن، ويطلق:

الأول: على العلو والارتفاع، قال الله العظيم: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧]، أي: يعلو عليه، ومنه قوله: "ظهرت الشمس" إذا ارتفعت .

الثاني: الغلبة، والقهر، قال عز شأنه: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ٤]، أي: قاهرين، وغالبين، يقال: "ظهرت على الرجل": غلبته .

الثالث: وعلى المعاونة، قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ١]، قال عز شأنه: ﴿وَلَا تَهْزُوا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [المتنعة: ٩]، أي: عاونوا .

الرابع: البيان وإظهار الشيء الخفي، يقال: "ظهر الشيء يظهر ظهوراً": تبين وانكشف، ويقال: "ظهر لي المعنى" أي: تبين ووضح .

الخامس: ما غاب عنك، يقال: "تكلمت بذلك عن ظهر غيب"، قال ﷺ لسهل بن سعد: «هل تقرأهنَّ عن ظهر قلب»^(٢) ^(٣) .

السادس: السند، والحماية، وما يركن إليه، يقال: "فلان له ظهر" أي: مال من إبل وغنم .

السابع: العالم بما ظهر، ومنه يقال: "ظهرت على سر فلان": إذا اطلعت عليه^(٤) .

(١) «مسلم» (٢٧١٣) .

(٢) أي السور من القرآن .

(٣) «صحيح النسائي» (٣٣٣٩) .

(٤) انظر «معجم مقاييس اللغة» (٤٧١/٣)، «اللسان» (٢٧٦٤/٥)، و«اشتقاق أسماء الله» (١٣٧)، و«عمدة الحفاظ» =

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الظاهر الذي لا أظهر منه سبحانه ، فليس في الظاهر غيره :

(١) فهو الظاهر : على كل شيء دونه ، وهو العالي فوق كل شيء ، فلا شيء أعلى منه^(١) :

(أ) بعلو الذات والفوقية ، (ب) وعلو الغلبة والقهرية ، (ج) وعلو الشأن والقدر ، والصفات الكمالية ، (د) وانتفاء الشبيه ، والعديل ، والمثلية^(٢) .

(٢) وهو الظاهر تعالى : الذي ظهر للعقول بالدلائل الدالة على وجوده ، وأفعاله المؤدية إلى العلم به ومعرفته ، فلا يمكن معها أن يجحد وجوده ، وينكر ثبوته^(٣) .

(٣) وهو سبحانه الظاهر : بالدلائل والآيات وبحججه الباهرة ، وبراهينه النيرة ، وبشواهد إعلامه ، الدالة على ثبوت ربوبيته ، وصحة وحدانيته في ألوهيته ، فلا ذرة في الوجود ، إلا وهي ناطقة بوحدانية المعبود^(٤) ، قال سبحانه : ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] .

(٤) وهو تعالى الظاهر : المظهر ، الذي يُطْلَعُ ويُظْهَرُ من يشاء من عباده ، من العلوم والمعارف العقلية ، والنقلية ، والغيبية ، قال تعالى : ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ [التحریم: ٣] ، وقال سبحانه : ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ ﴿إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رَسُولِي﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٧] .

(٥) وهو الظاهر : الذي أعلى هذا الدين وأهله فوق كل الأديان ، وجعله ناصراً في الحجة ، والسيف ، والسنان ، على كل الأنام ، ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهَرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة] .

(٦) "هو سبحانه الذي بدا بنوره ، مع احتجابه بعالم الغيب ، وبدت آثار ظهوره لمخلوقاته في عالم الشهادة .

= (١٧/٣) ، و«تفسير القرآن» لأبي مظفر السمعاني (٣٦٥/٥) ، و«تفسير الطبراني» (٢٠٢/٦) ، و«شرح الأسماء الحسنى» للرازي (٣٣٣) .

(١) «تفسير ابن جرير» (٦٧٠/١١) .

(٢) انظر : «أسماء الله الحسنى» للرضواني (٣٠٨) .

(٣) «تفسير أسماء الله الحسنى» (٦٠) ، و«اشتقاق أسماء الله» (١٣٧ ، ٢٠٨) .

(٤) «تفسير السمعاني» (٣٦٥/٥) ، «شأن الدعاء» (٨٨) ، و«تحفة الأبرار» (٥٥) ، و«موسوعة الشرباصي» (٣٦٩/١) .

(٧) وهو سبحانه الظاهر: المعين لكل العالمين ، في تدبير أرزاقهم ، ومعاشهم ، وتيسير أمورهم ، وما فيه منافعهم في دنياهم ، ويخص أوليائه الموحدين ، فيعينهم في أمور دينهم ، ودنياهم ، ومعادهم ، وينصرهم على أعدائهم^(١) ، ويدفع عنهم كيدهم ، قال تعالى : ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف] .

(٨) وهو تعالى الظاهر: بحكمته وخلقه ، وصنائه ، وجميع نعمه التي أنعم بها ، فلا يرى غيره^(٢) .

(٩) ومن كمال ظهوره سبحانه: أنه يدلُّ على علوه وعظمة صفاته ، واضمحلال كل شيء عند عظمته ، من ذوات ، وصفات^(٣) ، من جميع الوجوه والاعتبارات .

(١٠) وهو الظاهر تعالى: الذي يظهر ما خفي في القلوب من العيوب ، فيظهره إلى عالم الوجود ، كما أطلع سبحانه نبيه ﷺ ما أسرّه إلى بعض أزواجه^(٤) ، ﴿وَإِذْ أَسْرَأَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [التحریم: ٣] .

(١١) وهو الظاهر سبحانه: الذي أحاط بالظواهر والبواطن ، والسرائر والإعلان ، فهو تعالى أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عدداً ، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ، ولا في السموات العلا .

(١٢) وهو الظاهر: بالقدرة على كل شيء ، بالأدلة العقلية ، والأدلة الأفقية الكونية ، فقد خلق الله تعالى كل الكائنات الموجودات ، لتظهر آثار قدرته منها في كل اللحظات ، وهو سبحانه ظاهر عليها من جميع الجهات^(٥) .

(١٣) وهو الظاهر تعالى: الذي أظهر الأسباب في خلقه تكليفاً لهم بالشرائع والأحكام ، وتمييز الحلال من الحرام .

(١) «أسماء الله الثابتة في الكتاب والسنة» أ. د. الرضواني (٣٠٩) بتصرف .

(٢) «التوحيد» لابن منده (١٦٥) .

(٣) انظر: «طريق الهجرتين» (٥٠) ، و«الحق الواضح» (٢٥) .

(٤) وهي حفصة رضي الله عنها .

(٥) انظر: «موسوعة له الأسماء الحسنى» (٣٦٩/١) .

(١٤) وهو الظاهر: القوي ، الغالب القاهر على كل شيء^(١) ، الذي يقهر من عتى من الإنس والجان ، فقهر المتكبرين المتجبرين من الناس ، ومن الشيطان الوسواس الخناس .

(١٥) وهو الظاهر تعالى: الذي ظهر فوق الظاهرين بقهره للمتكبرين^(٢) .

(١٦) فهو الظاهر: بآياته التي تعرفه بها العقول ، بطريق البرهان ، الظاهر في مجالي ربوبيته لأهل العرفان ، بتجلياته التي تكمل في الآخرة ، فيكون العلم به رؤية عيان .

الثمرات

إنَّ التعبد باسمه (الظاهر) يجمع القلب على المعبود ، ويجعل له ربًّا يقصده ، وصمداً يصمد إليه في حوائجه ، وملجأً يلجأ إليه ، فإذا استقرَّ ذلك في قلبه ، وعرف ربَّه باسمه (الظاهر) استقامت له عبوديته ، وصار له معقل ، وموئل يلجأ إليه ، ويهرب إليه ، ويفرُّ في كل وقتٍ إليه^(٣) .



(١) ينظر: «تفسير القرآن» لأبي مظفر السمعاني (٣٦٥/٥) ، و«تفسير السمرقندي» (٣٢٢/٣) .

(٢) «الأسنى» (١٧٧) .

(٣) «طريق الهجرتين» (٤٦) .

٦٨- الله ﷻ الباطن ﷻ جلّ ثناؤه

قال تعالى ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] .

قال ﷻ: «... وأنت الباطن فليس دونك شيء»^(١).

المعنى اللغوي

الباطن: اسم (الفاعل) لمن اتّصف بالبطون، وهو خلاف الظاهر، ويدلّ على:

الأول: الخفاء والاحتجاب، وعدم الظهور، وهو مأخوذ من: بطن الشيء ببطن: إذا خفي، وبطن الأرض ما سفل منها وخفي.

الثاني: الخير العالم بما بطن من أمور، ويقال: "بطنت فلاناً وخبرته": إذا عرفت باطنه وظاهره^(٢).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الباطن الذي أحاط بكل خفي وباطن، ولكل متحرك وساكن:

(١) المختجب عن أبصار الخلائق، فلا يُرى في الدنيا^(٣)، ولا تدركه^(٤) الأبصار في الآخرة، لكمال عظّمته، وجلاله، وكبريائه^(٥).

(٢) وهو تعالى الباطن: لجميع الأشياء، فلا شيء أقرب إلى شيء منه، فلا توارى منه سماء

(١) «صحيح مسلم» (٢٧١٣).

(٢) «لسان العرب» (١٣٦/١)، و«تفسير الأسماء» (٦١)، و«اشتقاق أسماء الله» (١٣٧، ٢٠٨)، و«الصحاح» (٣٢) و«الأسنى» (٢٤٧).

(٣) ينظر: «إبطال التأويلات» (٦٦٥)، و«تفسير السمعاني» (٣٦٥/٥).

(٤) الإدراك: هو الإحاطة بالمدرّك من كل وجه، وهو أخص من الرؤية، فهو تعالى يرى في الآخرة ولا تُدرك حقيقته سبحانه في الدنيا، ولا في الأخرى، فكل إدراك يشمل الرؤية، وليس العكس. انظر: «تفسير ابن كثير» (١٦١/٢)، «ابن السعدي» (٢٦٨).

(٥) المصادر السابقة.

سماءً ، ولا أرضٌ أرضاً ، فلا يحجب عنه ظاهر ولا باطن .

(٣) وهو الباطن سبحانه: المطلع على ما بطن من الغيوب ، الذي لا يفوته علم شيء في الوجود ، ولا يبعد عنه شيء إذا أَرَادَهُ من موجود .

(٤) العليم ببواطن الأمور وظواهرها ، المطلع على السرائر ، والضمائر ، والخبايا والخفايا ، ودقائق الأشياء وأسرارها^(١) .

(٥) فهو تعالى الباطن: بلطفه ، وغوامض حكمته ، وباهر صفاته ، التي لا تصل إلى معرفتها على ما هي عليه الأوهام^(٢) ، فهو المحتجب الذي لا يستولي عليه توهم كيفية^(٣) .

(٦) فهو سبحانه الباطن: لأنه غير مُدْرَك بالحواس كالأشياء المخلوقات التي تُدْرَك بالحواس ، نحو: اللمس ، والحس ، والنظر ، والمشاهدة ، وأشباه ذلك ، وإنما يُدْرَك جَلٌّ وتعالى بآثاره وأفعاله^(٤) .

(٧) ومن كمال بطونه: أنه يدل على كمال قرب ، ودنوّه سبحانه ، فهو أحاط بكل شيء ، بحيث يكون أقرب إليه من نفسه ، وهو محيطٌ به حيث لا يحيط الشيء بنفسه ، وهو فوق عرشه ، وهذا قرب غير قرب المحبِّ من حبيبه ، هذا لون ، وهذا لون^(٥) .

(٨) وهو سبحانه الباطن: الذي استتر عن خلقه بلطائف القدرة ، وخفايا المشيئة ، قال سبحانه: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ [١٦] ، أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴾ [الواقعة] .

(٩) وهو تعالى الباطن: الذي احتجب عن ذوي الألباب كنه ذاته ، وكيفية صفاته ﷻ^(٦) .

(١٠) وهو الذي حجب الكفار عن معرفته (في الدنيا) ، وحجبهم عن رؤيته في العقبى ، والتي هي أعظم نعيم ، في جناته العلا^(٧) .

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢/٢١٨) ، و«طريق الهجرتين» (٥١) ، و«شأن الدعاء» (٨٨) ، و«الأسنى» (٢٤٧) .

(٢) أي الإحاطة على حقيقتها .

(٣) «تفسير الثعالبي» (٥/٣٧٨) ، و«شأن الدعاء» (٨٨) .

(٤) «اشتقاق أسماء الله» (٢٠٩) ، و«المنهاج» (١/١٩٦) .

(٥) «طريق الهجرتين» (٥٠) .

(٦) «التوحيد» لابن منده (١٦٥) ، و«أسماء الله الثابتة» (٣١٥) .

(٧) ينظر: «لوامع البينات» (٣٣٥) .

(١١) وهو الذي أخفى عن خلقه: دقائق صنعه، وحقائق حكمته، وسعة خلقه، قال سبحانه: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨].

(١٢) وهو الذي أبطن أصناف نعمه، وآلائه، قال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهَرَ وَبَاطِنًا﴾ [لقمان: ٢٠]. وقال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، فالظاهرة: المشاهدة، والباطنة: المخفية التي لم نعلمها، ولم نرها.

(١٣) وهو الذي احتجب عن العقول بشدة ظهوره، واختفى عنها بكمال نوره^(١).

(١٤) ومن كمال بطونه تعالى: أنه عليٌّ في دنوّه، قريبٌ في علوّه.

دلّ هذان الاسمان الجليلان على إحاطته سبحانه بجميع الأمكنة، وأنها تنتهي إلى الله تعالى في العلو، والقرب^(٢).

جلال الأول والآخِر والظاهر والباطن

الأول: من جلال هذه الأسماء العلية: أنها تشتمل على أركان التوحيد أجمعه، وأركان العلم، وعمد المعرفة، فاشتملت هذه الأركان الأربعة على جماع المعرفة بالله، وجماع العبودية له بكل حال، وبكل وجه: فهو الأول في آخريته، والآخِر في أوليته، والظاهر في بطونه، والباطن في ظهوره، لم يزل كذلك أولاً، ولا يزال كذلك آخرًا، وظاهرًا وباطنًا، لا يتوجه إليه التضاد، على الآباد، فحقيق بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلى حيث ينتهي به قواه، وفهمه^(٣).

الثاني: ومن جلال هذه الأسماء: أنه سبحانه هو الأول قبل الأزل، والآخِر المعطي فوق النوال والأمل، "والظاهر بلا احتذاء، والباطن بلا اختفاء.

الثالث: أنه هو الأول بالإيجاد والتخليق، والآخِر بالهداية والتوفيق.

الرابع: وهو الظاهر بإزالة الكروب، والباطن بغفران الذنوب، والأول بلا تدبير أحد، الآخر بلا تأخير أحد، الظاهر بلا تقوية أحد، الباطن بلا خوف أحد^(٤).

(١) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (٣٧٠/١، ٣٧٢)، و«الخصائص اللغوية لاسم الجلالة (الله)» (٥٤).

(٢) «طريق الهجرتين» (٥٠)، و«توضيح الكافية» (١١٧)، و«شرح العقيدة الواسطية» (١٠٧).

(٣) انظر: «طريق الهجرتين» (٥٠ - ٥١، ٥٣)، وانظر: «شرح أسماء الله الحسنى» للإشيلي (١١٢/١، ١١٨).

(٤) «شرح الأسماء الحسنى» للرازي (٣٢٥ - ٣٢٧).

الخامس: ومن جلالها: "أنه هو الأول بالإيجاد، والآخر بالإرشاد، وهو الظاهر فيما أظهره، والباطن فيما أبطنه" (١).

السادس: ومن جلال الظاهر والباطن: أنه تعالى: "احتجب عن العيون والأبصار، ورفع ذاته عن العقول والأفكار، فلم يتخيله عقل، ولم يصوره وهم" (٢).

السابع: ومن جلال الظاهر والباطن: أنه تعالى "أقرب من الوريد إلى القلب، ومن الروح المماس للجسم، وهو مع ذلك: فوق كل شيء، ويحيط بكل شيء، ولا يحيط به شيء" (٣).

الثامن: ومن جلالهما: أنه سبحانه "الظاهر: أنه المفزع عند الشدائد، والباطن: الذي لا يُقصد بالضرر، وأنه لا يقف دون الخفيات بعلم" (٤).

الثمرات

التعبد باسمه (الباطن): هو التعبد بخالص المحبة، وصفوة الوداد، وأن يكون الإله أقرب إليه من كل شيء، وأقرب إليه من نفسه، مع كونه ظاهراً فوق كل شيء (٥)، فإذا شهدت إحاطته بالعوالم، وقرب العبيد منه، وظهور البواطن له، وبدو السرائر له، وأنه لا شيء بينه وبينها، فعامله بمقتضى هذا الشهود، وطهر له سريرتك، فإنها عنده علانية، وأصلح له غيبك، فإنه عنده شهادة، وزكك له باطنك، فإنه عنده ظاهر (٦).

فمن عرف قدر هذا الاسم الكريم ألا يدخر من ظاهره وباطنه، وسرّه وعلانيته، وقلبه وبدنه، وروحه وجسده، ودقّه وجلّه شيئاً من أمره وحكمه، وأن يدع ظاهر الإثم وباطنه (٧).



(١) «شرح الأسماء الحسنى» للإشيلي (١١٨/١).

(٢) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان (١١٣/١).

(٣) «شرح أسماء الله» للإشيلي (١١٣/١).

(٤) «الأمم الأقصى» (٥٠٣/١، ٥١١).

(٥) «طريق الهجرتين» (٤٩).

(٦) المصدر السابق (٥٣).

(٧) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان (١١٨/١) بتصرف.

٦٩- الله ﷻ المهيمن ﷻ تبارك وتعالى

قال تعالى: ﴿الَسَلَمُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِمِّنُ﴾ [الحشر: ٢٣]

المعنى اللغوي

المهيمن: اسم فاعل للموصوف بالهيمنة، وأصل الهيمنة: الحفظ والارتقاب، والقيام على الشيء والرعاية له، ويأتي بمعنى: الشاهد، والحاكم، والأمين، والصادق، فالمهيمن هو:

الأول: الحفيظ الرقيب، القائم على الشيء بالرعاية له، والسيطرة عليه، وحفظه والتمكن منه، فهو المبالغ في الحفظ والصيانة عن المضار، كما يهيمن الطائر على فراخه، ويرفرف بجناحيه فوقهم، لحمايتهم وتأمينهم.

الثاني: الشهيد^(١)، أي: المشاهد العالم بجميع الأشياء، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، أي: مصدقاً للكتب قبله، وشهيداً عليها أنها حق من عند الله.

الثالث: الأمين^(٢) المؤمن، أي: الأمين، وهو ضدُّ الخيانة، الذي لا يُضَيِّعُ حقَّ أحدٍ، وهو الذي آمن غيره من الخوف.

الرابع: الصادق والمصدق، ومنه قول الشاعر:

ألا إنَّ الكتابَ مهيمنٌ لنبيِّنا والحقُّ يعرفه ذوو الألباب

وهو في حقِّ الله تعالى يكون التصديق بالكلام (وكذلك بالفعال)، فيصدق أنبياءه بإخباره تعالى عن كونهم صادقين، ويكون تصديقه لهم (بالفعال): أن يظهر المعجزات على أيديهم.

الخامس: العلاء، أي: العالي على الشيء، فيتضمن نعوت التعالي، والرفعة، والشرف،

(١) صح عن ابن عباس ؓ، انظر «التفسير الصحيح» (٤/٤٧٠).

(٢) صح عن ابن عباس ؓ، كذلك، انظر المرجع السابق.

ومنه قول العباس: (حتى احتوى بيتك المهيمن من البيت)^(١).

"فالهيمنة شهادة خبرة، وإحاطة، وإبصار لكلية ظاهر الأمر وباطنه، بحيث لا يخفى منه خافية هوية، ولا بادية ظاهرة"^(٢)، وكلُّ هذه المعاني يتَّصف بها ربُّنا ﷺ، في أسمى معانيها، وأعلى دالاتها من الكمال.

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو المهيمن المشرف على كنه هذا العالم، وما يتصل به من عوامل^(٣):

(١) فهو الشاهد على خلقه بأعمالهم، الرقيب عليهم، فيما يصدر منهم من قولٍ، أو فعلٍ، لا يغيب عنه من أفعالهم شيء، قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ [يونس: ٦١]^(٤).

(٢) وهو المطلِّع على خفايا الأمور، وخبايا الصدور، الذي أحاط بكل شيء علمًا، بحيث لا يخفى منه خافية هوية، ولا بادية ظاهرة.

(٣) فهو سبحانه الحافظ لكل شيء، الذي يشهد الخواطر، ويعلم السرائر، ويُبصر الظواهر.

(٤) وهو المهيمن: الرقيب، على كل شيء، باطلاعه، واستيلائه، وحفظه، فهو القائم على أمور كلِّ الخلائق، بالرعاية، والعناية لهم^(٥)، والإصلاح لأحوالهم، وشؤونهم، المصرفهم فيما فيه صلاحهم، المستولي عليهم بقدرته، وهو مستوٍ فوقهم على عرشه.

(٥) وهو سبحانه المهيمن: الذي يُؤمِّن من شاء من عباده من الخوف، الناشر الأمان والاطمئنان لمن يشاء من الأنام.

(١) انظر «لسان العرب» (١١٠/٣)، و«شأن الدعاء» (٤٦)، و«تفسير الأسماء» (٣٢)، و«اشتقاق أسماء الله» (٢٢٧)، و«النهاية» (١٠١٢)، و«الطبري» (١٧٢/٦)، و«التوحيد» لابن منده (٦٨/٢)، و«تفسير الطبراني» (٤٠٧/٢)، و«تفسير السمعي» (٤٣/٢)، و«تفسير البروسوي» (٢٨٣/٤)، و«الأمد الأقصى» (٢٠٢/٢)، و«شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان (٢٩٦/١)، و«الأسنى» (٢٤٨/١).

(٢) «نظم الدرر» (٥٤٠/٧).

(٣) انظر: «موسوعة له الأسماء الحسنى» (٦٦/١).

(٤) انظر: «شأن الدعاء» (٤٦)، و«تفسير ابن كثير» (٤٥٢/٤).

(٥) ينظر: «تيسير الكريم المنان» (٩٤٧)، و«نظم الدرر» (٥٤٠/٥)، و«محاسن التأويل» (١٩٦/٩)، و«النهاية» (١٠١٢)، و«تفسير الأسماء» (٣٢)، و«موسوعة له الأسماء الحسنى» (٦٦/١).

٦) وهو تعالى المهيمن: الأمين، الذي لا يضيع أعمال العباد^(١):

(أ) فلا ينقص المطيعين يوم الدين من طاعاتهم شيئاً، فلا يثيبهم عليه.

(ب) وكذلك لا يزيد على العاصين، مما اجتروحوا من السيئات شيئاً، فيزيدهم عقاباً على ما استحقوه، لأنه لا يجوز عليه الظلم، والكذب، لكمال عدله وصدقته^(٢).

٧) وهو سبحانه المهيمن: المصدق، وتصديقه إما بالكلام (أو بالفعال):

(أ) الذي يصدق أنبياءه بإخباره تعالى عنهم بأنهم صادقين.

(ب) وهو المصدق بما يظهر من المعجزات الباهرات على أيديهم^(٣).

(ج) ومصدق في كل ما حدث عما مضى من الدنيا، وما بقي، وما حدث عن الآخرة.

٨) وهو المتعالي الحق، الذي لا يعجزه أحد، ولا يستكرهه ند، ولا يرد قضاءه ضد.

٩) وهو المشرف على كنه هذا العالم، وما يتصل به من عوامل، القائم على هذا الوجود، بالحفظ، والاستيلاء، والصيانة عن المضار.

١٠) وهو المهيمن سبحانه: الصادق في قوله، وفي خبره، ووعد، ووعيده^(٤).

جلال المهيمن

الأول: من جلال المهيمن: أنه يدل على أنه تعالى محيط بغيره بكمال الاستعلاء، الذي لا يخرج عن قدرته مقدور، ولا ينفك عن حكمه مفطور، له الملك والفضل، على جميع الخلائق، في سائر الأمور^(٥).

الثاني: ومن جلال هذا الاسم الكريم: أنه يتضمن "نعوت التعالي، والرفعة، والمبالغة في العلو على كل اسم تسمى به العباد، فهو المهيمن عليه، أي هو العالي عليه، أي أن له حقيقته،

(١) «تفسير القرآن» لأبي مظفر السمعاني (٤٠٩/٥).

(٢) «المنهاج» (٢٠٢/١).

(٣) «لوامع البينات» (٢٠٢).

(٤) ينظر: «موسوعة له الأسماء الحسنی» (٦٦/١).

(٥) «أسماء الله الحسنی»، د. محمود الرضواني (٢٦٦).

وكل متمسِّم به سواء له منه مجازة ، وهو تعالى المتصف به ، وله تمامه الأقصى ، وكماله الأرفع ، الأعلى دون غاية ، ولا نهاية .

هو المؤمن المهيمن على كل مؤمن ، وهو الكريم المهيمن على كل كريم ، والرحيم المهيمن على كل رحيم ، والحليم المهيمن على كل حليم ، والبر ، والصادق ، هكذا في سائر الأسماء والصفات ، هذا في حق المهيمن الحق عز جلاله .
جلَّ المهيمن عن صفات عبده ^(١) .

الثالث: ومن جلال المهيمن سبحانه: "أنه أنزل القرآن الحكيم الذي هو كلامه ، ومن أوصافه العلا الذاتية والفعلية مهيماً على سائر الكتب التي أنزلت ، قال عزَّ شأنه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨] ، أي: عالٍ عليها ، وأميناً عليها ، ومصدقاً لها ، شهد لها روافقها ، وطابقت أخباره أخبارها ، وشرائعه الكبار شرائعها ، وأخبرت به فصار وجوده مصداقاً لخبرها .

فيكون علوه عليها راجعاً إلى:

(١) زيادة في التصديق والبيان ، والتي من أجلها: المطالب الإلهية ، والأخلاق النفسية .

(٢) وكونه معجزاً يصدق من جاء به ، ويصدق ما قبله من الكتب والرسل .

(٣) أنه لا يتطرق إليه التبديل ولا التحريف كما كان في الكتب التي قبله .

(٤) بما زاد عليها من السور ، كما خصَّ نبينا ﷺ بالفاتحة وخواتيم البقرة .

(٥) الإعجاز في ألفاظه ، ومعانيه ، وغير ذلك الكثير .

فإذا كان كذلك ، فلا خفاء بمزية تصديق الله تعالى على تصديق خلقه ، وعلوه على كل عالٍ بكل اعتبار ، قال تعالى: ﴿وَلَئِنَّهُ فِي أُمْرِ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلٌّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ٤] ^(٢) .

الرابع: ومن جلال هيمنته تعالى: أنه المبالغ في حفظ أوليائه الأبرار ، الصائن عنهم الأضرار ، الدافع عنهم الأخطار في السر والجهار .

(١) «شرح الأسماء» لابن برجان (٣٠٠/١) ، و«الأسنى» (٢٤٨/١ - ٢٥٢) بتصرف يسير .

(٢) انظر: «الأسنى» (٢٥٠/١) ، و«تفسير الطبري» (١٠٩/٣) ، و«تفسير السعدي» (٢٣٤) ، و«تفسير الرازي» (١٢/١٢) .

الثمرات

من عرف أنه سبحانه هو المهيمن: خضع تحت جلاله ، وراقبه في كل أحواله ، واستحيا من اطلاعه عليه ، فقام بمقام المراقبة لديه^(١) ، "فينبغي الخوف والرجاء من شهادته سبحانه ، لكل الأحوال ، فهو الذي يشهد السرّ والنجوى ، في الدنيا والعقبى"^(٢) .

وينبغي للمؤمن الذي هو عبد المهيمن سبحانه: أن يكون له حظ في هيمنته على أهله ، وولده ، بالرعاية والإشراف عليهم ، ومن ذلك: في القيامة والمراقبة على جميع أحوالهم الدينية ، والدنيوية ، والأخروية .

وكذلك في هيمنته على نفسه ، فيراقب قلبه الذي هو ملك جوارحه ، فيحفظه عن كل ما يشينه من الاعتقادات ، والظنون الفاسدة ، وكذلك في مراقبته لأعماله ، وأقواله ، في سره ، وجهره ، وخلواته ، فيحجمها عن كل ما يسخط الله تعالى ، ويبغضه من الأعمال ، الظاهرة والباطنة .

ولما كان من معاني المهيمن سبحانه أنه الصادق المصدّق ، فينبغي للعبد أن يصدق الرب في كل ما أنزله من الحق ف"يصدق الحق بقلبه ، ويقرّره بلسانه ، وأن يصدق في قوله"^(٣) ، وأركانه ، وفي كل أحواله ، فبذلك يكون قد عبد المهيمن حقّ عبوديته ، أينما ولى وجهه .



(١) «تفسير البروسوي» (٢٨٣/٤) .

(٢) «أسماء الله الحسنى» للرازي (٢٧٩) .

(٣) «شرح الأسماء الحسنى» للكافيجي (١٤٥) .

٧٠- الله ٱ الْحَقُّ ٱ جل وعلا

قال تعالى: ﴿فَنَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه: ١٤٤].

المعنى اللغوي

الحقّ: اسم (فاعل)، وهو العدل نقيض الباطل، والظلم، وأصله: المطابقة والموافقة، الثبوت، أي: الوجود الثابت، يقال: "حق الأمر يحق حقاً"، فهو حق: أي إذا كان: موجوداً ثابتاً ومستقراً، ويطلق على: العدل، والصدق، والمقصود النافع، والموجد الشيء بحسب ما تقتضيه الحكمة، وغير ذلك. فالحق يدل على عدّة معانٍ جلال وكمال، والتي منها:

الأول: تحقيق وجود الشيء، يقال: "حققت الشيء": إذا تيقّنت كونه ووجوده، ثابتاً موجوداً غير معدوم، ولا منفي.

الثاني: المقصود النافع، كقول النبي ﷺ: «الوتر حق»^(١).

الثالث: إحكام الشيء، وصحته، يقال: "أحققت الأمر إحقاقاً": إذا أحكمته، وصحته، وبمعنى المطابقة، والموافقة، والثبات، وعدم الزوال، والحق: يقال للاعتقاد في الشيء، المطابق لما عليه في الحقيقة.

الرابع: ويطلق على الصدق، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقّاً﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿قَالَ ٱلْحَقُّ ٱلْحَقُّ ٱلْحَقُّ﴾ [أقول: [ص: ٨٤]].

الخامس: العدل، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوفِّهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾

[النور: ٢٥].

السادس: الموجد الشيء بحسب ما تقتضيه الحكمة، ولهذا يقال: فعل الله: كله حق، ونحو قولنا: الموت حق، والبعث حق، وفي معناه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَاءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾، إلى قوله: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٥].

(١) «صحيح أبي داود (١٤٢٢).

السابع: ويستعمل استعمال الواجب واللازم والجدير، نحو قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، أي: واجبٌ بطريق الوعد على سبيل التفضل.

الثامن: الحزم، ومنه قوله ﷺ: «ما حقُّ امرئ مسلمٍ بيت ليلتين إلا وصيته مكتوبة عنده»^(١) (٢).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الحق على الإطلاق، بالتمام الأعلى، والكمال الأرفع، من كل وجه وبكل اعتبار^(٣) فهو:

(١) المتحقق كونه، المتيقن وجوده على الحقيقة بالأزلية، الثابت بالدوام في الأبدية، فلا يحول ولا يزول، وجوده من لوازم ذاته العلية.

(٢) وهو سبحانه الحق: واجب الوجود بالبقاء الدائم، والدوام المتوالي، الجامع للخيرات، والمحامد كلها، والمجد، والثناء الحسن^(٤) بأعلاها، كامل الوجوب، والنعوت، المنزه عن الباطل من جميع الوجوه.

(٣) "فهو تعالى الحق: الذي لم يزل ولا يزال بالجلال، والجمال، والكمال على العموم موصوفاً"^(٥)، فهو الحق مطلقاً "في ذاته، وصفاته المقدسة"^(٦).

(٤) فهو سبحانه الحق، الثابت في نفسه، الذي به تحقق الأشياء، الذي لا وجود لشيء من الأشياء إلا به، فقوامها وبقاؤها به، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [الحج: ٦].

(٥) وهو الحق المطلق سبحانه: إن أمره كله مفيد مقصود، لا يتعزى عن ذلك من جميع

(١) البخاري (٢٧٣٨)، ومسلم (١٦٢٧).

(٢) «لسان العرب» (٩٣٩/٢)، «تفسير أسماء الله» (٥٣)، «النهاية» (٢٢٠)، و«اشتقاق أسماء الله» (١٧٩)، و«المفردات» (٢٤٦) و«عمدة الحفاظ» (٤٣٧/١)، و«القاموس المحيط» (٣٠٧)، و«مجموع الفتاوى» (٤١٥/٢)، و«الأمد الأقصى» (٢٩٤/١)، و«الأسنى» للقرطبي (١٦٧)، و«تلخيص الأدلة» (٤٣٩/١).

(٣) «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (١٢٩/١)، و«بدائع الفوائد» (١٦٥/٤).

(٤) ينظر: «النهاية» (٢٢٠)، و«الحجة في بيان المحجة» (١٤٦/١)، و«مجموع الفتاوى» (٨٨/٢)، و«شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان اللخمي (١٢٩/١).

(٥) انظر: «تيسير الكريم المنان» (٩٤٩).

(٦) «مجموع الفتاوى» (٣٨٤/٦).

جهاته، كيفما صرفته، ولهذا قال ﷺ: «أنت الحق، ووعدك حق...»^(١) الحديث، فأحق الأشياء الله، وأحق الأقوال لا إله إلا الله، وأحق المواعيد وعد الله تعالى، ففيه بيان: أن كل شيء منه، كذلك لا يتعلق به حكم إلا وهو مفيد مقصود، فصار حقاً من كل وجه.

(٦) فكل موجود في هذا الوجود سوى الله، وإن كان حقاً فليس هو في نفسه، بل هو حق بالله ﷻ، فإنه موجود به لا بذاته، بل هو باطل لولا إيجاد الحق سبحانه له، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَنْتَ مَا يَكْدُورُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، أي: لا وجود له^(٢).

(٧) وهو الذي يظهر صدقه للكفار والفجار بالآيات والدلائل الأفقية والنفسية، قال تعالى: ﴿سُرِّيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

(٨) وهو تعالى الحق: في كل أقضيته، وأحكامه، وهي الأحكام الثلاثة: الأحكام الشرعية الدينية، والأحكام القدريّة الكونية، والأحكام الجزائية، فكلها سواء، حق، وصواب، ليس فيها شيء باطل، لتضمنها الحكمة والعدل، والفضل، والهدى، والرحمة، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ﴾ [غافر: ٢٠].

(٩) وهو الذي أوجب على من جحد الحق، أن لا يدخل الإيمان فيه إلى القلب، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣]، وما ظلمهم الله تعالى، ولكن ظلموا أنفسهم بردّهم للحق لما جاءهم أول مرة، بعدما أراهم من الآيات البينات، والبراهين الساطعات.

(١٠) وهو سبحانه الحق: الذي أوجب على نفسه تفضلاً، وتكرماً، نصرته المؤمنين، في كل زمان ومكان في الدنيا، وإن لم يكن بين ظهرانيهم رسول، قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

وفي الآخرة، قال سبحانه: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾ [التين: ٩١] [غافر].

(١١) "وهو سبحانه الذي يحق الحق بأقواله، وأفعاله، وحكمه في العاجل والآجل، قال

(١) سيأتي تخريجه عند (الجلال).

(٢) ينظر: «الأمم الأقصى» (٢٩٩/١)، و«شرح أسماء الله الحسنى» لأبي حكم الإشبيلي (١٣٤/١)، و«الأسنى» (١٦٨)، «تيسير الكريم المنان» (٧٣٥).

تعالى: ﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [يونس: ٨٢]، أي: سينفذ وعده، ويظهر صدقه، في قوله، ووعدته، وخبرته، ويتم أمره، وإن شاقه المشركون أو ضارّه المبطلون^(١).

ومن ذلك: أنه ينصر أوليائه، ويستأصل أعداءه، وذلك: ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾ [الأنفال: ٨]، بما يظهر من الشواهد والبراهين، على صحته وصدقه، ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾ [الأنفال: ٨]: بما يقسم من الأدلة والشواهد على بطلانه^(٢).

١٢) والله تعالى الحق: الذي يلقي الحق، وينزله على من يجتبه من عباده، أو يرمي به الباطل فيدمغه، أو يرمي به إلى أقطار الآفاق، فيكون وعداً بإظهار الإسلام، وإعلائه فوق كل الأديان، وإفشائه بين كل الأنام، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَ الْغُيُوبِ﴾ [سبا: ٣].

١٣) وهو الذي أوجب وأثبت حقاً صدقاً لا يتغير أبداً، أنه يملأ جهنم من الجنة والناس كلهم، قال سبحانه: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣] فهذا وعد لا بد منه، ولا يحيد عنه، فلا بد من تقدير أسبابه، من الكفر والمعاصي من عباده.

١٤) وهو تعالى الحق: العدل، الذي لا يعتره الباطل على الإطلاق، من ذلك:

(أ) أنه سبحانه لا يظلم أحداً من الخلائق مهما اقترف من الذنوب والخطايا البوائق، قال جلّ وعز: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]^(٤).

(ب) أن الشر لا ينسب إليه في أي وجه من الوجوه، قال ﷺ: «والشر ليس إليك»^(٥).

(ج) أنه لم يخلق الخلق عبثاً ولا لعباً، ومن ذلك: السموات والأرض - وإنما خلقهم لغاية عظيمة وهي: عبوديته، لينالوا أعظم نعيم في جناته، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [١٣٧] فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ [المؤمنون: ١١٥ - ١١٦]، وقال عز شأنه: ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِيُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجنّة: ٢٢].

١٥) "وهو سبحانه الحق: المتحقق في ألوهيته، فهو الإله الحق، وكل ما عبّد من دونه

(١) «الأسنى» (١٦٨) بتصرف.

(٢) «تفسير السعدي» (٣١٦).

(٣) «أنوار التنزيل وأسرار التأويل» (١١١/٣).

(٤) كما قال ﷺ: «لو كان الله تعالى عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم» صحيح ابن ماجه (٧٧).

(٥) مسلم (٧٧١).

تعالى باطل^(١) وضلال ، وزيف ، وانحلال ، وقال ﷺ: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢] ، وقال سبحانه ، ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢] .

(١٦) وهو تعالى الحق: الذي لا شريك له في ربوبيته ، فهو رب العالمين ، لا رب لنا سواه في الوجود ، المتفرد في التدبير وتصريف الأمور .

جلال الحق

الأول: من جلال الحق تعالى: أن كل ما يوصف به ، أو ينسب إليه ، أو يضاف إليه حق ، وكل شيء من عنده حق ، وكل ما عاد إليه حق ، وكل ما يصدر منه حق ، من كل الوجوه: فأسماءه حق ، وصفاته حق ، وذاته حق ، وقوله حق ، ووعد ووعيده حق ، وأمره ونهيه حق ، وكتبه حق ، وخلق المخلوقات بسبب الحق ، ولأجل الحق ، وخلقها متلبس بالحق ، والجنة حق ، والنار حق ، وهو في نفسه حق ، فمصدره حق ، وغايته حق ، وهو متضمن للحق ، كقول النبي ﷺ: «... أنت الحق ، وقولك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبون حق ، ومحمد حق»^(٢) ، وصدق ﷺ حين قال: ﴿فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢] . قال ﷺ: «أصدق كلمة قالها شاعر ، كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل»^(٤) .

الثاني: ومن جلال الحق سبحانه: "أنه به وبأمره خلق كل شيء ، وبه أقام كل شيء ، وأراد إقامته ، وبه نفذ حكمه ، وتدبيره ، وقدرته ، وعدله ، ورحمته ، وفضله ، وبه عذب وعفا ، وبه أضل وهدى ، وبه أمات وأحيا ، وبه أمر ونهى ، وقرب واصطفى ، وبه ابتلى وعافى ، وبه تبرأ ووالى ، وبه شهد واستشهد ، وبه حمد نفسه واستحمد"^(٥) .

الثالث: ومن جلاله: أنه "اختصَّ به (أي اسمه الحق) المتعبدون من هذه الأمة ، فلا يخبرون عنه إلا به ، لما عاينوا من كثرة الباطل ، وشاهدوا من غلبة المُحال ، عظم قدره في الملة ، وعمَّ ذكره في الشريعة .

(١) «النهاية» (٢٢٠) ، و«اشتقاق أسماء الله» (١٧٨) .

(٢) صحيح البخاري (١١٢٠) ، ومسلم (١٨٠٥) .

(٣) «بدائع الفوائد» (٤١١/٢) ، «شفاء العليل» (٥٧/٢) ، «اشتقاق أسماء الله» (١٧٨) ، وانظر: «مجموع الفتاوى» (٤١٥/٢) (٣٨٤/٦) .

(٤) «صحيح البخاري» (٢٧٣٨) ، «مسلم» (١٦٢٧) .

(٥) «شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان الإشبيلي (١٣٣/١) .

وأما عظم قدره: فلأنَّ مبنى الدين كله عليه ، وأما عموم ذكره: فلأنه ينطلق على كل فرع ، وأصل ، وقول ، وعمل ، وتستعمله كل طائفة ، وتدعيه كل أمة^(١) .

الرابع: ومن جلاله: أن ﴿لَمْ دَعُوهُ لِحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤] ، أي: توحيد الله تعالى^(٢) ، وهي: "شهادة أن لا إله إلا الله"^(٣) ، فدعوة الحق هي: عبادته وحده لا شريك له ، وإخلاص العبادة ، ودعاء المسألة له تعالى ، ولهذا أضيفت إلى الحق الذي هو ضد الباطل ، للدلالة:

على أن الدعوة ملازمة للحق ، وأنها بمعزل عن الباطل ، والمعنى: أنه تعالى هو الذي ينبغي أن يصرف له الدعاء ، لأنه سبحانه يدعى فيستجيب الدعوة ، ويعطي الداعي سؤاله ، فكانت دعوة ملازمة للحق لكونه حقيقياً بأن يوجه إليه الدعاء ، لما في دعوته من الجدوى والنفع ، بخلاف ما لا ينفع ولا يجدي دعاؤه^(٤) .

الخامس: ومن جلال الحق تعالى: أنه يجري الحق على لسان وقلب من شاء من الخلق ، منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال رضي الله عنه: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه»^(٥) ، أي: "ظهور الحق واستعلائه على لسانه ، وذلك أمر خلقي جبلي له ، فكان خلقاً ثابتاً مستقراً"^(٦) .

السادس: ومن جلاله: أن "جرت عادته سبحانه أن لا يرتفع شيء من أمر الدنيا إلا اتضع ، أي: حطه وطرحه ، قال رضي الله عنه: «إن حقاً على الله ﷻ (أي: أمراً ثابتاً عليه)^(٧) ، أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه»^(٨) .

السابع: ومن جلاله: أنه تعالى أوجب على نفسه وجوباً ثابتاً لا يتغير أن من نافح عن عرض أخيه بالغيب ، أعتقه الله من نار جهنم ، قال رضي الله عنه: «من ذبَّ عن عرض أخيه بالغيب ، كان حقاً على الله ﷻ أن يعتقه من النار»^(٩) .

(١) «الأمد الأقصى» (٢٩٣/١) .

(٢) «تفسير الطبري» (٤١٣/٤) .

(٣) ثبت عن ابن عباس رضي الله عنه ، انظر: «التفسير الصحيح» (١١٣/٣) .

(٤) انظر: «تفسير السعدي» (٤١٥) ، و«تفسير النسفي» (٥٥٢) .

(٥) صحيح الترمذي (٣٦٨٢) .

(٦) «تحفة الأحوذى» (١٩٤/٩) .

(٧) «تحفة الأحوذى» (١٩٧/٨) .

(٨) صحيح البخاري (٢٨٧٢) .

(٩) رواه أحمد في «المسند» بنحوه (٢٧٥٣٦) ، وحسنه شعيب الأرناؤوط (٤٥ ، ٥٢٤) ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٢٤٠) .

الثمرات

إن هذا الاسم الكريم يقتضي تحقيق مقام التوكل على الله تعالى ، والاكتفاء به ، والالتجاء إلى ركنه الشديد ، فإن الله هو (الحق) وهو ولي الحق ، وناصره ، ومؤيده ، وكافي من قام به ، فما لصاحب الحق ألا يتوكل عليه ؟ وكيف يخاف وهو على الحق ؟ كما قالت الرسل لأقوامهم : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ [إبراهيم^(١)] ، فإذا كان الأمر كذلك : ينبغي للعبد أن يلتزم الحق في أموره كلها ، فلا يقول إلا الحق ، ولا يفعل إلا الحق ، ولا يخالل إلا أهل الحق ، وينبغي أن لا يستحي من بيان الحق ، تعبدًا للرب الحق .

و"اعلم وفقنا الله وإياك - أن إصابة الحق : في العقد^(٢) ، والقول ، والعمل ، تنال شرف الدنيا ، والآخرة ، واتباع صاحب الحق تنال معرفته ، إذ إن الحق أرفع الأسماء ، وأعفها ، وأشرفها ، إليه تنتهي جميع الأحكام والعلوم كلها قاطبة ، وإليه تتحكم العقول ، وبه تخاصم الأبواب ، وإليه ترجع على اختلافها ، فاعمل نفسك - وفقك الله - في طلب معرفة ربك ﷻ ، وبه أقام ، فالزم حقه نفسه حتى يتحقق عندك أن حقه لازم لك في ظاهره ، وباطنه ، في أولك وآخره ، وهو الذي خلقك وصورك فأحسن صورتك ، وعدلك وسواك ، وأنشأك ورباك ، وحرسك من الآفات ، فنعمة عليك سابعة ، وفيك ظاهرة ، وفي شؤونك كلها شائعة ، وحقه عليك في كل نعمة جاد بها عليك واجب .

فالتزم حق عبوديتك بكل ذلك ، إذ إليه شكر ما ألزمك من عبوديتك بكل ذلك .

فمن حقه عليك : أن تطيعه ولا تعصيه ، ومن حقه عليك : أن تخافه ولا تخاف عدوه ، ومن حقه عليك : أن تجل مقامه ، وجلاله ، وتعظمه بعظمته ، وكبريائه ، ومن حقه عليك : أن تشفق من غضبه ، وسخطه ، وإبعاده ، ومن حقه عليك : أن تعرفه بإحاطة علمه ، وقدرته ، وألوهيته ، ووحدانيته ، وحمدانيته ، ومن حقه عليك : أن تعرفه بأسمائه الحسنى ، وصفاته العلا ، ومن حقه عليك : أن تعرف نفسك بعبوديتك ، وذاتك ، ومسكنتك ، وفقرك ، واضطرارك إليه ... " (٣) .

(١) «طريق الهجرتين» (٤٦٣) .

(٢) أي : في الاعتقاد .

(٣) «شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان الإشبيلي (١٣١/١ - ١٣٤) .

٧١- الله المبين عز وجل

قال تعالى: ﴿يَوْمَذُبُونَهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور]

المعنى اللغوي

المبين: اسم (الفاعل) من أبان يبين إبانة فهو مبين، إذا أظهر وبين، وإما قولاً، أو فعلاً، وتبين الشيء: وضح وظهر^(١)، والبيان: هو الفصل بين كل شيئين، يقال: بان، أي: فارق، وأبان، أي: فصل، قال تعالى: ﴿هَذَا بَيَّانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]، أي: فصلٌ بين الحق والباطل، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ أَلْبَانَ﴾ [الرحمن: ٣]، أي: تمييز المعاني بعضها من بعض، وفصل كل حقيقة من غيرها^(٢).

وهذا الفعل يأتي على صيغة واحدة، متعدياً، وغير متعدٍ، وكلاهما من الإبانة التي هي من الظهور، يقال: أبان الشيء في نفسه، إذا ظهر، يبين إبانة، وأبان فلان الشيء: بيّنه إبانة، فهو له مبين، إذا أظهره^(٣)، والبيّنة هي: الدلالة الواضحة عقلية كانت، أو محسوسة^(٤).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو المبين الظاهر الواضح الذي لا أبين منه لكل العالمين^(٥)، فهو:

(١) البين أمره في وجوده، ووحدانيته، وأنه لا شريك له في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته، واستقرار ذلك في العقول، والفطر السليمة.

(٢) والله تعالى هو المبين: الذي لا يخفى ولا ينكتم، فهو تعالى موصوف غير مجهول،

(١) «اللسان» (٤٠٣/١)، «اشتقاق أسماء الله» (١٨٠).

(٢) «الأمدة الأقصى» (١٦٨/٢).

(٣) «الأسنى» للقرطبي (١٧١).

(٤) «المفردات» (١٥٧).

(٥) «غاية الأمانى» (١٣٢/٥).

وموجودٌ غير مدرك، ومرئى غير محاطٍ به، لقربه كأنك تراه، وهو يسمع ويرى، وهو بالمنظر الأعلى، فالقلوب تعرفه، والعقول لا تكيفه^(١)، لأن له من الأفعال الدالة عليه، ما يستحيل معها أن يخفى، فلا يوقف عليه ولا يُدري^(٢).

(٣) فهو المبين تعالى: في ذاته، ظاهرٌ في صفاته، واضحٌ بآياته، الذي لا أوضح من شأنه في ألوهيته، البين في الربوبية، والملكوت^(٣).

(٤) فهو سبحانه الموجود بالضرورة، المعروف بالفطرة، الذي أقرت به العقول، ودلت عليه كل الموجودات، وشهدت بوحدانيته، وربوبيته جميع المخلوقات، وأقرت بها الفطر^(٤)، التي لم تتنجس بالتعطيل والجحود.

(٥) فهو تعالى المبين: عن نفسه ما أظهر من دلائله، فهو سبحانه في الحقيقة دالٌّ على نفسه بآياته، بما نصبه لهم من الدلالات والآيات الساطعات.

(٦) وهو المبين سبحانه: الذي كل شيء من مخلوقاته دالٌّ عليه، ومرشد لمن رآه بعين البصيرة إليه، فجعل في خلقه دلائل على كل ما يسمى به، ووصف نفسه به.

(٧) وهو المبين: لمن يشاء من الملائكة، والأنبياء، والمرسلين في الدنيا، ويوم الدين^(٥)، فيبين لهم بما أظهره على أيديهم من الآيات البينات، والمعجزات الباهرات، ومن الكرامات الساطعات التي تدل على صدقهم.

(٨) والله سبحانه هو المبين: لعباده الحق، فأوضح براهين الهدى، وأبان آثار اليقين، وأعلن شواهد التوحيد^(٦)، فأبان لهم بالأدلة السمعية، والعقلية، إما قولاً، وإما فعلاً، فمنها:

أ- أنه أبان عن نفسه بما له من الأسماء الحسنى، والصفات العلا، وأفعاله الأسمى.

(١) من كلام ابن منده رحمه الله نقلًا من «العلو للعلي الغفار» للإمام الذهبي (٢٣٥).

(٢) انظر: «شان الدعاء» (١٠٢)، و«الحجة في بيان المحجة» (١٥٥/١)، و«الأمد الأقصى» (١٦٩/٢)، و«المنهاج» (١٨٩/١).

(٣) ينظر: «الأسنى» (١٧١)، و«نظم الدرر» (٢٤٩/٥)، و«الحجة في بيان المحجة» (١٥٥/١).

(٤) «الله أهل الثناء والمجد» د. ناصر الزهراني (٣٦).

(٥) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان (١٣٨/١)، و«مدارج السالكين» (١٢٤/١) (٤٨٥/٣)، و«الأسنى» (١٦٩) بتصرف.

(٦) «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (٢٥٣/٢).

ب - وأبان لهم الأدلة القاطعة على وحدانيته، وربوبيته، وانفراده بالخلق، والتدبير لكل الخليفة.

ج - وأبان لهم الأدلة في وحدانيته بالالوهية، وإقراره تعالى بالعبادة دون أحدٍ سواه من البرية.

د - الذي أبان لكل مخلوق علة وجوده، وغايته.

(٩) "وهو تعالى المبين: للعباد سبل الرشاد، من الأعمال، والتكاليف، القولية والفعلية، الموجبة لثوابه، والأعمال الموجبة لعقابه، والمبين لهم ما يأتون وما يذرون" (١)، في جميع شؤونهم، وأحكامهم، في معاشهم، ومعادهم، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلَيْهِ حَكِيمٌ﴾ [النساء].

(١٠) "وهو المبين سبحانه: المظهر للأشياء كما هي في أنفسها" (٢)، ومن ذلك: أنه العادل المظهر لعدله (٣).

(١١) وهو الذي أبان كل شيء خلقه بما خصه به، وأفرده، فأنزل كتابه الحكيم مبيناً عن مراده من عبادته، وأرسل رسله تبياناً لما في كتبه، وما أنزله حتى أظهر الحق من الباطل.

(١٢) فهو سبحانه مقيم البرهان، ومصصح الحجاج، ومميز الحق من الباطل، وموضحه، ومؤيده، وهو محقق الحق في القلوب (٤).

(١٣) وهو المبين جل ثناؤه: مرشد الحائرين، إلى الطريق المستقيم، بياناً، وتعليماً، وتوفيقاً، فيرشد الحائرين في الطريق الحسي، والضالين في الطريق المعنوي (٥).

(١٤) وهو تعالى المبين: الغني عن العالمين، الذي لا يفتقر لأحدٍ من خلقه أجمعين.

(١٥) وهو الذي يبين الحقائق يوم يجمع الخلائق ما وعد به أهل النفاق في الدنيا من العذاب، بما كانوا ينالون من أهل الوفاق، قال سبحانه: ﴿يَوْمَذِيُؤْفِكُهُمُ اللَّهُ وَيَنْهَكُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٥] (٦).

(١) «اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (١٨١)، و«الأسنى» (١٧٢).

(٢) «فتح القدير» (٢٣/٣).

(٣) «تفسير القرآن» لأبي مظفر السمعاني (٥١٥/٣)، و«أنوار التنزيل» (٤٩١/٢).

(٤) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان (١٣٩/١).

(٥) «الحق الواضح» (٧٨)، و«توضيح الكافية» (١٢٧).

(٦) انظر: «تفسير ابن جرير» (٤١٣/٥).

(١٦) وهو المبين سبحانه: الذي يبين للخلق أجمعين ما عملوه من خير وشر يوم الدين ، فيجازيهم عليها بالجزاء الحق المبين ، الذي لا ظلم فيه لأحد من العالمين ، قال تعالى : ﴿وَلَيَبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ٩٢] .

جلال المبين

الأول: من جلاله: أنه تعالى بائن عن جميع خلقه ، بذاته فوق عرشه ، مستوٍ عليه كما يليق بجلاله ، وكماله ، فإن "من أدلّ الشيء على مباينة الربّ لخلقه فإنه لم يخلقهم في ذاته ، بل خلقهم خارجاً عن ذاته ، ثم بان عنهم باستوائه على عرشه ، وهو يعلم ما هم عليه ، فيراهم ، وينفذهم بصره ، ويحيط بهم علماً ، وقدرة ، وإرادة ، وسمعاً ، وبصراً" (١) .

فبان سبحانه عن الخلق بعلوّ وكمال الذات ، والأسماء ، والأفعال ، والصفات .

الثاني ومن جلاله: أنه سبحانه "يضرب الأمثال ، وينوّع الأدلّة والبراهين ، ويجيب عن شبه أعدائه أحسن الأجوبة ، ويصدّق الصادقين ، ويكذب الكاذبين ، ويدعو إلى دار النعيم ، بذكر أوصافها وحسنها وبهائها ، ويحذّر من الجحيم ، ويذكر عذابها وقبحها وآلامها" (٢) تذكرة للعالمين .

الثالث: ومن جلال المبين سبحانه: أنه "أوضح دلالاته للمتفكرين ، وأبدى شواهدة للنناظرين ، وبين آياته للعالمين ، وقطع أعذار المعاندين ، وأدحض حجج الجاحدين ، فاستنارت آيات الربوبية ، وسطعت دلائل الألوهية ، (وجلت جمال ، وجلال ، وآثار الأسماء الحسنى ، والصفات العلا ، على كل الخليقة) واضمحلت غمرات الشك ، وزالت ظلمات الريب" (٣) .

الرابع: ومن جلاله: أنه "لا بد أن يرى الله سبحانه أهل كل قرن من الآيات ما يبين لهم أنه الله الذي لا إله إلا هو ، وأن رسله صادقون" (٤) .

الخامس: ومن جلال بيانه سبحانه: "أنه أنزل كتاباً فيه تبيان لكل شيء ، فهو المبين لكل ما يحتاجه الخلق ، فما من شيء يحتاجه الناس في أمور دينهم ، ودنياهم ، وآخرهم ، إلا وقد بيّنه أتم البيان" (٥) .

(١) «حادي الأرواح» (٢٠٠) .

(٢) «طريق الهجرتين» (٢٥٠) .

(٣) «الله أهل الثناء والمجد» د. ناصر الزهراني (٥٤) .

(٤) «التبيان في أيمان القرآن» لابن القيم (٤٥٦) بواسطة «الأسماء الحسنى تصنيفاً ومعنى» (٣٤٨) .

(٥) «فتح الرحيم الملك» (٦٢) بتصرف يسير .

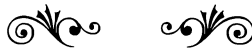
السادس: ومن جلاله: أنه تعالى لا يعذب أحداً من الخلق حتى يبين له طريق الحق، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَهَ إِضْطِلَ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يَسْتَوِي لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥]، فهو تعالى لا يعذب أحداً منهم بحجة الفطرة التي أودعها في نفوسهم، وإنما بعد إرسال الرسل، وإنزال الكتب، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

الثمرات

"يجب على كل مؤمن أن يكون على بينة من ربه ﷻ، بأن يستكثر من الشواهد في معرفته"^(١)، من صحيح المنقول، وصريح المعقول، الدالة على كماله تعالى في صفاته، وأسمائه، وما أنزل علينا من الأدلة، والآيات الساطعات من كتابه، التي بينت لنا سبل الرشاد، والدعوة إلى الهدى والسداد، فإن نشر ذلك وتبليغه للناس أجل العلوم، وأعلى المعارف، واستذكراً لنعم الخالق المبين على المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١].

"ولا تقدم يارعاك الله على شيء حتى تتبين (عاقبته)"^(٢)، فإن كان الله فيه رضا فامضه، وإن كان غير ذلك فأمسك، فهي وصية نبيك ﷺ، بذلك ثقل سقطاتك، وتستوجب العصمة من ربك ﷻ.

وإذا كان الله تعالى وقد رأيت ما نصبه من البينات وأقامه من الشواهد، وما أنزله من الكتب وأرسله من الرسل، كل ذلك ليبين لعباده مراده منهم، فتبين أنت أنه كما بين الله لك ورسوله، وعلمت مما علمك الله، وتأدب في ذلك بأدب الله ورسوله، فإنه ما أخذ منك فيما علمك نوالاً، ولا ضرب عليك لذلك مغرمًا، بل جعل ذلك عائداً عليك، وثوابه راجعاً إليك، لتحشر في زمرة العلماء، تلو الأنبياء، شاهداً على الناس مع الشهداء، وإياك والكتمان لما تبين لك من معرفته، مما لا بد منه، ولا غنى عنه، ووجدت له سائلاً، وألفت له طالباً، وتبينت له موضعاً، وفقنا الله تعالى وإياك لما يرضاه بمنه وطوله"^(٣).



(١) «الأسنى» (١٧٢).

(٢) في الأصل: عاقبته.

(٣) «شرح الأسماء الحسنى» للإشبيلي (١/١٤٠).

٧٢- الله ﷻ الْفَتَّاحُ سبحانه وتعالى

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا] .

المعنى اللغوي

الفتاح: من صيغ المبالغة على وزن (فَعَّال) من اسم الفاعل الفاتح ، وهو خلاف الإغلاق ، وله ثلاث معانٍ:

الأول: الفتح: إزالة الإغلاق والإشكال ، وذلك ضربان:

أحدهما حسي: يُدرك بالبصر ، كفتح الباب ، والقفل والمتاع ، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَعَهُمْ﴾ [يوسف: ٦٥]

والثاني معنوي: يدرك بالبصيرة: كفتح الهم ، وهو إزالة الغم وتفريجه ، وذلك ضربان: أحدهما في الأمور الدنيوية ، كغمٍّ يفرج ، وفقر يزال بمنح المال ، وتسهيل المعسر ، والثاني: فتح المستغلق من العلوم .

الثاني: القضاء^(١) ، والحكم في فصل الأمور^(٢) . ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩] ، أي: احكم ، فالله تعالى فتاح لأنه يفتح عن الحكم بالعدل سبحانه ، ويسمى الحاكم: فاتحاً ؛ لأنه يفتح المستغلق بين الخصمين ، ويفصل بينهما .

الثالث: النصر ، في الاستفتاح في طلب النصر^(٣) ، كقوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَفِئِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩] ، أي: النصر .

ويعبر بالفتح عن توسعة الرزق ، كقوله تعالى: ﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤] ، والمعنى: لَوَسَّعْنَا عَلَيْهِمُ الرزق ، ولأقبلنا عليهم بالخيرات من كل وجه^(٤) .

(١) صحَّ عن ابن عباس ؓ في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ قال: "اقض بيننا وبين قومنا" (التفسير الصحيح) (٣٣٦/٢) .

(٢) «المفردات» (٣٧٠) ، و«عمدة الحفاظ» (١٩٣/٣) بتصرف يسير .

(٣) «اللسان» (٣٣٣٧/٥) ، و«تفسير الأسماء» (٣٩) ، و«تلخيص الأدلة» (٥٢٧/٢) .

(٤) «عمدة الحفاظ» (١٩٤/٣) .

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الفتح الذي هو ﴿خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩]، الذي له الفتح الحسي والمعنوي، الدنيوي والأخروي:

(١) فهو الذي يفتح أبواب الأرزاق، وطرق الأسباب من الرحمة، والخيرات للعباد، ويفتح المنغلق عليهم من أمورهم وأسبابهم:

فيغني فقيراً، ويفرّج عن مكروب، ويشرح صدوراً بعد الضيق، ويسهّل مطلباً لكل مطلوب، قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢]، وهذا الفتح والشرح العام، الذي ليس له حد، ولا قيد، وقد أخذ منه بحظ كل الخلق^(١).

(٢) والله سبحانه الفتح: الذي فتح بين الحقّ والباطل أي: ميز بينهما، فأوضح تعالى الحقّ وبيّنه، وأدحض الباطل وأبطله^(٢).

(٣) وهو تعالى الفتح: الذي يفتح لأوليائه منافع الدنيا، والدين (وهو الفتح الخاص)، فيفتح لمن اختصّهم بلطفه وعنايته:

(أ) أقفال القلوب لمعرفته، ومحبته، والإنابة إليه.

(ب) وعيونهم ليبصروا الحق.

(ج) ويدّر عليها من المعارف الربّانية، والحقائق الإيمانية ما يصلح أحوالها، وتستقيم به على الصراط المستقيم.

(د) وأخص من ذلك: أنه يفتح لأرباب محبّته والإقبال عليه، علوماً ربّانية، وأحوالاً روحانية، وأنواراً ساطعة، وفهوماً، وأذواقاً صادقة.

(هـ) ويهيئ للمتقين من الأرزاق وأسبابها ما لا يحتسبون.

(و) ويعطي المتوكلين فوق ما يطلبون ويؤمنون، ويسر لهم الأمور العسيرة، ويفتح لهم الأبواب المغلقة^(٣).

(١) «شأن الدعاء» (٥٦)، «الأسنى» (٢٢٠/١) بتصرف.

(٢) «تفسير الأسماء» (٣٩)، و«شرح الأسماء الحسنى» للرازي (٢٣٦).

(٣) انظر: «تفسير ابن السعدي» (٤٨٩/٥)، «فتح الرحيم الملك» (٣٤).

٤) "وهو الذي يفتح لعباده الطائعين خزائن جوده وكرمه ، ويفتح على أعدائه ضد ذلك ، وذلك بفضلله وعدله" (١).

٥) "والله ﷻ هو خير الفاتحين ، أي: خير الحاكمين ، فهو العدل الذي لا يجور في حكمه أبداً" (٢)، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف].

٦) وهو تعالى يفتح الممالك والأمصار لأنبيائه الأطهار ، كما فتح سبحانه لنبيه ﷺ مكة ، خير الديار: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح].

ويفتح سبحانه لعباده الأبرار ، الممالك والأقطار ، قال تعالى: ﴿وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۚ وَبَشِيرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف] (٤)، وقال ﷻ: «...إِن الله فاتح عليكم فارس والروم» (٥)، وقال ﷻ يوم خيبر: «لأعطين الراية رجلاً يفتح الله عليه يديه» (٦)، يعني علياً ﷺ.

٧) فهو سبحانه كما يفتح خزائن فضله وجوده على من يشاء من عباده ، كذلك يفتحها: استدراجاً منه ، وابتلاءً ، واختباراً لحكمة ، قال الله العظيم: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام].

وقال ﷻ: «إِن مما أخاف عليكم ما يفتح الله عليكم من زهرة الدنيا وزينتها» (٧).

٨) "وهو الفتاح: الناصر" (٨)، الذي ينصر الحق وأهله ، ويذل الباطل وأهله (٩)، فينصر المؤمن على الكافر ، والمظلوم على الظالم ، والبر على الفاجر ، قال تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ﴾ [الأنفال: ١٩].

٩) وهو الفتاح: الحاكم (١٠)، الذي يحكم بين عباده بالحق ، والعدل ، في الدنيا والآخرة:

(١) «الحق الواضح» (٨٤).

(٢) «ابن كثير» (٤٤٤/٣).

(٣) أي: أقض بيننا وبين قومنا ، ثبت عن ابن عباس ؓ ، انظر «التفسير الصحيح» (٣٣٦/٢).

(٤) «مع الله» ، د. سلمان العودة (١١٥) بتصرف.

(٥) «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٦٩/٣)، وقال ﷻ: «تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله ، ثم فارس ، فيفتحها الله ، ثم تغزون الروم ، فيفتحها الله ، ثم تغزون الدجال ، فيفتحها الله» مسلم (٧٢٨٤).

(٦) «البخاري» (٢٩٧٥).

(٧) البخاري (١٤٦٥)، ومسلم (١٠٥٢).

(٨) «شأن الدعاء» (٥٦).

(٩) «فتح الرحيم الملك» (٣٤).

(١٠) «شأن الدعاء» (٥٦).

(أ) في الدنيا: بفتح الديني: وهو ما شرعه على ألسنة رسله من جميع ما يحتاجه المكلفون، ويستقيمون به على الصراط المستقيم.

والجزائي: وهو فتحه بين أنبيائه ومخالفهم، وبين أوليائه وأعدائه، بإكرام الأنبياء وأتباعهم ونجاتهم، وبإهانة أعدائه، وعقوبتهم.

وفتحه القدري: وهو ما يقدره على عباده من خير وشر، ونفع وضر، وعطاء ومنع.

(ب) والآخرة: بفتح يوم القيامة، وحكمه بين الخلائق، حين يوفى كل عامل ما عمله^(١)، قال عز شأنه: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [السجدة]

(١٠) وهو الذي يفتح أبواب الهلاك على الكافرين الأشرار، نصرة لعباده الأخيار، قال تعالى حكاية نوح عليه السلام: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ فففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ونفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمرٍ قد قدر [القم: ١٠-١٢].

(١١) وهو الذي يفتح بحكمته بإنزال شدة الحاجة، وضيق المعيشة على من سأل الخلق، بغير وجه حق، قال ﷺ: «من فتح على نفسه باب مسألة من غير فاقة نزلت به، أو عيال لا يطيقهم، فتح الله عليه باب فاقة من حيث لا يحتسب»^(٢)، وقال ﷺ: «ثلاث أقسم عليهن... ولا فتح عبدٌ باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر...»^(٣).

(١٢) وهو سبحانه القاضي: أي القاضي العليم بالقضاء بين خلقه، لأنه سبحانه لا تخفى عليه خافية، ولا يحتاج إلى شهود تعرفه المحق من الباطل^(٤).

(١٣) وهو ﷺ الفتاح: المتفرد بعلم مفاتيح الغيب كلها، لا يعلمها إلا هو "التي يطلع منها ما شاء من خلقه، وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلاً عن غيرهم من العالمين"^(٥)، قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩].

(١) «الحق الواضح» (٨٤).

(٢) «صحيح الترغيب والترهيب» (٧٩٥).

(٣) «صحيح الترمذي» (٢٣٢٥).

(٤) «تفسير ابن جرير» (٢٢٣/٦).

(٥) «تفسير السعدي» (٢٥٩).

جلال الفتاح

الأول: من جلاله: أن هذا الاسم الجليل هو ملجأ صفوة الخليقة، من الأنبياء والمرسلين، والمؤمنين، فبه يستنصرون على أعدائهم في الدين، قال نوح عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ﴾ (١٧) فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجَّيْتَنِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨﴾ [الشعراء]، وشعيب عليه السلام: ﴿رَبَّنَا أَفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ (١٩) [الأعراف]، وأمر عليه السلام نبيه عليه السلام أن يتوسل به بقوله: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا]، ففتح الله عليه السلام من توسل واستنصر به في الدنيا، بالنصر المبين، والنجاة والتمكين، ويوم الدين يكون الفتح العظيم، كما قصّ لنا ربنا تعالى في كتابه الكريم.

الثاني: من جلاله: أن الله تعالى يفتح لعبده عملاً صالحاً قبل موته، قال عليه السلام: «إذا أراد الله بعبده خيراً عَسَلَهُ»، قيل: وما عسله؟ قال: «يفتح الله له عملاً صالحاً قبل موته، ثم يقبضه عليه» (١).

الثالث: ومن جلال الفتاح: أنه سبحانه يفتح أبواب السماء، ليباهي عند الملائكة عباده الأولياء، قال عليه السلام: «أبشروا، هذا ربكم، قد فتح باباً من أبواب السماء، يباهي بكم الملائكة! يقول: انظروا إلى عبادي، قد قضوا فريضة، وهم ينتظرون أخرى» (٢).

الرابع: ومن جلال فتحه سبحانه: أن فيه "إقامة الخلق، وحفظهم في الجملة، لئلا يستأصل المعتدون المستضعفين، ويدل على الجزاء العادل، على أعمال الجوارح والقلوب [و] يتضمن ذلك أحكاماً، وأفعالاً، وأحوالاً، لا تنضبط بالحد، ولا تحصى بالعد" (٣).

الخامس: ومن جلاله: "أنه تعالى يفتح قلوب المؤمنين بمعرفته، ويفتح للعاصين أبواب مغفرته" (٤).

السادس: ومن جلاله: "أنه سبحانه لا يخلق وجوه النعمة بالعصيان، ولا يترك إيصال الرحمة إليهم بالنسيان" (٥).

(١) رواه ابن أبي غاصم في «السنة»، وصححه الألباني (٤٠٠)، وفي «السلسلة الصحيحة» (١١١٤).

(٢) «صحيح ابن ماجه» (٨٠١)، «السلسلة الصحيحة» (٦٦٠).

(٣) «الأسنى» (٢٢٣/١).

(٤) انظر: «شرح الأسماء» للرازي (٢٣٧).

(٥) المصدر نفسه.

السابع: ومن جلال الفتاح سبحانه: "أن حكمه حتم، وقضائه جزم"^(١)، لا ينخرم أبداً بتمام الكمال، والعدل.

الثامن: ومن جلال فتح ربنا لنبينا ﷺ: أنه يفتح عليه يوم المعاد من حسن الثناء من أوصاف العلا الجلال، ما لم يفتحه عليه أحد من الأنبياء، فضلاً عن غيرهم من العباد، كما في حديث الشفاعة الطويل: «... ثم يفتح الله عليّ من محامده وحسن الثناء عليه، شيئاً لم يفتحه على أحد قبلي، ثم يقال: يا محمد! ارفع رأسك، سل تعطه، واشفع تشفع»^(٢).

الثمرات

إذا علم المؤمن بأن الله تعالى هو الفتاح، ينبغي له أن يكون مفتاحاً لكل خير، مغلاقاً لكل شر، قال ﷺ: «إن هذا الخير خزائن، ولتلك الخزائن مفاتيح، فطوبى لعبد جعله الله مفتاحاً للخير، مغلاقاً للشر، وويل لعبد جعله الله مفتاحاً للشر، مغلاقاً للخير»^(٣).

واعلم رعاك الله أن أعظم مفاتيح الخير: هو توحيد الله تعالى، والإقرار بكلمة الإخلاص، الذي عليه في الآخرة الفلاح، قال ﷺ: «ما قال عبد لا إله إلا الله قط، مخلصاً، إلا فتحت له أبواب السماء، حتى تفضي إلى العرش ما اجتنب الكبائر»^(٤).

واعلم أنه على قدر الإخلاص والتقوى، يفتح للورى من العلوم النافعة، والخيرات العاجلة، والآجلة، في الأولى والعقبى، قال ربك سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ومن علم أنه تعالى الفتاح، العليم الحكيم في فتحه: وثق به في كل أمر، وارتاح إليه في كل مهم، ورجع إليه في كل مله، ما دق منه وما جلّ، ومن كان كذلك لم يعلق قلبه بغيره، ولم يشتغل قلبه بسواه، فهذه هي الحياة الحقيقية، التي تسمو إليها نفوس أهل توحيده.



(١) انظر: «شرح الأسماء» للرازي (٢٣٧).

(٢) البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

(٣) «صحيح ابن ماجه» (٢٣٨).

(٤) «صحيح الترمذي» (٣٥٩٠).

٧٣- الله ﷻ الخبير ﷻ جل وعلا

قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام].

المعنى اللغوي

الخبير: من مباني المبالغة، على وزن «فعليل»، وهو العالم بكنه الشيء، المطلع على حقيقته، كقوله تعالى: ﴿فَسَتَلَّ بِهِمْ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، والخبر بالشيء: هو الوقوف على حقيقته والإحاطة بمعانيه كلها الغائبة والحاضرة، والحصير لها، من ذلك قولهم: خبرت الشيء، أي: بلوته أخبره خبراً، ولهذا فإن العلم إذا أضيف إلى الخفايا الباطنة، سمي: خبرة.

وقيل: الخبير بمعنى مخبر، فعيل بمعنى (مفعل)، كقوله تعالى: ﴿قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ﴾ [التوبة: ٩٤]، وقوله سبحانه: ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

والخبير والعليم ينبئ كل واحدٍ منهما عن كمالٍ في العلم، لا ينبئ عنه الاسم الآخر، فالعليم: العليم بظواهر الأمور، والخبير: ببواطن الأمور، والخبرة أبلغ من العلم، لأنها علمٌ وزيادة^(١)، ليدلاً في اجتماعهما على أبلغ الكمال في العلم وسعته الذي لا منتهى له، والفرق بينه وبين (اللطيف): أن اللطيف فيه معنى زائد عن الخبير، وهو رأفته بعباده^(٢).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الخبير المختبر لكل شيء بحيث لا يخفى عليه شيء^(٣) سبحانه:

(١) الذي انتهى علمه إلى الإحاطة ببواطن الأشياء وخفاياها، كما أحاط بظواهرها.

(١) انظر: «عمدة الحفاظ» (٤٨٥/١)، و«شأن الدعاء» (٦٣)، و«المقصد الأسنى» (٣٦)، و«الأمد الأقصى» (٢٨/٢)،

و«الفروق اللغوية» لأبي الهلال العسكري (١٠٨)، و«شرح أسماء الله» للإشبيلي (٤٠١/١).

(٢) وهو كما سبق بيانه عن معنى اسمه (اللطيف): أنه يتضمن علمه بالأشياء الدقيقة، وهو يتضمن بهذا المعنى بد (الخبير) والزيادة: إيصاله الرحمة بالطرق الخفية، وهذا يتضمن رأفته بالبرية والله أعلم.

(٣) «فتح القدير» (١٩١/٢).

(٢) فهو سبحانه الخبير: بمصالح الأشياء ومضارّها، الذي لا يخفى عليه عواقب الأمور، وبواديها، الذي خبر بعلمه كيف يدبر شؤون خلقه وما هو أصلح لهم^(١).

(٣) وهو الخبير سبحانه: الذي أدرك علمه السرائر، وأطلع على مكنون الضمائر، وعلم خفيات البذور، ولطائف الأمور، ودقائق الذرّات، في ظلمات الديجور^(٢).

(٤) فهو تعالى علم الأمور الظاهرة والخفيّة، وأطلع على الكلّ، من غير معاناة ولا فكر^(٣).

(٥) وهو الخبير سبحانه: العليم بما في أرجاء الأرض، وأقطارها، وأجزائها، من الحب وإن صغر، ولا يخفى عليه خافية (فيها)، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣]^(٤).

(٦) وهو الخبير تعالى: الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يجري في الملك والملكوت شيء، ولا تتحرك ذرة ولا تسكن ساكنة، ولا تضطرب نفس ولا تسكن إلا يعلم مستقرها ومستودعها^(٥).

(٧) فهو تعالى الخبير: بمواضع الأشياء ومحالها، فلا يعطي إلا من يستحق (ومن ذلك): الإنعام، والإحسان، والهداية، ولا يمنع إلا من يستحق (ومن ذلك كذلك): الشقاء، والإضلال والإزاعة، ﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٦].

(٨) وعلم الله تعالى وخبرته سواء، فيما غمض من الأشياء، وفيما (ظهر)، وإنما تختلف مدارك علوم البشر الذين يتوصلون إليها بمقدمات من حسّ، وبمعاناة من نظر، وفكر، ولذلك قيل لهم: "ليس الخبر كالمعانية"، وتعالى الله عن هذه الصفات علواً كبيراً^(٦).

(٩) وهو الخبير سبحانه: عليمٌ بأحوال عباده، وما يليق بكلّ منهم بحسب ما جبلت عليه نفوسهم، وما يحفُّ بهم من أحوال النظم العالمية، التي اقتضتها الحكمة الإلهية المودعة في هذا

(١) «تفسير ابن جرير» (٣/٣٢٥)، و«الصواعق المرسلة» (٢/٤٩٢).

(٢) «فتح الرحيم» (٢٥).

(٣) «الأمم الأقصى» (٢/٣٤).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٢/٣٢٢).

(٥) انظر: «موسوعة له الأسماء الحسنی» (١/١٧٥)، و«حاشية شرح أسماء الله الحسنی وفوائدها» (٦٢).

(٦) «شأن الدعاء» (٦٣).

العالم ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٣٠] (١).

(١٠) وهو تعالى الخبير: بالغ الخبر ، فلا يمكن الطعن في شيء مما أخبر به ، لأنه سبحانه خبير بعواقب وخبايا الأمور ، ومآلها وما تصيرُ إليه ، وأما غيره: فلا يخبر خبراً إلا يوجه إليه النقص ، قال تعالى : ﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٤] (٢).

(١١) وهو الخبير: الذي يحيط بظواهر الذنوب وبواطنها ، فيعاقب عليها ، وإن أخفوها (العباد) في الصدور ، وإن أرخوا عليها الستور ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٧] (٣)

(١٢) فهو تعالى الخبير: بالدقائق ، والبصائر ، ومن ذلك: أنه يدرك ما لا تدركه الأبصار ، قال تعالى : ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] (٤).

جلال الخير

الأول: من جلاله: أنه ﷻ لا يعزب عنه الأخبار الباطنة ، ولا يجري في الملك والملكوت شيء ، ولا تتحرك ذرة ولا تسكن ، ولا يضطرب نفس ولا يطمئن إلا ويكون عند خبره (٥).

الثاني: ومن جلال خبرته تعالى: أنه العالم بدقائق الأمور المعقولة ، والمحسوسة ، والظاهرة ، والباطنة (٦)، الدنيوية ، والأخرية ، الحاضرة ، والغائبة ، المادية ، والمعنوية ، لا يخلو عن علمه مكان ، ولا يندّ عنه زمان (٧).

الثالث: ومن جلال الخير تعالى: أنه "أدرك خبايا الأشياء وخفاياها بحيث لا يبدو منه خبيثة أمر إلا كان إدراكه سابقاً لبدوها ، فهو تعالى خبير بالشيء دون باد يرى الظاهر خبيثة أمره" (٨).

(١) «التحرير والنوير» مج (٦) (٨٧/١٥).

(٢) «نظم الدرر» (٢١٣/٦) ، و«مدارك التنزيل وحقائق التأويل» (٩٧٥) ، وابن كثير (٧٤٤/٣).

(٣) ينظر: «تفسير أبي السعود» (١١٩/٤) ، و«تفسير النسفي» (٦١٩).

(٤) انظر: «إرشاد العقل السليم» (٤٢٤/٢) ، و«موسوعة له الأسماء الحسنى» (١٧٨/١).

(٥) «المقصد الأسنى» (١٠٣).

(٦) «التحرير والنوير» (٣١٠/١١).

(٧) «مع الله الاسم الأعظم». د. سلمان العودة (١٣٧).

(٨) «نظم الدرر» (٦٩١/٢) بتصرف.

ثمرات

من ثمرات هذا الاسم الكريم: أنه يورث العبد المؤمن حسن العبادة، واليقين، والاستقامة، في الظاهر والباطن على الصراط المستقيم، والاطمئنان بقضائه تعالى وقدره بالتسليم، وأن كل ما يجري في ملكوته، من إهلاكه وعقابه للمجرمين والمعاندين، أنه جارٍ على مقتضى خبرته، وحكمته، التي أحاطت بكل العالمين، قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ لِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء].

ومن ثمراته كذلك: مفارقة الذنوب الصغيرة والكبيرة، في كل آنٍ وحين، فمنها: غضُّ البصر، قال تعالى: ﴿قُلِ الْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَنْصُرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور]، وملازمة العدل في قوله، وفعله مع الخلق، في حال رضاه وغضبه وغيره، حتى مع أعداء الله تعالى من الكفرة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة].

ومن عبودية هذا الاسم الكريم: "أن يكون العبد خبيراً بما يجري في عالمه، وعالمه هنا هو: قلبه وبدنه، والحذر من الخفايا التي يتصف بها القلب: من الغش، والخيانة وغير ذلك. والتطواف حول العاجلة، وإضمار الشر، وإظهار الخير، والتجميل بإظهار الإخلاص مع الإفلاس عنه - لا يعرفها إلا ذو خيرة بالغة قد خبر نفسه ومارسها، وعرف مكرها وتلبسها وخدعها فحاذرها وتشمر لمعاداتها، وأخذ الحذر منها، فذلك من العباد جدير بأن يسمى خبيراً" (١).

وبالجملة: "أن يكون خبيراً بأحواله، وصفاته، وبواطنه، حتى يُميّز خيرها من شرّها" (٢).

ومن علم أن الله تعالى مختبره في هذه الدار فليحذر من دسائس الأشرار، الذي أشدهم، وأخطرهم في هذه الدار: شياطين الإنس والجان، فعند ذلك فليكن خبيراً يفرق بين نزغاته، وبين خطرات الملك الذي هو من إلهامات الرحمن.

وبالجملة فإن أجل ثمرات هذا الاسم الجليل: طاعة الله تعالى ورسوله، التي هي رأس العبادة في جميع الأعمال، السر منها والإعلان، قال تعالى: ﴿وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة].

(١) انظر: «المقصد الأسنى» (١٠٣).

(٢) «الأمد الأقصى» لابن العربي (٣٢/٢).

٧٤- الله ﷻ الوكيل ﷻ عز شأنه

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران] .

المعنى اللغوي

الوكيل: (فعليل) من قولك: "وكلت أمري إلى فلان وتوكل به"، أي: جعلته يليه وينظر فيه ، والتوكيل: أن تعتمد على غيرك وتجعله نائباً عنك .

وحقيقة الوكيل أنه مستقل بأمر الموكل إليه ، فالوكيل: هو القائم المستقل بجميع ما يحتاج إليه الموكل ، ولذلك أقامه مقامه ، ثقةً بكفاية ، أو عجز عن القيام بأمر نفسه ، ويأتي الوكيل بمعنى: الكفيل ، والحفيظ ، والرقيب ، والشهيد ، والتفويض ، والمقسط ، والمحيط :

الأول: هو الذي تُوكل إليه الأمور ، يقال: "توكل بالأمر" إذا ضمن القيام به .

الثاني: الكفيل ، قال تعالى: ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف] ، أي: كفيل .

الثالث: الحفيظ ، قال سبحانه: ﴿قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [الأنعام] ، أي: حفيظ .

الرابع: مراقبة الشيء وتعهده ، ومنه قوله ﷻ: «من توكل لي ما بين رجله وما بين لحيه توكلت له بالجنة»^(١) ، أي: تكفل .

الخامس: الكافي ، قال تعالى: ﴿أَلَا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٢] ، يُقال: ربًّا ، ويُقال كافياً ، وقوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] ، أي: كافينا ونعم الكافي .

السادس: الشاهد ، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٨] ، أي: شهيد لما ضُمن الوكيل معنى الشاهد عُدِّي بحرف (على) ، وكان حقه أن يُعدَّى بـ(إلى) .

السابع: المقسط . الثامن: المحيط^(٢) .

(١) البخاري (٦٨٠٧) .

(٢) كما بَوَّب البخاري ﷺ في كتابه «صحيح البخاري»: كتاب التفسير - باب وكيل: حفيظ ، محيط (٢٩٦/٨) ، =

والله سبحانه له الوكالة التامة، وهي التي تجمع علم الوكيل بما هو وكيل عليه، وإحاطته بتفاصيله، وقدرته التامة عليه ليتمكن من التصرف فيه، وحفظ ما هو وكيل عليه، مع حكمة ومعرفة، بوجوه التصرفات، ويدبرها على ما هو أليق^(١).

المعنى الشرعي

الله سبحانه: ﴿هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، "الذي لا أكفى منه لكل من وكله في أمره"^(٢):

(١) فهو سبحانه الذي توكل بالعالمين خلقاً، وتديباً، وهداية، وتقديراً، وإيجاداً، وإمداداً، ورزقاً، ورعايةً، وعوناً، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقُ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر]. وهذه هي الوكالة العامة التامة لكل الخلائق، ناطقهم وصامتهم، إنسهم وجنهم وبهيمهم، التي تدلُّ على إحاطة علمه سبحانه بكل شيء، وكمال قدرته على التدبير، وكمال تدبيره، وكمال حكمته، فهو تعالى نعم الوكيل.

(٢) وكالة خاصة: أنه تعالى وكيل المؤمنين، فيسرهم لليسرى، ويجنبهم العسرى، ويكفيهم ما يهتمهم في الآخرة والأولى، لأنهم أفردوه بالتوكل، والإنابة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأفال]. وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران]، وقال عزَّ شأنه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء].

(٣) وهو تعالى الوكيل: كافٍ من توكل عليه، في أمر دينه ودنياه، بأن يعتمد على الله تعالى في جلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ إِنَّ اللَّهَ بَلِغٌ أَمْرِهِ ﴿[الطلاق: ٣]﴾^(٣).

= وانظر المعاني المتقدمة: «لسان العرب» (١١/٧٣٤)، و«النهاية» (٩٨٧)، و«المفردات» (٨٨٢)، و«معاني القرآن» للفراء (٢/١١٦)، و«اشتقاق أسماء الله» (١٣٦)، و«التوحيد» لابن منده (٢/١٩٦)، «الحجة في بيان المحجة» (١٤٩)، و«تفسير الطبري» (٦/٢١)، و«التحرير والتنوير» مج (٨) (٢٠/١١٠)، و«الأسماء والصفات» (١/٣٠٦)، و«الأمد الأقصى» (٢/٤٦٠)، و«الأسنى» (١/٥٠٤).

(١) «تفسير ابن السعدي» (٧٢٨).

(٢) «نظم الدرر» (٦/٧٢٢).

(٣) انظر «تفسير السعدي» (٢٦٨)، (٧٢٨)، (٨٧٠)، فتح الرحيم الملك (٤٥ - ٤٦).

٤) وله وكالة أخص الخاصة: وهي أعلى الوكالة وأسماها، وهي لخير الورى لنبه محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦]، أي: "فإن الله تعالى سيكفيه في أمر دينه، ودنياه، ويدفع عنه الشر والسوء لمن ناوأه" (١).

٥) وهو الوكيل سبحانه: المتولي بإحسانه أمور عباده المتقين، الموكول إليه كل أمر في كل حين، فمن توكل عليه منهم تولاه، وكفاه، ومن استغنى به أغناه، وأرضاه، عن كل ما سواه.

٦) ومن كمال وكالته تعالى: أنه إذا تولى الله ﷻ عبده بجميل العناية، كفاه كل شغل، وأغناه عن كل غير.

٧) وهو الوكيل تعالى: الذي توكل إليه الأمور المهمة، فيقوم بها ويسهلها (ويسرها) على عبده، إذا توكل عليه وحده، قال عز شأنه: ﴿وَدَعِ أَذُنَهُمْ تَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٨] (٢).

٨) وهو الوكيل: الكافي لكل من توكل عليه من عباده، وذلك: أنه سبحانه ابتدأ الإنسان بكفايته، ثم إذا توجه إليه سبحانه تولاه بحسن رعايته، فإذا استقام ختم له بجميل ولايته (٣)، فمن مثلك يا الله!

٩) وهو الوكيل سبحانه: القائم بمصالح كل ما في السموات والأرض، يستقل بجميع أمره، لا معترض عليه، بل هما وكل من فيهما مظهر العجز عن أمره، معلق مقاليد نفسه وأحواله إليه طوعاً أو كرهاً، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٣٢] (٤).

١٠) ومن كمال وكالته: "أنه تعالى توكل ببيان دينه، وحفظه عن المزيلات، والمغريات، وأنه تولى حفظ المؤمنين وعصمتهم عما يزيل إيمانهم ودينهم" (٥).

١١) وهو الوكيل المطلق سبحانه: الذي توكل إليه كل الأمور، والقلوب جميعها متوكلة عليه، لا بتفويض وتولية، فيفي تعالى بما يوكل إليه وفاء تاماً بلا نقض ولا عجز (٦).

(١) «تفسير السعدي» (٧٢٥) بتصرف يسير.

(٢) انظر: «تفسير السعدي» (٦٦٨).

(٣) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (٢٨٣/١) بتصرف.

(٤) «نظم الدرر» (٣٣٢/٢).

(٥) «تفسير السعدي» (٢٦٨).

(٦) ينظر: «موسوعة له الأسماء الحسنى» (٢٨٤/١).

(١٢) ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: ١٠٢] ، سبحانه ، اي : والله على كل خلق من شيء : رقيب ، وحفيظ ، يدبر كل ما سواه ، ويقوم بأرزاق جميعه ، وأقواته ، وسياسته ، وإكلائه ، وتصريفه بقدرته في الليل والنهار^(١) .

(١٣) فالله سبحانه: هو الوكيل والكفيل المتوكل بإيصاله إلى العبد ، إما بنفسه ، فيخلق له الشيع والري ، كما يخلق له الهداية في القلوب ، أو بواسطة سبب ملك ، أو غيره ، فيوكله به^(٢) .

(١٤) ومن تمام وكالته: أنه تعالى " يثني جميلًا ، ويعطي جزيلاً ، لمن رضي الله به وكيلاً "^(٣) .

(١٥) ومن كمال وكالته سبحانه: أنها ليست من جنس وكالة الخلق من كل وجه ، فإن وكالتهم وكالة نيابة ، والوكيل فيها تابع لموكله ، وأما الباري ﷻ فوكالته من نفسه لنفسه ، متضمنة لكمال العلم ، وحسن التدبير ، والإحسان فيه ، والعدل ، فلا يمكن لأحد أن يستدرك على الله ، فلا يرى في خلقه خللاً ولا فطوراً ، ولا في تدبيره نقصاً ولا عيباً^(٤) .

جلال الوكيل

الأول: من جلال الوكيل سبحانه: أن "من توكل على الله: كفاه ، ووقاه ، وكان له ما يصلحه من حيث لا يحتسب"^(٥) في الدارين^(٦) .

الثاني: ومن جلاله: أنه سبحانه جعل لكل عمل جزاء من جنسه ، وجعل جزاء التوكل عليه ، نفس كفايته لعبده ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] ، ولم يقل: نؤته كذا من الأجر كما قال في الأعمال ، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه^(٧) وحسبه وواقيه ، في كل ما يهيمه في دينه ، ودنياه ، وأخراه .

الثالث: ومن جلاله: أنه تعالى هو الوكيل الحق على الإطلاق وحده ، وذلك:

(أ) أنه "يعطي الجزيل للمتوكل عليه ، (ب) ويثني الجميل على المفوض إليه ، (ج) و[لا]

(١) «تفسير الطبري» (٣/٣١٧) ، و«تفسير ابن كثير» (٢/٢٢٠) .

(٢) «الأسنى» (١/٥٠٧) .

(٣) «شرح الأسماء» للرازي (٢٩٧) .

(٤) «تفسير السعدي» (٢٦٨) .

(٥) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن بريجان (٢/٣٠٦) .

(٦) «تفسير النسفي» (١٢٥٢) .

(٧) «بدائع الفوائد» (٢/٧٦٦) .

يسأل على ما يتولى من أموره عوضاً ، ولا يطلب منه على ما يعطيه ، أو يكفيه من رعايته ، أو نوائبه قرضاً ، بل يضاعف له أضعافاً كثيرة مما يكل دونه النظر ، وينحسر دونه البصر ، (د) ويلطف له في دقائق مأربه بما لا ترتقي إليه آماله ، ولا تتضمنه إراداته ، فركن المتوكل عليه عزيز ، ومعه حريز ، وعدته كافية ، وجنته وافية^(١) .

الرابع: ومن جلاله: أن "من رضي الله وكياًلاً: أعطاه (أجرًا عظيمًا) ، وحقق آماله ، وأثنى عليه ، ولطف به في دقائق أحواله ، بما لا يهتدي إليه آماله ، ولا يحيط بتفاصيل سؤاله"^(٢) .

الخامس: ومن جلال الوكيل سبحانه: أن من توكل عليه حقَّ توكله: "أتمَّ الله له أحواله ، وسدَّه في أقواله ، وأفعاله ، فهناك لا تسأل عن كُلِّ أمرٍ يتيَسَّر ، وصعب يتسهَّل ، وخطوبٍ تهون ، وكُرُوبٍ تزول ، وأحوال وحوائج تقضى ، وبركات تنزل ، ونقم تُدفع"^(٣) .

السادس: ومن جلاله: أنه "هو الكفيل الأمين ، والوكيل القوي القدير ، الصادق المقال ، الوثيق الضامن [في الحال وفي المال] ، يلم الشعث ، ويسد الثلم ، ويجبر الكسر ، ويصلح الفاسد ، ويكشف الغم ، ويفرج الكرب ، ويجلي العماء ، ويسد الخلل ، ويعدل الميل ، ويداوي السقم ، ويسد الفاقة"^(٤) .

الثمرات

إذا علمت أن وكيلك غني ، وفيّ ، قادر ملي ، فأعرض عن دنياك ، وأقبل على عبادة من يتولّاك^(٥) ، فمن عرف الله تعالى بهذا الاسم حق له أن يتوكل عليه في جميع أموره ، ويفوض إليه جميع شؤونه ، قال عزَّ شأنه: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران]^(٦) ، ليحصل له حقيقة التوحيد ، الذي هو حق الله على كل العبيد .

واعلم يا رعاك الله وسددك على التقوى والهدى أن التوكل من أعمِّ المقامات تعلقاً بالأسماء الحسنی ، فإن له تعلقاً خاصاً بعامة أسماء الأفعال ، وأسماء الصفات ، فله تعلق باسم الغفار ،

(١) «شرح الأسماء الحسنی» لعبد السلام الإشبيلي (٣٠٩/٢) .

(٢) «موسوعة له الأسماء الحسنی» (٢٨٩/١) .

(٣) انظر «تفسير السعدي» (٩٢٠) .

(٤) «شرح الأسماء الحسنی» لعبد السلام الإشبيلي (٣٠٩/٢) .

(٥) «الأمد الأقصى» (٤٦٥/٢) .

(٦) «الأسنى» للقرطبي (٥٠٨/١) .

والتواب ، والعفو ، والرؤوف ، والرحيم ، وتعلق باسم الفتاح ، والرزاق ، والمعطي ، والمحسن .
وتعلق باسم المعز المذل ، الخافض الرافع المانع^(١) من جهة توكله عليه في إذلال أعداء دينه وخفضهم ، ومنعهم أسباب النصر ، وتعلق بأسماء القدرة والإرادة ، وله تعلق عام بجميع الأسماء الحسنى ، ولهذا فسر من فسر من الأئمة بأنه المعرفة بالله تعالى ، وإنما أراد أنه بحسب معرفة العبد: يصح له مقام التوكل ، وكلما كان بالله أعرف: كان توكله عليه أقوى^(٢) .

ولهذا فـ"إن التوكل على الله ﷻ وحده ، وتفويض الأمور كلها إليه ، والاعتماد عليه في جلب النعماء ، ودفع الضر والبلاء ، مقام عظيم من مقامات الدين الجليلة ، وفريضة عظيمة من فرائض الله سبحانه على عباده ، ويجب إخلاصها لله تعالى وحده ، وهو من أجمع أنواع العبادة ، وأهمها^(٣) ، لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة ، والطاعات الكثيرة ، فالتوكل هو الأصل لجميع مقامات الدين ، ومنزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس ، وحقيقته هو عمل القلب وعبوديته اعتماداً على الله سبحانه ، وثقة به ، والتجاء إليه ، ورضاه بما يقضيه له ، ففي التوكل جمع بين أصليين: اعتماد على الله وحده لا شريك له ، مع فعل الأسباب المأمور بها ، والقيام بها ، دون تعدد إلى فعل سبب غير مأمور به ، أو سلوك طريق غير مشروع"^(٤) .



(١) لم تثبت هذه الأسماء في حق ربنا ، وإنما جاءت أفعالاً ، والحديث الذي جاءت به ضعيف عند جمهور المحدثين كما تقدم .

(٢) «مدارج السالكين» (١٢٥/٢) .

(٣) يقول ابن القيم رحمه الله: "التوكل نصف الدين ، والنصف الثاني الإنابة ، فإن الدين استعانة ، وعبادة ، فالتوكل هو الاستعانة ، والإنابة هي العبادة ، ومنزلته: أوسع المنازل وأجمعها ، ولا تزال معمورة بالنازليين..." .

(٤) «فقه الأسماء» (٢٤٠) .

٧٥- الله ﷻ المقيت ﷻ جل جلاله

قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِينًا﴾ [النساء].

المعنى اللغوي

المقيت: اسم (فاعل) للموصوف بالإقاة، والقوت في اللغة: الإمساك، والحفظ، والقدرة على الشيء، وما يمسك الرمح من الرزق، وإنما سمي قوتاً، لأنه مساك البدن، وقوته، أي: ما يقوم به بدن الإنسان من الطعام والشرب، قال ﷻ: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [نصت: ١٠]، أي: أنه تعالى قدر في الأرض أقوات أهلها، وذلك ما يقوتهم من الغذاء، ويصلحهم من المعاش، قال ﷻ: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع ما يقوت»^(١)، أي: ما يعول، فيطلق على:

الأول: الكفيل، أي: المتكفل بإيصال أقوات الخلق إليهم، ويقال: "هو في قات من العيش"، أي: في كفاية.

الثاني: الحفيظ^(٢)، مأخوذ من قولهم: "قُت الرجل أقوته" إذا حفظت نفسه بما يقوته، والقوت: اسم الشيء الذي يحفظ نفسه.

الثالث: المقتدر على الشيء، قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِينًا﴾ [النساء]، يريد والله أعلم: مقتدراً، يقال: "أقات على الشيء"، إذا: اقتدر عليه، قال الشاعر: (وكنت على إساءته مقيتاً...)، أي: مقتدراً.

الرابع: الشهيد، يقال: "أقات على الشيء": إذا شهد عليه.
قال الشاعر:

إني الفضل أمّ عليّ إذا هو سبّْتُ إني على الحساب مقيتُ

الخامس: الرزاق الذي يرسل الأرزاق.

السادس: الحسيب، أي: المقيت لكل إنسان بقدر عمله.

(١) «صحيح أبي داود» (١٦٩٢).

(٢) صح عن ابن عباس ؓ، انظر «التفسير الصحيح» (٨٥/٢).

السابع: الواصب ، أي: الدائم الثابت ، وهو القائم على كل شيء بالتدبير^(١).

فكل معنى مما تقدم يختص بأثر غير الذي يختص به المعنى الآخر ، فإذا كان معناه: الرزاق: اقتضى المرزوق ومظاهر الرزق ، وإذا كان بمعنى الحفيظ: اقتضى محفوظاً ومحفوظاً منه ، ومظاهر الحفظ ، وإذا كان بمعنى الشهيد: اقتضى ظاهراً يُشهد ويُعلم ، وإذا كان يعني قديراً: اقتضى مقدوراً عليه^(٢).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو المقيت الموصل لكل الموجودات ، ما به تقتات ، فهو سبحانه:

(١) المقتدر، الذي خلق الأقوات ، وتكفل بإيصالها إلى كل الخلق ، بكمال الحفظ والاعتدال ، في كل الأقطار .

(٢) وهو المقيت سبحانه: القائم بأقوات كل المخلوقات ، والمنشئ لها في كل اللحظات ، الذي أوصل إلى كل موجود ما به يقتات ، وأوصل إليها أرزاقها وصرفها كيف يشاء بحكمته وحمده .

(٣) وهو المقيت تعالى: المقتدر ، قادرٌ على كل المقدورات ، حفيظٌ لجميع المعلومات ، فيجازي على كل عمل بما يناسبه من حسن أو سوء^(٣).

(٤) وهو المقيت سبحانه: القادر على إيصال النصيب والكفل من الجزاء إلى الشافع ، مثل ما يوصله إلى المشفوع فيه ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، قال تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥]^(٤).

(٥) فهو سبحانه ينزل الأقوات للخلائق ، ويقسم أرزاقهم^(٥) ، فيعطي كل مخلوق قوته

(١) «تفسير ابن جرير» (٥٨٣/٨)، و«تفسير ابن كثير» (٧٣٠/١)، و«اللسان» (٣٧٦٨/٦)، و«النهاية» (٧٧٦)، و«الصحاح» (٨٩٠)، و«معجم مقاييس اللغة» (٣٨/٥)، «شأن الدعاء» (٦٨)، «المفردات» (٦٨٧)، و«تفسير الأسماء» (٤٨)، و«اشتقاق أسماء الله» (١٣٦)، و«إبطال التأويلات» (٦٥٦)، و«شرح الأسماء» للرازي (٢٧٣)، و«الأمَد الأقصى» (٥٣٤/١)، و«الأسنى» (٢٧٣/١).

(٢) «آثار أسماء الله الحسنى» محمد شلبي (٢٥٤).

(٣) ينظر: «تفسير السعدي» (٩٤٧)، و«تفسير غرائب القرآن ورغائب العرفان» (٤٦٠/٢)، و«التحرير والتنوير» مع (٢) (١٤٤/٥)، و«موسوعة له الأسماء الحسنى» (٢١٥/١).

(٤) «التفسير الكبير ومفاتيح الغيب» مع (٥) (٢١٤/١٠).

(٥) «الحجة في بيان المحجة» (١٦١/١).

ورزقه ، من الضروريات والكماليات ، على مرّ الأوقات ، على ما حدّده ﷺ من زمان ، أو مكان ، أو كم أو كيف ، بكمال المشيئة والحكمة على الدوام .

(٦) فهو تعالى يمدّها في كلّ وقتٍ وحين ، على اختلاف الأنواع والألوان ، وييسّر أسباب نفعها للإنسان والحيوان^(١) ، على تتابع الأوقات والزمان .

(٧) فمنه من يعطيه لأمدٍ قليل ، ومنه لأمدٍ طويل بلا حساب ، بما جعله قواماً لها ، إلا أن يريد إبطال شيءٍ منها ، فيحبس عنه ما جعله الله تعالى له مادة لبقائه ، فيهلك في أيّ وقتٍ شاء سبحانه .

(٨) فهو جلّ ثناؤه خلق الأقوات وأودع فيها خصائص التغذية ، ويوصلها للأشباح ، والأرواح على ما يناسبها^(٢) .

(٩) وهو المقيت سبحانه: الحفيظ لأعمال عباده ، في كل آنٍ ولحظة ، بلا سهو ، ولا تضييع ، ولا غفلة .

(١٠) وكما أنه سبحانه المقيت: للأبدان ، فإنه أيضاً مقيت القلوب بالمعرفة والإيمان ، فهو تعالى معطي كل موجود في هذا الوجود ما شاء ما به قوامه من الأقوات ، والقوى: الحسية ، والمعنوية^(٣) .

(١١) وكل هذه الأرزاق والأقوات قدّرها ﷻ عند خلقه للأرض التي وضعها للأنام ، قال الله العظيم: ﴿وَجَعَلْ فِيهَا رَوْسًا مِنْ قَوْفِهَا وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيْنِ﴾ [فصلت] ، أي: قدّر فيها ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن ، التي تزرع وتغرس .

(١٢) فالمقيت سبحانه: اسم جامع لمعنى الاقتدار على حكم الموازنة ، من حيث إحاطة العلم ، وإقامة الكفاف بالقوت المقدر بالحاجة من غير زيادة ، ولا نقص ، المقيد بالإظهار عند وقت الحاجة^(٤) .

(١٣) وهو المقيت تعالى: الشاهد الحفيظ الحسيب على أعمال كل العبيد ، فيجازي كلّ ما يستحقّه^(٥) ، لا يخفى عليه شيء من أعمالهم من دقيق أو جليل ، ومن ذلك: أنه عالم بأن الشافع

(١) انظر: «موسوعة له الأسماء الحسنى» (٢١٥/١) ، و«شرح أسماء الله الحسنى» أ.د. الرضواني (٦٣٩) .

(٢) «المنهاج في شعب الإيمان» (٢٠٣/١) ، و«تحفة الأبرار» (٤٤/٢) .

(٣) ينظر: «لوامع البينات» (٢٧٣) ، و«موسوعة الشريعة» (٢١٥) .

(٤) «شرح أسماء الله الحسنى وفوائدها وخصائصها» (٦٧) .

(٥) انظر: «تفسير السعدي» (١٩٠) .

يشفع في حق ، أو في باطل ، "فيجازي كل شافع بما يليق بحاله سبحانه ، قال ﷺ: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِّنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِينًا﴾ [النساء: ٨٥]" (١) .

(١٤) "وبالجملة فالله ﷻ المقيت لكل العبيد ، الحافظ لهم ، والشاهد لأحوالهم ، والمطلع عليهم ، وقد تضمن هذا الاسم الجليل جميع الصفات" (٢) .

جلال المقيت

الأول: من جلاله: أن الله تعالى جعل أقوات عباده وخلقه مختلفة ، فجعل لكل مخلوق قوتاً يناسبه ، ويوافق طبعه ، فمنهم من جعل قوته: الأطعمة ، والأشربة على اختلاف أنواعها ، وأوصافها ، وهم الآدميون وغيرهم من الحيوانات ، والنباتات ، وهو قوت الأبدان ، ومنهم من جعل قوته: الذكر ، والتسبيح ، والطاعات ، وهم الملائكة ، ومنهم من جعل قوته: المعاني والمعارف والأفهام ، وهو قوت الأرواح (٣) ، الذي اختص به تعالى العلماء وأولي الأبواب .

فلولا المأكول والمشروب لم تبق أجسام ، ولولا العلوم لم يكن هناك أرواح (٤) ، ولولا التسبيح والأذكار لم يكن هناك أملاك (٥) ، ولولا قوته سبحانه لكل شيء في كل آن ، لم تكن هناك أفلاك ولا أجرام ، فسبحانه من مقيت جليل ، خلق كل شيء وأقاته للإنسان ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رُوسًا مِّن فَوْقِهَا وَيَرْكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتًا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّالِينَ﴾ [فصل: ١٠] ، ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ ﴿١١﴾ فِيهَا فَكِهِةٌ وَالنَّخْلَ ذَاتَ الْأَكْمَامِ ﴿١٢﴾ وَلِخُبِّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانَ﴾ [الرحمن: ١٠ - ١٢] .

الثاني: ومن جلاله: أنه سبحانه كما "يقوت الأجسام بالطعام والشراب (فإنه) يقوت الأرواح بالعقول ، ويقوت النفوس بحسن (الألفة) ، والوفاق" (٦) ، والمباعدة عن الشحناء ، والعداوة والبغضاء ، والذي لهم سبق الأكبر من ذلك: الصالحون والأولياء ، وأهل الصلاح

(١) «تفسير غرائب القرآن» (٢/٤٦٠) .

(٢) «الأسنى» (١/٢٧٦) .

(٣) «شرح الأسماء الحسنى» للرازي (٢٧٣) و«الأمم الأقصى» (١/٥٣٦) ، و«شرح أسماء الله» لابن برجان اللخمي (٢/٣٠١) ، و«الأسنى» (١/٢٧٦) ، و«موسوعة له الأسماء الحسنى» (١/٢١٧) بتصرف .

(٤) انظر: «الأمم الأقصى» (١/٥٣٦) .

(٥) أي: ملائكة .

(٦) «شرح أسماء الله» لابن برجان (٢/٣٠١) .

والذي ينعم عليهم بكمال الأقوات ، من اللذة في النفوس ، والأرواح في الدنيا ، وقرة الأعين في بلاد الأفراح .

الثالث: ومن جلال المقيت تعالى: أنه "حفيظاً وشهيداً وقديرًا على إعطاء ما يقوت من أخلاق النفوس ، وأحوال القلوب ، وأرزاق الأبدان ، وجميع ما به القوام ، جزاء وابتداء من جميع الجهات" (١) ما لم يخطر على البال .

الرابع: ومن جلاله سبحانه: "أنه إذا تقربت منه رفعك واجتباك (وخصك من الأقوات النافعة في دنياك وآخرتك) ، وإذا تجرأت عليه سترك ، وأطعمك ، وسقاك" (٢) ، وكأنك لم تبارزه ، فأيا جلال يا رعاك الله أسمى من ذاك ؟

الثمرات

يجب على كل مكلف أن يعلم أن لا قائم بمصالح العباد إلا الله سبحانه ، وأنه هو الذي يقوتهم ، ويرزقهم ، وأفضل رزق يرزقه الله العقل ، فمن رزقه الله العقل أكرمه ، ومن حرمه ذلك فقد أهانه وأذله (٣) .

واعلم يا رعاك الله: أن هذا الاسم الكريم يورث المؤمن محبة الله تعالى ، والطمأنينة والثقة بقوة الله سبحانه ، لاسيما إذا اشتد به الكرب ، وقَلَّتْ لديه سبل الكسب ، وينبغي للعبد أن يكون قوته حلالاً طيباً ، وأن يكون وسطاً لا يكون مسرفاً ، ولا بخيلاً ، بين ذلك قواماً ، وأن يتضرع إلى المقيت أن يقيت له الهدى والإيمان ، والعمل الصالح والإحسان ، الذي هو أشرف من قوت الأبدان ، إذ بذلك قد شابه الملائكة الذين لا يعصون الرحمن .

ومن وعبوديته: "أن تقيت كل محتاج تقدر على إقائته من قريب وبعيد ، وأجنبي وضعيف وقوي ، مقدماً لمن أوجبه الله عليك إقائته ، الأقرب فالأقرب ، قال ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت» (٤) ، وقال ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يحبس عمن يملك قوته» (٥) (٦) .

(١) «نظم الدرر» (٢٩١/٢) .

(٢) مقتبس من كلام الشيخ د. محمد سعد الشهراني في إحدى محاضراته في البيوتوب .

(٣) «الأسنى» (٢٧٦/١) .

(٤) «صحيح أبي داود» (١٦٩٢) .

(٥) «مسلم» (٩٩٦) .

(٦) انظر: شجرة المعارف (٨٩) .

٧٦- الله ﷻ النصير سبحانه وتعالى

قال تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَانَا نِعَمَ الْمَوْلَى وَنِعَمَ النَّصِيرِ﴾ [الأنفال]

المعنى اللغوي

النصير: من صيغ المبالغة على وزن (فعليل) بمعنى (فاعل) أو (مفعول)، لأن كل واحدٍ من المتناصرين: ناصر، ومنصور، والنَّصْرُ والنُّصرة: العون، والتأييد، وهو ضد: الخذل، والناصر هو الميسر للغلبة، والنصر: إعانة المظلوم، ويأتي بمعنى: الغوث، والمنع، والإتيان، والانتقام، والعطاء، فالنصير له عدة معانٍ:

الأول: المعونة، والتأييد، قال تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يُصْرُونَ﴾ [نصت: ١٦]، أي: لا يعانون، ويقال: "نصر المطر الخصب" إذا أعانه على النبات.

الثاني: الغوث، ومنه: "إن هذه السحابة تنصر أرض بني كعب" أي: ممطرة، يقال: "ونصر الغيث الأرض"، أي: أغاثها.

الثالث: المنع، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ [هود: ٦٣]، فالنصر والانتصار: الامتناع من الظالم والاستظهار عليه.

الرابع: الإتيان والمجيء، قال الشاعر:

إذا دخل الشهر الحرام فودعي بلاد تميم وانصري أرض عامر

فقوله: "انصري"، أي: اتني، فالنصر هو إتيان الخير وإيتاؤه، يقال: نصر الله المسلمين، أي: آتاهم الظفر على عدوهم، و"نصر فلان بلدة كذا": إذا أتاها.

الخامس: الانتقام، قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى: ٤١]، وقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَأَنْصِرْ﴾ [القمر: ١٠]، ويقال: "انتصر منه" أي: انتقم منه^(١).

(١) «المفردات» (٨٠٨)، و«عمدة الحفاظ» (١٨٣/٤)، و«لسان العرب» (٢١٢/٥)، و«معجم مقاييس اللغة» =

المعنى الشرعي

الله تبارك وتعالى هو النصير ، ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠] ، الذي لا نصر إلا منه ، ولا يتحقق إلا به وحده:

(١) الذي ينصر رسله ، وأنبياءه ، وأوليائه على أعدائهم ، ويثبت أقدامهم ، ويلقي الرعب في قلوب من عاداهم ، في الدنيا نصراً مؤزراً ، ويوم يقوم الأشهاد ، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَوْمٍ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر] ، وهو حق أوجه سبحانه على نفسه سبحانه تكراً وتفضلاً في كل ملة ، لا يتخلف في الدنيا ، ولا في الآخرة ، ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم] (١).

(٢) وهو النصير سبحانه: الكافي لمن استنصره ، الحسيب للمؤمنين في النصر على أعدائهم ، وأعداء دينهم في كل المواطن ، فيدفع عنهم مكرهم وشرهم ، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَى بِاللَّهِ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٤٥] (٢).

(٣) وهو تعالى: ﴿نَعِمَ الْمَوْلَى وَنَعِمَ النَّصِيرُ﴾ [الأفلاك: ٤٠] لمن استنصره ، فيدفع عنه كيد الفجار ، وتكالب الأشرار (٣) ، فهو الذي لا يُغلب من نصره (٤).

(٤) ومن كمال نصره سبحانه: أن من أراد "نصره" ، سبب له جميع أسباب النصر ، وأزال عنه كل أسباب الخذلان ، فمنع غيره كائناً من كان من إزالته (في أي مكان) ، قال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهِ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٠] (٥).

(٥) وهو النصير ﷺ: كما ينصر المؤمنين على عدوهم من الكافرين والظالمين ، وهما العدو الخارجي ، كذلك ينصرهم على عدوهم الداخلي من النفس والشيطان .

= (٤٣٥/٥) ، و«النهاية» (٩١٩) ، و«القاموس المحيط» (١٠٤٤) ، و«المنهاج» (٢٠٥/١) ، و«الأمدة الأقصى» (٤٢٨/٢) ، و«الأسنى» (٣١٦/١) ، و«تلخيص الأدلة» (٦٣٤/٢) .

(١) «نظم الدرر» (٦٣٧/٥) ، و«ابن كثير» (٥٩١/٣) .

(٢) ينظر: «تفسير ابن كثير» (٦٩٧/١) ، و«ابن جرير الطبري» (٤٧٤/٢) ، و«روح المعاني» (٦٧/٤) ، و«إرشاد العقل السليم» (١٤٢/٢) .

(٣) «تفسير السعدي» (٣٢١) .

(٤) «تفسير أبي السعود» (٩٦/٣) .

(٥) «نظم الدرر» (١٦٦/٢) .

"وهما العدوَّان اللذان لا يفارقان العبد، وعداوتهما أضرتُّ من عداوة العدو الخارج، والنصر على هذا العدو أهم، والعبد إليه أحوج، وكمال النصرة بحسب كمال الاعتصام بالله تعالى" (١) وحده، قال تعالى: ﴿إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد].

(٦) وهو ﷺ ينصر المستضعفين، ويرفع الظلم عن المظلومين، ولو كانوا من الكافرين، ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقْتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج].

(٧) وهو النصير: الذي يؤيد بنصره من يشاء، ولا غالب لمن نصره، ولا ناصر لمن خذله، قال ﷺ: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

(٨) وهو سبحانه النصير: الميسر للغلبة، الموثوق منه بأن لا يسلم وليه إلى عدوه، ولا يخذله (٢).

(٩) وهو النصير تعالى: الذي يؤمن الخائفين، ويجير المستجيرين، ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

(١٠) وهو النصير سبحانه وتعالى: الذي لا مثل له في نصره (٣)، (وذلك:) أنه إذا نصر أحداً أعلاه على كل من خاصمه، قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨] (٤).

(١١) ومن نصره للمؤمنين: أنه يلقي في قلوب أعدائهم من الكافرين الرعب، وهو الخوف العظيم، الذي يمنعهم من كثيرٍ من مقاصدهم، فنصره سبحانه لهم لا يخرج عن أحد أمرين: إما أن يقطع طرفاً من الذين كفروا، فيكتبهم فينقلبوا خائبين، وهذا من الثاني (٥).

(١٢) ومن نصره لأوليائه: إظهار صدقهم فيما أخبر به نبيهم من غلبة من له كتاب وهم الروم، على من لا كتاب له وهم الفرس، وكذلك بغيط الشامتين بهم من كفار مكة (٦).

(١٣) وهو الذي ينصر من يشاء: من ضعيف وقوي، على عدوه، ويغلبه عليه، فلا يعجزه من

(١) انظر: «مدارج السالكين» (١٨٠/١).

(٢) «المنهاج في شعب الإيمان» (٢٠٥/١)، و«الأسماء والصفات» (١٧٩/١).

(٣) «إرشاد العقل السليم» (٤٠٠/٤).

(٤) «نظم الدرر» (١٨١/٥).

(٥) «تفسير السعدي» (١٥١).

(٦) «تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان» (٤٠٢/٥)، و«تفسير النسفي» (٩٠٢).

شاء أن ينصر عليه كائنًا من كان ، فلا مانع له ولا يسأل عما يفعل : ﴿يَنْصُرِ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٥٠] ^(١).

جلال النصير

الأول: من جلاله: أن أفراد نصره وأنواعها لعباده المؤمنين ، يأتي بها الرب ، من حيث لا تحتسب ، فلا تعدُّ ، ولا تحدُّ ، ولا تُردُّ ، وكلها مخزونة عنده في الغيب ، قد تكون بالإمداد والإعداد ، أو تكون "بما يهيئ له من الأسباب ، إجراء له على الأمر المعتاد ، أو بدون أسباب ، خرقًا للعادة ، كما وقع في كثير من الفتوحات" ^(٢) ، وهو حقُّ أوجه على نفسه تفضلاً وتكرماً ، دون إلزام من أحدٍ من العباد ^(٣).

فمنها: تأييده بملائكته ، كما في نصره لنبيه وصحبه في بدر ، وبالريح كما في عادٍ والأحزاب ، وبإرسال الطير الأبايل ، كما في أصحاب الفيل ، وبالصيحة كما في ثمود ، وبالخسف كما فعل بقارون ، والقذف كما في قوم لوط ، وإلقاء الرعب كما فعل باليهود ، حينما نقضوا مع رسوله العهد ، وبالمشركين حينما أرادوا أن يستأصلوا المؤمنين بعد وقعة أحد ، فلا يحصي جلال نصره تعالى لأهل الحق ، إلا هو سبحانه الواحد الأحد .

الثاني: ومن جلاله: أنه سبحانه ينصر بعض الكافرين على بعض ، كما نصر الروم على فارس ، لما فيه من مصلحة للإسلام والمسلمين ، "من تهئية أسباب انتصار المسلمين على الفريقين ، إذا قاتلوهم من بعد ذلك الحين ، لنشر دينه ﷺ في بلادهم ، وقد نصر ربُّ العالمين بعد ذلك المؤمنين ، على الفرس والروم ، ففتحوا ممالك كسرى ، وممالك قيصر" ^(٤).

فإن الله تعالى من سننه السنية ، أنه ينصر أقرب الطائفتين المقتلتين إلى الحق ، ويجعل لها العاقبة ^(٥) ، قال تعالى : ﴿غَلَبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ ﴿يَضَعُ سِنِينَ اللَّهِ الْأَمْرَ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ﴿يَنْصُرِ اللَّهُ﴾

(١) «روح المعاني» (٣٢/١٢) ، و«نظم الدرر» (٦٠٠٠/٥) ، و«السراج المنير» (٢١٢/٣).

(٢) «نظم الدرر» (١٥٨/٥).

(٣) كما قال تعالى : ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

(٤) انظر «التحرير والتنوير» (٤٧/١٠) ، و«تفسير سورة الروم» لابن عثيمين (١٣/٧).

(٥) «تفسير ابن كثير» (٥٧٨/٣).

يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ [الروم].

الثالث: ومن جلال نصره تعالى: أنه ينصر هذه الأمة بضعيفها لشدة إخلاصهم، قال ﷺ: «إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم، وصلاتهم، وإخلاصهم»^(١)، وقال ﷺ: «ابغوني ضعفاءكم، فإنما ترزقون، وتنصرون بضعفائكم»^(٢)، أي: ليس النصر بالأقوياء، وأهل الشدة، بل بالضعفاء، لأنهم أشد إخلاصاً، وأكثر تفرغاً لركة قلوبهم^(٣).

الرابع: ومن جلال النصير سبحانه: أنه جعل: "المؤمن عزيزاً غالباً مؤيداً منصوراً مكفياً، مدفوعاً عنه بالذات أين كان، ولو اجتمع عليه من بأقطارها، إذا قام بحقيقة الإيمان وواجباته، ظاهراً وباطناً"^(٤).

الثمرات

إن من أجل ثمرات هذا الاسم الكريم: أن ينصر العبد الله، ورسوله، وحزبه، فإن الله تعالى قد جعل النصر منوطاً بهم جميعاً، في الدنيا والآخرة، قال جل ثناؤه: ﴿إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال عز شأنه: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

ونصر الله تعالى ورسوله ﷺ: يكون باتباع الأوامر، والنهي عن المنكر، والنصر لحزبه تعالى يكون في ولايتهم، والدفاع عنهم بالحجة والبيان، والسيف والسنان، في السر والإعلان، فإن الجزاء من جنس الأعمال.

ويجب على كل مسلم إن كان له قوة، أن ينصر بها أخاه ظالماً بأن يردعه، أو مظلوماً فيدفع عنه في جهره وسره، قال ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: «تأخذ على يديه»^(٥)، وقال ﷺ: «من نصر أخاه بظهر الغيب

(١) «صحيح النسائي» (٣١٧٩).

(٢) «صحيح الترمذي» (١٧٠٢).

(٣) التنوير شرح الجامع الصغير للعلامة محمد الصنعاني (٢١/١١).

(٤) «إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان» (١٨٢/٢).

(٥) رواه البخاري (٦٥٥٢).

نصره الله في الدنيا والآخرة»^(١)، وليحذر أن ينصر الباطل ولو كان من أقرب الناس إليه، قال ﷺ: «من نصر قومه على غير الحق، فهو كالبعير الذي تردَّى، فهو ينزع بذنبه»^(٢).

قوله: (تردَّى)، "أي: تردَّى وسقط في البئر، قال الخطابي: معناه: أنه قد وقع في الإثم وهلك كالبعير إذا تردى في بئر فصار ينزع بذنبه، ولا يقدر على الخلاص"^(٣).
واعلم رحماني الله وإيَّاك: أن النصر يكون مع الصبر مقترنان، لا ينفكَّان، قال ﷺ: «واعلم أن النصر مع الصبر»^(٤).



(١) «السلسلة الصحيحة» (١٢١٧)، و«صحيح الجامع» (٦٥٧٤).

(٢) «صحيح أبي داود» (٥١١٧).

(٣) «عون المعبود شرح سنن أبي داود» (٣٩٥/٨).

(٤) «صحيح الترمذي» (٢٥١٦).

٧٧- الله ﷻ الرقيب ﷻ جل ثناؤه

قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ۝١﴾ [الأحزاب].

المعنى اللغوي

الرقيب: (فعليل) بمعنى: فاعل، وهو الموصوف بالمراقبة، وأصل الرقبة: الحفظ والحراسة، والرقيب: الحافظ للشيء، فالرقيب هو: الحفيظ، والأمين، والعالي، والعليم، الذي لا يغيب عنه الشيء.

الأول: الحافظ الذي لا يغيب عنه، وفي الحديث: «ما من نبيٍّ إلا أعطي سبعة نجباء رُقباء»، أي: حَفَظَةً يكونون معه، ويقال: "رَقِيتُ الشيءَ أَرْقِيهِ رُقُوبًا وَرُقْبَانًا"، بالكسر فيهما، إذا رصدته، وحفظته، وحرصته، ورعيته، قال الله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

الثاني: الأمين، وبذلك سمي أمين المسير: رقيباً.

الثالث: الموكل بحفظ الشيء.

الرابع: العليم، الذي لا يخفى عنه شيء.

فالرقبة تكون: العلم بالمرقوب، والمحافظة على دوام العلم، أي: علم دائم بالمرقوب، موجوداً ومعدوماً، حاضراً وغائباً.

الخامس: المكان العالي الذي يُشرف عليه الرقيب.

السادس: "وقد يأتي الرقيب بمعنى: الباقي، والله أعلم لما في المراقبة من طول الانتظام ودوام الحراسة، يقال من ذلك: "رقت الشيء ببصري أرقبه"، إذا نظرت إليه وأدمت مراصدته" (١).

فالرقيب بالجملة هو: الحارس الحافظ، الأمين، الموكل بحفظ الشيء، المترصد له، المتحرّز عن الغفلة فيه، فلا يغيب عنه شيء (٢).

(١) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن بريجان (١١٨/٢).

(٢) «المفردات» (٣٦١)، و«عمدة الحفاظ» (١٥/٢)، و«معجم مقاييس اللغة» (٤٢٧/٢)، «لسان العرب» (٢٩٧/٥)، =

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الرقيب الحاضر الذي لا يغفل ، ولا يغيب عن كل العبيد:

(١) فهو المطلع على ما في القلوب ، وما حوته العوالم ، من الأسرار والغيوب .

(٢) فهو سبحانه الرقيب: على ما دار في الخواطر ، المطلع على ما في الضمائر ، والشاهد على ما اكتنته السرائر ، ولحظته العيون ، وما اختفى في خبايا الصدور ، فكيف بالأقوال والأفعال الظاهرة في الأركان ، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] .

(٣) فهو تعالى الرقيب: على كل الأنام ، محصٍ عليهم كل صغيرة وكبيرة ، في كل أوان ، المراقب لأعمالهم على الدوام ، لا يخفى عليه شيء من تقلباتهم في كل حال .

(٤) فهو يعلم ويرى ما دق وما بدى ، ولا يخفى عليه السر والنجوى ، ولا شيء في الأرض ولا في السموات العلا .

(٥) فهو سبحانه الرقيب: الحاضر الذي لا يغيب ، القائم على كل نفسٍ بما كسبت ، وهو ﷻ رقيب راصد لأعمال العباد وكسبهم ، عليمٌ بالخواطر التي تدبُّ في قلوبهم ، من النيات الطيبة ، والإرادات الفاسدة ، ويرى كلَّ حركة وسكنة في أبدانهم^(١) .

(٦) وهو الرقيب تعالى: الحافظ الذي لا يغيب عما يحفظه من شيء ، ولا يذهب عليه شيء ، ومن ذلك: أنه يحفظ أعمال العباد فيسألهم عنها فيما أمرهم به ، فيجازيهم بحسبها .

(٧) وهو الرقيب سبحانه: العالم الذي لا يغفل ، ولا يذهل ، ولا يفوته أمر ، فلا يحتاج إلى منبه ومذكّر .

(٨) وهو الرقيب تعالى: الذي يرى جميع خلقه ، يعلم أحوالهم ، ويعدُّ أنفاسهم ، ويحصي أعمالهم ، وأقوالهم ، ويحيط بمكنونات سرائرهم^(٢) .

= «والنهاية» (٣٦٩)، و«شرح الأسماء» (٥١)، و«اشتقاق أسماء الله» (١٢٨)، و«شأن الدعاء» (٧٢)، و«الأمَد الأقصى» (٤٦/٢)، و«الأسنى» (٤٠١)، و«شرح الأسماء» للإشيلي (١١٨/٢) .

(١) ينظر: «فتح الرحيم الملك» (٤٤)، و«توضيح الكافية الشافية» (١٢٢)، و«الحق الواضح» (٥٨)، و«تفسير السعدي» (٩٤٧)، و«تفسير أبي السعود» (٩٣/٢)، و«موسوعة له الأسماء الحسنی» (٢٣٩/١) .

(٢) «تفسير الأسماء» (٥١)، و«تفسير نظام الدين النيسابوري» (٣٤٣/٢)، و«بحر العلوم» (٣٣٠/١)، و«الأمَد الأقصى» (٤٧/٢)، و«شرح أسماء الله الحسنی وخصائصها» للبرنسي (٧٣)، و«موسوعة له الأسماء الحسنی» للشرباصي (٢٣٧/١) .

(٩) فهو سبحانه الرقيب: المراعي أحوال المرقوب ، الحافظ له جملةً وتفصيلاً ، المحصي لجميع أحواله ، وعدّ ما يدقّ ، ويجلّ ، من أقواله ، وأفعاله ، وحركاته ، وسكناته ، وتصرفاته ، وسائر أحواله ، ومراعاة وجوده ، وعدمه ، وحياته ، وموته^(١) .

(١٠) فهو الرقيب تعالى: لحركات الأكوان في كل لحظة وآن ، لا يخفى عليه شيء سواء من بُعدٍ فيها أو دان ، "الذي حفظ المخلوقات وأجراها على أحسن نظام ، وأكمل تدبير"^(٢) وأحكام ، ليس له في ذلك شبيه ولا مثال .

(١١) فهو الرقيب سبحانه: الذي لا يغفل عما خلق فيلحقه نقص ، أو يدخل عليه خلل ، من قبل غفلته عنه^(٣) .

(١٢) وهو الرقيب ﷻ: الذي لا تعتريه غفلة ولا نسيان ، لا تأخذه سِنَّة ولا ينام ، أحاط علمه كل الأزمان ، ونفذ بصره في كل مكان ، بعينه التي تحرس كل الأنام .

(١٣) "فمراقبته سبحانه عن استعلاء ، وفوقية ، وقدرة ، وصمدية ، لا تتحرك ذرة إلا بإذنه ، ولا تسقط ورقة إلا بعلمه"^(٤) ، وهو مستوٍ على عرشه ، بائن عن كل الخليفة .

جلال الرقيب

الأول: أنه ﷻ: رقيب على الأشياء بعلمه المقدّس عن النسيان ، ورقيب للمبصرات ببصره الذي لا تأخذه سِنَّة ولا نوم ، ورقيب للمسموعات بسمعه المدرك لكل حركة وكلام ، فهو ﷻ رقيب عليها بهذه الصفات ، تحت رقبته الكليات ، والجزئيات ، وجميع الخفّيات ، في الأراضين والسماءات ، ولا خفي عنده ، بل جميع الموجودات كلها على نمط واحد ، في أنها تحت رقبته ، التي هي من صفته^(٥) .

الثاني: من جلاله: "أنه تعالى لا يشغله شأنٌ عن شأن ، وإن كان كلّ يوم هو في شأن ، لعموم

(١) «الأسنى» (٤٠٤/١) .

(٢) «تفسير السعدي» (٩٤٧) .

(٣) «المنهاج» للحليمي (٢٠٦/١) ، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (١٩٤/١) .

(٤) «الأسماء الحسنی» للدكتور الرضواني (٦١١) .

(٥) «الأسنى» للقرطبي (٤٠٢/١) .

العلم ، وسعة القدرة^(١) ، والإحاطة بكل رُتبة .

الثالث: ومن جلال الرقيب: أنه "هو من الأسرار قريب ، وعند الاضطراب مجيب"^(٢) .

الرابع: ومن جلاله: أنه تعالى هو "الرقيب الحق ، مشاهد لذرات العالم كلها ، محافظ على جميع أجزائها على التفصيل الأعلى ، والتحصيل الإلهي ، حارس لها ، (رقيبٌ) بها على السنن ، سنته فيها إتمام أمر لتعويض أمر ، يضعُ أمرًا ، ويرفعُ أمرًا ، يعد قسطًا ، يخلف قسطًا... فهو الرقيب الحق على ذلك كله"^(٣) .

الثمرات

أن من صحَّ علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه: لم يفن عمره في البطالة ، ولم ينفق في الغفلات أوقاته ، بل يصل في طاعة ربه ليلة ونهاره ، وجهده بكده في إحساسه ، واختلاف أنفاسه ، ومن راقب الله تعالى في سرّه وجهره ، وأتقاه في أمره ونهيه ، أوصله بإذن الله إلى الموافقة في سبل المعاملة ، ومن المقامات إلى علم القلب باطلاع الربّ ﷻ ، حتى لا يرى إلا هو ، فصاحب المراقبة يدع المخالفات استحياءً منه ، وهيبةً له ، أكثر مما يتركها من يدع المعاصي لخوف عقوبته ، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤] ، فإن من راعى قلبه عدّ مع الله أنفاسه ، ولا يضيع مع الله تعالى نفساً ، ولا يخلو عن طاعته لحظة ، كيف وقد علم أن الله سبحانه يحاسبه على ما قلّ وجلّ؟! ومن علم أن الله تعالى مطلع عليه من حيث لا يراه ، كما قال ﷻ: «فإنك إن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٤) .

فعليه أن يكون هذا الاعتقاد عليه دائماً ، بحسب خشية الاطلاع ، ولمن يتهياً له ذلك حتى يكون عقله على نفسه رقيباً ، فيعبد الله كأنه يراه ، فإن لم يكن يراه ، فإنه سبحانه يراه ، وهذا هو مقام المراقبة ، ومن قام به فهو رقيب على نفسه ، وحينئذٍ يرسم رقباؤك الحفظة الكاتبون في صحفك ، بأقلام الرحمة ما تبتهج به نفسك [وتقرّ بها عينك] ، إذا رأيت صحائفك منشورة ، يوم تكون نفسك محشورة ، وحينئذٍ تشاهد الرقيب ، فلا ينأى عنك نوره ، ولا يغيب^(٥) .

(١) «الأمد الأقصى» (٤٨/٢) .

(٢) «شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (٢٨٠) .

(٣) «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (١٢٠/٢) .

(٤) تقدم تخريجه .

(٥) انظر: «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان (١٢٢/٢) ، و«الأسنى» (٤٠٥/١) .

٧٨- الله ﴿الوارث﴾ عز وجل

قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر: ٢٢].

المعنى اللغوي

الوارث: اسم (فاعل) وهو كل باقٍ بعد ذاهب .

ويعبر بالإرث عن حصول الأشياء بلا تعب ، ويقال لكل من خول شيئاً مهنتاً أورث ، وما وصل إليه الإرث ، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣] .
والإرث قد يكون بمعنى: البقاء ، ومنه الحديث: «اللهم متعني بسمعي ، وبصري ، واجعله الوارث مني»^(١) .

فالوارث: هو الكائن بصفة المستحق لحال الموروث ، وربنا ﷻ هو الوارث ، لأنه يبقى بعد ذهاب الأملاك ، فترجع الأمور كلها إليه ﷻ ، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٢٢] .

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الوارث وهو ﴿خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩] الذي يورث ويورث من يشاء في الدنيا ويوم الدين:

(١) الباقي الدائم بعد فناء كل الخلائق ، الوارث لجميع الأشياء ، بعد زوال كل من في الأرض ، والسموات الطوابق ، قال سبحانه: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر: ٢٢] .
(٢) وهو سبحانه الوارث: الذي يرث بلا توريث أحد ، الباقي الذي ليس لملكه أمد^(٣) ، قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠]

(١) صححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٣٦٠٤) ، و«السلسلة الصحيحة» (٣١٧٠) .

(٢) انظر: «عمدة الحفاظ» (٢٩٨/٤) ، و«تفسير الأسماء» (٦٥) ، و«النهاية» (٩٦٧) ، و«الأسنى» (١٨٠) .

(٣) «شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (٣٥٢) .

(٣) فهو تعالى الوارث: "الذي يرجع إليه الأملاك بعد فناء الملاك ، إذ هو سبحانه الباقي بعد فناء خلقه ، وإليه مرجع كل شيء ومصيره ، وهو القائل إذ ذاك: ﴿لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ ، وهو المجيب: ﴿لِلَّهِ الْوَحْدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]"^(١) ، فلا يبقى معه دعوى مُلكٍ لأحدٍ ، ولا تعلق في الملك^(٢) من أي فرد .

(٤) وهو تعالى لم يزل باقياً مالِكاً لأصول الأشياء كلها ، يُورِّثها من يشاء ، ويستخلف فيها من أحب^(٣) ، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ الْأَرْضُ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ١٢٧] ، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩] .

(٥) وهو سبحانه الوارث: الذي يُورِّث المؤمنين ديار الكافرين في الدارين :

أ - في الدنيا ، قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطْعُوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٧] .

ب - ومساكنهم في الآخرة ، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم] ، وقال جل ثناؤه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ^(٤) يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] .

(٦) "وهو الذي يرث سبحانه كل كفَّارٍ عنيد ، فيسلب ماله ، وولده ، وكل ما كان يملكه في الدنيا ، فينقل منها فرداً ، بلا مالٍ ، ولا أهلٍ ، ولا أنصارٍ ، ولا أعوانٍ ، قال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتَ أَلَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبِ أَمْ آتَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ﴿كَلَّا سَنَكُنُّبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ ﴿وَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٧٧ - ٨٠]"^(٥) .

(٧) وهو الوارث سبحانه: الذي يورث المستضعفين ملك الظالمين ، ويجعل لهم العاقبة ، والتمكين حتى حين ، قال رب العالمين: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشْكُوفَ الْأَرْضِ وَمَعْرِبَهَا الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧] ، وقال عز شأنه: ﴿وَرِيدٌ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥] .

(٨) وهو الذي أورث بني إسرائيل الكتاب ، وهو التوراة ، فجعله متوارثاً بينهم من قرن إلى

(١) «المقصد الأسنى» (١٣٢) .

(٢) «شرح الأسماء الحسنى وفوائدها وخصائصها» لأبي العباس البرنسي (١٢٩) .

(٣) «شأن الدعاء» (٩٦ - ٩٧) .

(٤) أي: الجنة كما ثبت عن مجاهد وغيره . انظر: «التفسير الصحيح» (٣/٣٩٩) ، وانظر: «تفسير الطبري» (٥/٢٨٦) .

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/١٩٠) ، و«تفسير السعدي» (٥٠٠) .

قرن ، مشتملاً على الهدى لأولي الأبواب ، قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ ﴿١﴾ هُدًى وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٢﴾﴾ [غافر: ٥٣ - ٥٤] (١).

(٩) وهو الوارث سبحانه: الذي يرث القرى الظالمة ، التي طغت ، وأشرت ، وكفرت نعمة الله تعالى ، فلم يسكن مساكنهم إلا المسافر ، ومار الطريق يوماً ، أو ساعة ، قال تعالى : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَبَلَكَ مَسْكَنُهُمْ لَمْ تُمْسِكْ مِنْ بَعْدِهِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١﴾﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٢﴾﴾ [القصص: ٥٨] ، أي : منهم ، فلم يخلفهم وارثاً يرث منازلهم ، وأموالهم ، وسائر ذات أيديهم ، فلا يملك التصرف فيها أحد غيرنا (٢).

(١٠) وهو سبحانه خير الوارثين: الذي يورث من يشاء من الخلق الولد ، بعد أن كان "فرداً وحيداً بلا عقب" (٣) ، كما قال سبحانه عن زكريا عليه السلام : ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿١﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩] ، أي : أنت خير الباقيين ، وخير من خلفني بخير (٤).

جلال الوارث

الأول: من جلاله: أنه سبحانه يورث من اصطفاهم لمحبتة ، واجتباهم لكرامته ، أجلّ ميراثه في الدنيا ، وهو كتابه ، قال تعالى : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴿١﴾﴾ [فاطر: ٣٢] ، وينعم على من يشاء منهم في حفظه واتباعه ، أعلى الدرجات في جنّاته ، قال ﷺ : «يقال لصاحب القرآن ، اقرأ ، وارتق ، ورتّل كما كنت ترتّل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها» (٥).

الثاني: ومن جلاله: أنه هو الذي لا يرثه أحد ، ولكن يمنح من يشاء من العباد الولاية ، والمدد (٦).

الثالث: ومن جلال الوارث سبحانه: أنه يورث الحواس والقوى للعبد ، فيقيها صحيحة وسليمة له في الجسد ، ويخص بعضها بالبقاء والسلامة إلى آخر الأمد ، كان من دعاء سيد الخلق ﷺ : «... ومتعنا بأسماعنا ، وأبصارنا ، وقوتنا ما أحييتنا ، واجعله الوارث منا» (٧).

(١) انظر: «تفسير السعدي» (٧٤٠).

(٢) انظر: «الشوكاني» (٢١٧/٤) ، و«تفسير النسفي» (٨٧٥) ، و«تفسير أبي السعود» (١٣٠/٥) ،

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (٢٧٧/٥).

(٤) «تفسير السعدي» (٥٣٠).

(٥) «صحيح الترمذي» (٢٩١٤).

(٦) انظر: «موسوعة الشريافي» (٤٥٣/١).

(٧) «صحيح الترمذي» (٣٥٠٢) ، و«صحيح الجامع» (١٢٦٨).

الرابع: ومن جلاله: "أنه تعالى لا يستعصي عليه ميراث أحد وإن عظم، ولا تأخر عن مراده لحظة واحدة وإن ضخّم، قلت شعري! أين أولئك الجبارون، وكيف خلا دورهم، وعطل قصورهم؟ المتكبرون أفتتهم والله كؤوس الحمام، منوعة أشربة المصائب العظام، وأذلتهم مصارع الأيام، بقوة العزيز العلام، فيا ويح من لم يعتبر بأيامهم، ولم يزدجر عن مثل أمثالهم" (١).

الثمرات

ينبغي أن يعلم كل مؤمن أن عمله الصالح هو خير ميراثه، وهو الميراث الحقيقي، الذي يبقى ولا يفنى، الذي يورثه جنات الله العلا، قال الله العظيم: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مرم]، وقال عزّ شأنه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [الزّكّٰر] الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ [مرم].

فعلى العبد أن "يجتهد أن يكون وارثاً للجنة بالأعمال الصالحة، إذ لا بد أن يكون موروثاً فيقدم ماله بين يديه، ليجده أحوج ما يكون إليه، ولا يدعه لغيره يتصرف فيه بغير أمره، قال عبد الله ﷺ، قال النبي ﷺ: «أَيُّكُمْ مَالٌ وَارِثُهُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ مَالِهِ؟» قالوا: يا رسول الله! ما منا أحد إلا ماله أحبُّ إليه من مال وارثه!، قال رسول الله ﷺ: «اعلموا أنه ليس منكم أحد، إلا مال وارثه أحبُّ إليه من ماله، مالك ما قدمت، ومال وارثك ما أخرت» (٢) (٣).

واعلم يا رعاك الله: أن من أجلّ وأسمى الأعمال: مجالسة العلماء، والأخذ منهم العلوم من كل الأنواع، فهم ميراث الأنبياء، قال ﷺ: «إِنَّ الْعُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، إِنْ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يَوْرَثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ، أَخَذَ بِحِظِّ وَافِرٍ» (٤).

وينبغي للعبد أن يتّقي الله تعالى في حقوق الإرث، فلا يظلم من الورثة أحداً، وأن يسأل ربه تعالى أن يورثه، ويبقي له سمعه وبصره، لينتفع به في دنياه، ودينه، «اللهم أمتعني بسمعي وبصري، واجعلهما الوارث مني» (٥).

(١) انظر: «نظم الدرر» (٥٠٦/٥).

(٢) «صحيح النسائي» (٣٦١٢)، و«البخاري» (٦٤٤٢).

(٣) «الأسنى» (١٨١).

(٤) «صحيح ابن ماجه» (٢٢٣).

(٥) «صحيح الترمذي» (٣٦٠٤).

٧٩- الله ﷻ الحسيب ﷻ جل وعلا

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٨٦] .

المعنى اللغوي

الحسيب: من صيغ المبالغة، من اسم الفاعل الحاسب، وهو الموصوف بمحاسبة غيره، والحساب هو: ضبط العدد، وبيان مقادير الأشياء المعدودة، ويُطلق على: المحاسب، والكافي، والشرف، ورفعة الشأن، والكرم، والحفظ، والشهادة، والرقابة.

الأول: المحاسب على الشيء، الموافق عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦]، أي: محاسبًا.

الثاني: الكفاية، وسدُّ جميع الخُلة، يقال: "أحسبني الشيء" إذا كفاني، وتقول: "أعطاني فأحسبني"، معناه: حتى قلت: حسبي، أي: كفاني، ومنه قوله تعالى: ﴿عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ [النبا: ٣٦]، أي: كافيًا.

الثالث: الشريف، الرفيع الشأن، الذي له خصال الشرف، والفعال الصالح، فعلى هذا الحسب لله تعالى، بمعنى أن صفات المجد، والشرف، ونعوت الكمال والجلال ليست إلا له تعالى، ومنه يقال: "فلانٌ حسيب"، أي: معروف له أجداد كرامٌ، و"قومٌ حُسباء"، أي: أشرف.

الرابع: الكرم، ومنه قولهم: "ما حسبوا ضيفهم" أي: ما أكرموه.

الخامس: العالم، ومعنى هذا الكلام الشهود، فإذا قال الرجل للرجل: "حسبك الله"، فمعناه: الله عالم بظلمك ومجازٍ لك عليه^(١).

(١) «لسان العرب» (٨٦٣/٢)، «النهاية» (٢٠٦)، و«تفسير الأسماء» (٤٩)، و«اشتقاق أسماء الله» (١٢٩)، «القاموس المحيط» (٣٨٧)، «شرح صحيح مسلم» للنووي (٣٨٨/٧)، و«شرح الأسماء» للرازي (٢٧٥)، و«الأسنى» (٥٠٢).

السادس: الحفيظ^(١)، السابع: الشهيد^(٢)، الثامن: الرقيب^(٣).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الحسب الذي هو وحده حسب كل أحد، وله الشرف المطلق الغير مكتسب من أي أحد^(٤):

(١) فهو الكافي ﷻ جميع عباد، كل ما إليه يحتاجون، الدافع عنهم كل ما يكرهون، فكفايته سبحانه لعباده نوعان:

الأولى: كفاية عامة: فقد كفى تعالى جميع المخلوقات وقام بإيجادها، وإرزاقها، وإمدادها، وإعدادها، لكل ما خلقت له، وهياً للعباد من جميع الأسباب ما يغنيهم، ويقنيهم، ويطعمهم، ويستقيهم.

الثانية: كفاية خاصة: لعباده الموحدين، المخلصين له في العبودية، بالنصر والتمكين، الدافع عنهم في كل ما يكرهون، الكافي لكل أمورهم في الدنيا، والدين، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال]، أي: كافيك وكافي أتباعك.

وأخص من ذلك: أنه ﷻ الحسب للمتوكلين، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، أي: كافيه كل أموره الدينية والدنيوية، فيغنيه عن كل ما سواه من البرية، فكفاية الله تعالى لعبده، بحسب ما قام به من متابعة الرسول، ظاهراً وباطناً، وعلى قدر قيامه بعبودية الله تعالى تكون الكفاية، والعزة، والنصرة^(٥).

(٢) وهو الحسب: المحاسب لكل الخلائق، يوم يردون إليه، على أعمالهم، ومجازيهم عليها بميزان الحق والعدل والفضل، وقد أحصى منهم كل شيء عدداً، لا تخفى عليه خافية، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذَلِكَ فَنُفِثْ بِهِنَّ فِي يَوْمٍ كَانَ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مِنْهُ شَأْنًا﴾ [الأنبياء]

(١) صح عن مجاهد ﷺ، انظر «التفسير الصحيح» (٨٧/٢).

(٢) صح عن السدي ﷺ، المصدر السابق (١٠/٢).

(٣) انظر: «ابن كثير» (١٥٥/٢).

(٤) انظر: «المقصد الأسنى» (٧٢)، و«الأسنى» (٥٠٣).

(٥) ينظر: زاد المعاد (٣٦ - ٣٧)، «فتح الرحيم الملك» (٤٥)، «الحق الواضح» (٧٨).

(٣) وهو تعالى المحيط بالأجزاء والمقادير، التي يعلم العباد أمثالها بالحساب، من غير أن يحسب ﷻ، فعلمه لا يتوقف على أمر يكون، أو حال حادث^(١).

(٤) والله ﷻ الحسيب: الكريم، الرفيع الشأن، عظيم المجد، والنعوت، من صفات الجلال، والكمال، "له الشرف المطلق غير مقيد بشيء، ولا يكتسب من شيء"^(٢).

(٥) وهو تعالى الحسيب: الذي يحصي أعداد المخلوقات، وهيئاتها، وما يميزها، ويضبط مقاديرها وخصائصها، ويحصى أعمال المكلفين، في مختلف الدواوين^(٣)، قال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مرم]. فهو سبحانه ميز صالح العمل من فاسده، وحسنه من قبيحه، وعلم ما يستحق من الجزاء، ومقداره من الثواب، والعقاب^(٤).

(٦) وهو الحسيب جل شأنه: محسوب عطايه، وفواضله التي لا تُحصى ولا تُعد^(٥)، في الدنيا لكل أحد، وفي الجنة لأوليائه فقط، ليس لها منتهى ولا أمد، قال الله تعالى: ﴿جَزَاءٌ مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ [النبا]، "عطاءً حساباً، أي: كافياً، وافياً، شاملاً، كثيراً"^(٦).

(٧) والله تعالى هو: ﴿أَسْرِعُ الْحِسَابِ﴾ [الأنعام: ٦٢]، لا أحد أسرع حساباً منه سبحانه، فهو أسرع من حسب من عددكم، وأعمالكم، وآجالكم، لأنه لا يحسب بعد، ولا بعقد يد، كما تفعله الحساب، فلا يشغله حساب أحدٍ عن أحد، بل يحاسب الخلق بعد بعثهم وجمعهم في لحظة، كما أن خلقه وبعثه كنفس واحدة، قال سبحانه: ﴿مَّا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَنٍ وَجَدَةٍ﴾ [لقمان: ٢٨]^(٨).

(٨) ومن كمال حسيبه سبحانه: أنه البالغ في حسابه الغاية القصوى، وكافياً من أراد كفايته كل من أراده بسوء، قال تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩]^(٩).

(٩) فهو الكافي وحده سبحانه: وإن تصوّر من الخلق كافٍ، فالكفاية له لأنه سبحانه هو

(١) «الأسماء والصفات» للبيهقي (٢٧/١). و«الطبري» (١٤٠/٧).

(٢) «الأسنى» (٥٠٣).

(٣) «أسماء الله الحسنى» د. رضواني (٦٢١).

(٤) «فتح الرحيم الملك» (٤٦).

(٥) «تفسير الأسماء» (٤٩).

(٦) صح عن قتادة في قوله تعالى: ﴿عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ أي: عطاء كثيراً. انظر «التفسير الصحيح» (٥٨٤/٤).

(٧) «ابن كثير» (٦٢١/٤).

(٨) «ابن جرير» (١٤٠/٧). و«الأسنى» (٢٠٨/١).

(٩) «نظم الدرر» (١١١/٦).

المسخر له ، الميسر له^(١).

(١٠) وهو الحسب سبحانه: الكافي عن الشهود، ومن ذلك: الذي يشهدهم والي اليتيم على دفعه مال يتيمة إليه ، قال تعالى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦]^(٢).

(١١) وهو الحسب سبحانه: ذو العذاب الأليم الشديد ، لمن طغى وعصى من القرون الغابرة من العتيد ، قال تعالى: ﴿وَكُلِّينِ مِن قَرْيَةٍ عَنَّتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسلُهُ فَحَاسَبْنَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَهَا عَذَابًا ثَكْرًا﴾ [الطلاق: ٨].

(١٢) فهو تعالى المحاسب لكل العباد في الدنيا والآخرة على أعمالهم ومجازيهم عليها بحسب حكمته ، وعلمه بدقائق أعمالهم وجليلها ، فحسابهم على الخير والشر يقع بمثاقيل الذر ، قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيبًا﴾ [النساء: ٦] ، وقال ﷺ: ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]^(٣).

جلال الحسب

الأول: من جلال الحسب سبحانه: "أن جلالة لا يُحصى ، وثناؤه لا يستقصى ، كما قال خير الورى ﷺ: «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ»^(٤)»^(٥).

الثاني: ومن جلالة: أن من كان هذا الاسم المبارك حسبه وملجأه عند شدائده ، كان الله ﷻ حسيبه ، وعند حسن ظنه ، فيكفيه جميع ما يهّمه في أمور معاشه ، ومعاده ، وفي كل أحواله ، قال تعالى: ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] ، قالها إبراهيم ﷺ حين ألقى في النار ، وقالها نبينا محمد ﷺ حين اجتمع عليه الكفار ، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]^(٦) ، فكفاه الله تعالى وصحبه ، كل الأشرار ، ونالوا السلامة في هذه الدار ، وحسن العاقبة ، في دار القرار .

الثالث: ومن جلال الحسب تعالى: أنه سبحانه وحده حسب كل أحد ، وليس في الوجود

(١) «الأمم الأقصى» (٤٢٠/١).

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٤٠٠/٢).

(٣) انظر: «الحجة في بيان المحجة» (١٥٦/١) ، والطبري (١٨٢/٦) ، و«الأمم الأقصى» (٤٢٠/١).

(٤) مسلم (٤٨٦).

(٥) انظر: «الأمم الأقصى» (٤١٩/١).

(٦) «صحيح البخاري» (٤٥٦٣).

شيء وحده، هو حسب شيء سواه، بل الأشياء يتعلق بعضها ببعض، وكلها تتعلق بقدرة الله تعالى^(١).

الرابع: ومن جلال الحسيب: أنه سبحانه يكفي بفضلته، ويصرف الآفات بطوِّله، وهو الذي إذا رفعت إليه الحوائج قضائها، وإذا حكم بقضية أبرمها، وأمضاها^(٢).

الخامس: ومن جلاله: أنه عدّد عليك نعمه، ليريك منته عليك، لما كفرت بها، وتوليت، فلم يؤاخذك لحلمه وكرمه، وبما هو كافيك عن كل شيء^(٣).

السادس: ومن جلال حسبه سبحانه: أنه ليس في الوجود حسيب سواه، وكلهم في ظل حماه، فهو السيد الذي عليه الاعتماد، الذي انتهى إليه كل شرف في الوجود، وإلى جنبه كل مجد يعود^(٤).

السابع: ومن جلال حسبته: أنه يعد عليك أنفاسك، ويصرف بفضلته عنك بأسك^(٥).

الثمرات

إن هذا الاسم الجليل يثمر للعبد مراقبة لحاله، وجميع شؤونه، ومحاسبة لنفسه في كل ما يقوله، ويفعله، كما يثمر له الطمأنينة والثقة في أن الله تعالى كما أنه يجازي عباده بالخير والشر، بحسب حكمته وعلمه، بدقيق أعمالهم وجليلها، فإنه كافي المتوكلين عليه، الذين فوّضوا أمورهم إليه، فلم يحتاجوا معه إلى أحد^(٦) سواه، "فينبغي للإنسان أن يسعى في خلاص نفسه، ونجاة مهجته، وإنما يخف الحساب في الآخرة، على من حاسب نفسه في الدنيا"^(٧).

وأن يكون الله تعالى هو حسب العبد بعد همّته وإرادته، فلا يريد إلا الله ﷻ، ولا يشغل قلبه بما سواه، ولكن يستغرق الهم بالله ﷻ وحده^(٨).

(١) انظر: «المقصد الأسنى» (٧٢)، فله شرح مبسوط جميل للغاية.

(٢) «شرح الأسماء» للرازي (٢٧٥).

(٣) «الفتوحات الربانية» (٦٤/٧).

(٤) انظر: «موسوعة الشرياصي» (٢٢٠/١).

(٥) «شرح الأسماء الحسنى» للرازي (٢٧٥).

(٦) «منهج ابن القيم في شرح أسماء الله الحسنى» (٣٦٧).

(٧) «الأسنى» (٢١٠/١).

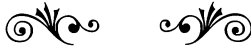
(٨) «المقصد الأسنى» (٨٢).

وإذا علمت يا رعاك الله تعالى أن ربك الحسيب حسيب على كل جليل ودقيق ، ومن ذلك :
الذرة ، كما قال سبحانه : ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨] ، "فانظر ما مثقال الذرة ، وأنت محاسب عليها فيما تأخذه وتعطيه مأخوذ منك ، ومحسوب لك تعطاه من غيرك ، وغيرك يعطاه منك ، فليكن بحسب هذا إشفافك ، وخوفك ، وليحذر أهل الغفلة عن النظر في مثاقيل الذرة ، وفقنا الله لما يرضى من القول ، والعمل" (١).

وإذا علم العبد أن ربه تعالى كافيه لم يرفع حوائجه إلا إليه ، فالله سبحانه سريع الإجابة لمن انقطع إليه ، وتوكل في جميع أحواله عليه ، لا سيما إذا كانت حاجته في حق الله محضاً ، لأنها إذا كانت في حق نفسه ربما يتأخر قضاؤها .

ومن علم كذلك أن الله تعالى كافيه لا يستوحش من إعراض الخلق ، ولا يستأنس بقبولهم ، ثقة منه بأن ما قسمه له ربه لا يفوته وإن أعرضوا ، وإذا كان الله لا يريد وصوله إليه لا يصل إليه وإن أقبلوا ، فإذا دامت هذه الحالة أرضاه مولاه بما يختاره له ، (فقد) يؤثر الفقر على الغنى (٢).

ومن عبودية هذا الاسم الكريم : أن يرعى [العبد] كفاية الله تعالى له ، [كما كان رسول الله ﷺ يقول إذا آوى إلى فراشه] : «الحمد لله الذي أطعمنا ، وسقانا ، وكفانا ، وآوانا ، فكم من لا كافي له ، ولا مؤوي» (٣) . ويجب عليه أن يُعطي كفاية من يُؤمّنه ، قال ﷺ : «كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يقوت» (٤) (٥).



(١) «الحجة في بيان المحجة» (١٥٧/١) .

(٢) «موسوعة له الأسماء الحسنی» (٢٢٢/١) .

(٣) «صحيح أبي داود» (٥٠٥٣) .

(٤) «صحيح أبي داود» (١٦٩٢) .

(٥) «الأسنى» (٥٠٤) .

٨٠-٨١- الله القابض الباسط تبارك وتعالى

ثبت هذان الاسمان الكريمان في السنة المطهرة ، قال ﷺ: «إن الله هو المُسَرُّ ، القابض الباسط»^(١).

المعنى اللغوي

القابض: اسم (فاعل) للموصوف بالقبض ، والقبض: خلاف البسط ، ويطلق على التقتير والتضييق ، والقبض أيضاً: الأخذ بجميع الكف ، والقبض: بأطراف الأصابع ، فهو يدل على الجمع ، كما في: قبض الله السموات والأرض ، فقبض اليد على الشيء جمعها بعد تناوله ، ويقال: صار الشيء في قبضتك ، أي: في ملكك^(٢).

الباسط: اسم (فاعل) للموصوف بالبسط ، والبسط: نقيض القبض ، وهو بمعنى: الشرح ، وبسط الشيء: نشره ، وتوسيعه ، والبسطة في كل شيء: السعة ، ويطلق البسط على التوسعة في الرزق والإكثار منه ، وعلى الطول والفضل .

وقد يستعمل هذان الاسمان في الجود ، والبخل ، يقال: "فلان مبسوط اليد" ، إذا كان واسع العطاء ، كثير الخير ، سخياً ، وفلان مقبوض اليد على الضد من ذلك .

وقد يستعملان بمعنى الاقتدار والقهر ، ومنه قوله تعالى: ﴿لَيْنٌ بَسَطَتْ إِلَىٰ يَدِكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ﴾ [المائدة: ٢٨] ، ومنه قول العرب: "يدك الباسطة عليّ" ، يريدون بذلك: الاقتدار على الغير ، وفي نقيضه قبض اليد عن الغير ، فالله سبحانه يقبض ويبسط أي: يعطي ويمنع ، ويغلب ويقهر ، فهو سبحانه يقبض الجميع ويبسطه^(٣) ، ويكنى بالموت عن القبض ، نحو: قبضه الله^(٤).

(١) «صحيح الترمذي» (١٣١٤).

(٢) «المفردات» (٦٥٢) ، «اللسان» (٣٥١٢/٦ - ٣٥١٤) ، «الصحاح» للجوهري (٨٣٤).

(٣) «المفردات» (١٢٢) ، و«عمدة الحفاظ» (٢٦٦/٣) ، و«لسان العرب» (٢٨٢/١ - ٢٨٤) ، و«الجوهري» (٩١) ، «شرح الأسماء» للإشبيلي (٢٠٥/٢) ، و«الأمد الأقصى» (٤١٧/٢) ، و«الأسنى» (٣٦٠/١ - ٣٦٣).

(٤) «تفسير البغوي» (٢٩٥/١).

المعنى الشرعي

الله تعالى هو القابض الباسط لجميع مصالح الدنيا والآخرة في التفصيل والجملة^(١):

(١) فهو الذي ييسط الرزق لمن يشاء من عباده، ويوسّعه عليهم بجوده ورحمته، قال تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، ويقبضه عن يشاء حتى لا تبقى طاقة، بكمال القدرة، والعدل، على حسب ما تقتضيه حكمته، وما يليق بأحوال عباده.

وإذا زاده تعالى لم يزد سرفاً ولا بخلاً، وإذا أنقصه لم ينقصه عدماً ولا بخلاً. ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]، ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَعَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُّنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٧].

(٢) وهو الذي يقبض الصدقات من الأغنياء، ويسط الأرزاق للضعفاء بأن جعلهم مصب الصدقات والزكوات، ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ١٠٤].

(٣) وهو الذي يأخذ الصدقة بكفه اليمنى فيمنحها، قال ﷺ: «ما تصدق أحدٌ بصدقة من طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرّة، فتربو^(٢) في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل»^(٣).

(٤) ويقبض الأرواح عن الأشباح عند الممات، ويسط الأرواح في الأجساد عند الحياة، قال ﷻ: «إن الله تعالى قبض أرواحكم حين شاء، وردّها عليكم حين شاء»^(٤).

(٥) وهو الذي يقبض القلوب فيضيّقها بدلائل الخوف والرجاء، حتى تصير حرجاً كأنها تصعّد في السماء، ويبسطها بما يفيض عليها من معاني برّه ولطفه وجماله، فتبقى منشّرة، قال سبحانه: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥]^(٥).

(١) انظر: «الأسنى» (١/٣٦٠).

(٢) تنمو وتزداد.

(٣) مسلم (١٠١٤).

(٤) البخاري (٥٩٥).

(٥) انظر المعاني السابقة: «الحجة في بيان المحجة» للأصبهاني (١/١٤٠)، و«المقصد الأسنى» (٨٢)، «شأن الدعاء» =

(٦) وهو القابض سبحانه: الذي يقبض بعض النفوس فلا تنشط لفعل الخيرات ، وهو الباسط: الذي يبسط لبعضها فتقدم على الخيرات^(١).

(٧) والله ﷻ يقبض ويبسط بيديه الكريمتين ، على الحقيقة^(٢) لمن شاء من الخليفة ، من ذلك:
(أ) الأرض والسموات العلية ، قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] ، قال ﷻ: «يأخذ الجبار ﷻ سماواته وأرضه بيديه ، فيقول: أنا الله (ويقبض أصابعه ويبسطها) أنا الملك»^(٣).

(ب) ذرية الخليفة: كما في حديث مخاطبة الرب ﷻ لآدم ﷺ ، وفيه: «... فقال الله له ، ويداه مقبوضتان: اختر أيهما شئت ، قال: اخترت يمين ربي ، وكلتا يدي ربي يمين مباركة ، ثم بسطها ، فإذا فيها آدم وذريته»^(٤).

(٨) وهو تعالى يبسط يده بالتوبة لمن أساء ، وهو الذي يملي للعصاة فيجعلهم بين الخوف والرجاء^(٥) ، قال ﷻ: «إن الله ﷻ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها»^(٦).

(٩) ويبسط يديه لمن سأله ودعاه ، في كل ليلة ، قال ﷻ^(٧): «... ثم يبسط يديه ﷻ ، يقول: من يقرض غير عدوم ولا ظلوم»^(٨).

= (٨٥٧) ، و«المنهاج» (٢٠٣/١) و«شرح مصابيح السنة» للرومي (١٠٣/٣) ، وشرح الهراس للنونية (١٠٤/٢) ، «تيسير الكريم المنان» (٤٩٠/٥) بتصرف .

(١) انظر: «تفسير البغوي» (٢٩٥/١).

(٢) على الكيفية التي تليق بجلاله وكماله ، وبسط اليد وقبضها في حقنا معلوم المعنى والكيفية ، أما في حق الله فمعلوم المعنى مجهول الكيفية . «أسماء الله الحسنى» للرضواني (٥٥٩).

(٣) «مسلم» (٢٧٨٨).

(٤) «صحيح الترمذي» (٣٣٦٨) ، وقال ﷻ: «إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود ، وبين ذلك السهل والحزن والخبيث والطيب» ، المصدر السابق (٢٩٥٥).

(٥) انظر: «أسماء الله الحسنى» في الكتاب المقدس (٣٤١) ، وانظر: «معالم التنزيل» (٢٩٥/١) .

(٦) «مسلم» (٢٧٥٩).

(٧) كما في حديث نزول الرب ﷻ إلى السماء الدنيا كل ليلة .

(٨) «مسلم» (٧٥٨) ، وقال ﷻ: «... ثم يبسط يده فيقول: هل من سائل يُعطى سؤله ، فلا يزال كذلك حتى يطلع الفجر» ، رواه أحمد (٢٦٧٦٣) ، صححه شعيب الأرناؤوط (١٩٢/٦).

(١٠) وهو تعالى الموسع لمن يشاء في العلم، والخِلقة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، ويضيقة خلاف ذلك، على من يشاء، ابتلاءً وحكمة.

(١١) وهو الذي ييسط ويقبض الظلال والأنوار، وما يترتب على ذلك من اختلاف الليل والنهار، وتعاقب الفصول طول العام، وحصول المصالح والمنافع لكل الأنام، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [البقرة: ٢٤٧] ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿[الفرقان]﴾^(١)، قوله: (مدّ الظل)، يعني: بسط الظل من وقت الإسفار، إلى وقت طلوع الشمس، وهو ظل الشمس معه (ثم قبضناه) أي: ذلك الظل الممدود، (إلينا) أي: إلى الجهة التي نريدها، لا يقدر أحدٌ غيرنا، أن يحوله إلى جهة غيرها^(٢).

(١٢) وهو الباسط: الذي ييسط بالخلف والثواب، وهو القابض: الذي يقبض عنها العوض والجزاء، قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥] ^(٣).

(١٣) وهو سبحانه يقبض بيده الكريمة، فيعتق أقواماً من النار، لم يعملوا خيراً البتة، قال ﷺ: «... فيقول الله تعالى: شفعت الملائكة، وشفع النبيون، وشفع المؤمنون، ولم يبق إلا أرحم الراحمين، فيقبض قبضة من النار، فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيراً قط»^(٤).

(١٤) وهو الذي ييسط السحاب في السماء كيف يشاء فيجعل بعضه منبسطة يأخذ وجه السماء مرة، ويجعله قطعاً متفرقة غير منبسطة مرة^(٥)، فينزل من خلاله الخير بشارةً للعباد، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ حَلَالِهِ ۚ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الروم: ٤٨].

(١٥) "والله ﷻ يقبض بالتحريم، ويبسط بالإباحة"^(٦).

(١) «تفسير ابن السعدي» (٥٨٤) بتصرف.

(٢) «فتح البيان» (٣١/٥)، و«نظم الدرر» (٣٢٤/٥).

(٣) انظر: «تفسير البغوي» (٢٩٥/١).

(٤) «البخاري» (٧٤٣٩)، و«مسلم» (٤٥٤).

(٥) «تفسير النسفي» (٩١١).

(٦) «تفسير أبي المظفر السمعاني» (٢٤٨/١).

(١٦) وهو الذي قبض من أعدائه أرزاقهم من الجنة ومنزلهم^(١)، وهو الذي بسط لأوليائه في الجنة من النعيم المقيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

(١٧) وبالجملة: فهو تعالى يقبض الجميع ويبسطه، الذي يبسط القلوب، والألسنة، والأيدي، وسائر الأسباب^(٢) الجلية والخفية، المعاشية والأخروية، ويقبضه خلاف ذلك في سائر الأسباب.

والكمال المطلق لله تعالى يكون باجتماع هذين الاسمين الكريمين عند الثناء والدعاء^(٣).

جلال القابض الباسط

الأول: إن جلال هذين الاسمين لا يستطيع أحد أن يحصي جلالهما، وكمالهما، وقدرهما إلا الله رب العالمين فهما "يختصان بمصالح الدنيا والآخرة، قال الله العظيم: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنْزِلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى]، وذلك يتضمن قوام الخلق باللطف، والخبرة، وحسن التدبير، والتقدير، مع كمال القدرة، والعلم بمصالح العباد، في التفصيل والجملة، وبحسب ذلك يرسل الرياح ويسخر السحاب فيمطر بلداً ويمنع غيره، ويقل ويكثر، وكذلك يصرف الأسباب إلى آحاد العباد، فهو تعالى يُصَرِّف جملة العوالم، لجملة العالمين"^(٤).

الثاني: ومن جلالهما: أنه سبحانه (يقبض) ويبسط القلوب، والألسنة، والأيدي، وسائر الأسباب^(٥)، وزمام كل الأشياء، من حركات وسكنات، ليظهر للعباد أنواع حكمه، وفنون هدايته، والتي ترجع إليهم بالنفع وعوائد الحسن والبهاء، في الدنيا ويوم التناد.

فمن ذلك: أنه سبحانه: "يقبض العقل فلا يفهم، والقلب فلا (ينعم)، والصدر فلا يفرح، والرزق فلا يمنح، والروح فلا (تسرح)، والنفس فلا تمرح، فلا يفر من حكمه وقضائه خلق من خلقه، حكيم في فعله، وتقديره جل ثناؤه"^(٦).

(١) «شرح أسماء الله» لابن برجان (٢٧٨/٣).

(٢) «الأسنى» (٣٦٣/١).

(٣) «شأن الدعاء» (٥٧)، و«شرح الأسماء الحسنى» للرازي (٢٤١)، و«الحق الواضح» (٨٩).

(٤) «الأسنى» للقرطبي (٣٦٠/١) بتصرف يسير.

(٥) «الأسنى» (٣٦٣/١).

(٦) حاشية «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي العباس البرنسي (٥٣).

فيقبض الأرواح فتكون غيرها عُدّة واستعداداً ليوم المعاد، ويقبض الأرزاق فتقبل العباد إلى بذل الأسباب، والخلوص إليه سبحانه وحده بالسؤال والدعاء، ويقبض القلوب فيضيّقها، فترجع إليه بالأوبة والرجاء، ويبسط النعم والآلاء، فتلهج الألسنة إليه بالشكر والثناء، فالقبض في الظاهر بلية، ولكن في باطنه عين العطية، والبسط سعة كأنه سرف، ولكنه عين الحكمة والروية.

فالقبض والبسط من أعظم نعم الله تعالى للبرية، ليريهم من آثار ومقتضيات أسمائه وصفاته العلية، من ذلك: أنهم يرون في قبضه: حقاً، وعدلاً، وحكمة، وفي بسطه: جوداً، وكرماً، وفضلاً.

الثالث: ومن جلال القباض والباسط سبحانه: أنهما يدخلان في جميع أنواع التدبير، وتصيير المقادير، في كل صغير وكبير، في الدنيا ويوم المصير، فجعل كل واحدٍ منهما قريناً للآخر، "فالمنع كله قبض، والعطاء كله بسط، يقبض عن عبده محبوباته، ويبسط له في الآخرة، وقد بسط له ليقبض عنه في تلك، (فهناك) البسط على الحقيقة.

فالْبُؤْس قبض، والنعيم بسط، كذلك الفقر مع الغنى، والموت مع الحياة، والخوف مع الرجاء، والحزن مع السرور، والغضب مع الرضا، والوحشة مع الأنس، والفيض مع القبض، وزيادة الليل مع نقصان النهار، وزيادة النهار، والظل مع الشمس، والجذب مع الخصب، والمحاق كله مع الزيادة كلها، وكذلك الكفر مع الإيمان، والنفاق مع الإخلاص، والشرك مع التوحيد، والمعصية مع الطاعة، والسقم مع الصحة، وأنواع الشر كلها قبض وغلق، وأنواع الخير كلها بسط وفتح، إلا ما شاء الله تعالى من ذلك" (١).

الثمرات

إن ثمرة معرفة هذين الاسمين الكريمين أنها تثمر للمؤمن: الخوف من قبض منافع الدنيا والآخرة، ورجاء بسط الخيرات العاجلة والآجلة.

ومن عبوديتهما: أن تبسط برك ومعروفك على كل محتاج حتى على الدواب، والكلاب، والذر، كما قال ﷺ: «في كل كبدٍ رطبة أجر» (٢)، وأن تقبض عن كل أحد ما ليس له أهلاً، من

(١) «شرح أسماء الله الحسنى» للإشبيلي (٢/٢٠٦).

(٢) «البخاري» (٢٣٦٣)، «مسلم» (٢٢٤٤).

مالٍ وعلمٍ، وحكمة^(١).

وإذا بسط الله عليك من العلوم، والمعارف، والهدى، فابسط قلوب العباد بما آتاك الله، "وذكرهم من آلاء الله ونعمائه، واقبض بما تنذرهم به من جلال الله تعالى، وكبريائه، وفنون عقابه، وعذابه، وبلائه، وانتقامه من أعدائه"^(٢).

وإن كنت ذا بسط في الجسم فابسطه في العبادة التي تقضي بك إلى السعادة، وفي الصولة على الأعداء، بما خولت من المنة والشدة.

وإذا كنت ذا بسط في المال فابسط يدك بالعطاء، وأنزل ما على مالك من الغطاء، ولا توك^(٣) فيوكي الله عليك، ولا تحصي فيحصي الله عليك.

واعلم أن أعظم البسط: بسط الرحمة على القلوب التي تستضيء وتخرج من ضر^(٤) الذنوب، وإن كنت لم تنل حظاً من هذه البسطات، فابسط قلبك لأحكام ربك، ولسانك لذكره، وشكره، ويدك لبذل الواجبات عليك، ووجهك للخلق^(٥).

وإذا علم المكلف أن القبض والبسط بالله، انقطع نظره عن مال الدنيا، وبقي اعتماده على الله، فحينئذٍ يسهل عليه الإنفاق في مرضاة الله^(٦)، وهذا عين فلاحه ونجاحه.

واعلم رحماني الله وإياك أن من "جملة التعبد بمقتضى هذين الاسمين: الرضا بالقضاء، واجتناب الضجر في حال القبض، والتحرز من مفارقة الأدب في حال البسط، وهو الإدلال، فالله تعالى غني عنك وعما منك من عمل، وهذا هو الذي خشيه الأكابر"^(٧).

وبالجملة أن "يلاحظ العارف منهما، فيراقب الحالين: فيرى القبض عدلاً من الله فيصبر عليه، والبسط فضلاً منه فيشكر"^(٨) عليه.

(١) انظر: «شجرة المعارف» (٩٢).

(٢) «المقصد الأسنى» (٨٢) بتصرف يسير.

(٣) أي: لا تدخر، ولا تمنع. «النهاية» (٩٨٨).

(٤) الوضر: الوسخ والقدر. «المصباح المنير» (٣٨٤).

(٥) «الأسنى» (٣٦٠/١، ٣٦٣).

(٦) «تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان» (٦٦٣/١).

(٧) «شرح الأسماء الحسنى» للإشيلي (٢٠٨/٢).

(٨) «شرح مصابيح السنة» للبيضاوي (٥٧/٢).

٨٢-٨٣- الله ﷻ المقدّم المؤخر ﷻ جل شأنه

كان من دعاء المصطفى ﷺ: «اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت»^(١).

المعنى اللغوي

المقدّم: اسم (فاعل) والتقدّم: السبق، والتقديم: ترتيب الشيء قبل غيره، وهو الذي يقدم الأشياء، ويضعها في مواضعها.

المؤخر: اسم (فاعل) وهو خلاف المقدّم، وهو تبعيد الشيء قبل غيره، وهو الذي يؤخر الأشياء، فيضعها في مواضعها^(٢).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو المقدّم المؤخر، من الزمان والمكان، والأحوال، والذوات، والأوصاف:

(١) فهو تعالى المنزل الأشياء منازلها، يقدم منها ما شاء، ويؤخر منها ما شاء في الخلق والرتبة، أو الرتبة دون الخلق، بكمال المشيئة، والعلم، والقدرة، والحكمة.

(٢) والرب حكيم في أفعاله، فما قدّمه، كان الكمال في تقديمه، وما أخره كان الكمال في تأخيره، ولا تعقيب لأحد من خلقه في تعقبه، ولا في تأخيره سبحانه.

(٣) قدّم المقادير قبل أن يخلق خلقه، وقدّم من أحبّ من أوليائه على غيرهم من عبده، ورفع الخلق بعضهم فوق بعض درجات، بعدله، وحكمته.

(٤) وهو المقدّم: الذي قدّم من شاء بالتوفيق إلى مقامات السابقين، وهو المؤخر: الذي أخر من شاء عن مراتبهم وثبطهم عن الصراط المستقيم.

(١) «مسلم» (٧٧١).

(٢) «اللسان» (٣٨/١)، (٣٥٥٢/٦)، و«تلخيص الأدلة» (٦١٥/٢).

(٥) فهو سبحانه يرفع من يشاء ، ويخفض من يشاء ، ويعزّ من يشاء ، ويذل من يشاء ، ويقرب من يشاء ، ويبعد من يشاء ، وهو العادل بين كل ذلك .

(٦) وهو ﷺ المقدّم: المعطي لعوالي الرتب ، وهو المؤخر: الدافع عن عوالي الرتب ، فمن قدم فقد نال المراتب العلى ، ومن أخر فقد ردّ إلى أراذل السفلى .

(٧) يقدّم مَنْ يشاء من خلقه إلى رحمته ، وتوفيقه ، ويؤخر من يشاء عن ذلك ، لخذلانه .

(٨) وهو المقدّم: الذي قرب أنبياء وأولياء بتقريبه وهدايته ، وهو المؤخر: الذي أخر أعداءه بإبعاده ، وضرب الحجاب بينه وبينهم سبحانه .

(٩) فهو تعالى يقدّم ما يجب تقديمه من شيء ، حكماً ، وفعلاً ، على ما أحبّ ، وكيف أحبّ ، وما قدمه فهو المقدم .

وهو الذي يؤخر ما يجب تأخير ، لعلمه بما في عواقبه من الحكمة ، وما أخره فهو المؤخر ، والحكمة والصلاح فيما يفعله الله تعالى ، وإن خفيت علينا الحكمة والصلاح فيه .

(١٠) فهو المقدّم المؤخر: على الإطلاق في الدنيا ويوم المعاد ، لا يشركه في ذلك أحد من العباد ، فلا مقدّم لما أخر ، ولا مؤخر لما قدّم^(١) .

جلال المقدّم المؤخر

الأول: من جلالهما: أن الله تعالى له جلال ، وكمال التقديم ، والتأخير الكوني ، والتقديم والتأخير الشرعي ، فالتقديم والتأخير الكوني: هو تقدير الله تعالى في خلقه ، وتكوينه ، وفعله ، كما في قوله تعالى: ﴿لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَفْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَغِيثُونَ﴾ [سبا: ٣٠] . كتقديم بعض المخلوقات على بعض ، وتأخير بعضها على بعض ، وكتقديم الأسباب على مسبباتها ، والشروط على مشروطاتها ، وأنواع التقديم ، والتأخير في الخلق ، والتقدير بحرّ لا ساحل له .

والتقديم والتأخير الشرعي: وهو متعلق بمحبّة الله ﷻ لفعل دون فعل ، وتقديم بعض الأحكام على بعض ، لما تقتضيه المصلحة التي تعود على العباد ، كتفضيل الله الأنبياء على

(١) ينظر: «شأن الدعاء» (٨٦) ، «تفسير أسماء الله» (٥٩) ، «المنهاج» (٢٠٧/١ - ٢٠٨) ، و«درء تعارض العقل والنقل» (٦١٥/٢) ، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (٤٠/١٧) ، و«الأسنى» (٣٧٣/١) ، و«الأمد الأقصى» (٤٨٥/١) ، و«تلخيص الأدلة» (٦١٥/٢) .

الخلق، وفضل بعضهم على بعض، وتفضيل بعض العباد على بعض، وأخر منهم من آخر، كتقديم الصالح على الطالح، والعالم على الجاهل، والطائع على العاصي، وأعمال دون أعمال^(١).

فهو جلّ شأنه المقدّم في الزمان، والمكان، والأوصاف الحسية، والمقدّم في الفضائل، والأوصاف المعنوية، والمؤخر لمن شاء من ذلك، وكل هذا تبع لحكمته العلية، وسننه الكونية، وللأسباب التي جعلها موصولة إلى مسبباتها، الدينية والدنيوية^(٢).

الثاني: ومن جلال المقدّم المؤخر سبحانه: "أنه رفع الحق وحزبه، وخفض الباطل وصحبه، ورفع الدين وشعاره، وخفض الكفر وآثاره، ورفع التوحيد ودليله، وخفض الإلحاد وسبيله، ورفع القلوب لتقريبه، وخفض النفوس لحكم تبعيده.

ورفع أوليائه بحفظ عهده، وحسن وده، وجميل رفده، وصدق وعده، وخفض الأعداء بصدّه، وردّه، وطرده، وبعده، ورفع من أتبع رضاه، وخفض من اتبع هواه"^(٣).

الثالث: ومن جلالهما: "أنه هو الذي قدّم من شاء بالتقوى والإنابة، والصدق والاستجابة، وأخر من شاء عن معرفته، وردّه إلى حوله وقوّته"^(٤).

الرابع: ومن جلال المؤخر سبحانه: أنه يؤخر العذاب بمقتضى حكمته ابتلاءً للعباد، لعلهم يتوبوا إليه قبل يوم الحساب، قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [النحل: ٦١]^(٥).

الخامس: ومن جلالهما: "أنه هو الذي قدّم الأحباء (لطااعته)، وأخر الفجار وشغلهم عن (طاعته)"^(٦).

والكمال المطلق في اقتران هذين الاسمين عند الثناء والدعاء^(٧).

(١) انظر: «الحق الواضح» (١٠٠)، «أسماء الله الحسنى»، د. الرضواني (٥٢٧ - ٥٣٥)، وانظر: «الأسنى» (٣٧٤/١).

(٢) انظر: «توضيح الكافية» (١٣١).

(٣) «الأسنى» (٣٦٧/١).

(٤) «لوامع البينات» (٣٢٥).

(٥) انظر: «أسماء الله الحسنى»، د. الرضواني (٥٢٧ - ٥٣٥).

(٦) «شرح أسماء الله الحسنى» للرازي (٣٢٥).

(٧) «شأن الدعاء» (٨٦)، و«الحق الواضح» (١٠٠).

الثمرات

إن الإيمان بأنه سبحانه هو المقدم والمؤخر، يثمر في قلب المؤمن التعلق بالله وحده، والتوكل عليه سبحانه، وعبودية الرضا والتسليم لرب العالمين، لأنه سبحانه لا مقدم لما آخر، ولا مؤخر لما قدم، فمهما حاول البشر من تقديم شيء أو تأخير شيء ولم يردده الله تعالى فلن يستطيعوا، وليعلم أن التقدم الحقيقي هو: التقدم في طاعة الله تعالى، والتأخر الحقيقي: يكون في معصيته، ولذا ينبغي المجاهدة في نيل هذا التقدم الحقيقي، الذي يعود نفعه في الدين والدنيا والآخرة، وترك كل ما يؤخر عن جنته ومرضاته^(١)، من الأقوال والأفعال، والأحوال.

فقد رأى ﷺ في أصحابه تأخرًا فقال لهم: «تقدموا فائتموا بي، وليأتم بكم من بعدكم، لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله ﷻ»^(٢)، وفي لفظ: «حتى يؤخرهم الله ﷻ يوم القيامة»^(٣)، وقال ﷺ: «لا يزال قوم يتأخرون عن الصف الأول، حتى يؤخرهم الله في النار»^(٤)، وقال ﷺ: «احضروا الجمعة وادنوا من الإمام، فإن الرجل لا يزال يتباعد حتى يؤخر في الجنة وإن دخلها»^(٥).

"وإذا كان هذا فحق الإنسان أن يقدم ما قدمه الله، ويؤخر ما أخر الله، فيعز من أعزه الله بطاعته من إخوانه المؤمنين، ويهجر من أذله الله بمعصيته، ثم إذا تاب عطف عليه" ^(٦).

ثم يجب عليه أن يراعي من أعماله ما تقدم وما تأخر، وترتيب مفترضاته ونوافله من الطاعات ومراتب المعاصي، فينزل كل رتبة في مكانها، فيقدم الأهم فالمهم، وما يقدم قبل مماته، وما يخلف من أعماله بعد وفاته^(٧).

وبالجملة: ينبغي للعبد أن يقدم ما يرضاه تعالى، ويؤخر نفسه عما لا يرضاه سبحانه^(٨).

(١) «الله الأسماء الحسنی» (٧٠٤، ٧٠٦) بتصرف.

(٢) «مسلم» (٤٣٨).

(٣) رواه أحمد في المسند (١١٢٩٢)، وقال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط مسلم» (٣٩٤/١٧).

(٤) صحيح أبي داود (٦٧٩).

(٥) رواه أحمد في «المسند» (١١١٤٢) وصححه شعيب الأرناؤوط (٢٢٦/١٧)، والألباني في «صحيح أبي داود» (٦٨٠).

(٦) «الأسنى» (٣٧٥/١).

(٧) انظر: المصدر السابق (١٧٩)، و«لوامع البينات» (٣٢٥)، و«حاشية شرح أسماء الله الحسنی وفوائدها» (١٠٨).

(٨) «شرح أسماء الله الحسنی وفوائدها وخصائصها» (١٠٨).

٨٤- الله المَنَّانُ تبارك وتعالى

ثبت هذا الاسم المبارك عن النبي ﷺ ، وذلك أنه سمع رجلاً يصلي ثم دعا فقال: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حيُّ يا قيُّوم» فقال ﷺ: «أتدرون بم دعا الله؟ دعا الله باسمه الأعظم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئِلَ به أعطى»^(١).

المعنى اللغوي

المَنَّان: من صيغ المبالغة على وزن (فَعَّال)، أي: كثير المنِّ والعطاء، وهو المتفضل^(٢)، والمنِّ: العطاء والإنعام مطلقاً، وهو صنع الجميل، وهو الإحسان إلى من لا يستثيبه، ولا يطلب عليهم الجزاء^(٣)، والمنَّة: النعمة الثقيلة، ويقال: ذلك على وجهين:

أحدهما: أن يكون بالفعل، فيقال: مَنْ فلانٌ على فلان إذا أثقله بالنعمة، ومننت على فلان إذا اصطنعت عنده صنعة، وأحسننت إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وذلك على الحقيقة لا يكون إلا لله ﷻ، فهو سبحانه منانٌ على عباده بإحسانه، وإنعامه، ورزقه إياهم.

والثاني: أن يكون ذلك بالقول، وهذا مستقبح فيما بين الناس إلا عند كفران النعمة.

ولقبح ذلك قيل: المنَّة تهدم الصنيعة، ولحسن ذكرها عند الكفران قيل: إذا كفرت النعمة حسنت المنَّة، وقوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، فالمنَّة منهم بالقول، ومنه الله عليهم بالفعل، وهو هدايته إياهم كما ذكر سبحانه^(٤).

(١) «صحيح أبي داود» (١٣٢٥).

(٢) «الأسماء والصفات» للبيهقي (٤٩/١).

(٣) وبذلك سمى الله تعالى ما كان ينزله على بني إسرائيل منّا، إذ كان ينزل عليهم من غير حراثة، ولا تجارة، ولا سعي، ولا كدح فيه.

(٤) «المفردات» (٧٧٧)، «اللسان» (٤٢٧٧/٧)، «النهاية» (٨٤٤)، و«اشتقاق أسماء الله» للزجاجي (١٦٤)، =

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو المَنَّان عظيم الإنعام على كل الأنام فهو تعالى:

(١) كثير الهبات والعطايا ، والإحسان ، الذي ينعم غير فاجر بالإنعام .

(٢) وهو المَنَّان سبحانه: الذي يبدأ بالنوال قبل السؤال ، وهو المعطي ابتداء وانتهاء ، ويمنُّ فوق الرجاء والآمال .

(٣) تعددت مننه ونعمه وآلؤه من كل صنوف الألوان ، فهي تدرُّ عليهم بحيث لا يحصيها ، ولا يعدّها إنس ولا جان .

(٤) له سبحانه المنة على جميع عباده بالخلق ، والرزق ، والصحة في الأبدان ، والأمن في الأوطان ، وإسباغه نعمه الظاهرة والباطنة^(١) في كل حين وزمان .

(٥) ومن تمام مننه على خلقه: أنه سبحانه لا يطلب الجزاء على إحسانه ، بل أوجب على نفسه تفضلاً منه وتكرماً ، حقاً عليه سبحانه ، دون إلزام أحدٍ من الأنام .

(٦) فلما كان المنّ منه بالجود والعطاء ، كانت له المنة عليهم ، فله تعالى المنة على عباده ، ولا منة لأحدٍ عليه سبحانه ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً^(٢) .

(٧) ومن عظيم مننه: أنه تعالى أعطى الحياة والعقل والنطق ، وأنعم فأجزل ، وأسنى النعم ، وأكثر العطايا والمنح وأكرم ، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]^(٣) .

(٨) ومن كمال مننه على عباده أجمعين: أنه أرسل إليهم المرسلين ، مبشرين ومنذرين ، ليبينوا لهم طريق الحق المبين ، قال سبحانه: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ أَرْسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥] .

(٩) فأنقذ الله سبحانه بمنّه أوليائه المؤمنين ، بأن هداهم إلى صراطه المستقيم ، فخصهم بهذه المنة الجليلة عن كل العالمين ، الذين عدلوا عن سلوك طريق المرسلين ، فأنعم عليهم بأعظم

= و«إبطال التأويلات» (٦٥٩)، و«شرح أسماء الله» للإشيلي (٣٢١/٢) .

(١) ينظر: «لسان العرب» (٤٢٧٩/٦)، و«شأن الدعاء» (١٠٠)، و«شرح حديث النزول» (٤٥٣)، و«تيسير الكريم المَنَّان» (١٤٢/٧) .

(٢) «الأسنى» (٢٦٠/١)، و«اللسان» (٤٢٧٩/٦)، و«نظم الدرر» (٢٤١/٧)، و«الأسماء الثابتة» (٥٧٩) .

(٣) «المنهاج في شعب الإيمان» (٢٠٣/١) .

دين ، وهو (الإسلام) الذي هو الاستسلام لرَبِّ العالمين ، وهذه أعظم مننه تعالى على عباده المؤمنين ، قال ﷺ: ﴿كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ بَكَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا﴾ [النساء: ٩٤] .

(١٠) وامتن عليهم سبحانه بهذا الرسول الأمين ﷺ ، الذي أنقذهم من الضلالة وعصمهم من الهلاك^(١) ، إذ بعثه فيهم من أنفسهم ، يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، وإن كانوا من قبل في ضلال مبين ، قال رب العالمين: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] ، جمع النبي ﷺ الأنصار فذكرهم: «ألم يكن أمركم شتيتاً فجمعه الله بي؟ ألم تكونوا عالة فأغناكم الله بي؟ ألم تكونوا خائفين فأمنكم الله بي؟» وهم في ذلك يقولون له: الله ورسوله أمّن...^(٢) .

(١١) ومن مننه العظيمة على المؤمنين: أنه حبب إليهم الإيمان ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، ورزقهم الحق واليقين ، الذي به النجاة يوم الدين ، قال ربنا العظيم: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧] ، وقال عز شأنه: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧] .

(١٢) ومن مننه الجزيلة: أنه ينجي عباده المؤمنين ، والمستضعفين ، من المتكبرين والمفسدين ، فينعم عليهم بالأمن والأمان في الأوطان ، والنصرة والتمكين على كل الأنام ، قال جل ثناؤه: ﴿وَرِيدٌ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَتَجْعَلَهُمْ أَوْرَثَكُمْ﴾ [القصاص: ٩] .

(١٣) ومن عظيم مننه تعالى على أوليائه: أنه يجمعهم على المحبة "والألفة بعد الفرقة ، والعزة بعد الذلة ، والأنس بعد الوحشة"^(٣) .

وكما منَّ سبحانه على يوسف وأخيه بعد الفرقة والمباعدة بينهم وبين إخوته: ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجَرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] .

(١) «الأسماء والصفات» للبيهقي (٤٩/١) .

(٢) البخاري (٤٣٣٠) ، ومسلم (١٠٦١) .

(٣) «روح المعاني» (٧١/٨) ، و«مدارك التنزيل» (٥٤٣) .

(١٤) ومن تمام منته سبحانه: أنه يُري أهل الإيمان من آياته في إهلاك أهل الكفران ، موعظة لهم ، وعبرة لغيرهم قبل فوات الأوان ، ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَافُكُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَاتٌ وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ [القصاص] .

(١٥) وأجزل منته: على أوليائه في يوم الدين ، أن وقاهم عذاب الجحيم ، وأنعم عليهم في دخول جنات النعيم ، بها مخلدين ، قال الله عنهم: ﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ (٨٣) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ الْأَسْمُورِ ﴿٨٤﴾ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٨٥﴾ [الطور] ، ومنَّ عليهم برؤية وجهه الكريم ، الذي هو أعظم من كل نعيم ، قال سبحانه: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] .

جلال المنان

الأول: من جلاله: "أن منَّة الخالق ﷻ على المخلوق ، فيها تمام النعمة ، وكمالها ، ولذتها ، وطيبها ، فإنها منة حقيقية ، قال تعالى: ﴿يَمْنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمْنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمْنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١٧) [الحجرات] .

فأما منَّة المخلوق على المخلوق فإنها منَّة تكدر النعمة . أما منَّة المنان الذي جميع الخلق في مننه ، فهي التي ما طاب العيش إلا بمنَّته ، فكل نعمة منه في الدنيا والآخرة ، فهي منة يمنُّ بها على من أنعم عليه" (١) .

وأجل منة من الله تعالى على الإطلاق ، من منَّ عليه بدخول جنَّته ، وأنعم عليه برضاه وبرؤيته .

الثاني: ومن جلال المنان سبحانه: أن "كل عطايا ونعمة من عنده ﷻ أو من غيره فمن منَّة على عباده ، فقواهم ، وعلومهم ، وذواتهم ، وجميع صفاتهم من منَّة على عباده ، من حيث هم لا يشعرون في شيء ، ولا يكدحون في أمر إلا بنعمته عليهم ، فإذا كل عطية منه لهم من منَّة عليهم ، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّنْ تَعَمَّرٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] ، وقال الله سبحانه: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلَقَهُ﴾ [طه: ٥٠] ،

فهذه نعمته عليهم في الخلق بتوابعها ، وهي أول النعم (ثم هدى) هذه نعمة الفطرة منتظمة بنعمة الديانية ، وهي خاصة ، وهي من مَنْ الله على من خصّه بها ، وهي أفضل النعم ، سبحانه وله الحمد ، فهو إذاً المانُّ بكل شيء...^(١).

الثالث: ومن جلال المنان على أهل الإيمان: أنه "مَنْ عليهم بأن جعلهم من أهل اليمين ، وهو الذي ألهمهم القيام بصالح الأعمال ، وهو الذي رزقهم القبول ، وقبول أحسن ما عملوا"^(٢) من الأقوال والأفعال ، وكل خير وإحسان .

فسبحانه من "مَنان لا يُحصَى كرمه ، ولا يتناهى ، ونحن في تيار بحر جوده سابحون ، وعن إقامة شكره قاصرون"^(٣).

الثمرات

إن سبيل التعبّد بهذا الاسم الكريم: الشكر على آلائه ونعمه ، والحرص على ذلك ، والاعتذار إليه من التقصير عن بلوغ ما يستوجبه ، والدعاء والتضرع إليه في حسن العون ، وأن يتحمل عنك ما عجزه عنه شكرك ، وأن يصفح عن تقصيرك في أداء واجباته^(٤) ، لكثرة مننه عليك ، خاصة الدينية .

ولهذا ينبغي للمؤمن مشاهدة منن الله عليه ، واستحضارها ، ومطالعتها ، وعدم نسيانها ، والغفلة عنها ، والتي يتقلب بها في الليل والنهار ، والتي أجّلها يا عبد الله نعمة الإسلام ، والهداية إلى الإيمان ، فكم من محروم منها من الأنام ، فقد أعطانا إياها منّة منه سبحانه إليك بلا سؤال ، فلا تكن من أهل النكران ، الذين نسوا الفضل والإحسان ، فإنه قد يسلبها منك في أي آن .

واعلم يا رعاك الله أنه: "إذا وصل إلى القلب نور صفة المنّة ، وشهد معنى اسمه (المنان) وتجلّى سبحانه على قلب المؤمن بهذا الاسم مع اسمه (الأول) ذهل القلب والنفس به ، وصار العبد فقيراً إلى مولاه ، بمطالعة سبق فضله الأول ، فصار مقطوعاً عن شهود أمرٍ أو حالٍ ينسبه إلى نفسه ، بحيث يكون بشهادته لحاله ، مفصوماً ، مقطوعاً عن رؤية عزة مولاه وفطره ، وملاحظة

(١) «شرح الأسماء الحسنى» للإشبيلي (٣٢٢/٢).

(٢) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (٣٨٢/١).

(٣) «تفسير روح المعاني» للالكوسي (١٣٤/١).

(٤) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن بركان (٣٢٢/٢).

صفاته، فصاحب شهود الأحوال، منقطع عن رؤية منة خالقه، وفضله، ومشاهدة سبق الأولية للأسباب كلها، وغائب بمشاهدة عزة نفسه، عن عزة مولاه، فينعكس هذا الأمر في حق هذا العبد الفقير، وتشغله رؤية عزة مولاه ومنته، ومشاهدة سبقه بالأولية، عن حال يعتز بها العبد، أو يشرف بها^(١).

وإياك يا عبد الله ثم إياك أن تمنن بعطيتك، فتبطل ويحبط عملك، وتحرم جنة ربك، قال ربك عز شأنه: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقال ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، المسبل إزاره، والمنان الذي لا يعطي شيئاً إلا منة»^(٢). وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة منان ولا مدمن خمر»^(٣).



(١) «طريق الهجرتين» (٥٧).

(٢) «مسلم» (١٣٦٠).

(٣) رواه أحمد في مسنده (١١٢٢٢)، وحسنه شعيب الأرناؤوط (٣٢٠/١٧).

٨٥- الله ﷻ الرَّفِيقُ ﷻ عزَّ شأنه

قال ﷻ: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله»^(١).

المعنى اللغوي

الرفيق: من صيغ المبالغة، على وزن (فعليل) بمعنى (فاعل)، والرفق خلاف العنف، وهو يدلُّ على موافقة ومقاربة بلا عنف، وهو يأتي على عدة معانٍ:

الأول: اللطيف، وهو لين الجانب، ولطافة الفعل، ومنه الحديث: «ما كان الرفق في شيءٍ إلا زانه».

الثاني: الحليم، وهو التمهُّل في الأمور، والتأنيُّ بها، يقال منه: "رفقت الدابة أرفقها"، إذا شددت عضدها، لتبطل في مشيها.

الثالث: الإرفاق، وهو الإعطاء، أي: إعطاء ما يترفق فيه، والله سبحانه هو المسير والمسَّهل لأسباب الخير وأبواب البر.

الرابع: النفع، يقال: "رفق فلاناً": نفعه، ويقال أيضاً: أرفقته، أي: نفعته، والمِرْفَقُ والمِرْفَقُ من الأمر، وهو ما ارتفعت به، وانتفعت به.

الخامس: الحكيم الرشيد، "وهو ضدُّ الأخرق، أي: الأحمق، وهو الرجل الذي لا يُحسن الصنعة والتصرف في الأمور"^(٢)، وأصل الرفق: الاحتيال لإصلاح الأمور وإتمامها، والله ﷻ له من ذلك ما يليق بكماله، وجلاله، فهو الحكم الرشيد الذي يضع كلَّ شيءٍ في أحسن مكانه ومنزلته.

السادس: المعية والمصاحبة، والرفيق هو: الذي يرافقك في السفر والطريق، تجمعك

(١) «البخاري» (٦٠٢٤).

(٢) «القاموس المحيط» (٣٦٤).

وليَّاه، رفقاً واحدة^(١)، والله ﷻ له المرافقة التي تليق به، وهي: المعية العامة لكل البرية، والخاصة لأوليائه وأحبابه.

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الرفيق الذي لا أرفق منه سبحانه بخلقه:

(١) فهو تعالى الكثير الرفق بعباده شرعاً، وقدرًا، يحب الرفق وأهله، ويعطي عليه ما لا يعطي على غيره.

(٢) وهو تعالى الرفيق: في أفعاله خلق المخلوقات كلها بالتدرج شيئاً فشيئاً، إذ خلقهم سبحانه أطواراً، ونقلهم من حالة إلى أخرى بحكم وأسرار، لا تحيط بها العقول والأفكار، بحسب حكمته ورفقه، مع أنه تعالى قادرٌ على خلقها دفعة واحدة، وفي لحظة واحدة، ومن تدبَّر المخلوقات كيف يأتي بها شيئاً بعد شيء، وجدها شاهداً على رفق سبحانه.

(٣) وهو تعالى الرفيق: في شرعه، في أمره، ونهيه، فلم يأخذ عباده بالتكاليف الشاقة، مرة واحدة، بل شرع الأحكام شيئاً فشيئاً، من حال إلى حال، وجربانها على وجه السداد، واليسر، ومناسبة العباد، حتى تألفها نفوسهم، وتأنس إليها طبائعهم^(٢)، وهو سبحانه قادرٌ على أن يفرضها عليهم دفعة واحدة.

(٤) ومن كمال رفق سبحانه: "أنه لا يعجل بعقوبة العصاة، ليتوب من سبقت له العناية"^(٣)، ولو شاء لعجل لهم العذاب، لكنه هو الرفيق الحليم، يمهّلهم ولا يهملهم، ليحصل لهم ما فيه السعادة، في الدنيا ويوم المعاد.

(٥) وهو الرفيق: في أقواله، إذ نادى عباده بأجمل الخطاب: (يا عبادي)، ودعاهم إلى بابه بالإجابة والعطاء، وترفق مع أعدائه فأمر رسله أن يدعوهم باللين والوداد، فأمر موسى وهارون أن يقولوا لشر الطغاة والعتاة من العباد: ﴿فَقُولَا لَهُ، قَوْلًا لِّئَنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

(١) ينظر: «لسان العرب» (١٦٩٤/٣)، و«النهاية» (٣٦٨)، و«الصحاح» (٤١٩)، و«القاموس المحيط» (٥٢٢)، و«تهذيب اللغة» (١٠٩/٩)، «الأسنى» (٥٥٦/١ - ٥٥٧).

(٢) «الحق الواضح» (٦٣)، و«توضيح الكافية الشافية» (١٢٣)، و«شرح النونية» للهراس (٩٣/٢).

(٣) «الأسنى» (٥٥٧/١).

(٦) "وهو سبحانه رفيق: الذي لا يعجل، وإنما يعجل من يخاف الفوت، فأما من كانت الأشياء قبضته، وملكه، فليس يعجل فيها"^(١).

(٧) وهو ﷺ هو الرفيق: في أمره، ونهيه، وفعله، وخلقه، وقدره، وقضائه، وحكمه، ومصاحبته، ومعيته لخلقه، فلا نهاية لرفقه سبحانه.

(٨) ومن رفقه في شرعه الحكيم: أنه لا يكلف عباده ما لا يطيقون، بل جعل فعل الأوامر، وترك المناهي على قدر الاستطاعة، بل أسقط تعالى عنهم كثيرًا من الأعمال بمجرد المشقة، رخصة بهم، ورفقًا بهم ورحمة^(٢).

(٩) وهو الرفيق سبحانه: الميسر والمسهل لأسباب الخير والنفع لعباده، ومن ذلك: أنه يعطيهم على الرفق ما لا يعطيهم على الشدة، فجعل في الرفق الخير كله.

(١٠) والله ﷻ الرفيق: بعباده، بمعيتة العامة والخاصة، التي تدلُّ على مصاحبة الله تعالى لخلقه، الصحبة اللائقة بكماله، وجماله، وجلاله، وهي نوعان:

الأول: المعية العامة: وهي إطلاع الله تعالى على عباده بعلمه، وسمعه، وبصره، وإرادة، وقدرة، أينما كانوا، لا تخفى عليه منهم خافية، صغيرة ولا كبيرة، في أرضه ولا في سماواته، وهو مستوٍ فوق عرشه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤]

الثاني: المعية الخاصة: وهي معية القرب للمؤمنين، وهي تكون لهم، في الدنيا، والآخرة، ففي الدنيا: وهي المصاحبة الخاصة لأوليائه، وهي معية قربٍ تقتضي الموالاة والحفظ، والتأييد، والنصرة، للذين تحلّوا بصفاتٍ جليلة، كالتقوى، والإحسان، والصبر، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل]، وكما كان يقول ﷺ إذا خرج للسفر: «اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل...» الحديث^(٣) (٤).

وفي الآخرة: أنه سبحانه يجمع عباده الموحّدين عنده في الجنة، وهي معية قربٍ تقتضي

(١) «الأسماء والصفات» للبيهقي (١٤١/١).

(٢) «فقه الأسماء الحسنی» أ.د. عبد الرزاق البدر (٣٥٤).

(٣) «مسلم» (١٣٤٢).

(٤) انظر معنى المعية وأنواعها في «مجموع الفتاوى» (١٣٠/٥)، «الفوائد» (١٨٦)، «مختصر الصواعق المرسلّة»

الرفعة ، والعلو ، والقرب منه سبحانه ، كما سألتها امرأة فرعون: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحریم: ١١] ، وكقوله ﷺ في آخر كلمة قالها عند موته ، كما أخبرت عائشة ؓ: «اللهم الرفيق الأعلى»^{(١)(٢)}.

جلال الرفيق

الأول: من جلال رفقته ﷺ: أنه يرفق بعباده بخفاء ، وستر ، ولطف ، ومن ذلك: أنه لا يعاجل المذنبين بالعقوبة ، بل يمهّلهم وينظرهم ، ويدر عليهم آلاءه وإحسانه ، ويسرّ لهم أسباب التوبة ، ولو شاء لعاجلهم بالعذاب ، لكنه هو الرفيق الحليم ، يمهّلهم ، ولا يهملهم ، لتحصل لهم السعادة في الدنيا ويوم المعاد .

الثاني: ومن جلال رفقته تعالى بعباده: أنه شرع من الرخص والأسباب الشرعية ، التي تدفع عنهم الحرج ، وترفق بهم في حياتهم .

الثالث: ومن جلال رفقته سبحانه بهذه الأمة المحمدية: أنه: "شرع لها ما يوافق كيانها وصرف عنها ما علم أنها تختان"^(٣) فيه لما جبلت عليه من خلافه ، بخلاف الأمم السابقة الذي شدد عليها ، حيث أمرها بما جبلها على تركه ونهاها عما جبلها على فعله ، فتفشو فيها المخالفة لذلك ، وهو من أشد الآصار التي كانت على الأمم ، فخفف عن هذه الأمة بإجراء شرعتها على ما يوافق خلقتها"^(٤).

الرابع: ومن جلاله: "أنه هو الميسر والمسهل لأسباب الخير كلها ، والمعطي لها ، وأعظمها: تيسير القرآن للحفظ ، ولولا ما قال: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧] ، ما قدر على حفظه أحد ، فلا تيسير إلا بتيسيره ، ولا منفعة إلا بإعطائه ، وتقديره"^(٥).

* * *

(١) «البخاري» (٤١٧٣).

(٢) «أسماء الله الحسنى» للرضواني (٦٣١) بتصرف .

(٣) قال تعالى: ﴿عَلَّمَ اللَّهُ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧].

(٤) انظر: «نظم الدرر» (٣٥١/١).

(٥) «الأسنى» (٥٥٧/١).

الثمرات

من ثمرات هذا الاسم الكريم: أنه يقوي الأمل في الله تعالى ورحمته، وعدم اليأس من روحه، ومن مقتضاه أن يأخذ المؤمن من حظ هذا الاسم الكريم، فيجعل الرفق قائده ودليله، ليصل إلى قلوب العباد، ويؤثر فيهم، فيكون لأمره ونهيه، وقعاً في قلوبهم، وعوناً لهم على فعل المعروف، وترك المنكر^(١).

وكذلك في الرفق والتأني في كل الأمور، مع النفس، ومع الخلق، خاصة مع أهله وزوجه، قال ﷺ: «من أعطى حظه من الرفق فقد أعطى حظه من الخير»^(٢)، وقال ﷺ: «إذا أراد الله بأهل بيت خيراً أدخل عليهم الرفق»^(٣).

واعلم رعاك الله تعالى "أن المتأني الذي يأتي الأمور برفق، وسكينة، ووقار، اتباعاً لسنن الله في الكون، واتباعاً لنبيه ﷺ، فإن هذا هديه وطريقه تيسر له الأمور، وبالأخص الذي يحتاج إلى أمر الناس، ونهيههم، وإرشادهم، فإنه مضطر إلى الرفق واللين، وكذلك من آذاه الخلق بالأقوال الشنيعة، وصان لسانه عن مشاتمهم، ودافع عن نفسه برفق ولين، اندفع عنه من أذاهم ما لا يندفع بمقابلتهم بمثل مقالهم، وفعالهم، ومع ذلك فقد كسب الراحة، والطمأنينة، والرزانة، والحلم"^(٤)، "فمن حظي به، فما أطيّب عيشه، وما أنعم باله، وما أقرّ عينه"^(٥).

والرفق من العبد لا ينافي الحزم، فيكون رفيقاً في أموره متأنياً، ومع ذلك لا يفوت الفرص إن سنحت، ولا يهملها إذا عرضت^(٦).

ومن ثمرات هذا الاسم الكريم، الذي هو بمعنى المعية الخاصة لأوليائه، أنها تزرع في قلب العبد شجرة الإيمان، التي تورثه ثمرة الإحسان، التي هي أعلى مقامات الإيمان، من حسن العبادة في الجنان، التي تبعث في العبد قوة التوكل عليه، وتفويض كل الأمور إليه، في كل الأحيان، والقيام بأحسن الأعمال، التي في الأركان.

(١) «منهج ابن القيم» (٤١٠).

(٢) «صحيح الجامع» (٦٠٥٥).

(٣) «صحيح الجامع» (٣٠٣).

(٤) «الحق الواضح المبين» (٦٣).

(٥) «مفتاح دار السعادة» (٢٩٦/٢).

(٦) «توضيح الكافية الشافية» (١٢٣).

٨٦- الله ٱلْحَيُّ ٱلسَّبْحَانَهُ وَتَعَالَى

قال ٱللَّهُ: «إِنَّ رَبَّكُمْ ٱللَّهُ ٱلْحَيُّ ٱلْكَرِيمُ، يَسْتَحْيِي مَنْ عَبْدُهُ إِذَا رَفَعَ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صَفَرًا»^(١) خَائِبَتَيْنِ»^(٢). وقال ٱللَّهُ: «إِنَّ ٱللَّهَ ٱلْحَيُّ سَتِيرٌ، يَحُبُّ ٱلْحَيَاءَ وَٱلسِتْرَ»^(٣).

ٱلْمَعْنَى ٱلَّلُغَوِيَّةُ

ٱلْحَيُّ: صفة مشبَّهة للموصوف بالحياء، أي: كثير الحياء، والحياء والاستحياء، ضد الوقاحة^(٤)، وهي صفة كريمة تحجب صاحبها عن قبيح الفعل والأقوال.

ٱلْمَعْنَى ٱلشَّرْعِيَّةُ

ٱللَّهُ هو ٱلْحَيُّ، الذي له الحياء الكامل في أفعاله، وأقواله، فلا يسمو إلى حيائه أحد:

(١) فهو سبحانه الموصوف بكمال الحياء، الذي يليق بكماله، وجلاله، وعلوه، ليس كحياء المخلوقين الذي هو تغير وانكسار.

(٢) أما حياء الرب ٱللَّهُ فذاك نوع آخر، لا تدركه الأفهام، ولا تكيفه العقول، فإنه حياء، كرم، وبر، وجود، وجلال^(٥)، ليس له فيه شبيه ولا مثال.

(٣) فمن كمال حيائه تعالى: أنه تعالى يكني بالحسن، عن القبيح، كما في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ ٱلنِّسَاءَ﴾ [النساء: ٤٣]، فهو سبحانه يستحيي أن يذكر الفواحش بصريح لفظها.

قال ابن عباس ٱلرَّضِي: "كنى الدخول واللمس عن الجماع، إن الله حيي كريم يكني بما شاء، عما شاء"^(٦)، وكما في قوله سبحانه: ﴿فَلَا رَفَثَ﴾ [البقرة: ١٩٧]، قال ابن عباس ٱلرَّضِي: "التعريض

(١) أي خالبتين.

(٢) «صحيح الترمذي» (٣٥٥٦).

(٣) «صحيح أبي داود» (٤٠١٢).

(٤) «كتاب العين» (٣٨٢/٢)، و«معجم مقاييس اللغة» (١٢٢/٢).

(٥) «مدارج السالكين» (٢٥٩/٢)، «إبطال التأويلات» (٤١٢/٢)، «شرح النونية» للهراس (٨٠/٢).

(٦) رواه ابن جرير في «تفسيره» (٢١٩/٢)، (٢٣٩٦)، وعزاه ابن حجر لعبد الرزاق، وصحح إسناده في «الفتح»=

بذكر الجماع^(١)، أي: دون ذكره بصريح لفظه.

٤) ومن كمال حياء ربنا تعالى: أنه يستحيي من عبده حيث لا يستحي العبد منه، وذلك: أنه تعالى مع كمال غناه، وتمام قدرته، يستحيي من هتك ستر العبد وفضحه، حيث يجاهره بالمعصية، مع أنه أفقر شيء إليه، وأضعفه لديه، ويستعين ويتقوى بنعم ربه تعالى على معاصيه. فهو ﷺ يتحبب إلى عباده بالنعم والخيرات، بعدد اللحظات، وهم يتبعضون إليه بالمعاصي والقبائح، في كل الأوقات^(٢).

٥) ومن تمام حيائه سبحانه: أن يحب الحياء، ولهذا أمر به العباد، وحثهم على الالتزام به حتى في خلواتهم، لما فيه من المنافع والعوائد السنية في الدنيا، وفي الدار الآخرة، قال ﷺ: «إن الله ﷻ حييٌ سيّير، يحب الحياء والستر، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر»^(٣)، وجعله تعالى على لسان نبيه ﷺ: «شعبة من شعب الإيمان»^(٤).

٦) ومن كماله: أن من «استحيا الله منه لم يعذبه بذنبه، بل وغفر له، ولم يعاتبه عليه»^(٥).

جلال الحيي

الأول: من جلال حيائه ﷺ: أن حيائه "هو ترك ما ليس يتناسب مع سعة رحمته، وكمال جوده وكرمه، وعظيم عفوه وحلمه"^(٦)، ومن ذلك: أنه يستحيي أن يردّ عبده، إذا رفع يديه إليه بالدعاء.

الثاني: ومن جلال حياء ربنا العظيم سبحانه: أنه يستحيي ممّن يستحيي منه، قال ﷺ: «وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه»^(٧)، الذي من مقتضاه: إكرامه، وإنعامه، وغفران ذنبه،

= (١٢٢/٨)، (٦٢/٩)، وانظر «التفسير الصحيح» (٢٩٣/١)، و«تفسير أبي مظفر السمعاني» (٤٣١/١).

(١) «التفسير الصحيح» (٣١١/١).

(٢) «الحق الواضح» (٥٤)، «شرح النونية» للهراس (٨٠/٢)، «الله أهل الثناء والمجد». د. الزهراني (٣٨) بتصرف

يسير.

(٣) «صحيح أبي داود» (٤٠١٢).

(٤) البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

(٥) «التمهيد» لابن عبد البر (٣١٧/١).

(٦) «شرح النونية» للهراس (٨٠/٢).

(٧) «البخاري» (٦٦)، ومسلم (٢١٧٦).

وعدم معاتبته ، وغير ذلك من الفواضل ؛ لأن حيائه سبحانه له شأنٌ عظيم وقدرٌ كبير .

الثالث: ومن جلال حياته سبحانه: أنه تعالى لا يستحيي من الحق ، وهو العدل في الأحكام ، والصدق في الأخبار ، قال ﷺ: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب: ٥٣] ، فالربُّ ﷻ لا يستحيي من الحق ، لأن الحياء من الحق ، معناه: ترك الحق ، أو يستلزم ترك الحق ، والخور ، وعدم الحزن ، والله سبحانه لا يستحيي أن يبين الحق ، ويأمر بما فيه خير للمؤمنين ، من الأحكام الشرعية ، ودلّ منطوق الآية ، ومفهومها: أنه يستحي من غير الحق ، أي: أنه تعالى من كماله يستحي عن الأشياء التي لا تليق ، لأن الحياء من غير الحق وصف كمال ، والله سبحانه متصف بصفات الكمال .

الرابع: ومن جلاله: أنه تعالى: ﴿لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦] ، أي: أنه سبحانه لا يستحيي أن يضرب أيّ مثلٍ كان وإن قلّ ، وذلك لأن الأمثال التي يضربها للناس فيها من العبر والمصالح ، والمنافع العظيمة ، التي ينتفع بها العباد ، فقد ضرب الله مثلاً بالعنكبوت ، ومثلاً بالذباب ، وهنا (بعوضة فما فوقها) ، فالله تعالى لا يستحيي من ذلك ، لأنه حق ، والله تعالى لا يستحيي من الحق سبحانه^(١) ، فأني يكون هذا الجلال والكمال من الحياء لأحدٍ من الخلق ، وأني يكون حياء مع كمال الصفات من الغنى ، والعزة ، والقوة ، والقدرة ، والحكمة ، والرفعة ، إلا للرب ﷻ .

الثمرات

إنَّ من أعظم ثمرات هذا الاسم الكريم: الحياء من الله تعالى في ظاهر العبد ، وباطنه ، في أن يراه على مشينة يبغضها الله تعالى ، وجماع ذلك ، ما قاله ﷺ: «استحيوا من الله حق الحياء» قلنا: يا رسول الله إنا لنستحيي والحمد لله ، قال: «ليس ذلك ، ولكن الاستحياء من الله حق الحياء ، أن تحفظ الرأس وما وعى ، وتحفظ البطن وما حوى ، وتذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء»^(٢) ، وحفظ الرأس وما وعى: يدخل فيه حفظ السمع ، والبصر ، واللسان ، في المحرّمات . وحفظ البطن وما حوى: يتضمن حفظ

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (١٠٨/١) ، و«تفسير سورة الأحزاب» (٥٢٦/٧) ، و«أحكام من القرآن» (١٤٠/١) ، و«شرح صحيح البخاري» (٤٦١/١) لابن عثيمين .

(٢) «صحيح الجامع» (٩٣٥) .

القلب عن الإصرار عن المحرّم، وقد جمع الله ذلك كله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، ويدخل في حفظ البطن وما حوى: حفظه من إدخال الحرام إليه من المأكولات، والمشروبات، ومما يجب حفظه من المنهيات: حفظ اللسان، والفرج^(١).

فمن كثر حيّؤه من الله تعالى انقبضت نفسه عن محارم الله، ومجاهرته بالعصيان، لعلمه أنه معه سبحانه في كل مكان، فمن عصاه فقد جاهره، ثم مهما أفشى معصيته في الخلق فعلاً، وقولاً، فقد أعظم المجاهرة، إذ من لا يستحي من الناس لا يستحي من الله، ولذلك كان الحياء العزيز محموداً في العبد لكونه منقبضاً به عن مجاهدة الخلق فيما ينكرونه من الفعل^(٢).

واعلم يا عبد الله أن الحياء كله خير، وهو خير الزينة، والحلية، والصبغة التي يتجمل بها العبد، قال ﷺ: «الحياء كله خير»^(٣)، وقال ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير»^(٤).

واعلم رعاك الله تعالى أنك إذا استحيت منه تعالى، استحيا منك كما يليق بجلاله، قال ﷺ: «... وأما الآخر فاستحيا، فاستحيا الله منه»^(٥).

وهذ من أجلّ عبوديته وثمراته.



(١) «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس» (٤٥ - ٤٧).

(٢) «الأسنى» (٥٣٧/١).

(٣) مسلم (١٥١).

(٤) البخاري (٥٧٦٦).

(٥) «صحيح البخاري» (٦٦)، و«مسلم» (٢١٧٦).

٨٧- الله ﴿الدِّيَّان﴾ جَلَّ وَعَلَا

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يحشر الله تعالى العباد عراة، غرلاً، بُهْمًا»، قال: قلنا: وما بُهْمًا؟ قال: «... ليس معهم شيء، فيناديهم بصوتٍ يسمعه مَنْ بُعِدَ كما يسمعه مَنْ قَرَبَ، أنا الملك، أنا الدِّيَّان، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار، وله عند أحدٍ من أهل الجنة حق، (وفي لفظ: يطلبه بمظلمة) حتى أقصّه منه، ولا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، ولأحدٍ من أهل النار عنده حق، (وفي لفظ: يطلبه بمظلمة) حتى أقصّه منه، حتى اللطمة»^(١).

المعنى اللغوي

الدِّيَّان: صيغة مبالغة على وزن (فَعَّال)، ويدلُّ هذا الاسم الطيّب على عدّة معانٍ وكمال:

الأول: على المُجازي، والمُحاسب الذي لا يضيع عملاً، كما في قوله سبحانه: ﴿أَنَّا لَمَدِينُونَ﴾ [الصفّات: ٥٣]، أي: مجزيّون محاسبون، ويوم الدين: أي يوم الجزاء والحساب^(٢).

الثاني: السلطان والملك المطاع.

الثالث: الحاكم، والقاضي، ويقال: "مَنْ دَيَّانُ أَرْضِكُمْ؟" أي: من الحاكم فيها.

الرابع: القهَّار، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِن كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ ﴿١٨﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٦ - ٨٧]، أي: غير مقهورين، ومدبرين، وهو فعَّال من: "دان الناس"، أي: قهرهم على الطاعة، ويقال: "دنتهم فدانوا"، أي: قهرتهم فأطاعوا.

الخامس: ويُطلق: على الدين، والشريعة، والملة، كما قال ﷺ: «كانت قريش ومن دان

(١) رواه أحمد في «المسند» (١٦٠٤٢)، وحسنه الأرئؤوط (٤٣٢/٢٥) والألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٧٤٦)، وفي «السنة» لابن أبي عاصم (٥١٤).

(٢) قال البخاري في «صحيحه»: "والدين: الجزاء في الخير والشر، (كما في المثل): كما تدين تدان". انظر: «الفتح» (١٩٨/٨).

دينها يقفون بالمزدلفة...» الحديث^(١)، أي: اتبعهم في دينهم ووافقهم عليه، واتخذ دينهم له دينًا وعبادة، ويقال: دان بالإسلام دينًا بالكسر: تعبد به وتدين به كذلك فهو دين^(٢).

وعلى هذا المعنى: يراد به دين عباده بما شرعه لهم ودعاهم إليه، وفرضه عليهم^(٣).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الدِّيَّان الذي لا يُدان، الذي يدين كلَّ العالمين، "بالخير خيرًا وبالشر شرًا"^(٤):

(١) هو الذي استوى على عرشه، فوق ملكه، فدانت له كل الخليفة، وعنت له الوجوه، وذلت لعظمته، كل البرية.

(٢) ملك قاهر على عرش السماء مهيمن، لعزته تعنو الوجوه وتسجد، يرضى على من يستحق الرضا، ويثيبه، ويكرمه، ويدنيه، ويغضب على من يستحق الغضب، ويعاقبه، ويهينه، ويقصيه، فيعذب من يشاء، ويرحم من يشاء^(٥).

(٣) وهو الديان سبحانه: الذي شرع الأديان، التي أنزلها على رسله الكرام، لتبليغها إلى الأنام، ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]، فجعلها مختلفة في الفروع والأحكام، متفقة في التوحيد والإيمان، قال ﷺ: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨].

(٤) وهو تعالى الدِّيَّان: "الذي يدين الله العباد فيه بأعمالهم: فيثيبهم على الخيرات، ويعاقبهم على المعاصي والسيئات"^(٦)، فلا يضيع عملاً^(٧).

(٥) فهو الذي يحاسب العباد أجمعين، ويفصل بينهم بالحق يوم الدين، بميزان العدل، والفضل المبين، في يوم يجمع فيه تعالى الأولين والآخرين: حفاة، عراة، غير مُخْتَنِينَ، قال

(١) صحيح البخاري (٤٥٢٠).

(٢) «لسان العرب» (١٤٦٧/٢)، «الصحاح» (٣٠٤)، «النهاية» (٣١٩)، و«القاموس المحيط» (٤٦١)، و«المصباح المنير» (١٢٢).

(٣) «إبطال التأويلات» (٦٧٨).

(٤) «المنهاج في شعب الإيمان» (٢٠٦/١).

(٥) انظر: «أسماء الله الحسنى» أ.د. الرضواني (٥٧١).

(٦) «مدارج السالكين» (١٢/١).

(٧) «المنهاج» (٢٠٦/١).

تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء] ، وقال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [غافر] .

٦) وهو سبحانه الديَّان: القهار "الذي قهر كل المخلوقات، ودانت له جميع الكائنات، فنواصي العباد كلهم بيده، وتصارييف الملك، وتديبيراته بيده، والملك بيده، فالعالم العلوي والسفلي بما فيها من المخلوقات العظيمة، كلها قد خضعت في حركاتها، وسكناتها، فليس لها من الأمر شيء، ولا من الحكم شيء، بل الأمر كله لله تعالى" (١).

٧) وهو الذي يحاسب ويجازي كل الأنام، من إنس وجان، على الدقيق والجليل من الأعمال، قال سبحانه: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌّ﴾ [القمر: ٥٣] ، وقال عز شأنه: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [٧] وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨] ، بل يعم جزاؤه حتى بالحيوان التي ليس لها عقول ولا أفهام، ليقوم العدل والقسط بالميزان، قال ﷺ: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» (٢).

٨) وهو الذي يجازي كلاً بعمله، فيقتص للمظلوم من الظالم، ومن السيد لعبده (٣).

٩) وهو الديان تعالى: الحاكم القاضي الذي له الأحكام الثلاثة، الذي له الحكم الشرعي، والحكم القدري، والحكم الجزائي، كلها لله ﷻ، لا حاكم في الدنيا والآخرة إلا هو، ولا رب غيره، ولا إله سواه (٤).

أ) ففي هذه الدار: لا يخرج الخلق عن أحكامه القدريّة، بل ما حكم به قدراً نفذ من غير مانع ولا منازع، ولا يخرج المكلفون عن أحكامه الشرعية التي هي أحسن الأحكام.

ب) وفي الآخرة: لا يحكم على العباد إلا هو، ولا يبقى لأحد قول، ولا حكم حتى الشفاعات كلها منظوية تحت إرادته وإذنه، ولا يشفع عنده أحدٌ إلا إذا حكم بالشفاعة، وهذه

(١) «فتح الرحيم الملك» (١٧).

(٢) مسلم (٢٥٨٢).

(٣) «الأسنى» (٤٢٠/١)، كما جاء في الحديث: أن رجلاً قعد بين يدي النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي مملوكين يكذبونني ويخونونني ويعصونني، وأستهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟ قال: «يحسب ما خانوك وعصوك وكذبوك، وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كفافاً، لا لك ولا عليك، وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلاً لك، وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل» صحيح الترمذي (٣١٦٥).

(٤) انظر: «فتح الرحيم الملك» (١٧ - ١٨).

الأحكام كلها بالحكمة والعدل^(١).

(١٠) ومن كمال دينوته سبحانه: أنه "لا يهضم أحداً من حسناته ، ولا يزيد أحداً من سيئاته ، أو يعذبه بغير جرم اقترفه"^(٢) ، فهو تعالى لا يعاقب أحداً بغير فعله ، ولا يعاقبه على فعل غيره ، ولا يعاقبه بترك ما لا يقدر على فعله ، ولا على فعل ما لا قدرة على تركه^(٣).

(١١) ومن كمال الديّان سبحانه: أنه يجيء يوم القيامة بنفسه العليّة كما يليق بكماله ، في ذلك اليوم العظيم ، للفصل بين العباد^(٤) ، في أمور المعاش والدين ، قال عزّ شأنه: ﴿كَلَّا إِذَا دُكِّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًا ۖ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر] .

جلال الديّان

الأول: من جلاله: أنه تعالى كما يقتص للمؤمن من الكافر ، كذلك أنه تعالى يقتص للكافر من المؤمن ، حتى لو كانت لطفة ، فيحبس وليه من دخول جنته ، وهو أحبُّ خلقه ، حتى يقتص له من عدوّه ، الذي هو أبغض خلقه ، فيعامل عدوه بعدله وقسطه ، ووليه بعدله وفضله ، فأبي جلال وكمال أسمى من هذا الجلال .

الثاني: ومن جلاله: أنه عزّ شأنه كما يقتص المظالم من بني آدم ، فإنه تعالى يقتص كذلك من البهائم ، فيفصل بينها بحكمه العدل ، الذي لا يجور فيه أبداً سبحانه ، قال ﷺ: «يقضي الله بين خلقه ، الجنّ ، والإنس ، والبهائم ، وإنه ليقيد يومئذٍ الجمّاء من القرناء ، حتى إذا لم يبق تبعه عند واحدةٍ لأخرى ، قال الله تعالى: كونوا ثرّاباً ، فعند ذلك يقول الكافر: ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ ثُرّاباً﴾» [البأ: ٤٠]^(٥). وفي لفظ: «يحشر الخلائق كلهم يوم القيامة ، والبهائم ، والدواب ، والطير ، وكل شيء ، فيبلغ من عدل الله أن يأخذ للجمّاء من القرناء»^(٦).

بل حتّى النملة من النملة ، قال ﷺ: «يقتص الخلق بعضهم من بعض ، حتى الجمّاء من القرناء ، وحتى الذرّة من الذرّة»^(٧).

(١) انظر: «فتح الرحيم الملك» (٣٢).

(٢) انظر: «المصدر السابق» (٣٣).

(٣) «طريق الهجرة» (٢١١).

(٤) انظر: «فقه الأدعية» (٣١١).

(٥) صححه الألباني في «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٩٦٦).

(٦) المصدر السابق (٦٠٩/٤).

(٧) المصدر السابق (٦١٢/٤) ، وللألباني رحمه الله كلام قيم في بيان أن هذا القصاص ليس هو من قصاص التكليف ، إذ لا =

الثمرات

من عبودية الديان سبحانه: الخوف من الله تعالى ، والاستعداد ليوم يحاسب به الديان الخلائق أجمعين ، فحاسب نفسك قبل أن تحاسب ، واعلم يا عبد الله أنك كما تدين تُدان ، جزاءً وفاقاً من الديان ، قال أبو الدرداء رضي الله عنه: "البر لا يبلَى ، والإثم لا ينسى ، والديان لا ينام ، فكن كما شئت ، كما تدين تُدان" ^(١) ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وتزينوا للعرض الأكبر ، وإنما يخفُّ الحساب يوم القيامة ، على من حاسب نفسه في الدنيا" ^(٢) ، فاجتنب الظلم بينك وبين الرب ، وبينك وبين الخلق ، وأعدَّ ليوم العرض ، قال صلى الله عليه وسلم: «الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها ، وتمنى على الله» ^(٣) .

وتمسَّك يا رعاك الله بهذا الدين القويم (الإسلام) الذي شرفك به الديان ، قال سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] ، فاحمده على هذه النعمة الجليلة والمنة العظيمة ، فإنه تعالى قد رضيها لنا وجعله خاتم الأديان ، قال ذو الجلال والإكرام: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] .

"ثم على العبد أن يدين بطاعته ، فإذا دان في نفسه بالطاعة ، وحكم قلبه الذي هو الأمير على رعاياه ، التي هي جوارحه ، واشتدَّ في الحكم لدين الله تعالى ، الذي جاء به نبيُّه ، وأشاع هذا في الخلق ، وأظهر دين الله بالحق ، فهو ديان من ديان هذه الأمة ، وقد استوجب يوم الدين ، عظيم الحرمة" ^(٤) .

وهذا الاسم الكريم فيه تسلية للمظلومين ، والمقهورين ، وذلك بأن الديان سوف يقتصر لهم من الظالمين يوم الدين ، فإذا كان سبحانه من كمال عدله في جزائه أن يقتصَّ حتى من الحيوان والطير ، والنمل وكل شيء مما لا يخطر على البال ، فإنه أولى بأخذ حق المظلوم من الظالم ، حتى لو كان كافراً ، فالموعد هناك ، فإنه لا محالة قادم .

= تكليف عليها ، بل هو قصاص مقابلة ، وجملة الأمر دالة بطريق المبالغة ، على كمال العدالة ، وإعلام العباد أن الحقوق ، لا تضيع عند الله صلى الله عليه وسلم . المصدر السابق (٦١٢/٤) .

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (١٤٢) .

(٢) «الترمذي» (٢٤٥٩) .

(٣) أخرجه أحمد (١٧١٢٤) ، وابن ماجه (٤٢٦٠) .

(٤) «الأسنى» (٤٢٠/١ - ٤٢١) .

٨٨- الله ﷻ الْمُحْسِنُ عَزَّ وَجَلَّ

قال ﷻ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ مُحْسِنٌ يُحِبُّ الْإِحْسَانَ»^(١).

المعنى اللغوي

المحسن: اسم (فاعل)^(٢).

والحسن: هو الجمال، وما حسن من كل شيء، وهو ضدُّ القبح، فيطلق على: الجمال، والإحكام، والإنعام، فمن الأول:

الأول: الجمال، وهو الشيء المبهجُ مَنْ ينظرُ إليه، والمرغوب فيه.

الثاني: الإتقان والإحكام، يقال: "حَسَّنَ الشيءَ تحسِينًا": زَيَّنَهُ.

الثالث: الإحسان، وهو: الإفضال والإنعام على الغير، وهو: ضدُّ الإساءة، فمنه يقال: "أَحْسَنْتُ إِلَيْهِ بِهِ"، فالمعنيين الآخرين، يقال على وجهين: أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلان.

والثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علمًا حسنًا، وعمل حسنًا، والإحسان فوق العدل^(٣).

* * *

(١) «صحيح الجامع» (١٨٢٤).

(٢) «أسماء الله» ١٠١-الرضواني (٦١٥).

(٣) «لسان العرب» (٨٧٧/٢)، «المفردات» (٢٣٥)، و«عمدة الحفاظ» (٤١٠/١)، و«القاموس المحيط» (٢٩٠).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو المحسن الذي لا أحسن ولا أكمل منه ، الذي له الحسن من جميع وجوهه :

(١) فهو الذي له الحُسْن تعالى: في ذاته ، وأوصافه ، ونعوته ، والإحسان: في أفعاله ، وأقواله ، وشرعه ، وقضائه .

(٢) "وهو محسن سبحانه: الذي الإحسان له وصفٌ لازم ، فلا يخلو موجود من إحسانه طرفه عين ، الذي ما طاب العيش إلا بإحسانه .

(٣) والله تعالى المحسن: لكل موجود ، فلا بُدَّ لكلِّ مكوّن من إحسانه إليه ، بنعمة الإيجاد ، ونعمة الإمداد" (١) .

(٤) فإحسانه سبحانه يشمل الكائنات بأسرها ، ببره ، وهباته ، وكرمه ، فهو مولى الجميل ، ودائم الإحسان ، وواسع المواهب (٢) ، ليس من نعمةٍ إلا منه ، ولا خير إلا من لدنه (٣) .

(٥) وهو المحسن تعالى: المجمل (٤): الذي لا أحسن ، ولا أجمل منه صورة ، فله سبحانه الحسن ، والجمال أعلاه ، وكل حسن ، وجمال ، وبهاء ، فبه ، ومنه ، وإليه : قال ﷺ : «أتاني الليلة ربي ﷻ في أحسن صورة» (٥) .

وقد وصف ربنا سبحانه وجهه الذي هو أحسن الوجوه ، بـ«الجلال والإكرام» بقوله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ - ٢٧] ، وكان ﷻ إذا دخل المسجد قال: «أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم...» (٦) ، والكرم كما تقدّم هو: البهاء ، والحسن الم محمود (٧) .

(١) «فيض القدير» (٢٦٤/٢) .

(٢) انظر: «الحق الواضح» (٨٢) .

(٣) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان الإشبيلي (٣٣٤/٢) .

(٤) «فيض القدير» (٢٦٤/٢) .

(٥) وفي لفظ: «إني نعست فاستنقلت نوماً فرأيت ربي في أحسن صورة» . «صحيح الترمذي» (٣٢٣٣ ، ٣٢٣٤ ، ٣٢٣٥) .

(٦) «صحيح أبي داود» (٤٦٦) .

(٧) انظر: اسم (الكريم) .

٦) وهو المحسن تعالى: الذي أحسن كل شيء خلقه، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة: ٧]، فجعله في أحسن صورة اللاتقة بها، وجعل الإنسان أحسن المخلوقات صورة، فأتقن صنعه، وأبدع كونه، وهده لغايته، قال سبحانه: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين: ١٠].

٧) ومن إحسانه العظيم: أنه أحسن شرعه، فجعله مشتملاً على العواقب الحميدة، والغايات العظيمة، الذي فيه خير لكل الخليقة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

٨) وهو المحسن سبحانه: في أفعاله، ليس فيها عبث، ولا في أوامره سفه، بل كل أفعاله لا تخرج عن الحكمة، والمصلحة، والرحمة، والعدل، والفضل^(١).

٩) ومن كمال إحسانه الذي ليس له مثل: أنه أنزل أحسن الحديث على الإطلاق، وهو كلامه، فهو أحسن الحديث في ألفاظه، ومعانيه، فهو يشبه بعضه بعضاً في الحسن، والكمال، وصحة المعاني، وقوة المباني، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ [الزمر: ٢٣]^(٢).

١٠) والله سبحانه "هو محسن إلى العبد متفضل عليه، بأن أرسل إليه الرسول ﷺ، وأن جعل له السمع، والبصر، والفؤاد الذي يعقل به، وأن هداه للإيمان، وأن أماته عليه، فكل هذا إحسان منه إلى المؤمن، وتفضل عليه"^(٣).

١١) وهو المحسن تعالى: الذي هو أحسن شيء حكماً، وأحسنه تدبيراً، أو خلقاً، أو أمراً، هو الذي خلق كل شيء فأحسن خلقه، وقدر كل شيء فأحسن تقديره، ثم أوجد ما قدره فأحسن الإيجاد، على وفاق ما سبق، في التقدير، قال تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ [المرسلات: ٢٣]^(٤).

١٢) وهو المحسن سبحانه: الذي بسط فضله وإحسانه الديني والدنيوي، وأمر عباده أن يتعرضوا لنفحات (إحسانه)، وأن لا يسدوا على أنفسهم أبواب إحسانه بمعاصيهم^(٥).

(١) ينظر: «تفسير السعدي» (٥٤٩، ٩١٤)، و«الحق الواضح» (٣١).

(٢) انظر: «فتح البيان» (٦٧/٦)، و«تيسير الكريم المنان» (٧٢٣).

(٣) انظر: «درء تعارض العقل والنقل» (٤٦٠/٧).

(٤) «شرح الأسماء» للإشيلي (٣٣٤/٢).

(٥) «تيسير الكريم المنان» (٢٣٨).

(١٣) ومن عظيم إحسانه تعالى: أنه يُنعم على أوليائه بكمال إحسانه، في الدنيا، والآخرة.
 أولاً: في الدنيا: أ) بتوفيقهم إلى الإيمان، واليقين، والثبات على الصراط المستقيم، ومعيته الخاصة بهم، في كل وقت وحين، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل]. وهذا أعظم الإحسان والإنعام في الدنيا للمؤمنين، الموصولهم إلى أعلى الغايات يوم الدين.

ب) الرزق الحلال الطيب، والذرية الصالحة، والحياة الطيبة الآمنة، قال عز شأنه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنُثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل].

ج) أنه تعالى يحسن عاقبتهم بتفريع كرباتهم وهمومهم، وإنجائهم من الشدائد والغموم، قال تعالى حكايةً عن يوسف عليه السلام: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف ١٠٠].

د) الثناء عليهم حال قيامهم بحسن عبادته، وطاعته، قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ قَدْ أَحْسَنَ الثَّناء عليكم في الطهور، في قصة مسجداكم...»^(١).

ثانياً: وفي الآخرة: يتجلى كمال إحسانه لهم في الدار الآخرة، الذي هو أعلى الإحسان: الحسنى، وزيادة، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنٰى وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فالحسنى: الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه ربهم الأعلى، الذي لا أحسن، ولا أجمل، ولا أكمل، ولا أسمى منه سبحانه^(٢).

جلال المحسن

الأول: من جلاله: أن له الأسماء الحسنى التي بلغت الكمال الأسنى، المتضمنة للصفات العلا، قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنٰى﴾ [طه]. الحسنى: البالغة الحسن في كل شيء، من جهة الكمال، والجمال، والجلال، فله تعالى كمال الحسن وأعلاه، وأتمه معنى، وأبعده، وأنزهه عن كل شائبة عيب، أو نقص، في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله^(٣)، فلا يُحدُّ

(١) رواه أحمد (٤٢٢/٣)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٨٥/١).

(٢) كما فسره النبي ﷺ، انظر «صحيح مسلم» (١٨١)، وانظر «تفسير ابن كثير» (٥٦١/٢).

(٣) انظر: «العواصم من القواصم» (٢٢٨/٧)، و«بدائع الفوائد» (١٦٨/١)، و«شفاء العليل» (٤٠٥).

كماله ، ولا يبلغ العباد كُنه جلاله ، ولا يحصي أحدٌ من الخليقة الثناء عليه ، فلا شيء أحسن ، ولا أكمل ، ولا أجمل ، ولا أجل ، من الله ﷻ .

الثاني: ومن جلاله: أن خيره لا يزال إلى عباده نازل ، وإحسانه وبرّه إليهم غامر ، وهم لا يزال شرّهم ، وعصيانهم إليه صاعد ، يعصونه ، فيدعوهم إلى بابه ، ويجرمون ، فلا يحرمهم خيره وإحسانه ، فإن تابوا فهو حييهم ، وإن لم يتوبوا فهم طيبهم ، يبتليهم بالمصائب ، ليُطهّرهم من المعاييب^(١) .

الثالث: ومن جلال إحسانه سبحانه: أنه يحسن إلى أعدائه ، ويسبغ عليهم من آلائه ، فيمهلهم بإحسانه ، وإن لم يتوبوا وماتوا وهم كذلك ، حاسبهم بعدله ، ولم يظلمهم مثقال ذرة .

الرابع: ومن جلال المحسن سبحانه: "أن فعله الحكمة ، وقوله الحق ، وكلامه الصدق ، وتدبيره العدل ، وجزاؤه القسط ، وعطاؤه الفضل ، وفضله لا تبلغ الأوهام تصوّره ، ولا تطمع العقول في تحصيله"^(٢) ، فمن أحسن منه تعالى ؟

الخامس: ومن جلال إحسانه: أنه كما أحسن الأبدان ، فجعلها في أحسن صورة من الإنثان ، وأبهى نضرة من الحسن والجمال ، كذلك أنه سبحانه أحسن الأخلاق ، التي هي مبتغى كل الأنام ، لأنها أحسن الخصال ، فيجعلها في غاية المناسبة لهذه الصورة ، لمن سألها من أهل الإيمان ، ولهذا كان من دعاء سيد الأنبياء ﷺ: «اللهم كما أحسنت خلقي ، فأحسن خلقي»^(٣) .

الثمرات

ينبغي للمؤمن التحلي بالإحسان الذي هو أعلى درجات الإيمان ، مع ربه ، وخلقه ، فالإحسان مع ربه تعالى: الذي عرفه ﷺ: «الإحسان أن تعبد الله تعالى كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»^(٤) ، والسعي بكل وسيلة شرعية ، حتى يكون من المحسنين ، قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة] ، والإحسان إلى خلقه: بإيصال الخير إليهم بكل أنواعه: باللسان والأقوال ، والأفعال ، وأولى الناس بذلك الوالدان ، قال سبحانه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ [الأحقاف: ١٥] .

(١) «تفسير السعدي» (٥٦٧) بتصرف يسير .

(٢) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان (٣٣٤/٢) .

(٣) «صحيح الجامع» (١٣٠٧) .

(٤) «مسلم» (٨) .

وكلا النوعين قد وعد الرحمن عليه الثواب الجزيل ، قال ﷺ : ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف] ، وقال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة] ، وقال ﷺ : «حيثما كنتم فأحسنوا عبادة الله ، وأبشروا بالجنة»^(١) .

واعلم "يا أخي إن كنت ترغب في حب الله تعالى إياك ، فأحسن في عملك كله ، وأحسن في علمك ، ونظرك وتفكيرك ، وفي صلاتك التي صليت ، وفي صيامك إذا صمت ، وفي شهادتك إذا شهدتها ، وفي عملك كله ، في قيامك وقعودك ، ونومك ويقظتك ، وحركتك وسكونك ، وفي شأنك كله"^(٢) ، وبذلك تكون من المحسنين .

واعلم رحماني الله وإياك أن ربك ﷻ يحبُّ المحسنين ، كما قال عن نفسه العلية : ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ [البقرة] ، ويجزيهم على إحسانهم ، الأجر الأكمل والأوفى ، ولهذا دعاك إليه فقال : ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن] ، وهذا الاستفهام بمعنى التقرير ، "أي: هل جزاء من أحسن في عبادة الله ، وإلى النفع إلى عباد الله ، إلا أن يحسن الله تعالى إليه بالثواب الجزيل ، والفوز الكبير ، والنعيم المقيم ، والعيش السليم"^(٣) ، فالجزاء من جنس العمل ، الذي جعله ربنا سبحانه ميزاناً قويمًا في الدنيا ، ويوم الدين .



(١) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٣١٤٦) .

(٢) «شرح الأسماء» للإشبيلي (٣٣٥/٢) .

(٣) انظر «تفسير السعدي» (٨٣١) .

٨٩- الله ﷻ الستير ﷻ جل وعلا

قال ﷻ: «إن الله ﷻ حيي ستير ، يحب الحياء والستر ، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر»^(١).

المعنى اللغوي

الستير: على وزن (فعليل) ، من صيغ المبالغة ، بمعنى (فاعل) ، أي: كثير الستر ، فهو تعالى من شأنه وإرادته حبُّ الستر والصون سبحانه ، وهو يدل على:

الأول: الخفاء ، والتغطية ، والصون ، يقال: ستر الشيء أخفاه فانستر ، وتستر ، أي: تغطي^(٢).

الثاني: المنع والابتعاد عن الشيء ، قال ﷻ: «إذا صلى أحدكم إلى شيء يستره من الناس ، فأراد أحد أن يجتاز بين يديه فليدفعه»^{(٣)(٤)}.

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الستير "الذي أظهر الجميل وستر القبيح"^(٥) فهو:

١) الكثير الستر على عباده ، يحبُّ الستر ، ويبغض القبائح ، ويأمر بستر العورات ، ويكره الفضائح.

٢) فهو تعالى يستر العيوب على عباده المؤمنين ، وإن كانوا بها مجاهرين ، ويغفر الذنوب مهما عظمت ، ومهما كثرت ، طالما أن عبده من الموحدين^(٦).

٣) وهو سبحانه الستير: الذي يحب من عباده الستر على أنفسهم ، واجتناب ما يشينهم ،

(١) «صحيح النسائي» (٣٩٣) ، و«صحيح أبي داود» (٤٠١٢).

(٢) «المفردات» (٣٩٦) ، و«لسان العرب» (٣٤٤/٤) ، و«النهاية» (٤١٧).

(٣) «البخاري» (٤٨٧).

(٤) انظر «أسماء الله» ، للدكتور الرضواني (٣٧٠).

(٥) «المقصد الأسنى» (٧٦).

(٦) «أسماء الله الثابتة في الكتاب والسنة» (٣٧٠).

قال ﷺ: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه» (١)(٢).

٤) ومن كمال ستره الذي ليس له منتهى: أنه سبحانه "يستر حتى يتوهم صاحب العمى أنه ليس يبصر" (٣).

٥) وهو الستير سبحانه: الذي أظهر الجميل، وستر القبيح، والذنوب من جملة القبائح التي سترها، بإسبال الستر عليها في الدنيا، وفي الآخرة: بالتجاوز عن عقوبتها (٤).

٦) ومن تمام ستره تعالى: أنه ستر ما تكنه الصدور من الخبايا، والبلايا، والرزايا، ولو شاء لأطلقها إلى عالم الظهور، فمقتته البرايا.

٧) وهو جل ثناؤه الستير: الذي يحب كذلك من أوليائه المؤمنين الستر فيما بينهم، قال ﷺ: «... ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» (٥).

٨) ومن كمال ستره سبحانه: أنه إذا ستر على عبده عيباً في الدنيا، ستره تعالى في الآخرة، ولم يفضحه أمام خلقه، قال ﷺ: «لا يستر الله تعالى على عبدٍ في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة» (٦). وقال ﷺ: «... ومن ستر على مسلم في الدنيا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة...» (٧).

٩) ومن كمال ستره سبحانه: "أنه أمر المؤمنين أن يستأذنهم مما ليكهم والذين لم يبلغوا الحلم منهم في الثلاث العورات (٨)" (٩)، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "إن الله حلیم

(١) البخاري (٦٠٦٩).

(٢) «إبطال التأويلات» (٤٥٦)، و«كتاب الأسماء والصفات» (٣١٦/١).

(٣) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (١٨٠/١)، وانظر: «شرح الأسماء» للإشيلي (٢/٢٤٤).

(٤) انظر: «المقصد الأسنى» (٧٦).

(٥) البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

(٦) رواه مسلم (٢٥٩٠).

(٧) «صحيح الترمذي» (١٩٣٠).

(٨) وهو قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الْآيَاتُ مَأْمُورًا لِيَسْتَعْلِمَ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَنُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَلْبُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَوةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُ فَبِأَيِّ ذُنُوبٍ عُنِيَكُمْ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَيَّاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [النور: ٥٨].

(٩) «تفسير السعدي» (٥٧٣).

رحيم بالمؤمنين، يحب الستر، أمرهم بالاستئذان في تلك العورات، فجاءهم الله بالستور والخير^(١).

(١٠) وهو الستير سبحانه: المستور عن العيون في الدنيا برداء الكبرياء، والحجاب، جلّ ثناءه، قال ﷺ: «... حجاب النور» وفي رواية: «النار، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»^(٢)، وقال ﷺ: «... وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنان عدن»^(٣).

جلال الستير

الأول: من جلال ستره ﷻ: أن العبد يجاهره بالمعاصي والمخالفات مع فقره الشديد إليه، حتى أنه لا يمكنه أن يعصي إلا أن يتقوى عليها بنعم ربه، والربُّ ﷻ مع كمال غناه عن خلقه، وتمام قدرته عليهم، ونهاية حاجتهم، وفقرهم إليه، واضطرارهم إليه في كل لحظة ونفس، ومع ذلك يستحي من هتكه وفضيحته، وإحلال العقوبة به، فيستره بما يقيض له من أسباب الستر، ويسدل عليه ستره القدري، وستره الشرعي، ويعفو عنه، ويغفر له، بل ويدلّ سيئاته حسنات، فهو تعالى ستير يحب أهل الستر، ويستر على من ستر مسلماً، في الدنيا، والآخرة^(٤).

الثاني: ومن جلال الستير سبحانه: أنه "ينشر من عباده المناقب، ويستر عليهم المثالب"^(٥).

الثالث: ومن جلاله: أنه يوم القيامة يدني الربُّ إليه العبد، ويضع عليه ستره، ويقرره ويذكره بذنوبه في الدنيا، والتي قد سترها عن أعين خلقه، فإذا ظن أنه هالك بشّره بستره، ومغفرته، في هذا اليوم العظيم، قال ﷺ: «إن الله يدني المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم أي رب، حتى إذا قرّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته، وأما الكافر والمنافق فيقول الأشهاد ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۖ أَلَّا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾» [هود: ١٨]^(٦).

(١) «صحيح أبي داود» (٥١٩٢).

(٢) مسلم (١٧٩).

(٣) مسلم (١٨٠).

(٤) انظر ما سبق: «الحق الواضح المبين» (٥٤ - ٥٥)، «توضيح الكافية» (١٢١)، و«الأسماء والصفات» (٩١) للبيهقي

(٥) «الأسنى» (٢٣٤/١).

(٦) البخاري (٢٤٤١) (٤٦٨٥) (٧٥١٤)، ومسلم (٢٧٦٨).

فأي ستر أسمى من هذا يا عبد الله؟ ألا يستحق أن يحمد ﷺ في الليل والنهار، بل بكل نفس من أنفاسنا؟

الثمرات

إنَّ هذا الاسم الكريم يورث المؤمن محبة الله تعالى والحياء منه، وذلك لما يرى عبده وهو يعصيه، ويسدل عليه ستره، وهو مع ذلك: ينعم عليه بآلائه وإحسانه، فحريٌّ بالعبد أن يتعبد ربّه بهذا الاسم في التحلّي بالستر على النفس، والخلق، لأنه تعالى مع كمال غناه، يحب الستر ويأمر به، أما ستره على نفسه: فإنه سبحانه يكره من عبده إذا وقع في معصية، أن يذيعها ويشهرها، قال ﷺ: «كل أمتى معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً وقد ستره الله تعالى، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا، وكذا، وقد بات يستره ربه، ويُصبح يكشف ستر الله عليه»^(١)، وأما ستره مع خلقه، دلّ عليه قول النبي ﷺ: «ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»^(٢).

وليحذر العبد من تتبع عورات المسلمين، فإن الله تعالى سيجازيه بعدله بمثله، جزاءً وفاقاً، من الستير سبحانه، قال ﷺ: «... لا تفتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن تبع الله عورته يفضحه في بيته»^(٣).



(١) «البخاري» (٦٠٦٩)، و«مسلم» (٢٩٩٠).

(٢) «البخاري» (٢٤٤٢)، «مسلم» (٢٥٨٠).

(٣) «صحيح أبي داود» (٤٨٨٠).

٩٠- الله ﷻ السيد ﷻ عز شأنه

قال ﷺ: «السيد الله تبارك وتعالى»^(١).

المعنى اللغوي

السيد: صفة مشبهة للموصوف بالسيادة، ويدلُّ هذا الاسم المبارك على معانٍ جليلة، وعظيمة، وكثيرة، منها:

الأول: على الرب، والثاني: المالك، والثالث: الشريف، والرابع: المجيد، ومنه الحديث: إن وفد بني عامر جاء إلى رسول الله ﷺ فقالوا: أنت سيدنا، فقال: «السيد الله ﷻ»، قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طولاً، فقال: «قولوا بقولكم» أو «بعض قولكم»، لا يَسْتَجْرِيَنَّكم الشيطان»^(٢).

الخامس: يطلق على الكريم. السادس: والحليم الذي لا يغلبه غضبه، ومنه: أن النبي ﷺ قال للحسن بن عليٍّ ؑ: «إن ابني هذا سيد، وإن الله يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»، قيل: أراد به الحليم.

السابع: الفاضل، أي: الذي فاق غيره: بالدفع، والنفع، المعين بنفسه، وسيد كل شيء: أشرفه، وأرفعه، والقرآن سيد الكلام، والله سيد الخلق^(٣).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو السيد الذي له السيادة الكاملة المطلقة في الأولى والعقبى في أعلى معانيها، وكمالها، وجلالها، على كل الخليقة:

(١) فهو السيد سبحانه: المحتاج إليه بالإطلاق، الذي ساد الخلق أجمعين، وهم كلهم عبيده^(٤).

(١) «صحيح أبي داود» (٤٨٠٦).

(٢) «صحيح أبي داود» (٤٨٠٦).

(٣) «اللسان» (٧٤٠/٤)، «الصحيح» (٥٢٢)، «النهاية» (٤٥١)، و«إبطال التأويلات» (٦٧٧)، و«الأمم الأقصى» (٤٤٩/١).

(٤) «الحجة في بيان المحجة» (١٦٩/١)، و«لسان العرب» (٧٤١/٣).

(٢) فهو تعالى سيد الخلق، وهو مالكهم، ومالك أمرهم، الذي إليه يرجعون، وبأمره يعملون، نواصيهم بيده، يتولّى أمرهم، ويسوسهم إلى صلاحهم.

(٣) فإذا كانت الملائكة والإنس والجن، خلقاً وعبداً له ﷺ وملكاً له، ليس لهم غنى عنه طرفة عين، وكلّ رغباتهم إليه، وكلّ حوائجهم إليه، كان هو ﷺ (السيد) على الحقيقة^(١).

(٤) فهو السيد سبحانه: الذي له السيادة الكاملة المطلقة: ملكاً، وخلقاً، وتدبيراً، وتصريفاً، وأمراً، وتقديراً، وذلاً، وخضوعاً، وانكساراً^(٢).

(٥) وهو تعالى السيد: الذي له السؤدد كله حقيقة له^(٣)، "الذي قد كُمل في سُودده، والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، الحليم الذي قد كمل في حلمه، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه هذه صفاته لا تنبغي إلا له"^(٤).

(٦) وهو السيد سبحانه: الحليم "الذي وسع حلمه الأنام، فلا يستفزّه جهل جاهل، ولا يحمله على استعجال العقوبة على أهل الظلم، والعصيان، والطغيان"^(٥).

(٧) وهو السيد تعالى: الغني، العزيز، الذي يستغني بنفسه، ويعزّ بنفسه، فلا يحتاج إلى غيره، والكل يحتاج إليه لغناه، ويخاف منه لعزّته سبحانه^(٦).

جلال السيد

الأول: من جلال سيادته ﷺ: أنه ليس للملائكة، ولا الإنس، ولا الجن، ولا لمخلوق غنية عنه في كل أمره وأحواله، في ليله ونهاره، في حضره وسفره، في أكله وشربه، ولم تكن لهم غنية عنه في بدء أمرهم وهو الوجود، إذ لو لم يوجد لهم لم يوجدوا، ولو لم يبقهم بعد الإيجاد لم يكن لهم بقاء، ولو لم يعنهم فيما يعرض لهم أثناء البقاء، لم يكن لهم معين غيره، فكان حقاً له جلّ

(١) «بدائع الفوائد» (٧٣٠/٣)، و«تحفة المودود بأحكام المولود» لابن القيم (١٢٦/١) و«المنهاج في شعب الإيمان» للحليمي (١٩٢/١)، بتصرف يسير.

(٢) «فقه الأسماء الحسنی» (٧٨)، د. عبد الرزاق البدر بتصرف.

(٣) «عون المعبود» (٢٠٠/٨).

(٤) صح عن ابن عباس ﷺ، «التفسير الصحيح» (٦٨١/٤).

(٥) ينظر: «شأن الدعاء» (٦٣)، و«الحق الواضح» (٥٥).

(٦) انظر: «بيان تلييس الجهمية» (٤٦٣/٣)، و(٤٣٣/٥).

جلاله أن يكون سيِّداً، وكان حقاً على الخلق جميعاً، أن يدعوه السيد [على الإطلاق] دون سواه^(١) من العباد.

الثاني: ومن جلاله: أنه يفعل في عبيده ما شاء، من غير حجرٍ ولا منع^(٢).

الثمرات

إذا كان الله ﷻ هو السيد على الإطلاق، له التصرف التام في كل الأكوان، فينبغي أن يكون هو المعبود وحده على الإطلاق، فيطاع ولا يُعصى، ويشكر ولا يُكفر، يذكر ولا ينسى، فهذه هي حقيقة موالاته العبد لسيدته، ثم "يجب على كل مكلف: أن يعتقد السيادة والشرف على الإطلاق لله تعالى، وأن كل سيادة للمخلوق وشرف، فمنه، وكل موجود في الوجود، وضع الله فيه سؤدداً، أو سماه سيِّداً، فهو متفضِّل بذلك عليه بتلك المنحة التي منحه، وصان عليه السؤدد، الذي فضّله به على غيره، فمن غيره أن يرى السؤدد الحقيقي لخالقه، وأن لا يفتخر بالسؤدد المعار عنده، كما فعل سيد الأولين والآخرين، إذ قيل له: أنت سيدنا، فقال: «الله السيد»^(٣)، أي: هذا الوصف على الكمال وعلى الحقيقة، إنما هو لله تعالى، لا لأحدٍ من الخليقة.

ثم يجب عليه أن يسعى في طلب السيادة حتى يسود قومه، ويوفق أهله، وذلك بالتخلق بالأخلاق الجميلة، والأفعال الحميدة، ولزوم الطاعات، واجتناب المخالفات، فتحصل له السيادة، على التحقيق، وبالله التوفيق^(٤).

ومن عبوديته: أن ينظر (العبد) إلى من بيده بعين الأخوة، وإن كان له عليه فضل السيادة، فإنها عارية بيده، محجورة مقصورة عليه، معرضة للزوال، قال ﷺ: «إخوانكم خولكم، ملككم الله رقابهم، فأطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون، فإن كلفتموهم فأعينوهم»^{(٥)(٦)}.



(١) انظر: «الحجة في بيان المحجة» (١/١٦٩)، و«المنهاج» (١/١٩٢)، و«الأسنى» (٣٨٨).

(٢) «الأمد الأقصى» (١/٤٥٠).

(٣) سبق تخريجه قريباً.

(٤) «الأسنى» (٣٨٨).

(٥) البخاري (٢٥٤٥)، ومسلم (١٦٦١).

(٦) «الأمد الأقصى» (١/٤٥٠).

٩١- الله ﷻ الشافي ﷻ عز وجل

كان ﷻ إذا أتى مريضاً أو أتى به قال: «أذهب الباس ربَّ الناس، اشفِ أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً»^(١).

المعنى اللغوي

الشافي: اسم (فاعل)، والشفاء: البرء من المرض، يقال: شفاه الله يشفيه، واستشفى افتعل منه، و"أشفى على الشيء": أشرف عليه، وسمي الشفاء شفاءً لغلبته للمرض، وإشفائه عليه، واشتفيت بالعدو وتشفيت به من ذلك، لأن الغضب الكامن كالداء، فإذا زال بما يطلبه الإنسان من عدوه فكأنه برئ من دائه، والشفاء يشمل: شفاء الأبدان، والأرواح، والنفوس^(٢).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الشافي الذي بيده الشفاء على الحقيقة من جميع الأدوية الحسية والمعنوية: (١) فهو سبحانه الذي يرفع البأس والعلل، ويشفي العليل بالأسباب والأمل، فقد يبرأ الداء مع انعدام الدواء، وقد يشفي الداء بلزوم الدواء، وتارة يداوي الداء بالداء، ويرتب عليه أسباب الشفاء، وكلاهما باعتبار قدرة الله تعالى سواء^(٣).

(٢) وهو تعالى الشافي: كما يشفي الأبدان من عللها، كذلك يشفي القلوب من أسقامها، والصدور من ضيقها، قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسَ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس^(٤)].

(٣) فهو الشافي: الذي يشفي من جميع الأسقام الظاهرة المزمنة من العلل: كالبرص،

(١) «البخاري» (٥٣٥١) «مسلم» (٢١٩١).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (١٩٩/٣)، «لسان العرب» (٢٢٩٣/٤)، و«النهاية» (٤٨٦)، و«المصباح المنير» (١٨٥)، و«المنهاج» (٢٠٩/١)، و«الأمد الأقصى» (٤٣٢/٢).

(٣) «أسماء الله الحسنى» للرضواني (٦٢٦)، و«نظم الدرر» (١٦٨/٢).

(٤) «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي عبد الله الرملي (٩٨).

والجنون ، والجذام^(١) ، ومن الأسقام الباطنة: كالهم ، والجبن ، والعجز ، والكسل^(٢) ، والهرم^(٣) ، والوهن ، والأسقام المعنوية: كالكفر ، والشرك^(٤) ، والرياء ، والنفاق ، والوساوس^(٥) .

٤) وهو الذي يشفي من يشاء ، ويطوي علم الشفاء على الأطباء ، إذا لم يقدر الشفاء .

٥) وهو الشافي سبحانه: "الذي استودع العقاقير منافع الأدوية ومضارها"^(٦) .

٦) وهو الشافي عزَّ شأنه: الذي لا شافي إلا هو ، المتفرّد بالشفاء ، لا شريك له "فلا شفاء إلا: له ، وبه ، ومنه"^(٧) ، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي﴾ [الشعراء] ، وقوله ﷺ: «... أنت الشافي...»^(٨) .

جلال الشافي

الأول: من جلال شفائه تعالى: أنه خلق أسباب الشفاء ، ورتّب النتائج على أسبابها ، والمعلولات على عللها ، فيشفي بها وبغيرها^(٩) .

الثاني: ومن جلاله: أنه جعل قتال الكفار ، وقتلهم ، شفاء لما في قلوب الأبرار ، من الغمّ والهمّ ، والأكدار ، قال ﷺ: ﴿فَتَلَوْهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤] .

وهذا يدلُّ على محبة الله تعالى للمؤمنين ، واعتناؤه بأحوالهم ، حتى إنه جعل من جملة المقاصد الشرعية: شفاء ما في صدورهم ، وذهاب غيظهم^(١٠) .

الثالث: ومن جلال الشافي تعالى: أنه لم ينزل داء إلا أنزل له دواء ، قال ﷺ: «تداووا عباد الله ، فإن الله تعالى لم يضع داءً إلا وضع له دواء ، غير داءٍ واحد الهرم»^(١١) .

(١) كما كان ﷺ يستعيد بهم ، صحيح أبي داود (١٥٥٤) .

(٢) صحيح البخاري (٦٣٦٣) .

(٣) البخاري (٢٨٢٣) ، ومسلم (٢٧٠٦) .

(٤) صحيح النسائي (٥٤٩٣) .

(٥) كما في أمره سبحانه: ﴿وَقُلْ رَبِّ اعْوِذْ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ [المؤمنون ٩٧ - ٩٨] .

(٦) «الأسنى» (٣٥٣/١) .

(٧) «الأمَد الأقصى» (٤٣٣/٢) .

(٨) كما دلَّ ضمير الفصل (أنت) والذي يفيد الحصر والاختصاص والقصر .

(٩) «أسماء الله الحسنى» للرضواني (٦٢٦) .

(١٠) انظر: «تفسير السعدي» (٣٣١) .

(١١) «صحيح أبي داود» (٣٨٥٥) .

الرابع: ومن جلاله: أنه سبحانه أنزل أعظم الشفاء، وأكمله، وهو كلامه (القرآن) العظيم، فإنه تعالى لم ينزل من السماء شفاءً قط، أعم، ولا أنفع، ولا أعظم في إزالة الداء، من القرآن الكريم، قال رب العالمين: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]، وقال عزَّ شأنه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، فالقرآن الكريم ربيع القلوب، وشفاء الصدور، ونور البصائر، وحياة الأرواح، فالقرآن شفاء لما في الصدور، وإن لم يستشف به أكثر المرضى، فهو نفسه شفاء، استشفى به، أو لم يستشف به، فهو الشفاء التام من جميع الأدوية القلبية، والبدنية، وأدواء الدنيا، والآخرة، فإذا أحسن التداوي به، ووضع على دائه بصدق، وإيمان، وقبول تام، واعتقادٍ جازم، واستيفاء شروطه، لم يقاومه الداء أبداً^(١).

الثمرات

يجب على كل مكلف أن يعتقد: أن لا شافي على الإطلاق إلا الله وحده، فيعتقد أن الشفاء له، وبه، ومنه، وأن الأدوية المستعملة لا توجب الشفاء، ولا تحدث صحة، وإنما هي أسباب، وأوساط، فهو تعالى يشفي بالأسباب أو بدونها، ولو شاء ربك لخلق الشفاء دون سبب، ولكن لما كانت الدنيا دار أسباب، جرت السنة فيها بمقتضى الحكمة على تعليق الأحكام بالأسباب، وإلى هذا المعنى أشار جبريل عليه السلام، وإياه أوضح لرسول الله ﷺ: «بسم الله أريقك، الله يشفيك»^(٢). فيبين أن الرقية منه، وهو سبب لفعل الله تعالى، وهو الشفاء^(٣).

ثم إن الواجب على العبد أن يعرف فيما يتعلق بالأسباب أموراً ثلاثة: أحدها: أن لا يجعل منها سبباً إلا ما ثبت أنه سبب شرعاً، أو قدراً.

ثانيها: أن لا يعتمد العبد عليها، بل يعتمد على مسببها، ومقدِّرها، مع قيامه بالمشروع منها، وحرصه على النافع منها.

ثالثها: أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت، فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره، لا خروج لها عنه، والله تعالى يتصرف فيها كيف يشاء، إن شاء أبقي سببها، وإن شاء غيَّرها كيف يشاء، لئلا يعتمد العباد عليها، وليعلموا كمال قدرته^(٤).

(١) انظر: «شفاء العليل» (٦٢٩)، و«مفتاح دار السعادة» (١٧١/٢)، «الداء والدواء» (٧).

(٢) «مسلم» (٢١٨٦).

(٣) «الأمد الأقصى» (٤٣٣/٢) لابن العربي، و«الأسنى» للقرطبي (٥٣٢/١).

(٤) «فقه الأسماء» أ. د. د. البدر (٢٩٠).

٩٢- الله ﷻ الْمُعْطِي ﷻ تبارك وتعالى

قال ﷻ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ، والله المعطي وأنا القاسم»^(١)

المعنى اللغوي

المعطي: اسم (فاعل) ، والعطية: اسم لما يُعطى ، وجمعها: عطايا ، والإعطاء: المناولة ، وتعاطي الشيء: تناوله وقصد فعله ، وأعطاه الشيء: وهبه إياه ، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١] ، ورجل وامرأة معطاء ، أي: كثير العطاء ، والمعطي: هو الممكن من النعمة^(٢) .

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو المعطي "عطاءً لا يدخله عد ، ولا يحويه حد"^(٣) :

(١) الذي لا مانع لما أعطى ، ولا معطي لما منع ، فهو تعالى يعطي من استحق العطاء ، ويمنع من استحق المنع .

(٢) وهو سبحانه يعطي من يشاء ما يشاء ، ويمنع من يشاء ما شاء ، وهو العادل في جميع ذلك ، فإذا أعطى تفضل وإصلاح ، وإذا منع فحكمة وصلاح ، فهو يعطي تفضلاً ، ويمنع ابتلاءً ، ولا راداً لما أراد سبحانه أبداً^(٤) .

(٣) وهو المعطي تعالى: الذي عطاؤه حكمة ، ومنعه رحمة ، لأنه لا ينقصه إعطاء ، ولا يزيده منع^(٥) ، بخلاف المخلوق الذي قد يعطي عن سفه وجهل ، الذي ينقصه الإعطاء ، ويزيده بالمنع .

(١) «البخاري» (٢٩٤٨ ، ٦٨٨٢) .

(٢) «كتاب العين» (١٨٥/٣) ، و«عمدة الحفاظ» (٩٤/٣) ، و«القاموس المحيط» (٨٨٦) ، و«النهاية» (٦٢٥) .

(٣) «نظم الدرر» (١٦٧/٥) .

(٤) انظر: «تفسير أسماء الله» (٦٣) ، «شأن الدعاء» (٩٣) ، و«الحجة في بيان المحجة» (١٦٠/١) ، و«شرح أسماء الله

الحسنی» لأبي العباس البرنسي (١٢٣) .

(٥) «السراج المنير» للشربيني (١١٠/٤) .

(٤) وهو المعطي سبحانه: ذو العطاء الممدود، الذي وسع كل موجود في هذا الوجود، الذي ليس له حدود، ولا مقيد بقيود، بكمال الكرم والجود.

(٥) وهو المعطي سبحانه: الذي يوصل العطاء بلا سبب، ويسهل الأمور قبل القصد، ويتبدى بالنعمة من غير استيجاب، ويعطي ما يشاء من غير طلب^(١).

(٦) وهو المعطي تعالى: الممكن من نعمه، الذي ما بالعباد من نعمة إلا منه^(٢)، وبه، وإليه، وسع عطاؤه العباد كلهم: إنسهم وجنهم، مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، بل عمّ الحيوان والنبات، وكل الموجودات.

(٧) "وهو المعطي: من شاء من القوة، والقوى الحسية، والقوى المعنوية، الظاهرية والباطنية، من العقل، والمعارف، والكمالات المتنوعة الدنيوية، والدينية"^(٣)، كان من دعاء النبي ﷺ: «اللهم أعطني نوراً»^(٤).

(٨) ومن كمال المعطي سبحانه: أنه غير ممنوع في الدنيا على العباد بسبب عصيانهم، بل يزيده عطاءه على التلاحق من غير انقطاع، فأوصل عطاءه إلى أهل الطاعة، وأهل المعصية، فلا يؤثر معصية العاصي في قطع رزقه، بل جميع الخلائق يرتعون من معطاه الواسع الذي لا تنأى له، قال سبحانه: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هُنُوًّا وَهَنُوًّا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]^(٥).

(٩) وهو الذي أعطى الإيمان وأنزل القرآن بالفضل والإحسان الذي به الكمال، وأعطى الهدى الذي به الوصول، وأعطى التوفيق الذي به القبول^(٦).

(١٠) وهو المعطي سبحانه على الحقيقة: فإنه هو الذي خلق الأرزاق وقدرها وساقها إلى من يشاء من العباد، فالمعطي هو الذي أعطاه، وحرك قلبه لعطاء غيره^(٧).

(١) «نظم الدرر» (٣٧٢/٤)، و«موسوعة الشراصي» (٢٥/٢) (٢٣٢/١) بتصرف.

(٢) «المنهاج في شعب الإيمان» (٢٠٦/١)، و«تيسير الكريم المنان» (٧٥٤).

(٣) «توضيح الكافية الشافية» (١٣١) بتصرف.

(٤) رواه مسلم (٧٦٣).

(٥) ينظر: «فتح القدير» (٢٧٣/٣)، و«تفسير غرائب القرآن» (٣٣٥/٤)، و«روح المعاني» (٦٩/٩)، و«تفسير السعدي» (٤٥٥).

(٦) «الموسوعة» (٢٥/٢).

(٧) «مجموع الفتاوى» (٩٢/١).

(١١) وهو الذي يعطي من يشاء الفقه، والعلم، والعمل بمقتضاه من علوم الشريعة، قال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم، والله يعطي»^(١).

(١٢) وهو المعطي عز وجل: الذي أعطى الخلائق ما به قوامهم من المطعوم والمشروب والملبوس والمنكوح، ثم هداهم إلى كيفية الانتفاع بها، فيستخرجون الحديد من الجبال، واللاكي من البحار، ويركبون الأغذية والأدوية، والأسلحة، والأمتعة، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]^(٢).

(١٣) ومن كمال المعطي جل ثناؤه: أنه جعل المعطي يتناول ذلك العطاء، وخلق للمعطي قدرة على تناول ذلك العطاء، ويوجد له في باطنه قبولاً منه، وذلك خاص للمعطي دون غير من المتصفين بمجاز^(٣).

(١٤) وهو الذي أعطى من شاء: من الملك والمال والبسطة، منهم سليمان عليه السلام، قال تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩]^(٤).

(١٥) وكما أنه تعالى يعطي تفضلاً، فإنه يعطي استدراجاً على من تجرأ على معاصيه، جزاءً وفاقاً، قال ﷺ: «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج»^(٥).

(١٠) وعطاء الله ﷻ نوعان: عطاء عام للأبدان، وعطاء خاص للأرواح:

الأول: عطاء عام: وهو الذي تقوم به الأبدان، وهو لكل الأنام: وهذا العطاء لكل الخلائق أجمعين، مؤمنهم وكافرهم، برّهم وفاجرهم، في كل آنٍ وحين، من الهبات والخيرات، والأرزاق بما يقيم لهم، ويصلح لهم أمرهم في دنياهم، قال تعالى: ﴿كَلَّا نُمَدِّدْهُنَّ لَوْلَا وَهَتْوُلَا مِنْ عَطَائِكَ وَمَا كَانَ عَطَاؤُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ١٠].

وقال تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠].

(١) البخاري (٣١١٦)، ومسلم (١٠٣٧).

(٢) «تفسير غرائب القرآن» (٥٥٠/٤).

(٣) «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان (٢١٤/٢).

(٤) «مدارك التنزيل وحقائق التأويل» (١٠٢٢).

(٥) صحيح الجامع (٥٦١).

الثاني: عطاء خاص: الذي تقوم به الأرواح وهو لأهل الإيمان:

(أ) في الدنيا: لأنبيائه، ورسله، وعباده الصالحين، من الرزق الحلال، والذرية الصالحة، وأعظمها عطية الإيمان، واليقين، والهدى المبين، قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّهَا وَيُعْطِي الْآخِرَةَ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ» (١).

(ب) وفي الآخرة: وهي العطية الكبرى في جناته العلا، التي لا أكمل ولا أجلّ منها على الإطلاق، قال تعالى: ﴿جَزَاءً مِّن رَّبِّكَ عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ [الباء]، وأعظم العطاء في دار الحسن والبهاء، رضا رب العباد، قال ﷺ: «... ثُمَّ يَقُولُ [أَيُّ: اللَّهُ سُبْحَانَهُ]: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ، فَمَا رَأَيْتُمُوهُ فَهُوَ لَكُمْ، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ، فَيَقُولُ: لَكُمْ عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا، فَيَقُولُونَ: يَا رَبَّنَا أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟ فَيَقُولُ: رِضَايَ فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا» (٢).

جلال المعطي

الأول: من جلال المعطي سبحانه: "أنه يمنع من يشاء، وقد يكون في طيات منعه خير العطاء:

فقد يمنع سبحانه عن العبد كثرة المال، ويعطيه خيراً منه: العافية، والسلامة، وراحة البال، وقد يمنع عن العبد الصحة في الأبدان، ويعطيه الرضا بالأحكام" (٣)، والسكينة بها والاطمئنان، وقد يمنع عنه الذرية، ويعطيه حسن العبودية في الأركان والجنان، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَلْبِسْكُمْ ذِيئَ الْحَبَاةِ وَالْأُفْجَاءِ وَالْبَقِيَّةَ وَالْبَقِيَّةَ وَالْبَقِيَّةَ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦].

وينحوه أشار خير البرية ﷺ: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم، إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها» قالوا: إذا نكث، قال: «الله أكبر» (٤).

الثاني: ومن جلاله: "أنه تعالى يعطي من غير أن يخاف نفاذ خزائنه، ويعطي المتناهي لا من

(١) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» للألباني (٢٧١٤) (٤٨٢/٦).

(٢) «مسلم» (١٨٣).

(٣) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (٤٢٤/١) بتصرف.

(٤) رواه أحمد في المسند (١١١٣٣)، وصححه الألباني في الأدب المفرد (٥٤٧)، وفي صحيح الترمذي (٣٥٧٣).

عدد أكثر منه ، كما يفعله العباد ، ولكن يعطي التناهي من غير المتناهي^(١).

الثالث: ومن جلال عطائه: أنه سبحانه ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه] ، أي: أعطى خليقته كل شيء يحتاجون إليه ، ويرتفقون به ، فأعطى كل شيء ما يناسبه ، في الانتفاع إلى مصالحه ، من الإنس ، والجن ، والبهائم ، مما هو به أليق في المنافع المنوطة به ، والآثار التي تتأثر عنه من الصورة والشكل ، والمقدار ، واللون ، والطبع ، فأعطى العين الهيئة التي تطابق الإبصار ، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع ، وغير ذلك مما يفوت الحصر ، ويجل عن الوصف كل واحدٍ منها مطابق للمنفعة المنوطة بها ، ثم ألهمه إلى منافعه ، ودفع المضار عنه^(٢) ، حتى إن الله تعالى أعطى الحيوان البهيم من العقل ما يتمكن به على ذلك^(٣).

الرابع: ومن جلال المعطي عز شأنه: أن له العطاء أولاً وآخرًا ، فمنه السبب ، ومنه الجزاء ، ومنه التوفيق ، (فالعباد) محل إحسانه فقط ، ليس منهم شيء ، وإنما الفضل كله ، والنعمة كلها ، والإحسان كله منه أولاً وآخرًا. (ومن ذلك: أنه) أعطى عبده ماله ، وقال: تقرب بهذا إليّ أقبله منك ، والمال له ، والثواب منه ، فهو المعطي أولاً وآخرًا^(٤).

الخامس: ومن جلال عطائه سبحانه: أنه يعطي أجرًا كاملاً لمن ذهب إلى المسجد فوجد الناس قد صلوا ، قال ﷺ: «من توضأ فأحسن وضوءه ، ثم راح فوجد الناس قد صلوا ، أعطاه الله جل وعزّ مثل أجر من صلاها وحضرها ، لا ينقص ذلك من أجرهم شيئاً»^(٥).

السادس: ومن جلال المعطي: أنه تعالى خلق ملكاً عظيماً أعطي سمع جميع الخلائق ، قال ﷺ: «إن لله تعالى: ملكاً أعطاه سمع العباد ، فليس من أحدٍ يصلي عليّ إلا أبلغنيها ، وإنني سألت ربي أن لا يصلي عليّ عبدٌ صلاةً ، إلا صلى عليه عشر أمثالها»^(٦).

السابع: ومن جلال عطاء ربنا سبحانه: "أنه لا يشقُّ عليه البذل ، إذا أعطى أعطى عن سعة ،

(١) «تفسير الطبراني» (٣٦١/١).

(٢) «تفسير الطبراني» (٢٤٣/٤) ، «نظم الدرر» (٢٢/٥) ، «تفسير غرائب القرآن» (٥٥٠/٤) ، و«تفسير النسفي» (٦٩٣) ، و«روح المعاني» (٢٩٣/٩).

(٣) «تفسير السعدي» (٥٠٧).

(٤) «طريق الهجرتين» (٢٦١).

(٥) صحيح أبي داود (٥٦٤).

(٦) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٥٣٠) ، وفي صحيح الجامع (٢١٧٦).

وإذا منع منع عن حكمة، من غير تكلف ولا مؤونة^(١).

الثمرات

حق على من علم أن الله تعالى هو المعطي والمانع أن يقطع من قلبه من الخلق المطامع، وأن يقف مع الله بقلبٍ راضٍ قانع، فإن أغناه صرف في طاعته غناه، وإن منعه علم أنه لم يمنعه من بخل ولا عدم، بل ليكون منعه معقباً له ما هو أشرف وأكرم من الغنى الذي لا ينصره، فإن جاءه من أحدٍ من الخلق سبب من أسباب الرزق، فليرد ذلك إلى الواحد الحق^(٢).

وإذا علم العبد سعة عطائه تعالى، فينبغي له أن يبذل الأسباب التي تقتضي عطاءه من الأقوال، والأفعال، قال ﷺ: «إن الله ليعطي على الرفق ما لا يعطي على الخرق، وإذا أحب الله عبداً أعطاه الرفق»^(٣)، وينبغي للعبد أن يكون معطاءً، لا يخشى من الفقر إقلاقاً، قال ﷺ: «الأيدي ثلاثة: فيدُ الله العليا، ويدُ المعطي التي تليها، ويدُ السائل السفلى، فأعط الفضل ولا تعجز عن نفسك»^(٤).

ولما كان رضى الله تعالى هو أفضل العطايا والمنح، فينبغي للعبد أن يلح إلى ربه تعالى أن يرزقه رضاه: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك...»^(٥).



(١) «الأمد الأقصى» (٣٧١/١).

(٢) «الأسنى» (٣٥٧/١).

(٣) «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٦٦٦).

(٤) «صحيح أبي داود» (١٦٤٩).

(٥) «مسلم» (٤٨٦).

٩٣- الله ﷻ الطَّيِّبُ عَزَّ شَأْنُهُ

قال ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا»^(١).

المعنى اللغوي

الطَّيِّبُ: على بناء فعل ، فعله: طَابَ يَطِيبُ طَيِّبًا فما أطيبه ، يعني: ما أجمله ، وما أحسنه ، وما أنفَّسه ، وما أحلاه ، وما أجوده .

والطيب من كلِّ شيءٍ جوهره ، وأنفسه ، وأفضله ، وأصل الطيب: الزكاة ، والطهارة ، والسلامة من الخبث كله ، ثم ارتفع بعدُ إلى أرفع درجاته ، فيأتي بمعنى:

الأول: الشرف ، تقول العرب: "بيتٌ طيبٌ" : يكتنى به عن شرف نفسه وصلاحه وكرامته .

الثاني: الطاهر ، وأكثر ما يردُّ بهذا المعنى ، قال تعالى: ﴿صَبِّحْ بِطَيِّبٍ﴾ [النساء: ٤٣] ، وكما في حديث عليٍّ رضي الله عنه قال: «لَمَّا غَسَّلَ النَّبِيُّ ﷺ ذَهَبَ يَلْتَمِسُ مِنْهُ مَا يَلْتَمِسُ مِنَ الْمَيِّتِ فَلَمْ يَجِدْهُ ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا الطَّيِّبُ! طَبْتُ حَيًّا وَطَبْتُ مَيِّتًا»^(٢) ، أي: طهرت^(٣).

الثالث: خلاف الخبيث ، أي: كل ما خلا من الأذى والخبث ، ومن تخلَّى عن الرذائل وتخلَّى بالفضائل ، ومنه الحديث: إن رسول الله ﷺ سَمَّى الْمَدِينَةَ: «طَابَةَ ، وَطَيْبَةَ ، وَإِنِّهَا تَنْفِي الْخَبْثَ كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبْثَ الْفُضَّةِ»^(٤) ، ومنه الحديث: «وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَيْبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا»^(٥) أي: نظيفة غير خبيثة .

الرابع: نفي الآفات والمكاره ، يقال: "عيشٌ طيبٌ" إذا كان خاليًا عن المكاره والآفات ،

(١) «مسلم» (١٠١٥).

(٢) «صحيح ابن ماجه» (١٤٦٧).

(٣) صحيح الترمذي (٣٧٩٨). وفي حديث علي رضي الله عنه: جاء عمار يستأذن على النبي ﷺ فقال: «ائذنوا له ، مرحبًا بالطَّيِّبِ الْمُطَيَّبِ» ، "أي: الطاهر المطهر ، وفيه مبالغة كظل الظليل". «تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي» (٢٩٠/٩).

(٤) انظر هذه الروايات في البخاري (١٨٧٢) (٤٠٥٠) ، ومسلم (١٣٨٤) (١٣٩٢).

(٥) مسلم (٥٢١).

وقوله تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَتَابٍ﴾ [الرعد: ٢٩] ، هي من الطيب .

الخامس: اللين والسهولة والسماحة ، يقال: "أرضٌ طيبة": للتي تصلح طيبة إذا كانت لينّة ليست شديدة ، و"زبون طيب" أي: سهلٌ في مُبايعته ، و"فلان طيب الأخلاق" إذا كان سهل المعاشرة .

السادس: الحسن الجميل ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الحج: ٢٤] ، قال ثعلب: هو الحسن ، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] ، أي: الكريم الحسن أيضاً ، كذكر الله وتلاوة القرآن وغير ذلك ^(١) .

وهذا الاسم الطيب المبارك ، له وقعٌ عظيم في اللسان ، والقلب ، فهو يستعذبه بالثناء اللسان ، ويهنأ به بالتعظيم الجنان ، وتسكن به الأركان ، ويطير العبد إلى الله شوقاً إلى لقائه ورؤيته ، لما تضمنه من جمال في المعاني ، وجلال الأوصاف من الكمال العالي .

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الطيب الذي لا أطيّب منه على الإطلاق في الذات ، والنعوت ، ولأهل الوداد:

(١) هو سبحانه الطاهر على الإطلاق من جميع الوجوه والاعتبارات ، فهو:

(أ) المطّهر عن كل النقائص ، والمعائب .

(ب) والمقدس عن الأدناس والخبائث .

(ج) المنزه عن كل الآفات والشوائب .

(د) البريء عن الشرور والمساوي ^(٢) ، لكماله تعالى وجلاله من كل الوجوه .

(٢) فهو تعالى الطيب: المنزه عن كل وصفٍ خالٍ عن كمال ، أو عن طيب الثناء ^(٣) ، في أي حال من الأحوال .

(١) انظر المعاني اللغوية: «كتاب العين» (٦٩/٣) ، و«لسان العرب» (٢٧٣١/٤) ، و«الصحاح» (٦٥٣) ، و«النهاية» (٥٧٢) ، و«عمدة الحفاظ» (٤٢٩/٣) ، و«شرح صحيح مسلم» للنووي (١٠٠٠/٧) ، و«الأمّد الأقصى» (٤٦٨/١) ، و«شرح أسماء الله» لابن برجان (٢٢٠/١) ، و«الأسنى» (٢٨٧ ، ٢٩٠) .

(٢) ينظر: «الأمّد الأقصى» (٤٧٠/١) ، و«الأسنى» (٢٨٧ ، ٢٩٠) .

(٣) «شرح النووي على مسلم» (١٠٠/٧) ، و«فيض القدير» (٢٣٩/٢) .

(٣) وهو الطيب سبحانه: الذي له الشرف العالي ، والسؤدد المتعالي ، والحسن ، والكمال ، والجلال الغير المتناهي .

(٤) وهو الطيب تعالى : "الذي له الطهارة الكاملة ، والنزاهة المطلقة ، وإن كل طهارة منه ، وبه" ^(١) وإليه سبحانه .

(٥) وهو الطاهر الزكي النقي ، الذي لا يصدر منه إلا الخيرات ، والحسنات ، والآلاء ، بل كل أجناس الطيبات .

(٦) وهو الطيب سبحانه: "المطهر لمن شاء من عبده ، بما منحهم من توفيقه ، ورزقهم من طاعته وتوحيده ، فكل طهارة منه فضل ومن غيره عدل" ^(٢) ، قال عليه السلام لعمار بن ياسر: «مرحباً بالطيب المطيب» ^(٣) ، أي: الطاهر ، المطهر ^(٤) .

(٧) ومن كمال طيبته تعالى : أن إنعامه وعطاياه إلى عباده نازل ، وشرهم وسوؤهم إليه صاعد ، يغدو عليهم من كل الطيبات ، وهم يكفرون به ويعصونه في كل اللحظات ، وما يزيده ذلك إلا طيباً سبحانه .

(٨) وهو تعالى الطيب: في ذاته ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، وأقواله ، وسلطانه :

(أ) فذاته: أكمل الذوات ، المتّصفة بأكمل ، وأعلى الصفات ، المنزه عن مشابهة أحد من المخلوقات .

(ب) وأسمائه: هي أجمل الأسماء ، لأنها كلها حسنى ، لإنبائها على أحسن المعاني ، وأشرف الدلالات ، وليس فيها اسم يتضمن السوء أو الشر .

(ج) وصفاته: هي أكمل الصفات ، من جميع الوجوه والاعتبارات ، فكل فرد منها له فيها المنتهى من الكمال ، الذي لا يحصى ولا يُحاط .

(١) «الأسنى» (٢٨٧) .

(٢) المصدر السابق (٢٨٧) .

(٣) تقدّم تخريجه .

(٤) لعلّه إشارة إلى أن جوهر ذاته طاهر ، طيب ثم طيبه وهذبه الشرائع والعمل بها ، فصار نوراً على نور . «تحفة الأحوذى» (٢٩٠/٩) ، وقال السندي رحمته الله : "قوله: (بالطيب) كأنه جبل على الاستقامة والسلامة ، ثم زاده الله تعالى على ذلك: بما أعطاه الله من علم الكتاب والسنة ، فقل: الطيب المطيب . «إنجاز الحاجة شرح سنن ابن ماجه» للشيخ محمد علي جانباز رحمته الله (٤٣٨/١) .

(د) وهو الطيب في أفعاله: فكلها طيبة، فلا يصدر منه إلا كل فعل جميل، وهي في غاية الحق والصواب، فلا يفعل إلا الأكمل، والأحسن، والأطيب على الإطلاق.

(هـ) الطيب في أقواله: فهي صدق في الأخبار، وعدل في الأوامر والمنهيات، وليس لها منتهى ولا نفاذ.

(و) الطيب في سلطانه: الذي أوجده بغاية الإتقان، الذي حوى فيه من عجائب المصنوعات، التي ليس فيها خلل، ولا نقصان.

(٩) وهو الطيب تعالى: "الذي له طيب الثناء، ومستلذ الأسماء عند العارفين بها" (١)، من الأولياء، من: المحامد، والمماجد، والتكبير، والتعظيم، وغيرها من أصناف الثناء.

(١٠) وهو الطيب سبحانه: السهل، الميسر على كل عسير، والسمح الذي يتجاوز عن حقوقه، العفو الذي يتجاوز عن الذنوب، الكبير منها والحقير، فسبحانه ما أطيبه من طيب.

(١١) ومن كمال طيبته جل ثناؤه: "أنه اختار من كل جنس من أجناس المخلوقات أطيبه، واختصه لنفسه، وارفضاه دون غيره، فإنه تعالى طيب لا يحب إلا الطيب، ولا يقبل من العمل والكلام والصدقة إلا الطيب، فالطيب من كل شيء: هو مختاره تعالى" (٢).

(١٢) والله ﷻ هو الطيب: الذي يطيب أولياءه في الدارين:

الأول: في الدنيا: كما في قوله ﷻ للأسود الذي قتل في سبيل الله: «قد بيّض الله وجهك، وطيب ريحك» (٣)، وقوله ﷻ: «طهروا هذه الأجساد طهركم الله، فإنه ليس عبدٌ بيت طاهرًا إلا بات معه ملك في شعاره، لا ينقلب ساعة من الليل إلا قال: اللهم اغفر لعبدك، فإنه بات طاهرًا» (٤).

الثاني: في الآخرة: طيب لهم الجنة يوم الدين، فجعلها ذات ريح طيبة (٥) بأطيب ما يكون من الحسن والنعيم، قال تعالى: ﴿وَيَدْخُلُهُمُ الْجَنَّةُ عَرَفَهَا﴾ (٦) ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾ [محمد ﷺ]، فقد قضى سبحانه أن

(١) «الأسنى» (٢٩٠).

(٢) «زاد المعاد» (٦٥/١).

(٣) «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣٨١) (١٤٣/٢).

(٤) «صحيح الجامع» (٣٩٣٦).

(٥) قال ﷻ: «... فإن ريح الجنة ليوجد من مسيرة مائة عام». «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦٩٢).

(٦) أي طيبها، وهو أحد المعاني الثابتة في تفسير هذه الآية، انظر: «المفردات» (٥٦١)، و«التفسير اللغوي في»

"لا يجاوره من عباده إلا الطيبون ، كما يقال لأهل الجنة (على السنة ملائكته الأبرار) ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]"^(١) ، فالله ﷻ جعل الطيب بحذافيره في الجنة (كما) جعل الخبث بحذافيره في النار^(٢) .

(١٣) وهو الطيب الذي لا أطيب منه تعالى: الذي الطيبات كلها له ، وعنده ، ومنه ، وإليه ، له ملكاً ، ووصفاً ، ومنه مجيئها ، وابتدائها ، وإليه مصعدها ومنتهائها^(٣) .

(١٤) وهو سبحانه الطيب: الذي لا يقبل من الأعمال ، والأقوال ، والأوصاف ، إلا الطيب الخالص منها^(٤) .

(١٥) وهو سبحانه الطيب في أحكامه العليا الثلاثة:

(أ) فهو الطيب في أحكامه الكونية القدرية: فكل ما يقضيه على العباد منزّه عن الشر ، والسوء ، والفساد ، قال ﷻ: «والشرُّ ليس إليك»^(٥) .

(ب) الطيب في أحكامه الشرعية: لأنها متضمنة لمصلحة العباد ، في معاشهم ، ومعادهم .

(ج) وهو الطيب في أحكام الجزائية ، فكل ما يُجازي ويُحاسب عليه فهو طيب ، لأنه سبحانه يحكم بعدله ، وقسطه ، وفضله ، في الدنيا ، والآخرة .

جلال الطيب

الأول: من جلاله الطيب سبحانه: أنه طيب على الإطلاق من جميع الوجوه والاعتبارات ، وذلك: أن كل ما يسمى ، ويوصف به تعالى طيب ، ولا يصدر منه إلا طيب ، ولا يضاف إليه إلا الطيب ، ولا يصعد إليه إلا طيب ، ولا يقرب منه إلا طيب ، فكله تعالى طيب ، ﴿وَإِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] ، وفعله كله طيب ، وكلامه كله طيب ، والعمل الطيب يعرج إليه ، فالطيبات له

= القرآن (٦٣٢) ، وكما جاء عنه ﷻ: «من تعلّم علماً مما يتبغى به وجه الله ﷻ ، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة» يعني: ربحها . صحيح أبي داود (٣٦٦٤) .

(١) «الصلاة وحكم تاركها» (٢١٤) .

(٢) «زاد المعاد» (٦٧/١) .

(٣) «بدائع الفوائد» (١٦٢/٢) ، و«الكلام على مسألة السماع» (٢٠٨) لابن القيم .

(٤) كما في الحديث السابق «إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً» .

(٥) «مسلم» (٧٧١) .

وصفاً، وفعلاً، وقولاً، ونسبةً، وكل طيب مضاف إليه، وكل مضاف إليه طيب، وكل مضاف إليه كـ«بيته» و«عبد» و«روحه» و«ناقته» و«جنته» فهي طيبات، فالطيبات كلها له، ومضافة إليه، وصادرة عنه، ومنتهية إليه.

فإذا كان هو ﷺ (الطيب) على الإطلاق، فالكلمات الطيبات، والأفعال الطيبات، والصفات الطيبات، والأسماء الطيبات: كلها له سبحانه، لا يستحقها أحد سواه، بل ما طاب شيء قط إلا بطيبته سبحانه، فطيب كل ما سواه من آثار طيبته^(١).

الثاني: ومن جلاله: أنه اشتق للطيبين اسماً من أسمائه الحسنى، ووصفاً من أوصافه العلا، قال عز شأنه: ﴿وَالطَّيِّبَتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ [النور: ٢٦]^(٢).

الثالث: ومن جلال الطيب جل ثناؤه: أنه "قد حكم سبحانه شرعه، وقدره، أن الطيبات للطيبين"^(٣) كما تقدّم في الآية.

الرابع: ومن جلال طيبته سبحانه: أن ريح فم الصائم أطيب ما يكون من الطيب عنده سبحانه، قال ﷺ: «ولخلف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»^(٤). مثل النبي ﷺ هذا الخلف عند الله تعالى بطيب رائحة المسك عندنا وأعظم، لأن من المعلوم أن أطيب ما عند الناس من الرائحة المسك، ونسبة استطابة ذلك إليه ﷺ، كنسبة سائر صفاته وأفعاله إليه، فإنها استطابة تليق بجلاله وكماله، لا تماثل استطابة المخلوقين من كل الوجوه، كما أن رضاه، وغضبه، وفرحه، وكرهه، وبعده، وبغضه لا تماثل ما للمخلوقين من ذلك، وهو سبحانه يستطيب الكلم الطيب، فيصعد إليه، والعمل الصالح فيرفعه، وليست هذه الاستطابة كاستطابتنا^(٥).

الخامس: ومن جلال الطيب عز شأنه: "أن من جمع بين الإيمان الصحيح، والعمل الصالح

(١) «الصلاة وحكم تاركها» (٢١٤)، و«بدائع الفوائد» (١٦٢/٢)، و«الكلام على مسألة السماع» كلها لابن القيم، بتصريف يسير.

(٢) وكما في حديث الملائكة التي تُخرج روح المؤمن فتقول له: «أخرجني أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب» - «صحيح ابن ماجه» (٤٢٦٢).

(٣) «كتاب الصلاة» (٢١٤).

(٤) «البخاري» (٥٥٨٣)، و«مسلم» (١١٥١).

(٥) «الوابل الصيب» لابن القيم (٥٢/١)، وانظر «صفات الله الواردة في الكتاب والسنة» علوي السقاف (٦٠ - ٦١).

- وهو ما يحبه الله ويرضاه - أن الله تعالى سيحييه في هذه الدار حياة طيبة ، وأصل الحياة الطيبة: طيب القلب ، وراحته ، وسروره ، والقناعة والرضى عن الله تعالى ، فلو كان المؤمن الصادق في أضيّق عيش لكانت هذه الحياة الطيبة حاصلة له ، بوعد الله الصادق ، الذي لا يخلف الميعاد^(١).

السادس: ومن جلال طيبته سبحانه: أنه ينمي الصدقة الطيبة مهما كان صغرها ، فتصير مثل أكبر مخلوقات الله في الدنيا ، وهي: الجبال الرواسي ، قال ﷺ: «من تصدّق بعدل تمرة من كسبٍ طيّب ، ولا يصعد إلى الله إلا الطيب ، فإن الله يتقبّلها بيمينه ، ثم يُرِيّها لصاحبها ، كما يُرِيّ أحذكم فُلُوّه^(٢) ، حتى تكون مثل الجبل»^(٣).

الثمرات

من عبوديّة هذا الاسم الجليل أنه: ينبغي للمؤمن أن يطهر باطنه من أدران الذنوب والمعاصي والأفذار ، وظاهره بطيب الأخلاق والأعمال الزكية بالإدراك ، وأن يتحرى الطيب الحلال في مأكله ومشربه في الحضر والأسفار ، قال ﷺ: «... من استطاع منكم أن لا يدخل في بطنه إلا طيباً ، فإن أولاً ما يُنتن من الإنسان بطنه»^(٤) ، وقال ﷺ: «والذي نفس محمد بيده ، إن المؤمن لكمثل النخلة: أكلت طيباً ، ووضعت طيباً»^(٥).

وينبغي له كذلك: أن يجتهد ألا يصعد إلى خالقه إلا الطيب من الأعمال ، والأقوال ، والثناء ، والأذكار ، في الليل والنهار ، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] ، وقال ﷺ: «أربع من أطيب الكلام ، وهنّ من القرآن ، لا يضرّك بأيّهن بدأت: سبحانه الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر»^(٦).

وأن يتقرّب إلى الله تعالى بأيّ وسيلة شرعيّة تنجيه من النار ، كالصدقة ، أو بالكلمة الطيبة ، فعن عديّ بن حاتم رضي الله عنه: عن رسول الله ﷺ: أنه ذكر النار فتعوّذ منها ، وأشاح بوجهه ثلاث مرار ،

(١) «فتح الرحيم الملك» (٩٠).

(٢) الفُلُو: المهر الصغير . «النهاية» (٧١٨).

(٣) البخاري (٧٤٣٠) ، ومسلم (١٠١٤).

(٤) «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٤٤٤) ، و«السلسلة الصحيحة» (٢٢٨٨).

(٥) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٦٨٧٢).

(٦) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٣٤٦).

ثم قال: «اتقوا النار ولو بشق تمره، فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة»^(١).

ومن عبودية هذا الاسم الكريم: "أن ينفق المسلم من أجود ماله، وأطيبه، فإن الله طيب لا يقبل إلا الطيبات، ولا يخل على نفسه، أو أهله بالطيب من المباحات، قال ﷺ: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِكَافِرِينَ بِهِ إِلَّا أَنْ تُحْمَضُوا فِيهِ ؕ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧]"^(٢).

وأن يلزم سؤال ربه من الطيبات من كل أنواعها، وألوانها من الصالحات، والمباحات، كما كان يسألها خير البريات محمد ﷺ: «اللهم إني أسألك الطيبات، وترك المنكرات، وحب المساكين...»^(٣).

وينبغي أن يعلم أن أطيب الأفعال، وأجل أعمال العبد، أن يوحد الرب، في أسمائه، وصفاته، وأفعاله، وكل ما انفرد به سبحانه من الكمال عن البريات.

"ثم على البعد أن يجتهد في أن يكون طيباً، أي: عفيفاً كريماً، لا تتعلق به ريبة، ولا يتهم بها، قال الله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ؕ﴾ [النور: ٢٦]، يريد العفاف، ولهذا قال: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ﴾ [النور: ٢٦]، أي: منزّهون"^(٤).

ومن عبودية الطيب سبحانه: أن يكون الطيب هو قائدك في حياتك، فتحب كل طيب، فلا تصاحب إلا الطيبين، ولا تجالس، ولا تؤاكل، ولا تخالط إلا الطيبين، وعلى قدر ذلك يكون لك النصيب الأوفر من الطيب الأطيب الأكمل.

واعلم يا رعاك الله أن ربك الطيب تعالى: قد خلقك من سلاله طيبة نقيّة، وقد أوجد فيك كلّ آلة طيبة، فلا تفسدها بالخبائث من المحرّمات، فتفسد مما خلقت من أجله، وإذا حفظت مما طيبك الله، فاستبشر بالطيب الخالص الذي تبشرك به في دورك الثلاثة: الملائكة الأطهار الأبرار:

الأول: عند الاحتضار: ﴿الَّذِينَ نُوفِّقُهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢]^(٥).

(١) البخاري (٦٥٦٣)، ومسلم (١٠١٦).

(٢) «أسماء الله الحسنى» الرضواني (٦٤٩).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢٣٢٥٨)، وصححه الألباني في «ظلال الجنة» (٣٨٨).

(٤) «الأسنى» (٢٩١).

(٥) كما في حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ: «إنَّ العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل=

الثاني: في القبر، كما في حديث البراء بن عازب: «فينادي منادٍ من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، فيأتيه من رَوْحها وطيبها، ويُفسح له في قبره مدَّ بصره، ويأتيه رجلٌ حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يَسُرُّكَ، هذا يومك الذي كنت توعده، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح...»^(١).

وجاء عنه عليه السلام أنه قال: «فتجعل نسمة (أي: روحه) في النسم الطيب، وهي طيرٌ تعلق (أي: تأكل) من شجر الجنة...»^(٢).

الثالث: في الآخرة: تقول لهم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣]، "أي: بسبب طيبكم ادخلوها"^(٣).



= إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوطٌ من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجالس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة! اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان...». رواه أحمد في «المسند» (١٨٥٣٤)، وصححه شعيب الأرناؤوط (٤٩٩/٣٠)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» رقم (٣٥٥٨) (٣٩٨/٣). وفي لفظ: تقول الملائكة له: «اخرجي أيتها النفس الطيبة، كانت في الجسد الطيب...». صححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٤٢٦٢).

(١) صححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» رقم (٣٥٦١) (٤٠٣/٣).

(٢) تقدّم تخريجه.

(٣) «زاد المعاد» (٦٦/١).

٩٤- الله ﷻ المُسْعَرُ جَل ثناؤه

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: قال الناس: يا رسول الله: غلا السَّعْر، فسَعَرْنَا، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ هُوَ المُسْعَرُ، القابضُ الباسطُ، الرازقُ، وإني لأرجو أن ألقى الله وليس أحدٌ منكم يطالبني بمظلمة في دم، ولا مال»^(١).

المعنى اللغوي

المُسْعَرُ: على وزن اسم (الفاعل)، من التسعير، والسعر: القيمة، يقال: "سَعَرْتُ الشيءَ تسعيراً": جعلت له سعراً معلوماً ينتهي إليه، وسَعَرَ الطعام: هو الذي يقوم عليه الثمن، سُمي بذلك لأنه يرتفع ويعلو^(٢).

والتسعير: تقدير السعر، يقال: "أسعر أهل السوق وسَعَرُوا"، إذا اتَّفَقُوا على سعر، والتسعير: النار، و"سَعَرَ النار وأسعرها": أوقدها وهيجها، وكذا: "أسعر الحرب"^(٣). وقوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ هُوَ المُسْعَرُ» بضمير الفصل "الذي يفيد التوكيد، والحصر"^(٤).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو المُسْعَرُ المتفرد في التسعير لا يشاركه فيه أي مشارك ولا ينازعه فيه أي منازع في جليل أو يسير:

(١) فهو الذي يرخص الأشياء ويغليها، فلا اعتراض لأحدٍ عليه^(٥)، وكلاهما تقدير الله وتدبيره، وهو مقلبه، ورافعه، وخافضه، وذلك من أعظم البلاء والامتحان^(٦).

(١) «صحيح الترمذي» (١٣١٤).

(٢) - «معجم مقاييس اللغة»، (٧٥/٣)، و«المصباح المنير» (١٦٢)، و«عون المعبود» (٣٠٨/٦).

(٣) «اللسان» (٣٦٥/٤)، و«المفردات» (٤١١)، و«النهاية» (٤٣٠).

(٤) «تفسير آل عمران» لابن عثيمين (٥٤/١).

(٥) «النهاية» (٤٣٠).

(٦) «الأسنى» (٥٠٣/١).

(٢) فالتسعير في حقِّ الله تعالى يتعلق بنوعي التدبير ، فالتدبير منه ما هو متعلق بتصرف المقادير ، وهو التدبير الكوني ، ومنه ما هو متعلق بالحكم التكليفي ، وهو التدبير الشرعي .

(٣) وهو سبحانه المُسَعَّر: الذي يرفع سعر الأقوات ويضعها ، فليس ذلك إلا له ، وفق تدبيره الكوني ، أو ما أمر به العباد ، في تدبيره الشرعي ، وما تولاه الله تعالى بنفسه ، ولم يكله إلى عباده ، لا دخل لهم فيه^(١) .

(٤) وهو تعالى الذي يزيد الشيء ويرفع من قيمته ، أو تأثيره ومكانته ، فيقبض ويبسط ، وفق مشيئته وحكمته ، والتسعير وصف كمال في حقه سبحانه ، وهو من صفات فعله ، وحكمه ، وأمره ، ولا اعتراض لأحدٍ عليه من خلقه^(٢) .

(٥) وقد جعل سبحانه غلاء الأسعار وانحطاطها منوطة بأسباب ، والتي "من أعظمها:

أ) اجتياح الزرع بالجوائح .

ب) وتعطيل الزراعة بالفتن .

ج) وقحط السماء .

د) وكذلك ما يخلقه سبحانه في النفوس من الرغبة في اشتراء الأقوات وادّخارها ، حتى لا يُقدر عليها ، وكذلك أسباب الرخص وهو ضدها: من الخصب ، ونمو الزرع ونحوه"^(٣) .

(٦) والله سبحانه هو المُسَعَّر: الذي يُسَعِّرُ بعدله العذاب على أعدائه في النار ، وزادها سعيراً على الكفار ، من شياطين الجن والإنس الأشرار ، قال سبحانه: ﴿وَمِنَ الْجِنَّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سبا: ١٢] ، وقال عزَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥] ، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ [الفتح: ١٣] ، وهذا يتعلق من جهة تدبيره الكوني من الأقدار .

(١) «أسماء الله الحسنى» أ.د. الرضواني (٥٤٨) و«فيض القدير» للمناوي (٢٦٦/٣) ، و«مجموع الفتاوى» (٥١٩/٨) بتصرف يسير .

(٢) «أسماء الله الثابتة» (٥٥٠) .

(٣) «الأسنى» (٥٠٣/١) .

(٧) وهو المُسْعَرُ سبحانه: من جهة تدبيره الشرعي في هذه الدار، فلا يجوز لأحد أن يعذب أحداً بالنار، كما في حديث محمد بن الأسلمي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أمر سرية وقال له: «إن وجدتم فلاناً فأحرقوه بالنار»، فوليت فناداني، فرجعت إليه فقال: «إن وجدتم فلاناً فاقتلوه ولا تحرقوه، فإنه لا يعذب بالنار إلا ربُّ النار»^{(١)(٢)}.

وجاء عنه ﷺ: أنه رأى قرية نمل قد حرقناها، فقال: «مَنْ حَرَّقَ هذه؟» قلنا: نحن، قال: «إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا ربُّ النار»^(٣).

جلال المُسْعَرِ

من جلال هذا الاسم: أنه متعلّق بتصريف المقادير، وهو التدبير الكوني، فارتفاع الأسعار وانخفاضها بهذا التدبير، فالسعر يرتفع بين الناس، إما لقلّة الشيء وندرته، وإما لزيادة الطلب وكثرته، وهذا أمر يتعلّق بمشيئته وحكمته، فهو تعالى يتبلي عباده في تصريف أرزاقهم، وترتيب أسبابهم، فقد يهيئ أسباب الكسب لإغناء فقير، وقد يهيئ الأسباب لإفقار الغني، فهو سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده، وهو على كل شيء قدير، فهذا كله في تدبير الله في خلقه، وحكمته في تقدير المقادير^(٤).

الثمرات

أثر هذا الاسم الكريم على العبد أن يتقي الله تعالى في معاملاته، لاسيما إن كان من التجار، فلا يستغل الناس في زيادة الأسعار، أو يخفي الأقوات سعياً للتفرد والاحتكار، وأن يكون سمحاً في بيعه وشرائه، واقتضائه، وفي كل أحواله، سواء في حضره أو في سفره، وأن يأخذ بأسباب الرزق في تجارته وكسبه، فيراقب الله في التعامل مع خلقه، توحيداً لربه في اسمه المُسْعَرُ، قال ﷺ: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى»^(٥).

(١) «صحيح أبي داود» (٢٦٧٣).

(٢) «أسماء الله الحسنى» للدكتور الرضواني (٥٥٠) بتصرف.

(٣) «صحيح أبي داود» (٢٦٧٥).

(٤) «أسماء الله الحسنى» للرضواني (٥٤٩).

(٥) «البخاري» (١٩٧٠).

وقال ﷺ: «التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء»^{(١)(٢)}.

ومن عبودية هذا الاسم الكريم: أن يذل العبد كل ما في وسعه من الأسباب الشرعية القولية، والفعلية التي تنجيه من عذاب السعير، والتي أجلها توحيده الخالص في ظاهره، وباطنه، ومتابعة رسوله ﷺ في جميع أحواله وشؤونه.



(١) صحيح الترغيب والترهيب (١٧٨٢). وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: «كان النبي ﷺ يرزقنا تمرًا من تمر الجمع، [تمر الجمع هو التمر المختلط أو المجموع من أنواع متفرقة، وقد لا يكون بعضه جيدًا]. فنتبدل به تمرًا هو أطيب منه، ونزيد في السعر، فقال رسول الله ﷺ: «لا يصلح صاح تمر بصاعين ولا درهم بدرهمين، والدرهم بالدرهم، والدينار بالدينار، لا فضل بينهما إلا وزنًا». صحيح ابن ماجه (٢٢٥٦).

(٢) «أسماء الله الحسنى» للرضواني (٥٥١) بتصرف يسير.

٩٥- الله ﷻ السُّبُوحُ ﷻ جل وعلا

عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ كان يقول في ركوعه وسجوده: «سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رب الملائكة والروح»^(١).

المعنى اللغوي

السُّبُّوح: من أبنية المبالغة على وزن (فعول)، (وسبحان): التنزيه، والتعظيم، والتكبير، والإبعاد، وكل ما جاء في سائر القرآن ذكر (سبحان الله) إلا ومعها: إثبات ونفي، فالإثبات لأسمائه، والنفي فيما سوى ذلك، وأصل التسبيح: التنزيه، والتقديس، والتبرئة عن النقائص، أي: إبعاد عن الموصوف كل سوء ونقص، على جهة التعظيم^(٢).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو السُّبُّوح، الذي يسبِّحه كل من في الوجود، من جماد، أو نبات، أو ذي روح:
(١) فهو تعالى مُسَبِّحٌ على الإطلاق: مُسَبِّحٌ لنفسه، مُقَدِّسٌ لها في الأزل، يُخبر عنها بما يجب لها من صفات العلا، والأسماء الحسنى^(٣)، وأفعاله العدلى.

(٢) وهو الذي سبَّح نفسه كما ينبغي لعزِّ جلاله، ونعوت تعاليه عمَّا به يشرك المشركون، قال عز وجل: ﴿فَسَبِّحْ لِلَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]^(٤).

(٣) وهو المتمنَّزُ أن يماثله شيء من نعوت الكمال، أو يلحقه شيء من الآفات، فهو الكامل في كل نعت من نعوت الكمال، كملاً (لا) يدرك الخلق حقيقته، منزّه عن كل

(١) «مسلم» (٤٨٧).

(٢) انظر: «لسان العرب» (٤٧١/٢)، و«النهاية» (٤١٣)، و«مقاييس اللغة» (٤٢٦)، و«الأسنى» (٢٧١)، «غريب القرآن» لابن قتيبة (٨)، «منهج اللغويين في تقرير العقيدة» (٣٤٩ - ٣٥٢).

(٣) «الأمد الأقصى» (٣٤١/١).

(٤) انظر: «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان اللخمي (٥٣/١).

نقص ، تنزيهاً لا يدرك الخلق كماله^(١).

٤) وهو السُّبُوح سبحانه: المنزه والمبرأ من كل النقائص والعيوب ، وعن كل ما ينافي صفات كماله على الإطلاق في:

أ) ذاته: عن الفناء ، والزوال ، والإحاطة ، والمثال ، لكمالها من كل الوجوه على الدوام .

ب) وفي صفاته: ليس فيها صفة نقص ، منزه عن كل ما يضادُّ كمالها ، ومن كل شائبة عيب ، أو ذم .

ج) وفي أسمائه: فهي أحسن الأسماء وأكملها ، فليس في الأسماء أحسن منها ، ولا يقوم غيرها مقامها ، وليس فيها اسم يتضمَّن السوء أو الشرَّ .

د) وفي أفعاله: لتضمنها الحكمة ، والرحمة ، والعدل ، والفضل ، والمصلحة ، ليس فيها عبث ولا خطأ ، ولا سفه .

هـ) وهو تعالى: المنزه عن كل ما لا يليق بإلهيته ، وطاعته ، وربوبيته من:

أ) شريك . ب) أو ند . ج) أو ولي من الذل . د) أو معين .

هـ) أو ضد . و) أو صاحبة . ز) أو ولد .

٦) وهو المنزه عن أن يقاربه أحدٌ ، أو يدانيه في كماله وجلاله ، أو أن تسلب منه معاني الكمال اللائقة به سبحانه .

٧) وهو تعالى السُّبُوح: المنزه في أمره الكوني ، والقدري ، والشرعي ، والجزائي ، عن كل نقص ، وعن منافية الحكمة ، فكلها جارية على الحكم ، والحق ، في أصلها ، وفرعها ، وغاياتها ، وثمراتها^(٢).

٨) والله سبحانه المنزه من أن يكون معطلاً عن كماله ، في أيِّ حال من الأحوال^(٣).

٩) وهو الذي سبَّح نفسه المقدَّسة ، وأرشد عباده إلى تسييحه وتحميده ، عند المساء - وهو

(١) «مجموع الفتاوى» (١/١) (١٤٩/٨).

(٢) ينظر: «التفسير الكبير» (١٣٦/٦ ، ١٤٠ ، ١٤٢) ، و«بدائع الفوائد» (١/١٦٨) ، و«الأسنى» (٢٧٢) ، و«توضيح الكافية» (١٢٠) ، و«تيسير الكريم المنان» (٦٢٢) (٦٩٥) ، و«اللائق البهية في شرح العقيدة الواسطية» ، صالح آل الشيخ (١٩١/١).

(٣) «التسييح في الكتاب والسنة» (١/٤٨٠).

إقبال الليل بظلامه - وعند الصباح - وهو إسفار النهار بضيائه - ووقت العشي ، ووقت الظهيرة^(١) ، قال ﷺ: ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧ - ١٨]^(٢).

(١٠) وهو تعالى السُّبُوح: الذي يسبح بحمده كل من في الأرض والسموات ، من الأحياء والكائنات ، والجمادات^(٣) ، باختلاف الأصوات ، واللغات في كل اللحظات على الدوام ، بلا انقطاع ، قال جل ثناؤه: ﴿سُبْحٌ لَّهُ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ سَبِّحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] ، وقال تعالى: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الجمعة: ١] .

(١١) وهو المنزه عما يقوله المخالفون والمشركون ، والمبطلون في حقه "قالاً ، أو حالاً ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً"^(٤) ، قال تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ١٢] .

(١٢) والله تعالى السُّبُوح: المعظم^(٥) ، له العظمة ، والتكبير ، والإجلال ، من جميع الأنام: الإنس والجان ، ومن الملائكة الكرام ، الذي ليس له حدود ، ولا مقيّد بقيود ، ولهذا قالت الملائكة: ﴿وَحَنُّ سُبْحِ بِحَمْدِكَ﴾ [البقرة: ٣٠] ، "أي: نعظمك"^(٦) ، ونذكر جلالك ، وجمالك ، وكمالك وما وجب ذلك^(٧) .

(١٣) وهو سبحانه السُّبُوح: الذي نزه نفسه وسبّحها ، عن وصف العباد له ، مما لا يليق بكماله وعظمته ، من النقائص والمعائب ، إلا ما وصف به المرسلون ، لسلامة ما وصفوه به ، لأنهم لم يصفوه إلا بما أذن لهم في وصفه به مما تضمنه وحيه من أسمائه الحسنى ، وصفاته العليا: ﴿سُبْحَنَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٧٨﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٩﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الصافات: ٨] .

(١) قال ابن السعدي رحمه الله: "فهذه الأوقات الخمسة: أوقات الصلوات الخمس" «التفسير» (٦٣٨) .

(٢) «تفسير البغوي» (٢٦٤/٦) ، و«تفسير ابن كثير» (٥٨٠/٣) ، و«تفسير السعدي» (٦٣٨) .

(٣) انظر أنواعها وأفرادها في «التسبيح في الكتاب والسنة» (٢٤٧/١) .

(٤) «تفسير روح المعاني» (٢٤٧/١٥) .

(٥) لأن التسبيح يتضمن التعظيم كما سبق ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "ولهذا كان قول (سبحانه الله) متضمناً تنزيهه من العيوب والنقائص ، وفيها تعظيمه" مجموع الفتاوى (١١٢/١٧) .

(٦) صح عن مجاهد ، «التفسير الصحيح» (١٣٥/١) .

(٧) «الأسنى» (٢٧١) .

(٨) ينظر: «الصواعق المرسلة» (١٥٢/١ - ١٥٣) ، و«مدارج السالكين» (٤٨١/٣) .

(١٤) وهو السُّبُوح ﷻ: الذي نزه نفسه أن يزاحمه ، أو أن يكون لأحدٍ عليه اختيار فيما لا يريدُه سبحانه ، فيصل إليه أو يقع بوجهه عليه ، فهو تعالى المتفرد بالخلق ، والتقدير ، والاختيار ، ليس له في ذلك منازع ، ولا معقب في الليل ، أو النهار ، قال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَنَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨] (١).

(١٥) وهو السُّبُوح سبحانه: الذي احتجب عن خلقه بنور ، ونار ، قال سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٨] ، وقال ﷻ: «حجابه النور - وفي رواية: النار - لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره» (٢).

فنزّه نفسه سبحانه في الآية: "عن أن يظن به نقص ، أو سوء ، بل هو الكامل في وصفه وفعله" (٣) ، فهو سبحانه "الذي يفعل ما يشاء ، ولا يشبهه شيء من مخلوقاته ، ولا يحيط به شيء من مصنوعاته ، وهو العلي العظيم ، المبين لجميع المخلوقات ، ولا تكتنفه الأرض والسموات ، بل هو الأحد الصمد المنزه عن مماثلة المحدثات" (٤).

(١٦) وهو تعالى السُّبُوح على الإطلاق: المنزه عن الشبيه ، والمثيل ، والنظير ، والعديل ، والكفاء ، لتفردّه بالجلال والكمال على الإطلاق .

جلال السُّبُوح

الأول: من جلاله: أنه مشتق من التسبيح ، الذي هو أعظم ما يعبد الله تعالى به ، وهو عبادة أهل السماء ، وأهل الأرض ، وهو متضمن كذلك لأعظم أوصاف الرب ﷻ ، التي قررها الكتاب

(١) ينظر: «شفاء العليل» (٩٧/١) ، و«تفسير ابن كثير» (٥٣٩/٣) ، و«نظم الدرر» (٥١٢/٥) ، و«تفسير الشربيني» (١٦٤/٣) ، و«تفسير سورة القصص» لابن عثيمين (٤٢٣/٦) .

(٢) مسلم (١٧٩) ، ثم قرأ أبو عبيدة (هو الراوي عن أبي موسى الأشعري ﷺ): ﴿أَنْ بُورِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٨] ، صححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٩٦) ، وللعلماء في معنى قوله تعالى: (من في النار) عدة أقوال: الأول: هو الله عن نفسه سبحانه ، وقيل: الملائكة ، وقيل: موسى ﷺ ، انظر: «تفسير الطبري» (٥٤٨/٥) ، و«تفسير البغوي» (١٤٤/٦) ، و«تفسير أبي مظفر السمعاني» (٧٨/٤) .

وقد رجّح شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ القول الأول: أي هو الله سبحانه ، وعدّه من جنس الصفات الفعلية (القرب والدنو) ، قال ﷻ: "وهذا كقربه إلى موسى ﷺ لما كلمه من الشجرة" انظر «مجموع الفتاوى» (٢٤٢/٥) ، ٤٦٠ ، (٤٦٥) .

(٣) «تفسير السعدي» (٦٠١) .

(٤) «تفسير ابن كثير» (٤٨٨/٣) .

والسنة، وهو نزاهته وبراهته تعالى عن كل العيوب والنقائص، المستلزم للكمال المطلق له، في كل الأوصاف، والثناء، والمدائح، فهو يجمع التنزيه، والتعظيم في نفسه من كل الوجوه، فإن من جلال الله تعالى أن كلمة «سبحان» كلمة ممتنعة، لا يجوز أن يوصف بها غير الله تعالى، لأنها صارت علماً في الدين، على أعلى المراتب، وأبلغها في التعظيم، التي لا يستحقها إلا رب العالمين^(١).

وكلمة (سبحان) توجد بما هي عبارة عن جميع معان نزاهة عظمتة عما لا يليق به، ولا يجوز في نعوت جلاله سبحانه، فإذا قال المسبِّح له: سبحان الله، أي: نزاهة الله عن الأسواء كلها، ويُبعد عن الآفات أجمعها، وكذلك سبحته بمحامده، وثنائه، ومدائحه^(٢).

الثاني: ومن جلال السبوح سبحانه: "أنه تعالى هو أعظم المسبِّحين لنفسه العلية، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَنِينٌ﴾ [البقرة: ١١٦]، وقال جل ثناؤه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠]^(٣).

الثالث: ومن جلال السبوح: أنه جعل في تسبيحه انشراح الصدر، وإعطاء المسرات، قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [طه: ١٣٠]، فقد "أمر الله سبحانه رسوله ﷺ (والذي هو أمر لنا كذلك) بالصبر على أذيتهم (أي: الكافرين) بالقول، وأمره أن يتعوض عن ذلك، ويستعين عليه بالتسبيح بحمد ربه في هذه الأوقات الفاضلة...، لعلك إن فعلت ذلك، ترضى بما يعطيك ربك من الثواب العاجل، والآجل، وليطمئن ويُسّر قلبك"^(٤).

وكذلك تفريغ الكربات، والشُرور والهلكات، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [٧] فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿[الحجر: ٩٧-٩٨]، وقال تعالى عن يونس عليه السلام:

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٥١/١٠ - ٢٥٤)، و«التسبيح» (١/٧٨ - ٨٦)، (١/٤٧٩)، و«منهج اللغويين في العقيدة» (٣٥٠)، و«أسماء الله» للدكتور الأشقر (٥٢)، «تفسير سورة النمل» لابن عثيمين (٨٥/٦).

(٢) انظر: «شرح الأسماء» للإشبيلي (٢٣٠/١).

(٣) حيث ورد في القرآن الكريم تسبيح الله تعالى لنفسه المقدسة في آيات كثيرة بلغت سبعا وعشرين آية، من تسع عشرة سورة. انظر: «التسبيح» (١/٢٤٨).

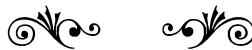
(٤) «تفسير السعدي» (٥١٦)، وانظر: «تفسير النسفي» (٧٠٧).

﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْتَجِيبِينَ ۖ لَلِثَبَ فِي بَطْنِهِ ۖ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الصفات: ١٤٣ - ١٤٤] ، قال ﷺ :
 ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] .

الثمرات

يجب على كل مكلف أن يطهر ظاهره وباطنه ، من أمراض الشبهات والشهوات ، وأن يكثر من تسبيحه تعالى في الليل والنهار ، حتى ينضم إلى بقية العوالم التي تُسَبِّحُ الله ﷻ في كل الأحوال ، والأوقات ، قال تعالى : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ۚ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٠] .

واعلم رحماني الله وإياك ، أن التسبيح من أعظم العبادات ، وأجل القربات ، وأسمى الطاعات ، ومن أكبر الأسباب في تفرج الكربات ، وإعطاء السؤالات ، أما أنه من أعظم العبادات ، دلَّ عليه قوله ﷻ : «الطهور شطر الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله ، والحمد لله تملآن ، أو تملأ ما بين السماء والأرض»^(١) . وأما دلالته على تفرج الكربات ، قوله سبحانه : ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر] ، وكذلك إعطائه السؤالات ، كما في قوله تعالى عن يونس عليه السلام : ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَنَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ ۖ فَاسْتَجِبْنَا لَهُ ۖ وَبَيَّنَّا لَهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء] ، قال ﷻ : «لم يدع فيها رجلٌ مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له»^(٢) .



(١) «مسلم» (٥٣٤) .

(٢) «صحيح الترمذي» (٣٥٠٧) .

٩٦- الله ﷻ الحَكَم ﷻ سبحانه وتعالى

قال ﷻ: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ ، وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ»^(١).

المعنى اللغوي

الحكم: من صيغ المبالغة لاسم الفاعل الحاكم ، وهو القاضي ، وأصل الحكم: المنع ، فكل شيء منعه: فقد أحكمته . يقال: "حكمت عليه بكذا": إذا منعته من خلافه فلم يقدر على الخروج من ذلك ، و"حكمت بين القوم": فصلت بينهم . وسمي الحاكم حاكماً ؛ لأنه يفصل بين الناس بعلمه ، والملزم لهم ما لا يمكنهم مخالفته ، ولا يدعهم يخرجون عنه ، وهو يمنع الخصمين من التظالم .

وحكمة الدابة: سميت حكمة ، وهي حديدة توضع على أنف الفرس وحنكه ، تمنعه عن مخالفة راكمه ، والحكم: العلم ، والفقه ، والقضاء بالعدل ، فالحاكم: هو الذي يحكم ويفصل ويقضي في سائر الأمور ، ويمنع الفساد ، وما اختلف فيه العباد ، ويمنع الخصمين من التعدي .
والحكم أيضاً: الحكمة من العلم ، قال ﷻ: «إِنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحُكْمًا» ، أي: إن من الشعر كلاماً نافعاً يمنع من الجهل والسفه^{(٢)(٣)}.

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الحَكَم ، الذي سُلِّم له الحكم ورُدَّ إليه فيه الأمر^(٤):

(١) الذي يحكم بين عباده في الدنيا والآخرة ، بعدله وقسطه ، الذي لا جور فيه البتة ، فلا يظلم مثقال ذرة فيهما أبداً ، فمن حكمه العادل:

(١) «صحيح أبي داود» (٤١٤٥).

(٢) «البخاري» (٦١٤٥).

(٣) انظر: «عمدة الحفاظ» (٤٤٥/١)، و«النهاية» (٢٢٢)، و«لسان العرب» (١٤٠/١٢)، «تفسير الأسماء» للزجاج

(٤٣)، و«اشتقاق الأسماء» (٦٠)، والمصباح المنير (٨٨).

(٤) «شأن الدعاء» (٦١).

- (أ) أنه لا يحمل أحداً وزر أحد، لأنه سبحانه إنما يعامل الناس بكسبهم، ويجازيهم بأعمالهم.
- (ب) ولا يجازي العبد بأكثر من ذنبه الذي اقترفه، فلا يزيد في سيئاته رهقاً.
- (ج) ولا يهضم أحداً من حسناته، فلا يضيع عمل محسن أبداً، وإن كان مثقال حبة من خردل جازاه بأحسن منها.
- (د) ولا يعذب أحداً بغير جرم اقترفه، أو اجترحه ﴿وَلَا نَزِرُ وَازِرَةٌ وَزَرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥].
- (هـ) ويؤدّي الحقوق إلى أهلها، فلا يدع صاحب حق، إلا وصل إليه حقه.
- (و) ولا يضيع حقوق المظلومين ولو كانوا من الكافرين، فينصفهم وينصرهم على الظالمين.
- (٢) وهو الحاكم تعالى: المحكم، والقاضي المسلم، النافذ حكمه، الذي لا رادّ لقضائه، ولا معقب لحكمه، من أحد من عبيده، ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لِمُعَقَّبٍ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١] (١).
- (٣) فهو سبحانه الحكم: العدل الحق بين العباد، في الدنيا ويوم التناد، في الظاهر والباطن، وفيما شرعه، وأمضى من حكمه، وقضاياه على خلقه: قولاً، أو فعلاً، وليس ذلك لغير الله تعالى، ولذلك قال وقوله الحق: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْخَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصاص: ٧٠].
- (٤) وهو الحكم تعالى: الحاكم بين كل متحاكم في الأولى والأخرى، ولا حكم غيره، ومن سواه من الأحكام في الدنيا إنما يستفيدون الحكم من قبله سبحانه (٢).
- (٥) وهو الحاكم الحق: الذي يفصل بين الباطل والحق، فينصر المحق، ويوقع العقوبة على العدو اللدود (٣)، كما قال تعالى: ﴿فَأَصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧] (٤).
- (٦) وهو الذي يفصل بين العباد، بما شاء، ويبين لكل نفس ما عملت من خير أو سوء، المميز الخبيث من الطيب، والشقي والسعيد، بالعقاب والثواب.
- (٧) فهو الحكم: الذي لا أحكم ولا أعدل منه جلّ شأنه: في وصفه، وفي فعله، وفي قوله،

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٤/٤٣٥)، و«المقصد الأسنى» (٨٥)، و«فتح الرحيم الملك» (٣٢)، و«إرشاد العقل

السليم» (٣/٤٦٥)، و«نظم الدرر» (٤/١٥٨)، و«روح المعاني» (٨/٢٥٠).

(٢) ينظر: «تفسير الأسماء» (٤٤)، و«شرح أسماء الله» لأبي الحكم الإشبيلي (٢/٢٢٣)، و«الأسنى» (١/٤٤٠).

(٣) أي: شديد الخصومة، «مختار الصحاح» (٣٢١).

(٤) «تفسير الطبري» (٣/٤٦٧)، و«تفسير السفي» (٣٧٤).

وفي حكمه بالقسط: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦].

٨) ومن حكم الله الحق على العباد: أن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يُرى، وأن يجعل البر سبيًا للسعادة، والفجور سبيًا للشقاوة.

٩) وهو الحكم سبحانه: الذي يحكم بين الرسل وأتباعهم، وبين أعدائهم، فيكرم الرسل وأتباعهم في الدارين، ويهين أعداءهم، ويكون هذا أكبر دليل على أن هؤلاء على الحق، وأولئك على الباطل.

١٠) فهو تعالى الحاكم: في خلقه، قضاءً وتصديقاً وتديراً، والحاكم فيهم: بأمره، ونهيه، وثوابه، وعقابه، لا أحد سواه شريكاً في حكمه، بل هو المنفرد بالحكم والقضاء فيهم بما شاء وأحب، ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦] ^(١).

١١) وهو تعالى الحكم: الذي إليه الحكم في كل شيء، فيحكم تعالى في الدنيا بوحيه الذي أنزله على أنبيائه، ويبين لعباده جميع الطرق التي يحكم بها بين المتخاصمين، ويفصل بين المتنازعين، من الطرق العادلة الحكيمة، ويحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويحكم فيها بأحكام القضاء والقدر، فيجري عليهم ما تقتضيه حكمته، ويضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، ويقضي بينهم يوم الجزاء والحساب، فيقضي بينهم بالحق.

١٢) وهو الحكم سبحانه: الذي لا يجور ولا يظلم أحداً، ومن عدله الذي ليس له مثل: أن يقيم القيامة، فينتصف لكل مظلوم في الدنيا ممن ظلمه، من بر أو فاجر، أو مؤمن أو كافر.

١٣) فحكمه تعالى هو: أعدل حكم، وأتقنه، وأسدده، وأنفذه، وأحسنه، فلا يمكن لأحدٍ مخالفته ^(٢)، لأنه عن كمال: القدرة، وكمال العلم والخبرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [النمل: ٧٨].

١٤) وهو الحكم سبحانه: الذي له القضاء النافذ في كل شيء، والذي منه: أنه حكم لأهل الطاعة بالمغفرة، ولأهل المعصية بالشقاء، قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠] ^(٣).

(١) «تفسير ابن جرير الطبري» (٩٥/٥)، و«تفسير السعدي» (٤٧٥).

(٢) «نظم الدرر» (٤٤٩/٥)، و«فتح البيان» (١٥٣/٥).

(٣) «تفسير الشربيني» (١٦٥/٣).

(١٥) فهو سبحانه أحكم الحاكمين ، قال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴾ [التين : ٨] ، أي : أفضى القاضين ، وأعدل العادلين ، بحيث لا يخالط حكمه تفريط في شيء من المصلحة ، ونوط الخير ، وإصابة الحق ، وقطع دابر الباطل ^(١) ، فهو سبحانه أحكم الحاكمين : قضاءً ، وتديباً ، وتقديراً .

(١٦) فهو الحكم العدل الذي تمت كلماته صدقاً في الأخبار ، وعدلاً في الأوامر ، والنواهي .

(١٧) وهو الذي له الحكم العام :

(أ) للعالم العلوي ، والعالم السفلي ، (ب) والحكم العام في الأولى والأخرى ، (ج) والحكم العام للأحكام الثلاثة التي لا تخرج عنها جميع من في الأكوان ، وهي :

الأول : الحكم الكوني : وهو واقع لا محالة ، وشامل لكل أحد ، لأنه يتعلق بمشيئته ، ومشية الله تعالى لا تكون إلا بالمعنى الكوني ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، فلا رادّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا أحد غالب لأمره .

الثاني : الحكم الشرعي : وهو الحكم التكليفي الشرعي ، التي هي أحسن الأحكام ، والتي هي صلاح الأمور ، وكمالها ، ولا يستقيم لهم دين ورشد ، إلا اتباع هذه الأحكام ، التي شرعها على ألسنة رسله ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة] ، وهذا الحكم هو الذي يترتب عليه الثواب ، والعقاب ، في يوم الحساب ، والنوعان نافذان في العبد ، ماضيان فيه ، وهو مقهور تحت الحكمين ، قد مضيا فيه ، ونفذا فيه ، شاء أم أبى ، لكن الحكم الكوني لا يمكنه مخالفته ، وأما الشرعي فقد يخالفه .

الثالث : الحكم الجزائي : وهو ثمرة الحكم الشرعي ، لأنه مبني عليه ، وهو الجزاء على الأعمال خيرها وشرها ، في الدنيا والآخرة ، وإثابة الطائعين ، وعقوبة العاصين ، وهذه الأحكام كلها مبنية على الحكمة ، والفضل ، والعدل .

فسبحان من نفذ حكمه في برئته ، وعدل بينهم في أقضيته ، وعمهم برحمته ، وصرفهم تحت مشيئته ^(٢) .

(١) «معالم التنزيل» للبغوي (٤٧٣/٨) ، و«بحر العلوم» للسمرقندي (١٢٩/٢) ، و«التحرير والتنوير» مج (١٢) (٤٣١/٣٠) .

(٢) انظر : «شفاء العليل» (٦٥) ، و«طريق الهجرتين» (٦٦) ، و«الفوائد» (٣٢) ، و«تفسير السعدي» (٢٩٦) (٦٢٢) ، =

جلال الحكم

أولاً: من جلاله: "أن كل أحكامه تعالى التي يحكم فيها في خلقه الشرعية، والقدرية، والجزائية، في نفسها جارية على الحكم، والحق، والحمد في أصلها، وفرعها، وغاياتها، وثمراتها"^(١)، منزهة عن كل نقص، وزلل، وخطأ، سالمة من كل ظلم، وجهل، المتضمنة لكمال الحكمة، والعدل، والحق، والفضل، والرحمة، والهدى، والسداد، وأن حكمه الشرعي صالح لكل زمان، في كل مكان، وفي كل الأحوال، الذي فيه الخير العاجل والآجل، لكل الأنام، قال الله العظيم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة].

الثاني: ومن جلاله: أنه سبحانه لا يساوي بين محسن ومسيء، ولا بين صالح وطالح، في الدنيا، ولا في الآخرة، قال عز شأنه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً نَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية]، "فإنه حكم يخالف حكمة أحكم الحاكمين، وخير العادلين"^(٢).

الثالث: ومن جلال الحكم: أن كل "الخلائق تحمده على حكمه يوم القيامة، بعد أن يقضى بينهم بالقسط والحق، حتى من قضى عليهم بالعذاب، والعقاب، ما دخلوا النار إلا وقلوبهم ممتلئة من حمده، معترفون له بالعدل، وأنه لا يظلمهم مثقال ذرة"^(٣).

قال الحسن: "لقد دخلوا النار وإنَّ حمده لفي قلوبهم، ما وجدوا عليه حُجة ولا سبيلاً"، ولهذا قال تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَائِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥]، ولهذا قال جلَّ ثناؤه عقيب إخباره عن الحكم بين عباده، ومصير أهل السعادة إلى الجنة، وأهل الشقاء إلى النار: ﴿وَفُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر].

فحذف فاعل القول، إشعاراً بالعموم، وأنَّ الكون كله قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، لما شاهدوا من حكمه الحقَّ وعدله وفضله، ولهذا قال في حقَّ أهل النار: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ [الزمر: ٧٢]، كأن الكون كله يقول ذلك، حتى تقوله أعضاؤهم، وأرواحهم، وأرضهم، وسماؤهم"^(٤).

= و«المقصد الأسنى» (٨٥)، و«فتح الرحيم الملك» (١٨) (٣٢)، و«توضيح الكافية» (١٢٧)، و«تفسير الأسماء» (٤٣)، و«الحق الواضح المبين» (٨٠)، و«معجم التعريفات» لابن عثيمين (٢٠٨)، و«التفسير» له، (٦/٢٣٤)، (٢٤٤)، و«أسماء الله الحسنى» للدكتور الرضواني (٦٥٠) بتصرف.

(١) انظر: «توضيح الكافية الشافية» (١٢١)، و«تيسير الكريم المنان» (٤٢٠).

(٢) «تفسير السعدي» (٧٧٧).

(٣) «تفسير السعدي» (٦٧٤)، و«توضيح الكافية» (١٢٧).

(٤) «الفوائد» (٦٥).

الرابع: ومن جلال حكمه سبحانه: أنه حكم بحكم لا ينقض ولا يزول ولا يرد: أن النصر بالقوة، والحجة، وحسن العاقبة لأوليائه على الكفرة في: الأولى، والعقبى، قال سبحانه: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١].

ففي الأولى: قد عصمهم "بأن يُسلطوا عليهم (أي: الكافرين) استيلاء واستئصالاً بالكلية، وإن حصل لهم ظفر في بعض الأحيان على بعض الناس، فإن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة...، وعلى هذا يكون ردًا على المنافقين فيما أملوه ورجوه وانتظروه من زوال دولة المؤمنين..."^(١).

بل لا تزال طائفة من المؤمنين على الحق لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، ولا يزال الله يحدث من أسباب النصر للمؤمنين، ودفع تسلط الكافرين، ما هو مشهور بالعيان، حتى إن بعض المسلمين الذين يحكمهم الطوائف الكافرة، قد بقوا محترمين لا يتعرضون لأديانهم، ولا يكونون مستصغرين عندهم، بل لهم العزّ التام من الله، فله الحمد أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً.

وأما في العقبى: فيجازي المؤمنين ظاهراً وباطناً بالجنان، ويعذب المنافقين والمنافقات، والمشركين والمشركات بالنيران"^(٢).

الخامس: ومن جلال الحكم تعالى: أنه هو "الذي لا يقع في وعده ريب، ولا في فعله عيب"^(٣).

السادس ومن جلاله: "أنه حكم على القلوب بالرضا والقناعة، وعلى النفوس بالانقياد والطاعة"^(٤).

الثمرات

يجب أن يعلم كل مكلف أن لا حكم إلا لله تعالى وحده، وأن كل أفعاله: أحكام، وقضايا، وكل أقواله: حكم ووصايا، ويجب أن يعلم أن الرسل ﷺ، هم معادن الحكمة، وأهل الحكم، ولم يفوض الله تعالى الحكم إلا لهم، وكل من سواهم يجب عليهم الاقتداء بهم، وأن لا يحكموا

(١) «تفسير ابن كثير» (٧٧٩/١).

(٢) انظر: «تفسير ابن السعدي» (٢١٠).

(٣) «شرح الأسماء الحسنى» للرازي (٢٥١).

(٤) المصدر السابق.

إلا بما أنزل الله ، وتعبد الله كافة المؤمنين بنصب الحكام ، وإقامة الأحكام ، ثم يجب على كل مسلم إذا دُعي إلى الحكم عليه ، أن يجيب إلى ذلك ، وينقاد لحكم الله تعالى عليه إذا توجه عليه ، وإلا كان ظالماً ، قال تعالى : ﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٦٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ [النور: ٥٨-٥٩] ويجب على الحكام أن لا يتعدوا حكم الله سبحانه الذي شرعه لهم ، ونصبه فصلاً بين عباده ، وأن يحكم الحاكم بالحق وإن كان على نفسه ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ [النساء: ١٣٥] ، وقال تعالى : ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ص: ٢٦] ^(١).

ومن حاكم إلى غير الله ورسوله ، فقد حاكم إلى الطاغوت ، وقد أمر أن يكفر به ، ولا يكفر العبد بالطاغوت ، حتى يجعل الحكم لله سبحانه وحده ، كما هو كذلك في نفس الأمر ^(٢).

ومن عبودية هذا الاسم الجليل : "أن يستسلم العبد لحكمه سبحانه ، وينقاد لأمره ، فإن لم يرض بقضائه اختياراً ، مضى فيه إجباراً ، ومن رضي به طوعاً عاش راضياً مرضياً" ^(٣).

ومن التبعد باسم الحكم سبحانه : "أنه يجب على الإنسان أن يتقي ربه في جميع الأحكام ، فلا يتسرع في البت بها خصوصاً في التكفير الذي صار أهل الغيرة والعاطفة يطلقونه بدون تفكير ولا روية ، مع أن الإنسان إذا كفر شخصاً ولم يكن الشخص أهلاً له ، عاد ذلك إلى قائله ... ، وكما لا يجوز أن نطلق الكفر على شخص معين حتى يتبين شروط التكفير في حقه ، وهما شرطان :

الأول: ثبوت أن هذه الخصلة التي قام بها مما يقتضي الكفر .

الثاني: انطباق شروط التكفير عليه ، وأهمها العلم بأنه مكفر ، فإن كان جاهلاً ، فإنه لا يكفر ، ولهذا ذكر العلماء أن من شروط إقامة الحد أن يكون عالماً بالتحريم ، هذا وهو إقامة الحد وليس تكفير ، والتحرز من التكفير أولى وأحرى" ^(٤).

(١) «الأسنى» (١/٤٤٠).

(٢) «طريق الهجرتين» (١٠٦).

(٣) «شرح مصابيح السنة» للبيضاوي (٢/٥٩).

(٤) انظر: «القول المفيد» (٢/١٥٨)، و«شرح الأصول الثلاثة» (١٥٤) لابن عثيمين .

٩٧- الله ﷻ الجواد ﷻ عز وجل

قال ﷻ: «إن الله تعالى جواد يحب الجود، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفاسفها»^(١).

المعنى اللغوي

الجواد: صفة مشبهة للموصوف بالجود، ويطلق على عدة معان:

الأول: هو التسمح بالشيء وكثرة العطاء، والجود: هو الكرم، و"رجل جواد" يعني سخي كثير العطاء والإفضال والإحسان، و"الجود من المطر": هو الذي لا مطر فوقه في الكثرة.

الثاني: الجود من الجيد، وهو نقيض الرديء، وقد جاد جودة وأجاد يعني: أتى بالجيد من القول، أو الفعل.

الثالث: والجدي أيضاً الغني، يقال منه: "ما يجدي عليك هذا"، بمعنى: ما يغنيك عنك.

الرابع: ويطلق الجواد كذلك على الطريق الممهّد، واحدها: جادة، وهي: سواء الطريق ووسطه، أو الطريق الأعظم، التي تجمع الطرق^(٢)، كما في حديث عبد الله بن سلام ﷺ، في قصة الرؤيا للنبي ﷺ، وفيه: «بينما أنا نائم، إذ أتاني رجل، فقال لي قم، فأخذ بيدي، فانطلقت معه، فإذا أنا بجواد عن شمالي...، فقال لي: لا تأخذ فيها، فإنها طرق أصحاب الشمال، قال: فإذا جوادٌ منهجٌ^(٣) عن يميني...»^(٤)، وقال ﷻ: «إياكم والتعريس على جوادٍ^(٥) الطريق»، وفي لفظ: «لا تنزلوا على جوادٍ الطريق»^(٦).

(١) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٦٢٧).

(٢) «معجم مقاييس اللغة» (٩١)، «لسان العرب» (٧٢٠/١)، و«النهاية» (١٤٠، ١٧٢)، و«الصحاح» (١٥٧، ١٩٧)، و«شرح أسماء الله الحسنى» للإشبيلي (٢٥٢/٢)، و«إبطال التأويلات» (٦٧٠).

(٣) أي طريق واضحة بيّنة مستقيمة، «حاشية صحيح مسلم» لمحمد عبد الباقي.

(٤) «صحيح مسلم» (٢٤٨٤).

(٥) قال الألباني رحمه الله في الحاشية: (التعريس): نزول المسافرين آخر الليل للنوم والاستراحة، و(جواد الطريق): جمع جادة، وهي معظم الطريق ووسطه. صحيح ابن ماجه (٧٦).

(٦) صحيح ابن ماجه (٣٢٩) (٣٧٧٢)، وقال ﷻ: «... وإن المرء ليعمل ليعمل أهل النار البرهة من الدهر، ثم يعرض له الجادة من جواد الجنة...» رواه ابن أبي عاصم في السنة (١١٩)، وصححه الألباني (٥٤).

المعنى الشرعي

الله ﷻ هو الجواد على الإطلاق الذي لا أجود منه ، الذي له الجود كله^(١) :

(١) الذي عمَّ جوده جميع الكائنات ، من أهل الأرض والسموات ، فكل نعمة فمن جوده ، فلا يخلو موجود من جوده ، وإحسانه طرفة عين في هذا الوجود .

(٢) والله سبحانه هو الجواد: ذو الجود الممدود، والغير محدود، فكل جود في العالم العلوي والسفلي إلى جوده، أقل من قطرة في بحار الدنيا، وهي من جوده .

(٣) وهو تعالى أجود الأجودين^(٢) ، فيداه سحّاء بالجود في كل آن ، وخيره نازل في كل مكان ، فكم جاد تعالى من جوده العالي ، فإنه لم ينقص مما في يديه الكريمتين ، في أي زمان ، ، قال ﷻ: «يد الله ملأى ، لا يغيضها^(٣) نفقة ، سحّاء^(٤) الليل والنهار ، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السماوات والأرض ، فإنه لم يغيض ما في يده»^(٥) .

(٤) وهو سبحانه الجواد: الذي يهدي^(٦) عباده أجمعين ، إلى جادة الحق المبين ، ويخص أوليائه المؤمنين ، بالهداية^(٧) إلى طريق الحق المستقيم ، ويثبتهم عليها ، حتى يتوفاهم على اليقين .

(٥) ومن كمال جوده: أنه سبحانه "يجود على أوليائه بالتوفيق لصالح الأعمال ، ثم يحمدهم عليها ، ويضيفها إليهم ، وهي من جوده ، ويثبتهم عليها من الثواب العاجل والآجل ما لا يدركه الوصف ، ولا يخطر على البال"^(٨) .

(٦) ومن كمال جوده سبحانه: "أنه يجود على عباده بالنوال قبل السؤال ، ويعطي سائله

(١) «إغاثة اللهفان» (٢٥٣/٢) .

(٢) «القصيدة النونية» (٢٤٥) ، و«مدارج السالكين» (٢١١/١) ، و«الحق الواضح» (٦٦) .

(٣) لا ينقصها .

(٤) أي: كثيرة العطاء ، تصبُّ الخير صبًّا .

(٥) «البخاري» (٦٩٧٦) .

(٦) أي هداية عامة: وهي الدلالة والإرشاد .

(٧) وهي: هداية التوفيق الذي من وفق إليها لا يزيغ .

(٨) «تفسير السعدي» (٢٣٨) .

ومؤمله ، فوق ما تعلق به منهم الآمال" (١) .

(٧) ومن جوده العالي سبحانه: إن العفوَّ أحبُّ إليه من الانتقام ، والرحمة أحبُّ إليه من العقوبة ، والفضل أحبُّ إليه من العدل ، والعطاء أحبُّ إليه من المنع (٢) .

(٨) وبجوده تعالى: عمَّ جميع الإنس والجان ، طائع وعاصٍ ، وقويٍّ وضعيف ، وشكور وكفور ، ومأمور وأمير (٣) .

(٩) ومن أعظم منه سبحانه جوداً والخلائق له عاصون ، وهو يكلؤهم في مضاجعهم ، كأنهم لم يعصوه ، يجود على العاصي ، كما يجودُ على الطائع .

(١٠) وهو تعالى الجواد: الكامل (٤) في ذاته ، وفي أسمائه ، وصفاته (٥) ، وأفعاله ، وسلطانه ، فهو سبحانه على الصراط المستقيم ، والهدى ، والنور المبين ، قال رب العالمين: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] .

(١١) فهو سبحانه الجواد: الذي يتحبب إلى الخلائق بالخيرات ، وهم يتبغضون إليه بالسيئات ، وما يزيده ذلك إلا جوداً من الألاء ، والإنعام ، والعطاء ، ف"لا يحرم من خيره عاصياً ، بل خيره يرتع فيه البر ، والفاجر" (٦) على السواء .

(١٢) "وهو الجواد: لذاته ، كما أنه الحي لذاته ، العليم لذاته ، السميع والبصير لذاته ، فجوده العالي من لوازم ذاته" (٧) .

(١٣) ومن جوده سبحانه: أنه "يجود على العاصي بقبول التوبة مع العلم بالمعصية" (٨) .



(١) «عدة الصابرين» (٣٣٩) .

(٢) «مدارج السالكين» (٢١٢/١) .

(٣) انظر: «معارج القبول» (٥٣/١) .

(٤) لأن من معاني الجود كما سبق نقيض الردي .

(٥) «أسماء الله الحسنى» للرضواني (٦٧٩) .

(٦) «تفسير السعدي» (٢٣٨) .

(٧) «مدارج السالكين» (٢١٢/١) ، «الروح» (٤٩٩) .

(٨) «تلخيص الأدلة لقواعد التوحيد» (٤٢٢/١) .

جلال الجواد

الأول: من جلاله: أن وجود كل جواد خلقه الله سبحانه، ويخلقه أبداً، أقل من ذرة بالقياس إلى جوده، فليس الجواد على الإطلاق إلا هو، وجود كل جواد فمن جوده.

الثاني: ومن جلاله: أن محبته تعالى للجود، والعطاء، والإحسان فوق ما يخطر على البال، أو يدور في الخيال، أو في الأوهام، وأحب ما إليه، أن يوجد على عباده، ويوسعهم فضلاً، ويغمرهم إحساناً وجوداً، وفرحه بعطاءه وإفضاله، أشد من فرح الآخذ بما يُعطاه ويأخذه أحوج ما هو إليه أعظم ما كان قدراً، ولهذا خصَّ جلَّ ثناؤه بجوده أهل الدعاء والسؤال، بلسان المقال، أو الحال، من برٍّ وفاجر، ومؤمن وكافر^(١)، قال ﷺ: «ليس شيء أكرم على الله ﷻ من الدعاء»^(٢)، وتتجلى سعة جوده في دار خلوده، أنه يعطي الدنيا وعشرة أمثالها، لأدنى أهل الجنة منزلة، من أوليائه^(٣).

الثالث: ومن جلال الجواد سبحانه: أنه "ابتدأ الخلق بجوده، فجاد بفضله عليهم، وأجاد في فعله، وتقديره، وتدبيره، وتفصيله، وتوصيله، فمن أحب أن يقف على معرفة بعض معاني جودة فعله باعتباره، وصحة من عقله، على إثارة في خليقته، وعجائب إبداعه في بريته، وإتقانه، في حكمته، وإحسانه في صناعته، وبدائع اختراعه، فإنه يشرف من ذلك على ما حار فيه الوهم، ويضل عن أدنى حقيقة الفكر، وتنقطع دونه المعرفة، فواصفه أبداً موصوف بالعجز عن بلوغ الكنه، والمطنب فيه مقصر عن بلوغ أيسر الحقيقة.

وأما جوده بفضله: فقد كان له ﷻ أن يخلق خلقه على أقبح الصور، وأحسن الهيئات، وأذل الأحوال، ثم يصيرهم بعد ذلك إلى أيأس المصير، بل جاد عليهم ﷻ، وأجاد فأجدى الجدوى، وأعطى الغناء، ثم أغنى، ومنح الثراء، وسوغ النعماء، وأجزل المواهب والحبا، وخوّل وأولى، وفصل وأسرى، واختار واختص، وأنجح الطلبات، فبلغت به آمادها القصوى.

(١) انظر: «مدارج السالكين» (٢١١/١)، «الحق الواضح» (٦٦).

(٢) «صحيح الترمذي» (٣٣٧٠).

(٣) قال ﷻ: «إني لأعلم آخر أهل النار خروجاً منها، وآخر أهل الجنة دخولاً الجنة...» إلى أن قال: «فيقول الله ﷻ له: اذهب فادخل الجنة فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها» البخاري (٦٥٧١، ٧٥١١)، ومسلم (١٨٦)، وفي رواية: «فيقول الله جلَّ ذكره: ألم ترض أن أعطيك مثل الدنيا منذ خلقتها إلى يوم أفيتها وعشرة أضعافه؟...» صححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٧٠٤) (٤٩٤/٣).

فسبحانه وله الحمد من كريم جواد فياض بالخير، سمح غني، يعطي ويثري، وهو ملاذ المستجير، ومعتصم الشريد، إليه المرجع والمفزع.

فسبحانه وله الحمد، الأفكار في جوده حائرة، والأبصار عنه حاسرة، والآمال إليه ناظرة، وهو بالكرم معروف، وبالجود موصوف، الإسهاب فيه تقصير، والمقصر فيه معذور^(١).

الرابع: ومن جلال جوده سبحانه: أنه "كلما كان الناس إلى الشيء أحوج، كان الرب به أجود، وكذلك كلما كانوا إلى بعض العلم أحوج، كان به أجود، فإنه سبحانه: (الأكرم)، وهو ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٢ - ٣]، وهو ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]"^(٢).

فسبحان من عظم جوده وكرمه أن يحيط به علم الخلائق^(٣).

الثمرات

ينبغي لمن عرف ربه تعالى بجوده: أن يتعبد بمقتضى هذا الاسم بأن يكون جواداً معطاءً، لا يخشى من ذي العرش إقللاً، فعن أنس رضي الله عنه أنه قال: «كان رسول الله ﷺ أحسن الناس، وأجود الناس»^(٤)، وقال ﷺ: «إن الله تعالى جواد يحب الجود، ويجب معالي الأخلاق، ويكره سفائفها»^(٥).

وليكن الجود لوجهه سبحانه الأعلى، فقد أخبر النبي ﷺ أن أول من تسعّر بهم النار يوم القيامة الكبرى من كان يجود رياء في الدنيا، «ورجلٌ وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأنتى به فعرّفه نعمه فعرّفها، قال: فما علمت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكن فعلت ليقال هو: جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى في النار»^(٦).

(١) «شرح الأسماء الحسنى» لأبي الحكم عبد السلام ابن برجان (٢٥٢/٢).

(٢) «النبوات» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٦٨٤/٢).

(٣) «زاد المعاد» (٤٧/٣).

(٤) البخاري (٢٦٦٥).

(٥) «صحيح الجامع» (١٧٤٤).

(٦) مسلم (١٩٠٧).

ومن التَّعَبُّدُ "بهذا الاسم الكريم يدور على حسن الشَّاء، وتطلب مواقع النعماء، وتذكر الآلاء، وتعرف مسالك جوده، ثم أخلص له العهد، وأصف له الود، وأكثر له من الحمد، ثم استعمل نفسك بإتيان الجيد قولاً، وفِعْلاً، وجداً بما حوته، وأنفق مما خولته، وأصفح عن ذلك الإخوان، وجاوز الإساءة منهم بالإحسان، أقل عثراتهم، وأسدل الستر على ما كان منهم، واعتمدهم من صفة الجود بما اعتمدك به ربهم إيثاراً لأمر الله ﷻ وأخذ بإذنه، فذلك أكسر لقوة عدوك، وأقل لحده، واسرع في حل عقده، قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]" (١).

واعلم يا رعاك الله تعالى أنه "يتفاوت العباد في إفاضه الجود عليهم بحسب ما مَنَّ الله به عليهم من الأسباب المقتضية لجوده وكرمه، وأعظمها: تكميل عبودية الله الظاهرة والباطنة، العلمية، والعملية، القولية، والفعلية، والمالية، وتحقيقها باتباع محمد ﷺ في الحركات، والسكنات" (٢).

واعلم رحماني الله وإياك أن "من أجل ما جاد به سبحانه على عباده، تعريفه لهم بأسمائه الحسنی، وصفاته العليا" (٣).

فيما أنا وأنت نتدارسه، فهذا هو الجود العظيم الذي جاد به علينا سبحانه في الدنيا، ونسأله سبحانه أن يكمله علينا يوم الدين، اللهم آمين.



(١) «شرح الأسماء» لابن برجان (٢/٢٥٣).

(٢) «توضيح الكافية» (١٢٤).

(٣) «مجموع الفوائد» (٢٥٠).

٩٨- الله ﷻ الوتر ٧٢ جَلَّ وعلا

قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا، لَا يَحْفَظُهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَهُوَ وَتَرٌ يُحِبُّ الْوَتَرَ»^(١).

المعنى اللغوي

الوتر: مصدر: وُتِرَ، وقيل: أُوتِرَ، وهو الفرد، أو ما لم يتشفع من العدد، أي: كل عدد لا زوج له^(٢)، والوتر هو الله، من حيث أنه له الوحدة من كل وجه^(٣).

المعنى الشرعي

- الله ﷻ هو الوتر على الإطلاق، الذي انفرد بالوترية عن جميع المخلوقات، فهو:
- (١) المنفرد المزايل^(٤) لما سواه من كل الجهات، والمباين لما عداه بكل المعاني، والاعتبارات^(٥).
 - (٢) وهو الوتر سبحانه: الذي انفرد بالملك دون المملوك، والربوبية دون المربوب، وبالألوهية دون المألوه^(٦).
 - (٣) وهو الواحد الفرد، الذي لا نظير له في ذاته، ولا انقسام^(٧)، المتفرد بذاته بالكمال، وانفراده بالعلو فوق كل الأنام.
 - (٤) "فهو المنفرد بنفسه، متحد بوصفه، لا يزدوج إلى شيء، ولا يقترب به شيء"^(٨).

(١) «البخاري» (٦٤١٠)، ومسلم (٢٦٧٧).

(٢) «اللسان» (٤٧٥٧/٦)، و«النهاية» (٩٥٧)، و«الأسنى» (١٩٦).

(٣) «المفردات» (٤٥٧).

(٤) المزايلة: المفارقة والتباعد. «الصحاح» (٤٦٦)، و«المعجم الوسيط» (٤٣٤).

(٥) ينظر: «شرح أسماء الله الحسنى» لابن برجان (١٠٤/١).

(٦) المصدر السابق (١٠٥/١).

(٧) «فتح الباري» (٢٢٧/١١).

(٨) «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (١١٣/١).

ه) وهو الذي تفرّد بالكمال: من كلّ وجه وفي كل حال ، ومن ذلك :

أ) في أسمائه الحسان: لأنها بالغة مطلق الحسن بلا حدّ ، ولا قيد ، لما تضمّنت من أحسن المعاني وأشرفها ، فليس فيها شائبة عيب ولا مذام .

ب) وفي أفعاله التمام: لما اشتملت عليه من الحكمة ، والحسن ، والإتقان ، ولما حوته أفعاله الباهرة من العجائب في مصنوعاته ، وما عمّت برّياته من كلّ خير وإحسان .

ج) وصفاته العلا الجلال: لأنه سبحانه تفرّد بصفات المجد ، والعظمة ، والكبرياء ، وبصفات الجمال والرحمة والإحسان ، فلا يتطرّق إليها وجه من النقصان .

د) المتفرد في ملكه وسلطانه على الدوام: لأنه حوى كل الأكوان ، فلا يغالِب ، ولا يُنازَع ، ولا يدانى ، وليس له فيه أقران ولا أعوان .

٦) وهو سبحانه الفرد الأحد: المنقطع النظير ، الذي ليس له مثل له ، ولا شبيه ، ولا عديل ، الذي ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ٤] ، لكماله من كل الوجوه .

٧) وهو الوتر سبحانه "الذي لا يصدر عنه شيء ، ولا يتولد عنه شيء ، وأنه لم يتولد عن شيء ، ولم يصدر عنه شيء ، قال تعالى: ﴿ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُؤَلَدْ ﴾ [الإخلاص: ٤]" ^(١) ، فهو المنزّه عن الأصول والفروع ^(٢) .

٨) وهو تعالى المتفرد في الألوهيّة ، المستحقّ لإفراده في العبودية ، وإخلاص الدين له ، من كل الخليقة .

٩) وهو الذي تفرده ، وتوحّده ، وتقصده كل الكائنات بأسرها ، في جميع شؤونها ، فليس لها ربّ سواه ، ولا مقصودٌ غيره تقصده ، وتلجأ إليه ، في إصلاح أمورها الدينية ، وفي أمورها الدنيوية .

١٠) وهو سبحانه الفرد في ربوبيته ، فلا شريك له في التدبير في ملكوته ، وليس له فيه مشيرٌ ، ولا معين ، ولا ظهير ^(٣) .

١١) ومن كمال وتريته ﷻ: أ) أنه لا تتغير أحواله ، كسائر خلقه التي تتغير وتتوَعَّح أحوالهم ،

(١) «نقض المنطق» (٩٣) ، و«مجموع الفتاوى» (١٣٠/٤) .

(٢) «تفسير ابن رجب الحنبلي» (٦٧٥/٢) .

(٣) انظر المعاني السابقة: «شأن الدعاء» (١٠٤) ، «النهاية» (١٤٧/٥) ، «الأسماء والصفات» (٥٠/١) ، و«فتح الرحيم» (٣٧) بتصرف .

(۲) انظر: «أسماء الله الحسنى» للدكتور الرضواني (۳۵۸).

والشقاوة والسعادة ، والهدى والضلالة ، والسماء والأرض ، فالشفع كل الخلق ، فكل مخلوق له نظير ، والوتر هو الله ﷻ الذي لا شبهة له ولا نظير ، قال سبحانه: ﴿وَالشَّفْعَ وَالْوَتْرَ﴾ [الفجر: ٤٩] " (١).

الثاني: ومن جلاله: أنه سبحانه خلق الأشياء المتضادة من الشيء الواحد ، فهو تعالى خلق من كل شيء مثله شيئين ، كل منهما يراوح الآخر من وجه ، وإن خالفه من وجه آخر ، ولا يتم نفع أحدهما إلا بآخر من الحيوان والنبات وغيرها ، ويدخل فيه الأضداد من الغنى والفقر ، والحسن والقبح ، والليل والنهار ، والصحة والسقم ، والبر ، والبحر... ، ولما كان ذلك في غاية الدلالة على أن كلاً من الزوجين يحتاج إلى الآخر ، وأنه لا بُدَّ أن ينتهي الأمر إلى واحد ، لا مثل له ، قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٢).

فمضادته بينها دليلٌ على ألا ضِدَّ له سبحانه ، وتعاقبها دليلٌ على ألا عاقب له ، ولا خالف ، وتناهيها دليلٌ على ألا نهاية له تعالى (٣).

الثالث: ومن جلال الوتر سبحانه: أنه كما "انفرد بالملك دون المملوك ، وبالربوبية دون المربوب ، وبالألوهية دون المألوه ، وكذلك أفرد الجنة من النار بخاصيتهما ، وما أوجد كل واحدة منهما ، أفرد المؤمنين بإكرامه ، والمجرمين بإهانتهم ، وأفرد كل ذي شكلٍ بشكله ، وكل ذي صورةٍ بصورته ، وخاصة بخاصته ، وحالة بحالته ، إفراداً منه للأشياء ، وتفرّداً لذواتها وأحوالها ، ولولا ذلك ما انفرد شيء عن شيء ، ولا امتاز شكلٌ عن شكل" (٤).

الثمرات

اعلم يا رعاك الله تعالى أن أوّل التعبّد كل اسم طلب علمه ، فإن كنت وفقك الله تعالى ووقفت بعقلك على ما تقدّم ذكره ، ورأيت بنور إيمانك ، فاعمل نفسك للوتر الحق ، فإنك وعملك شفّع ، والوتر هو المظهر لفائدتكما ، المزكي لكما بحسن التوجه ، وخالص النية ، فلا توجّه عملك لسواه ، فيزايل عملك معناه ، وما وجه له من بركة الوتر الحق ، ويدخل في العمل مقتضاه: الإصلاح بين المؤمنين ، فإن اختلافهم فرقة ، وبالإصلاح بينهم تكون الوحدة ، ويدخل

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الذاريات (٧٦٣/٨)، وسورة الفجر (٨٩٦/٨)، وانظر:

«تفسير البغوي» (٤١٦/٨)، و«التفسير الصحيح» (٦٢٧/٤)، و«تفسير ابن رجب الحنبلي» (٦٧٦/٢).

(٢) «نظم الدرر» (٢٨٦/٧).

(٣) «شرح الأسماء الحسنى» لابن برجان (١٠٤/١).

(٤) المصدر السابق (١٠٥/١)، و«الأسنى» (١٩٤).

في ذلك أيضاً: السعي في حاجة المؤمن ، قال رسول الله ﷺ: «اشفعوا تؤجروا...» (١)(٢).

فاحرص على أن تفرد له عملك كله ، كما أفردك أنت به ، خلقت ورزقك وسواك وعدلك ، وجعل لك السمع والبصر والفؤاد والقوة باطناً ، والجوارح ظاهراً ، أفردك بذلك كله ، ولم يشرك معك فيها أحداً ، فأفرده أنت بما جعل لك ، وأوجه عليك من أعمال أمرك بها ، ونعم أنعم بها عليك .

واعلم أنه قد افرد لك عنده نعيماً تاماً كاملاً خالصاً من النكد المنكدين ، سالماً من ذي التنغيص ، فصل لك أقله ، وأجمل جلّه ، لأنك لا تحيط بعلمه ، ولا تبلغ آمالك مع انبساطها إلى بعضه ، كذلك أفرد لك عذاباً عارياً من أقل الراحة ، مسلوباً من أدنى الترفيه ، لا يحيط به علمك ، ولا يقوم لأدناه صبرك ، زوجان: نعيم ، وعذاب لزوجين ، طاعة وعصيان .

(فلذلك أفرد له أعمالك كلها سرها وجهرها) لأنه سبحانه لا يقبل إلا عملاً مفرداً له خالصاً ، (وإن لم يكن كذلك) بطلت عنك فائدة هذا الاسم الكريم ، وخبت من بركته ووكلت في الحساب العاجل والآجل إلى من عملت له ، والعياذ بالله ، فعليك بتعرف هذا الحق ، فقد لعمرى فتحت لك الأبواب ، وجعلت من اليقين على مثل مخرفة (٣) النعم (٤).

ومن أثر هذا الاسم الجليل على العبد يتجلى في محبته للتوحيد والوترية ، في كل العبادات القولية ، والفعلية ، فيغتسل وترّاً ، ويستنثر وترّاً ، ويجعل آخر صلاته بالليل وترّاً ، والمتتبع لكثير من الأذكار والأعمال ، والرقى الشرعية ، بل حتى خلق السموات والأرض ، يجد أنها تنتهي وترّاً ، وهذا من تحقيق الفردية ، والأحدية لله تعالى بالعبادة ، التي هي أصل دعوة الأنبياء والرسل لكل الخليقة .

"ثم احرص على أن تختتم أعمالك بوتر لما رأيته من بركة الوتر ، قال رسول الله ﷺ: قال ﷺ: «يا أهل القرآن أوتروا ، فإن الله وتر يحب الوتر» (٥) ، إذا أحبه أعطى عليه ما لا يعطي على سواه ، وأحب العامل به ، وحسبك بها درجة من الله بها علينا وعليك" (٦).

(١) البخاري (١٤٣٢) ، ومسلم (٢٦٢٧).

(٢) «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي الحكم الإشبيلي (١١١/١).

(٣) المخرفة: الحائط من النحل ، أي: إن العائد فيها يجوز من الثواب كأنه على نحل الجنة ، يخترق ثمارها . النهاية (٢٦٠).

(٤) انظر: «شرح الأسماء» لابن برجان (١٠٦/١ ، ١٠٩).

(٥) صحيح أبي داود (١٤١٦) ، وصحيح الترمذي (٤٥٣٤).

(٦) «شرح الأسماء» لابن برجان (١١١/١ - ١١٢).

٩٩- الله ﷻ الإله ﷻ تبارك وتعالى

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُمَّ إِنَّهُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة].

المعنى اللغوي

الإله: اسم (مفعول) المألوه: أي المعبود، الذي تأله القلوب، أي: تحبّه، وتذلّ له، و(الإله): هو الله ﷻ، وكل ما اتخذ من دونه معبوداً إله عند متخذه، والجمع آلهة، و(الإله): من يؤله رجاءً وخشية وإجلالاً وإكراماً وعبادة واستعانةً، وغير ذلك من المعاني الألوهية.

ف(الإله) هو: المحبوب الودود، والمطاع، والمعبود، وهو أيضاً الثابت الدائم الذي لا يزول، القائم القيوم، من قولهم: "أله بالمكان": إذا أقام به، ومن ذلك الوله والتوله: وهو بمعنى إفراط المحبة والود، والفرار من سواه إليه، والفرع إليه من غيره، كما قال تعالى: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرُمٌ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

وجماع القول: أن (الإله) يطلق: على: المعبود، والمحبوب، والمقصود الذي إليه المنتهى، والذي تحتار العقول في عظمتها، وكنه ذاته، وصفاته، والمفزع إليه في الشدائد والنوائب، الدائم القائم.

والعالي فوق كل العالم، المحتجب عن الأبصار في هذه الدار^(١)(٢).

* * *

(١) «لسان العرب» (٤٦٧/١٣)، و«اشتقاق أسماء الله» (٢٧)، و«المفردات» (٨٢)، و«مجموع الفتاوى» (٢٢/١) (٥١٥/٥)، و«جامع المسائل» (١٧٣)، و«مدارج السالكين» (٢٧/٣)، و«شرح أسماء الله» للإشبيلي (٤١/١) (٦٣/١). و«الأسنى» (٣٥٠).

(٢) انظر: اسم الجلالة (الله) فلقد توسعنا في التفسير اللغوي له.

المعنى الشرعي

الله سبحانه هو (الإله) إله الأولين والآخرين وإله من في السموات والأرضين:

(١) فهو تعالى المقصود المحبوب لذاته ، المعبود بحق ، الذي يعبد من في السموات والأرض في كل آن ووقت ، ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤] .

(٢) فهو جلّ ثناؤه الإله: الذي تألّاه قلوب العباد حباً ، وذلاً ، وخوفاً ، ورجاءً ، واستعانةً ، وتعظيماً ، وطاعة ، وإجلالاً ، وإكراماً^(١) .

(٣) وهو الإله سبحانه: المتوحّد المتفرّد في: ذاته ، وأسمائه ، وصفاته ، وأفعاله ، فليس له شريك في ذاته ، ولا سميّ له ، ولا كفؤ ، ولا مثل ، ولا نظير ، ولا خالق ، ولا مدبّر غيره ، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُكَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]^(٢) .

(٤) وهو سبحانه الذي يؤله إليه الخلق كلهم طائعين مختارين ، وكارهين^(٣) ، إنسهم ، وجنّهم ، ناطقهم ، وبهيمهم ، فهو تعالى المفزع للكائنات كلها ، في جميع أمورهم الخاصة ، والعامة ، في كل حال ، ولحظة ، وومضة ، وحركة .

(٥) "وهو الذي تتحرّر القلوب عند التفكّر في عظمته سبحانه ، وتعجز عن بلوغ كنه جلاله"^(٤) .

(٦) وهو القاهر الغالب ، الذي لا يُقهر ولا يُغلب ، النافذ الإرادة وحده في جميع مراداته ، حتى لا يريد شيئاً إلا كان ، ولا يكون إلا بإرادته ، من غير مانع ولا مدافع ، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ، أي متغالبين ومختلفين^(٥) .

(٧) وهو الإله تعالى: الذي لا شريك له في الألوهية ، ولا نظير له في الربوبية ، فهو سبحانه فردٌ فيهما ، لا شريك له من أحد من البرية ، فلا يصحّ أن يسمى غيره إلهاً ، لاختصاصه بالوحدانية^(٦) .

(١) «مجموع الفتاوى» (٥١٥/٥) ، و«تلخيص كتاب الاستغاثة» لابن تيمية (١٤١/١) .

(٢) «تفسير السعدي» (٧٧) .

(٣) المصدر السابق (٧٧١) .

(٤) «الأسنى» (٣٥٠) .

(٥) «إبطال التأويلات» (٦٥١) .

(٦) «فتح البيان في تفسير القرآن» (٢٢٨/١) ، و«تفسير النسفي» (٨٩) بتصرف .

(٨) وهو الإله جلّ ثناؤه: الذي تفتقر إليه جميع الأفعال ، من جميع وجوها على الإطلاق ، والتي منها:

(أ) الخلق: قال عزّ شأنه: ﴿إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ لَدٍّ بِمَا خَلَقَ﴾ [المؤمنون: ٩١] .

(ب) الربوبية: قال سبحانه: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشْرِقِ [الصفّات: ٤ - ٥] .

(ج) الضر والنفع: ولذلك قال إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ﴾ أَوْ يَفْعَلُونَكَ أَوْ يَضُرُّونَ [الشعراء: ٧٢ - ٧٣] ، وغير ذلك ، فدلّ أنّ الإله الحق سبحانه: هو الذي فعل الأفعال كلّها^(١).

(٩) وهو الإله الحق: الموصوف بالصفات الألوهية ، الذي انفرد بها عن كل البرية ، وهي جميع أوصاف الكمال ، وأوصاف الجلال ، وأوصاف الجمال ، مع نفي أضدادها^(٢) ، من الشبيه ، والمثيل ، والمذام .

(١٠) ومن تمام ألوهيته تعالى: أنه منزّه عن الصاحبة والولد ، قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧١] .

وقال عزّ شأنه: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَنِيعَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ [الأنعام: ١٠١ - ١٠٢] .

(١١) وهو الذي احتجب واستتر عن رؤيته البرية في حياتهم الدنيوية .

(١٢) وهو الذي يجبر ويؤمن من شاء من عباده ، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَمْلِكُ مِنْ يَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٨] ^(٣) .

(١٣) فهو سبحانه المألوه ، المستحق لأن يؤله ، أي: يعبد ، ويوحّد وحده لا شريك له ، لا إله إلا هو ، فهو سبحانه له حق لا يشركه فيه غيره ، فلا يعبد إلا الله تعالى ، فكل معبود من لدن عرشه إلى قرار أرضه باطل^(٤).

(١) الأسنى» (٣٦٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٠٢/١٣).

(٣) ينظر: «الأسنى» (٣٦٦)، و«القاموس المحيط» (٥٩)، و«الخصائص اللغوية لاسم الجلالة» (٥٣).

(٤) «دقائق التفسير» (٣٦٤/٢)، و«تلخيص كتاب الاستغاثة» (١٤١/١)، و«درء تعارض العقل والنقل» (١٥/٤)،

وانظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» (٨٥٥/٢).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «لا إله إلا أنت» فيه إثبات انفراده بالإلهية، والألوهية تتضمن كمال علمه وقدرته، ورحمته وحكمته، ففيها إثبات إحسانه إلى العباد، فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات، التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع، والعبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل^(١).

الفرق بين اسم (الإله) واسم (الرب):

اسم «الإله» يختلف في معناه عن اسم «الرب» في كثير من النواحي، فمنها: أن الربَّ معناه يعود إلى الانفراد بالخلق والتدبير، فهو سبحانه يربي عبده ويدبره، فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها.

أما «الإله»: فيستحق عبادة المألوه الذي تعظمه القلوب، وتخضع له بكمال المحبة والتعظيم، المستحق للعبادة بكل أنواعها وشمولها.

الفرق بين اسم (الإله) واسم (الله):

(١) أن (الإله) اسم جنس يطلق عليه وعلى غيره، ولهذا وصفه كثير من المشركين لما عبده منهم كالشمس، والقمر، والكواكب، والأصنام.

أما (الله) علم لم يطلق على غيره تعالى، فلم يتسم به أحد قط^(٢).

(٢) أن (الله) لم يستعمل قط منكرًا، و(إله) يُستعمل منكرًا مقطوعًا عن الإضافة حينًا، ومضافًا حينًا آخر.

(٣) أن (الله) يطلق حقيقة عليه ﷻ، و(إله) يطلق على غيره حكايةً ومجازًا لا حقيقة، ومن شواهد استعمال (إله) في غيره حكايةً أو مجازًا، قوله تعالى حكايةً عن موسى السامري ومن افتتن به: ﴿هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى﴾ [طه: ٨٨]، ولم يقل: هذا الله، إذ لا يستعمل في غيره ﷻ...^(٣).

(١) «دقائق التفسير» (٣٦٤/٢).

(٢) «الأسنى» (٣٦٨)، و«الخصائص اللغوية للفظ الجلالة (الله)» (٦٥).

(٣) «الخصائص اللغوية للفظ الجلالة» (٦٥).

جلال الإله

الأول: من جلال هذا الاسم العظيم: أنه هو أعم الأسماء دلالة بعد اسم الجلالة (الله) ﷻ، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ كُذُّوْنَ وَلِلَّهِ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٧١].

الثاني: ومن جلاله: أنه جامع لجميع صفات الكمال، ونعوت الجلال، فيدخل في هذا الاسم جميع الأسماء الحسنى، والصفات العلا^(١)، فمن دعا به فقد دعا بجميع أسمائه تعالى، وصفاته العلا، الثبوتية، والمنفية.

الثالث: ومن جلاله ألوهيته سبحانه: أنها ألوهية رحمة، وعطف، وشفقة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ كُذُّوْنَ وَلِلَّهِ وَحْدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٧٣].

الرابع: ومن جلاله: "أن بتوحيده (في ألوهيته) قامت السماوات والأرض وما بينهما، وما علا، وما سفلى، وبه ثبت كل شيء، وبه قام التدبير، وتماسك النظام، وتوحيده في ألوهيته: ظهر الإسلام، وتحقق الإيمان، وثبت اليقين، وعليه ابتنى حكم الدنيا والآخرة، وبه حقنت الدماء، وأمن السباء، وهي الموجبة للجنة والرضوان، وضدها للسخط وعذاب النيران، قال رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله مخلصاً من قلبه دخل الجنة»^(٢)، فهذا لقائلها مرة واحدة ثم مات عليها ساعته تلك، فكيف ترى من استصحبها وعمل بها، وتعلم اليقين بتحقيقها من حط ذنوب ورفعته في درجات تلك الدار، وقربه من ربه، وبالضد لمن استكبر وأبى قال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥].

فاعمل - وفقك الله - بموجبه، وتعلم حقيقتها، ترفع إلى أعلى درجاتها^(٤).

* * *

(١) «الأسنى» للقرطبي (ص ٣٦٩)، و«مجموع الفتاوى» (٢٢/١).

(٢) «بدائع الفوائد» (٢١٢/٢).

(٣) مسلم (٢٦).

(٤) «شرح الأسماء الحسنى» لأبي الحكم ابن برجان (٦٦/١).

الثمرات

ينبغي لكل من عرف (الإله) أن يأله إليه بالاعتماد عليه، فيخلع كل إله سواه، والهوى من أبغض الإله، فلا يكون هواه إلا في عبادة الحق (الإله)، وأن يكون اعتماده عليه، وفزعه إليه، في الرخاء والشدة، ولا يكون من الفئة المرتدة الذين قال الله فيهم: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْشَرُونَ﴾ [النحل: ٥٣]، فكل أحدٍ فمعبوده (الإله) فمن كان معبوده (الإله) فقد كمل شرفه، وجاهه، وعرف أنه ليس في السموات والأرض غيره، وإن كان موجوداً في السموات والأرض فالله (إلهه)، كما قال: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ٣]^(١)، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٨٤] .

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤]، أي: يأله أهل السماء، وأهل الأرض، طوعاً وكرهاً، الكل خاضعون لعظمته، منقادون لإرادته ومشيئته، ولهذا عباد الرحمن يألهونه ويعبدونه، ويبدلون له مقدورهم بالتأله القلبي والروحي، والقولي والفعلية، فيعرفون منه نعوته وأوصافه ما تتسع قواهم لمعرفة، ويحبونه من كل قلوبهم محبة تتضاءل جميع المحاب لها، فلما تمت محبة الله تعالى في قلوبهم، أحبوا ما أحبه من أشخاص، وأعمال، وأزمنة، وأمكنة، فصارت محبتهم وكرهاتهم تبعاً لإلههم وسيدهم ومحبتهم^(٢).

واعلم يا رعاك الله أن "المحسوب المودود مخوف هجره، محذور فراقه، ومفزوع منه وإليه، فكونه مطاعاً ومعبوداً اقتضى ذلك جماع التوجه إليه، والإقبال عليه، وقصده بالأعمال كلها"^(٣).

فاطلب وفقك الله حقيقة الألوهية، وتعلم علم طاعته ووحده كما أمرك، وإياك وشركه بكل وجه، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُكَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وصرف ذلك في كتابه الحكيم لفظاً، ومعنى، ونصاً، وتعريضاً، وعلى ذلك دار القرآن بتبينه^(٤).



(١) «الأنبي» (٣٦٨).

(٢) «فتح الرحيم الملك» (ص ١٣ - ١٤) بتصرف يسير.

(٣) «شرح أسماء الله الحسنى» لأبي الحكم ابن بركان (١/٦٤).

(٤) المصدر السابق (١/٦٦).

الفهرس

المقدمة.....	٥٠
أهمية معرفة أسماء الله الحسنی وصفاته العلا	١٠
حُسن أسماء الله سبحانه	١٩
محبة الله ﷻ لأسمائه الحسنی وصفاته العلا	٢٣
محبة الله سبحانه من اتصف من عباده بمقتضيات أسمائه وصفاته وإنه يعاملهم بموجب	
الاسم والصفة التي يعاملون بها عباده	٢٤
الإيمان بالأسماء الحسنی أعظم أنواع الإيمان بالغيب	٢٧
المراد بإحصاء الأسماء الحسنی	٢٩
أركان الإيمان بأسماء الله الحسنی	٣٣
الأسماء الحسنی لا تدخل تحت حصر ولا تُحدَّد بعدد	٣٦
أسماء الله الحسنی تتفاضل فيما بينها	٣٨
دلالة الأسماء الحسنی على الصفات العلی	٤١
الفرق بين الاسم والصفة	٤٢
آثار الأسماء الحسنی في الخلیقة	٤٤
الثمرات الخاصّة بأسماء وصفات معيَّنة	٤٦
اسم الله الأعظم	٤٩
وصية عزيزة	٥٢
اسم الجلالة الأعظم ﷻ	٥٥
١ - الله الرَّبُّ سبحانه وتعالى	٦٩
٢ - ٣ - الله الرحمن الرحيم جل ثناؤه	٨٠
٤ - الله الحيُّ جل جلاله	٩٥
٥ - الله القيُّوم عز شأنه	١٠٠
٦ - ٧ - ٨ - الله العلي ، الأعلى ، المتعال عز شأنه	١٠٧

- ٩ - الله الكريم جل جلاله ١١٦
- ١٠ - الله الودود سبحانه وتعالى ١٢٥
- ١١ - ١٢ - الله الغفور، الغفار عز وجل ١٣٤
- ١٣ - الله العزيز تبارك وتعالى ١٤٣
- ١٤ - الله الجميل جلّ وعلا ١٥٣
- ١٥ - ١٦ - ١٧ - الله القادر، القدير، المُقتدر جل جلاله ١٦٢
- ١٨ - الله العفوُّ عزَّ شأنه ١٧١
- ١٩ - ٢٠ - الله الواحد، الأحد جل وعلا ١٨١
- ٢١ - الله القريب عز وجل ١٨٨
- ٢٢ - الله المُجيب عز وجل ١٩٦
- ٢٣ - ٢٤ - ٢٥ - الله الملك، المليك، المالك جل وعلا ٢٠٤
- ٢٦ - الله الصمد جل ثناؤه ٢١٥
- ٢٧ - الله الحميد جل جلاله ٢٢١
- ٢٨ - الله المجيد جلّ وعلا ٢٣١
- ٢٩ - الله الغني تبارك وتعالى ٢٣٨
- ٣٠ - الله الحكيم سبحانه وتعالى ٢٤٧
- ٣١ - الله العظيم جل جلاله ٢٥٦
- ٣٢ - الله القويّ عز شأنه ٢٦٥
- ٣٣ - الله المتين تبارك وتعالى ٢٧٢
- ٣٤ - الله السميع جلّ وعلا ٢٧٧
- ٣٥ - الله البصير سبحانه وتعالى ٢٨٢
- ٣٦ - ٣٧ - الله القاهر، القهار جل جلاله ٢٨٩
- ٣٨ - الله الوهاب تبارك وتعالى ٢٩٥
- ٣٩ - الله المتكبر جلّ ثناؤه ٣٠٠
- ٤٠ - الله المؤمن عز وجل ٣٠٦
- ٤١ - الله البرّ تبارك وتعالى ٣١٤
- ٤٢ - ٤٣ - الله الولي، المولى جل جلاله ٣٢٠

- ٤٤ - الله الجبَّارُ تبارك وتعالى ٣٢٨
- ٤٥ - الله الرَّؤُوفُ جل ثناؤه ٣٣٧
- ٤٦ - الله التَّوَّابُ سبحانه وتعالى ٣٤٦
- ٤٧ - الله الحليم عز شأنه ٣٥٤
- ٤٨ - الله الشَّهيد عز وجل ٣٦٠
- ٤٩ - ٥٠ - الله الرَّزَّاقُ، الرَّزَّاقُ جل وعلا ٣٦٩
- ٥١ - الله القُدُّوسُ تبارك وتعالى ٣٧٧
- ٥٢ - ٥٣ - الله الخالقُ، الخلاقُ تقدَّستُ أسماؤه ٣٨٣
- ٥٤ - الله البارئُ سبحانه وتعالى ٣٩٠
- ٥٥ - الله المُصَوِّرُ تبارك وتعالى ٣٩٤
- ٥٦ - الله السَّلامُ جَلَّ وعلا ٣٩٩
- ٥٧ - الله الواسعُ سبحانه وتعالى ٤٠٥
- ٥٨ - الله اللطيفُ تبارك وتعالى ٤١١
- ٥٩ - الله الكبيرُ جل شأنه ٤١٨
- ٦٠ - ٦١ - الله الشَّاكِرُ، الشَّاكُورُ عز شأنه ٤٢٥
- ٦٢ - الله العليمُ سبحانه وتعالى ٤٣٢
- ٦٣ - الله الحفيظُ تبارك وتعالى ٤٣٨
- ٦٤ - الله الأكرمُ جل شأنه ٤٤٤
- ٦٥ - الله الأوَّلُ جل وعلا ٤٥٠
- ٦٦ - الله الآخرُ سبحانه وتعالى ٤٥٤
- ٦٧ - الله الظَّاهرُ عز شأنه ٤٥٨
- ٦٨ - الله الباطنُ جَلَّ ثناؤه ٤٦٢
- ٦٩ - الله المُهَيِّمُ تبارك وتعالى ٤٦٦
- ٧٠ - الله الحَقُّ جل وعلا ٤٧١
- ٧١ - الله المبينُ عز وجل ٤٧٨
- ٧٢ - الله الفَتَّاحُ سبحانه وتعالى ٤٨٣
- ٧٣ - الله الخبيرُ جل وعلا ٤٨٩

- ٧٤ - الله الوكيل عز شأنه ٤٩٣
- ٧٥ - الله الْمُقَيِّت جل جلاله ٤٩٩
- ٧٦ - الله النَّصِير سبحانه وتعالى ٥٠٤
- ٧٧ - الله الرَّقِيب جل ثناؤه ٥١٠
- ٧٨ - الله الوارث عز وجل ٥١٤
- ٧٩ - الله الحسيب جل وعلا ٥١٨
- ٨٠ - ٨١ - الله القابض الباسط تبارك وتعالى ٥٢٤
- ٨٢ - ٨٣ - الله الْمُقَدِّم الْمُؤَخِّر جل شأنه ٥٣١
- ٨٤ - الله المَنَّان تبارك وتعالى ٥٣٥
- ٨٥ - الله الرَّفِيق عز شأنه ٥٤١
- ٨٦ - الله الْحَيُّ سبحانه وتعالى ٥٤٦
- ٨٧ - الله الدَّيَّان جلَّ وعلا ٥٥٠
- ٨٨ - الله الْمُحْسِن عز وجل ٥٥٥
- ٨٩ - الله السَّيِّر جل وعلا ٥٦١
- ٩٠ - الله السَّيِّد عز شأنه ٥٦٥
- ٩١ - الله الشَّافِي عز وجل ٥٦٨
- ٩٢ - الله الْمُعْطِي تبارك وتعالى ٥٧١
- ٩٣ - الله الطَّيِّب عز شأنه ٥٧٧
- ٩٤ - الله الْمُسَعِّر جل ثناؤه ٥٨٦
- ٩٥ - الله الشُّبُّوح جل وعلا ٥٩٠
- ٩٦ - الله الْحَكَم سبحانه وتعالى ٥٩٦
- ٩٧ - الله الجواد عز وجل ٦٠٣
- ٩٨ - الله الْوَثَرُ جَلَّ وعلا ٦٠٩
- ٩٩ - الله الْإِلَه تبارك وتعالى ٦١٤

القسم الثاني التعاليق العلّية في شرح صفات الله العلي

خطة البحث

بدأتُ فيه بتعريف معنى الصفة لغةً واصطلاحاً، ثم ذكرت القواعد والأصول العامة لصفات ربنا العلي مبتدأ بذكر أهمية القواعد والأصول، وقد ذكرت خمس عشرة قاعدة عامة في هذا الباب.

وقد قسمت الصفات بالتفصيل إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الصفات الثبوتية، وهي نوعان: الذاتية، والفعلية، فبدأت بذكر الصفات الذاتية وذكر القواعد والضوابط لهذا النوع.

ثم بدأت بذكر الصفات الذاتية بالتفصيل: أذكر دليل الصفة ثم المعنى في اللغة، ثم المعنى في الشرع، بشرح بسيط بلا تطويل مُملّ، ولا إيجاز مخِلّ.

ثم ذكرت القسم الثاني، وهي الصفات الفعلية، وهي نوعان: مطلقة ومقيدة، فشرعت في ذكر القواعد والضوابط لها، ثم ذكرت الصفات المطلقة بالتفصيل، ثم ذكرت بعدها الصفات المقيدة وهي نوعان: صفات فعلية مقيدة على جهة المقابلة في الجزاء والمثوبة، وصفات فعلية مقيدة على جهة المقابلة في الجزاء في العقوبة.

فبدأت بالأول بذكر أفراد هذه الصفات من هذا النوع، ثم شرعت بالنوع الثاني، وهي نوعان كذلك:

الأول: العقوبة من جنس العمل ونوعه، الثاني: العقوبة من غير جنس الفعل ونوعه.

ثم شرعتُ في ذكر القواعد والضوابط.

وبدأت بالنوع الأول بذكر الصفات ثم بالنوع الثاني كذلك، ثم ذكرت القسم الثالث الأخير: الصفات المتضمنة لنوعي الصفات الثبوتية، وعرفت هذا النوع ثم ذكرت الصفات.

معنى الصفات لغة واصطلاحاً

﴿ معنى الصفة لغة: وصف الشيء له وعليه: إذا حَلَّاه، فالوصف: تحلية الشيء، وهي الأمانة اللازمة للشيء. ويقال: استوصف الطبيب لِذاته: سأله أن يَصِفَ له ما يعالج به، والصفة: كالعلم، والجهل، والسَّواد، والبياض^(١).

﴿ معنى الصفة اصطلاحاً: هي المعنى القائم بالله تبارك وتعالى ممّا وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله ﷺ، من صفات الذات والفعل، ممّا يدل على الكمال المطلق له تعالى، وتنزيهه عن كل نقص، ونظير، ومثيل، من كل وجه على الإطلاق^(٢).

القواعد والأصول العامة في صفات الله سبحانه

اعلم رحماني الله وإياك: أن معرفة قواعد العلوم وإتقانها، له فوائد عظيمة، وآثار جلية، وذلك: أن القواعد يسهل حفظها، فإذا حُفِظَتْ وفُهِمَتْ يمكن التفرُّع عليها، فالأصول والقواعد للعلوم بمنزلة الأساس للْبُنيان، والأصول للأشجار، لا ثبات لها إلّا بها، والأصول تنبني عليها الفروع، والفروع تثبت وتقوى بالأصول، وبالقواعد والأصول يثبت العلم ويقوى وينمى نماءً مطرداً، وبها تعرف مآخذ الأصول، وبها يحصل الفرقان بين المسائل التي تشبه كثيراً^(٣)، وَمَنْ كان مُعْتَنِيّاً بالفروع دون الأصول فإنه يفوته الفروع والأصول، وقد قيل: «مَنْ حُرِّمَ الأصول، حُرِّمَ الوصول»، يعني: أنه لا يصل إلى غاية^(٤)، فهي الحصن الحصين مِنَ الوقوع في الزَّلَل في أهمِّ مهمّات الدين القويم، وهو توحيد أسماء وصفات رَبِّ العالمين.

﴿ القاعدة الأولى: (صفات الله تعالى كلّها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وليس له فيها شبيه ولا مثال).

هذه القاعدة من القواعد المُسَلِّمة المستقرّة في الفطر السليمة، «أن الكمال ثابت لله تعالى، بل الثابت له: هو أقصى ما يكون من الأكملية، بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه إلّا وهو ثابت للربِّ تعالى، يستحقّه بنفسه المقدّسة»^(٥).

(١) «لسان العرب» (٣٥٦/٩)، و«معجم مقاييس اللغة» (١١٥/٦)، و«مختار الصحاح» (٣٧٤).

(٢) اخترت هذا التعريف لشموله مع بعض التصرف فيه من كتاب «الماتريدية وموقفهم من الأسماء والصفات» (٤١٧/٢).

(٣) انظر: «طريق الوصول إلى العلم المأمول» لعبد الرحمن السعدي (٤).

(٤) «شرح أصول في التفسير» لابن عثيمين (٢٩).

(٥) انظر: «الرسالة الأكملية» لابن تيمية (٧١/٦) ضمن رسائل مودعة في مجموع فتاوى شيخ الإسلام.

فما من كمال تفرضه الأذهان، ويُقدِّره المُقدِّرون، إلَّا والله تعالى أعظم من ذلك، فهو سبحانه لم يبق صفة كمال إلَّا اتَّصف بها، ووصف بغايتها، بحث لا تُحيط الخلائق ببعض تلك الصفات بقلوبهم، ولا تعبر عنها بالسنتهم، بل لو اجتمع كلُّ الخليقة إنسهم وجنهم، من أولهم وآخرهم، على أن يُحيطوا بصفة واحدة من صفاته، لم يكن لهم قدرة، ولا وسع على الإحاطة بها، فكيف بها كلها؟^(١).

﴿القاعدة الثانية: (صفات الله تعالى توقيفية).﴾

صفات الله تعالى بكل أنواعها وأقسامها توقيفية؛ أي: أن مرجع إثباتها هو الكتاب والسنة، فلا تُؤخذ بالاجتهاد ولا بالقياس، لأنَّ صفات ربِّنا سبحانه من الغيب، بل هو أعظم الغيب، وقد استأثر الله تعالى الغيب عنده وحده، وعلى هذا فلا تُعلم ولا تثبت إلَّا عن طريق وحيه.

قال إمام أهل السنة أحمد بن حنبل رحمه الله: «نعبُد الله بصفاته كما وصف به نفسه، قد أجمل الصفة لنفسه، ولا نتعدى القرآن والحديث، فنقول كما قال، ونصفه كما وصف نفسه، ولا نتعدى ذلك»^(٢).

ضابط مهم: وهو: «أنَّ كلَّ ما رُوِيَ موقوفًا عن الصحابة في باب الصفات فحكمه حكم المرفوع».

لأن الصحابة رضوان الله عليهم كلُّهم عدول، وعلى هذا: فكلُّ ما نقل عنهم في باب الغيبيات، وبالأخص في الصفات، فهو في حكم الرَّفع؛ أي: أنه من قول النبي ﷺ، لأنَّه لا مجال للاجتهاد والرأي في هذا الباب العظيم.

قال الإمام الجليل الآجري رحمه الله: «إنَّ أهل الحقَّ يصفون الله ﷻ بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، وبما وصفه به الصحابة رضي الله عنهم»^(٣).

ومن أمثلة ما رُوِيَ عن الصحابة في باب الصفات: «الكرسيُّ»، فقد ثبت عن

(١) انظر: «بدائع الفوائد» (٦٣/١)، و«تفسير السعدي» (٣٣٥)، و«فتح الرحيم الملك» (٢٣).

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة (٣٢٦/٣). وانظر: كلام الآجري في «الشرعة» (٢٩١)، وابن قدامة في «دَمَّ التأويل»

(١٠)، والخطابي في «شأن الدعاء» (١١١)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٤٦٣/٧).

(٣) «الشرعة» (٢٩١).

ابن عباس رضي الله عنه وعن أبي موسى رضي الله عنه ، أنهما قالا في معنى الآية: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]: «الكرسي موضع القدمين»^(١).

وكذلك ما ثبت عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أنه قال: «خلق الله تعالى أربعة أشياء بيده...، ثم قال لسائر الخلق: كُنْ فيكون»^(٢).

❖ القاعدة الثالثة: (الواجب إجراء نصوص الصفات على ظاهرها، على الحقيقة)^(٣).

هذه القاعدة من أعظم القواعد التي بنى عليها أهل السنة والجماعة في فهم النصوص عامة، والصفات خاصة، وهي في الحقيقة قاعدتين قرنتا في قاعدة واحدة اختصاراً.

* الشق الأول من القاعدة: (الواجب حمل نصوص الصفات على ظاهرها)؛ أي: أن النصوص يجب أن تُفسر على حسب ما يقتضيه ظاهر اللفظ (وإن لم يفهم المعنى)، ولا يجوز العدول عن ذلك إلا بدليل (صريح) واضح جلي يجب الرجوع إليه، وهذا أصل أصيل يجب أن يُحمل عليه خطاب الشارع الحكيم، وخاصة في باب الأسماء والصفات^(٤)، حتى لا يقع العبد في التأويل الفاسد، وما يترتب عليه من هدم أهم المقاصد، وأجل المطالب.

* والشق الثاني من القاعدة: (يجب حمل نصوص الصفات على الحقيقة لا على المجاز)^(٥)، وهي كسابقتهما في الأهمية، إذ فيها تأصيل في فهم نصوص الكتاب والسنة على مراد الشارع، وعدم الخروج عن مراده، والحقيقة في الاصطلاح: هي كل لفظ بقي على موضعه، ولم ينتقل إلى غيره، وقسمتها المجاز، وهو استعمال الكلمة في غير ما وُضعت له، لعلاقة بينهما، مع قرينة صارفة عن المعنى الحقيقي^(٦).

(١) انظر تخريجه عند صفة (القدم والرجل).

(٢) انظر تخريجه عند صفة (اليدان).

(٣) انظر هذه القاعدة في: «الحجة في بيان المحجة» (١٨٨/١)، و«الحقيقة والمجاز» (٤٤١/٢٠)، و«التسعينية» لابن تيمية (٥٤٦/٢)، و«أضواء البيان» (١٠٠/٣)، و«القواعد المثلى» (١٧٠)، و«منهج الاستدلال» (٣٩٣/١)، و«قواعد الترجيح عند المفسرين» للحري (١٣٧/١) (٣٨٧/٢).

(٤) قال الإمام الحافظ أبي القاسم الأصبهاني رحمه الله: «مذهب السلف رحمة الله عليهم أجمعين إثباتها (أي: الصفات) وإجراؤها على ظاهرها، ونفي الكيفية عنها». «الحجة في بيان المحجة» (١٨٨/١).

(٥) قال قوام السنة الأصبهاني رحمه الله: «أن من حمل اللفظ على ظاهره، وعلى مقتضى اللغة حمله على حقيقته، ومن تأوله عدل به عن الحقيقة إلى المجاز، ولا يجوز إضافة المجاز إلى صفات الله تعالى». «الحجة» (٤٨٢/١).

(٦) «قواعد الترجيح» (٣٨٨/٢).

فالمقصود بالحقيقة هنا: هو المعنى المتبادر إلى الذهن من ظاهر اللفظ في أصل معناه؛ أي: إثبات الصفة على الحقيقة كما جاءت في النص الشرعي، دون تأويل ولا تحريف، ولا تمثيل، ولا تعطيل، لأن هذا هو الأصل في الكلام، أنه يحمل على الحقيقة، وبهذا جاء القرآن، وسنة خير الأنام ﷺ، قال ابن عبد البر رحمه الله: «وَحَمَلَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَلَامُ نَبِيِّهِ ﷺ عَلَى الْحَقِيقَةِ أَوْلَى بِذَوِي الدِّينِ وَالْحَقِّ، لِأَنَّهُ يَقْصُ الْحَقَّ، وَقَوْلُهُ الْحَقُّ...»^(١).

وعلى هذا فنقول: الله مُتَّصِفٌ بالحياة على الحقيقة^(٢)، والسمع على الحقيقة، واليدين على الحقيقة، والعينين على الحقيقة.

❖ القاعدة الرابعة: (الصفات معلومة لنا باعتبار، مجهولة لنا باعتبار آخر، باعتبار المعنى: معلومة، وباعتبار الكيفية: مجهولة)^(٣).

هذه القاعدة هي الأسس والأصل الأعظم، في فهم أجل علم، فهي سفينة النجاة إلى سلوك طريق الهدى، كما اقتضاه الرعي الأول، ومعنى قوله: (الصفات معلومة باعتبار المعنى)؛ أي: أن معانيها مفهومة في أصل المعنى اللغوي، لأن ربنا سبحانه خاطبنا باللسان العربي المبين، في كتابه الحكيم، وأمرنا بتدبره وتَعَقُّله واتباعه، ومن رحمة الله تعالى علينا أن جعل نصوص الصفات في غاية الأحكام، يفهمها كل الأنام، فلا تشكل على أحد منهم على مر الزمان، بخلاف آيات الأحكام، قد تشكل على بعض الناس، فلا يفهمها إلا الأعلام.

يقول ابن القيم رحمه الله: «مَنْ شَرَحَ اللَّهُ لَهُ صَدْرَهُ، وَتَوَرَّ لَهُ قَلْبُهُ: يَعْلَمُ أَنَّ دَلَالَتَهَا (أي: نصوص الصفات) على معانيها أظهر من دلالة كثير من آيات الأحكام على معانيها، ولهذا آيات الأحكام لا يكاد يفهم معانيها إلا الخاصة من الناس، وأما آيات الأسماء والصفات فيشترك في فهمها الخاص والعام، أعني: فهم أصل المعنى لا فهم الكُنه والكيفية»^(٤)، ثم ذَكَرَ رحمه الله إشكال بعض الصحابة في بعض آيات الأحكام، ولم يثبت عن أحد منهم استشكل مسألة من مسائل الصفات.

(١) «التمهيد» (١٦/٥)، وانظر أقوال أهل العلم في التنصيص على هذه القاعدة في: «قواعد الترجيح» (٣٩٢/٢ - ٣٩٥).

(٢) سيأتي في القاعدة (التاسعة) سبب ذكر السلف لهذه الكلمة في إثبات الصفات.

(٣) انظر هذه القاعدة في: «مجموع الفتاوى» (٢٠٧/٣)، و«درء تعارض العقل والنقل» (١٦٧/٣)، و«بيان تلبس الجهمية»

(١٣٢/١)، و«الصواعق المرسلة» (٢١٠/١)، و«القواعد المثلى» (١٧٣).

(٤) «الصواعق المرسلة» (٢١٠/١).

وما ذاك إِلَّا لِعِظَم شأنها، وعُلُو منزلتها، فلا يستغني عنها أحدٌ كائنًا من كان، في القيام بحُسن العبودية لله سبحانه على الدوام.

ومعنى (باعتبار الكيفية مجهولة): الكيفية من كيف، وهو السؤال عن الهيئة والصورة، وطلب حقيقة الشيء وكُنْهه، وهذا في حَقِّ رَبَّنَا العظيم مُحالٌ، "لأن العلم بكيفية الصفة فرع على العلم بكيفية الموصوف، فإذا كان الموصوف لا تعلم كيفيته امتنع أن تعلم كيفية الصفة"^(١)، لأنَّ الشيء لا تدرك كيفيته إِلَّا بِمُشَاهِدته، أو بِمُشَاهِدته مثيله، أو بالخبر الصادق عنه، وكل هذه الطرق مُنتَفِية في كيفية صفات الله تعالى، فتكون الكيفية مجهولة بالنسبة لنا لا نعلمها.

قال قوام السنة الأصهباني رَحِمَهُ اللهُ: الكلام في الصفات فرعٌ على الكلام في الذات، وإثبات الذات إثبات وجود لا إثبات كيفية، فكذلك إثبات صفاته...»^(٢).

❖ مسألة مُهمّة:

كوننا لا نعلم كيفية صفات ربنا سبحانه، هذا لا يعني أنَّها ليس لها كيفية، بل لها كيفية اختص بعلمها ﷺ، ولهذا يجب أن يُعْلَمَ أنَّ لِصفات ربنا الجليل كيفية تليق به، وقد قطع الأطماع عنا في معرفتها، كما جاء عن السلف في قولهم: «أمرؤها كما جاءت بِلا كَيْفٍ»^(٣).

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ: «ينزل كيف شاء بعلمه، وقدرته، أحاط بكل شيء عِلْمًا»^(٤).

❖ القاعدة الخامسة: (طريقة القرآن والسنة في أسماء الله تعالى وصفاته: الإثبات المفصل والنفي المجمل)^(٥).

الله ﷻ موصوفٌ بالصفات الثبوتية؛ أي: الصفات الكمالية الوجودية، وموصوف بالصفات المنفية؛ أي: ينفي عنه كل صفة نقص وعيب وذم، كما سيأتي في أنواع الصفات.

قال شيخ الإسلام: «من أبلغ العلوم الضرورية: أنَّ الطريقة التي بعث الله تعالى بها أنبياءه

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٩٩/٦).

(٢) «الحجة في بيان المحجة» (١٨٩/١).

(٣) انظر هذه الروايات عن الأئمة الأعلام في: «الشرعية» للأجري (٧٢٠)، والدارقطني في كتابه «الصفات» (٦٧)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (٨٦٥)، و«العلو» للذهبي (٣٨٤).

(٤) رواه اللالكائي في «شرح أصول أهل السنة» (٥٠٢/٣)، وابن بطّة في «الإبانة» (٢٤٢/٣).

(٥) انظر هذه القاعدة في: «مجموع الفتاوى» (٤٧٨/٢) (٣٥/٣)، و«درء تعارض العقل والنقل» (١٦٣/٥)، و«الصواعق المرسلّة» (١٣٦٩/٤).

ورسله، وأنزل بها كتبه، مشتملة على الإثبات المفصل، والنفي المجمل، والله تعالى يُثبِت الصفات على وجه التفصيل، وينفي عنه على طريقة الإجمال، والتشبيه، والتَّمثِيل^(١).

ومعنى الإثبات مُفَصَّلًا: تعيين الصفات وتحديدتها، في ذِكْر كل صفة معينة مخصصة، لا مجملة في لفظ عام، كقوله تعالى: ﴿هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الأنعام: ١٣]، ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الله الصَّمَدُ ١٠٠] [سورة الإخلاص]، وهكذا.

وأما النفي المُجْمَل، فإن المراد منه: أن ينفي عن الله تعالى العيوب والنقائص على سبيل الإجمال، دون ذِكْر الصفة المُعَيَّنَة، كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]، ونحوها من الآيات الدالة على نفي ما لا يليق بالله نفياً مطلقاً، مثل: «نفي المُماثلة» و«نفي المساماة»، ولم ينف المماثلة في شيء معين كأن يقول: «لا سمي له في علمه، أو في قدرته، وهكذا».

وأما سبب مَجِيء صفات الإثبات بالتفصيل: لأنها هي الأصل، والمقصود الأعظم، فإن المدح والثناء يكون غالباً في الإثبات، أما النفي فيأتي وسيلة وتتميماً لهذا الأصل^(٢).

❖ القاعدة السادسة: (القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر)^(٣):

هذه قاعدة عظيمة في تحقيق المفهوم الصحيح في الإيمان بالصفات كلها، وعدم التفريق بين بعضها، لأنها جاءت من مشكاة واحدة من وَحْيِي الكتاب والسنة، فمن آمن بسمع الله تعالى، وبصره، ينبغي له أن يؤمن كذلك بعيني الله تعالى، ويديه، ومن آمن بإرادة الله، وقدرته، يلزمه أن يؤمن بأصابع الله، وساقه، ومن آمن بحياة الله وقِيُومِيَّتِهِ، فعليه أن يؤمن كذلك باستواء الله على عرشه، ونزوله إلى السماء الدنيا؛ وهكذا بقية الصفات، فإن الأدلة السنية لم تُفَرِّق بين صفة وأخرى، لأن الموصوف بها واحد، ليس له مَثِيل ولا شَبِيه، فإن من الأصول التي جاءت بها الشريعة المطهرة: وجوب التسوية بين المُتَمَاثِلَات، وعدم التفريق بينها.

وعلى هذا فينبغي للعبد أن لا يستوحش صفة جاءت في الكتاب والسنة، أو جاءت في السنة دون الكتاب، أو في الكتاب دون السنة، فمن وقع في نفسه شيء من ذلك، عليه أن

(١) «مجموع الفتاوى» (٣٧/٦).

(٢) انظر: «شرح الواسطية» لابن السعدي (٢٥٧/١)، و«توضيح الكافية» له (١١٦).

(٣) «التدمرية» (١٥).

يستعِذ بالله تعالى من سوء الظنِّ والخيال الباطل .

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الصفة الثابتة لله تعالى مُضافة إليه، لا يتوهم فيها شيء من خصائص المخلوقين، لا في لفظها، ولا في ثبوت معناها، وكل من نفى عن الرَّبِّ صفةً من صفاته لهذا الخيال الباطل: لزمه نفي جميع صفات كماله، لأنه لا يعقل منها إلا صفة المخلوق، بل ويلزمه نفي ذاته، لأنه لا يعقل من الذَّوات إلا الذَّوات المخلوقة، ومعلوم أنَّ الرَّبَّ ﷻ لا يشبهه شيء منها»^(١)، إلا في المُسمَّيات عند الإطلاق، وأما عند الإضافة فتخص كل واحد بما يليقُ به .

وما أحسن ما قاله الإمام الشنقيطي في تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]: «إِنَّ السَّمْعَ والبصر من حيثُ هما سمع وبصر، يتصفُ بهما جميع (المخلوقات)، فكأن الله تعالى يُشير للخلق ألاَّ ينفوا عنه صفة سمعه وبصره، بادِّعاء أنَّ الحوادث تسمع وتُبصر، وأن ذلك تشبيه»^(٢).

❖ القاعدة السابعة: (القول في الصِّفات كالقول في الذَّات)^(٣).

هذه القاعدة الجليلة تنصُّ على أنَّ الكلام في الصفات، فرعٌ على الكلام في الذَّات، يحتذى حذوه، ويتبع فيه مثاله، فكما أنَّ الله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، فإذا كان له ذات حقيقية لا تُماثلُ الذَّوات، فالذَّات متَّصِفَةٌ بصفات حقيقية لا تُماثلُ صفات سائر الذَّوات، لأنَّ صفاته تعالى الجليلة، تبعُ لذاته العليَّة.

❖ القاعدة الثامنة: (باب الصفات أوسع من باب الأسماء)^(٤).

صفات الله تعالى أوسع، وأكثر من أسمائه الحُسنى، لا العكس، وذلك لأنَّ كلَّ اسم متضمنٌ لصفة، وليس بالعكس، فمن أسمائه (الرحمن)، متضمنٌ لصفة الرحمة، ومن أسمائه (العزیز) متضمنٌ لصفة العِزَّة...، أما صفاته، فإنه تعالى موصوف بـ(المجيب) و(الإتيان)،

(١) «جلاء الأفهام» (٢٧٥).

(٢) «منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات» (٤).

(٣) انظر هذه القاعدة في: «الحجة في بيان المحجة» (١٧٤/١)، و«مجموع الفتاوى» (٤٢٢/١٦).

(٤) انظر هذه القاعدة في: «بدائع الفوائد» (١٣٤/١).

و(الأخذ)، و(الإمساك)، و(البطش)، و(الاستواء على العرش)، إلى غير ذلك من الصفات التي لا تُخصَى، ولا يُسمَّى بالجنائي، والآخذ، والممسك، والمستوي، ولأن من الصفات ما يتعلق بأفعال الله تعالى، وأفعاله لا تنتهي لها، كما أن أقواله لا تنتهي لها^(١).

❖ القاعدة التاسعة: (المعاني الصحيحة في باب الإخبار عن الله تعالى وصفاته).

توحيد الأسماء والصفات يتعلق به ثلاثة مباحث:

(١) الأسماء. (٢) الصفات. (٣) الإخبار عن الله تعالى.

فالأول والثاني توقيفي، أما الثالث: فليس توقيفياً، بمعنى: أنه يجوز أن يخبر عن الله بما لم يأت بالكتاب، ولا في السنة، وعلى هذا «فالإخبار أوسع من باب الأسماء والصفات»^(٢).

❖ الشروط الصحيحة في الإخبار عن الله تعالى:

(١) أن لا يكون الإخبار باسم سيئ، وإن كان باسم حسن فحسن.

(٢) أو باسم ليس بسيئ، وإن لم يحكم بحسنه^(٣)، كلفظ (الشيء) و(الموجود)، و(القديم)، و(القائم بنفسه)، وغيرها من الألفاظ التي يخبر به عن الله تعالى، ولا يدخل في أسمائه، ولا في صفاته^(٤)، فلا يُدعى ولا يُتوسَّل بها إلى الله تعالى في الدنيا، كقول الداعي: يا موجود، يا شيء، يا قديم.

* ما ورد في السنة من باب الإخبار عن الله تعالى^(٥):

(١) الإخبار عن الله تعالى بأنه (شخص)^(٦).

(٢) الإخبار عن الله تعالى بأنه (شيء)^(٧).

(١) انظر: «شرح القواعد المثلى» لابن عثيمين (١٢٢).

(٢) «بدائع الفوائد» (٢٨٤/١).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤٢/٦).

(٤) المصدر السابق (٣٠١/٩)، و«مدارج السالكين» (٤١٥/٣).

(٥) «الاحتجاج بالآثار السلفية على إثبات الصفات الإلهية» (١١٤).

(٦) البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (٣٧٥٧).

(٧) قال تعالى: ﴿قُلْ أَتَى شَيْءٌ أَكْبَرُ شَهْدَةً قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩]، قال البخاري رحمه الله في صحيحه في (كتاب التوحيد):=

* ما جاء عن السلف من باب الإخبار عن الله تعالى :
من أمثلة ذلك :

(١) الله فوق العرش (بذاته) . نطق أهل السنة والجماعة بهذا القول في إثبات استواء الله تعالى على عرشه كما قالت المَعَطَّلَة : استواؤه على عرشه من باب المجاز لا الحقيقة^(١) .

(٢) الحدّ لله تعالى . (٣) البينونة .

قال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللهُ : « نَعْرِفُ رَبَّنَا ﷻ فَوْقَ سَبْعِ سَمَوَاتٍ عَلَى الْعَرْشِ ، بَائِنًا مِنْ خَلْقِهِ (بحدّ) ، وَلَا نَقُولُ كَمَا قَالَتِ الْجَهْمِيَّةُ : هَاهُنَا ، وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى الْأَرْضِ »^(٢) .

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ : « ثَبَتَ عَنْ أُمَّةِ السَّلَفِ أَنَّهُمْ قَالُوا : (لله حدّ) ، وَأَنْ ذَلِكَ لَا يَعْلَمُهُ غَيْرُهُ ، وَأَنَّهُ مَبَايِنٌ لَخَلْقِهِ ، وَفِي ذَلِكَ لِأَهْلِ السُّنَّةِ مُصَنَّفَاتٌ »^(٣) .

(٤) على الحقيقة .

هذه المقولة تَوَاتَرَتْ أَيْضًا عِنْدَ أُمَّةِ الْهُدَى ، وَذَلِكَ فِي رَدِّهِمْ عَلَى أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدْعِ الَّذِينَ أَوَّلُوا الصِّفَاتِ عَنْ حَقِيقَتِهَا ، وَادَّعَوْا فِيهَا الْمَجَازَ ، وَبِهَذِهِ الشَّبَهَةِ الْبَاطِلَةِ وَالتِّي هِيَ أَوْهَنُ مِنْ بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ - نَقَوْا عَنْ اللَّهِ تَعَالَى أَغْلَبَ الصِّفَاتِ .

وأمثلة ردود أهل السنة بهذه المقولة كثيرة لا تُحْصَى ، نذكر بعضها منها :

قال شيخ المفسرين الطبري رَحِمَهُ اللهُ : « فَإِنْ قَالَ لَنَا قَائِلٌ : فَمَا الصَّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي مَعَانِي هَذِهِ الصِّفَاتِ الَّتِي ذَكَرْتَ ، وَجَاءَ بَعْضُهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ ﷻ وَوَحْيِهِ ، وَجَاءَ بِبَعْضِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ قِيلَ : الصَّوَابُ هَذَا الْقَوْلُ عِنْدَنَا : أَنْ نَثْبِتَ حَقَائِقَهَا عَلَى مَا نَعْرِفُ مِنْ جِهَةِ الْإِثْبَاتِ ، وَنَفِي التَّشْبِيهِ »^(٤) .

قال الإمام أبو عمر الطلمنكي المالكي رَحِمَهُ اللهُ : « وَقَالَ أَهْلُ السُّنَّةِ فِي قَوْلِهِ ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ

= (٢١/ باب ﴿قُلْ أَتَى شَيْءٌ أَكْبَرُ شَهَادَةٍ﴾ : فَسَمِيَ اللَّهُ نَفْسَهُ شَيْئًا ﴿قُلْ اللَّهُ﴾ ، وَسَمِيَ النَّبِيُّ الْقُرْآنَ شَيْئًا وَهُوَ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ ، وَقَالَ : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهْ لُحُكٌ وَلَيْتَ تَرْجِعُونَ﴾ [القصص : ٨٨] ، ثُمَّ ذَكَرَ بِسَنَدِهِ (٧٤١٧) حَدِيثَ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِرَجُلٍ : « أَمَعَكَ شَيْءٌ مِنَ الْقُرْآنِ ؟ » قَالَ : نَعَمْ ، مَعِيَ سُورَةُ كَذَا ...

(١) انظر هذه الآثار في : « الاحتجاج بالآثار السلفية » (١١٥) .

(٢) « السنة » لعبد الله بن أحمد (٢٢٠) .

(٣) « بيان تلبيس الجهمية » (٤٩١/٣) ، وانظر : (٤٤٣/١) .

(٤) « التبصير في معالم الدين » (١٤١) .

أَسْتَوَى ﴿طه: ٥﴾: إِنَّ الاستواء من الله على عرشه على الحقيقة لا على المجاز»^(١).

وقال الإمام ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: «أهل السنة مُجْمِعُونَ على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على الحقيقة لا على المجاز، إِلَّا أَنَّهُمْ لَا يُكَيِّفُونَ شيئاً من ذلك»^(٢).

﴿القاعدة العاشرة: (صفاتُ الله تعالى تتفاضل فيما بَيَّنَّها)﴾^(٣).

من الأصول المُفَرَّزة عند أهل السنة والجماعة: أن أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته العُلا تتفاضل فيما بينها، ولا يقتضي هذا التفاضل نقصاً فيها، بل كل فردٍ منها يدلُّ على أقصى ما يمكن من الأكمليَّة المُطلَّقة، وهذه الأفضلية اختصَّ بها رَبُّ البريَّة لوجهٍ من وجوه الأفضلية، التي لا يعلمها إِلَّا هو سبحانه، من ذلك (الرحمة)، قال رَحِمَهُ اللهُ: «لَمَّا قَضَى اللهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»، وفي رواية: «سَبَقَتْ غَضَبِي»^(٤).

وجاء في دُعاء النبي رَحِمَهُ اللهُ في السُّجود: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ...»^(٥). «ومعلوم أنَّ المُستعاذ به أفضل من المُستعاذ منه»^(٦).

بل إِنَّ التفاضل يقع في الصفة الواحدة، كما في صفة اليَدَيْنِ في الحديث: «يَمِينُ اللهِ مَلَأَتْ لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَخَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ مَا فِي يَمِينِهِ، وَبِيَدِهِ الْآخَرَى الْقَبْضَ، يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ»^(٧).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فَبَيَّنَ النبي رَحِمَهُ اللهُ أَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِهِ الْيُمْنَى، وَالْعَدْلَ بِيَدِهِ الْآخَرَى، ومعلوم أنه مع أن كلتا يديه يمين، فالفضل أعلى من العدل، وهو سبحانه كل رحمة منه فضلٌ،

(١) رواه اللالكائي في «شرح اعتقاد أهل السنة» (٣٦٤/٢).

(٢) «التمهيد» (١٣٥/٧).

(٣) «بدائع الفوائد» (١٦٧/١).

(٤) البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١).

(٥) مسلم (٤٨٦).

(٦) «جواب أهل العلم والإيمان» (٩٠).

(٧) البخاري (٧٤١٩)، ومسلم (٩٩٣).

وكل نعمة منه عدلٌ، ورحمته أفضلٌ من نعمته»^(١).

ومن الأدلة في التفاضل في الصفة الواحدة: قول النبي ﷺ: «أحبُّ البلادِ إلى الله مساجدُها، وأبغضُ البلادِ إلى الله أسواقُها»^(٢).

و«أحب» و«أبغض» صيغة تفضيل «يمنع المشاركة في الرتبة، لأن اسم التفضيل يجعل المفضل في قمة الوصف»^(٣).

وقولنا (صفات الله تتفاضل فيما بينها)؛ أي: في المعنى والمَدلول، أما من حيث نسبتها إلى الباري جلَّ شأنه فواحدة، إذ كلٌّ منها يدلُّ على الكمال والجمال^(٤).

❖ القاعدة الحادية عشر: (دلالة الكتاب والسنة على ثبوت الصفة: ثلاث طرق)^(٥).

«الطريق الأول: دلالة الأسماء عليها، لأن كل اسم متضمن لصفة، مثل الغفور: متضمن للمغفرة، والسميع: متضمن للسمع، ونحو ذلك.

الطريق الثاني: التصريح بالصفة؛ أي: أن ينص عليها، مثل: الوجه، واليدين، والعينين، والبطش، ومثل: الانتقام.

الطريق الثالث: التصريح بفعل أو وصف دالٌّ عليها، كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والمجيء للفضل بين العباد يوم القيامة»^(٦).

وإضافة على ما سبق يمكن أن تُضيف في إثبات الصفة وتحقيقها في سنة المصطفى «ثلاثة أقسام: إما بالقول، أو الفعل، أو بالإقرار:

(أ) إما بالقول: فكثير، مثل قوله ﷺ في يمينه: «لا ومقلب القلوب»^(٧)

(ب) وإما بالفعل: فهو أقل من القول، مثل إشارته إلى السماء يشهد الله على إقرار أمته

(١) «جواب أهل العلم» (٩٢).

(٢) مسلم (٦٧١).

(٣) «شرح سورة النساء» لابن عثيمين (٢٣٠/١) (٤٧/٢).

(٤) «القواعد الكلية للأسماء والصفات» (٢٥٩).

(٥) «شرح القواعد المثلى» (١٥٥)، و«شرح العقيدة الواسطية» (٢٦٣/١)، و«فتاوى العقيدة» (١٤٤/١ - ١٤٥) لابن عثيمين.

(٦) المصادر السابقة.

(٧) البخاري (٦٦٢٨).

بالْبَلَاغِ ، وهذا في حَجَّةِ الوداع في عرفة ، (خطب الناس وقال: «أَلَا هَلْ بَلَغْتُ؟» قالوا: نعم ، ثلاث مَرَّات ، قال: «اللهم اشْهَدْ» ، يرفع إصبعه إلى السَّمَاء وينكتها إلى النَّاسِ)^(١) ، فرفع إصبعه إلى السَّمَاء ، هذا وصف الله تعالى بِالْعُلُوِّ عن طريق الفعل .

وأحياناً يذكر الرسول ﷺ الصِّفَةَ من صفات الله بالقول ، ويؤكدُها بالفعل ، وذلك حينما تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨] ، (فوضع إبهامه على أُذُنِهِ الْيُمْنَى ، والتي تليها على عينه)^(٢) .

وهذا إثبات للسمع والبصر بالقول ، والفعل . وعلى هذا: إنَّ إثبات الرسول ﷺ لِلصِّفَات يكون بالقول ، ويكون بالفعل ، مجتمعين ومنفردين .

(ت) وما بالإقرار: فهو قليل بالنسبة لما قبله ، مثل إقرار الجارية التي سألتها: «أين الله؟» فقالت: في السماء ، فأقرَّها ، وقال: «أَعْتَفَهَا»^(٣) .

وكإقراره الحبر من اليهود الذي جاء وقال للرسول ﷺ: (إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يجعل السموات على إصبع ، والثرى على إصبع ...) إلى آخر الحديث ، فضحك النبي ﷺ تصديقاً لقوله^(٤) ، وهذا إقرار^(٥) .

❖ القاعدة الثانية عشر: (المُضَافُ إلى الله تعالى نوعان: أعيان ، وِصَفَات) .

ليس كل ما يُضَاف إلى الله تعالى فهو صفة له ، بل هناك إضافة مخلوق ، وإضافة صفة إلى موصوف ، فالإضافة إلى الله تعالى نوعان:

النوع الأول: إضافة ملك وتشريف ، وضابطُها: أن كُلَّ ما يُضَاف إلى الله تعالى ويكون عيناً قائمة بنفسها ، بائن عن الله تعالى ، فهو إضافة ملك وتشريف ، لأنه مخلوق ، مثل: «بيت الله» «ناقة الله» ، أو إضافة عامة يشترك فيها المخلوق ، مثل: «خلق الله» .

النوع الثاني: إضافة صفة إلى الله تعالى ، وضابطُها: كل ما يُضَاف إلى الله تعالى غير بائن

(١) مسلم (١٢١٨) .

(٢) «صحيح أبي داود» (٤٧٣٨) .

(٣) مسلم (٥٣٧) .

(٤) البخاري (٤٨١١) ، ومسلم (٢٧٨٦) .

(٥) «شرح الواسطية» لابن عثيمين (١٨٧/١ - ١٧٨) .

عنه ، ولا يقوم بنفسه ، فهو صفة لله سبحانه ، لأن الصفة لا تقوم بنفسها ، بل لا بد لها من موصوف تقوم به^(١) ، مثل : وجه الله ، وأصابع الله ، وساق الله ، وسمع الله

❖ القاعدة الثالثة عشر : (جواز الحلف بصفات الله تعالى ، والاستعاذة بها) .

دلّت الأدلة السنية من الكتاب والسنة النبوية على جواز الحلف بصفات الله تعالى ، والاستعاذة بها ، سواء كانت صفات ذاتية ، أو فعلية .

فمن الأدلة : قول إبليس : ﴿ قَالَ فِعْرَنَكَ لَا تُخَوِّتَهُمْ آجَمِينَ ﴾ [ص: ٨٢] ، والعزة صفة ذاتية ، وفعلية^(٢) .

وفي حديث الإفك ، وفيه : «... فقام أسيد بن الحضير رضي الله عنه فقال : كذبت لعمر الله ، لنقتلنه...»^(٣) ، قال البيهقي رحمه الله : «فحلف كل واحد منهما - أي : سعد بن عبادة وأسيد بن الحضير - بحياة الله وببقائه ، والنبي ﷺ يسمع»^(٤) . وحياته سبحانه وبقاؤه من الصفات الذاتية^(٥) .

ومن الاستعاذة بصفاته تعالى كما تقدم في دعاء النبي ﷺ في السجود : «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك ، وبمُعافاتك من عقوبتك...» وهذه استعاذة بالصفات الفعلية .

ومن الاستعاذة بصفاته تعالى الذاتية والفعلية معاً ، صفة الكلام ، كما في الحديث : «أما إِنَّكَ لو قلتَ حينَ أُمِيتَ : أعوذُ بكلماتِ الله التامّاتِ من شرِّ ما خَلَقَ»^(٦) .

❖ القاعدة الرابعة عشر : «مشروعية إثبات الصفات مع الإشارة إليها بما هو محسوس معهود» .

ثبت في وقائع كثيرة في سنة خير البرية ﷺ القولية ، والفعلية ، والتقريرية ، على إثبات الصفات العلية ، مع الإشارة إليها بالأمر الحسيّة المشاهدة الجليلة ، «وذلك لبيان إثبات حقيقة

(١) انظر : (نقض عثمان على المريسي) (٣١٨) ، و«مجموع الفتاوى» (٢٩٠/٩) ، (١٥١/١٧) .

(٢) انظر : كتابنا «الجامع» أسماء الله الحسنى جلالها ولطائف اقترانها (١٣٥) .

(٣) البخاري (٢٦٦١) ، ومسلم (٢٧٧٧٠) .

(٤) «الاعتقاد» (٨٣) ، و«الأسماء والصفات» للبيهقي (٣٦٩/١) .

(٥) وقد يوبّ الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه «باب الحلف بعزة الله ، وصفاته ، وكلامه...» .

(٦) مسلم (٢٧٠٩) .

الصفة لله سبحانه»^(١)، فإنَّ في الإشارة مع الإيضاح بالكلام، فيه زيادة في ترسيخ المعاني في الأفهام، وإن ذلك ليس فيه تشبيهاً ولا تمثيلاً، بل دلٌّ على أنه سنة ينبغي أن يقتدى بها من خير الأنام ﷺ.

«فرسول الله كان أعلم الناس بتفاضل الأسماء والصفات وحقائقها، وكان أفصح الناس في التعبير عنها، وإيضاحها، وكشفها بكل طريق كما يفعله بإشارته، وحاله، من باب تحقيق الصفة، لا من باب التشبيه، والتمثيل»^(٢).

وقد نقلت بعض ذلك من فعل النبي ﷺ في القاعدة الحادية عشر: (دلالة الكتاب والسنة على ثبوت الصفة ثلاثة طرق)، فارجع إليه غير مأمور.

ومن الآثار الدالة على ذلك: حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ رُبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، قال: قال هكذا، يعني: (أنه أخرج طرف الخنصر)^(٣).

وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: «بأخذ الجبارُ سمواته وأرضه بيده» وقبض بيده فجعل يقبضها ويسطها «ثم يقول: أنا الجبارُ، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟!»، قال: (ويتميل رسولُ الله ﷺ عن يمينه وعن يساره، حتى نظرتُ إلى المنبر يتحركُ من أسفل شيء منه، حتى إني أقول: أسأطُ هو برسول الله؟!)^(٤).

قال ابن القيم رحمه الله: «ولمَّا أخبرهم رسولُ الله ﷺ، جعل يقبض يديه ويسطهما، تحقيقاً للصفة لا تشبيهاً لها، كما قرأ: ﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ ووضع يديه على عينيه وأذنيه، تحقيقاً لصفة السمع والبصر، وأنَّهما حقيقة لا مجاز»^(٥).

وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (ما رفع رسولُ الله ﷺ رأسه إلى السماء إلا قال: «يا مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى طَاعَتِكَ»)^(٦) ورفع ﷺ رأسه إلى السماء تحقيقاً، وتأكيداً لإثبات

(١) «الاحتجاج بالآثار السلفية» (٩٤).

(٢) «مختصر الصواعق المرسلة» (١٤٢٠/٤).

(٣) انظر تخريجه في: صفة (الخنصر).

(٤) مسلم (٢٧٨٨).

(٥) «مختصر الصواعق المرسلة» (٩٤٨/٣).

(٦) رواه أحمد في المسند (٩٤٢٠)، وصححه إسناده محققو المسند (٢٤٦/١٥).

صفة العُلُوِّ الذاتية لِرَبَّنَا سبحانه .

❁ القاعدة الخامسة عشر: (تنقسم صفاتُ رَبَّنَا العظيم إلى ستة أنواع تحت ثلاث تقسيمات)^(١).

من الاستقراء في أدلة الكتاب ، وسنة خير العباد ﷺ ، أن صفات رَبَّنَا الجليل ترجعُ إلى ستة أنواع ، ويندرج تحتها ثلاث تقسيمات ، وهذا التقسيم هو على طريقة أهل السنة والجماعة:

❁ التقسيم الأول: «باعتبار ما تشتمل عليه الصفات من المعاني الوجودية والعدمية» ، فهي بهذا الاعتبار نوعان:

- النوع الأول: الصفات الثبوتية: وهي الصفات التي تدلُّ على معنى وجودي ، وهي: ما أثبتته الله تعالى لنفسه في كتابه ، أو أثبتته رسوله ﷺ ، أو أصحابه رضه من صفات الكمال المطلق له تعالى ، مع تضمنه تنزيهه عما يُضادُّ كمالها من العيوب والنقائص ، مثل: الوجه ، واليدين ، والعينين ، والقدمين ، والسَّمْع ، والعلو .

- النوع الثاني: الصفات المنفعية: وهي التي نفاها الله تعالى عن نفسه في كتابه ، أو في سنة خير عباده ، مع تضمن ثبوت كمال ضده ، مثل: نفي الموت ، المتضمن لِكَمال حياته ، ونفي التعب ، المتضمن لِكَمال قدرته ، ونفي الخوف ، المتضمن لِكَمال عزَّته وجبروته .

❁ التقسيم الثاني: «باعتبار تعلقها بِمَشِيئَةِ الله تعالى وعدمه» ، فهي بهذا الاعتبار أربعة أنواع:

- النوع الأول: ذاتية: وهي التي لا تنفكُ عن الله تعالى أزلاً وأبداً ، ولا تتعلق بِمَشِيئَتِهِ وفعله ، مثل: علوه ، وأصابعه ، وساقه ، وخبرته .

- النوع الثاني: فعلية^(٢): وتُسمَّى الصفات الاختيارية ، أو الأفعال الاختيارية أيضاً ، وهي التي يتصف بها الرب العظيم فتقوم بذاته بِمَشِيئَتِهِ وقدرته سبحانه ، إن شاء فعلها ، وإن شاء لم يفعلها ، بحسب ما تقتضيه حكمته البالغة ، كاستوائه على عرشه ، ونزوله إلى السماء الدنيا كل ليلة ، وعَجَبِهِ ، وضحكه ، ورضاه .

(١) انظر: «الماتريدية وموقفهم من الأسماء والصفات الإلهية» د. شمس الدين الأفغاني (٢/٤٢٠).

(٢) سيأتي ذكر أنواعها ، وبعض قواعدها ، وضوابطها ، في القسم الثاني من الصفات .

- النوع الثالث: ذاتية باعتبار، وفعلية باعتبار، كصفة الخلق: فهي باعتبار الأصل والنوع: ذاتية، أزلية، أبدية، فهو لم يتصف بها بعد أن لم يكن متصفاً بها، وأما من جهة أفرادها فهي متجددة تحصل شيئاً فشيئاً، فخلق العرش وقته متقدماً على خلق السموات والأرض، وهكذا خلقهما متقدماً على خلق آدم، وما يخلقه الله تعالى من مخلوقات حيناً بعد حين يتجدد على حسب ما تقتضيه حكمته الباهرة، ومشيبته التأفذة، وقدرته الواسعة.

- (والنوع الرابع^(١)): صفات متضمنة لنوعي الصفات الثبوتية معاً، فهي متضمنة لصفات الذات^(٢) من حيث عدم تعلقها بالمشيئة، وفعلية متعلقة بالمشيئة، مثل صفة الكرم: فهي ذاتية بمعنى السعة، والكمال، والنزاهة عن النقائص والمذام، فهو تعالى متصف بهذه الأفراد من الكمال على الدوام، وفعلية: ما يصدر منه من العطاء، والإنعام، فهو صفة فعل، لأن بذل الآلاء والأفضال يتعلّق بمشيئته، وإرادته ﷻ^(٣).

* التقسيم الثالث: «باعتبار طريق إثباتها»، فهي بهذا الاعتبار على نوعين:

- النوع الأول: خبريّة سمعية، وعقلية معاً: وهي التي يشترك في إثباتها الدليل الشرعي، والعقلي، والفطري، وهي أكثر صفات الربّ تعالى، بل أغلب الصفات الثبوتية يشترك فيها الدليلان السمعي والعقلي، كالحيّة، والقُدرة، والعُلُو، والسمع...

- النوع الثاني: خبرية، سمعية، وتسمى: النقلية، والشرعية، وهي التي لا سبيل إلى إثباتها إلاّ السمع والخبر عن الله تعالى، أو عن رسوله ﷺ، بيد أنّ العقل الصحيح الصريح لا يُعارضُها، بل يؤيدها، نحو: وَجْهُ الله الكريم، وَيَدَيْهِ، وَعَيْنَيْهِ، وَسَاقِهِ، وَقَدَمُهُ، وَقَبْضَتُهُ، واستوائه على عرشه، ومَجِيئُهُ يوم القيامة^(٤).



(١) ما كان بين المعقوفين من كلامي.

(٢) ليس المقصود من صفات الذات ما يلزم للذات، إذ إن جميع الصفات ملازمة للذات لا تنفك عنها بحال.

(٣) مثل: صفة العزّة، فهو بمعنى أنه: المنيع الذي لا يصل إليه، والمنقطع النظر، فهو بهذه المعاني من صفات الذات، وبمعنى أنه يعز من يشاء فهو من صفات الفعل لأن الإعزاز متعلّق بمشيئته وإرادته.

(٤) انظر: «الفقه الأكبر» لأبي حنيفة (٢٥)، و«مجموع الفتاوى» (١/٣٥، ٨٣، ٨٨) (٦/٧١، ٢١٧، ٢٤٤)، و«درء التعارض» (٣/٣٢١، ٢٣/٤)، و«شرح العقيدة الطحاوية» (١٢٧)، و«مختصر الصواعق المرسلة» (٢/٢٩٦)، و«الكافية» (١١٦)، و«القواعد المثلى» (٢١)، و«تقريب التدمرية» (١٦)، و«شرح الواسطية» لابن عثيمين (١/٣٢٩)، و«القواعد الكلية للأسماء والصفات» د. إبراهيم البريكاني (٨٨، ٩٢)، و«الصفات الإلهية» للتميمي (٦٩)، و«الصفات الإلهية» لأمان (٢٠٧)، و«الماتريدية» د. شمس الدين الأفغاني (٤٢٠ - ٤٢٣) بتصرف.

«ذاتُ الله» سبحانه العَلِيَّة

إِنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِنَّمَا يَعْنِي الْإِيمَانَ بِالذَّاتِ الْجَلِيلَةِ الْمُقَدَّسَةِ الْوَاجِبَةِ الْوُجُودِ، وَوُجُودًا حَقِيقِيًّا، (الذي ليس لها ابتداء، وليس لها انتهاءٌ على الآباد)، وَالْإِيمَانَ بِصِفَاتِهِ الْعُلَا، وَأَسْمَائِهِ الْحَسَنَى مَعًا، وَعِنْدَمَا يَقُولُ الْمُؤْمِنُ: آمَنْتُ بِاللَّهِ تَعَالَى إِنَّمَا يَعْنِي هَذَا الْإِيمَانَ الشَّامِلَ (الْكَامِلَ)، أَيِ: الْإِيمَانَ بِذَاتِ لَا تُشَبُّهُ الذَّوَاتُ، مُتَّصِفَةً (بِجَمِيعِ) صِفَاتِ الْكَمَالِ الْمُطْلَقِ، الَّتِي لَا تُعَدُّ، وَلَا تُحَدُّ، وَلَا تُحْصَى، الَّذِي لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ، فَلَا تُشَبُّهُ ذَاتُهُ ذَوَاتَ خَلْقِهِ، وَلَا تُشَبُّهُ صِفَاتُهُ صِفَاتِ خَلْقِهِ، بَلْ لِمَصِفَاتِهِ [وَذَاتِهِ] حَقَائِقُ، وَلِمَصِفَاتِ خَلْقِهِ حَقَائِقُ، وَإِلَى هَذَا الْمَعْنَى يُشِيرُ رَسُولُ الْهُدَى ﷺ: «لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ»^(١)»^(٢).

ف«ذاتُ الله ﷻ» موصوفةٌ بِالْعِلْمِ (وَالْحَقِيقَةِ)، غَيْرُ مُدْرَكَةٍ بِالْإِحَاطَةِ، وَلَا مَرْتَبَةٍ بِالْأَبْصَارِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَوِيَّةِ، وَهُوَ مَوْجُودٌ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ عَلَى الْإِيقَانِ، بَلَا إِحَاطَةٍ إِدْرَاكِ بِهَا، بَلْ هُوَ أَعْلَمُ سُبْحَانَهُ بِذَاتِهِ، فَهُوَ مَوْصُوفٌ غَيْرُ مَجْهُولٍ، وَمَوْجُودٌ غَيْرُ مَدْرَكٍ، وَمَرْتَبِيٌّ غَيْرُ مُحَاطٍ بِهِ، لِقُرْبِهِ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، يَسْمَعُ وَيَرَى، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْأَعْلَى، وَعَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ظَاهِرٌ فِي مَلَكِهِ وَقُدْرَتِهِ، وَقَدْ حَجَبَ عَنِ الْخَلْقِ كُنْهَ ذَاتِهِ الْعُلَا، وَدَلَّاهُمْ عَلَيْهِ بِآيَاتِهِ (الْكُبْرَى)، فَالْقُلُوبُ تَعْرِفُهُ، وَالْعُقُولُ لَا تَكْفِيهِ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ^(٣).

فَاللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَمْ يَكْلَفْ أَحَدًا مِنْ عِبَادِهِ مَعْرِفَةَ كُنْهِ ذَاتِهِ الْمُقَدَّسَةِ وَكَيْفِيَّتِهَا، وَقَطَعَ سَبِيلَ الْوُصُولِ إِلَيْهَا، حَيْثُ حَجَبَ جَلًّا وَعُلَا عِلْمَ كَيْفِيَّةِ ذَاتِهِ عَنِ الْعِبَادِ، وَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَعْرِفَةِ كُنْهَهَا، لِأَنَّهُ ﷻ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ عِلْمًا، وَأَجَلٌّ، وَأَعْظَمُ، وَلِأَنَّ الْقُوَى الْبَشَرِيَّةَ عَاجِزَةٌ عَنْ تَحْمِلِ عَظَمَةِ ذَلِكَ^(٤).



(١) مسلم (٤٨٦).

(٢) «الصفات الإلهية في الكتاب والسنة» للدكتور محمد بن أسامة الجامي (٦٩، ٣٤١).

(٣) «التوحيد ومعرفة أسماء الله ﷻ وصفاته على الاتفاق والتفرد»، تأليف الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسحاق الأصفهاني (٢٦٠). وانظر: «الحُجَّةُ فِي بَيَانِ الْمَحَجَّةِ» (١٧١/١).

(٤) «الصواعق المُرسَلَةُ» (٤٢٧/٤)، و«مدارج السالكين» (٣٥٣/٣).

العلاقة بين الصفات والذات

تقدم بيان أن لِرَبَّنَا سبحانه ذاتًا تليق بِكَمالِهِ وَجَلالِهِ، موصوفة بالصفات العُلا، وأن الإيمان به وحده: هو الإيمان بكلِّ ذلك «فانطلاقًا من هذا الإيمان الشامل، فإن العلاقة بين الصفات والذات علاقة التلازم ضرورة أن الإيمان يستلزم الإيمان بالصفات، وكذلك العكس، لأنه لا يتصور وجود «ذات» مجردة عن الصفات، ولا يتصور وجود صفات بدون ذات قائمة فيها، فإنَّ صفات الله تعالى مُلازمة لِذاته سبحانه، ولا تنفكُ عنها، وهذا هو المفهوم الصحيح الذي كان قد فهمه سَلَفُ هذه الأمة»^(١) الموافق لِمَا في الكتاب والسُّنة.

﴿الدَّلِيلُ مِنَ الشَّرْعِ: جاءت لفظة (ذات) في سنة النبي ﷺ في قوله، وتقريره: في قوله: قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «لم يكذب إبراهيمُ عليه السلام، إلَّا ثلاث كذبات: ثنتين مِنْهُنَّ في ذات الله ﷻ...»^(٢)، وفي تقريره: كما في قِصَّة مقتل خُبيب الأنصاري ﷺ الذي قال حين أراد المشركون قتله:

«ولستُ أبالي حين أُقتلُ مُسْلِمًا على أيِّ شقِّ كانَ في الله مَضَرَعِي
وذلك في ذاتِ الإله، وإنْ يَشَأْ يُبارِكْ على أوصالِ شلوي مُمَزَّع»^(٣)

﴿المَعْنَى فِي اللُّغَةِ: أصل لفظة (ذات) هو تأنيث (ذو)، بمعنى: صاحب، فذات كذا: صاحبة كذا، وذات الشيء، بمعنى: نفسه، أو حقيقته، ولهذا لا يقال ذات الشيء إلَّا لِمَا له صفات، ونعوت تُضاف إليه، فكأنه يقول: صاحبة هذه الصفات والنعوت»^(٤).



(١) «الصفات الإلهية» (٣٤١). وانظر: «مجموع الفتاوى» (٣٣٨/٥).

(٢) البخاري (٣٣٥).

(٣) البخاري (٣٠٤٥).

(٤) «المفردات» (٣٣٣)، و«القاموس المحيط» (٤٧٦)، و«بدائع الفوائد» (٧/٢).

الصفات الثبوتية

هذا القسم الأول من صفات رَبَّنَا العظيم، وهي الصفات الثبوتية، وهي: الصفات الذاتية، والفعلية، وقبل ذِكْرِ أفرادها نذكر بعضَ القواعد والضوابط لها.

قد تقدم معناها: أنها هي الصفات التي وصف الله تعالى بها نفسه، ووصفه بها رسوله ﷺ من أوصاف الكمال والعُلا، وهي: صفات المجد، والثناء، والمدح، والحمد، والعُلو، والعَظَمَة، والجَلال، وغيرها الذي لا يُحْصَى، فيعلم أن له فيها الكمال المُطلق الذي يمكن التعبير عن عَظَمَتِهِ، وكُنْهِهِ، وأن له من ذلك الكمال غايته، ومُنْتَهَاهُ، وأكملَه، وهذا النوع هو المقصود الأعظم من التوحيد الذي جاء به النبيون والمرسلون، ولهذا جاءت في الغالب بالتفصيل، لأنه كلما كثر الإخبار عنها، وتَنَوَّعت دلائلُها، ظهر من كَمال الموصوف بها ما هو أكثر، ما لم يكن معلوماً من قبل، ولهذا كان هذا النوع أكثر بكثير من الصِّفَات المَنْفِيَّة كما سيأتي عند ذِكْرِها^(١).

القواعد والضوابط

❖ القاعدة الأولى: (الصفات الثبوتية صفات مَدْحٍ وكمال، فكلما كثرت وتَنَوَّعت دلالتها ظهر من كَمال الموصوف بها ما هو أكثر)^(٢).

الصفات الثبوتية بنوعيها الذاتية والفعلية تدلُّ على المدح، والثناء، والكمال المطلق من كلِّ وجهٍ، ولهذا جاءت في الكتاب والسنة وفيرة وعديدة ومتنوعة، كما سيأتي عند ذِكْرِها بالتفصيل، «ولهذا كانت (هذه الصفات) التي أخبر الله بها عن نفسه أكثر بكثير من الصفات السلبية كما هو معلوم»^(٣) لِتَضَمُّنِهَا معاني وجودية وحقيقية جَليلة تدلُّ على كَمالَيْن لا يتناهيان لِربَّنَا سبحانه، الأول: من جهة عددها وأنواعها، وأفرادها من الكثرة التي لا تُحْصَى^(٤). والثاني:

(١) انظر: «توضيح الكافية الشافية» (١١٥)، و«الحق الواضح» (٧)، و«شرح القواعد المثلى» (١٢٤، ١٣٤)، و«تقريب

التدمرية» لابن عثيمين (١٦، ٣٣).

(٢) «القواعد المثلى» (٢٤).

(٣) المصدر السابق.

(٤) لأن كل اسم يتضمنُ صفة لا العكس، وأسماءه تعالى لا تُحْصى، فما ظَنُّكَ بصفاته العُلا.

من حيث دلالتها على المعاني الواسعة، بحيث لا يستطيع أحدٌ إحصاء واحد منها، أما الصفات المنفِيةُ فعددها محصور^(١)، غير ذلك: إن الصفات المنفية كما سيأتي جاءت لحفظ هذا النوع، فهي وسيلة وتتميم لها.

الضابط الأول: الصفات الذاتية: هي الصفات التي لم يزل ولا يزال يتصف الله سبحانه بها، فهي مُلازمة لذاته العُلا، لا تنفكُ عنه بأيِّ حالٍ من الأحوال، فهو موصوف تعالى بها أزلاً، وموصوف بها أبداً.

الضابط الثاني: أنه ليس لها تعلق بِمَشِيئته، وإرادته. فالله تعالى لم يزل له يدان، ووجه، وعَيْنان، لم تحدث له صفة بعد أن لم يكن متصف بها، ولن ينفكُ عنه شيء منها في الحال، ولا في الاستقبال^(٢).

❁ **القاعدة الثانية:** (ثبوت الكمال لله تعالى يستلزم نفي نقيضه)^(٣).

هذه القاعدة العظيمة عقلية، وفطرية، موافقة لما في الكتاب والسنة، وقد دلت هذه القاعدة على أن «الكمال الثابت لله ﷻ الذي هو أقصى ما يمكن من الأكملية بحيث لا يكون وجود كمالٍ إلّا وهو متصف به سبحانه، وثبوت الكمال لله تعالى مستلزم نفي نقيضه»^(٤) من صفات النقص، والعيب، والذم، وأن هذا يجري على جميع صفاته الذاتية، والفعلية، فمثلاً في الصفات الذاتية: إن ثبوت الحياة يستلزم نفي الموت، وثبوت العلم يستلزم نفي الجهل، وثبوت القدرة يستلزم نفي العجز، وثبوت القوة والمُتانة يستلزم نفي الضعف، وثبوت العينين يستلزم نفي العور، والبصر، وثبوت السمع يستلزم نفي الصمم، وثبوت اليدين والرجلين يستلزم نفي الجُذام، والخَدَج^(٥)، والقطع، وثبوت العلوّ يستلزم نفي أن يكون داخلَ العالم.

ومن الصفات الفعلية: إن ثبوت الجود والكرم والعطاء يستلزم نفي البخل، وثبوت العدل يستلزم نفي الظلم، وثبوت الحفظ يستلزم نفي الإهمال والضياع.

(١) وقد أحصيت غالبها في مؤلف قد سمّيته «الصفات المنفية في الكتاب وفي السنة النبوية».

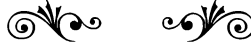
(٢) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (١٢٧)، و«مجموع الفتاوى» (٦٨/٦)، و«الكواشف الجليلة» (٢٥٨)، و«شرح الواسطية» لابن السعدي (٣٢٨/١)، ولابن عثيمين (١٨٣/١).

(٣) انظر هذه القاعدة في: «الرسالة الأكملية» لابن تيمية (٧١/٦)، و«الصواعق المرسلة» (١٤٧/١) (٩١٤/٣)، (١٤٤٣/٤)، و«مدارج السالكين» (٤٦٦/٣)، و«الصلاة وحكم تاركها» (١٧٢).

(٤) «الرسالة الأكملية» (١٤٤٣/٤).

(٥) الخَدَجُ: النقص. جاء في القاموس المحيط (رجلٌ مُخَدَجٌ اليد): ناقصها (٣٥٢).

ومن الصفات الفعلية الذاتية: الكلام، فثبوته يستلزم نفي البُكم عنه سبحانه، وثبوت رفعة الدرجات يستلزم نفي النقائص، والنظراء، والأمثال، وثبوت الصدق يستلزم نفي الكذب، وثبوت المعية يستلزم نفي الغفلة، وثبوت الشدة يستلزم نفي الوهن، والقوة، وهكذا بقية صفاته تعالى العُلا، والله أعلم.



القسم الأول: الصفات الذاتية

١) صفة الكمال (الوجه) ذو الجلال والإكرام

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: ١﴾ قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿١﴾ وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢﴾﴾

[الرحمن: ٢٦-٢٧].

٢ - وقال سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [الفصل: ٨٨].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: ١﴾ قال ﷺ: «... إِنَّكَ لَنْ تَخْلَفَ فَتَعْمَلُ عَمَلًا تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ، إِلَّا

ازدادت به درجة، ورفعته...»^(١).

٢ - أن رسول الله ﷺ كان إذا دخل المسجد قال: «أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: جاءت الأدلة الوفيرة في الكتاب والسنة النبوية في إثبات صفة الوجه الذاتية، والتي لا تنفك عن الله تعالى بأي حال، موصوف بها على الدِّيمُومِيَّةِ.

وصف ربنا سبحانه وَجْهَهُ الذي هو أحسن الوجوه، وأجمل الوجوه، وأنور الوجوه بوصفه بـ«ذي الجلال والإكرام» الذي لا يستحق هذه الصفة غير وجهه سبحانه كما في قوله: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾^(٣).

وقوله سبحانه: ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ معناه: صاحب العظمة، والكبرياء، والسُّلْطَانِ.

﴿وَالْإِكْرَامِ﴾: مصدر من أكرم، ويصح أن يكون بمعنى: المُكْرَم، والمُكْرَم، فالله ﷻ مُكْرَم، وإكرامه تعالى القيام بطاعته، فهو لجلاله، وكمال سُلْطَانِهِ وعظمته أهل لأن يكرم، ويثنى عليه سبحانه، فإكرام الله ﷻ أن نُقَدِّرَهُ حَقَّ قَدْرِهِ، وأن نُعَظِّمَهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ، ويكون بتوحيده، وتسييحه، وعبادته. وهو تعالى مُكْرَم لِمَنْ يستحق الإكرام من خَلْقِهِ، بما أعد لهم من الثَّوَابِ^(٤).

(١) البخاري (٦٧٣٣)، ومسلم (١٦٢٨).

(٢) «صحيح أبي داود» (٤٦٦).

(٣) انظر: «كتاب التوحيد» وإثبات صفات الرَّبِّ ﷻ، لإمام الأئمة أبي بكر بن خزيمة (٢٤/١، ٥١). وانظر: «الاعتقاد» للإمام البيهقي (٨٩).

(٤) «شرح الواسطية» لابن عثيمين (٥٣٠/١). و«الواسطية» للسلمان (٥٢٤/١) ضمن كتاب «المختارات السلفية من شروح العقيدة الواسطية» جمع وترتيب: مصطفى أمين عطا الله.

يُستفاد من تخصيص البقاء لوجه الله تبارك وتعالى، وهلاك ما دونه من المخلوقات، أمران:

الأول: بقاء الله ﷻ، لأنه إذا بقيت صفة من صفات الله الذاتية، فالله ﷻ باق.

الثاني: أن يقال هنا خصص الوجه؛ لِجَلالِهِ، وإِكرامِهِ، وعَظمتِهِ، وتشريفِهِ بذلك، لكون المخلوقات تقصد وَجْهَ العظيم، فيكون هذا أبلغ في نفس المخلوق^(١).

﴿حِجَابُ وَجْهِهِ ﷻ﴾

احتجب وَجْهُ رَبِّنا العظيم عن خَلْقِهِ بحجابين: الأول: بالنور، الثاني: بالكبرياء، فمن الأول: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقَسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يَرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ»، وفي رواية: «النار»، «لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتِ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ»^(٢).

قوله: (حجابه) أصله: المنع، والستر، وهذا الحجاب هو: المانع من إدراك العباد له سبحانه، وجاء وصف هذا الحجاب أنه (نور) أو (نار)، وأنه لو كشف هذا الحجاب لأحرق نوره ﷻ السماوات والأرض.

والسُّبُحَاتُ: جمع سُبْحَة، وهي: جمال الوجه، وبهاؤه، وحُسنه، وجلالته، ونوره^(٣).

فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ ﷻ محتجب عن الخلق بِحُجُبٍ عَظِيمَةٍ مِنَ النُّورِ، لَا يَعْلَمُ قَدْرَهَا إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى.

وهذا يدلُّ على أنه لا يمكن لأحد أن يتصور كيفية صفات الله تعالى أبداً، لأنه إذا كانت الحُجُبُ العظيمة، وهي حُجُبُ ليست كالسماوات والأرض، بل هي أوسع منهما، لو كشفها الله تعالى لأحرقَتْ سُبُحَاتِ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ، فَسُبْحَانِ اللَّهِ الْعَظِيمِ! عَظْمَةُ عَظِيمَةٍ! مَا يَدْرِكُهَا الْإِنْسَانُ لَا تَفْكِيراً، وَلَا تَصَوِّراً^(٤). فما الظن بِجَلالِ ذَلِكَ الْوَجْهِ الْكَرِيمِ،

(١) «اللائئ البهية في شرح العقيدة الواسطية» لمعالي الشيخ صالح آل الشيخ (١/٤٠٥).

(٢) مسلم (١٧٩).

(٣) شرح النووي لصحيح مسلم (١٨/٢)، والنهاية (٣٣٢/٢)، و«مجموع الفتاوى» (٦/١٠)، و«مختصر الصواعق المرسلة» (١٩٠/٢)، و«كتاب رد الإمام الدارمي على بشر المريسي» (٢/٧٥٢).

(٤) «شرح صحيح مسلم» لابن عثيمين (١/٢٨٢).

وعظمته ، وكبريائه ، وكماله ، وجلاله^(١) .

❖ الاحتجاب الثاني : الكبرياء :

قال رسول الله ﷺ : «... جنتان من فضة أنيتهما وما فيهما ، وجنتان من ذهب أنيتهما وما فيهما ، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»^(٢) .

❖ النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى هو أعظم وأعلى نعيم في الجنان ❖

عن ضُهيب بن سنان أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية : ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس ٢٦] ، قال ﷺ : الحسنَى : الجنة ، والزيادة : نظرهم إلى وجهه ﷻ ﴿وَلَا يَرَهُمْ قَرَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس : ٢٦] بعد نظرهم إليه ، وقال عَلَيْهِ السَّلَام : «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، وَدَخَلَ أَهْلُ النَّارِ النَّارَ ، نَادَىٰ مَنَادٌ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَوْعِدًا يَرِيدُ أَنْ يُنَجِّزَكُمُوهُ ، قَالَ : فَيَقَالُ : مَا هُوَ ؟ أَلَمْ يُبَيِّضْ وَجُوهَنَا ، وَيُثْقِلْ مَوَازِينَنَا ، وَأَدْخِلْنَا الْجَنَّةَ ، وَأَجَارَنَا مِنَ النَّارِ ؟ ! قَالَ : فَيُكْشَفُ الْحِجَابُ ، فَيَتَجَلَّى لَهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ» ثم قال ﷺ : «والذي نفسي بيده ما أعطاهم الله في الجنة شيئاً هو أحب إليهم ، ولا أقر لأعينهم من النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى»^(٣) .

ولهذا كان سيد الأولين والآخرين يسأل ربَّ العالمين أن يرزقه التَّلَذُّدَ في النظر إلى وجهه الجميل ، الذي لا أجمل ولا أحسن ولا أكمل منه على الإطلاق .

عن عمار بن ياسر رضي الله عنه ، أنه سمع رسول الله ﷺ يدعو يقول : «...وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِكَ ، وَالشَّوْقَ إِلَىٰ لِقَائِكَ»^(٤) .

قال إمام الأئمة ابن خزيمة رحمته الله : «ففي مسألة النبي ﷺ رَبَّهُ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَىٰ وَجْهِهِ أَمِين بَيَان ، وَأَوْضَحَ وَضُوحَ أَنَّ اللَّهَ ﷻ وَجْهًا يَتَلَذَّذُ بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ ، مِنْ مَنْ اللَّهِ جُلَّ وَعَلَا عَلَيْهِ وَتَفَضَّلَ

(١) «الصواعق المرسلة» (١٠٨٢/٣) .

(٢) البخاري (٤٨٧٨ ، ٤٨٧٩ ، ٧٤٤٤) ، ومسلم (١٨٠) .

(٣) أخرجه بهذا اللفظ عبد الله بن أحمد في كتاب «السنن» (٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٥) وصحح إسنادهم محقق الكتاب الشيخ أبو مالك الرياشي (٣٥١ - ٣٥٥) وأخرجه ابن أبي منده في «التوحيد» (٤٥١) ، وعثمان الدارمي في «الرد على الجهمية» (١٧٥) ، وفي «الرد على المريسي» (٢٢٨) ، وأصله في مسلم (١٨١) .

(٤) «صحيح النسائي» (١٣٠٤) .

بالنَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ» (١).



(٢) صفة الكمال (الْيَدَانِ) الكريمتان العظيمتان



أَجْمَعَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَى الْإِيمَانِ بِأَنَّ لِرَبَّنَا سُبْحَانَهُ يَدَانِ كَرِيمَتَانِ، لَا تُشَبَّهُ أَيْدِي الْمَخْلُوقِينَ، تَلْقَانِ بِكَمَالِهِ وَجَلَالِهِ كَمَثَلِ بَاقِي صِفَاتِهِ الْعَلِيَّةِ، وَهُمَا «اِثْنَتَانِ، لَا زِيَادَةَ فِيهِمَا، وَلَا نَقْصَ فِيهِمَا، لِأَنَّ الْمَحْصُورَ بَعْدَ يَتَعَيَّنُ أَلَّا يَزِيدَ عَلَيْهِ وَلَا يَنْقُصَ، وَهَذَا مَا أَجْمَعَ عَلَيْهِ السَّلَفُ بِدَلَالَةِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ عَلَيْهِ» (٢).

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: ١ - قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

٢ - وَقَالَ عَزَّ شَأْنُهُ: ﴿إِنِّي لَيْسُ مَا مَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِدَيِّ﴾ [ص: ٧٥]

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مِنْذُ أَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ (أَي: لَمْ يَنْقُصْ) مَا فِي يَدِهِ» (٣).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْحِ: الْيَدَانِ مِنَ الصِّفَاتِ الذَّاتِيَةِ الْخَبْرِيَّةِ، وَالتِّي لَا تَنْفَكُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ جَاءَتْ مُتَنَوِّعَةٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَيْهَا كَمَا سَيَأْتِي.

وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ لَنَا مَا قَالَهُ الْيَهُودُ فِي حَقِّهِ حِينَمَا وَصَفُوهُ بِالْبَخْلِ، تَعَالَى اللَّهُ عَنْ ذَلِكَ عَلَوًّا كَبِيرًا، فَقَالُوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، فَدَعَى اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِجَنْسِ مَقَالَتِهِمْ: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾، فَجَازَاهُمْ بِأَنَّ كَانَ هَذَا الْوَصْفَ مُنْطَبِقًا عَلَيْهِمْ، فَكَانُوا أَبْخَلَ النَّاسِ، وَأَقْلَهُمْ إِحْسَانًا ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ لَا حَجَرَ عَلَيْهِ، وَلَا مَانِعَ يَمْنَعُهُ مِمَّا أَرَادَ، فَيَدَاهُ تَعَالَى سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَخِيَرَهُ فِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ مَدَارًا (٤).

* * *

(١) «كِتَابُ التَّوْحِيدِ» (٣٠/١).

(٢) «تَفْسِيرُ سُورَةِ الْمَائِدَةِ» لِابْنِ عَثِيمٍ (٣١٤/٤).

(٣) الْبُخَارِيُّ (٧٤١١)، وَمُسْلِمٌ (٩٩٣). وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَسِطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتَوَبَّ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَسِطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتَوَبَّ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا». مُسْلِمٌ (٢٧٦٠).

(٤) «تَفْسِيرُ السَّعْدِيِّ» (٢٣٨).

﴿الْأَشْيَاءُ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ بِيَدِهِ﴾

مِنْ كَمَالِ قُدْرَةِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْلُقَ شَيْئًا قَالَ لَهُ «كُنْ» فَيَكُونُ، كَمَا أَرَادَ، لَا يَتَخَلَّفُ، وَلَا يَتَأَخَّرُ، إِلَّا أَنَّهُ خَصَّ سُبْحَانَهُ بَعْضَ الْمَخْلُوقَاتِ أَنَّهُ بَاشَرَ خَلْقَهَا بِيَدَيْهِ الْكَرِيمَتَيْنِ، تَشْرِيفًا لَهَا، وَتَعْظِيمًا لِشَأْنِهَا، فَمِنْهَا:

﴿أَوَّلًا: آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ﴾: كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَ خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].

وَفِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ الْعَظِيمِ فِيهِ: «... فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ»^(١).

﴿ثَانِيًا: التَّوْرَةَ﴾: فِي حَدِيثِ الْمَحَاجَّةِ بَيْنَ آدَمَ وَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ ﷺ: «اِحْتَجَّ آدَمَ مُوسَى، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: يَا آدَمُ! أَنْتَ أَبُونَا خَبَبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الْجَنَّةِ. فَقَالَ لَهُ آدَمُ: يَا مُوسَى! اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلَامِهِ، وَخَطَّ لَكَ التَّوْرَةَ بِيَدِهِ...»^(٢).

﴿ثَالِثًا: الْعَرْشَ﴾: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: «خَلَقَ اللَّهُ أَرْبَعَةَ أَشْيَاءَ بِيَدِهِ: الْعَرْشَ، وَالْقَلَمَ، وَآدَمَ، وَجَنَاتِ عَدْنٍ، ثُمَّ قَالَ لِسَائِرِ الْخَلْقِ: كُنْ فَيَكُونُ»^(٣).

﴿رَابِعًا: الْقَلَمَ﴾: قَالَ ﷺ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْقَلَمَ فَأَخَذَهُ بِيَمِينِهِ»^(٤).

﴿خَامِسًا: كِتَابًا مَوْضُوعًا عَنْدهُ سُبْحَانَهُ﴾: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ، كَتَبَ فِي كِتَابِهِ بِيَدِهِ عَلَى نَفْسِهِ، فَهُوَ عَنْدهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»^(٥).

﴿سَادِسًا: أَعْلَى الْجَنَّةِ﴾: كَمَا فِي سُؤَالِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِرَبِّهِ ﷻ عَنْ أَعْلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً: «...» قَالَ: رَبِّ فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةٌ؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ، غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدَيَّ، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٌ»^(٦).

(١) البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).

(٢) البخاري (٦٦١٣)، ومسلم (٦٥٢).

(٣) رواه الدارمي في «الرد على المريسي» (٢٦١/١)، والآجري في كتابه «الشرعة» (١٩١)، وقال الألباني في «مختصر العلو» للذهبي: إسناده صحيح على شرط مسلم (١٠٥). وهذا الأثر موقوف، لكن حكمه حكم المرفوع، لأنه من الغيبيات التي لا تعلم إلا عن طريق الشارع الحكيم.

(٤) رواه ابن أبي عاصم في «السنن» (١٠٦)، وهناك عدة ألفاظ ذكرها ابن أبي عاصم (١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٧، ١٠٨) وصححها جميعها الألباني. وكما في الأثر السابق: (خلق الله أربعة أشياء: - فذكر منها - القلم).

(٥) البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١)، وصحيح الترمذي (٢٨٠٨).

(٦) مسلم (١٨٩).

﴿ (٣) صفة (اليَمِين) الجليلة ﴾

﴿ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قَالَ رَبُّ الْعَالَمِينَ: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

﴿ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: قَالَ ﷺ: «يَمِينُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ...» (١).

﴿ الْمَعْنَى فِي الشَّرْح: أُلْقِيَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَلَى إِحْدَى يَدَيْهِ لَفْظَ الْيَمِينِ، وَكَذَلِكَ النَّبِيُّ الْأَمِينُ ﷺ، وَ«جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى الطِّيَّ لِلْسَّمَوَاتِ لَا الْقَبْضِ، لِأَنَّ السَّمَاءَ أَوْسَعَ مِنَ الْأَرْضِ، وَأَشَدَّ، وَأَعْظَمَ، وَطَيَّهَا أَبْلَغَ فِي الْقُدْرَةِ، وَقَدْ شَبَّهَ اللَّهُ تَعَالَى هَذَا الطِّيَّ بِقَوْلِهِ: ﴿كَلَّمَايَ السَّجِلَ لِلْكِتَابِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]، فَهَذِهِ السَّمَوَاتُ الْعَظِيمَةُ يَطْوِيهَا بِيَمِينِهِ، كَطَيِ السَّجْلِ لِلْكِتَابِ» (٢).

﴿ كَلَّمَا يَدَيَّ رَبَّنَا تَعَالَى يَمِينٍ مُبَارَكَةٍ ﴾

(١) قَالَ ﷺ: «إِنَّ لِلْمُقَسْطِينَ عِنْدَ اللَّهِ مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنِ يَمِينِ الرَّحْمَنِ ﷻ، وَكَلَّمَا يَدَيْهِ يَمِينٍ...» (٣).

(٢) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ، وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ، فَقَالَ اللَّهُ لَهُ، وَيدَاهُ مَقْبُوضَتَانِ: اخْتَرِ أَيْهَمَا شِئْتَ، فَقَالَ: اخْتَرْتُ يَمِينَ رَبِّي، وَكَلَّمَا يَدَيَّ رَبِّي يَمِينٍ مُبَارَكَةٍ...» (٤).

فِي هَذِهِ الْأَحَادِيثِ الْمُبَارَكَةِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ كَلَّمَا يَدَيَّ رَبَّنَا يَمِينٍ مُبَارَكَةٍ، وَقَدْ وَقَعَ خِلَافٌ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ: هَلْ أَنَّ كَلَّمَا يَدَيْهِ تَعَالَى يَمِينٍ، أَمْ أَحَدُهُمَا يَمِينٍ وَالْأُخْرَى يَسَارٍ (٥).

وَقَدْ حَسَمَ الْعِلَامَةُ ابْنُ عَثِيمِينَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ الْخِلَافَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِقَوْلِهِ:

«مَسْأَلَةٌ: هَلْ هَاتَانِ الْيَدَانِ تَوْصَفَانِ بِأَنْهَمَا يَمِينًا وَشِمَالًا؟

(١) الْبُخَارِيُّ (٧٤١٩)، وَمُسْلِمٌ (٩٩٣). وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَصَلَّقَ بِعَدْلٍ تَمْرَةً، مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا طَيِّبًا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقْبَلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّهَا لِصَاحِبِهَا، كَمَا يُرَبِّي أَحَدَكُمْ فَلَوْهَ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ». الْبُخَارِيُّ (٧٤٣٠)، وَمُسْلِمٌ (١٠١٤). وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقْبِضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاءَ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ». الْبُخَارِيُّ (٧٣٨٢)، وَمُسْلِمٌ (٢٧٨٧).

(٢) «شَرْحُ صَحِيحِ مُسْلِمٍ» لِابْنِ عَثِيمِينَ (٩٣/٨).

(٣) مُسْلِمٌ (١٨٢٧).

(٤) صَحِيحُ التِّرْمِذِيِّ (٣٣٦٨).

(٥) وَقَدْ نَقَلَ الْخِلَافَ وَأَدْلَى كُلِّ فِرْقَةٍ الشَّيْخُ عَلِيُّ السَّقَافِ فِي كِتَابِهِ التَّنْقِيسُ «صِفَاتُ اللَّهِ ﷻ الْوَارِدَةُ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ» (٤٢٠ - ٤٢٩).

الجواب: فيهما قولان: منهم مَنْ قال: لا، وأنكر لفظ الشَّمال الوارد في صحيح مسلم، ومنهم من قال: بلى، وكل منهم له شبهة، لكن الصواب: إنها تثبت، وأن معنى قول النبي ﷺ: «اخترت يمين ربي، وكلتا يديه يمين» يعني: اليمن والبركة والتساوي، لأن المخلوق الذي له يمين ويسار، أو يمين وشمال تختلف اليمين والشمال، تختلف بالقوة حتى بالقوة الجسمية، ولكن لا تختلف يدا الله، وأريد الثنية - فكلتاها يمين، وهذا هو الصحيح، فإننا ثبت الشمال لله، لكن لا على أنها ناقصة عن اليمين، بل كلتاها يمين»^{(١)(٢)}.



(٤) صفة الكمال (الكفّ) الجليلة



❁ السُّنَّة النَّبَوِيَّةُ: قال ﷺ: «ما تصدَّق أحدٌ بصدقة من طيب ولا يقبل الله إلا الطَّيِّب، إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرة، فتربو»^(٣) في كَفِّ الرحمن حتى تكون أعظمَ من الجبال...»^(٤).

٢ - وقال ﷺ: «رَأَيْتُ رَبِّي فِي أَحْسَن صُورَةٍ... فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفِي، حَتَّى وَجَدْتُ أَنَامِلَهُ فِي صَدْرِي»^(٥).

❁ الْمَعْنَى فِي الشَّرْحِ: فِي الْحَدِيثِ الْمَتَقَدِّمِ بِشَارَةِ عَظِيمَةٍ وَكَرِيمَةٍ لِكُلِّ مَنْفَقٍ، وَإِنْ كَانَتْ نَفَقَتُهُ فِي غَايَةِ الصَّغَرِ وَالْقِلَّةِ، فَإِنَّهَا تَضَاعَفُ وَتَنُمُو حَتَّى تَكُونَ أَكْبَرَ مِنْ أَعْظَمِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ الْبَدِيعَةِ، وَهِيَ: الْجِبَالُ، وَقَوْلُهُ: (فَتَرَبُّو فِي كَفِّ) هُوَ عَلَى الْكِيفِيَةِ الَّتِي لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ سَبْحَانَهُ، وَإِنْ كُنَّا نَوْمِنُ بِذَلِكَ عَلَى الْحَقِيقَةِ وَعَلَى ظَاهِرِ النَّصِّ.

وفي تخصيص ذِكْرِ (الرحمن) دون غيره من الأسماء: لبيان هذه المضاعفة من موجبات رحمة الله تعالى لخلقِهِ، وإلَّا كَانَ الْعَدْلُ وَالْجَزَاءُ أَنْ يَكُونَ بِمِثْلِهِ، لَكِنْ لِرَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى الْوَاسِعَةِ أَنَّهُ يَقْبَلُهَا وَيُنَمِّيْهَا لِعَبْدِهِ الْمُتَصَدِّقِ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً.

(١) «تفسير سورة المائدة» (٣١٦/٤).

(٢) وقد ضَعَّفَ الألباني رواية الشَّمال، بقوله: «إِنَّ رَاوِيَةَ «بِشْمَالَهُ» شَاذَّةٌ». «مجلة الأصاله» (٦٨/٤) نقلًا من «الصفات الواردة» (٤٢٦).

(٣) أي: تنمو وتزداد وتتضاعف.

(٤) مسلم (١٠١٤). وجاء عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخَذَ ذُرِّيَّةَ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ فَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، ثُمَّ فَاضَ بِهِمْ فِي كَفِّهِ...» رواه ابن أبي عاصم في «السنن» (١٦٨)، وصحح إسناده الألباني (٧٤).

(٥) صحيح الترمذي (٣٢٣٥).

(٥) صفة الكمال (الأصابع) الجليلة

❖ السُّنَّة النَّبَوِيَّةُ: ١ - عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «إِنَّ يَهُودِيًّا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: (يَا أَبَا الْقَاسِمِ! (إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَوَاتِ عَلَى إصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إصْبَعٍ، وَالْجِبَالَ عَلَى إصْبَعٍ، وَالْخَلَائِقَ عَلَى إصْبَعٍ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ)، فَضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ فَكْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧]»^(١).

٢ - وقال ﷺ: «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، إِنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُزَيِّغَهُ أَزَاغَهُ»^(٢).

❖ الْمَعْنَى فِي الشَّرْحِ: تقدم حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي أخبر فيه اليهودي عن إثبات وعظمة أصابع ربنا الجليلة «وهذا من العلم الموروث عن الأنبياء المتلقَّى عن الوحي من الله تعالى، ولهذا صدَّقه رسولُ الله، بل وأعجبه ذلك وسرَّ به، ولهذا ضحك حتى بدت نواجِذه تصديقاً له»^(٣).

ولهذا قرأ ﷺ الآية، تأييداً له^(٤).

وهذا يدلُّ دلالة قاطعة على أن مسائل التوحيد، والإيمان، والتي منها الأسماء والصفات متفقة على ذلك في جميع الأديان.

ودلت هذه الصفة الجليلة على عظمة صفات ربنا، وأنها لا تُشبه صفات أحد من خلقه، وإن تشابهت المُسمَّيات عند الإطلاق، أما عند الاختصاص فإن الحقائق والكيفيات تختلف عنهم من جميع الوجوه والاعتبارات «فإن جميع بني آدم منذ خلق الله تعالى آدم إلى أن ينفخ في الصور، لو اجتمعوا على إمساك جزء من أجزاء كثيرة من سماء من سمواته، أو أرض من أراضيه السبع بجميع أبدانهم كانوا غير قادرين على ذلك، ولا مستطيعين له، بل عاجزين عنه»^(٥).

(١) وفي لفظ: «فضحك رسولُ الله ﷺ تعجباً وتصديقاً». صحيح البخاري (٤٨١١، ٧٤١٤)، ومسلم (٢٧٨٦).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٧٦٣٠)، وقال العلامة شُعيب الأرنؤوط: «إسناده صحيح على شرط الشيخين» (١٧٨/٢٩). وقال ﷺ: «إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يَصْرِفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ...». مسلم (٢٦٥٤).

(٣) «شرح كتاب التوحيد» من صحيح البخاري للعلامة عبد الله الغنيمان (٢٢٦/١).

(٤) «شرح صحيح مسلم» لابن عثيمين (٩١/٨).

(٥) «كتاب التوحيد» لابن خزيمة (١٩٤/١).

ولهذا يقول بيده سبحانه: «أنا الملك»: «أي أنه تعالى يهزهن استخفافاً لهذه المخلوقات، واستصغاراً لها، أمام عظمة الله تعالى، وقوته جلّ وعلا، وقد جاء مصرحاً بذلك في الروايات الأخرى»^(١).

«وهذا الإمساك يكون قبل تبديل الله تعالى الأرض غير الأرض، لأن الإمساك على الأصابع غير القبض على الشيء...»^(٢).

واعلم رَعَاكَ الله تعالى أن الله قادرٌ على أن يضع كل أنواع المخلوقات التي ذكرت في الحديث على إصبعٍ واحد، لكن لِحِكْمَةٍ عَلِيَّةٍ اختص بها سبحانه.

وفي الأحاديث الأخرى (أن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين) من أصابعه الجليلة، وهذا لا يقتضي المماسّة، ولا الملاصقة لأصابعه، ولا أنها في جوفه، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤].

فليس هناك مماسّة، ولا مقارنة بين الأرض وبين السماء، ولا بين السحاب، وبين الأرض^(٣).

وقوله ﷺ: (يقلمها)؛ أي: الله تعالى، وإضافة التقليل إلى الله سبحانه حقيقة، والفائدة من هذا أن الرسول ﷺ بين أن تقليل هذه القلوب يسيرٌ على الله ﷻ كالشيء الذي بين أصابعه^(٤).



(٦) صفة الكمال (الأنامل) الجليلة



﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال ﷺ: «... فإذا برَّبِّي ﷻ (يعني: أنه رأى الله تعالى في المنام، ورؤيا الأنبياء حق) في أحسن صورة، فقال: يا محمد! فيم يختصم الملائة الأعلى؟ قلت: لا أدري، قال: يا محمد! فيم يختصم الملائة الأعلى؟ قلت: لا أدري يا ربّ، قال: يا محمد! فيم يختصم الملائة الأعلى؟ قلت: لا أدري يا رب، فرأيتُه وضع كفّه بين كتفي، حتى وجدت بردَ أنامله في صدري...»^(٥).

(١) «شرح كتاب التوحيد» للغنيمان (٢/٥١٧).

(٢) «كتاب التوحيد» لابن خزيمة (١/١٨٥).

(٣) «مجموع الفتاوى» (٣/٤٣).

(٤) «شرح القواعد المثلى» لابن عثيمين (٢٥٧).

(٥) صحيح الترمذي (٣٢٣٥).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الْأَنَامِل: رُؤُوسُ الْأَصَابِعِ؛ أَي: أَطْرَافُهَا﴾^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: وَصَفَ نَبِيَّنَا ﷺ أَنْ لَرَبَّنَا أَنَامِلٌ، وَالْأَنَامِلُ هِيَ: أَطْرَافُ الْأَصَابِعِ، وَالْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ لَا يَسْتَوْحِشُ وَلَا يَخْتَلِجُ فِي فُرَادِهِ أَي مَعْنَى يَخْرُجُ هَذَا الْوَصْفُ عَنْ ظَاهِرِهِ، لِأَنَّ نَبِيَّنَا أَطْلَقَ ذَلِكَ عَلَى رَبَّنَا، فَهُوَ أَعْلَمُ الْوَرَى، بِرَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا، فَيَنْبَغِي الْإِمْتِثَالُ، وَالتَّصْدِيقُ بِمَا أَخْبَرَ مِنَ الْهَدَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧].

وقد تقدم بيانه أن ما أطلقه تعالى على نفسه، من أوصافٍ لا تشترك مع غيره عند الإطلاق إلا في المسميات، وعند الإضافة والاختصاص يفتقران، بمعنى: أن ما أضيف إليه سبحانه يليق بجلاله، وكماله، وما أضيف إلى غيره من المخلوقين يليق بنقصهم، وضعفهم.

﴿٧﴾ صفة الكمال (الإبھام والخنصر) الجليلة

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ لَجَّجِلَ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، قَالَ: «هَكَذَا» (وَضَعَ إِبْهَامَهُ عَلَى قَرِيبٍ مِنْ طَرَفِ أُنْمَلَتِهِ، فَسَاخَ الْجِبَلَ، وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا).

وفي لفظ: (وَأَمْسَكَ بِطَرَفِ إِبْهَامِهِ عَلَى أُنْمَلَةٍ إصْبَعِهِ الْيُمْنَى).

قال حميد لثابت: تقول هكذا؟ فوكزه، قال: (يقول رسول الله ﷺ، ويقول أنس، فأكتمه أنا!). وفي رواية: أن النبي ﷺ قال: (أخرج طرف خنصره)، «فقال له حميد الطويل: ما تريد إلى هذا يا أبا محمد؟ ف ضرب صدره ضربة شديدة، وقال: من أنت يا حميد، وما أنت يا حميد، يخبر به أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي ﷺ، وتقول: وما تريد إلى هذا؟»^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الْإِبْهَامُ: بِالْكَسْرِ: الإِصْبَعُ الْعَظْمَى﴾^(٣). الْخَنْصَرُ: الإِصْبَعُ الصَّغْرَى أَوْ الْوُسْطَى^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: تَقَدَّمَ فِي الْأَحَادِيثِ السَّابِقَةِ فِي إِثْبَاتِ صِفَةِ الْكَمَالِ: الْإِبْهَامُ،

(١) «المصباح المنير» (٣٦٢).

(٢) رواه ابن أبي العاصم في «السنة» (٢١٠/١)، وصححه الألباني (٤٨٠، ٤٨١)، وفي صحيح الترمذي (٣٠٧٤)، وأخرجه الحاكم في المستدرک (٣٢٠/٢) وقال: حديث صحيح على شرط مسلم، وصحح إسناده الضياء المقدسي في المختارة (٥٤/٥).

(٣) «الصحاح» (١١٤).

(٤) «القاموس المحيط» (٤٠٠).

والخنصر، وقد فسّر النبي ﷺ الآية في سورة الأعراف في تَجَلَّى رَبَّنَا العظيم للجبل، حينما سأل موسى ﷺ رؤية ربّه سبحانه.

وقول الراوي: وأمسك بطرف إبهامه على طرف إصبعه اليمنى فساخ الجبل، حكاية عن فعل النبي ﷺ بعد تلاوة الآية «إشارة لبيان قلة التَّجَلَّى»^(١).

أي: ما تجلّى منه سبحانه إلّا هذا القدر القليل، وهذا يدلّ على أنه تعالى لا يُحاطُ به علماً، ولا يُحصَى ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه سبحانه بما يستحقّه من الكمال والجلال.

وفي الإشارة بإصبعه النبي ﷺ لهذه الصفة تحقيقاً وتأكيّداً في إثباتها على الحقيقة، وليس من باب التشبيه والتّمثيل.

وانظر رعاكَ الله إلى موقفِ هذا التابعي الجليل الشديد في حماية جانب التّوحيد، في إثبات صفات ربّنا الممجّد، الذي هو أوجب الواجبات على العبيد، وأنه ينبغي أن يزجر بالقول، والفعل كل من يَخْتَلِجُ في قلبه شيءٌ من ذلك، في هذا الباب العظيم.

وقوله رَحِمَهُ اللهُ: «يقوله ﷺ»، ويقولونه أنس، وأكتمه!»: فيه بيان على تعظيم الإسناد، والآثار في أخذ الأخبار عن الصّادق المصدوق والأصحاب، خاصة في هذا الباب، ولهذا زجره بالقول: «من أنت يا حُميد، وما أنت يا حميد؟»، وبالفعل: «فوكزه»، «فضرب صدره ضربةً شديدة»؛ وفيه أكبر دلالة على أهميّة ذُكر صفات ربّنا العظيم وتذكّرها، والتحدّث بها وعدم كتمانها، حتى أمام العامّة.

إن الإشارة الحسيّة في تحقيق الصفات العليّة من هديه ﷺ^(٢)، وقد فهم ذلك الأصحاب، وكذلك أئمة الهدى، فقد روى عبد الله بن الإمام أحمد رحمهما الله، أن الإمام أحمد حدّثه فقال: «ثنا يحيى بن سعيد، عن عبد الله عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ...» الحديث. قال أبي رَحِمَهُ اللهُ: «جعل يحيى يُشير بأصابعه، وأراني أبي كيف يشير بإصبعه، يضع إصبعاً، إصبعاً، حتى أتى على آخرها»^(٣).

* * *

(١) «تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي» لِلْمُبَارَكْفُورِي (١٧/٨).

(٢) انظر القاعدة الرابعة عشر.

(٣) رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه في «السُّنَّة» (٤٨٩)، وصحّح إسناده محقّق الكتاب د. سعيد الفُخْطَانِي (٢٦٤/١).

(٨) صفة الكمال (القَدَم والرَّجُل) الجليلة

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «تَحَاجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ»^(١)، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله تبارك وتعالى رِجْلَهُ، فتقول: قط، قط، قط، فهناك تمتلئ، ويُرْوَى^(٢) بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله تعالى من خلقه أحداً، وأما الجنة، فإن الله تعالى يُنشِئُ لها خلقاً^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْحِ﴾: ثبتت هذه الصِّفة في الكتاب كما في آية الكرسي ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ﴾ فقد ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهما: «الكرسي موضع القدمين»^(٤).

وهذان الأثران حكمهما حكم المرفوع إلى النبي ﷺ، لأنه لا مجال للرأي فيه، وعلى هذا «فإنَّ الله تعالى له قدمين»^(٥).

وفي الأحاديث المتقدمة جاءت بلفظ (قدمه) و(رجله) وكلاهما عبارة عن شيء واحد صفة لله تعالى حقيقة على ما يليق بجلاله، وعظمته.

وفي قول النبي ﷺ عن النار: (ويُرْوَى بعضها إلى بعض)؛ يعني: ينضم بعضها إلى بعض، فتصغر جهنم، من عظم قدم الباري ﷻ، بعد أن يضع عليها قدمه، وتصير مملوءة بعد ذلك بأهلها، فإن وضع الله سبحانه فيها قدمه هو الغاية التي إليها ينتهي الإلقاء، ويكون بعد ذلك الانزواء^(٦).

(١) فقالت النَّارُ: أوثُرتُ بالمُكْتَبَرِينَ، والمتَجَبَّرِينَ، وقالت الجنة: فما لي لا يدخلني إلا ضُعَفَاءُ النَّاسِ، وسَقَطُهُمْ (أي: ضُعَفَاؤُهُمْ والمُحْتَقَرُونَ منهم)، وَغُرَّتُهُمْ (أي: البله الغافلون الذين ليس بهم حذق في أمور الدنيا - «شرح صحيح مسلم» للنووي (٢٠٥/٩))، قال الله تعالى: أَنْتَ رَحِمْتُ، أَرْحَمُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَقَالَ لِلنَّارِ: إِنَّمَا أَنْتَ عَذَابِي، أَعَذَّبْتُ بِكَ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي، وَلَكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْكُمَا مَلُؤَاهَا.

(٢) أي: يلتئم بعضها على بعض.

(٣) وفي رواية: «... وأما النَّارُ، فلا تمتلئ حتى يضع فيها رَبُّ الْعَالَمِينَ قَدَمَهُ»، وفي لَفْظٍ: «لا تزال جهنم تقول: هل من مزيد، حتى يضع فيها رَبُّ الْعِزَّةِ قَدَمَهُ...». انظر هذه الروايات في «صحيح البخاري» (٤٨٤٨، ٤٨٥٠، ٦٦٦١)، ومسلم (٢٨٤٨).

(٤) رواه الحاكم في «المستدرک» (٢٨٢٢)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه ابن خزيمة في «التوحيد» (٢٤٨/١)، والدارمي في «الرد على المريسي» (٦٩، ٧٣، ٧٥)، وصححه الألباني في «مختصر العلو للذهبي» (١٥٢)، وقال الأزهري رحمه الله: (هذا الرواية اتفق أهل الرواية على صحتها) «تهذيب اللغة» (٥٤/١٠)، وأثر أبي موسى أخرجه أحمد في «السنة» (٥٨٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٦٦)، وصححه الألباني في «مختصر العلو» (١٢٤).

(٥) «توضيح مقاصد العقيدة الواسطية» لعبد الرحمن البراك (١٧٣).

(٦) انظر: «شرح الواسطية» لابن السعدي (٣٨٢/١) وخليل الهراس (٣٨٣/١) وابن عثيمين (٣٨٥/١) ضمن كتاب «المختارات السلفية».

(٩) صفة الكمال (السَّاق) الجليلة

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢]

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «... فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رآوه فيها أول مرة، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فلا يكلمه إلا الأنبياء، فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونها؟ فيقولون: السَّاق، فيكشف ربنا عن ساقه، فيسجد كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى من كان يسجد في الدنيا رياء، وسمعة، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً»^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: جاءت لفظة (السَّاق) في القرآن مجردة عن الإضافة، والتقييد، وإنما فسرتها السنة المطهرة، والتي هي بيان للقرآن مبينة لما أجمل فيه: بأنها ساق الله تعالى صفة ذاتية عليّة، قد جعلها الله سبحانه علامة بينه وبين خلقه يوم القيامة كما بقوله ﷺ: «يكشف ربنا عن ساقه» فالهاء ضمير يعود عليه سبحانه.

وعلى هذا فمعنى (السَّاق) في الآية: «أي يكشف ربنا تبارك وتعالى عن ساقٍ عظيمة، جلّت عظمتها، وتعالى شأنها أن يكون لها نظير، أو مثل، أو شبيه، فتكير (ساق) في الآية للتعظيم، والتفخيم»^(٢).

قال الإمام الشوكاني رحمه الله: «وقد أغنانا الله ﷻ في تفسير هذه الآية، بما صحَّ عن رسول الله ﷺ، وذلك لا يستلزم تجسيماً، ولا تشبيهاً، فليس كمثله شيء»^(٣) (٤).



(١٠) صفة الكمال (العَيْنَيْنِ) الجليلة



﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿وَأَصْنَعُ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا﴾ [هود: ٣٧]^(٥).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْكُمْ، إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعُورٍ

(١) البخاري (٤٤١٩)، ومسلم (١٨٣). وقال ﷺ: «... وينزل الله ﷻ في ظُلَمٍ من القَمَامِ من العرش إلى الكرسي...، فيتمثل الربُّ تبارك وتعالى، فيأتيهم يقول: ما لكم لا تنطقون، كما انطلق النَّاسُ؟ قال: فيقولون: إِنَّ لَنَا إِلَهًا ما رأينا به بعد، فيقول: هل تعرفونه إن رأيتُموه؟ فيقولون: إِنَّ بَيْنَنَا وبينه علامة إذا رأينا عرفناه، فيقول: ما هي؟ فيقولون: يكشف عن ساقه، فمعد ذلك يكشف عن ساقه». أخرجه الطبراني في الكبير (٤١٨/٩)، والحاكم في المستدرک (٥٩٠/٤) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣١٢٩).

(٢) «فتح القدير» (٢٧٨/٥).

(٣) قوله: (لا تجسماً) هذه اللفظة وغيرها من الألفاظ مأخوذة من أصحاب الكلام الذي ذمَّه سلفُ الأمة والتي لا أصل لها في الشارع، وما تحمله من معاني غير صحيحة، وعلى هذا فلا يجوز أن تطلق، ويستبدل بدلاً منها الألفاظ الشرعية.

(٤) «فتح القدير» (٢٧٨/٥).

(٥) وقال عزَّ شأنه: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور: ٤٨]، وقال سبحانه: ﴿تَجَرَّيْ بِأَعْيُنِنَا﴾ [القم: ١٤].

(وأشار إلى عينيه)، وإنَّ المسيحَ الدَّجَالَ أعور العين اليُمْنَى...»^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْحِ: وَصَفَ رَبُّنَا نَفْسَهُ بِأَنَّهُ لَهُ عَيْنَانِ تَلِيْقَانِ بِهِ كَمَا فِي الْآيَاتِ الْمَتَقَدِّمَةِ، وَلِهَذَا أَشَارَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الثَّانِي، فَوَضَعَ إِبْهَامَهُ الشَّرِيفَةَ عَلَى أُذُنِهِ، وَالتِّي تَلِيْهَا فِي عَيْنِهِ، تَأْكِيدًا، وَتَحْقِيقًا لِهَذِهِ الصِّفَةِ الْكَرِيمَةِ.

وبهذا الفهم السَّليم، فعل ترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما حيث «أشارَ بيده إلى عينيه في تفسيره لقوله تعالى: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤]»^(٢).

وقد دَلَّتِ السَّنَةُ عَلَى أَنَّ لِرَبَّنَا الْعَظِيمِ عَيْنَانِ جَلِيلَتَانِ كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعُورٍ».

إذ إنَّ الْأَعُورَ فِي اللُّغَةِ: هُوَ مَنْ فَقَدَ إِحْدَى عَيْنَيْهِ، قَالَ فِي الْقَامُوسِ: الْعَوْرُ: ذَهَابَ حِسُّ إِحْدَى الْعَيْنَيْنِ^(٣).

قال إمام أهل السُّنَّةِ أَبُو سَعِيدٍ الدَّارِمِيُّ رحمه الله: «الْأَعُورُ ضِدُّ الْبَصِيرِ بِالْعَيْنَيْنِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي الدَّجَالِ: «إِنَّهُ أَعُورٌ، وَإِنْ رِيَكُمْ لَيْسَ بِأَعُورٍ»، بَيَانُهُ: أَنَّهُ ذُو عَيْنَيْنِ خِلَافَ الْأَعُورِ»^(٤).

ومجيء هذه اللفظة «لأنَّ مخلوقات الله تعالى المعروفة لدى العرب: الإنسان، وكذلك: الحيوان، كلها لها عَيْنَانِ، فَوَضَعَتِ الْعَرَبُ هَذَا الْاسْمَ (الْأَعُورُ) لِمَنْ فَقَدَ إِحْدَى الْعَيْنَيْنِ، فَهُوَ خَاصٌّ بِذَلِكَ، وَلَيْسَ الْعَوْرُ هُوَ ذَهَابُ الْبَصَرِ»^(٥).

ف«هُمَا عَيْنَانِ يَبْصُرُ بِهِمَا سُبْحَانَهُ مَا تَحْتَ الثَّرَى، وَمَا تَحْتَ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ السُّفْلَى، وَمَا فِي السَّمَوَاتِ الْعُلَا وَمَا بَيْنَهُمَا، لَا يَغِيبُ عَنْ بَصَرِهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا يَخْفَى، يَرَى مَا فِي جَوْفِ الْبَحَارِ، وَلُجَجِهَا، كَمَا يَرَى عَرْشَهُ الَّذِي هُوَ مُسْتَوٍ عَلَيْهِ»^(٦). فِي الْعِلَا.

(١) البخاري (٣٤٣٩، ٧١٣١، ٧٤٠٧)، ومسلم (٢٩٣٢). وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمَّا يُنْظَرُ بِهِ إِذَا لِلَّهِ كَانَ مِمَّا يَصِيرُ﴾: «فَوَضَعَ إِبْهَامَهُ عَلَى أُذُنِهِ، وَالتِّي تَلِيْهَا عَلَى عَيْنِهِ»، وقال رضي الله عنه: (رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقْرُؤُهَا وَيَضَعُ إِبْهَامَهُ عَلَى أُذُنِهِ). صححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٤٧٢٨).

(٢) رواه اللالكائي (٤١١/٣)، وكذلك فسر قوله تعالى: ﴿وَأَصْنَعُ الْفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، قال: «بعين الله». أخرجه الطبري في التفسير (٣٤/١٢)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٤٥).

(٣) «القاموس المحيط» (٩٢٦)، وانظر: «لسان العرب» (٦١٢/٤).

(٤) «رد الدارمي على بشر المريسي» (٣٠٥/١).

(٥) «اللائك البهية» في «شرح العقيدة الواسطية» لمعالي الشيخ صالح آل الشيخ (٤٢٣/١).

(٦) «الحجّة في بيان المَحَجَّة» (١٩٦/١).

قال الإمام الجليل أبو الحسن الأشعري رحمته الله في بيان معتقد أهل الحديث: «وأن له عينين، كما في قوله تعالى: ﴿تَجَرَّى بِأَعْيُنِنَا جَزَاءٌ لِمَن كَانَ كُفْرًا﴾ [القمر: ١٤]»^(١).

وقال رحمته الله: «أصحاب الحديث: لسنا نقول في ذلك: إلا ما قاله الله ﷻ، أو جاءت به الرواية عن رسول الله ﷺ، فنقول: وجه بلا كيف، ويدان، وعينان بلا كيف»^(٢).

(١١-١٢) صفتا الكمال (الحُجْزَة) و(الحَقُّو) الجليلتان

✽ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: (١) قال ﷺ: «إِنَّ الرَّحْمَ شَجْنَةٌ آخِذَةٌ بِحُجْزَةِ الرَّحْمَنِ، يَصِلُ مَنْ وَصَلَهَا، وَيَقْطَعُ مَنْ قَطَعَهَا»^(٣).

(٢) وقال ﷺ: «خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهُ قَامَتِ الرَّحْمُ، فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ: مه! قالت: هذا مقام العائذ بك من القطعية...»^(٤).

✽ الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الْحُجْزَةُ وَالْحَقُّو: موضع عقد الإزار وشده، ثم قيل: للإزار حجة للمُجاورة، فالحقو الخاصرة ومشد الإزار^(٥).

✽ الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: يوصف ربُّنا ﷻ بصفة الكمال الحُجْزَة والحَقُّو كما يليق به، والذي ينبغي للمؤمن الإيمان بذلك، والتصديق، والتسليم أنهما صفتان حقيقتان، مع التَّقْوِيسِ بكيفيتهما إلى الله تعالى، فكما نؤمن بأنَّ الله تعالى ذاتاً تليقُ به، كذلك يجبُ أن نؤمن أنَّ له صِغَاتٍ تليقُ به، إذ إنَّ الصِّغَاتِ فرع من الذَّاتِ يحذو بِحَذْوِهَا.

ولهذا كان ﷻ يذكر صفاته تعالى في كلِّ المحافل والمَجَالِسِ دون تقييدها وتخصيصها في مكان دون آخر، فيذكرها عند العَوَامِّ والخَوَاصِّ دون تمييز، لأنَّ صَحَابَتَهُ رضوان الله عليهم أجمعين أبرُّ قلوباً، وأصدق يقيناً من غيرهم، والفرقة النَّاجِيَةُ أهل السُّنَّةِ والجماعة يسرون على هذا الرِّكْبِ الجليل، فلا يَسْتَوْحِشُونَ هذه الأخبار الجليَّة، «سُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنِ الْحَدِيثِ

(١) «مقالات الإسلاميين» (٢٨٥/١).

(٢) المصدر السابق (٢٩٠/١).

(٣) رواه أحمد في المُسْنَدِ (٢٩٥٣)، وصححه شعيب الأرْنَؤُوط (١١٠/٥)، وصححه الألباني في «السنة» لابن أبي عاصم (٥٣٨) وفي «السلسلة الصحيحة» (١٦٠٢).

(٤) صحيح البخاري (٤٨٣٠).

(٥) «معجم مقاييس اللغة» (٨٨/٢)، و«القاموس المحيط» (٢٦٦)، و«المصباح المُنِير» (٨٨).

الوارد فيه: «فذكر أنه يُمضي على ما جاء، غير ممتنع حمل الخبر على ظاهره، مع الإيمان أن صفات الله تعالى لا تشبه صفات المخلوقين»^(١).

وقال القاضي أبو يعلى: «اعلم أنه غير ممتنع حمل هذا الخبر على ظاهره، وأن (الحق)، و(الحُجْزة) صفة ذات»^(٢).

قوله: «غير ممتنع حمل هذا الخبر على ظاهره»: تقدم بيانه^(٣) أن الأصل في الكلام إبقاؤه على ظاهره، وعلى الحقيقة، ما لم يأت دليلاً يصرفه عن ذلك، وليس هناك دليل يصرفه، فبقي على أصله، لأنه كما تقدم الصفات تمرر كما جاءت.

قال الحافظ أبو موسى المديني: «وفي الحديث: «أن الرحم أخذت بحُجْزة الرحمن»، ثم ذكر تفسيراً للحديث، ثم قال: وإجراؤه على ظاهره أولى»^(٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «هذا الحديث في الجملة من أحاديث الصفات، التي نصّ الأئمة على أنه يمرر كما جاء، وردوا على من نفى موجهه، قال ابن حامد: ومما يجب التصديق به: أن الله تعالى حقاً...».

ثم بين رحمه الله الفهم الصحيح الواجب فهمه في هذا الباب الجليل فقال: «وليس ظاهر هذا الحديث أن الله تعالى إزاراً ورداءً من جنس الأزرق والأردية التي يلبسها الناس مما يصنع من الجلود والكتان والقطن وغيره، بل هذا الحديث نص في نفي هذا المعنى الفاسد، فإنه لو قيل عن بعض العباد: إن العظمة إزاره، والكبرياء رداؤه، لكان إخباره بذلك عن العظمة والكبرياء الذين ليسا من جنس ما يلبس من الثياب، فإذا كان المعنى الفاسد لا يظهر من وصف المخلوق، لأن تركيبه في اللفظ يمنع ذلك، وبين المعنى المراد، فكيف يدعى أن هذا المعنى ظاهر اللفظ في حق الله تعالى، فإن كل من يفهم الخطاب، ويعرف اللغة، يعلم أن الرسول ﷺ لم يخبر عن ربّه بلبس الأكسية والثياب، ولا أحد ممن يفهم الخطاب يدعي في قوله ﷺ في خالد بن الوليد: «إنه سيف الله» أن خالداً حديد، ولا في قوله ﷺ: «إننا وجدناه بحرّاً»: أن ظاهره أن الفرس ماء كثير، ونحو ذلك»^(٥).

(١) «إبطال التأويلات» (٢٠٨/١)، (٤٢١/٢).

(٢) المصدر السابق (٤٢٠/٢).

(٣) في القاعدة الثالثة.

(٤) «المجموع المغني» (٤٠٥/١) نقلاً من كتاب «صفات الله الواردة» (١٣٩).

(٥) بواسطة: «شرح كتاب التوحيد» للغنيمان (٣٨٣/٢).

قال قَوَّام أهل السنة والجماعة الأصبهاني رَحِمَهُ اللهُ: «فواجب على كل مؤمن أن يُثَبِّتَ من صفات الله ﷻ ما أثبتَه لنفسه، وليس بمؤمن مَنْ ينفي عن الله تعالى ما أثبتَه لنفسه...، وجلَّ تعالى عن أن يشبه صفة شيء من خَلْقِهِ صفته، أو فعل أحدٍ من خلقه فعله»^(١).



(١٣) صفة الكمال (الْمَنْكِبُ) الجليلية



❁ السُّنَّة النَّبَوِيَّةُ: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الرَّحِمَ شَجَنَةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَنْكِبِي الرَّحْمَنِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قال الله تعالى لها: مَنْ وَصَلَكَ وَصَلْتَهُ، وَمَنْ قَطَعَكَ قَطَعْتَهُ»^(٢).

❁ الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: المنكب هو: ما بين الكتف والعنق^(٣).

❁ الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: صفة الْمَنْكِبِ من الصِّفَات الذاتية التي يحذوا القول فيها القول في باقي صفات رَبَّنَا على الوجه الذي يليق به، لا تشبه صفات أحدٍ من خلقه، إنما تتفق الْمُسَمَّيات عند الإطلاق، وتختلف الْحَقَائِقُ وَالْكَفَيَّات عند الإضافات.

وقوله ﷺ: «إِنَّ الرَّحِمَ شَجَنَةٌ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَنْكِبِي الرَّحْمَنِ» لا تعارض مع قوله ﷺ: «إِنَّ الرَّحِمَ شَجَنَةٌ آخِذَةٌ بِحُجْزَةِ الرَّحْمَنِ»: فلا يمنع أن تعلق بمنكبي الرحمن في حال، «وتعلق بحقو الرحمن في حال (أخرى)، فيجمع بين الْخَبَرَيْنِ جميعاً»^(٤).

لأن الأصل إعمال الأدلة كما هو معلوم في أصول الشريعة.

وقوله ﷺ: «بِمَنْكِبِي»: تثنية مَنْكِبٍ، أي: إِنْ لِرَبَّنَا (مَنْكِبَانِ) جليلان، كما ثنى (اليدان) و(العينان) و(القدمان) والله أعلم.



(١٤) صفة الكمال (الصُّورَةُ) الجليلية



❁ السُّنَّة النَّبَوِيَّةُ: (١) في حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في رؤية المؤمنين لِرَبِّهِمْ في يوم الدين، وفيه: «...فَيَأْتِيهِمُ الْجَبَّارُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فيقول: أَنَا رَبُّكُمْ!

(١) «الْحُجَّةُ فِي بَيَانِ الْمَحَجَّةِ» (٢٨١/١).

(٢) رواه ابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (٥٣٦)، وصححه الألباني وقال: حديث صحيح وهو على شرط البخاري (٢٣٦).

(٣) «الصحاح» (١٠٦٧).

(٤) «إبطال التأويلات» (٤٢٦/٢).

فيقولون: أنت ربُّنا...»^(١).

(٢) في حديث اختصاص الملائة الأعلى في رؤية النبي ﷺ لله تعالى في المنام: «إني نعت فاستثقلت نومًا فرأيتُ ربِّي في أحسن صورة»^(٢).

✽ المَعْنَى فِي اللُّغَةِ: تطلق الصورة على: شكل الشيء، وحقيقته، وهيئته، وعلى صِفته^(٣).

✽ المَعْنَى فِي الشَّرْع: يوصف ربُّنا العظيم بالصورة، لأنه لا بُدَّ لكل قائم بنفسه من صورة يكون عليها، ويمتنع أن يكون في الوجود قائم بنفسه ليس له صورة يكون عليها^(٤).

فيجب على كل مسلم الإيمان بها على (ظاهرها)، ولا يقال فيها: كيف؟، ولم؟ بل نستقبل بالتَّسْلِيم، والتصديق، وترك النَّظَر^(٥)، لأننا نطلق تسمية الصورة عليه، لا كالصور، كما أن له ذاتًا لا كالذَّوات^(٦).

قال الإمام الجليل محمد ابن قتيبة رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم أنَّ الصورة ليست بأعجب من اليدين، والأصابع، والعين، وإنما وقع الإلْفُ لتلك لمجيئها في القرآن، ووقعت الوحشة من هذه لأنها لم تأت في القرآن، ونحن نؤمن بالجميع، ولا نقول في شيء منه بكيفية، ولا حَدَّ»^(٧).

✽ (١٥) صفة الكمال (الإحاطة) الجليّة ✽

✽ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قال ﷺ: «وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا» [النساء: ٢٦]^(٨).

✽ المَعْنَى فِي اللُّغَةِ: المحيط: اسم فاعل من قولهم: أحاط فلانُ بالشيء فهو محيط به، إذا استولى عليه، وضمَّ جميع أقطاره، ونواحيه، حتى لا يتمكن من التخلص منه، ولا فوته، ولا يقدر الفرار منه.

(١) البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

(٢) صحيح الترمذي (٣٢٣٣، ٣٢٣٤، ٣٢٣٥)، وفي كتاب «السنة» لابن أبي العاصم (٣٨٨).

(٣) «معجم مقاييس اللغة» (٣٩١/٣)، و«القاموس المحيط» (٧٦١).

(٤) من كلام شيخ الإسلام في «نقض التأسيس» مخطوط، نقلًا من «شرح كتاب التوحيد» (٤١/٢) للغنيمان.

(٥) «الشرعة» للأجري (٣١٥).

(٦) انظر: «إطال التأويلات» (٨١/١).

(٧) «تأويل مختلف الحديث» (٢٦١).

(٨) وقال عز شأنه: «وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» [البقرة: ١٩]، وقال ﷺ: «وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا» [الطلاق: ١٢].

فالإحاطة إدراك الشيء بِكَماله ظاهراً، وباطناً، والاستدارة بالشيء من جميع جَوَانبه، ويأتي بمعنى: الهلاك، قال تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ [الكهف: ٤٢] (١).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: يُوَصِّفُ رَبُّنَا ﷻ بِصِفَةِ الْعِلَاةِ الْإِحَاطَةِ الْكَامِلَةِ، الشَّامِلَةِ لِكُلِّ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَمَا فِيهِمَا.

فهو سبحانه المحيط: الذي أحاط بكل شيء علماً، وقدرة، ورحمة، وقهراً، وقد أحصى بكل شيء عدداً، وقد أحاط بجميع المعلومات، وقدرته بجميع المقدورات، وبصره بجميع المبصرات، وسمعه بجميع المسموعات، ونفذت مشيئته وقدرته بجميع الموجودات، فدانت له جميع الموجودات (٢).

وهو سبحانه المحيط أي: جامع الكافرين (٣)، ومُجِلُّ بهم عقوبته (٤)، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩].

ومن إحاطته بهم في الدنيا: إبطال كيدهم الدنيوي، ونصرته لأوليائه عليهم، قال سبحانه: ﴿وَإِنْ تَصِيرُوا تَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠].



(١٦) صفة الكمال (البقاء) الجلية



﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قال تعالى: ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: البقاء هو: الدَّوام، وهو ثبات الشيء على حاله الأولى، وهو يُضَادُّ الْفَنَاءَ، والباقي ضربان:

الأول: باقٍ بنفسه لا إلى مُدَّة، وهو الباري ﷻ لا يصلح عليه الفناء.

وباقٍ بغيره: وهو ما عداه، ويصلح عليه الفناء... (٥).

ولا يُقال لغير الله ﷻ الباقي إلا مُضَافاً معلقاً بشيء (٦).

(١) «اشتقاق أسماء الله» (٤٦)، و«تفسير السمعاني» (٥٤/١)، و«الأسنى» (٣١٠).

(٢) انظر: «تفسير السعدي» (١٧٩/١)، و«شأن الدعاء» (١٠٢)، و«الاعتقاد» للبيهقي (٦٨).

(٣) ثبت عن مجاهد انظر: التفسير الصحيح (١١٥/١).

(٤) ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما المصدر السابق.

(٥) «المفردات» (١٣٨).

(٦) كقوله: زيد الباقي بعد عمرو، لأنه عاش بعده، ويقاؤه إلى أمد ثم ينقضي. «اشتقاق أسماء الله» (٢٠٠).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: الله تبارك وتعالى هو الباقي: الموصوف بالبقاء الذي لا نهاية له، الذي لا يعرض عليه زوالٌ بحال من الأحوال، فبقاؤه سبحانه غير مُتَنَاهٍ ولا محدود، بل هو دائمٌ على الآباد بغير انتهاء.

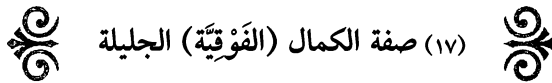
وصفة بقاءه سبحانه ودوامه ليست كبقاء الجنة، والنار، ودوامهما، لأنَّ بقاءه تعالى أبديٌّ أزليٌّ، وبقاء الجنة والنار أبدي غير أزليٍّ، فالأزلي لم يزل، والأبدي ما لا يزال، والجنة والنار كائنتان بعد أن لم تكونا^(١).

فالجنة والنار ومَن فيهما باقيتان بإبقائه سبحانه، أما هو «سبحانه الحي الذي لا يموتُ أبداً»^(٢).

لأن بقاءه تعالى من نفسه لا من غيره، أما بقاء غيره فمنه تعالى وحده.

قال الشيخ العلامة محمد بن إبراهيم آل الشيخ: «البقاء من صفات الله، فإذا أسند إلى إنسان، فهو من الشُّرك»^(٣).

هذا إذا لم يكن مُضافاً مُعلّقاً بشيء، كما تقدم في المعنى اللغوي، كأن تقول: زيد الباقي بعد عمرو، ولا يجوز أن تقول: زيد الباقي، بدون إضافة ولا تقييد.



(١٧) صفة الكمال (الْفَوْقِيَّة) الجليلة

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: ١﴾ قال تعالى: ﴿وَهُوَ أَلْفَاهُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨].

(٢) وقال عز شأنه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠].

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: فوق: هو من ظروف الأمكنة المُقابل للتحت، وتستعمل في المكان، والزمان، والمنزلة، والشرف، وغير ذلك، وذلك أضرب:

الأول: باعتبار العُلُو: ﴿قُلْ هُوَ أَلْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، ولهذا قابله سبحانه بقوله: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾.

(١) انظر: «الحجة في بيان المحجة» (١/١٤٠)، و«شأن الدعاء» (٩٦).

(٢) تفسر ابن كثير (٣٧٨/٨).

(٣) «الفتاوى والرسائل» (١/٢٠٧).

والثاني: زيادة الفضيلة، والرتبة، والمنزلة، وغير ذلك.

والثالث: باعتبار القهر والغلبة^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: يوصف ربُّنا ﷺ بالفوقية العلية المطلقة من كل وجهٍ واعتبار، فله سبحانه فوقية:﴾

(١) العلو والارتفاع بذاته فوق الأرض والسموات، مستوٍ على عرشه فوق كلِّ المخلوقات.

(٢) وفوقية القدر، والصفات، فهو موصوف بكلِّ صفات الكمال، لا تفوته صفةٌ واحدة منها، ولا يطيق أحدٌ من العباد واحدة منها.

(٣) وله فوقية الغلبة والقهر: فهو الغالب الذي لا يُغلب، والقاهر الذي لا يُقهر، الذي دانَّت له كلُّ الكائنات بأسرها، فلا يتحرك منهم متحرك، ولا سكن ساكن إلا بإذنه^(٢).

(١٨) صفة الكمال (رؤية الله) جلَّ جلاله

إنَّ رؤية الله تبارك وتعالى في الدار الآخرة، هي أشرف المسائل، وأسمى المراتب، وأعلى الأماني، وأعلى النعيم والهنى في جنات الله تعالى العُلا.

«فهي الغاية التي شَمَّر إليها المُشمرون، وتنافس فيها المُتنافسون، وتسابق إليها المُتسابقون، ولمثلها فليعمل العاملون، إذا نالها أهل الجنة، نسوا ما هم فيه من النعيم، وحرمانها والحجاب عنها لأهل الجحيم، أشد عليهم من عذاب الجحيم، اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، وجميع الصحابة، والتابعون، وأئمة الإسلام على تتابع القرون»^(٣).

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾﴾ [القيامة: ٢٢ - ٢٣].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: عن جابر بن عبد الله ؓ أنه قال: كنا جُلوساً عند النبي ﷺ، إذ نظر إلى القمر ليلة البدر فقال: «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ عَيَانًا، كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس، وصلاة قبل غروب الشمس فافعلوا»^(٤).

(١) انظر: «عمدة الحفاظ» (٢٥٧/٣).

(٢) «فتح الرحيم الملك» (٢٩) يتصرف.

(٣) «حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح» (٣٦١).

(٤) صحيح البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣). وفي رواية: عن أبي هريرة ؓ، أن ناساً قالوا لرسول الله ﷺ: يا رسول الله! =

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: إِنَّ رُؤْيَا اللَّهِ تَعَالَى فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ قَدْ أَجْمَعَ عَلَيْهَا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَرُؤْيَا سُبْحَانِهِ فِي الْآخِرَةِ تَكُونُ فِي مَكَائِنَ:

الأول: «فِي عَرَصَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

الثاني: تَكُونُ بَعْدَ دُخُولِ الْجَنَّةِ»^(١).

فالأولى رؤْيَا: هَيْبَةٌ، وَإِجْلَالٌ، وَاجْتِبَارٌ^(٢).

والثانية رؤْيَا: حَبْرَةٌ وَتَنْعِيمٌ، لَيْسَ لِسُرُورِهَا وَنَعِيمِهَا مِثْلُ، رِزْقِنَا اللَّهُ تَعَالَى وَإِيَّاكُمْ لَذَّةِ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِهِ الْكَرِيمِ - آمِينَ -.

وقد فسر سيد الأولين والآخرين نبينا محمد ﷺ الذي ليس بعد تفسيره تفسير، قوله تعالى: ﴿لَّذِينَ أَحْسَنُوا لِحُسْنَى وَزِيَادَةٍ﴾ بأن الحُسْنَى: هي الجنة، والزيادة: النظر إلى وجه الأعلى سبحانه^(٣)، ومن الأدلة السنية في رؤْيَا رَبَّنَا الواردة في الدارة الأخروية قوله: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ﴾ إلى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ^(٤)، فجمع سبحانه لأوليائه من النعيم كما في الآية التي تقدّمت: جمال الظاهر والباطن، فزَيَّنَ وجوههم بالنَّصْرَةِ، وبواطنهم بالنَّظَرِ إليه، فلا أجمل لبواطنهم، ولا أنعم، ولا أحلى من النظر إليه^(٥).

وقد أخبر ﷺ كما تقدم في الأحاديث أن المؤمنين سَيَرُونُ اللَّهَ تَعَالَى حَقِيقَةً رُؤْيَا عَيْنٍ «إِنَّكُمْ سَتَرُونَ رَبَّكُمْ عَيْنًا»، قوله: (عَيْنًا): بكسر العين؛ أي: رؤْيَا حَقِيقَةً لَا خَفَاءَ فِيهَا، وقوله: «كما ترون القمر»: أشار إليه زيادة في البيان، والتأكيد، والتحقيق، على أن المؤمنين يرون ربهم تعالى رؤْيَا حَقِيقَةً بِالْأَبْصَارِ، وقوله: «لَا تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَا»: تضامون: بفتح التاء، وضمها، والمعنى: لا يضر بعضهم بعضاً في رؤْيَا اللَّهِ تَعَالَى، فيراه بعضهم، ويحجب عن رؤْيَا آخرون منهم، بل يراه كل المؤمنين رؤْيَا واضحة، كوضح الشمس والقمر.

= هل نرى رَبَّنَا يومَ الْقِيَامَةِ؟ فقال رسول الله ﷺ: «هل تُضَامُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ؟» قالوا: لا، يا رسول الله. قال: «هل تُضَامُّونَ فِي رُؤْيَا الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ؟». البخاري (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢) واللفظ له. وانظر حديث صهيب في صفة الوجه.

(١) «شرح صحيح مسلم» لابن عثيمين (٣٨٤/١).

(٢) سيأتي بيانه في صفة الفعل (التجلي) رقم (٧٦).

(٣) تقدم في صفة (الوجه) ذكر تفسير هذه الآية الكريمة من سعة المصطفى ﷺ.

(٤) «البيان في أقسام القرآن» (١٩٨).

وقوله في الحديث الآخر: «لا تُضَارُونَ» بضم أوله، وبالضاد، وتشديد الراء، بصيغة المفاعلة من الضرر، أي: لا تضرون أحداً، ولا يضركم بمنازعة، ولا مضايقة.

وقوله: «كما ترون هذا القمر»: الإشارة إلى القمر تلك الليلة التي هي ليلة البدر، والقمر فيها أتم وأوضح ما يكون، فشبهه ﷺ رؤية المؤمنين ربهم برؤيتهم القمر في تلك الليلة في تمامه واستوائه ووضوحه...، وهذا يدل على أن رؤية الله تبارك وتعالى رؤية عيانية، جلية، لا لبس فيها، ولا خفاء^(١).



(١٩) صفة الكمال (السُّلْطَان) الجليلة



✽ السُّنَّة النَّبَوِيَّة: كان ﷺ إذا دخل المسجد يقول: «أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسُلْطَانِهِ القديم، من الشيطان الرجيم» فإذا قال ذلك، قال الشيطان: حُفْتُ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ^(٢).

✽ الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: السُّلْطَان: الْحُجَّةُ وَالْبُرْهَان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾؛ أي: حجة وبينه، وقال تعالى: ﴿فَأَنفُذُوا لَا نَفْذُوتَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾؛ أي: حيثما كنتم شاهدتم حجة الله تعالى، لذلك قيل للأمراء: سلاطين، لأنهم الذين تُقام بهم الحجة، والحقوق. والسلطة: التمكن من القهر، ومنه السُّلْطَان، لأنه يتمكن من قهر رعيته على ما يريد. والسُلْطَان: الوالي، والجمع سلاطين، وهو: قدرة الملك، وقدرة من جعل ذلك له، وإن لم يكن ملكاً^(٣).

فالسُّلْطَان في القرآن يطلق على وجهين: المُلْك، والقهر، والحجة^(٤).

✽ الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: يوصف ربنا الجليل بالسُّلْطَان العظيم القديم الأزلي الذي ليس له ابتداء، كما أنه ليس له انتهاء، دائم بدوامه سبحانه على الآباد.

فهو سبحانه «الذي استوى على العرش واحتوى على الملك، يدبر الأمر في أقطار العلوي والسفلي»^(٥).

(١) «شرح كتاب التوحيد» للغنيمان (١/٣٦٧ - ٣٧٣).

(٢) صححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٤٦٦).

(٣) «عمدة الحُفَاط» (٢/٢١١)، و«كتاب العين» (٢/٢٦٤).

(٤) «الأشباه والنظائر» (١٦٧).

(٥) «الحق الواضح» (٢٣).

فلا يملك أحدٌ رَدَّ مشيئته، أو نقض تدبيره، أو الخروج عن سُلْطانه، وتقديره، فكل المخلوقات قد خضعت في حركاتها، وسكناتها، وما تأتي وما تذر لملكها ومدبرها، فليس لها من الأمر شيء، ولا من الحكم شيء، بل الأمر كله لله، والحكم الشرعي، والقدري، والجزائي كله لله تعالى، لا حاكم إلا هو، ولا رب سواه، ولا إله سواه^(١).

﴿٢٠﴾ صفة الكمال (السَّاعِد) الجَلِيلَة

﴿السُّنَّة النَّبَوِيَّة﴾: قال ﷺ: «... فَإِنَّ مَا آتَاكَ اللَّهُ ﷻ لَكَ، وساعد الله أشد، وموسى الله أحد»^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: السَّاعِد: ما بين المرفق والكف، وسمي ساعداً لأنه يُساعد الكَفَّ في بطشها، وعملها، والسَّاعِد هو العضد»^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: السَّاعِد من صفات الله تعالى الذاتية العَلِيَّة، والتي تليق بِكَماله، وَجَلاله، وعظمته، لا تشبه سوا عد خلقه، كصفة اليد، والكَفَّ، والأصابع وغيرها من الصِّفَات، ولهذا ينبغي للمؤمن الموحد أن لا يستوحش هذه المعاني الجليلة من الصفات، بدعوى مشابهة ذلك بالمخلوقات، فإنه كما أثبتنا أن الله تعالى ذاتاً لا كالدَّوات، فكذلك ثبت كل ما جاء عن الله تعالى في كتابه، وعن رسوله ﷺ في سنته، من كماله الأعلى في الصِّفَات.

فقد أخرج عبد الله ابن الإمام أحمد في كتابه الجليل «كتاب السنة» أثرًا عن الخليفة عمر رضي الله عنه قال: «إذا جلس الرب ﷻ على الكرسي» فاقشعرَّ رجلٌ سماه أبي (يعني الإمام أحمد)، فغضب وكيع، وقال: أدركنا الأعمش وسفيان الثوري يحدثون بهذه الأحاديث ولا ينكرونها»^(٤).

قال القاضي أبو يعلى رَحِمَهُ اللهُ: «اعلم أنَّه غير ممتنع حملُ الخبر على ظاهره في إثبات السَّاعِد صفة لذاته، كما حملنا قوله تعالى: ﴿لَمَّا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ على ظاهره، وأنها صفة

(١) «فتح الرحيم الملك» (١٧).

(٢) رواه أحمد في المسند (١٥٨٨٨)، وقال شعيب الأرنؤوط: «صحيح على شرط مسلم» (٢٢٤/٢٥). وفي رواية: «فكل ما آتاك الله لك حل، ساعد الله أشد من ساعدك، وموسى الله أحد من موساك». صححه الألباني في «صحيح موارد الظمان» (٤٤٥/١)، وفي «التعليق الرغيب» (١٠٤/٢).

(٣) «المصباح المنير» (١٦١).

(٤) «كتاب السنة» رقم (٥٧١) (ص ٢٥٩)، ورواه الذهبي في «العلو» رقم (٣٩٢) (١٠٣٤) عن أحمد بن حنبل، عن الوكيل عن إسرائيل ثم ذكر الحديث: «إذا جلس الرب...».

ذات، إذ ليس في ذلك ما يحيل صفاته ولا يخرجها عما تستحق...»^(١).

وقال رَحِمَهُ اللَّهُ مَبِينًا أن قوله ﷺ «وموسى الله أحد من موساك»: «أنه ليس من الصفات، وإنما لم يجب حمل موسى على أنه صفة للذات كالسَّاعد، لأنَّ موسى آله، والآلات لا تكون صِفَاتًا للذات، وليس كذلك السَّاعد...»^(٢).



(٢١) صفة الكمال (الواجد) الجَليلة



﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قَالَ رَبُّ الْعَالَمِينَ: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾﴾ [الأعراف: ١٠٢]^(٣).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: فِي الْحَدِيثِ الْقَدْسِيِّ: «... إِنْ اللَّهُ يَقُولُ: ذَلِكَ بَأْنِي جَوَادٌ وَاجِدٌ مَا جَدْتُ أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ، عَطَائِي كَلَامٌ، وَعَذَابِي كَلَامٌ، إِذَا أُرِدْتُ شَيْئًا فَإِنَّمَا أَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»﴾^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الْوَجْدُ: السَّعَةُ فِي الْمَالِ، وَالْمَقْدَرَةُ عَلَيْهِ، وَيُقَالُ: وَقَدْ وَجَدَ يَجِدُ جِدَةً، أَي: اسْتَغْنَى غَنًى لَا فَقْرَ بَعْدَهُ، وَفِي الْحَدِيثِ: «لِيُّ الْوَاجِدِ ظَلَمٌ»، أَي: مَطْلُ الْغَنِيِّ ظَلَمٌ، وَالْوَجْدُ: اللَّقِيَةُ وَالرُّؤْيَا، يُقَالُ: وَجَدَ ضَالَّتَهُ يَجِدُهَا وَجِدَانًا، إِذَا رَأَاهَا وَلَقِيَهَا»^(٥).

والوجد: العلم، قال تعالى: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ﴾ [النور: ٣٩]، أَي: عِلْمُهُ، يُقَالُ: وَجَدْتُ فَلَانًا عَالِمًا، أَي: عَلِمْتُ كَوْنَهُ كَذَلِكَ، وَقَدْ يَكُونُ بِمَعْنَى: الْوُجُودِ^(٦).

(١) «إبطال التأويلات» (٣٤٤/٢).

(٢) وله كلام نفيس، أرجع إليه غير مأمور. المصدر السابق (٣٤٥/٢ - ٣٤٦). ومِمَّنْ أثبت هذه الصفة الجَليلة من المتقدمين ابنُ مَنْهَ رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «الرَّدُّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ» (٨٠). وكذلك الملطي في «التبيين والرد» (١٤٤) بواسطة «صفات الله الواردة» لعلوي السقاف (٢٠٨). ومِمَّنْ ذَكَرَ هذه الصفة وأثبتها الشيخ عبد الكريم الخضير، قال حفظه الله: «... وبشئ الله جلَّ وعلا هذه الصفة يمثل هذا الخير» في شرحه لصحيح مسلم، كتاب الحج، كما هو مسجل في أحد المواقع الإلكترونية.

(٣) وقال جلَّ جلاله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۖ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٦ - ٨]، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [هود: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ ضَالًّا﴾ [ص: ٤٤].

(٤) أخرجه أحمد في المسند (٢١٣٦٧) (٢١٣٦٩) (٢١٥٤٠) وصححه محققو المسند (٢٩٤/٣٥، ٢٩٧، ٤٢٨).

(٥) «عمدة الحفاظ» (٢٨٤/٤)، و«النهاية» (٩٦٠).

(٦) «إبطال التأويلات لأخبار الصفات» للقاضي أبي يعلى الفراء (٦٧٩)، و«الاعتقاد» (٥٤) للبيهقي، و«تلخيص الأدلة لقواعد التوحيد» لأبي إسحاق إبراهيم الصفار البخاري (٦٤٤/٢).

❁ المَعْنَى فِي الشَّرْع: الله تبارك وتعالى هو الذي لا يؤوده طلب، ولا يحول بينه وبين المطلوب هرب، فالخلق كلهم في قبضته يتقلبون، وعلى مشيئته يتصرفون، ولا يعجزه شيء، وهو سبحانه الذي لا يضل عنه شيء، ولا يفوته شيء، ولا يعجزه شيء، وهو العالم الذي لا يغيب عنه شيء، وهو الغني الذي لا يفتقر^(١)، والكل دونه محتاج إليه في كل شأن وأمر "فهو سبحانه الموجود الواحد على الإطلاق، وجميع الموجودات من إيجاده، وهو تعالى له الوجود من ذاته لذاته في الأزل"^(٢).

وهو تعالى الذي لا يعجزه عن إبراز أي شيء في عالم الظهور والعيان، فهو سبحانه الذي لا يحتاج إلى شيء، وكل الكمالات موجودة له، وهو وحده نافذ المراء، وجميع أحكامه لا نقض فيها لغيره ولا إبرام، وكل ما سوى الحق تعالى لا يسمى واجداً، وإنما يسمى فاقداً، فإنه إن وجد فيه بعض الكمالات، فهو فاقد للكثير منها^(٣) في غالب الحالات.



(١) ينظر: «الحجة في بيان المحجة» (١٥٠/١١)، و«تفسير الأسماء» (٥٧)، و«شأن الدعاء» (٨١)، و«الأسماء والصفات» (١٩٦/١)، و«الاعتقاد» (٥٤).

(٢) «الأسنى» (٣٢٣).

(٣) انظر: «حاشية د. محمد الرشيدى على شرح أسماء الله الحسنى» لأبي العباس البرنسي (١٠٠).

القسم الثاني: الصفات الفعلية

القواعد والضوابط

❖ القاعدة الأولى: (أفعال الربِّ صادرة عن أسمائه وصفاته، وأسماء المخلوقين صادرة عن أفعالهم)^(١).

إن أفعال ربنا سبحانه كلها عن كماله، فالرب لم يزل كاملاً، فحصلت أفعاله عن كماله، لأنه كاملٌ في ذاته، وأفعاله صادرة عن كماله، كمل ففعل، وهذا بخلاف المخلوق، فإن كماله من فعله، فعل فكمّل الكمال اللائق به^(٢).

ولهذا فإن أفعاله تعالى بكل أجناسها وأفرادها ترجع إلى أمرين جليلين:

أولاً: أفعال تدلُّ على الإحسان، والإنعام، والبرِّ، والرِّشد، والهدى.

ثانياً: أفعال تدل على الحكمة، والعدل، والإنصاف^(٣).

الضابط الأول: هي الصفات التي تقوم بذاته، بِمَشِيئته، وقدرته، وإرادته، في كلِّ وقتٍ، وأن، وزمان، فتحدث إذا شاء، عند وجود أسبابها، كاستوائه على عرشه، ونزوله كل ليلةٍ إلى السماء الدنيا، والخلق، والمحبة، والرِّضا، والغضب، والسخط، وهي تنفك عن الله تعالى؛ أي: إنَّ الله تعالى ربُّما اتصف بها في حالٍ دون حالٍ، بمعنى: إن شاء سبحانه فعلها، وإن شاء لم يفعلها^(٤).

الضابط الثاني: أن «صفات أفعاله متصفة بها الذات، ومتعلقة بما ينشأ عنها من الأقوال، والأفعال»^(٥) التي لا حصرَ لها.

(١) «بدائع الفوائد» (١٦٣/١).

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (١٢٥/١، ٤١٧)، و«شرح النونية» للهراس (٤٥٦/٢) بتصرف.

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٤٩/٦، ٢١٧)، و«شرح العقيدة الطحاوية» (١٢٧)، و«الحق الواضح» (١٥٠)، و«الكواشف الجلية»

(٢٥٨)، و«الصفات الإلهية» للجامي (٢٠٦)، و«شرح الواسطية» لابن السعدي (٣٢٨/١)، ولابن باز رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (٣٢٧/٢)،

و«تفسير سورة البقرة» لابن عثيمين (٢٥١/١).

(٥) «الحق الواضح» (١٠١).

❖ القاعدة الثانية: (الصفات الفعلية أزلية النوع ، حادثة الآحاد).

أي: إن صفات الله تعالى الفعلية أزلية كالصفات الذاتية، كما أن ذاته العلية كانت قبل الخَلِقة ، فكَذلك أفعاله تحذو حذوها .

ومعنى (حادثة الآحاد) ؛ أي: أنها تتجدد وتحدث أفرادها شيئاً فشيئاً، تبعاً لحكمة رَبِّنا ﷻ، مثل: صفة (الخلق): تحصل أفرادها شيئاً فشيئاً، فخلق العرش مثلاً وقته متقدم على خلق السموات والأرض، وهكذا خلقهما متقدماً على خلق آدم، ونحو ذلك، فهو تعالى لم يتصف بصفة لم يكن موصوفاً بها في الأزل، بل هو لم يزل ولا يزال متصفاً بها^(١).

قال الطحاوي رحمه الله: «ما زال بصفاته قديماً قبل خلقه» «وكما كان بصفاته أزلياً، كذلك لا يزال عليها أبدياً، ليس بعد الخلق استفادَ اسم الخالق، ولا بإحداث البرية استفادَ اسم الباري»^(٢).

فهو تعالى لم يزل ولا يزال يقول، ويتكلم، ويخلق، ويدبر الأمور، وإن أفعاله الجليلة تقع شيئاً فشيئاً تبعاً لحكمته، وإرادته، فإن شرائعه وأوامره، ونواهيه الشرعية لا تزال تقع شيئاً فشيئاً^(٣).

❖ القاعدة الثالثة: (صفات الأفعال كلها متعلقة وصادرة عن ثلاث صفات).

ثبت باستقراء أدلة الكتاب والسنة: «أن صفات الأفعال كلها متعلقة، وصادرة، عن هذه الصفات الثلاثة: القدرة الكاملة، والمشيئة النافذة، والحكمة الشاملة النامة، وهي كلها قائمة بالله تعالى، والله متصف بها، وآثارها، ومقتضياتها جميع ما يصدر عنها في الكون كله من التقديم، والتأخير، والنفع والضّر، والعطاء والجّرمان، والخفض والرفع، لا فرق بين محسوسها، ومعقولها، ولا بين دينها ودنياها، فهذا معنى كونها أوصاف أفعال»^(٤).

❖ الضابط الثالث: «كل صفة علقت على سبب فهي من الصفات الفعلية».

(١) قال الإمام العالم عثمان بن سعيد الدارمي رحمه الله: «اسمه كأسمائه سواء، لم يزل كذلك، ولا يزال، لم تحدث له صفة ولا اسم لم يكن، كذلك قبل الخلق كان خالقاً قبل المخلوقين، ورازقاً قبل المرزوقين، وعالماً قبل المعلومين، وسميعاً قبل أن يسمع أصوات المخلوقين، وبصيراً قبل أن يرى أعيانهم مخلوقة». «نقض عثمان بن سعيد الدارمي على المريسي الجهمي» (١٠٢).

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» (١٢٧، ١٣٧).

(٣) «شرح الواسطية» لابن السعدي (٣٢٨/١).

(٤) «توضيح الكافية» (١٣١).

الصفات الفعلية كلها تتعلق بالمشيئة، ووجه كونها تتعلق بالمشيئة أنها مربوطة أو معلقة بالسبب، إذ إن السبب واقع بمشيئته، والسبب هو الذي عقلت به الصفة، فتكون الصفة إذن واقعة بمشيئته، وعلى هذا فنقول: الرضا من الصفات الفعلية لأن لها سبباً معلوماً، فمتى وجد سبب الرضا (من الأقوال، والأفعال، والأشخاص، والأحوال) وجد الرضا، وهكذا صفة الغضب، والسخط، والمحبة، (والمقت، والانتقام، والبطش، والأخذ) فهي كلها من الصفات الفعلية، لأنها توجد بوجود ذلك السبب، وتنتفي بانتفائه^(١).

* الضابط الرابع: «كل فعلٍ علّقه الله تعالى بالمشيئة فإنه مقرونٌ بالحكمة».

الله سبحانه فعال لما يريد، كيف يريد، ومتى يريد، وفي أي وقتٍ يريد، وهذا من كماله الذي لا منتهى له سبحانه، ومع أنه الفعال لما يريد، فلا يريد إلا ما اقتضته حكمته، وحمده، فجميع أفعاله تابعة لحكمته، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠] (٢).

❁ القاعدة الرابعة: (الله تعالى موصوفٌ بالفعل اللازم، وموصوفٌ بالفعل المتعدي).

صفات الأفعال من جهة تعلّقها بمتعلّقها (ثلاثة أنواع):

* النوع الأول: صفات متعدية، وهي ما تعدّت لمفعولها بلا حرف جرّ، أي: ما كان قائماً بذات الله، ولها تعلق وأثر على المخلوق، مثل: الخلق، والرّزق، والهداية، والإضلال، والمنع، والعطاء، والإحياء، والإماتة، والقَبْضُ، والبسط، والنّصر، وأنواع التدابير الكونية، والشرعية، وغيرها ممّا لا يُحصى، وهذا النوع متعلّق بالمخلوقات.

* النوع الثاني: اللازمة؛ أي: غير متعدية، أي: قائمة بالفاعل، وهي: ما تعدّى لمفعولها بحرف جرّ، كالاستواء، والمجيء، والإتيان، والنّزول، والفرح، والعجب، فهذه الصفات الجلية لازمة لم يفعلها سبحانه في غيره، فهي متعلقة بذاته المقدسة العظيمة.

(النوع الثالث: ما يجمع النوعين السابقين، أي: صفات فعلية متعدية، وفعلية لازمة مثل صفة (الضحك): قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾ [النجم: ٤٣]، "فهو سبحانه المضحك

(١) انظر: «شرح الواسطية» (١٨٤/١)، و«تفسير سورة آل عمران» (١٠٥/١)، و«تفسير سورة النساء» (١٨٩/٢)، و«سورة فاطر» (١٥٠/٨)، و«سورة الصافات» (٤٢) لابن عثيمين.

(٢) «فتح الرحيم الملك» (٢٧)، و«شرح صحيح البخاري» لابن عثيمين (١٦١/١).

المبكي حقيقة، أضحك في الدنيا، وفي الآخرة من شاء من عباده^(١). وعلى هذا التعلق من الأفعال المتعدية، وأنه تعالى هو يَضْحَك متى وجدت أسبابه كما سيأتي، فهو من الأفعال اللازمة، فربنا سبحانه يَضْحَك ويَضْحَك كما يليق بجلاله.

ومن الصفات كذلك صفة (المحبة)^(٢)، و(الكره)^(٣)، و(الرضا)^(٤)، و(البغض)^(٥) و(الصبر)^(٦) و(٧).

وإنما قسمت كذلك: نظراً للاستعمال القرآني والسنة من جهة، ولكونها في اللغة كذلك، وقد جمع هذين النوعين سبحانه في قوله: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الحديد: ٤]^(٨)، ف(خلق السموات والأرض) من الأفعال المتعدية لتعلقها بالمخلوقين، (ثم استوى على العرش) من الأفعال اللازمة القائمة بذاته العلية، لا يتعدى إلى غيره.

وينبغي أن يُعلم أن صفات الله تعالى المقيّدة على وجه المُقابلة بالجزاء كما سيأتي كلها صفات مُتعدية، والله سبحانه أعلم.

✽ الضابط الخامس: «وجوه الاختلاف بين صفات الذات، وصفات الفعل».

«الأول: إن الصفات الذاتية تعتبر من لوازم الذات، لا تنفك عنها بأي حال».

أما الصفات الفعلية ليست من لوازم الذات، ويمكن أن تنفك عنها، بمعنى: أن الله تعالى إن شاء فعلها، وإن شاء امتنع عنها.

الثاني: إن الصفات الذاتية لا تتعلق بالمشيئة، والإرادة، والقدرة، أما الصفات الفعلية تتعلق بالمشيئة، والإرادة، والقدرة، متضمنة للحكمة في كل أوجهها.

الثالث: إن صفات الذات لا ضد لها ولا مُقابل، أما صفات الفعل فلها ضد ومُقابل،

(١) «شفاء العليل» (٤٩١/٢)، وتفسير سورة النجم (٢٤٨) لابن عثيمين.

(٢) قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧].

(٣) قال تعالى: ﴿وَكَرِهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْإِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧].

(٤) كما في الحديث «فقال الله: يا جبريل! اذهب إلى محمد وقل له: إنا سنرضيك في أمك ولا نسوؤك» مسلم (٢٠٢).

(٥) قال ﷺ: «وإذا أبغض الله عبداً دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلاناً فأبغضه، فيبغضه جبريل... الحديث» مسلم (٢٦٣٧).

(٦) قال ﷺ: «... ومن يتصبر يصبره الله...» البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

(٧) ما بين المعقوفين من كلامي واجتهادي والله أعلم.

(٨) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢٣٣/٦)، و«مختصر الصواعق المرسلة» (٢٢٩/٢) (٢٥٤/٢)، و«توضيح الكافية» (١٣٢)،

و«تفسير سورة آل عمران» (٢٥١/١) لابن عثيمين، و«اللائحة البهية» في «شرح العقيدة الواسطية» لإصالح آل الشيخ (٣٩/٢).

فالذات مثل: (الحيّ)، والفعل مثل: (المُحيي).

الرابع: إنّ صفات الذات ليس متعلّقة بسبب، أما صفات الأفعال فهي مقترنة ومتعلّقة بالأسباب.

الخامس: إنّ مرجع صفات الذات إلى اسمه (الحيّ)، وأما صفات الفعل فهي ترجع إلى اسمه (القيوم).

السادس: إنّ الصفات الذاتية متعلّقة بالذات، والصفات الفعلية متصفة بها الذات، ومتعلّقة بما ينشأ عنها من الأقوال، والأفعال.

السابع: إنّ صفات الذات ثابتة بالشرع والعقل، أما صفات الأفعال فمنها: ما هو ثابت بالعقل والشرع، كالخلق، والرّزق، (والإحسان، والإكرام، والرّحمة، والحكم، والانتقام، والسّرعة، والشفاء، وغيرها)، ومنها ما هو بالشرع، وإن كان العقل لا يدلّ على خلاف ما دلّ عليه الشرع، كالاستواء، والنّزول إلى سماء الدنيا^(١)، والحياء، والبشاشة، والعجب، واستطابة الرّوائح، والمسح، وغيرها.

والمقصود وجه الاختلاف بين صفات الذات، والفعل هنا: هو الصفات الذاتية المحضّة، الذي ليس لها تعلق بالمشيئة أبداً، كما سيأتي في القسم الثالث من ذكر «الصفات الذاتية والفعلية» بالتفصيل أن هناك صفات متضمنة لنوعي الصفات الجليّة الثبوتية الذاتية والفعلية.

✽ الضابط السادس: «وجه التشابه بين صفات الذات والفعل».

الأول: إنّ كلا النوعين يجتمعان في أنّهما صفات لله تعالى، موصوف بهما سبحانه أزلاً، وأبداً، لم يتصف بصفة لم يكن متصفاً بها قبل.

الثاني: إنّ كلا النوعين يرجعان إلى أسمائه الحسنى، بمعنى: أنه كما سبق يرجع أحدهما وهو صفات الذات إلى اسمه (الحيّ)، والفعل إلى اسمه (القيوم).



(١) انظر: «شرح العقيدة الطحاوية» (١٢٧) و«الحق الواضح» (١٠١) و«الكواشف الجلية» (٧٤) و«القواعد الكلية للأسماء والصفات» (٩١-٩٢)، و«المفسرون بين التفويض والإثبات» د. المغراوي (١١٧/١-١١٨)، و«الصفات الإلهية» للتميمي (٦٥).

أقسام الصفات الفعلية

تنقسم صفات ربنا العظيم الفعلية كما تقدم إلى قسمين:

القسم الثاني: صفات فعلية مطلقة^(١).

القسم الأول: صفات فعلية مقيدة^(٢).

الصفات الفعلية المطلقة

هذا القسم الأول من صفات ربنا تعالى الفعلية، وهي أوسع من الصفات المقيّدة^(٣).

القواعد

❖ القاعدة الأولى: (الفعل المضاف إلى الله تعالى ثلاثة أنواع: جنس، ونوع، وآحاد).

المقصود من هذه القاعدة بيان أنواع الصفات الفعلية المطلقة، من حيث أصلها؛ أي: ملازمتها للذات، ومن حيث ما ينشأ عنها من أنواع، وأفراد من الأفعال.

الأول: الجنس، وهو صفة أزليّة أبدية؛ أي: إن الله تعالى لم يزل ولا يزال فعالاً، فهو فعّال في الأزل، كما فعال في الأبد، فمثلاً الفعل جنس، يدخل فيه: الكلام، والنزول، والاستواء، والرزق، والإحياء، والإماتة، فهو جنس يشمل كلّ فعل يصدر من الله ﷻ، (فالله تعالى موصوف بهذه الصفات أزلاً، كما هو موصوف بها أبداً، لم يتصف ولم تحدث له صفات لم يكن متصفاً بها تعالى قبل).

الثاني: نوعي، وهو حادث متجدد، فمثلاً صفة «الكلام» كما تقدم أصلها أزلي، ولكن

(١) هي الصفات التي جاءت غير مقيدة على جهة الجزء، سواء كان الجزء: بالعقوبة، أو بالثبوت، مثل: الخلق، والإبداع، والإحياء، والإماتة، والتدبير، والرزق، والاستواء على العرش، والنزول إلى سماء الدنيا، والخط، والكتابة، والزراع، والكلام، وغيرها الكثير.

(٢) وهي قسمان كذلك: الأول: على جهة المقابلة بالجزء الحسن والثبوت، مثل: التجاوز والتيسير والتنفيس والإقالة والإيواء، وغيرها الكثير، والثاني: صفات مقيدة على جهة المقابلة بالجزء في العقوبة، مثل: الكيد والمكر والفضح، والاحتجاب والإهانة وغيرها الكثير.

(٣) بأضعاف مضاعفة بل لا تحد، ولا تعد.

الكلام أنواع منه: خبر، استخبار، أمر، نهي، وهذه كلها أنواع لصفة الكلام، فعليه تتجدد حسب مشيئته وحكمته سبحانه. ومثل: «الاستواء على العرش» مما حدث نوعه، فإن الله تعالى لم يستو على العرش قبل خلقه، لأننا لم نعلم فعلاً هو «الاستواء» إلا ما كان خاصاً بالعرش، وكذلك «النزول إلى السماء الدنيا كل ليلة».

الثالث: آحادي أو ضروري، فقد تقدم أن صفة «الكلام» لها أنواع: كالخبر، والاستخبار، والأمر، والنهي، وهذه الأنواع لها أيضاً آحاد، مثل قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ ﴿وَأَتُوا الزَّكَاةَ﴾ كلاهما أمر، فهما داخِلان في آحاد النوع «الأمر».

ومثل: صفة «النزول» كما تقدم، فهو حادث النوع، وحادث الآحاد أيضاً، لأن الله تعالى ينزل كل ليلة، والاستواء على العرش مطلق عام، ليس له حدّ (بَرَمَن) بليلة، ولا بيوم، ولا بأسبوع، أو شهر، لكن النزول متجدد، لأنه ينزل كل ليلة.

ومثل: «المجيء للفصل بين العباد»، و«النزول إلى السماء الدنيا عشية عرفة» و«الغضب» عند وجود سببه، و«الرّضا» عند وجود سببه، و«العجب» كذلك عند وجود سببه، وغيرها.

والله ﷻ يقوم به من الأفعال والأقوال التي لا يحيطها أحد، إلا هو ﷻ^(١).

❁ القاعدة الثانية: (الصفات الفعلية [من حيث تعلقها بالأسباب] نوعان).

تقدّم مراراً أن صفات الله تعالى الفعلية متعلّقة بمشيئته^(٢)، وكونها متعلّقة بالمشيئة أنها مربوطّة بسبب، ومعلوم أنّ الأسباب منها ما هو معلوم، ومنها ما هو مجهول، وعلى هذا فإنّ صفات الأفعال من حيث هذا التعلّق «نوعان:

الأول: صفات لها سبب معلوم، مثل: الرّضا، فالله ﷻ إذا وجد سبب الرّضى: رضى، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَنِّي عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]

النوع الثاني: صفات ليس لها سبب معلوم، مثل: التّزول إلى الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر^(٣).

(١) انظر: «شرح عقيدة أهل السنة والجماعة» (١٩٠)، و«تفسير سورة آل عمران» (١٢٩/١)، و«تفسير سورة النساء» (١٢٨/١)

(٢٢١/٢)، و«شرح القواعد المثلى» (١٢٣) لابن عثيمين.

(٢) تقدّم في الضابط الثالث في (ص ٨٣) أنّ «كل فعل علقه الله تعالى بالمشيئة فإنه مقرون بالحكمة».

(٣) «شرح العقيدة الواسطية» لابن عثيمين (١٨٣/١).

والنوع الأخير لا ينافي الحكمة في أفعاله كالأول، لأنه من اعتقاد أهل السُّنَّة والجماعة أنَّ أفعاله تعالى مُعلَّلة؛ أي: معلقة كلها بالحكم الباهرة، والغايات الحميدة، فبعض أحكام الله يُعَلِّم سببها، وقد يكون نسبي متفاوت بين العباد، وبعضها لا يعلم الحكمة فيها.

وهذا هو الاعتقاد الراسخ الصحيح في أفعاله سبحانه^(١). والله تعالى أعلم.

❁ القاعدة الثالثة: (صفات الأفعال تتفاوت وتتفاضل على قدر الأسباب المتعلقة بها)^(٢).

من الاستقراء في أدلة الكتاب وسنة خير العباد أن أفعال الله تعالى تتباين على قدر ما تقتضيه أسباب التعلق بها، فمثلاً محبته تعالى لأوليائه تتفاوت كما في الحديث: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»^(٣)، وكذلك "غضبه تعالى الذي سيكون في عرصات القيامة غير مسبوق بمثله، وغير ملحق بمثله"^(٤).

❁ (١) صفة الكمال (الاستواء على العرش) الجليلة ❁

❁ القرآن الكريم: قال عزَّ شأنه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]^(٥).

❁ السُّنَّة النبوية: (١) قال ﷺ: «يا أبا هريرة، إن الله خلق السموات والأرضين وما بينهما في ستة أيام، ثم استوى على العرش اليوم السابع»^(٦).

(٢) وقال ﷺ: «لَمَّا فَرَعَ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ، اسْتَوَى عَلَى عَرْشِهِ»^(٧).

❁ المَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الاستواء في اللغة: له أربع معانٍ: العلو، والارتفاع، والاستقرار، والصعود.

(١) للاستزادة انظر «الحكمة والتعديل في أفعال الله تعالى»، د. محمد بن ربيع المدخلي (٤٣).

(٢) تقدم في القاعدة العاشرة: (أن صفات الله تعالى تتفاضل فيما بينها). والمقصود هناك: التفاضل بين الصفة والأخرى، أما هنا فالتفاضل في الصفة نفسها.

(٣) مسلم (٢٦٦٣).

(٤) «اللائق البهية في شرح العقيدة الواسطية» (٣٦٩/١).

(٥) امتدح الله تبارك وتعالى نفسه بالاستواء على العرش، في سبع مواضع في القرآن الكريم: الأعراف (٥٤)، يونس (٣)، الرعد (٢)، طه (٥)، الفرقان (٥٩)، السجدة (٤)، الحديد (٤).

(٦) أخرجه النسائي في سننه الكبرى (٤١٢)، وقال الألباني رحمه الله في تعليقه على مختصر العلو للذهبي: «إسناده جيد» (ص ١١٢).

(٧) رواه الخلال في كتاب «السُّنَّة» وقال: «هذا حديث إسناده كلهم ثقات، وهم مع ثقتهم شرط الصحيحين مسلم البخاري، وصححه ابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» (١٠٧ - ١٠٨). انظر: كتاب العلو للعلي العظيم للذهبي رقم (١١٠) تحقيق ودراسة عبد الله بن صالح البراك (٥٢٤/١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «لفظ الاستواء في كلام العرب الذي خاطبنا الله ﷻ بلغتهم، وأنزل بها كلامه نوعان: مطلق، ومقيد، فالمطلق: ما لم يوصل معناه بحرف، مثل قوله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى﴾ [القصص: ١٤]، وهذا معناه: كَمُلَ، وتَمَّ . . . وأما المقيد: فثلاثة أضرب:

أحدها: مقيد بـ(إلى)، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، وهذا بمعنى العلو، والارتفاع بإجماع السلف.

الثاني: مقيد بـ(على)، كقوله تعالى: ﴿لَنَسْتَوْزُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ [الزخرف: ١٣] وكقوله سبحانه: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤]، وهذا معناه أيضاً: العلو، والارتفاع، والاعتدال، بإجماع أهل اللغة.

الثالث: المقرون بواو المعية، التي تعدى الفعل إلى المفعول معه، نحو: «استوى الماء والخشبة» بمعنى: ساواها^(١).

وقد ورد في تفسير معنى الاستواء عن كبار التابعين، فعن مُجاهد رَحِمَهُ اللهُ أنه قال في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف: ٥٤]: «علا على العرش»^(٢).

وعن أبي العالية الرياحي أنه قال في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ٢٩]، يقول: ارتفع^(٣)، وكذلك عن الربيع بن أنس^(٤).

العرش: في اللغة له معنيان:

الأول: سرير الملك، يدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَوْتَيْتَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣].

الثاني: سقف البيت، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]^(٥).

فدلَّ مما ذكره أهل اللغة: أن العرش اسم للسيرير المرتفع، الذي يجلس عليه الملك،

(١) «مختصر الصواعق» (٣٢٠)، و«الرد على الجهمية» لابن قتيبة (٩٠)، وانظر شرح التوبة للهراس (٢١٥/١).

(٢) البخاري (٤١٣/١٣).

(٣) «التفسير الصحيح» (١٣٢/١).

(٤) «تفسير الطبري» (٤٢٩/١)، وانظر: أقوال التابعين في التوحيد (٩٧٤/٣).

(٥) «تهذيب اللغة» (٤١٣/١).

ويطلق على السَّقْف، وعرش الله جَلَّ وعلا له المَعْنَيَان: فهو محلّ استوائه تعالى، وهو سقف المخلوقات^(١).

﴿المَعْنَى فِي الشَّرْع﴾: وصف رَبَّنَا العظيم نفسه بصفة الاستواء على العرش في سبع مواضع، وهي من الأفعال اللازمة، لأنه كما تقدم «أن أقسام الصفات الفعلية من جهة التعلق قِسْمَان: الأول: متعدية: كالخلق، والرِّزْق، والإعطاء، والثاني: اللازمة: كالنزل، والاستواء...»^(٢)، ومعنى متعدية: أنها تتعدّى إلى المخلوقات، والاستواء هو: العلوّ والارتفاع؛ أي: علا على عرشه كما يليق بجلّاله، وكَمّاله، ولِحكَمته، فهو سبحانه «استوى على العرش ليس لِحاجته إليه، بل له في ذلك حكمة اقتضته، فهو الغنيُّ عن كلِّ شيء، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، فهو تعالى فوق العرش، مع حمله بقدرته للعرش، وحملته، وغناه عن العرش، وفقر العرش إليه، وإحاطته بالعرش، وعدم إحاطة العرش به، وحصره العرش، وعدم حصر العرش إليه»^(٣)، كما قال الطحاوي في نظمه المشهور الذي تلقته الأمة بالثناء والقبول، «وهو مستغن عن العرش وما دونه، محيط بكلِّ شيء وفوقه، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه»^(٤).

فهو سبحانه استوى على عرشه، الذي هو سرير مُلكه، وسقف مخلوقاته جميعها من السموات والأرضين، وما فيهما، وما بينهما تحت العرش، مقهورون بقدرته ﷻ، وهو - أي العرش - ذو قوائم، أمر الله ﷻ ملائكته بحمله، وتعبّدهم بتعظيمه، والطواف به، كما خلق في الأرض بيتاً، وأمر بني آدم بالطواف به، واستقباله في الصلاة^(٥).

﴿عَظَمَ الْعَرْشَ وَحَمَلَتْهُ﴾

العرش أعظم المخلوقات التي خلقها الله تعالى على الإطلاق، فلا يعلم أحد عظمتَه إلا الله رب العالمين^(٦)، قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة مُلقاة

(١) «الرد على الجهمية» لابن قتيبة (٨٧)، و«شرح كتاب التوحيد» لعبد الله الغنيان (٢٥٦/١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٤٤/٦).

(٣) «شرح العقيدة الطحاوية» (٣١٣).

(٤) المصدر السابق.

(٥) انظر: ابن كثير (١٧٩/٤)، والأسماء والصفات للبيهقي (٣٩٢).

(٦) فإذا كان الكرسي الذي قال عنه تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فما بالك بعرشه، كما قال ابن عباس رضي الله عنه: «الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر أحد قدره»، رواه الحاكم (٢٨٢/٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين، =

بأرض فَلَاة، وفضل العرش على الكُرسي، كفضل تلك الفَلَاة على تلك الحلقة»^(١). وقال ﷺ: «أُذِنَ لي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلِكٍ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ، مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةَ سَبْعِمِائَةِ سَنَةٍ»^(٢).

لما كان العرش أعظم وأوسع المخلوقات، المحيط بها من جميع الجهات، فقد شرف بأن يستوي عليه تعالى بأوسع الصفات، وهي الرحمة والتي وسعت من في الأرض والسموات، فاستوى على أوسع المخلوقات، وهو عرشه، بأوسع الصفات، وهي رحمته. قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾^(٣).

❦ (٢) صفة الكمال (النزول، والهبوط، والتدلي)^(١) إلى السماء الدنيا ❦

❦ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: (١) حديث النزول المشهور قال ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فيقول: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ»^(٤).

(٢) وقال ﷺ: «يَنْزِلُ اللَّهُ تَعَالَى فِي السَّمَاءِ الدُّنْيَا لِشَطْرِ اللَّيْلِ، أَوْ ثُلُثِ اللَّيْلِ الْآخِرِ...، ثُمَّ يَسْطُ بِيَدَيْهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: مَنْ يُقْرِضُ غَيْرَ عَدُوْمٍ، وَلَا ظُلُومٍ»^(٥).

(٣) وقال ﷺ: «لَوْلَا أَنْ أُشَقَّ عَلَى أُمَّتِي لِأَمْرَتِهِمْ بِالسَّوَاكِ مَعَ الْوُضُوءِ، وَلَأَخَرْتُ الْعِشَاءَ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ، فَإِنَّهُ إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ، وَهَبَطَ اللَّهُ تَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَلَمْ يَزَلْ هُنَاكَ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ...»^(٦).

(٤) وقال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «... مَنْ الَّذِي يَسْتَكْشِفُ الضَّرَّ أَكْشَفَهُ، مَنْ ذَا الَّذِي يَسْتَرْزُقُنِي أَرْزُقَهُ، حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ»^(٧).

= وصححه الألباني في «مختصر العلو» للذهبي (١٥٢). وهذا له حكم المرفوع إلى النبي ﷺ، لأنه من الغيبيات التي لا تعلم إلا من الشارع الحكيم.

(١) صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٩).

(٢) صححه الألباني في «مختصر العلو» (١١٤).

(٣) انظر: «مدارج السالكين» (٣٤/١)، و«مختصر الصواعق المرسلة» (١٢١/٢).

(٤) البخاري (١١٤٥، ٦٣٢١، ٧٤٩٤)، ومسلم (٧٥٨).

(٥) مسلم (٧٥٨).

(٦) رواه أحمد في المسند (٩٦٧، ٩٦٨)، وصححه إسناده أحمد شاكر (٢٥/٢ - ٢٦)، والألباني في إرواء الغليل (١٩٧/٢).

(٧) رواه أحمد في المسند (٧٥٠٩)، وصححه إسناده أحمد شاكر (٢٥٠/٣)، ومُحَقَّقُ الْمَسْنَدِ (٤٤٠/١٦).

هـ) وجاء عنه ﷺ: «... إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَنْدَلِي فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فَيَغْفِرُ إِلَّا مَا كَانَ مِنَ الشُّرْكِ وَالْبَغْيِ...»^(١).

✽ المَعْنَى فِي الشَّرْح: من الأصول العَقْدِيَّة عند أهل السنة والجماعة إثبات صفات الله تعالى كُلِّهَا، على الوجه الذي يَلِيْق بِرَبِّنَا، فلا يفرقون بين صفة وأخرى، إذ إِنَّهَا من جنس واحد صفات حَقِيقِيَّة تَلِيْق بِاللَّهِ ﷻ. ومن هذه الصفات: الصفات الاختيارية، والتي منها: النزول

وصفة النزول لِرَبِّنَا الجَلِيلَةِ كل ليلة، صفة حَقِيقِيَّة تَلِيْق بِكَمَالِهِ، وَعَلِيَّائِهِ، وَجَلَالِهِ، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، فنزوله سبحانه لا يماثل ولا يُشَابِه، ولا يُقَارَب بحال نزول المخلوقين، وحركاتهم، وانتقالهم، فالمخلوق إذا نَزَلَ من علو إلى سفْل زَالَ عَنْهُ وصفه بِالْعُلُوِّ، وتَبَدَّلَ وصفه بالسفول، وصار غيره أَعْلَى منه.

وَالرَّبُّ الْعَظِيمُ ﷻ لا يَكُونُ شَيْءٌ أَعْلَى مِنْهُ قَطْ، فَهُوَ تَعَالَى الْعَلِيِّ الْأَعْلَى، وَهُوَ مُسْتَوٍ عَلَى عَرْشِهِ فَوْقَ السَّمَوَاتِ الْعُلَا، وَيَنْزِلُ مَتَى شَاءَ، وَكَيْفَ شَاءَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، وَهُوَ الْعَلِيُّ الَّذِي لَا أَعْلَى مِنْهُ، وَلَا شَيْءٌ فَوْقَهُ^(٢).

✽ أنواع النزول الإلهي ✽

✽ النوع الأول: النزول إلى السماء الدنيا كل ليلة في شهر رمضان:

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لِيَمْهَلُ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ كُلِّ لَيْلَةٍ، حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلِ هَبَطَ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ قَالَ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ يُعْطَى، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يَغْفَرُ لَهُ، هَلْ مِنْ نَائِبٍ يُنَاطَبُ عَلَيْهِ»^(٣).

✽ النوع الثاني: النزول إلى سماء الدنيا عشية عرفة:

قال ﷺ: «مَا مِنْ يَوْمٍ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يَعْتَقَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، وَإِنْهُ لَيَكُونُ، ثُمَّ يُبَاهِي الْمَلَائِكَةَ يَقُولُ: مَاذَا أَرَادَ هَؤُلَاءِ»^(٤).

(١) رواه أحمد في المسند (٣٨٥/٤)، وصححه الرواية عبد القادر الغامدي. انظر: صفة النزول الإلهي (١٠٢).

(٢) انظر: نقض الإمام الدارني على المريسي (٣٥٨/١)، و«مجموع الفتاوى» (٤٢٤/١٦)، و«شرح حديث النزول» (١٥٣، ٢٣٢)، و«عقيدة السلف أصحاب الحديث» للصابوني شيخ الإسلام (٢٦، ٤٨).

(٣) رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (٥١٣)، وصححه الألباني وقال: إسناده صحيح على شرط الشيخين (ص ٢٢٤).

(٤) مسلم (١٣٤٨).

قوله: «ليدنو»: «التعبير عن النزول بالدُّنُو لأنه يتضمنه»^(١)، والحديث بلفظ (النزول) شاهد له، قال ﷺ: «إذا كان يوم عرفة، فإن الله ﷻ ينزل إلى السماء الدنيا، فيباهي بهم الملائكة»^(٢).

❁ النوع الثالث: النزول إلى سماء الدنيا ليلة النصف من شعبان:

قال ﷺ: «ينزل الله تبارك وتعالى ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا، فيغفر لكل نفس، إلا إنسان في قلبه شحناء، أو مشرك بالله ﷻ»^(٣).

❁ النوع الرابع: النزول إلى السماء الدنيا بين يدي الساعة:

عن ابن عباس ب أنه قال: «يُنَادِي منادٍ بين يدي الساعة: أَتَتَكُم الساعة، فيسمعه الأحياء والأموات»، وفي لفظ: «كل حي وميت»، ثم ينزل الله تعالى إلى السماء الدنيا، فينادي: لمن الملك اليوم لله الواحد القهار»^(٤).

❁ النوع الخامس: النزول إلى الأرض يوم القيامة^(٥):

قال ﷺ: «إِنَّ الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة، ينزل إلى العباد ليقضي بينهم، وكل أمة جاثية، فأول ما يدعو به رجل جمع القرآن...»^(٦).

❁ النوع السادس: النزول من العرش إلى الكرسي يوم القيامة:

قال ﷺ: «يَجْمَعُ الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم، وينزل الله في ظِلِّ من الغمام من العرش إلى الكرسي...»^(٧).

(١) «صفة النزول الإلهي» (ص ١٥٦).

(٢) رواه البزار في مسنده (١١٢٨)، وابن خزيمة في صحيحه (٢٨٤٠)، والحديث إسناده صحيح لولا عنعنة ابن الزبير، انظر: السلسلة الضعيفة (١٢٥/٢). وصحح الحديث شيخ الإسلام ابن تيمية، قال رحمه الله: «كما وصف نفسه بالنزول عشية عرفة في عدة أحاديث صحيحة، وبعضها في صحيح مسلم» «مجموع الفتاوى» (٣٧٣/٥)، ثم ذكر الروايات.

(٣) رواه ابن أبي عاصم في «السنن» (٥٠٩)، وصححه الألباني (ص ٢٢٢).

(٤) رواه الدارمي في الرَّد على الجهمية (١٤٠)، والعلو للذهبي، وقال الألباني: وهذا إسناده صحيح على شرط مسلم، وهذا الحديث حكمه حكم الرفع لأنه لا يقال بالترأي.

(٥) «صفة النزول الإلهي» (١٣٤).

(٦) رواه ابن حبان في صحيحه (٤٠٨)، وقال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح.

(٧) رواه عبد الله بن أحمد في «السنن» (٥٢٠/٢) (١٢٠٤)، وصححه الألباني في العُلُو (١١٠)، وفي الترغيب والترهيب برقم (٣٥٩١).

النوع السابع: النزول لأهل الجنة:

قال ﷺ: «أتاني جبريل وفي يده امرأة بيضاء فيها نكتة سوداء، فقلت: يا جبريل ما هذه؟ قال: هذا الجمعة...» وفيه: «فإذا كان يوم الجمعة نزل تبارك وتعالى من عليين على كرسيه، ثم حَفَّ المنابر بكراسي من ذهب...»^(١).

وجاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «سارعوا إلى الجمعة فإن الله ينزل لأهل الجنة في كل جمعة في كتيب من كافور أبيض، فيكونون منه في القرب على قدر تسارعهم إلى الجمعة»^(٢).

فوائد مهمة في صفة النزول

(١) وقت النزول الإلهي:

إِنَّ لِنُزُولِ رَبِّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى شَأْنًا عَظِيمًا، لَيْسَ شَأْنُهُ كَشَأْنِ غَيْرِهِ، فَإِنْ قَدُومُ مَلِكِ السَّمَوَاتِ إِلَى هَذِهِ السَّمَاءِ الَّتِي تَلِينَا، وَلَا رَيْبَ أَنْ لِلسَّمَوَاتِ وَأَفْلَاكِهَا عِنْدَ نُزُولِ الرَّبِّ تَعَالَى إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا شَأْنًا وَحَالًا^(٣)، وَلِهَذَا تَرَى خَوَاصَّ الْمُؤْمِنِينَ يَتَعَرَّضُونَ فِي هَذَا الْوَقْتِ الْجَلِيلِ لِأَلْطَافِ رَبِّهِمْ وَمَوَاهِبِهِ، فَيَقُومُونَ لِعِبُودِيَّتِهِ خَاضِعِينَ خَاشِعِينَ دَاعِينَ مَتَضَرِّعِينَ، يَرْجُونَ مِنْهُ حَصُولَ مَطَالِبِهِمُ الَّتِي وَعَدَهُمْ بِهَا عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ.

وَلَمَّا كَانَتْ الرِّوَايَاتُ مُخْتَلِفَةً فِي أَلْفَاظِهَا، مُتَنَوِّعَةً فِي أَنْوَاعِهَا، فِي الدَّلَالَةِ عَلَى وَقْتِ النُّزُولِ، كَانَ لِلْعُلَمَاءِ فِيهَا أَقْوَالٌ فِي التَّوْفِيقِ بَيْنَهَا، وَتَنْحَصِرُ هَذِهِ الْأَقْوَالُ فِي سِتَّةِ أَقْوَالٍ^(٤):

الأول: وهو النزول حين يبقى ثلث الليل الآخر.

الثاني: إذا مضى ثلث الليل الأول.

الثالث: إذا مضى ثلث الأول، أو نصف الليل.

الرابع: إذا مضى نصف الليل.

(١) صححه الألباني في الترغيب والترهيب برقم (٣٧٦١) (٣/٥٢٥).

(٢) رواه عبد الله بن أحمد في «السنن» (٤٧٦)، وابن خزيمة في «كتاب التوحيد» (٦٠٢)، والنهبي في «العلو» (١٤٣) وقال: موقوف حسن، وقال: أخرجه ابن بطة في «الإبانة الكبرى» بإسناد جيد اهـ. وهو في حكم المرفوع.

(٣) انظر: مختصر الصواعق (٤٣١).

(٤) انظر تفصيل أقوال أهل العلم في: «صفة النزول الإلهي» (١٥٧ - ١٦٨).

الخامس: النصف أو الثلث الأخير .

السادس: الإطلاق .

وأقوى هذه الأقوال وأرجحها والله ﷻ أعلم هو القول الثالث^(١): وهو أن النزول أنواع ثلاثة: ففي بعض الليالي يكون النزول في أول الثلث الثاني، وبعضها في النصف، وبعضها في أول الثلث الآخر، وسبب ترجيح هذا القول أنه يجمع بين الروايات، ويرفع التعارض بينها^(٢)، كما هو عند أهل الأصول معلوم، فإعمال الأدلة جميعها أولى من إهمال بعضها وإعمال بعضها، فإن هذا هو الأصل الذي ينبغي أن يصار إليه .

(٢) نزول الربّ ﷻ لا يُنافي علوه:

فإن هذه الأخبار التي جاءت عن المصطفى ﷺ في نزول الربّ جلّ وعلا لا تُنافي علوه فوق عرشه، إذ لا يكون الربّ ﷻ إلا فوق كل شيء، ولا يكون شيء أعلى منه قط، بل هو العليّ الأعلى، ولا يزال هو العليّ الأعلى مع أنه يقرب إلى عباده، ويدنو منهم، وينزل حيث شاء، فعُلوّه من لوازم ذاته، فلا تناقض بين نزوله وعلوه^(٣)، وذلك مما هو معلوم بالضرورة أن صفاته تعالى ليست كصفات خلقه، ومن ذلك صفة النزول «فالمخلوق إذا نزل من علو إلى أسفل، زال وصفه بالعلو، وتبدل إلى وصفه بالسفل، وصار غيره أعلى منه»^(٤)، فلا تستلزم لوازم الخلق لوازم الربّ تعالى، وفي قوله ﷺ: «... حتى ينفجر الفجر ثم يصعد»^(٥)، وفي لفظ: «... حتى ينشق الفجر ثم يرتفع»^(٦)، فصعوده تبارك وتعالى وارتفاعه إلى السماء من جنس نزوله، وإذا كان في نزوله لم يصر شيء من المخلوقات فوقه، فهو سبحانه يصعد، وإن لم يكن منها شيء فوقه^(٧).

(٣) إن الدعاء والاستغفار وغيرهما من العبادات يختلف فضلها بحسب الزمان والمكان^(٨).

(١) المصدر السابق (١٦٤).

(٢) المصدر السابق .

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (٤٢٤/١٦)، و«مختصر الصواعق المرسلة» (٤٢٨/٢).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٤٢٤/١٦).

(٥) رواه ابن عوادة في مسنده (٢٨٨/٢) من طريقين، أحدهما صحيح والآخر حسن إن شاء الله، من كلام عبد القادر الغامدي في كتابه النفيس «صفة النزول الإلهي» (٦٨، ١٨٠).

(٦) رواه ابن العاصم في «السنّة» (٥٠٠ - ٥٠١)، قال الألباني: إسناده جيد (ص ٢٢٠).

(٧) «شرح حديث النزول» (٣٩٤).

(٨) «شرح الواسطية» عبد العزيز السلطان (٣٤٩/٢).

(٤) إن النزول الإلهي يشمل جميع ليالي العام.

(٥) إن نزوله ﷺ إلى أقرب السموات إلى الأرض ، دل من قوله: «إلى السماء الدنيا» والسموات سبع^(١).

(٦) إن الاستجابة غير العطاء ، لقوله: «من يدعوني فأستجيب له ، من يسألني فأعطيه»^(٢).



(١) «شرح الواسطية» ابن عثيمين (٣٥٤/٢).

(٢) «شرح العقيدة الطحاوية» (٥٣٨).

صفات الكمال

(الْمَحَبَّةُ، الرِّضَا، الْفَرَحُ، الضَّحِكُ، وَالْعُجْبُ، وَالْبَشْبَشَةُ) الجليلة

✽ تمهيد:

قبل الكلام عن كلِّ صفة بمفردها، من المهم أن نذكر أهمية هذه الصفات الجليلة، الجميلة، الحبيبة إلى نفوس أنبياء الله، ورسله، وأوليائه، فإن هذه الصفات الجليلة، من الصفات الفعلية، التي تتعلق بمشيئته وإرادته كما سبق، قد وصف بها الله تعالى نفسه، ووصفه بها رسله صلوات الله وسلامه عليهم، حيث اتفقت كلمتهم وتواطأ خبرهم على تعريف الرَّبِّ عزَّ شأنه المدعو إليه بأسمائه، وصفاته، وأفعاله، تعريفاً مفصلاً، حتى كأن العباد يُشاهدونه ﷻ، وينظرون إليه، وكان من جملة ما عرفوه: أَنَّ لِرَبِّهِمْ صفات الكمال، وأنه يُحِبُّ وَيُحَبُّ، ويفرح بتوبة عباده وطاعتهم، ويضحك منها، ويرضى بها، ويثني عليهم بها، فهذا من جملة مطالب الإيمان المشتركة بين أهل الملل كلهم، والعبد متى ما تدبر كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، أشهد هذا التدبر، أنهما مملوءان بوصف الرَّبِّ تبارك وتعالى، بالمحبة، والرضا، والفرح، والضحك، وأنَّ نصوصهما محكمة غاية الأحكام، مبينة بأقصى غاية البيان.

ولا ريب أن العلم الضروريَّ حاصلٌ بأن هذه الصفات من أعظم صفات الكمال، وأنه فرض على الأمة التصديق بها فرضاً لا يتم أصل الإيمان إلا به، فيقوى القلب بهذا الإيمان، حتى يصير الغيب بمنزلة المشاهد بالعين، فينشأ من كمال الإيمان بالله تعالى وأسمائه وصفاته: مشهد الإحسان، وأن للعبد رَبًّا وَالْهًا وَمَلِكًا: خَالِقًا حَيًّا، يُحِبُّ ويرضى، ويفرح ويضحك، وإن الكون بجملة ما فيه: آيات وشواهد وأدلة، دعا الله ﷻ عباده إلى النَّظَر فيها، والاستدلال بها على هذه الصفات، وَمَنْ له خبرة بمذاهب الناس وأقوال السَّلف: يعلم قطعاً أن سلفنا قد اجتمعوا على القول بدلالة الوحي والعقل على إثبات هذه الصفات، حتى إن أحدهم إذا روى غيره حديثاً عن رسول الله ﷺ في ذِكر صفة من هذه الصفات، تلقاه بالقبول واعتقد ثبوت تلك الصفة على القطع واليقين، واعتقد ثبوت مقتضاها بمجرد سماعها من العدل الصادق، ولم يرتب فيها، فإذا سُئِلَ عن معنى هذه الصفات، أجاب بقوله: معانيها كلها مفهومة، وأما

كيفية فغير معقولة، إذ تعقل الكيفية: فرع العلم بكيفية الذات وكُنْهها، وإخبار العبد عن ربّه تبارك وتعالى بهذه الصفات الكريمة، هو أحد نوعي ذِكر أسماء الربّ تبارك وتعالى وصفاته، والثناء عليه بهما، وتنزيهه وتقديسه عمّا لا يليق به تبارك وتعالى^(١).

وإذا أراد ربُّنا جلّ وعلا أن يكرم العبد، وينعم عليه بأجلّ نعمه وآلائه، دلّه عليها، وفتح له من مقتضاهاها، وثمراتها، ويسّر له أسبابها، وموجباتها، وأعانه على ذلك، فيمتلئ الفؤاد حبًّا وشوقًا، ورجاءً إلى ربّه ﷻ. وهذا أجل الغايات، وأعلى الأمنيات.

صفة الكمال (المحبّة) الجليلة

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿وَاحْسِنُوا إِلَى اللَّهِ يَحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]^(٢).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يحب العبد التقي، الغني، الخفي»^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: صفة المحبة^(٤) من أعظم الصفات التي يتعلق بها أولياء الله تعالى وأصفياءه، فهذه الصفة الجليلة هي التي تسابق إليها الأنبياء، وشمر إليها الأولياء، «فليس عند القلوب السليمة، والأرواح الطيبة، والعقول الزاكية، أحلى ولا ألدّ ولا أطيب ولا أنعم من محبته تعالى»^(٥)، ولهذا «فإن الشأن كل الشأن في أن الله تعالى يحبّك، فإن محبته لك أعلى من أن تحبّه أنت»^(٦).

فصفة المحبة متعلقة بمحوباته وبمن قام بها، ولهذا فهو تعالى يحبّ أوليائه ويحبونه، فهو الذي أحبّهم، وجعل في قلوبهم المحبة، فلما أحبّوه أحبّهم حبًّا آخر، جزاء لهم على حبهم، وهذا هو الإحسان المحض على الحقيقة، إذ منه السبب ومنه المسبب^(٧).

(١) انظر: «جهود ابن القيم في تقرير توحيد الأسماء والصفات» د. وليد العلي (١٧٧٤/٣).

(٢) وقال سبحانه: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ» [آل عمران: ٣١]، وقال جلّ ثناؤه: «فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ» [المائدة: ٤٥].

(٣) مسلم (٢٩٦٥). وقال ﷺ يوم خيبر: «لأعطيننّ الزّابة غدًا رجلًا يفتح الله على يديه، يحبّ الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله...». البخاري (٣٠٠٩)، ومسلم (٢٤٠٥).

(٤) هذه أول الصفات الفعلية التي تجمع بين أفعاله تعالى: المتعدية، واللازمة، فهو تعالى يحب من يشاء، ويحب إلى الخلق ما شاء من الأعمال، والأقوال، والتي أجعلها الإيمان، كما قال سبحانه: «وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِلَيْنِمْ وَرَزَقْنَاهُمْ فِي قُلُوبِكُمْ» [الحجرات: ٧].

(٥) «إغاثة اللّهان في مصائد الشيطان» (٢٨٠/٢).

(٦) «شرح الواسطية» لابن عثيمين (٤٣١/١).

(٧) انظر: «جلاء الأفهام» (٢٤٣)، و«بهجة قلوب الأبرار» (٤١)، و«فتح الرحيم الملك» (٤٠).

وقد ذلَّ الكتابُ والسنة أنَّ الله تعالى قد علّق وصفَ المحبّة بأعمال، وأقوال، وأفعال، وأخلاق، وأوصاف، وأماكن، وأنَّ محبته لذلك تتفاضل في هذه المحبوبات، بحسب كمالها^(١).

فمن الأوصاف: أنه تعالى يحب: المتقين، والمحسنين، والمؤمنين، قال ﷺ: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمنِ الضَّعيفِ»^(٢)، وفي الحديث «دليل على أنَّ محبَّته تعالى تتفاوت، فمحبته للمؤمن القوي، أعظم من محبَّته للضعيف»^(٣).

ومن الأماكن: المساجد، قال ﷺ: «أحب البلاد إلى الله تعالى مساجدها...»^(٤)، ومحبته تعالى للمساجد الثلاثة أكثر من دونها من المساجد.

واعلم رعاكَ الله تعالى أن أعظم ما يحبه الله هو الثناء عليه، بِصِفاته، وأسمائه، وأفعاله. قال ﷺ: «... ولا شيء أحبَّ إليه من المدح من الله ﷻ، من أجل ذلك مدَحَ نفسه»^(٥).

يقول ابن القيم الجوزية رَحِمَهُ اللهُ: «فهو تعالى يحبُّ نفسه، ومن أجل ذلك يُثني على نفسه، ويحمد نفسه، ويقدِّس نفسه، ويحب من يحبه، ويحمده، ويُثني عليه، بل كلما كانت محبة عبده له أقوى، كانت محبة الله تعالى له أكمل وأتم، فلا أحبَّ ممن يُحبه ويحمده، ويُثني عليه»^(٦).

فقد ذلَّ رسولك الرؤوف الرحيم ﷺ على أحبِّ الأعمال إلى الله تعالى على الإطلاق، وهو كما تقدَّم الثناء عليه سبحانه وحَمده، ولا يكون كذلك إلَّا بأسمائه، وصفاته، وجلاله، فشمر عن ساعدِ الجدِّ، وادفع بخيول الذكر في ميدان السبق، وأنت خيرٌ، بما نحن بصده من هذه الدراسة يُعدُّ ذكراً لصفاته جلَّ وعزَّ العلية، التي لا أجلَّ، ولا أجمل، ولا أعلى منها، على الإطلاق. فاحتسب.

* * *

(١) «شفاء العليل» (٢٣٠/١)، و«مفتاح دار السعادة» (٤١٢/٣) بتصرف يسير.

(٢) مسلم (٢٦٦٣).

(٣) «بهجة قلوب الأبرار» (٤١) لابن سعدي، و«شرح صحيح مسلم» لابن عثيمين (٥٨٣/٢).

(٤) مسلم (٦٧١).

(٥) البخاري (٧٤٠) (٤٦٣٤)، ومسلم (٢٧٦٠).

(٦) «طريق الهجرتين» (٤٣٠).

﴿٤﴾ صفة الكمال (الخُلَّة) الجليلة

- ﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].
- ﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كما اتخذ إبراهيم خليلًا»^(١).
- ﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ﴾: الخلَّة: أصفى المودَّة وأصحها^(٢).

والخليل: المحب الذي ليس في محبته خلل، وسمي إبراهيم خليل الله بأنه الذي أحبه الله، واصطفاه، محبة تامَّة كاملة^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: الخلَّة، «هي أعلى أنواع المَحَبَّة، وليس فوق الخلَّة شيء من أنواع المحبة أبدًا، وهي لم تثبت لأحد من البشر إلَّا لاثنتين هما: إبراهيم، ومحمد عليهما الصلاة والسلام»^(٤).

وقد تقدم في صفة المحبَّة أنها تتفاضل بحسب كمالها، ولهذا «سمي خليل الله لِشِدَّةِ محبة رَبِّه ﷺ، لِما قام له من الطاعة التي يُحِبُّها وَيَرْضَاهَا»^(٥).

﴿٥﴾ صفة الكمال (الرِّضَا) الجليلة

- ﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].
- ﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «رَضِيَ اللَّهُ فِي رِضَى الْوَالِدِ، وسخط الله في سخط الوالد»^(٦).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ﴾: الرِّضَا: خلاف السخط، ويقال: أرضاه إذا أعطاه ما يرضى به^(٧).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: رِضا رَبِّ العالمين هو مطلب كلِّ عابِدٍ، وغاية كلِّ سالِك، فهو «الغاية التي أمَّها العابدون، والنهائية التي سعى نحوها الْمُحِبُّون»^(٨).

(١) مسلم (٥٣٢).

(٢) «المفردات» (٢٩٠)، و«القاموس المحيط» (٣٩٢).

(٣) «معاني القرآن» للزجاج (١١٢/٢).

(٤) «شرح الواسطية» لابن عثيمين (٤٤١/١).

(٥) «تفسير ابن كثير» (٧٦٥/١).

(٦) «صحيح الترمذي» (١٨٩٩).

(٧) «معجم مقاييس اللغة» (٤٠٢/٢).

(٨) «تفسير السعدي» (٣٤٤).

والرِّضا صفة عَلَيَّةَ لله ﷻ، من الصفات الفعلية الكَمَالِيَّة، الحقيقية، (المتعدية واللازمة)، المتعلقة بمشيئته سبحانه، فهو سبحانه يَرْضَى عن أناس، ولا يَرْضَى عن أناس، وهو يَرْضَى أعمالاً، ولا يَرْضَى أعمالاً، فهو تعالى يَرْضَى عن المؤمنين، وعن المقسطين، وعن الشاكرين، ولا يَرْضَى عن الكافرين، والفاسقين، والظالمين، والثواب دليل على ثبوت الرِّضا، فهو تعالى يُثِيب الطائعين، ويجزيهم على أعمالهم وطاعتهم^(١).

فصفة الرِّضا العظيمة تستلزم جميع خيرات ومَسَرَّات الحياة الدُّنيوية، والأخروية، وهذا غاية أُمْنِيَات البرية.

وقد دَلَّت النصوص «أنه تعالى يَرْضَى عن العمل، ويرضى عن العامل»^(٢).

أما العمل فهو نوعان:

إما بالقول: كالشُّكر، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وكما في الحديث: «إِنَّ الله يَرْضَى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها»^(٣).

«ففي هذا دليل على أَنَّ رَضَى الله ﷻ قد ينال بأدنى سَبَب، قد ينال بهذا السبب اليسير...»^(٤)، وهذا والله غاية الفضل من ربنا الجليل.

وبالفعل: المجاهدة بالطاعة ابتغاء الرِّضى من الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. «ويتعلق بالعمل، مثل قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩]»^(٥).

❦ رضى الرب هو أعظم ما يُدرکه المؤمنون في جنات النعيم ❦

قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

فقوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾: «أي: رضى الله عنهم أكبر، وأجل، وأعظم، ممَّا هم

(١) انظر: «شرح العقيدة الواسطية» لابن عثيمين (٤٧٧/١)، و«المُحاضرات السنية» (٢٠٨/١).

(٢) «شرح الواسطية» لابن عثيمين (٤٧٧/١).

(٣) رواه مسلم (٢٧٣٤).

(٤) «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (٤١٥/١).

(٥) «شرح الواسطية» لابن عثيمين (٤٧٧/١). وكقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

فيه من النَّعِيم»^(١).

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيقولون: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وسَعْدَيْكَ، والخير في يَدَيْكَ، فيقول: هل رَضِيتُمْ؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رَبَّنَا وقد أعطينا ما لم تُعْطِ أَحَدًا من خَلْقِكَ، فيقول: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ من ذلك؟ فيقولون: وأي شيء أَفْضَلُ من ذلك؟ فيقول: أَحَلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فلا أُسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»^(٢).

وفي رواية: «هل تشتهون شيئاً فأزيدكم؟ قالوا: يا رَبَّنَا ما خير مِنَّا أعطينا! قال: رضواني أكبر»^(٣).

فانظر رَعَاكَ الله تعالى إلى كَمَال وعِظَم رِضاه سُبْحانه، إذ إن يسير اليَسِير من رِضوانه أكبر من الجنان وما فيها، لأنَّ رِضاه صفة من صِفات الله تبارك وتعالى، والجنةُ خلقه وثوابه، وهذا الرِّضَى جزاء على رِضاهم عنه في الدنيا، ولَمَّا كان هذا الجزاء، أَفْضَل الجزاء كان سببه أَفْضَل الأعمال^(٤).

٦) صفة الكمال (الفرح) الجليلة

❖ السُّنَّة النَّبَوِيَّة: قال رسول الله ﷺ: «لِلَّهِ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشِرَابُهُ، فَأَسِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيْسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِهَا قَائِمَةٌ عِنْدَهُ، فَاخْذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأُ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»^(٥).

❖ الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الفرح: خلاف الحزن وهو: السرور، يقال: فرح يفرح فرحًا، فهو فَرِحٌ؛ أي: مسرور.

❖ الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: الفرح من أوصاف الله تعالى الكَمَالِيَّة، لأنَّ رَبَّنَا لا يوصَف ولا يقوم به من الأفعال إلا الأكمل، والأحسن، والأطيب، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠]،

(١) «تفسير ابن كثير» (٥٠٢/٢).

(٢) البخاري (٦٥٤٩) (٧٥١٨)، ومسلم (٢٨٢٩).

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک (٨٢/١) وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: وهو كما قالوا. «السلسلة الصحيحة» (١٣٣٦).

(٤) انظر: «مدارج السالكين» (٢٢٦/٢)، و«مختصر الصواعق المرسلة» (٣٤٨/٢).

(٥) البخاري (٦٠٣٨) (٦٠٣٩)، ومسلم (٢٧٤٤) (٢٧٤٦).

«وهذه الصفة الجليلة تدلُّ بالتضمن على لطف الله تعالى بعباده، ورحمته لهم، حيث يوفق من يشاء من عباده ليتوبوا، فإذا تابوا تقبل توبتهم، وفرح بها فرحاً شديداً ولطيفاً في وقت واحد، إذ يرد إليه عباده الشاردين من طاعته لئلا يضيعوا، وهو الذي لا تضره معصيتهم، ولا تنفعه طاعتهم»^(١).

وقد وصف نبينا ﷺ فرح ربنا العظيم كما تقدم بأعظم فرح يخطر على البال، أو يدور في الخيال، فلو كان في الوجود فرح أعظم، وأكمل من هذا الفرح لبيته ﷺ، فهو «فرح لا يشبه فرح أحد من خلقه، لا في ذاته، ولا في أسبابه، ولا في غايته، فسيبه كمال رحمته وإحسانه، التي يحب من عباده أن يتعرضوا لها، وغايته إتمام نعمته على التائب المُنيب»^(٢).

ففرحه سبحانه لا مثيل ولا عدیل له، وذلك أن فرحه تعالى: «فرحة إحسان، وبر، ولطف، لا فرحة محتاج إلى شيء، أو منتفع به»^(٣)، خلاف فرح في المخلوق الذي هو على أنواع، فقد يكون فرحه خفة، وسرور، وطرب، وقد يكون فرح أشد، وبطّر، فالله ﷻ منزّه عن ذلك كله»^(٤).

فينبغي للعبد أن يتأمل عظم شأن فرح الربّ، يقول ابن القيم رحمه الله: «فإن هذا الفرح له شأن لا ينبغي للعبد إهماله، والإعراض عنه، ولا يطلع عليه إلا من له معرفة خاصة بالله تعالى، وبأسمائه، وصفاته، وما يليق بعزّ جلاله»^(٥)، فهو تعالى ليس بمحتاج إلى توبتنا، بل نحن مفتقرّون إليه في كل أحوالنا، لكن لكرمه جلّ وعلا، ومحبته للإحسان، والإعطاء، والبرّ، والإنعام، والإفضال، يفرح هذا الفرح الذي لا نظير له بتوبة الإنسان، إذا تاب إليه»^(٦).

﴿٧﴾ صفة الكمال (الضحك) الجليلة

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: ١﴾ قال ﷺ: «يضحك الله إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر، كلاهما يدخل الجنة»^(٧).

(١) «الصفات الإلهية» لمحمد بن أمان الجامي (٢٩٧).

(٢) «شرح الواسطية» للسعدي (٣٥٩/٢)، و«شرح الواسطية» للهراس (٣٦٠).

(٣) «مدارج السالكين» (١٩٥/١) بتصرف يسير.

(٤) «شرح الواسطية» للهراس (٣٦٠/٢).

(٥) «المدارج» (٢٣١/١).

(٦) انظر: «شرح الواسطية» لابن عثيمين (٣٦٣/٢).

(٧) البخاري (٢٨٢٦)، ومسلم (١٨٩٠).

(٢) قال ﷺ: «يَتَجَلَّى رَبُّنَا ضَاحِكًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

(٣) عن أبي رزين رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ضَحَكَ رَبُّنَا ﷻ مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ، وَقَرَّبَ غَيْرَهُ»، فقال أبو رزين: أَوَيْضَحَكَ الرَّبُّ ﷻ؟! قال: «نعم»، فقال: لن نعدم من رَبِّ يَضْحَكُ خَيْرًا^(٢).

✽ الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الضَّحْكُ: أصله انبساط الوجه، وقد يستعمل في السرور المجرد، ومنه قوله تعالى: ﴿سُفْرَةٌ ۖ ضَاحِكَةٌ﴾ [عبس: ٣٨-٣٩]، واستعير أيضاً لمُجرد التعجب، لأنه مسبب عنه غالباً، كما حكى تعالى عن سارة: ﴿فَضَحِكَتْ﴾ [هود: ٧١]، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢]^(٣).

✽ الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: يوصف رَبُّنَا تبارك وتعالى بصفة الضحك الجليلة، فهو ضحك حقيقي ليس له مثل ولا شبه من ضحك المخلوقين، عندما يستخفهم الفرح، أو الطرب، أما ضحك رَبِّ العالمين فهو نوع آخر، ضحك يليق بكماله^(٤)، وجلاله، وعظمته.

«وهو سبحانه يضحك كما يشاء، ويقصد بضحكه أوليائه عندما يعجبه أفعالهم، ويصرفه عن أعدائه بما يسخطه من أفعالهم، فهو يضحك إلى قوم، ويصرفه عن قوم، ولا يضحك إلا عن رضا بما يأتونه من عباديته»^(٥)، فهو يضحك سبحانه إلى عباده الذين قد أتوا بأعظم أنواع محابه، من جهاد في سبيله، ومن بيع النفس له، ومن المناجاة إلى تفضل الله بها عليهم، وهكذا تجده سبحانه يوفق من شاء من عباده ليأتي بِمَرْضَاتِهِ فيقبل منه، ثم يفرح به حتى يضحك إليه رضا، ومحبة، سبحانه ما أعظم شأنك!!..^(٦) إذ منه السبب، ومنه المسبب.

وقوله ﷺ: «يَضْحَكُ اللَّهُ إِلَى رَجُلَيْنِ»^(٧)، "فهذان الرجلان قتل أحدهما الآخر، (ف)قيض الله لكل منهما من فضله وكرمه سبباً أوصله إلى الجنة، فالأول قاتل في سبيله،

(١) صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣١١١).

(٢) صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٨١٠).

(٣) «عمدة الحفاظ» (٣٧٠/٢)، ورجح شيخ المفسرين ابن جرير الضحك في الآية بمعنى: التعجب، «تفسير الطبري» (٢٩٣/٤).

(٤) «شرح الواسطية» للهراس (٣٦٨/٢).

(٥) انظر: «التوحيد» لابن خزيمة (٥٦٣/٢)، و«رد الدارمي على بشر المريسي» (١٧٥)، و«التبصير في معالم الدين» للطبري (١٤٢)، و«مجموع الفتاوى» (٦١/٥).

(٦) «الصفات الإلهية» للشيخ محمد أمان الجامي (٢٩٣).

(٧) يقول العلامة بن سعدي رحمه الله: «هذا الحديث يدل على تنوع كرم الكريم، وأن كرمه وفضله متنوع من وجوه لا تُعد ولا تحصى، ولا يدخل في عقول الخلق وخواطهم». «بهجة قلوب الأبرار» (٢٤٧).

وأكرمه الله على يد الرجل الآخر - الذي لم يسلم بعد - بالشهادة التي هي أعلى المراتب بعد مرتبة الصديقين... وأما الآخر: أسلم وتاب محا الله عنه الكفر وآثاره ثم من الله عليه بالشهادة فدخل الجنة... فهذا الضحك من الباري يدلُّ على غاية كرمه وجوده وتنوع برِّه^(١).

وفي حديث أبي رزين: أويضحك الرب ﷻ؟ قال: «نعم»، فقال: لن نعدم^(٢) من رب يضحك خيراً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷻ: "فجعل الأعرابي العاقل - بصحة فطرته - ضحكه دليلاً على إحسانه وإنعامه، فدلَّ هذا الوصف مقرون بالإحسان المحمود، وأنه من صفات الكمال"^(٣).

ومما تدلُّ هذه الصفة الكريمة على غاية الكرم والإحسان، ما أخبر به ﷻ أن من ضحك له سبحانه فقد أمن الحساب والعقاب، وهذا غاية مطالب أولي الألباب: قال ﷻ: «... وإذا ضحك ربك إلى قوم فلا حساب عليهم»^(٤).

وقد جاء عن الصحابة رضي الله عنهم في تحقيق هذه الصفة، وفي بيانها لغيرهم، بأجمل ما يكون من البيان، ففي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، يرفعه إلى النبي ﷺ عن آخر أهل الجنة دخولاً: «... فيقول الله تعالى له: اذهب فادخل الجنة، فإن لك مثل الدنيا وعشرة أمثالها، أو إنَّ لك عشرة أمثال الدنيا، قال: فيقول: أتسخرُ بي، أو تضحك بي، وأنت الملك؟!»، فضحك ابن مسعود، فقال: ألا تسألوني ممَّ أضحك؟ قالوا: ممَّ تضحك؟ فقال: هكذا ضحك رسول الله ﷺ، فقالوا: ممَّ تضحك يا رسول الله؟! فقال: «من ضحك ربِّ العالمين، حين قال: أتستهزئ مني وأنت ربُّ العالمين؟ فيقول: إني لا أستهزئ منك، ولكنني على ما أشاء قادر»^(٥).

(١) «بهجة قلوب الأبرار» (٢٤٧ - ٢٤٨).

(٢) أي: أن الرب من صفاته الضحك لا يفقد خيره، بل كلما احتجنا إلى خير وجدناه، فإننا إذا أظهرنا الفاقة لديه يضحك فيعطي.
«حاشية السندي على سنن ابن ماجه بواسطة السلسلة الصحيحة» (٧٣٧/٦).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٢١/٦).

(٤) «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣٧٢) (١٣٨/٢).

(٥) انظر الروايات: البخاري (٦٥٧١، ٧٥١١)، ومسلم (١٨٦، ١٨٧).

وعن علي بن ربيعة قال: رأيتُ علياً أتى بدابةً ليركبها، فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله... ثم قال: (سبحانك لا إله إلا أنت، قد ظلمتُ نفسي، فاغفر لي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت)، ثم ضحك، قال: فقيل: ما يضحكك يا أمير=

فانظر رحمك الله تعالى كيف كان اقتداءً وتأسي الصحابة رضي الله عنهم بالنبي ﷺ، قولاً، وفعلًا، وتقريرًا، في باب تحقيق صفات الربِّ ﷻ، وتأمل في ضحك النبي، ثم الصحابة، فإن فيه فيه حسنُ البيان في تقرير وتحقيق المعاني للصفة، وتعليمها لغيرهم، وهذا من أجل الأساليب في التعليم وأيسرها في تثبيت المفاهيم، وهذه سنة عظيمة قد هُجرت، فرحم الله تعالى من أحياها، فتشَبَّرْكَ الله تعالى بهذا الهدى القويم.

﴿٨﴾ صفة الكمال (العُجْب) الجَلِيلَة

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قَالَ ﷺ: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصفات: ١٢].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قَالَ ﷺ: «لَقَدْ عَجَبَ اللَّهُ ﷻ - أَوْ ضَحَكَ - مِنْ فُلَانٍ وَفُلَانَةٍ»^(١).

وفي لفظ: «قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة»^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: العجب، والتعجب: هو استغراب الشيء، ويكون بسببين:

السبب الأول: خفاء الأسباب على هذا المستغرب للشيء المتعجب منه، بحيث يأتيه بغتة بدون توقُّع، وهذا مستحيل على الله تعالى، لأن الله بكل شيء عليمٌ، فلا يجوز عليه أن لا يعلم سبب ما تعجب منه.

السبب الثاني: عظم ذلك عنده، وكبره لديه لخروج الشيء عن نظائره، وعما ينبغي له أن يكون عليه، فهو استعظامٌ للمتعبِّب منه، لِخُرُوجِهِ عن نظائره، تعظيمًا له، والله تعالى يُعْظِمُ ما هو عظيم، إما لعظمة سببه، أو لعظمته، وهذا ثابت لله تعالى، لأنه ليس عن نقصٍ من المتعجب، ولكنه عجب بالنظر إلى حال المتعجب منه^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: يوصف ربنا ﷻ بالعجب، وهي صفة جليلة كاملة من جميع الوجوه

= المؤمنين؟ قال: كنت ردًّا لرسول الله ﷺ، ففعل كالذي رأيتني فعلت، ثم ضحك، قلت: يا رسول الله، ما يضحكك؟ قال: «قال الله تبارك وتعالى: عجبٌ لعبدي، يعلمُ أنَّه لا يغفرُ الذُّنُوبَ غيري». رواه أحمد في المسند (٧٥٣، ٩٣٠، ١٠٥٦)، وصحح هذه الروايات العلامة أحمد شاكر رَحِمَهُ اللهُ (٤٩٢/١، ٧/٢، ٥٥).

(١) البخاري (٣٧٩٨)، (٤٨٨٩).

(٢) مسلم (٢٠٥٤). وقال رسول الله ﷺ: «عجب الله من قوم يدخلون الجنة في سلاسل». البخاري (٣٠١٠)، وقال ﷺ: «إنَّ الله ليعجب من الصَّلَاةِ في جمع». مسلم (٢٠٥٤).

(٣) انظر: «النهاية» (٥٩٣)، و«المجموع الفتاوى» (١٢٣/٦)، و«شرح العقيدة الواسطية» لابن عثيمين (٣٧٨/٢).

على الإطلاق، كسائر صفاته، الذاتية، أو الفعلية، «وصفة التعجب قد تدلُّ على محبة الله تعالى للفعل الذي هو محلُّ التَّعْجُبِ، وهي في هذه الصورة قريبة من معنى الفَرَح»^(١)، وقد تقدم ذِكْرُ الأحاديث التي في السنة الدالة على هذه المعاني السامية، وقد تبين في المعاني اللغوية للتعجب أن الله تعالى متَّصِفٌ بالكمال من هذه المعاني الجليلة.

«فليس عجبه سبحانه ناشئاً عن خفاء في الأسباب، أو جهل بحقائق الأمور، كما هو الحال في عجب المخلوقين، لأن التعجب في حقِّ الإنسان منشأ غرابة الفعل، وأنه حدث على شكل يُثير العجب والغرابة، لأن الإنسان فوجئَ بالفعل الذي هو محلُّ التعجب، إذا كان هذا هو مثار التعجب عند المخلوق فإن الله تبارك وتعالى مُنَزَّهٌ عن هذه المعاني، لأنه سبحانه هو الذي قَدَّرَ ذلك الفعل الذي هو محلُّ التعجب، فلا ترد في حقه سبحانه هذه المعاني، وتلك اللوازم لتعجب الإنسان»^(٢)، «فعجبه ﷻ هو معنى (يليق بكماله وجلاله) يحدث له سبحانه على مقتضى مشيئته وحكمته، وعند وجود مقتضيه (من الأسباب)، وهو الشيء الذي يستحق أن يتعجب منه»^(٣).

قال الفراء رحمه الله: «العجب إن أسند إلى الله ﷻ فليس معناه من الله تعالى كمعناه من العباد، وكذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، ليس ذلك من الله تعالى كمعناه من العباد»^(٤). وهذا من حسن اعتقاده رحمه الله.

وقد يدلُّ التعجب على بُغْضِ الله تعالى للفعل الذي هو محلُّ التعجب، ومن أمثلة هذا النوع: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَذًا كُنَّا تُرَابًا﴾ [الرعد: ٥]، وقوله: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصفات: ١٢]^(٥) على قراءة الضم، وهو عجبٌ من كفرهم مع وضوح الدلالة^(٦). وهذه القراءة؛ أي: بالضم (عجبتُ) هي قراءة عامة الكوفة، بمعنى: بل عظم عندي، وكبر اتخاذهم لي شريكاً، وتكذيبهم تنزيلي وهم يسخرون، وقرأ ذلك عامة قراء المدينة والبصرة، وبعض قراء الكوفة: ﴿عَجِبْتَ﴾ بفتح التاء، بمعنى: بل عجبت يا محمد،

(١) «الصفات الإلهية» للجامي (٢٩٤).

(٢) «شرح الواسطية» للهراس (٣٧٤/٢)، و«الصفات الإلهية» للجامي (٢٩٤ - ٢٩٥).

(٣) «شرح الواسطية» للهراس (٣٧٤/٢).

(٤) «معاني القرآن» (٣٨٤/٢).

(٥) «الصفات الإلهية» لأمان الجامي (٢٩٦).

(٦) «مجموع الفتاوى» (١٢٣/٦).

ويسخرون من القرآن، وهاتان القراءتان مشهورتان في قراءة الأمصار، فبأيهما قرأ القارئ فهو مصيب^(١)، لأن القاعدة في القرآن أن «تنوع القراءات بمنزلة تعدد الآيات»^(٢)؛ أي: إذا كان لكل قراءة معنى يُغايِر معنى القراءة الأخرى في آية واحدة، لهما حكم الآيتين^(٣)، فد (قراءة الفتح) يكون العجب راجع للنبي ﷺ؛ أي: «قد عجب محمد مما أعطاه الله تعالى من الفضل، وسخر منه أهل الشرك بالله، و (القراءة بالضم): وقد عجب ربنا من عظيم ما قاله المشركون في الله، وسخر المشركون بما قالوه»^(٤).

﴿٩﴾ صفة الكمال (البشاشة) الجليّة

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «ما توطَّنَ رجلٌ مسلمَ المَسَاجِدَ للصَّلَاةِ، والذِّكْرَ، إلَّا تَبَشَّشَ اللهُ لَهُ، كَمَا يَتَبَشَّشُ أَهْلُ الْغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ إِذَا قَدَمُوا»^(٥).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ﴾: توطَّنَ؛ أي: التزمَ وداومَ على حضورها.

البَشْ: فرح الصديق بالصدق، واللفظ في المسألة، والإقبال عليه، وقد بششت به أبش، وهذا مثل ضربه لتلقيه إياه ببرّه، وتقريبه، وإكرامه^(٦).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: أخبر نبيُّنا محمد ﷺ أن رَبَّنَا تبارك وتعالى موصوف بالبشاشة، وقد علقها بسببٍ، وهو ملازمة العبد للمساجد، وقد تقدم بيان: أن كلَّ صفةٍ عُلقت بسببٍ فهي فعلية، فمتى وُجِدَ سببُ التبشيش منه تعالى تبشيش بعبد المصلي كما يليقُ بجلاله، وعليائه.

وهذه الصفة الجميلة معناها «يقرب معنى الفرح، والعرب تقول: رأيتُ لفلان بشاشة، وهشاشةً، وفرحاً، ويقولون: فلان هَشٌّ بِشٌّ فرحٌ، إذا كان منطلقاً»^(٧).

وهذه الصفة الكريمة كغيرها يعلم أصلُ معناها، ويُجْهَلُ كيفيتها وكنهها، وهذه القاعدة تقع على كلِّ الصِّفات، كما نصَّ على ذلك أئمةُ الدُّنيا. جاء عن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ في صفة

(١) «تفسير الطبري» (٢٩٧/٦).

(٢) انظر هذه القاعدة في: البرهان للزركشي (٣٢٦/١)، و«مجموع الفتاوى» (٣٩١/١٣ - ٣٩٢)، و«أضواء البيان» للشنقيطي (١٢٠، ٨/٢).

(٣) انظر: «أضواء البيان» (٨/٢).

(٤) تفسر الطبري (٢٩٧/٦).

(٥) صححه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٨٠٠)، وفي «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٢٥).

(٦) «النهاية» (٧٨).

(٧) «إبطال التأويلات» (٢٤٣/١).

الضحك أنه قال: «يضحكُ الله، ولا نعلم كيف ذلك، إلا بتصديقها الرسول ﷺ، والقرآن»^(١).
 وقوله: (ولا نعلم كيف ذلك): لأنَّ الكيفيَّة لا تدرك ولا تعلم إلا بمعرفة حقيقة الشيء وأصله، وهذا منتفٍ في حقِّنا في حقِّ ربِّنا ﷻ.

صفات الكمال (الغضب، والأسف، والسُّخْط، والغَيْظ)

تمهيد:

لَمَّا كانت الصفات التي تقدَّم شرحُها وبيانُها صفات حبيبة إلى النفوس، موقدة إلى شدِّ الهمم والرجاء والأمل، ناسب أن يعقبها ذكر صفات تقابلها، تتضمَّن معاني القهر والانتقام، مع كمال العدل، تستوجب الخوف، والرَّهبة، حتى يُجمع بين الرجاء والخوف، وهي طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب، وهكذا ينبغي للسالك إلى الله تبارك وتعالى في هذه الدَّار، أن يكون الخوف والرجاء له كجناحي الطير، يجمع بين الرغبة والرَّهبة، فلا يغلب واحداً على الآخر، فلا يغلب الرجاء فيقع في الغرور وطول الأمل، ولا يغلب الخوف فيقع في القنوط واليأس.

«وهذه الصفات إنما تقع بأسباب تناقض موجب ما يُحبُّه الله تعالى ويَرْضاه، فهو سبحانه كما يحبُّ أسماءه وصفاته، ويحبُّ آثارها وموجباتها: فهو يكره ما يُضادها، ووجود هذه الصفات مستلزم لما يحبه الله تعالى ويَرْضاه، لذا لم تبق هذه الصفات مقصودة بعدما يحصل عنها من الآثار والمُوجِّبات التي يُحبُّها الله ﷻ ويَرْضاها، لا لنفسها، ولا لغيرها، فتزول ويخلفها أضدادها، التي هي أحبُّ إلى الله تعالى منها، وهي موجب أسمائه وصفاته.

وهذه الصفات لها أعظم الأثر على أولياء الله تعالى المُتَّقِينَ، لأنهم إذا شاهدوا أحوال أعداء الله تعالى ورسله من العصاة والظلمة وما نزل بهم من البطش والانتقام والعقوبة والإهانة والإبعاد والخذلان، ازدادوا خُضوعاً، ودُّلاً، وافتقاراً، وانكساراً، وله عبادة، وبه استعانة، وإليه إنابة، وعليه توكلُّ، وفيه رغبة، ومنه رهبة، فالعبد إذا علم أنَّ الله ﷻ مُتَّصِفٌ بهذه الصِّفَات: تفكَّر في أوصافه المُخالفة لأمره، فاستحى من ربِّه تعالى أن يراه، أو يسمع منه ما لا يحبُّه، ولا يَرْضاه من قبيح أفعاله وأقواله، وأعماله الدالَّة على هوانه ونقصانه.

فالله تعالى مع اتّصافه بهذه الصفات القهرية: إلّا أنه لا يخرج عن عدله، فهو يُجازي عدوّه بما يفعله من الخير والمعروف في الدنيا، ويخفف به عنه يوم القيامة، فالله تعالى لا يُضيع على العبد بما يعمل من الإحسان، ولو كان عند ربّه من أبغض بني الإنسان، بل شرّ وأضلّ سبيلاً من الحيوان^(١).

(١٠) صفة الكمال (العُظْبُ) الجليلة

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَعُضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَهُ﴾﴾ [النساء: ٩٢]^(٢).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي»^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الغضب: نقيض الرضا، وأصله: ثوران دم القلب، إرادة الانتقام، ومنه محمود ومذموم، فالمذموم ما كان في غير الحقّ، والمحمود ما كان في جانب الدين والحقّ^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْحِ: وصف ربّنا نفسه ورسوله الأمين ﷺ بصفة الكمال العلية الجليلة (الغضب)، قلنا صفة كمال لأنّ غضبه تبارك وتعالى «خلاف غضب خلقه، فإن غضب المخلوق هو غليان دم قلبه، طلباً للانتقام، والله يتعالى عن ذلك»^(٥)، وغضب الربّ ليس له مثيل، ولا شبيه من الخلق أجمعين، لا في أسبابه، ولا في غاياته، ولا في موجباته، وآثاره، قال الطحاوي رحمه الله في عقيدته: «والله يغضب ويرضى لا كأحد من الورى»^(٦).

فغضب المخلوق غالباً ما يكون عن سَفَهٍ، وجهل، وظلم، وطيش، وهذه المقتضيات

(١) «جهود الإمام ابن القيم في تقرير توحيد الأسماء والصفات» (١٨١١/٣ - ١٨١٤).

(٢) وقال عزّ شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [المتحنة: ١٣]. وقال ﷺ: ﴿وَمَنْ يَحِلِّدْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ [طه: ٨١].

(٣) البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١). وفي حديث الشفاعة العظيم في اعتذار الأنبياء حين يطلب الناس منهم الشفاعة عند الله تعالى، فكان كل واحد منهم يقول: «إِنَّ رَبَّ غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ...». البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).

(٤) «عمدة الحفاظ» (١٦٥/٣)، و«اللسان» (٦٣٢/٦).

(٥) «شفاء العليل» (٥٩٦/٢).

(٦) «شرح العقيدة الطحاوية» (٥٢٤).

واللوازم لا تلزم صفة الخالق، إذ لا مناسبة بين صفات الخالق وصفات المخلوق من كل وجه، حتى تُقاس صفاته سبحانه على صفاتهم.

وغضب ربنا تبارك وتعالى له شأن عظيم، وخطر جسيم، حيث يترتب عليه العذاب والهلاك، وإحلال أنواع العقوبات، وصنوف المثالات في أي وقت شاء، للأمم المشركة بالله تعالى، المستكبرة عن عبادته^(١).

وينبغي أن يفرق بين صفة الغضب القائمة بالرب، وبين أثر وموجب الغضب، فإن «القرآن مملوءٌ بذكر سخطه وغضبه على أعدائه، وذلك صفة قائمة به، و يترتب عليها العذاب واللعة، لا أن السخط هو نفس العذاب واللعة، بل هما أثر السخط والغضب، وموجبهما، ولهذا يفرق بينهما، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعْنَتْهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣]، ففرق سبحانه بين عذابه وغضبه ولعنته، وجعل كل واحدٍ غير الآخر^(٢).

فالانتقام والهلاك والعذاب نتيجة الغضب، وأثره، ومقتضياته، وهذا باب عظيم ينبغي أن يعلمه الموحدون في حق رب العالمين، فهو طريق الراسخين في العلم بالله تعالى، السالكين طريق الأنبياء والمرسلين، في أعظم وأجل أبواب الدين.

وقد تقدم بيانه: أن صفات الرب تعالى الفعلية تتفاوت على قدر ما تقتضيه أسبابها، ولهذا فإنها تحدث في وقتٍ دون وقت، وغضبه سبحانه كذلك، فإن أشد ما يكون في يوم الدين، ولهذا فإن «غضبه تعالى الذي سيكون في عرصات القيامة غير مسبوقٍ بمثله، وغير ملحقٍ بمثله»^(٣)، كما تقدم (ذكر حديث الشفاعة الطويل)، وهو يخبر عما يقوله الأنبياء اعتذاراً

(١) يقول ابن القيم رحمه الله: «العذاب إنما ينشأ من صفة غضبه، وما سخرت النار إلا بغضبه...، فمخلوقاته سبحانه نوعان: نوع مخلوق من الرحمة والرحمة، ونوع مخلوق من الغضب وبالعقاب، فإنه ﷻ له الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي يتنزه عن خلافه، ومنها: أنه يرضى ويغضب، ويثيب ويعاقب...، فإذا زال غضبه سبحانه، وتبدل برضاه: زالت عقوبته، وتبدلت برحمته، فانقلبت العقوبة إلى رحمة».

ويقول رحمه الله: «وهم - أي: الكافرين والمجرمين - لما أغضبوا الرب تعالى وقابلوه بما لا يليق أن يقابل به، وعاملوه أفحج المعاملة، وكذبوه، وكذبوا رسله، وجعلوا أقل خلقه وأخبثهم وأمقتهم نذراً له، وآلهة معه...، اشتد مقتله لهم، وغضبه عليهم، وذلك يوجب كمال أسمائه، وصفاته، التي يستحيل عليه تقدير خلافها، ويستحيل عليه تخلف آثارها، ومقتضاها عنها». حادي الأرواح (٤٥٣ - ٤٥٤).

(٢) «مدارج السالكين» (١/٢٧٨).

(٣) «الكلبي البهية» (١/٣٦٩).

للناس عندما يتقدمون إليهم لطلب الشفاعة منهم، بدءاً بآدم أبو البشر، ثم نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عليه السلام، كما أخبر بذلك سيد البشر عليه الصلاة والسلام أن كل واحد منهم يقول: «إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، اذهبوا إلى غيري»^(١) إلى آخر الحديث.

والحديث يدلُّ دلالة واضحة على أن إثبات صفة الغضب من دين الرُّسل جميعاً، لأن الشرائع كلها متفقة في الأصول، بيد أن الله جعل لكل واحدٍ منهم شريعةً ومنهاجاً^(٢).

❦ (١١) صفة الكمال (الأسف) الجليلة ❦

❦ القرآن الكريم: قال تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا أَصَفُونَا انْتَفَمْنَا مِنْهُمُ﴾ [الزخرف: ٥٥].

❦ المعنى في اللغة: الأسف: يطلق على المُبالغة في الحزن، والغضب معاً، وقد يقال لكل واحدٍ منهما على الانفراد^(٣).

فمن الأول: وهو شدة الحزن، قوله تعالى عن يعقوب عليه السلام: ﴿يَا سَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]

والثاني: شدة الغضب، كما في الآية السابقة، فيقال: أسف عليه يأسف، بمعنى: غضب عليه، والمعنى الأول ممتنع بالنسبة لله ﷻ، والثاني مثبت لله تعالى، لأن الله وصف به نفسه^(٤).

❦ المعنى في الشَّرْع: الأسف من صفات الله الفعلية، وهو من جنس الغضب، وينبغي هنا أن يعلم: أن الصفة قد يكون لها أصل، وبعض الصفات تكون متنوعة اللفظ، ولكنها مشتركة في الأصل، فالغضب منه الأسف (وهو أشده)، وقد يكون منه أشياء أخرى، وكذلك صفة البغض، ومنه: المقت، الذي هو أشد البغض، إذ البغض جنس منه الكراهية، ومنه المقت... إلى آخره، فإثبات أصل الصفة لا يعني أن الصفات الأخرى مردّها إلى هذا الأصل، يعني لا نقول: المقت هو البغض، أو الكراهية، لأن كل صفة من صفات الله تثبت على ما دلّ

(١) تقدم تخريجه.

(٢) «الصفات الإلهية» (٢٩٩).

(٣) «المفردات» (٧٥).

(٤) «لسان العرب» (١٥٠/١)، «شرح الواسطية» لابن عثيمين (٤٩٩/١)، و«شرح الواسطية» للهراس (٤٨١/١).

عليه النَّصُّ، لكن لها أصل، ولها جنس، فالمقت من جنس البُغْض، ولذلك فسّروه بأنه أشدّ البغض؛ أي: ليس هو البغض فقط، بل البغض الشديد، والبغض له مراتب متعددة.

وخلاصة الأمر:

أنّ هذه الصفات وإن كانت عند التفسير يقرب بعضها من بعض، لكن لا يقال: إن معنى صفة أثبتها الله تعالى لنفسه هو معنى صفة أخرى بالتأدّف المطلق^(١)، ودلّ قوله سبحانه ﴿فَلَمَّا أَتَيْنَا أَتَيْنَا بِهَا وَهَٰؤُلَاءِ سَوِيَّةٌ مِّثْلُ مَا أَتَيْنَا بِهَا﴾ أن الانتقام نتيجة الغضب^(٢).



(١٢) صفة الكمال (السُّخْط) الجليلة



﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾ قال ﷺ: ﴿أَفَمِنْ أَتَبَعَ رِضْوَنَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَا وَهُ جَهَنَّمَ وَيَسَّ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ١٦٢].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾ قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! فيقولون: لبيك وسعديك... فيقول: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ (أي من النعيم الذي هم فيه) فيقول: أَحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فلا أسخط عليكم بعده أبداً»^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: السخَط: نقيض الرِّضا، وهو الكراهية للشيء، وعدم الرضا بعد، يقال: تسخط، وسخط الشيء سخطاً إذا كرهه»^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: السخَط قريب من معنى الغَضَب، فهو من الأفعال الاختيارية، ومعنى الاختيارية أنها تقع باختياره ومشيئته، فتكون في وقتٍ دون وقتٍ، وفي حالٍ دون حالٍ، على مقتضى حكمته.

وهذا النوع من الصفات أي: السخَط، والفرح، والضحك^(٥)، والعجب، والغضب... من

(١) «اللاكلع البهية» (٣٨١/١).

(٢) «شرح الواسطية» لابن عثيمين (٤٩٩/١).

(٣) البخاري (٧٥١٨)، ومسلم (٢٨٢٩). وقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه، إلا كان الذي في السماء ساخطاً عليها حتى يرضى عنها». مسلم (١٤٣٦).

(٤) «كتاب العين» (٢٢٦/٢)، و«النهاية» (٤٢٢).

(٥) الضحك كما تقدم من الصفات الفعلية اللازمة والمتعدية.

الصفات الفعلية اللازمة، يعني: أنها غير متعدية، لم يفعلها في غيره؛ أي: لم تتعدى فيهم، فالفرح لم يفعله تعالى في غيره، وكذلك العجب لم يفعله في غيره^(١).

وعلى هذا فإن سخط ربنا الجليل يقع منه عند وجود مقتضيه من الأسباب، سواء كانت هذه الأسباب قولية، أو أسباب فعلية، فمن الأول: كما جاء في قول النبي ﷺ: «لا تقولوا للمُنافق: سيد، فإنه إن يك سيداً، فقد أسخطتم ربكم ﷻ»^(٢).

والفعلية: كما تقدم في الحديث الثاني عن نُشوز الزوجة في حق زوجها.

❦ (١٣) صفة الكمال (الغيظ) الجلية ❦

❦ السُّنَّة النَّبَوِيَّةُ: قال رسول الله ﷺ: «أغیظ رجل على الله يوم القيامة، وأخبثه، وأغیظه عليه، رجل كان يسمى ملك الأملاك، لا ملك إلا الله»^(٣).

❦ المَعْنَى فِي اللَّفْظِ: الغیظ: أشد الغضب، ومنه تغیظت الهاجرة: اشتد حميمها^(٤).

❦ المَعْنَى فِي الشَّرْحِ: صفة الغیظ من الصفات الكمالية التي أثبتتها أهل السنة على ما يليق بكمال ربنا، وعليائه، قال العلامة عبد الرحمن بن حسن آل شيخ رحمه الله: "قوله: (أغیظ رجل) هذا من الصفات التي تمر كما جاءت، وليس بشيء مما ورد في الكتاب والسنة إلا وجب اتباع الكتاب والسنة في ذلك، وإثباته على وجه يليق بجلال الله وعظمته تعالى، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل...، والباب كله واحد، وهذا هو قول أهل السنة من الصحابة، والتابعين فمن بعدهم"^(٥).

وقال العلامة ابن عثيمين رحمه الله: "(أغیظ): من الغیظ وهو الغضب، أي: إن أغضب شيء عند الله وأخبثه هو هذا الاسم (ثم قال): فيه إثبات الغیظ لله ﷻ، فهي صفة تليق بالله كغيرها من الصفات، والظاهر: أنها أشد الغضب"^(٦).

(١) انظر: «اللازم البهية» (٣٩/٢).

(٢) «صحیح أبي داود» (٩٧٧/٤).

(٣) مسلم (٢١٤٣).

(٤) «المفردات» (٦١٩)، و«القاموس المحيط» (٩٦٨) و«اللسان» (٤٥/٧).

(٥) «فتح المجید شرح کتاب التوحید» (٣٨٧).

(٦) «القول المفید» (٩/٣).

صفات الكمال (الكُزّه، والبُغْض، والمَمْت، والعَتْبُ) الجليلة

تمهيد:

هذه الصفات الفعلية معانيها مُتقاربة، لكنّها تختلف أحياناً بالنوع لا بالحققة، فتخلف في أنواعها شدة، وخفة، في هذا المعنى العام^(١).

وقد تقدّم بيان أن بعض الصفات يرجع معناها إلى جنس الصفات الأخرى، إلا أنّها ليس فيها ترادف محض، بل لكلّ صفةٍ خاصية غير الصفة الأخرى، وإن كان اشتقاقهما واحداً.

وهذا ينطبق كذلك على أسمائه الحسنی فـ (القادر، والقدير، والمقتدر) و(الرحمن، والرحيم) و(الملك، والمالك، والمليك) كلها من جنس واحد، إلّا أن كلّ واحد منها له معنًى ومزية غير الآخر.

وهذا يدلّ على كمال ربّنا ﷻ، إذ إنه تعالى ما من وصف كمال إلّا اتصف به سبحانه، على الوجه الأقصى «وله من ذلك الكمال أكمله، وأعظمه، وأوسع، بحيث لا يكون وراءه كمال أصلاً»^(٢) الذي لا تستطيع كلّ الخلائق من أولهم إلى آخرهم أن يحيطوا بصفة واحدة منها، فما ظنّك بها كلّها!؟



(١٤) صفة الكمال (الكُزّه) الجليلة



﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ أُنْعَاثَهُمْ فَتَبَّطَهُمْ﴾﴾ [التوبة: ٤٦].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: قَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ، وَمَنْعًا وَهَاتِ، وَوَادَ الْبَنَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةُ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةُ الْمَالِ»﴾^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: يوصف ربّنا بأنه يكره، «وكرهه الله - للشيء تكون للعمل كما في الآية ﴿وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ أُنْعَاثَهُمْ﴾﴾ [التوبة: ٤٦]، وكما في قوله سبحانه: ﴿كُلَّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾﴾ [الإسراء: ٣٨]، وتكون كراهته سبحانه أيضاً للعامل، كما في الحديث: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا

(١) «المُحَاضِرَاتُ السَّنِيَّةُ» (١/٢٢٤).

(٢) «شرح التوبة» للهراس (٢/٦٨).

(٣) البخاري (٢٤٠٨)، ومسلم (١٧١٥). وقال ﷺ في تفسير «من أحبّ لقاء الله»: «وإن الكافر إذا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ، كره لقاء الله، وكره الله لقاءه». مسلم (٢٦٨٤).

أَبْغَضَ عَبْدًا نَادَى جَبْرِيلُ: إِنِّي أَبْغِضُ فَلَانًا فَأَبْغِضْهُ^(١)»^(٢).

وتكون كذلك في الوصف: كما قال ﷺ: «... وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا بُشِّرَ بِعَذَابِ اللَّهِ، وَسَخَطَهُ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ»^(٣).

وكرهته تتعلق كذلك بِالْمَكَانِ:

قال ﷺ: «أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مَسَاجِدُهَا، وَأَبْغَضُ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا»^(٤).

١٥) صفة الكمال (البُغْض) الجليلة

❁ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا...، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جَبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أَبْغِضُ فَلَانًا فَأَبْغِضْهُ، فَيَبْغِضُهُ جَبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَوْضِعُ لَهُ الْبُغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ»^(٥).

❁ الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: البُغْضُ: خلاف الحب، ويقال: بغض الرجل؛ أي: صارَ بغيضاً^(٦).

❁ الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: البغض صفة كمالية لله سبحانه تعالى كسائر صفاته الجليلة العلية، «وبغضه سبحانه من الكمال الذي لا تُدرکه الخلائق، وفوق الكمال، إذ كلُّ الكمال فمن كماله يستفاد، وله الثناء الحسن، الذي لا تُحصيه العباد، وإنما هو كما أثنى على نفسه، (فإن) من الكمال أنه يفعل ما يفعله بعد أن لم يكن فاعله، وأنه إذا كان كاملاً في ذاته، وصفاته، وأفعاله، لم يكن كاملاً بغيره، ولا مفتقراً إلى سواه، بل هو الغني، ونحن الفقراء»^(٧)، فإن إثبات هذا الكمال يمكن إثباته، وإدراكه في العقل في غاية البيان، وذلك أنه «إذا قدر اثنان: أحدهما يبغض المتصف بضد الكمال، كالجهل، والظلم، والكذب، ويغضب على من يفعل ذلك، والآخر لا فرق عنده بين الجاهل، والكاذب، الظالم، وبين العالم الصادق، العالم، لا يبغض لا هذا، ولا هذا، ولا يغضب لا على هذا، ولا على هذا، كان الأول أكمل، (وكذلك):

(١) البخاري (٣٢٠٩، ٧٤٨٥)، ومسلم (٢٦٣٧).

(٢) «شرح الواسطية» لابن عثيمين (٥٠١/١).

(٣) مسلم (٢٦٨٤). وفيه بيان: أن الله تعالى يُعامل عباده بحسب مُعاملتهم له، عدلاً وقسطاً.

(٤) مسلم (٦٧١).

(٥) مسلم (٢٦٣٧). وقال ﷺ: «وَأَبْغِضُ الْبِلَادِ إِلَى اللَّهِ أَسْوَاقُهَا» مسلم (٦٧١).

(٦) «الصحاح» (٩٩).

(٧) «مجموع الفتاوى» (٣٦١/١١).

الغضب مع الرضا، والبغض مع الحب: فهو أكمل ممن لا يكون منه إلا الرضا، والحب، دون البغض، والغضب للأمر المذمومة التي تستحق أن تُذم، وتبغض.

ولهذا كان اتصافه تعالى بأنه يُعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويعز ويذل، أكمل من اتصافه بمجرد العطاء، والإعزاز، والرفع، لأن الفعل الآخر حيث تقتضي الحكمة ذلك، أكمل مما لا يفعل إلا أحد النوعين، ويخل بالآخر في المحل المناسب له، ومن اعتبر هذا الباب، وجده على قانون الصواب، والله الهادي لأولي الأبواب»^(١).

﴿١٦﴾ صفة الكمال (المقت) الجليلة

﴿الْكِتَابُ الْحَكِيمُ﴾: قال ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾

[غافر: ١٠].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال ﷺ: «... وَإِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقْتَهُمْ، عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...»^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ﴾: المقت: البغض الشديد^(٣)، قال الزَّجَّاج: المقت: أشد البغض^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: المقت من جنس البغض، فهو أشد البغض؛ أي: ليس هو البغض فقط، بل هو أشده^(٥).

وَمَقْتُ اللَّهِ ﷻ كِبَاقِي صفاته الفعلية، تتجدد حسب مشيئته الحكيمة، «فالله تعالى يمقتُ الفعل، ويمقت صاحبه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾ [غافر: ١٠]، وذلك أَنَّ الكافرين إذا حقت الحقائق يعودون على أنفسهم بالمقت، لأنهم قد تمكنوا من الإيمان، وكثرت آيات الله أمامهم، وأصبحوا يكفرون على عمد، فيقال لهم: ﴿لِمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾، والسبب أنكم قد دُعيتُمْ إلى الإيمان فكفرتُمْ، وهذه الآية يقول العلماء: إِنَّهَا تدلُّ على وجوب الوفاء

(١) المصدر السابق (٩٢/٦، ٩٤).

(٢) مسلم (٢٨٦٥).

(٣) «المفردات» (٧٧٢).

(٤) «معاني القرآن» (٣٢/٢).

(٥) لأنَّ البغضَ جنس، منه الكراهية، ومنه المقت...، فإثبات أصل الصفة لا يعني أن الصفات الآخر مردها إلى هذا الأصل، يعني: لا نقول: المقت هو البغض أو الكراهية، لأنَّ كلَّ صفةٍ من صفاته ﷻ تثبت على ما دلَّ عليه النص، لكن لها أصل، ولها جنس «اللاكلُ البهية» (٣٨١/١). وقد تقدَّم ذكر ذلك - .

بالوعد، لأن الله تعالى يمقت على إخلافه، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿[الصف: ٢ - ٣]، فهذا الوعد، وكون الإنسان يعد الشيء ثم لا يفي به، فإنه يجبُ عليه أن يفي، كي لا يقع في مقت الله جل وعلا^(١).

فدلَّت الآيات السابقة على أن «مقت الله تبارك وتعالى يتفاوت»^(٢) لقوله: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾، وأنه يكون بالفعل: كعدم مطابقة القول بالعمل، ويكون بالعامل، وبالوصف المُصاحب للشخص كالكفر، والعياذ بالله تعالى.

١٧) صفة الكمال (العُتب) الجبلية

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «قَامَ مُوسَى خَطِيْبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَسُئِلَ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ فَقَالَ: أَنَا أَعْلَمُ، فَعُتِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدِّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ...»^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ﴾: العتب: الموجدة، عتبت على فلانٍ عتباً ومعتبة؛ أي: وجدتُ عليه، والعتاب: مخاطبة الإذلال، ومذاكرة الموجدة. وأعتبني فلان إذا عاد إلى مسرتي، واستعتب: طلب أن يرضى، والعتب: أدنى الغضب، وبالجملَة يُطلق على: الموجدة، والسخط، والغضب، واللُّوم^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: هذه الصفة الكريمة ثابتة في حق أحبابه وأصفياه، أي: في مقابلتهم، فإنها تتضمن الرحمة واللفظ، يقول ابن القيم رحمه الله: «عِتابه لأحبابه أَلطَفُ عِتاب، وإنه مع ذلك مَقِيل عَثَرَاتِهِمْ، وَغَافِر زَلَّاتِهِمْ، وَمُقِيم أَعْذَارِهِمْ، وَمُصْلِح فُسَادِهِمْ، وَالدَّافِع عَنْهُمْ، وَالحَامي عَنْهُمْ، وَالنَّاصِر لَهُمْ، وَالكفيل بِمُصَالِحِهِمْ، وَالمنجي لَهُمْ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ، وَالمُوفِي لَهُمْ بِوَعْدِهِ، وَإِنَّهُ وَلِيُّهُمْ الَّذِي لَا وَلِيَّ لَهُمْ سِوَاهُ، فَهُوَ مُوَالَهُمُ الْحَقُّ، وَنَصِيرُهُمْ عَلَى عَدُوِّهِمْ، فَنَعَمْ الْمَوْلَى وَنَعَمْ النَّصِيرُ»^(٥).

(١) «السبائك الذهبية بشرح العقيدة الواسطية» للعلامة عبد الله بن الغنيمان حفظه الله (١٤٥).

(٢) «شرح الواسطية» لابن عثيمين (٥٠٢/١).

(٣) البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠). وفي حديث عمر رضي الله عنه، وهو يقص ما جرى بين النبي ﷺ وزوجاته: فاعتزل النبي ﷺ من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة، وكان قد قال: «ما أنا بداخلٍ عليهنَّ شهراً، من شدة موجدته عليهنَّ حين عاتبه الله...» البخاري (٢٤٦٨).

(٤) «كتاب العين» (٩٠/٣)، «الصحاح» (٦٦٧)، و«القاموس المحيط» (٨٣٥)، «المجموع المغني» (٤٠٠/٢).

(٥) «الفوائد» (٣٧).

والعتب وهو من الله تعالى، فإنه المحسن العادل، فلا يتصور أن يعتب عليه عبده، وإلا والعبد ظالم، فأعتاب الله تعالى عبده: إزالة عتب نفسه عن عبده، وإعتاب العبد ربه: إزالة عتب الله عليه^(١).



(١٨) صفة الكمال (الغيرة) الجليلة



﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَأْتِيَ الْمَرْءُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ»^(٢).

٤ - وقال ﷺ: «يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، مَا أَحَدٌ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ، أَوْ تَزْنِيَ أُمَّتُهُ...»^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الغيرة: تدلُّ على صلاح، وإصلاح، ومنفعة، ومنه: غارهم الله بِالْغَيْثِ؛ أي: أصلح شأنهم، ونفعهم به. وتطلق الغيرة على: الحمية والأئفة، إذ إن أصلها: المنع، والرجل غيور على أهله؛ أي: يمنعهم من التعلق بأجنبي بنظر، أو حديث، أو غيره»^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: الغيرة من صفات الله تعالى الفعلية، لأنها مربوطَةٌ بسبب، وكل صفة مربوطة بسبب فإنها من الصفات الفعلية»^(٥).

وقد تقدّم ذكر الأدلة السنية والتي جاءت في وصف غيرة ربنا العظيم، وكلها جاء فيها «وصف النبي ﷺ رَبَّهُ بِالْأَكْمَلِيَّةِ فِي ذَلِكَ»^(٦)، فنفي وجود من هو أغير من الله تعالى، كما في "الصحيح: «يا أمة محمد، ما أحدٌ أغيرُ من الله، أن يزني عبده أو تزني أمته...» فلم يصفه ﷺ بمطلق الغيرة، بل بيّن أنه لا أحد أغير منه، وأن رسول الله ﷺ أغيرُ من المؤمنين، وقد قدّمنا غير مرّة أن الله سبحانه لا يُساوي في شيء من صفاته، وأسمائه، بل ما كان من صفات

(١) والعبد لا قدرة له على ذلك إلا بتعاطي الأسباب التي يزول بها عتب الله. «بدائع الفوائد» (١٥٢/٤).

(٢) البخاري (٥٢٢٩)، ومسلم (٢٧٦١). وقال ﷺ: «لَا شَيْءَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ» البخاري (٥٢٢٢). وقال ﷺ: «اتَّعَجِبُونَ مِنْ غَيْرَةٍ سَعْدٍ؟! فَوَاللَّهِ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي، مِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللَّهِ حَرَمَ الْفَوَاحِشِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَشْخَصَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ...». البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩).

(٣) البخاري (١٠٤٤) (٥٢٢١).

(٤) «النهاية» (٦٨٥)، و«اللسان» (١٠٣٦/٢)، و«معجم مقاييس اللغة» (٤٠٣/٤).

(٥) لأنَّ السبب واقع بمشيئة الله تعالى، والمرتب عليه واقع على ما وقع بالمشيئة، وهي صفة حقيقة لله ﷻ، وهي بإضافتها إلى الله تعالى لا يمكن أن يعترتها نقص، وأما إذا أُضيفت للآدمي فقد يعترتها نقص «شرح صحيح مسلم» لابن عثيمين (١٨٧/٥).

(٦) «مجموع الفتاوى» (١١٩/٦).

الكمال فهو أكمل فيه، وما كان من سلب النقائص فهو أنزه منه، إذ له المثل الأعلى ﷺ، فوصفه بأنه أغير من العباد، وأنه لا أغير منه^(١).

ولقد جاء في تحقيق هذه الصفة على لسان نبيه الأمين ﷺ في أحسن البيان من أساليب التعليم في تحقيق صفات رب العالمين، كما في حديث سعد، حيث قدّم ﷺ كلامه في صيغة الاستفهام «أتعجبون من غيرة سعد؟» ثم تدرج في بيان تفاضلها بينه وبين سعد بالقسم، وصيغة التفضيل «فوالله لأنا أغير»، ثم أصل المعنى في هذا الوصف على وجه المفاضلة المطلقة في حقّه تعالى «والله أغير مني»، وهذا أسلوب الحكيم أن يضرب الأمثال في الأمور المشاهدة على الأمور الغيبية، وإن معاني الأسماء والصفات وإن اشتركت بين العبد وبين الرب، فإن هذا لا يدلُّ على التساوي، فإذا كان التفاضل متفاوتًا بين الخلق، فمن باب أولى أن يكون على وجه الأقصى الأكمل المطلق في حقّ الربّ ﷻ.

«وغيرة الله تعالى تتضمن بغض، والكراهة لما يغار منه»^(٢)، وإن من مقتضاها وآثارها أنه تعالى حرّم الفواحش^(٣)، ولهذا جمع النبي ﷺ في الحديث الآتي «بين وصفه سبحانه بأكمل المحبة للمدائح، وأكمل البغض للمحارم»^(٤) كما قال ﷺ: «ما أحدٌ أغير من الله تعالى... وما أحدٌ أحبُّ إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرُّسل مُبشِّرينَ ومُنذِرِينَ»^(٥)، فالغيرة أصلها كراهة القبائح وبغضها. ويبيّن محبة العذر الذي يوجب كمال العدل والرّحمة والإحسان، والله سبحانه مع شدّة غيْرته يُحبُّ أن يعتذر إليه عبده، ويقبل عذر من اعتذر إليه، وأنه لا يؤاخذ عبده بارتكاب ما يغار من ارتكابه، حتى يعذر إليهم، ولأجل ذلك أرسل رسله، وأنزل كتبه، إعدارًا وإنذارًا، وهذا غاية المجد، والإحسان، ونهاية الكمال^(٦).

والنصوص الدالة على ثبوت صفة الغيرة لربّنا ﷻ تدلُّ على أن غيْرته تعالى نوعان: إما خاصّة، وإما عامّة، فالخاصّة: وهي أن يأتي المؤمن ما حرم عليه. والعامّة: وهي غيْرته من

(١) «بيان تلييس الجهمية» (٤١٠/٧).

(٢) «الصواعق المرسلة» (١٤٩٧/٤).

(٣) «شرح كتاب التوحيد» للغنيمان (٣٤٠/١).

(٤) «الاستقامة» (٣/٢) لابن تيمية.

(٥) البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩) (٢٧٦٠).

(٦) «الداء والدواء» لابن القيم (١٠٨).

الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وهذه الغيرة أخص من مطلق البُغض، والمقت، والسخط^(١).

فالله تبارك وتعالى يَغَار على إمامه وعبيده من المفسدين شرعاً وقدرًا، ومن أجل ذلك: حرم الفواحش، وشرع عليها أعظم العقوبات، وأشنع القتل، لِشِدَّة غيرته على إمامه وعبيده، فإن عطلت هذه العقوبات شرعاً أجراها سبحانه قدرًا^(٢)، وهذا يدلُّك رعاك الله على كمال غيرته، من كل وجه، لأنها كاملة في: أسبابها، ونتائجها، وآثارها، ولوازمها، فهي مقارنة لحكمته، متضمنة لغاية الرأفة، وسنن الهدى والخير للعباد، بخلاف المخلوق فإن غيرته قد تودي به إلى البغي والطغيان، فسبحان ربنا العظيم ما أكمله: يغار علينا، وهو غنيُّ عنا، فأبي كماله يسمو إلى كماله سبحانه؟.

﴿٢٠-١٩﴾ صفتا الكمال (الإتيان) و(المجيء) الجليلتين

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: ١﴾ - قال تبارك وتعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

٢ - وقال عزَّ شأنه: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

٣ - وقال ﷺ: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: ١﴾ - قال رسول الله ﷺ: «يقول الله ﷻ: أنا عند ظنِّ عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني...، وإن تقرب إليَّ ذراعًا تقربتُ إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة». وفي رواية: «... وإذا تلقاني بباعٍ جئته أتيته بأسرع»^(٣).

٢ - حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ في حديث رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة: «... فيأتيهم الجبار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة، فيقول: أنا ربكم...»^(٤).

(١) انظر: «الاستقامة» (٩/٢، ١١، ١٣).

(٢) «روضة المحبين ونزهة المشتاقين» لابن القيم (٣١٠).

(٣) البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥). وفي رواية: «... وإذا تلقاني بباعٍ جئته أتيته بأسرع» مسلم (٢٦٧٥).

(٤) البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣). وفي لفظ: «أناهم رب العالمين ﷻ» مسلم (١٨٣).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الْإِتْيَانُ: مَجِيءٌ بِسُهُولةٍ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلسَّيْلِ الْمَارِّ عَلَى وَجْهِهِ: أَتَى وَأَتَاوَيْ، وَالْإِتْيَانُ يُقَالُ لِلْمَجِيءِ بِالذَّاتِ، وَبِالْأَمْرِ، وَبِالتَّدْبِيرِ، وَيُقَالُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَفِي الْأَعْيَانِ وَالْأَعْرَاضِ^(١)﴾.

وَيُسْنَدُ الْإِتْيَانُ لِلْبَارِي تَعَالَى، كَمَا أَسْنَدَ إِلَيْهِ الْمَجِيءُ عَلَى مَعْنَى يَلِيقُ بِجَلَالِهِ، وَيُعْبَرُ بِالْإِتْيَانِ عَنِ الْهَلَاكِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْسَبُوا﴾ [الحشر: ٢]^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْحِ: يُوَصَفُ رَبَّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِصِفَتِي الْإِتْيَانِ وَالْمَجِيءِ الْفَعْلِيَّتَانِ، عَلَى الْحَقِيقَةِ كَمَا يَلِيقُ بِكَمَالِ رَبَّنَا وَجَلَالِهِ، وَقَدْ «تَلَقَّاهَا عِلْمَاءُ السَّلَفِ بِالْقَبُولِ، وَنَقَلُوهَا مِنْ بَعْدِهِمْ كَمَا فَهَمُوهَا، وَدَرَجَ عَلَى الْإِيمَانِ بِهَا مِنْ بَعْدِهِمْ وَإِقْرَارَهَا، وَإِمْرَارَهَا كَمَا جَاءَتْ وَكَمَا تَلَقَّوْهَا، وَهُمْ خَيْرُ الْقُرُونِ، بَلْ هُمْ النَّاسُ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ عَنْ فَهْمِهِمْ لِلنَّصُوصِ كَيْفَ فَهَمُوهَا، وَكَيْفَ عَمَلُوا بِهَا، لِيَقْتَدِيَ بِهِمْ، وَلَا سِيَمَا بَابَ «الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ»، فَالْخَيْرُ وَالْهُدَى وَالْإِطْمِئْنَانُ فِي اتِّبَاعِهِمْ، وَالتَّأَسِّيَ بِهِمْ»^(٣)﴾.

وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْأَدْلَةِ عَلَى هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ، فَالآيَةُ الْأُولَى يُخْبِرُ اللَّهُ ﷻ أَنَّهُ «يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِفَضْلِ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، فَيَجْزِي كُلَّ عَامِلٍ بِعَمَلِهِ، إِنَّ خَيْرًا فَخَيْرٍ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٍّ، وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾»^(٤).

وَفِي قَوْلِهِ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

يَقُولُ شَيْخُ الْمَفْسَرِينَ فِي وَشَرْحِهَا بَيَانُهَا عَلَى مَنْهَجِ أَهْلِ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ: «يَقُولُ جَلَّ ثَنَاهُ: هَلْ يَنْتَظِرُ هَؤُلَاءِ الْعَادِلُونَ بِرَبِّهِمُ الْأَوْثَانَ وَالْأَصْنَامَ ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ بِالْمَوْتِ فَتَقْبِضَ أَرْوَاحَهُمْ، أَوْ أَنْ يَأْتِيَهُمْ رَبُّكَ يَا مُحَمَّدٌ، بَيْنَ خَلْقِهِ فِي مَوْقِفِ الْقِيَامَةِ...»^(٥).

وَقَدْ بَيَّنَّ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ: الْإِتْيَانَ وَالْمَجِيءَ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى نَوْعَانِ: مُطْلَقٌ، وَمَقَيَّدٌ، فَإِذَا كَانَ مَجِيءٌ رَحِمَتُهُ، أَوْ عَذَابُهُ، كَانَ مَقَيَّدًا، كَمَا فِي الْحَدِيثِ «حَتَّى إِذَا جَاءَ اللَّهُ بِالرَّحْمَةِ

(١) وَالْمَجِيءُ كَالْإِتْيَانِ، لَكِنِ الْمَجِيءُ أَمُّ. «المفردات» (٦٠) (٢١٢).

(٢) «عمدة الحفاظ» (١/٥٤ - ٥٥).

(٣) «الصفات الإلهية» (٢٥٧ - ٢٥٨).

(٤) «تفسير ابن كثير» (١/٢٤٨).

(٥) «تفسير الطبري» (٣/٣٨٧).

والخير»، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الأعراف: ٥٢]، وقوله: ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ [المؤمنون: ٧١]، وفي الأثر: (لا يأتي بالحسنات إلا الله).

النوع الثاني: المجيء والإتيان المطلق، كقوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ﴾، وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ﴾، وهذا لا يكون إلا مجيئه سبحانه، هذا إذا كان مطلقاً، فكيف إذا قيّد بما يجعله صريحاً في مجيئه بنفسه، كقوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ فعطف مجيئه على مجيء الملائكة، ثم عطف مجيء آياته على مجيئه.

ومن المجيء المقيّد قوله: ﴿فَآتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ﴾ [النحل: ٢٦]، فلما قيّد بالمفعول وهو البنيان، وبالمجرور وهو القواعد: دلّ ذلك على مجيء ما بينه، إذ من المعلوم أن الله سبحانه إذا جاء بنفسه لا يجيء من أساس الحيطان وأسفلها، وهذا يشبه قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ [الحشر: ٢]، فهذا مجيء مقيّد لقوم مخصوصين، قد أوقع بهم بأسه^(١).



(٢١) صفة الكمال (العدل) الجلية



هذه الصفة الكريمة قد أقرّ بها جميع المخلوقات إنسها وجنّها، مؤمنها وكافرها، فالخلق جميعاً مفطورون على الإيمان بها.

قال ابن القيم رحمه الله: «قد اتفق أهل الأرض والسموات على أن الله تعالى (عدل) لا يظلم أحداً، حتى أعداءه المشركين الجاحدين لصفات كماله، فإنهم مقرّون له بالعدل، ومنزّهون له عن الظلم، حتى إنهم ليدخلون النار وهم معترفون بعدله، كما قال تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ﴾ [الملك: ١١]، وقال تعالى: ﴿قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ لُحْيُوهُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٠]»^(٢).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: عن ابن مسعود رضي الله عنه، أن رجلاً قال للنبي ﷺ: والله إن هذه قسمة ما عدل فيها، فقال النبي ﷺ: «فَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ يَعْدِلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ»^(٣).

(١) «مختصر الصواعق المرسلة» (٤٢٧/٢)، وانظر: (٣٣٩/٢).

(٢) «مختصر الصواعق المرسلة» (٢٢١/١).

(٣) البخاري (٣١٥٠)، ومسلم (١٠٦٢).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: العدل: ضد الجور، وهو ما قام في النفوس أنه مستقيم، والعدل: هو الذي لا يميل به الهوى، فيجور في الحكم، والعدل: الحكم بالاستواء؛ أي: بالحق﴾^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْح: الله تبارك وتعالى هو العدل، الذي لا عدل منه على الإطلاق، «الذي كُلُّ أفعاله، وأحكامه سداد، وصواب، وحق، وهو سبحانه قد أوضح السبل، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب، وأزاح العلل، ومكن من أسباب الهداية، والطاعة، بالأسماع، والأبصار، والعقول، وهذا عدله»﴾^(٢).

فهو تعالى الحكم العدل الذي تمت كلماته صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥]، فأوامره كلها عدل، لأنها منافع ومصالح، فهي عدل ممزوجة بالرحمة، ونواهيها كلها عدل، لكونه لا ينهى إلا عن الشرور والأضرار، وهي أيضاً مقرونة برحمته وحكمته، ومُجازاته للعباد بأعمالهم عدل، لا يهضم من حسناتهم، ولا يزيد في سيئاتهم، أو يعذبهم بغير جرم اجتراحه، فعدله سبحانه شامل للخلقة كلها، حتى من قضى عليهم العذاب يعترفون له بالعدل، وأنه لم يظلمهم مثقال ذرة، قال تعالى: ﴿وَفُضِّنَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

بل إن عدله شمل الحيوانات والبهائم، فإنه يقتص للشاء الجماء من الشاة القرناء^(٣)، كما قال ﷺ: «يُحْشَرُ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، والبهائم والدواب والطيور وكل شيء، فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماء من القرناء»^(٤)، بل حتى النملة من النملة، قال ﷺ: «يقتص الخلق بعضهم من بعض، حتى الجماء من القرناء، وحتى الذرة من الذرة»^(٥).

﴿٢٢﴾ صفة الكمال (الغلبة) الجليلة

﴿الكِتَابُ الْحَكِيمُ: قال ﷺ: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَ بَنِي آدَمَ وَأَوْسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: عن أبي هريرة ؓ، أن رسول الله ﷺ كان يقول: «لا إله إلا الله

(١) «اللسان» (٢٨٣٨/٥)، و«النهاية» (٥٩٦)، و«القاموس المحيط» (٨٤٧).

(٢) الفوائد (٣٣).

(٣) «فتح الرحيم الملك» (٣٢)، وتوضيح الكافية (١٢٧).

(٤) «السلسلة الصحيحة» (١٩٦٦).

(٥) المصدر السابق (٦١٢/٤).

وحده، أعزَّ جُنْدَه، ونصرَ عبْدَه، وغلبَ الأحزابَ وحْدَه، فلا شيءَ بعْدَه»^(١).

﴿المَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الغَلَبَةُ: القَهْر؛ أي: القوي القادر، يقال: تغلب على بلد كذا: استولى عليه قهراً﴾^(٢).

﴿المَعْنَى فِي الشَّرْع: الله تبارك وتعالى هو الغالب الذي لا يُغْلَب «بل هو الغالب البالغ مراده من خلقه، أحبُّوا أو كرهوا، وهذه إشارة أيضاً إلى كمال القدرة، والحكمة، (والعزَّة، والمنعة)، وأنه تعالى لا يُقَهَّر ولا يُخدع ولا يُغْلَب»^(٣) بحالٍ من الأحوال، فهو تعالى «من يتمسك به فهو الغالب، ولو أن كلَّ مَنْ في الأرض له طالب»^(٤) وهذا الوعد منه تعالى «قد حكم وكتب في كتابه الأول، وقدره (قبل خلق الخلائق) الذي لا يخالف، ولا يبدل، ولا يُمانع، قال سبحانه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]؛ أي: كتب القوي العزيز أنه الغالب لأعدائه، وهذا قدر محكم، وأمر مُبرَم، أن النصرَ له، ولكتابَه، ورسله، وعباده المؤمنين في الدنيا والآخرة»^(٥).



(٢٣) صفة الكمال (استِطَابَةُ الرِّوَاثِ) الجَلِيلَة



﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: قال رسول الله ﷺ: «وَلَخُلُوفٌ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ»^(٦).

﴿المَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الطَّيِّبُ: ضِدُّ الخَبِيثِ، فعله طاب يطيب طيباً فما أطيبه، يعني: ما أجمله، وما أذكاه، وما أنفسه. ويأتي بمعنى: الطاهر، والطيب من كلِّ شيء أفضله، والطيب يكونُ في المحسوسات وغيرها، فالطيب من المحسوسات هو ما لذَّ، وزكا من خيار المَطْعومات والملبوسات، وفي غير المحسوسات: كالطيب من القول، والكلمات، أو الباقيات الصالحات^(٧).

﴿المَعْنَى فِي الشَّرْع: من أوصاف رَبَّنَا ﷻ أنه يستطيع ما يشاء من الرِّوَاثِ، وأخبر ﷺ

(١) البخاري (٤١١٤).

(٢) «عمدة الحفاظ» (١٦٨/٣)، و«الصحيح» (٧٨٠).

(٣) «المنهاج» (١٩٨/١)، و«الأسنى» (٣١٨).

(٤) «الأسنى» (٣١٨).

(٥) «تفسير ابن كثير» (٤٣٢/٤).

(٦) البخاري (٥٥٨٣)، ومسلم (١١٥١).

(٧) «معجم مقاييس اللغة» (٤٣٥/٣)، و«لسان العرب» (٥٦٣/١)، و«كتاب العين» (٤٦١/٧).

أَنَّ رِيحَ فَمِ الصَّائِمِ عِنْدَ اللَّهِ سَبْحَانَهُ أَطْيَبُ مَا يَكُونُ مِنَ الطَّيِّبِ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ صِفَاتِهِ، وَأَنَّهَا لَا تُشَبِّهُ، وَلَا تُمَاتِلُ، وَلَا تَقَارِبُ صِفَاتِ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، فَإِنَّهُ مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ أَيَّ أَحَدٍ مِنَ الْخَلْقِ لَا يَسْتَطِيعُ رَائِحَةَ الْفَمِ، خَاصَّةً عِنْدَ خُلُوعِ الْمَعْدَةِ، وَالتِّي تَظْهَرُ جَلِيَّةً عِنْدَ الصَّوْمِ، وَلَكِنْ لِكَمَالِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ، يَسْتَطِيعُ هَذِهِ الرَّائِحَةَ بِأَطْيَبِ مَا عِلْمُهُ الْخَلْقَ مِنَ الطَّيِّبِ.

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: مِنَ الْمَعْلُومِ أَنَّ أَطْيَبَ مَا عِنْدَ النَّاسِ مِنَ الرَّائِحَةِ رَائِحَةُ الْمِسْكِ، فَمَثَلُ النَّبِيِّ ﷺ هَذَا الْخُلُوفُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى بِطَيِّبِ رَائِحَةِ الْمِسْكِ عِنْدَنَا، وَأَعْظَمُ، وَنِسْبَةُ اسْتَطَابَةِ ذَلِكَ إِلَيْهِ ﷺ كَنِسْبَةِ سَائِرِ صِفَاتِهِ، وَأَفْعَالِهِ إِلَيْهِ، فَإِنَّهَا اسْتَطَابَةٌ لَا تُمَاتِلُ اسْتَطَابَةَ الْمَخْلُوقِينَ، كَمَا أَنَّ رِضَاهُ وَغَضَبَهُ وَفَرَحَهُ وَكَرَاهِيَتَهُ وَحُبَّهُ وَبَغْضَهُ لَا تُمَاتِلُ مَا لِلْمَخْلُوقِ مِنْ ذَلِكَ، كَمَا أَنَّ ذَاتَهُ ﷺ لَا تُشَبِّهُ ذَوَاتَ خَلْقِهِ، وَصِفَاتِهِ لَا تُشَبِّهُ صِفَاتِهِمْ وَأَفْعَالَهُمْ، وَهُوَ ﷺ يَسْتَطِيعُ الْكَلِمَ الطَّيِّبَ فَيَصْعَدُ إِلَيْهِ، وَالْعَمَلَ الصَّالِحَ فَيَرْفَعُهُ، وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْاسْتَطَابَةُ كَاسْتَطَابَتِنَا^(١).

٢٤) صفة الكمال (الصَّبر) الجَلِيلَة

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَدَى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ ﷻ، إِنَّهُ يُشْرِكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ، ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ، وَيَرْزُقُهُمْ»^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّفْظِ﴾: الصَّبْرُ: الْحَبْسُ، وَهُوَ نَقِيضُ الْجَزَعِ^(٣)، وَالصَّبْرُ أَعَالِي الشَّيْءِ^(٤).

الْأَدَى: هُوَ مَا خَفَّ أَمْرُهُ، وَضَعَفَ أَثَرُهُ مِنَ الشَّرِّ وَالْمَكْرُوهِ، بِخِلَافِ الضَّرَرِ، فَقَدْ أَخْبَرَ سَبْحَانَهُ أَنَّ الْعِبَادَ لَا يَضُرُّونَهُ، كَمَا قَالَ سَبْحَانَهُ: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٧٦]^(٥).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْحِ﴾: اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الصَّبُورُ^(٦) الَّذِي لَا أَصْبِرُ مِنْهُ عَلَى الْإِطْلَاقِ،

(١) «الوابل الصيب» (٥٢/١).

(٢) وفي رواية: «مَا أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَدَى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، إِنَّهُمْ يَجْعَلُونَ لَهُ نِدًّا، وَيَجْعَلُونَ لَهُ وَلَدًا، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَرْزُقُهُمْ، وَيُعَافِيهِمْ، وَيُعْطِيهِمْ». البخاري (٧٣٧٨)، ومسلم واللفظ له (٢٨٠٤).

(٣) «القاموس المحيط» (٧٢٥).

(٤) «اللسان» (٢٦٧/٥).

(٥) من كلام شيخ الإسلام بواسطة «شرح كتاب التوحيد» للغنيمان (٧٣/١).

(٦) الصبر من أفعال الله تعالى اللازمة، والمتعدية كما تقدم بيانه، انظر (ص ٨٤).

كما وصف بذلك أعرف الخلق به ﷺ، وجاء وصفه بأكمل وأفضل وأعلى صيغ الثناء عليه: «لا أحد أصبر» «ما أحد أصبر» «ليس أحد أصبر» «بصيغة التفضيل من الصبر»^(١)، وكذلك النكرة في سياق النفي، والتي تفيد العموم كما هو معلوم، فصبر ربنا تعالى أكمل صبر، وأجمله، وأحسنه، لأنه عن كمال القوة، والاعتدار، وعن كمال الغنى عن كل الوری، مع إنعامه عليهم بالليل والنهار، وفي السر والجهر، مع الفجار أو الكفار، فضلاً على الأبرار، فإن العباد يتبغضون إليه بالمعاصي، ويبارزون بالذنوب العظام، وهم مضطرون إليه في كل الأحوال، فيتجَبَّب إليهم بالآلاء والنعم، ويصرف عنهم الآفات والنقم، كأنهم لم يعصوه في أي ساعة ولا آن، يَتِمَادُونَ في الطغيان، والله تعالى لا يزيده ذلك إلا صبراً، وحلماً، وكرماً بالأنام^(٢).

ومن كمال صبر ربنا الذي ليس له فيه شبيه، ولا عدیل، أن الكفار والمُعاندين يسبونَه بأشد السباب، ويجعلون معه الشركاء والأنداد، «فلا يُزعجه ذلك كله إلى تعجيل العقاب، بل يصبر على عبده ويمهله، ويستصلحه، ويرفق به، ويحلم عنه، إذا لم يبق فيه موضع للضيعة، ولا يصلح على الإمهال، والرفق، والحلم، من باب البلاء والنقم، أخذه أخذ عزيزٍ مقتدر، بعد غاية الإعذار إليه، وبذل النصيحة إليه، ودُعائه مع كل باب»^(٣).

فأي صبرٍ أكمل من هذا، بل أي صبر يقرب من هذا الصبر، وهو العزيز الجبار المتكبر، ألا يزيدك هذا يا عبد الله حباً وشوقاً، وإخباتاً إلى ربك العظيم الصبور سبحانه؟!



(٢٥) صفة الكمال (الحثو) الجلية



❖ السُّنَّة النَّبَوِيَّة: قال رسول الله ﷺ قال: «وعدني ربِّي أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً، لا حسابَ عليهم، ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفاً، وثلاث حثيات من حثيات ربِّي ﷺ»^(٤).

(١) «فتح الباري» (٤٤١/١٣).

(٢) «توضيح الكافية» (١٢١)، و«الحق الواضح» (٥٧)، و«فتح الرحيم» (٤٣) بتصرف.

(٣) «عدة الصابرين» (٢٨٢).

(٤) صححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٤٣٧)، وفي صحيح ابن ماجه (٤٢٨٦). وقال ﷺ: «إن ربِّي وعدني أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً بغير حساب، ثم يتبع كل ألف سبعين ألفاً، ثم يعني بكثرة ثلاث حثيات» فذكر عمر... رواه الدارمي في «رده على بشر المرسى» (٢٧٧/١، ٢٨٠)، وقال الحافظ ابن حجر: سنده جيد، الفتح (٤١٨/١١)، وصححه الألباني في «صحيح موارد الظمان» (٢٢٣٤). وقال ﷺ: «إن ربِّي وعدني أن يدخل الجنة من أمتي سبعين ألفاً بغير حساب، ويشفع لكل سبعين ألفاً، =

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الحثو: الإهالة، يقال: حثا عليه التراب حثوًا: هال، والحثية والحثوة: يستعمل فيما يعطيه الإنسان بِكَفِّهِ دفعة واحدة من غير وزنٍ ولا تقدير^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: صفة الحثو من الأوصاف الكمالية، لأنها تقومُ به سبحانه، ولا يقوم به إلا «الأطيب، والأحسن، والأجمل، والأفضل»^(٢) من وصف كمالٍ على الإطلاق، قال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ [النحل: ٦٠].

وقوله ﷺ: «وثلاث حَيَّات^(٣) من حَيَّات ربي»؛ أي: ثلاث غرف يغرفها سبحانه بِكَفِّهِ الكريمتين، والله تعالى أعلم بكيفية الحثو، لكن نؤمنُ بذلك ونُصدِّقه، هذا هو الواجب على المؤمن، لأن رَبَّنَا لم يأمرنا بالبحث عن الكيفية، لأنه تعالى أعظم وأجلُّ أن يُحاطَ به، قال رب العالمين: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠].

﴿٢٦-٢٧﴾ صفتا الكمال (الإِرَادَة) و(المَشِيَّة) الجليلتان

﴿الكِتَابُ الْحَكِيمُ: ١﴾ قال عز شأنه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَقَعْلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣-٢٥٤] وقال ﷺ: «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ» [البقرة: ١٨٥].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: ١﴾ قال ﷺ: «وَكَلَّ اللَّهُ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، فيقول: أي رب نطفة...، فإذا أَرَادَ الله أن يقضي خلقها قال...»^(٤).

٢) وقال ﷺ: «احتجَّت النار والجنة...، فقال الله ﷻ لهذه - أي النار -: أنتِ عذابي أعذَّبُ بكِ مَنْ أشاء، وقال لهذه - أي: الجنة -: أنتِ رحمتي أرحمُ بكِ مَنْ أشاء، ولكلِّ واحدةٍ منكما مِلُّوْهَا»^(٥).

= ثم يحني ربي ثلاث حَيَّات بِكَفِّهِ. (فحسب ذلك عند رسول الله ﷺ فبلغ أربع مائة ألف وتسع مائة ألف)، فقال ﷺ: «إِنَّ ذَلِكَ يَسْتَوْعِبُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مُهَاجِرِي أُمْتِي، ويوفينا الله بشيء من أعرابنا». رواه ابن أبي عاصم في «السنن» (٨٣٥)، وصححه محقق الكتاب أ.د. باسم الجبوري (٥٥٥/١).

(١) «لسان العرب» (٣٢٤/٢). وقوله ﷺ: «وثلاث حَيَّات» بفتح الحاء والمثلثة جمع حثية «تحفة الأحوذى» (٣١١/٦).

(٢) «تفسير الطبري» (٥٣٠/٤).

(٣) ذكر ثلاث حَيَّات لعل في ذلك تشريفًا للأمة، وإلا حثية واحدة تكفي لتمام الأمة، ومثله قوله سبحانه: ﴿وَالسَّمَكُوتُ مَطْوِيَّتٌ بِمِيزْنِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] والله أعلم بالحكمة. «إنجاز الحاجة لشرح سنن ابن ماجه» (٣٣٠/٩).

(٤) البخاري (٣١٨، ٦٥٩٥)، ومسلم (٢٦٤٦).

(٥) مسلم (٢٨٤٦).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: من أصول أهل السنة والجماعة إثبات مشيئة الرَّبِّ العامَّة، وأن ما شاء كان، وما لم يشأ لا يكون، كما أنَّ من أصولهم الثابتة إثبات صفة الإرادة، وهي قسمان:

إرادة كونية قدرية: كالمشيئة، وهذه الإرادة لا يخرج عن مُرادها شيء، كالمشيئة، فالكافر والمسلم تحت هذه الإرادة الكونية سواء، فالظلمات والمعاصي والأرزاق كلها بِمَشِيئَةِ الرَّبِّ، وإرادته الكونية.

وقد ذكر سبحانه هذه الإرادة في قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

القسم الثاني من الإرادة: الإرادة الشرعية الدينية، وتتضمن محبة الرَّبِّ للمُراد، ورضاه به، وهذه الإرادة لا يلزم وجود مُرادها، بل قد يوجد، وقد لا يوجد، فالله سبحانه قد أَرَادَ من عباده شرعاً أن يعبدوه ويطيعوه، فمنهم مَنْ عبده وأطاعه، ومنهم من لم يفعل ذلك.

وبهذا يعلم أن الإرادتين تجتمعان في حقِّ المُطيع، وتنفرد الإرادة الكونية في حق العاصي، لأنَّ الله تعالى لم يُرد منه المعصية شرعاً، بل قد نهاه عنها، وقد ذكر الله هذه الإرادة بقوله: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٧]، وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]^(١).

الفرق بين الإرادتين:

(١) الإرادة الكونية قد يُحبُّها الله تعالى ويرضاها، وقد لا يُحبُّها ولا يرضاها، والإرادة الشرعية لا بُدَّ أن يحبُّها ويرضاها، فالله تعالى أَرَادَ المعصية كوناً، فقد أذن لبعض المعاصي أن توجد في الأرض، لكنه لا يرضاها شرعاً.

(٢) الإرادة الكونية مقصودة لغيرها، كخلق إبليس وسائر الشُّرور، لتحصل بسبب ذلك المُجاهدة والتوبة والاستغفار، وغير ذلك من المحاب، والإرادة الشرعية مقصودة لذاتها، فالله أَرَادَ الطاعة كوناً وشرعاً، وأحبَّها ورضيها.

(١) «شرح العقيدة الواسطية» لإعلامة الزمان الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ (٣٧٦/١ - ٣٧٧).

(٣) الإرادة الكونية لا بُدَّ من وقوعها، والإرادة الشرعية لا يلزم وقوعها، فقد تقع، وقد لا تقع^(١).

وينبغي أن «نؤمن بأنَّ مُرادَه الكوني والشرعي تابعٌ لحِكمته، فكلُّ ما قَضاه كونا، أو تعبد به خلقه شرعاً فإنه لِحِكمة، وعلى وفق الحِكمة، سواء علمنا منها ما نعلم، أو تقاصرت عقولنا عن ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، فوصف الله نفسه بالعلم، والحكمة، فدلَّ ذلك على أن الله تعالى لا يَشَاء شيئاً إلا مبنياً على علم، وحكمة»^(٢).

٢٨) صفة الكمال (الرُّشدُ) الجليبة

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال ﷺ: «الإمام ضامنٌ، والمؤذن مؤتمنٌ، اللهم أرشدِ الأئمة، واغفر للمؤذنين»^(٣).

﴿المَعْنَى فِي اللُّغَةِ﴾: الرشد: الرشاد، والرشد: نقيض الغي والضلال، فالرشد: الهداية، والغى: الضلال، يقال: رشد الرجل فهو راشد، إذا أصاب وجه الأمر والطريق، وأرشده الله: هداه^(٤).

﴿المَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: الله تبارك وتعالى هو الرشيد، الذي لا أكمل، ولا أرفع منه في هذا الوصف على الإطلاق، «فهو سبحانه قوله رشد، وفعله كله رشد»^(٥)، الذي أسعد من شاء بإرشاده، وأشقى من شاء بإبعاده، وهو الذي لا يوجد سهو في تدبيره، ولا لهو في تقديره^(٦)، وهو سبحانه الذي تنساق تدبيراته إلى غاياتها، على سنن السداد، من غير إشارة مشير، ولا تسديد مسدد، وإشارة مرشد^(٧) من أحدٍ من العبيد، وهو الذي أرشد الخلق كلَّهم إلى مَصَالِحهم وما فيه منافعهم، فيما يحتاجونه بما يُقيم حياتهم، وأرشد أوليائه خاصة إلى الجنة، وهو مرشد الحائرين في الطريق الحسي، والضالين في الطريق المعنوي، فيهديهم إلى الصراط المستقيم بياناً وتعليماً

(١) «شرح الواسطية» للعلامة الفوزان (٤٠٩/١).

(٢) «شرح عقيدة أهل السنة» للعلامة ابن عثيمين (١١٧-١١٨، ١٩٦-١٩٧).

(٣) صححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٠٧).

(٤) «عمدة الحفاظ» (٩٣/٢)، و«النهاية» (٣٥٩).

(٥) «الحق الواضح» (٧٨).

(٦) «شرح الأسماء» للرازي (٣٣٨).

(٧) «النهاية» (٣٥٩).

وتوفيقاً، فيما يشرعه لعباده من الشرائع، التي هي رشد وهدي، ونور وحكمة، ويرشد عبده المؤمن إذا خضع له وأخلص عمله، أرشده إلى جميع مصالحه^(١)، ولهذا سأل الفتية المؤمنة أصحاب الكهف منه الرّشاد ﴿وَهَيَّ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].



(٢٩) صفة الكمال (الطيّ) الجليلة



﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾ قال تبارك وتعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]^(٢).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾ قال رسول الله ﷺ: «يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟»^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الطي: نقيض النشر وهو لف الشيء بعضه على بعض، كطي الدرج، ويقال: طويت الصحيفة أطويها طيًّا، فالطي مصدر، وطويتها طية واحدة؛ أي: مرّة واحدة، وإنه لحسن الطيّة، لا يراد به المرة الواحدة، ولكن ضرب من الطي، مثل: الجلسة، والمشية، يراد: نوع منه^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: الطي صفة من صفات ربنا ﷻ الفعلية الاختيارية؛ أي: التي تقع باختياره، بمعنى: بمشيئته وإرادته، المقترنة بحكمته، والطي: هو ملاقة الشيء بعضه على بعض، وجمعه، وهو قريب من القبض، الذي هو: أخذ الشيء باليد، وجمعه، (كما سيأتي عند صفة القبض).

وهذه الصفة الجليلة مما يجب الإيمان بها، لأنها داخلة في الإيمان بالله ﷻ، وهي من الصفات المتعدية التي تتعدّى آثارها، فحدوث ما يحدثه تعالى من المخلوقات تابع لما يفعله من أفعاله الاختيارية القائمة به تعالى^(٥).

وهذا الطي حقيقي للسماء، وقد جعل الله ﷻ الطيّ للسموات لا القبض، لأن السماء

(١) توضيح الكافية (١٢٧)، و«فتح الرحيم» (٥٠ - ٥١)، و«الحق الواضح» (٧٨ - ٧٩).

(٢) وقال عز شأنه: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّكُونُ مطْوِيَةً يَبِينُهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧].

(٣) البخاري (٧٣٨٢)، ومسلم (٢٧٨٧).

(٤) «عمدة الخفايا» (٤٢٨/٢)، و«اللسان» (٦٧٢/٥)، و«كتاب العين» (٦٨/٣).

(٥) انظر: «شرح كتاب التوحيد» للغنيمان (١٤٠/١) ببعض التصرف.

أوسع من الأرض وأشد وأعظم، وطَّيَّها أبلغ في القدرة، وقد شبَّه الله تعالى هذا الطيَّ بقوله: ﴿كُتِبَ السَّجَلُ لِلْكِتَابِ﴾^(١) يخبر الله تعالى أنه يوم القيامة يطوي السموات على عِظَمِها واتِّساعها، كما يطوي الكاتب السَّجَل؛ أي: الورقة المكتوب فيها، فتنتشر نجومُها، وتكور شمسها وقمرها، وتزول عن أماكنها^(٢)، فلا إله إلا الله، فهذه السموات العظيمة يطويها بيمينه كطي السجل للكتب، ثم يقول: «أنا المَلِكُ، أين مُلُوكُ الأرض؟» الله أكبر، أين ملوك الأرض، وهل أحدٌ منهم يرفع أصبعه؟ الجواب: لا، لأنه لا يوجد ملكٌ يوم القيامة، فالناس سواءٌ، أصغر الخدم وأقوى الملوك، فكلهم خُفَاةٌ، وكلهم عُرَاةٌ، وكلهم غُرُلٌ، فالملُكُ لله ﷻ^(٣).

٣٠) صفة الكمال (الْحَنَانُ) الجليلة

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿يَخِيحُنْ حُذِ الْكِتَابِ يَقُوْهُ وَءَاتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيحًا﴾^(١) وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٢-١٣].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «يُوضَعُ الصِّرَاطُ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ، عَلَيْهِ حَسَكٌ»^(٢) كَحَسَكِ السَّعْدَانِ... ثم يشفع الأنبياء في كل من كان يشهد أن لا إله إلا الله مُخْلِصًا، فيُخْرِجُونَهُمْ مِنْهَا، قال: ثم يتحنَّنُ الله برحمته على مَنْ فِيهَا»^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ﴾: الحنان: الرحمة والعطف، والفعل: التحنن، وحنانيك يا فلان افعل كذا، ولا تفعل كذا تذكره، تذكره بالرحمة والبرِّ. والحنان: البركة والرِّزْق، وحنانيك؛ أي: تحنُّنا بعد تحنن، ولما كان الحنين متضمَّنًا للشفقة، والإشفاق لا ينفك عن الرَّحمة، عبر عن الرحمة به، في نحو قوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾^(٤) (٦) (٧).

(١) «شرح صحيح مسلم» لابن عثيمين (٩٣/٨).

(٢) «تفسير السعدي» (٥٣١).

(٣) «شرح صحيح مسلم» لابن عثيمين (٩٣/٨).

(٤) (عليه حسك) بفتح الحين، قيل: هو جمع حسكة، وهي شوكة صلبة. و(السعدان): نبت ذو شوك. «حاشية السندي على مسند أحمد» (١٤٣/١٧).

(٥) رواه أحمد في المسند (١١٠٨١)، وحسن إسناده شعيب الأرنؤوط (١٤٣/١٧).

(٦) انظر: «كتاب العين» (٣٦٧/١)، و«اللسان العرب» (١٠٢٩/٢)، و«عمدة الحفاظ» (٤٦٠/١)، و«شأن الدعاء» (١٠٥).

(٧) صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسر (الحنان) بالرحمة ﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ يقول: ورحمة من عندنا. «التفسير الصحيح» (٣٣٤/٣).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: يوصف رَبُّنا الجليل بصفة الحنان الكريمة، وهي خاصة بأنبيائه وأصفياؤه في حياتهم الدنيوية، وفي الآخروية، كما دلَّت على ذلك الأدلة السنية، وحنانُ رَبِّنا ليس كَحَنانِ خلقه، لا في ذاته ولا في أسبابه، ولا في غاياته^(١)، ومتعلقاته، فجنس حَنانِه سبحانه خِلاف المخلوق من كُلِّ وجهٍ، فالعبد يحنُّ لِضعفه، ونقصه، واحتياجه، وهوانه، أما حَنانُ الرَّبِّ فليس له مثيل، وذلك أنه يحنو وهو الغني، العزيز، المنيع، الذي لا ينتفع بحنانه من أحد من خلقه، ولا يتضرَّر بِخلافه، ومع ذلك فهو سبحانه الحَنانُ الذي «يقبَلُ على من أعرض عنه»^(٢) وهو الغني عنه من كُلِّ وجهٍ.

ويتجلَّى حَنانُه سبحانه في يوم موعوده، حين يتحنَّن على من في النار من أهل الإسلام: «فما يتركُ فيها عبداً في قلبه مثقال حَبَّة من إيمانٍ إلَّا أخرجه منها» الحديث.

وأجلُّ ما يكون حنانه سبحانه عند دُخول أوليائه جناته «لأنَّ من حنَّ إلى غيره من الناس أكرمَه عند لقائه، وكلف به عند قدومه»^(٣). والله المثل الأعلى، فهو تعالى أولى بذلك من خلقه.



(٣١) صفة الكمال (السُرعة) الجَليلة



﴿الْكِتَابُ الْحَكِيمُ: ١ - قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [البقرة: ٢٢، النور: ٣٩] - ٢ - وقال جلَّ ثناؤه: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَسِيبِينَ﴾ [الأنعام: ٦٢] -

٣ - وقال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ [يونس: ٢١] -

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: ١) عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كنتُ أغارُ من اللاتي وهبن أنفسهن لرسول الله ﷺ، وأقول: أَتَهَبُ المرأةُ نفسها؟! فلما أنزل الله تعالى: ﴿تَرْجِي مَنْ نَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتَقْوِي إِلَيْكَ مَنْ نَشَاءُ وَمَنْ أَبْغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾، قلتُ: يا رسول الله! ما أرى ربك إلَّا يُسارعُ في هَواك^(٤)).

(٢) وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﻻ يَسْرِعُ عَذَابُهُ إِذَا تَلَقَّانِي عَبْدِي بِشَبْرٍ تَلَقَّيْتُهُ بِذِرَاعٍ، وَإِذَا

(١) فسيبه: كمال عطفه بعبده، وغايته: إتمام نعمته بإنجائه.

(٢) «شرح حديث النزول» لابن تيمية (١٨٤).

(٣) «المنهاج» للحليمي (٢٠٧/١).

(٤) البخاري (٤٧٨٨، ٥١٣)، ومسلم (١٤٦٤).

تَلَقَّانِي بِذِرَاعٍ تَلَقَّيْتُهُ بِبَاعٍ، وَإِذَا تَلَقَّانِي بِبَاعٍ جِئْتُهُ أَتَيْتُهُ بِأَسْرَعٍ^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: السَّرْعَةُ: فِي الْأَصْلِ ضِدُّ الْبُطْءِ، وَيَسْتَعْمَلُ فِي الْأَجْسَامِ وَالْأَفْعَالِ، يُقَالُ: سَرِعَ فَهُوَ سَرِيعٌ، وَأَسْرَعَ فَهُوَ مَسْرَعٌ، وَسَرَعَانَ الْقَوْمِ: أَوَائِلَهُمْ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

فمعنى سرعة حسابهِ تعالى أنه لا يشغله حساب زيدٍ عن حساب عمرو مثلاً، وإذ لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ فهو أَسْرَعُ الحاسبين، وقيل: هو عبارة عن وقوعه لا محالة^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: يوصف رَبُّنَا تبارك وتعالى بصفة الكمال (السَّرْعَةُ) الاختيارية، وجاءت هذه الصفة الفعلية في كتاب الله مضافة إليه في سياق الجزاء والمقابلة، إمّا للعقوبة، وإمّا للمثوبة، وقد مجَّد نفسه تعالى بهذا الوصف في مواضع عديدة في كتابه، «ومعنى السريع في صفات الله جلَّ وعلا أنه سريع الحساب لعباده، وأن أفعاله تسرع، فلا يُبطئ منها شيء عما أراد، لأنه بغير مباشرة، ولا علاج، ولا كلفة، وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له (كن فيكون)، فهذا معنى السَّريع على توجيه اللغة، والله أعلم وأحكم»^(٣).

قال الطبري رَحِمَهُ اللهُ: «وإنما وصف جلَّ ثناؤه نفسه بسرعة الحساب، لأنه جلَّ ذِكْرُهُ يُحصى ما يحصى من أعمال عباده بغير عقد أصابع، ولا فكر، ولا روية، فَعَلَ العجزة الضعفة من الخلق، ولكنه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا يعزب عنه مثقال ذرَّةٍ فيهما، ثم هو مجازٍ عباده على كلِّ ذلك، فلذلك امتدَحَ نفسه جلَّ ذِكْرُهُ بسرعة الحساب، وأخبر خلقه أنه ليس لهم بمثلٍ، فيحتاج في حسابه إلى عقدٍ كَفٍّ، أو وعي صدر، ولا روية، ولا فكر»^(٤)، فهو سبحانه وصف نفسه بسرعة حسابهِ الخلاق على كثرة عددهم، وأنه لا يشغله شأنٌ عن شأنٍ^(٥)، فهو تعالى يُحاسب كلَّ الخلق في وقتٍ واحد، كما كان يرزقهم في الدنيا في وقتٍ واحد.

يقول العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «السرعة عدم التباطؤ في الشيء، فالله تعالى سريع

(١) مسلم (٢٦٧٥).

(٢) «المفردات» (٤٠٧)، و«عمدة الحفاظ» (١٩٢/٢ - ١٩٣).

(٣) «اشتقاق أسماء الله» (١٢٧).

(٤) «تفسير الطبري» (١/ ٥٥٤ - ٥٥٥)، وانظر: «تفسير البغوي» (١/ ٢٣٣).

(٥) «تفسير الشوكاني» (١٥٨).

الحساب، هذه جملة خبرية يُقصد بها التهديد، والسرعة قد تكون سرعة الزمن، بمعنى: أن حساب الله قريب، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَذْرُوكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ [الشورى: ١٧]، فإن الدنيا مهما طالت فهي سريعة الزوال، وأما السرعة في التقرير، أن سرعة محاسبة الله؛ أي: أن نفس حسابه سريع، والثاني أبلغ، فإن الله ﷻ يحاسب الخلائق كلها في نصف يوم، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ ذَلِكَ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]، والقيولة تكون في نصف نهار، حتى إن كل واحدٍ يقبل في منزله ومستقره، وهذه سرعة الحساب^(١).

وقال سبحانه: ﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ ومعنى وصفه بالأسرعية أنه تعالى قضى بعقابهم قبل تدبيرهم ومكايدهم، و(أسرع) أفعل التفضيل^(٢)، وقد دلَّ على أن مكرهم كان سريعاً، ولكن مكر الله تعالى أسرع منه^(٣).



(٣٢) صفة الكمال (الوقاية) الجليلة



﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ﴾ [غافر: ٩]^(٤).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: دعاء النبي ﷺ: «اللهم ربَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»^(٥).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ﴾: الوقاية: حفظ الشيء مما يؤذيه ويضره، ويقال: وقاه الله؛ أي: صانه، ووقيت الشيء؛ إذا صنته، وسترته عن الأذى^(٦).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: وصف ربَّنَا العظيم نفسه بالصفة الفعلية (الوقاية)، وهي من الصفات التي تتعلق بالمخلوقات، أي: يتعدى مفعولها إلى خلقه.

والله تبارك وتعالى له الوقاية المطلقة، وهي الوقاية العامة لكل الخليفة: فهو تعالى يقيهم

(١) انظر: «تفسير سورة البقرة» (٤٣٦/٢)، وآل عمران (١٢٧/١) (٥٩٧/٢).

(٢) البحر المحیط لابن حیان (٣١/٦).

(٣) «تفسير الشوكاني» (٧٢٧).

(٤) وقال سبحانه: ﴿فَنَكِهَيْنَ بِمَا آتَيْنَهُمْ رَيْثُمْ وَوَقَّعْنَاهُمْ مِنْهُمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الطور: ١٨]، وقال ﷻ: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّعْنَاهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الدخان: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿فَوَقَّعْنَاهُمُ اللَّهُ سَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّعْنَاهُمْ نَصْرَهُ وَسُرُورًا﴾ [الإنسان: ١١].

(٥) البخاري (٦٣٨)، ومسلم (٢٩٠). ودعاء القنوت: «... وَفِي سَرٍّ مَا قَضَيْتَ»، «صحيح أبي داود» (١٢٦٣). ومن دُعائه ﷻ: «اللهم قِنِي سَرَّ نَفْسِي». «صحيح موارد الظمان» (٤٥٠/٢).

(٦) «عمدة الحفاظ» (٣٣٤/٤)، و«لسان العرب» (٤٩٠١/٨).

في حياتهم الدنيوية، بما خلق لهم من الأسباب الكونية، التي تقيهم الشرور والمضار والمساوي، والتي تعود عليهم بالمسار والمنافع. والوقاية الخاصة: وهي الوقاية الشرعية التي اختصها سبحانه لأوليائه، في حياتهم المعيشية، والمعادية، فهو سبحانه سخر لهم الأسباب الكونية التي تصونهم عن الأذى، والردي، من الوري، كما قال تعالى عن مؤمن آل فرعون: ﴿فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَآ مَكَّرُوا﴾ [غافر: ٤٥]، وسخر لهم الأسباب الشرعية من الهدى على ألسنة أنبيائه ورسله مما يقبهم من ناره الكبرى، حتى يتبوا كل ولي منهم مقعده في جناته العلا ﴿فَكَرِهِينَ بِمَاءِ أَنْهَمَ رَبُّهُمْ وَوَقَّهَهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [الطور: ١٨].

﴿٣٣-٣٤﴾ صفتا الكمال (الرفع) و(الخفض) الجليلتان

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]^(١).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «يُدُّ اللَّهُ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا»^(٢) نفقة، سحاء^(٣) الليل والنهار، أرايتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يَغْضُ ما في يده، وكان عرشه على الماء، ويده الأخرى الميزان، يخفض ويرفع»^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ﴾: الرفع: خلاف الوضع، تقول: رفعت الشيء رفعا، وهو خلاف الخفض.

والرفع تارة يكون في الأجسام الموضوعة إذا أعليتها من مقرها، كقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الْقُلُوبَ﴾ [البقرة: ٦٣]، وتارة في الذكر إذا نوهته، وتارة في المنزلة إذا شرفتها، نحو قوله

(١) وقال عز شأنه: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢]، وقال ﷺ: «إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوسَىٰ إِنِّي مُتَوَلِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ» [آل عمران: ٥٥].

(٢) لا يُقْصُصُهَا.

(٣) كثيرة العطاء بلا انتهاء.

(٤) البخاري (٤٦٨٤) (٧٤١١)، ومسلم (١٧٩). وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنُغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَرْفَعُ الْقِسْطَ وَيُخَفِّضُهُ، وَيُرفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ...». وفي لفظ: «ويُخَفِّضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ»، مسلم (١٧٩). وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٩]، قال: «مِنْ شَأْنِهِ أَنْ يَغْفِرَ ذَنْبًا، وَيُفْرِجَ كَرْبًا، وَيُجِيبَ دَاعِيًا، وَيَرْفَعُ قَوْمًا، وَيُخَفِّضُ آخَرِينَ». وفي لفظ: «ويَضَعُ آخَرِينَ»، رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (٣٠١)، وصححه الألباني (ص ١٣٠)، وفي «صحيح ابن ماجه» (٢٠٢). وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا، وَيَضَعُ آخَرِينَ». صحيح مسلم (٨١٧).

تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: ٣٣]^(١).

والخفض والرفع يُستعملان عند العرب في المكان والمكانة، والعِزَّ والإهانة، وربما ترتَّب أحدهما على الآخر بزيادة الدَّرَجَات في المكان، بحسب الزيادة في المكان^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْحِ: «هذان»^(٣) (الوصفان)^(٤) يدلّان على الارتفاع والانحطاط، ويتضمّنان الإقبال والإعراض، والقرب والإبعاد، والعِزَّ والإذلال، والموالة والمُعَاداة، وغير ذلك»^(٥)، والخفض والرفع يكونان في الدين، وهو من الإضلال والإرشاد، وأن كانا في الدنيا فهما للإعلاء والإسقاط^(٦)، فالله تبارك وتعالى يرفع أوليائه بالتَّقَرُّب والإسعاد، ويخفض الكفار بالإشقاء والإبعاد، وكل ذلك حكمة منه وَصَوَاب، وهو تعالى الذي يداول بين عباده، فيخفض أقواماً، ويذهب شأنهم وعزهم، ويرفع آخرين فيورثهم ملكهم وديارهم^(٧).

وهو الذي يرفع أوليائه بالطاعة، فيعلي مراتبهم، وينصرهم على أعدائه وأعدائهم في الدِّين، ويخفض ويُهين الجَبَّارين، ويُذلّ الفراعنة المتكبرين^(٨).

وقوله ﷺ: «...وبيده الأخرى الميزان يخفض ويرفع»: «يعني إحدى يديه لِلْعَطَاء، وهو فضل محض، والأخرى فيها العدل، و«يخفض ويرفع»: يخفض من اقتضت حكمته خفضه، ويرفع من اقتضت حكمته رفعه»^(٩).

وقوله: «القسط»؛ أي: العدل، يعني أنه تعالى يحكم بالعدل»^(١٠).

(١) انظر: «معجم مقاييس اللغة» (٤٢٣/٢)، و«كتاب العين» (١٣٧/٢)، و«المفردات» (٣٦٠).

(٢) «الأسنى» (٣٦٤/١).

(٣) الوصفان الجليلان ثبت أحدهما وهو صفة (الرفع) في القرآن، وأما (الخفض) فقد تفرّدت السنة بإثباته مع (الرفع) في سياق التّقابل بينهما، ولهذا فإن الكمال يكون في كل واحدٍ منهما منفرداً، ويعلو كمالاً عند اقترانهما مع بعضهما.

(٤) في المصدر اسمان، والصحيح ما أثبت لأن الحديث الذي جاء ذكرهما فيه ضعف بإجماع أهل العلم، وإنما ذكرت الأسماء فيه من اجتهاد الراوي، وكذلك أنهما وردا بصيغة الفعل، لا بصيغة الاسم كما تقدم في ذكر أدلتهما، ومن الشُّروط «الصحيحة» في إثبات الأسماء: أن يرد ذكره بصيغة الاسم، لا بصيغة الفعل، لأن أسماء الله تعالى توقيفية ولا تشتق من الأفعال.

(٥) «الأسنى» (٣٦٥/١) يتصرف يسير.

(٦) شرح أسماء الله الحسنى للبيضاوي (٢٢٥).

(٧) «شرح النونية» للهراش (١١١/٢).

(٨) انظر: «شأن الدعاء» (٥٨)، و«النهاية» (٢٧٤).

(٩) كما في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبْدَأُ الْعَمَلُ بِكَ الْعَمَلُ بِكَ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٢١].

(١٠) «شرح صحيح البخاري» (٤٠٥/٨)، و«شرح صحيح مسلم» (٣٨١/١) لابن عثيمين.

﴿٣٥﴾ صفة الكمال (المَسْح) الجَلِيلَة

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ وَمَسَحَ عَلَى ظَهْرِهِ، فَسَقَطَ مِنْ ظَهْرِهِ كُلُّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا مِنْ ذُرِّيَّتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ...»^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ﴾: الْمَسْحُ: إمرار اليد على الشيء، وإزالة الأثر عنه^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: الْمَسْحُ من صفات رَبَّنَا الاختيارية المتعدية، وَالْمَسْحُ الذي يوصف به رَبُّنَا الْجَلِيلُ مسح حقيقي، لأن صفات رَبَّنَا كلها حقيقية تليقُ بِجَلَالِهِ، وَكَمَالِهِ، وَعَظَمَتِهِ، إِلَّا إِنَّا لَا نَعْرِفُ كَيْفِيَّةَ الْمَسْحِ، وَلَكِنْ عَلَيْنَا الْإِيمَانُ وَالتَّسْلِيمُ وَالتَّصَدِيقُ، هَذَا هُوَ مِنْهُجُ أَهْلِ السَّنَةِ وَالْجَمَاعَةِ، الْمُقْتَفَى مِنْ مَشْكَاتِ الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، فِي كُلِّ الْقُرُونِ، لَا يَخْتَلِفُونَ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ الْعَقْدِيَّةِ الْإِيمَانِيَّةِ.

وَالْمَسْحُ يَكُونُ إِمْرَارُ الْيَدِ بِالشَّيْءِ الَّذِي يَمْسَحُ عَلَيْهِ، وَهُوَ يَدُلُّ عَلَى صِفَةِ الْيَدِ الْعَظِيمَةِ، يَقُولُ ابْنُ الْقَيْمِ رَحِمَهُ اللهُ: «وَرَدَ لَفْظُ الْيَدِ فِي الْقُرْآنِ وَالسَّنَةِ وَكَلَامِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ فِي أَكْثَرِ مِنْ مِئَةِ مَوْضِعٍ وَرُودًا مُتَنَوِّعًا مُتَصَرِّفًا فِيهِ، مَقْرُونًا بِمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهَا يَدٌ حَقِيقِيَّةٌ، مِنْ الْإِمْسَاكِ، وَالطِّيِّ، وَالْقَبْضِ، وَالْمَسْكِ... وَأَنَّهُ مَسَحَ ظَهْرَ آدَمَ بِيَدِهِ...»^(٣).

وَالْمَسْحُ هُوَ الْفِعْلُ لِأَنَّهُ حَادِثٌ بَعْدَ أَنْ لَمْ يَكُنْ، أَمَّا الْيَدُ فَصِفَةُ ذَاتِيَّةٌ لَا تَتَعَلَّقُ بِالْمَشِئَةِ، وَلَا تَكُونُ فِي زَمَنِ وَحَالٍ دُونَ أُخْرَى، أَمَّا الْفِعْلُ فَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِالْمَشِئَةِ، مُرَبَّوْطٌ بِالسَّبَبِ، يَوْجَدُ حَيْثُ وَجَدَ السَّبَبُ، وَيَنْتَفِي بِانْتِفَائِهِ، كَمَا تَقَدَّمَ بَيَانُهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ.

﴿٣٦﴾ صفة الكمال (الأَذُنُّ) «بِمَعْنَى الْاسْتِمَاعِ» الْجَلِيلَة

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «مَا أُذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ كَأُذُنِهِ لِنَبِيِّ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ». وَفِي لَفْظٍ: «مَا أُذِنَ اللهُ لِشَيْءٍ، مَا أُذِنَ لِنَبِيِّ حَسَنَ الصَّوْتِ، يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ»^(٤).

(١) صححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٣٠٧٦)، وفي «السنة» لابن أبي عاصم (٢٠٥). وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ آيَةُ الدِّينِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَنْ جَعَدَ آدَمَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمَّا خَلَقَهُ، مَسَحَ ظَهْرَهُ، فَأَخْرَجَ مِنْهُ مَا هُوَ ذَارِيٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَعَرَضَهُمْ عَلَيْهِ...» رواه أحمد في المسند (٢٢٧٠)، وصححه إسناده العلامة أحمد شاكر (٧١/٤)، وصححه الألباني في «السنة» لابن أبي عاصم (٢٠٤).

(٢) «المفردات» (٧٦٧).

(٣) «مختصر الصواعق المرسلة» (١٧١/٢).

(٤) البخاري (٥٠٢٣) (٧٤٨٢)، ومسلم (٧٩٢) واللفظ له.

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الأذن: الاستماع، قال تعالى: ﴿وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ [الانشقاق: ٢]. والأذن والأذان: لما يُسمع، وأذن لكذا: استمع له، وفي الحديث: «ما أذن الله لشيء» يريد: ما استمع الله لشيء كاستماعه، والله تعالى لا يشغله سمع عن سمع^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: الأذن من أفعال الله تعالى الاختيارية، «والله تعالى يقوم به من الأفعال ما لا يُحصيه إلا هو سبحانه، كما أنه يقوم به من الأقوال ما لا يُحصيه إلا هو»^(٢).

والأذن هو من الأفعال اللازمة، وصفة الأذن هي أخص من صفة السمع المشتقة من اسمه الجليل (السميع) فهو تعالى وسع سمعه كل الأصوات في الأرض والسموات في كل اللحظات، وعلى هذا المعنى فهو من أوصافه الذاتية العلية، أما الأذن فهو من الصفات الفعلية التي تقع بمشيئته، لأنه يتعلق بسبب، فهو يتجدد على حسب الاستماع للقراءة، والذي يكون في وقت دون وقت آخر.

يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «... ومعناه: أن الله تعالى ما استمع لشيء كاستماعه لقراءة نبيٍّ يجهر بقراءته، ويحسنها، وذلك أنه يجتمع في قراءة الأنبياء أطيب الصّوت، لِكَمال خلقهم، وتَمَام الحُشْيَةِ، وهو الغاية في ذلك، وهو ﷺ يسمعُ أصوات العباد كلهم، برّهم وفاجرهم، كما قالت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: (سبحان الذي وسع سمعه الأصوات)، ولكن استماعه لقراءة عباده المؤمنين أعظم...، ثم استماعه لقراءة أنبيائه أبلغ، كما دلّ عليه هذا الحديث العظيم»^(٣).

وهذا يدلُّ كما تقدّم: أن صفات الله تبارك وتعالى الفعلية، تتفاوت حسب الأسباب المتعلقة بها، فاستماعه لقراءة أنبيائه أعظم وأبلغ عنده سبحانه من استماع دونهم من أوليائه، والله تعالى أعلم.



(٣٧) صفة الكمال (الدفع) الجلية



﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]^(٤).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: قال ﷺ: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله عز وجل، إنه يُشرك به، ويُجعل

(١) «عمدة الحفاظ» (٨٠/١)، و«شرح السنة» للبخاري (٤٨٤/٤).

(٢) «تفسير سورة البقرة» لابن عثيمين (١١١/١).

(٣) «فضائل القرآن» (١١٤).

(٤) وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، وقال ﷺ: «وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ

لَفُتِنَتِ صَوَائِعُ وَبَغِ وَصَلَوَاتُ وَمَسْجِدُ بَدَسْرَ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا» [الخج: ٤٠].

له ولدٌ، وهو يُعافِيهم، ويدْفَعُ عنهم، ويَرْزُقُهُمْ^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الدَّفْعُ: الإزالة بقوة، وتدافعوا الشيء: دفعه كل واحد منهم عن صاحبه.

واستدفعت الله الأسواء؛ أي: طلبت منه أن يدفعها عني، ودفعت عنه كذا؛ أي: منعت^(٢).
والدفع إن عدي بإلى، فمعناه: الإنالة، كقوله تعالى: ﴿فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦].
وإن عُدِّي بعن، فمعناه: الحماية، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨].
وقرئ: ﴿يدفع الله﴾، ﴿دفع الله﴾ تنبيهاً على المُبالغة في الدفع عن خلقه، فأبرزه في صورة المُفاعلة^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: يوصف ربنا العظيم بالصفة الفعلية الاختيارية الدفع، وهذه الصفة الكريمة عزيزة عند أوليائه، مقوية لعزائهم، لما تتضمنه من معاني سامية: من النصرة، والتمكين، والحماية.

ودَفَعَ الله ﷻ نوعان: دفع عام، ودفع خاص، ومنه ما يكون قدرياً، ومنه ما يكون شرعياً.
الدَّفْعُ العام: هو ما يدفعه سبحانه بحكمته عن من يشاء من خلقه بصرف الشر، والسوء، والهلكات، والرزايا، والبلايا، وهذا الدفع العام لِلْبَرِّ وَالْفَاجِرِ، وللمؤمن والكافر، كما في الحديث المتقدم: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله ﷻ، إنه يشرك به، ويجعل له ولداً، وهو يُعافِيهم، ويدفع عنهم، ويرزقهم»، فكم دفع الله تعالى هذه البلايا عن البرايا، دفعاً قدرياً، بما لا يحصى عدّ، ولا يحيطه أحد.

النوع الثاني: الدفع الخاص، وهو أشرف النوعين، وهو دفاعه جلّ وعلا عن أهل الديانات، ويكون شرعياً، وقدرياً، وهو نوعان كذلك:

الأول: الدَّفْعُ عن أهل الديانات، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوْمِعُ وَيَبِعُ وَصَلَوْتُ وَمَسْجِدُ يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠]؛ «أي: لولا أنه تعالى

(١) رواه أحمد في المسند (١٩٥٢٧) (١٩٦٣٣)، وصحح إسناده شعيب الأرناؤوط (٢٩٣/٣٢، ٤٠٦). وقال ﷺ: «إذا كان يوم

القيامة، دفع الله ﷻ إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً، فيقول: هذا فكاك من النار». مسلم (٢٧٦٧).

(٢) «اللسان» (٣٧٦/٣)، و«كتاب العين» (٣٤/٢).

(٣) «عمدة الحفاظ» (١٨/٢).

يدفع بقوم عن قوم، ويكف شرور أناسٍ عن غيرهم، بما يخلقه من الأسباب، لفسدت الأرض، ولأهلك القوي الضعيف»^(١).

وقد تكون هذه الأسباب قدرية، كونية، وتكون شرعية، وهي أعظم هذه الأسباب، وأسماءها: الجهاد، ولولا «ما شرعه الله سبحانه للأنبياء، والأولياء، من قتال الأعداء، لاستولى أهل الشرك، وعطلوا ما بنته أربابُ الديانات من مواضع العبادات»^(٢)، ولهذا من الله تعالى عليهم، كما قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾، «حيث شرع لهم الجهاد الذي فيه سعادتهم، والمدافعة عنهم، ومكنهم من الأرض بأسباب يعلمونها، وأسباب لا يعلمونها»^(٣).

وقوله تعالى: ﴿لَمَدَّمتْ صَوْمِعُ﴾: «صوامع الرهبان»^(٤)، وهي: «المعابد الصغار للرهبان»^(٥)، وقيل: «صوامع الصابئين»^(٦).

﴿وَبَيْعُ﴾: وهي أوسع منها، وأكثر العابدين فيها، وهي: للنصارى أيضاً^(٧). ﴿وَصَلَوْتُ﴾: «كنائس اليهود»^(٨). ﴿وَمَسْجِدُ﴾؛ أي: ولا للمسلمين مساجد. ﴿يُذَكَّرُ فِيهَا﴾؛ أي: في هذه المعابد. ﴿أَسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ تُقام فيه الصلوات، وتلى فيها كتب الله^(٩).

وهذه المواضع التي اتخذت قبل تحريفهم، وتبديلهم، وقبل نسخ تلك المِلل بالإسلام، وإنما ذكرت لهذا المعنى؛ أي: لولا هذا الدفع في زمن موسى الكنائس، وفي زمن عيسى الصوامع، وبيع، وفي زمن محمد المساجد، لهدمت^(١٠).

ومن الأسباب القدرية التي قدرها الله تعالى في الدفاع عنهم: إهلاك أعدائهم، منهم

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/٣١٢).

(٢) «تفسير القرطبي» (٦/٣٨٤).

(٣) «تفسير السعدي» (١٠٩).

(٤) صح عن مُجاهد. انظر: «التفسير الصحيح» (٣/٤١٩).

(٥) انظر: «تفسير ابن كثير» (٣/٣١٢).

(٦) صح عن قتادة. انظر: «التفسير الصحيح» (٣/٤١٩).

(٧) «تفسير ابن كثير» (٣/٣١٢).

(٨) صح عن قتادة. انظر: «التفسير الصحيح» (٣/٤١٩).

(٩) «تفسير السعدي» (٥٣٩)، و«تفسير النسفي» (٧٤١).

(١٠) «تفسير القرطبي» (٦/٣٨٤).

بالغرق، والطوفان، والصيحة، والريح، والخسف، والحصى، وغير ذلك مما لا يُحصى.

الثاني: دفع أخص الخاص: وهو دفاع حسّي، ومعنوي، إضافة على ما تقدم قدري، وشرعي، وهو دفاع الله تعالى عن أنبيائه، وأصفياه في معاشهم، ودينهم، وهو المقصود في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾: فيه بشارة وإخبار محقق من الله تبارك وتعالى في سياق المبالغة في الدِّفاع عنهم، كما دلَّت القراءات المتواترة، كقراءة: ﴿يُدْفَعُ﴾ و﴿لَوْلَا﴾ و﴿يُدْفَعُ﴾ و﴿لَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ﴾^(١).

«ولم يذكر سبحانه ما يدفعه عنهم ليكون أفخم، وأعظم، وأعم، فوعد سبحانه أنه يدفع عن المؤمنين السوء والشر، بسبب إيمانهم به تعالى، من ذلك: الأول: أعداؤهم من الكفار وغيرهم، فيردُّ كيدهم في نحرهم. الثاني: شر وسوسة الشيطان. الثالث: شرور أنفسهم، وسيئات أعمالهم»^(٢).

ومن دِفاعه سبحانه عن أوليائه أنه يكون بالقول، وبالفعل، بالقول: أنهم «إذا ذموا بالقول دافع الله عنهم بالقول، كما قال تعالى (عن المنافقين): ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٣]، والله ﷻ هو الذي جادل عن المؤمنين، فقال جل شأنه: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ﴾ يعني: هم السفهاء لا أنتم، فهذا من تحقيق دفاع الله تبارك وتعالى عن المؤمنين.

أما دِفاعه عن المؤمنين، إذا اعتدي عليهم بالفعل، فاستمع إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكِيَّةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَفَتَبُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، فهذه مُدافعة فعلية، حيث تنزل جنودُ الله ﷻ من السماء لتقتل أعداء المؤمنين، فهذا تحقيق لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾^(٣).

ومن دِفاعه سبحانه القدري الفعلي لهم: ما هيَّأه تعالى من الأسباب الكونية في إهلاك أعدائهم، كما أرسل الرياح للأحزاب، وإدخال الرُّعب في قلوب الأعداء، وإنزال السكينة على الأولياء، بنزول المطر، والجند من السماء، وغيرها ممَّا نعلمه، ومِمَّا لا يعلمه إلا رَبُّ الأرض والسماء.

(١) انظر هذه القراءات وتوجيهها في: «التفسير المحيط» (٥١٤/٧)، و«تفسير الطبري» (٣٨٢/٦).

(٢) انظر: «أضواء البيان» (٤٧٧/٥)، و«تفسير السعدي» (٥٣٩).

(٣) «تفسير سورة البقرة» لابن عثيمين (٥١/١).



(٣٨) صفة الكمال (الصَّلَاة) «بمعنى الثناء» الجليلة



﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾ قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣] (١).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾ قال ﷺ: «... مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا» (٢).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الصلاة: أصل الصلاة: الدُّعاء والتبريك، والتمجيد، يُقال: صليتُ عليه؛ أي: دعوتُ له، وزكيت (٣).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: يوصف ربُّنا الجليل الذي لا أجل، ولا أكمل منه بالصَّلَاة على أصفياهه.

ومعنى الصلاة من الله لخالقه: حُسن ثنائه عليهم، وحُسن ذِكْره لهم (٤)؛ أي: إنَّ الله تعالى يُثني عليهم في الملأ الأعلى، ويشيع لهم الذكر الجميل في عباد الله، رَفْعًا لِذِكْرهم، وإِعْلَاءً لِشأنهم (٥).

وصلاة الله تعالى على عبده نوعان: عامة، وخاصّة.

الأول: صلاته العامّة: فهي صلاته على عباده المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ

(١) وقال عز شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

(٢) مسلم (٣٨٤). وعن عبد الله بن أبي أوفى قال: كان النبي ﷺ إذا أتاه قومٌ يصدقهم قال: «اللهم صلّ على فلان»، فاتاه أبي يصدقته فقال: «اللهم صلّ على آل أبي أوفى»، البخاري (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨). ومن الأدلة: الصلاة الإبراهيمية التي جاءت بعدة صيغ، منها: «اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم...». البخاري (٣٣٧٠)، ومسلم (٤٠٥).

(٣) كما في الحديث: «إذا دُعِيَ أَحَدُكُمْ إِلَى طَعَامٍ، فَلْيُجِبْ، وَإِنْ كَانَ صَائِمًا فَلْيُصَلِّ». مسلم (١٤٣١). أي: لِيَدْعُ لِأَهله. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٤]. «المفردات» (٤٩١).

(٤) «كتاب العين» (٤١٠/١)، و«القاموس المحيط» (٧٥١).

(٥) وقيل: إن معنى الصلاة: المغفرة، والرحمة، وهذان القولان ضعيفان، لأن الله تعالى غاير بين الصلاة، والرحمة، بقوله: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧]، لأن الرحمة أعم من الصلاة، ولهذا عطفهما على (الصلوات) من باب عطف العام على الخاص، لأن الثناء عليهم في الملأ الأعلى من الرحمة. انظر: «تفسير الطبري» (١٨٤/٦)، و«تفسير سورة البقرة» (١٨٢/٢)، و«سورة الأحزاب» (٤٦٩/٧، ٥٤٥) لابن عثيمين.

وقد صحّ في تفسير هذا المعنى الصحيح عن كبير التابعين أبي العالية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «صلاةُ الله على رَسوله، ثناؤه عليه عند الملأ الأعلى» رواه البخاري معلقًا في «كتاب التفسير» (٥٣٣/٨)، وحسنه الألباني في «فضل الصلاة على النبي ﷺ» (٩٥).

وَمَلَئِكْتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴿[الأحزاب: ٤٣]﴾، ومنه دُعاء النبي ﷺ لأحاد المؤمنين (كما تقدم في الأدلة).

النوع الثاني: صلاته الخاصة على أنبيائه، ورسله، خصوصاً على خاتمهم، وخيرهم محمد ﷺ^(١).

﴿٣٩﴾ صفة الكمال (التزكية) الجليّة

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُرَكِّي مَن يَشَاءُ﴾﴾ [النساء: ٤٩]^(٢).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: دُعاء النبي ﷺ الذي فيه: «... اللهم آت نفسي تقواها، وزكّها أنت خيرٌ مَن زكّاها، أنت وليّها ومولاها...»﴾^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الزَّكَاةُ: النماء الحاصل عن بركة الله تعالى، ويقال: زَكَ الزَّرْعُ يزكو: إذا حصل منه نمو وبركة.

والزَّكَاةُ: الطَّهارة، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا زَكَّيْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ﴾؛ أي: ما طهر، وينسب إلى الله تعالى، لكونه فاعلاً لذلك في الحقيقة^(٤).

والزَّكَاةُ: الصَّلَاح، يقال: زَكَ الرجل يزكو إذا صلح.

وزَكَه الله تعالى وأزكاه: صلح، وتنعم.

وقيل: أصلها: الثناء الجميل، من ذلك زَكِّيْ فلانٌ عند القاضي؛ أي: أُثني عليه^(٥).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: الله تبارك وتعالى هو الزكي من كل وجه واعتبار، «فلا يُقال لموصوف زكي، حتى تجتمع فيه جهات الخير وخصالها ظاهراً وباطناً، وذلك لا يكون حقيقة إلا لله تعالى وحده، فهو سبحانه الزكي على الإطلاق، القدوس، السلام، الطاهر، الطيّب^(٦) في جميع

(١) «جلاء الأفهام» (١٢١).

(٢) وقال عزّ شأنه: ﴿وَرَوَّلَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتَهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ لَّحْدٍ أَبَدًا وَلَئِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

(٣) مسلم (٢٧٢٢).

(٤) «المفردات» (٣٨٠)، و«عمدة الحفاظ» (١٤٢/٢)، و«مقاييس اللغة» (٣٨٦).

(٥) «كتاب العين» (١٨٩/٢)، و«القاموس المحيط» (٥٦٧)، و«المصباح المنير» (١٤٩).

(٦) هذه الصفة فعلية، وليست من الصفات الذاتية أو المنفية كما جاءت بالأدلة السنية بالفعل المتعدي وليس بالفعل اللازم كما=

صِفاته، المحمود من كلِّ أسمائه»^(١).

فهو سبحانه الذي يُزكي أوليائه، ويُطهرهم من الآفات والمَدام الظاهرة والباطنة، فيكونوا أهلاً لِلثَّناء، والحمد، على قَدْر قيامهم بالأسباب الشرعية المقتضية له، فهو تعالى يُزكي من استقام «بالإيمان والعمل الصالح، بالتَّخلي عن الأخلاق الرَّذيلة، والتَّحلي بالصفات الجميلة، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ من يعلم منه أن يزكي بالتزكية، ولهذا قال تعالى: ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾»^(٢).

﴿٤٠﴾ صفة الكَمال (المُعافي) الجَليلة

﴿السُّنَّة النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحد أصبر على أذى يسمعه من الله ﷻ، إنه يُشركُ به، ويُجعلُ له الولدُ، ثم هو يُعافِيهم، ويَرْزُقُهُمْ»^(٣).

﴿المَعْنَى فِي اللَّغَةِ﴾: العافية: هي دِفَاعُ الله تعالى عن العبد بدفع المكاره، تقول: عافاه الله تعالى من المَكروه عفاءً، ومُعافاةً، وعافية: وهب له العافية من العِلل، والبلاء، وعافاه الله: مَحَا عنه الأَسقام.

والمُعافاة: أن يُعافِيكَ الله من النَّاس، ويُعافِيهم منك؛ أي: أن يُغْنِيكَ عنهم، ويُغْنِيهم عنكَ، ويصرف آذاهم عنكَ، وأذاك عنهم^(٤).

﴿المَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: الله سبحانه هو المُعافي على الإطلاق: الذي يُعافي من يَشَاء من العباد، فيدفع عنهم البَلايا، والرَّزايا، والأمراض، والأَسقام، والخَزايا، وهذه مُعافاته العامة لكلِّ الخليقة.

= ذكر القرطبي، وعلى هذا فإنَّ إدخال هذه الصفة من جملة الصفات المنفية أو الذاتية، لم ينهض له دليل، وإن كانت المعاني المذكورة صحيحة في حقه سبحانه، والله تعالى أعلم.

(١) «الأسنى» (٢٨١).

(٢) «تفسير السعدي» (١٨٢، ٥٦٤).

(٣) وفي لفظ: «وهو مع ذلك يَرْزُقُهُم، ويُعافِيهم، ويُعطيهم»، البخاري (٦٠٩٩) (٧٣٧٨)، ومسلم (٢٨٠٥). ومن الأدلة: دعاء القُنوت الذي علَّمه رسول الله ﷺ لحفيده الحسن بن علي عليه السلام: «اللهم اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وعافني فِيمَنْ عَافَيْتَ...». مسلم (٢٨٠٥). والدعاء الذي علمه النبي ﷺ لَشَكَل بن حميد: «اللهم عافني من شرِّ سَمْعِي، وبَصَرِي...». «صحيح الأدب المفرد» (٥١٥).

(٤) «اللسان» (٣٠١٨/٥)، و«كتاب العين» (١٩٢/٣)، و«النهاية» (٦٢٧)، و«القاموس المحيط» (٨٩٢).

ويخصُّ أوليائه الكرام: بالتجاوز عن الذنوب والآثام، ويدفع عنهم المحن، والنقم، والفتن، ما ظهر منها وما بطن، ويُعافِيهم من أشد الأمراض المعنوية الدنيية: كالكفر، والشرك: والتفّاق، والعصيان، لِيُقْبِلُوا عليه يوم الدين، سالمين مطهرين من الآثام، فيدخلوا داره دار السلام.

وبالجملة: إنه تعالى يُعافِيهم من جميع الشرور، والأخطار، والأضرار الحسية، والمعنوية، المعاشية، والشرعية، والمعادية.

﴿٤١﴾ صفة الكمال (الهادي) الجلية

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣]﴾^(١).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ: «... يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ»﴾^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الْهِدَايَةُ: هِيَ الدَّلَالَةُ بِلُطْفٍ، وَإِرْشَادٍ، يُقَالُ: هَدَيْتُهُ الطَّرِيقَ وَالْبَيْتَ هِدَايَةً؛ أَيْ: عَرَفْتُهُ، وَالْهَدَى: خِلَافُ الضَّلَالَةِ، وَهِيَ الطَّاعَةُ، وَالْوَرَعُ﴾^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: اللَّهُ ﷻ هُوَ الْهَادِي: الَّذِي يَهْدِي عِبَادَهُ إِلَيْهِ، وَيُدْلِّهِمْ عَلَيْهِ، وَعَلَى سَبِيلِ الْخَيْرِ، وَالْأَعْمَالِ الْمُقَرَّبَةِ مِنْهُ ﷻ، فَهُوَ تَعَالَى بَصَّرَ عِبَادَهُ، وَعَرَّفَهُمْ طَرِيقَ مَعْرِفَتِهِ، حَتَّى أَقْرَبُوا بِرُبُوبِيَّتِهِ﴾^(٤).

وهذه الهداية الشرعية الفطرية، حيث أودع الله في النفوس الإقرار والتصديق بوحْدانيته سبحانه من كل البرية.

أما الهداية الدنيوية العامة الفطرية: «أنه سبحانه خلق المخلوقات فهداها الهداية العامة لمصالحها، وجعلها متهيئة لما خلقت له، فأرشد عباده إلى جلب مصالحها، ودفع مضارها،

(١) وقال سبحانه: ﴿وَكُنْزٌ بَيْنَ يَدَيْكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]. وقال ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

(٢) مسلم (٢٥٧٧). وعن علي عليه السلام قال: قال لي رسول الله ﷺ: «قل اللهم اهْدِنِي، وَسَدِّدْنِي». مسلم (٢٧٢٥).

(٣) «المفردات» (٨٣٥)، و«الصحاح» (١٠٩٢).

(٤) انظر: اشتقاق أسماء الله (١٨٧)، و«النهاية» (١٠٠٣)، وتفسير الأسماء (٦٤).

كما قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٣].

فقد هدى كل مخلوق إلى ما لا بُدَّ منه في قضاء حاجته، فهدى الطفل إلى التّقام الثدي عند انفصاله، والفرخ إلى التّقاط الحبّ وقت خروجه... وشرح ذلك ممّا يطول^(١).

وبالجملة: «إنّ هداية الله تعالى للإنسان على أربعة ضروب:

الأول: الهداية العامّة التي عمّ بجنسها كل مكلف، من العقل، والفطنة، والمعارف الضرورية، وهي المشتركة بين الخلق كلهم، كما تقدم من الآيات في سورة (طه)، و(العلق).

الثاني: هداية البيان والدلالة، والتعريف لتجدي الخير والشرّ، وطريقي النّجاة والهلاك، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧]؛ أي: بيّنا لهم، وأرشدناهم، وهي التي يملكها الرسل وأتباعهم.

الضرب الثالث: هداية التوفيق والإلهام، (التي من وفق إليها لا يزيغ، وهي التي اختصّ بها سبحانه وحده)، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

الرابع: غاية هذه الهداية، وهي الهداية إلى الجنة، أو إلى النار، فأما الهداية إلى الجنة، فقد دلّ عليها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩].

وأما الهداية الثانية إلى النار - عافانا الله وإياكم منها - فقد دلّ عليها قوله تعالى: ﴿حَسْرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ ﴿١٦﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ [الصفات: ٢٢ - ٢٣].

والهداية المطلقة النّائمة هي الهداية التي يسألها المؤمنون إلى ربّهم (في كل صلاة بل في كلّ ركعة) ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]؛ أي: اهدنا إليه، واهدنا فيه^(٢).

* * *

(١) المقصد «الأسنى» (٩٣)، و«فتح الرحيم» (٥٠).

(٢) «بدائع الفوائد» (٣٦/٢)، و«المفردات» (٨٣٥)، و«فتح الرحيم» (٥١).

﴿٤٢﴾ صفة الكمال (المُغِيث) الجَلِيلَة

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قَالَ ﷺ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، أَنَّ رَجُلًا دَخَلَ الْمَسْجِدَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمٌ يَخْطُبُ.. (إِلَى أَنْ قَالَ): فَاسْتَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَائِمًا ثُمَّ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! هَلَكْتَ الْأَمْوَالُ، وَانْقَطَعَتِ السُّبُلُ، فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يُغِيثَنَا، قَالَ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ اغْنِنَا، اللَّهُمَّ اغْنِنَا، اللَّهُمَّ اغْنِنَا...»^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الْمَغِيثُ: مَاخُوذٌ مِنَ الْإِغَاثَةِ، وَهِيَ: الْإِعَاثَةُ، وَالنَّصْرَةُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ، وَاسْتِغَاثٌ: صَاحٌ وَآغَاثُهُ، وَاسْتِغَاثَتُهُ: طَلَبْتُ الْغَوْثَ، وَاسْتِغَاثَنِي فَلَانْ فَاعْتَنَهُ؛ أَي: فَجَرَّتْ عَنْهُ.

وَآغَاثَهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ: كَشَفَ شِدَّتَهُمْ، وَآغَاثَنَا الْمَطَرُ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ مَغِيثٌ أَيْضًا^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْحِ: يُوصَفُ رَبَّنَا الْجَلِيلُ بِأَنَّهُ هُوَ الْمَغِيثُ، إِذْ لَا غِيَاثَ وَلَا مُغِيثَ عَلَى الْإِطْلَاقِ إِلَّا هُوَ عَزَّ شَأْنُهُ، وَإِنْ كُلُّ غَوْثٍ فَمِنْ عِنْدِهِ، وَإِنْ كَانَ جَعَلَ ذَلِكَ عَلَى يَدَيْ غَيْرِهِ، فَالْحَقِيقَةُ لَهُ ﷻ وَحْدَهُ، وَلِغَيْرِهِ مَجَازٌ، فَهُوَ سَبْحَانَهُ مَدْرُكُ عِبَادِهِ فِي الشَّدَائِدِ إِذَا دَعَوْهُ، وَمُجِيبُهُمْ، وَمَخْلَصُهُمْ^(٣).

فَهُوَ تَعَالَى الْمَغِيثُ إِغَاثَةٌ عَامَّةٌ، وَخَاصَّةٌ، فَإِغَاثَتُهُ سَبْحَانَهُ نَوْعَانِ:

الْأَوَّلُ: الْإِغَاثَةُ الْعَامَّةُ، فَهُوَ سَبْحَانَهُ مَغِيثُ الْعَالَمِينَ: «فَهُوَ الْمَغِيثُ لِجَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ عِنْدَمَا تَتَعَسَّرُ أُمُورُهَا، وَتَقَعُ فِي الشَّدَائِدِ، وَالْكَرْبَاتِ، يَطْعَمُ جَائِعَهُمْ، وَيَكْسُو عَارِيَهُمْ، وَيَخْلُصُ مَكْرُوبَهُمْ، وَيَنْزِلُ الْغَيْثَ عَلَيْهِمْ فِي وَقْتِ الضَّرُورَةِ وَالْحَاجَةِ، وَكَذَلِكَ يُجِيبُ إِغَاثَةَ اللَّهْفَانِ؛ أَي: دَعَاءٍ مِنْ دَعَا فِي حَالَةِ اللَّهْفِ، وَالشَّدَّةِ، وَالْإِضْرَارِ، فَمِنْ اسْتِغَاثَةِ آغَاثِهِ، (وَبِالْجُمْلَةِ إِنَّهُ تَعَالَى) هُوَ الْمُنْقِذُ مِنَ الشَّدَائِدِ الْفَادِحَةِ، وَالْكَرْبِ.

وَفِي الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ مِنْ ذِكْرِ تَفْرِيجِهِ لِلْكَرْبَاتِ، وَإِزَالَتِهِ الشَّدَائِدِ، وَتَيْسِيرِهِ لِلْعَسِيرِ، شَيْءٌ

(١) البخاري (٩٣٣، ١٠١٣٥)، ومسلم واللفظ له (٨٩٧).

(٢) «المفردات» (٦١٧)، و«لسان العرب» (٦٩٢/٦)، و«المصباح المنير» (٢٦٤).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١١٠/١).

كثير جداً معروف ، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٦٣] (١).

الثاني: الإغاثة الخاصة ، فهو سبحانه مغيث المؤمنين: فهو تعالى أسرع لهم عوناً ، وعوناً ، وتفرجاً للهموم ، والكربات ، يستجيب لهم عند الشدائد ، والهلكات ، ولا يردُّ منهم أحداً عند طلب الحاجات ، والتضرع بالدعوات ، وبالجمله فهو تعالى مُغيث لهم في الدنيا في الملمات ، ويوم القيامة من الكربات في العرصات .

﴿٤٣﴾ صفة الكمال (الفاطر) الجليلة

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال ﷺ: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠] (٢).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: حديث عائشة ؓ في افتتاح النبي ﷺ صلاته بالليل: «اللهم ربِّ جبرائيل ، وميكائيل ، وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض...» (٣).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ﴾: فطر: أصله: الشق ، فطر الشيء يفطره فطراً فانفطر ، وفطره: شقه ، قال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠] ؛ أي: يتشققن .
والفطر: الابتداء ، والاختراع ، يقال: فطرت البئر: ابتدعتها ، وحفرتها .
ويقال للذي يحرق الأرض: فاطر ، لأنه يشقُّها بالحراثة (٤).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْحِ﴾: وصف ربُّنا العظيم نفسه بأنه هو الفاطر على الإطلاق: الذي فطر كل الخَلِيقَة ، فما من شيء إلا هو مَفْطُور بفطرة الله تعالى ، فأوجده بعد العدم ، فكل مخلوق في عالم الملكوت ، أوجده الله ، بعد أن لم يكن موجوداً ، فهو تعالى (فاطر السموات والأرض): «أي: إنه مبتدعهما ، ومبتدئهما ، وخالقهما» (٥) وحده على الإطلاق ، من غير شيء ، ولا مثال سبق (٦).

(١) «الحق الواضح» (٦٧) ، و«توضيح الكافية الشافية» (١٢٤).

(٢) وقال ﷺ: ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٥١] ، وقال جل ثناؤه: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ إِلَهِي فَطَرًا نَاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

(٣) مسلم (٧٧٠). وحديث علي ؓ أن النبي ﷺ إذا قام من الصلاة قال: «وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيئاً...» مسلم (٧٧١).

(٤) «عمدة الحفاظ» (٢٣٩/٣) ، و«لسان العرب» (١٢٥/٧).

(٥) «تفسير الطبري» (٢٨٢/١١) ، و«شأن الدعاء» (١٠٣).

(٦) «الأسنى» (٤٢٣).

وهو سبحانه فاتق الرق؛ أي: المتصل المتلاصق من السماء والأرض، قال ﷺ: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتْ رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]؛ أي: كان الجميع متصلًا بعضه ببعض متلاصقًا، متراكمًا بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السماء سبعا، والأرض سبعا، وفل بينهما بالهواء، كما أنه فتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات^(١).

وكما أنه سبحانه فاطر للمحسوسات في الأرض والسموات، فهو تعالى فاطر للمعنويات الجبليات، فهو تعالى فطر الخلق على الإيمان به، وتوحيده، والإخلاص له بالعبودية، كما قال سبحانه: ﴿فَأَوَّمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]؛ أي: «فسدّد وجهك، واستمر على الدين الذي شرعه الله لك، من الحنيفية ملة إبراهيم، الذي هدّاك الله لها، وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة، التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته، وتوحيده، وأنه لا إله غيره، كما في الحديث: «إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَاجْتَالَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ عَنْ دِينِهِمْ»^(٢)، وقوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾؛ أي: لا تُبدّلوا خلق الله، فتغيروا الناس عن فطرتهم التي فطرهم الله عليها، فهو تعالى ساوى بين خلقه كلّهم في الفطرة على الجبلة المستقيمة، لا يولد أحد إلا على ذلك، ولا تفاوت بين الناس في ذلك»^(٣).

وهذا من كمال عدله سبحانه، الذي لا مثيل له.

﴿٤٤﴾ صفة الكمال (الكتابة والخط) الجبلة

﴿الْكِتَابُ الْحَكِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأُنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١٨١]^(٤).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي تَغْلِبُ غَضَبِي»^(٥).

(١) الحجة في بيان المحجة (١/١٦٠)، وابن كثير (٢٤٥/٣).

(٢) مسلم (٢٨٦٥).

(٣) «تفسير ابن كثير» (٥٨٥/٣)، ثم سرد رحمه الله أحاديث في ذلك، منها: «ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه...» البخاري (٤٧٧٥)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٤) وقال سبحانه: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقال عز شأنه: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

(٥) البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١). وفي حديث احتجاج موسى وأدم ﷺ، وفيه قول آدم لموسى: «أنت موسى الذي=

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الكتب: ضم أديم إلى أديم بالخياطة، يقال: كتبت السَّقاء. وكتبت البغلة: جمعت بين شفرها^(١) بحلقة. والأصل في الكتابة: النظم بالخط، وفي المَقال: النظم بالقول. وفي التعارف: ضم الحروف بعضها إلى بعض بالخط^(٢).

والخط: الكَتْبُ لأنه ذو خطوط، فعبر عن الكتابة بالخط، قال تعالى: ﴿وَلَا تَخْطُطْهُ، يَمِينُكَ﴾؛ أي: لا تكتبه، والخط: المد، والخطُّ: كل ما له طول^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: يوصف ربُّنا عز شأنه بالكتابة، وبالخط على الحقيقة، كما يليق بجلاله، وعظمة شأنه، فهو تعالى يكتب ويخط ما شاء، ولمن شاء، ومتى شاء، وكيف شاء سبحانه، على مقتضى حكمته، ولا نعلم كيفية هذه الأفعال، وإنما نؤمن بها كما جاءت، لأنها حق من عند ربِّنا عز شأنه، وقد تقدم ذِكْرُ الأدلة التي تُفيد أنه تعالى بأمر بنفسه الكتابة والخط، لأن فعل الكتابة عُدِّي إلى اليد «وخطَّ بيده»، فلا يجوز صرفه عن حقيقته، وقد تقدم عند صفة (اليد) أنه خلق أشياء بيده: (كالعرش، والقلم، وآدم، وجنة عدن... ثم قال لِسائر الخلق: كن فكان)، وكتابته لها تدلُّ على تشریفها على غيرها، كما في قوله ﷺ: «وكتب لك» «وخطَّ... إلخ».

﴿٤٥﴾ صفة الكمال (التَّشْرِيعُ) الجَلِيلَةُ

﴿الكِتَابُ الْحَكِيمُ: قال ﷺ: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾

[الشورى: ١٣].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: (من سرَّه أن يلقي الله تعالى غداً مسلماً، فَلْيُحَافِظْ على هؤلاء الصلوات حيث يُنادى بهن، فإنَّ الله شرع لِنبيكم ﷺ سُنَنَ الهدى، وإنَّهنَّ من سُنَنِ الهدى...)»^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: شرع: النهج الطريق الواضح، يقال: شرعت له طريقاً. والشرع

= اصطفاك الله برسالته، وبكلامه، وأعطاك الألواح فيه تبيان كل شيء، وقربك نجياً، فيحكم وجدته الله كتب التوراة قبل أن أخلق...؟. وفي رواية: «وخطَّ لك التوراة بيده». وفي رواية: «وكتب لك التوراة بيده». البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢).

(١) الشفر: جانب الفرج.

(٢) «المفردات» (٦٩٩)، و«عمدة الحفاظ» (٣٧٠/٣ - ٣٧١).

(٣) «عمدة الحفاظ» (٥١٢/١ - ٥١٣).

(٤) مسلم (١٠٤٦).

مصدر، ثم جُعِلَ اسماً للطريق النهج، قيل له: شَرَعَ، وَشَرَعٌ، وَشَرَعَةٌ، وَاسْتَعِيرَ ذلك للطريقة الإلهية من الدين، يقال: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرَعَةً وَمِنْهَا جَاءَ﴾ [المائدة: ٤٨] (١).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: اللَّهُ رَبُّنَا ﷻ هُوَ الْمُشَرِّعُ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، الَّذِي انْفَرَدَ بِالْأَمْرِ، وَالنَّهْيِ، وَالْحُكْمِ، وَالتَّشْرِيعِ، وَبِهَذَا يُعْلَمُ أَنَّ التَّحْلِيلَ وَالتَّحْرِيمَ، وَالتَّشْرِيعَ مَوْصَدَ الْأَبْوَابِ، مَقْطُوعِ الْأَسْبَابِ، عَلَى كُلِّ الْخِلَاقِ، وَلَوْ كَانَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ فَضْلاً عَنْ عُمُومِ الْعِبَادِ، فَالتَّشْرِيعُ مِنْ خَصَائِصِ أُلُوهِيَةِ اللَّهِ ﷻ﴾ (٢)، فَهُوَ سَبْحَانَهُ قَدْ شَرَعَ لِكُلِّ أَنْبِيَائِهِ شَرِيعَةً وَاحِدَةً، وَهِيَ عِبَادَتُهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، فَهَذَا الدِّينَ الَّذِي جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ كُلُّهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وَفِي الْحَدِيثِ: «نَحْنُ مَعَاشِرُ الْأَنْبِيَاءِ أَوْلَادُ عِلَاتٍ، دِينُنَا وَاحِدٌ» (٣)؛ أَي: الْقَدَرُ الْمَشْتَرَكُ بَيْنَهُمْ هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ شَرَائِعُهُمْ وَمِنْهَا جَاءَ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرَعَةً وَمِنْهَا جَاءَ﴾ [المائدة: ٤٨] (٤).

وبهذا يُعْلَمُ أَنَّ أَحْكَامَهُ الشَّرْعِيَّةَ سَبْحَانَهُ قَدْ انْتَهَتْ بِانْقِطَاعِ الْوَحْيِ، بِقَبْضِ النَّبِيِّ ﷺ، أَمَّا أَحْكَامُهُ وَتَشْرِيعُهُ الْكُونِي الْقَدْرِي، فَلَا يَزَالُ يَتَجَدَّدُ، عَلَى حَسَبِ مَا تَقْتَضِيهِ حِكْمَتُهُ الْبَاهِرَةُ، إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

وَاعْلَمْ رَعَاكَ اللَّهُ، أَنَّ «أَكْبَرَ مِنَّةٍ أَنْعَمَ اللَّهُ بِهَا عَلَى عِبَادِهِ، أَنَّ شَرَعَ لَهُمْ مِنَ الدِّينِ خَيْرَ الْأَدْيَانِ، وَأَفْضَلَهَا، وَأَزْكَاهَا، وَأَطْهَرَهَا، دِينَ الْإِسْلَامِ...» (٥)، فَأَنْعَمَ بِهِ رَبُّنَا عَلَيْنَا دُونَ مَسْأَلَةٍ، وَلَا وَسِيلَةٍ، وَلَا عَنَاءٍ، فَلَا تَجْحَدُ يَا رَعَاكَ الرَّحْمَنُ هَذِهِ النِّعْمَةَ الَّتِي وَاللَّهُ مَا بَعْدَهَا إِنْعَامٍ، الَّتِي خَصَّصْنَا بِهَا الْمَنَانَ، وَحَرَمَهَا أَكْثَرَ الْأَنْامِ، فَتَذَكَّرْهَا فِي كُلِّ حَالٍ، وَلَا تَنْسَاهَا عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ، وَذَكَّرْ بِهَا أَحْبَابَكَ، وَأَقْرَبَاءَكَ، بَلْ كُلُّ مَنْ عَرَفْتَ مِنَ الْخَلْقِ مِنْ بَعِيدٍ وَدَانٍ، عَسَى أَنْ تَحْفَظَ عَلَيْنَا إِلَى يَوْمِ لِقَاءِ الدِّينِ.

* * *

(١) «المفردات» (٤٥٠).

(٢) انظر: «الشرك بالله أنواعه وأحكامه» ماجد محمد شبالة (٥٢٨، ٥٣١) بتصرف يسير.

(٣) البخاري (٣٤٤٢) (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥).

(٤) «تفسير ابن كثير» (١٤٠/٤).

(٥) «تفسير السعدي» (٧٥٤).

(٤٦) صفة الكَمَال (الفِعْل، وَالْعَمَل) الجَلِيلَة

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: ١﴾ قَالَ ﷻ: ﴿وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

(٢) وَقَالَ رَبُّ الْعَالَمِينَ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود: ١٠٧].

(٣) وَقَالَ ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَمْلُوكُونَ﴾ [يس: ٧١].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: حديث أم رومان (وهي أم عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا) قَالَتْ: (بَيْنَا أَنَا قَاعِدَةٌ أَنَا وَعَائِشَةُ، إِذْ وَلَجَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَتْ: فَعَلَ اللَّهُ بِفُلَانٍ، وَفَعَلَ بِفُلَانٍ...)»^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الفعل: كناية عن كل عمل متعدّد، أو غير متعدّد.

والفعل يعبر به عن القدرة على الشيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤]؛ أي: قادرين على فعل ما نشاء.

وَالْفَعَالُ: صيغة مبالغة من الفعل، بمعنى: الذي يكثر منه الفعل؛ أي: ما يُريد ويفعل في غاية الكثرة^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْحِ: يوصف ربُّنا العظيم بصفة الفعل الجَلِيلَة، بل يوصف بها بصيغة المُبَالِغَة أعلاها في التعظيم، والإجلال، والكَمَال، فقال: ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ لِيَبَانَ: كثرة أفعاله، ودوامها، ونهاياتها، بلا عَدٍّ، ولا حصر، «فأفعاله عز شأنه لا تُحصى أنواعها، فضلاً عن أفرادها»^(٣)، وما تقتضيه من آثار، ومتعلقات في الخلق كله في كلِّ حال، وآنٍ، وزَمَانٍ، فكل ما في السموات والأرض من فعله سبحانه، ولهذا يوصف الله تعالى بكل ما خَلَقَ، وبكل ما شرع^(٤).

فكُونُهُ ﷻ ﴿فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾: هذا من كَمَال قوته، ونفوذ مَشِيئته، وشُمُول قدرته، أن كل أمر يُريده فعله، في أيِّ وقتٍ يُريد أزلًا، وأبدًا، وعلى أيِّ كيفية يريدها، وهذا من كَمَاله، فهي كَمَال في وقتها، وعند وجود سببها، لا يتعاضى عليه شيء، ولا يُعارضه أحد، وليس له

(١) البخاري (٤١٤٣).

(٢) «لسان العرب» (١٣١/٧)، و«عمدة الحفاظ» (١٢٤/٣، ٢٤١)، و«معاني القرآن» للزجاج (٤٠٧/٣)، و«المصباح المنير» (٢٤٨)، وإعراب القرآن وبيانه، محي الدين درويش (٤٣٥/١٠).

(٣) تفسير آل عمران (٢٥١/١)، والقواعد المثلى لابن عثيمين (١٢٣).

(٤) «شرح صحيح مسلم» لابن عثيمين (٦٣٥/٢).

ظهير ، ولا عوين ، ولا مُساعد على أيّ أمر يكون ، بل إذا أراد أمراً قال له : «كن فيكون»^(١).

وهذا يدلُّ على أن كلَّ فعلٍ من أفعاله تعالى ، له إرادة تخصُّه ، فشأنه سبحانه أنه يُريد على الدوام ، ويفعل ما يُريد ، وأن فعله وإرادته مُتلازمان ، فما أراد أن يفعله فعله ، لا يعوقه شيء ، وما فعله فقد أرادَه ، فما ثمَّ فعَّالٍ لما يُريد إلَّا الله تعالى وحده ، لا شريك له^(٢).

ومع أن ربَّنَا الجليل فعَّالٍ لما يُريد ، فلا يُريد إلَّا ما تقتضيه حكمته ، وعلمه ، فجميع أفعاله مقرونة وتابعة لحِكمته الجَليلة ، فلا تكون موجودة ، إلَّا حيث اقتضتها الحكمة ، فهو سبحانه موصوفٌ بالكمال من جهتين : من جهة كمال القدرة ، ونُفوذ الإرادة ، وأن جميع الكائنات قد انقادت لمشيئته ، وإرادته . ومن جهة الحكمة ، فإنه تعالى الحكيم في كلِّ ما يصدر منه من قول ، وفعل : ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦] ؛ أي : في أقواله ، وأفعاله ، ولهذا فهو سبحانه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣] ^(٣).

﴿٤٧﴾ صفة الكمال (ذو الفضل) الجَليلة

﴿الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ﴾ : قال تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة: ١٠٥] .

٢ - وقال سبحانه : ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢٩] ^(٤).

﴿السَّنةُ النَّبَوِيَّةُ﴾ : قال رسول الله ﷺ : «ثلاثة لا يُكَلِّمُهُم الله يومَ القيامة ، ولا ينظرُ إليهم ... ، ورجلٌ منهم فضل ماء ، فيقول الله يومَ القيامة : اليومَ أَمْنَعُكَ فَضْلي ، كما منعت فضل ما لم تعمل يداك»^(٥).

وحديث أهلِ الدُّثور وفيه : (فرجعَ الفقراءُ والمُهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا : سمع

(١) «فتح الرحيم الملك» (٢٧) ، و«شرح صحيح البخاري» لابن عثيمين (١٦١/١).

(٢) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم (٦١).

(٣) انظر : الأسماء والصفات للبيهقي (١٩١/١) ، و«تفسير السعدي» (٣٩٠) (٩١٩) ، و«فتح الرحيم» (٢٧) ، و«شرح عقيدة أهل السنة» (١٩٣) ، و«شرح صحيح البخاري» لابن عثيمين .

(٤) وقال ﷺ : ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمَكْمُورِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] ، وقال عز شأنه : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [يونس: ٦٠] . وقال جل ثناؤه : ﴿وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] .

(٥) البخاري (٧٤٤٦) . ومن دُعاء رسول الله ﷺ : «اللهم إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ وَرَحْمَتِكَ ، فَإِنَّهُ لَا يَمْلِكُهُمَا إِلَّا أَنْتَ» . صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٤٣) .

إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا بمثله، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»^(١).

﴿المَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الفضل: أصله الزيادة عن الاقتصاد، وهو خلاف النقص، والنقيصة، والإفضال: الإحسان، تقول العرب: رجل مفضل إذا كان كثير الخير، والفواضل: الأيادي الجميلة، أو الجسيمة^(٢)﴾.

﴿المَعْنَى فِي الشَّرْع: وصف ربنا الجليل نفسه بالصفة الكريمة أنه ذو الفضل، الذي لا يقدر أحد من العباد إحصاءه، ولا الإحاطة بمقداره.﴾

فهو عز شأنه ذو الفضل العظيم، والإحسان العميم، والخير الجزيل، الذي ليس له فيه نظير، ولا مثيل، ولا عديل.

فأفضاله تدرُّ على العالمين في كلِّ آنٍ وحين، فلا يستغني عنه مَنْ في السموات والأرضين، من الإنس، والجان، والأنعام، والنبات، بل والجَمادات.

«فكلَّ خير ناله عباده في دينهم، ودُنياهم، فإنه من عنده ابتداء، وتفضُّلاً منه عليهم، من غير استحقاق منهم ذلك عليه»^(٣)، بل بِمَحْضِ فضله عليهم سبحانه.

فهو تعالى «صاحب الفضل العظيم كمية، والعظيم كيفية، والعظيم شُمولاً في المكان، وشُمولاً في الزَّمان»^(٤).

«وفضله سبحانه (العظيم) نوعان: فضل خاص، وفضل عام، فالخاص للمؤمنين، والعام للجميع»^(٥)؛ أي: لكل العالمين، وهو الفضل الديني الذي لا يعد ولا يحد من الآلاء، والإنعام، والمسرَّات.

(١) البخاري (٨٤٣)، ومسلم (٥٩٥).

(٢) انظر: «المفردات» (٦٣٩)، و«اللسان» (٣٤٢٨/٥)، والقاموس (١٠٠١)، و«الأسنى» (٥١١/١).

(٣) «تفسير الطبري» (٣٧٨/١).

(٤) أمّا في كميته: فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَعْدُوا يَمَّةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]. وجعل جزاء الحسنة عشرًا إلى سبعمئة إلى أضعاف كثيرة.

وأما في كيفيته: فقد قال ﷺ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]. «أحكام من القرآن الكريم» (٣٧٨/١)، و«تفسير سورة آل عمران» (٤٥٣/٢) لابن عثيمين.

وأما فضله في المكان: هو ما عظمه سبحانه من البقاع كالمساجد الثلاثة، في مُضاعفة الأجور عن غيرها أضعافاً كثيرة.

وأما في الزَّمان: كشهر رمضان، والليالي العشر الأخيرة فيه، والعشر الأولى من ذي الحجة، وغيرها.

(٥) «تفسير سورة آل عمران» لابن عثيمين (٣١٦/٢).

أما الفضل الخاص: فهو أكمل الفضل وأعلاه، لأنه: فضل إيماني ديني، الذي تفضّل به سبحانه على من خصّهم به من الأولياء، الذي يوصلهم به تعالى إلى أعلى الغايات، وهو: توفيقهم إلى القيام بالطاعات، واجتناب المحرّمات، والنصرة على الأعداء، الذي يقتضي السلامة من الآفات، والهلكات، في الدنيا، والعرضات، فهو فضل الله تعالى، يتفضل به على من يشاء.

﴿٤٨﴾ صفة الكمال (المنع) الجليّة

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾ قال ﷺ: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾ ١ - كان رسول الله ﷺ إذا فرغ من صلاته قال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»^(١).

٢ - وحديث جابر ت أن النبي ﷺ غزا غزوةً قبل نجد، فأدركتهم القاتلة، فجنّا النبي ﷺ وبين يديه أعرابي جالس، فقال: «إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ سِيفِي، فَقَالَ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟! فَقُلْتُ: اللَّهُ» ثلاثاً^(٢).

وفي لفظ: فقال لرسول الله ﷺ: أتخافني؟ قال: «لا»، قال: فَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قال ﷺ: «اللَّهُ يَمْنَعُنِي مِنْكَ»^(٣).

٤ - وقال ﷺ: «... وإذا أراد الله خلق شيء، لم يمنعه شيء»^(٤).

٥ - وحديث نهى النبي ﷺ بيع الثمر، وفيه: «... أَرَأَيْتَ إِذَا مَنَعَ اللَّهُ ثَمْرَهُ، بِمَ يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مَالَ أَخِيهِ»^(٥).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: المنع: خلاف العطاء، وهو الكفّ، يقال: امتنع من الأمر: كفّ عنه،

(١) البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٤٧١).

(٢) البخاري (٢٩١٠) (٤١٣٥).

(٣) مسلم (٨٤٣).

(٤) مسلم (١٤٣٨).

(٥) البخاري (٢١٩٨)، ومسلم (١٥٥٥).

والمنيع: الحماية، ومنه: مكان منيع، وقد منع. وفلان في منعة من قومه؛ أي: في جماعة تمنعه، وتحوطه^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْحِ﴾: هذه الصفة الجليلة تدلّ على تصرفه سبحانه في الكون وحده في المنع، كما في العطاء، لا شريك معه أحد من الخلق، فهو سبحانه المانع الذي لا مانع لما قدر من العطاء، كما هو يعطي من يستحقّ العطاء، ويمنع مَنْ يشاء، وهو العادل في جميع ذلك، فإذا أعطى ففضل وإصلاح، وإذا منع فحكمة وصلاح، فهو تعالى يُعطي تفضلاً، ويمنع ابتلاءً، ولا رادّ لما أراد سبحانه^(٢).

ومنع الله تبارك وتعالى دنيوي، وشرعي:

أمّا الدنيوي: وهو كما تقدم أنه سبحانه يمنع مَنْ يريد من خلقه ما يُريد، كما في الحديث: «لا مانع لما أعطيت»؛ «أي: إنّ مَنْ قضيت له بقضاء من رزق أو غيره لا يمنعه أحدٌ عنه، ومعنى «لا معطي لما منعت» أنه: مَنْ قضيت له بحرمان لا معطي له»^(٣).

أمّا منعه الشرعي: أنه تعالى «هو الحافظ، والحائط، والناصر لدينه، وأوليائه، يحوط أهل دينه، ويحفظهم، وينصرهم على عدوهم، ولا منعة لمن لم يمنعه الله، ولا يمتنع مَنْ لم يكن الله له مانعاً»^(٤).

وإن من أجلّ وأعظم منعه الشرعي أنه تعالى: منع كائناً من كان من أن يحرف كتابه، أو يصد عن بيانه، وبلاغته، إلى يوم القيامة.

وبالجملة فإن من معاني المنع: التأيد، والإحاطة، والعزة، والكفاية، والنصرة على الأعداء في الدنيا، ويوم العرصات، وهذا غاية المُرادات، ومنتهى الأمنيات.

فائدة: ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ فِي شرحه للحديث: «اللهم لا مانع لما أعطيت...» أنه متضمن لتحقيق توحيد الربوبية، والألوهية، يقول رَحِمَهُ اللهُ: «فَبَيَّنَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ أَصْلَيْنِ عَظِيمَيْنِ:

(١) «المفردات» (٧٧٩)، و«المصباح المنير» (٣٣٦)، و«شأن الدعاء» (٩٣).

(٢) «النهاية» (٨٨٤)، والحجة في بيان المحجة (١٦٠/١)، وانظر: «جلاء الأفهام» (٤٦٠).

(٣) «سبل السلام للصنعاني» (١٩٧/١).

(٤) انظر: «اللسان» (٤٢٧٧/٧)، والحجة في بيان المحجة (١٦٠/١)، و«شأن الدعاء» (٩٣)، و«الأسنى» (٣٥٦/١).

أحدهما: توحيد الربوبية، وهو: أن لا معطي لما منع الله، ولا مانع لما أعطاه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يسأل إلا هو.

الثاني: توحيد الألوهية، وهو: بيان ما ينفع، وما لا ينفع، وأنه ليس كل من أعطي مالا، أو دنيا، أو رئاسة، كان ذلك نافعاً له عند الله، منجياً له من عذابه، فإن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب، ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا لمن يحب^(١).

﴿٤٩﴾ صفة الكمال (الصُّنْع) الجَلِيلَة

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يصنع كلَّ صانع، وصنْعته».

٢ - وفي رواية: «إنَّ الله ﷻ صنَع كلَّ صانع، وصنْعته»^(٢).

﴿المَعْنَى فِي اللُّغَةِ﴾: الصنع: إِجَادَةُ الفِعْلِ، فكل صنع فعل، وليس كل فعل صنْعاً، يقال: صنع يصنعُ صنْعاً، وما أحسن صنْع الله عنده، وصنِيعه، وقوله تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ﴾؛ أي: صنْعته، وخلقه^(٣).

والصنع: الاختراع، والتركيب معاً^(٤).

﴿المَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: الله تبارك وتعالى هو الصانع لكلِّ شيء على الإطلاق، ف«كل مصنوع من صنعه»^(٥)، وإتقانه، فهو تعالى الذي صنع وخلق، على غير مثال سبق.

فربُّنا ﷻ هو «المبدع للكون، وهو الذي صنع الكون بذاته، وأبدعه»^(٦) من غير مثال احتذاه، فأخرجه من العدم إلى الوجود، بعد أن لم يكن موجود.

ولهذا أخبر عن نفسه بقوله: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾؛ أي: «إنَّ الله تعالى متقن لكلِّ

(١) «مجموع الفتاوى» (٤٤٨/٢٢)، وانظر كلام ابن أبي العز في: «شرح العقيدة الطحاوية» (٣٦٨).

(٢) رواه البخاري في خلق أفعال العباد (١٠٢، ١٠٣)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٣٧) (١٨١/٤)، وفي «السنة» لابن أبي عاصم (٣٥٧). وقال ﷺ: «لا يقولنَّ أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم في الدعاء، فإنَّ الله صانع ما شاء، لا مكره له». البخاري (٦٣٣٩)، ومسلم (٢٦٧٩) واللفظ له.

(٣) «عمدة الحفاظ» (٣٥٥/٢)، و«كتاب العين» (٤١٧/٢).

(٤) الأسماء والصفات (١٥٨/١).

(٥) «الأسنى» (٤٢١).

(٦) من كلام ابن جبرين رَحِمَهُ اللهُ فِي «الكنز الثمين» (١٧٣) بواسطة صفات الله الواردة لعلوي السقاف (٢٢٨).

شيء من الأفعال والأحكام؛ أي: متقن لكل ما صنع، وشرع، ومن جملة إتقانه سبحانه أنه: حينما كانت الأرض محتاجة إلى هذه الجبال صارت الجبال راسية، ورواس ترسي بها الأرض، وهي أيضاً في نفسها ثابتة، ويوم القيامة تزول الحاجة إليها، بل تقتضي الضرورة زوالها، فتزال هذه الجبال العظيمة، ولهذا تعلم الفائدة والحكمة في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْفَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾، فصار وجود الجبال (في الدنيا) إتقاناً، وزوالها يوم القيامة إتقاناً أيضاً^(١).

وأما عن شرعه ودينه، فهو غاية في الإتقان، ونعمة منه وامتنان، فقد أبدعه وأبرمه وأحكمه، بحيث لا يدخل فيه زلل، ولا تخالطه العلل، ولا يظهر فيه عيب أو خلل، فلا يستطيع أن يقدر فيه طرف أنملة أحد من الأنام، فقد جعله سبحانه صالحاً لكل حال، وأن، ومكان، مهما تتابعت السنين والأزمان.

٥٠) صفة الكمال (المُسْتَعَانَ) الْجَلِيلَةَ

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]^(٢).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: ١ - حديث ابن عباس ب أن رسول الله ﷺ كلمه كلمات: «... إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»^(٣).

٢ - وقال رسول الله ﷺ: «والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ﴾: العون: الظهير على الأمر. والمعونة: الإعانة. تقول: أعنته إعانة ومعونة. والاستعانة: طلب العون. وقوله: ﴿فَاعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾؛ أي: ساعدوني^(٥).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: يوصف ربنا الجليل بصفة الاستعانة الكمالية، فهو تعالى المعين لكل العالمين، فلا يستغني عنه أحد من الخلق أجمعين، في جميع أمورهم المعاشية،

(١) «تفسير سورة النمل» لابن عثيمين (٢٦٨/٦ - ٢٧٤).

(٢) وقال سبحانه: ﴿فَصَبِّرْ جَبِيلًا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

(٣) رواه أحمد في المسند (٢٦٦٩) (٢٧٦٣)، وصححه شعيب الأرنؤوط (٤٠٩/٤)، والألباني في «صحيح الترمذي» (٢٥١٦).

(٤) مسلم (٢٦٩٩). الدعاء الذي علمه النبي ﷺ لمُعَاذٍ وَأَوْصَاهُ أَنْ يَقُولَهُ دُبْرَ كُلِّ صَلَاةٍ: «اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ». «صحيح أبي داود» (١٥٢٢). ومن دُعَائِهِ ﷺ: «رَبِّ أَعْنِي وَلَا تُعِنِّ عَلَيَّ...». «صحيح أبي داود» (١٥١٠)، و«صحيح الترمذي» (٣٦٦١).

(٥) «عمدة الحفاظ» (١٤٤/٣)، و«كتاب العين» (٢٥٨/٣).

والشرعية ، في كل وقت وحين .

ولهذا كان الأنبياء والأولياء يلجأون إلى الله تعالى في طلب المدد والمعونة منه تعالى ، في جميع أحوالهم الظاهرية والباطنية ، كما حكى سبحانه عن يعقوب عليه السلام بقوله: ﴿فَصَبِرْ جَمِيلًا وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١٨] .

وأمر نبينا محمداً ﷺ أن يقول: ﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢] «أي: نسأل ربنا الرحمن ، ونستعين به على ما تصفون»^(١) .

وأمرنا أن نسأل الله تعالى في كل صلاة العون منه تعالى على القيام بواجباته ، وحقوقه علينا سبحانه ، لأنه «لا يُعين على العبادة الإعانة المطلقة إلا هو ﷻ ، وقد يستعان بالمخلوق فيما يقدر عليه»^(٢) ، لكنها محدودة ، منوطة بالعوين ، والظهير ، والمساعد ، والمُنَاصِر ، فلا تكون إلا كذلك ، أما المَعونة الكاملة المُطلقة ، فلا تكون إلا من الله تعالى وحده ، لأنه سبحانه «بخلاف ذلك ، (فهو تعالى) غني عن الظَّهير ، والمُعين ، والشريك ، والوزير ، بل كل إعانة وعون فمنه ، وبه سبحانه ، لا إله إلا هو»^(٣) ﷻ ، وتعالى في عليائه .

﴿٥١﴾ صفة الكمال (المُسَخِّر) الجَلِيلَة

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: ١﴾ - قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [الحج: ٦٥] . ٢ - وقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١] .

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: حديث رؤية الرَّبِّ ﷻ ، ومُخاطبة الرَّبِّ للعبد: «... فيلقى العبد فيقول: أَيُّ قُلٍّ! أَلَمْ أَكْرَمْكَ ، وأسودك ، وأزوجك ، وأسخر لك الخيل والإبل...»^(٤) .

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: التسخير: التهينة والتذليل ، وهو سياقه إلى الغرض المختص به قهراً ، وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [الرعد: ٢] ؛ أي: قهرهما .

(١) «تفسير السعدي» (٥٣٢) .

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١٣/١) .

(٣) «الأسنى» (٥٤٥/١) .

(٤) صحيح مسلم (٢٩٦٨) ، ومعنى قل: يا فلان .

فالمُسَخَّر هو الْمُقَيِّض للفعل، والسُّخْرِيُّ: هو الذي يقهر فيسخر بإرادته، قال تعالى: ﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٢] (١).

﴿المعنى في الشَّرْع﴾ وصف ربنا العظيم نفسه بصفة التسخير، وقد جاءت هذه الصفة الكريمة في سياق الامتنان، والتذكير بالآلاء، وإنعام الله تعالى المتواصل على بني آدم في تهيئة وتذليل كل من في السموات والأرض له، وتسخيره سبحانه نوعان:

الأول: التسخير العام، وهو لجميع بني آدم من الإنس والجان، وهو نوعان كذلك: الأول: تسخير الآيات الكونية العلوية له، كالشمس والقمر، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [الرعد: ٢] ؛ أي: «لِمَصَالِحِ الْعِبَادِ، وَمَصَالِحِ مَوَاشِيهِمْ، وَثِمَارِهِمْ» (٢). وسخر النجوم كذلك: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فسخرها سبحانه لما فيه من المنافع في السير والسفر واهتداء المسافر بها إلى الجهات، وكذلك لما فيها من الزينة، وجمال المنظر.

وسخر السحاب: ﴿وَالسَّحَابَ الْمُسَخَّرَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤] الذي به حياة الأبدان للإنس، والجان، والحيوان... وغير ذلك من الآيات.

الثاني: تسخير الآيات الأرضية له، كتسخيره البحار، والأنهار، والفلك لتجري فيهما، قال سبحانه: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم: ٣٢] ؛ أي: «فهو الذي يَسِّرَ لَكُمْ صِنْعَهَا (أي: السفن)، وأقدركم عليها، وحفظها على تيار الماء لتحملكم، وتحمل تجارتكم، وأمتعكم إلى بلد تقصدونه، ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ لتسقي حروثكم، وأشجاركم، وتشربوا منها» (٣) صالحاً نافعاً لأبدانكم، وحراثكم، ودوابكم.

ويستخرج منها لحماً طرياً ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً﴾ [النحل: ١٤]، وجواهر نفيسة حليلة وزينة: ﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل: ١٤].

«وسخر لنا سبحانه وسائل النقل: كالجمال، والخيول، والحمير قديماً، والسيارات، والطائرات حديثاً» (٤). وغيرها من التسخير الذي لا يُعد ولا يُحصى.

(١) «المفردات» (٤٠٢)، و«عمدة الحفاظ» (١٨١/٢).

(٢) «تفسير السعدي» (٤١٢).

(٣) «تفسير السعدي» (٤٢٦).

(٤) أسماء الله الجسني د. عمر الأشقر (٢٥٩).

النوع الثاني: التسخير الخاص:

وهو ما سخره سبحانه لبعض أنبيائه عليهم السلام، مثل: تسخير سبحانه لداود عليه السلام:
 كتسخير الجبال، والطير للتسبيح، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، وقال عز شأنه: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعُشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨].
 وسخر لسليمان الريح تجري بأمره حيث شاء، قال سبحانه: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، «وتسخير الشياطين له، ينون (له) ما يُريد، ويغوصون له في البحر، يستخرجون الدواء والحلي»^(١) قال جلّ جلاله: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَعَوَّاصٍ﴾ [ص: ٣٧].

٥٢) صفة الكمال (النافع) الجليّة

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: (١) عن مصعب بن سعد عن أبيه أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: عَلَّمَنِي دُعَاءَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَنْفَعَنِي بِهِ! قَالَ: «قُلْ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كُلَّهُ، وَإِلَيْكَ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ»^(٢).
 (٢) كان من دُعَاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ أَنْفَعْنِي بِمَا عَلَّمْتَنِي، وَعَلَّمْنِي مَا يَنْفَعُنِي، وَزِدْنِي عِلْمًا...»^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّفْظِ: النفع: الخير، وهو ضد الضر، وهو ما يُستعار به في الوصول إلى الْخَيْرَاتِ، وما يتوصل به إلى الخير فهو خير^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: الله سبحانه هو النافع، فلا نفع إلا منه، وبه سبحانه، فهو النافع على الإطلاق، ونفعه عز شأنه نوعان: دنيوي، وأخروي:

أَمَّا الدُّنْيَوِيُّ فَقِسْمَانِ:

القسم الأول: منافع معاشية: فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الَّذِي يُوَصِّلُ النِّفْعَ إِلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ، «فكُلُّ نفع يدر على العبد في الدنيا فهو من الله تعالى، وكل عبد صدر منه منفعة فهو مسخر من الله تعالى بها»^(٥) وأنواع، وألوان، وبسائط نفعه، لا تعد، ولا تُحصى، فكل ما تتقلب فيه

(١) «تفسير السعدي» (٧١٣).

(٢) حسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٤٧/٢) (١٥٧٦).

(٣) «صحيح الترمذي» (٣٥٩٩).

(٤) «المفردات» (٨١٩)، و«المصباح المنير» (٣٥٧).

(٥) «الأسنى» (٣٥٤/١).

الْخَلَائِقُ مِنَ النَّعْمِ، وَالصَّحَّةُ، وَالسَّعَادَةُ، وَالْهَنَاءُ، وَالْجَاهُ، وَالْمَلْبَسُ، وَالْمَسْكَنُ، وَالْمَرْكَبُ، وَالزَّوْجُ، وَالذَّرِّيَّةُ، كُلُّهَا مِنْ أَفْرَادِ مَنَافِعِهَا الَّتِي لَا تَسْتَقْصَى، وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِحِكْمَتِهِ النَّامَّةَ أَسْبَابًا مَنْوُطَةً بِهَا، وَسَبَلًا لِتَحْصِيلِهَا «فَمَنْ سَلَكَهَا أَوْصَلَتْهُ إِلَى الْمَقْصُودِ النَّافِعِ، وَمَنْ تَرَكَهَا، أَوْ تَرَكَ بَعْضَهَا، أَوْ فُوتَ كَمَالَهَا، أَوْ أَتَاهَا عَلَى وَجْهِ نَاقِصٍ فَفَاتَهُ الْكَمَالُ الْمَطْلُوبُ»^(١) مِنْهَا.

القسم الثاني: منافع شرعية: وهي نفع الأرواح، وهو ما يخصه سبحانه من كُتِبَ لَهُمُ السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ، وَهِيَ الْمَنْفَعَةُ الْحَقِيقِيَّةُ، الدَّائِمَةُ، الْأَبَدِيَّةُ، الْمَوْصِلَةُ إِلَى جَنَّاتِهِ الْعَالِيَةِ، بِمَا يَسِرُّ وَيسهل لَهُمْ طَرِيقُهَا، وَالْوَصُولُ إِلَيْهَا مِنَ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرِيَّةِ، وَالْبَاطِنِيَّةِ، السَّرِيَّةِ، وَالْعَلَنِيَّةِ، الْعِلْمِيَّةِ، وَالْعَمَلِيَّةِ، وَهَذِهِ هِيَ «الْمَنْفَعَةُ الْحَقِيقِيَّةُ الَّتِي تَنْفَعُكَ فِي الْأُخْرَى، وَتَرْفَعُكَ إِلَى الذُّرُوءِ الْعَالِيَةِ، فَحَقِّقْ أَنْ تَحْدُقَ إِلَيْهَا عَيْنَ قَلْبِكَ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يُتِيحَ لَكَ اللَّهُ تَعَالَى»^(٢).

والنوع الثاني: النفع الأخروي: وهو النفع الخالص، الصافي من كلِّ الشوائب، في دخول بلاد الأفراح، الخالية من النَّصَبِ، وَالْأَتْرَاحِ.



(٥٣) صفة الكمال (المؤلف) الجليلة



﴿الْكِتَابُ الْحَكِيمُ﴾: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣]^(٣).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: دَعَا النَّبِيُّ ﷺ: «اللَّهُمَّ أَلِفْ بَيْنَ قُلُوبِنَا، وَأَصْلَحْ ذَاتَ بَيْنِنَا...»^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ﴾: أَلَفٌ: الْأُلْفَةُ: اجْتِمَاعُ مَعَ التَّائِمِ، يُقَالُ: أَلَفْتُ بَيْنَهُمْ، وَيُقَالُ: أَلَفَ الْمَكَانَ يَأْلِفُهُ أَلْفًا إِذَا أَحَبَّهُ، وَلَمْ يَطْبِ نَفْسًا بِفَرَاغِهِ، وَأَلَفْتُ الْأَشْيَاءَ، وَأَلَفْتُ بَيْنَهَا: جَمَعْتُ بَعْضَهَا إِلَى بَعْضٍ. وَالتَّأْلِيفُ: مَا جُمِعَ مِنْ أَجْزَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَرُتِبَ تَرْتِيبًا قَدِمَ فِيهِ مَا حَقُّهُ أَنْ يَقْدَمَ، وَأُخِّرَ فِيهِ مَا حَقُّهُ أَنْ يُؤَخَّرَ^(٥).

(١) «توضيح الكافية» (١٣١). وهذه المنافع يتقلب بها كلُّ مَنْ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ الطَّوَائِقِ، مِنَ الْإِنْسَانِ، وَالْحَيَوَانِ، وَالنَّبَاتِ، وَالْجَانِّ.

(٢) «الأسنى» (٣٥٤/١).

(٣) وقال سبحانه: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

(٤) أخرجه أبو داود (٩٦٩)، والحاكم واللفظ له (٢٦٥/١) وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٦٣٠).

(٥) انظر: «المفردات» (٨١)، و«عمدة الحفاظ» (١٠٠/١)، و«الصحاح» (٥١).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: الله سبحانه وتعالى هو الذي يُولِّف بين النفوس الْمُتَنَافِرَةَ، والقلوب الْمُتَبَاغِضَةَ، والأجساد المتباعدة، ولهذا كانت هذه الصفة من الصفات المحبوبة للأولياء، لأنها جاءت في سياق الامتنان والتذكير بالإخاء، والمودة، والمحبة، وهي أعظم النعم والآلاء. فهو تعالى المؤلِّف الذي يُولِّف «بين المتفرقات، والمتباينات، والتمائلات، والمتضادات»^(١).

وتأليفه ﷺ معاشي، وديني:

أما المعاشي: فهو نوعان: معنوي، وحسي، فالأول: المعنوي الذي يشترك فيه كلُّ الخليقة، بما يُولِّفه سبحانه تعالى من المودة، والمحبة، بين الزوجين، والأولاد، والأقارب، والأصحاب.

والثاني: التأليف الحسي، كما ذكره تعالى في تذكير قريش بنعم الأمن، والأمان، فقال: ﴿لِيَأْلَفَ قُرَيْشٌ ۖ يَأْلَفَهُمْ رَحَلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ الآية.

والتأليف الديني الشرعي: وهو: ما يُولِّفه الله ﷻ بين عباده الصالحين، من المودة، والمحبة، والألفة في الدين، كما ذكر سبحانه مُتَنَافِئًا على الأوس، والخزرج بقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، «فقد كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة، وضغائن، وفتن، ومحن، فلما جاء الإسلام، (ألف الله تعالى بينهم)، فاجتمعوا عليه، وتألفت قلوبهم على الإيمان، حتى كانوا كالشخص الواحد»^(٢).

بل أخبر سبحانه أن هذه المودة وهذه الألفة فيما بينهم وهذا الاجتماع على طاعة الله ورسوله، ومناصرته، ومؤازرته، لم يكن من عمل أحد، ولا بقوة وإرادة وفعل أحدٍ غير الله تعالى، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٣٠﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٣١﴾ [الأنفال: ٦٣].

أي: فلو أنفقت ما في الأرض جميعاً من ذهب وفضة وغيرهما لتأليفهم بعد تلك النفرة والفرقة الشديدة، ما استطعت أن تؤلف بينهم، لأنه لا يقدر على قلب القلوب إلا الله تعالى،

(١) «الأسنى» (٤٨٠/١).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٥٣٤/١)، و«تفسير السعدي» (١٤٢).

ومن عزَّته أن ألف بين قلوبهم ، وجمعها بعد الفارقة^(١).

ولولا حكمته التي يتقن بها ما أراد ، بحيث لا يمكن لأحد أن يغير شيئاً منه لما تألفوا^(٢).



(٥٤) صفة الكمال (الاطلاع) الجليلة



❖ السُّنَّة النَّبَوِيَّةُ: ١ - حديث مسروق قال: سألنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ، فقال: (أما إننا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ ، فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر ، لها قناديل معلقة بالعرش ، تسرح من الجنة حيث شاءت ، ثم تأوي إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم إطلاعه...»^(٣)).

٢ - وقال ﷺ: «يطلعُ الله إلى عبادِهِ ليلةَ النِّصف من شعبان ، فيغفرُ للمؤمنين ، ويُمهلُ الكافرين ، ويدعُ أهلَ الحِقْدِ بحقدِهِم حتى يدعوه»^(٤).

٣ - وقال ﷺ: «يجمعُ الله النَّاسَ يومَ القيامةِ في صعيدٍ واحد ، ثم يطلعُ عليهم ربُّ العالمين...»^(٥).

❖ المَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الاطلاع: هو الظهور ، والبُرُوز ، والاستشراق من مكان مرتفع ، وكل ما بدا لك من علوٍ فقد اطلعَ عليك^(٦).

❖ المَعْنَى فِي الشَّرْع: الاطلاع من أوصاف الله تعالى الفعلية العُلا ، والتي تقوم به متى شاء ، واطلاعه تعالى كما يليق به يكون في الدنيا ، والآخرة:

أما في الدنيا: تقدم ذِكْر الأدلة السنية الشريفة التي أخبر بها النبي ﷺ: اطلاعه لأهل بدر ، واطلاعه في ليلة النصف من شعبان ، وكذلك للشهداء في الجنة ، وهذه الصفة الكريمة تتضمن البشارة: بالإكرام ، والإنعام ، والغفران.

(١) انظر: «تفسير السعدي» (٣٢٥).

(٢) «نظم الدرر» (٢٣٨/٣).

(٣) مسلم (١٨٨٧).

(٤) صححه الألباني في «صحيح الترميز والترهيب» (٥٤/٣) (٢٧٧١).

(٥) أخرجه أحمد (٨٨١٧) ، وصححه شعيب الأرنؤوط (٤١٥/١٤) ، والألباني في «صحيح الترميز» (٢٥٥٧). وقال ﷺ لعلي بن أبي طالب عليه السلام: «ما يُدريك لعلَّ الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم». البخاري (٣٠٨١) ، ومسلم (٢٤٩٤).

(٦) «مقاييس اللغة» (٥٣٥) ، و«القاموس المحيط» (٨٠٨) ، و«المصباح المنير» (٢١٧).

وأما في الآخرة: في عرصاتهما، حينما يطلع سبحانه على جميع خلقه، ولهذا ذكر ربوبيته للعالمين بقوله: «ثم يطلع عليهم ربّ العالمين»، فاطلاعه سبحانه هنالك على ضريين:

الأول: عام لكل أهل الموقف: كما في قوله: «ثم يطلع عليهم ربّ العالمين، فيقول: ألا ليتبع كلّ أناس ما كانوا يعبدون».

والثاني: اطلاع خاص للمؤمنين، كما في قوله ﷺ: «فيطلع عليهم رب العالمين فيقول: ألا تتبعون الناس؟ فيقولون: نعوذ بالله منك، نعوذُ بالله منك، الله ربّنا، وهذا مكائنا، حتى نرى ربّنا، وهو يأمرهم، ويثبتهم...، ثم يتواري - أي: يستتر عنهم -، ثم يطلع فيعرفهم نفسه ثم يقول: أنا ربّكم، فاتبعوني، فيقوم المسلمون، ويوضع الصّراط...».

يقول ابن العربي رحمه الله: «إنما استعاذوا منه أولاً، لأنهم اعتقدوا أن ذلك الكلام استدراج، لأنّ الله تعالى لا يأمر بالفحشاء، ومن الفحشاء اتباع الباطل وأهله، ولهذا وقع في الصّحيح: «فيأتيهم الله في صوّر»؛ أي: بصورة لا يعرفونها، وهي الأمر باتباع أهل الباطل، فلذلك يقولون: إذا جاء ربّنا عرفناه؛ أي: إذا جاءنا بما عهدناه منه من قول الحق»^(١).

وهذا اطلاع منه لأوليائه مزية خاصّة بهم، خلاف غيرهم، كما في قوله: «فيعرفهم نفسه»؛ «أي: يلقي في قلوبهم علماً قطعياً يعرفون به أنه ربّهم ﷻ»^(٢).

وكذلك في أمره لهم بقوله: «أنا ربّكم فاتبعوني، فيقوم المسلمون».

واطلاعه سبحانه من الأدلّة الصريحة الدالّة على علوه سبحانه فوق جميع خلقه، سواء كان هذا الاطلاع في الدنيا أو في الأخرى، لأن الاطلاع كما تقدم لا يكون إلا من علوّ، والله متصفّ به على الدوام، لا ينفك عنه بحال.



(٥٥) صفة الكمال (المُقَلَّب) الجَلِيلَة



﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: ١﴾ قال عز شأنه: ﴿وَنُقَلِّبُھُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٨].

(٢) وقال سبحانه: ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾ قال الله ﷻ في الحديث القدسي: «يؤذني ابن آدم يسبّ الدهر، وأنا

(١) «تحفة الأحوذى» (٤٢٨/٦).

(٢) المصدر السابق.

الدهر بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار». وفي لفظ: «... أقلب ليله ونهاره، فإذا شئت قبضتهما»^(١).

✽ المَعْنَى فِي اللَّغَةِ: المقلب: التقلب: هو التصريف والتحويل من وجهة إلى وجهة أخرى، ويكون في الذوات، والأعيان، ويكون في المحسوسات، والمعنويات، وفي الظواهر والبواطن.

✽ المَعْنَى فِي الشَّرْع: من أفعال الله تعالى التي ليس لها عد، ولا منتهى، صفة التقلب، فهو تعالى المقلب لِمَنْ شاء.

وقد جاء التقلب في فعله إلى أربعة أقسام:

- الأول: تقلب الجنان. الثاني: تقلب العينين.
- الثالث: تقلب الأبدان. الرابع: تقلب الأزمان.

أما الأول: تقلب الجنان، فقد كان ﷺ يتوسل إليه بها في تثبيت قلبه، الذي هو رأس الأركان، وموضع نظر الرحمن^(٢).

والتقلب الثاني: تقلب العينين^(٣).

والتقلب الثالث: تقلب الأبدان، كما حكى تعالى عن أهل الكهف: ﴿وَتَقْلِبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٨]، «وهذا من حفظه لأبدانهم، لأن الأرض من طبيعتها أكل الأجسام المتصلة بها، فكان من قدر الله تعالى أن قلبهم على جنوبهم يميناً وشمالاً، والله تعالى قادرٌ على حفظهم من الأرض، من غير تقلبٍ، لكنه تعالى حكيم، أراد أن تجري سنته في الكون، ويربط الأسباب بمسبباتها»^(٤).

والتقلب الرابع: تقلب الزمان: فهو تعالى يقلب الليل والنهار^(٥)، فيأتي هذا عقب هذا،

(١) البخاري (٤٨٢٦)، ومسلم (٢٢٤٦).

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (٥٧١/٦)، و«نظم الدرر» (٢٧٣/٥).

كما في الحديث: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»، بل كان أكثر دعواته، كما أخبرت بذلك أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها، وقد بين ﷺ سبب ذلك بقوله: «يا أم سلمة! إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ». «صحيح الترمذي» (٣٥٢٢).

(٣) قال تعالى: ﴿وَتَقْلِبُ أَعْيُنَهُمْ وَاصْدِرُهُمْ كَمَا كَانُوا بِآيَاتِهِ أُولَٰءِ مَرَّةً وَنَدَرُهُمْ فِي طَعْنِنَهُمْ يَمُوهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠].

(٤) «تفسير السعدي» (٤٧٢).

(٥) كما في الآية (٤٤) في سورة النور، وكذلك في الحديث القدسي الذي تقدم ذكرهما.

ويطول كل واحد منهما في زمن ، ويقصر الآخر في زمن آخر ، فينشأ عن ذلك التقلب ، من الحر والبرد ، والنمو والينوع^(١) ، وغيرها من الأحوال ، وما يترتب على ذلك من المنافع الجلال للأنام .

﴿٥٦﴾ صفة الكمال (بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) الْجَلِيلَةُ

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١١٧] ، [الأنعام: ١٠١] .

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمع النبي ﷺ رجلاً يقول: اللهم إنني أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت ، وحدك لا شريك لك ، المَّتَان ، بديع السموات والأرض ، يا ذا الجلال والإكرام . فقال النبي ﷺ: «لقد دعا الله باسمه الأعظم ، الذي إذا دُعِيَ به أجاب ، وإذا سُئِلَ به أعطى»^(٢) .

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ﴾: البديع: المبدع ، ويقال: أبدعت الشيء إذا جئت به فرداً لم يُشارك فيه غيرك . وابتدعه: أنشأه وبدأه ، قولاً كان ، أو فعلاً .

والبدع: الأول من كل شيء ، فالابتداع هو: اختراع الشيء لا على مثال سابق^(٣) .

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: وصف ربنا نفسه بأنه بديع السموات والأرض ؛ أي: أنه تعالى هو المنشئ ، والمحدث لها بعد أن لم تكن ، فهو سبحانه أوجدَهما من غير أصل ، ولا مثال ، ومن غير عَوين ، ولا نصير ، ولا مساعد على أمر يكون ، فأبدعهما وما فيهما ، بغاية الحسن من الخلق البديع ، والنظام العجيب ، المحكم المتقن^(٤) ، الذي لا يعتريه خلل ، ولا زلل ، «فأظهر عجائب صنعته ، وغرائب حكمته»^(٥) .

﴿٥٧﴾ صفة الكمال (الْمُطَهِّرُ) الْجَلِيلَةُ

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: ١- قال عز شأنه: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُثَبِّتَ يَمَنَّهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٦] .

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (٥٧١/٦) ، و«نظم الدرر» (٢٧٣/٥) .
 (٢) صححه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٤٩٥) ، وصحيح ابن ماجه (٣٨٥٨) وغيرهما .
 (٣) انظر: «كتاب العين» (١٢١/١) ، و«اللسان» (٢٢٩/١) ، و«المفردات» (٧٧٧) .
 (٤) انظر: «شأن الدعاء» (٩٦) ، واشتقاق أسماء الله (٧٣) ، و«تفسير ابن كثير» (٢٢٣/٣) ، و«تفسير القرطبي» (٥٨٠/١) ، و«تفسير السعدي» (٤٩٠/٥) .
 (٥) تفسير الأسماء الحسنى للرازي (٣٣٥) .

٢ - وقال تعالى: ﴿وَيُزِلْ عَلَيْكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْسَ الشَّيْطَانِ﴾

[الأَنْفَال: ١١] .

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: ١ - كان من دُعاء النبي ﷺ: «اللهم طَهِّرْني من الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، اللهم نَقِّنِي منها كما يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الدَّنَسِ، اللهم طَهِّرْني بِالتَّلَجِ، وَالبَرْدِ، وَالماءِ البَارِدِ»^(١).

٢ - وقال ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا طَهَّرَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ» قالوا: وما طهور العبد؟ قال: «عَمَلٌ صَالِحٌ يُلْهِمُهُ إِيَّاهُ حَتَّى يَقْبِضَهُ عَلَيْهِ»^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الطَّهْرُ: خِلَافُ الدَّنَسِ، وَيَدُلُّ عَلَى النِّقَاءِ.

والتَّطْهِيرُ: التَّنْزَهُ وَالْكَفُّ عَنِ الدَّنَسِ، وَالْإِثْمِ، وَكُلِّ قَبِيحٍ.

وَالطَّهَارَةُ ضَرْبَانِ: طَهَارَةُ بَدَنٍ، وَطَهَارَةُ نَفْسٍ، وَحُمِلَ عَلَيْهِمَا عَامَّةُ الْآيَاتِ فِي الْكِتَابِ. يُقَالُ: طَهَّرْتُهُ فَطَهَرَ، وَأَطْهَرَ فَهُوَ طَاهِرٌ، وَمُتَطَهَّرٌ^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ «الْمُطَهِّرُ مَنْ شَاءَ مِنْ عَبِيدِهِ، بِمَا مَنَحَهُمْ مِنْ تَوْفِيقِهِ، وَرَزَقَهُمْ مِنْ طَاعَتِهِ، وَتَوْحِيدِهِ، فَكُلُّ طَهَارَةٍ مِنْهُ فَضْلٌ، وَغَيْرُهَا مِنْهُ عَدْلٌ»^(٤).

وَتَطْهِيرُهُ سَبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ نَوْعَانِ: طَهَارَةُ حِسِّيَّةٍ ظَاهِرِيَّةٍ، وَطَهَارَةُ مَعْنَوِيَّةٍ بَاطِنِيَّةٍ.

وقد جمع الله تعالى بينهما للنبي ﷺ وصحبه في بدر، كما في قوله سبحانه: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يُطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأَنْفَال: ١١] .

فقوله: «﴿يُطَهِّرُكُمْ﴾» ؛ أي: من حدث أصغر، أو أكبر، وهو تطهير الظاهر. «﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمُ رِجْسَ الشَّيْطَانِ﴾» ؛ أي: من وسوسته أو خاطر سيء، وهو تطهير الباطن، كما قال في حق أهل الجنة: «﴿عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوتٌ أَسَاوِرٌ مِنْ فِضَّةٍ﴾» [الإنسان: ٢١]، فهذا زين الظاهر، «﴿وَسَقَمَهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾» [الإنسان: ٢١] ؛ أي: مطهراً لما كان من غِلٍّ، أو حسد، أو

(١) مسلم (٤٧٦)، و«صحيح النسائي» (٤٠٢).

(٢) صححه الألباني في صحيح الجامع (٣٠٦).

(٣) «المفردات» (٥٢٥)، و«كتاب العين» (٦٢/٣)، و«معجم مقاييس اللغة» (٦٢/٣).

(٤) «الأسنى» (٢٨٧).

تباغض، وهو زينة الباطن وطهارته. ﴿وَلَا يَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾؛ أي: بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء، وهو شجاعة الباطن. ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ وهو شجاعة الظاهر، والله أعلم^(١).

ومن صور تطهيره سبحانه لعبده، أنه يوفقه إلى عمل صالح قبل موته ثم يقبضه عليه طاهرًا مطهرًا^(٢).

﴿٥٨-٥٩﴾ صفتا الكمال (المُعز) (المُذِل) الجليلتان

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال ﷺ: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِإِذْنِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال ﷺ: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ، وَلَا وَبَرٍ، إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ، أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ»^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الْمُعِزُّ: الْعِزَّةُ هِيَ: الشَّدَّةُ، وَالْقُوَّةُ، وَالْغَلَبَةُ، يُقَالُ: أَعَزَّزْتُهُ وَعَزَّزْتُهُ إِذَا قَوَّيْتُهُ، وَفِي الْمَثَلِ: (مَنْ عَزَّ بَرًّا)؛ أَي: مَنْ غَلَبَ سَلْبًا. وَالْعِزَّةُ: الرَّفْعَةُ، وَالْإِمْتِنَاعُ. وَيُقَالُ: أَعَزَّهُ اللَّهُ: قَوَّاهُ بَعْدَ ذِلَّةٍ»^(٤).

المذل: الذل: الخضوع، والاستكانة، واللين، وهو ضدُّ العز، وهو ما كان عن قهر، يقال: ذَلَّ يَذِلُّ ذُلًّا^(٥).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الْمُعِزُّ الْمَذِلُّ عَلَى الْإِطْلَاقِ فِي الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْمَعَادِ:

(١) «الذي بيده العزة، والإذلال، الحسي، والمعنوي، (الديني والأخروي)، مَنْ شَاءَ

(١) «تفسير ابن كثير» (٤٠١/٢).

(٢) كما في الحديث الذي تقدم في الحاشية رقم (٢) في الصفحة السابقة.

(٣) وفي رواية: «لَا يَبْقَى عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ بَيْتٌ مَدَرٍ، وَلَا وَبَرٍ، إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ كَلِمَةَ الْإِسْلَامِ، بِعِزِّ عَزِيزٍ، أَوْ ذُلِّ ذَلِيلٍ، إِمَّا يَعْزِمُهُمُ اللَّهُ ﷻ فَيَجْعَلُهُمْ مِنْ أَهْلِهَا، أَوْ يُذِلُّهُمْ فَيَذَلُّهُمْ لَهَا». وكان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ الْخَيْرَ، وَالشَّرَفَ، وَالْعِزَّ، وَلَقَدْ أَصَابَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ كَافِرًا الذُّلُّ، وَالصَّغَارُ، وَالْجَزِيَّةُ». أخرجه أحمد في المسند (١٦٨٩٤) (٢٣٧٠٤)، وصحح إسنادهما محققو المسند (٢١١/١٣) (١٣٥/١٧).

(٤) «اللسان» (٢٩٢٤/٥)، و«معجم مقاييس اللغة» (٣٩/٤).

(٥) «المفردات» (٣٣٠)، و«اللسان» (١٥١٣/٣).

أُذِلَّهٗ، وَمَنْ شَاءَ أَعَزَّهُ»^(١).

(٢) فهو تعالى المعز: الميسر أسباب المنعة. والمُذِلُّ: هو المعرض للهوان، والضعفة^(٢).

(٣) الذي يُعَزِّزُ أنبياءه، ورسله، وأتباعهم، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾

[المنافقون: ٨] .

(٤) وأعزَّ أوليائه، وأظهرهم على أعدائه في الدنيا، ودار الكرامة في العُقبى ﴿كَتَبَ اللَّهُ

لَاغْلِبَكَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١] .

(٥) وأذلَّ أهلَ الظلم والطغيان في الدنيا: بأن ضربهم بالرِّقِّ والجزية، والصَّغار، والهوان،

وسوء المآل في الأخرى .

(٦) الذي أعزَّ أوليائه بِمَدَحِهِمْ، ورفع شأنهم: ﴿مُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤] وأذلَّ

أعداءهم بِذَمِّهِمْ: ﴿تَبَّتْ يَدَايَ لِهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١] .

(٧) وأعزَّ أوليائه بِطاعته، وعبوديته، وأذلَّ العاصين بِخِذْلَانِهِ حتى واقعوا المعصية^(٣).

(٨) فإن المطيع لله عزيز، وإن كان فقيرًا ليس له أعوان، والعاصي ذليل، وإن ظهر

بِمَظَاهِرِ الْعِزِّ، فقلبه حشوه الذلُّ، وإن لم يشعر به، لانغماسه في الشهوات^(٤).



(٦٠) صفة الكمال (الباعث) الجلية



﴿الْكِتَابُ الْحَكِيمُ﴾: ١ - قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٦٠] .

٢ - وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧] .

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: عن حذيفة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد أن ينام وضع يده تحت خدّه

ثم قال: «اللهم قني عَذَابَكَ يَوْمَ تَبْعَثُ عِبَادَكَ»^(٥).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الباعث: من البعث، وهو الإرسال، وأصله: تحريك ساكن، وإثارة

(١) انظر: «تفسير سورة آل عمران» لابن عثيمين (١/١٦١).

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي (١/٢١١).

(٣) انظر: «شأن الدعاء» (٥٨)، و«المنهاج» (٢٠٨/١)، و«الأسنى» (٣٧٠/١)، و«شرح التوبة» للهراس (١/١١٢).

(٤) «الحق الواضح» (٨٩).

(٥) صححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (٣٣٩٨).

كامن، يقال منه: بعث الشيء من مكانه إذا أثرته، ويختلف البعث بحسب اختلاف ما علق به، فبعث البعير: أثرته وسيرته، ومنه: بَعَثَ الموتى: نشرهم وسيرهم إلى يوم القيامة، وبعث الرجل من نومه فانبعث؛ أي: نهفته فانتبه. وتقول: بعث فلاناً في حاجة إذا أرسلته، ومنه قوله تعالى مُخْبِرًا عن الكفار: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١] (١).

﴿المَعْنَى فِي الشَّرْعِ: يوصف رَبَّنَا تبارك وتعالى بأنه الباعث على الإطلاق: الذي يبعث من يشاء، متى شاء، وكيف شاء، وبما شاء، وهذا البعث بكل أفراده وأنواعه مقرون بحكمته العلية، فهو سبحانه لا يفعل إلا عن حكمة، ومصلحة، ومنفعة.

وهذه الصفة العلية لها معان عديدة في الدنيا، وفي الدار الآخوية، فهو «يختص ببعث الأرواح، والأجساد، والرسول، والخواطر إلى غير ذلك» (٢).

فمن معانيه في الدنيا:

(١) «أنه تعالى باعث الرسل إلى الخلق، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ [النحل: ٣٦].

(أ) فهو الذي حرك الرسل لدعاء الخلق، وأظهرهم.

(ب) وهو الذي حرك الرسل لدعاء عباده إلى الطاعة.

(ج) وهو الذي بعث عباده له على بني إسرائيل.

(٢) وهو الذي يبعث الكسير، وينعشه.

(٣) إنه تعالى يبعث عباده عند العجز بالمعونة والإغاثة، وعند الذنب بقبول التوبة» (٣).

وفي الآخرة: «هو الذي يبعث من في القبور أحياء يوم البعث، والنشور، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧].

(١) فهو سبحانه يبعث الخلق كلهم إنسهم وجنهم، (وحتى الجاهل)، كما بدأهم ليوم لا شك فيه، فهو يبعثهم من الممات، ويبعثهم للحساب؛ أي: يحييهم خلقاً جديداً بعد أن كانوا عظاماً، ورُفاتاً، وتُراباً ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسْتَوُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: ٣١].

(١) «المفردات» (١٣٢ - ١٣٣)، و«اللسان» (٣٠٧/١ - ٣٠٨)، و«الصحاح» (٩٧)، و«الأسنى» (٤٧٥/١ - ٤٧٦).

(٢) «الأسنى» (٤٧٦/١).

(٣) «الأسنى» (٤٧٦/١)، و«شرح الأسماء الحسنى» للرازي (٢٧٦).

(٢) وهو الذي يبعث عباده عند السقطة ، وينعشهم بعد الصرعة»^(١).



(٦١) صفة الكمال (الجعل) الجلية



﴿الْكِتَابُ الْحَكِيمُ﴾: ١ - قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْغُبَاةَ أَلْيَتَ الْحَرَامِ قِيَمًا لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧]

٢ - وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النحل: ٧٢].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «جعل الله الحسنه بعشر أمثالها ، الشهر بعشر أشهر ، وصيام ستة أيام بعد الشهر تمام السنه»^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ﴾: جعل: لفظ عام في الأفعال كلها ، وهو أعم من فعل ، وصنع ، وسائر أخواتها .

ويأتي لمعان:

أحدها: الخلق والإحداث ، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] ، فيتعدى لواحد .

والثاني: التصيير ، وهو على ضربين: الأول تصيير بالفعل ، نحو: جعلتُ الطينَ خزفاً .

والثاني: تصيير بالقول ، نحو: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنِ شَاءَ﴾ [الزخرف: ١٩] .

والثالث: التشريع ، كقوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] ؛ أي: ما

شرع .

وتصل المعاني اللغوية فيه إلى سبعة معانٍ^(٣).

الجعل المضاف إلى الله تعالى على ثلاثة أوجه:

الأول: بمعنى القول . والثاني: بمعنى الخلق . والثالث: التصيير حقيقة ، أو حكماً^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: يوصف ربنا ﷻ بأنه هو: الجاعل ، وهو من الأفعال المتعدية والتي

(١) «شأن الدعاء» (٧٥) ، وتفسير أسماء الله الحسنى (٥٣) ، والحجة في بيان المحجة (١٥٣/١) ، والأسماء والصفات (٣٠٢/١).

(٢) صححه الألباني في: «صحيح الجامع» (٣٠٩٤) ، وفي الإرواء (٩٥٠) . وقال رسول الله ﷺ: «جعل الله عذاب هذه الأمة في دنياها» . «صحيح الجامع» (٣٠٩٦) ، و«الصحيحه» (٩٥٩).

(٣) «عمدة الحفاظ» (٣٢٨/١) ، و«المفردات» (١٩٦ - ١٩٧).

(٤) انظر: الأشباه والنظائر (١١٠) . ذهب ابن القيم رحمه الله أن الجعل إذا أطلق على الله تعالى بمعنيين: أحدهما: الإيجاد والخلق ، والثاني: التصيير . انظر: شفاء الغليل (٣٩٧/١).

تقع شيئاً فشيئاً تبعاً لحكمته ، وإرادته ، وقدرته سبحانه .

ووصف الله ﷻ بالجعل ينقسم في حقه إلى قسمين:

الأول: جعل شرعي . والثاني: جعل كوني قدري .

الجعل الشرعي: وهو أكثر ما في القرآن ، من أمثله قوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَمًا لِّلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧] .

وقوله سبحانه: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بُحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣] ؛ أي: ما جعلهم شرعاً ، وإن كان قد جعلهم قدرًا ، فإنه تعالى قد جعل البحيرة ، والسائبة ، والوصيلة ، والحام - موجودة^(١) .

والثاني: الجعل الكوني القدري: كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۖ وَجَعَلْنَا أَيْلًا لِإِسَاءَ﴾ [النبا: ٩ - ١٠] ، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٦] .

والفرق بين الجعل الشرعي والجعل القدري ، كالفرق بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية ، فالجعل الشرعي محبوب إلى الله تعالى ، وقد يقع من العباد وقد لا يقع ، والجعل الكوني لا يتعلق بما يُحبه فقط ، بل يكون فيما يحبه ، وفيما لا يُحبه ، وهو واقع ولا بد^(٢) .

﴿٦٢ - ٦٣﴾ صفتا الكمال (المُحِبِّي) و(المُحِبَّة) الجليلتان

﴿كِتَابُ الْحَكِيمِ﴾: قال جل ثناؤه: ﴿قُلِ اللَّهُ يُحِبُّكُمْ ثُمَّ يُبْسِكُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [الجاثية: ٢٦] .

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: عن حذيفة ؓ قال: كان النبي ﷺ إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خدّه ثم يقول: «اللهم باسمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا» ، وإذا استيقظ قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعدَما أَمَاتَنَا وإليه النُّشُورُ»^(٣) .

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الْحَيَاةُ: خِلَافَ الْمَوْتِ ، ويسمى المطر حيًّا ، لأن به حياة الأرض﴾^(٤) .

(١) وكذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥] .

وكقوله سبحانه: ﴿وَلِكُلِّ جَمَلًا مَوَازٍ وَمَا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ﴾ [النساء: ٣٣] .

(٢) «تفسير سورة النساء» لابن عثيمين (١/١٢٨ ، ١٥٧ ، ٢٨٣) .

(٣) البخاري (٦٣١٢) .

(٤) «معجم مقاييس اللغة» (٢/١٢٢) ، و«اللسان العرب» (٢/١٠٧٥) .

والموت: خلاف الحياة أيضاً. والموتان: الأرض لم تحي بعد بزرع ولا إصلاح، وكذلك الموت^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: اللَّهُ ﷻ هُوَ الْمُحْيِي الْمَمِيتُ: فَهُوَ سَبْحَانَهُ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ، لَا خَالِقَ سِوَاهُ، وَقَدْ تَمْدَحُ سَبْحَانَهُ بِالْإِمَاتَةِ كَمَا تَمْدَحُ بِالْإِحْيَاءِ، لِيَعْلَمَ أَنَّ مَصْدَرَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالنَّفْعِ وَالضَّرِّ، مِنْ قَبْلِهِ، وَأَنَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ فِي الْمَلِكِ، وَقَدْ اسْتَأْثَرَ الْبَقَاءَ، وَكُتِبَ عَلَى خَلْقِهِ الْفَنَاءُ. وَإِحْيَاؤُهُ وَإِمَاتَتُهُ سَبْحَانَهُ نَوْعَانِ: مَادِي، وَمَعْنَوِي:

الأول: المادي: فهو المحيي سبْحَانَهُ الَّذِي أَحْيَا الْخَلْقَ بِأَن خَلَقَ فِيهِمُ الْحَيَاةَ، فَيَحْيِي النُّطْفَةَ الْمَيِّتَةَ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا النَّسْمَةَ الْحَيَّةَ، وَيَحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، بِإِنْزَالِ الْغَيْثِ، وَإِنْبَاتِ النَّبَاتِ وَالْعُشْبِ، وَعَنْهُمَا تَكُونُ وَقُومُ الْحَيَاةِ، وَيَحْيِي الْأَجْسَامَ الْبَالِيَةَ، بِإِعَادَةِ الْأَرْوَاحِ إِلَيْهَا عِنْدَ الْبَعْثِ.

وهو المميت: الَّذِي يُمِيتُ الْأَحْيَاءَ، وَيُوْهِنُ بِالْمَوْتِ قُوَّةَ الْأَصْحَاءِ الْأَقْوِيَاءِ، فَهُوَ سَبْحَانَهُ يَحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

النوع الثاني: الإحياء والإماتة المعنوية: فهو سبْحَانَهُ يَحْيِي الْقُلُوبَ وَالنَّفُوسَ الْمَيِّتَةَ، بِثُورِ الْهُدَى، وَالْمَعْرِفَةِ، وَالْإِيمَانِ، وَالْيَقِينِ، فَهِيَ سَبْحَانَهُ حَيْثُ الْقُلُوبُ مِنَ الْكُفْرِ، وَالْجَهْلِ، وَالنِّكَرَانِ^(٢)، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، يُمِيتُ الْقُلُوبَ بِظُلُمَاتِ الْجَهْلِ، وَالشَّرِّ، وَالْكَفَرَانِ، قَالَ ﷻ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُهُ، مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»^(٣).

﴿٦٤﴾ صفة الكمال (المُبَاهِي) الْجَلِيلَةُ

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلَقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «مَا أَجْلِسُكُمْ؟!» قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ وَنُحَمِّدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ بِهِ عَلَيْنَا. قَالَ: «اللَّهُ مَا أَجْلِسُكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟» قَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَجْلَسْنَا إِلَّا ذَاكَ. قَالَ: «أَمَّا إِنِّي لَمْ

(١) «اللسان» (٤٢٩٤/٧ - ٤٢٩٧)، و«معجم مقاييس اللغة» (٢٨٣/٥).

(٢) ينظر: اشتقاق أسماء الله (١٤٠)، و«شأن الدعاء» (٧٩ - ٨٠)، والتوحيد لابن منده (٨٤/٢)، والاعتقاد (٣٦)، و«الأسنى» (٣٨٣/١ - ٣٨٤) بتصرف كبير.

(٣) البخاري (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩).

أستحلفكم تهمةً لكم، ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله ﷻ يُباهي بكم الملائكة»^(١).

✽ المَعْنَى فِي اللَّغَةِ: المُبَاهَاة: المُفَاخَرَةُ. وتباهوا: تفاخروا. وأصل البهاء: الحسن، والجمال. وفلان يُباهي بِماله؛ أي: يفخر، ويتجمل بهم على غيرهم، ويظهر حسنهم^(٢).

✽ المَعْنَى فِي الشَّرْع: المُبَاهَاة من صفات الأفعال الاختيارية الجليّة، والتي تدلُّ على كَماله المطلق من كل وجه، وذلك أنه من كَماله سبحانه أنه فَعَال لِمَا يُريد، وكيف يُريد، ومتى يريد، في أي وقت يريد، وهي كمال عند وجود أسبابها، لأنَّ أفعاله كلها مقترنة بحكمته الباهرة، فالله تبارك وتعالى يُباهي مَنْ يَشَاء من أوليائه، وأحبابه عند وجود أسبابه، ومتعلقاته، فمُبَاهَاة الله ﷻ متعلقة بالمكان، والزَّمان، وكذلك بالأعمال، والأحوال.

تعلقه بالزمان، والمكان: كما في يوم عرفة بعرفة كما تقدم ذُكِرَ ذلك.

تعلقه بالأعمال: الصلاة، وانتظار أختها.

والأحوال هو: الاجتماع في ذِكْره، والثناء عليه بما هو أهله، وذكر سابق إنعامه وإحسانه، ومعنى قوله ﷻ: «إِنَّ اللَّهَ يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ» «معناه: يُظهر فضلكم لهم، ويُريهم حسنَ عملكم، ويثني عليكم عندهم»^(٣).

ومُبَاهَاة سبْحانه تقتضي الإنعام، والإحسان، والتقريب، والإكرام، فإذا كان أحدٌ مِنَّا يذكره المُلوك، والعُظماء، والوُجَّهَاء عند خَوَاصِّهم، فما ظَنُّكَ بما يتفضلون عليهم؟! وما ظَنُّكَ يا عبد الله بِمَلِكِ المُلوك، وعَظِيمِ العُظماء، ورب الأرض والسموات، فالأمر أجل، وأوسع من أن تُدرِكه العقول، والأفهام، فينبغي للعبد الصادق أن يتقرب إلى الله بكل سببٍ ووسيلة شرعية، تقتضي هذه الصفة العليّة.

(١) مسلم (٢٧٠١). وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: صَلَّيْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْمَغْرِبَ، فَرَجَعَ مَنْ رَجَعَ، وَعَقَّبَ مَنْ عَقَّبَ، فَجَاء رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُسْرِعًا قَدْ حَفَظَهُ النَّفْسُ، قَدْ حَسَرَ عَنْ رُكْبَتَيْهِ، قَالَ: «أُبَشِّرُوا، هَذَا رُبُّكُمْ قَدْ فَتَحَ بَابًا مِنْ أَبْوَابِ السَّمَاءِ، يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ، يَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي، قَدْ قَضَوْا فَرِيضَةً، وَهُمْ يَنْتَظِرُونَ أُخْرَى». صحيح ابن ماجه (٨٠١)، و«السلسلة الصحيحة» (٦٦١). ومعنى «حفظه النفس»؛ أي: شاقَّه وتعبه من شدة سعيه «حسراً»؛ أي: كشف عن ركبتيه. من كلام المنذري. «صحيح التريغيب والترهيب» (٣٠٩/١). وقال ﷻ: «إِنَّ اللَّهَ يُبَاهِي مَلَائِكَتَهُ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ بِأَهْلِ عَرَفَةَ، فَيَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي، أَتَوْنِي شُعْنًا غَيْرًا». أخرجه أحمد (٧٠٨٩)، وصححه شعيب الأرنؤوط وقال: صحيح على شرط مسلم (٦٦٠/١١)، وصححه الألباني في «صحيح التريغيب والترهيب» (١١٣٢) (١١٥٣).

(٢) «القاموس المحيط» (١٣٩).

(٣) «شرح صحيح مسلم» للنووي (٢٨/٩).

٦٥) صفة الكمال (الكفيل) الجليلة

﴿الْكِتَابُ الْحَكِيمُ﴾: قال ﷺ: ﴿وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قصة الرجل من بني إسرائيل، الذي أسلف آخر ألف دينار، وفيه أنه قال: «... اللهم إن كنت تعلم أنني كنت تسلفت فلاناً ألف دينار، فسألني كفيلًا، فقلت: كفى بالله كفيلًا، فرضي بك»^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ﴾: الكفيل: الضامن، والعائل. واشتقاقه من الكفالة وهي الضمان. ويقال: تكفل بالشيء إذا ألزمه نفسه، فأزال عنه الضيعة والذهب^(٢)، فالكفالة هي الالتزام وذلك يكون بالقول، وذلك من صفات الكلام، وقد يقال للعائل كافل إذا عال المرء، وأنفق عليه، لأنه فعل فعل الملتزم^(٣)، لذلك فإنه سبحانه كفيل بالمعنيين جميعاً، في باب الدنيا، والدين: أما في الدين فبقوله: ﴿إِنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلٌ عَمِلَ مِنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وشبهه، وأما في الدنيا: فلأن الخلق عباده، يستدرون خزائنه، ويستعيذون من نقمه^(٤).

فالكفيل بمعنى: الوكيل، والشهيد، والحفيظ، والضامن، والعائل^(٥).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: الله تبارك وتعالى هو الكافي لكل الخليفة، وكفالاته سبحانه لهم نوعان: كفاية عامة، وكفاية خاصة:

فالعامة: أنه سبحانه «هو المتقبل للكفايات، وليس ذلك بعقد، وكفالة، ككفالة الواحد من الناس، وإنما هو على معنى أنه لما خلق المحتاج، وألزمه الحاجة، وقدر له البقاء الذي لا يكون إلا مع إزالة العلة، وإقامة الكفاية، لم يُخله من إيصال ما علق بقاؤه به إليه، وإداره في الأوقات والأحوال عليه.

(١) البخاري (٢٢٩١). وقال ﷺ: «تَكْفَلُ اللَّهُ لِمَنْ جَاهَدَ فِي سَبِيلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا الْجِهَادَ، وَتَصْدِيقُ كَلِمَاتِهِ، بَأَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ...». البخاري (٧٤٥٧).

(٢) وفي الحديث: «أنا وكافلُ اليتيم كهاتين في الجنة، له ولغيره»؛ أي: القائم بأمر اليتيم، المرئي له، فالمادة تدل على الحفظ، فإن الكفالة بمعنى الضمان تقتضي ذلك.

(٣) «عمدة الحفاظ» (٤١٢/٣ - ٤١٣)، و«اللسان» (٣٩٠٥/٧ - ٣٩٠٧)، و«معجم مقاييس اللغة» (١٨٧/٥ - ١٨٨).

(٤) «الأسنى» (٥٠٨/١ - ٥٠٩).

(٥) انظر: المصادر السابقة، وكذلك في «تفسير القرطبي» (١٧٠/١٠).

وقد فعل ذلك ربُّنا جل ثناؤه، إذ ليس في وسع مرتزق أن يرزق نفسه، وإنما الله جل ثناؤه يرزق الجماعة من الناس، والدَّوَابَّ، والأجنَّة في بُطون أمَّهاتها، والطير تغدو خماصاً، وتروح بطاناً، والهوام، والحشرات، والسباع في الفلوات^(١).

وهذه الكفالة لكل الخلق في السموات والأرض، بالوكالة، والحفظ، والصون، والعون، وأنواع وأصناف الأرزاق، والأقوات، في كل الأوقات.

والكفالة الخاصَّة: وهي لأوليائه، الذين يرضون به كفيلاً في كلِّ أمورهم، وشؤونهم الدنيوية، والشرعية، الظاهرية والباطنية، فهو سبحانه عند حُسن ظَنِّهم به، فيكفلهم بِرِعايته وكفَّالته التي لا تُرام، ولا تُضام.

﴿٦٦﴾ صفة الكمال (النثر) الجليلة

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «أخذ الله تبارك وتعالى الميثاق من ظهر آدم (ب)نعمان) - يعني عرفة - فأخرج من صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَاهَا، فنثرهم بين يديه كالذَّرِّ، ثم كلمهم قَبْلاً^(٢) قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَرِفِينَ ﴿الْآيَةُ﴾^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّفْظِ﴾: النثر: التفريق، وهو يدل على إلقاء شيء متفرق، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَلَكُوكُوبُ أُنْزِرَتْ﴾ [الانفطار: ٢]، أي: تفرقت. ونثرت الشاة: طرحت من أنفها الأذى^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: يثبت أهل السنة والجماعة قاطبة صفات ربنا الجليلة بجميع أنواعها على الحقيقة التي تليق بكمال ربنا سبحانه الذي لا منتهى له، وأنهم يؤمنون بها ويشبثونها كما جاءت، سواء كانت في الكتاب، أو السنة، وسواء كانت سنة متواترة، أو أحادية، ومن ذلك: صفة النثر الفعلية العلية.

أي: أن الله تبارك وتعالى قد نثر وفرق البرية بين يديه الكريمتين كالنمل، بعد أن أخرجهم

(١) «المنهاج» (٢٠٤/١) للحليمي، ونقله البيهقي في الأسماء والصفات (١٧٣/١).

(٢) أي: عياناً ومقابلة، لا من وراء الحجاب، ومن غير أن يولي أمره غيره من الملائكة. «حاشية السندي على المسند» (٢٦٨/٤).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (٢٤٥٥)، وابن أبي عاصم في السنة (٢٠٢)، وحسنه الألباني (ص ٨٩) وفي «السلسلة الصحيحة» على شرط مسلم (١٦٢٣) (١٥٨/٤).

(٤) «عمدة الحفاظ» (١٤٠/٤) و«مقاييس اللغة» (٨٨٤).

من صلب أبيهم آدم عليه السلام، ليأخذ عليهم الميثاق، وليشهدهم على وحدانيته، وأنه هو المنفرد في العبودية له سبحانه، بعد أن ركب فيهم العقول والفهوم، فاستنطقهم وأشهدهم.

(٦٧) صفة الكمال (الكُنْف) الجليلة

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: قَالَ ﷺ: «يُذْنِي الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ ﷻ، حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كُنْفَهُ، فَيَقْرَهُ بِذُنُوبِهِ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، أَيْ رَبِّ، حَتَّى يُقْرَهُ بِذُنُوبِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: إِنِّي سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ، فَيُعْطَى صَحِيفَةً حَسَنَاتِهِ...» (١).

ما أكرم ربنا ﷻ، وما أحلمه على عبده المؤمن الموحد.

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الْكُنْفُ: السِّرُّ، وَالصَّبَاةُ. يُقَالُ: كَنَفْتُ الشَّيْءَ؛ أَيْ: أَحْطَيْتُهُ، وَخَبَأْتُهُ. وَيُقَالُ: كَنَفَهُ اللَّهُ؛ أَيْ: رَعَاهُ، وَحَفَظَهُ. وَهُوَ فِي حَفْظِ اللَّهِ وَكُنْفِهِ؛ أَيْ: فِي حِرْزِهِ، وَظِلِّهِ، يَكْنُفُهُ بِالْكَلاَةِ، وَحَسَنُ الْوَلَايَةِ.

وَالْكُنْفُ بِالتَّحْرِيكِ يُقَالُ: أَنْتَ فِي كُنْفِ اللَّهِ: أَيْ فِي حِرْزِهِ، وَسِتْرِهِ، وَهُوَ: الْجَانِبُ، وَالظِّلُّ، وَالنَّاحِيَةُ. وَكُنْفَا الْإِنْسَانَ: جَانِبَاهُ، وَنَاحِيَتَا كُلِّ شَيْءٍ: كُنْفَاهُ (٢).

وَمِنْ كِبَارِ التَّابِعِينَ مَنْ فَسَّرَهَا بِالسِّرِّ، وَمَنْ ذَلِكَ مَا نَسَبَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ قَوْلِهِ: (كُنْفَهُ) يَعْنِي: سِتْرُهُ (٣).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: يُوَصَفُ رَبُّنَا عَزَّ شَأْنُهُ، وَعُلْتُ صِفَاتِهِ، وَحَسَنَتْ أَسْمَاؤُهُ، بِصِفَةِ الْكُنْفِ الْفَعْلِيَّةِ، وَالتِّي تَقُومُ بِمَشِئَتِهِ وَإِرَادَتِهِ مَتَى شَاءَ سُبْحَانَهُ، وَمَنْ ذَلِكَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ حِينَمَا يَدْنُو الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ تَعَالَى، وَهُوَ يَقْتَضِي قَرَبَ الرَّبِّ مِنَ الْعَبْدِ، لِأَنَّهُ تَعَالَى «وَصَفَ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ يَدْنُو، وَيَقْرُبُ مِنْ بَعْضِ عِبَادِهِ دُونَ بَعْضٍ، وَقَدْ تَكَاثَرَتِ النُّصُوصُ فِي ذَلِكَ حَتَّى بَلَغَتْ مَا يَقْرُبُ مِنْ خَمْسِمِائَةِ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، كُلُّهَا تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى يَقْرُبُ مِنْ بَعْضِ خَلْقِهِ، وَيَدْنُو مِنْهُمْ» (٤) عَلَى مَا يَلِيْقُ بِعَظَمَتِهِ، وَكِبْرِيَاءِهِ، كَمَا سَيَأْتِي ذِكْرُهَا عِنْدَ صِفَةِ (الدُّنُو).

(١) مسلم (٢٧٦٨)، والبخاري (٧٥١٤).

(٢) انظر: «كتاب العين» (٥٢/٤ - ٥٣)، و«الصحاح» (٩٢٥)، و«القاموس المحيط» (١١٥٠).

(٣) خلق أفعال العباد (١٠٣).

(٤) «شرح كتاب التوحيد» للعلامة الغنيمان (٦٩٢/٢).

عوداً على بدء، إن هذه الصفة الكريمة جاءت مفسرة في الحديث بأنها «الستر»، كما في قوله ﷺ: «حتى يضع كنفه عليه» والمعنى: أنه تعالى يستر عبده من رؤية الخلق له، لئلا يفتضح أمامهم، فيخزى، لأنه حين السؤال، والتقرير بذنوبه تتغير حاله، ويظهر على وجهه الخوف الشديد، ويتبين فيه شدة الكرب»^(١) في هذا اليوم العصيب، الشديد، ولهذا يكرم ﷺ عبده المؤمن بعد هذا الستر، والحفظ، والكلاءة من الهلاك، والشدائد: «فيعطى صحيفة حسناته» فيكون مآله في مجاورة ربه في جنات النعيم.

فانظر رعاك الله تعالى إلى كرم وفضل ربنا على أوليائه في الدنيا والآخرة:

في الدنيا: يستر ذنوبهم، وعدم اطلاع غيرهم عليها.

وفي الآخرة: بالكنف، والحِزْز، والعناية والستر عن رؤية البرء، وهذه المزية خاصة للأصفياء، أما من دونهم من الأعداء، فإن الله تعالى يفضحهم، ويشهرهم أمام الخلائق، كما قال ﷺ فيهم: «وأما الكافر، والمُنافقون، فيقول الأشهاد: ﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]»^(٢).

﴿٦٨﴾ صفة الكمال (الأمر) الجليّة

﴿الكتاب الحكيم﴾: قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]^(٣)

﴿السنة النبويّة﴾: قال ﷺ: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله...»^(٤).

﴿المعنى في اللغة﴾: الأمر: نقيض النهي، وهو الشأن، وجمعه أمور، ومصدر أمرته: إذا كلفته أن يفعل شيئاً، وهو لفظ عام للأفعال، والأقوال كلها، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَهُ بِرُجُومِ الْأُمُورِ كُلِّهَا﴾ [هود: ١٢٣].

ويقال للإبداع: أمر، نحو: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، ويختص ذلك بالله تعالى دون الخلائق^(٥).

(١) المصدر السابق (٢/٦٩٧ - ٦٩٨).

(٢) البخاري (٢٤٤١).

(٣) وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال ﷺ: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجْدَةٌ كُلُّهَا بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].

(٤) البخاري (٤٧٠١).

(٥) «المفردات» (٨٨).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْحِ: قَبْلَ شَرْحِ هَذِهِ الصِّفَةِ الْكَرِيمَةِ يَنْبَغِي أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ «لَا يَعْنِي كَلِمًا ذَكَرْتَ كَلِمَةً (الْأَمْرَ) فِي الْكِتَابِ أَوْ السَّنَةِ مِثْلَ (أَمْرُ اللَّهِ)، أَوْ (الْأَمْرُ لِلَّهِ) أَنَّهَا صِفَةٌ لَهُ»^(١) بَلْ قَدْ تَرَدَّدَتْ مُتَعَلِّقًا لِلصِّفَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُ الْقَاعِدَةِ الْمَهْمَةِ: (إِنَّ اسْمَ الصِّفَةِ يَقَعُ تَارَةً عَلَى الصِّفَةِ، وَيَقَعُ تَارَةً عَلَى مُتَعَلِّقِهَا).

والمعنى: أن اسم الصفة: يطلق على المصدر تارة، ويطلق على المفعول تارة أخرى، فالرحمة صفة لله تعالى، وسمي ما خلق رحمة، والقدرة من صفات الله تعالى، ويسمى المقدور رحمة، ويسمى تعلقهما بالمقدور قدرة، والخلق من صفات الله تعالى، ويسمى (المخلوق) خلقًا، والعلم من صفات الله، ويسمى المعلوم أو المتعلق علمًا، فتارة يُراد الصفة، وتارة يُراد متعلقها، وتارة يُراد نفس التعلق^(٢).

فلأمر: يطلق ويُراد به صفة لله سبحانه، ويطلق ويُراد به المأمور المخلوق، فيسمى الأمر الذي هو صفة الله أمرًا، ويسمى المأمور المخلوق أمرًا، ولتقرير ذلك، نضرب لهما بمثالين: الأول: قوله سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، والثاني: قوله: ﴿أَنَّى أَمُرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١].

وجه الدلالة: إن في الآية الأولى المُرَاد بلفظ (الأمر) المصدر الذي هو صفة لله ﷻ، ولهذا عطف الله الأمر على الخلق بالواو، والأصل في الواو أنها لِلْمُغَايَرَةِ.

أما في الآية الأخرى: فيُراد به المفعول وهو المأمور به^(٣).

وأمر رَبَّنَا الْعَظِيمِ ينقسم إلى ثلاثة أقسام: أمر كوني، وأمر شرعي، وأمر جزائي: فمن الأول: قوله عز شأنه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فقوله: «(أمر): أمر تكوين، يعني أمره سبحانه أن يقول للشيء (كن) (فيكون)، بدون تكرار، مرة واحدة، لا يحتاج إلى تأكيد ثانية، فيكون كذلك الذي أمر به حاصلًا موجودًا، كما أراد، كلمح البصر، لا يتأخر طرفة عين، فكل ما أمر الله سبحانه به في العين، والوصف، سواء كان خلقًا، أو إيجادًا، أو عدمًا، أو فناءً، فيكون على حسب ما أَرَادَهُ اللَّهُ ﷻ، كما قال تعالى في بعث النَّاسِ: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات: ١٣ - ١٤].

كما قال تعالى للقلم: «اكتب! قال: يا رب! وما أكتب؟ قال: اكتب مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ».

(١) صفات الله الواردة (٧١).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٧/٦)، والقواعد والضوابط السلفية في صفات رَبِّ الْبَرِيَّةِ (٣٥٧).

(٣) انظر بتوسع: القواعد والضوابط السلفية (٣٥٧ - ٣٥٩).

وفي رواية: «قال: اكتبِ القدر ما كان، وما هو كائن إلى الأبد»^(١).
فسبحان الله تعالى، ما أعظم الله»^(٢).

النوع الثاني: «الأمر: يتضمّن أحكامه الدينية الشرعية»^(٣) وهو أوامره الشرعية، التي أنزلها على عباده على السنة رسله، وهي مشتملة على الحكم، والغايات الحميدة، في الحياة المعاشية، والتي فيها المصالح، والمنافع، والخيرات، لكل الخليقة.

وبهذا ينبغي أن يعلم أن أوامره الشرعية من أعظم نعمه على عباده سبحانه، لأنه تعالى "لم يأمر عباده لحاجته إلى خدمتهم، ولا هو محتاج إلى أمرهم، وإنما أمرهم إحساناً منه، ونعمة أنعم بها عليهم، فأمرهم بما فيه صلاحهم، ونهاهم عما فيه فسادهم، وإرسال الرسل، وإنزال الكتب من أعظم نعمه على خلقه»^(٤).

النوع الثالث: الأوامر الجزائية^(٥) في دار البقاء الأخروية، وهي منوطة بالرحمة، والعدل، والفضل، والجزاء الحسن.

٦٩) صفة الكمال (المُتَّبَت) الجَلِيلَة

❁ **الْكِتَابُ الْحَكِيمُ:** ١ - قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

٢ - وقال ﷺ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [النحل: ١٠٢]^(٦).

❁ **السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ:** ١ - دعاء النبي ﷺ: «اللهم يا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»^(٧).

٢ - ودعاؤه ﷺ لِجَرِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «اللهم ثَبِّتْهُ وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًا»^(٨).

(١) صحيحه الألباني في: «صحيح الترمذي» (٢١٥٥)، وفي «السنة» لابن أبي عاصم (١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥).

(٢) انظر: «تفسير سورة يس» (٣٥٠/٨)، و«تفسير سورة غافر» (٣٣٥/٩)، و«سورة القمر» (٣٩٤) لابن عثيمين بتصرف.

(٣) «تفسير السعدي» (٢٩١).

(٤) «مجموع الفتاوى» (٣٥٦/٦).

(٥) ومن هذه الأوامر الجزائية، ما يكون في الحياة الدنيا من العقوبات، والشدائد، والإنذارات، والابتلاءات.

(٦) وقال جل ثناؤه: ﴿يَمْشُوا اللَّهُ مَا يَفْئِدُهُ وَثَبِّتْ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، وقال ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ نَصْرُوا اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]. وقال سبحانه: ﴿وَلَا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ أَرْسَلْنَا مَا نُنْثِي يَوْمَ تُؤَادُّكَ﴾ [هود: ١٢٠].

(٧) «صحيح الترمذي» (٢١٤٠) (٣٥٢٢)، و«صحيح ابن ماجه» (٣٨٣٤).

(٨) صحيح البخاري (٣٠٢٠)، وصحيح مسلم (٢٤٧٥). وقال ﷺ: «وَمَنْ مَنَىٰ مَعَ مَظْلُومٍ حَتَّى يُثَبِّتَ لَهُ حَقَّهُ، ثَبَّتَ اللَّهُ قَدَمَيْهِ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ تَزُولُ الْأَقْدَامُ». «صحيح الترغيب والترهيب» (٧٠٦/٢)، وفي رواية: «وَمَنْ مَنَىٰ مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يَقْضِيَهَا =

❁ **الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الثَّبَات:** ضد الزَّوَال. يقال: ثبت الشيءُ يثبتُ ثبوتًا: دام واستقرَّ،

فهو ثابت .

والإثبات والتثبيت تارة يقال بالفعل ، فيقال لما يخرج من العدم إلى الوجود، نحو:

أثبت الله كذا .

وتارة لما يثبت بالحُكم، فيقال: أثبت الحاكم على فلانٍ كذا وثبته، وتارة لما يكون

بالقول... (١).

❁ **الْمَعْنَى فِي الشَّرْع:** التثبيت من أفعالِ الله تعالى الاختيارية، وباستقراء أدلة الكتاب

والسنة النبوية نجد أنَّ صفة التثبيت جاءت متنوعة في حقِّه سبحانه، تدور كلها على نوعين في

التثبيت: الأول: الحسِّي، والثاني: المعنوي، والذنبوي، والأخروي .

فمن الأول: تثبيت الأقدار، كما قال تعالى: ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ «أي: من الأقدار

﴿وَيُثَبِّتُ﴾ ما يشاء منها، وهذا المحو (والتثبيت) في غير ما سبق به علمه، وكتبه قلمه، فهذا

لا يقع فيه تبديل ولا تغيير، ولهذا قال: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾؛ أي: اللوح المحفوظ التي

ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها» (٢) فهذا ثابت لا يتغير .

وكذلك: **تثبيت الأبدان،** كما في دُعاء النبي ﷺ لِجَرِيرٍ حينما كان لا يثبت على الخيل .

ومن تثبيت الأبدان: تثبيت الأقدام عند القتال، كما في دعاء المؤمنين: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا

صَبْرًا وَنَسِيتُ أَقْدَامَنَا﴾ [البقرة: ٢٥٠]، وفي الأخرى: عند الصُّراط، كما تقدم ذكر الأدلة السنية

في السنة المحمدية .

الثاني: التثبيت المعنوي: وهو أصل الإيمان وأعظمه، وعليه الفلاح والنجاح في

الدَّارَيْنِ، وعليه يكون تثبيت سائر الأركان، كما في قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ

الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ كما صحَّ عن النبي ﷺ أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي عَذَابِ الْقَبْرِ (٣)،

= له، ثَبَّتَ اللَّهُ قَدَمَيْهِ يَوْمَ نَزَلَ الْأَقْدَامُ». المصدر السابق (٧٠٩/٢).

(١) «المفردات» (١٧١)، و«المصباح المنير» (٥٢).

(٢) «تفسير السعدي» (٤١٩).

(٣) صحيح البخاري (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١).

«فأخبر سبحانه أن تثبيت المؤمنين، وإضلال الظالمين فعله، فإنه يفعل ما يشاء»^(١)، فالله تبارك وتعالى يثبت أوليائه، وأصفياءه، في الحياة: في مواطن القتال أمام الأعداء، وعند الشبهات بالسلامة من النزغات، والضلالات، وعند الشهوات، بالسلامة من الهلكات والمفسدات، وفي الممات: عند السكرات، من همزات الشيطان، وعند السؤال في القبر الملكان، وفي العرصات: عند فرع البريات، وعند المرور على الصراط، بالتجاوز والسلامة من الزلات، حتى دخول الجنات.

﴿٧٠﴾ صفة الكمال (الكافي) الجليّة

﴿الْكِتَابُ الْحَكِيمُ﴾: ١ - قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦].

٢ - وقال سبحانه: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥]^(٢).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: ١ - عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا، وسقانا، وكفانا، وآوانا، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي؟!»^(٣).

٢ - وفي قصة الغلام مع الساحر والراهب من حديث أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ الذي فيه (أنه كلما ذهّبوا به إلى قتل الغلام قال: «اللهم اكفنيهم بما شئت»)^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ﴾: الكفاية: الحسب الذي لا مستزاد فيه، يقال: كفاك الشيء يكفيك، وكفاك هذا؛ أي: حسبك.

فالكفاية: سد الخلة؛ أي: القيام بالأمر، والاستقلال به، يقال: كفى يكفي كفاية: إذا قام بالأمر^(٥).

والكفاية: دفع المكروه، والمخوف، يقال: كفاه يكفيه إذا دفع عنه^(٦).

(١) «شفاء العليل» (٤٨٩/٢).

(٢) وقال عز شأنه: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

(٣) مسلم (٢٧١٥).

(٤) مسلم (٣٠٠٥).

(٥) وقوله تعالى: ﴿أَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٤]؛ أي: قد سدّ خللتكم، وقضى مُرادكم، بإمداده إياكم بالملائكة، وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾؛ أي: هو كافيه من أعدائه، متولّ كفايته، وناهيك بمن يتولى الله كفايته سبحانه. انظر: «معجم مقاييس اللغة» (١٨٨/٥)، و«كتاب العين» (٤١/٣)، و«عمدة الحفاظ» (٤١٤/٣)، و«الأسنى» (١٩٩).

(٦) «الأسنى» (١٩٩).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: اللهُ ﷻ هو الكافي، الذي له الكِفَايَةُ الْمُطْلَقَةُ لكلِّ البرية، في كل حال، وأن، ولحظة، فلا كافي إلا هو سبحانه﴾ «فهو تعالى يكفي عباده المهمَّ، ويدفع عنهم الملمَّ»^(١)، وهو يكتفي بِمَعُونَتِهِ عن غيره، ويستغني به عَمَّنْ سِوَاهُ^(٢).

والله عز شأنه كافٍ كل عباده «لأنه إذا لم يكن له في الألوهية شريك، صح أن الكفايات كلها واقعة به وحده»^(٣).

وكِفَايَتُهُ ﷻ لِعِبَادِهِ نوعان: عامة، وخاصّة:

أما العامّة: فهو الكافي لجميع عباده ما إليه يحتاجون، ويضطرون، الدافع عنهم كل ما يكرهون، فقد كفى سبحانه جميع المخلوقات: رِزْقًا، وَمَعَاشًا، وَقُوَّةً، وَحِفْظًا، وكلاءة، وإمدادًا، وإعدادًا، وإرشادًا، لكل ما خلقت له في معاشها.

الكِفَايَةُ الخاصّة: لِمَنْ آمَنَ به، وتوكَّلَ عليه، واستمد منه حوائج دينه، ودنياه، قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]؛ أي: كافيهِ كل أموره الدِّينِيَّة، والدُّنْيَوِيَّة، فَمَنْ قام بِعُبُودِيَّتِهِ الظَّاهِرَةِ والْبَاطِنَةِ، كَفَاهُ اللهُ ما أهُمَّهُ، وقام تعالى بِمَصَالِحِهِ، وَيَسَّرَ لَهُ أُمُورَهُ^(٤).

ويسر لهم أسباب النصر الشرعية، والقدرية، قال تعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ [الأحزاب: ٢٥].

وهو تعالى الكافي كفاية خاصّة الخاصّة: وهي لأنبيائه ورسله، وأخصهم سيد البرية نبينا محمد ﷺ، وهي أعلى الكفايات، وأكملها، وأتمّها من النِّصْرَةِ، والمنعة، والتأييد، والتسديد، قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٦٣]^(٥).

* * *

(١) الحجة في بيان المحجة (١٧٦/١).

(٢) «شأن الدعاء» (١٠١).

(٣) «المنهاج» (١٩٠/١).

(٤) «فتح الرحيم» (٤٥)، و«تفسير السعدي» (٤٩١/٥) بتصرف كبير.

(٥) وقال سبحانه: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْكَرِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، وقال: ﴿إِنَّا كُنَّا نَكْتُمُكَ الْكُتْمَ هَـٰذَا﴾ [الحجر: ٩٥]، فكفى الله تعالى نبيه ﷺ الأخزاب، ومكر الأعداء، بقتل بني قريظة وسباهم، وبني النضير بالإجماع، وقتل كسرى وتمزيق ملكه حين مزق كتابه، وغير ذلك مما لا يُحْصَى.



(٧١) صفة الكمال (الزَّارع) الجَلِيلَة



﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قَالَ ﷻ: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾ ۞ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ۚ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾

[الواقعة: ٦٣ - ٦٤] .

﴿الْمَعْنَى اللُّغَوِي: الزرع: واحد الزروع، وهو: طرح البذور في الأرض، والزرع أيضاً: الإنبات، وحقيقة ذلك يكون بالأمور الإلهية، دون البشرية. يقال: زرعه الله؛ أي: أنبته^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْح: وصف ربنا الجليل نفسه بالصفة الاختيارية بأنه هو الزارع وحده، ولهذا أضاف الحرث إليهم، والزرع إليه تعالى، لأنَّ الحرث فعلهم، ويجري على اختيارهم، والزرع من فعل الله سبحانه وينبت على اختياره، لا على اختيارهم، ولهذا (نهى النبي ﷺ أن يضيف الزرع إلى نفسه)، فقال: «لا تقولن: زرعتُ، ولكن قل: حرثتُ»^(٢)، فالله تعالى الزارع، والمنبت، والفرق بين الزرع والحرث: أن الحرث أوائل الزرع ومقدماته من كراب الأرض، وإلقاء البذور، وسقي المبدور، والزرع هو آخر الحرث من خروج التَّبات، واستغلاظه، واستوائه على السَّاق^(٣).

وقوله سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ﴾؛ أي: ما تبدئون منه من الأعمال، أنتم تُبلغونها المقصود أم الله؟ ولا يشك أحدٌ في أن إيجاب الحَبِّ في السنبلة ليس بفعل النَّاس، وليس بفعلهم، إن كان سوى إلقاء البذر والسَّقْي^(٤).

ولهذا جاء السَّيَاق بالاستفهام الإنكاري بقوله: ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ۚ﴾^(٥).

قال العلامة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «يوصف الله ﷻ بأنه الزَّارع، ولا يُسمَّى به، ثم ذَكَرَ رَحِمَهُ اللهُ الآية»^(٦).



(١) «المفردات» (٣٧٩)، و«عمدة الحفاظ» (١٣٨/٢)، و«الصحاح» (٤٤٩).

(٢) صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٨٠١).

(٣) انظر: «تفسير القرطبي» (١٨١/٩)، وتفسير الرازي (١٨١/٢٩).

(٤) تفسير الرازي (١٨٢/٢٩).

(٥) تفسير الطاهر بن عاشور (٣٢١/١٣).

(٦) فتاوى الشيخ محمد بن عثيمين (٢٥/١).

(٧٢) صفة الكمال (النَّفس والتَّنْفِيس) الجَلِيلَة

❖ السُّنَّة النَّبَوِيَّة: ١ - قال ﷺ: «إني لأعلم كلمة لا يقولها عبدٌ عند موته إلا نفس الله عنه كربته ، وأشرق لونه ، ورأى ما يسره... وهي: لا إله إلا الله»^(١).

٢ - حديث أبي بن كعب رضي الله عنه موقوفاً عليه: «لا تَسُبُّوا الرِّيحَ ، فإنها مِنْ نَفْسِ الرحمن تبارك وتعالى»^(٢).

٣ - وقال ﷺ: «إِنَّ الإِيمَانَ يَمَانِي ، والحكمة يَمَانِيَّة ، وأجد نَفْسَ ربكم من قِبَل اليَمَنِ»^(٣).

❖ المَعْنَى فِي اللَّغَةِ: النَّفْس: يدلُّ على خروج النسيم كيف كان من رِيحٍ أو غيرها ، وإليه يرجع فروعه ، منه التنفس: خروج النسيم من الجوف ، والتنفس: كل شيء يفرج به عن مكروب ، ويقال: "نفس عنه": إذا أزال وكشف ما به^(٤).

❖ المَعْنَى فِي الشَّرْع: الله ﷻ هو المنفس الذي ينفس عن المَهمومين ، المفرج الشَّدائد ، والكربات عن المَغمومين ، والمكروبين في كل آن وحين .

وقد جعل الله تعالى تفرجه وتنفيسه لِمَنْ يشاء ، منوطاً بأسباب ، وهذا من حِكَمته في أفعاله تعالى ، وهذه الأسباب منها: ما يتعلق بأشخاص ، ومنها ما يتعلق بأوصاف ، أو بمكان ، وأفعال ، وأحوال .

فمن الأسباب: إرسال (الرِّيح) ، فقد وصفها ﷺ بقوله: «فإنها مِنْ نفس الرحمن»: «أي: بها الفرج ، والروح ، ولهذا سميت الرِّيح رِيحاً ، لأنَّ الغالب عليها في هُبُوبها المَجيء بالروح والراحة ، وانقطاع هُبُوبها يكسب الكرب ، والغَم ، والأذى .

(١) رواه أحمد (١٣٨٤) وصححه إسناده شعيب الأرئوط (٨/٣).

(٢) رواه النسائي في عمل اليوم والليلة (٩٣٥) (٩٣٦) ، وموقوفاً الحاكم في المستدرک (٢٧٢/٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين ، وقال الذهبي: «على شرط البخاري» ، ورواه عبد الله بن أحمد في «السنة» (١٢٥١) . وصححه محقق الكتاب أبو مالك الرياشي (٢٨٢/٢).

(٣) أخرجه أحمد في المسند (١٩٢٠) ، وصححه إسناده أحمد شاكر (٦٢٣/٩) . وعن سلمة بن نفيل السكوني رحمته الله أن رسول الله ﷺ قال وهو مُوَلَّ ظهره إلى اليَمَنِ: «إني أجدُ نَفْسَ الرحمن من هُنا» . صححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٣٦٧) (١٠٩٩/٧) . وقال ﷺ: «مَنْ نَفَسَ مِنْ مَوْجٍ مِنْ كَرْبِ الدُّنْيَا ، نَفَسَ اللهُ عَنْهُ كَرْبَةً مِنْ كَرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ» . مسلم (٢٦٩٩) .

(٤) وقوله ﷺ: «الرِّيحُ مِنْ نفسِ الرحمن» ؛ والمعنى: بها يُفرج الكرب ، ويُثار السَّحاب ، وينزل الغيث ، ويُستحال الجذب ، فهي من تنفيس الله بها عن المكروبين ، وتفرجه عن الملهوفين . وقوله ﷺ: «إني أجدُ نفسَ الرحمن من هُنا» ؛ أي: إني لأجدُ الفرج من قِبَل اليَمَنِ . «مقاييس اللغة» (٩١٠) ، و«النهاية» (٩٣١) ، و«القاموس المحيط» (١٣٠٣) ، والأسماء والصفات (١١٥٠/٣) .

وكذلك أهل اليمن، كما تقدم في الحديث: «أَجِدُ نَفْسَ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ الْيَمَنِ» «لأن الله ﷻ نصرهم بهم، وأَيَّدَهُمْ بِرِجَالِهِمْ»^(١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ شارحاً لحديث: «إِنِّي لَأَجِدُ نَفْسَ الرَّحْمَنِ مِنْ قَبْلِ الْيَمَنِ»: «فقوله: «من اليمَنِ» يبين المقصود من الحديث، فإنه ليس لليمن اختصاص بصفات الله تعالى حتى يظن ذلك، ولكن منها جاء الذي يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، الذي قال فيهم: ﴿مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، وقد روي أنه لَمَّا نزلت هذه الآية، سئل عن هؤلاء؟ فذكر أنهم قومُ أبي موسى الأشعري، وجاءت الأحاديث الصحيحة مثل قوله: «أتاكم أهل اليمن، أرقَّ قلوباً، وألينُ أفئدة، الإيمان يمانِي، والحكمة يمانية»، وهؤلاء هم الذين قاتلوا أهل الردَّة، وفتحوا الأمصار، فبهم نَفَسَ الرحمن عن المؤمنين الكربات»^(٢).

يقول العلامة المحقق ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ كلاماً رصيناً مقعداً: «ليس ظاهر الحديث أن الله تعالى نفساً يأتي من قِبَل اليمن، وأن الله يتنفس، ويأتي نفسه من قبل اليمن، لأن كل معنى فاسد لا يمكن أن يكون ظاهر الكتاب والسنة أبداً، ومن فهم من الكتاب والسنة ظاهراً ينزه الله عنه فقد ساء فهمه، أو ساء قصده، وأما من حسن قصده، وصحَّ فهمه، فلن يفهم من نصوص الكتاب والسنة ما لا يليق بالله أبداً...، وهذا الحديث يُجرِّيه أهل السنة والجماعة على ظاهره كسائر النصوص، إن النفس بمعنى: تنفيس...، فيكون معنى الحديث: إنَّ تنفيس الله تعالى عن المؤمنين يكون من أهل اليمن، والمعنى: إنَّ التنفيس عن المؤمنين وتفريج الكربات عنهم، ونصرهم، يكون من قبل أهل اليمن، سواء في أول الإسلام، كالأنصار الذين تلقوا المهاجرين، أو فيما بعد كالذين قاتلوا أهل الردَّة»^(٣).

«فمعنى النفس بها وفي كتاب الله تعالى: أنها بمعنى الفرج من الغمِّ، والنفس من الكرب، أن الغم والضيق يكونان بِرُكُودِهَا، قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرْنَ بِيَمٍ يَبْرِجُ طَبَقٌ وَفَرَحُوا بِهَا﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧]»^(٤).

(١) «تهذيب اللغة» (٩/١٣)، و«إبطال التاويلات» (٢٥٢/١).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٣٩٨/٦).

(٣) «شرح القواعد المثلى» (٢٥٩ - ٢٦٢). وينحوه قال قتيبة رَحِمَهُ اللهُ: «... إِنَّمَا أَرَادَ أَنَّ الرِّيحَ مِنْ فَرْجِ الرَّحْمَنِ ﷻ، وروحه، يقال: اللهم نفس عني الأذى، وقد فرج الله تعالى عن نبيه ﷺ يوم الأحزاب...، فالريح من فرج الله وروحه، كما كان الأنصار من فرج الله تعالى» تأويل مختلف الحديث (٢١٢).

(٤) «إبطال التاويلات» لأخبار الصفات لأبي يعلى (٢٥٤/١).

ومن أوضح الأدلة وأبينها في هذا المقام: هو ما «فَرَجَ اللهُ تعالى عن نبيه ﷺ بالريح يوم الأحزاب ، فقال: ﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَخُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]»^(١).



صفة الكمال (الأخذ) الجلية



﴿الْكِتَابُ الْحَكِيمُ﴾: قال رب العالمين: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢]^(٢).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «يَأْخُذُ اللهُ^(٣) سَمَآوَاتِهِ وَأَرْضِيهِ بِيَدَيْهِ، فيقول: أَنَا اللهُ (ويقبض أصابعه ويبسطها، أي: النبي ﷺ)، أَنَا الْمَلِكُ»^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ﴾: الأخذ: خلاف العطاء، وهو حقيقة في تناول، نحو: أخذت درهماً، وهو حوز الشيء، وجبیه، وجمعه، والأخذ يطلق كذلك على: أخذ العهود، والوعود، والمواثيق، وأخذ الأرواح التي في الأشباح^(٥).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: إن من كمال ربنا جل جلاله المطلق: أن أفعاله كلها تقع على الوجه الأتم، والأكمل، والأصلح في كل وقت، فليس في أفعاله سبحانه عبث، ولا سفه، ولا خطأ، ومنها: الأخذ بنوعيه: أخذ قهر^(٦)، وأخذ تناول باليد، وأخذ ميثاق وعهد من الخلق.

وأخذ الميثاق من الخلق اثنان: الأول: وهم في الأصلاب، فقد أخبر سبحانه كما في الآية المتقدمة "أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم وملिकهم، وأنه لا إله إلا هو"^(٧)، وقد فسر أعلم الخلق بالرب نبينا محمد ﷺ الآية أنه تعالى

(١) المصدر السابق (٢٥٠/١). ومن الأسباب كذلك: تفريج الكربات عن الأولياء، كما في قوله ﷺ: «... وَمَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كَرْبَةً مِنْ كَرْبِ الدُّنْيَا، نَفَسَ اللهُ عَنْهُ كَرْبَةً مِنْ كَرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ».

(٢) وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكُوا عَلَى ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [فاطر: ٤٥]. وقال عز شأنه: ﴿مِمَّنْ دَاخِلُ الْأَمْوَالِ إِذَا دُخِلَتْ بِهَا نِصِيبًا﴾ [هود: ٥٦]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [البقرة: ٨٣].

(٣) وفي لفظ: «يأخذ الجبار عز وجل» رواه مسلم (٢٧٨٨ - ٢٦).

(٤) مسلم (٢٧٨٨ - ٢٥). وقال ﷺ: «وما تصدق أحدٌ بصدقة من طيب، ولا يقبل الله إلا الطيب، إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرّة...»، مسلم (١٠١٤). وقال ﷺ: «أخذ الله تبارك وتعالى الميثاق من ظهر آدم بـ(نعمان) - يعني عرقه - فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها...». أخرجه أحمد (٢٤٥٥) وصححه الألباني في «السلسلة» (١٥٨/٤) برقم (١٦٢٣).

(٥) «عمدة الحفاظ» (٧١/١)، و«مقاييس اللغة» (٢٩)، و«المصباح المنير» (١٢).

(٦) كما سيأتي عند الصفات المقيدة على وجه الجزاء بالعقوبة.

(٧) «شرح الطحاوية» (٢٦٥).

أخذ هذا الميثاق في عرفة من ظهر أبينا آدم عليه السلام^(١).

قال ابن الأنباري رحمه الله: "مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه، وصلب أولاده وهم في صور الذر، فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعون، فاعترفوا بذلك وقبلوا، وذلك بعد أن ركب فيهم عقولاً عرفوا بها ما عرض عليهم، كما جعل للجبل عقلاً حين خوطب، وكما فعل للبعير لما سجد، والنخلة حين سمعت وانقادت حين دعيت"^(٢)، قال الإمام الجليل إسحاق بن راهويه رحمه الله: "وأجمع أهل العلم أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد، وأنه استنطقهم وأشهدهم"^(٣)(٤).

والميثاق الثاني بعد إنزال الكتاب: فقد قصّ لنا ربنا العظيم في كتابه الحكيم في أخذه للموathيق من أهل الكتاب^(٥) في القيام في عبوديته سبحانه، من الأقوال، والأفعال، والأحوال.

وقد أخبر ﷺ في بيان هذه الصفة الكريمة في أعلى طرق البيان بالإشارة إليها ذلك: أنه قبض أصابعه وبسطها تحقيقاً وتأكيذاً لها، فإن الإشارة بالأمر المعهودة المحسوسة، أوقع في فهمها في نفوس الطاهرة الزكية^(٦)، وأخبر ﷺ أن «أول ما خلق الله تعالى القلم، فأخذه بيمينه»^(٧).



(٧٤) صفة الكمال (الجامع) الجليلة



﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾ قال تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ إِنَّكَ اللَّهُ لَا يُخْلَفُ أَلَيْسَ كَذَلِكَ ﴿[آل عمران: ٩]﴾^(٨).

(١) كما في الحديث المتقدم في الحاشية رقم (٣) الصفحة السابقة.

(٢) نقلاً من «السلسلة الصحيحة» (١١١/٤).

(٣) المصدر السابق.

(٤) ولهذا اعتنى أئمة الهدى بذكر الأخبار الصادقة عن خير الوري ﷺ، فقد بَوَّبَ الحافظ ابن أبي عاصم في كتابه النفيس: «السنن» قال: باب ذكر أخذ ربنا الميثاق على عباده، ثم ذكر الروايات المرفوعة للنبي ﷺ وصحبه الكرام. (ص ٨٧) بتحقيق العلامة الألباني، وللأخير بحث نفيس في جمع الرواية، ومعنى الدراية في السلسلة الصحيحة (١٥٨/٤)

(٥) من اليهود، قال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٨٣]، ومن النصارى ﴿وَيَسُبُّوا إِلَٰهَنَا مَسْكُوتِينَ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ [المائدة: ١٤].

(٦) كما تقدم في القاعدة الرابعة عشر «مشروعية إثبات الصفات مع الإشارة إليها بما هو محسوس ومعهود».

(٧) انظر تخريجه في صفة (اليمين).

(٨) وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠]، وقال عز شأنه: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ كُلُّ النَّاسِ لِلْجَمْعِ﴾ [التغابن: ٩]، وقال جلّ ثناؤه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ﴾ [الأنعام: ٣٥].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: عن عبد الله بن زيد أن رسول الله ﷺ لَمَّا فَتَحَ حُنَيْنًا قَسَمَ الْغَنَائِمَ...، فقام رسول الله ﷺ فخطبهم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «يا معشر الأنصار! أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَالًا فَهَدَاكُمْ اللَّهُ بِي؟! وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي؟! وَمَتَفَرِّقِينَ فَجَمَعَكُمْ اللَّهُ بِي؟!...»^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الجمع: ضد التفريق، وهو: ضمُّ الشيء بتقريب بعضه من بعض، وهو التأليف. يقال: جمعته فاجتمع، قال تعالى: ﴿وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩]^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: الله ﷻ هو الجامع بكل وجه واعتبار، الذي يجمع بين القلوب، والأجزاء، والأجساد، في الدنيا، ويوم الميعاد.

الأول في الدنيا: فهو سبحانه يجمع بين القلوب بالتأليف، والمحبة، والمصرة، والتي أعظمها على الإيمان، قال تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأفصال: ٦٣].

وفي خطبة النبي ﷺ للأنصار، وفيها: «... ألم أجِدْكم متفرقين فجمعكم الله بي...»^(٣).

ومن دُعاء المصطفى ﷺ: «اللهم أَلِّفْ بَيْنَ قُلُوبِنَا»^(٤).

وإذا كان الله تعالى قد جمع بين قلوب الأولياء بالمحبة والوداد، إلا أن حكمته سبحانه اقتضت خلاف ذلك مع المكذبين الأنداد، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى﴾ [الأنعام: ٣٥].

الثاني: الجمع الأخروي:

(١) فهو سبحانه يجمع الخلائق كلها، إنسهم وجنهم، مؤمنهم وكافرهم، حتى الحيوانات، والذرات^(٥)، «بعد مفارقة الأرواح الأبدان، وبعد تبدد الأوصال، والأقران، ليجزي الذين أساءوا

(١) مسلم (١٠٦١). وقال ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَلِكَ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ... البخاري (٣٣٤٠) (٣٣٦١) (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤). وفي رواية: «يَجْمَعُ اللَّهُ تَعَالَى النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَهْتُمُونَ لِذَلِكَ... مسلم (١٩٣).

(٢) والجمع قد يكون في الأجسام، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ يَوْمَ رَبِّهِمْ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٩]، وقد يكون في المعاني، كقوله سبحانه: ﴿فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١]. «المفردات» (٢٠١)، و«القاموس المحيط» (٢٣٥)، و«الأسنى» (٤٧٩/١).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه عند صفة (المؤلف).

(٥) أي: النملة، كما جاء في الحديث.

بما عملوا، ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى»^(١)، فهو عز شأنه جامع ما تفرّق واستحال من الأموات الأولين والآخرين، بِكَمال قدرته، وسعة علمه^(٢)، ونُفوذ إرادته ومشيئته.

(٢) وهو تعالى يجمعُ جميعَ الرسل فيسألهم ﷺ فيقول: ﴿مَاذَا أَجَبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩]؛ أي: ماذا أجابتكم به أُممكم^(٣).

(٣) ومن كَمال جمعه في يوم القيامة: أنه يجمع المؤمنين مع الكافرين، والمظلومين مع الظالمين، فيقتص لهم بِمِيزانِ الحَقِّ، والعدل، والفضل المبين، قال تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبا: ٢٦].

(٤) وهو سبحانه الجامع: الذي (يجمع) ويؤلف المفترق^(٤)، والمؤلف بين التماثلات^(٥)، والمتباينات^(٦)، والمتضادات^(٧) في الوجود^(٨)، وهو من أعظم الدلالات على وجوده سبحانه، وهو: كجمعه بين السماء وكواكبها، والأرض وبحارها، والمعادن المختلفة وما فيها، إلى غير ذلك مما استودع الأرض من الحيوانات والنباتات (والتي لا حصر لأجناسها فضلاً عن أفرادها)، وكذلك جمعه بين العظم، والعصب، والعرق، والعضلة، والبشرة، والدم.

وأما المتضادات: فجمعه بين الحرارة والبرودة، والرطوبة واليبوسة، في أمزجة الحيوانات، وهي مُتَنَافِرات متعاندات، وذلك أبلغ وجوه الجمع، وتفصيل جمعه لا يعرفه إلا من يعرف تفصيل مجموعاته في الدنيا والآخرة^(٩).

(٥) وهو سبحانه الجامع: الذي جمعَ الفَضائل، وحوى المآثر، والمَكَارِم^(١٠) كلها، فقد جمع وحوى سبحانه كل حسي، ومعنوي، وظاهري وباطني، في هذا الوجود، في الدنيا، واليوم الموعود.

(١) «شأن الدعاء» (٩٢).

(٢) «تفسير السعدي» (٦٢٧/٥).

(٣) المصدر السابق (٢٤٨).

(٤) انظر: «عارضة الأحوذى» (٤٢/١٣).

(٥) التماثل: هو المشابه.

(٦) المتباين: هو المختلف.

(٧) المتضاد: هو الشيء الذي ضد الآخر؛ أي: عكسه.

(٨) «النهاية» (١٦٤).

(٩) انظر: «المقصد الأسنى» (١٠٣ - ١٠٤).

(١٠) «شأن الدعاء» (٩٢).

(٧٥) صفة الكمال (التَّجَلِّي) (الْجَلِيلَة)

﴿الْكِتَابُ الْحَكِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾

[الأعراف: ١٤٢].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: ١ - حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾: (وَضَعَ النَّبِيُّ ﷺ أَصْبَعَهُ الْإِبْهَامَ قَرِيبًا مِنْ طَرَفِ الْخَنْصَرِ، فَسَاخَ الْجَبَلَ) ^(١).

٢ - وقال ﷺ: «يَتَجَلَّى لَنَا رَبُّنَا ﷻ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ضَاحِكًا» ^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: التَّجَلَّى: الْجَلَاءُ: الصَّقَالُ، يُقَالُ: جَلُوتَ السَّيْفُ أَجْلُوهُ: أَزَلْتُ صَدَاهُ، وَأَصْلُهُ: الْكُشْفُ، وَالْإِظْهَارُ. يُقَالُ: أَجْلَيْتُ الْقَوْمَ عَنْ مَنَازِلِهِمْ فَجَلُّوا عَنْهَا؛ أَيْ: أَبْرَزْتَهُمْ.

وَأَمْرٌ جَلِيٌّ: وَاضِحٌ. وَاللَّهُ يَتَجَلَّى السَّاعَةَ: يَظْهَرُهَا. فَالتَّجَلَّى: الظُّهُورُ، وَالْبَيَانُ لِلْعِيَانِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ﴾؛ أَيْ: ظَهَرَ، وَبَانَ ^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: صِفَةُ التَّجَلَّى مِنْ الْأَفْعَالِ الْاِخْتِيَارِيَّةِ الَّتِي أُثْبِتَتْهَا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ قَاطِبَةً، وَتَجَلَّى سَبْحَانَهُ فِي الدَّارَيْنِ: الْأُولَى: فِي هَذِهِ الدَّارِ، حِينَمَا وَاْعَدَ رَبُّنَا الْعَظِيمُ نَبِيَّ التَّكْلِيمِ مُوسَى عَلَيْهِ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ «لِإِنْزَالِ الْكِتَابِ عَلَيْهِ عِنْدَ الْجَبَلِ، فَلَمَّا ظَهَرَ (الرَّبُّ) وَبَانَ، أَنْهَالَ الْجَبَلَ مِثْلَ الرَّمْلِ، مِنْ رُؤْيَا اللَّهِ تَعَالَى» ^(٤).

يقول شيخ المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله: «وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِلْوَقْتِ الَّذِي وَعَدْنَا أَنْ يَلْقَنَا فِيهِ «وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ» وَنَاجَاهُ، «قَالَ» مُوسَى لِرَبِّهِ: «أَرِنِي أَنْظُرَ إِلَيْكَ»، قَالَ اللَّهُ لَهُ مُجِيبًا: «كُنْ تَرِنِّي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ»، «فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ» يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: فَلَمَّا أَطْلَعَ الرَّبُّ

(١) تقدم تخريج هذا الحديث في قسم الصفات الذاتية، عند صفة (الإبهام، والخنصر)، وهي عدة روايات صححها الألباني في ظلال الجنة (٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٢)، وفي «صحیح الترمذي» (٣٠٧٤).

(٢) رواه أحمد (١٤٧٢١)، (١٥١١٥)، (١٩٦٥٤)، وصحح الروايات شعيب الأرنؤوط (٣٢٩/٢٣)، (٤٢٤/٣٢)، والألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٩٤/٢) (٧٥٥). وحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ في رؤية الله تعالى يوم القيامة، وفيه: «... ثُمَّ يَتَجَلَّى، حَتَّى إِذَا فَرَغَ اللَّهُ مِنَ الْقَضَاءِ بَيْنَ الْعِبَادِ...»، البخاري (٧٤٣٧). وقال ﷺ: «نَجِيءٌ نَحْنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْتِينَا رَبُّنَا بَعْدَ ذَلِكَ، فَيَقُولُ: مَنْ نَتَنظَرُونَ؟ فَيَقُولُونَ: نَتَنظَرُ رَبَّنَا، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: حَتَّى نَنْظُرَ إِلَيْكَ، فَيَتَجَلَّى لَهُمْ يَضْحَكُ». مسلم (١٩١).

(٣) «المفردات» (٢٠٠)، و«عمدة الحفاظ» (٣٣٥/١)، و«معاني القرآن» وإعرابه للزجاج (٣٧٣/٢)، و«كتاب العين» (٢٥٥/١)، و«القاموس المحيط» (٢٣٣)، و«تفسير الطبري» (٤٩٥/٤).

(٤) «تفسير السعدي» (٣٠٢).

للجبل ، جعل الله الجبل ﴿دَكًّا﴾ ؛ أي: مستويًا بالأرض...»^(١).

وتجليّ سبّحانه لنبيه لموسى عليه السلام ، لم يظهر منه سبّحانه إلّا طرف خنصره تعالى ، كما يليق بجلّاله ، وكماله ، وعظمته ، وهذا يدل على أنه تعالى لا يقدر أحد على رؤيته في هذه الدار ، مع رؤيته ، وعدم الإدراك له^(٢) ، في آخر الدار .

الثاني: تجليّ تعالى في الآخرة وهو نوعان: الأول: في عرصات يوم القيامة ، والثاني: في الجنة .

الأول: سبّحانه هنالك على نوعين كذلك ، الأول: تجلي اختبار وتعظيم ، والثاني: تجلي إنعام وتكريم ، فالتجلي الأول: ينقسم إلى قسمان الأول: لـ «جميع هذه الأمة ، برّهم وفاجرهم ، مؤمنهم ومنافقهم .» (الثاني): وبعض أهل الكتاب ، وهذه الرؤية: رؤية اختبار وامتحان»^(٣).

والتجلي الثاني: للمؤمنين ، كما تقدم في الحديث: «يتجلى لنا ربنا ﷺ يوم القيامة ضاحكًا» ، وكما جاء في الحديث: «إذا جمع الله الأولى والآخرى يوم القيامة ، جاء الربّ تبارك وتعالى إلى المؤمنين ، فوقّف عليهم ، والمؤمنون على كوم ، (فقالوا: ما الكوم؟ قال: مكان مرتفع) ، فيقول: هل تعرفون ربكم؟ فيقولون: إنّ عرّفنا نفسه عرفناه ، ثم يقول لهم الثانية ، فيضحك في وجوههم ، فيخرون له سُجَّدًا»^(٤). وهذه رؤية فيها نوع من التنعيم والتكريم ، لأن ضحك سبّحانه يتضمّن: الفرح والبشارة والسرور والحبور .

وهذه الرؤية قبل أن يوضع الجسر بين ظهري جهنم»^(٥).

التجلي الثاني في الآخرة: في الجنة ، وهو الذي خصّ به أهل ولايته ، وهذا أعلى التجلي وأكمله ، وفيه من النعيم ما الله به عليم ، وهو التجلي في النظر إلى وجهه الكريم الجميل ، قال ﷺ: «... فيكشف الحجاب ، فيتجلى الله ﷻ لهم ، فما أعطاهم الله ﷻ شيئًا كان أحبّ إليهم من النظر إليه»^(٦).

(١) «التفسير» (٤٩٤/٣).

(٢) أي: عدم الإحاطة به من كل وجه ، لأن الإدراك أخص من الرؤية كما تقدم ، فنفي الإدراك لا ينفي الرؤية .

(٣) «كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب ﷻ» لإمام الأئمة ابن خزيمة (٤٢٠/١) ، ٤٣٠ - ٤٣٢.

(٤) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٣٩٦/٢) (٧٥٦).

(٥) «كتاب التوحيد» لابن خزيمة (٤٢٠/١).

(٦) رواه أحمد في المسند (١٨٩٣٦) وصححه شعيب الأرناؤوط (٢٦٧/٣١) ، وعبد الله بن أحمد في «السنن» رقم (٤٧٢) ، (٤٧٥) ،

وصححه محقق الكتاب (٣٥٣ ، ٣٥٥).

(٧٦) صفة الكمال (التأييد) الجلية

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَنِينَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]^(١).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف أنه سمع حسان بن ثابت الأنصاري يستشهد أبا هريرة: أنشدك بالله! هل سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يا حسان أجب عن رسول الله ﷺ، اللهم أيده بروح القدس»؟ قال أبو هريرة: (نعم)^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الأيد: القوة الشديدة، قال تعالى: ﴿إِذْ أَيْدَتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠]؛ أي: قَوَّيْتُكَ، فَعَلْتُ مِنَ الْإِيدِ، وقوله تعالى: ﴿دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧]؛ أي: ذا قُوَّةٍ فِي الْأَقْوَالِ، والأفعال^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: جاءت صفة التأييد الاختيارية الفعلية في الكتاب والسنة الشريفة في سياق الثناء من الله تعالى، والتذكير بنعمه الجلية على أنبيائه، وأوليائه، في النصر والتمكن، والعلبة على الكفار، والفجار في هذه الدار، كما في اثنتائه سبحانه على بني إسرائيل في إرسال عيسى عليه السلام، وهو آخر الرسل إليهم، بأنه سبحانه أيده ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾؛ أي: قُوَّةً بِجِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ^(٤).

وكذلك تأييده للملائكة للنبي ﷺ وصحبه في بدر، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافَّةٌ يَرَوْنَهُمْ مَثَلِيهِمْ رَئِيَ الْكَافِرِينَ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّكَ فِي ذَلِكَ لَعِزَّةٌ لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣] «أي: إن في ذلك لمعتبراً لمن له بصيرة وفهم يهتدي به إلى حكمة الله تعالى، وأفعاله، وقدره الجاري بنصر عباده المؤمنين في هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد»^(٥).

وكذلك تأييده جل وعلا لنبيه ﷺ في الغار، «بالملائكة الكرام، الذين جعلهم حرساً

(١) وقال ﷺ: ﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٣]. وقال عز شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصَرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]. وقال سبحانه: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

(٢) البخاري (٤٥٣) (٣٢١٢)، ومسلم (٢٤٨٥).

(٣) انظر: «عمدة الحفاظ» (١٤٣/١)، و«اللسان» (٢٩٦/١).

(٤) «تفسير ابن كثير» (١٨٢/١).

(٥) المصدر السابق (٤٨٥/١).

له^(١) من الكفار، قال تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُ بِجُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠]

ومن ذلك: تأييده سبحانه لآحاد من الصحابة عليهم السلام، كتأييده لحسان بن ثابت الذي نافح عن النبي ﷺ باللسان، فأَيَّدَهُ رَبُّ العِزَّة والجلال بخير الملائكة الكرام، جبريل عليه السلام «عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله: «إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ حَسَانَ بَرُوحِ الْقُدُسِ مَا يُفَاخِرُ، أَوْ يُنَافِحُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»^(٢).

وقد جعل الله تعالى من أعظم أسباب تأييده، هو: الانتماء إلى حزبه سبحانه^(٣).

﴿٧٧﴾ صفة الكمال (المُحَدِّث) الجَلِيلَة

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: ١﴾ قال تعالى: ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق: ١].

٢) وقال سبحانه: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ﴾ [الأنبياء: ٢].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾ قال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يُحْدِثُ مِنْ أَمْرِهِ مَا يَشَاءُ، وَإِنَّ مِمَّا أَحْدَثَ أَنْ لَا تَكَلَّمُوا فِي الصَّلَاةِ»^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّفْظِ: الحدوث: كون الشيء بعد أن لم يكن، والحديث: نقيض القديم، ويقال لكل ما قرب عهده: محدث، فعلاً كان، أو مقالاً.

وأحدثه الله فحدث، وحدث أمر؛ أي: وقع. ومحدثات الأمور: ما ابتدعه أهل الأهواء من الأشياء التي كان السلف الصالح على غيرها، وهي ما لم يكن معروفاً في كتاب، ولا سنة، ولا إجماع^(٥).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: الله ﷻ هو الذي يُحْدِثُ ما يُريد إحداثه، في أي وقت شاء وأراد سبحانه، وإنَّ إحداثه ذلك من أفعاله التي هي أوصاف له، فيحدث الأمر من أمره تعالى،

(١) «تفسير السعدي» (٣٣٨).

(٢) صححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٨٤٦)، و«السلسلة الصحيحة» (١٦٥٧).

(٣) قال تعالى: ﴿لَا يَحْدُثُ قَوْلًا يُوَسْوِسُ يَأْتُوهُ الْآخِرُ يُوَادُّرُ مَنْ حَاذَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

(٤) صححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٩٢٤)، وفي «صحيح النسائي» (١٢٢١)، وانظر: مسند أحمد (٤٠٩/١)، (٤١٥)، (٤٣٥).

(٥) «اللسان» (٣٤٩/٢ - ٣٥١)، و«المفردات» (٢٢٢ - ٢٢٣)، و«النهاية» (١٩١ - ١٩٢).

والكلام، ويطلق عليه أنه حدث، ومُحْدَثٌ، لأنه وجد بعدما قبله، ويُسمَّى كلامه تعالى حديثًا، ويطلق عليه أنه حادث، ومحدث بمعنى الجديد الذي تكلم به، بعد كتبه السابقة له، «وإن حدثه سبحانه لا يشبه حدث المخلوقين»^(١)، فمن ذلك كلامه، ومُخاطبته لِمَنْ يريد أن يُخاطبه من خلقه، وأمره لِمَنْ يأمره، ونهيهِ، وإِجابته لِمَنْ يدعوه، وإِحياءه لِمَنْ يريد حياته، وإِماتته لِمَنْ يُريد أن يُمِته...، وتصرفه في خلقه، وملكه كيف يشاء.

فمعنى الحدث هو: الفعل المتجدد الذي يتعلَّق بِمَشِيئته تعالى، سواء كان كلامًا، أو أمرًا، أو نهيًا، أو إحياء لِمِيت، أو إِماتة الحي، أو هداية ضالٍّ، أو ضلال غاوٍ، أو تغييرًا لحكم شرعه قبل ذلك، أو أذن به، أو تغيير ما في نفوس بعض خلقه، أو غير ذلك ممَّا يشاءه ويُريده جَلَّ وعَلا^(٢).



(٧٨) صفة الكمال (الذِّمَّة) الجَليلة



❁ السُّنَّة النَّبَوِيَّةُ: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى الصَّحَّحَ فهو في ذِمَّة الله، فلا يطلبنكم الله من ذِمَّته بشيء، فإنه مَنْ يطلبه من ذِمَّته بشيء يُدرُّكه، ثم يكبه على وجهه في نارِ جَهَنَّمَ»^(٣).

❁ المَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الذِّمَّة بالكسر: العهد، والكفالة، والضَّمان، والأمان، والحُرمة، والحقُّ، والحِفظ، والكلاءة، والإِجارة^(٤).

❁ المَعْنَى فِي الشَّرْع: الذِّمَّة من أفعال الله تعالى الاختيارية والتي تقع شيئًا فشيئًا وفق مشيئته تعالى وتبعًا لحكمته، وإرادته، وهي تتعلَّق بالأسباب، «فمن هذه الأسباب: صلاة الصبح، «مَنْ صَلَّى الصَّحَّحَ فهو في ذِمَّة الله تعالى»؛ أي: في عهده، وأمانه، وإذا كان في عهد الله وأمانه، لزمه أن يُراعي هذا العهد، والأمان، فلا يُخالف الله تعالى في شيء، لأنه إذا خالف الله، فهو بمنزلة نقض العهد، ولهذا قال: «فلا يطلبنكم الله من ذِمَّته بشيء»^(٥).

(١) من كلام البخاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في صحيحه (٦٠٧/١٣).

(٢) «شرح كتاب التوحيد» للعلامة الغنيمان (٧٦٨/٢ - ٧٧٠).

(٣) مسلم (٦٥٧). وكان رسول الله ﷺ إذا أَمَرَ أميرًا على جيش أو سريَّة، أوْصاه في خاصَّته بتقوى الله ﷻ، ثم قال: «وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذِمَّة الله، وذِمَّة نبيه ﷺ...»، مسلم (١٧٣١)، وقال ﷺ: «مَنْ صَلَّى صلاتنا، واستقبلَ قِبَلتنا، وأكل ذَبِحتنا، فذلك المسلم، الذي له ذِمَّة الله، وذِمَّة رسوله، فلا تخفروا الله في ذِمَّته». البخاري (٣٩١).

(٤) «النهاية» (٣٣٠)، «القاموس المحيط» (٤٧٣)، و«الصحاح» (٣٧٥).

(٥) «شرح صحيح مسلم» لابن عثيمين (٥٥٥/٢).



(٧٩) صفة الكمال (الْفَرَاغُ مِنَ الشَّيْءِ) الْجَلِيلَةُ



﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال ﷺ: ﴿سَنَفَرُّكُمْ لَكُمْ أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ [الرحمن: ٣١].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «خلق الله الخلقَ، فلَمَّا فرغَ منه، قامت الرَّحِمُ، فقال: مَهْ، قالت: هذا مقامُ العائِد بك من القَطِيعَةِ»^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ﴾: فرغ: خلاف الشغل، وهذا المعنى غير جائز في حقِّ الله تعالى، لأنَّه لا يشغله شأن عن شأنه، ويأتي بمعنى: قصد الشيء وإتمامه، والانتهاؤه منه، ويقال في الوعيد: لأفرغنَّ لك، وهذه المعاني جائزة في حقِّه سبحانه^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: صفة الفراغ الفعلية الكَمالية جاءت في الكتاب في سياق الوعيد، والتهديد، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «وعيد من الله للعباد، وليس بالله شغل، وهو فارغ»^(٣).

وهذا المعنى معروف في كلام العرب، يقال: «لأتفرغنَّ لك»، وما به شغل، يقول: لآخذنَّك على غرَّتكَ^(٤).

والمعنى سنفرغ لحسابكم، ومُجازاتكم بأعمالكم التي عملتموها في دار الدنيا^(٥).

وجاء بضمير الجمع: ﴿سَنَفَرُّكُمْ لَكُمْ﴾ للتعظيم؛ أي: تعظيماً لنفسه جلَّ وعلا، وقوله: ﴿أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ يعني: الجن، والإنس، وإنَّما وجه هذا الوعيد إليهما، لأنَّهما مناط التكليف^(٦).

أمَّا في السنة فقد جاءت في معنى هذه الصفة بأوسع ممَّا في الكتاب، إضافة بالمُحاسبة والجزاء، بمعنى: الانتهاء من إتمام العمل، كما في حديث الرؤية: «حتى إذا فرغَ الله من القضاء بين العباد» والمعنى: أن أفعال الله سبحانه تأتي شيئاً فشيئاً، فإذا انتهى فعل جاء بعده

(١) البخاري (٧٥٠٢)، ومسلم (٢٥٥٤). وحديث رؤية الله تعالى في الآخرة، وفيه: «حتى إذا فرغَ الله من القضاء بين العباد، وأرادَ أن يخرج برحمته من أَرَادَ من أهل النار، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يُشرك بالله شيئاً...، ثم يفرغ الله من القضاء بين العباد، ويبقى رجلٌ بين الجنة والنار...». صحيح البخاري (٦٥٧٣)، (٧٤٣٧)، ومسلم (١٨٢).

(٢) انظر: «عمدة الحفاظ» (٢٢١/٣)، و«المعجم الوسيط» (٧١٧).

(٣) «التفسير الصحيح» (٤٢٥/٤).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٣٥٧/٤).

(٥) «تفسير السعدي» (٨٣٠).

(٦) «تفسير سورة الرحمن» لابن عثيمين (١٩١/١٠).

فعلٌ آخر، لأنَّ كل عمل له بداية، ونهاية، ونهايته: الفراغ منه، وليس المعنى: أن يشغله شأن عن شأن، ثم يفرغ من هذا، ويأتي إلى هذا، فهو سبحانه يُدبِّر كلَّ شيء في آنٍ واحد، في مشارق الأرض ومغاربها، وفي السموات العلَّا، فهو تعالى لا يعجزه شيءٌ، فلو شاء لفعل كلَّ شيء في لحظة واحدة، ولكنه سبحانه يفعلُ الأفعال بحسب حكيمته، وإرادته، فيفعل الفعل أولاً ثم يفعل الفعل الثاني من أجل أن تترتب المفعولات، (أي: المخلوقات) والمعنى كما تقدم: أن الله تعالى يتولَّى مُحاسبة عباده بنفسه، وينتهي من ذلك، وهو تعالى أسرع الحاسبين، وجاء وصف الله تعالى بذلك في كثيرٍ من النصوص، وهو من أوصاف الفعل، وهي كثيرة^(١).

(٨٠) صفة الكمال (الوفِّي) الجليَّة

﴿ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: وقال سبحانه: ﴿يَوْمَذِ يُوفِّهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾ [النور: ٢٥] ^(٢).

﴿ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: كما في الحديث القدسي العظيم: «يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي... يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها...» ^(٣).

﴿ الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الوفاء: ضد الغدر، يقال: وفَّى بعهده، وأوفى فهو موفٍ، إذا أتمَّ العهد ولم ينقض حفظه.

وكل شيء بلغ تمام الكمال، فقد وفَّى وتمَّ، ومنه: أوفيت الكيل والميزان^(٤).

﴿ الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: وصف ربنا نفسه بصفة الفعل العلية: الوفي، والتي تتضمن على كمال الصدق، وحسن الوفاء بالعهد، والوعد، والعدل، والفُضْل، والكرم، ونفوذ الإرادة، وسعة المشيئة، وغيرها من صفات الجلال، فهو الوفي سبحانه الذي لا أوفى منه على الإطلاق، في الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد:

(١) فهو تعالى الموفي لكلِّ الخلائق بما ضمن لهم من أرزاقهم، وحاجاتهم، وضرورياتهم في معاشهم، الخلق كله على سواء: المؤمن والكافر، والبرِّ والفاجر.

(١) انظر: «شرح صحيح مسلم» (٣٩٦/١)، وسورة الرحمن (١٠/١٩١) لابن عثيمين، و«شرح كتاب التوحيد» من صحيح البخاري للغنيمان (١٠٠/٢).

(٢) وقال جل ثناؤه: ﴿وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، وقال عزَّ شأنه: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

(٣) مسلم (٢٥٧٧).

(٤) «كتاب العين» (٤/٣٨٨)، «المفردات» (٨٧٨).

(٢) وهو الموفي للعباد يوم المَعَاد من الأجر، والثَّواب، وإحقاق الحَقِّ، ونقض الباطل، «فهو تعالى لا يعجزه جزاء المحسنين، ولا يمنعه مانعٌ من بُلُوغِ مرامه، ولا تلحقه ضرورة إلى النقص من مِقْدَارِهِ»^(١)، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]، لأنه تعالى هو الصَادِق، العَادِل، القَادِر، الذي لا يخلف ما وعدَ.

(٣) وقد ضمنَ الله ﷻ لكلِّ مَنْ قام بعهدِهِ الذي أخذَهُ على عباده من التَّوَاهِي، والأوامر، والوصايا، والتي أعظمُها، وأجلُّها على الإطلاق: الإيمان به، وبرسوله، وإقامة شرعه، أوفى بعهدِهِ سبحانه، وهو أن يدخلهم دارَ جنتِهِ، جزاءً، وَفَاقًا مِنْهُ عَزَّ شَأْنُهُ، فوفاؤهم بعهدِ الله تعالى أمانة لَوْفَاءِ الله تعالى لهم، لا علة له، بل تَفَضُّلٌ مِنْهُ عَلَيْهِمْ سبحانه، قال ربُّ العالمين: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] ^(٢).



(٨١) صفة الكمال (العزم) الجليلة



﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: ١﴾ عن أمِّ سلمة ؓ قالت: (.. فلمَّا توفي أبو سلمة قلت: مَنْ خير من أبي سلمة صاحب رسول الله ﷺ؟! ثم عزمَ الله لي، فقلتُها)، قالت: (فتزوَّجْتُ رسولَ الله ﷺ) ^(٣).

(٢) الدعاء الذي علَّمَهُ ﷺ لوالدِ عمران بن حصين ؓ: «اللهم قِنِي شَرَّ نَفْسِي، واعِزِّمِ لي على أرشدٍ أُمْرِي». وفي لفظ: «... وأسألكَ أن تعزِّمَ لي على أرشدٍ أُمْرِي» ^(٤).

﴿المَعْنَى فِي اللُّغَةِ: العزم: عقد القلبِ ^(٥) على إمضاء الأمر، يقال: عَزَمْتُ الأمر، وعَزَمْتُ عليه، واعتزمت؛ أي: إذا أردتُ فعله، وقطعتُ عليه ^(٦).

﴿المَعْنَى فِي الشَّرْعِ: (العزم) من أفعاله الاختيارية سبحانه، والتي تقومُ بذاته، ومَشِيئَتِهِ، وقدرته، وحكمته، كما يليقُ بِعَظَمَتِهِ، وَجَلَالِهِ، وَكَمَالِهِ، لا تشبه عزمَ المخلوقين، ومعنى العزم

(١) «المنهاج» للحليمي (٢٠٦/١).

(٢) «الأسنى» (٤٢٢/١)، و«تفسير السعدي» (٥٠) بتصرف كبير.

(٣) مسلم (٩١٩).

(٤) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٩٣)، وصححه الألباني في «صحيح موارد الظمان» (٢٦٠) (٤٥٠/٢)، والوادعي في

«صحيح المسند» (٣١٠) (٢٥٤/١).

(٥) هذا في حقِّ العبد، أما في حقِّ الربِّ فله معنى يليقُ بجلاله وعلِيَّاته خلاف الخلق.

(٦) قال سبحانه: ﴿إِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ﴾ [البقرة: ٢٢٧]. «المفردات»

(٥٦٥) و«مقاييس اللغة» (٦٦٨).

في حقهم: «القصد الجازم المتصل بالفعل، وقيل: استجماع قوى الإرادة على الفعل»^(١) والعزم بهذا المعنى، يليق بعجز المخلوقين، ونقصهم، وضعفهم، أما في حقه تعالى فله شأن آخر لا تعلم كَيْفِيَّتُهُ، وحقيقته، مع إيماننا وتصديقنا بأنها صفة حقيقية عليّة تليقُ بِسُمُو كَمَالِهِ، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ في مجموع فتاويه: «وهل يجوز وصفه بالعزم؟ فيه قولان: أحدهما، المَنع، كقول القاضي أبي بكر، والقاضي أبي يعلى. والثاني: الجواز، وهو أصح، فقد قرأ جماعة من السلف قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] بالضم^(٢)، وفي الحديث الصحيح من حديث أم سلمة: «ثمَّ عَزَمَ اللهُ لي»^(٣).

﴿٨٢﴾ صفة الكمال (المُخْرَج) الْجَلِيلَة

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ﴾: خرج: أصل الخروج: البروز من المقرّ، أو الحال، سواء أكان المقرّ داراً، أم بلداً، أم ثوباً، وسواء كان الحال حالة في نفسه، أو بأسبابه الخارجة عنه، وأكثر ما يكون الإخراج في الأعيان، ويقال في التكوين الذي هو من فعل البارئ تعالى، نحو: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِذِي زُرْعَةٍ مِّن تَبَاتٍ شَقَى﴾ [طه: ٥٣]^(٥)، وبالجمله فهو إخراج الأشياء من مقارّها سواء كانت حسية، أو معنوية، كما سيأتي في المعنى الشرعي.

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: جاء الفعل الاختياري الإخراج في حَقِّ رَبَّنَا سبحانه متنوعاً على

(١) مجموع رسائل للحافظ ابن رجب الحنبلي (١/٣٧٢).

(٢) قراءة الضم قراءة شاذّة، قرأ بها: عكرمة، وجابر بن زيد، وأبو نهيك، وجعفر الصادق، بصيغة المتكلم، نسب العزم إلى نفسه سبحانه إذ هو يهديته وتوفيقه، كما في قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، إذا قطعت لك بشيء، وعينته لك، وأرشدته إليك، فتوكل علي، ولا تشاور به أحداً. انظر: «تفسير القرطبي» (٢/٥٩٩) و«المحرر الوجيز» (١/٥٣٤)، و«روح المعاني» (٣/١٦٨).

(٣) «مجموع الفتاوى» (١٦/٣٠٣).

(٤) وقال عز شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣]، وقال سبحانه: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمُ لِأَهْلِهَا﴾ [النساء: ٧٥]. وقال ﷺ: ﴿وَتُخْرِجُ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [آل عمران: ٢٧].

(٥) «المفردات» (٢٧٨)، و«عمدة الحفاظ» (٢/٤٩٥).

مقتضى حكمته، التي تتعلّق بأسباب، كما سبق، فهو **مُخْرِجُ** المخرج من كلّ وجه واعتبار لكل الأشياء على الإطلاق: في الأولى، وفي العُقبى.

ففي الأولى: الإخراج المعاشي، والإخراج الشرعي، فالمعاشي قسمان:

❖ الأول: إخراج حِسِّيّ. والثاني: إخراج معنوي.

الإخراج الحِسِّيّ: وهو نوعان كذلك:

(أ) إخراجُ الأشياء من العَدَم إلى الوجود، وهذا لا حصر له، من ذلك:

إخراجُ الأحياء من الأموات، كقوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [آل عمران: ٢٧]، فقوله سبحانه: ﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾: «كالفرخ من البيضة، وكالشجر من النّواة، والزرع من البذرة، ﴿وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾: كالبيضة من الطائر، وكالنّوى من الشجر، وكالحبّ من الزّرع، وما جرى هذا المجرى من جميع الأشياء، فهو تعالى مخرج الأضداد، الضدّ من ضده»^(١).

(ب) إخراج الموجود إلى عالم الوجود، كإخراج الطفل من بطن الأمّ، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧]، وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨].

والثاني: إخراج معنوي:

(أ) إخراج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، وهو داخل في قوله سبحانه: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ «يعني المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن»^(٢).

(ب) إخراج ما في القلوب من الأحقاد، والضغائن، والمذام، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٧٢]، وقال عزّ شأنه: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنْهُمْ﴾ [محمد: ٢٩]^(٣). [محمد: ٢٩]^(٤).

«وقد وفّى تعالى بوعده، فأنزل هذه السورة (أي: التوبة) التي بيّنتهم وفضحتهم، وهتكت أستارهم»^(٥).

(١) «تفسير ابن كثير» (٤٩٣/١)، و«تفسير السعدي» (١٢٧).

(٢) من كلام الحسن البصري. «التفسير الصحيح». (٤٠٨/١).

(٣) الأضغان: جمع ضغن، وهو: ما في النفوس من الحسد، والحقْد (خاصّة) للإسلام وأهله، والفائمين بنصره. «تفسير ابن كثير» (٢٣١/٤).

(٤) وقال سبحانه: ﴿يُحْذَرُ الْمُتَفَقِّهُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَغْفِرُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤].

(٥) «تفسير السعدي» (٣٤٢).

❁ القسم الثاني في الدنيا: الإخراج الشرعي الديني:

وهو الذي خصّه سبحانه لأنبيائه، وأصفياه، وأوليائه، الذي فيه معاني اللطف، والحفظ، والعناية، والنصرة. وهو نوعان:

الأول: إخراج إيماني روحي: من الظلمات إلى نور الهدى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧] «أي: يخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر، والشك، والريب، إلى نور الحق الواضح الجلي المبين السهل المنير»^(١).

الثاني: إخراج بدنيّ: من الشرور، والشدائد، والهلكات، والنصر على الأعداء، قال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥] «وهم بيت لوط عليه السلام، إلا امرأته، فإنها من الهالكين»^(٢).

وقال تعالى: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢].

ومن الآيات التي تجمع نوعي ما تقدم، قوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء: ٨٠] «أي: اجعل مداخلتي ومخارجي كلها في طاعتك وعلى مرضاتك، وذلك لتضمنها الإخلاص، وموافقة العمل»^(٣).

وكما في قوله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢] «أي: ومن يتق الله فيما أمره به، وترك ما نهاه عنه، يجعل له من أمره فرجاً ومخرجاً من كل شيء، ويرزقه من حيث لا يحتسب؛ أي: من جهة لا تخطر بباله»^(٤).

وفي آخر الزمان يخرج سبحانه دابةً تكلم الناس عند فساد دينهم، وتركهم أوامر ربهم، قال ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ الْآيَاتِ خُرُوجًا طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، وخروج الدابة على الناس ضحىً...»^(٥).

(١) وقال سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ يُمْرِكُونَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [الأحزاب: ٤٣]. وقال عز شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. «تفسير ابن كثير» (٤٣٥/١).

(٢) «تفسير السعدي» (٨١٠).

(٣) المصدر السابق (٤٦٥).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٥٠٢/٤).

(٥) مسلم (٢٩٤١).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تكلّمهم»، قال: (تُحَدِّثُهُمْ) ^(١).

والإخراج في العُقْبَى:

الأول: إخراج الموتى من القبور إلى البعث والنشور، قال تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٥٥]؛ أي: «فيخرجهم من قبورهم، كالحال في إخراجهم من بطون أمهاتهم، حُفَاة عِزَّة غُرْلًا بِهِمَا لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ» ^(٢).

وكقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ ^(٣) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا [نوح: ١٨].

إخراج كتب الأعمال ونشرها للأنام:

قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].
أي: نخرج له كتابًا فيه ما عمله من الخير والشر حاضرًا، صغيره وكبيره ^(٣).



(١) «التفسير الصحيح» (٣٦/٤).

(٢) «الأسنى» (٣٤٨/١).

(٣) «تفسير السعدي» (٤٥٥).

القسم الثاني من الصفات الفعلية: الصفات الفعلية المقيدة:

وهي تنقسم كذلك إلى قسمين:

أولاً: صفات فعلية مقيدة على جهة المقابلة في الجزاء بالمثوبة.

ثانياً: صفات فعلية مقيدة على جهة المقابلة في الجزاء في العقوبة.

ولكل قسم نوعان: الأول: من جنس الفعل ونوعه، والثاني: من غير جنس الفعل ونوعه.

وسنبداً بتوفيق من الله تعالى بالقسم الأول من النوع الأول^(١)، وهي: الصفات الفعلية المقيدة على جهة المقابلة بالمثوبة من جنس الفعل ونوعه ونظيره.

الصفات المقيدة على وجه المثوبة

(١) الصفة المقيدة (التيسير) العلية

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «... ومن يسر على مُعسرٍ في الدنيا يسر الله عليه في الدنيا والآخرة»^(٢).

﴿المعنى في اللغة: التيسير: من اليسر، وهو ضدُّ العسر، وهو السهولة (واللين)، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]^(٣).

﴿المعنى في الشرع: إن من فضل الله وسعة إحسانه وآلائه، أنه يجازي عبده بالخير بجنس عمله بلا حدٍّ ولا قيد، من المضاعفة في المثوبة، ومن ذلك: التيسير على أخيه المسلم: «ومن يسر على مُعسرٍ في الدنيا»، «أي: سهّل على ذلك إعسار»^(٤)، ويكون ذلك من عدة أوجه: «بإبراء، أو هبة، أو صدقة، أو نظرة إلى ميسرة، أو نحو ذلك بأن يكون

(١) أما القسم الثاني من الصفات الفعلية المقيدة على جهة العقوبة سنذكر النوعين.

(٢) مسلم (٢٦٩٩).

(٣) «المفردات» (٨٩١).

(٤) كما قال تعالى: ﴿وَلِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠]، «شرح الأربعين النووية» لابن عثيمين (٣٩٣).

واسطة في ذلك»^(١).

ولما كانت العادة أن الجزء من جنس العمل ثوباً وعقاباً، ومنه: اليسر باليسر^(٢): قال: «يسّر الله عليه»، أي: أموره ومطالبه، «في الدنيا والآخرة»: مجازاة له عليه من جنس عمله^(٣)، ويشمل هذا التيسير: تيسير المال، وتيسير الأعمال، وتيسير التعليم وغير ذلك، أي نوع من أنواع التيسير^(٤).

وهنا ذكر الجزء في موضعين: الأول: في الدنيا، والثاني: في الآخرة^(٥)، والتيسير "في الآخرة: بتسهيل الحساب، وما يتبعه من مشاق يوم القيامة"^(٦).

وهذا يدل على أن الإعسار قد يحصل في الآخرة، وقد وصف الله يوم القيامة بأنه يومٌ عسير، وأنه على الكافرين غير يسير^(٧)، فدلّ على أنه يسير على غيرهم^(٨).

﴿٢﴾ الصفة المقيدة (الرّدّ) العلية

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «من ردّ عن عرض أخيه، ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة»^(٩).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ﴾: الرّدّ: صرف الشيء بذاته، أو بحالة من أحواله عما هو عليه، فمن الأول: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٨]، ومن الثاني: ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ آغْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٩]، والرّدّ: الرجوع، يقال: ردّه إلى منزله، أي: رجع^(١٠).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: إن من محامد الله تعالى محبته للألفة بين المؤمنين، وقطع دابر الخصومة والفرقة أمام الشاقين، ولهذا جاء على لسان نبيه ﷺ الأمين بقوله: «من ردّ عن

(١) ينظر: «الفتوحات الوهية بشرح الأربعين النووية» للمحدث برهان الدين الشبرخي (٦٠٩).

(٢) «المعين على تفهم الأربعين» للعلامة ابن ملقن (٤٠٧).

(٣) «الفتوحات الوهية» (٦٠٩).

(٤) كما دل التنكير في سياق الشرط، والذي يفيد العموم والشمول كما هو عند أهل الأصول معلوم.

(٥) «شرح النووية» لابن عثيمين (٣٩٣).

(٦) «عقيدة أهل السنة والجماعة في صفات الله تعالى الواردة على سبيل المقابلة» عز الدين الصابري (١٢٣).

(٧) كما قال ربنا: ﴿فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ عَسِيرٌ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٩ - ١٠].

(٨) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحنبلي (٢٨٩/٢).

(٩) «صحيح الترمذي» (١٩٣١).

(١٠) «عمدة الحفاظ» (٨٢/٢)، و«الصحيح» (٤٠٠).

عرض أخيه»، "في الدين، أي: ردّ على من اغتابه وشان من آذاه وعابه" (١).

وسواء ردّ عن عرضه وهو غائب أو حاضر، والأول أفضل، وهذا في الردّ عن عرضه، وبه يعلم أنّ المنع عن ماله، ودمه أفضل وأعظم عند الله أجراً (٢).

قوله: «ردّ الله عن وجهه النار يوم القيامة»، أي: صرف الله عن وجه الرّادّ نار جهنم (٣)، جزاءً بما فعل (٤).

وهذا يدلّ على كمال جزاء الله تعالى لتضمّنه الفضل، والعدل، وهذا غاية الكمال، ولهذا كما تقدّم أنه أفعاله تعالى كلها مقترنة بسعة العلم، وكمال الحكمة، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، فانظر يا رعاك الله إلى عظم الجزاء أمام هذا العمل اليسير.

﴿٣﴾ الصفة المقيدة (المعرفة) العليّة

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «احفظ الله تجده أمامك، تعرّف على الله في الرخاء يعرفك بالشدّة» (٥).

﴿المَعْنَى فِي اللَّغَةِ﴾: تعرّف: العرف ضد النكر، والمعرفة والعرفان: إدراك الشيء بتفكير وتدبّر لأثره، وهو أخصّ من العلم، ويضادّه: الإنكار (٦).

﴿المَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: أخبر الصادق المصدوق ﷺ: أنّ العبد إذا اتقى الله وحفظ حدوده، وراعى حقوقه في حال رخائه، فقد تعرّف بذلك إلى الله، وصار بينه وبين ربّه معرفة خاصّة، فعرّفه ربّه في الشدة، ورعى له تعرّفه إليه في الرخاء، فنجّاه من الشدائد بهذه المعرفة، وهذه

(١) «فيض القدير» (١٣٥/٦).

(٢) «التنوير شرح الجامع الصغير» للصنعاني (٢٣٣/١٠).

(٣) «تحفة الأحوذى» للمباركفوري (٣٤٥/٥).

(٤) «فيض القدير» (١٣٥/٦)، يقول المناوي رحمه الله: «وذلك: لأن عرض المؤمن كدمه، فمن هتك عرضه فكأنما سفك دمه، ومن عمل على صون عرضه فكأنما صان دمه، فيجازى على ذلك بصونه عن النار».

(٥) رواه أحمد في «المسند» (٢٨٣٠)، وصححه شعيب الأرناؤوط (١٩/٥).

(٦) ويقال: «فلان يعرف الله»، ولا يقال: يعلم الله متعلّياً إلى مفعول واحد، لما كان معرفة البشر لله هي بتدبر آثاره دون إدراك ذاته. المفردات (٥٦٠)، قال ابن الأثير رحمه الله: «تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك بالشدّة»، "أي: اجعله يعرفك بطاعته والعمل فيما أولاك من نعمته، فإنه يجازيك عند الشدة والحاجة إليك في الدنيا والآخرة". النهاية (٦٠٧).

معرفة خاصة تقتضي قرب العبد من ربه، ومحبة له، وإجابته لدعائه.

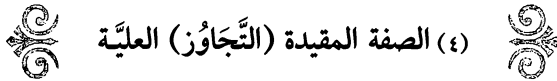
فمعرفة العبد لربه نوعان:

أحدهما: المعرفة العامة، وهي معرفة الإقرار به والتصديق والإيمان، وهذه لعامة المؤمنين.
والثاني: معرفة خاصة تقتضي ميل القلب إلى الله بالكلية، والانقطاع والأنس به، والطمأنينة بذكره، والحياء منه، والهيبة له، وهذه المعرفة الخاصة هي التي يدور حولها العارفون.

ومعرفة الله أيضاً لعباده نوعان:

معرفة عامة: وهي علمه سبحانه بعباده، وإطلاعه ما أسروه وما أعلنوه^(١).
والثاني: معرفة خاصة، وهي تقتضي محبته لعبده، وتقريبه إليه، وإجابة دعائه، وإنجاءه من الشدائد.

وفي الجملة: فمن عامل الله بالتقوى والطاعة في حال رخائه، عامله الله باللطف والإعانة في حال شدته، فإنَّ الجزاء من جنس العمل^(٢).
ومن ذلك التعرف: كما وقع للثلاثة الذين آووا إلى غار في جبل فانحدرت عليهم صخرة^{(٣)(٤)}.



﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال ﷺ: «كان تاجرٌ يداين الناس، فإذا رأى مُعْسِراً قال لفتيانهِ: تجاوزوا عنه، لعلَّ الله أن يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه»^(٥).

﴿المَعْنَى فِي اللُّغَةِ: التجاوز والتجاوز، معناهما: المسامحة في الاقتضاء والاستيفاء،

(١) كما قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّوَسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦]. وقال: ﴿هُوَ أَفْظَرُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

(٢) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب الحنبلي (١/٤٦٥، ٤٧٣).

(٣) صحيح البخاري (٢٢١٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

(٤) «الفتوحات الربوبية» (٤٠٦).

(٥) البخاري (٢٠٧٨)، ومسلم (١٥٦٢). وفي رواية النسائي: «أن رجلاً لم يعمل خيراً قط، وكان يداين الناس، فيقول لرسوله: خذ ما تيسر وارك ما عسر، وتجاوز لعلَّ الله تعالى أن يتجاوز عنا، فلما هلك، قال الله ﷻ له: هل عملت خيراً قط؟ قال: لا إلا أنه كان لي غلام وكنت أداين الناس، فإذا بعثته ليتقاضى، قلت له: خذ ما تيسر وارك ما عسر، وتجاوز، وتجاوز، لعلَّ الله أن يتجاوز عنا، قال الله تعالى: قد تجاوزت عنك». صحيح النسائي (٤٦٩٤) (٤٦٩٥).

وقبول ما فيه نقص يسير^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: إِنْ مِنْ أَوْجِهٍ كَمَالٍ رَبَّنَا الَّذِي لَا يَنْتَاهِي: أَنَّ صِفَاتِهِ تَتَفَاضَلُ فِيهَا بَيْنَهَا، فَصِفَاتُ الرَّحْمَةِ، وَالْعَفْوِ وَالْبَرِّ وَالْإِحْسَانِ، سَابِقَةٌ عَلَى صِفَاتِ الْعُقُوبَةِ وَالْغَضَبِ وَالْإِنْتِقَامِ، وَهَذِهِ الصِّفَةُ الْكَرِيمَةُ (التَّجَاوُزُ) مِنَ النُّوعِ الْأَوَّلِ، قَوْلُهُ: «لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا»: هَذَا مِنْ حَسَنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى بِكَمَالِ صِفَاتِهِ، وَالَّتِي تَقْتَضِي حَسْنَ الْعِبَادَةِ بِالْعَبْدِ لِلرَّبِّ، خَاصَّةً إِذَا اجْتَمَعَ مَعَ هَذَا الظَّنِّ بِعَمَلٍ يَقْتَضِيهِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ مَرَارًا أَنَّ اللَّهَ يُحِبُّ مَنْ اتَّصَفَ بِمَقْتَضِيَّاتِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَنَّهُ سَبِّحَانَهُ يَعْمَلُ عِبَادَهُ بِمَقْتَضَى مَا يَعْمَلُونَ بِهِ خَلْقَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

"والتجاوز في هذه (الأحاديث) هو نوع تجاوز خاص، لا يكون إلا لمن حصل منه التجاوز في الدنيا عمن احتاج إليه، فهو جزاء من جنس عمله"^(٢).

﴿٥﴾ الصِّفَةُ الْمَقِيدَةُ (الذِّكْرُ) الْعَلِيَّةُ

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾﴾ [البقرة: ١٥٢].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: قَالَ ﷺ: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتَهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتَهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ...»^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الذِّكْرُ خِلَافُ النِّسْيَانِ، وَالذِّكْرُ: الْعِلَا وَالشَّرَفُ، وَالذِّكْرُ ذِكْرَانُ: ذِكْرٌ بِالْقَلْبِ، وَذِكْرٌ بِاللِّسَانِ^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾: تَنَوَّعَتْ أَقْوَالُ السَّلَفِ فِي مَعْنَى الْآيَةِ، فَقِيلَ: اذْكُرُونِي أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ بِطَاعَتِكُمْ إِيَّايَ، فِيمَا أَمَرْتَكُمْ بِهِ وَفِيمَا أَنَهَاكُمْ عَنْهُ، أَذْكُرْكُمْ بِرَحْمَتِي وَمَغْفِرَتِي لَكُمْ.

وقيل: اذكروني في النعمة والرخاء أذكركم في الشدة والبلاء، وقيل: إن ذكرني عبدي

(١) «الشرح النووي لمسلم» (٤٩٢/٥).

(٢) «عقيدة أهل السنة في صفات الله» (١٠٧).

(٣) البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥). وقال ﷺ: «لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ ﷻ إِلَّا حَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ». مسلم (٢٧٠٠).

(٤) «المقاييس اللغة» (٣٢١)، و«المفردات» (٣٢٨).

بالتنزيه والتقديس سِرًّا ، ذكرته بالثواب والرحمة سِرًّا ، وقيل : ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [المكوت: ٤٥] ، وغيرها من الأقوال والتي بمجموعها ترجع إليها^(١).

وذكر العبد ربّه تعالى في نفسه نوعان:

أحدهما: في نفسه من غير حروف يسمعهها هو .

الثاني: ذكر بلفظ خفي يسمعه هو دون غيره .

قال تعالى : ﴿ وَأَذْكُرْكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] ، وذكر العبد في نفسه يتناول القسمين جميعاً^(٢).

وعليه: فإن العبد إذا ذكر الله تعالى في نفسه وهو: إما أن يكون سِرًّا بلسانه لا يسمعه أحد ، أو قلبياً غير شفاهياً ، فإن الله يذكره في نفسه ، ويشبهه ثواباً مخفياً عن عباده ، وأعطاه عطاءً لا يطلع عليه غيره^(٣).

وكذلك إذا ذكر الله تعالى العبد عند جماعة ، فإن الله يذكر العبد في ملاٍّ خيرٍ منهم ، أي: في ملاٍّ من الملائكة يذكره عندهم ، ويعلي ذكره ، ويشني عليه عندهم ، (وينبغي أن يعلم) أن الإنسان إذا ذكر الله في ملاٍّ كان هذا أفضل مما إذا ذكره في نفسه^(٤).

ومعنى النفس «ذكرته في نفسي»: "عند جمهور العلماء: الله نفسه التي هي ذاته المتصفة بصفاته العلا ، ليس المراد بها ذاتاً منفكةً عن الصفات ، ولا المراد بها صفة للذات"^(٥).

"والذكر المضاف إليه تعالى هو من الصفات الفعلية ، إذ هو فردٌ من أفراد الكلام الثابت له سبحانه ، فصفة الكلام ذاتية لله تعالى ، ومنها أفراد وآحاد تكون فعلية متى شاء ﷻ ، ومن هذه

(١) ينظر: «تفسير الطبري» (٤٣٣/١) ، و«البغوي» (١٦٧/١) ، و«ابن كثير» (٧٩/١) ، و«شرح السنة» للبغوي (٢٦/٥) ، و«فتح الباري» (٤٧٢/١٣).

(٢) «بيان تلييس الجهمية» (٤٨٥/٧).

(٣) انظر: «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (٣٠/٤) ، وتحفة الذاكرين للشوكاني (١١).

(٤) انظر: «شرح رياض الصالحين» (٣٠/٤) ، وإنما صار الذكر في ملاٍّ الثاني خيراً من الذكر في الأول ، لأن الله هو الذاكر فيهم والملاّ الذين يذكرون والله فيهم أفضل من الملاّ الذين يذكرون الله وليس الله فيهم ، فيذكره سبحانه عندهم بما يعظم به شأنه ويرتفع به مكانه ، بالثناء الجميل ، وإعطاء الأجر الجزيل ، وحسن القبول ، وتوفيق الوصول ، ينظر: «الفتح» (٤٧٣/١٣) ، و«التحفة» (١٢) ، و«مرقاة المفاتيح» (١٤٠/٥).

(٥) «مجموع الفتاوى» (٢٩٢/٩).

الأفراد ذكره سبحانه لعبده، فهو ذكر مخصوصٌ بمن ذكره^(١).

ولذلك فهذا الذكر يختصُّ بمن ذكره تعالى، فمن لا يذكره لا يحصل له هذا الذكر^(٢).

وما أجمل أن يستحضر العبد حين يذكر ربه تعالى بأن الله يذكره في حاله وآنه، فقد جاء عن أحد كبار التابعين وهو: عثمان النهدي رحمه الله أنه قال: "إني لأعلم حين يذكرني ربي، قالوا: وكيف ذاك؟ قال: إن الله يقول: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، فإذا ذكرت الله ذكرني"^(٣).

٦) الصفة المقيدة (الإنفاق) العلية

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال ﷺ: «قال الله تعالى: أَنْفِقْ يا ابن آدم أَنْفِقْ عَلَيْكَ»^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ﴾: أنفق: تدلُّ هذه الكلمة على معنيين: انقطاع الشيء وذهابه، والآخر: على إخفاء الشيء وإغماضه، والإنفاق وهو بذل المال: قد يكون في المال، وفي غيره، وقد يكون واجباً وتطوعاً^(٥).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: إن محبة الله تعالى للخير والجود والإنعام فوق ما يتخيله أيُّ أحد من الأنام، فهو سبحانه يحب أن ينعم على عبده ويزيده من فضله، ولهذا أرشده على البذل والإنفاق لينعم عليه من الآلاء، ولهذا حثَّ بقوله: «أَنْفِقْ»، أي: "على عباد الله، وفي ترك تقييد النفقة بشيء معين ما يرشد إلى أن الحثَّ على الإنفاق يشمل جميع أنواع الخير"^(٦)، حتى يقابله تعالى من جميع أنواع وأفراد الخيرات الدنيوية والأخروية.

كما قال سبحانه: «أَنْفِقْ عَلَيْكَ»، أي: إذا أنفقت مالك فيما يرضى الله تعالى فسينفق الله عليك ويعطيك خَلْفَه، فهو وعدٌ من الله تعالى تبشير الخلق من فضله، وهذا هو معنى قوله

(١) «عقيدة أهل السنة في صفات الله تعالى» (٢٥٧).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٣/١٣٤).

(٣) «الصحیح المسموع من التفسير المأثور» (١/٢٥٩).

(٤) البخاري (٥٣٥٢)، ومسلم (٣٩٣). وقال ﷺ: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم ممَّا علمني يومي هذا...، وأنفق فسينفق»^(٤) وفي بعض النسخ (فسينفق). عليك»^(٤). مسلم (٢٨٦٥).

(٥) «مقاييس اللغة» (٩٠٨)، و«المفردات» (٨١٩).

(٦) «فتح الباري» (٦١٨/٩).

﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبا: ٣٩] (١).

ثم أكد تعالى بشارته للمنفق بذكر صفة من أعظم صفاته الذاتية وهي: اليدين، قال ﷺ (٢): «يمين الله ملأى (٣) لا يغيضها (٤) نفقة، سحاء (٥) الليل والنهار، أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض، فإنه لم يغيض ما في يمينه» (٦).

ودلَّ الحديثان على "أنَّ الله تعالى يقابل نفقة عبده في وجوه الخير بأن ينفق عليه نفقة خاصة جزاء له على فعله، وهي صفة فعلية اختيارية متعلقة بإرادته ومشيئته" (٧) المقترنة بحكمته.

﴿الصفة المقيدة (الإفساح) العلية﴾

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال الله ﷻ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَقَسَّعُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المجادلة: ١١].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «لا يُقِيمُ الرجل الرجل من مجلسه، ولكن افسحوا يفسح الله لكم» (٨).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ﴾: الفسح: الواسع من المكان، والتفْسُح: التوسُّع، يقال: "فسحت مجلسه فتفسح منه"، ومنه قيل: فسحت لفلان أن يفعل كذا، كقولك: وسَّعت له (٩).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: أمر ربنا تعالى خلقه الذي أوامره كلها خير ورشد ومصلحة التي تعود على عباده بالمنافع والخيرات العاجلة والآجلة بأدبٍ سامٍ رفيع، وهو: أنهم "إذا اجتمعوا في مجلس من مجالس مجتمعهم، واحتاج بعضهم أو بعض القادمين عليهم للتفْسُح له في

(١) «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (٢/٢٥٠)، و«شرح النووي لصحيح مسلم» (٤/٨٧)، و«الفتح» (٩/٦١٨).

(٢) كما في تكملة الحديث القدسي المتقدم.

(٣) كما في لفظ عند البخاري (٤٦٨٤).

(٤) أي: لا يقصها.

(٥) السح: الصب الدائم.

(٦) مسلم (٩٩٣).

(٧) «عقيدة أهل السنة في صفات الله الواردة» (٢٣٠، ٢٣٢).

(٨) رواه أحمد (٨٤٦٢) (١٠٦٦) وحسن إسنادهما شعيب الأرناؤوط (١٤/١٧٣) (١٦/١٨٦) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٢٨).

(٩) «المفردات» (٦٣٥)، و«النهاية» (٧٠٥).

المجلس ، فإن من الأدب أن يفسحوا له تحصيلاً لهذا المقصود ، وليس ذلك بضارّ الجالس شيئاً ، فيحصل مقصود أخيه من غير ضرر يلحقه هو ، والجزاء من جنس العمل ، فإن من فسح فسّح الله له ، ومن وسّع لأخيه وسّع الله عليه^(١) ، كما في قوله سبحانه: ﴿فَسَّحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾: أطلق سبحانه الوعد بالجزاء على الفاسح ولم يقيّده بزمان ، ولا مكان ، ولا حال ، ليفيد العموم في الدارين ، أي: يفسح الله له في عيشه ، وقبره ، وجنته .

قال الطاهر بن عاشور رحمه الله: "وحذف متعلق ﴿فَسَّحَ اللَّهُ لَكُمْ﴾: ليعلم كل ما يتطلبه الناس الإفساح فيه بحقيقته ومجازه في الدنيا والآخرة ، من مكانٍ أو رزقٍ ، أو جنة عرضها السموات والأرض على حسب النيات^(٢)"^(٣) .

﴿ (٨) الصفة المقيدة (الإخلاف) العلية ﴾

﴿ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ ﴾: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلمٍ تصيبه مصيبةٌ فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم! أجرني في مصيبي وأخلف لي خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها»^(٤).

﴿ الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ ﴾: الخلف: بالتحريك والسكون: كل من يجيء بعد من مضى ، إلا أنه بالتحريك في الخير ، وبالسكون في الشر ، والخلف: العوض^(٥)^(٦).

﴿ الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ ﴾: إن العبد في هذه الدار لا ينفك من المصائب والنكبات ، ولما كان ذلك له وقعاً شديداً عليه ، جعل الله تعالى له عوضاً وأجرًا عظيمًا إذا صبر واحتسب ، ولم يشكو لأحد ، لأنه سبحانه عطوفٌ شفووقٌ على أوليائه برّ بهم في كل أحوالهم .

قوله: «فيقول ما أمره الله: إنا لله وإليه راجعون»: "كلمة اعترافٍ بالملك لمستحقّه ،

(١) «تفسير السعدي» (٨٤٦) .

(٢) «التحرير والتنوير» (١١) (٣٨/٢٨) .

(٣) ومما جاء في معنى هذه الصفة الكريمة صفة (السعة) قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ وَسَّعَ عَلَى مَكْرُوبٍ فِي الدُّنْيَا وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيْهِ كَرْبَهُ فِي الْآخِرَةِ...» رواه أحمد (٧٧٠) وصححه إسناده شعيب الأرناؤوط (١٣/١٣٠) .

(٤) وتكملة الحديث: أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «أبُيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا ، فَأَخْلَفَ اللَّهُ لِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ» . مسلم (٩١٨) .

(٥) كما في الحديث: «اللَّهُمَّ اعْطِ مَنْفَقًا خَلْفًا» البخاري (١٤٤٢) ومسلم (١٠١٠) .

(٦) النهاية (٢٧٩) .

وتسليمٌ له فيما يجريه في ملكه، وتهوينٌ للمصيبات بتوقع ما هو أعظم منها، وبالثواب المرتب عليها، وتذكير المرجع والمآل الذي حكم به ذو العزة والجلال" (١).

فهي كلمة تُصَبُّ على الفؤاد برداً ورضاً واستسلاماً، وعلى الروح والجسد سكينَةً وأماناً، فيخف وقع المصاب على قدر استحضارها، والأجر الموعود من الودود لأي مصيبة كانت دينية أو دنيوية، صغيرة أو كبيرة كما دلّ التنكير (مصيبة) في سياق الشرط (ما من) والله تعالى أعلم وأحكم.

(٩) الصفة المقيدة (الإيواء) العلية

❁ السُّنَّة النَّبَوِيَّة: عن أبي واقد الليثي: أن رسول الله ﷺ بينما هو جالسٌ في المسجد والناس معه، إذا أقبل ثلاثة نفر، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ، وذهب واحد، قال: فوقفنا على رسول الله، فأما أحدهما فرأى فرجةً في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً، فلما فرع رسول الله ﷺ قال: «... ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله...» (٢).

❁ المَعْنَى فِي اللُّغَةِ: أوى: انضمَّ، ورجع إليه، يقال: أوى إلى كذا: انضمَّ إليه، وأويْتُ له: رحمته، وتحقيقه: رجعتُ إليه بقلبي: ﴿أَوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف: ٦٩]، أي: ضمَّه إلى نفسه (٣).

❁ المَعْنَى فِي الشَّرْع: هذه الصفة كأخواتها من الصفات المقيدة على وجه الجزاء بالمتوبة، والتي تتضمن: كمال رحمة الله، وفضله، وإحسانه، وعدله، وإرادته للخير للعبد، وعلى هذا "فإن الله تعالى يقابل إيواء العبد إليه بأن يؤويه، (ويقربه) إليه، حيث إنه لما أوى العبد إلى ربه ﷻ ولجأ إليه، قابله ربُّه وجزاه بقبول ذلك الإيواء منه، بأن ضمَّه وألجأه إليه.

ومن كانت هذه حاله، حصل له من الخير والنعيم والفضل من الله تعالى، ما يكون جزاءً له وثواباً على إيوائه" (٤).

(١) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» للقرطبي (٤٥٤/٢).

(٢) البخاري (٦٦)، ومسلم (٢١٧٦).

(٣) «المفردات» (١٠٣)، و«النهاية» (٥٣).

(٤) «عقيدة أهل السنة في صفات الله الواردة على سبيل المقابلة» (١٥٠).

(١٠) الصفة المقيدة (الإقالة) العلية

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «من أقال مسلماً أقال الله عثرته يوم القيامة»^(١).

﴿المَعْنَى فِي اللَّغَةِ﴾: أقاله: أي رفعه من سقوطه، والمعنى هنا: وافقه على نقض البيع أو البيعة وأجابه إليه، والإقالة تجري في البيعة والعهد أيضاً^(٢).

﴿المَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: أخبر النبي ﷺ على أن الله ﷻ يقابل إقالة العبد لأخيه المسلم في الدنيا، بأن يقل عثرته في الدنيا والآخرة، إقالة بإقالة، إلا أن الجزاء أعظم من العمل، إذ الجزاء يوم القيامة في وقت العثرة الكبرى، في وقت لا يمكن لأحد أن يقل أحدًا، إلا مالك الملك، فهو يقل من يشاء من عباده رحمة منه وفضلاً، إلا أن إقالة الله ليست من جنس إقالة العباد لبعضهم، وإن اتفقتا في المعنى العام، وهو رفع الساقط بعد عثرته، إلا أنه عند الإضافة لله تعالى لا يتوهم فيها شيء من خصائص المخلوقين^(٣).

وقوله ﷺ: «من أقال مسلماً» أي: وافقه في فسخ البيع، وصور إقالة البيع: إذا اشترى أحد شيئاً من رجل، ثم ندم على شرائه، إما لظهور الغبن فيه، أو لزوال حاجته إليه، أو لانعدام الثمن، فرد المبيع على البائع، وقبل البائع^(٤).

«أقال الله عثرته»: أزال الله تعالى مشقته وعثرته يوم القيامة^(٥)، وذلك لما فيه من إدخال المسرة على المستقيل، فإنه لا يستقيل إلا نادماً، فأقالته تفرج لكربته وإزالة لندامته^(٦).

وقد جاء في بعض الروايات من غير زيادة «يوم القيامة»^(٧)، ليدل على أن إقالة الله تعالى لعبده المقل قد تعم الدنيا كذلك، وهذا فيه عظيم فضل الله تعالى على عباده، إلا أنه لا مقارنة بين عثرة الدنيا وعثرة الآخرة، فالإقالة في نشر الصحف ووضع الموازين أعظم نفعاً للعبد من إقالة الدنيا^(٨).

(١) صحيح ابن ماجه (٢١٩٩).

(٢) «فيض القدير» (٧٩/٦)، و«إنجاز الحاجة شرح سنن ابن ماجه» (٤٨٥/٥)، و«جامع الأصول» (٤٤١/١).

(٣) «عقيدة أهل السنة في صفات الله الواردة على سبيل المقابلة» (١١٨، ١٢٠ - ١٢١).

(٤) «إنجاز الحاجة شرح سنن ابن ماجه» (٤٨٥/٥).

(٥) «عون المعبود شرح سنن أبي داود» (٣١٥/٦).

(٦) «التنوير شرح الجامع الصغير» (١٣٠/١٠).

(٧) كما في صحيح أبي داود (٣٤٦٠).

(٨) «عقيدة أهل السنة في صفات الله الواردة على سبيل المقابلة» (١٢٠).

أما تفسير إقالة الله لعباده بغفران الذنوب والتجاوز والصفح عنه ، فهذا ليس تفسيراً لمعناها ، وإنما هو تفسير لها بلازمها وأثرها وما يترتب عليها ، وإلا فمعناها الحقيقي : هو رفع من سقط في الذنب والمعصية إثر عثرة زلت به ، وأثرها أن يعفو عنه ، ويغفر له زلته^(١).

﴿ (١١) الصفة المقيدة (التصير) العلية ﴾

﴿ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ ﴾ : قال رسول الله ﷺ : « ... من يتَصَبَّرْ يُصْبِرْهُ اللهُ ، ومن يستغْنِ يُغْنِهِ اللهُ ، ولن تعطوا عطاءً خيراً وأوسع من الصبر »^(٢).

﴿ الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ ﴾ : يتصبر : من الصبر ، وأصله : الحبس ، وهو الإمساك في ضيق ، والصبر : حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع ، أو عملاً يقتضيان حبسها عنه^(٣).

﴿ الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ ﴾ : من أوصاف ربنا العلا الاختيارية : أنه هو الصبور^(٤) الذي لا أحد أصبر منه على الإطلاق ، وهو العظيم الجليل الغني عن كل الخلائق ، وهو كما تقدّم أنه تعالى يحبُّ من عباده أن يتعبّدوا بمقتضى صفاته ، وأنها من أعظم الوسائل والطرائق في السير إلى عبوديته .

فمن عبودية هذه الصفة ومقتضاها : أن يكون العبد صبوراً ، ولهذا قال ﷺ : « ومن يتصَبَّرْ ، بالفعل المضارع الذي يفيد التكرار والاستمرار ؛ لأنَّ العبد يحتاجه في آناء الليل والنهار على مشاقِّ الحياة التي لا تنفكُّ عنه ، "أي : يستعمل الصبر ويجاهد ويعالج نفسه عليه" »^(٥).

فإن المجاهدة على الطاعة أعظم وسائل الثبات على الهداية كما قال ربُّ العزة : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

قوله : « يُصْبِرْهُ اللهُ » أي : يقوّيه ويمكّنه من نفسه حتى تنقاد له ويدعن لتحمل الشدة ، فعند ذلك يكون الله معه فيظفره بمطلوبه^(٦) ، فيكون الصبر حليته في ظاهره وباطنه أيّاً كان ترحاله .

(١) المصدر السابق (١٢١).

(٢) البخاري (١٤٦٩) ، ومسلم (١٠٥٣).

(٣) «المفردات» (٤٧٤).

(٤) تقدم في الصفات الفعلية المطلقة رقم (٢٤) تخريج الحديث وشرح الصفة.

(٥) ينظر : «الفتح» (٣٦٩/١١) ، و«المفهم» للقرطبي (٩٩/٣).

(٦) «الفتح» (٣٦٩/١١).

وعلى هذا: فإن "التصبر فعل الله تعالى ، والصبر القائم بقلب العبد مفعوله المخلوق" (١).



(١٢) الصفة المقيدة (الصدق) العلية



✽ السُّنَّة النَّبَوِيَّةُ: قال رسول الله ﷺ: «إِنْ تَصَدَّقِ اللَّهَ يَصْدُقْكَ» (٢).

✽ المَعْنَى فِي الشَّرْحِ: الصدق صفة من أوصاف الكمال العلا لله ، ولهذا فإن الاتصاف بها من عباده له موقعٌ وذمةٌ عظيم عند ربنا سبحانه ، ولذلك فإن الله تعالى يجزي المتعبّد به أجراً موفوراً على قدر صدقه .

قوله ﷺ: «إِنْ تَصَدَّقِ اللَّهَ» أي: "إن كنت صادقاً فيما تقول وتعاهد الله عليه" (٣) ، ففيه أنه ﷺ لا يعلم من أحوال القلوب والثبات إلا ما أعلمه الله ، ولذا جاء بالشرطية ، وأتى بإن دون إذا لصعوبة هذه النية ، وأنه لا يحصل الجزم بها (٤).

وقوله: «يَصْدُقْكَ» ، أي: يجزيك على صدقك بإعطاء ما تريده (٥) ، وفيه: أن من أراد من الله تعالى أمراً دينياً (عالياً) بصدق عزيمة أعطاه الله تعالى إياه (٦).



(١٣) الصفة المقيدة (الكف) العلية



✽ السُّنَّة النَّبَوِيَّةُ: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ كَفَّ اللَّهُ عَنْهُ عَذَابَهُ» (٧).

✽ المَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الكف: من الكفاية ، وهي: سدُّ الخُلَّةِ ، وبلوغ المراد في الأمر ، وكفى

(١) «عقيدة أهل السنة والجماعة في صفات الله تعالى الواردة على سبيل المقابلة (١٨٩).

(٢) صحيح النسائي (١٩٥٣) ، وأصل الرواية: عن شداد ﷺ أن رجلاً من الأعراب جاء إلى النبي فآمن به واتبعه ، ثم قال: أهاجر معك ، فأوصى به النبي بعض أصحابه ، فلما كانت غزوة غَزِمَ النبي ﷺ سبياً ، فقسم وقسم له ، فأعطى أصحابه ما قسم له ، وكان يرعى ظهرهم ، فلما جاء دفعوه إليه ، فقال: ما هذا؟ قالوا: قسمه لك النبي ، فأخذه فجاء به إلى النبي فقال: ما هذا؟ قال: «قِسْمَةٌ لَكَ» قال: ما على هذا اتبعتك ، ولكني اتبعتك على أن أرمي إلى هاهنا ، وأشار إلى حلقه سهم ، فأموت فأدخل الجنة ، فقال ﷺ: «إِنْ تَصَدَّقِ اللَّهَ يَصْدُقْكَ» ، فلبثوا قليلاً ثم نهضوا في قتال العدو ، فأتي به النبي يُحْمَلُ قد أصابه سهم حيث أشار ، فقال النبي: «أهو هو؟» قالوا: نعم ، قال: «صدق الله فصدقه» .

(٣) «حاشية السندي على النسائي» (٣٦٢/٤).

(٤) «التنوير شرح الجامع الصغير» (٥٧٦/٦).

(٥) «حاشية السندي» (٣٦٢/٤).

(٦) «التنوير» (٥٧٦/٦).

(٧) «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٢٣٦٠) (٤٧٥/٥).

الشيء يكفي كفاية فهو كافٍ: إذا حصل به الاستغناء عن غيره^(١).

✽ **المَعْنَى فِي الشَّرْح:** من كمال الله سبحانه أنه يريد من عباده أن يتصفوا بالصفات الكريمة ، والبعد عن الصفات الذميمة والتي من أشدّها: الغضب الذي هو من أعظم الأسباب في حصول التعديّ والبغي والظلم في الغالب ، وحصول بسبب كثيرًا من الهلكات ، ولهذا فإنه سبحانه يقابل من يكفّ غضبه وهو من الأمور الصعبة في مسلك زمامها ، فإنه تعالى يكفّ عن عبده عذابه ، ولا يخفى أنه لا مقارنة بين تحمل مشقة جماع الغضب في الدنيا ، بشدّة العذاب في الأخرى ، فإن في ذلك لآية لمن اتقى .

١٤) الصفة المقيدة (الوصل) العلية

✽ **السُّنَّة النَّبَوِيَّة:** ١ - قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه ، قالت الرحم: هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال: نعم ، أما ترضين أن أصِلَ من وصلك ... ، قالت: بلى يا رب ، قال: فهو لك»^(٢).

٢ - وقال ﷺ: «من وصل صفًا وصله الله...»^(٣).

✽ **المَعْنَى فِي اللُّغَةِ:** الوصل: الاتصال والبلوغ ، وهو يدلُّ على ضمّ شيءٍ إلى شيءٍ حتى يعلقه ، وكل شيءٍ اتصل بشيءٍ فما بينهما وصلة^(٤).

✽ **المَعْنَى فِي الشَّرْح:** من حكمة الله تعالى ولطفه محبته لكل ما يقرب بين المؤمنين ويشد سبل الألفة والتآزر فيما بينهم ، حتى يكونوا كالجسد الواحد ، ولذلك يقابل ويجازي عبادة بمقتضى أفعاله الحميدة والتي منها: (الوصل) ، وجاءت هذه الصفة على جهة المقابلة بحسن الجزاء على نوعين:

الأول: في صلة الأرحام ، كما في قوله: «أما ترضين أن أصِلَ من وصلك»: أي: «أن الله تعالى يصل عبده مقابلة له على وصله لرحمه»^(٥) ، وكلما كان الإنسان لرحمه أوصل ، كان الله له

(١) «المفردات» (٧١٩) ، «المصباح المنير» (٣١٠).

(٢) قال رسول الله ﷺ: «فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفِشُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾» [محمد: ٢٢]. البخاري (٥٩٨٧) ، ومسلم (٢٥٥٤).

(٣) صحيح أبي داود (٦٦٦).

(٤) «المصباح» للجوهري (١١٤٣) ، و«مقاييس اللغة» (٩٥٧).

(٥) «عقيدة أهل السنة في صفات الله» (١٦١).

أوصل^(١)، وصلة العبد لرحمه تكون: بالإحسان إليهم والعطف والسؤال.

الثاني: في وصل الصف في الصلاة: «ومن وصل صفًا وصله الله»: أي: "من انضمَّ إلى صفٍّ ليصله بالحضور فيه وسدَّ الخلل منه، وبوقوفه فيه"^(٢)، «وصله الله»، أي: ضمَّه وقربه إليه، ولم يذكر متعلق الوصل، لإفادة العموم من كل وجه في الدنيا والآخرة، أي: وصله الله "برحمته، وغفرانه، ورفع درجته، وقربه من منازل الأبرار، ومواطن الأخبار"^(٣).

فمن وصله الله، وصل إلى كل خير وسعادة في الدنيا، والآخرة، ولا بُدَّ أن تكون نهايته مجاورة ربِّه في الفردوس، لأن الوصل لا ينتهي إلا إلى هناك، فينظر إلى وجه ربه الكريم^(٤).

﴿١٥ - ١٦﴾ الصفتان المقيدتان (التنفيس) و(التفريج) العليتان

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: ١﴾ قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربةً من كُرب الدنيا، نفس الله عنه كربةً من كُرب يوم القيامة»^(٥).

٢) وقال ﷺ: «... ومن فرَّج عن مسلم كربةً، فرَّج الله عنه كربةً من كربات يوم القيامة»^(٦).

﴿المَعْنَى فِي اللَّغَةِ: نفس: كل شيء يفرج به عن مكروب، يُقال: "نفس الله عنه كرفته"، أي: فرَّجها، والتنفيس هو الترويح، يقال: "نفس الله عنك الكرب"، أي: أراحك منه^(٧)، فرَّج: كشف، يقال: "فرَّج الله الغم" بالتشديد: كشفه، والفرج: انكشاف الكرب، وذهاب الغم"^(٨).

﴿المَعْنَى فِي الشَّرْع: بين هاتين الصفتين "عمومٌ وخصوصٌ"، فكلُّ تفريجٍ تنفيس، وليس

(١) «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (١٠٩/٢).

(٢) «التنوير شرح الجامع الصغير» للصنعاني (٢٥/٣)، «عون المعبود» (٧٥/٢)، و«فيض القدير» (٣٤١/٢).

(٣) «فيض القدير» (٣٤١/٢)، و«التنوير» (٢٥/٣).

(٤) «شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري» للعلامة عبد الله الغنيمان (٦٧٧/٢).

(٥) مسلم (٢٦٩٩).

(٦) البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).

(٧) «مقاييس اللغة» (٩١٠)، و«الصحاح» (١٠٥٨)، و«مدارج السالكين» (١٣٩/٣).

(٨) «لسان العرب» (٢٩/١٠)، و«المصباح المنير» (٢٦٩).

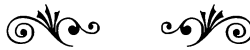
كل تنفيسٍ تفريجاً، وذلك: أنَّ تفريج الكروب أعظم من تنفيسها، إذ التفريج إزالتها بالكلية، فتفرج عن المكروب كربته، ويزول همه وغمه، وأما التنفيس فهو تخفيفها.

وهذا كما تقدّم يرجع إلى أنَّ الجزاء: من جنس العمل، فجزاء التنفيس التنفيس، وجزاء التفريج التفريج جزاءً وفاقاً^(١).

قوله: «فَرَجَ اللهُ عنه من كرب يوم القيامة»: خُصَّ التنفيس والتفريج يوم القيامة، إذ كُربُه لا تقارن بكرب الدنيا^(٢)، "لأنَّ كرب الدنيا بالنسبة إلى كرب الآخرة كلا شيء، فادّخر الله جزاء تنفيس الكرب عنده، لينفس به كرب الآخرة"^(٣).

لأنها هي الدار الباقية، ودلّ كذلك على "أنَّ المجازاة قد تكون في الآخرة من جنس الطاعة في الدنيا"^(٤).

والجزاء الموعود في يوم الخلود في تفريج الكروب من المخلوق إلى المخلوق، بأي نوع يكون التفريج من الخطوب، كما دلّ على ذلك: النكرة في سياق الشرط، والتي تفيد العموم، ف"نعم جميع الكرب المالية، والنفسية، والبدنية"^(٥)، فيدخل في "تفريجها: من أزالها بعلمه، أو ماله، أو جاهه، أو مساعدته، والظاهر أنه يدخل فيه من أزالها بالنصيحة، وإشارته، ورأيه، ودلالته وغير ذلك"^(٦).



(١) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢٨٥/٢ - ٢٨٧)، و«دليل الفالحين» (١٩/٣).

(٢) «عقيدة أهل السنة والجماعة في صفات الله الواردة على سبيل المقابلة» (١١٥).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢٨٧/٢).

(٤) «شرح النووي لصحيح مسلم» (٣٨٠/٨) (٢٨/٩).

(٥) «عقيدة أهل السنة والجماعة في صفات الله الواردة» (١١١).

(٦) «عمدة القاري» (٤٠٦/١٢).

القسم الثاني من الصفات الفعلية المقيدة: الصفات المقيدة على وجه العقوبة:

وهي: الصفات الفعلية المقيدة على وجه المُقابلة في الجزاء بالعقوبة ، وهي نوعان:

النوع الأول: العقوبة من جنس الفعل ونوعه ، أي: أن الله تعالى يجازي العامل بمثل عمله^(١).

النوع الثاني: العقوبة من غير جنس الفعل ونوعه^(٢).

يقول ابن القيم رحمه الله: "هذا بابٌ واسعٌ جداً عظيم النفع ، فمن تدبَّره يجده متضمناً لمعاقبة الرب سبحانه من خرج عن طاعته بأن يعكس عليه مقصوده شرعاً وقدرًا ، دنيا وأخرى"^(٣).

القواعد والضوابط

❖ القاعدة الأولى: «أن الصفة إذا كانت كمّالاً في حال ، ونقصاً في حال ، فما يثبت لله تعالى منها هو حال الكمال المُقَيَّد»^(٤).

فهذا النوع من صفات الأفعال لا تطلق على الله تعالى على وجه الإطلاق بل على وجه المُقابلة ، لأن هذا النوع من «الصفات فيها نوعان: قبيح: وهو إيصال ذلك لِمَنْ لا يستحقّه ، وحسن: وهو إيصاله إلى مَنْ يستحقّه ، عقوبة له ، فالأول: مذموم ، والثاني: ممدوح ، والرَّبُّ سبحانه إنّما يفعل من ذلك ما يُحمد عليه عدلاً منه ، وحكمة»^(٥).

وبذلك كانت هذه الصفات على وجه التقييد كمّالاً لأنها على وجه المجازاة والعقوبة

(١) فمن مكر مكر به ، ومن خادع خادعه ، ومن عامل خلقه بصفة عامله الله تعالى بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة كما سيأتي .

(٢) كالخزي ، والانتقام ، والخم ، والطع ، والاستدراج ، عقوبة للكافرين والمعاندين والعاصين .

(٣) «إعانة اللهفان من مصائد الشيطان» (٤٤٦) ويقول رحمه الله: وقد اطردت سنته الكونية سبحانه في عبادته بأن من مكر بالباطل مكر به ، ومن احتال احتيل عليه ، ومن خادع غيره خدع ... إلى آخر كلامه .

(٤) انظر هذه القاعدة في: «مجموع الفتاوى» (١١١/٧) ، و«الفوائد» (١٨٢) ، و«بدائع الفوائد» (١٥٢/٤) ، و«مختصر الصواعق المرسلة» (٢٩١/٢) ، و«الوابل الصيب من الكلم الطيب» (٥٤) ، و«شرح القواعد المثلى» لابن عثيمين (٣٠) .

(٥) «إعلام المُوقَّعين عن رَبِّ العالمين» (٢١٨/٣) .

بنفس الفعل جزاءً وفاقاً لِمَنْ اتصف بها، لأن الله ﷻ يُجازي عباده بحسب ما يقوم بهم من الصفات مدحاً، وقبحاً، وهذا غاية العدل والقسط، والحكمة «فمن مكر: مكر به، ومن خادع: خادعه... فمكره سبحانه الذي وصف به نفسه: هو مُجازاته للماكرين بأوليائه، ورسله، فيُقابل مكرهم السيئ بمكره الحسن، فيكون مجازاة، وكذلك المُخادعة منه: جزاء على مخادعة رسله وأوليائه، فلا أحسن من تلك المخادعة، والمكر»^(١).

❁ القاعدة الثانية: «أن الصفة إذا كانت نقصاً في كل حال، فإنها لا تطلق على الله في أي حال».

مثل صفة الغدر والخيانة، فإنها مذمومة من كل وجه، لأن الخيانة معناها: الخديعة في مقام الائتمان، ولهذا فإن النبي ﷺ قال: «ولا تخن من خانك»^(٢).
ولذا: لما ذكر سبحانه خيانة الكافرين له، لم يقابلهم بنفس صنيعهم، فقال سبحانه: ﴿وَلِإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧١]^(٣).



(١) انظر: «الفوائد» (١٨٢ - ١٨٣).

(٢) صحيح أبي داود (٣٥٣٥).

(٣) انظر: «تفسير سورة البقرة» (٥٨/١)، و«شرح الواسطية» (٢٦٢/١) لابن عثيمين.

النوع الأول: العقوبة من جنس الفعل ونوعه:

(١) الصفة المقيدة (المَكْر) الكمالية

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] (١).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: كان من دُعاء النبي ﷺ: «رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنِّ عَلَيَّ، وَانصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ» (٢).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ﴾: المكر في الأصل: إخفاء الحيلة، وهو الخديعة، وهو التوصل بالأسباب الخفية إلى الإيقاع بالخصم، دون أن يشعر ويعلم (٣).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: هذه أول الصفات الكمالية المقيدة التي يوصف الله تعالى بها على وجه المُقابلة على من عامل الله تعالى بها، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾؛ أي: أقواهم، وأقدرهم مكرًا، فكون الله تعالى أشدَّ مكرًا منهم، فهذا صفة كمال، ولهذا يتبين أن الله تعالى أعلى وأعظم من هؤلاء الماكرين على الإطلاق.

وبهذا القيد يكون كمال من كل وجه، لأنه سبحانه لم يقل: أمكر الماكرين، بل قال: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ فيكون مكره خيرًا، ولهذا يصح أن نصفه سبحانه بذلك، فنقول: هو خير الماكرين، أو نصفه بصفة المكر في سبيل المُقابلة، أي: مقابلة من يمكر به، فنقول: إنَّ الله تعالى ماكر بالماكرين، لقوله سبحانه: ﴿وَيَمَكُرُونَ وَيَمَكُرُ اللَّهُ﴾ [الأنفال: ٣٠].

وبهذا علم أن الله تعالى يتصف بالمكر الحسن الذي لا أحسن ولا أكمل منه، وهو إيصال ما يُريد لمن يستحقه على وجه الجزاء العادل الذي لا جور فيه، ولا ذمٍّ، بخلاف غيره من خلقه، فإنَّ مكرهم شيء مذموم، لأنهم يضعونه في غير محله أي: بمن لا يستحقه، فهو خيانة وغدر (٤).

(١) وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ [يونس: ٢١]. وقال: ﴿وَمَكْرُوا مَكْرًا وَمَكْرًا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠].

(٢) «صحيح أبي داود» (١٥١٠).

(٣) «عمدة الحفاظ» (١٠٣/٤)، و«القاموس المحيط» (١٢٣٧)، و«إعلام الموقعين» (٢١٨/٣)، و«شرح العقيدة الواسطية»

لابن عثيمين (٦٩/٢).

(٤) انظر «شرح العقيدة الواسطية» (٦٩/٢) و«شرح عقيدة أهل السنة» (١٨٨) لابن عثيمين، و«اللائح البهية» (٤٥٢/١).

(٢) الصفة المقيدة (الكَيْد) الكمالية

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قَالَ ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ ١٦﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٧﴾ فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رُودًا﴾ [الطارق: ١٦] (١).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الكيد: ضرب من الاحتيال، وغلب في المكر، وقد يكون مذموماً، وممدوحاً، وإن كان يستعمل في المذموم أكثر، فمن الممدوح: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦]، وقوله: ﴿وَأَمْلِ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣] (٢).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: هذه الصفة المقيدة كسابتها ولاحقها من الصفات التي لا يجوز إطلاقها في حق الله تعالى إلا على جهة الجزاء، وليست من النوع الذي يُمدح فاعله على الإطلاق، لأنها في مُقابلة من يعامل الفاعل بِمِثْلِ فعله، وهي تدلُّ على أن فاعلها قادرٌ على مُقابلة عدوه بِمِثْلِ فعله أو أشد (٣)، ولهذا كانت في هذا المقام كمال ما بعده كمال.

وقد قَصَّ لَنَا رَبُّنَا ﷻ كَيْفَ يَكِيدُ كَفَارَ مَكَّةَ لِلرَّسُولِ ﷺ كَيْدًا عَظِيمًا كَمَا دَلَّ التَّنْكِيرُ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾، ولكن الله تعالى يَكِيدُ بِهِمْ كَيْدًا عَظِيمًا وَأَشَدَّ مِنْ كَيْدِهِمْ جَزَاءً وَفَاقًا، عَدْلًا مِنْهُ عَزَّ شَأْنُهُ، فَقَالَ: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ (٤).

فَقَابَلَ سَبْحَانَهُ كَيْدَهُمْ بِكَيْدٍ لَا نَظِيرَ وَلَا مِثْلَ لَهُ، كَمَا دَلَّ التَّنْكِيرُ (٥) «والتنكير فيها: للتعظيم، وهكذا يَكِيدُ اللهُ ﷻ لِكُلِّ مَنْ انْتَصَرَ لِدِينِهِ، فَإِنَّهُ يَكِيدُ لَهُ، وَيُؤَيِّدُهُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦]، يعني: عملنا عملاً حصل به مقصوده دون أن يشعر به أحد، وهذا من فضل الله ﷻ على المرء: أن يقيته شرَّ خصمه على وجه الكيد، والمكر على هذا الخصم الذي أراد الإيقاع به» (٦).

(١) وقال عز شأنه: ﴿وَأَمْلِ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٣]، وقال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦].

(٢) «المُفْرَدَات» (٧٢٨)، و«عمدة المُقَاطَظ» (٤٤١/٣).

(٣) «القواعد المُثَلَّى» لابن عثيمين (٢٩).

(٤) ومن كيدهم ومكرهم به ﷻ ما ذكره في سورة الأنفال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾: الأول: (ليثبتوك) يعني: يجسوك. الثاني: (يقتلوك) يعني: يعدموك. الثالث: (يخرجوك) يعني: يطردوك. «شرح العقيدة الواسطية» لابن عثيمين (٧٠/٢) بتصرف يسير.

(٥) وتأكيده بالمصدر في قوله تعالى: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾.

(٦) المصدر السابق (٧١/٢).

وهذا الكيد كما تقدّم هو الحسن الممدوح الذي يُحمد عليه عدلاً منه، وحكمة، بل وفضلاً منه لأوليائه، لأنه سبحانه يكيد لمن يُواليه، ويكيد لمن يُعاديّه.

ومن الاستقراء للنصوص «أن كيد الله تبارك وتعالى لا يخرج عن نوعين:

أحدهما - وهو الأغلب -: أن يفعل تعالى فعلاً خارجاً عن قدرة العبد الذي كاد له، فيكون الكيدُ قدرًا زائداً محضاً، ليس هو من باب الشرع، كما كاد أعداء الرسل بانتقامه منهم بأنواع العقوبات، وكذلك كانت قصة يوسف.

والنوع الثاني من كيده سبحانه لعبده المؤمن: هو أن يُلهمه تعالى أمراً مُباحاً، أو مستحباً، أو واجباً يوصله به إلى المقصود الحسن، فيكون على هذا: إلهامه ليوسف أن يفعل ما فعل، هو من كيده تعالى، وقد دلّ على ذلك قوله: ﴿رَفَعُ دَرَجَتِي مِّنْ نَّشَأِي﴾ [يوسف: ٧٦]...»^(١).

فكاد له كما كادت إخوته لما قال له أبوه: ﴿لَا تَقْصُصْ رَأْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]^(٢).

وصور كيده سبحانه لأعدائه، وأعداء رسله، وأصفيائه كثيرة ومتنوعة، منها: أنه يستدرجهم من حيث لا يعلمون، قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٨٢-١٨٣]؛ أي: أنه تعالى يواتر نعمه عليهم مع انهماكهم في الغي، حتى يغتروا بما هم فيه من الخير، ظانين أن النعم عليهم أثرة من الله تعالى وتقريب، وإنما هو خُذلان وتبعد، لأنه من كيده سبحانه القوي الشديد^(٣).



(٣) الصفة المقيدة (الزَّيغ) الكمالية



﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال ربُّ العالمين: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

[الصف: ٥].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان أكثر دعائه ﷺ: «يا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»، فقالت: يا رسول الله! ما أكثر دعائك يا مقلب القلوب ثبت قلبي على

(١) انظر: «إعلام الموقعين» (٢١٩/٣).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١١/٧).

(٣) «تفسير السنفي» (٣٩٧)، وابن كثير (٣٦٩/٢) بتصرف.

دينك؟ قال: «يا أُمَّ سلمة! إنه ليس آدمي إلَّا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام، ومن شاء أزاغ»، فتلا معاذ قوله: ﴿رَبَّنَا لَا تُرِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ [آل عمران: ٨] (١).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الزَّيْغُ: الْمَيْلُ عَنِ الِاسْتِقَامَةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ [الأحزاب: ١٠] كناية عن شدة الخوف، وذلك أن الخائف لا يستقرُّ له بصر (٢).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: وَصَفَ رَبَّنَا نَفْسَهُ بِفِعْلِ الزَّيْغِ مُقَابِلَةً لِمَنْ زَاغَ مِنَ الْوَرَى، عَنْ اتِّبَاعِ الْهُدَى، وَاتَّبَعَ الْهَوَى، فَكَانَ عَقُوبَةُ وَجْزَاءً عَدْلًا مِنْهُ تَعَالَى.

وقد جاء هذا الفعل المقيد في إخباره سبحانه لِنَبِيِّهِ ﷺ عن قول موسى عليه السلام لِقَوْمِهِ مُؤَبِّخًا لَهُمْ عَلَى صَنِيعِهِمْ، وَمُقَرَّرًا لَهُمْ عَلَى أَذِيَّتِهِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْهِمْ: ﴿يَقُولُ لِمَ تُوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾، وَكَانَ مِنَ الْمُفْتَرَضِ أَنْ يَكُونَ لِلرَّسُولِ الْإِكْرَامُ وَالتَّوْقِيرُ، وَالتَّعْظِيمُ، وَالْإِنْقِيَادُ لِأَمْرِهِ الَّتِي جَاءَ بِهَا عَنْ رَبِّهِ ﷻ، فَلَمَّا قَابَلُوا ذَلِكَ بِالزَّيْغِ وَهُوَ الْعُدُولُ عَنْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ مَعَ عِلْمِهِمْ بِهِ ﴿أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾: عَقُوبَةُ لَهُمْ عَلَى زَيْغِهِمْ الَّتِي اخْتَارُوهَا لِنَفْسِهِمْ، وَرَضَوْهُ لَهَا، وَلَمْ يُوفِّقَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْهُدَى، لِأَنَّهُمْ لَا يَلِيقُ بِهِمُ الْخَيْرُ، وَلَا يَصْلَحُونَ إِلَّا لِلشَّرِّ (٣).

وهذه العقوبة على الذنب بالذنب (٤)، جزاءً وفاقاً بالحق، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾؛ أي: «الذين لم يزل الفسق وصفاً لهم، لا لهم قصد في الهدى، وهذه الآية الكريمة تفيد أن إضلال الله تعالى لعباده ليس ظُلماً منه، ولا حجة لهم عليه، وإنما ذلك بسببٍ منهم، فإنهم (هم) الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى بعدما عرفوه، فيُجازيهم بعد ذلك بالإضلال والزَيغ الذي لا حيلة لهم في دفعه، وتقليب القلوب عقوبة لهم، وعدلاً منه تعالى بهم، كما قال سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٥) [الأنعام: ١١٠].

(١) صححه الألباني في «صحيح الترمذي» (٣٥٢٢)، وفي «ظلال الجنة» (٢٢٣).

وقال ﷺ: «... ولا يزال من أمتي أمة يُقاتلون على الحق، ويَزِيغُ الله لهم قلوب أقوام، ويرزقهم منهم حتى تقوم الساعة» صححه الألباني في «صحيح النسائي» (٢٥٦١)، وفي «السلسلة الصحيحة» وقال: وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم (١٩٣٥).

(٢) «عمدة الحفاظ» (١٥٧/٢).

(٣) انظر: «تفسير ابن كثير» (٤٧٣/٤)، وتفسير السعدي (٨٥٩).

(٤) تفسير ابن عطية (٣٠٢/٥).

(٥) تفسير السعدي (٨٥٩).



(٤) الصفة المقيدة (الخِذَاع) الكمالية



﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال ﷺ: ﴿إِنَّ الْمُتَوَفِّينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِّعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: عن الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ أَنَّهُ كَانَتْ عِنْدَهُ أُمُّ كَلْثُومَ بِنْتُ عَقْبَةَ، فَقَالَتْ لَهُ وَهِيَ حَامِلٌ: طِيبْ نَفْسِي بِتَطْلِيقَةٍ، فطَلَّقَهَا تَطْلِيقَةً، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ، فَرَجَعَ وَقَدْ وَضَعَتْ، فَقَالَ: مَا لَهَا خَدَعَتْنِي، خَدَعَهَا اللَّهُ، ثُمَّ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: «سَبَقَ الْكِتَابُ أَجْلَهُ، اخْطُبُهَا إِلَى نَفْسِهَا»^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ﴾: الخِذَاعُ: إِخْفَاءُ الشَّيْءِ، وَهُوَ إِرَادَةُ الْمَكْرُوهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ، أَيْ: إِنْزَالُ الْغَيْرِ عَمَّا هُوَ بِصَدَدِهِ بِأَمْرِ يَبْدِيهِ عَلَى خِلَافِ مَا يُبْطِنُهُ، وَيُخْفِيهِ^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: وَصَفَ رَبُّنَا عِزُّ شَأْنِهِ نَفْسَهُ بِالْخِذَاعِ عَلَى مَنْ يُخَادِعُهُ، وَهَذَا عَلَى جِهَةِ الْمُقَابَلَةِ، يَدُلُّ كَمَا تَقَدَّمَ عَلَى الْمَدْحِ، وَالْكَمَالِ، «لَأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى قُوَّةِ الْمُخَادِعِ، لَأَنَّهُ أَشَدُّ مَكْرًا مِنْ عَدُوِّهِ، وَأَشَدُّ خِدَاعًا»^(٣)، أَمَا إِذَا كَانَ لَيْسَ لَهُ سَبَبٌ، وَكَانَ خِدَاعًا فِي مَوْضِعِ الْإِثْمَانِ، فَإِنَّهُ لَا يُسَمَّى خِدَاعًا، وَإِنَّمَا يُسَمَّى خِيَانَةً، وَهَذَا ذَمٌّ وَعَيْبٌ بِكُلِّ حَالٍ، وَلِهَذَا لَا يَوْصَفُ اللَّهُ ﷻ بِالْخَائِنِ مُطْلَقًا، حَتَّى الَّذِينَ يَخُونُونَ اللَّهَ لَا يُقَابَلُهُمْ بِالْخِيَانَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ [الأنفال: ٧١]، وَلَمْ يَقُلْ: فَخَانَهُمْ، حَتَّى أَنْ الرَّسُولَ ﷺ قَالَ: «لَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»^(٤) (٥).

وَخِدَاعُهُ سَبْحَانَهُ لِأَعْدَائِهِ يَكُونُ فِي الدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَفِي الدُّنْيَا: كَمَا قَالَهُ سَبْحَانَهُ: ﴿إِنَّ الْمُتَوَفِّينَ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَدِّعُهُمْ﴾ «يَعْنِي: أَنَّ اللَّهَ يُقَابِلُ خِدَاعَهُمْ بِخِدَاعٍ مِنْ عِنْدِهِ، وَمَخَادَعَتِهِ إِيَاهُمْ أَنَّهُ يُمْلِي لَهُمْ حَتَّى يَسْتَمِرُّوا عَلَى هَذَا وَيَسْتَمِرُّوهُ، فَيَبْقُونَ كُفَّارًا مَعَ شَيَاطِينِهِمْ، وَمُسْلِمِينَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَعْصِمُونَ بِهَذَا التَّفَاقُ دِمَاءَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ، وَهَذَا هُوَ خِدَاعُ اللَّهِ تَعَالَى لَهُمْ، أَنَّهُ يُمْلِي لَهُمْ لِيَسْتَمِرُّوا فِي نِفَاقِهِمْ، ثُمَّ يَخْتَمُ لَهُمْ بِسُوءِ الْخَاتَمَةِ»^(٦).

(١) صحيح ابن ماجه (٢٠٢٦).

(٢) ومنه: الْمُخْدَعُ لِمَوْضِعِ خَفِي فِي الْبَيْتِ. «كتاب العين» (٣٩٢/١)، و«عمدة الحفاظ» (٤٩١/١)، و«الصحاح» (٢٥٨).

(٣) كما قال سبْحَانَهُ: ﴿اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ [يونس: ٢١]، وَقَالَ: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

(٤) صحيح الترمذي (١٢٦٤).

(٥) «تفسير سورة النساء» لابن عثيمين (٣٦١/٢).

(٦) المصدر السابق (٣٦٠/٢).

والثاني: خِداعه لهم يوم القيامة، وهو ما ذكره سبحانه في قوله: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمَ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ كُنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَفَرَصْتُمْ وَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الحديد: ١٣ - ١٤] (١)، فقد جعل الله تعالى خِداع أوليائه خِداعاً له سبحانه، لِعَظَم شأنهم عنده تعالى، فهو سبحانه الذَّابُّ والدافع عنهم، الناصر لهم في الدنيا والآخرة، فينبغي لكلِّ عبدٍ أن يحمداً الله تعالى في الليل والنهار، وفي السرِّ والجهر أن جعله من المؤمنين، ولم يجعله من الكافرين والمنافقين (٢).

٥) الصفة المقيدة (الاستهزاء) الكمالية

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شُيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ﴾﴾ [البقرة: ١٤ - ١٥]

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الهزاء: السُّخْرِيَّةُ، وهزئ به، ومنه: سخر.

والهزو: الاستخفاف، يقال: استهزأ به يستهزئ؛ أي: استخفَّ به (٣).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: وصف الله تعالى نفسه كما في الآية المتقدمة بالاستهزاء على حقيقته التي تليقُ به، وهو على قاعدة أهل السنة والجماعة السلفية يجرى على ظاهره، وهو: أن الله ﷻ يستهزئ بِمَن يستحق الاستهزاء، وهو استهزاء حقيقي يليق بالله ﷻ، فهو استهزاء حق، ليس استهزاء يتضمن نقصاً، لأن الله تعالى كل ما وصف نفسه بوصف فهو وصف كمال لا يتطرق إليه عيب، ولا مذام، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

ولهذا إن الله لا يصف نفسه بالاستهزاء على وجه الإطلاق، وإنما وصف نفسه بالاستهزاء في مُقَابَلَةِ المستهزين بعباده المؤمنين، وهذا دالٌّ على كَمَالِهِ، وقوته، وعدم عجزه عن مُقَابَلَتِهِمْ، وأنه سبحانه أقوى، وأعظم، وأشد منهم، فالله يستهزئ بِمَن يستهزئ به، أو يرسله، أو بشرعه، جزاءً وفاقاً، وهذا من كَمَالِ حكمته سبحانه: حيث جعل سبحانه الجزاء من جنس

(١) «تفسير السعدي» (٢١١).

(٢) وأن يسأله سبحانه أن يثبت على الإسلام، كما كان يسأله خير الأنام ﷺ: (يا ولي الإسلام وأهله تَبَتَّنِي على الإسلام حَتَّى أَلْفَاكَ عليه). «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (١٤٧٦).

(٣) «لسان العرب» (٨٥/٩)، و«عمدة الحفاظ» (٢٤٩/٤).

العمل، (فكل من عامل عباده بصفة عامله الله بِمِثْلِهَا) وهذا (أيضاً) من عدل الله ﷻ، وهو ثابت في الدنيا وفي الآخرة، بل إن جزاء الله تعالى عُمومًا، دائر بين: العدل، والفضل، فهو بالنسبة لِلْعَصَاةِ عدل، وبالنسبة لِلطَّائِعِينَ فضل، وعلى هذا فمعنى قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يعني: أنه ﷻ يستهزئ بهم، ويتخذهم هُزُؤًا^(١).

ودلت الآية الكريمة وغيرها أن استهزاء الحقُّ بأعدائه سبحانه متنوع في الدارين بالفعل والقول:

ففي الدنيا: «أنه يُملي لهم، ويمهل لهم، ويمددهم، ويدعهم في هذا الطغيان يضيعون، ويتيهون»^(٢)، وهذا من استهزائه تعالى بهم جزاء لهم على استهزائهم بعباده.

ومن استهزائه تعالى بهم: أن زَيَّنَ لهم ما كانوا فيه من الشَّقاء، والحالة الخبيثة، حتى ظَنُّوا أنهم مع المؤمنين، لما كف أيدي رسول الله وأصحابه عن قتلهم، مع أنهم في الآخرة في الدَّرَكِ الأسفل من النار^(٣).

ومن استهزائه سبحانه (الكامل العدل) بهم يوم القيامة: أنه يُعطي المؤمنين نورًا ظاهرًا، فإذا مشى المؤمنون بنورهم طفئ نور المنافقين، وبقوا في الظُّلْمَة بعد الثُّور متحيرين، فما أعطاهم اليأس بعد الطمع، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقَسَ مِن تَوْرِكُمْ قِيلَ أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]^(٤).

قال مجاهد رَحِمَهُ اللهُ: «يعطون النور جميعاً (أي: المؤمنون والكافرون) يوم القيامة، فيطفأ النور من المنافقين إذا بلغوا السور، ويماز (أي: يفترق) بينهم حينئذٍ»^(٥). وهذا من أشد الاستهزاء، والعياذ بالله تعالى.

ومن الاستهزاء القولي بهم: «هو تجهيلهم وتخطئتهم فيما فعلوه... وهذا كله حق وهو استهزاء بهم حقيقة»^(٦).

(١) انظر: «أحكام من القرآن» (٩٩/١-١٠١)، و«تفسير سورة البقرة» (٥٤/١-٥٧) لابن عثيمين بتصرف يسير.

(٢) «أحكام من القرآن الكريم» (٩٨/١).

(٣) «تفسير السعدي» (٤٣)، و«تفسير سورة البقرة» لابن عثيمين (٥٤/١).

(٤) «تفسير السعدي» (٤٣).

(٥) «التفسير الصحيح» (٤٤٧/٤).

(٦) «كتاب الإيمان الكبير» لشيخ الإسلام ابن تيمية (٩٤).

ولشيخ المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله كلاماً في غاية الأهمية في إثبات هذه الصفة بعد أن ذكر الاختلاف في معناها، يقول رحمه الله: «والصواب في ذلك من القول والتأويل عندنا: أن معنى الاستهزاء في كلام العرب: إظهار المستهزئ للمستهزأ به من القول، والفعل ما يُرضيه ظاهراً، وهو بذلك من قبله، وفعله به مورثه مساءً باطناً، وكذلك معنى الخداع، والسخرية، والمكر...»^(١).

وله كلام في غاية التفاسر كذلك في الردّ على من نفى هذه الصفات المقيدة (الاستهزاء، والمكر، والخديعة) فيرجع إليه^(٢).

قال قوام أهل السنة الأصبهاني رحمه الله: «وتولى الذبّ عنهم (أي: المؤمنين) حين قالوا (أي: المنافقين): (إنما نحن مستهزون) فقال: (الله يستهزئ بهم)، وقال: (فيسخرون منهم سخر الله منهم)، وأجاب عنهم فقال: (ألا إنهم هم السفهاء)، فأجل أقدارهم أن يوصفوا بصفة عيب، وتولى المجازاة لهم، فقال: (الله يستهزئ بهم)، وقال: (سخر الله منهم)، لأن هاتين الصفتين إذا كانتا من الله، لم تكن سفهاً، لأن الله حكيم، والحكيم لا يفعل السفه، بل ما يكون منه، يكون صواباً وحكمة»^(٣).

٦) الصفة المقيدة (الإعراض) الكمالية

❁ السُّنَّة النَّبَوِيَّةُ: ١ - قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم عن النّفر الثلاثة^(٤): ... وأما الآخر فأعرض، فأعرض الله عنه»^(٥).

٢ - وقال رسول الله ﷺ: «أما لئن حلف على ماله ليأكله ظلماً، ليلقين الله ﷻ وهو عنه معرض»^(٦).

❁ المَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الإعراض: التولّي، والصد، والإعراض عن الشيء: الصد عنه^(٧).

(١) «التفسير» (١١٨/١).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) «الحجة في بيان المحجة» (١٨١/١).

(٤) أي: الذين دخلوا عليه ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه فأقبل اثنان إليه، وذهب الآخر، فأما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً.

(٥) البخاري (٦٦)، ومسلم (٢١٧٦).

(٦) صحيح مسلم (١٣٩)، و«صحيح أبي داود» (٣٢٤٥).

(٧) وأصله: من ولّى في غرضه؛ أي: ناحيته فأعرض عني من كذا، وأعرض عن الشيء: إذا ولّاه ظهره. «النهاية» (٦٠٤)، و«عمدة الحفاظ» (٥٢/٣)، و«الصالح» للجوهري (٦٩٠).

﴿المَعْنَى فِي الشَّرْعِ: جاءت صفة الإعراض المقيدة على الوجه المُقابلة لِمَنْ اتصف بها، وهذا من عدله سبحانه، وحكمته، وكمال قدرته، فَإِنَّ رَبَّنَا ﷻ يُعَامِلُ عِبَادَهُ بِتِلْكَ الصِّفَةِ بِعَيْنِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، عَلَى الْوَجْهِ الْأَكْمَلِ، فَمَنْ أَعْرَضَ عَنِ اللَّهِ، وَآيَاتِهِ، وَرَسُولِهِ، وَسَبِيلِ أَوْلِيَائِهِ، عَامِلُهُ جَزَاءً وَفَاقًا بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ، تَقْرِيعًا لَهُ مِنْ جِنْسِ فَعْلِهِ.

ففي الحديث الأول في النَّقْرِ الثلاثة: «وَأَمَّا الْآخِرُ فَأَعْرَضَ، فَأَعْرَضَ اللَّهُ عَنْهُ»: أخبر النبي ﷺ عن سبب إعراض الله تعالى عنه بد(الفاء) السببية والتعقيبية، أي: أنه سبحانه أعرض عنه بسبب إعراضه عن الجلوس في الحلقة للذكر دون عذر، وفي الحديث الثاني في إخباره ﷺ أَنَّ مَنْ أَقْسَمَ بِاللَّهِ كَذِبًا وَجَوْرًا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيُعْرِضُ عَنْهُ جَزَاءً حَسَنًا وَفَاقًا مُقَابِلَةً لِلْإِعْرَاضِ بِالْإِعْرَاضِ، فَكَمَا أَنَّهُ لَمْ يُوقِرْ وَيَعْظُمِ رَبُّهُ حَقَّ تَعْظِيمِهِ فَاسْتَهَانَ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ سَيُعَاقِبُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْإِعْرَاضِ عَنْهُ الَّذِي هُوَ أَشَدُّ مَا يَحْتَاجُهُ الْعَبْدُ فِيهِ إِلَيْهِ سُبْحَانَهُ.

واعلم رَعَاكَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ أَشَدَّ الْإِعْرَاضِ عَنِ اللَّهِ ﷻ هُوَ الْإِعْرَاضُ عَنْ ذِكْرِهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ، قَالَ عَزَّ شَأْنُهُ: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٥-١٢٦]؛ «أي: ومن أعرض عن كتابي الذي يتذكر به جميع المطالب العالية، وأن يتركه على وجه الإعراض عنه، فَإِنَّ جَزَاءَهُ أَنْ تَجْعَلَ مَعِيشَتَهُ مَشَقَّةً، وَلَا يَكُونُ كَذَلِكَ إِلَّا عَذَابًا»^(١).

وقد جعل الله ﷻ مُقَابِلَةً الْإِعْرَاضِ عَنْهُ بِالْعَذَابِ الشَّدِيدِ الدُّنْيَوِيِّ، وَالْبَرْزَخِيِّ، وَالْآخِرِيِّ لِلْإِطْلَاقِ الْمَعِيشَةِ الضَّنْكَ، وَعَدَمِ تَقْيِيدِهَا»^{(٢)(٣)}.

﴿الصفة المقيدة (العداوة) الكمالية﴾

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨].

(١) «تفسير السعدي» (٥١٥).

(٢) المصدر السابق (٥١٦).

(٣) فالدنيوي: «ضَنْكًا فِي الدُّنْيَا، فَلَا طُمَأْنِينَةَ لَهُ، وَلَا انْشِرَاحًا لِبُصْدَرِهِ، بَلْ صَدْرُهُ ضَيْقٌ حَرَجٌ لَضَلَالِهِ، وَإِنْ تَنَعَّمَ ظَاهِرُهُ، فَهُوَ فِي قَلْبِهِ، وَحَيْرَةٍ، وَشُكٍّ، فَلَا يَزَالُ فِي رِبَةٍ يَتَرَدَّدُ، فَهَذَا مِنْ ضَنْكِ الْمَعِيشَةِ». «تفسير ابن كثير» (٢٣٣/٣).
والبرزخي: فسرها النبي ﷺ: «عَذَابُ الْقَبْرِ». حسنه الألباني في «صحيح موارد الظمان» (١٤٦٧)، وفي «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥٥٢). الأخروي: «أَنَّهُ يَحْشُرُ وَيُبْعَثُ إِلَى النَّارِ أَعْمَى الْبَصَرِ (كَمَا كَانَ فِي الدُّنْيَا أَعْمَى) وَالْبَصِيرَةَ». «تفسير ابن كثير» (٢٣٤/٣).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: حديث قنوت الوتر الذي علمه ﷺ لِحَفِيدِهِ الْحَسَنِ^(١)، وكذلك لأنس رضي الله عنه في غير الوتر: «اللهم اهدني فيمن هديت... وإنه لا يذل من واليت، ولا يعزُّ مَنْ عَادَيْتَ»^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: العدو هو: التجاوز ما حد له، وأصله: التجاوز ومُنافاة الالتئام، فتارة يعتبر بالقلب، فيقال له: العداوة، والمُعَاداة، وتارة بالمشي، فيقال له: العدو، وتارة في الإخلال بالعدالة في المُعاملة، فيقال له: العدوان، والعدو، قال تعالى: ﴿فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدَوًّا يَغَيِّرُ عِلْمَهُ﴾ [الأنعام: ١٠٨]

والاعتداء يكون على سبيل الابتداء، ويكون على سبيل الجِزَاء^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: أثبت الله تبارك وتعالى لِنَفْسِهِ صفة العداوة، أي أن الله تعالى يُعَادِي، لكن لا يُوصَف بها على الإطلاق وإنما يوصَف بِكَمَالِهَا، وحسنها، وهو: في مُقَابَلَةِ مَنْ يُعَادِيهِ، ويعادي ملائكته، ورسله، كما ذكرهم تعالى في الآية: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ﴾؛ «أي: من عاداني، وملائكتي، ورسلي - ورسله تشمل: رسله من الملائكة، والبشر، وجبريل، وميكال، وهذا من باب عطف الخاص على العام»^(٤) إذ هُما داخلان في الملائكة لِعَظَم شأنهما.

وقوله: ﴿فَأَنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾: هذا جواب الشرط: من كان عدوًّا لله، فالله عدوٌّ له، ومن كان عدوًّا للملائكة فإن الله عدوٌّ له، ومن كان عدوًّا لرسله فإن الله عدوٌّ له، ومن كان عدوًّا لجبريل فإن الله عدوٌّ له، ومن كان عدوًّا لميكائيل فإن الله عدوٌّ له، وهنا أظهر في موضع الإضمار (أي: ذكر اسم الجلالة (الله)، ولم يقل: فإنه عدو للكافرين)، لِفَائِدَتَيْنِ: إحداهما: لفظية، والثانية: معنوية:

أما الفائدة اللفظية: فمُنَاسِبَةٌ رُؤُوسِ الْآيِ.

وأما الفائدة المعنوية: فهي تتضمَّن ثلاثة أمور:

(١) «صحيح أبي داود» (١٤٢٥).

(٢) رواه أحمد في المسند (١٧٢٣)، وصححه محققو المسند (٢٤٨/٣). قال رسول الله ﷺ: «عادي الله من عادى عليًّا». وفي لفظ: «من كنت مولاه، فهذا مولاه (أي: علي رضي الله عنه)، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه»^(١)، صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٩٦٦)، وفي «السلسلة الصحيحة» (١٧٥٠). وقال ﷺ: «من عادى عمارًا عاداه الله...». صحيح الجامع (٦٣٨٦).

(٣) «المفردات» (٥٥٣). و«عمدة الحفاظ» (٣٩/٣).

(٤) «تفسير ابن كثير» (١٩٥/١).

الأول: الحكم على أن مَنْ كان عدوًّا لله ومن ذُكر، بأنه يكون كافرًا، يعني: الحكم على هؤلاء بالكُفر.

الثاني: أن كلَّ كافرٍ سواء كان سبب كُفره مُعاداة الله أو لا، فالله عدوُّ له.

الثالث: بيانُ العِلَّة، وهي في هذه الآية: الكُفر، فكل كافرٍ فالله عدوُّ له.

وفي الآية: إثبات صفة العداوة من الله تعالى؛ أي: إن الله يُعادي (مَنْ يُعادي، ويُعادي أولياءه)، وهي صفة فعلية، كالرِّضا، والغضب، والسُّخْط، والكرَاهة، والمُعاداة ضِدِّها المُوالاة الثابتة للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البقرة: ٢٧٥]^(١).

وعلى هذا فإن هذه الصفة الجليلة تدلُّ على أنه سبحانه عدوٌّ لكل الكافرين؛ أي: يُعادي كلَّ كافر، وكذلك يُعادي كل من عادى أولياءه، «فَمَنْ عاداهم فقد عادى الله وحاربه»^(٢).

(٨) الصفة المقيدة (الوعِي) الكمالية

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾ قال ﷺ^(٣): «ارضخي»^(٤) ما استطعت، ولا توعي، فيوعي الله عليك»^(٥).

﴿المَعْنَى فِي اللَّفْظِ: الوعي: الجمع، والحفظ، يقال: أوعيت الشيء في الوعاء: إذا أدخلت فيه، ووعيت الشيء: حفظته، وفلان أوعى من فلان؛ أي: أحفظ، وأفهم»^(٦).

﴿المَعْنَى فِي الشَّرْحِ: جاءت الصفة الاختيارية المقيدة الوعي في سياق إخبار النبي ﷺ لأسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها بقوله: «ارضخي ما استطعت» فيه: «الحَثُّ على النفقة في الطاعة، والنَّهْي عن الإمساك والبخل، وعن ادِّخار المال في الوعاء»^(٧)، والمعنى: أنفقي بغير إجحاف، ما دمت قادرة مستطِعة»^(٨).

(١) «تفسير سورة البقرة» لابن عثيمين (١/٣١٣ - ٣١٨).

(٢) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (٢/٣٣٤).

(٣) عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها: أنها جاءت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله! ليس لي شيء إلا ما أدخل عليَّ الزُّبَيْر، فهل عليَّ جناح أن أرضخ بما يُدخل عليَّ؟

(٤) ارضخي: أي: أعطي بغير تقدير. «المفهم لما أشكل من تلخيص مسلم» (٣/٥٧).

(٥) البخاري (١٤٣٤)، ومسلم (١٠٢٩).

(٦) «النهاية» (٩٨١)، و«معجم الصحاح» (١١٤٩).

(٧) «شرح صحيح مسلم» للنووي (٤/١٢٨).

(٨) «فتح الباري» (٣/٣٧٩).

ثم نهاها ﷺ بقوله: «ولا توعي» ؛ أي: «لا تجمعني ولا تشحي بالنفقة»^(١) خشية النفاد، فإن ذلك أعظم الأسباب لقطع مادة البركة، لأن الله تعالى يثيب على العطاء بغير حساب، ومن لا يحاسب عند الجزاء، لا يحسب عليه عند العطاء^(٢).

ثم حذرنا بأن الله تعالى سيعاقبها ويُعاملها بنفس الصفة، فقال لها: «فيوعي عليك» ؛ أي: «يمنعك كما منعت، ويقتِر عليك كما قترت، ويمسك فضله عنك كما أمسكته»^(٣) جزاءً عدلاً، حسناً، ممدوحاً، كاملاً من كل وجه^(٤).

قال إمام الدنيا علامة الزمان الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ، فيه: «إثبات وصف الله بذلك حقيقة، على الوجه اللائق به سبحانه، كسائر الصفات، وهو سبحانه يُجازي العامل بمثل عمله، فمن مَكَّرَ مَكَّرَ به، ومن خَادَعَ خَدَعَهُ، وهكذا من أوعى أوعى الله عليه، وهذا قول أهل السنة والجماعة، فالزمه تَفَرُّجُ النجاة والسلامة، والله الموفق»^(٥).

﴿٩﴾ الصفة المقيدة (القطع) الكمالية

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾ قال رب العالمين: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَلَدِينَا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٧٣].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾ قال رسول الله ﷺ: «الرَّحِمُ مُعَلَّقةٌ بالعرش، تقول: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ»^(٦).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ﴾ قطع: فصل الشيء، أي: إبانة شيء من شيء، وهو ضربان: ضربٌ مدرك بالبصر كالأجسام كقوله: ﴿فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨]، وآخر: مدرك بالبصيرة كقوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [البقرة: ٢٧]، والقطيعة: الهجران^(٧).

(١) «النهاية» (٩٨٢).

(٢) «الفتح» (٣٧٩/٣).

(٣) «شرح صحيح مسلم» (١٢٩/٤).

(٤) لأنه كان في مقابلة الوصف بالمِثْلِ، ولم يكن ظُلماً منه، ولا جَوَراً، ولا بَغْياً، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

(٥) تعقيب الشيخ ابن باز على ابن حجر في الحاشية على فتح الباري (٣٧٩/٣).

(٦) البخاري (٥٩٨٩)، ومسلم (٢٥٥٥). وقال ﷺ: «إِنَّ الرَّحِمَ شَجَنَةٌ مُعَلَّقةٌ بِمَنْكِبِي الرَّحْمَنِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ اللهُ تَعَالَى لَهَا: مَنْ وَصَلَكِ وَصَلْتَهُ، وَمَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتَهُ»، رواه ابن أبي عاصم في «السُّنَّة» (٥٣٦)، وصححه الألباني (٣٣٦). وقال ﷺ: «... ومن قطع صفاً قطعه الله».

«صحيح أبي داود» (٦٦٦).

(٧) «عمدة الحفاظ» (٣٢٢/٣)، و«مقاييس اللغة» (٧٧٩).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: إِنَّ أفعال الله تعالى كلها المطلقة والمقيدة مقرونة بالحكمة البالغة التامة، ومن هذه الحكم: أنه تعالى يقابل بالعقوبة من قطع خيراً عظيماً في مقصدين مهمين:

الأول: في أجل الحقوق، وهي: صلة الرحم.

الثاني: في أفضل الأعمال البدنية، وهي: الصلاة.

وقطع الرحم يكون بالهجران وعدم السؤال وإيصال إليهم الخير والإحسان.

قوله: «ومن قطعك قطعتة»: ولم يبين نوع القطع لدلالته على العموم، أي: قطعتة من كل خير في معاشه، ومعاذه.

والقطع الآخر: قطع الصف في الصلاة: ويكون بعدة أوجه: «بأن يخرج منه بغير حاجة، أو بأن يراه محتاجاً إلى الوصل فلم يصله»^(١)، بعدم السد، أو بوضع شيء مانع، أو جلوس بين الصفوف بلا صلاة، أو منع الداخل من الدخول في الفرجات^(٢).

قوله: «ومن قطع صفّاً قطعه الله»: وهذا كسابقه لم يحدد نوع القطع، ليدلّ على شدة القطع وشموله، أي: "أبعده من ثوابه، ومن رحمته الشاملة، وعنايته الكاملة"^(٣) في الدنيا والآخرة جزاءً وفاقاً من جنس فعله^(٤).

﴿١٠﴾ الصفة المقيدة (النسيان) «بمعنى التَّرك» الكمالية

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قال تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا﴾ [الأعراف: ٥١]»^(٥).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: حديث رؤية مخاطبة الله تعالى الكافر يوم القيامة، فيقول له: «أَفْطَنْتَ أَتْكَ مُلَاقِي؟ فيقول: لا، فيقول: فَإِنِّي أَنْسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي.»^(٦).

(١) «التنوير شرح الجامع الصغير» (٢٥/٣)، و«فيض القدير» (٣٤١/٢).

(٢) «عون المعبود» (٧٥/٢)، و«حاشية السندي على النسائي» (٤٢٨/٢).

(٣) «فيض القدير» (٣٤١/٢)، و«عون المعبود» (٧٥/٢).

(٤) وفي الاجتماع بينهما أي: الوصل والقطع، اجتماع وصف الكمال في الجزاء بتوابعه، إذ إن الجزاء إما أن يكون: بالفضل، وإما أن يكون بالعدل:

الجزاء بالعدل والفضل: دلّ عليه صفة (الوصل). والجزاء بالعدل: دلّ عليه صفة (القطع) والله أعلم.

(٥) وقال عزّ شأنه: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِوهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقال سبحانه: ﴿فَذُوقُوا يَمَّا تَسْتَبْرَأُونَ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ﴾ [السجدة: ١٤].

(٦) مسلم (٢٩٦٨).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: النسيان يأتي بمعنيين: الذكر، والحفظ، والغفلة، يقال: نسي فلان شيئاً؛ أي: غابَ عن حفظه.

ويأتي بمعنى: التَّرك عن عمدٍ وقصدٍ، وهذا المعنى هو المَقْصود في حَقِّ رَبِّ العالمين^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: يوصف ربُّنا الجليل بالصفة الاختيارية التي تقوم بِمَشِيئته، وقدرته، النسيان بمعنى: الترك والإهمال على وجه المُقابَلَة، والجَزاء، من قبيل المُعامَلَة بِالْمِثْلِ لِمَنْ نَسِيَه في الدُّنْيَا؛ أي: نسي أو أمره، ونَوَاهيه، وحقوقه في العبوديَّة، ونسي لِقَاءَهُ يوم القيامة، وهذا من كَمال العَدْل، لأن كَمالَ الجَزاء وحسنه أن يكون من جِنْسِه، ونوعه.

وهذا المعنى هو الذي نَصَّ عليه أئمةُ الهُدَى.

قال إمامُ أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللهُ في رَدِّهِ على الزَّنادِقَة، الجَهْمِيَّة: «أما قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَنسِكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ يقول: نترككم في النار^(٢)، ﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ كما تركتم العملَ لِلقاءِ يومكم هذا»^(٣).

قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾: «معناه: تركوا الله أن يُطيعوه، ويتبعوا أمره، فتركهم الله تعالى من توفيقه، وهِدَايَتِهِ، ورحمته، وقد دَلَّلْنَا فيما مَضَى على أن معنى النسيان: الترك...»^(٤).

وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِيتُكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾؛ أي: فذوقوا العذابَ الأليم بما نسيتم لقاءَ يومكم هذا، وهذا النسيان: نسيان ترك؛ أي: بما أعرضتم عنه أو تركتم العملَ له، ﴿إِنَّا نَسِيتُكُمْ﴾؛ أي: تركناكم بالعذاب جزاء من جنس عملكم، فكما نسيتم نُسِيتُمْ^(٥).

(١) انظر: «المفردات» (٨٠٣)، و«عمدة المُحَافَظ» (١٧٤/٤)، و«اللسان العرب» (٥٤٤/٨)، وكتاب «العين» (٢١٩/٤)

(٢) كما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما، انظر: «تفسير الطبري» (٤٤٥/٣)، و«تفسير ابن أبي حاتم» (١٤٩٢/٥)، وجاء عنه: «نتركهم من الرحمة كما تركوا أن يعملوا للقاء يومهم هذا» التفسير الصحيح (٣٢٤/٢)، ولا منافاة بين القولين، فإن من مقتضى ترك الرحمة العقوبة.

(٣) «الرَّد على الزَّنادقة والجَهْمية» (٢١).

(٤) «التفسير» (٥١٠/٥).

(٥) «تفسير السعدي» (٦٥٥).

وسُئِلَ العلامةُ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: هل يوصَفُ الله تعالى بالنِّسيانِ؟

فأجاب: «لِلنِّسيانِ معنيان: أحدهما: الذُّهولُ عن شيءٍ معلومٍ» ثم ضرب مجموعة من الأمثلة، ثم قال: «والمعنى الثاني لِلنِّسيانِ: التَّركُ عن عِلْمٍ وَعَمْدٍ» ثم ضرب أمثلة رَحِمَهُ اللهُ، ثم قال: «وهذا المعنى من النسيان ثابتٌ لله ﷻ...»^(١).

❦ (١١) الصفة المُقَيِّدة (السُّخْرِيَّة) الكمالية ❦

❦ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قال تعالى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٧٩].

❦ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: كما في حديث مخاطبة رَبِّ العالمين آخر الخارجين من النَّارِ وآخر الداخلين إلى الجَنانِ، فيقول العبد لِلرَّبِّ: «...أتُسخر بي؟ أو تضحك بي وأنت المَلِكُ»^(٢).

❦ الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: السخرية: تدل مادة هذه الكلمة على الاحتقار والاستدلال، والسخرية: الاستهزاء، يقال: سخرت منه، وبه: هزئت منه، وهزئت به^(٣).

❦ الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: يوصف رَبُّنا تعالى بوصف الكمال على وجه التقييد «بالسُّخْرِيَّة» لِمَنْ اتَّصَفَ بها من أعدائه في مقابلة أوليائه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ...﴾ الآية.

فعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في تفسير الآية، أنه قال: «لَمَّا نزلت آية الصدقة، كُنَّا نحمل على ظُهورنا، فجاء رجلٌ فتصدَّقَ بشيءٍ كثير، فقالوا (أي: المنافقون): مُرائي، وجاء رجل فتصدق بِبصاعٍ، فقالوا: إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا»^(٤).

فقابلهم الله تعالى (وَنِعَمَ الْمُقَابَلَةِ بجنس) صنيعهم بأن: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٥).

يقول ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين، لأنَّ الجزاء من جنس العمل، فعاملهم معاملة من سخر منهم، انتصاراً للمؤمنين في الدنيا، وأعد

(١) «مجموع وقاوى ورسائل له رَحِمَهُ اللهُ» (١٧١/١ - ١٧٤).

(٢) البخاري (٦٥٧١)، ومسلم (١٨٦).

(٣) ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُ لِنَاصِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]؛ أي: المستهزئين. «عمدة الحُفَّاط» (١٨٢/٢)، و«معجم «الصحيح» (٤٨١)، و«مقاييس اللغة» (٤٣٣).

(٤) صحيح البخاري (١٤١٥)، ومسلم (١٠١٨).

(٥) «تفسير السعدي» (٣٤٦).

للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً، لأن (كما تقدم) الجزء من جنس العمل»^(١).

ومن أوجه السخرية بهم في الدارين أنه:

في الدنيا: يظهر لهم من المعاملة ما يظنون أنهم من أعداد المسلمين.

وفي الآخرة: ما أعدَّ لهم من أليم عقابه، ونكال عذابه^(٢)، وهذا في غاية السخرية لأعدائه تعالى، وهذا كما تقدّم من كمال العدل، والحكمة، بل ومن كمال القوة، والقدرة، والعزة، أن يُقابل الظالم بمثل أو أشد من فعله^(٣).

(١٢) الصفة المقيدة (الإهانة) الكمالية

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُنِ اللَّهُ فَمَالَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾ [الحج: ١٨].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾ (١) قال رسول الله ﷺ: «مَنْ يُرِدْ هَوَانَ قُرَيْشٍ أَهَانَهُ اللَّهُ»^(٤).

(٢) وقال ﷺ: «مَنْ أَهَانَ سُلْطَانَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ أَهَانَهُ اللَّهُ»^(٥).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الهون: يطلق على: الذلّ، والاستخفاف، يقال: رجل فيه مهانة؛ أي: ذلّ وضعف، واستهان به: استحقّره، والهون بالضم: الخزي، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ [الأنعام: ٩٣]^(٦).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: جاءت في السنة السنّة في إثبات هذه الصفة على وجه المُقابَلَة بالعقوبة لِمَنْ خالف أمره سبحانه، وأمر رسوله ﷺ، ومن ذلك: «إهانة قريش» كما تقدم، فإن الله تبارك وتعالى قد فَضَّلَهَا على غيرها من القبائل كما جاءت النصوص الكثيرة الوفيرة، فمن أهانها عامله الله تعالى وجازاه بأن يُهينَه؛ أي: يُذِلّه، ويُخزِيه جزاءً وعدلاً منه تعالى.

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٥١١/٢).

(٢) ينظر كلام ابن جرير النفيس في تفسيره (١١٨/١).

(٣) وهو يدلُّ على كمال محبته تعالى لأوليائه كما تقدم قول قوام أهل السنة الأصهباني رَحِمَهُ اللهُ: «وتولى الذَّبَّ عنهم (أي: المؤمنين) فأجل أقدارهم أن يوصفوا بصفة عيب، وتولى المُجَازاة فقال: (الله يستهزئ بهم) وقال: (سخر الله منهم) لأن هاتين الصفتين إذا كانت من الله تعالى، لم تكن سَفَهًا، لأن الله حكيم، والحكيم لا يفعل السَفَهَ، بل ما يكون منه يكون صواباً، وحكمة» باختصار. «الحجة في بيان المحجة» (١٨١/١).

(٤) وفي لفظ: «مَنْ أَهَانَ قُرَيْشًا أَهَانَهُ اللَّهُ». رواه ابن أبي العاصم في «السنة» (١٥٤٦، ١٥٤٧، ١٥٤٨، ١٥٤٩)، وحسَّنَ إسناده الروايات محقق الكتاب أ.د. باسم بن فيصل الجوابرة (٩٩٦/٢ - ٩٩٨)، وذكره الألباني في «الصحيحة» (١١٧٨).

(٥) حسنه الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٢٢٤)، وفي «السلسلة الصحيحة» (٢٢٩٧).

(٦) انظر: «الصحيح» (١١١٣)، و«القاموس» (١٣٧٠)، و«عمدة الحفاظ» (٢٦٦/٤).

وكذلك «إهانة سلطان الله تعالى» وهو الأمير كما في الرواية في الترمذي: إن زياد بن كسيب العدوي قال: كنت مع أبي بكر تحت فهر بن عامر، وهو يخطب، وعليه ثياب رفاق، فقال أبو بلال: انظروا إلى أميرنا يلبس ثياب الفساق، فقال أبو بكر: اسكت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ أَهَانَ سُلْطَانَ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ أَهَانَهُ اللَّهُ».

والمعنى: «مَنْ أَهَانَ مَنْ أَعَزَّهُ اللَّهُ وَأَلْبَسَهُ خُلْعَةَ السُّلْطَانَةِ، أَهَانَهُ اللَّهُ، وَ(فِي الْأَرْضِ) متعلق بِسُلْطَانَ اللَّهِ تعلقها في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ [ص: ٢٦]، والإضافة في سلطان الله إضافة تشريف، كبيت الله، وناقة الله»^(١).

فليحذر العبد أن يهين وليَّ الأمر سواء كان بالقول: كالغيبة، والاستهزاء، والازدراء، والبهتان، أو بالفعل: كالوشاية، والتحريض بالخروج عليه سواء كان: بالسلاح، أو بالكلام أو بالحشد كما في هذا الزَّمان من البدعة المحدثه: المظاهرات، والاعتصامات، والتي ما أنزل الله بها من سلطان. والله تعالى هو الهادي إلى سواء السبيل^(٢).

الصفة المقيدة (الإحتجاب) الكمالية

❖ السُّنَّة النَّبَوِيَّة: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ وَلَّاهُ اللَّهُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ، فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِمْ وَخَلَبَتْهُمْ وَفَقَّرَهُمْ، احْتَجَبَ اللَّهُ عَنْهُ دُونَ حَاجَتِهِ، وَخَلَبَتْهُ، وَفَقَّرَهُ»^(٣).

❖ الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الْحَجَبُ: المنع من الوصول، يقال: «حجبت عن كذا»، أي: منعت، (ويأتي حسي، ومعنوي)، والحجاب: الشيء الذي يحجب به، وقوله: ﴿وَيَنْهَمَا حِجَابٌ﴾ [الأعراف: ٤٦]؛ أي: حاجز^(٤).

- (١) «تحفة الأحوذى» بشرح جامع الترمذي لِلْمُبَارَكْفُورِي (٨٦/٦).
- (٢) وجاءت هذه الصفة على جهة غير المقابلة في سياق إخبار الله تعالى بِسُجُودِ كُلِّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ جَمَادَاتٍ وَنَاطِقَاتٍ وَغَيْرِ نَاطِقَاتٍ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]، ومعنى ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾: «المؤمنون»، ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾؛ أي: وجب وكتب لكفره وعدم إيمانه، فلم يؤفقه الله تعالى للإيمان، لأن الله تعالى أهانه ﴿وَمَنْ يُؤْنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾. «تفسير السعدي» (٥٣٦)، أي: مَنْ يُذِلُّهُ اللَّهُ فَلَا يَكْرَهُ أَحَدٌ، ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُشَاءُ﴾؛ أي: يكرم، ويهين، فالسعادة والشقاوة بإرادته، ومشيتته. «معالم التنزيل» للبغوي (٣٧٢/٥)، فربنا سبحانه لا يهين، ولا يُذِلُّ، ولا يخزي إِلَّا مَنْ اسْتَحَقَّ ذَلِكَ، وهو بِمُشَاقَّتِهِ اللَّهِ سبحانه.
- (٣) «صحيح أبي داود» (٢٩٤٨). وقال ﷺ: «من ولي من أمر الناس شيئاً، فاحتجب عن أولي الضعفة، والحاجة، احتجب الله عنه يوم القيامة». رواه أحمد في المسند (٢٢٠٧٦)، وصححه لغيره شعيب الأرناؤوط (٣٩٤/٣٦)، والألباني في «صحيح الترياق والترهيب» (٥٢٧/٢).

(٤) والحاجب للسلطان: الذي يمنع من يصل إليه، (وهذا هو الحجب الحسي، أما الحجب المعنوي) كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ [الأنعام: ٢٥]، وقوله سبحانه: ﴿وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥]؛ أي: حاجز، ومانع في النحلة والدين، لا حجاب حسي. «عمدة الحفاظ» (٣٧٣/١)، و«مقاييس اللغة» (٢٤١).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: إِنَّ مِنْ كَمَالِ صِفَاتِ رَبِّنَا ﷺ أَنَّهُا تَأْتِي عَلَى أَوْجِهٍ مُتَعَدِّدَةٍ، وَأَنْوَاعٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَأَحْوَالٍ مُتَنَوِّعَةٍ، لِتَدُلَّ عَلَى كَمَالِهِ الْمَطْلُوقِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ، كَمَا فِي هَذِهِ الصِّفَةِ الْفِعْلِيَّةِ، وَهِيَ الْإِحْتِجَابُ فِي مُقَابَلَةٍ مِنْ إِحْتِجَابِ مِنَ الْوَلَاةِ، وَالْأَمْرَاءِ، وَالْحُكَّامِ، عَلَى مَنْ وَلاَهُمْ عَلَى عِبَادَةِ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْأَحَادِيثِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷺ: «فَإِحْتِجَابٌ دُونَ حَاجَتِهِمْ»؛ أَي: امْتِنَاعٌ مِنَ الْخُرُوجِ عِنْدَ إِحْتِيَاجِهِمْ إِلَيْهِ.

وقوله: «وَحَلَّتْهُمْ»: الحاجة الشديدة، والمعنى: مَنَعَ أَرْبَابَ الْحَوَائِجِ وَالْمُهِّمَّاتِ أَنْ يَدْخُلُوا عَلَيْهِ، وَيَعْرِضُوا حَوَائِجَهُمْ عَلَيْهِ، فَيَعْسِرَ عَلَيْهِمْ إِنِّهَاؤَهَا.

قوله: «إِحْتِجَابُ اللَّهِ عَنْهُ دُونَ حَاجَتِهِ، وَخَلَّتْهُ، وَفَقَرَهُ»؛ أَي: أَبْعَدَهُ، وَمَنْعَهُ عَمَّا يَبْتَغِيهِ مِنَ الْأُمُورِ الدِّينِيَّةِ، أَوِ الدُّنْيَوِيَّةِ، فَلَا يَجِدُ سَبِيلًا إِلَى حَاجَةٍ مِنْ حَاجَاتِهِ الضَّرُورِيَّةِ، (وَمِنْ ذَلِكَ): أَنْ لَا يُجِيبَ دَعْوَتَهُ، وَيَخِيبَ أَمَالَهُ، جَزَاءً وَفَاقًا^(١) مِنْهُ تَعَالَى لِأَوَّلِكَ الْوَلَاةِ الظُّلْمَةِ، لَمَّا فِي ذَلِكَ مِنْ كَمَالِ الْعَدْلِ، وَالْقِسْطِ، وَالْحَقِّ، وَالنَّصْرَةِ لِلرَّعِيَةِ الَّتِي إِحْتِجَابٌ عَنْهُمْ أَوَّلُكَ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى تَمَامِ حَمْدِهِ، وَكَمَالِ أَعْمَالِهِ سُبْحَانَهُ، إِذْ إِنِّهَا مَبْنِيَّةٌ عَلَى الْحُكْمِ، مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِهَا^(٢).

﴿١٤﴾ الصِّفَةُ الْمُقَيَّدَةُ (الْخُذْلَانُ) الْكَمَالِيَّةُ

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ يَضُرَّكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ﴾﴾ [إِلْ عَمْرَان: ١٦٠].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ أَمْرٍ مُسْلِمٍ يَخْذُلُ أَمْرًا مُسْلِمًا فِي مَوْضِعٍ تَنْتَهَكَ فِيهِ حُرْمَتُهُ، وَيُنْتَقَضُ فِيهِ مِنْ عِزِّهِ، إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نَصْرَتَهُ...»^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الْخُذْلَانُ: تَرْكُ النَّصْرِ مِمَّنْ يَتَوَقَّعُ مِنْهُ ذَلِكَ، وَخَذَلَهُ: تَرَكَ نَصْرَتَهُ وَمَعُونَتَهُ^(٤).

(١) «عون المعبود شرح سنن أبي داود» (٣٤٦/٥)، وإتحافه الأحوزي بشرح جامع الترمذي» (٢٣٠/٤)، وانظر: «فيض القدير» (٤٧١/٥) (٢٣٨/٦)، و«التنوير شرح الجامع الصغير» (٤٤٦/٩).

(٢) قال ابن حجر رحمه الله: «فيه وعيدٌ شديد لمن احتجب عن الناس لغير عُذر، وكان حاكمًا بينهم، لأن فيه تأخير لإبصار الحقوق إلى أهلها، أو تضيعها». «الفتح» (١٣٣/١٣).

(٣) رواه أبو داود (٤٨٨٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٦٩٠)، والهيتمي في «مجمع الزوائد» (٢٧٠/٧)، وابن حجر في «مقدمة تخريج مشكاة المصابيح» (٤٣٠/٤).

(٤) ولذلك قيل: خذلت الوحشية ولدها: تركته وحده، وتخاذلت رجلاه: إذا لم تُعيناه على المشي. «المفردات» (٢٧٧)، و«عمدة الحفاظ» (٤٩٣/١)، و«القاموس المحيط» (٣٥٥).

﴿المَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: وصف نفسه على وجه المُقَابِلَة بأنه تعالى يخذل من يخذل أحدًا من المسلمين ، وهذا يدلُّ على غيرته لأوليائه ، ومحبته لهم ، وإرادة العزة ، والكرامة ، والرفعة لهم ، فأَيُّ كمال يسمو لهذا الكمال يا عبد الله ، فاحمد الله حمداً كثيراً أن عرفك به ، وبصفاته العلية ، وأفعاله المرضيَّة ، فكم من محروم منها من البرية .

وقوله ﷺ: «ما من امرئ يخذل امرأ مسلماً» ؛ أي: ترك إعانته ونصرته ؛ أي: لم يحل بينه وبين من يظلمه ، ولا ينصره «في موضع تنتهك» بصيغة المجهول ؛ أي: بأن يتكلم فيه بما لا يحل ، «فيه»: في ذلك الموضع ، «حرمته» ؛ أي: احترامه ، وبعض إكرامه .

وقوله: «ينتقص» من الانتقاص ، وهو لازم ، ومتعد ، «فيه من عِرضه» وهو محل الذم ، والمدح من الإنسان .

والمعنى: ليس أحدٌ يترك نصرة مسلم مع وجود القدرة عليه بالقول ، أو الفعل عند حضور غيبته ، أو إهانته ، أو ضربه ، أو قتله ، أو نحوها .

وقوله: «إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته» ؛ أي: إلا خذله الله تعالى في موضع يكون فيه أحوج لنصرته ، وذلك شامل لمواطن الدنيا ، ومواقف الآخرة ، عقوبة له من جنس عمله^(١) .

وهذا غاية العدل ، والحكمة ، وإحقاق الحق ، لا جور فيه من الربِّ عزَّ شأنه .

إذ أن ربَّنَا الجليل من كمال حكمته ، وعدله ، وفضله ، أن جعل قاعدة عظيمة في الجزاء «أن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر ﴿جَزَاءٌ وَفَاقًا﴾ [النبا: ٢٦]»^(٢) في الدنيا والآخرة .

﴿١٥﴾ الصفة المقيدة (الشَّاقُّ) الكمالية

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: ١ - قال رسول الله ﷺ: «... وَمَنْ شَاقَّ شَقَّ اللَّهُ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣) .

٢ - وقال ﷺ: «اللهم مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ ، وَمَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ ، فَارْفُقْ بِهِ»^(٤) .

(١) انظر: «فيض القدير» (٤٧٢/٥) ، و«عون المعبود» (٢٤٣/٨) ، و«التنوير شرح الجامع الصغير» (٤٥٠/٩) .

(٢) «شفاء العليل» (٦٥٣/٢) ، و«تهذيب السنن» (١٧٦/١٢) كلاهما لابن القيم .

(٣) البخاري (٧١٥٢) .

(٤) مسلم (١٨٢٨) .

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الشَّقُّ: المشقة، والشدة، والانكسار الذي يلحق النفس، والبدن﴾^(١).

والمشاقة مشتقة من الشقاق وهو: الخلاف، والعداوة والمنازعة^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: إِنَّ مِنْ كَمَالِ رَبَّنَا، وَجَلَالِهِ، وَعَلِيَّائِهِ، أَنَّهُ سَبْحَانَهُ يُعَامِلُ عِبَادَهُ بِمُوجِبِ أَسْمَائِهِ، وَصِفَاتِهِ، الَّتِي يُعَامِلُونَ بِهَا عِبَادَهُ، وَلِهَذَا كَانَ أَحَبَّ الْخَلْقِ إِلَيْهِ مِنْ اتِّصَافٍ بِمُقْتَضِيَّاتِ صِفَاتِهِ﴾^(٣).

ومن هذه الصفات التي يُعامل الله بها عباده على حسب ما يُعاملون بها عباده: «الشَّقَّةُ والمَشَقَّةُ» «فمن أدخل على الناس المشقة، أدخل الله عليه المشقة، فهو من الجزاء بجنس العمل»^(٤).

وهذا من حكمة الله تعالى التي يُحمد عليها سبحانه^(٥).

فمن نازع مسلماً ظلماً وتعدياً وأوصل إليه أي نوع من المشقة (الدينية، أو الدنيوية): أنزل الله عليه ما يشق عليه جزاءً وفاقاً^(٦).

ولم يحدد ﷺ نوع المشقة، «فإما أن تكون في بدنه، أو في صدره، أو في أهله، أو في غير ذلك، لأن الحديث مطلق، وربما لا تظهر للناس»^(٧).

وقوله ﷺ: «اللهم من ولي من أمرِ أمتي شيئاً (شيئاً) يشمل القليل والكثير، وهذا يشمل أي نوعٍ من الولاية، الولاية العامة (وهي الولاية الكبرى)، أو الولاية الخاصة، حتى مدير المدرسة في مدرسته، وحتى الرجل في أهله، وكل من ولي شيئاً، فالواجبُ عليه أن يرفُقَ بِمَنْ وَلَّاهُ اللهُ عَلَيْهِمْ»^(٨).

(١) «المفردات» (٤٥٩)، و«النهاية» (٤٨٧)، و«مقاييس اللغة» (٤٥٤).

(٢) «فتح الباري» (١٦٢/١٣)، و«المصباح المنير» (١٩٤).

(٣) فهو سبحانه رحيم: يحب الرُّحَمَاءَ، وهو سَتِيرٌ: يحب من يستر على عباده، فهو تعالى يُجَازِي عبده بحسب هذه الصفات فيه وجوداً، وعلماً، فمن عَفَا عنه، ومن غَفَرَ له غفر له...، ومن تتبّع عوراتهم: تتبّع عورته، ومن هتَكَمَ: هتكه وفضّحه، ومن شاقَّ: شاق الله تعالى به، ومن مكر: مكر به، ومن خادَع: خادعه، ومن عامل خلقه بصفة: عامله الله تعالى بتلك الصفة بعينها في الدنيا والآخرة، فالله تعالى لعبده، على حسب ما يكون العبد لخالقه...، فكما تدبّن ثُدَان، وكن كيف شئت، فإنَّ الله تعالى لك كما تكون أنت لِعِبَادِهِ. انظر: «الوابل الصيب» لابن القيم (٥٣ - ٥٦).

(٤) «فتح الباري» (١٦٠/١٣).

(٥) «بهجة قلوب الأبرار» (٦٢).

(٦) «عون المعبود» (٤٦٧/٦)، و«تحفة الأحوذى» (٣٥٥/٥).

(٧) «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (٦٣٤/٣).

(٨) «شرح صحيح مسلم» (١٧٤/٦)، و«شرح صحيح البخاري» (٢٤/٨) لابن عثيمين.

وقوله: «فاشقق عليه»: هذا دُعاء عادل، لا دعاء عدوان، وظلم، وبغي، وإنما هو انتِصاف من الظالم جزاءً وفاقاً، عدلاً، وحَقّاً، بل وفضلاً منه ﷺ.

﴿١٦﴾ الصفة المقيدة (التتبع) الطلب، الكشف «العورات» الكمالية

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قَلْبِهِ، لَا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ، فَإِنَّهُ مَنْ اتَّبَعَ ^(١) عَوْرَاتِهِمْ يَتَّبِعُ اللَّهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يَتَّبِعِ اللَّهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ فِي بَيْتِهِ» ^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ﴾: التتبع: التلو والقفو واللاحاق، يقال: «تبعْت فلاناً إذا: تلوته واتبعته»، أتبعه: إذا لحقه ^(٣).

وتتبع الشيءَ تطلبه متبعاً له، والتتابع ما بين الأشياء: إذا فعل هذا على إثر هذا لا مهلة بينهما ^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْحِ﴾: هذه الصفة المقيدة الجَليلة جاءت عن أعلم الخلق بالرَّبِّ سبحانه، في تحذيره ﷺ لِلْمُنَافِقِينَ الذين من شأنهم لَمُزُ الْمُؤْمِنِينَ، والوقوع في انتقاصهم، وذِكْرُ مَعَايِبِهِمْ، «فيه تنبيه على أن غيبة المسلم من شعار المُنَافِقِينَ، لا المؤمنين، وقوله: «ولا تتبعوا عوراتهم»؛ أي: لا تجسسوا عيوبهم، ومساوئهم فيما تجهلونها، ولا تكشفوها فيما تعرفونها، «فإنه»؛ أي: الشأن «يتبع الله عورته»؛ أي: يكشف عيوبه، «ومن تتبع الله عورته يفضحه»؛ أي: يكشف مساوئه «في بيته»؛ أي: ولو كان في بيته مخفياً عن النَّاسِ» ^(٥).

أي: مع وجود ستره، وهذا مآل قوله ﷺ: «لَا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لِأَخِيكَ، فَيَعَايِبَهُ اللَّهُ وَيَبْتَلِيكَ»، ففيه عقوبة من جهتين: الابتلاء بتلك البلية، ثم إظهاره بين الناس وإن ستره الله على نفسه، وقد جرب هذا الأمر مراراً ^(٦).

(١) في لفظ: (تتبع) بصيغة الماضي المعلوم من باب التفعيل، أي: من طلب.

(٢) (صحيح أبي داود) (٤٨٨٠)، و«الترمذي» (٢٠٣٢). وقال ﷺ: «ومن كشف عورة أخيه المسلم كشف الله عورته حتى يفضحه بها في بيته». صحيح ابن ماجه (٢٥٤٦).

(٣) «المفردات» (١٦٣)، و«مقاييس اللغة» (١٣٣).

(٤) «المصباح المنير» (٥٣)، و«كتاب العين» (١٨٠/١).

(٥) «مرقاة المفاتيح» للقراري (٢٤٥/٧)، و«عون المعبود» (٢٤٠/٨)، و«تحفة الأحوذى» (٤٢٢/٥).

(٦) «إنجاز الحاجة شرح سنن ابن ماجه» (٢٥١/٦).

فإن الله سبحانه سيكشف عيوبه ومساوئه قصاصاً وفاقاً، جزاءً عدلاً، حسناً، لا أحسن منه، والعورة هي: «كل ما يُستَحْيَا منه إذا ظهر»^(١).

الصفتان المقيّدتان (الإِسْمَاع) و(المُرَاءاة) الكماليتان

❖ السُّنَّة النَّبَوِيَّةُ: قال رسول الله ﷺ: «من سَمَعَ سَمَعَ الله به، ومن يُرائي يُرائي الله به». وفي لفظ: «من يُسَمِّعُ يُسَمِّعُ الله به»^(٢). وفي رواية: «يوم القيامة»^(٣).

❖ المَعْنَى فِي اللُّغَةِ: سَمِعَ: سَمِعَت بِالرَّجُلِ تَسْمِيعاً وَتَسْمَعَةً إِذَا شَهَرَتْهُ، وَنَدَدَتْ بِهِ، وَسَمِعَ فَلَانٌ بِعَمَلِهِ إِذَا أَظْهَرَهُ لِيُسَمِّعَ^(٤).

الرياء: مشتق من الرؤية، وهي: أريته على خلاف ما أنا عليه^(٥).

والرياء في الاصطلاح هو: إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها، فيَحْمَدُوا صاحبَهَا.

والسُّمعة نحو ما في الرِّياء، لكنها تتعلّق بحاسة السمع، والرياء بحاسة البصر^(٦)، وقيل: من سَمِعَ بعيوب الناس وأذاعها^(٧).

فالرؤية للفعل، والسمع يكون للقول^(٨).

❖ المَعْنَى فِي الشَّرْع: الرِّياء والسُّمعة من الشُّرْك الأصغر كما ذَكَرَهُ أَهْلُ الْعِلْمِ، وَأَنْوَاعُهُمَا مُتَعَدَّدَةٌ، وَخَطَرُهُمَا عَظِيمٌ، إِذْ إِنَّهُمَا وَسِيلَةٌ قَدْ تَفْضِي بِصَاحِبِهَا إِلَى الشُّرْكِ الْأَكْبَرِ، وَإِنَّهُمَا يُحْبِطَانِ الْعَمَلَ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الْمَفَاسِدِ وَالْأَضْرَارِ الْجَسِيمَةِ^(٩).

ولهذا فإنَّ الله تبارك وتعالى يُقَابِلُ فاعلهما بِالْجَزَاءِ الْعَادِلِ، الْحَسَنِ، الَّذِي يَحْمَدُ عَلَيْهِ،

(١) «النهاية» (٦٤٩).

(٢) البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٦) (٢٩٨٧).

(٣) البخاري (٧١٥٢). وقال ﷺ: «... وَمَنْ قَامَ بِرَجُلٍ مُسْلِمٍ مَقَامَ سَمْعٍ وَرِيَاءٍ، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُومُ بِهِ مَقَامَ سَمْعَةٍ وَرِيَاءٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». «صحیح أبي داود» (٤٨٨١)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٩٣٤).

(٤) «النهاية» (٤٤٥).

(٥) «لسان العرب» (١٠٩٤/١).

(٦) «الفتح» (٤٠٨/١١).

(٧) انظر: «شرح صحيح مسلم» للنووي (٣٤٣/٩) والذي يظهر أن الحديث يشمل جميع هذه المعاني، لأن جميعها مرجع إلى التسميع، انظر: «عقيدة أهل السنة في صفات الله» (٣٨٣).

(٨) «شرح صحيح مسلم» لابن عثيمين (٣٠٥/٨).

(٩) انظر: «الشرك بالله أنواعه وأحكامه» ماجد محمد علي شبالة (٦٥٨، ٦٦٩).

بالقواعد الحميدة، والسنن الرشيدة، وهي: أن «الجزاء من جنس العمل»، و«كما تدينُ تُدان» وهو أنه تعالى «قابله بعقوبة يوم القيامة بأن: يُشهره، ويفضحه، ويظهر ما كان يُبطنه أما رؤوس الخلائق، حتى يرى الناس ويسمعوا ما يحلُّ به من الفضيحة»^(١)، ولهذا قال: «سَمِعَ الله به» يعني: أظهر الله تعالى حاله للناس، حتى أسمع الناس بعضهم بعضاً بحاله، فصار الناس يتحدثون به، وقوله: «يُرائي الله به»؛ أي: أظهر أمره^(٢). وقد يكون تسميع الله بالعبد في الدنيا كذلك كما جاء في بعض ألفاظه دون تقييد^(٣).

يقول ابن القيم رحمه الله: «مَنْ يُظْهَرُ لِلخَلْقِ خِلَافَ مَا يَعْلَمُهُ اللهُ تَعَالَى فِيهِ، فَإِنَّ اللهَ سَبَحَانَهُ يَظْهَرُ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَسْبَابُ الْفَلَاحِ، وَالنَّجَاحِ، وَالْفَوْزِ، وَيَبْطِنُ لَهُ خِلَافُهَا، وَفِي الْحَدِيثِ: «مَنْ رَأَى: رَأَى اللهُ بِهِ، وَمَنْ سَمِعَ: سَمِعَ اللهُ بِهِ»^(٤).

❦ (١٩) الصفة المقيدة (التَّشْدِيد) الكمالية ❦

❦ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَاسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤]^(٥).

❦ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: قال رسول الله ﷺ: «لَا تُشَدُّدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَيُشَدَّدَ عَلَيْكُمْ، فَإِنَّ قَوْمًا شَدَّدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ، فَشَدَّدَ اللهُ عَلَيْهِمْ، فَتَلَكَ بِقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ، وَالْدِّيَارَاتِ ﴿وَرَهَابِيَّةٍ﴾ ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ» [الحديد: ٢٧]^(٦).

❦ الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الشَّدَّ: العقد القوي، يقال: شددت الشيء: قويت عقده، والشدة هي: القوة، والمغالبة، والصلابة، وفيه: (مَنْ يُشَادُّ الدِّينَ يَغْلِبْهُ)؛ أي: يُقاويه ويقاومه، ويكلف نفسه من العبادة فوق طاقته^(٧).

(١) انظر: «المفهم» (٥٠٠/٦)، و«فتح الباري» (٤٠٩/١١)، و«تكميل إكمال المعلم بفوائد مسلم» للمازري (٥٧٤/٢).

(٢) «شرح صحيح مسلم» لابن عثيمين (٣٠٥/٨).

(٣) انظر: «شرح رياض الصالحين» لابن عثيمين (٢٣٣/٤).

(٤) «الوالب الصيب» (٥٦).

(٥) وقال تعالى: ﴿وَأَشَدُّ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [يونس: ٨٨]، وقال سبحانه: ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [غافر: ٣].

(٦) رواه أبو داود (٤٩٠٤)، وصححه الألباني في «جلباب المرأة المسلمة» (٢٠)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٣١٢٤). وقال ﷺ: «تَنْتَهَكُ ذِمَّةَ اللهِ، وَذِمَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَيُشَدُّ اللهُ قُلُوبَ أَهْلِ الذِّمَّةِ، فَيَمْنَعُونَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ»، البخاري (٣١٨٠).

وقال ﷺ: «اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم سنن كسني يوسف». البخاري (٢٩٣٢) ومسلم (٦٧٥).

(٧) وتستعمل في العقد، وفي البدن، وفي قوى النفس، وفي العذاب، كقوله تعالى: ﴿وَكَاوُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فاطر: ٤٤]، وتأتي الشدة بمعنى: السرعة، يقال: وشد فلان واشتد: إذا أسرع. انظر: المفردات (٤٤٧) و«معجم الصحاح» (٥٣٨)، و«النهاية» (٤٦٩)، و«معجم الصحاح» (٥٠١).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: جاءت هذه الصفة المقيدة في السنة في نهى النبي ﷺ عن التشديد على النفس في العبادة، وهذا له حالتان:

الأول: التشديد في الطاعة والعبادة «بالأعمال الشاقة: كصوم الدهر، وإحياء الليل كله، واعتزال النساء»^(١).

الثاني: الابتداع فيها بما لم يفرضه الله تعالى، كما وقع لأهل الكتاب، كما في الحديث المتقدم: في قوله «(في الصوامع): جمع صومعة، وهي: موضع عبادة الرهبان، (ورهبانية): نصب بفعل يفسره ما بعده؛ أي: ابتدعوا رهبانية، ما فرضناها عليهم»^(٢)، وفي هذا بيان أنه ينبغي للعبد أن يكون على حذرٍ من الابتداع في الدين، ما ليس له أصل قويم، وكذلك القيام بالعبادة فوق الطاقة، فيعاقب بخلافه، «بأن يفوت عنكم بعض ما وجب عليكم، بسبب ضعفكم من تحمل المشاق»^(٣).

وفي حديث البخاري المتقدم: «فيشدُّ الله قلوب أهل الذمة»، أي: يقوي قلوب أهل الذمة كأنها مشددة على المسلمين، ويمنعون عنهم الأموال، بسبب أن المسلمين ينقضون عهد الله تعالى، وعهد رسوله ﷺ الذي يتعلق بحقوق أهل الذمة، ويعاملونهم بالظلم والعدوان، فيعاقبهم الله في الدنيا والآخرة»^(٤).

٢٠) الصفة المقيدة (التَّخْوِيف) الكمالية

﴿السُّنَّة النَّبَوِيَّةُ: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَخَافَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ، أَخَافَهُ اللَّهُ»^(٥).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الخوف: الفزع والذعر، فهو توقع مكروهٍ من إمارة مظنونة، أو معلومة، ويستعمل ذلك في الأمور الدنيوية، والأخروية»^(٦).

(١) «عون المعبود» (٢٥٦/٨).

(٢) المصدر السابق.

(٣) المرجع السابق.

(٤) (منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري) شرح منقول من أحد المواقع من الانترنت.

(٥) أخرجه ابن حبان (٣٧٣٨)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٩٧٧)، وفي «السلسلة الصحيحة» (٢٣٠٤) (٣٨٢/٥).

وفي رواية: «من أخاف أهل المدينة ظلمًا أخافه الله وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلاً». رواه أحمد (١٦٥٥٧، ١٦٥٥٩، ١٦٥٦٥)، وصححه شعيب الأرناؤوط (٩٢/٢٧، ٩٤، ٩٨)، والألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٧٣/٦).

(٦) «المفردات» (٣٠٣)، و«هقايب اللغة» (٢٧٤).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: أَخْبَرَ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّ مَنْ أَخَافَ الْمَدِينَةَ الْمُنُورَةَ، وَهِيَ: طَبِيعَةُ طَبِيعَتِهَا اللَّهُ تَعَالَى، فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ سَيَخُوفُهُ، جَزَاءً حَقًّا مِنْهُ تَعَالَى، وَحِكْمَةً يَحْمَدُ عَلَيْهَا، لِأَنَّهُ سَبْحَانَهُ يَغَارُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَيَنْصَرِّهُم، وَيَحْمِيهِمْ، وَيُدَافِعُ عَنْهُمْ، فَمَنْ عَامَلَهُمْ بِصِفَةِ، عَامَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِتِلْكَ الصِّفَةِ بِعَيْنِهَا فِي الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةِ.

ولهذا قال ﷺ: «مَنْ أَخَافَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَخَافَهُ اللَّهُ»، «لَأَنَّهُمْ جِيرَانُ النَّبِيِّ ﷺ فَلَهُمْ أَعْظَمُ حُرْمَةٍ عَنِ الْعِبَادِ (وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ) بِأَيِّ مَخَافَةٍ»^(١) كانت، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَيُذَيِّقُهُ أَشَدَّ الْخَوْفِ، أَيُّ: يَلْقَى فِي قَلْبِهِ وَرُوعَهُ الذِّكْرَ وَالْفَزَعَ مِنْ جِنْسِ فَعْلِهِ، وَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ فِي الدَّارَيْنِ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَطْلَقَ ذَلِكَ، وَلَمْ يَقْيِدْهُ بِزَمَانٍ، وَلَا مَكَانٍ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ الرِّوَايَةُ الْآخَرَى: «مَنْ أَخَافَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ أَخَافَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...»^(٢).

وفيه تحذير من إيذاء أهل المدينة، أو بعضهم، قال المجدد البغوي: «يَتَعَيَّنُ مَحَبَّةُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَسُكَّانِهَا، وَقَطَانِهَا، وَجِيرَانِهَا، وَتَعْظِيمُهُمْ، سَيِّمَاتُ الْعُلَمَاءِ، وَالشَّرَفَاءِ، وَخِدْمَةُ الْحَجَرَةِ النَّبَوِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ، فَإِنَّهُمْ قَدْ ثَبَتَ لَهُمْ حَقُّ الْجَوَارِ، فَلَا يَسْلُبُ عَنْهُمْ»^(٣).

﴿٢١﴾ الصِّفَةُ الْمَقْيِدَةُ (الضَّارُّ) الْكِمَالِيَّةُ

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ ضَارَّ ضَارَّ اللَّهُ بِهِ...»»^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الضَّرُّ: ضِدُّ النَّفْعِ، وَالضَّرَارُ: فَعَالٌ مِنَ الضَّرِّ، وَهُوَ: الْجَزَاءُ عَلَيْهِ، وَالضَّرُّ بِالضَّمِّ: كُلُّ مَا كَانَ سَوْءَ حَالٍ، وَفَقْرٌ، وَشِدَّةٌ فِي بَدَنِ، وَبِالْفَتْحِ: كُلُّ مَا كَانَ ضِدُّ النَّفْعِ، فَالضَّرَارُ: الْقَصْدُ إِلَى إِيقَاعِ الضَّرِّ بِأَحَدٍ بِلَا حَقٍّ.

وبالجملة: هُوَ كُلُّ مَنْ قَصَدَ مَكْرُوهًا بِغَيْرِهِ بِغَيْرِ حَقٍّ»^(٥).

(١) «التنوير» (١٠/٥٥ - ٥٦).

(٢) قال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي «فَيْضِ الْقَدِيرِ» (٦/٤٠): «رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ بِسَنَدٍ حَسَنٍ».

(٣) «التنوير شرح الجامع الصغير» (١٠/٥٥).

(٤) وَفِي لَفْظٍ: «مَنْ ضَارَّ أَضَرَّ اللَّهُ بِهِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ (١٥٧٥٥)، وَحَسَنَةُ الْعَلَامَةِ شُعَيْبُ الْأَرْنَؤُوط (٣٤/٢٥)، وَحَسَنَةُ

الْأَلْبَانِيِّ فِي «صَحِيحِ ابْنِ مَاجَه» (٢٣٤٢)، وَفِي «صَحِيحِ التِّرْمِذِيِّ» (١٩٤٠)، وَفِي «صَحِيحِ أَبِي دَاوُدَ» (٣٦٣٥).

(٥) «النهاية» (٥٤٢)، وَ«المصباح المنير» (٢٠٨)، وَ«حَاشِيَةُ السَّنَدِيِّ عَلَى مُسْنَدِ أَحْمَدَ» (٣٤/٢٥).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: جاءت هذه الصفة المقيدة الكمالية في إخبار النبي ﷺ أن: «مَنْ ضَارَّ؛ أي: مَنْ أَوْصَلَ ضرراً إلى مسلم، أو معاهد، بل أو أي حيوان محترم بغير حق، (لأنَّ ضارَّ، نكرة جاءت في سياق الشرط، وهي تُفيد العموم)، والمعنى: مَنْ أَدْخَلَ على مسلم جاراً كان أو غيره، مضرّة في ماله، أو نفسه، أو عرضه بغير حق «ضارَّ الله به»؛ أي: جازاه من جنس فعله، أوقع به الضرر البالغ الشديد في الدُّنيا، وشدّد عليه عقابه في العُقْبَى (١).

وهذا من عَدَلِ الله الكامل، الذي لا أعدل منه سبحانه، فعدله وسع الخليقة كلها، إنسها، وجنَّها، مؤمنها، وكافرها، وحتى البهائم، ولهذا فإنَّ الله ﷻ: «حرم على العباد مضارة غيرهم، ومشاققتهم، بل أمرهم بخلاف ذلك، فخيرُ النَّاسِ أحسنُهم للناس، وأحبُّ عباد الله أنفعُهم لعباده» (٢).

﴿٢٢﴾ الصفة المقيدة (التفريق) الكمالية

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال ﷺ: «مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ والدَةٍ وولدها، فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَبَّتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (٣).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ﴾: الفرق: الفصل، يقال: فرقت بين الشيء فرقاً: فصلت أبعاضه. وفرقت بين الحقِّ والباطل: فصلت، والتشديد (فَرَّقَ) للمبالغة (٤).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: أخبر الصادق المصدوق ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى أن «مَنْ فَرَّقَ» بتشديد الرَّاء «بَيْنَ الوالدة وولدها»؛ أي: ببيع، أو هبة، أو خديعة بقطيعة وأمثالها، وفي معنى الوالدة: الوالد، بل وكل ذي رحم محرم، (ويدخل كذلك): التفريق بين الجارية وولدها بالبيع، والهبة، وغيرها (٥).

قابله سبحانه من جنس فعله يوم الدين: «فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَبَّتِهِ»؛ أي: «مَنْ أَوْلَادَهُ، ووالديه، وغيرها «يوم القيامة»؛ أي: في موقف يجتمع فيه الأحباب، ويشفع بعضهم بعضاً عند رَبِّ الأرباب» (٦).

(١) «تحفة الأحوذى» (٣٥٥/٥)، و«عون المعبود» (٤٦٧/٦)، و«فيض القدير» (١٧٣/٦)، و«التنوير» (٢٩٨/١٠).

(٢) «التنوير» (٢٩٨/١٠).

(٣) «صحيح الترمذي» (١٢٨٣) (١٥٦٦).

(٤) «المصباح المنير» (٢٧٢)، و«المفردات» (٦٣٢).

(٥) «تحفة الأحوذى» (١٧٩/٤).

(٦) المصدر السابق.

(٢٣) الصفة المقيدة (المُصرف) الكمالية

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَا مِنْ أَحَدٍ أَنْصَرَفُوا﴾ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الصرف: العدول عن الشيء، يقال: صرفه عن كذا: إذا عدل به عنه، ونحاه، وأصله: ردُّ الشيء من حالةٍ إلى حالةٍ، وإبدال غيره به، يقال: صرفته فانصرف^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: جاءت هذه الصفة الحميدة في إخبار ربنا العظيم عن المنافقين الذين يحذرون أن تنزل عليهم سورة تنبؤهم بما في قلوبهم، فإذا نزلت سورة ليؤمنوا بها، ويعملوا بمضمونها (نظر بعضهم إلى بعض) أي: تلفتوا إلى بعضهم جازمين على ترك العمل بها، يتغامزون بالعيون إنكاراً للوحي، وسخريّةً به، وبالمؤمنين، قائلين: (هل يراكم من أحد) أي: من المسلمين، لنصرف عنهم متسللين، فانقلبوا والعياذ بالله معرضين عن الهدى، والحق المبين، فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾.

فجازاهم الله سبحانه بعقوبة من جنس عملهم، فكما انصرفوا عن العمل (صرف الله قلوبهم) أي: صدّها عن الحق، وخذلها عن فهم القرآن، (بأنهم) أي: بسبب أنهم (قوم لا يفقهون)، أي: فقهاً ينفعهم^(٢).

يقول الإمام الجليل ابن القيم رحمه الله: «فأخبر سبحانه عن فعلهم وهو الانصراف، وعن فعله فيهم وهو صرف قلوبهم عن القرآن وتدبره، لأنهم ليسوا أهلاً له، فالمحل غير صالح ولا قابل، فإن صلاحية المحل بشيئين: حسن الفهم، وحسن القصد، وهؤلاء قلوبهم لا تفقه، وقصودهم سيئة، فلا أقبح من فعلهم، ولا أحسن من فعله سبحانه»^(٣)، وهكذا إذا أعرض العبد عن ربه سبحانه، جازاه بأن يُعرض عنه، فلا يُمكنه من الإقبال عليه، وهذا هو الخسران المبين، في الدنيا، ويوم الدين.



(١) «عمدة الحفاظ» (٣٣٢/٢).

(٢) «انظر: «تفسير ابن كثير» (٥٤٦/٢)، و«تفسير النسفي» (٤٦٠)، و«تفسير السعدي» (٣٥٦).

(٣) الضوء المنير على التفسير» جمع علي الحمد الصالحي من كتب الإمام ابن قيم الجوزية (٤١٦/٣).

﴿٢٤﴾ الصفة المقيدة (المُبْطِل) الكمالية

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تبارك وتعالى: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٨]^(١)

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ﴾: الباطل: نقيض الحق، وهو ما لا ثبات له عند الفحص عنه، وقد يقال ذلك في الاعتبار إلى المقال والفعال، والإبطال يقال تارة في إفساد الشيء وإزالته حقاً كان ذلك الشيء أو باطلاً، وتارة لمن أتى بالباطل^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْحِ﴾: إن أفعال ربنا سبحانه كلها أفعال رشاد، وهدي، وصلاح، وحق، فهو سبحانه يحب معالي الأمور^(٣)، ويريدها أن تعلو من جميع الوجوه، ومن أجلها، وأكدها عنده سبحانه: نصرة الحق، وإبطال الباطل باضمحلاله، وثبات الحق وأهله.

كما أخبر سبحانه ما حصل في غزوة بدر^(٤) في إرادة المسلمين الغنيمة وكراهية القتال^(٥)، والله جل جلاله الحكيم الذي يضع الأسباب وما يترتب عليها من المسببات، في أحسن مواضعها، العليم بعواقب الأمور، ومآلها، ونتائجها، ولهذا جمعهم من غير ميعاد، ليظفر أهل الإسلام على أهل الكفران، "ليظهر دينه، ويرفع كلمة الإسلام، ويجعله غالباً على كل الأديان، وهو سبحانه أعلم بعواقب الأمور، وهو الذي يدبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد لا يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم"^(٦).

ولهذا قال جل جلاله: ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ﴾: "بما يظهر من الشواهد والبراهين على صحته وصدقه، ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾، بما يقيم من الأدلة والشواهد على بطلانه ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾"^(٧).

وأخبر سبحانه على لسان موسى ﷺ أن الله تعالى سيبطل السحر العظيم الذي جاء به

(١) وقال عزّ شأنه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُهُ بِالسِّحْرِ إِلَّا اللَّهُ سَيَّبِطُهُ﴾ [يونس: ٨١]، وقال عزّ شأنه: ﴿وَيَمَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ﴾ [الشورى: ٤٢].

(٢) «المفردات» (١٢٩)، و«عمدة الحفاظ» (٢٠١/١).

(٣) كما في الحديث: «إن الله يحب معالي الأمور وأشرفها، ويكره سفاسفها». صحيح الجامع (١٨٩٠).

(٤) قال تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ مِثْلِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ﴾ ﴿يَجِدُونَكَ فِي الْحَقِّ بَدًّا مَا نَبَيَّ كَانُوا يُسَافِرُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَغْلِبُونَ﴾ ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ يَكْفُرَنِيهِ وَيَقْطَعُ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [الأنفال: ٥ - ٨].

(٥) انظر الواقعة في تفسير الطبري (١٠/٤)، وابن كثير (٣٩٤/٢).

(٦) «تفسير ابن كثير» (٣٩٥/٢).

(٧) «تفسير السعدي» (٣١٦).

سحرة موسى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ﴾ [يونس: ٨١]، أي: إن الله سيضمحلّه ولا يبقيه، وقد وقع كما أخبر: "بأن سلط عليه عصا موسى قد حولها ثعباناً يتلفه، حتى لم يبق منه شيئاً" (١).

وهكذا كل مفسد عمل عملاً، واحتال كيداً، أو أتى بمكر، فإن عمله سيبتل ويضمحل، وإن حصل لعمله روجان في وقتٍ ما، فإن مآله الاضمحلال والمحق (٢).



(٢٥) الصفة المقيدة (الفضح) الكمالية



﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾ قال ﷺ: «من انتفى من ولده ليفضحه في الدنيا، فضحه الله يوم القيامة على رؤوس الأشهاد قصاص بقصاص» (٣).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ﴾ الفضح: انكشاف الشيء وبيانه للأعين، ومنه: أفضح الصبح: بدا، والفضيحة: العيب، ولا يكاد يقال إلا في قبيح، يقال: فضحه: كشف مساويه (٤).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾ قوله: «من انتفى من ولده ليفضحه في الدنيا»، أي: انقطع عنه بأن نفى نسبه عنه، وقال: إنه ليس مني (٥).

قوله: «فضحه الله»، أي: كشف مساويه وعيوبه أمام الخليقة في يوم القيامة، جزاءً وفاقاً كما انسلخ من ولده وفضحه في الدنيا.

ولهذا قال ﷺ: «قصاص بقصاص»، «أي: ذلك الذي يُفعل به قصاص، أي: فعل يساوي فعله، يعني: من جنس فعله» (٦)، وهذا غاية العدل وأحسنه (٧).



(١) «تفسير الطبري» (٢٣٣/٤).

(٢) «تفسير السعدي» (٣٧١).

(٣) رواه أحمد (٤٧٩٥) وحسنه شعيب الأرناؤوط (٤١٤/٨)، والألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٤٨٠). وقال ﷺ: «... فإنه من طلب عورة أخيه المسلم طلب الله عورته حتى يفضحه في بيته». انظر تخريج هذا الحديث في صفة «تتبع العورات» رقم (١٦).

(٤) ينظر: «النهاية» (٧٠٩)، و«القاموس المحيط» (١٠٠٠)، و«مقاييس اللغة» (٧٤٠).

(٥) «حاشية السندي على المسند» (٤١٤/٨).

(٦) المصدر السابق.

(٧) «ووضح الله تعالى للعبد هو كشف وإظهار حقيقة ما قصده من عمله للخلق، وهو من الصفات الفعلية الصادرة منه تعالى، والله يفضح كل من عمل عملاً يريد به خلاف ما أظهر للناس منه، والفضيحة مفعوله المخلوق القائم بالعبد». «عقيدة أهل السنة والجماعة في صفات الله» (٤١٩).

﴿٢٦﴾ الصفة المقيدة (الإبرام) الكمالية

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ [الزخرف: ٧٩].

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ﴾: الإبرام: إحكام الأمر، وإتقانه، وأصله من إبرام الجبل، أي: فتلته فتلاً محكماً فهو مبروم، وبريم، وأبرمت العقد إبراماً: أحكمته، والبرمة: القدر من ذلك لإحكامها^(١).

ويأتي بمعنى الكيد، كما ثبت عن مجاهد رحمه الله في قوله: "﴿أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾" قال: مجمعون: إن كادوا شراً كدنا مثله^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: ثبت الإبرام في حق ربنا العظيم في كتابه الحكيم، في مقابلة المشركين، "وذلك لأن المشركين كانوا يتحيلون في رد الحق بالباطل بحيل، ومكر يسلكونه، فكادهم الله وردّ وبال ذلك عليهم"^(٣).

قال شيخ المفسرين ابن جرير الطبري رحمه الله: "يقول تعالى ذكره: أم أبرم هؤلاء المشركون من قريش أمراً فأحكموه، يكيدون به الحق الذي جئناهم به، فإننا محكمون لهم ما يخزيهم، ويذلهم من النكال"^(٤).

﴿٢٧﴾ الصفة المقيدة (اللوي) الكمالية

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يحب هذا وضربه^(٥)، يلوون ألسنتهم للناس ليّ البقر لسانها بالمرعى! كذلك يلوي الله ألسنتهم ووجوههم في النار»^(٦).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ﴾: اللوي: الإمالة، يقال: لوى رأسه، وبرأسه: أماله، وألوى برأسه ولواه: إذا أماله من جانب إلى جانب، قال تعالى: ﴿لَوْأَ رُؤُوسُهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: هـ]، أمالوها، ولوى بلسانه كذا: كناية عن الكذب أو تخرص الحديث^(٧).

(١) «المفردات» (١٢٠)، و«عمدة الحفاظ» (١٨٤/١)، و«لسان العرب» (٤٠١/١)، و«المصباح المنير» (٣٣).

(٢) «التفسير الصحيح» (٣١٠/٤).

(٣) «تفسير ابن كثير» (١٧٣/٤) وعلق رحمه الله على قول مجاهد الذي تقدّم: (وهذا الذي قاله مجاهد كما قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠].

(٤) «التفسير» (٥٣٧/٦).

(٥) أي: أمثاله ونظراءه. «النهاية» (٥٤٠).

(٦) صححه الألباني في «صحيح الترمذي والترغيب والترهيب» (٢٥٠/٣) (٣٢٠٧)، وفي «السلسلة الصحيحة» (١٢٦٢/٧) (٣٤٢٦).

(٧) «المفردات» (٧٥٣)، و«النهاية» (٨٤٦).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: أَنْ مِنْ مُحَامِدِ اللَّهِ السَّنِيَّةِ، وَمَدَائِحِ الْكَرِيمَةِ، وَمِنْ سَنَنِهِ الْمَلِيحَةِ، الَّتِي لَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ الْخَلِيقَةِ أَنْ يَغْيِرَهَا، الْمَجَازَاةُ مِنْ جِنْسِ الْفِعْلِ.

وَمِنْ ذَلِكَ: مَنْ يَمِيلُونَ أَلْسِنَتَهُمْ عَنِ الْحَقِيقَةِ بِالْكَذِبِ، وَالتَّلَوُّنَ عَنِ الْحَقِّ وَالْهُدَى بِالْبَاطِلِ وَالصَّدَّ.

وَهَذَا مِنْ أَشْبَعِ الْأَوْصَافِ وَالْخِلَالِ، لِأَنَّهَا مِنْ أَوْصَافِ أَهْلِ النِّفَاقِ الذِّمَامِ، الَّذِينَ يُؤْثِرُونَ الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ، كَمَا قَالَ رَبُّنَا فِي الْقُرْآنِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥].

وَقَدْ شَبَّهَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِأَشْبَعِ الْوَصْفِ الذِّمِيمِ: بِالْبَقَرِ الَّتِي تَمِيلُ لِسَانَهَا بِالْأَكْلِ فِي الْمَرْعَى، وَلِهَذَا فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى الْحَكِيمَ يَجَازِيهِمْ بِالْعِقَابِ الْأَلِيمِ يَوْمَ الدِّينِ، أَنْ يَمِيلَ أَلْسِنَتَهُمْ، وَوُجُوهُهُمْ فِي الْجَحِيمِ، فَقَابِلَ سَبْحَانِهِ الْبَاطِلِ وَسُوءِ الطَّوِيَةِ، بِالْجِزَاءِ الْعَدْلِ الْحَسَنِ، بَعْدَ الْإِمْهَالِ وَالرَّوِيَةِ.



(٢٨) الصفة المقيدة (الإِثْلَاف) الكمالية



﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَهَا يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ»^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: التَّلَفُ: هُوَ ذَهَابُ الشَّيْءِ، يُقَالُ: تَلَفَ الشَّيْءُ تَلْفًا: هَلَكَ، فَهُوَ تَالَفَ. وَأَتْلَفَهُ: أَفْنَاهُ. وَذَهَبَتْ نَفْسُهُ تَلْفًا: هَدَرًا^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: أَخْبَرَ الْمُصْطَفَى ﷺ أَنْ: «مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ»؛ أَي: بِوَجْهِ مِنْ وَجْهِهِ التَّعَامُلِ أَوْ لِلْحِفْظِ، أَوْ لِغَيْرِ ذَلِكَ: كَقَرْضٍ، أَوْ غَيْرِهِ، كَمَا يُشِيرُ إِلَيْهِ عَدَمُ تَقْيِيدِهِ بِظُلْمًا.

وَقَوْلُهُ: «يُرِيدُ أَدَاءَهَا»: إِلَى أَهْلِهَا، وَقَضَائِهِمْ مَا أَخَذَ مِنْهُمْ «أَدَّى اللَّهُ عَنْهُ»؛ أَي: يَسَّرَ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ بِإِعَانَتِهِ وَتَوْسِيعِ رِزْقِهِ.

«وَمَنْ أَخَذَهَا يُرِيدُ إِتْلَافَهَا» بِعَدَمِ أَدَائِهَا إِلَيْهِمْ.

(١) البخاري (٢٣٨٧).

(٢) «مقاييس اللغة» (١٣٠)، و«القاموس المحيط» (١٥٩)، و«المصباح المنير» (٤٩).

قوله: «أَتْلَفَهُ اللهُ» يعني: أَتْلَفَ أمواله في الدنيا، بكثرة المَحَنَ، وحُلُولِ المَصَائِبِ، والمِغَارِمِ، ومَحَقِ البركة، فيذهب اللهُ تعالى من يده (جزاءً وفاقاً) فلا ينتفع به لِسوءِ نيته، ويبقى عليه الدَّيْنُ، وتُتْلَفُ نفسه في الآخرة بالعذاب والعقاب.

وعَبَّرَ بِأَتْلَفَهُ، لأنَّ المَالَ كِتَالَفِ النفس، أو في الآخرة بالعذاب^{(١)(٢)}.

قال الحافظ ابن حجر رحمته الله: «ظاهره أنَّ الإِتْلَافَ يقع له في الدنيا، وذلك في مَعَايِشِهِ، أو في نفسه، وهو علم من أعلام النبوة، لِمَا نَرَاهُ بِالمُشَاهَدَةِ مِمَّنْ يتعاطى شيئاً من الأمرين، وفيه الترغيب في تحسين النية، والترهيب من ضِدِّ ذلك، وأنَّ مَدَارَ الأعمال عليها»^(٣).

﴿٢٩﴾ الصفة المقيدة (المانع) الكمالية

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم: ... ورجل منع فضل مائه فيقول الله يوم القيامة: اليوم أَمْنَعُكَ فضلي كما منعت فضل ما لم تعمل بذاك»^(٤).

﴿المَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: أخبر الصادق المصدوق ﷺ أن من منع فضل ما آتاه الله تعالى، وهو ما زاد عن الحاجة التي يقتنيها العبد، فإنه سبحانه سيجازيه عدلاً حقاً من جنس فعله، بأن يمنعه فضله في يومٍ هو أشدُّ ما يكون محتاجاً إليه في الدار الآخروية.

وقد ذكر ﷺ فرداً من أفراد المنع وهو: (الماء) لشدة الحاجة إليه في الحياة المعاشية، فلا يستغني عنه أحدٌ من الخليفة.

والمقصود في قوله: «منع فضل الماء» «هو الماء الذي لا يملكه، مثل رجل عنده غدير في أرضه، وهو مجتمع ماء السيول، فلا يَمَكُنُ الناسَ من أخذه، أما الماء الذي يملكه فهو

(١) «فيض القدير» (٤١/٦)، و«التنوير شرح الجامع الصغير» (٥٧/١٠)، و«إنجاز الحاجة في شرح ابن ماجه» (١١٤/٦).

(٢) يقول العلامة ابن عثيمين: «التلف نوعان: تلف حسي، وتلف معنوي، ١) التلف الحسي: أن يتلف المال نفسه، بأن يأتيه آفة تحرقه أو يسرق وما أشبه ذلك. ٢) والتلف المعنوي: أن تنزع بركته، بحيث لا يستفيد الإنسان منه في حياته». «شرح رياض الصالحين» (٢٥١/١).

(٣) «فتح الباري» (٦٨/٥).

(٤) البخاري (٢٣٦٩) (٧٤٤٦)، واللفظ له، ومسلم (١٠٨). وقال ﷺ: «إِذَا رَجُلٌ أَتَاهُ ابْنُ عَمِّهِ يَسْأَلُهُ مِنْ فَضْلِهِ، فَمَنْعَهُ، فَمنعه الله فضله يوم القيامة»، حسنه لغيره الألباني في صحيح الترغيب (٥٣٦/١). وقال ﷺ: «من منع فضل مائه، أو فضل كلته، منعه الله فضله يوم القيامة». رواه أحمد في المسند (٦٦٧٣) (٦٧٢٢) وحسنه شعيب الأرناؤوط (٢٥٥/١١)، (٣٣١).

ملكه ، شاء أن يبيعه ، أو يمنعه»^(١).

قوله: «اليوم أمتك فضلي»: فهذا وعيدٌ عظيم بالعذاب ، لكونه منع فضل ما لم تعمل يداه ، والكلاً الذي ينبت بغير فعله لم تعمله يداه^(٢).

ثم ذكر ﷺ علة العقوبة عن ربه تعالى: «كما منعت فضل ما لم تعمل يدك»: «أي: ليس حصوله وطلوعه من منبعه بقدرتك ، بل هو بإنعامي وفضلي»^(٣).



(١) «شرح صحيح البخاري» لابن عثيمين (٤٦٣/٨).

(٢) ينظر: «مجموع الفتاوى» (٢٦٦/٢٠)، (٢١٩/٢٩).

(٣) والمراد: المياه المتاحة التابعة في موضع لا يختص بأحد ولا صنع للأدمنين في إجرائها وإنباطها كمياه العيون ، والأنهار والسيول الجارية». انظر: «عمدة القاري» (٢٠٢/٢٥) ، و«التنوير شرح الجامع الصغير» (٢٢٩/٥) ، و«فيض القدير» (٢٤٧/٤).

الصفات المقيدة على وجه العقوبة:

النوع الثاني: العقوبة من غير جنس الفعل ونوعه

(١) ٣٠. الصفة المقيدة (الخزي) الكمالية

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قَالَ ﷺ: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عِزٌّ مُعْجِزٌ لِلَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ يُخْزِي الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢]﴾^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الْخُزْيُ الرَّجُلُ: لِحَقِّهِ انْكَسَارٌ، إِمَّا مِنْ نَفْسِهِ، وَإِمَّا مِنْ غَيْرِهِ، وَالْخُزْيُ: الذُّلُّ وَالْهَوَانُ، وَأَخْزَاهُ اللَّهُ: أَذَلَّهُ، وَأَهَانَهُ، وَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْاسْتِخْفَافِ، وَالْخُزْيُ يَكُونُ مَحْمُودًا، وَمَذْمُومًا، فَمَتَى كَانَ مِنَ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ يَقَالُ لَهُ: الْهُونُ وَالذُّلُّ، يَكُونُ مَحْمُودًا، وَمَتَى كَانَ مِنْ غَيْرِهِ يَقَالُ لَهُ: الْهُونُ، وَالْهَوَانُ، وَالذُّلُّ، يَكُونُ مَذْمُومًا﴾^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: الْخُزْيُ مِنَ الْأَوْصَافِ الْفَعْلِيَّةِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ وَالتِّي تَقُومُ بِمَشِيئَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَقُدْرَتِهِ، الْمَقْتَرَنَةِ بِحُكْمَتِهِ، «لَأَنَّ كُلَّ فَعْلٍ عُلِقَ اللَّهُ بِالمَشِيئَةِ فَإِنَّهُ مَقْرُونٌ بِالْحِكْمَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]»﴾^(٣).

وعلى هذا فإنَّ الله تعالى يُخْزِي الْكَافِرِينَ وَمَنْ يَشَاءُ مِنَ الظَّالِمِينَ، حَكْمَةً مِنْهُ تَعَالَى، وَعَدْلًا، وَجَزَاءً وَفَاقًا بِفَعْلِهِمْ.

والخزي هو الذُّلُّ والهوان، وهو من أشدَّ العقوبات النفسية، والجسدية، الظاهرة والباطنة، والعياذ بالله تعالى.

ومن خزيه سبحانه لأهل الكفران:

«أَنَّهُ مُدْلِلُهُمْ وَمُورِثُهُمُ الْعَارَ فِي الدُّنْيَا: بِالْأَسْرِ عَلَى أَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ، وَالْقَتْلِ، (وَالْتَشْرِيدِ)،

(١) وقال ﷺ: «فَتَبْلُوهُمْ بِعَذَابِهِمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَضْرِبُكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَكْشِفُ سُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ» [التوبة: ١٤].

(٢) «المفردات» (٢٨١)، و«المصباح المنير» (١٠١).

(٣) «تفسير سورة البقرة» لابن عثيمين (٨٥/٣).

وفي الآخرة بالنيران»^(١)، جزاءً وفاقاً من الدَّيَّان، فالله تبارك وتعالى يُقابل أعداءه بالخزي المهين الحسِّي والمعنوي في الدنيا، ويوم الدين:

فالدنيوي الحسِّي: بالقهر، والقتل، والأسر، على أيدي المؤمنين كما قال سبحانه: ﴿فَتَلَوُهمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَصْرِكُمْ عَلَيْهِمْ﴾، والمعنوي في هذه الدَّار: أنه ﴿يُشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾، وكذلك: ﴿وَيُذْهِبَ غَيِّظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١٤].

والأخروي المعنوي: «فضحهم على رؤوس الخلائق، ويبين كذبهم وافتراءهم على الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْكُونَ فِيهِمْ﴾ [النحل: ٢٧]»^(٢). والحسِّي: النار وبئس المآل، قال سبحانه: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩].

ولما كان الخزي والعياذ بالله تعالى من أشد العقوبات والنكالات في الحياة الدنيوية والأخروية، استعاذ منه خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، ومحمد ﷺ سيد الأنام، وأولياء الرحمن^(٣).

(٢) ٣١ - الصفة المقيدة (الانتقام) الكمالية

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿وَأَمِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]^(٤).
 ﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: النِّقْمَةُ والانتقام: العقوبة بإنكار، ونقمت الشيء ونقمته بالفتح والكسر؛ أي: كرهته^(٥)، والانتقام: افتعال من نقم ينتقم: إذا بلغت به الكراهة حَدَّ السُّخْطِ^(٦).
 ﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: وصف الله تعالى نفسه بالانتقام بِمَنْ يستحق الانتقام من الكافرين،

(١) «تفسير الطبري» (٧٨/٤).

(٢) «تفسير السعدي» (٤٣٨).

(٣) قال الخليل عليه السلام: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧]. ومن دُعائه ﷺ: «اللهم لا تُخْزِنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ولا تُخْزِنِي يَوْمَ الْبَاسِ، فإن من تُخْزِهُ يَوْمَ الْبَاسِ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ»، أخرجه أحمد في المُسْنَد (١٨٠٥٦)، وصححه محققو المسند إسناده صحيح (٥٩٦/٢٩)، وأخرجه ابن السَّيِّ في «عمل اليوم والليلة» (١٢٩)، وصححه إسناده سليم الهلالي (١٣٠/١).

وأولياء الرحمن كما في دعائهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، وفيه «إشارة إلى أن من أدخله الله تعالى النَّارَ فإنه لم يظلمه، ولكنه هو الذي ظلم نفسه». «شرح صحيح مسلم» لابن عثيمين (٥٤٤/١).

(٤) وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال سبحانه: ﴿فَلَمَّا اسْتَوْفَوْا أَنْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥].

(٥) «عمدة الحفاظ» (٢١٦/٤).

(٦) «شأن الدعاء» (٩٠)، و«تفسير الأسماء» للزجاج (٦٢).

والمجرمين، والمعتدين، وهذا وجه الكمال فيه، فإنَّ صفة الانتقام «ليست صفة كمال بذاتها، إلا إذا كانت بمن يستحق الانتقام، ولهذا يقول سبحانه: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]، وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ٤]، وقوله: ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾؛ أي: صاحب انتقام، ولم يقل: (ذو الانتقام)، وفي الرحمة قال: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨] ولم يقل: (ذو رحمة)، لأن الانتقام ليس من أوصاف الله تعالى المطلقة، وليس من أسماء الله المنتقم، فالمنتقم لا يوصف الله به إلا مُقَيَّدًا، فيقال: المنتقم من المجرمين، أما (ذو انتقام) فهي لا تعطى معنى الانتقام المطلق لأن (انتقام) نكرة^(١).

وهذا الذي رَجَّحه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ «وإنما جاء المنتقم في القرآن مقيداً بكفوله: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْقِمُونَ﴾، وجاء معناه مضافاً إلى الله في قوله: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾»^(٢).

فربنا ﷻ ينتقم ويُبَالِغ في العقوبة لِمَنْ يشاء على قدر استحقاقهم بما كفروا، وكذبوا، فهو تعالى يقصم ظهور العُتَاة، وينكل بالجنة، ويشدد العقاب على الطغاة، وذلك بعد الإعذار، والإنذار، وبعد التمكن، والإمهال^(٣).



(٣-٤-٥) ٣٢-٣٣-٣٤. الصفات المقيدة

(الختم) و(الطبع) و(الغشاوة) الكمالية



﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: ١ - قال تعالى: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧].

٢ - وقال ﷻ: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

٣ - وقال جل ثناؤه: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

٤ - وقال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [يس: ٩].

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الختم والطبع يُقال على وجهين: مصدر ختمت وطبعت، وهو تأثير الشيء كنقش الخاتم، والطابع.

(١) «تفسير سورة البقرة» لابن عثيمين (١/٥٦).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١٧/٩٥).

(٣) انظر: «شأن الدعاء» (٩٠)، و«المنهاج» للحليمي (١/٢٠٨)، و«المقصد الأسنى» للغزالي (١٣٩).

والثاني: الأثر الحاصل عن النقش، ويتجاوز بذلك تارة في الاستيثاق من الشيء والمنع منه، اعتباراً بما يحصل من المنع بالختم على الكتب والأبواب، نحو: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، وتارة في تحصيل الشيء عن شيء اعتباراً بالنقش الحاصل، وتارة يعتبر منه بلوغ الآخر^(١).

الغشاوة: ما يغطي به الشيء، والتغشية: السّتر، والتغطية^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: وصف رَبَّنَا العظيم نفسه بأفعال جليلة على وجه العقوبة لِمَنْ يستحقّها من الكافرين، والمُعَانِدِينَ الصَّادِقِينَ عَنْ دِينِ اللَّهِ تعالى الصراط المستقيم، فكانت هذه الأفعال: «الختم، والطبع، والغشاوة المجعولة على أسماعهم، وأبصارهم وقلوبهم، كل ذلك عقاب من الله تعالى لهم على مبادرتهم للكُفْر، وتكذيب الرسل باختيارهم ومشيتهم، فعاقبهم الله تعالى بعدم التوفيق جزاءً وفاقاً»^(٣) وهذا غاية العدل، والحق، والحكمة، والجزاء الوفاق، لأنه تعالى فعل بهم بعد غاية الإعذار، وبلوغ منتهى الإنذار في التكرار.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والقرآن مملوءٌ من أوله إلى آخره، إنما يدلُّ على أن الطبع، والختم، والغشاوة، لم يفعلها الرَّبُّ سبحانه بعبدٍ من أول وهلة حين أمره بالإيمان، وبيّنه له، وإنما فعله بعد تكرار الدعوة منه سبحانه، والتأكيد في البيان والإرشاد، وتكرر الإعراض منهم، والمبالغة في الكُفْر والعناد، فحينئذ يطبع على قلوبهم ويختم عليها، فلا تقبل الهدى بعد ذلك».

والإعراض والكفر الأول لم يكن مع ختم وطبع، بل كان اختياراً، فلما تكرر منهم صار طبيعة، وسجيّة، فتأمل هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦ - ٧]، ومعلوم أن هذا ليس حكماً يعمُّ جميع الكُفَّار، بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كُفَّاراً قبل ذلك، ولم يختم على قلوبهم، وأسماعهم...»^(٤).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأمة مجمعةٌ على أن الله قد وصف نفسه بالختم، والطبع على قلوب الكافرين، مُجَازَةً لِكُفْرِهِمْ»^(٥).

(١) «المفردات» (٢٧٤).

(٢) «عمدة الحفاظ» (١٦٣/٣).

(٣) «دفع إيهام الاضطراب في آيات الكتاب» للشنقيطي (١٠)، وانظر: «تفسير ابن كثير» (٨٤/١).

(٤) «شفاء العليل» (٢٦٠/١).

(٥) «تفسير القرطبي» (١٨٧/١).

﴿١﴾ ٣٥. الصفة المقيدة (الاستدراج) الكمالية

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾﴾ [الأعراف: ١٨٢] (١).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ» ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿فَلَمَّا شَاؤُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤] (٢).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّفْظِ: اسْتِدْرَاجُهُ: خَدَعَهُ، وَأَدْنَاهُ مِنْهُ عَلَى التَّدْرِجِ، وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الدَّرَجَةِ، يَعْنِي الِاسْتِصْعَادَ وَالِاسْتِنْزَالَ دَرَجَةً بَعْدَ دَرَجَةٍ، وَالْمُرَادُ أَخْذَهُ عَلَى التَّدْرِجِ يَعْنِي قَلِيلًا قَلِيلًا، فَكُلَّمَا فَعَلَ مَعْصِيَةً قَابَلَهَا بِنِعْمَةٍ (٣).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: أَخْبَرَ سَبْحَانَهُ كَمَا فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ أَنَّهُ «سَيَسْتَدْرِجُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِهِ، وَالِاسْتِدْرَاجُ: أَنْ يُدْنِيَهُمْ مِنْ بَأْسِهِ قَلِيلًا قَلِيلًا مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ» (٤).

كلما جددوا خطيئته جدد الله تعالى لهم نعمه، وأنساهم استغفاره وأوبته، ولهذا قال سبحانه: ﴿مَنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: «أَنَّهُ يَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ الرِّزْقِ وَوُجُوهَ الْمَعَاشِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَغْتَرُّوا بِمَا هُمْ فِيهِ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا شَاؤُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]» (٥).

وقد ذكر الإمام الجليل البغوي عن السلف صوراً وأنواعاً من استدراج الله تعالى: «قال عطاء: سنمكر بهم من حيث لا يعلمون، وقيل: نأتيهم من مأمينهم، كما قال تعالى: ﴿فَأَنَّهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْشَسُوا﴾»، قال الكلبي: يزين لهم أعمالهم، ويهلكهم، وقال الضحاك: كلما جددوا معصية جددنا لهم نعمة، قال سفيان الثوري: نسبغ عليهم النعمة،

(١) وقال سبحانه: ﴿فَذَرْفِي وَمَنْ يَكْذِبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القلم: ٤٤].

(٢) أخرجه أحمد في المسند (١٧٣١١)، وحسنه شعيب الأرناؤوط (٥٤٧/٢٨)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤١٤)، وفي «صحيح الجامع» (٥٦١).

(٣) «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة (١٦٦)، و«معجم الصحاح» (٣٣٧)، و«القاموس المحيط» (٤٢٢)، و«فيض القدير» (٣٥٥/١).

(٤) «تأويل مشكل القرآن» (١٦٦).

(٥) «تفسير ابن كثير» (٣٦٩/٢).

ونسيهم الشُّكْر...»^(١). وكل هذه الأقوال حقٌ وصحيحة، فهي داخلية في تفسير التنوع.

وفي الحديث المتقدم فيه إخبار من النبي ﷺ أن الاستدراج قد يكون لِغير الكافرين مِمَّنْ تَمَادَوْا فِي الْمَعَاصِي، الْمُصِرِّينَ عَلَيْهَا، النَّاسِينَ لِآلَاءِ وَنِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِمْ، فَيُجَازِيهِمْ عَقُوبَةُ لَهُمْ بِالْإِعْطَاءِ وَتَكَرُّرِهِ «من الدنيا»؛ أي: من زهرتها وزينتها «ما يُحِبُّهُ»؛ أي: عاكف عليها مُلَازِمٌ لَهَا «فإنما ذلك» فاعلموا إعطاء ما يحب من الدنيا «من» من الله «استدراج»؛ أي: أخذ بتدريج واستنزال من درجة إلى درجة أخرى...، والاستدراج الأخذ بالتدريج لا مُبَاغِتَةً، والمُرَادُ هُنَا تَقْرِيبُ اللَّهِ الْعَبْدَ إِلَى الْعُقُوبَةِ شَيْئًا فَشَيْئًا...»^(٢).

(٧) ٣٦ - الصفة المقيدة (الإِهْلَاك) الكَمَالِيَّة

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِنْ مِّن قَرِيبَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ أَلْفِكَمَةٍ أَوْ مَعْدِبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾﴾ [الإِسْرَاءُ: ٥٨]^(٣).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: قَالَ لَهُ^(٤) النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ صَاحِبَكَ بَعْدَكَ»، وَنَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾﴾ [الرَّعْدُ: ١٣]^(٥).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الْهَلَاكُ يُطْلَقُ عَلَى أَرْبَعَةِ وَجُوهِ:

الأول: اِفْتِقَادُ الشَّيْءِ عَنْكَ، وَهُوَ مَوْجُودٌ عِنْدَ غَيْرِكَ.

الثاني: هَلَاكُ الشَّيْءِ بِاسْتِحَالَةٍ وَفَسَادٍ.

الثالث: الموت.

الرابع: بُطْلَانُ الشَّيْءِ مِنَ الْعَالَمِ وَعَدَمُهُ رَأْسًا.

وَقَدْ يُطْلَقُ الْهَلَاكُ عَلَى: الْعَذَابِ، وَالْخَوْفِ، وَالْفَقْرِ، وَنَحْوِهَا^(٦).

(١) «معالم التنزيل» (٣٠٨/٣).

(٢) «فيض القدير» (٣٥٤/١).

(٣) قال سبحانه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ﴾ [الإِسْرَاءُ: ١٧].

(٤) أي لرسوله الذي أرسله إلى رأس المشركين يدعوه إلى الله تعالى، فقال المشرك: هذا الذي تدعوني إليه من ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، أَوْ نَحَاسٍ، فَتَعَاظِمُ مَقَالَتَهُ فِي صَدْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَرَجَعَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «ارْجِعْ إِلَيْهِ بِمِثْلِ ذَلِكَ، وَأَرْسَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِ صَاعِقَةً مِنَ السَّمَاءِ فَأَهْلَكَتْهُ». وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الطَّرِيقِ لَا يَدْرِي.

(٥) صحح إسناده الألباني في «السنة» لابن أبي عاصم (٦٩٢) (٣٠٤)، والوادعي في «الصحيح من المسند» (٩١) (٨٥/١).

(٦) انظر: «المفردات» (٨٤٣)، و«عمدة الحُفَظَاءِ» (٢٥٤/٤).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: وَصَف رَبَّنَا تَعَالَى نَفْسَهُ بِالصِّفَةِ الْفَعْلِيَّةِ الْمَقِيدَةِ «الْإِهْلَاكِ»، عَلَى وَجْهِ الْجَزَاءِ وَالْعِقَابِ لِلظَّالِمِينَ، وَالْمُتَجَبِّرِينَ، وَالْمُسْرِفِينَ، وَاللَّهُ تَعَالَى مِنْ حِكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ أَنَّهُ لَا يُهْلِكُ أَحَدًا إِلَّا بَعْدَ قِيَامِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ، وَالْبَيِّنَةِ الْوَاضِحَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى﴾؛ أَي: بِكُفْرِهِمْ، وَظُلْمِهِمْ ﴿حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمَهَا﴾؛ أَي: فِي الْقَرْيَةِ وَالْمَدِينَةِ الَّتِي إِلَيْهَا يَرْجِعُونَ، وَنَحْوَهَا يَتَرَدَّدُونَ ﴿رُسُلًا يَلُؤُوا عَلَيْهِمْ أَيْنَتَنَا﴾ الدَّالَّةُ عَلَى صِحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ، وَصَدَقَ مَا دَعَاهُمْ إِلَيْهِ، فَيَبْلُغُ قَوْلُهُ قَاصِيَهُمْ وَدَانِيَهُمْ، ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ بِالْكَفْرِ، وَالْمَعَاصِيِ مُسْتَحِقُونَ لِلْعُقُوبَةِ، وَالْحَاصِلُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَعَذِّبُ أَحَدًا إِلَّا بِظُلْمِهِ، وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِ^(١).

وأنواع إهلاكه سبحانه لأعدائه وأفرادها، وصورها لا تُحاط بها الأقلام، ولا تتوهم كيفيتها الأفهام، فتأتي على طرائق من حيث لا يحتسبها الأنام، فمنها الاستئصال: بأن يبيد أهلها جميعاً قبل يوم القيامة، كما قال سبحانه: ﴿وَلَنْ مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ آلْفِكَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾؛ أَي: أَوْ مُعَذِّبُوهَا بِالْقَتْلِ، أَوْ ابْتِلَائِهِ بِمَا يَشَاءُ مِنْ صَنُوفِ الْعَذَابِ، وَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ وَخَطَايَاهُمْ^(٢).

ومن صور الهلاك التي تأتي من حيث لا يحتسب، ما قاله سبحانه: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَاتَّقِ اللَّهَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦]؛ «أَي: جَاءَهُمُ الْهَلَاكُ وَالْعَذَابُ مِنْ بُنْيَانِهِمُ الَّذِي بَنَوْهُ مِنْ قُصُورٍ مُّشِيدَةٍ، فَصَارَ تَدْبِيرُهُمْ تَدْمِيرَهُمْ»^(٣).

ومن الهلاك الذي قَصَّه سبحانه في الكتاب للأمم الظالمة: الطُّوفَانُ لِقَوْمِ نُوحٍ، وَالرِّيحُ لِعَادَ، وَالصَّيْحَةُ لِمُؤَدَّ، وَالْحَصَى وَقَلْبُ الْقَرْيَةِ لِقَوْمِ لُوطَ، وَالْخَسْفُ كَمَا فَعَلَ بِقَارُونَ، وَالْغَرَقُ لِفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ، وَغَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا لَا يُحْصَى وَلَا يُحَاطَ.



(٨) ٣٧- الصفة المقيدة (شديد المحال) الكمالية



﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ﴾ [الرَّغْد: ١٣].

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: أَصْلُ الْمَحَلِّ فِي اللَّغَةِ: الشَّدَّةُ، يَقَالُ: مَا حَلَّتْهُ مُحَالًا: إِذَا قَاوَيْتَهُ، حَتَّى

(١) «تفسير السعدي» (٦٢١).

(٢) «تفسير الطبري» (٤١/٥)، و«تفسير ابن كثير» (٦٩/٣).

(٣) انظر: «تفسير السعدي» (٤٣٧).

يتبين له أيكما أشد^(١)(٢).

ويطلق على: شدة الأخذ بالعقوبة.

والمماحلة كذلك: المماكرة، والمُكايَدة، والمُغالبة، والمعنى: أنه شديد الكيد والمكر، وقيل: شديد الانتقام.

وكلُّ هذه المعاني مُتقاربة بالفاظ مُتغايرة^(٣).

﴿المَعْنَى فِي الشَّرْع: هذه الصفة الفعلية الاختيارية جاءت في سياق إخبار الله تعالى في جدال الباطل من الكافرين والمُعاندين، فأخبر سبحانه بأنه: ﴿شَدِيدُ الْحَالِ﴾؛ «أي: شديد الحول، والقُوَّة، فلا يريد شيئاً إلاّ فعله، ولا يتعاصى عليه شيءٌ، ولا يفوته هاربٌ»^(٤).

ومن ذلك أنه تعالى: شديد الأخذ بالعقوبة والنقمة، شديد المكر، والكيد لِمَنْ عاداه، أو عادى رُسُلَه، وأوليائه، ودينه، فيأتيهم بالهلكة، والعذاب من حيث لا يحتسبون^(٥).

﴿٩﴾ ٣٨ - الصفة المقيدة (المُوَهِن) الكمالية

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ١٨].

﴿المَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الوهن: ضعف من حيث الخلق، أو الخلق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [آل عمران: ١٣٩]؛ أي: لا تضعفوا، ولا تجبنوا، ويقال: وهنه وأوهنه ووهنه: أضعفه، كما في قوله سبحانه: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ، وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾ [لقمان: ١٤]^(٦).

﴿المَعْنَى فِي الشَّرْع: جاءت هذه الصفة العليّة في بشارة ربِّ العالمين لنبيّه الأمين، وأصحابه الكرام الميامين، بعد نصره سبحانه لهم في بدر على المشركين، من قتلهم ورميهم، حتى انهزموا مدبرين، وأسر منهم صاغرين، فقال سبحانه: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾؛

(١) «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (١٤٣/٣).

(٢) وبهذا المعنى صرح عن قتادة رحمته الله أنه قال: «وهو شديد الحال»؛ أي: القوة، والحيلة. «التفسير الصحيح» (١١٢/٣).

(٣) «عمدة الحفاظ» (٧٥/٤)، و«شرح الواسطية» للهراس (٦٤/٢).

(٤) «تفسير السعدي» (٤١٥).

(٥) انظر: «شرح الواسطية» لعبد العزيز السلطان (٦٥/٢)، و«اللاكي البهية» لآل الشيخ (٤٥١/١).

(٦) والمعنى: أنه كلما عظم في بطنها زادها ضعفاً. انظر: «عمدة الحفاظ» (٣٤٦/٤)، و«القاموس المحيط» (١٤٢٤)، و«تفسير الطبري» (٢٢/٤).

أي: «أن الله تبارك وتعالى مُضعف كلِّ مكرٍ وكيدٍ يكيدون به الإسلامَ وأهلَه، وجاعل مكرهم مُحيقاً بهم فيما يستقبل مصغر أمرهم، حتى يذلُّوا، وينقادوا للحقِّ، أو يهلكوا»^(١).

وجاءت قراءة (موهن) بالتشديد: (مُوَهَّن)^(٢)؛ أي: أن الله تعالى يَنْقُض ما يُبرمه المشركون لرسول الله ﷺ وأصحابه، عقداً بعد عقد، وشيئاً بعد شيء^(٣).

واعلم يا رعاك الله أن هذه البشارة لنبيِّه وصحبه، والندارة لعدوِّه وعدوِّهم، ليس موقوفاً في عصر النبوة فقط، بل هو حاصل في كلِّ زمانٍ ومكان، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

٣٩ (١٠) - الصفة المقيدة (البطش) الكمالية

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿يَوْمَ بَطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦]^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ﴾: البطش: تناول الشيء بِصَوْلَةٍ وقهر، والأخذ الشديد في كلِّ شيء، والبأس، ويقال: هو سرعة الانتقام، وعدم التؤدة في العفو^(٥).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: البطش من صفات الله تعالى الكمالية، لأنها في مُقَابِلَةِ مَنْ يَسْتَحِقُّونَ ذلك، ولهذا مجَّدَ نفسه بالبطش، بل «ولم يكف أن ذكره بلفظ البطش، حتى وصفه بشدة البطش المتضمن لِكَمالِ القوَّة، والعِزَّة، والقدرة، وعدم النَّظير»^(٦).

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾؛ أي: إن عقوبته لأهل الجرائم والذنوب العظام شديدة، ولهذا وصف بطشه (كما تقدم) بـ(الشديد)؛ أي: شدة يزيد عنفها على ما في البطش من العنف المشروط في تسميته، فهو عنفٌ مُضاعف؛ أي: قد تضاعف، وتفاقم بطشه بالجبايرة، والظلمة، وأخذه سبحانه إيَّاهم بالعذاب والانتقام^(٧).

(١) «تفسير الطبري» (٢١/٤). «وابن كثير» (٤٠٦/٢). «تفسير السعدي» (٣١٧).

(٢) إذ إن التشديد يُفيد المُبالغة في الفعل.

(٣) المصدر السابق (٢٢/٤).

(٤) وقال سبحانه: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، وقال جلَّ ثناؤه: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَنَا فَتَمَارَبُوا بِالنَّدْرِ﴾ [القم: ٣٦].

(٥) «عمدة الحفاظ» (٢٠٠/١)، و«معجم مقاييس اللغة» (١٧٩/٣).

(٦) انظر: «عمدة الحفاظ» (٢٠٠/١)، و«التيبان في أقسام القرآن» (١٢٤).

(٧) «تفسير السعدي» (٩١٩)، و«نظم الدرر» للبقاعي (٣٨٠/٨)، و«روح المعاني» للآلوسي (١٦٤/١٦).

وهذا منه تعالى عدلٌ، وقسطٌ، وحقٌ، بل وفضل منه ورحمة للمؤمنين المستضعفين، فيأخذ الظالم بما يستحقه ليدفع به المظلوم، وهذا المقام أكمل الكمال، لا يدانيه أحد في ذلك من الأنام.

ولهذا ذمَّ ربُّنا ﷺ على لسان نبيه هود عليه السلام قومه الجبارين بقوله: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]؛ أي: «تُسرعون في جميع أفعالكم إسراع الجبابرة»^(١).

وبطشُ الله تعالى وأخذه الشديد العظيم لمن يستحق ذلك، أما مَنْ لا يستحق ذلك فإن رحمة الله تعالى أوسع، وما أكثر ما يعفو الله سبحانه عن الذنوب، وما أكثر ما يستر من العيوب، وما أكثر ما يدفع من النقم، وما أكثر ما يُجري من النعم^(٢).

وما أجمل ما ذكر ابن القيم رحمه الله من كلام قِيَمٍ حين قال: «ثم ذكر سبحانه جزاء أوليائه المؤمنين»^(٣)، ثم ذكر شدة بطشه، وأنه لا يُعجزه شيء، فإنه هو المبدئ والمُعيد، ومن كان كذلك فلا أشد من بطشه، وهو مع ذلك الغفور الودود، لمن تاب إليه، ويوده، ويُحبه، فهو سبحانه الموصوف بشدة البطش، ومع ذلك هو: الغفور الودود، المتوَدِّد إلى عباده بنعمه، الذي يود مَنْ تاب إليه، وأقبل عليه»^(٤).



(١١) ٤٠. الصفة المقيدة (الإضلال) الكمالية



﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾ قال رب العالمين: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤]^(٥).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: خطبة الحاجة، وفيها: «من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلِّل فلا هادي له»^(٦).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الضلال: العدول عن الطريق المستقيم، وبيضاؤه: الهداية، ويقال:

(١) «تفسير جزء عم» لابن عثيمين (١٣٧).

(٢) «تفسير جزء عم» لابن عثيمين (١٣٧).

(٣) في سورة التَّوَجُّع آية (١١).

(٤) «البيان في أقسام القرآن» (١٢٥).

(٥) وقال جلَّ جلاله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

(٦) مسلم (٨٦٧).

الضلال لكل عدول عن المنهج، عمداً كان أو سهواً، يسيراً كان أو كثيراً^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: الضلال من أفعال الله تعالى الاختيارية على وجه المقابلة بالجزاء الحسن، لمن استحقه من البرية، لأن أفعاله سبحانه كلها خيرات محضة لا شرَّ فيها البتة، وقد تفرَّد عزَّ شأنه بذلك، كما تفرَّد هو وحده بالهداية، فإن من كمال عدله سبحانه، وتمام حكمته الباهرة أن لا يضلَّ أحداً حتى يقيم عليه الحُجَّة الواضحة، ويدلِّه على طريق الحق والسُّبُل البيِّنة، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، وقد أخبر تعالى أنه يضلُّ من يشاء من عباده عن علم علمه منه سبحانه قد سبق خلقه.

كما قال جلَّ جلاله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "أضله الله في سابق علمه"^(٢).

فهو سبحانه أضلَّ من أضلَّ لعلمه أنه يستحقُّ ذلك قبل أن يخلقه، وأضله الله كذلك بعد بلوغ العلم إليه، وقيام الحجة عليه^(٣)، وقد أخبر الله جلَّ جلاله أنه يفعل ذلك (أي: إضلاله) عقوبة لأرباب هذه الجرائم العظيمة، كما قال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، وقال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤]، وهذا إضلالٌ ثانٍ بعد الإضلال الأول، كما قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَعَّ اللَّهُ عَلَىٰهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥] (٤) (٥).

وبذلك علم أن الضلال من الله سبحانه جزائي بعد أن بنى على إضلال اختياري، وقع من الضالِّ العاصي.

وينبغي أن يُعلم أن "أفضل ما يقدره الله لعبده وأجلُّ ما يقسمه له: الهدى (وأن) أعظم ما يبتليه به، ويقدره عليه: الضلال، وكل نعمة دون نعمة الهدى، وكل مصيبة دون مصيبة الضلال"^(٦).

(١) «المفردات» (٥٠٩).

(٢) «التفسير الصحيح» (٣٢٥/٤).

(٣) انظر: «معالم التنزيل» (٤٤٦/٧)، و«معاني القرآن وإعرابه» (٤٣٣/٤)، و«ابن كثير» (١٩٣/٤).

(٤) وكما قال سبحانه: ﴿وَمَا يَشْعُرْكُمْ أَنَّهُآ إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وَنَقَلَبْ أَمْنَهُمْ وَأَصْدَرَهُمْ كَمَا لَازِمُوا بِعِزِّ أَوَّلِ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَمَهِونَ [الأنعام: ١٠٩ - ١١٠].

(٥) «شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل» (٣٣٥/١).

(٦) المرجع السابق (٥١٧/٢).



١٢٠) ٤١. الصفة المقيدة (التَّرك) الكمالية



﴿الْكِتَابُ الْحَكِيمُ﴾: قَالَ ﷺ: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ يَنْوِرُهُمْ وَزَكَرَهُمْ فِي ظُلُمَتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ [البقرة: ١٧] ^(١).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشُرْكَه» ^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: التَّرك: التَّخْلِيَة والمفارقة، ومنه: ﴿وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقوله: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ﴾ [يوسف: ٣٧]؛ أي: رَغِبْتُ عنها وأَعْرَضْتُ.

والتَّركُ ضربان: رَفْضُهُ قَصْدًا واختيارًا، أو قَهْرًا واضطرارًا ^(٣) ^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: يوصف رَبَّنَا ﷺ بصفة (التَّرك) المقيدة، "والنصوص في ثبوت التَّرك وغيره من أفعاله المتعلقة بِمَشِيئَتِهِ كثيرة معلومة، وهي دَالَّةٌ عَلَى كَمَالِ قُدْرَتِهِ، وَسُلْطَانِهِ (وعِزَّتِهِ، وَحِكْمَتِهِ)، وقيام هذه الأفعال به سبحانه لَا يُثَابِلُ قِيَامَهَا بِالْمَخْلُوقِينَ، وَإِنْ شَارَكَوهُ فِي أَصْلِ الْمَعْنَى، كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ" ^(٥).

وفي الآية في سورة البقرة (١٧): فِيهِ تَخْلِيَةُ اللَّهِ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ، (وَتَرْكُهُمْ)، وَتَنْفَرَعُ عَلَى ذَلِكَ: أَنَّ مَنْ تَخَلَّى اللَّهُ عَنْهُ فَهُوَ هَالِكٌ لَيْسَ عِنْدَهُ نُورٌ، وَلَا هُدًى، وَلَا صِلَاحٌ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَرَكْتُمْ فِي ظُلُمَتٍ لَا يَبْصُرُونَ﴾ ^(٦).

وَذَلَّتْ هَذِهِ الصِّفَةُ الْكَرِيمَةُ عَلَى «إثبات حكمة الله ﷻ فِي مُجَازَاةِ الْعَامِلِينَ بِعَمَلِهِمْ» ^(٧)، فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ مَا تَرَكَهُمْ إِلَّا بِسَبَبِ جِنَايَاتِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنَ النِّفَاقِ، كَمَا حَكَى اللَّهُ عَنْهُمْ:

(١) وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا تَرَكُوا عَلَى ظُهُورِهِمْ دَابِئًا﴾ [فاطر: ٤٥]، وَقَالَ سَبْحَانَهُ: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً يَسْتَكْفِئُهَا لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥].

(٢) مُسْلِمٌ (٢٩٨٥).

(٣) فَمِنْ الْأَوَّلِ: ﴿وَاتَّزَكَّ الْأَبْرَارُ رَهًا﴾ [الدخان: ٢٤]، وَقَوْلُهُ: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩]. وَمِنْ الثَّانِي: ﴿كَذَرْتُمْ كُؤُومًا مِنْ جَنَّتٍ وَعُيُوتٍ﴾ [الدخان: ٢٥].

(٤) «المفردات» (١٦٦)، و«عمدة الحفاظ» (١/٢٦١ - ٢٦٢)، و«المصباح المنير» (٤٨)،

(٥) «المجموع فتاوى ورسائل لابن عثيمين» (١/١٧١ - ١٧٤).

(٦) «تفسير سورة البقرة» لابن عثيمين (١/٦٥).

(٧) «تفسير سورة فاطر» لابن عثيمين (١/١٧٩).

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ۗ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة: ١٤ - ١٥].

ففي هذا وعيد شديد على من كانت هذه صفته، فإنَّ الله تعالى يتركه ويتخلى عنه في الوقوع بِشَرِّ المهلكات التي تذهب بدينه وأخراه!.

﴿١٣﴾ ٤٢. الصفة المقيدة (اللَّعْن) الكمالية

﴿الْكِتَابُ الْحَكِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ﴾ [النساء: ٩٣] ^(١).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال ﷺ: «لعن الله الواصلة، والمُستوصلة» ^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّعْنِ﴾: الطُّرْدُ والإبعاد على سبيل السَّخَطِ، وذلك من الله تعالى في الآخرة عقوبة، وفي الدنيا انقطاع من قبول رحمته، وتوقيفه، يقال: لعنه الله: أبعدَه ^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: اللَّعْنُ من صفات أفعال الله تعالى الاختيارية (المقيدة)، القائمة بِذَاتِ الله سبحانه العلية، بِمَشِيئَتِهِ، وقدرته، ومعنى أنها قائمة بِذَاتِ الله بِمَشِيئَتِهِ وقدرته: أنه تعالى لعنَ الْمُعَيَّنَ بعد أن لم يكن لاعنًا له ^(٤).

واللعن هو: الطُّرْدُ، والإبعاد عن رحمة الله تعالى، واللعين والملعون مَنْ حَقَّتْ عليه اللعنة بالقول، أو دعي عليه بها ^(٥).

وصفة اللعنة كباقي صفات الله تعالى الفعلية تتعلق بالأسباب: وهذه الأسباب منها ما يتعلق بأشخاص، أو أوصاف، أو أعمال، أو أقوال، وهي تتفاوت، فلعنة الله تعالى على الكافر أشد من لعنته للمؤمن السَّارِق، والله تعالى أعلم.

(١) وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَنَّ الْكُفْرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٤].

(٢) البخاري (٥٩٣٤)، ومسلم (٢١٢٢). وقال ﷺ: «لعن الله السارق يسرقُ البيضة» البخاري (٦٧٨٣)، ومسلم (١٦٨٧). وقال ﷺ: «المدينة حرامٌ ما بينَ عَيْرٍ إِلَى ثَوْرٍ، فَمَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدَثًا، أَوْ آوَى فِيهَا مُخْدِتًا، فعليه لعنةُ الله والملائكة والنَّاسِ أجمعين». البخاري (٦٧٥٥)، ومسلم (١٣٧٠).

(٣) «المفردات» (٧٤١)، و«كتاب العين» (٩٠/٤).

(٤) انظر: «اللائع البهية» في «شرح العقيدة الواسطية» لِمَعَالِي الشَّيْخِ صَالِحِ آلِ الشَّيْخِ (٣٦٧/١).

(٥) «شرح الواسطية» للهراس (٤٨٠/١).

(١٤) ٤٣. الصفة المقيدة (المُدمِم) الكمالية

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾ قال سبحانه وتعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُمْ بِذُنُوبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ [الشمس: ١٤-١٥].

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الدممة: الهلاك والإزعاج، وإطباق العذاب، يقال: دممت على الشيء: أطبقت عليه، فإذا كررت الإطباق قلت: دمدمت عليه، وقيل: حكاية صوت الهدء، ومنه دمدم فلان في كلامه، ودمدم الشيء: ألزقه بالأرض وطحطحه، ودمدم الله عليه: أهلكهم^(١).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْحِ: جاءت هذه الصفة الاختيارية في إخبار الله تعالى إهلاك ثمود بعد ذبحهم الناقة عقراً، فأهلكهم الله جلَّ جلاله شرَّ هلكة، بقوله الحق: ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمُ رَبُّهُمْ﴾ أي: أطبق عليهم الأرض جميعاً بالهلاك، فجعلها مستوية عليهم لا تظهر فيها أجسادهم، ولا بلادهم، فكان العذاب بالصيحة من فوقهم، والرجفة من تحتهم، فلم يفلت منهم أحد. وقوله: (فدمدم): مكرر للمبالغة مثل: كبكب.

وقوله: (بذنوبهم): أي: بسبب ذنوبهم، لأن الله سبحانه وتعالى لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون^(٢)، فهو تعالى لا يعاقب ولا يهلك إلا بعد إرسال الآيات والندارات، وهذا من كمال عدله، وحكمته، وقوته، ونفوذ مشيئته سبحانه.

(١٥) ٤٤. الصفة المقيدة (الْأَخَذُ) الكمالية

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾ قال سبحانه: ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ [غافر: ٢١]^(٣).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾ قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لِيَمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ، ثُمَّ قَرَأَ ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾»^(٤).

(١) «المفردات» (٣١٧)، و«عمدة الحفاظ» (٢٣/٢)، و«مختار الصحاح» للرازي (١٢٤).

(٢) انظر: «تفسير السعدي» (٩٢٦)، و«التحرير والتنوير» (٣٧٤/٣٠)، و«تفسير سورة (الشمس)» لابن عثيمين (٢٢٨).

(٣) وقال عزَّ شأنه: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّبْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وقال جلَّ جلاله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ١٠].

(٤) البخاري (٤٦٨٦).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الأخذ: حوز الشيء وتحصيله، وذلك تارة بالتناول^(١)، وتارة بالقهر، نحو قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [النازعات: ٢٥]. يقال: أخذته الله تعالى: أهلكه، وأخذه بذنبه: عاقبه عليه^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: الأخذ بالقهر والانتقام من أفعال الله تعالى القويمة، لأنها في مقابلة أعدائه وأعداء أوليائه، بعد غاية الإعذار والإنذار.

فأخذ كلاً منهم على قدر ذنبه، وبعقوبة مناسبة لجرمه، وهذا غاية القسط، والحق، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا^(٣) وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ^(٤) وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ^(٥) وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا^(٦)﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وقال ﷺ: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكْتُ بِالْخَطِئَةِ ۖ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَّابِيَةً﴾ [الحاقة: ٩-١٠]. وقوله سبحانه: ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخَذَةً رَّابِيَةً﴾: "أي: أخذهم أخذة زائدة شديدة على الحد والمقدار، الذي يحصل به هلاكهم"^(٧) لشدة طغيانهم، وعتوهم في أفعالهم الشنيعة.

ففرعون ادّعى الألوهية، وقوم لوط الذين وصفهم سبحانه: ﴿وَالْمُؤْتَفِكْتُ بِالْخَطِئَةِ﴾، أي: "بالفعلة الطاغية، وهي الكفر، والتكذيب (مع) إتيان الرجال بالفاحشة"^(٨).

ولما كان أخذه سبحانه وتعالى للأمم الظالمة واقع موقعه، جاء الاستفهام للتقرير كما قال جلّ جلاله: ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَتْ نَكِيرٍ﴾ [فاطر: ٢٦]، أي: فكان نكيري أي: إنكاري عليهم بالعقوبة والإهلاك شديداً، وكان واقعاً موقعه، فهو مطابق للحكمة تماماً^(٩)، من كل وجه ومن كل اعتبار، فلا يعترضه أحد بالنقض أو الرد، كما قال سبحانه: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا

(١) تقدم ذكر بعض المعاني لهذه الصفة عند الصفات الفعلية المطلقة رقم (٤).

(٢) «المفردات» (٦٧)، و«مقاييس اللغة» (٢٩)، و«المصباح المنير» (١٢).

(٣) كقوم عاد بالريح العقيم.

(٤) كقوم صالح ثمود.

(٥) ققارون.

(٦) كفرعون وهامان وجنودهما.

(٧) «الفسر الطبري» (٣٦٠/٧)، و«الفسر السعدي» (٨٨٢).

(٨) ينظر المصادر السابقة.

(٩) ينظر سورة (فاطر) لابن عثيمين (١٠١/٨).

فَأَخَذْنَاهُمْ أَخَذَ عَزِيزٌ مُّقْتَدِرٌ ﴿٤٢﴾ [القم: ٤٢] أي: فعاقبناهم بكفرهم بالله عقوبة شديدة لا يُغلب، مقتدر على ما يشاء، غير عاجز، ولا ضعيف^(١)، فأبادهم الله تعالى ولم يبق منهم مخبراً، ولا عيناً، ولا أثراً^(٢).

❦ (١٦) ٤٥ - الصفة المقيدة (المُخَالِف) الكمالية ❦

❦ السُّنَّة النَّبَوِيَّةُ: قال رسول الله ﷺ: «تَسُوُّونَ صُفُوفَكُمْ، أَوْ لِيُخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ وَجُوهِكُمْ»^(٣). وفي رواية: «أَوْ لِيُخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ»^(٤).

❦ الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الْخَلْفُ: الخلف بالتحريك والسكون مجيء الشيء بعد الشيء يقوم مقامه. وَالْخَلْفُ: ما استخلفته من شيء، ويقال: أخلف الله عليك، أي: أبدلك ما فقدته، والخلاف: المخالفة، قال تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٨١]^(٥).

❦ الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: جاءت هذه الصفة في "الوعيد على من لم يسو الصف، واختلف العلماء رحمهم الله في معنى مخالفة الوجه، فقال بعضهم: أن الله تعالى يخالف بين وجوههم مخالفة حسية، بحيث يلوي الرقبة، حتى يكون وجه هذا مخالف لوجه هذا، والله على كل شيء قدير، فهو ﷻ قلب بعض بني آدم قردة، قال لهم سبحانه: ﴿كُونُوا قِرَدَةً﴾. فكانوا قردة، فهو قادر على أن يلوي رقبة إنسان حتى يكون وجهه من عند ظهره، وهذه عقوبة حسية.

وقال بعض العلماء: بل المراد بالمخالفة المعنوية، يعني: مخالفة القلوب، لأن القلب له اتجاه، فإذا اتفقت القلوب على وجهة واحدة حصل في هذا الخير الكثير، وإذا اختلفت تفرقت الأمة، وهذا التفسير أصح^(٦)، لأنه قد ورد في بعض الألفاظ^(٧): «أَوْ لِيُخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ»^(٨).

(١) «تفسير الطبري» (١٧٢/٧).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣٤٦/٤).

(٣) البخاري (٧١٧)، ومسلم (٤٣٦).

(٤) «صحيح أبي داود» (٦٦٢).

(٥) «مقاييس اللغة» (٢٦٧)، و«النهاية» (٢٧٩)، و«مختار الصحاح» (١١٠).

(٦) وهذا ما رجَّحه النووي (٣٩٤/٢)، قال رحمه الله: (قيل معناه: يمسحها ويحولها عن صورتها، لقوله ﷻ: «يجعل الله تعالى صورته صورة حمار»، وقيل: يغير صفاتها، والأظهر - والله أعلم - أن معناه: يوقع بينكم العداوة والبغضاء واختلاف القلوب...). وانظر الفتح (٢٦٨/٢).

(٧) كما في رواية أبي داود المتقدمة.

(٨) «شرح صحيح البخاري» (٣٥٤/٢)، و«شرح صحيح مسلم» (١٩٩/٢)، و«شرح رياض الصالحين» (٤٦٢/١) لابن عثيمين.



(١٧) ٤٦. الصفة المقيدة (الطَّمْسُ) الكمالية



﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تبارك وتعالى: ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]^(١).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه قال: (إنَّ الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة، طمس الله ﷻ نورهما، ولولا أن الله طمس نورهما لأضاءتا ما بين المشرق والمغرب)^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ﴾: الطمس: إزالة الأثر بالمحو، ومنه طمس الأثر، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ [المرسلات: ٨]، وقوله ﷻ في صفة الدجال: «إنه مطموس العين»، أي: ممسوحها من غير بخص^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: الطمس من أفعال ربنا الرشيدة، لاشتمالها على حكم حميدة، لأنها في مقابلة شر الخليقة، فيطمس منهم من شاء طمس خلقه، وبصيرة، "كما في دعاء موسى عليه السلام على فرعون وملئه أن يغير أموالهم عن حياتها، ويبدلها إلى غير الحال التي هي بها"^(٤).

ثبت عن قتادة أنه قال: ﴿رَبَّنَا أَطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالَهُمْ﴾: "بلغنا أن زروعهم تحولت حجارة"^(٥).

كما توعد سبحانه بني إسرائيل بقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُونَ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾ [النساء: ٤٧]، أي: من قبل أن نطمس أبصارها، ونمحو آثارها فنسويها كالأقفاء، وقوله: ﴿فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا﴾: فنجعل أبصارها في أدبارها، يعني بذلك: فنجعل الوجوه في أدبار الوجوه، فيكون المعنى: فنحول الوجوه أقفاء، والأقفاء وجوهاً، فيمشون القهقري^(٦).

(١) وقال جلَّ جلاله: ﴿وَلَقَدْ رَوَدُّهُ عَنْ ذَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذِرُ﴾ [القمر: ٣٧]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ ءَامِنُونَ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ تَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧].

(٢) رواه أحمد في المسند (٧٠٠٠) وصححه شعيب الأرنؤوط (٥٧٧/١١)، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٨٧٨) كلاهما موقوفاً، وحكمه حكم الرفع.

(٣) «المفردات» (٥٢٤)، و«النهاية» (٥٦٨).

(٤) «تفسير الطبري» (٢٣٧/٤).

(٥) «التفسير الصحيح» (٣١/٣).

(٦) «تفسير الطبري» (٤٧/٢).

وأخبر سبحانه أنه طمس أعين قوم لوط حينما أرادوا الفاحشة في أضيافه، فقال: ﴿وَلَقَدْ رَودُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ [القم: ٣٧]، أي: فطمسنا على أعينهم حتى صيرناها كسائر الوجه، لا يرى لها شق^(١). وهذا قول أكثر المفسرين^(٢).



(١٨) ٤٧ - الصفة المقيدة (الغواية) الكمالية



﴿الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ﴾ ١ - قال سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ فِيمَا آغَوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف: ١٦].

٢ - وقال عزَّ شأنه: ﴿وَلَا يَفْعَلُكُمْ نِصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود: ٣٤].

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الغي: الضلال^(٣) والانهماك في الباطل، وهو خلاف الرشد، ويطلق على الخيبة، وعلى الهلاك أيضاً، لأن الضلال يفضي إلى الهلاك، والتغاوي: التعاون على الشر، كما في مقتل عثمان رضي الله عنه: "فتغاوا عليه حتى قتلوه"، وقوله تعالى حكاية عن إبليس: ﴿وَلَا تُغْوِيَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٣٩]، أي: لأحملهم عليه ولأجعلهم غاوين^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: الغواية من ربنا العظيم لم تكن منه سفهاً، لأنه حكيم، والحكيم لا يفعل السفه، بل يفعل الصواب والسداد، لأنه لا يكون ابتداءً، بل من طرائق حسن الجزاء والإغواء: جعل الشخص ذا غواية، وهي: الضلال عن الحق والرشد^(٥).

وقد أخبر سبحانه الذي خبره صدق وحق أنه أغوى إبليس اللعين بعد استكباره عن أمره سبحانه في السجود لأبينا آدم عليه السلام، فقال: ﴿بِمَا آغَوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]، أي: كما أوقعت في قلبي من الغي والضلال المقتضي في يوم المعاد إلى شرِّ الهلاك، بسبب الاستكبار والعناد.

وهذا قَسَم من إبليس بإغواء الله تعالى له أن يغوي العباد، ويحتمل أنها سببية، أي:

(١) المرجع السابق (١٧١/٧).

(٢) «تفسير البغوي» (٤٣٣/٦).

(٣) ثبت عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: (فبما آغويتني): "يقول أضللتني" التفسير الصحيح (٣٠٥/٢).

(٤) «عمدة الحفاظ» (١٨٣/٣)، و«مقاييس اللغة» (٧٠١)، و«النهاية» (٦٨٤)، و«القاموس المحيط» (٧٨٧)، و«تفسير القرطبي» (٢٩/٥).

(٥) «التحرير والتنوير» (٦٢/٥).

بسبب ما أغويتني^(١).

وجاءت هذه الصفة العظيمة في قصة نوح عليه السلام مع قومه حين استعجلوه بالعذاب من الله سبحانه، فأخبرهم أنه ليس الذي يستعجلونه مردّه إليه، وإنما إلى الله تعالى لا إلى غيره، فقال: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ أي: إن كان يريد دماركم وهلاككم بعذابه^(٢) لردّكم الحق، فإن أراد الله هي الغلبة^(٣).

أضاف إغواءهم إلى الله سبحانه لأنه هو في الحقيقة، فلا شيء في الوجود إلا وهو مخلوق له، صادر عن إرادته تعالى، فهو وحده الهادي والمضل^(٤)، على مقتضى حكمته وعدله التي لا تتغير ولا تزول.

﴿١٩﴾ ٤٨ - الصفة المقيدة (الإذلال) الكمالية

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تبارك وتعالى: ﴿وَنُعِزُّ مَنْ نَشَاءُ وَنُذِلُّ مَنْ نَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٩].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالتَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدْرٍ، وَلَا وَبَرٍ، إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزٍّ عَزِيزٍ، أَوْ بِذُلٍّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ»^(٥).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ﴾: الذل: بالضم ضد العز، وهو المهانة، والضعف، والخضوع، والاستكانة وهو ما كان عن قهر، والذل بالكسر: ضد الصعوبة، وهو الطواعية والانقياد^(٦).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: الله تبارك وتعالى هو المذل من شاء في الأولى والأخرى:

"الذي بيده الإذلال الحسي، والمعنوي"^(٧)، الذي يلحق الذلّ بمن يشاء من عباده، وينفي عنه أنواع العز جميعها"^(٨) بما تقتضيه حكمته الرشيدة الحميدة، "فهو تعالى المذلّ: الذي أذلّ

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٤١٢/٣) (٤٧٩/٤) وابن كثير (٢٨٢/٢) (٧٤٤/٢)، والقرطبي (١٥٢/٤)، و«أضواء البيان» (١٠٩/٣).

(٢) لأن الإضلال يفضي إلى الهلاك «تفسير القرطبي» (٢٩/٥).

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (٢٧٤/٤)، وابن كثير (٦٠٠/٢)، «تفسير القرطبي» (١٥٢/٤) (٢٩/٥).

(٤) «تفسير السعدي» (٣٨١).

(٥) أخرجه أحمد في المسند (١٦٨٩٤) (٢٣٧٠٤)، وصحح إسنادهما محققو المسند (٢١١/١٣) (١٣٥/١٧).

(٦) انظر: «عمدة الحفاظ» (٤٦/٢)، و«الصحاح» (٣٧٥)، و«المصباح المنير» (١٢٥).

(٧) «تفسير سورة آل عمران» لابن عثيمين (١٦١/١).

(٨) «النهاية» (٣٢٩).

أعداءه عدلاً بعضيائهم ، ومخالفتهم " (١) ذلاً في الدنيا والآخرة (٢) .

وأنواع إذلاله سبحانه وألوانها كثيرة الحقائق ، لا يحصيها إلا ربُّ الخلائق . فمنها :

(١) أنه تعالى يذلهم بالأمراض ، والأوباء ، والجوع ، والفقر ، والعجز ، والضعف ، والكسر .

(٢) أنه يذمهم بالذكر المهين ، والوصف الذميم على مرِّ السنين (٣) .

(٣) أنه " أذلهم بحرمان معرفته ، وركوب مخالفته ، ثم نقلهم إلى دار عقوبته ، وأهانهم بطردهم ، ولعنته " (٤) .

(٤) أنه يشغلهم بأنفسهم ، فلا يدركون منافعهم ومصالحهم ، كما " قال بعضهم : ما أعزَّ الله عبداً بمثل ما يدلّه على ذلِّ نفسه ، وما أذلَّ الله عبداً بمثل ما يشغله بعزِّ نفسه " (٥) .

(٥) أنه ذلَّهم على أيدي أوليائه ، " بأن ضربهم بالرِّقِّ ، والجزية ، والصغار (والهوان ، وسوء المآل) في الآخرة بالعقوبة ، والخلود في النار " (٦) .



(٢٠) ٤٩ - الصفة المقيدة (التَّقْلِيْبُ) الكمالية



﴿ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ : قَالَ رَبُّ الْعَالَمِينَ : ﴿ وَتَقْلِبْ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصِرْهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ ﴾ [الأنعام : ١١٠] .

﴿ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ : عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَكْثُرُ أَنْ يَقُولَ : « يَا مَقْلَبَ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ » فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، إِنْ الْقُلُوبَ بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يَقْلِبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ » (٧) .

﴿ الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ : الْقَلْبُ : قَلْبُ الشَّيْءِ : تَصْرِيفُهُ ، وَصَرْفُهُ عَنْ وَجْهِهِ إِلَى وَجْهِهِ ، كَقَلْبِ

(١) «موسوعة له الأسماء الحسنى» (١٤٨/١) .

(٢) «الحق الواضح» (٨٩) .

(٣) كما قال تعالى عن أبي لهب : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد : ١] ، وغيره من الكافرين .

(٤) «شرح الأسماء» للرازي (٢٤٦) .

(٥) المصدر السابق (٢٤٧) .

(٦) «شأن الدعاء» (٥٨) .

(٧) وفي رواية أن أم سلمة رضي الله عنها أنها أخبرت أنه كان أكثر دعاء النبي ﷺ ، وقد بين لها سبب ذلك : «يا أم سلمة إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله ، فمن شاء أقام ، ومن شاء أزاغ» . «صحيح الترمذي» (٢١٤٠) (٣٥٢٢) و«صحيح ابن ماجه» (٣٨٣٤) .

الثوب، وقلب الإنسان؛ أي: صرفه عن طريقته. والانقلاب: الانصراف. وسمي قلب الإنسان لكثرة قلبه^(١)، وتقلب الشيء: تغيره من حال إلى حال، وتقلب الله القلوب عبارة عن صرفها من رأي إلى آخر، وكذا تقلبه تعالى البصائر^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: ثبتت هذه الصفة الكمالية في الوحيين الكريمين، كما قال سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ﴾ أي: نحيرهم وندعهم في عمى، عقوبة لهم، لا يسأل عما يفعل سبحانه^(٣)﴾ لكمال عظمته، وحكمته، وعدله.

«فقد أخبر سبحانه كما في سورة الأنعام، أنه تعالى سيجازي ويُعاقب لمن لم يؤمن من أول مرة بعد إتيان الداعي، وقيام الحجة، بتقلب القلوب عن قبول الحق، والأبصار عن رؤية الحق^(٤)»، جزاءً عدلاً، وحقاً من العدل الحكيم.

وتقدم في السنة أن أكثر دعواته ﷺ سؤال ربه تثبيت قلبه على دينه سبحانه، لأنه تعالى هو المنفرد في ذلك ولم يكله إلى أحدٍ من خلقه.

فيقلب القلوب عن الحق بعدله، ويثبتها بفضله، ومنته، وقد اقتضت حكمته العلية أنه لا يصرفها عن الهدى، إلا بعد إقامة الأدلة الواضحة للورى، فأفعاله سبحانه كلها المقيدة والمطلقة صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعل، فلا يتوجه إليها بقدر، أو رد، أو نقض.



(١) «المفردات» (٦٨١).

(٢) كما جاء عن رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا سُمِّيَ الْقَلْبُ مِنْ تَقْلِبِهِ، إِنَّمَا مَكُلُ الْقَلْبِ كَمَثَلِ رِبَشَةٍ مَعْلَقَةٍ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ، يُقَلِّبُهَا الرِّيحُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ...». أخرجه أحمد في المسند (١٩٦٦١)، وانظر: صحيح ابن ماجه (٨٨)، و«السنة» لابن أبي عاصم (٢٢٧، ٢٢٨).

(٣) عمدة الحفاظ (٣/٣٣١).

(٤) انظر: «تفسير السعدي» (٢٦٩)، وتفسير النسفي (٣٣٨).

القسم الثالث

الصفات المتضمنة لنوعي الصفات الثبوتية

هذا القسم من الصفات يجتمع فيه صفات ذاتية من جهة، وصفات فعلية من جهة أخرى، مثل: صفة «العزّة» المشتقة من اسمه (العزیز)^(١)، فهو من صفات الذات، لِتَضْمُنْهُ معاني: أنه الغالب الذي لا يغلب، والمنقطع النظير، والمنيع الذي لا يصل إليه، فهذه المعاني العلا متصف بها الله تعالى على الدوام.

وهو من صفات الفعل أيضاً: فهو جل وعز يُعَزُّ من يشاء، قال تعالى: ﴿وَيُعَزُّ مَنْ شَاءَ وَتُذَلُّ مَنْ شَاءَ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وهذا يتعلق بمشيئته، فمن شاء أن يعزّه أعزّه، وإن شاء خلاف ذلك كان كما شاء.

ومثل: صفة «العلم» المشتقة من اسمه (العليم)، فهو تعالى العالم الذي أحاط علمه بجميع الأشياء باطنها وظاهرها ودقيقها وجليلها في الأزل، وفي الأبد، فهو من صفات الذات إذ إن علمه لا ينفك عن ذاته بأي حال، ولا لحظة.

وهو أيضاً من صفات الفعل: فهو جل وعلا يُعَلِّم من شاء من خلقه، ومن ذلك قوله تعالى كقوله: ﴿الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ١ - ٢]، وقوله: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨].

وسأذكر بعض بيان ذلك عند شرح الصفات.

١) صفة الكمال (الكَلَام) الجَلِيلَة

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: ١﴾ قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]

٢) وقال عز شأنه: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: ١﴾ قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحدٍ إلا سيكلمه ربّه ليس بينه

(١) كنا قد ذكرنا في التمهيد أن منهجنا في الكتاب اختيار الصفات الغير مشتقة من الأسماء، وهذا مثال على ذلك.

وبينه ترجمان، ولا حجاب يحجبه»^(١).

(٢) وقال ﷺ: «إذا تكلم الله تعالى بالوحي سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجرجر السلسلة على الصفا، فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل، حتى إذا جاءهم جبريل فزع عن قلوبهم، قال: فيقولون: يا جبريل! ماذا قال ربك، فيقول: الحق، فيقولون: الحق الحق»^(٢).

✽ المعنى في اللغة: الكلمة: القول، وهو في لغة العرب: ما دلّ على نطق مفهم، ثم يتسعون فيسمون اللفظة الواحدة: كلمة. والقصيدة...، فالكلام: اسم جنس يقع على القليل والكثير^(٣). ويشمل اللفظ والمعنى، ولا يكون إلا حرفاً وصوتاً^(٤).

✽ المعنى في الشرع: صفة الكلام من أعظم صفات ربنا العلا، وهي من مقتضيات ربوبيته، وألوهيته الحقبة سبحانه: "فكلماته هي التي أوجد بها خلقه، وأمره، وذلك حقيقة ملكه، وربوبيته، وألوهيته، وهو لا يكون إلا رباً ملكاً إلهياً، لا إله إلا هو"^(٥)، فيها أنزلت الكتب، وشرعت الشرائع، على جميع الخلائق "وكلامه سبحانه بلا واسطة أعظم ما يعطاه العبد يوم القيامة من النعيم، بعد النظر إلى وجهه الكريم، فسماع كلامه تعالى هو أشرف ما في الجنة، وحقيقة لذتها، ورأس نعيمها"^(٦).

وصفة الكلام الجليلة من الصفات الذاتية، ومن الصفات الفعلية، من حيث صفة ذات: باعتبار الأصل، أي: أن الله تعالى موصوف بها في الأزل، وفي الأبد، فلم تحدث له تعالى صفة لم يكن يتصف بها، فهي ملازمة لذاته العلية في كل حال، وإن.

وصفة فعلية: باعتبار آحاده، أي أفراد، فهو سبحانه يتكلم بما شاء، ومتى شاء، وكيف شاء، على حسب ما تقتضيه حكمته^(٧)، ومعنى (بما شاء): يعني باعتبار الكلام، إن شاء تكلم بأمر كوني، مثل قوله تعالى للسماوات والأرض: ﴿أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١]، أو تكلم بأمر

(١) البخاري (٦٥٣٩) (٧٤٤٣)، ومسلم (١٠١٦).

(٢) صححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٤٧٣٨)، وفي «السلسلة الصحيحة» (١٢٩٣) (٢٨٢/٣).

(٣) «مقاييس اللغة» (٧٩٠)، و«القاموس المحيط» (١١٤٤)، و«مختار الصحاح» (٣١٢).

(٤) «المسائل العقديّة التي حكى فيها ابن تيمية الإجماع» خالد الجعيد (٤٥٣).

(٥) «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» لابن القيم (٣٦٦).

(٦) «جهود الإمام ابن القيم في تقرير توحيد الأسماء والصفات» د. وليد العلي (١٦٩٧/٣).

(٧) انظر: «مختصر الصواعق المرسلة» (٤٧٨/٢، ٥٠٢)، و«شرح الواسطية» لابن باز (٣٢٧/٢).

شرعي ، مثل كلامه لرسوله ﷺ في فرض (٥٠) صلاة ، ومعنى (متى شاء): أي باعتبار الزمن ، أي يتكلم سبحانه في أي وقت شاء ، سواء كان في الأزل ، وفي المستقبل ، أو في الحاضر ، في الليل وفي النهار .

(كما يشاء): أي على الكيفية التي يشاؤها سبحانه: إما بصوت عالٍ ، أو بصوت منخفض^(١) .

وقد توافرت الأدلة في الكتاب والسنة على تنوع هذه الصفة العظيمة:

الأول: الكلام ، تقدّم ذكر الأدلة . الثاني: القول: ، قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ [الأحزاب: ٤] ، الثالث: النداء^(٢) ، قال تعالى: ﴿وَنَدَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢] ، والرابع: الصوت ، قال ﷺ: «يقول الله تبارك وتعالى: يا آدم! فيقول: لبيك وسعديك ، فينادي بصوت: إن الله يأمرك أن تخرج ذريتك بعثاً إلى النار»^(٣) ، والخامس: الحرف ، كما في حديث جبريل عليه السلام: «أبشر بنورين أوتيتهن لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته»^(٤) ، السادس: السلام ، قال تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] .

﴿٢﴾ صفة الكمال (رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ) الْجَلِيلَةُ

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾ قال ﷺ: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾ [غافر: ١٥] .

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: رفيع: الرفع تارة في الأجسام الموضوعة إذا عَلَيَّتْهَا عن مَقَرِّهَا ، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد: ٢] ، وتارة في الذِّكْر: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] ، وتارة في المنزلة إذا شرفتها: ﴿نَرَفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف: ٧٦]^(٥) .

(١) «شرح عقيدة أهل السنة» (١٣٦) ، و«شرح الراسطية» (٢٧٥/٢) لابن عثيمين .

(٢) الفرق بين النداء والمناجات: أن المنداد: تكون للبعد ، والمناجاة: تكون للقريب .

(٣) البخاري (٧٤٨٣) ، وقال ﷺ: «... ثم يناديهم (أي: الله) بصوت يسمعه من بُعد كما يسمعه من قُرب» صحيح الأدب المفرد

(٧٤٦) ، قال البخاري رحمه الله: «فليس هذا لغير الله جل ذكره ، وفي هذا دليل على أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق ، لأن

صوت الله يُسمع من بُعد ، كما يُسمع من قُرب» خلق أفعال العباد (٤٧٣) .

(٤) مسلم (٨٠٦) .

(٥) «المفردات» (٣٦٠) .

الدرجات: الدرجة تطلق على الرِّفعة، والمنزلة^(١)، وتكون حسيّة ومعنوية.

وجمع الدرجات: إيدان بكثرة الصفات، ومجدها التي لا تحصر^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: من الاستقراء في أدلة الشرع يتبين أن الله تعالى له في معنى هذه الصفة العظيمة ثلاث معانٍ، ويندرج تحتها أفراد كثيرة من معاني الكمال، والقاعدة في تفسير كتاب الله تعالى أنه «إذا احتمل اللفظ عدّة معانٍ، ولم يمتنع إرادة الجميع، حمل على الجميع»^(٣). وقد تقدّم في المعاني اللغوية أن الرِّفعة والدرجة يكونان حسيّان ومعنويان، لازمان، ومتعدّيان.

وربنا ﷻ هو الرفيع في الدرجات على الإطلاق من جميع الوجوه والاعتبارات، فهو تبارك وتعالى:

(١) رفيع الصفات، والقدر، والشأن، فلا أرفع منه قدراً، ولا أكمل منه جلالاً.

(٢) ومن رفعة درجاته سبحانه: أنه المستحق لدرجات المدح، الثناء، وهي أصنافها، وأبوابها^(٤)، وأفرادها، وأجناسها.

(٣) وهو الرفيع في الدرجات، فوق جميع المخلوقات، مستوٍ على عرشه، فوق الأرض والسموات، ولهذا قرنه بالعرش: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ﴾.

(٤) ومن كمال رفعة درجاته: نزاهته سبحانه عن النقائص، والمعائب، والآفات، فهو رفيع عنها على الإطلاق^(٥).

(٥) وهو الذي يرفع من يشاء من الخلق في الدنيا والآخرة:

﴿الأول: في الدنيا:

(أ) في المحسوسات: بالرزق، والخلق: فمن الأول: قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلْحِيًّا﴾ [الزخرف: ٣٣]، وفي الخلق: قال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ

(١) «عمدة الحفاظ» (٨/٢).

(٢) التحرير و«التنوير» (١٠٦/١١).

(٣) انظر هذه القاعدة في: «قواعد التفسير» خالد عثمان السبّ (٨٠٧/٢)، و«تفسير سورة آل عمران» لابن عثيمين (٣٢٠/٢، ٥١٨).

(٤) «الأسنى» (٢٠٦) بتصرف.

(٥) مما تقدم من المعاني يدل على اتصافه سبحانه بوصف الذات والتي لا تنفك عنه بحال.

يَغْفِرُ عَمَدَ تَرَوْنَهَا ﴿ [الرعد: ٢] ، ورفع سبحانه العرش فوق كلِّ المخلوقات .

(ب) في المعنويات: «إنه تعالى يرفع درجات الأنبياء، والأولياء»^(١) في المعارف، والعلوم، واليقينيات، قال تعالى: ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ شَاءُ ۖ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، وقال عز شأنه: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]^(٢)

❖ الثاني: في الآخرة:

«فهو تعالى رافع درجات أوليائه في الجنة»^(٣) فيقربهم إليه ، ويجعلهم فوق خلقه^(٤) ، ورفعهم لهم فيها شامل للرفعة الكاملة: الحسيّة ، والمعنوية .

❖ (٣) صفة الكمال (الْبَرَكَةُ وَالتَّبَارُكُ) الْجَلِيلَةُ ❖

❖ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: (١) قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك: ١]

(٢) وقال ﷺ: ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣] .

❖ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَمَا أَيُوبُ ۖ يَغْتَسِلُ عَرِيَانًا... فَنَادَاهُ رَبُّهُ ﷻ: يَا أَيُوبُ! أَلَمْ أَغْنِيكَ عَمَّا تَرَى؟ قال: بلى وَعِزَّتِكَ، ولكن لا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ»^(٥) .

❖ الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: البركة: تطلق على ثلاث معان:

الأول: الثبوت، واللزوم.

الثاني: النماء، والزيادة.

الثالث: التوفيق للخير.

تبارك: تفاعل من البركة، وهي: الكثرة في الخير. وتبارك الله: تعظيم، وتمجيد، وتجليل. والمتبارك: المرتفع. ومعنى بركة الله: علو الله على كل حالٍ، وقيل: تنزهه، وتقديسه، وتعالى، وتعاظم^(٦).

(١) تفسير الرازي (٤٤/٢٨).

(٢) ما تقدم ذكره من المعاني يتعلق بصفة الفعل، لأنه يتعلق بمشيئته، وإرادته سبحانه.

(٣) «الأسنى» (٢٠٦)، وتفسير الرازي (٤٤/٢٨).

(٤) «تفسير السعدي» (٧٣٤).

(٥) البخاري (٢٧٩). ومن الأدلة السنية: تحية الإسلام التي جاءت عن خير الأنام ﷺ: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته». والصلاة الإبراهيمية في التشهد. ودعاء القنوت: «... وبارك لي فيما أَعْطَيْتَ». «صحيح أبي داود» (١٤٢٥).

(٦) انظر هذه المعاني في: «عمدة الحفاظ» (١٨٣/١)، و«المفردات» (١١٩)، و«لسان العرب» (٢٦٥/١)، و«تهذيب اللغة» (٢٣٢/١٠)، و«القاموس المحيط» (١٠٠)، و«الصحاح» (١٥٧٥/٤).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: اللهُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الْمُبَارَكُ عَلَى الْإِطْلَاقِ: الَّذِي تَبَارَكَ فِي ذَاتِهِ، وَتَبَارَكَتْ أَوْصَافُهُ، وَتَبَارَكَتْ أَسْمَاؤُهُ، وَتَبَارَكَتْ أَعْمَالُهُ، فَهُوَ سَبْحَانَهُ أَحَقُّ بِذَلِكَ وَأَوْلَى مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، فَهُوَ الَّذِي عَمَتْ، وَكَثُرَتْ بَرَكَاتُهُ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَا، فِي كُلِّ سَاعَةٍ، وَلِحِظَةٍ، وَوَمُضَةٍ، وَحَرَكَةٍ، فَإِنَّ الْخَيْرَ كُلَّهُ بِيَدِهِ، وَالْخَيْرَ كُلَّهُ مِنْهُ، فَكُلُّ كَمَالٍ وَخَيْرٍ فِي الْمَوْجُودَاتِ فَهُوَ مُسْتَفَادٌ مِنْ خَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى، وَكَمَالِهِ فِي نَفْسِهِ، وَهِيَ تَسْتَمِدُّ مِنْهُ، وَهُوَ لَا يَسْتَمِدُّ مِنْهَا، وَهِيَ فَقِيرَةٌ إِلَيْهِ، هُوَ غَنِيٌّ عَنْهَا، كُلُّ مَنْهَا يَسْأَلُهُ كَمَالَهُ...، فَاللَّهُ تَعَالَى أَحَقُّ أَنْ يَكُونَ مُتَبَارَكًا، فَهُوَ دَلِيلٌ عَلَى عَظَمَتِهِ، وَكَثْرَةِ خَيْرِهِ، وَدَوَامِهِ، وَاجْتِمَاعِ صِفَاتِ الْكَمَالِ فِيهِ، وَإِنْ كُلُّ نَفْعٍ فِي الْعَالَمِ مِنْ نَفْعِهِ، وَإِحْسَانِهِ(١)(٢).﴾

﴿٤﴾ صِفَةُ الْكَمَالِ (النُّورِ، وَنُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) الْجَلِيلَةِ

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قَالَ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كِشْكُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥].﴾

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: ١ - كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْعُو مِنَ اللَّيْلِ: «اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ، أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...»(٣).﴾

٢ - وَقَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظِلْمَةٍ، فَأَلْقَى عَلَيْهِمْ نُورًا مِنْ نُورِهِ، فَمِنْ أَصَابِهِ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَاهُ ضَلَّ...»(٤).﴾

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: النُّورُ: الضَّيَاءُ، وَالْجَمْعُ: أَنْوَارٌ، وَالنُّورُ فِي الْأَصْلِ: هُوَ الضُّوءُ الْمُنْتَشِرُ الَّذِي يُعِينُ عَلَى الْإِبْصَارِ، وَهُوَ ضَرِبَانٌ: دُنْيَوِيٌّ، وَأُخْرَوِيٌّ، وَحَسِيٌّ، وَمَعْنَوِيٌّ(٥).﴾

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: وَصَفَ رَبُّنَا ﷻ نَفْسَهُ بِالنُّورِ الْعَظِيمِ، الَّذِي لَيْسَ لَهُ فِيهِ شَبِيهٌ، وَلَا مَثِيلٌ، وَلَا عَدِيلٌ، فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ، وَذُو الْبَهَاءِ وَالْهِيبَةِ، وَالسَّبْحَاتِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «حِجَابُهُ النُّورُ، أَوْ النَّارُ، لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبْحَاتِ(٦) وَجْهَهُ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ

(١) انظر: «جلاء الأفهام» (٢٣٣)، و«شفاء العليل» (١٨٣)، و«الجواب الكافي» (٥٧).

(٢) اتصافه سبحانه بالبركة في ذاته، وأوصافه، وأفعاله، والنزاهة عن ما يناقضها ويضادها فهو من أوصاف الذات، ودوام جوده، وكثرة خيره، وتبريكه على من يشاء من خلقه فهو من صفات الفعل.

(٣) البخاري (١١٢٠) (٧٣٨٥)، ومسلم (٧٦٩).

(٤) رواه ابن أبي عاصم في «السنّة» (٢٤١)، وصححه الألباني (ص ١٠٧) وفي «صحیح الترمذی» (٢٦٤٢).

(٥) «عمدة الحفاظ» (٤/٢٣٠) و«معجم مقاييس اللغة» (٣٦٨/٥) و«لسان العرب» (٤٥٧/٧).

(٦) السبحات: تقدم معناها في الكلام على صفة (الوجه)، وهي: نوره، وبهاؤه، وجلاله.

بصره من خَلَقَهُ»^(١).

والنور الذي من أوصافه تعالى على نوعين:

الأول: ما اتصف به تعالى من النور العظيم الذي هو وصفه، الذي هو من جملة نُعوته العظيمة الجليلة، وهو النور العظيم الذي لا يمكن التعبير عنه إلا بمثل هذه العبارة النبوية المؤدية للمعنى العظيم، وأنه لا تُطبق المخلوقات كلها الثبوت لنور وجهه، لو تبدى لها^(٢).

والنور الثاني: نوعان: نوره المعنوي، ونوره الحسي:

فالنور المعنوي: وهو نور المعرفة، والإيمان، والطاعة، الذي به نور قلوب أنبيائه، وأصفياه، وأوليائه، وملائكته، من أنوار معرفته، وأنوار محبته، فإن لمعرفته في قلوب أوليائه المؤمنين أنواراً، بحسب ما عرفوه من نُعوت جلاله، وما اعتقدوه من صفات جماله.

والنوع الثاني: النور الحسي: الذي استنارت به العوالم كلها، التي لم يحصل لها نور إلا من نوره: كنور الشمس، والقمر، والكواكب، واستنار به العرش، والكرسي، وسائر المخلوقات المدرك نورها بالابصار^(٣).

٥) صفة الكمال (المعية) الجليلة

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قَالَ ﷺ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾﴾ [الحديد: ٤]^(٤).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعُهُ إِذَا ذَكَرَنِي»﴾^(٥).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: مَعَ: بفتح العين: كلمة مصاحبة، يقال: هذا مع ذاك، وهي كلمة تضم الشيء إلى الشيء، وهي اسم معناه: الصحبة^(٦).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْحِ: يوصف ربنا العظيم بصفة المعية الحقيقية، العلية الكاملة من جميع

(١) مسلم (٢٩٣).

(٢) ما تقدم من المعاني يتعلق بوصف الذات، لأنه من إضافة الصفة إليه تعالى، وما سيأتي من المعاني يتعلق بوصف الفعل لأنه مخلوق ويتعلق بمشيئته سبحانه.

(٣) «تفسير السعدي» (٥٦٨، ٧٣٠)، و«فتح الرحيم الملك» (٤٨)، وتوضيح الكافية (١٢٩)، و«الحق الواضح» (٩٣).

(٤) وقال عز شأنه: ﴿وَلَا أَدْرِي مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]، وقال جل ثناؤه:

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ أَتَقُوا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]، وقال: ﴿قَالَ لَا تَخَافُ إِنَّنِي مَعَكُمْ أَسْمِعْ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦].

(٥) البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٦) «اللسان» (٤٢٣٤/٦)، و«المعجم مقاييس اللغة» (٢٧٣/١٥).

وجوهرها، وهو فوق عرشه على الحقيقة، وهو كذلك مع جميع خلقه على الحقيقة^(١)، يعلم سرهم وجهرهم، ويرى حركاتهم، وسكناتهم أينما كانوا، وعلى أي حال كانوا، والمعية لا يلزم منها المخالطة، والملاصقة، فإن العرب تقول: ما زلنا نسير والقمر معنا، قال العلامة ابن عثيمين: ومن المعلوم أن السائرين في الأرض، والقمر في السماء، فإذا كان هذا ممكناً في حق المخلوق فما بالك بالخالق المحيط بكل شيء^(٢).

ومعية الله ﷻ أنواعان: النوع الأول: معية عامة. النوع الثاني: معية خاصة.

فالمعية العامة: وهي اطلاع الله تعالى على كل عباده، بعلمه، وسمعه، وبصره، رقيب مهيمن على جميع أحوالهم، وشؤونهم الظاهرة والباطنة، فهي معية إحاطة شاملة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

النوع الثاني: المعية الخاصة: وهي لأنبيائه، وأوليائه، وهي معية مقتضاها: النصر والتأييد، والهداية، والولاية، والحفظ، والتسديد^(٣)، وهي كائنة لهم في الدنيا والآخرة^(٤)، وهي تنقسم إلى قسمين:

الأول: مقيدة بشخص. الثاني: مقيدة بوصف.

مقيدة بشخص: مثل معية الله تعالى لنبيه ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنِّي أَنَا اللَّهُ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ولموسى وهارون: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦].

الثانية: مقيدة بوصف: كمعية الله تعالى لأوليائه الذين تحلوا بصفات وخصال جليلة، مثل: (المتقين) و(المحسنين): ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]^(٥).

وفي الآخرة: أنه تعالى يجمع أوليائه الموحدين معه في جنات النعيم، وهذه المعية تقتضي: القرب، والعلو، والرفعة، كما سألتها آسية امرأة فرعون: ﴿رَبِّ آتِنِي فِي

(١) لا محذور في الإخبار عن ربنا بهذه اللفظة كما تقدم في الشروط الصحيحة في الإخبار عن الله تعالى. ارجع إليه غير مأمور (ص ٢٧ ص ٢٩).

(٢) «القواعد المثلى» لابن عثيمين (ص ١٦٧).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» (١٠٣/٥، ٢٢٧، ٤٩٥، ٢٣/٦)، و«منهاج السنة النبوية» (٣٨٠/٨)، و«مختصر الصواعق المرسلة» (٣٩٢/٢).

(٤) انظر: كتابنا «الجامع» أسماء الله الحسنى (ص ٤٦٦).

(٥) انظر: «شرح الواسطية» لابن عثيمين (٢/٢٢٥).

الْجَنَّةَ ﴿[التحریم: ١١] ، وكقول النبي ﷺ في آخر كلمة قالها عند موته: «اللهم الرِّفِيقَ الْأَعْلَى»^(١).

الفرق بين المعيتين:

(١) إن المعية العامة: من الصفات الذاتية ، والخاصة: من الصفات الفعلية .

(٢) إن العامة من مقتضاها: العلم ، والإحاطة على جميع المخلوقات ، وأما الخاصة: فتدخل في معانيها المعية العامة ، وكذلك: الحفظ ، والعناية ، والنصرة ، والحماية من المَهالك .

(٣) العامة: تكون في سياق التخويف ، والمحاسبة على الأعمال ، والحثّ على المراقبة ، والخاصة: مرتبة على الاتصاف بالأوصاف الجميلة ، والأخلاق الحميدة^(٢).

﴿٦﴾ صفة الكَمال (الشَّدة) الجَليلة

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قال سبحانه: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥]^(٣).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾^(٤).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ: الشَّدة: القوة ، والصَّلابة ، وهي نقيض اللِّين ، يقال: شَدَّ الله ملكه ؛ أي: قَوَاه ، وأصل الشَّدة: العقد القوي ، وشددت الشيء: قويت عقده ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى﴾ [طه: ٣١]^(٥).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْع: يوصف ربُّنا الجليل بصفة الشَّدة العلية ، وهي صفة لازمة ،

ومتعدية:

صفة لازمة ؛ أي: إن الله تعالى موصوف سبحانه بالقوَّة ، والشدة المُتناهية في ذاته ، وصفاته ؛

أي: «في جميع صفات الجبروت»^(٦) ، فهو تعالى لا يُريد شيئاً إلا فعله ، ولا يتعاصى عليه شيء ، ولا يفوته هارب^(٧).

(١) البخاري (٤١٧٣).

(٢) «شرح الواسطية» للسلمان (٢٢٤/٢).

(٣) وقال جل ثناؤه: ﴿وَسَدَدْنَا مَلَكُودَ﴾ [ص: ٢٠] ، وقال ﷺ: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾ [الإنسان: ٢٨] .

(٤) تقدم ذكر الأحاديث عند الصفة المقيدة رقم (١٩) (التشديد).

(٥) «عمدة الحفاظ» (٢٥٥/٢) ، و«كتاب العين» (٣١٥/٢) ، و«القاموس المحيط» (٦٧٣).

(٦) «المُحاضرات السنينة» في «شرح الواسطية» (١٦٠/١).

(٧) «تفسير السعدي» (٤١٥) ، وهذه المعاني تدل على الصفة الذاتية .

ومتعدية: أنه تعالى يقوي من شاء من عباده، ويُعاقب وينكل من يشاء فيهم، كما قال لموسى عليه السلام: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥]؛ «أي: سنقوي أَمْرَكَ، ونعز جانبك بأخيك، ونجعل لكما حجة قاهرة، فلا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما»^(١).

وكما شدد الله سبحانه ملك داود عليه السلام ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ أي: قويناه بما أعطيناه من الأسباب وكثرة العدد والعدد التي بها قوى الله ملكه^(٢).

فالله تبارك وتعالى هو الشديد الذي لا أشد منه سبحانه، فهو (شديد العقاب) و(شديد العذاب)، و(شديد البأس، والتنكيل).

ومن شدته سبحانه: أنه لا أحد «أشد نكاية في عدوه، من أهل الكفر به، منهم فيك يا محمد وفي أصحابك»^(٣)، كما قال: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾ [النساء: ٨٤]، وجاء باسم التفضيل الذي يمنع المشاركة في الرتبة، لدلالته على أعلى الوصف^(٤) في حق تعالى.

وهو تعالى شديد العقاب والمؤاخذه، كما وصف بذلك نفسه: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

يقول العلامة ابن عثيمين رحمه الله في تفسير الآية: «من باب إضافة الصفة إلى الموصوف، مثل أن نقول: الوجه، يعني: ذو الوجه الحسن، فهو صفة مشبهة، وقوله تعالى: ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾؛ أي: شديد المؤاخذه، قوي الجزاء للعقوبة، وشدة العقاب من كمال المعاقب، وبسط قوته، وسلطانه، ولا يوصف الله تبارك وتعالى إلا بالكمال...»^(٥).

ويقول رحمه الله: «إثبات صفة شدة العقاب لله ﷻ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [آل عمران: ١١]^(٦).

(١) «تفسير ابن كثير» (٥٢٩/٣) ..

(٢) «تفسير السعدي» (٧١١)، والمعاني التي تقدمت تدل على الصفة الفعلية.

(٣) «تفسير الطبري» (٥١٧/٢).

(٤) «تفسير سورة النساء» لابن عثيمين (٢٣٠/١).

(٥) «تفسير سورة البقرة» (٤١١/٢).

(٦) «تفسير سورة آل عمران» (٤١١/٢)، وقال ابن القيم: «شدة عقابه من صفات الأفعال...، وهذا جزاؤه للمذنبين» بدائع الفوائد (١٩٠/١).



(٧) صفة الكمال (الصّدق) الجليّة



﴿الْكِتَابُ الْحَكِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: ٩٥] ^(١).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، صَدَّقَهُ رَبُّهُ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، وَأَنَا أَكْبَرُ...» ^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ﴾: الصدق: ضد الكذب، ويدلُّ على قوة في الشيء قولاً وغيره. والصدق: مطابقة الخبر للمخبر عنه في نفس الأمر، وفي اعتقاد المخبر. والصدق بفتح الصاد: الكامل من كل شيء، وهو الجامع للأوصاف المحمودة ^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: يوصف ربُّنا العظيم ﷻ بصفة الصدق الجليّة، فهو الصادق على الإطلاق الذي لا أصدق منه تعالى، فهو الصادق في وعده، ووعيده، وحديثه، الصادق في جميع ما يخبر به، فهو تعالى وعد المُطِيعِينَ بِأَنْ يُثَبِّتَهُمْ، ووعد السَّائِلِينَ أَنْ يُجِيبَهُمْ، فكل ما وعد سبحانه عباده به، فهو آتٍ كما وعد ^(٤)، لا يتخلف، ولا يتغيّر، ولا يزول، ولا يحول، كما هو، مطابق كما هو عليه، فهو تعالى الصادق في كل شيء في الدنيا، الأخرى ^(٥).



(٨) صفة الكمال (ذو المعارج) الجليّة



﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ [المعارج: ٢-٣]

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ﴾: ذو: بمعنى صاحب. المعارج: عرج في الدرجة والسلم يعرج عُروجا؛ أي: ارتقى، والجمع: معارج. والمعراج: السُّلَم، ومنه ليلة المعراج. وعرج الشيء فهو عريج: ارتفع وعلا ^(٦).

(١) وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال عز شأنه: ﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

(٢) «صحيح الترمذي» (٣٤٣٠). وحديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً فقالوا: (يا رسول الله! صدّق الله حديثك)، صحيح البخاري (٣٩٦٧). وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً: «... صدّق الله، وكذب بطن أخيك». صحيح البخاري (٥٦٨٤)، ومسلم (٢٢١٧).

(٣) «عمدة الحفاظ» (٣٢٦/٢)، و«اللسان» (٢٤١٧/٤).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوى» (٢١٨/١)، و«شأن الدعاء» (١٠٢)، واشتقاق أسماء الله (١٦٨).

(٥) تضمن الصدق على صفة الذات: أنه سبحانه يستحيل في حقه أن يكون خلاف ذلك، كالكذب، وإخلاف الوعد، فهو موصوف بذلك على الدوام، فلا يكون في حال دون حال، وعلى الفعل: أنه يصدق من يشاء من عباده.

(٦) «عمدة الحفاظ» (٤٨/٣)، و«اللسان» (٢٨٦٩/٤)، و«الصالح» (٦٨٦)، و«القاموس المحيط» (٨٥٣).

قال ابن عباس رضي الله عنه: ﴿مَنْكَ اللَّهُ ذِي الْمَعَارِجِ﴾؛ أي: «الْعُلُوُّ، والفواضل»^(١)، وقال قتادة رحمه الله: «ذي الفواضل والنعم»^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: وصف رَبُّنَا تعالى نفسه بأنه ذو المعارج؛ أي: الموصوف بالعلو، والدرجات الفواضل^(٣)، والآيادي الكريمة، والإنعام الدائم.

(١) فهو تعالى ذو المعارج أي: في العلو الأعلى الذي لا أعلى منه، فهو سبحانه فوق كلّ الورى، على العرش استوى.

(٢) وهو تعالى «الذي يتولى المنازل، ويصرف الأمور على المراتب، وينزل المأمورين على المقادير»^(٤).

(٣) وهو سبحانه الذي يصعد إليه الملائكة، الموكلون بأعمال العباد، وإليه يصعد بأرواح المؤمنين^(٥).

فالمعارج: طرق الملائكة والروح عليه السلام، فإذا كان منهم صعود كان فيهم عروج، ولهم أيضاً تنزل، قال الله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]، وقال: ﴿نَزَّلَ الْمَلَكُ وَالرُّوحُ﴾ [القدر: ٤]^(٦).

(٤) وهو سبحانه: صاحب الخيرات، والآلاء الحسان، والأنعام العظام، التي تدرّ على كل الأنام، في الليل والنهار، وفي السرّ والجهر.

﴿٩﴾ صفة الكمال (الإدراك) الجليلة

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْبَصَرُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْبَصَرَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «من صَلَّى الصبح فهو في ذمة الله، فلا يطلبنكم الله

(١) «تفسير الطبري» (٤٤/٢٩).

(٢) «التفسير الصحيح» (٥٣٢/٤).

(٣) «الأسنى» (٢٠٩).

(٤) المصدر السابق.

(٥) الحجة في بيان المحجة (١٦٤/١)، و«شأن الدعاء» (١٠٤).

(٦) «الأسنى» (٢٠٩).

من ذمته بشيء، فإنه من يطلبه من ذمته شيء ثم يدركه، ثم يكبه على وجهه في نار جهنم»^(١).

❁ المَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الإدراك: اللقوق، وهو بلوغ أقصى الشيء، وأدركه ببصره، أي: رآه، ويقال: فرس درك الطريدة: إذا كانت لا تفوته طريدة، وأدرك الصبي: بلغ غاية الصبا، وذلك حين البلوغ، والدَّرَك: التبعة^(٢).

❁ المَعْنَى فِي الشَّرْع: وصف ربُّنا الجليل نفسه بأنه يدرك جميع الأبصار^(٣)، أي: يحيط بها ويبلغ كنهها، والمعنى: أنه جلَّ جلاله يرى جميع الخلائق العلوية والسفلية، فلا يخفى عليه شيء منها إلا ويراه ويعلمه على ما هي عليه، فهو سبحانه قد أحاط ببصره بجميع المبصرات، صغارها وكبارها^(٤).

وفي الحديث المتقدم. وفيه: «من صَلَّى الصبح فهو في ذمة الله...» تقدّم شرحه عند الصفة الكريمة (الذمة) وقوله: «فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه» أي: يلحق به فلا يفوته ولا يهرب منه.

والمعنى: "فلا ينبغي لأحد أن يتعرض له"^(٥) بضر أو أذى، فمن فعل ذلك فالله يطلبه بحقه^(٦)، ومن يطلبه سبحانه لم يجد مفراً ولا ملجأ، وقوله: «ثم يكبه على وجهه في نار جهنم»، أي: يقبله فيها على وجهه^(٧)، والعياذ بالله.

❁ (١٠) صفة الكمال (الطيب) الجليلة ❁

❁ السُّنَّة النَّبَوِيَّةُ: ١ - قال رسول الله ﷺ: «الله طيب، بل أنت رجل^(٨) رفيق، طيبها الذي خلقها»^(٩).

(١) مسلم (٦٥٧).

(٢) «المفردات» (٣١١)، و«مقاييس اللغة» (٢٨٩)، و«مختار الصحاح» (١٢٠).

(٣) إدراك الأبصار من أوصاف الذات، لأنه لا يتعلق بمشيئته ولا في وقت دون وقت، فهو موصوف بذلك على الدوام في الأزل، والحال، وفي الاستقبال.

(٤) انظر: «تفسير ابن كثير» (٢٢٢/٢)، و«تفسير القرطبي» (٥٢/٤)، و«فتح البيان» لصديق خان (٤١٨/٢)، و«تفسير السعدي» (٢٦٨).

(٥) أي المصلي.

(٦) وهذا المعنى يتعلق بمشيئته وقدرته، وكل وصف تعلق بالمشيئة فهو من أوصاف الأفعال، لأنه مرتبط بسبب كما تقدم.

(٧) «المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم» (٢٢٦/٢).

(٨) هو أبو رثمة رضي الله عنه.

(٩) رواه أحمد في المسند (١٧٥٢٧)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» (٤٢٠٧)، في «السلسلة الصحيحة» (١٥٣٧).

٢ - وحديث عائشة رضي الله عنها قالت: (ثم مرض رسول الله ﷺ، فوضعتُ يدي على صدره فقلت: أذهب البأس، ربَّ الناس، أنت الطبيب، وأنت الشافي...). وفي رواية عنها: (أنها كانت تمسحُ صدرَ النبي ﷺ وتقول: اكشف البأس، رب الناس، أنت الطبيب، وأنت الشافي، فيقول النبي ﷺ: «ألحمني بالرَّفيق الأعلى»^(١)).

✽ المَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الطب: هو العلم بالشيء، الحاذق بعلمه، يقال: رجل طبَّ وطبيب؛ أي: عالم حاذق. والطبُّ أيضاً: الرفق، والطبيب: الرَّفِيقُ^(٢).

✽ المَعْنَى فِي الشَّرْع: وصف نَبِيِّنا ﷺ رَبَّنَا ﷺ بأنه هو المنفرد بالطب بكل أجناسه، وأنواعه، وحقائقه، وقد جاء هذا الوصف كما تقدم بالسنة القولية: «الله الطبيب».

وجاء عنه ﷺ بالسنة التقريرية في قول أمِّنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (أنت الطبيب)، وقولها: (أنت) بضمير الفصل، والذي يفيد كما هو معلوم: الحصر، والاختصاص؛ والقصر أي: أنه تعالى هو الذي تفرَّد بهذا الوصف الجليل، الذي ليس له فيه نظير ولا عديل، «لأنَّ المُعالِجَ لِلْمَرِيضِ مِنَ الْآدَمِيِّينَ، وَإِنْ كَانَ حَازِقًا مُتَقَدِّمًا فِي صِنَاعَتِهِ، فَإِنَّهُ قَدْ لَا يُحِيطُ عِلْمًا بِنَفْسِ الدَّاءِ، وَلِئِنْ عَرَفَهُ وَمَيَّزَهُ فَلَا يَعْرِفُ مِقْدَارَهُ، وَلَا مِقْدَارَ مَا اسْتَوْلَى عَلَيْهِ مِنْ بَدَنِ الْعَلِيلِ، وَقُوَّتِهِ، وَلَا يَقْدُمُ عَلَى مُعَالَجَتِهِ إِلَّا مُتَظَنِّيًا عَامِلًا بِالْأَغْلَبِ مِنْ رَأْيِهِ، وَفَهْمِهِ، لِأَنَّ مَنَزَلَتَهُ فِي عِلْمِ الدَّوَاءِ، كَمَنَزَلَتِهِ الَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي عِلْمِ الدَّاءِ، فَهُوَ لِذَلِكَ رُبَّمَا يُصِيبُ، وَرُبَّمَا يُخْطِئُ، وَرُبَّمَا يَزِيدُ فَيَغْلُو، وَرُبَّمَا يَنْقُصُ فَيَكْبُوءُ...»

فأما الطبيب: فهو العالم بحقيقة الداء والدواء، والقادر على الصحة، والشفاء، وليس بهذه الصفة إلا الخالق البارئ المصور^(٣).

وربنا ﷺ هو العالم بِجَمِيعِ العلل، والأمراض، والأسقام، وأسباب العلاج، لأنه سبحانه خالق كل شيء، ومنها: الأسباب، والمسببات، فيدخل في ذلك: الداء، والدواء، فهو سبحانه طبيبُ الأبدان، والقلوب، والأرواح.

* * *

(١) رواه أحمد (٢٤٧٧٤)، وقال شعيب الأرناؤوط: «إسناده صحيح على شرط البخاري» (٢٩١/٤١).

(٢) «لسان العرب» (٥٣٣/١)، و«معجم مقاييس اللغة» (٤٠٧/٣)، و«النهاية» (٥٥٧).

(٣) «الأسماء والصفات» لليهقي (٣١١/١).



(١١) صفة الكمال (النَّظَر) الجليلة



﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩] (١).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» (٢).

﴿الْمَعْنَى فِي اللَّغَةِ﴾: النظر: قلب البصر، والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وله عدة استعمالات بحسب صلاته وتعيده بنفسه، فإن عدي بنفسه، فمعناه: التوقف والانتظار (٣)، وإن عدي بـ(في)، فمعناه: التفكير والاعتبار (٤)، وإن عدي بـ(إلى) فمعناه: المعاينة بالأبصار (٥) (٦)، والذي يثبت في حقه جلّ جلاله الأخير، أي: النظر بعينه سبحانه، لأنه تعالى عداه بـ(إلى) كما تقدم.

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: «امتدح الله ﷻ من الرؤية والنظر إلى خلقه، ودعا عباده إلى مدحه بذلك» (٧) لأنها من أوصافه الكمال العلا التي لا تشبه أحداً من الورى، لأنه سبحانه «لا يحجب عن بصره شيء ما، تحت الأرضين السبع، ولا فوق السموات السبع» (٨) (٩).

وهو تعالى لا ينظر إلى بعض خلقه ممن اتصف بأفعال ذميمة، وخصال شنيعة كما تقدم «والمقصود بالنظر المنفي هنا: نظر خاصّ يتضمن الإحسان، والرحمة» (١٠) (١١)، لا نظر رؤية، لأنه تعالى لا يغيب عن نظره شيء مهما دقّ أو جلّ.

(١) وقال عز شأنه: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران: ٧٧].

(٢) مسلم (٢٥٦٤). وقال ﷺ: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرّ إزاره بطراً» البخاري (٥٧٨٨)، ومسلم (٢٠٨٧).

(٣) قال تعالى: ﴿انظُرُوا نَفْسٍ مِن نُّفُسِكُمْ﴾ [الحديد: ١٣].

(٤) كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

(٥) قال سبحانه: ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ﴾ [الأنعام: ٩٩].

(٦) انظر: «المفردات» (٨١٢) و«شرح الطحاوية» (١٩٠)، وانظر: «الإبانة» (٦٥)، و«حادي الأرواح» (٣٣٧).

(٧) «التوحيد» لابن منده (٤٩٧).

(٨) «طريق الهجرتين» (٢٣٤).

(٩) وهذا المعنى الجليل يدل على اتصافه بصفة الذات.

(١٠) «شرح كتاب التوحيد» للعلامة عبد الله الغنيمان (٤٩١/٢).

(١١) وهذا المعنى من صفات الفعل لأنه يتعلق بمشيئته سبحانه.

﴿١٢﴾ صفة الكمال (المُحصي) الجليلة

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال رب العالمين: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [يس: ١٢] ^(١).

﴿السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ﴾: قال ﷺ لأسماء بنت الصديق رضي الله عنها: «أنفقي ولا تحصي، فيحصى الله عليك...» ^(٢).

﴿الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ﴾: الإحصاء: العدّ، والحفظ، والإحصاء: الإحاطة بجميع المعلومات وتفصيلها على السواء، مع حفظ ما يزيد فيها، وينقص، وحفظ أحوالها في الوجود والعدم وسائر تغيراتها ^(٣).

﴿الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ﴾: الله تبارك وتعالى هو المحصي: الذي أحصى كل شيء بعلمه، فلا يفوته دقيق، ولا يعجزه جليل، ولا يشغله شيء عما سواه سبحانه ^(٤).

فهو سبحانه العالم بمقادير الحوادث، ما يحيط به منها علوم العباد، وما لا يحيط به منها علومهم، كالأنفاس، والأرزاق، والطاعات، والمعاصي، وعدد القطر، والرمل، والحصي، والنبات، وأوصاف الحيوان، والموات، وعامة الموجودات، وما يبقى منها، أو يضمحل ويفنى ^(٥) ^(٦).

وهو الذي يحصي بمن أحصى، جزاءً عدلاً حقاً في مقابلة فاعله، أي: أنه تعالى يمنع ويمحق البركة لمن شحّ ومنع النفقة ^(٧) ^(٨).

﴿١٣﴾ صفة الكمال (الجلال) الجليلة

﴿الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ﴾: قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿١﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢﴾﴾ [الرحمن: ٢٧] ^(٩).

(١) وقال جلّ جلاله: ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مریم: ٩٤]. وقال سبحانه: ﴿وَأَحْصَى كُلُّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨].

(٢) البخاري (١٤٣٣) (٢٥٩١)، ومسلم (١٠٢٩). الحديث القدسي الذي فيه: «يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم». مسلم (٢٥٧٧).

(٣) «القاموس المحيط» (٢٩٦)، و«النهاية» (٢١٣) و«الأسنى» (٣٢٦).

(٤) «شأن الدعاء» (٧٩).

(٥) «المنهاج» (١٩٨/١).

(٦) وهذه المعاني الجلال تدل على وصف الذات.

(٧) انظر الصفة المقيدة (الوعي) (٢٩٨).

(٨) وهذه المعاني تدل على وصف الفعل.

(٩) وقال سبحانه: ﴿بَرَكَةُ اسْمِ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

﴿ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: في حديث الشفاعة الطويل، يقول ربُّ العالمين: «... وعِزَّتِي، وَجَلَالِي، وَكِبْرِيَايَ، وَعَظَمَتِي، لِأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(١).

﴿ الْمَعْنَى فِي اللُّغَةِ: جَلَّ الشَّيْءُ: عَظُمَ، وَجُلَّةٌ: عَظُمَهُ، وَجَلالُ اللَّهِ: عَظَمَتُهُ، وَيُقَالُ: جَلَّ جَلالُهُ؛ أَي: عَظُمَ قَدْرُهُ، فَهُوَ جَلِيلٌ، وَالْجَلالُ بِغَيْرِ الْهَاءِ: التَّنَاهِي فِي ذَلِكَ، وَخُصَّ بِوصفِ اللَّهِ تَعَالَى وَلَمْ يُسْتَعْمَلْ فِي غَيْرِهِ^(٢).

﴿ الْمَعْنَى فِي الشَّرْعِ: اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الْجَلِيلُ الَّذِي لَا أَجَلَ مِنْهُ فِي الْوُجُودِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، فَهُوَ تَعَالَى: الْمَوْصُوفُ بِنُعُوتِ الْجَلالِ، وَهِيَ صِفَاتُ الْكَمالِ، الْحَاوِي لِمَجْمُوعِهَا عَلَى الدَّوامِ، ثَابِتَةٌ مُحَقَّقَةٌ لَهُ، لَا يَفُوتُهُ مِنْهَا وَصْفُ جَلالِ، وَكَمالِ^(٣)، عَلَى الدَّوامِ.

فَهُوَ سَبْحانَهُ عَظِيمُ الشَّانِ وَالْمِقْدَارِ، فَهُوَ الْجَلِيلُ الَّذِي يَصْغُرُ دُونَهُ كُلُّ جَلِيلٍ، وَيَتَضَعُ مَعَهُ كُلُّ رَفِيعٍ، وَهُوَ سَبْحانَهُ بَيْنَ الْجَلالَةِ، وَالْجَلالِ^(٤)، لِكُلِّ ذِي لُبٍّ وَعَقْلٍ^(٥).

﴿ (١٤) صفة الكمال (الرُّؤْيَا) الجَلِيلَةِ ﴾

﴿ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ: قَالَ جَلَّ جَلالُهُ: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]^(٦).

﴿ السُّنَّةُ النَّبَوِيَّةُ: حَدِيثُ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ الْمَشْهُورُ فِيهِ: «... قَالَ: مَا الْإِحْسانُ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ، فَإِنَّهُ يَرَاكَ...»^(٧).

(١) البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (٨٧٣). وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلالِي؟ الْيَوْمَ أُظْلِمُ فِي ظِلِّي، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي»، مسلم (٢٥٦٦). وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَجَلَ سُلْطَانُ اللَّهِ، أَجَلَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٠٢٥)، وحسنه الألباني (٤٧٨)، وفي «السلسلة الصحيحة» (٢٢٩٧)، وفي «صحيح الجامع» (٥٩٥١). وقال ﷺ: «إِنْ مِنْ إِجْلالِ اللَّهِ ثَلَاثَةٌ: إِمَامٌ عَادِلٌ، وَذُو الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلُ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَلَا الْجَافِي عَنْهُ». صحيح أبي داود (٤٨٤٣).

(٢) «المفردات» (١٩٨)، و«معجم مقاييس اللغة» (٤١٧)، و«شأن الدعاء» (٧٠).

(٣) «النهاية» (١٦١).

(٤) «شأن الدعاء» (٧٠، ٩١)، و«تفسير أسماء الله» (٥٠).

(٥) تضمن ما سبق من معاني الجلال في حقِّ ربنا، وهي أوصاف العظمة، والكمال العلا على صفة: الذات، وعلى الفعل: أنه يجلُّ من يشاء من خلقه، أي: يعظم ويعلي شأنه كما تقدم من الأحاديث والله أعلم.

(٦) وقال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ حَسَرَتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٧]. وقال سبحانه: ﴿وَقُلْ أَعْمَلُوا فَيَسِيرَ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٩٤]، وقال عزَّ شأنه: ﴿فَدَرَى نَقْلًا وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

(٧) البخاري (٥٠)، ومسلم (٩). وقول أنس بن النضر في غزوة أحد: (لئن أشهدني الله قتال المشركين، ليرين الله ما أصنع). البخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣) بلفظ (ليراني الله).

❁ المَعْنَى فِي اللُّغَةِ: الرؤية: إدراك المرئي، وذلك بأضرب بحسب قوى النفس. (منها): بالحاسة وما يجري مجراها، والرؤية تأتي بمعنى العلم، نحو قوله تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [سبأ: ٦]، وقوله سبحانه: ﴿يَمَّا آرَبَتْكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، أي: بما علمت وعرفك^(١).

❁ المَعْنَى فِي الشَّرْع: الرؤية صفة ذاتية لربنا إن تعلق معناها: بالرؤية البصرية التي تليق به سبحانه، وكذلك بمعنى العلم فكلاهما من أوصاف الذات التي لا تنفك عنه سبحانه بأي حال، وتكون فعلية إن تعلق المعنى: أنه سبحانه يُري عباده ما شاء من أعمال، أو أقوال، أو مشاهد، أو غير ذلك من أمور وأحوال، كقوله: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وكقوله جلّ في علاه: ﴿سَرُّبِهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].



الفهرس

- ٦٥٩ (١٠) صفة (العَيْنَيْن)
- ٦٦١ (١١ - ١٢) صفتا (الحُجْزَة) و(الحَقُّوْ)
- ٦٦٣ (١٣) صفة (الْمَنْكِبُ)
- ٦٦٣ (١٤) صفة (الصُّوْرَة)
- ٦٦٤ (١٥) صفة (الإِحَاطَة)
- ٦٦٥ (١٦) صفة (البَقَاء)
- ٦٦٦ (١٧) صفة (الْفَوْقِيَّة)
- ٦٦٧ (١٨) صفة (رُؤْيَة الله)
- ٦٦٩ (١٩) صفة (السُّلْطَان)
- ٦٧٠ (٢٠) صفة (السَّاعِد)
- ٦٧١ (٢١) صفة (الوَاجِد)
- ٦٧٣ القسم الثاني: الصفات الفعلية
- ٦٧٣ القواعد والضوابط
- ٦٧٨ أقسام الصِّفَاتِ الفِعْلِيَّة
- ٦٧٨ الصفات الفعلية المطلقة
- ٦٧٨ القواعد
- ٦٨٠ (١) صفة (الاسْتِوَاءُ عَلَى الْعَرْشِ)
- ٦٨٢ عظم العرش وحملته
- (٢) صفة (النُّزُولُ، وَالْهُبُوطُ، وَالتَّدَلِّي)
- ٦٨٣ إلى السماء الدنيا
- ٦٨٤ أنواع النزول الإلهي
- ٦٨٦ فوائد مهمة في صفة النزول
- ٦٢٥ خطة البحث
- ٦٢٦ معنى الصفات لغة واصطلاحاً
- القواعد والأصول العامة في صفات الله
- ٦٢٦ سبحانه
- ٦٤٢ «ذاتُ الله» سبحانه
- ٦٤٣ العلاقة بين الصفات والذات
- ٦٤٤ الصفات الثبوتية
- ٦٤٤ القواعد والضوابط
- ٦٤٧ القسم الأول: الصفات الذاتية
- ٦٤٧ (١) صفة (الْوَجْه)
- ٦٤٨ حجاب وجهه
- النَّظَرُ إِلَى وجهه الله تبارك وتعالى هو
- ٦٤٩ أعظم وأعلى نعيم في الجنان
- ٦٥٠ (٢) صفة (الْيَدَانِ)
- ٦٥١ الأشياء التي خلقها الله بيده
- ٦٥٢ (٣) صفة (الْيَمِينِ)
- ٦٥٢ كلتا يدي رَبَّنَا تعالى يمين مباركة
- ٦٥٣ (٤) صفة (الْكَفِّ)
- ٦٥٤ (٥) صفة (الْأَصَابِعِ)
- ٦٥٥ (٦) صفة (الْأَنَامِلِ)
- ٦٥٦ (٧) صفة (الْإِبْهَامِ وَالْخِنْصِرِ)
- ٦٥٨ (٨) صفة (الْقَدَمِ وَالرَّجْلِ)
- ٦٥٩ (٩) صفة (السَّاقِ)

- (٢٢) صفة (الغَلَبَة) ٧١٦
- (٢٣) صفة (اسْتِطَابَةُ الرِّوَايَحِ) ٧١٧
- (٢٤) صفة (الصَّبْر) ٧١٨
- (٢٥) صفة (الحَثْو) ٧١٩
- (٢٦ - ٢٧) صفتا (الإِرَادَة وَالْمَشِيئَة) ٧٢٠
- (٢٨) صفة (الرُّشْدُ) ٧٢٢
- (٢٩) صفة (الطِّي) ٧٢٣
- (٣٠) صفة (الْحَنَان) ٧٢٤
- (٣١) صفة (السَّرْعَة) ٧٢٥
- (٣٢) صفة (الْوَقَايَة) ٧٢٧
- (٣٣ - ٣٤) صفتا (الرَّفْع وَالْخَفْضُ) ٧٢٨
- (٣٥) صفة (المَسْح) ٧٣٠
- (٣٦) صفة (الأَدْنُ) «بمعنى الاستماع» ٧٣٠
- (٣٧) صفة (الدَّفْع) ٧٣١
- (٣٨) صفة (الصَّلَاة) «بمعنى الثناء» ٧٣٥
- (٣٩) صفة (التَزْكِيَة) ٧٣٦
- (٤٠) صفة (المُعَايَة) ٧٣٧
- (٤١) صفة (الهَادِي) ٧٣٨
- (٤٢) صفة (المُغِيث) ٧٤٠
- (٤٣) صفة (الْفَاطِر) ٧٤١
- (٤٤) صفة (الْكِتَابَة وَالْخَطُّ) ٧٤٢
- (٤٥) صفة (التَّشْرِيعُ) ٧٤٣
- (٤٦) صفة (الفِعْلُ ، وَالْعَمَلُ) ٧٤٥
- (٤٧) صفة (ذُو الْفَضْلِ) ٧٤٦
- (٤٨) صفة (الْمَنْعُ) ٧٤٨

- صفات (المَحَبَّةُ، الرِّضَا، الْفَرَحُ،
الضَّحِكُ، وَالْعُجْبُ، وَالْبُسْبُشَةُ) ٦٨٩
- (٣) صفة (المَحَبَّةُ) ٦٩٠
- (٤) صفة (الْخُلَّةُ) ٦٩٢
- (٥) صفة (الرِّضَا) ٦٩٢
- رضى الرب هو أعظم ما يُدركه المؤمنون
في جنات النعيم ٦٩٣
- (٦) صفة (الْفَرَحُ) ٦٩٤
- (٧) صفة (الضَّحِكُ) ٦٩٥
- (٨) صفة (العُجْبُ) ٦٩٨
- (٩) صفة (البُسْبُشَةُ) ٧٠٠
- صفات (الغَضَبُ، والأسَفُ، والسُّخْطُ،
والغَيْظُ) ٧٠١
- (١٠) صفة (الغَضَبُ) ٧٠٢
- (١١) صفة (الأسَفُ) ٧٠٤
- (١٢) صفة (السُّخْطُ) ٧٠٥
- (١٣) صفة (الغَيْظُ) ٧٠٦
- صفات (الْكُرْهُ، والبُغْضُ، والمَقْتُ،
والعَتَبُ) ٧٠٧
- (١٤) صفة (الْكُرْهُ) ٧٠٧
- (١٥) صفة (البُغْضُ) ٧٠٨
- (١٦) صفة (المَقْتُ) ٧٠٩
- (١٧) صفة (العَتَبُ) ٧١٠
- (١٨) صفة (الغَيْرَة) ٧١١
- (١٩ - ٢٠) (الإِثْيَانُ وَالْمَحْيَا) ٧١٣
- (٢١) صفة (الْعَدْلُ) ٧١٥

- (٤٩) صفة (الصُّنْع) ٧٥٠
- (٥٠) صفة (المُسْتَعَان) ٧٥١
- (٥١) صفة (المُسَخَّر) ٧٥٢
- (٥٢) صفة (النَّافِع) ٧٥٤
- (٥٣) صفة (المُؤَلَّف) ٧٥٥
- (٥٤) صفة (الاطِّلاع) ٧٥٧
- (٥٥) صفة (المُقَلَّب) ٧٥٨
- (٥٦) صفة (بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) ٧٦٠
- (٥٧) صفة (المُطَهَّر) ٧٦٠
- (٥٨ - ٥٩) صفتا (المُعَزَّ والمُذَلَّ) ... ٧٦٢
- (٦٠) صفة (البَّاعِثُ) ٧٦٣
- (٦١) صفة (الجَّعَلُ) ٧٦٥
- (٦٢ - ٦٣) صفتا (المُحْيِي والمُمِيتُ) ٧٦٦
- (٦٤) صفة (المُبَاهِي) ٧٦٧
- (٦٥) صفة (الكَفِيلُ) ٧٦٩
- (٦٦) صفة (النَّشْرُ) ٧٧٠
- (٦٧) صفة (الكَنْفُ) ٧٧١
- (٦٨) صفة (الأَمْرُ) ٧٧٢
- (٦٩) صفة (المُثَبِّتُ) ٧٧٤
- (٧٠) صفة (الكَافِي) ٧٧٦
- (٧١) صفة (الزَّارِعُ) ٧٧٨
- (٧٢) صفة (النَّفْسُ والتَّنْفِيسُ) ٧٧٩
- (٧٣) صفة (الْأَخْذُ) ٧٨١
- (٧٤) صفة (الْجَامِعُ) ٧٨٢
- (٧٥) صفة (التَّجَلِّي) ٧٨٥
- (٧٦) صفة (التَّأْيِيدُ) ٧٨٧
- (٧٧) صفة (المُحَدِّثُ) ٧٨٨
- (٧٨) صفة (الذِّمَّةُ) ٧٨٩
- (٧٩) صفة (الْفَرَاغُ مِنَ الشَّيْءِ) ٧٩٠
- (٨٠) صفة (الْوَفْيُ) ٧٩١
- (٨١) صفة (العَزْمُ) ٧٩٢
- (٨٢) صفة (المُخْرِجُ) ٧٩٣
- القسم الثاني من الصفات الفعلية:
- الصفات المقيدة على وجه المثوبة ٧٩٧
- (١) صفة (التَّيْسِيرُ) ٧٩٧
- (٢) صفة (الرَّدُّ) ٧٩٨
- (٣) صفة (المَعْرِفَةُ) ٧٩٩
- (٤) صفة (التَّجَاوُزُ) ٨٠٠
- (٥) صفة (الذِّكْرُ) ٨٠١
- (٦) صفة (الْإِنْفَاقُ) ٨٠٣
- (٧) صفة (الْإِفْسَاحُ) ٨٠٤
- (٨) صفة (الْإِخْلَافُ) ٨٠٥
- (٩) صفة (الْإِبْوَاءُ) ٨٠٦
- (١٠) صفة (الْإِقَالَةُ) ٨٠٧
- (١١) صفة (التَّصْيِيرُ) ٨٠٨
- (١٢) صفة (الصِّدْقُ) ٨٠٩
- (١٣) صفة (الكَفُ) ٨٠٩
- (١٤) صفة (الْوَصْلُ) ٨١٠
- (١٥ - ١٦) الصفتان (التنْفِيسُ والتفْرِيجُ) ٨١١
- القسم الثاني من الصفات الفعلية المقيدة ٢٨٢

- ٨٤١ (٢٣) صفة (المُصْرِف)
- ٨٤٢ (٢٤) صفة (المُبْطِل)
- ٨٤٣ (٢٥) صفة (الْفَضْح)
- ٨٤٤ (٢٦) صفة (الإِبْرَامُ)
- ٨٤٤ (٢٧) صفة (اللَّوِي)
- ٨٤٥ (٢٨) صفة (الإِثْلَاف)
- ٨٤٦ (٢٩) صفة (المانع)
- النوع الثاني: العقوبة من غير جنس الفعل ونوعه
- ٨٤٨ (١) - ٣٠ - صفة (الخِزْي)
- ٨٤٩ (٢) - ٣١ - صفة (الْإِنْتِقَام)
- (٣ - ٤ - ٥) - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤ - صفات
- (١٥٠) (١) - ٣٦ - صفة (الإِهْلَاك)
- (١٥٢) (٢) - ٣٥ - صفة (الاستِدْرَاج)
- (١٥٣) (٧) - ٣٦ - صفة (الإِهْلَاك)
- (١٥٤) (٨) - ٣٧ - صفة (شَدِيدُ الْمِحَالِ)
- (١٥٥) (٩) - ٣٨ - صفة (المُوهِن)
- (١٥٦) (١٠) - ٣٩ - صفة (البَطْش)
- (١٥٧) (١١) - ٤٠ - صفة (الإِضْلال)
- (١٥٩) (١٢) - ٤١ - صفة (التَّزْك)
- (١٦٠) (١٣) - ٤٢ - صفة (اللَّعْن)
- (١٦١) (١٤) - ٤٣ - صفة (المُدْمِدُم)
- (١٦١) (١٥) - ٤٤ - صفة (الْأَخْذُ)
- (١٦٣) (١٦) - ٤٥ - صفة (المُخَالَف)
- (١٦٤) (١٧) - ٤٦ - صفة (الطَّمْسُ)
- (١٦٥) (١٨) - ٤٧ - صفة (الغَوَايَةُ)

- الصفات المقيدة على وجه العقوبة ٢٨٣
- القواعد والضوابط ٨١٣
- النوع الأول: العقوبة من جنس الفعل ونوعه
- ٨١٥ (١) صفة (المَكْر)
- ٨١٥ (٢) صفة (الكَيْد)
- ٨١٦ (٣) صفة (الزَّيغ)
- ٨١٧ (٤) صفة (الخِدَاع)
- ٨١٩ (٥) صفة (الاستِهْزَاء)
- ٨٢٠ (٦) صفة (الإِعْرَاض)
- ٨٢٢ (٧) صفة (العَدَاوة)
- ٨٢٣ (٨) صفة (الوَعْي)
- ٨٢٥ (٩) صفة (الْقَطْع)
- ٨٢٦ (١٠) صفة (النَّسِيَان) «بمعنى التَّزْك» .. ٨٢٧
- ٨٢٩ (١١) صفة (السُّخْرِيَّة)
- ٨٣٠ (١٢) صفة (الإِهَانَة)
- ٨٣١ (١٣) صفة (الِاخْتِجَاب)
- ٨٣٢ (١٤) صفة (الخَذْلَان)
- ٨٣٣ (١٥) صفة (الشَّاق)
- (١٦) صفة (التَّبَع) الطلب، الكشف
- «العورات» ٨٣٥
- (١٨ - ١٩) صفتا (الإِسْمَاع والمُرْءَاة) ٨٣٦
- (١٩) صفة (التَّشْدِيد) ٨٣٧
- (٢٠) صفة (التَّخْوِيف) ٨٣٨
- (٢١) صفة (الضَّار) ٨٣٩
- (٢٢) صفة (التَّفْرِيق) ٨٤٠

٨٧٧ (٦) صفة (الشَّدة)	٨٦٦ (١٩) ٤٨ - صفة (الإِذْلالُ)
٨٧٩ (٧) صفة (الصِّدْق)	٨٦٧ (٢٠) ٤٩ - صفة (التَّقْلِيْبُ)
٨٧٩ (٨) صفة (ذُو المَعَارِج)	القسم الثالث: الصفات المتضمنة لنوعي
٨٨٠ (٩) صفة (الإِذْرَاك)	الصفات الثبوتية ٨٦٩
٨٨١ (١٠) صفة (الطَّيِّب)	(١) صفة (الكَلَام) ٨٦٩
٨٨٣ (١١) صفة (النَّظَر)	(٢) صفة (رَفِيعُ الدَّرَجَات) ٨٧١
٨٨٤ (١٢) صفة (المُحْصِي)	(٣) صفة (الْبَرَكةُ وَالتَّبَارُك) ٨٧٣
٨٨٤ (١٣) صفة (الْجَلَال)	(٤) صفة (النُّور، وَنُورُ السَّمَوَاتِ
٨٨٥ (١٤) صفة (الرُّؤْيَا)	وَالْأَرْضِ) ٨٧٤
٨٨٧ الفهرس	(٥) صفة (المَعِيَّة) ٨٧٥